خلاصة ظلال القرآن

يليه

زاد الرباني من معرفة الله ومحبته

أبو الطيب الحسن

بسم الله والحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله
ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم

فهرس زاد الرباني من معرفة الله ومحبته

يقول الشهيد سيد قطب رحمه الله في تقديمه للظلال:
(الحياة فى ظلال القرآن نعمة . نعمة لا يعرفها إلا من ذاقها . نعمة ترفع العمر وتباركه وتزكيه.

والحمد لله . . لقد منّ على بالحياة فى ظلال القرآن فترة من الزمان ، ذقت فيها من نعمته ما لم أذق قط فى حياتى . ذقت فيها هذه النعمة التى ترفع العمر وتباركه وتزكيه .

لقد عشت أسمع الله - سبحانه - يتحدث إلىّ بهذا القرآن . . أنا العبد القليل الصغير . . أى تكريم للإنسان هذا التكريم العلوى الجليل ؟ أى رفعة للعمر يرفعها هذا التنزيل ؟ أى مقام كريم يتفضل به على الإنسان خالقه الكريم ؟

وعشت - فى ظلال القرآن - أنظر من علو إلى الجاهلية التى تموج فى ا لأرض ، وإلى اهتمامات أهلها الصغيرة الهزيلة . . أنظر إلى تعاجب أهل هذه الجاهلية بما لديهم من معرفة الأطفال ، وتصورات الأطفال ، واهتمامات الأطفال . . كما ينظر الكبير إلى عبث الأطفال ، ومحاولات الأ طفال . ولثغة الأطفال . . وأعجب . . ما بال هذا الناس ؟! ما بالهم يرتكسون فى الحمأة الوبيئة ، ولا يسمعون النداء العلوى الجليل . النداء الذى يرفع العمر ويباركه ويزكيه ؟

عشت أتملى - فى ظلال القرآن - ذلك التصور الكلامل الشامل الرفيع النظيف للوجود . . لغاية الوجود كله ، وغاية الوجود الإنسانى . . وأقيس إليه تصورات الجاهلية التى تعيش فيها البشرية ، فى شرق وغرب ، وفى شمال وجنوب . . وأسأل . . كيف تعيش البشرية فى المستنقع الآ سن ، وفى الدرك الهابط ، وفى الظلام البهيم وعندها ذلك المرتع الزكىّ ، وذلك المرتقى العالى ، وذلك النور الوضيء ؟

وعشت - فى ظلال القرآن - أحس التناسق الجميل بين حركة الإنسان

كما يريدها الله ، وحركة هذا الكون الذى أبدعه الله . . ثم أنظر . . فأرى التخبط الذى تعانيه البشرية فى انحرافها عن السنن الكونية ، والتصادم بين التعاليم الفاسدة الشريرة التى تملى عليها وبين فطرتها التى فطرها الله عليها . وأقول فى نفسى:أى شيطان لئيم هذا الذى يقود خطاها إلى هذا الجحيم ؟ يا حسرة على العباد !!!

وعشت - فى ظلال القرآن - أرى الوجود أكبر بكثير من ظاهره المشهود . . أكبر فى حقيقته ، وأكبر فى تعدد جوانبه . . إنه عالم الغيب والشهادة لا عالم الشهادة وحده . وإنه الدنيا والآخرة ، لا هذه الدنيا وحدها . . والنشأة الإنسانية ممتدة فى شعاب هذا المدى المتطاول كله إنما هو قسط من ذلك النصيب . وما يفوته هنا من الجزاء لا يفوته هناك . فلا ظلم ولا بخس ولا ضياع . على أن المرحلة التى يقطعها على ظهر هذا الكوكب إنما هى رحلة فى كون حى مأنوس ، وعالم صديق ودود . كون ذى روح تتلقى وتستجيب ، وتتجه إلى الخالق الواحد الذى تتجه إليه روح المؤمن فى خشوع: ولله يسجد من فى السماوات والأرض طوعا وكرها وظلالهم بالغدو والآصال . . تسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهن ، وإن من شيء إلا يسبح بحمده . . أى راحة ، وأى سعة وأى أنس ، وأى ثقة يفيضها على القلب هذا التصور الشامل الكامل الفسيح الصحيح ؟

وعشت - فى ظلال القرآن - أرى الإنسان أكرم بكثير من كل تقدير عرفته البشرية من قبل للإنسان ومن بعد . . إنه إنسان بنفخة من روح الله: فإذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين . . وهو بهذه النفخة مستخلف فى الأرض: وإذ قال ربك للملائكة:إنى جاعل فى الأرض خليفة . . ومسخر له كل ما فى الأرض: وسخر لكم ما فى الأرض جميعا . . ولأن الإنسان بهذا القدر من الكرامة والسمو جعل الله الآصرة التى يتجمع عليها البشر هى الآصرة المستمدة من النفخة الإلهية الكريمة . جعلها آصرة العقيدة فى الله . . فعقيدة المؤمن هى وطنه ، وهى قومه ، وهى أهله . . ومن ثم يتجمع البشر عليها وحدها ، لا على

أمثال ما تتجمع عليه البهائم من كلأ ومرعى وقطيع وسياج ! . .

والمؤمن ذو نسب عريق ، ضارب فى شعاب الزمان . إنه واحد من ذلك الموكب الكريم ، الذى يقود خطاه ذلك الرهط الكريم:نوح وإبراهيم وإسماعيل وإسحاق ، ويعقوب ويوسف ، وموسى وعيسى ، ومحمد . . عليهم الصلاة والسلام . . وإن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون . .

هذا الموكب الكريم ، الممتد فى شعاب الزمان من قديم ، يواجه - كما يتجلى فى ظلال القرآن - مواقف متشابهة ، وأزمات متشابهة ، وتجارب متشابهة على تطاول العصور وكرِّ الدهور ، وتغير المكان ، وتعدد الأ قوام . يواجه الضلال والعمى والطغيان والهوى ، والاضطهاد والبغى ، و التهديد والتشريد . ولكنه يمضى فى طريقه ثابت الخطو ، مطمئن الضمير ، واثقا من نصر الله ، متعلقا بالرجاء فيه ، متوقعا فى كل لحظة وعد الله الصادق الأكيد: وقال الذين كفروا لرسلهم لنخرجنكم من أرضنا أو لتعودن فى ملتنا . فأوحى إليهم ربهم لنهلكن الظالمين ، ولنسكننكم الأرض من بعدهم . ذلك لمن خاف مقامى وخاف وعيد . . موقف واحد وتجربة واحدة . وتهديد واحد . ويقين واحد . ووعد واحد للموكب الكريم . . وعاقبة واحدة ينتظرها المؤمنون فى نهاية المطاف . وهم يتلقون الاضطهاد والتهديد والوعيد . . وفى ظلال القرآن تعلمت أنه لا مكان فى هذا الوجود للمصادفة العمياء ، ولا للفلتة العارضة: إنا كل شيء خلقناه بقدر . . وخلق كل شيء فقدره تقديرا . .

وكل أمر لحكمة . ولكن حكمة الغيب العميقة قد لا تتكشف للنظرة الإ نسانية القصيرة: فعسى أن تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيرا كثيرا . . وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم ، وعسى أن تحبوا شيئا وهو شر لكم . والله يعلم وأنتم لا تعلمون . . والأسباب التى تعارف عليها الناس قد تتبعها آثارها وقد لا تتبعها ، والمقدمات التى يراها الناس حتمية قد تعقبها نتائجها وقد لا تعقبها . ذلك أنه ليست الأسباب والمقدمات هى

التى تنشئ الآثار والنتائج ، وإنما هى الإرادة الطليقة التى تنشئ الآثار و النتائج كما تنشئ الأسباب والمقدمات سواء: لا تدرى لعل الله يحدث بعد ذلك أمرا . . وما تشاءون إلا أن يشاء الله . . والمؤمن يأخذ بالأ سباب لأنه مأمور بالأخذ بها . والله هو الذى يقدر آثارها ونتائجها . . والا طمئنان إلى رحمة الله وعدله وإلى حكمته وعلمه هو وحده الملاذ الأمين ، والنجوة من الهواجس والوساوس: الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بِ الفحشاء ، والله يعدكم مغفرة منه وفضلا ، والله واسع عليم . .

ومن ثم عشت - فى ظلال القرآن - هادئ النفس ، مطمئن السريرة ، قرير الضمير . . عشت أرى يد الله فى كل حادث وفى كل أمر . عشت فى كنف الله وفى رعايته . عشت أستشعر إيجابية صفاته تعالى وفاعليتها . . أم من يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ؟ . . وهو القاهر فوق عباده وهو الحكيم الخبير . . والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون . . واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه . . فعال لما يريد . . ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب ، ومن يتوكل على الله فهو حسبه . إن الله بالغ أمره . . ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها . . أليس الله بكاف عبده ويخوفونك بالذين من دونه . . ومن يهن الله فما له من مكرم . . ومن يضلل الله فما له من هاد . . إن الوجود ليس متروكا لقوانين آلية صماء عمياء . فهناك دائما وراء السنن: الإرادة المدبرة ، والمشيئة المطلقة . . والله يخلق ما يشاء ويختار . كذلك تعلمت أن يد الله تعمل . ولكنها تعمل بطريقتها الخاصة ؛ وأنه ليس لنا أن نستعجلها ؛ ولا أن نقترح على الله شيئا . فـ المنهج الإلهى - كما يبدو فى ظلال القرآن - موضوع ليعمل فى كل بيئة ، وفى كل مرحلة من مراحل النشأة الإنسانية ، وفى كل حالة من حالات النفس البشرية الواحدة . . وهو موضوع لهذا الإنسان الذى يعيش فى هذه الأرض ، آخذ فى الاعتبار فطرة هذا الإنسان وطاقاته واستعداداته ، وقوته وضعفه ، وحالاته المتغيرة التى تعتريه . . إن ظنه لا يسوء بهذا الكائن فيحتقر دوره فى الأرض ، أو يهدر قيمته فى صورة من صور

حياته ، سواء وهو فرد أو وهو عضو فى جماعة . كذلك هو لا يهيم مع الخيال فيرفع هذا الكائن فوق قدره وفوق طاقته وفوق مهمته التى أنشأه الله لها يوم أنشأه . . ولا يفترض فى كلتا الحالتين أن مقومات فطرته سطحية تنشأ بقانون أو تكشط بجرّة قلم ! . . الإنسان هو هذا الكائن بعينه . بفطرته وميوله واستعداداته يأخذ المنهج الإلهى بيده ليرتفع به إلى أقصى درجات الكمال المقدر له بحسب تكوينه ووظيفته ، ويحترم ذاته وفطرته ومقوماته ، وهو يقوده فى طريق الكمال الصاعد إلى الله . . ومن ثم فإن المنهج الإلهى موضوع للمدى الطويل - الذى يعلمه خالق هذا الإنسان ومنزل هذا القرآن - ومن ثم لم يكن معتسفا ولا عجولا فى تحقيق غاياته العليا من هذا المنهج . إن المدى أمامه ممتد فسيح ، لا يحده عمر فرد ، ولا تستحثه رغبة فانٍ ، يخشى أن يعجله الموت عن تحقيق غايته البعيدة ؛ كما يقع لأصحاب المذاهب الأرضية الذين يعتسفون الأمر كله فى جيل واحد ، ويتخطون الفطرة المتزنة الخطى لأنهم لا يصبرون على الخطو المتزن ! وفى الطريق العسوف التى يسلكونها تقوم المجازر ، وتسيل الدماء ، وتتحطم القيم ، وتضطرب الأمور . ثم يتحطمون هم فى النهاية وتتحطم مذاهبهم المصطنعة تحت مطارق الفطرة التى لا تصمد لها المذاهب المعتسفة !
فأما الإسلام فيسير هينا لينا مع الفطرة ، يدفعها من هنا ، ويردعها من هناك ، ويقوّمها حين تميل ، ولكنه لا يكسرها ولا يحطِّمها . إنه يصبر عليها صبر العارف البصير الواثق من الغاية المرسومة . . والذى لا يتم فى هذه الجولة يتم فى الجولة الثانية أو الثالثة أو العاشرة أو المائة أو الألف . . فالزمن ممتد ، والغاية واضحة ، والطريق إلى الهدف الكبير طويل ، وكما تنبت الشجرة الباسقة وتضرب بجذورها فى التربة ، وتتطاول فروعها وتتشابك . . كذلك ينبت الإسلام ويمتد فى بطء وعلى هينة وفى طمأنينة . ثم يكون دائما ما يريده الله أن يكون . . والزرعة قد تسقى عليها الرمال ، وقد يأكل بعضها الدود ، وقد يحرقها الظمأ . وقد يغرقها الرى . ولكن الزارع البصير يعلم أنها زرعة للبقاء والنماء ، وأنها ستغالب الآفات كلها على المدى الطويل ؛ فلا يعتسف ولا يقلق ، ولا

يحاول إنضاجها بغير وسائل الفطرة الهادئة المتزنة ، السمحة الودود . . إنه المنهج الإلهى فى الوجود كله . . ولن تجد لسنة الله تبديلا . .

والحق فى منهج الله أصيل فى بناء هذا الوجود . ليس فلتة عابرة ، ولا مصادفة غير مقصودة . . إن الله سبحانه هو الحق . ومن وجوده تعالى يستمد كل موجود وجوده: ذلك بأن الله هو الحق ، وأن ما يدعون من دونه هو الباطل ، وأن الله هو العلى الكبير . . وقد خلق الله هذا الكون بـ الحق لا يتلبس بخلقه الباطل: ما خلق الله ذلك إلا بالحق . . ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك ! والحق هو قوام هذا الوجود فإذا حاد عنه فسد وهلك: ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السماوات والأرض ومن فيهن . . ومن ثم فلا بد للحق أن يظهر ، ولا بد للباطل أن يزهق . . ومهما تكن الظواهر غير هذا فإن مصيرها إلى تكشف صريح: بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق . .

والخير والصلاح والإحسان أصيلة كالحق ، باقية بقاءه فى الأرض: أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها ، فاحتمل السيل زبدا رابيا ، ومما يوقدون عليه فى النار ابتغاء حلية أو متاع ، زبد مثله . كذلك يضرب الله الحق والباطل . فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الأرض . كذلك يضرب الله الأمثال . . . ألم تر كيف ضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها فى السماء ، تؤتى أكلها كل حين بإذن ربها ، ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون . ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار . يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآ خرة . ويضل الله الظالمين ويفعل الله ما يشاء . .

أى طمأنينة ينشئها هذا التصور ؟ وأى سكينة يفيضها على القلب ؟ وأى ثقة فى الحق والخير والصلاح ؟ وأى قوة واستعلاء على الواقع الصغير يسكبها فى الضمير؟

من فترة الحياة - فى ظلال القرآن - وصلت إلى يقين جازم حاسم . .

إنه لا صلاح لهذه الأرض ، ولا راحة لهذه البشرية ، ولا طمأنينة لهذا الإ نسان ، ولا رفعة ولا بركة ولا طهارة ، ولا تناسق مع سنن الكون وفطرة الحياة . . إلا بالرجوع إلى الله . .

والرجوع إلى الله - كما يتجلى فى ظلال القرآن - له صورة واحدة وطريق واحد . . واحد لا سواه . . إنه العودة بالحياة كلها إلى منهج الله الذى رسمه للبشرية فى كتابه الكريم . . إنه تحكيم هذا الكتاب وحده فى حياتها . والتحاكم إليه وحده فى شئونها . وإلا فهو الفساد فى الأ رض ، والشقاوة للناس ، والارتكاس فى الحمأة ، والجاهلية التى تعبد الهوى من دون الله: فإن لم يستجيبوا لك فاعلم أنما يتبعون أهواءهم . ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله ؟ إن الله لا يهدى القوم الظالمين . .

إن الاحتكام إلى منهج الله فى كتابه ليس نافلة ولا تطوعا ولا موضع اختيار ، إنما هو الإيمان . . أو . . فلا إيمان . . وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمرا أن يكون لهم الخيرة من أمرهم . . ثم جعلناك على شريعة من الأمر فاتبعها ولا تتبع أهواء الذين لا يعلمون . إنهم لن يغنوا عنك من الله شيئا ، وإن الظالمين بعضهم أولياء بعض ، و الله ولى المتقين . .

والأمر إذن جد . . إنه أمر العقيدة من أساسها . . ثم هو أمر سعادة هذه البشرية أو شقائها . .

إن هذه البشرية - وهى من صنع الله - لا تفتح مغاليق فطرتها إلا بمفاتيح من صنع الله ؛ ولا تعالج أمراضها وعللها إلا بالدواء الذى يخرج من يده - سبحانه - وقد جعل فى منهجه وحده مفاتيح كل مغلق ، وشفاء كل داء: وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين . . إن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم . . ولكن هذه البشرية لا تريد أن ترد القفل إلى صانعه ، ولا أن تذهب بالمريض إلى مبدعه ، ولا تسلك فى أمر نفسها ، وفى أمر إنسانيتها ، وفى أمر سعادتها أو شقوتها . . ما تعودت

أن تسلكه فى أمر الأجهزة والآلات المادية الزهيدة التى تستخدمها فى حاجاتها اليومية الصغيرة . . وهى تعلم أنها تستدعى لإصلاح الجهاز مهندس المصنع الذى صنع الجهاز . ولكنها لا تطبق هذه القاعدة على الإ نسان نفسه ، فترده إلى المصنع الذى منه خرج ، ولا أن تستفتى المبدع الذى أنشأ هذا الجهاز العجيب ، الجهاز الإنسانى العظيم الكريم الدقيق اللطيف ، الذى لا يعلم مساربه ومداخله إلا الذى أبدعه وأنشأه: إنه عليم بذات الصدور . ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير ؟ . .

ومن هنا جاءت الشقوة للبشرية الضالة . البشرية المسكينة الحائرة ، البشرية التى لن تجد الرشد ، ولن تجد الهدى ، ولن تجد الراحة ، ولن تجد السعادة ، إلا حين ترد الفطرة البشرية إلى صانعها الكبير ، كما ترد الجهاز الزهيد إلى صانعه الصغير !

ولقد كانت تنحية الإسلام عن قيادة البشرية حدثا هائلا فى تاريخها ، ونكبة قاصمة فى حياتها ، نكبة لم تعرف لها البشرية نظيرا فى كل ما ألم بها من نكبات . .

لقد كان الإسلام قد تسلم القيادة بعد ما فسدت الأرض ، وأسنت الحياة ، وتعفنت القيادات ، وذاقت البشرية الويلات من القيادات المتعفنة ؛ و ظهر الفساد فى البر والبحر بما كسبت أيدى الناس . .

تسلم الإسلام القيادة بهذا القرآن ، وبالتصور الجديد الذى جاء به القرآن ، وبالشريعة المستمدة من هذا التصور . . فكان ذلك مولدا جديدا للإ نسان أعظم فى حقيقته من المولد الذى كانت به نشأته . لقد أنشأ هذا القرآن للبشرية تصورا جديدا عن الوجود والحياة والقيم والنظم ؛ كما حقق لها واقعا اجتماعيا فريدا ، كان يعز على خيالها تصوره..مجرد تصور ، قبل أن ينشئه لها القرآن إنشاء . . نعم ! لقد كان هذا الواقع من النظافة والجمال ، والعظمة والارتفاع ، والبساطة واليسر ، والواقعية والإ يجابية ، والتوازن والتناسق . . . بحيث لا يخطر للبشرية على بال ، لولا أن الله أراده لها ، وحققه فى حياتها . . فى ظلال القرآن ، ومنهج القرآن

، وشريعة القرآن . ثم وقعت تلك النكبة القاصمة . ونُحِّىَ الإسلام عن القيادة . نُحِّىَ عنها لتتولاها الجاهلية مرة أخرى ، فى صورة من صورها الكثيرة . صورة التفكير المادى الذى تتعاجب به البشرية اليوم ، كما يتعاجب الأطفال بالثوب المبرقش واللعبة الزاهية الألوان !

إن هناك عصابة من المضللين الخادعين أعداء البشرية . يضعون لها المنهج الإلهى فى كفة والإبداع الإنسانى فى عالم المادة فى الكفة الأ خرى ؛ ثم يقولون لها:اختارى !!! اختارى إما المنهج الإلهى فى الحياة و التخلى عن كل ما أبدعته يد الإنسان فى عالم المادة ، وإما الأخذ بثمار المعرفة الإنسانية والتخلى عن منهج الله !!! وهذا خداع لئيم خبيث . فوضع المسألة ليس هكذا أبدا . . إن المنهج الإلهى ليس عدوا للإبداع الإ نسانى . إنما هو مُنشئ لهذا الإبداع ومُوّجه له الوجهة الصحيحة . . ذلك كى ينهض الإنسان بمقام الخلافة فى الأرض . هذا المقام الذى منحه الله له ، وأقدره عليه ، ووهبه من الطاقات المكنونة ما يكافئ الواجب المفروض عليه فيه ؛ وسخر له من القوانين الكونية ما يعينه على تحقيقه ؛ ونسق بين تكوينه وتكوين هذا الكون ليملك الحياة والعمل وا لإبداع . . على أن يكون الإبداع نفسه عبادة لله ، ووسيلة من وسائل شكره على آلائه العظام ، والتقيد بشرطه فى عقد الخلافة ؛ وهو أن يعمل ويتحرك فى نطاق ما يرضى الله .

فأما أولئك الذين يضعون المنهج الإلهى فى كفة ، والإبداع الإنسانى فى عالم المادة فى الكفة الأخرى . . فهم سيئو النية ، شريرون ، يطاردون البشرية المتعبة الحائرة كلما تعبت من التيه والحيرة والضلال ، وهمت أن تسمع لصوت الحادى الناصح ، وأن تؤوب من المتاهة المهلكة وأن تطمئن إلى كنف الله . . .

وهنالك آخرون لا ينقصهم حسن النية ؛ ولكن ينقصهم الوعى الشامل ، و الإدراك العميق . . هؤلاء يبهرهم ما كشفه الإنسان من القوى والقوانين الطبيعية ، وتروعهم انتصارات الإنسان فى عالم المادة . فيفصل ذلك

البهر وهذه الروعة فى شعورهم بين القوى الطبيعية والقيم الإيمانية ، وعملها وأثرها الواقعى فى الكون وفى واقع الحياة ؛ ويجعلون للقوانين الطبيعية مجالا ، وللقيم الإيمانية مجالا آخر ؛ ويحسبون أن القوانين الطبيعية تسير فى طريقها غير متأثرة بالقيم الإيمانية ، وتعطى نتائجها سواء آمن الناس أم كفروا . اتبعوا منهج الله أم خالفوا عنه . حكموا بشريعة الله أم بأهواء الناس !

هذا وَهْم . . إنه فصل بين نوعين من السنن الإلهية هما فى حقيقتهما غير منفصلين . فهذه القيم الإيمانية هى بعض سنن الله فى الكون ک القوانين الطبيعية سواء بسواء . ونتائجها مرتبطة ومتداخلة ؛ ولا مبرر للفصل بينهما فى حس المؤمن وفى تصوره . . وهذا هو التصور الصحيح الذى ينشئه القرآن فى النفس حين تعيش فى ظلال القرآن . ينشئه وهو يتحدث عن أهل الكتب السابقة وانحرافهم عنها وأثر هذا الا نحراف فى نهاية المطاف: ولو أن أهل الكتاب آمنوا واتقوا لكفرنا عنهم سيئاتهم ولأدخلناهم جنات النعيم . ولو أنهم أقاموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليهم من ربهم لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم . وينشئه وهو يتحدث عن وعد نوح لقومه: فقلت:استغفروا ربكم إنه كان غفارا يرسل السماء عليكم مدرارا ، ويمددكم بأموال وبنين ، ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهارا . . وينشئه وهو يربط بين الواقع النفسى للناس و الواقع الخارجى الذى يفعله الله بهم إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم . .

إن الإيمان بالله ، وعبادته على استقامة ، وإقرار شريعته فى الأرض . . . كلها إنفاذ لسنن الله . وهى سنن ذات فاعلية إيجابية ، نابعة من ذات المنبع الذى تنبثق منه سائر السنن الكونية التى نرى آثارها الواقعية بـ الحس والاختبار .

ولقد تأخذنا فى بعض الأحيان مظاهر خادعة لافتراق السنن الكونية ، حين نرى أن اتباع القوانين الطبيعية يؤدى إلى النجاح مع مخالفة القيم

الإيمانية . . هذا الافتراق قد لا تظهر نتائجه فى أول الطريق ؛ ولكنها تظهر حتما فى نهايته . . وهذا ما وقع للمجتمع الإسلامى نفسه . لقد بدأ خط صعوده من نقطة التقاء القوانين الطبيعية فى حياته مع القيم الإيمانية . وبدأ خط هبوطه من نقطة افتراقهما . وظل يهبط ويهبط كلما انفرجت زاوية الافتراق حتى وصل إلى الحضيض عندما أهمل السنن الطبيعية والقيم الإيمانية جميعا . .

وفى الطرف الآخر تقف الحضارة المادية اليوم . تقف كالطائر الذى يرف بجناح واحد جبار ، بينما جناحه الآخر مهيض ، فيرتقى فى الإبداع المادى بقدر ما يرتكس فى المعنى الإنسانى . ويعانى من القلق والحيرة والأمراض النفسية والعصبية ما يصرخ منه العقلاء هناك . . لولا أنهم لا يهتدون إلى منهج الله وهو وحده العلاج والدواء.

إن شريعة الله للناس هى طرف من قانونه الكلىّ فى الكون . فإنفاذ هذه الشريعة لا بد أن يكون له أثر إيجابى فى التنسيق بين سيرة الناس وسيرة الكون . . والشريعة إن هى إلا ثمرة الإيمان لا تقوم وحدها بغير أصلها الكبير . فهى موضوعة لتنفذ فى مجتمع مسلم ، كما أنها موضوعة لتساهم فى بناء المجتمع المسلم . وهى متكاملة مع التصور الإسلامى كله للوجود الكبير وللوجود الإنسانى ، ومع ما ينشئه هذا التصور من تقوى فى الضمير ، ونظافة فى الشعور ، وضخامة فى الاهتمامات ، ورفعة فى الخلق ، واستقامة فى السلوك . . . وهكذا يبدو التكامل و التناسق بين سنن الله كلها سواء ما نسميه القوانين الطبيعية وما نسميه القيم الإيمانية . . فكلها أطراف من سنة الله الشاملة لهذا الوجود .

والإنسان كذلك قوة من قوى الوجود . وعمله وإرادته ، وإيمانه وصلاحه ، وعبادته ونشاطه . . . . هى كذلك قوى ذات آثار إيجابية فى هذا الوجود وهى مرتبطة بسنة الله الشاملة للوجود . . وكلها تعمل متناسقة ، وتعطى ثمارها كاملة حين تتجمع وتتناسق ، بينما تفسد آثارها وتضطرب وتفسد الحياة معها ، وتنتشر الشقوة بين الناس والتعاسة

حين تفترق وتتصادم: ذلك بأن الله لم يك مغيرا نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم . . فالارتباط قائم وثيق بين عمل الإنسان وشعوره وبين مجريات الأحداث فى نطاق السنة الإلهية الشاملة للجميع . ولا يوحى بتمزيق هذا الارتباط ، ولا يدعو إلى الإخلال بهذا التناسق ، ولا يحول بين الناس وسنة الله الجارية ، إلا عدوٌ للبشرية يطاردها دون الهدى ؛ وينبغى لها أن تطارده ، وتقصيه من طريقها إلى ربها الكريم . .

هذه بعض الخواطر والانطباعات من فترة الحياة فى ظلال القرآن . لعل الله ينفع بها ويهدى . وما تشاءون إلا أن يشاء الله .)

يردد المسلم هذه السورة القصيرة ذات الآيات السبع , سبع عشرة مرة في كل يوم وليلة على الحد الأدنى ; وأكثر من ضعف ذلك إذا هو صلى السنن ; وإلى غير حد إذا هو رغب في أن يقف بين يدي ربه متنفلا , غير الفرائض والسنن . ولا تقوم صلاة بغير هذه السورة لما ورد في الصحيحين عن رسول الله [ص] من حديث عبادة بن الصامت:" لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب " .

إن في هذه السورة من كليات العقيدة الإسلامية , وكليات التصور الإسلامي , وكليات المشاعر والتوجيهات , ما يشير إلى طرف من حكمة اختيارها للتكرار في كل ركعة , وحكمة بطلان كل صلاة لا تذكر فيها ..

* * *

الفاتحة

بسم الله الرحمن الرحيم:1

تبدأ السورة:(بسم الله الرحمن الرحيم).. ومع الخلاف حول البسملة:أهي آية من كل سورة أم هي آية من القرآن تفتتح بها عند القراءة كل سورة , فإن الأرجح أنها آية من سورة الفاتحة , وبها تحتسب آياتها سبعا . وهناك قول بأن المقصود بقوله تعالى:(ولقد آتيناك سبعا من المثاني و القرآن العظيم).. هو سورة الفاتحة بوصفها سبع آيات (من المثاني)لأنها يثنى بها وتكرر في الصلاة .

والبدء باسم الله هو الأدب الذي أوحى الله لنبيه [ص] في أول ما نزل من القرآن باتفاق , وهو قوله تعالى: (اقرأ باسم ربك ...).. وهو الذي يتفق مع قاعدة التصور الإسلامي الكبرى من أن الله (هو الأول والآخر و الظاهر والباطن).. فهو - سبحانه - الموجود الحق الذي يستمد منه كل

موجود وجوده , ويبدأ منه كل مبدوء بدأه . فباسمه إذن يكون كل ابتداء . وباسمه إذن تكون كل حركة وكل اتجاه .

ووصفه - سبحانه - في البدء بالرحمن الرحيم , يستغرق كل معاني الرحمة وحالاتها .. وهو المختص

الْحَمْدُ للّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (2)

وحده باجتماع هاتين الصفتين , كما أنه المختص وحده بصفة الرحمن . فمن الجائز أن يوصف عبد من عباده بأنه رحيم ; ولكن من الممتنع من الناحية الإيمانية أن يوصف عبد من عباده بأنه رحمن . ومن باب أولى أن تجتمع له الصفتان . . ومهما يختلف في معنى الصفتين:أيتهما تدل على مدى أوسع من الرحمة , فهذا الاختلاف ليس مما يعنينا تقصيه في هذه الظلال ; إنما نخلص منه إلى استغراق هاتين الصفتين مجتمعتين لكل معاني الرحمة وحالاتها ومجالاتها .

وإذا كان البدء باسم الله وما ينطوي عليه من توحيد الله وأدب معه يمثل الكلية الأولى في التصور الإسلامي . . فإن استغراق معاني الرحمة وحالاتها ومجالاتها في صفتي الرحمن الرحيم يمثل الكلية الثانية في هذا التصور , ويقرر حقيقة العلاقة بين الله والعباد .

الفاتحة (الحمد لله رب العالمين):2

وعقب البدء باسم الله الرحمن الرحيم يجيء التوجه إلى الله بالحمد ووصفه بالربوبية المطلقة للعالمين:(الحمد لله رب العالمين). .

والحمد لله هو الشعور الذي يفيض به قلب المؤمن بمجرد ذكره لله . . فإن وجوده ابتداء ليس إلا فيضا من فيوضات النعمة الإلهية التي تستجيش الحمد والثناء . وفي كل لمحة وفي كل لحظة وفي كل خطوة تتوالى آلاء الله وتتواكب وتتجمع , وتغمر خلائقه كلها وبخاصة هذا الإ نسان . . ومن ثم كان الحمد لله ابتداء , وكان الحمد لله ختاما قاعدة من

قواعد التصور الإسلامي المباشر: (وهو الله لا إله إلا هو , له الحمد في ا لأولى والآخرة . . ..)

ومع هذا يبلغ من فضل الله - سبحانه - وفيضه على عبده المؤمن , أنه إذا قال:الحمد لله . كتبها له حسنة ترجح كل الموازين . . في سنن ابن ماجه عن ابن عمر - رضي الله عنهما - أن رسول الله [ص] حدثهم أن عبدا من عباد الله قال:" يا رب لك الحمد كما ينبغي لجلال وجهك وعظيم سلطانك " . فعضلت الملكين فلم يدريا كيف يكتبانها . فصعدا إلى الله فقالا:يا ربنا إن عبدا قد قال مقالة لا ندري كيف نكتبها . قال الله - وهو أعلم بما قال عبده -:" وما الذي قال عبدي ? " قالا:يا رب , أنه ق ال:لك الحمد يا رب كما ينبغي لجلال وجهك وعظيم سلطانك . فقال الله لهما:" اكتباها كما قال عبدي حتى يلقاني فأجزيه بها " . .

والتوجه إلى الله بالحمد يمثل شعور المؤمن الذي يستجيشه مجرد ذكره لله - كما أسلفنا - أما شطر الآية الأخير: (رب العالمين)فهو يمثل قاعدة التصور الإسلامي , فالربوبية المطلقة الشاملة هي إحدى كليات العقيدة ا لإسلامية . . والرب هو المالك المتصرف , ويطلق في اللغة على السيد وعلى المتصرف للإصلاح والتربية . . والتصرف للإصلاح والتربية يشمل العالمين - أي جميع الخلائق - والله - سبحانه - لم يخلق الكون ثم يتركه هملا . إنما هو يتصرف فيه بالإصلاح ويرعاه ويربيه . وكل العوالم والخ لائق تحفظ وتتعهد برعاية الله رب العالمين . والصلة بين الخالق والخلا ئق دائمة ممتدة قائمة في كل وقت وفي كل حالة .

والربوبية المطلقة هي مفرق الطريق بين وضوح التوحيد الكامل الشامل , والغبش الذي ينشأ من عدم وضوح هذه الحقيقة بصورتها القاطعة . وكثيرا ما كان الناس يجمعون بين الاعتراف بالله بوصفه الموجد الواحد للكون , والاعتقاد بتعدد الأرباب الذين يتحكمون في الحياة . ولقد يبدو هذا غريبا مضحكا . ولكنه كان وما يزال . ولقد حكى لنا القرآن الكريم عن جماعة من المشركين كانوا يقولون عن أربابهم

المتفرقة: (ما نعبدهم إلاليقربونا إلى الله زلفى). . كما قال عن جماعة من أهل الكتاب: (اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله). . وكانت عقائد الجاهليات السائدة في الأرض كلها يوم جاء الإسلام , تعج بالأرباب المختلفة , بوصفها أربابا صغارا تقوم إلى جانب كبير الآلهة كما يزعمون !

فإطلاق الربوبية في هذه السورة , وشمول هذه الربوبية للعالمين جميعا , هي مفرق الطريق بين النظام والفوضى في العقيدة . لتتجه العوالم كلها إلى رب واحد , تقر له بالسيادة المطلقة , وتنفض عن كاهلها زحمة الأرباب المتفرقة , وعنت الحيرة كذلك بين شتى الأرباب . . ثم ليطمئن ضمير هذه العوالم إلى رعاية الله الدائمة وربوبيته القائمة . وإلى أن هذه الرعاية لا تنقطع أبدا ولا تفتر ولا تغيب , لا كما كان أرقى تصور فلسفي لأرسطو مثلا يقول بأن الله أوجد هذا الكون ثم لم يعد يهتم به , لأن الله أرقى من أن يفكر فيما هو دونه ! فهو لا يفكر إلا في ذاته ! وأرسطو - وهذا تصوره - هو أكبر الفلاسفة , وعقله هو أكبر العقول !

لقد جاء الإسلام وفي العالم ركام من العقائد والتصورات والأساطير و الفلسفات والأوهام والأفكار . . يختلط فيها الحق بالباطل , والصحيح بـ الزائف , والدين بالخرافة , والفلسفة بالأسطورة . . والضمير الإنساني تحت هذا الركام الهائل يتخبط في ظلمات وظنون , ولا يستقر منها على يقين .

وكان التيه الذي لا قرار فيه ولا يقين ولا نور , هو ذلك الذي يحيط بتصور البشرية لإلهها , وصفاته وعلاقته بخلائقه , ونوع الصلة بين الله والإنسان على وجه الخصوص .

ولم يكن مستطاعا أن يستقر الضمير البشري على قرار في أمر هذا الكون , وفي أمر نفسه وفي منهج حياته , قبل أن يستقر على قرار في أمر عقيدته وتصوره لإلهه وصفاته , وقبل أن ينتهي إلى يقين واضح مستقيم في وسط هذا العماء وهذا التيه وهذا الركام الثقيل .

ولا يدرك الإنسان ضرورة هذا الاستقرار حتى يطلع على ضخامة هذا الركام , وحتى يرود هذا التيه من العقائد والتصورات والأساطير و الفلسفات والأوهام والأفكار التي جاء الإسلام فوجدها ترين على الضمير البشري , والتي أشرنا إلى طرف منها فيما تقدم صغير . [وسيجيء في استعراض سور القرآن الكثير منها , مما عالجه القرآن علا جا وافيا شاملا كاملا] .

ومن ثم كانت عناية الإسلام الأولى موجهه إلى تحرير أمر العقيدة , وتحديد التصور الذي يستقر عليه الضمير في أمر الله وصفاته , وعلاقته بالخلائق , وعلاقة الخلائق به على وجه القطع واليقين .

ومن ثم كان التوحيد الكامل الخالص المجرد الشامل , الذي لا تشوبه شائبة من قريب ولا من بعيد . . هو قاعدة التصور التي جاء بها الإسلام , وظل يجلوها في الضمير , ويتتبع فيه كل هاجسة وكل شائبة حول حقيقة التوحيد , حتى يخلصها من كل غبش . ويدعها مكينة راكزة لا يتطرق إليها وهم في صورة من الصور . . كذلك قال الإسلام كلمة الفصل بمثل هذا الوضوح في صفات الله وبخاصة ما يتعلق منها بـ الربوبية المطلقة . فقد كان معظم الركام في ذلك التيه الذي تخبط فيه الفلسفات والعقائد كما تخبط فيه الأوهام والأساطير . . مما يتعلق بهذا ا لأمر الخطير , العظيم الأثر في الضمير الإنساني . وفي السلوك البشري سواء .

والذي يراجع الجهد المتطاول الذي بذله الإسلام لتقرير كلمة الفصل في ذات الله وصفاته وعلاقته بمخلوقاته , هذا الجهد الذي تمثله النصوص القرآنية الكثيرة . . الذي يراجع هذا الجهد المتطاول دون أن يراجع ذلك الركام الثقيل في ذلك التيه الشامل الذي كانت البشرية كلها تهيم فيه . . قد لا يدرك مدى الحاجة إلى كل هذا البيان المؤكد المكرر , وإلى كل هذا التدقيق الذي يتتبع كل مسالك الضمير . . ولكن مراجعة ذلك الركام تكشف

الرّحْم‍ـٰنِ الرّحِيمِ (3) مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ (4)

عن ضرورة ذلك الجهد المتطاول , كما تكشف عن مدى عظمة الدور الذي قامت به هذه العقيدة - وتقوم في تحرير الضمير البشري وإعتاقه ; وإطلاقه من عناء التخبط بين شتى الأرباب وشتى الأوهام والأساطير !

وإن جمال هذه العقيدة وكمالها وتناسقها وبساطة الحقيقة الكبيرة التي تمثلها . . كل هذا لا يتجلى للقلب والعقل كما يتجلى من مراجعة ركام الجاهلية من العقائد والتصورات , والأساطير والفلسفات ! وبخاصة موضوع الحقيقة الإلهية وعلاقتها بالعالم . . عندئذ تبدو العقيدة الإسلامية رحمة . رحمة حقيقية للقلب والعقل , رحمة بما فيها من جمال وبساطة , ووضوح وتناسق , وقرب وأنس , وتجاوب مع الفطرة مباشر عميق .

الفاتحة (الرحمن الرحيم . . . مالك يوم الدين)3 - 4

(الرحمن الرحيم). . هذه الصفة التي تستغرق كل معاني الرحمة وحالاتها ومجالاتها تتكرر هنا في صلب السورة , في آية مستقلة , لتؤكد السمة البارزة في تلك الربوبية الشاملة ; ولتثبت قوائم الصلة الدائمة بين الرب ومربوبيه . وبين الخالق ومخلوقاته . . إنها صلة الرحمة والرعاية التي تستجيش الحمد والثناء . إنها الصلة التي تقوم على الطمأنينة وتنبض بالمودة , فالحمد هو الاستجابة الفطرية للرحمة الندية .

إن الرب الإله في الإسلام لا يطارد عباده مطاردة الخصوم والأعداء كآلهة الأولمب في نزواتها وثوراتها كما تصورها أساطير الإغريق . ولا يدبر لهم المكائد الانتقامية كما تزعم الأساطير المزورة في "العهد القديم" كالذي جاء في أسطورة برج بابل في الإصحاح الحادي عشر من سفر التكوين .

(مالك يوم الدين) . وهذه تمثل الكلية الضخمة العميقة التأثير في

الحياة البشرية كلها كلية الاعتقاد بالآخرة . . والملك أقصى درجات الا ستيلاء والسيطرة . ويوم الدين هو يوم الجزاء في الآخرة . . وكثيرا ما اعتقد الناس بألوهية الله , وخلقه للكون أول مرة ; ولكنهم مع هذا لم يعتقدوا بيوم الجزاء . . والقرآن يقول عن بعض هؤلاء: (ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولن:الله). . ثم يحكي عنهم في موضع آخر: بل عجبوا أن جاءهم منذر منهم فقال الكافرون:هذا شيء عجيب . أئذا متنا وكنا ترابا ? ذلك رجع بعيد !

والاعتقاد بيوم الدين كلية من كليات العقيدة الإسلامية ذات قيمة في تعليق أنظار البشر وقلوبهم بعالم آخر بعد عالم الأرض ; فلا تستبد بهم ضرورات الأرض . وعندئذ يملكون الاستعلاء على هذه الضرورات . ولا يستبد بهم القلق على تحقيق جزاء سعيهم في عمرهم القصير المحدود , وفي مجال الأرض المحصور . وعندئذ يملكون العمل لوجه الله وانتظار الجزاء حيث يقدره الله , في الأرض أو في الدار الآخرة سواء , في طمأنينة لله , وفي ثقة بالخير , وفي إصرار على الحق , وفي سعة وسماحة ويقين . . ومن ثم فإن هذه الكلية تعد مفرق الطريق بين العبودية للنزوات والرغائب , والطلاقة الإنسانية اللائقة ببني الإنسان . بين الخضوع لتصورات الأرض وقيمها وموازينها والتعلق بالقيم الربانية والاستعلاء على منطق الجاهلية . مفرق الطريق بين الإنسانية في حقيقتها العليا التي أرادها الله الرب لعباده , والصور المشوهة المنحرفة التي لم يقدر لها الكمال .

إِيّاكَ نَعْبُدُ وإِيّاكَ نَسْتَعِينُ (5)

وما تستقيم الحياة البشرية على منهج الله الرفيع ما لم تتحقق هذه الكلية في تصور البشر . وما لم تطمئن قلوبهم إلى أن جزاءهم على الأ رض ليس هو نصيبهم الأخير . وما لم يثق الفرد المحدود العمر بأن له حياة أخرى تستحق أن يجاهد لها , وأن يضحي لنصرة الحق والخير

معتمدا على العوض الذي يلقاه فيها . .

وما يستوي المؤمنون بالآخرة والمنكرون لها في شعور ولا خلق ولا سلوك ولا عمل . فهما صنفان مختلفان من الخلق . وطبيعتان متميزتان لا تلتقيان في الأرض في عمل ولا تلتقيان في الآخرة في جزاء . . وهذا هو مفرق الطريق . .

الفاتحة (إياك نعبد وإياك نستعين):5

(إياك نعبد وإياك نستعين) . وهذه هي الكلية الاعتقادية التي تنشأ عن الكليات السابقة في السورة . فلا عبادة إلا لله , ولا استعانة إلا بالله .

وهنا كذلك مفرق طريق . . مفرق طريق بين التحرر المطلق من كل عبودية , وبين العبودية المطلقة للعبيد ! وهذه الكلية تعلن ميلاد التحرر البشري الكامل الشامل . التحرر من عبودية الأوهام . والتحرر من عبودية النظم , والتحرر من عبودية الأوضاع . وإذا كان الله وحده هو الذي يعبد , والله وحده هو الذي يستعان , فقد تخلص الضمير البشري من استذلال النظم والأوضاع والأشخاص , كما تخلص من استذلال الأساطير والأوهام والخرافات . .

وهنا يعرض موقف المسلم من القوى الإنسانية , ومن القوى الطبيعية . .

فأما القوى الإنسانية - بالقياس إلى المسلم - فهي نوعان:قوة مهتدية , تؤمن بالله , وتتبع منهج الله . . . وهذه يجب أن يؤازرها , ويتعاون معها على الخير والحق والصلاح . . وقوة ضالة لا تتصل بالله ولا تتبع منهجه . وهذه يجب أن يحاربها ويكافحها ويغير عليها .

ولا يهولن المسلم أن تكون هذه القوة الضالة ضخمة أو عاتية . فهي بضلالها عن مصدرها الأول - قوة الله - تفقد قوتها الحقيقية . تفقد الغذاء الدائم الذي يحفظ لها طاقتها . وذلك كما ينفصل جرم ضخم من نجم ملتهب , فما يلبث أن ينطفيء ويبرد ويفقد ناره ونوره , مهما كانت

كتلته من الضخامة . على حين تبقى لأية ذرة متصلة بمصدرها المشع قوتها وحرارتها ونورها: (كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله). . غلبتها باتصالها بمصدر القوة الأول , وباستمدادها من النبع الواحد للقوة وللعزة جميعا .

وأما القوى الطبيعية فموقف المسلم منها هو موقف التعرف والصداقة , لا موقف التخوف والعداء . ذلك أن قوة الإنسان وقوة الطبيعة صادرتان عن إرادة الله ومشيئته , محكومتان بإرادة الله ومشيئته , متناسقتان متعاونتان في الحركة والاتجاه .

إن عقيدة المسلم توحي إليه أن الله ربه قد خلق هذه القوى كلها لتكون له صديقا مساعدا متعاونا ; وأن سبيله إلى كسب هذه الصداقة أن يتأمل فيها . ويتعرف إليها , ويتعاون وإياها , ويتجه معها إلى الله ربه وربها . وإذا كانت هذه القوى تؤذيه أحيانا , فإنما تؤذيه لأنه لم يتدبرها ولم يتعرف إليها , ولم يهتد إلى الناموس الذي يسيرها . ولقد درج الغربيون - ورثة الجاهلية الرومانية - على التعبير عن استخدام قوى الطبيعة بقولهم:"قهر الطبيعة " . . ولهذا التعبير دلالته الظاهرة على نظرة الجاهلية المقطوعة الصلة بالله , وبروح الكون المستجيب لله . فأما المسلم الموصول القلب بربه الرحمن الرحيم , الموصول الروح بروح هذا الوجود المسبحة لله رب العالمين .

اهدِنَــــا الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ (6) صِرَاطَ الَّذِينَ أَنعَمتَ عَلَيهِمْ غَيرِ المَغضُوبِ عَلَيهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ (7)

فيؤمن بأن هنالك علاقة أخرى غير علاقة القهر والجفوة . أنه يعتقد أن الله هو مبدع هذه القوى جميعا . خلقها كلها وفق ناموس واحد , لتتعاون على بلوغ الأهداف المقدرة لها بحسب هذا الناموس . وأنه سخرها للإنسان ابتداء ويسر له كشف أسرارها ومعرفة قوانينها . وأن على الإنسان أن يشكر الله كلما هيأ له أن يظفر بمعونة من إحداها . ف

الله هو الذي يسخرها له , وليس هو الذي يقهرها: سخر لكم ما في الأ رض جميعا . .

وإذن فإن الأوهام لن تملأ حسه تجاه قوى الطبيعة ; ولن تقوم بينه وبينها المخاوف . . إنه يؤمن بالله وحده , ويعبد الله وحده , ويستعين بالله وحده . وهذه القوى من خلق ربه . وهو يتأملها ويألفها ويتعرف أسرارها , فتبذل له معونتها , وتكشف له عن أسرارها . فيعيش معها في كون مأنوس صديق ودود . . وما أروع قول الرسول [ص] وهو ينظر إلى جبل أحد:" هذا جبل يحبنا ونحبه " . . ففي هذه الكلمات كل ما يحمله قلب المسلم الأول محمد [ص] من ود وألفة وتجاوب بينه وبين الطبيعة في أضخم وأخشن مجاليها .

:6 - 7 إهدنا الصراط المستقيم . صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين

وبعد تقرير تلك الكليات الأساسية في التصور الإسلامي ; وتقرير الاتجاه إلى الله وحده بالعبادة والاستعانة . . يبدأ في التطبيق العملي لها بـ التوجه إلى الله بالدعاء على صورة كلية تناسب جو السورة وطبيعتها:(اهدنا الصراط المستقيم . صراط الذين أنعمت عليهم , غير المغضوب عليهم ولا الضالين). .

(اهدنا الصراط المستقيم). . وفقنا إلى معرفة الطريق المستقيم الواصل ; ووفقنا للاستقامة عليه بعد معرفته . . فالمعرفة والاستقامة كلتاهما ثمرة لهداية الله ورعايته ورحمته . والتوجه إلى الله في هذا الأ مر هو ثمرة الاعتقاد بأنه وحده المعين . وهذا الأمر هو أعظم وأول ما يطلب المؤمن من ربه العون فيه . فالهداية إلى الطريق المستقيم هي ضمان السعادة في الدنيا والآخرة عن يقين . . وهي في حقيقتها هداية فطرة الإنسان إلى ناموس الله الذي ينسق بين حركة الإنسان وحركة الوجود كله في الاتجاه إلى الله رب العالمين .

ويكشف عن طبيعة هذا الصراط المستقيم:(صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين). . فهو طريق الذين قسم لهم نعمته . لا طريق الذين غضب عليهم لمعرفتهم الحق ثم حيدتهم عنه . أو الذين ضلوا عن الحق فلم يهتدوا أصلا إليه . . إنه صراط السعداء المهتدين الواصلين . . وبعد فهذه هي السورة المختارة للتكرار في كل صلاة , و التي لا تصح بدونها صلاة . وفيها على قصرها تلك الكليات الأساسية في التصور الإسلامي ; وتلك التوجهات الشعورية المنبثقة من ذلك التصور .

وقد ورد في صحيح مسلم من حديث العلاء بن عبد الرحمن مولى الحرقة عن أبيه , عن أبي هريرة عن رسول الله [ص]:" يقول الله تعالى:قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين . فنصفها لي ونصفها لعبدي , ولعبدي ما سأل . . إذا قال العبد:الحمد لله رب العالمين . قال الله:حمدني عبدي . وإذا قال الرحمن الرحيم . قال الله أثني علي عبدي . فإذا قال:مالك يوم الدين . قال الله:مجدني عبدي . وإذا ق ال:إياك نعبد وإياك نستعين . قال:هذا بيني وبين عبدي ولعبدي ما سأل . فإذا قال:اهدنا الصراط المستقيم . صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين . قال:هذا لعبدي ولعبدي ما سأل " . .

ولعل هذا الحديث الصحيح - بعدما تبين من سياق السورة ما تبين - يكشف عن سر من أسرار اختيار السورة ليرددها المؤمن سبع عشرة مرة في كل يوم وليلة ; أو ما شاء الله أن يرددها كلما قام يدعوه في الصلاة .

هذه السورة من أوائل ما نزل من السور بعد الهجرة . وهي أطول سور القرآن على الإطلاق . والمرجح أن آياتها لم تنزل متوالية كلها حتى اكتملت قبل نزول آيات من سور أخرى ; فمراجعة أسباب نزول بعض آياتها وبعض الآيات من السور المدنية الأخرى - وإن تكن هذه الأسباب ليست قطعية الثبوت - تفيد أن السور المدنية الطوال لم تنزل آياتها كلها متوالية ; إنما كان يحدث أن تنزل آيات من سورة لاحقة قبل استكمال سورة سابقة نزلت مقدماتها ; وأن المعول عليه في ترتيب السور من حيث النزول هو سبق نزول أوائلها - لا جميعها - وفي هذه السورة آيات في أواخر ما نزل من القرآن كآيات الربا , في حين أن الراجح أن مقدماتها كانت من أول ما نزل من القرآن في المدينة .

فأما تجميع آيات كل سورة في السورة , وترتيت هذه الآيات , فهو توقيفي موحى به . . روى الترمذي - بإسناده - عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال:قلت لعثمان بن عفان:ما حملكم أن عمدتم إلى الأنفال وهي من المثاني وإلى براءة وهي من المئين , وقرنتم بينهما ولم تكتبوا سطر:بسم الله الرحمن الرحيم , ووضعتموها في السبع الطوال ? وما حملكم على ذلك ? فقال عثمان:كان رسول الله [ص] كان مما يأتي عليه الزمان وهو ينزل عليه السور ذوات العدد ; فكان إذا نزل عليه الشيء دعا بعض من كان يكتب , فيقول:" ضعوا هذه الآية في السورة التي يذكر فيها كذا وكذا " . وكانت الأنفال من أول ما نزل بالمدينة , وكانت براءة من آخر ما نزل من القرآن ; وكانت قصتها شبيهة بقصتها , وخشيت أنها منها ; وقبض رسول الله [ص] ولم يبين لنا أنها منها . فمن أجل ذلك قرنت بينهما , ولم أكتب بينهما سطر:بسم الله الرحمن الرحيم , ووضعتها في السبع الطوال .

فهذه الرواية تبين أن ترتيب الآيات في كل سورة كان بتوقيف من رسول الله [ص] وقد روى الشيخان عن ابن عباس رضي الله عنهما قال

كان النبي [ص] أجود الناس بالخير وكان أجود ما يكون في رمضان حين يلقاه جبريل . وكان جبريل عليه السلام يلقاه كل ليلة في رمضان حتى ينسلخ يعرض عليه النبي [ص] القرآن , وفي رواية فيدارسه القرآن , فإذا لقيه جبريل عليه السلام كان أجود بالخير من الريح المرسلة . ومن الثابت أن رسول الله [ص] وقد قرأ القرآن كله على جبريل - عليه السلام - كما أن جبريل قد قرأه عليه . . ومعنى هذا أنهما قرآه مرتبة آياته في سوره . ومن ثم يلحظ من يعيش في ظلال القرآن أن لكل سورة من سوره شخصية مميزة ! شخصية لها روحيعيش معها القلب كما لو كان يعيش مع روح حي مميز الملامح والسمات والأنفاس ! ولها موضوع رئيسي أو عدة موضوعات رئيسية مشدودة إلى محور خاص . ولها جو خاص يظلل موضوعاتها كلها ; ويجعل سياقها يتناول هذه الموضوعات من جوانب معينة , تحقق التناسق بينها وفق هذا الجو . ولها إيقاع موسيقي خاص - إذا تغير في ثنايا السياق فإنما يتغير لمناسبة موضوعية خاصة . . وهذا طابع عام في سور القرآن جميعا . ولا يشذ عن هذه القاعدة طوال السور كهذه السورة .

2 :ملابسات نزول سورة البقرة:وبدايات الهجرة

هذه السورة تضم عدة موضوعات . ولكن المحور الذي يجمعها كلها محور واحد مزدوج يترابط الخطان الرئيسيان فيه ترابطا شديدا . . فهي من ناحية تدور حول موقف بني إسرائيل من الدعوة الإسلامية في المدينة , واستقبالهم لها , ومواجهتهم لرسولها [ص] وللجماعة المسلمة الناشئة على أساسها . . . وسائر ما يتعلق بهذا الموقف بما فيه تلك العلاقة القوية بين اليهود والمنافقين من جهة , وبين اليهود و المشركين من جهة أخرى . . وهي من الناحية الأخرى تدور حول موقف الجماعة المسلمة في أول نشأتها ; وإعدادها لحمل أمانة الدعوة والخلا فة في الأرض , بعد أن تعلن السورة نكول بني إسرائيل عن حملها , ونقضهم لعهد الله بخصوصها , وتجريدهم من شرف الانتساب الحقيقي لإبراهيم - عليه السلام - صاحب الحنيفية الأولى , وتبصير الجماعة

المسلمة وتحذيرها من العثرات التي سببت تجريد بني إسرائيل من هذا الشرف العظيم . . وكل موضوعات السورة تدور حول هذا المحور المزدوج بخطيه الرئيسيين , كما سيجيء في استعراضها التفصيلي .

ولكي يتضح مدى الارتباط بين محور السورة وموضوعاتها من جهة , وبين خط سير الدعوة أول العهد بالمدينة , وحياة الجماعة المسلمة وملابساتها من الجهة الأخرى . . يحسن أن نلقي ضوءا على مجمل هذه الملابسات التي نزلت آيات السورة لمواجهتها ابتداء . مع التنبيه الدائم إلى أن هذه الملابسات في عمومها هي الملابسات التي ظلت الدعوة الإسلامية وأصحابها يواجهونها - مع اختلاف يسير - على مر العصور وكر الدهور ; من أعدائها وأوليائها على السواء . مما يجعل هذه التوجيهات القرآنية هي دستور هذه الدعوة الخالد ; ويبث في هذه النصوص حياة تتجدد لمواجهة كل عصر وكل طور ; ويرفعها معالم للطريق أمام الأمة المسلمة تهتدي بها في طريقها الطويل الشاق , بين العداوات المتعددة المظاهر المتوحدة الطبيعة . . وهذا هو الإعجاز يتبدى جانب من جوانبه في هذه السمة الثابتة المميزة في كل نص قرآني

لقد تمت هجرة الرسول [ص] إلى المدينة بعد تمهيد ثابت وإعداد محكم . تمت تحت تأثير ظروف حتمت هذه الهجرة ; وجعلتها إجراء ضروريا لسير هذه الدعوة في الخط المرسوم الذي قدره الله لها بتدبيره . . كان موقف قريش العنيد من الدعوة في مكة - وبخاصة بعد وفاة خديجة - رضي الله عنها - وموت أبي طالب كافل النبي وحاميه . . كان هذا الموقف قد انتهى إلى تجميد الدعوة تقريبا في مكة وما حولها . ومع استمرار دخول أفراد في الإسلام على الرغم من جميع الاضطهادات والتدبيرات فإن الدعوة كانت تعتبر قد تجمدت فعلا في مكة وما حولها , بموقف قريش منها , وتحالفهم على حربها بشتى الوسائل , مما جعل بقية العرب تقف موقف التحرز والانتظار , في ارتقاب نتيجة المعركة بين الرسول وعشيرته الأقربين , وعلى رأسهم أبو لهب وعمرو بن هشام وأبو سفيان بن حرب وغيرهم ممن يمتون بصلة القرابة القوية

لصاحب الدعوة . وما كان هناك ما يشجع العرب في بيئة قبلية لعلاقات القرابة عندها وزن كبير , على الدخول في عقيدةرجل تقف منه عشيرته هذا الموقف . وبخاصة أن عشيرته هذه هي التي تقوم بسدانة الكعبة , وهي التي تمثل الناحية الدينية في الجزيرة ! ومن ثم كان بحث الرسول [ص] عن قاعدة أخرى غير مكة , قاعدة تحمي هذه العقيدة وتكفل لها الحرية , ويتاح لها فيها أن تخلص من هذا التجميد الذي انتهت إليه في مكة . حيث تظفر بحرية الدعوة وبحماية المعتنقين لها من الاضطهاد والفتنة . . وهذا في تقديري كان هو السبب الأول والأهم للهجرة .

ولقد سبق الاتجاه إلى يثرب , لتكون قاعدة للدعوة الجديدة , عدة اتجاهات . . سبقها الاتجاه إلى الحبشة , حيث هاجر إليها كثير من المؤمنين الأوائل . والقول بأنهم هاجروا إليها لمجرد النجاة بأنفسهم لا يستند إلى قرائن قوية . فلو كان الأمر كذلك لهاجر إذن أقل الناس جاها وقوة ومنعة من المسلمين . غير أن الأمر كان على الضد من هذا , ف الموالي المستضعفون الذين كان ينصب عليهم معظم الاضطهاد و التعذيب والفتنة لم يهاجروا . إنما هاجر رجال ذوو عصبيات , لهم من عصبيتهم - في بيئة قبلية - ما يعصمهم من الأذى , ويحميهم من الفتنة ; وكان عدد القرشيين يؤلف غالبية المهاجرين , منهم جعفر بن أبي طالب - وأبوه وفتيان بني هاشم معه هم الذين كانوا يحمون النبي [ص] ومنهم الزبير بن العوام , وعبد الرحمن ابن عوف , وأبو سلمة المخزومي , وعثمان بن عفان الأموي . . . . وغيرهم . وهاجرت نساء كذلك من أشرف بيوتات مكة ما كان الأذى لينالهن أبدا . . وربما كان وراء هذه الهجرة أسباب أخرى كإثارة هزة في أوساط البيوت الكبيرة في قريش ; وأبناؤها الكرام المكرمون يهاجرون بعقيدتهم , فرارا من الجاهلية , تاركين وراءهم كل وشائج القربى , في بيئة قبلية تهزها هذه الهجرة على هذا النحو هزا عنيفا ; وبخاصة حين يكون من بين المهاجرين مثل أم حبيبة , بنت أبي سفيان , زعيم الجاهلية , وأكبر

المتصدين لحرب العقيدة الجديدة وصاحبها . . ولكن مثل هذه الأسباب لا ينفي احتمال أن تكون الهجرة إلى الحبشة أحد الاتجاهات المتكررة في البحث عن قاعدة حرة , أو آمنة على الأقل للدعوة الجديدة . وبخاصة حين نضيف إلى هذا الاستنتاج ما ورد عن إسلام نجاشي الحبشة . ذلك الإسلام الذي لم يمنعه من إشهاره نهائيا إلا ثورة البطارقة عليه , كما ورد في روايات صحيحة .

كذلك يبدو اتجاه الرسول [ص] إلى الطائف محاولة أخرى لإيجاد قاعدة حرة أو آمنة على الأقل للدعوة . . وهي محاولة لم تكلل بالنجاح لأن كبراء ثقيف استقبلوا رسول الله [ص] أسوأ استقبال , وسلطوا عليه سفهاءهم وصبيانهم يرجمونه بالحجارة , حتى أدموا قدميه الشريفتين , ولم يتركوه حتى آوى إلى حائط [أي حديقة] لعتبة وشيبة إبني ربيعة . . وهناك انطلق لسانه بذلك الدعاء الخالص العميق:" اللهم أشكو إليك ضعف قوتي , وقلة حيلتي , وهواني على الناس . يا أرحم الراحمين أنت رب المستضعفين وأنت ربي . إلى من تكلني ? إلى عدو ملكته أمري ! أم بعيد يتجهمني ? إن لم يكن بك غضب علي فلا أبالي . ولكن عافيتك أوسع لي . أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت به الظلمات , وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة , أن تنزل بي غضبك , أو تحل علي سخطك . لك العتبى حتى ترضى , ولا حول ولا قوة إلا بك " .

بعد ذلك فتح الله على الرسول [ص] وعلى الدعوة من حيث لا يحتسب , فكانت بيعة العقبة الأولى , ثم بيعة العقبة الثانية . وهما ذواتا صلة قوية بالموضوع الذي نعالجه في مقدمة هذه السورة , وبالملابسات التي وجدت حول الدعوة في المدينة . وقصة ذلك في اختصار:أن النبي [ص] التقى قبل الهجرة إلى يثرب بسنتين بجماعة من الخزرج في موسم الحج , حيث كان يعرض نفسه ودعوته على الوافدين للحج ; ويطلب حاميا يحميه حتى يبلغ دعوة ربه . وكان سكان يثرب من العرب - الأوس والخزرج - يسمعون من اليهود المقيمين معهم , أن هنالك نبيا قد أطل زمانه ; وكانت يهود تستفتح به على العرب , أي تطلب أن يفتح

لهم على يديه , وأن يكون معهم على كل من عداهم . فلما سمع وفد الخزرج دعوة النبي [ص] قال بعضهم لبعض:تعلمن والله إنه للنبي الذي توعدكم به يهود , فلا تسبقنكم إليه . . وأجابوه لما دعاهم . وقالوا له:إننا قد تركنا قومنا ولا قوم بينهم من العداوة والشر ما بينهم . فعسى الله أن يجمعهم بك . . ولما عادوا إلى قومهم , وعرضوا الأمر عليهم , ارتاحوا له , ووافقوا عليه .

فلما كان العام التالي وافى الموسم جماعة من الأوس والخزرج , فالتقوا بالنبي [ص] وبايعوه على الإسلام . وقد أرسل معهم من يعلمهم أمر دينهم .

وفي الموسم التالي وفد عليه جماعة كبيرة من الأوس والخزرج كذلك , فطلبوا أن يبايعوه , وتمت البيعة بحضور العباس عم النبي [ص] على أن يمنعوه مما يمنعون منه أنفسهم وأموالهم . وتسمى هذه البيعة الثانية بيعة العقبة الكبرى . . ومما وردت به الروايات في هذه البيعة ما قاله محمد بن كعب القرظي:قال عبد الله بن رواحة - رضي الله عنه - لرسول الله [ص] يعني ليلة العقبة:اشترط لربك ولنفسك ما شئت . فقال:" اشترط لربي أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئا ; واشترط لنفسي أن تمنعوني مما تمنعون منه أنفسكم وأموالكم " . قال:فما لنا إذا فعلنا ذلك ? قال:" الجنة " . قالوا:ربح البيع ولا نقيل ولا نستقبل !

وهكذا أخذوا الأمر بقوة . . ومن ثم فشا الإسلام في المدينة , حتى لم يبق فيها بيت لم يدخله الإسلام . وأخذ المسلمون في مكة يهاجرون إلى المدينة تباعا , تاركين وراءهم كل شيء , ناجين بعقيدتهم وحدها , حيث لقوا من إخوانهم الذين تبوأوا الدار والإيمان من قبلهم , من الإيثار والإخاء ما لم تعرف له الإنسانية نظيرا قط . ثم هاجر رسول الله [ص] وصاحبه الصديق . هاجر إلى القاعدة الحرة القوية الآمنة التي بحث عنها من قبل طويلا . . وقامت الدولة الإسلامية في هذه القاعدة منذ اليوم الأول لهجرة الرسول [ص] .

3: الخط الأول في السورة:كشف عداوة اليهود للدعوة الإسلامية وهو إلى نهاية الجزء الأول

من أولئك السابقين من المهاجرين والأنصار تكونت طبقة ممتازة من المسلمين نوه القرآن بها في مواضع كثيرة . وهنا نجد السورة تفتتح بتقرير مقومات الإيمان , وهي تمثل صفة المؤمنين الصادقين إطلاقا . ولكنها أولا تصف ذلك الفريق من المسلمين الذي كان قائما بالمدينة حينذاك: الم ذلك الكتاب لا ريب فيه , هدى للمتقين , الذين يؤمنون بـ الغيب , ويقيمون الصلاة , ومما رزقناهم ينفقون . والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك , وبالآخرة هم يوقنون . أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون . .

ثم نجد بعدها مباشرة في السياق وصفا للكفار ; وهو يمثل مقومات الكفر على الإطلاق . ولكنه أولا وصف مباشر للكفار الذين كانت الدعوة تواجههم حينذاك , سواء في مكة أو فيما حول المدينة ذاتها من طوائف الكفار:(إن الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون . ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم , وعلى أبصارهم غشاوة , ولهم عذاب عظيم). .

كذلك كانت هناك طائفة المنافقين . ووجود هذه الطائفة نشأ مباشرة من الأوضاع التي أنشأتها الهجرة النبوية إلى المدينة في ظروفها التي تمت فيها , والتي أشرنا إليها من قبل ; ولم يكن لها وجود بمكة . فالإسلام في مكة لم تكن له دولة ولم تكن له قوة , بل لم تكن له عصبة يخشاها أهل مكة فينافقونها . على الضد من ذلك كان الإسلام مضطهدا , وكانت الدعوة مطاردة , وكان الذين يغامرون بالانضمام إلى الصف الإسلامي هم المخلصون في عقيدتهم , الذين يؤثرونها على كل شيء ويحتملون في سبيلها كل شيء . فأما في يثرب التي أصبحت منذ اليوم تعرف باسم المدينة - أي مدينة الرسول - فقد أصبح الإسلام قوة يحسب حسابها كل أحد ; ويضطر لمصانعتها كثيرا أو قليلا - وبخاصة بعد غزوة

بدر وانتصار المسلمين فيها انتصارا عظيما - وفي مقدمة من كان مضطرا لمصانعتها نفر من الكبراء , دخل أهلهم وشيعتهم في الإسلام وأصبحوا هم ولا بد لهم لكي يحتفظوا بمقامهم الموروث بينهم وبمصالحهم كذلك أن يتظاهروا باعتناق الدين الذي اعتنقه أهلهم وأشياعهم . ومن هؤلاء عبد الله بن أبي بن سلول الذي كان قومه ينظمون له الخرز ليتوجوه ملكا عليهم قبيل مقدم الإسلام على المدينة .
.

وسنجد في أول السورة وصفا مطولا لهؤلاء المنافقين , ندرك من بعض فقراته أن المعني بهم في الغالب هم أولئك الكبراء الذين أرغموا على التظاهر بالإسلام , ولم ينسوا بعد ترفعهم على جماهير الناس , وتسمية هذه الجماهير بالسفهاء على طريقة العلية المتكبرين !: ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين . يخادعون الله والذين آمنوا , وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون . في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضا ; ولهم عذاب أليم بما كانوا يكذبون . وإذا قيل لهم:لا تفسدوا في الأرض قالوا:إنما نحن مصلحون . ألا إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون . وإذا قيل لهم:آمنوا كما آمن الناس قالوا:أنؤمن كما آمن السفهاء ? ألا إنهم هم السفهاء ولكن لا يعلمون . وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا:آمنا , وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا:إنا معكم إنما نحن مستهزؤون . الله يستهزئ بهم ويمدهم في طغيانهم يعمهون . أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم , وما كانوا مهتدين . مثلهم كمثل الذي استوقد نارا فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم , وتركهم في ظلمات لا يبصرون . صم بكم عمي فهم لا يرجعون . أو كصيب من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق , يجعلون أصابعهم في آذانهم من الصواعق حذر الموت , والله محيط بالكافرين . يكاد البرق يخطف أبصارهم كلما أضاء لهم مشوا فيه , وإذا أظلم عليهم قاموا , ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم , إن الله على كل شيء قدير . .

وفي ثنايا هذه الحملة على المنافقين - الذين في قلوبهم مرض - نجد

إشارة إلى(شياطينهم). والظاهر من سياق السورة ومن سياق الأحداث في السيرة أنها تعني اليهود , الذين تضمنت السورة حملات شديدة عليهم فيما بعد . أما قصتهم مع الدعوة فنلخصها في هذه السطور القليلة:

لقد كان اليهود هم أول من اصطدم بالدعوة في المدينة ; وكان لهذا الا صطدام أسبابه الكثيرة . . كان لليهود في يثرب مركز ممتاز بسبب أنهم أهل كتاب بين الأميين من العرب - الأوس والخزرج - ومع أن مشركي العرب لم يظهروا ميلا لاعتناق ديانة أهل الكتاب هؤلاء , إلا أنهم كانوا يعدونهم أعلم منهم وأحكم بسبب ما لديهم من كتاب . ثم كان هنالك ظرف موات لليهود فيما بين الأوس والخزرج من فرقة وخصام - وهي البيئة التي يجد اليهود دائما لهم فيها عملا ! - فلما أن جاء الإسلام سلبهم هذه المزايا جميعا . . فلقد جاء بكتاب مصدق لما بين يديه من الكتاب ومهيمن عليه . ثم إنه أزال الفرقة التي كانوا ينفذون من خلالها للدس والكيد وجر المغانم , ووحد الصف الإسلامي الذي ضم الأوس و الخزرج , وقد أصبحوا منذ اليوميعرفون بالأنصار , إلى المهاجرين , وألف منهم جميعا ذلك المجتمع المسلم المتضام المتراص الذي لم تعهد له البشرية من قبل ولا من بعد نظيرا على الإطلاق .

ولقد كان اليهود يزعمون أنهم شعب الله المختار , وأن فيهم الرسالة و الكتاب . فكانوا يتطلعون أن يكون الرسول الأخير فيهم كما توقعوا دائما . فلما أن جاء من العرب ظلوا يتوقعون أن يعتبرهم خارج نطاق دعوته , وأن يقصر الدعوة على الأميين من العرب ! فلما وجدوه يدعوهم - أول من يدعو - إلى كتاب الله , بحكم أنهم أعرف به من المشركين , وأجدر بالاستجابة له من المشركين . . أخذتهم العزة بالإثم , وعدوا توجيه الدعوة إليهم إهانة واستطالة !

ثم إنهم حسدوا النبي [ص] حسدا شديدا . حسدوه مرتين:مرة لأن الله اختاره وأنزل عليه الكتاب - وهم لم يكونوا يشكون في صحته -

وحسدوه لما لقيه من نجاح سريع شامل في محيط المدينة .

على أنه كان هناك سبب آخر لحنقهم ولموقفهم من الإسلام موقف العداء والهجوم منذ الأيام الأولى:ذلك هو شعورهم بالخطر من عزلهم عن المجتمع المدني الذي كانوا يزاولون فيه القيادة العقلية والتجارة الرابحة والربا المضعف ! هذا أو يستجيبوا للدعوة الجديدة . ويذوبوا في المجتمع الإسلامي . وهما أمران - في تقديرهم - أحلاهما مر !

لهذا كله وقف اليهود من الدعوة الإسلامية هذا الموقف الذي تصفه سورة البقرة , [وسور غيرها كثيرة] في تفصيل دقيق , نقتطف هنا بعض الآيات التي تشير إليه . . جاء في مقدمة الحديث عن بني إسرائيل هذ النداء العلوي لهم:(يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم وأوفوا بعهدي أوف بعهدكم وإياي فارهبون . وآمنوا بما أنزلت مصدقا لما معكم . ولا تكونوا أول كافر به , ولا تشتروا بآياتي ثمنا قليلا , وإياي فاتقون . ولا تلبسوا الحق بالباطل وتكتموا الحق وأنتم تعلمون . وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واركعوا مع الراكعين . أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم ? وأنتم تتلون الكتاب ? أفلا تعقلون ?). . وبعد تذكيرهم طويلا بمواقفهم مع نبيهم موسى - عليه السلام - وجحودهم لنعم الله عليهم , وفسوقهم عن كتابهم وشريعتهم . . ونكثهم لعهد الله معهم . . جاء في سياق الخطاب لتحذير المسلمين منهم:(أفتطمعون أن يؤمنوا لكم وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون ? وإذا لقوا الذين آمنوا ق الوا:آمنا , وإذا خلا بعضهم إلى بعض قالوا:أتحدثونهم بما فتح الله عليكم ليحاجوكم به عند ربكم ? أفلا تعقلون ?). .(وقالوا:لن تمسنا النار إلا أياما معدودة . قل:أتخذتم عند الله عهدا فلن يخلف الله عهده ? أم تقولون على الله ما لا تعلمون ?). .(ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به , فلعنة الله على الكافرين). . . (وإذا قيل لهم:آمنوا بما أنزل الله . قالوا:نؤمن بما أنزل علينا , ويكفرون بما وراءه

وهو الحق مصدقا لما معهم). . .(ولما جاءهم رسول من عند الله مصدق لما معهم نبذ فريق من الذين أوتوا الكتاب كتاب الله وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون). . . (ما يود الذين كفروا من أهل الكتاب ولا المشركين أن ينزل عليكم من خير من ربكم). . . (ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفارا حسدا من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق). . . (وقالوا:لن يدخل الجنة إلا من كان هودا أو نصارى . تلك أمانيهم). . . (ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم). . . الخ الخ .

وكانت معجزة القرآن الخالدة أن صفتهم التي دمغهم بها هي الصفة الملا زمة لهم في كل أجيالهم من قبلالإسلام ومن بعده إلى يومنا هذا . مما جعل القرآن يخاطبهم - في عهد النبي [ص] كما لو كانوا هم أنفسهم الذين كانوا على عهد موسى - عليه السلام - وعلى عهود خلفائه من أنبيائهم باعتبارهم جبلة واحدة . سماتهم هي هي , ودورهم هو هو , وموقفهم من الحق والخلق موقفهم على مدار الزمان ! ومن ثم يكثر الا لتفات في السياق من خطاب قوم موسى , إلى خطاب اليهود في المدينة , إلى خطاب أجيال بين هذين الجيلين . ومن ثم تبقى كلمات القرآن حية كأنما تواجه موقف الأمة المسلمة اليوم وموقف اليهود منها . وتتحدث عن استقبال يهود لهذه العقيدة ولهذه الدعوة اليوم وغدا كما استقبلتها بالأمس تماما ! وكأن هذه الكلمات الخالدة هي التنبيه الحاضر والتحذير الدائم للأمة المسلمة , تجاه أعدائها الذين واجهوا أسلافها بما يواجهونها اليوم به من دس وكيد , وحرب منوعة المظاهر , متحدة الحقيقة !

4 - الخط الثاني في السورة:أسس بناء الجماعة المسلمة وإعدادها للخ لافة وهو من بداية الجزء الثاني

وهذه السورة التي تضمنت هذا الوصف , وهذا التنبيه , وهذا التحذير , تضمنت كذلك بناء الجماعة المسلمة وإعدادها لحمل أمانة العقيدة في ا

لأرض بعد نكول بني إسرائيل عن حملها قديما , ووقوفهم في وجهها هذه الوقفة أخيرا . .

تبدأ السورة - كما أسلفنا - بوصف تلك الطوائف التي كانت تواجه الدعوة أول العهد بالهجرة - بما في ذلك تلك الإشارة إلى الشياطين اليهود الذين يرد ذكرهم فيما بعد مطولا - وتلك الطوائف هي التي تواجه هذه الدعوة على مدار التاريخ بعد ذلك . ثم تمضي السورة على محورها بخطيه الأساسيين إلى نهايتها . في وحدة ملحوظة , تمثل الشخصية الخاصة للسورة , مع تعدد الموضوعات التي تتناولها وتنوعها .

فبعد استعراض النماذج الثلاثة الأولى:المتقين . والكافرين . والمنافقين . وبعد الإشارة الضمنية لليهود الشياطين . . نجد دعوة للناس جميعا إلى عبادة الله والإيمان بالكتاب المنزل على عبده . وتحدي المرتابين فيه أن يأتوا بسورة من مثله . وتهديد الكافرين بالنار وتبشير المؤمنين بالجنة . . ثم نجد التعجيب من أمر الذين يكفرون بالله:(كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتا فأحياكم , ثم يميتكم ثم يحييكم , ثم إليه ترجعون ! هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعا , ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سماوات , وهو بكل شيء عليم). .

وعند هذا المقطع الذي يشير إلى خلق ما في الأرض جميعا للناس تجيء قصة استخلاف آدم في الأرض: (وإذ قال ربك للملائكة:إني جاعل في ا لأرض خليفة) . وتمضي القصة تصف المعركة الخالدة بين آدم و الشيطان حتى تنتهي بعهد الاستخلاف - وهو عهد الإيمان -:(قلنا:اهبطوا منها جميعا فإما يأتينكم مني هدى , فمن تبع هداي فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون . والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون). .

بعد هذا يبدأ السياق جولة واسعة طويلة مع بني إسرائيل - أشرنا إلى فقرات منها فيما سبق - تتخللها دعوتهم للدخول في دين الله وما أنزله

الله مصدقا لما معهم مع تذكيرهم بعثراتهم وخطاياهم والتوائهم وتلبيسهم منذ أيام موسى - عليه السلام - وتستغرق هذه الجولة كل هذا الجزء الأول من السورة .

ومن خلال هذه الجولة ترتسم صورة واضحة لاستقبال بني إسرائيل للإ سلام ورسوله وكتابه . . لقد كانوا أول كافر به . وكانوا يلبسون الحق بـ الباطل . وكانوا يأمرون الناس بالبر - وهو الإيمان - وينسون أنفسهم . وكانوا يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه . وكانوا يخادعون الذين آمنوا باظهار الإيمان وإذا خلا بعضهم إلى بعض حذر بعضهم بعضا من إطلاع المسلمين على ما يعلمونه من أمر النبي وصحة رسالته ! وكانوا يريدونإن يردوا المسلمين كفارا . وكانوا يدعون من أجل هذا أن المهتدين هم اليهود وحدهم - كما كان النصارى يدعون هذا أيضا - وكانوا يعلنون عداءهم لجبريل - عليه السلام - بما أنه هو الذي حمل الوحي إلى محمد دونهم ! وكانوا يكرهون كل خير للمسلمين ويتربصون بهم السوء . وكانوا ينتهزون كل فرصة للتشكيك في صحة الأوامر النبوية ومجيئها من عند الله تعالى - كما فعلوا عند تحويل القبلة - وكانوا مصدر إيحاء وتوجيه للمنافقين . كما كانوا مصدر تشجيع للمشركين .

ومن ثم تتضمن السورة حملة قوية على أفاعيلهم هذه ; وتذكرهم بمواقفهم المماثلة من نبيهم موسى - عليه السلام - ومن شرائعهم وأنبيائهم على مدار أجيالهم . وتخاطبهم في هذا كأنهم جيل واحد متصل , وجبلة واحدة لا تتغير ولا تتبدل .

وتنتهي هذه الحملة بتيئيس المسلمين من الطمع في إيمانهم لهم , وهم على هذه الجبلة الملتوية القصد , المؤوفة الطبع . كما تنتهي بفصل الخطاب في دعواهم أنهم وحدهم المهتدون , بما أنهم ورثة إبراهيم . وتبين أن ورثة إبراهيم الحقيقيين هم الذين يمضون على سنته , ويتقيدون بعهده مع ربه ; وأن وراثة إبراهيم قد انتهت إذن إلى محمد

[ص] والمؤمنين به , بعد ما انحرف اليهود وبدلوا ونكلوا عن حمل أمانة العقيدة , والخلافة في الأرض بمنهج الله ; ونهض بهذا الأمر محمد والذين معه . وأن هذا كان استجابة لدعوة إبراهيم وإسماعيل - عليهما السلام - وهما يرفعان القواعد من البيت:(ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك , وأرنا مناسكنا , وتب علينا , إنك أنت التواب الرحيم . ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك , ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم , إنك أنت العزيز الحكيم).

وعند هذا الحد يبدأ سياق السورة يتجه إلى النبي [ص] وإلى الجماعة المسلمة من حوله ; حيث يأخذ في وضع الأسس التي تقوم عليها حياة هذا الجماعة المستخلفة على دعوة الله في الأرض , وفي تمييز هذه الجماعة بطابع خاص , وبمنهج في التصور وفي الحياة خاص .

ويبدأ في هذا بتعيين القبلة التي تتجه إليها هذه الجماعة . وهي البيت المحرم الذي عهد الله لإبراهيم وإسماعيل أن يقيماه ويطهراه ليعبد فيه الله وحده , هذه القبلة التي كان النبي [ص] يرغب ولا يصرح في الا تجاه إليها: (قد نرى تقلب وجهك في السماء , فلنولينك قبلة ترضاها فول وجهك شطر المسجد الحرام , وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره). .

ثم تمضي السورة في بيان المنهج الرباني لهذه الجماعة المسلمة . منهج التصور والعبادة , ومنهج السلوك والمعاملة , تبين لها أن الذين يقتلون في سبيل الله ليسوا أمواتا بل أحياء . وأن الإصابة بالخوف والجوع ونقص الأموال والأنفس والثمرات ليس شرا يراد بها , إنما هو ابتلاء , ينال الصابرون عليه صلوات الله ورحمته وهداه . وأن الشيطان يعد الناس الفقر ويأمرهم بالفحشاء والله يعدهم مغفرة منه وفضلا . وأن الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور , والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات . . وتبين لهم بعض الحلال و الحرام في المطاعم والمشارب . وتبين لهم حقيقة البر لا مظاهره

وأشكاله . وتبين لهم أحكام القصاص في القتلى . وأحكام الوصية . وأحكام الصوم . وأحكام الجهاد . وأحكام الحج . وأحكام الزواج والطلا ق مع التوسع في دستور الأسرة بصفة خاصة . وأحكام الصدقة وأحكام الربا . وأحكام الدين والتجارة . . .

وفي مناسبات معينة يرجع السياق إلى الحديث عن بني إسرائيل من بعد موسى . وعن حلقات من قصةإبراهيم . ولكن جسم السورة - بعد الجزء الأول منها - ينصرف إلى بناء الجماعة المسلمة , وإعدادها لحمل أمانة العقيدة , والخلافة في الأرض بمنهج الله وشريعته . وتمييزها بتصورها الخاص للوجود , وارتباطها بربها الذي اختارها لحمل هذه الأ مانة الكبرى .

وفي النهاية نرى ختام السورة ينعطف على افتتاحها , فيبين طبيعة التصور الإيماني , وإيمان الأمة المسلمة بالأنبياء كلهم , وبالكتب كلها وبالغيب وما وراءه , مع السمع والطاعة: آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون , كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله , لا نفرق بين أحد من رسله , وقالوا:سمعنا وأطعنا , غفرانك ربنا وإليك المصير . لا يكلف الله نفسا إلا وسعها , لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت , ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا , ربنا ولا تحمل علينا إصرا كما حملته على الذين من قبلنا , ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به , واعف عنا واغفر لنا , وارحمنا , أنت مولانا , فانصرنا على القوم الكافرين . .

سورة آل عمران

هذا القرآن هو كتاب هذه الدعوة . هو روحها وباعثها . وهو قوامها وكيانها . وهو حارسها وراعيها . وهو بيانها وترجمانها . وهو دستورها ومنهجها . وهو في النهاية المرجع الذي تستمد منه الدعوة - كما يستمد منه الدعاة - وسائل العمل , ومناهج الحركة , وزاد الطريق . .

ولكن ستظل هنالك فجوة عميقة بيننا وبين القرآن ما لم نتمثل في حسنا , ونستحضر في تصورنا أن هذا القرآن خوطبت به أمة حية , ذات وجود حقيقي ; ووجهت به أحداث واقعية في حياة هذه الأمة ; ووجهت به حياة إنسانية حقيقية في هذه الأرض ; وأديرت به معركة ضخمة في داخل النفس البشرية وفي رقعة من الأرض كذلك . معركة تموج بالتطورات والانفعالات والاستجابات .

وسيظل هنالك حاجز سميك بين قلوبنا وبين القرآن , طالما نحن نتلوه أو نسمعه كأنه مجرد تراتيل تعبدية مهومة , لا علاقة لها بواقعيات الحياة البشرية اليومية التي تواجه هذا الخلق المسمى بالإنسان , والتي تواجه هذه الأمة المسماة بالمسلمين ! بينما هذه الآيات نزلت لتواجه نفوسا ووقائع وأحداثا حية , ذات كينونة واقعية حية ; ووجهت بالفعل تلك النفوس والوقائع والأحداث توجيها واقعيا حيا , نشأ عنه وجود , ذو خصائص في حياة "الإنسان" بصفة عامة , وفي حياة الأمة المسلمة بوجه خاص .

ومعجزة القرآن البارزة تكمن في أنه نزل لمواجهة واقع معين في حياة أمة معينة , في فترة من فترات التاريخ محددة , وخاض بهذه الأمة معركة كبرى حولت تاريخها وتاريخ البشرية كله معها , ولكنه - مع هذا - يعايش ويواجه ويملك أن يوجه الحياة الحاضرة , وكأنما هو يتنزل اللحظة لمواجهة الجماعة المسلمة في شؤونها الجارية , وفي صراعها الراهن مع الجاهلية من حولها , وفي معركتها كذلك في داخل النفس , وفي عالم الضمير , بنفس الحيوية , ونفس الواقعية التي كانت له هناك يومذاك .

ولكي نحصل نحن من القرآن على قوته الفاعلة , وندرك حقيقة ما فيه من الحيوية الكامنة , ونتلقى منه التوجيه المدخر للجماعة المسلمة في كل جيل . . ينبغي أن نستحضر في تصورنا كينونة الجماعة المسلمة الأولى التي خوطبت بهذا القرآن أول مرة . . كينونتها وهي تتحرك في

واقع الحياة , وتواجه الأحداث في المدينة وفي الجزيرة العربية كلها ; وتتعامل مع أعدائها وأصدقائها ; وتتصارع مع شهواتها وأهوائها ; ويتنزل القرآنحينئذ ليواجه هذا كله , ويوجه خطاها في أرض المعركة الكبيرة:مع نفسها التي بين جنبيها , ومع أعدائها المتربصين بها في المدينة وفي مكة وفيما حولهما . . وفيما وراءهما كذلك . .

أجل . . يجب أن نعيش مع تلك الجماعة الأولى ; ونتمثلها في بشريتها الحقيقية , وفي حياتها الواقعية , وفي مشكلاتها الإنسانية ; ونتأمل قيادة القرآن لها قيادة مباشرة في شؤونها اليومية وفي أهدافها الكلية على السواء ; ونرى كيف يأخذ القرآن بيدها خطوة خطوة . وهي تعثر وتنهض . وتحيد وتستقيم . وتضعف وتقاوم . وتتألم وتحتمل . وترقى الدرج الصاعد في بطء ومشقة , وفي صبر ومجاهدة , تتجلى فيها كل خصائص الإنسان , وكل ضعف الإنسان , وكل طاقات الإنسان .

ومن ثم نشعر أننا نحن أيضا مخاطبون بالقرآن في مثل ما خوطبت به الجماعة الأولى . وأن بشريتنا التي نراها ونعرفها ونحسها بكل خصائصها , تملك الاستجابة للقرآن , والانتفاع بقيادته في ذات الطريق .

إننا بهذه النظرة سنرى القرآن حيا يعمل في حياة الجماعة المسلمة الأ ولى ; ويملك أن يعمل في حياتنا نحن أيضا . وسنحس أنه معنا اليوم وغدا . وأنه ليس مجرد تراتيل تعبدية مهومة بعيدة عن واقعنا المحدد , كما أنه ليس تاريخا مضى وانقضى وبطلت فاعليته وتفاعله مع الحياة البشرية .

إن القرآن حقيقة ذات كينونة مستمرة كهذا الكون ذاته . الكون كتاب الله المنظور . والقرآن كتاب الله المقروء . وكلاهما شهادة ودليل على صاحبه المبدع ; كما أن كليهما كائن ليعمل . . والكون بنواميسه ما زال يتحرك ويؤدي دوره الذي قدره له بارئه . الشمس ما زالت تجري في فلكها وتؤدي دورها , والقمر والأرض , وسائر النجوم والكواكب لا يمنعها تطاول الزمان من أداء دورها , وجدة هذا الدور في المحيط الكوني . . و

القرآن كذلك أدى دوره للبشرية , وما يزال هو هو . فالإنسان ما يزال هوهو كذلك . ما يزال هو هو في حقيقته وفي أصل فطرته . وهذا القرآن هو خطاب الله لهذا الإنسان - فيمن خاطبهم الله به . خطاب لا يتغير , لأن الإنسان ذاته لم يتبدل خلقا آخر , مهما تكن الظروف والملا بسات قد تبدلت من حوله , ومهما يكن هو قد تأثر وأثر في هذه الظروف والملابسات . . والقرآن يخاطبه في أصل فطرته وفي أصل حقيقته التي لا تبديل فيها ولا تغيير ; ويملك أن يوجه حياته اليوم وغدا لأنه معد لهذا , بما أنه خطاب الله الأخير ; وبما أن طبيعته كطبيعة هذا الكون ثابتة متحركة بدون تبديل .

وإذا كان من المضحك أن يقول قائل عن الشمس مثلا:هذا نجم قديم "رجعي ? " يحسن أن يستبدل به نجم جديد "تقدمي ! " أو أن هذا "الإ نسان" مخلوق قديم "رجعي" يحسن أن يستبدل به كائن آخر "تقدمي" لعمارة هذه الأرض !!!

إذا كان من المضحك أن يقال هذا أو ذاك , فأولى أن يكون هذا هو الشأن في القرآن . خطاب الله الأخير للإنسان .

وهذه السورة تمثل قطاعا حيا من حياة الجماعة المسلمة في المدينة من بعد "غزوة بدر" - في السنة الثانيةمن الهجرة - إلى ما بعد "غزوة أحد" في السنة الثالثة . وما أحاط بهذه الحياة من ملابسات شتى في خ لال هذه الفترة الزمنية . وفعل القرآن - إلى جانب الأحداث - في هذه الحياة , وتفاعله معها في شتى الجوانب .

والنصوص من القوة والحيوية بحيث تستحضر صورة هذه الفترة ; وصورة الحياة التي عاشتها الجماعة المسلمة ; وصورة الاشتباكات والملا بسات التي أحاطت بهذه الحياة . مع استبطان السرائر والضمائر , وما يدب فيها من الخواطر , وما يشتجر فيها من المشاعر , حتي لكأن قارئها يعيش هذه الأحداث , ويعايش الأمة التي كانت تخوضها وتتفاعل وإياها . ولو أغمض الإنسان عينيه فلربما تراءت له - كما تراءت لي -

شخوص الجماعة المسلمة رائحة غادية , بسماتها الظاهرة على الوجوه , ومشاعرها المستكنة في الضمائر . ومن حولها أعداؤها يتربصون بها , ويبيتون لها , ويلقون بينها بالفرية والشبهة , ويتحاقدون عليها , ويجمعون لها , ويلقونها في الميدان , وينهزمون أمامها - في أحد - ثم يكرون عليها فيوقعون بها . . وكل ما يجري في المعركة من حركة وكل ما يصاحب حركاتها من انفعال باطن وسمة ظاهرة . . والقرآن يتنزل ليواجه الكيد والدس , ويبطل الفرية والشبهة , ويثبت القلوب والأقدام , ويوجه الأرواح والأفكار , ويعقب على الحادث ويبرز منه العبرة , ويبني التصور ويزيل عنه الغبش , ويحذر الجماعة المسلمة من العدو الغادر و الكيد الماكر , ويقود خطاها بين الأشواك والمصايد والأحابيل , قيادة الخبير بالفطرة العليم بما تكن الصدور . .

ومن وراء هذا كله تبقى التوجيهات والتلقينات التي احتوتها السورة خالصة طليقة من قيد الزمان والمكان , وقيد الظروف والملابسات , تواجه النفس البشرية , وتواجه الجماعة المسلمة - اليوم وغدا - وتواجه الإنسانية كلها , وكأنها تتنزل اللحظة لها , وتخاطبها في شأنها الحاضر , وتواجهها في واقعها الراهن . ذلك أنها تتناول أمورا وأحداثا ومشاعر وجدانية وحالات نفسية كأنما كانت ملحوظة في سياق السورة . . بل هي ملحوظة قطعا في تقدير العليم الخبير بالنفوس والأشياء والأمور .

ومن ثم يتجلى أن هذا القرآن هو قرآن هذه الدعوة في أي مكان وفي أي زمان . وهو دستور هذه الأمة في أي جيل ومن أي قبيل . وهو حادي الطريق وهادي السبيل على توالي القرون . . ذلك أنه خطاب الله الأخير لهذا الإنسان في جميع العصور . .

في هذه الفترة كانت الجماعة المسلمة في المدينة قد استقرت بعض الاستقرار في موطنها الجديد في مدينة الرسول [ص] ومضت خطوة وراء الموقف الذي صورناه من قبل في هذه الظلال في مطلع استعراض "سورة البقرة " .

كانت غزوة بدر الكبرى قد وقعت ; وكتب الله فيها النصر للمسلمين على قريش . وكان هذا النصر بظروفه التي تم فيها والملابسات التي أحاطت به تبدو فيه رائحة المعجزة الخارقة . . ومن ثم اضطر رجل كعبد الله بن أبي بن سلول من عظماء الخزرج أن ينزل عن كبريائه وكراهته لهذا الدين ونبيه [ص] وأن يكبت حقده وحسده للرسول الكريم ; وأن ينضم - منافقا - للجماعة المسلمة , وهو يقول:"هذا أمر قد توجه" . . أي ظهرت له وجهة هو ماض فيها لا يرده عنها راد !

بذلك وجدت بذرة النفاق في المدينة - أو تمت وأفرخت , فقد كان هناك قبل بدر من اضطروا لمنافقة أهلهم الذين دخلوا في الإسلام - وأصبحت مجموعة من الرجال , ومن ذوي المكانة فيهم , مضطرة إلى التظاهر بالإ سلام , والانضمام إلى المجتمع المسلم , بينما هي تضمر في أنفسها الحقد والعداء للإسلام والمسلمين ; وتتربص بهم الدوائر ; وتتلمس الثغرات في الصف ; وتترقب الأحداث التي تضعضع قوى المسلمين أو تزعزع الصف المسلم , ليظهروا كوامن صدورهم , أو ليضربوا ضربة الإ جهاز إذا كان ذلك في مكنتهم !

وقد وجد هؤلاء المنافقون حلفاء طبيعيين لهم في اليهود , الذين كانوا يجدون في أنفسهم من الحقد على الإسلام والمسلمين , وعلى نبي الإس لام عليه الصلاة والسلام مثل ما يجد المنافقون بل أشد . وقد هددهم ا لإسلام تهديدا قويا في مكانتهم بين "الأميين" من العرب في المدينة ; وسد عليهم الثغرة التي كانوا ينفذون منها للعب بين الأوس والخزرج , بعدما أصبحوا بنعمة الله إخوانا , وفي ظل الإسلام صفا واحدا مرصوصا .

وقد غص اليهود وشرقوا بانتصار المسلمين في بدر , وارتفع غليان حقدهم على الجماعة المسلمة , وانطلقوا بكل ما يمكلون من دس وكيد وتآمر يحاولون تفتيت الصف الإسلامي , وإلقاء الحيرة في قلوب المسلمين , ونشر الشبهات والشكوك , في عقيدتهم وفي أنفسهم على

السواء !

وفي هذه الفترة وقع حادث بني قينقاع فوضح العداء وسفر . . على الرغم مما كان بين اليهود والنبي [ص] من مواثيق أبرمها معهم عقب مقدمه إلى المدينة .

كذلك كان المشركون موتورين من هزيمتهم في بدر , يحسبون ألف حساب لانتصار محمد [ص] ومعسكر المدينة , وللخطر الذي يتمثل إذن على تجارتهم وعلى مكانتهم وعلى وجودهم كذلك ! ومن ثم يتهيأون لدفع هذا الخطر الماحق قبل أن يصبح القضاء عليه مستحيلا .

وبينما كان أعداء المعسكر الإسلامي في عنفوان قوتهم وفي عنفوان حقدهم كذلك ! كان الصف المسلم ما يزال في أوائل نشأته بالمدينة . غير متناسق تماما . فيه الصفوة المختارة من السابقين من المهاجرين وا لأنصار ; ولكن فيه كذلك نفوس وشخصيات لم تنضج بعد . والجماعة كلها على العموم لم تنل من التجارب الواقعية ما يسوي النتوءات , ويوضح حقيقة الدعوة وحقيقة الظروف الملابسة لها , وحقيقة منهجها العملي وتكاليفه .

كان للمنافقين - وعلى رأسهم عبد الله بن أبي - مكانتهم في المجتمع , وروابطهم العائلية والقبلية لم تنفصم بعد ; ولم ينضج في نفوس المسلمين الشعور بأن عقيدتهم وحدها هي أسرتهم وهي قبيلتهم وهي وشيجتهم التي لا وشيجة معها . ومن ثم كانت هناك خلخلة في الصف ا لإسلامي بسبب وجود مثل هذه العناصر مندمجة في الصف , مؤثرة في مقاديره . [كما يتجلى ذلك في أحداث غزوة أحد عند استعراض النصوص الخاصة بها في السورة] .

وكان لليهود مكانتهم كذلك في المدينة , وارتباطاتهم الاقتصادية و التعهدية مع أهلها . ولم يتبين عداؤهم سافرا . ولم ينضج في نفوس المسلمين كذلك الشعور بأن عقيدتهم وحدها هي العهد وهي الوطن

وهي أصل التعامل والتعاقد , وأنه لا بقاء لصلة ولا وشيجة إذا هي تعارضت مع العقيدة ! ومن ثم كانت لليهود فرصة للتوجيه والتشكيك و البلبلة . وكان هناك من يسمع لقولهم في الجماعة المسلمة ويتأثر به . وكان هناك من يدفع عنهم ما يريد النبي [ص] أن ينزل بهم من إجراءات لدفع كيدهم عن الصف المسلم [كما حدث في شفاعة عبد الله بن أبي في بني قينقاع , وإغلاظه في هذا للرسول [ص]] .

ومن ناحية أخرى كان المسلمون قد انتصروا في بدر ذلك النصر الكامل الباهر بأيسر الجهد والبذل . فقدخرج ذلك العدد القليل من المسلمين , غير مزودين بعدة ولا عتاد - إلا اليسير - فلاقوا ذلك الجحفل الضخم من قريش في عدتهم وعتادهم . ثم لم تلبث المعركة أن انجلت عن ذلك النصر المؤزر الباهر .

وكان هذا النصر في الوقعة الأولى التي يلتقي فيها جند الله بجند الشرك قدرا من قدر الله . ندرك اليوم طرفا من حكمته . ولعله كان لتثبيت الدعوة الناشئة وتمكينها . بل لإثبات وجودها الفعلي على محك المعركة , لتأخذ بعد ذلك طريقها .

فأما المسلمون فلعلهم قد وقع في نفوسهم - من هذا النصر - أنه الشأن الطبيعي الذي لا شأن غيره . وأنه لا بد ملازمهم على أي حال في كل مراحل الطريق ! أليسوا بالمسلمين ? أليس أعداؤهم بالكافرين ? وإذن فهو النصر لا محالة حيثما التقى المسلمون بالكافرين !

غير أن سنة الله في النصر والهزيمة ليست بهذه الدرجة من البساطة و السذاجة , فلهذه السنة مقتضياتها في تكوين النفوس , وتكوين الصفوف , وإعداد العدة , واتباع المنهج , والتزام الطاعة والنظام , و اليقظة لخوالج النفس ولحركات الميدان . . وهذا ما أراد الله أن يعلمهم إياه بالهزيمة في "غزوة أحد" على النحو الذي تعرضه السورة عرضا حيا مؤثرا عميقا , وتعرض أسبابه من تصرفات بعض المسلمين ; وتوجه في ظله العظات البناءة للنفس وللصف على السواء .

وحين نراجع غزوة أحد نجد أن تعليم المسلمين هذا الدرس قد كلفهم أهوالا وجراحات وشهداء من أعز الشهداء - على رأسهم حمزة رضي الله عنه وأرضاه - وكلفهم ما هو أشق من ذلك كله على نفوسهم . . كلفهم أن يروا رسولهم الحبيب تشج جبهته وتكسر سنة , ويسقط في الحفرة , ويغوص حلق المغفر في وجنته [ص] الأمر الذي لا يقوم بوزنه شيء في نفوس المسلمين !

ويسبق استعراض "غزوة أحد" وأحداثها في السورة قطاع كبير تستغرقه كله توجيهات متشعبة لتصفية التصور الإسلامي من كل شائبة ; ولتقرير حقيقة التوحيد جلية ناصعة , والرد على الشبهات التي يلقيها أهل الكتاب , سواء منها ما هو ناشىء من انحرافاتهم هم في معتقداتهم , وما يتعمدون إلقاءه في الصف المسلم من شبهات ماكرة لخلخلة العقيدة وخلخلة الصف من وراء خلخلة العقيدة .

وتذكر عدة روايات أن الآيات من 1 - 83 نزلت في الحوار مع وفد نصارى نجران اليمن الذي قدم المدينة في السنة التاسعة للهجرة . ونحن نستبعد أن تكون السنة التاسعة هي زمن نزول هذه الآيات . فواضح من طبيعتها وجوها أنها نزلت في الفترة الأولى من الهجرة , حيث كانت الجماعة المسلمة بعد ناشئة . وكان لدسائس اليهود وغيرهم أثر شديد في كيانها وفي سلوكها .

وسواء صحت رواية أن الآيات نزلت في وفد نجران أم لم تصح ; فإنه واضح من الموضوع الذي تعالجه أنها تواجه شبهات النصارى وبخاصة ما يتعلق منها بعيسى عليه السلام , وتدور حول عقيدة التوحيد الخالص كما جاء به الإسلام . وتصحح لهم ما أصاب عقائدهم من انحراف وخلط وتشويه . وتدعوهم إلى الحق الواحد الذي تضمنته كتبهم الصحيحة التي جاء القرآن بصدقها .

ولكن هذا الفصل يتضمن كذلك إشارات وتقريعات لليهود وتحذيرات للمسلمين من دسائس أهل الكتاب . وما كان يجاورهم في المدينة من

أهل الكتاب ممن يمثل مثل هذا الخطر إلا اليهود .

وعلى أية حال فإن هذا الفصل الذي يستغرق حوالي نصف السورة يصور جانبا من جوانب الصراع بينالعقيدة الإسلامية والعقائد المنحرفة في الجزيرة كلها . . وهو ليس صراعا نظريا إنما هو الجانب النظري من المعركة الكبيرة الشاملة بين الجماعة المسلمة الناشئة وكل أعدائها الذين كانوا يتربصون بها , ويتحفزون من حولها , ويستخدمون في حربها كل ا لأسلحة وكل الوسائل . وفي أولها زعزعة العقيدة ! وهي في صميمها المعركة التي ما تزال ناشبة إلى هذه اللحظة بين الأمة المسلمة وأعدائها . . إنهم هم هم:الملحدون المنكرون , والصهيونية العالمية , و الصليبية العالمية !!!

ومن مراجعة نصوص السورة يتبين أن الوسائل هي الوسائل كذلك ; والأ هداف هي الأهداف . ويتجلى أن هذا القرآن هو قرآن هذه الدعوة , ومرجع هذه الأمة - اليوم وغدا - كما كان قرآنها ومرجعها بالأمس في نشأتها الأولى . وأنه لا يعرض عن استنصاح هذا الناصح واستشارة هذا المرجع في المعركة الناشبة اليوم إلا مدخول يعرض عن سلاح النصر في المعركة ; ويخدع نفسه أو يخدع الأمة , لخدمة أعدائها القدامى المحدثين في غفلة بلهاء أو في خبث لئيم !

ومن خلال المناقشات والجدل والاستعراض والتوجيه في هذا المقطع ا لأول يتبين موقف أهل الكتاب المنحرفين عن كتابهم , من الجماعة المسلمة والعقيدة الجديدة , ممثلا في أمثال هذه النصوص:

(هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات . فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه , ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله . . .). .

(ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يدعون إلى كتاب الله ليحكم بينهم , ثم يتولى فريق منهم وهم معرضون ?). .

(يا أهل الكتاب لم تحاجون في إبراهيم وما أنزلت التوراة والإنجيل إلا من بعده . . . ?). .

(ودت طائفة من أهل الكتاب لو يضلونكم . .). .

(يا أهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله وأنتم تشهدون ?). .

(يا أهل الكتاب لم تلبسون الحق بالباطل وتكتمون الحق وأنتم تعلمون ?). .

(وقالت طائفة من أهل الكتاب:آمنوا بالذي أنزل على الذين آمنوا وجه النهار واكفروا آخره لعلهم يرجعون) , (ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم ! . .). .

(ومنهم من إن تأمنه بدينار لا يؤده إليك إلا ما دمت عليه قائما . ذلك بأنهم قالوا:ليس علينا في الأميين سبيل ! ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون). .

(وإن منهم لفريقا يلوون ألسنتهم بالكتاب لتحسبوه من الكتاب - وما هو من الكتاب - ويقولون:هو من عند الله وما هو من عند الله . ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون). .

(قل:يا أهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله والله شهيد على ما تعملون). .

(قل:يا أهل الكتاب لم تصدون عن سبيل الله من آمن تبغونها عوجا وأنتم شهداء ?).

(ها أنتم أولاء تحبونهم ولا يحبونكم وتؤمنون بالكتاب كله . وإذا لقوكم قالوا:آمنا . وإذا خلوا عضوا عليكم الأنامل من الغيظ). .

(إن تمسسكم حسنة تسؤهم , وإن تصبكم سيئة يفرحوا بها). .

وهكذا نرى أن أعداء الجماعة المسلمة لم يكونوا يحاربونها في الميدان بـ

السيف والرمح فحسب ; ولم يكونوا يؤلبون عليها الأعداء ليحاربوها بـ السيف والرمح فحسب . . إنما كانوا يحاربونها أولا في عقيدتها . كانوا يحاربونها بالدس والتشكيك , ونثر الشبهات وتدبير المناورات ! كانوا يعمدون أولا إلى عقيدتها الإيمانية التي منها انبثق كيانها , ومنها قام وجودها , فيعملون فيها معاول الهدم والتوهين . ذلك أنهم كانوا يدركون كما يدركون اليوم تماما - أن هذه الأمة لا تؤتى إلا من هذا المدخل ; ولا تهن إلا إذا وهنت عقيدتها ; ولا تهزم إلا إذا هزمت روحها ; ولا يبلغ أعداؤها منها شيئا وهي ممسكة بعروة الإيمان , مرتكنة إلى ركنه , سائرة على نهجه , حاملة لرايته , ممثلة لحزبه , منتسبة إليه , معتزة بهذا النسب وحده .

ومن هنا يبدو أن أعدى أعداء هذه الأمة هو الذي يلهيها عن عقيدتها الإ يمانية , ويحيد بها عن منهج الله وطريقه , ويخدعها عن حقيقة أعدائها وحقيقة أهدافهم البعيدة .

إن المعركة بين الأمة المسلمة وبين أعدائها هي قبل كل شيء معركة هذه العقيدة . وحتى حين يريد أعداؤها أن يغلبوها على الأرض و المحصولات والاقتصاد والخامات , فإنهم يحاولون أولا أن يغلبوها على العقيدة , لأنهم يعلمون بالتجارب الطويلة أنهم لا يبلغون مما يريدون شيئا والأمة المسلمة مستمسكة بعقيدتها , ملتزمة بمنهجها , مدركة لكيد أعدائها . . ومن ثم يبذل هؤلاء الأعداء وعملاؤهم جهد الجبارين في خداع هذه الأمة عن حقيقة المعركة , ليفوزوا منها بعد ذلك بكل ما يريدون من استعمار واستغلال , وهم آمنون من عزمة العقيدة في الصدور !

وكلما ارتقت وسائل الكيد لهذه العقيدة , والتشكيك فيها , والتوهين من عراها , استخدم أعداؤها هذه الوسائل المترقية الجديدة . ولكن لنفس الغاية القديمة: (ودت طائفة من أهل الكتاب لو يضلونكم !!!). . فهذه هي الغاية الثابتة الدفينة !

لهذا كان القرآن يدفع هذا السلاح المسموم أولا . . كان يأخذ الجماعة المسلمة بالتثبيت على الحق الذي هي عليه ; وينفي الشبهات والشكوك التي يلقيها أهل الكتاب ; ويجلو الحقيقة الكبيرة التي يتضمنها هذا الدين ; ويقنع الجماعة المسلمة بحقيقتها وقيمتها في هذه الأرض , ودورها ودور العقيدة التي تحملها في تاريخ البشرية .

وكان يأخذها بالتحذير من كيد الكائدين , ويكشف لها نواياهم المستترة ووسائلهم القذرة , وأهدافهم الخطرة , وأحقادهم على الإسلام و المسلمين , لاختصاصهم بهذا الفضل العظيم . .

وكان يأخذها بتقرير حقيقة القوى وموازينها في هذا الوجود . فيبين لها هزال أعدائها , وهوانهم على الله , وضلالهم وكفرهم بما أنزل الله إليهم من قبل وقتلهم الأنبياء . كما يبين لها أن الله معها , وهو مالك الملك المعز المذل وحده بلا شريك . وأنه سيأخذ الكفار [وهو تعبير هنا عن اليهود] بالعذاب والنكال ; كما أخذ المشركين في بدر منذ عهد قريب .

وكانت هذه التوجيهات تتمثل في أمثال هذه النصوص:

(الله لا إله إلا هو الحي القيوم . نزل عليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه , وأنزل التوراة والإنجيل من قبل هدى للناس , وأنزل الفرقان . إن الذين كفروا بآيات الله لهم عذاب شديد , والله عزيز ذو انتقام . إن الله لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء). .

(إن الذين كفروا لن تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئا وأولئك هم وقود النار . كدأب آل فرعون والذين من قبلهم كذبوا بآياتنا فأخذهم الله بذنوبهم والله شديد العقاب . قل للذين كفروا:ستغلبون وتحشرون إلى جهنم وبئس المهاد . قد كان لكم آية في فئتين التقتا:فئة تقاتل في سبيل الله وأخرى كافرة يرونهم مثليهم رأي العين . والله يؤيد بنصره من يشاء . إن في ذلك لعبرة لأولي الأبصار). .

(إن الدين عند الله الإسلام , وما اختلف الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد

ما جاءهم العلم بغيا بينهم , ومن يكفر بآيات الله فإن الله سريع الحساب). .

(ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين). .

(قل اللهم مالك الملك , تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء , وتعز من تشاء وتذل من تشاء , بيدك الخير , إنك على كل شيء قدير). .

(لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين . ومن يفعل ذلك فليس من الله في شيء إلا أن تتقوا منهم تقاة ويحذركم الله نفسه , وإلى الله المصير). .

(إن أولى الناس بإبراهيم للذين اتبعوه وهذا النبي والذين آمنوا والله ولي المؤمنين). .

(أفغير دين الله يبغون وله أسلم من في السموات والأرض طوعا وكرها وإليه يرجعون ?). .

(يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا فريقا من الذين أوتوا الكتاب يردوكم بعد إيمانكم كافرين . وكيف تكفرون وأنتم تتلى عليكم آيات الله وفيكم رسوله ? ومن يعتصم بالله فقد هدي إلى صراط مستقيم). .

(يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون . واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا . واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم , فأصبحتم بنعمته إخوانا . وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها , كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون . . .). .

(كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله . ولو آمن أهل الكتاب لكان خيرا لهم , منهم المؤمنون وأكثرهم الفاسقون . لن يضروكم إلا أذى , وإن يقاتلوكم يولوكم الأدبار

ثم لا ينصرون . ضربت عليهم الذلة أين ما ثقفوا - إلا بحبل من الله وحبل من الناس - وباؤوا بغضب من الله وضربت عليهم المسكنة . ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون الأنبياء بغير حق , ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون). .

(يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم لا يألونكم خبالا . ودوا ما عنتم . قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفي صدورهم أكبر . قد بينا لكم الآيات إن كنتم تعقلون . ها أنتم أولاء تحبونهم ولا يحبونكم , وتؤمنون بالكتاب كله . وإذا لقوكم قالوا:آمنا , وإذا خلوا عضوا عليكم الأ نامل من الغيظ . قل موتوا بغيظكم إن الله عليم بذات الصدور . إن تمسسكم حسنة تسؤهم , وإن تصبكم سيئة يفرحوا بها . وإن تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئا . إن الله بما يعملون محيط).

ومن هذه الحملة الطويلة التي اقتطفنا منها هذه الآيات , وتنوع توجيهاتها وتلقيناتها تتبين عدة أمور:

أولها:ضخامة الجهد الذي كان يبذله أهل الكتاب في المدينة وغيرها , وعمق الكيد وتنوع أساليبه , واستخدام جميع الوسائل لزعزعة العقيدة وخلخلة الصف المسلم من ورائها .

وثانيها:ضخامة الآثار التي كان هذا الجهد يتركها في النفوس وفي حياة الجماعة المسلمة , مما اقتضى هذا البيان الطويل المفصل المنوع المقاطع والأساليب .

وثالثها:هو ما نلمحه اليوم من وراء القرون الطويلة . من أن هؤلاء الأ عداء هم الذين يلاحقون هذه الدعوةوأصحابها في الأرض كلها ; وهم الذين تواجههم هذه العقيدة وأهلها . ومن ثم اقتضت إرادة الحكيم الخبير أن يقيم هذا المشعل الهادي الضخم البعيد المطارح لتراه الأجيال المسلمة قويا واضحا عميق التركيز على كشف الأعداء التقليديين لهذه ا لأمة ولهذا الدين !

أما القطاع الثاني في السورة فهو خاص بغزوة أحد . وهو يشتمل كذلك على تقريرات في حقائق التصور الإسلامي والعقيدة الإيمانية . وعلى توجيهات في بناء الجماعة المسلمة على أساس تلك الحقائق . إلى جانب استعراض الأحداث والوقائع , والخواطر والمشاعر , استعراضا يتبين منه بجلاء حالة الجماعة المسلمة يومها وقطاعاتها المختلفة التي أشرنا إليها في أول هذا التمهيد .

وعلاقة هذا المقطع بالمقطع الأول في السورة ظاهرة . فهو يتولى عملية بناء التصور الإسلامي وتجليته - في مجال المعركة والحديد ساخن ! - كما يتولى عملية تثبيت هذه الجماعة على التكاليف المفروضة على أصحاب دعوة الحق في الأرض . مع تعليمهم سنة الله في النصر و الهزيمة . ويربيهم بالتوجيهات القرآنية كما يربيهم بالأحداث الواقعية .

وإنه ليصعب استيفاء الحديث هنا عن طبيعة هذا المقطع ومحتوياته وقيمته في بناء العقيدة وبناء الجماعة . . ولما كان هذا المقطع يقع بجملته في الجزء الرابع [من الظلال] فلنرجىء الحديث عنه إلى هذا الجزء [إن شاء الله] . .

ونمضي إلى ختام السورة - بعد فصل غزوة أحد - فإذا هو تلخيص لموضوعاتها الأساسية , يبدأ بإشارة موحية إلى دلالة هذا الكون [كتاب الله المنظور] وإيحاءاته للقلوب المؤمنة . . ويأخذ في دعاء رخي ندي من هذه القلوب , على مشهد الآيات في كتاب الكون المفتوح:(إن في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب . الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم , ويتفكرون في خلق السماوات والأرض . ربنا ما خلقت هذا باطلا , سبحانك ! فقنا عذاب النار . ربنا إنك من تدخل النار فقد أخزيته . وما للظالمين من أنصار . ربنا إننا سمعنا مناديا ينادي للإيمان أن آمنوا بربكم فآمنا . ربنا فاغفر لنا ذنوبنا وكفر عنا سيئاتنا وتوفنا مع الأبرار . ربنا وآتنا ما وعدتنا على رسلك ولا تخزنا يوم القيامة . إنك لا تخلف الميعاد . . .). . وهو يمثل

نصاعة التصور ووضوحه . وخشوع القلب وتقواه .

ثم تجيء الاستجابة من الله - سبحانه - فيذكر فيها الهجرة والجهاد والإ يذاء في سبيل الله:

(فاستجاب لهم ربهم أني لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى بعضكم من بعض . فالذين هاجروا وأخرجوا من ديارهم , وأوذوا في سبيلي , وقاتلوا وقتلوا , لأكفرن عنهم سيئاتهم ولأدخلنهم جنات تجري من تحتها الأنهار ثوابا من عند الله . والله عنده حسن الثواب . . .). . وفيه إشارة وعلاقة بغزوة أحد وأحداثها وآثارها .

ثم يذكر أهل الكتاب - الذين استغرق الحديث عنهم مقطع السورة الأول - ليقول للمسلمين إن الحق الذي بأيديهم لا يجحده أهل الكتاب كلهم . فإن منهم من يؤمن به ويشهد بأحقيته: (وإن من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله وما أنزل إليكم , وما أنزل إليهم , خاشعين لله , لا يشترون بآيات الله ثمنا قليلا . . .).

وتختم السورة بدعوة المسلمين - بإيمانهم - إلى الصبر والمصابرة و المرابطة والتقوى:(يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون). . وهو ختام يناسب جو السورة وموضوعاتها جميعا . .

ولا يتم التعريف المجمل بهذه السورة حتى نلم بثلاثة خطوط عريضة فيها , تتناثر نقطها في السورة كلها , وتتجمع وتتركز في مجموعها , حتى ترسم هذه الخطوط العريضة بوضوح وتوكيد . .

أول هذه الخطوط بيان معنى "الدين" ومعنى "الإسلام" . . فليس الدين - كما يحدده الله - سبحانه - ويريده ويرضاه - هو كل اعتقاد في الله . . إنما هي صورة واحدة من صور الاعتقاد فيه - سبحانه - صورة التوحيد المطلق الناصع القاطع:توحيد الألوهية التي يتوجه إليها البشر كما تتوجه إليها سائر الخلائق في الكون بالعبودية . وتوحيد القوامة على

البشر وعلى الكون كله . فلا يقوم شيء إلا بالله تعالى , ولا يقوم على الخلائق إلا الله تعالى . ومن ثم يكون الدين الذي يقبله الله من عباده هو "الإسلام" وهو في هذه الحالة:الاستسلام المطلق للقوامة الإلهية , و التلقي من هذا المصدر وحده في كل شأن من شؤون الحياة , والتحاكم إلى كتاب الله المنزل من هذا المصدر , واتباع الرسل الذين نزل عليهم الكتاب . وهو في صميمه كتاب واحد , وهو في صميمه دين واحد . . الإ سلام . . بهذا المعنى الواقعي في ضمائر الناس وواقعهم العملي على السواء . والذي يلتقي عليه كل المؤمنين أتباع الرسل . . كل في زمانه . . متى كان معنى إسلامه هو الاعتقاد بوحدة الألوهية والقوامة ; و الطاعة والاتباع في منهج الحياة كله بلا استثناء .

ويتكىء سياق السورة على هذا الخط ويوضحه في أكثر من ثلاثين موضعا من السورة بشكل ظاهر ملحوظ . . نضرب له بعض الأمثلة في هذا التعريف المجمل:

(الله لا إله إلا هو الحي القيوم). . (شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائما بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم). . (إن الدين عند الله الإسلام). . (فإن حاجوك فقل أسلمت وجهي لله ومن اتبعن . وقل للذين أوتوا الكتاب والأميين:أأسلمتم ? فإن أسلموا فقد اهتدوا . .). .(ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يدعون إلى كتاب الله ليحكم بينهم , ثم يتولى فريق منهم وهم معرضون). . (قل:إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله . . .). .(قل:أطيعوا الله والرسول فإن تولوا فإن الله لا يحب الكافرين). . (قال الحواريون:نحن أنصار الله , آمنا بالله واشهد بأنا مسلمون . ربنا آمنا بما أنزلت واتبعنا الرسول فاكتبنا مع الشاهدين). .(قل:يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله . فإن تولوا فقولوا:اشهدوا بأنا مسلمون). .(ما كان إبراهيم يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفا مسلما وما كان من المشركين). . (أفغير دين الله يبغون وله أسلم من في السموات والأرض طوعا وكرها وإليه

يرجعون ?) . (ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه) . وغيرها كثير . .

فأما الخط الثاني الذي يركز عليه سياق السورة فهو تصوير حال المسلمين مع ربهم واستسلامهم له , وتلقيهم لكل ما يأتيهم منه بالقبول والطاعة والاتباع الدقيق . . ونضرب له كذلك بعض الأمثلة في هذا التعريف بالسورة حتى نواجهه مفصلا عند استعراض النصوص بـ التفصيل:

(والراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا - وما يذكر إلا أولوا الألباب -) (ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب . ربنا إنك جامع الناس ليوم لا ريب فيه إن الله لا يخلف الميعاد) . .(الذين يقولون:ربنا إننا آمنا فاغفر لنا ذنوبنا وقنا عذاب النار . الصابرين والصادقين والقانتين والمنفقين والمستغفرين بالأسحار) . . (قال الحواريون:نحن أنصار الله آمنا بالله واشهد بأنا مسلمون . ربناآمنا بما أنزلت واتبعنا الرسول فاكتبنا مع الشاهدين) . . (كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله) . . (من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون , يؤمنون بالله واليوم الآخر ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويسارعون في الخيرات وأولئك من الصالحين) . (وكأي من نبي قاتل معه ربيون كثير , فما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا والله يحب الصابرين , وما كان قولهم إلا أن قالوا:ربنا اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا في أمرنا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين) . .(الذين استجابوا لله والرسول من بعد ما أصابهم القرح . للذين أحسنوا منهم واتقوا أجر عظيم . الذين قال لهم الناس:إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم , فزادهم إيمانا , وقالوا:حسبنا الله ونعم الوكيل) . .(الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم , ويتفكرون في خلق السماوات والأرض . ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك ! فقنا عذاب النار . ربنا إنك من تدخل النار فقد أخزيته , وما للظالمين من

أنصار . ربنا إننا سمعنا مناديا ينادي للإيمان أن آمنوا بربكم فآمنا . ربنا فاغفر لنا ذنوبنا وكفر عنا سيئاتنا وتوفنا مع الأبرار . ربنا وآتنا ما وعدتنا على رسلك , ولا تخزنا يوم القيامة . إنك لا تخلف الميعاد). . (وإن من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله وما أنزل إليكم , وما أنزل إليهم خاشعين لله , لا يشترون بآيات الله ثمنا قليلا). . وغيرها كثير . .

والخط الثالث العريض في سياق السورة هو التحذير من ولاية غير المؤمنين , والتهوين من شأن الكافرين مع هذا التحذير , وتقرير أنه لا إيمان ولا صلة بالله مع تولي الكفار الذين لا يحتكمون لكتاب الله , ولا يتبعون منهجه في الحياة . . وقد أشرنا إلى هذا الخط من قبل ولكنه يحتاج إلى إبراز هنا بقدر ما هو بارز وأساسي في سياق السورة , وهذه نماذج من هذا الخط العريض:

(لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين . ومن يفعل ذلك فليس من الله في شيء - إلا أن تتقوا منهم تقاة - ويحذركم الله نفسه وإلى الله المصير . قل . إن تخفوا ما في صدوركم أو تبدوه يعلمه الله ويعلم ما في السماوات وما في الأرض . والله على كل شيء قدير). .(ودت طائفة من أهل الكتاب لو يضلونكم وما يضلون إلا أنفسهم وما يشعرون). .

(يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا فريقا من الذين أوتوا الكتاب يردوكم بعد إيمانكم كافرين . وكيف تكفرون وأنتم تتلى عليكم آيات الله وفيكم رسوله . ومن يعتصم بالله فقد هدي إلى صراط مستقيم . يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا . . .)إلخ . . (لن يضروكم إلا أذى وإن يقاتلوكم يولوكم الأدبار ثم لا ينصرون . ضربت عليهم الذلة أينما ثقفوا . . .)إلخ . . (يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم لا يألونكم خبالا . ودوا ما عنتم , قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفي صدورهم أكبر . . .)إلخ . .(يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا الذين كفروا يردوكم على

أعقابكم فتنقلبوا خاسرين . بل الله مولاكم وهو خير الناصرين . سنلقي في قلوب الذين كفروا الرعب بما أشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا , ومأواهم النار وبئس مثوى الظالمين). .(لا يغرنك تقلب الذين كفروا في البلاد , متاع قليل ثم مأواهم جهنم وبئس المهاد). . وغيرها كثير . .

وهذه الخطوط الثلاثة العريضة متناسقة فيما بينها متكاملة , في تقرير التصور الإسلامي , وتوضيح حقيقة التوحيد ومقتضاه في حياة البشر وفي شعورهم بالله , وأثر ذلك في موقفهم من أعداء الله الذي لا موقف لهم سواه .

والنصوص في مواضعها من السياق أكثر حيوية وأعمق إيحاء . . لقد نزلت في معمعان المعركة . معركة العقيدة , ومعركة الميدان . المعركة في داخل النفوس , والمعركة في واقع الحياة . . ومن ثم تضمنت ذلك الرصيد الحي العجيب , من الحركة والتأثير والإيحاء .

سورة النساء

هذه السورة مدنية , وهي أطول سور القرآن - بعد سورة البقرة - وترتيبها في النزول بعد سورة الممتحنة , التي تقول الروايات:إن بعضها نزل في غزوة الفتح في السنة الثامنة للهجرة , وبعضها نزل في غزوة الحديبية قبلها في السنة السادسة .

ولكن الأمر في ترتيب السور حسب النزول - كما بينا في مطالع الكلام على سورة البقرة في الجزء الأول - ليس قطعيا . كما أن السورة لم تكن تنزل كلها دفعة واحدة في زمن واحد . فقد كانت الآيات تتنزل من سور متعددة ; ثم يأمر النبي [ص] بوضع كل منها في موضعه من سورة بذاتها . والسورة الواحدة - على هذا - كانت تظل "مفتوحة " فترة من

الزمان تطول أو تقصر . وقد تمتد عدة سنوات . وفي سورة البقرة كانت هناك آيات من أوائل ما نزل في المدينة , وآيات من أواخر ما نزل من القرآن .

وكذلك الشأن في هذه السورة . فمنها ما نزل بعد سورة الممتحنة في السنة السادسة وفي السنة الثامنة كذلك . ولكن منها الكثير نزل في أوائل العهد بالهجرة . والمنتظر - على كل حال - أن يكون نزول آيات هذه السورة قد امتد من بعد غزوة أحد في السنة الثالثة الهجرية , إلى ما بعد السنة الثامنة , حين نزلت مقدمة سورة الممتحنة .

ونذكر على سبيل المثال الآية الواردة في هذه السورة عن حكم الزانيات: (واللاتي يأتين الفاحشة من نسائكم فاستشهدوا عليهن أربعة منكم ; فإن شهدوا فأمسكوهن في البيوت , حتى يتوفاهن الموت أو يجعل الله لهن سبيلا). . فمن المقطوع به أن هذه الآية نزلت قبل آية سورة النور التي بينت حد الزنا:(الزانية والزاني فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة , ولا تأخذكم بهما رأفة في دين الله , إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر , وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين). . وهذه الآية الأ خيرة نزلت بعد حديث الإفك في السنة الخامسة [أو في السنة الرابعة على رواية] فقد قال رسول الله [ص] حين نزلت:" خذوا عني . خذوا عني . قد جعل الله لهن سبيلا . . . " إلخ . وكان السبيل هو هذا الحكم الذي تضمنته آية النور .

وفي السورة نماذج كثيرة كهذا النموذج , تدل على تواريخ نزولها على وجه التقريب . على النحو الذي بيناه في مطالع الكلام عن سورة البقرة .

.

هذه السورة تمثل جانبا من الجهد الذي أنفقه الإسلام في بناء الجماعة المسلمة , وإنشاء المجتمع الإسلامي ; وفي حماية تلك الجماعة , وصيانة هذه المجتمع . وتعرض نموذجا من فعل القرآن في المجتمع الجديد , الذي انبثق أصلا من خلال نصوصه , والذي نشأ ابتداء من خلا

ل المنهج الرباني . وتصور بهذا وذلك طبيعة هذا المنهج في تعامله مع الكائن الإنساني ; كما تصور طبيعة هذا الكائن وتفاعله مع المنهج الرباني . . تفاعله معه وهو يقود خطاه في المرتقى الصاعد , من السفح الهابط , إلى القمة السامقة . . خطوة خطوة , ومرحلة مرحلة . . بين تيارات المطامع والشهوات والمخاوف والرغائب ; وبين أشواك الطريق التي لا تخلو منها خطوة واحدة ; وبين الأعداء المتربصين على طول الطريق الشائك !

وكما رأينا من قبل - في سورة البقرة وسورة آل عمران - مواجهة القرآن لكل الملابسات المحيطة بنشأة الجماعة المسلمة في المدينة ; وبيان طبيعة المنهج الرباني الذي تنشأ الجماعة على أساسه ; وتقرير الحقائق ا لأساسية التي يقوم عليها التصور الإسلامي , والقيم والموازين التي تنبثق من هذا التصور ; وإبراز التكاليف التي يقتضيها النهوض بهذه الأ مانة في الأرض ; وتصوير طبيعة أعداء هذا المنهج وأعداء هذه الجماعة التي تقوم عليه في الأرض , وتحذيرها من وسائل أولئك الأعداء ودسائسهم ; وبيان ما في عقائدهم من زيف وانحراف , وما في وسائلهم من خسة والتواء . . . إلخ . . . فكذلك نرى القرآن - في هذه السورة - يواجه جملة هذه الملابسات والحقائق . .

إلا أن لكل سورة من سور القرآن شخصيتها الخاصة , وملامحها المميزة , ومحورها الذي تشد إليه موضوعاتها جميعا . . ومن مقتضيات الشخصية الخاصة أن تتجمع الموضوعات في كل سورة وتتناسق حول محورها في نظام خاص بها , تبرز فيه ملامحها , وتتميز به شخصيتها . كالكائن الحي المميز السمات والملامح , وهو - مع هذا - واحد من جنسه على العموم !

ونحن نرى في هذه السورة - ونكاد نحس - أنها كائن حي , يستهدف غرضا معينا , ويجهد له , ويتوخى تحقيقه بشتى الوسائل . . والفقرات والآيات والكلمات في السورة , هي الوسائل التي تبلغ بها ما تريد ! ومن

ثم نستشعر تجاهها - كما نستشعر تجاه كل سورة من سور هذا القرآن - إحساس التعاطف والتجاوب مع الكائن الحي , المعروف السمات , المميز الملامح , صاحب القصد والوجهة , وصاحب الحياة والحركة , وصاحب الحس والشعور !

إن السورة تعمل بجد وجهد في محو ملامح المجتمع الجاهلي - الذي منه التقطت المجموعة المسلمة - ونبذ رواسبه ; وفي تكييف ملامح المجتمع المسلم , وتطهيره من رواسب الجاهلية فيه , وجلاء شخصيته الخاصة . كما تعمل بجد وجهد في استجاشته للدفاع عن كينونته المميزة , وذلك ببيان طبيعة المنهج الذي منه انبثقت هذه الكينونة المميزة , والتعريف بأعدائه الراصدين له من حوله - من المشركين وأهل الكتاب وبخاصة اليهود - وأعدائه المتميعين فيه - من ضعاف الإيمان و المنافقين - وكشف وسائلهم وحيلهم ومكايدهم , وبيان فساد تصوراتهم ومناهجهم وطرائقهم . مع وضع الأنظمة والتشريعات التي تنظم هذا كله وتحدده , وتصبه في القالب التنفيذي المضبوط .

وفي الوقت ذاته نلمح رواسب الجاهلية , وهي تتصارع مع المنهج الجديد , والقيم الجديدة , والاعتبارات الجديدة . ونرى ملامح الجاهلية وهي تحاول طمس الملامح الجديدة الوضيئة الجميلة . ونشهد المعركة التي يخوضها المنهج الرباني بهذا القرآن في هذا الميدان . وهي معركة لا تقل شدة ولا عمقا ولا سعة , عن المعركةالتي يخوضها في الميدان الآ خر , مع الأعداء الراصدين له والأعداء المتميعين فيه !

وحين ندقق النظر في الرواسب التي حملها المجتمع المسلم من المجتمع الجاهلي الذي منه جاء , والتي تعالج هذه السورة جوانب منها - كما تعالج سور كثيرة جوانب أخرى - قد ينالنا الدهش لعمق هذه الرواسب , حتى لتظل تغالب طوال هذه الفترة التي رجحنا أن آيات السورة كانت تتنزل فيها . . ومن العجب أن تظل لهذه الرواسب صلابتها حتى ذلك الوقت المتأخر . . ثم ينالنا الدهش كذلك للنقلة البعيدة السامقة الرفيعة

التي انتهى إليها هذا المنهج العجيب الفريد , بالجماعة المسلمة . وقد التقطها من ذلك السفح الهابط , الذي تمثله تلك الرواسب , فارتقى بها في ذلك المرتقى الصاعد إلى تلك القمة السامقة . . القمة التي لم ترتق إليها البشرية قط , إلا على حداء ذلك المنهج العجيب الفريد . المنهج الذي يملك وحده أن يلتقط الكينونة البشرية من ذلك السفح , فيرتقي بها إلى تلك القمة , رويدا رويدا , في يسر ورفق , وفي ثبات وصبر , وفي خطو متناسق موزون !

والذي يدقق النظر في هذه الظاهرة الفريدة في تاريخ البشرية , يتجلى له جانب من حكمة الله في اختيار "الأميين" في الجزيرة العربية , في ذلك الحين , لهذه الرسالة العظيمة . . حيث يمثلون سفح الجاهلية الكاملة , بكل مقوماتها . الاعتقادية والتصورية , والعقلية والفكرية , والأخلاقية والاجتماعية , والاقتصادية والسياسية , ليعرف فيهم أثر هذا المنهج , وليتبين فيهم كيف تتم المعجزة الخارقة , التي لا يملك أن يأتي بها منهج آخر , في كل ما عرفت الأرض من مناهج , وليرتسم فيهم خط هذا المنهج , بكل مراحله - من السفح إلى القمة - وبكل ظواهره , وبكل تجاربه ; ولترى البشرية - في عمرها كله - أين تجد المنهج الذي يأخذ بيدها إلى القمة السامقة , أيا كان موقفها في المرتقى الصاعد . سواء كانت في درجة من درجاته , أم كانت في سفحة الذي التقط منه "الأميين" !

إن هذا المنهج ثابت في أصوله ومقوماته , لأنه يتعامل مع "الإنسان" . وللإنسان كينونة ثابتة , فهو لا يتبدل منها كينونة أخرى . وكل التحورات والتطورات التي تلابس حياته لا تغير من طبيعته , ولا تبدل من كينونته , ولا تحوله خلقا آخر . إنما هي تغيرات وتطورات سطحية , كالأمواج في الخضم , لا تغير من طبيعته المائية , بل لا تؤثر في تياراته التحتية الدائمة , المحكومة بعوامل طبيعية ثابتة !

ومن ثم تواجه النصوص القرآنية الثابتة , تلك الكينونة البشرية الثابتة .

ولأنها من صنع المصدر الذي صنع الإنسان , فإنها تواجه حياته بظروفها المتغيرة , وأطوارها المتجددة , بنفس المرونة التي يواجه بها "الإنسان" ظروف الحياة المتغيرة , وأطوارها المتجددة , وهو محافظ على مقوماته الأساسية . . مقومات الإنسان . .

وفي "الإنسان" هذا الاستعداد , وهذه المرونة , وإلا ما استطاع أن يواجه ظروف الحياة وأطوارها , وهي ليست ثابتة من حوله . وفي المنهج الرباني الموضوع لهذا الإنسان , ذات الخصائص , بحكم أنه صادر من المصدر الذي صدر منه الإنسان , ومودع خصائصه ذاتها , ومعد للعمل معه إلى آخر الزمان .

وهكذا يستطيع ذلك المنهج , وتستطيع هذه النصوص , أن تلتقط الفرد الإنساني , وأن تلتقط المجموعة الإنسانية , من أي مستوى , ومن أية درجة من درجات المرتقى الصاعد , فينتهي به وبها إلى القمة السامقة . . إنه لا يرده ولا يردها أبدا إلى الوراء , ولا يهبط به أو بها أبدا إلى درجة أسفل في المرتقى . كما أنه لا يضيق به ولا بها , ولا يعجز عن رفعه ورفعها , أيا كان مكانه أو مكانها من السفح السحيق !

المجتمع البدائي المتخلف كالمجتمع العربي في الجاهلية القديمة , و المجتمع الصناعي المتحضر , كالمجتمع الأوربي والأمريكي في الجاهلية الحديثة . . كلاهما يجد في المنهج الرباني والنصوص القرآنية مكانة , ويجد منيأخذ بيده من هذا المكان , فيرقى به في المرتقى الصاعد , إلى القمة السامقة , التي حققها الإسلام , في فترة حية من فترات التاريخ الإنساني . .

إن الجاهلية ليست فترة ماضية من فترات التاريخ . إنما الجاهلية كل منهج تتمثل فيه عبودية البشر للبشر . وهذه الخاصية تتمثل اليوم في كل مناهج الأرض بلا استثناء . ففي كل المناهج التي تعتنقها البشرية اليوم , يأخذ البشر عن بشر مثلهم:التصورات والمبادىء , والموازين و القيم , والشرائع والقوانين , والأوضاع والتقاليد . وهذه هي الجاهلية

بكل مقوماتها . الجاهلية التي تتمثل فيها عبودية البشر للبشر , حيث يتعبد بعضهم بعضا من دون الله .

والإسلام هو منهج الحياة الوحيد , الذي يتحرر فيه البشر من عبودية البشر . لأنهم يتلقون التصورات والمبادىء , والموازين والقيم , والشرائع والقوانين , والأوضاع والتقاليد , من يد الله - سبحانه - فإذا أحنوا رءوسهم فإنما يحنونها لله وحده , وإذا أطاعوا الشرائع فإنما يطيعون الله وحده , وإذا خضعوا للنظام فإنما يخضعون لله وحده . ومن ثم يتحررون حقا من عبودية العبيد للعبيد , حين يصبحون كلهم عبيدا لله بـ لا شريك .

وهذا هو مفرق الطريق بين الجاهلية - في كل صورة من صورها - وبين الإسلام . وهذه السورة تتولى رسم مفرق الطريق بالدقة وبالوضوح الذي لا تبقى معه ريبة لمستريب .

ومفهوم أن كل أمر أو نهي أو توجيه ورد في القرآن الكريم , كان يواجه حالة واقعة في المجتمع الجاهلي , وكان يتوخى إما إنشاء حالة غير قائمة , وإما إبطال حالة قائمة . . وذلك دون إخلال بالقاعدة الأصولية العامة:"العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب" . . ومع ملاحظة أن النصوص القرآنية جاءت لتعمل في كل جيل وفي كل بيئة كما أسلفنا . وفي هذا تكمن المعجزة . فهذه النصوص التي جاءت لتواجه أحوالا بعينها , هي ذاتها التي تواجه الجماعة الإنسانية , في أي طور من أطوارها . والمنهج الذي التقط المجموعة المسلمة من سفح الجاهلية , هو ذاته الذي يلتقط أية مجموعة - أيا كان موقفها على الدرج الصاعد - ثم يبلغ بها إلى القمة السامقة , التي بلغ إليها بالمجموعة الأولى , يوم التقطها من ذلك السفح السحيق !

ومن ثم فنحن حين نقرأ القرآن نستطيع أن نتبين منه ملامح المجتمع الجاهلي , من خلال أوامره ونواهيه وتوجيهاته ; كما نستطيع أن نتبين الملامح الجديدة التي يريد أن ينشئها , وأن يثبتها في المجتمع الجديد .

.

فماذا نحن واجدون - في هذه السورة - من ملامح المجتمع الجاهلي التي ظلت راسبة في الجماعة المسلمة , منذ أن التقطها المنهج الرباني من سفح الجاهلية ? وماذا نحن واجدون من الملامح الجديدة التي يراد إنشاؤها في المجتمع الإسلامي الجديد وتثبيتها !

إننا نجد مجتمع تؤكل فيه حقوق الأيتام - وبخاصة اليتيمات - في حجور الأهل والأولياء والأوصياء , ويستبدل الخبيث منها بالطيب , ويعمل فيها بالإسراف والطمع , خيفة أن يكبر اليتامى فيستردوها ! وتحبس فيه الصغيرات من ذوات المال , ليتخذهن الأولياء زوجات , طمعا في مالهم لا رغبة فيهن ! أو يعطين لأطفال الأولياء للغرض ذاته !

ونجد مجتمعا يجار فيه على الصغار والضعاف والنساء ; فلا يسلم لهم فيه بنصيبهم الحقيقي من الميراث . إنما يستأثر فيه بمعظم التركة الرجال الأقوياء , القادرون على حمل السلاح ; ولا ينال الضعاف فيه إلا الفتات . وهذا الفتات الذي تناله اليتيمات الصغيرات والنسوة الكبيرات , هو الذي يحتجزن من أجله , ويحبسن علىالأطفال من الذكور ; أو على الشيوخ من الأولياء . كي لا يخرج المال بعيدا ولا يذهب في الغرباء !

ونجد مجتمعا يضع المرأة موضعا غير كريم , ويعاملها بالعسف والجور . في كل أدوار حياتها . يحرمها الميراث - كما قلنا - أو يحبسها لما ينالها منه ; ويورثها للرجل كما يورثه المتاع ! فإذا مات زوجها جاء وليه , فألقى عليها ثوبه , فيعرف أنها محجوزة له . إن شاء نكحها بغير مهر , وإن شاء زوجها وأخذ مهرها ! ويعضلها زوجها إذا طلقها , فيدعها لا هي زوجة , ولا هي مطلقة , حتى تفتدي نفسها منه وتفك أسرها !

ونجد مجتمعا تضطرب فيه قواعد الأسرة بسبب هبوط مركز المرأة فيه , علاوة على اضطراب قواعد التبني والولاء , واصطدامها مع قواعد القرابة والنسب , فوق ما فيه من فوضى في العلاقات الجنسية و

العائلية . حيث تروج اتصالات السفاح والمخادنة .

ونجد مجتمعا تؤكل فيه الأموال بالباطل في المعاملات الربوية . وتغتصب فيه الحقوق . وتجحد فيه الأمانات . وتكثر فيه الغارات على ا لأموال والأرواح . ويقل فيه العدل فلا يناله إلا الأقوياء . كما لا تنفق فيه الأموال إلا رئاء الناس , اجتلابا للمفاخر , ولا ينال الضعاف المحاويج فيه من هذا الإنفاق ما ينال الأقوياء الأغنياء !

وليست هذه سوى بعض ملامح الجاهلية - وهي التي تصدت لها هذه السورة - ووراءها ما صورته السور الأخرى , وما تحفل به أخبار هذه الجاهلية في العرب , وفيمن حولهم من الأمم . .

إنه لم يكن - قطعا - مجتمعا بلا فضائل . فقد كانت له فضائله , التي تهيأ بها لاستقبال هذه الرسالة الكبرى . ولكن هذه الفضائل إنما استنقذها الإ سلام استنقاذا , ووجهها الوجهة البناءة . وكانت - لولا الإسلام - مضيعة تحت ركام هذه الرذائل , مفرقة غير متجمعة , وضائعة غير موجهة . وما كانت هذه الأمة لتقدم للبشرية شيئا ذا قيمة , لولا هذا المنهج , الذي جعل يمحو ملامح الجاهية الشائهة , وينشىء أو يثبت ملامح الإسلام الوضيئة , ويستنقذ فضائل هذه الأمة المضيعة المطمورة المفرقة المبددة , شأنها في هذا شأن سائر أمم الجاهلية التي عاصرتها , والتي اندثرت كلها , لأنها لم تدركها رسالة ولم تنشئها عقيدة !

من تلك الجاهلية , التي هذه بعض ملامحها , التقط الإسلام المجموعة التي قسم الله لها الخير , وقدر أن يسلمها قيادة البشر , فكون منها الجماعة المسلمة , وأنشأ بها المجتمع المسلم . ذلك المجتمع الذي بلغ إلى القمة التي لم تبلغها البشرية قط , والتي ما تزال أملا للبشرية , يمكن أن تحاوله , حين يصح منها العزم على انتهاج الطريق .

وفي هذه السورة نجد بعض الملامح التي يتوخى المنهج الإسلامي إنشاءها وتثبيتها في المجتمع المسلم , بعد تطهيره من رواسب

الجاهلية , وإنشاء الأوضاع والتشريعات التنفيذية , التي تكفل حماية هذه الملامح وتثبيتها في الواقع الاجتماعي .

نجد في مستهلها تقريرا لحقيقة الربوبية ووحدانيتها , ولحقيقة الإنسانية ووحدة أصلها الذي أنشأها منه ربها , ولحقيقة قيامها على قاعدة الأسرة , واتصالها بوشيجة الرحم , مع استجاشة هذه الروابط كلها في الضمير البشري , واتخاذها ركيزة لتنظيم المجتمع الإسلامي على أساسها , وحماية الضعفاء فيه عن طريق التكافل بين الأسرة الواحدة , ذات الخالق الواحد , وحماية هذا المجتمع من الفاحشة والظلم والفتنة ; وتنظيم الأسرةالمسلمة والمجتمع المسلم , والمجتمع الإنساني كله , على أساس وحدة الربوبية ووحدة البشرية:(يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة , وخلق منها زوجها , وبث منهما رجالا كثيرا ونساء , واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام . إن الله كان عليكم رقيبا). . وهذه الحقيقة الكبيرة التي تتضمنها آية الافتتاح تمثل قاعدة أصيلة في التصور الإسلامي , تقوم عليها الحياة الجماعية . نرجو أن نعرض لها بالتفصيل في مكانها من سياق السورة .

ونجد التشريعات العملية لتحقيق البناء التكافلي للجماعة مستندة إلى تلك الركيزة:

في حماية اليتامى نجد التوجيه الموحي , والتحذير المخيف , والتشريع المحدد الأصول: (وآتوا اليتامى أموالهم , ولا تتبدلوا الخبيث بالطيب ; و لا تأكلوا أموالهم إلى أموالكم إنه كان حوبا كبيرا)[آية 2] . . (وابتلوا اليتامى , حتى إذا بلغو النكاح ; فإن آنستم منهم رشدا فادفعوا إليهم أموالهم ; ولا تأكلوها إسرافا , وبدارا أن يكبروا . ومن كان غنيا فليستعفف , ومن كان فقيرا فليأكل بالمعروف . فإذا دفعتم إليهم أموالهم فاشهدوا عليهم . وكفى بالله حسيبا)[آية 6] . . (وليخش الذين لو تركوا من خلفهم ذرية ضعافا خافوا عليهم . فليتقوا الله , وليقولوا قولا سديدا . إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما إنما يأكلون

في بطونهم نارا , وسيصلون سعيرا)[9 - 10] . .

وفي حماية الإناث خاصة - يتيمات صغيرات ونساء مستضعفات - وحفظ حقهن جميعا في الميراث , وفي الكسب , وفي حقهن في أنفسهن , واستنقاذهن من عسف الجاهلية , وتقاليدها الظالمة المهينة . . نجد أمثال هذه التوجيهات والتشريعات المنوعة الكثيرة: وإن خفتم ألا تقسطوا في اليتامى فانكحوا ما طاب لكم من النساء , مثنى وثلاث ورباع , فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة , أو ما ملكت أيمانكم , ذلك أدنى أ لا تعولوا . وآتوا النساء صدقاتهن نحلة , فإن طبن لكم عن شيء منه نفسا فكلوه هنيئا مريئا . . [4 - 3] . .(للرجال نصيب مما ترك الوالدان والأقربون , وللنساء نصيب مما ترك الوالدان والأقربون . مما قل منه أو كثر نصيبا مفروضا)[آية:7] . . (يا أيها الذين آمنوا لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرها , ولا تعضلوهن لتذهبوا ببعض ما آتيتموهن - إلا أن يأتين بفاحشة مبينة - وعاشروهن بالمعروف ; فإن كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئا , ويجعل الله فيه خيرا كثيرا . وإن أردتم استبدال زوج مكان زوج , وآتيتم إحداهن قنطارا فلا تأخذوا منه شيئا . أتأخذونه بهتانا وإثما مبينا ? وكيف تأخذونه وقد أفضى بعضكم إلى بعض , وأخذن منكم ميثاقا غليظا ?). . [19 - 21] . . (ويستفتونك في النساء . قل:الله يفتيكم فيهن , وما يتلى عليكم في الكتاب في يتامى النساء اللاتي لا تؤتونهن ما كتب لهن , وترغبون أن تنكحوهن . و المستضعفين من الولدان , وإن تقوموا لليتامى بالقسط . وما تفعلوا من خير فإن الله كان به عليما). . [آية 127] . .

وفي تنظيم الأسرة , وإقامتها على أساس ثابت من موحيات الفطرة , وتوفير الحماية لها من تأثير الملابسات العارضة في جو الحياة الزوجية والحياة الاجتماعية . . ترد مثل هذه التوجيهات والتنظيمات - بالإضافة إلى ما ورد منها في ثنايا الحديث عن اليتيمات والمطلقات -: (ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء إلا ما قد سلف . إنه كان فاحشة ومقتا وساء سبيلا . حرمت عليكم أمهاتكم , وبناتكم , وأخواتكم , وعماتكم ,

وخالاتكم , وبنات الأخ , وبنات الأخت , وأمهاتكم اللاتي أرضعنكم , وأخواتكم من الرضاعة , وأمهات نسائكم , وربائبكم اللاتي في حجوركم من نسائكم اللاتي دخلتم بهن - فإن لم تكونوا دخلتم بهن فلا جناح عليكم - وحلائل أبنائكم الذين من أصلابكم , وأن تجمعوا بين الأختين إ لا ما قد سلف - إن الله كان غفورا رحيما . والمحصنات من النساء - إلا ما ملكت أيمانكم - كتاب الله عليكم . وأحل لكم - ما وراء ذلكم - أن تبتغوا بأموالكم محصنين غير مسافحين . فما استمتعتم به منهن فآتوهن أجورهن فريضة , ولا جناح عليكم فيما تراضيتم به من بعد الفريضة . إن الله كان عليما حكيما)[22 - 24] . . (الرجال قوامون على النساء , بما فضل الله بعضهم على بعض , وبما أنفقوا من أموالهم . فالصالحات قانتات حافظات للغيب بما حفظ الله ; واللاتي تخافون نشوزهن فعظوهن , واهجروهن في المضاجع , واضربوهن . فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلا , إن الله كان عليا كبير

(ومن لم يستطع منكم طولا أن ينكح المحصنات المؤمنات فمما ملكت أيمانكم من فتياتكم المؤمنات . والله أعلم بإيمانكم , بعضكم من بعض . فانكحوهن بإذن أهلهن , وآتوهن أجورهن بالمعروف , محصنات غير مسافحات ولا متخذات أخدان . فإذا أحصن فإن أتين بفاحشة فعليهن نصف ما على المحصنات من العذاب . ذلك لمن خشي العنت منكم . وأن تصبروا خير لكم , والله غفور رحيم . يريد الله ليبين لكم , ويهديكم سنن الذين من قبلكم , ويتوب عليكم والله عليم حكيم). . [25 - 26] .
.

وفي تنظيم العلاقات بين أفراد المجتمع المسلم كله ; وإقامتها على التكافل والتراحم والتناصح , والأمانة , والعدل , والسماحة والمودة , وا لإحسان . . ترد توجيهات وتشريعات شتى - إلى جانب ما ذكرنا من قبل - نذكر منها هنا على سبيل المثال بضعة نماذج ولا نستقصيها ; فستأتي كلها في مكانها من سياق السورة:(ولا تؤتوا السفهاء أموالكم التي جعل الله لكم قياما , وارزقوهم فيها واكسوهم وقولوا لهم قولا معروفا)[آية

5] . .

(وإذا حضر القسمة أولوا القربى واليتامى والمساكين فارزقوهم منه وقولوا لهم قولا معروفا). . [آية 8](يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل - إلا أن تكون تجارة عن تراض منكم - ولا تقتلوا أنفسكم , إن الله كان بكم رحيما . ومن يفعل ذلك عدوانا وظلما فسوف نصليه نارا , وكان ذلك على الله يسيرا). . [29 - 30] . .(ولا تتمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض . للرجال نصيب مما اكتسبوا وللنساء نصيب مما اكتسبن . واسألوا الله من فضله . إن الله كان بكل شيء عليما). . [آية 32] . . (واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا . وبالوالدين إحسانا , وبذي القربى , واليتامى والمساكين , والجار ذي القربى , والجار الجنب , والصاحب بالجنب , وابن السبيل , وما ملكت أيمانكم إن الله لا يحب من كان مختالا فخورا . الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل , ويكتمون ما آتاهم الله من فضله , واعتدنا للكافرين عذابا مهينا , والذين ينفقون أموالهم رئاء الناس , ولا يؤمنون بالله واليوم الآخر , ومن يكن الشيطان له قرينا فساء قرينا). . [36 - 38] . .(إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها , وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل . إن الله نعما يعظكم به . إن الله كان سميعا بصيرا). . [آية 58] . . (من يشفع شفاعة حسنة يكن له نصيب منها ; ومن يشفع شفاعة سيئة يكن له كفل منها ; وكان الله على كل شيء مقيتا . وإذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها أو ردوها إن الله كان على كل شيء حسيبا). . [85 - 86] . . (وما كان لمؤمن أن يقتل مؤمنا إلا خطأ . .)(ومن يقتل مؤمنا متعمدا فجزاؤه جهنم خالدا فيها , وغضب الله عليه ولعنه , وأعد له عذابا عظيما). . [92] . . (يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط , شهداء لله , ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين . إن يكن غنيا أو فقيرا ف الله أولى بهما . ولا تتبعوا الهوى أن تعدلوا . وإن تلووا أو تعرضوا فإن الله كان بما تعملون خبيرا). . [آية 135] . . (لا يحب الله الجهر بالسوء من القول إلا من ظلم . وكان الله سميعا بصيرا . إن تبدوا خيرا أو

تخفوه أو تعفوا عن سوء , فإن الله كان عفوا قديرا). . [148 - 149] .
.

إلى جانب ذلك الهدف الكبير في تنظيم المجتمع المسلم على أساس التكافل والتراحم والتناصح والتسامح , والأمانة والعدل والمودة و الطهارة ; ومحو الرواسب المتخلفة فيه من الجاهلية ; وإنشاء وتثبيت الملامح الجديدة الوضيئة . . نجد هدفا آخر لا يقل عنه عمقا ولا أثرا في حياة المجتمع المسلم - إن لم يكن هو الأساس الذي يقوم عليه الهدف الأ ول - ذلك هو تحديد معنى الدين , وحد الإيمان , وشرط الإسلام , وربط كل الأنظمة والتشريعات التي تحكم حياة الفرد وحياة المجتمع بذلك المعنى المحدد للدين , وهذا التعريف المضبوط للإيمان والإسلام .

إن الدين هو النظام الذي قرره الله للحياة البشرية بجملتها , والمنهج الذي يسير عليه نشاط الحياة برمتها .والله وحده هو صاحب الحق في وضع هذا المنهج بلا شريك . والدين هو الأتباع والطاعة للقيادة الربانية التي لها وحدها حق الطاعة والاتباع , ومنها وحدها يكون التلقي , ولها وحدها يكون الاستسلام . . فالمجتمع المسلم مجتمع له قيادة خاصة - كما له عقيدة خاصة وتصور خاص - قيادة ربانية متمثلة في رسول الله [ص] وفيما يبلغه عن ربه مما هو باق بعده من شريعة الله ومنهجه . وتبعية هذا المجتمع لهذه القيادة هي التي تمنحه صفة الإسلام وتجعل منه "مجتمعا مسلما" . وبغير هذه التبعية المطلقة لا يكون "مسلما" بحال . وشرط هذه التبعية هو التحاكم إلى الله والرسول , ورد الأمر كله إلى الله , والرضى بحكم رسوله وتنفيذه مع القبول والتسليم .

وتبلغ نصوص السورة في بيان هذه الحقيقة , وتقرير هذا الأصل , مبلغا حاسما جازما , لا سبيل للجدال فيه , أو الاحتيال عليه , أو تمويهه وتلبيسه , لأنها من القوة والوضوح والحسم بحيث لا تقبل الجدال !

وتقرير هذا المبدأ الأساسي يتمثل في نصوص كثيرة كثرة واضحة في السورة . وسيجيء استعراضها التفصيلي في مكانها من السياق .

فنكتفي هنا بذكر بعضها إجمالا:

يتمثل على وجه الإجمال في آية الافتتاح في السورة: (يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة . .). . كما يتمثل في مثل هذه ا لآيات: (واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا . . .)[آية 36] . . (إن الله لا يغفر أن يشرك به ; ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء). . [آية 48] . .

ويتمثل على وجه التخصيص والتحديد في مثل قوله تعالى: يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم , فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول , إن كنتم تؤمنون بالله و اليوم الآخر . ذلك خير وأحسن تأويلا . ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت - وقد أمروا أن يكفروا به - ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالا بعيدا . وإذا قيل لهم:تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول رأيت المنافقين يصدون عنك صدودا . [59 - 61] . . (وما أرسلنا من رسول إ لا ليطاع بإذن الله). . [آية 64] . .(فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم , ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما). . [آية 65] . .(من يطع الرسول فقد أطاع الله , ومن تولى فما أرسلناك عليهم حفيظا). . [آية 80] . .(ومن يشاقق الرسول - من بعد ما تبين له الهدى - ويتبع غير سبيل المؤمنين , نوله ما تولى , ونصله جهنم وساءت مصيرا). . [آية 115] . .

وهكذا يتحدد معنى الدين , وحد الإيمان , وشرط الإسلام , ونظام المجتمع المسلم , ومنهجه في الحياة . وهكذا لا يعود الإيمان مجرد مشاعر وتصورات ; ولا يعود الإسلام مجرد كلمات وشعارات , ولا مجرد شعائر تعبدية وصلوات . . إنما هو إلى جانب هذا وذلك , وقبل هذا وذلك . نظام يحكم , ومنهج يتحكم , وقيادة تطاع , ووضع يستند إلى نظام معين , ومنهج معين , وقيادة معينة . وبغير هذا كله لا يكون إيمان , ولا يكون إسلام , ولا يكون مجتمع ينسب نفسه إلى الإسلام .

وتترتب على إقرار هذا المبدأ الأساسي توجيهات كثيرة في السورة . كلها تفريعات على هذا الأصل الكبير:

1 - يترتب عليه أن تكون التنظيمات الاجتماعية كلها في المجتمع - شأنها شأن الشعائر التعبدية - مرتكنة إلى هذا الأصل الكبير , مستندة إلى معنى الدين , وحد الإيمان , وشرط الإسلام , على هذا النحو الذي قررته تلك النماذج التي أسلفنا . فهي ليست مجرد تنظيمات وتشريعات . إنما هي مقتضى الإيمان بالله والاعتراف بألوهيته ,وإفراده بالألوهية , والتلقي من القيادة التي يحددها . . ومن ثم نرى كل التشريعات والتنظيمات التي أشرنا إليها تستند إلى هذه الجهة , وينص في أعقابها نصا على هذه الحقيقة:

آية الافتتاح التي تقرر وحدة البشرية , وتدعو الناس إلى رعاية وشيجة الرحم , وتعد مقدمة لسائر التنظيمات التي تلتها في السورة . . تبدأ بدعوة الناس إلى تقوى ربهم الذي خلقهم من نفس واحدة: (يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة). . وتنتهي إلى تقواه , وتحذيرهم من رقابته: (إن الله كان عليكم رقيبا). .

والآيات التي تحض على رعاية أموال اليتامى , وتبين طريقة التصرف في أموالهم تنتهي بالتذكير بالله وحسابه: (وكفى بالله حسيبا). .

وتوزيع أنصبة الميراث في الأسرة يجيء وصية من الله: (يوصيكم الله في أولادكم . . .) (فريضة من الله). . وتنتهي تشريعات الإرث بهذا التعقيب:(تلك حدود الله , ومن يطع الله ورسوله يدخله جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها , وذلك الفوز العظيم . ومن يعص الله ورسوله , ويتعد حدوده يدخله نارا خالدا فيها وله عذاب مهين). .

وفي تشريعات الأسرة وتنظيم المهور والطلاق وما إليها ترد مثل هذه التعقيبات: (وعاشروهن بالمعروف , فإن كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيرا كثيرا). . (والمحصنات من النساء إلا ما

ملكت أيمانكم . . كتاب الله عليكم . .). .(يريد الله ليبين لكم ويهديكم سنن الذين من قبلكم , ويتوب عليكم , والله عليم حكيم). . (فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلا . إن الله كان عليا كبيرا). .

(واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا). . تسبق في الآية الوصية بالإحسان إلى الوالدين وذي القربى واليتامى والمساكين . . إلخ

وهكذا ترتبط سائر التنظيمات والتشريعات بالله , وتستمد من شريعته , وترجع الأمور كلها إلى هذه القيادة التي لها وحدها حق الطاعة والاتباع .

2 - ويترتب على إقرار ذلك الأصل الكبير أن يكون ولاء المؤمنين لقيادتهم ولجماعتهم المؤمنة . فلا يتولوا أحدا لا يؤمن إيمانهم , ولا يتبع منهجهم , ولا يخضع لنظامهم , ولا يتلقى من قيادتهم . كائنة ما كانت العلاقة التي تربطهم بهذا الأحد . علاقة قرابة . أو جنس . أو أرض أو مصلحة . وإلا فهو الشرك أو النفاق , وهو الخروج من الصف المسلم على كل حال:(ومن يشاقق الرسول - من بعد ما تبين له الهدى - ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى , ونصله جهنم , وساءت مصيرا . إن الله لا يغفر أن يشرك به , ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء , ومن يشرك ب الله فقد ضل ضلالا بعيدا). . [115 - 116] . .(بشر المنافقين بأن لهم عذابا أليما . الذين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين . أيبتغون عندهم العزة ? فإن العزة لله جميعا). . [آية 139] . . (يا أيها الذين أمنوا لا تتخذوا الكافرين أولياء من دون المؤمنين . أتريدون أن تجعلوا لله عليكم سلطانا مبينا ? إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار , ولن تجد لهم نصيرا . إلا الذين تابوا وأصلحوا , واعتصموا بالله , وأخلصوا دينهم لله . فأولئك مع المؤمنين , وسوف يؤتي الله المؤمنين أجرا عظيما). . [144 - 146] . .

3 - ويترتب عليه وجوب هجرة المسلمين من دار الحرب - وهي كل دار لا تقوم فيها شريعة الإسلام ولا تدين للقيادة السلمة - ليلحقوا بـ

الجماعة المسلمة متى قامت في الأرض وأصبح لها قيادة وسلطان - وليستظلوا برايه القيادة المسلمة ولا يخضعوا لراية الكفر - وهي كل راية غير راية الإسلام - وإلا فهو النفاق أو الكفر ;وهو الخروج من الصف المسلم على كل حال: (فما لكم في المنافقين فئتين ? والله أركسهم بما كسبوا , أتريدون أن تهدوا من أضل الله ? ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلا . ودوا لو تكفرون كما كفروا فتكونون سواء ; فلا تتخذوا منهم أولياء حتى يهاجروا في سبيل الله فإن تولوا فخذوهم واقتلوهم حيث وجدتموهم , ولا تتخذوا منهم وليا ولا نصيرا). . [88 - 89] . . (إن الذين توفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم قالوا:فيم كنتم ? قالوا:كنا مستضعفين في الأرض . قالوا:ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها ? فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيرا . إلا المستضعفين من الرجال والنساء والولدان لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلا . فأولئك عسى الله أن يعفو عنهم , وكان الله عفوا غفورا . ومن يهاجر في سبيل الله يجد في الأرض مراغما كثيرا وسعة , ومن يخرج من بيته مهاجرا إلى الله ورسوله , ثم يدركه الموت , فقد وقع أجره على الله . وكان الله غفورا رحيما). . [97 - 100] . .

4 - ويترتب عليه أن يقاتل المسلمون لاستنقاذ الضعاف من إخوانهم المسلمين , الذين لا يستطيعون الهجرة من دار الحرب وراية الكفر , وضمهم إلى الجماعة المسلمة في دار الإسلام , كي لا يفتنوا عن دينهم , ولا يستظلوا براية غير راية الإسلام , ولا يخضعوا لنظام غير نظامه . ثم لكي يتمتعوا بالنظام الإسلامي الرفيع , وبالحياة في المجتمع الإسلامي النظيف . وهو حق كل مسلم , والحرمان منه حرمان من أكبر نعم الله في الأرض , ومن أفضل طيبات الحياة:(وما لكم لا تقاتلون في سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين يقولون:ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها , واجعل لنا من لدنك وليا , واجعل لنا من لدنك نصيرا). . [آية 75] . .

ويستتبع هذا الأمر حملة ضخمة للحض على الجهاد بالنفس والمال , و

التنديد بالمعوقين والمبطئين والقاعدين . وهي حملة تستغرق قطاعا كبيرا من السورة , يرتفع عندها نبض السورة الهادئة الأنفاس ! ويشتد إيقاعها , وتحمى لذعاتها في التوجيه والتنديد !

ولا نملك هنا استعراض هذا القطاع بترتيبه في السياق - ولهذا الترتيب أهمية خاصة وإيحاء معين - فندع هذا إلى مكانه من السياق . ونكتفي بمقتطفات من هذا القطاع: (يا أيها الذين آمنوا خذوا حذركم , فانفروا ثبات أو انفروا جميعا . وإن منكم لمن ليبطئن فإن أصابتكم مصيبة ق ال:قد أنعم الله علي إذ لم أكن معهم شهيدا . ولئن أصابكم فضل من الله ليقولن - كأن لم تكن بينكم وبينه مودة - يا ليتني كنت معهم , فأفوز فوزا عظيما . فليقاتل في سبيل الله الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة ; ومن يقاتل في سبيل الله فيقتل أو يغلب , فسوف نؤتيه أجرا عظيما . وما لكم لا تقاتلون في سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء و الولدان , الذين يقولون:ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها , واجعل لنا من لدنك وليا , واجعل لنا من لدنك نصيرا , الذين آمنوا يقاتلون في سبيل الله , والذين كفروا يقاتلون في سبيل الطاغوت , فقاتلوا أولياء الشيطان , إن كيد الشيطان كان ضعيفا) . . [71 - 76] . . (فقاتل في سبيل الله لا تكلف إلا نفسك , وحرض المؤمنين عسى الله أن يكف بأس الذين كفروا , والله أشد بأسا وأشد تنكيلا). . [آية 84] . . (لا يستوي القاعدون من المؤمنين - غير أولي الضرر - والمجاهدون في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم , فضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة , وكلا وعد الله الحسنى . وفضل الله المجاهدين على القاعدين أجرا عظيما . درجات منه ومغفرة ورحمة . وكان الله غفورا رحيما). . [95 -96] . .

(ولا تهنوا في ابتغاء القوم . إن تكونوا تألمون فإنهم يألمون كما تألمون , وترجون من الله ما لا يرجون , وكان الله عليما حكيما . .)[آية:105] .
.

وفي ثنايا هذه الحملة للحض على الجهاد توضع بعض قواعد المعاملات الدولية بين "دار الإسلام" والمعسكرات المتعددة التي تدور معها المعاملا ت , والخلافات:

في التعقيب على انقسام المسلمين فئتين ورأيين في أمر المنافقين , الذين يدخلون المدينة للتجارة والمنافع والاتصال مع أهلها , حتى إذا خرجوا منها عادوا موالين لمعسكرات الأعداء , يقول: (فلا تتخذوا منهم أولياء حتى يهاجروا في سبيل الله ; فإن تولوا فخذوهم واقتلوهم حيث وجدتموهم , ولا تتخذوا منهم وليا ولا نصيرا) . (إلا الذين يصلون إلى قوم بينكم وبينهم ميثاق , أو جاؤوكم حصرت صدورهم أن يقاتلوكم أو يقاتلوا قومهم . ولو شاء الله لسلطهم عليكم فلقاتلوكم فإن اعتزلوكم فلم يقاتلوكم , وألقوا إليكم السلم , فما جعل الله لكم عليهم سبيلا . ستجدون آخرين يريدون أن يأمنوكم ويأمنوا قومهم , كلما ردوا إلى الفتنة أركسوا فيها . فإن لم يعتزلوكم , ويلقوا إليكم السلم , ويكفوا أيديهم , فخذوهم واقتلوهم حيث ثقفتموهم ; وأولئكم جعلنا لكم عليهم سلطانا مبينا . . [89 - 91] . . (يا أيها الذين آمنوا إذا ضربتم في سبيل الله فتبينوا , ولا تقولوا لمن القى إليكم السلام:لست مؤمنا , تبتغون عرض الحياة الدنيا , فعند الله مغانم كثيرة . كذلك كنتم من قبل , فمن الله عليكم , فتبينوا , إن الله كان بما تعملون خبيرا). . [آية 94] . .

وكذلك تجيء في ثنايا الحديث عن الجهاد بعض الأحكام الخاصة بالص لاة في حالة الخوف وحالة الأمن ; مع توصيات الله للمؤمنين وتحذيرهم من أعدائهم المتربصين: (وإذا ضربتم في الأرض فليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة - إن خفتم أن يفتنكم الذين كفروا - إن الكافرين كانوا لكم عدوا مبينا . وإذا كنت فيهم فأقمت لهم الصلاة , فلتقم طائفة منهم معك , وليأخذوا أسلحتهم , فإذا سجدوا فليكونوا من ورائكم , ولتأت طائفة أخرى لم يصلوا فليصلوا معك , وليأخذوا حذرهم وأسلحتهم . ود الذين كفروا لو تغفلون عن أسلحتكم وأمتعتكم فيميلون عليكم ميلة واحدة ! ولا جناح عليكم - إن كان بكم أذى من مطر أو كنتم

مرضى - أن تضعوا أسلحتكم ; وخذوا حذركم , إن الله أعد للكافرين عذابا مهينا . فإذا قضيتم الصلاة فاذكروا الله قياما وقعودا وعلى جنوبكم , فإذا اطمأننتم فأقيموا الصلاة . إن الصلاة كانت على المؤمنين كتابا موقوتا). . [101 - 103] . .

وتدل هذه الآيات على مكان الصلاة من الحياة الإسلامية ; حتى لتذكر في مقام الخوف , وتبين كيفياتها في هذا المقام ; كما تدل على تكامل هذا المنهج , في مواجهة الحياة الإنسانية في كل حالاتها ; ومتابعة الفرد المسلم والجماعة المسلمة في كل لحظة وفي كل حال . .

ويستتبع الأمر بالجهاد كذلك حملة ضخمة على المنافقين وعلى موالاتهم لليهود في المدينة بينما هم يكيدون لدين الله , وللجماعة المسلمة , وللقيادة المسلمة كيدا شديدا . وعلى ألاعيبهم في الصف المسلم , وتمييعهم للقيم والنظم . وفي الآيات التي اقتطفناها من قطاع الجهاد طرف من الحملة على المنافقين , نضم إليه هذا القطاع المصور لحالهم وصفاتهم , الكاشف لطبيعتهم ووسائلهم: (ويقولون طاعة . فإذا برزوا من عندك بيت طائفة منهم غير الذي تقول , والله يكتب ما يبيتون . فأعرض عنهم , وتوكل على الله , وكفى بالله وكيلا . أفلا يتدبرون القرآن , ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا . وإذا جاءهم أمر من الأمن أو الخوف أذاعوا به . ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولي الأمر منهم , لعلمه الذين يستنبطونه منهم , ولولا فضل الله عليكم ورحمته لاتبعتم الشيطان إلا قليلا). . [81 - 83] . .

(إن الذين آمنوا ثم كفروا . ثم آمنوا ثم كفروا , ثم ازدادوا كفرا لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم سبيلا . بشر المنافقين بأن لهم عذابا أليما . الذين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين . أيبتغون عندهم العزة ? فإن العزة لله جميعا . وقد نزل عليكم في الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها , فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره . إنكم إذا مثلهم . إن الله جامع المنافقين والكافرين في

جهنم جميعا . الذين يتربصون بكم , فإن كان لكم فتح من الله قالوا:ألم نكن معكم ? وإن كان للكافرين نصيب قالوا:ألم نستحوذ عليكم ونمنعكم من المؤمنين ? فالله , يحكم بينكم يوم القيامة , ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا . إن المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم , وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى يراءون الناس , ولا يذكرون الله إلا قليلا . مذبذبين بين ذلك , لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء , ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلا . يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا الكافرين أولياء من دون المؤمنين . أتريدون أن تجعلوا لله عليكم سلطانا مبينا ? إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار , ولن تجد لهم نصيرا). . [137 - 145] . .

وفي قطاع الجهاد - وفي غيره من القطاعات الأخرى في السورة - نلتقي بالحرب المشبوبة على الجماعة المسلمة , وعلى العقيدة الإسلامية , و القيادة الإسلامية كذلك , من أهل الكتاب - وبخاصة اليهود - وحلفائهم من المنافقين في المدينة , والمشركين في مكة , وما حولهما . . وهي الحرب التي التقينا بها في سورة البقرة , وفي سورة آل عمران , من قبل . . ونلتقي كذلك بالمنهج الرباني . وهو يأخذ بيد الجماعة المسلمة السائرة بين الأشواك الخبيثة , والأحابيل الماكرة , يقودها , ويوجهها , ويحذرها , ويكشف لها طبيعة أعدائها , وطبيعة المعركة التي تخوضها , وطبيعة الأرض التي تدور فيها المعركة , وزواياها وجوانبها الخبيثة .

ومن علامات الإعجاز في هذا القرآن , أن هذه النصوص التي نزلت لتواجه معركة معينة , ما تزال هي بذاتها تصور طبيعة المعركة الدائمة المتجددة بين الجماعة المسلمة في كل مكان , وعلى توالي الأجيال , وبين أعدائها التقليديين ; الذين ما يزالون هم هم , وما تزال حوافزهم هي هي في أصلها , وإن اختلفت أشكالها وظواهرها وأسبابها القريبة , وما تزال أهدافهم هي هي في طبيعتها وإن اختلفت أدواتها ووسائلها , وما تزال زلزلة العقيدة , وزعزعة الصف , والتشكيك في القيادة الربانية , هي الأهداف التي تصوب إليها طلقاتهم الماكرة , للوصول من ورائها إلى

الاستيلاء على مقاليد الجماعة المسلمة , والتصرف في مقاديرها , واستغلال أرضها وجهدها وغلاتها وقواها وطاقاتها , كما كانت يهود تستغل الأوس والخزرج في المدينة , قبل أن يعزهم الله ويجمعهم بالإسلام , وبالقيادة المسلمة , وبالمنهج الرباني .

وقد حفلت هذه السورة كما حفلت سورتا البقرة وآل عمران بالحديث عن تلك المؤامرات التي لا تنقطع من اليهود ضد الجماعة المسلمة , بالاتفاق مع المنافقين ومع المشركين . وستجيء هذه النصوص مشروحة عند استعراضها في مكانها في السياق . فنكتفي هنا بإثبات طرف من هذه الحملة العنيفة:

(ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يشترون الضلالة , ويريدون أن تضلوا السبيل , والله أعلم بأعدائكم , وكفى بالله وليا وكفى بالله نصيرا . من الذين هادوا يحرفون الكلم عن مواضعه , ويقولون:سمعنا وعصينا , واسمع غير مسمع , وراعنا - ليا بألسنتهم وطعن الرسالات ; ولا غريبة من الغرائب , التي لا عهد للأرض بها ; أو لا عهد بها لبني إسرائيل أنفسهم . إنما هي حلقة من سلسلة الحجة التي يأخذها الله على العباد قبل الحساب . فقد أوحى إليه كما أوحى إلى الرسل من قبله . وقد آتاه الله النبوة والحكم , كما آتى أنبياء بني إسرائيل ! فلا غرابة في رسالته , ولا غرابة في قيادته , ولا غرابة في حاكميته . وكلها مألوف في عالم الرسالات . وكل تعلات بني إسرائيل في هذا الأمر كاذبة , وكل شبهاتهم كذلك باطلة . ولهم سوابق مثلها مع نبيهم الأكبر موسى عليه السلام , ومع أنبيائهم من بعده , وبخاصة مع عيسى عليه السلام , ومن ثم لا يجوز أن يلقي باله إليها أحد من المسلمين .

وتتولى آيات كثيرة في السورة بيان هذه الحقيقة . نقتطف بعضها في هذا المجمل ; حتى تجيء كلها مشروحة في مكانها من السياق:

(إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده . وأوحينا إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط , وعيسى وأيوب

ويونس وهارون وسليمان وآتينا داود زبورا . ورسلا قد قصصناهم عليك من قبل , ورسلا لم نقصصهم عليك , وكلم الله موسى تكليما . رسلا مبشرين ومنذرين , لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل , وكان الله عزيزا حكيما . لكن الله يشهد بما أنزل إليك , أنزله بعلمه . والملائكة يشهدون . وكفى بالله شهيدا). . [163 - 166] . .

(يسألك أهل الكتاب أن تنزل عليهم كتابا من السماء , فقد سألوا موسى أكبر من ذلك فقالوا:أرنا الله جهرة). . .(فبما نقضهم ميثاقهم وكفرهم بآيات الله , وقتلهم الأنبياء بغير حق). . .(وبكفرهم وقولهم على مريم بهتانا عظيما . وقولهم:إنا قتلنا المسيح عيسى بن مريم - رسول الله - وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم . .)[153 - 157] .

(أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله ? فقد آتينا آل إبراهيم الكتاب والحكمة , وآتيناهم ملكا عظيما . فمنهم من آمن به ومنهم من صد عنه . .). . [54 - 55] . .

وكما تتولى السورة نصيبها من تنظيم المجتمع المسلم وتطهيره من رواسب الجاهلية ; وبيان معنى الدين , وحد الإيمان , وشرط الإسلام ; وترتب على هذا البيان مقتضياته من المبادىء والتوجيهات التي أسلفنا بيانها بصفة عامة ; وتتولى دفع شبهات اليهود وكيدهم - وبخاصة فيما يتعلق بصحة الرسالة - فهي كذلك تتولى بيان بعض مقومات التصور الإ سلامي الأساسية , وتجلو عنها الغبش . وتبين ما في عقيدة أهل الكتاب - من النصارى - من غلو , بعد دفع المقولات اليهودية الكاذبة عن عيسى عليه السلام وأمه الطاهرة , وتقرر وحدة الألوهية وحقيقة العبودية , وتبين حقيقة قدر الله وعلاقته بخلقه , وحقيقة الأجل وعلاقته بقدر الله , وحدود ما يغفره الله من الذنوب , وحدود التوبة وحقيقتها , وقواعد العمل والجزاء . . . إلى آخر هذه المقومات الاعتقادية الأصيلة . وذلك في مثل هذه النصوص:

(إنما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب .

فأولئك يتوب الله عليهم , وكان الله عليما حكيما . وليست التوبة للذين يعملون السيئات , حتى إذا حضر أحدهم الموت قال:إني تبت الآن ! ولا الذين يموتون وهم كفار . أولئك أعتدنا لهم عذابا أليما). . [17- 18] .

(يريد الله ليبين لكم , ويهديكم سنن الذين من قبلكم , ويتوب عليكم , و الله عليم حكيم . والله يريد أن يتوب عليكم , ويريد الذين يتبعون الشهوات أن تميلوا ميلا عظيما . يريد الله أن يخفف عنكم , وخلق الإ نسان ضعيفا)

(إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم , وندخلكم مدخلا كريما). . [آية 31] . .

(إن الله لا يظلم مثقال ذرة , وإن تك حسنة يضاعفها , ويؤت من لدنه أجرا عظيما). . [40] . .

ألم تر إلى الذين قيل لهم كفوا أيديكم , وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة . فلما كتب عليهم القتال إذا فريق منهم يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية , وقالوا:ربنا لم كتبت علينا القتال ? لولا أخرتنا إلى أجل قريب ! قل:متاع الدنيا قليل , والآخرة خير لمن اتقى , ولا تظلمون فتيلا . أينما تكونوا يدرككم الموت - ولو كنتم في بروج مشيدة - وإن تصبهم حسنة يقولوا:هذه من عند الله . وإن تصبهم سيئة يقولوا:هذه من عندك ! قل:كل من عند الله , فما لهؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثا . ما أصابك من حسنة فمن الله , وما أصابك من سيئة فمن نفسك . . [77 - 79] . .

إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء . ومن يشرك ب الله فقد ضل ضلالا بعيدا [116] . .

(ليس بأمانيكم ولا أماني أهل الكتاب . من يعمل سوءا يجز به , ولا يجد له من دون الله وليا ولا نصيرا . ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى - وهو مؤمن - فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون نقيرا). . [123 -

.. [124

(ما يفعل الله بعذابكم إن شكرتم وآمنتم ? وكان الله شاكرا عليما). .
.. [147]

(إن الذين يكفرون بالله ورسله , ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله , ويقولون:نؤمن ببعض ونكفر ببعض , ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلا . أولئك هم الكافرون حقا , وأعتدنا للكافرين عذابا مهينا . والذين آمنوا بالله ورسله , ولم يفرقوا بين أحد منهم , أولئك سوف يؤتيهم أجورهم وكان الله غفورا رحيما). . [150 - 152] . .

(يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم , ولا تقولوا على الله إلا الحق , إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله , وكلمته ألقاها إلى مريم , وروح منه , فآمنوا بالله ورسله , ولا تقولوا:ثلاثة . انتهوا خيرا لكم . إنما الله إله واحد . سبحانه أن يكون له ولد ! له ما في السماوات وما في الأرض , وكفى بالله وكيلا . لن يستنكف المسيح أن يكون عبدا لله ولا الملائكة المقربون ومن يستنكف عن عبادته ويستكبر فسيحشرهم إليه جميعا . فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيوفيهم أجورهم , ويزيدهم من فضله . وأما الذين استنكفوا واستكبروا فيعذبهم عذابا أليما , ولا يجدون لهم من دون الله وليا ولا نصيرا). . [171 - 173] . .

ثم الأسس الأخلاقية الرفيعة , التي يقام عليها بناء المجتمع المسلم . . و السورة تعرض من هذه الأسس جمهرة صالحة . سبقت الإشارة إلى بعضها . فالعنصر الأخلاقي أصيل وعميق في كيان التصور الإسلامي , وفي كيان المجتمع المسلم ; بحيث لا يخلو منه جانب من جوانب الحياة ونشاطها كله . . ونحن نكتفي هنا بالإشارة السريعة المجملة إلى بعض الأسس المستمدة من هذا العنصر الأصيل في حياة الجماعة المسلمة ; بالإضافة إلى ما سبقت الإشارة إليه من محتويات السورة .

إنه مجتمع يقوم على العبودية لله وحده ; فهو مجتمع متحرر إذن من

كل عبودية للعبيد , في أية صورة من صور العبودية , المتحققة في كل نظام على وجه الأرض , ما عدا النظام الإسلامي ; الذي تتوحد فيه الأ لوهيةوتتمحض لله ; فلا تخلع خاصية من خواصها على أحد من عباده ; ولا يدين بها الناس لأحد من عبيده . . ومن هذه الحرية تنطلق الفضائل كلها , وتنطلق الأخلاقيات كلها , لأن مرجعها جميعا إلى ابتغاء رضوان الله , ومرتقاها ممتد إلى التحلي بأخلاق الله , وهي مبراة إذن من النفاق والرياء , والتطلع إلى غير وجه الله . . وهذا هو الأصل الكبير في أخلا قية الإسلام , وفي فضائل المجتمع المسلم . .

ثم ترد بعض مفردات العنصر الأخلاقي - إلى جانب ذلك الأصل الكبير - في السورة . . فهو مجتمع يقوم على الأمانة . والعدل . وعدم أكل الأ موال بالباطل . وعدم النجوى والتآمر إلا في معروف . وعدم الجهر بـ ـالسوء من القول إلا من ظلم . والشفاعة الحسنة . والتحية الحسنة . ومنع الفاحشة . وتحريم السفاح والمخادنة . وعدم الاختيال والفخر , و الرياء والبخل , والحسد والغل . . كما يقوم على التكافل والتعاون و التناصح والتسامح , والنخوة والنجدة , وطاعة القيادة التي لها وحدها حق الطاعة . . إلخ .

وقد سبق ذكر معظم النصوص التي تشير إلى هذه الأسس . . وسيرد تفصيلها عند استعراضها في موضعها من السياق . . فنكتفي هنا بالإ شارة إلى الحادث الفذ , الذي يشير إلى القمة السامقة , التي تتطلع إليها أنظار الإنسانية , وتظل تتطلع , ولا تبلغ إليها أبدا - كما لم تبلغ إليها قط - إلا في ظل هذا المنهج الفريد العجيب:

. . في الوقت الذي كانت يهود تكيد ذلك الكيد الجاهد للإسلام ونبيه , وللصف المسلم وقيادته . . كان القرآن يصنع الأمة المسلمة على عين الله , فيرتفع بتصوراتها وأخلاقها , ونظامها وإجراءاتها إلى القمة السامقة . . وكان يعلج حادثا يتعلق بيهودي فرد , هذا العلاج الذي سنذكره . .

كان الله يأمر الأمة المسلمة بالأمانة المطلقة , وبالعدل المطلق "بين

الناس" . . الناس على اختلاف أجناسهم وعقائدهم , وقومياتهم وأوطانهم . . كان يقول لهم:(إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها , وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل . إن الله نعما يعظكم به ! إن الله كان سميعا بصيرا). . [آية 58] . . وكان يقول لهم:(يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله , ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين , إن يكن غنيا أو فقيرا فالله أولى بهما . فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا , وإن تلووا أو تعرضوا فإن الله كان بما تعملون خبيرا).
.

ثم . . كانت الآيات ذوات العدد من القرآن تتنزل لإنصاف يهودي . . فرد . . من اتهام ظالم , وجهته إليه عصبة من المسلمين من الأنصار , ممن لم ترسخ في قلوبهم هذه المبادىء السامقة بعد , ولم تخلص نفوسهم من رواسب الجاهلية كل الخلوص . فدفعتهم عصبية الدم والعشيرة إلى تبرئة أحدهم باتهام هذا اليهودي ! والتواطؤ على اتهامه , والشهادة ضده - في حادث سرقة درع - أمام النبي [ص] حتى كاد أن يقضي عليه بحد السرقة , ويبرىء الفاعل الأصلي !

تنزلت هذه الآيات ذوات العدد , فيها عتاب شديد للنبي [ص] وفيها إنحاء باللائمة على العصبة من أهل المدينة الذين آووا النبي [ص] وعزروه ونصروه . . إنصافا ليهودي , من تلك الفئة التي تؤذي رسول الله [ص] أشد الإيذاء , وتنصب لدعوته , وتكيد له وللمسلمين هذا الكيد اللئم ! وفيها تهديد وإنذار لمن يكسب خطيئة أو إثما ثم يرمي به بريئا . وفيها - من ثم - تلك النقلة العجيبة , إلى تلك القمة السامقة , وتلك الإ شارة الوضيئة إلى ذلك المرتقى الصاعد .

لقد تنزلت هذه الآيات كلها في حادث ذلك اليهودي . . من يهود . .

(إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله , ولا تكن للخائنين خصيما . واستغفر الله , إن الله كان غفورا رحيما . ولا تجادل عن الذين يختانون أنفسهم , إن الله لا يحب من كان خوانا أثيما .

يستخفون من الناس ولا يستخفون من الله - وهو معهم - إذ يبيتون ما لا يرضى من القول , وكان الله بما يعملون محيطا . ها أنتم هؤلاء جادلتم عنهم في الحياة الدنيا , فمن يجادل الله عنهم يوم القيامة ? أم من يكون عليهم وكيلا ? ومن يعمل سوءا أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفورا رحيما . ومن يكسب إثما فإنما يكسبه على نفسه , وكان الله عليما حكيما . ومن يكسب خطيئة أو إثما , ثم يرم به بريئا , فقد احتمل بهتانا وإثما مبينا . ولولا فضل الله عليك ورحمته لهمت طائفة منهم أن يضلوك , وما يضلون إلا أنفسهم , وما يضرونك من شيء , وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة , وعلمك ما لم تكن تعلم , وكان فضل الله عليك عظيما . لا خير في كثير من نجواهم , إلا من أمر بصدقة أو معروف , أو إصلاح بين الناس , ومن يفعل ذلك ابتغاء مرضاة الله فسوف نؤتيه أجرا عظيما , ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى , ونصله جهنم وساءت مصيرا . إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء , ومن يشرك بالله فقد ضل ضلالا بعيدا). . [105 - 116] . .

فماذا ? ماذا يملك الإنسان أن يقول ? ألا أنه المنهج الفريد , الذي يملك - وحده - أن يلتقط الجماعة البشرية , من سفح الجاهلية ذاك ; فيرتقي بها في ذلك المرتقى الصاعد ; فيبلغ بها إلى تلك القمة السامقة , في مثل هذا الزمن القصير ?!

والأن نكتفي بهذه التقدمة للسورة , وموضوعاتها , وخط سيرها . . وقد أشرنا إلى ذلك الحشد من الحقائق والتصورات , والتوجيهات و التشريعات , التي تتضمنها . . مجرد إشارة . . عسى أن نبلغ شيئا في بيانها التفصيلي , عند استعراض النصوص في مكانها من السياق . .

والموفق هو الله . .

نزل هذا القرآن الكريم على قلب رسول الله [ص] لينشىء به أمة ; وليقيم به دولة ; ولينظم به مجتمعا ; وليربي به ضمائر وأخلاقا وعقولا ; وليحدد به روابط ذلك المجتمع ; فيما بينه ; وروابط تلك الدولة مع سائر الدول ; وعلاقات تلك الأمة بشتى الأمم . . وليربط ذلك كله برباط قوي واحد , يجمع متفرقة , ويؤلف أجزاءه , ويشدها كلها إلى مصدر واحد , وإلى سلطان واحد , وإلى جهة واحدة . . وذلك هو الدين , كما هو في حقيقته عند الله ; وكما عرفه المسلمون . أيام أن كانوا "مسلمين" !

ومن ثم نجد في هذه السورة - كما وجدنا في السور الثلاث الطوال قبلها - موضوعات شتى ; الرابط بينها جميعا هو هذا الهدف الأصيل الذي جاء القرآن كله لتحقيقه:إنشاء أمة , وإقامة دولة , وتنظيم مجتمع ; على أساس من عقيدة خاصة , وتصور معين , وبناء جديد . . الأصل فيه إفراد الله - سبحانه - بالألوهية والربوبية والقوامة والسلطان ; وتلقي منهج الحياة وشريعتها ونظامها وموازينها وقيمها منه وحده بلا شريك .

.

وكذلك نجد بناء التصور الاعتقادي وتوضيحه وتخليصه من أساطير الوثنية , وانحرافات أهل الكتاب وتحريفاتهم . . إلى جانب تبصير الجماعة المسلمة بحقيقة ذاتها وحقيقة دورها , وطبيعة طريقها وما في هذا الطريق من مزالق وأشواك , وشباك يرصدها لها أعداؤها وأعداء هذا الدين . . إلى جانب أحكام الشعائر التعبدية التي تطهر روح الفرد المسلم وروح الجماعة المسلمة ; وتربطها بربها . إلى جانب التشريعات الا جتماعية التي تنظم روابط مجتمعها ; والتشريعات الدولية التي تنظم ع لاقاتها بغيرها . . إلى جانب التشريعات التي تحلل وتحرم ألوانا من المآكل والمشارب والمناكح ; أو ألوانا من الأعمال والمسالك . . كل ذلك حزمة واحدة في السورة الواحدة يمثل معنى "الدين" كما أراده الله وكما فهمه المسلمون . أيام أن كانوا مسلمين .

على أن السياق القرآني - كما يبدو في هذه السورة وكما رأيناه في سورتي آل عمران والنساء من قبل لا يكتفي بهذا المعنى الضمني المستفاد من سوق هذه الموضوعات كلها في إطار سورة واحدة ; وسوقها كذلك في شتى سور القرآن المتفرقة التي تؤلف هذا الكتاب ; وتمثل المنهج الرباني الذي يتضمنه . . لا يكتفي السياق القرآني هنا بهذا المعنى الضمني ; إنما ينص عليه نصا ; ويؤكده تأكيدا ; ويتكى ء عليه اتكاء شديدا وهو ينص على أن هذا كله هو "الدين" ; وأن الإقرار به كله هو "الإيمان" ; وأن الحكم به كله "هو الإسلام" . . وأن الذين لا يحكمون بما أنزل الله هم الكافرون . الظالمون . الفاسقون . . . وأنهم - إذن - يبتغون حكم الجاهلية ولا يبتغي حكم الجاهلية المؤمنون المسلمون .

وهذا الأصل الكبير هو الذي يبرز في هذه السورة بروزا واضحا مقررا منصوصا عليه نصا . إلى جانب تصحيح التصور الاعتقادي الذي يقوم عليه هذا الأصل الكبير . .

ويحسن أن نصور من سياق النصوص القرآنية في السورة كيف برز هذان الأصلان الكبيران في سياقها كله , وكيف يقوم هذا على ذاك قياما طبيعيا ومنطقيا .

إن السياق القرآني يستند في تقرير أن الحكم بما أنزل الله هو "الإسلام" ; وأن ما شرعه الله للناس من حلال أو حرام هو "الدين" إلى أن الله هو "الإله الواحد" لا شريك له في ألوهيته ; وإلى أن الله هو الخالق الواحد لا شريك له في خلقه . وإلى أن الله هو المالك الواحد لا شريك له في ملكه . . ومن ثم يبدو حتميا ومنطقيا ألا يقضي شيء إلا بشرعه وإذنه . فالخالق لكل شيء , المالك لكل شيء , هو صاحب الحق , وصاحب السلطان في تقرير المنهج الذي يرتضيه لملكه ولخلقه . . هو الذي يشرع فيما يملك ; وهو الذي يطاع شرعه وينفذ حكمه ; وإلا فهو الخروج و المعصية والكفر . . إنه هو الذي يقرر الاعتقاد الصحيح للقلب ; كما يقرر النظام الصحيح للحياة سواء بسواء . والمؤمنون به هم الذين يؤمنون ب

العقيدة التي يقررها ; ويتبعون النظام الذي يرتضيه . هذه كتلك سواء بسواء . وهم يعبدونه بإقامة الشعائر , ويعبدونه باتباع الشرائع , بلا تفرقة بين الشعيرة والشريعة ; فكلتاهما من عند الله , الذي لا سلطان لأحد في ملكه وعباده معه . بما أنه هو الإله الواحد . المالك الواحد . العليم بما في السموات والأرض جميعا . . ومن ثم فإن الحكم بشريعة الله هو دين كل نبي ; لأنه هو دين الله , ولا دين سواه .

ومن ثم تتوارد النصوص هكذا في ثنايا السورة ; في تقرير الألوهية الواحدة ; ونفي كل شرك أو تثليث أو خلط بين ذات الله - سبحانه - وبين غيره . أو بين خصائص الألوهية , وخصائص العبودية على الإطلاق: يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم كثيرا مما كنتم تخفون من الكتاب ويعفو عن كثير . قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين . يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام . ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه . ويهديهم إلى صراط مستقيم . لقد كفر الذين قالوا:إن الله هو المسيح ابن مريم . قل . فمن يملك من الله شيئا إن أراد أن يهلك المسيح ابن مريم وأمه ومن في الأرض جميعا ? ولله ملك السماوات والأرض وما بينهما , يخلق ما يشاء . والله على كل شيء قدير . وقالت اليهود والنصارى:نحن أبناء الله وأحباؤه ! قل فلم يعذبكم بذنوبكم ? بل أنتم بشر ممن خلق . يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء . ولله ملك السماوات والأرض وما بينهما , وإليه المصير . يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم على فترة من الرسل , أن تقولوا:ما جاءنا من بشير ولا نذير . فقد جاءكم بشير ونذير . والله على كل شيء قدير . .

(لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم . وقال المسيح:يا بني إسرائيل اعبدوا الله ربي وربكم , إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة , ومأواه النار , وما للظالمين من أنصار . لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة . وما من إله إلا إله واحد . وإن لم ينتهوا عما يقولون ليمسن الذين كفروا منهم عذاب أليم . . .

ولأن الله هو وحده الإله , وهو وحده الخالق , وهو وحده المالك . . فهو وحده الذي يشرع , هو وحده الذي يحلل ويحرم , وهو وحده الذي يطاع فيما يشرع وفيما يحرم أو يحلل . كما أنه هو وحده الذي يعبد , وهو وحده الذي يتوجه إليه العباد بالشعائر . وقد أخذ الميثاق على عباده بهذا كله ; فهو يطالب الذين آمنوا أن يفوا بميثاقهم وتعاقدهم معه ; ويحذرهم عواقب نقض الميثاق وخلف العقود ; كما وقع من بني إسرائيل قبلهم:

(يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود . . .)

(يا أيها الذين آمنوا لا تحلوا شعائر الله , ولا الشهر الحرام , ولا الهدي , و لا القلائد , ولا آمين البيت الحرام يبتغون فضلا من ربهم ورضوانا . . .)

واذكروا نعمة الله عليكم وميثاقه الذي واثقكم به , إذ قلتم:سمعنا وأطعنا , واتقوا الله إن الله عليم بذات الصدور . يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا . اعدلوا هو أقرب للتقوى , واتقوا الله . إن الله خبير بما تعملون .

لقد أخذ الله ميثاق بني إسرائيل , وبعثنا منهم اثني عشر نقيبا ; وقال الله:إني معكم , لئن أقمتم الصلاة , وآتيتم الزكاة , وآمنتم برسلي , وعزرتموهم وأقرضتم الله قرضا حسنا , لأكفرن عنكم سيئاتكم , ولأ دخلنكم جنات تجري من تحتها الأنهار . فمن كفر بعد ذلك منكم فقد ضل سواء السبيل . فبما نقضهم ميثاقهم لعناهم وجعلنا قلوبهم قاسية يحرفون الكلم عن مواضعه , ونسوا حظا مما ذكروا به . ولا تزال تطلع على خائنة منهم - إلا قليلا منهم - فاعف عنهم واصفح إن الله يحب المحسنين . ومن الذين قالوا:إنا نصارى أخذنا ميثاقهم , فنسوا حظا مما ذكروا به ; فأغرينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة , وسوف ينبئهم الله بما كانوا يصنعون .

ويتضمن سياق السورة أحكاما شرعية منوعة:منها ما يتعلق بالحلال و الحرام من الذبائح ومن الصيد . ومنها ما يتعلق بالحلال والحرام في فترة الإحرام وفي المسجد الحرام . ومنها ما يتعلق بالحلال والحرام من النكاح . ومنها ما يتعلق بالطهارة والصلاة . ومنها ما يتعلق بالقضاء وإقامة العدل فيه . ومنها ما يتعلق بالحدود في السرقة وفي الخروج على الجماعة المسلمة . ومنها ما يتعلق بالخمر والميسر والأنصاب والأزلا م . ومنها ما يتعلق بالكفارات في قتل الصيد مع الإحرام وفي اليمين . ومنها ما يتعلق بالوصية عند الموت . ومنها ما يتعلق بالبحيرة والسائبة والوصيلة والحامي من الأنعام , ومنها ما يتعلق بشريعة القصاص في التوراة مما جعله الله كذلك شريعة للمسلمين . . وهكذا تلتقي الشرائع بـ الشعائر في سياق السورة بلا حاجز ولا فاصل !

وإلى جوار هذه الأحكام الشرعية المنوعة يجيء الأمر بالطاعة والتقيد بما شرعه الله وما أمر به ; والنهي عن التحريم والتحليل إلا بإذنه ; ويجيء النص على أن هذا هو الدين الذي ارتضاه الله للأمة المؤمنة بعد أن أكمله وأتم به نعمته:

(يا أيها الذين آمنوا لا تحلوا شعائر الله , ولا الشهر الحرام , ولا الهدي , و لا القلائد , ولا آمين البيت الحرام يبتغون فضلا من ربهم ورضوانا . .). .

(يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم ولا تعتدوا . . .). .

(وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول واحذروا . .). .

5: وم أكملت لكم دينكم , وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينًا . . ولا يدع السياق أمر الطاعة والاتباع في التحليل والتحريم مجه لا . إنما هو ينص نصا على وجوب الحكم بما أنزل الله - دون سواه - وإلا فهو الكفر والظلم والفسق . . وتتوارد النصوص القرآنية في هذا الأمر حاسمة جازمة على هذا النسق:

(يا أيها الرسول لا يحزنك الذين يسارعون في الكفر , من الذين ق

الوا:آمنا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم , ومن الذين هادوا , سماعون للكذب , سماعون لقوم آخرين لم يأتوك . يحرفون الكلم من بعد مواضعه ; يقولون:إن أوتيتم هذا فخذوه وإن لم تؤتوه فاحذروا - ومن يرد الله فتنته فلن تملك له من الله شيئا - أولئك الذين)(لم يرد الله أن يطهر قلوبهم , لهم في الدنيا خزي , ولهم في الآخرة عذاب عظيم . سماعون للكذب أكالون للسحت . فإن جاءوك فاحكم بينهم أو أعرض عنهم . وإن تعرض عنهم فلن يضروك شيئا . وإن حكمت فاحكم بينهم بـ القسط , إن الله يحب المقسطين , وكيف يحكمونك وعندهم التوراة فيها حكم الله , ثم يتولون من بعد ذلك , وما أولئك بالمؤمنين . إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور , يحكم بها النبيون الذين أسلموا , للذين هادوا , والربانيون والأحبار بما استحفظوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء . فـ لا تخشوا الناس واخشون , ولا تشتروا بآياتي ثمنا قليلا . . ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون . . وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس , والعين بالعين , والأنف بالأنف , والأذن بالأذن , والسن بالسن , والجروح قصاص . فمن تصدق به فهو كفاره له . . ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون . . وقفينا على آثارهم بعيسى بن مريم , مصدقا لما بين يديه من التوراة , وآتيناه الإنجيل , فيه هدى ونور , ومصدقا لما بين يديه من التوراة , وهدى وموعظة للمتقين , وليحكم أهل الإنجيل بما أنزل الله فيه . . ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون . . وأنزلنا إليك الكتاب بالحق , مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه . . فاحكم بينهم بما أنزل الله , ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق . . لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا . ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ; ولكن ليبلوكم فيما آتاكم فاستبقوا الخيرات , إلى الله مرجعكم جميعا , فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون . . وأن احكم بينهم بما أنزل الله , ولا تتبع أهواءهم , واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك . . فإن تولوا فاعلم أنما يريد الله أن يصيبهم ببعض ذنوبهم , وإن كثيرا من الناس لفاسقون . . أفحكم الجاهلية يبغون ? ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون ?). .

وهكذا تتبين القضية . . إله واحد . وخالق واحد . ومالك واحد . . وإذن فحاكم واحد . ومشرع واحد . ومتصرف واحد . . وإذن فشريعة واحدة , ومنهج واحد , وقانون واحد . . وإذن فطاعة واتباع وحكم بما أنزل الله , فهو إيمان وإسلام . أو معصية وخروج وحكم بغير ما أنزل الله , فهو كفر وظلم وفسوق . . وهذا هو الدين كما أخذ الله ميثاق العباد جميعا عليه , وكما جاء به كل الرسل من عنده . . أمة محمد والأمم قبلها على السواء . .

ولم يكن بد أن يكون "دين الله" هو الحكم بما أنزل الله دون سواه . فهذا هو مظهر سلطان الله . مظهر حاكمية الله . مظهر أن لا إله إلا الله .

وهذه الحتمية:حتمية هذا التلازم بين "دين الله" و"الحكم بما أنزل الله" لا تنشأ فحسب من أن ما أنزل الله خير مما يصنع البشر لأنفسهم من مناهج وشرائع وأنظمة وأوضاع . فهذا سبب واحد من أسباب هذه الحتمية . وليس هو السبب الأول ولا الرئيسي . إنما السبب الأول و الرئيسي , والقاعدة الأولى والأساس في حتمية هذا التلازم هي أن الحكم بما أنزل الله إقرار بألوهية الله , ونفي لهذه الألوهية وخصائصها عمن عداه . وهذا هو "الإسلام" بمعناه اللغوي:"الاستسلام" وبمعناه الا صطلاحي كما جاءت به الأديان . . الإسلام لله . . والتجرد عن ادعاء الأ لوهية معه ; وادعاء أخص خصائص الألوهية , وهي السلطان و الحاكمية , وحق تطويع العباد وتعبيدهم بالشريعة والقانون .

ولا يكفي إذن أن يتخذ البشر لأنفسهم شرائع تشابه شريعة الله . أو حتى شريعة الله نفسها بنصها , إذا هم نسبوها إلى أنفسهم , ووضعوا عليها شاراتهم ; ولم يردوها لله ; ولم يطبقوها باسم الله , إذعانا لسلطانه , واعترافا بألوهيته ; وبتفرده بهذه الألوهية . التفرد الذي يجرد العباد من حق السلطان والحاكمية , إلا تطبيقالشريعة الله , وتقريرا لسلطانه في الأرض .

ومن هذه الحتمية ينشأ الحكم الذي تقرره الآيات في سياق السورة:

(ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون). . (ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون). . (ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون). . ذلك أن الذين لا يحكمون بما أنزل الله يعلنون رفضهم لألوهية الله - سبحانه - ورفضهم لإفراد الله - سبحانه - بهذه الألوهية . يعلنون هذا الرفض بعملهم وواقعهم ; ولو لم يعلنوه بأفواههم وألسنتهم . ولغة العمل والواقع أقوى وأكبر من لغة الفم واللسان . ومن ثم يصمهم القرآن بالكفر والظلم والفسق , أخذا من رفضهم لألوهية الله - حين يرفضون حاكميته المطلقة ; وحين يجعلون لأنفسهم خاصة الألوهية الأ ولى فيشرعون للناس من عند أنفسهم ما لم يأذن به الله .

وعلى هذا المعنى يتكى ء سياق السورة ونصوصها الواضحة الصريحة كذلك .

شأن آخر يتناوله سياق السورة ; غير بناء التصور الاعتقادي الصحيح , وبيان الانحرافات التي تتلبس به عند أهل الكتاب وأهل الجاهلية ; وغير بيان معنى "الدين" وأنه الاعتقاد الصحيح والطاعة والتلقي من الله وحده في التحريم والتحليل , والحكم بما أنزل الله وحده دون تعديل أو تحريف أو تبديل .

ذلك هو شأن هذه الأمة المسلمة ; دورها الحقيقي في هذه الأرض ; وموقفها تجاه أعدائها , وكشف هؤلاء الأعداء , وكيدهم لهذه الأمة ولهذا الدين ; وبيان ما هم عليه من الضلالة والانحراف في عقيدتهم ; وما هم عليه كذلك من العداء للجماعة المسلمة وإجماع الكيد لها . . إنها المعركة التي يخوضها القرآن الكريم بالجماعة المسلمة ; والتي سبق الحديث عنها في السور الثلاث الطوال السابقة . .

إن كتاب هذه الأمة هو كتاب الله الأخير للبشر ; وهو يصدق ما بين يديه من الكتاب في أصل الاعتقاد والتصور ; ولكنه - بما أنه هو الكتاب الأخير - يهيمن على كل ما سبقه وإليه تنتهي شريعة الله التي ارتضاها لعباده إلى يوم الدين ; فما أقره من شرائع أهل الكتاب قبله فهو من شرع الله ;

وما نسخه فقد فقد صفته هذه وإن كان واردا في كتاب من الكتب المنزلة:

اليوم أكملت لكم دينكم , وأتممت عليكم نعمتي , ورضيت لكم الإسلام دينًا . .

(وأنزلنا إليك الكتاب بالحق , مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه). .

ومن ثم فإن دور هذه الأمة هو أن تكون الوصية على البشرية ; تقيم العدل في الأرض , غير متأثرة بمودة أو شنآن , وغير ناظرة في إقامة العدل إلى ما أصابها أو يصيبها من الناس فهذه هي تكاليف القوامة و الوصاية والهيمنة . . وغير متأثرة كذلك بانحرافات الآخرين وأهوائهم وشهواتهم ; فلا تنحرف فيه شعرة عن منهجها وشريعتها وطريقها القويم ; لاسترضاء أحد أو لتأليف قلب ; وغير ناظرة إلا إلى الله وتقواه:

(ولا يجرمنكم شنآن قوم أن صدوكم عن المسجد الحرام أن تعتدوا ; وتعاونوا على البر والتقوى , ولا تعاونوا على الإثم والعدوان , واتقوا الله إن الله شديد العقاب). .

(يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله , شهداء بالقسط ; ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا . اعدلوا هو أقرب للتقوى , واتقوا الله , إن الله خبير بما تعملون).

وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه , فاحكم بينهم بما أنزل الله ; ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق .

(وأن احكم بينهم بما أنزل الله , ولا تتبع أهواءهم , واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك فإن تولوا فاعلم أنما يريد الله أن يصيبهم ببعض ذنوبهم , وإن كثيرا من الناس لفاسقون).

ومن مقتضيات أن هذه الأمة هي وارثة الرسالات ; وصاحبة الرسالة الأ خيرة , والدين الاخير ; وصاحبة الوصاية والقوامة على البشرية بهذا الدين الأخير . . ألا تتولى من يكفرون بهذا الدين ; ومن يتخذون فرائضه وشعائره هزوا ولعبا . إنما تتولى الله ورسوله , ولا تركن إلى ولا ية غير المؤمنين بالله ورسوله . فإنما هي أمة بعقيدتها لا بجنسها , ولا بأرضها , ولا بموروثاتها الجاهلية . إنما هي "أمة " بهذه العقيدة الجديدة , وبهذا المنهج الرباني , وبهذه الرسالة الأخيرة . . وهذه هي آصرة التجمع الوحيدة:

اليوم يئس الذين كفروا من دينكم فلا تخشوهم واخشون . اليوم أكملت لكم دينكم , وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينًا . .

(يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء ; بعضهم أولياء بعض , ومن يتولهم منكم فإنه منهم , إن الله لا يهدي القوم الظالمين). .

(إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون . ومن يتول الله ورسوله والذين آمنوا فإن حزب الله هم الغالبون). .

(يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا الذين اتخذوا دينكم هزوا ولعبا من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم والكفار أولياء , واتقوا الله إن كنتم مؤمنين , وإذا ناديتم إلى الصلاة اتخذوها هزوا ولعبا , ذلك بأنهم قوم لا يعقلون).
.

(يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم , لا يضركم من ضل إذا اهتديتم). .

أما أعداء هذه الأمة فهم أعداء الهدى , وأعداء منهج الله الصحيح دائما . وهم لا يريدون رؤية الحق ; كما أنهم لا يريدون ترك العداء المستحكم في قلوبهم لهذا الحق من قبل ومن بعد . وعلى الأمة المسلمة أن تعرفهم على حقيقتهم , من تاريخهم القديم مع رسل الله ; ومن موقفهم الجديد منها ومن رسولها ودينها القويم:

(ولقد أخذ الله ميثاق بني إسرائيل ; وبعثنا منهم اثني عشر نقيبا ; وقال الله:إني معكم . لئن أقمتم الصلاة , وآتيتم الزكاة , وآمنتم برسلي , وعزرتموهم , وأقرضتم الله قرضا حسنا , لأكفرن عنكم سيئاتكم ; ولأ دخلنكم جنات تجري من تحتها الأنهار . فمن كفر بعد ذلك منكم فقد ضل سواء السبيل . فيما نقضهم ميثاقهم لعناهم , وجعلنا قلوبهم قاسية , يحرفون الكلم عن مواضعه , ونسوا حظا مما ذكروا به . ولا تزال تطلع على خائنة منهم إلا قليلا منهم . فاعف عنهم واصفح , إن الله يحب المحسنين . . ومن الذين قالوا:إنا نصارى أخذنا ميثاقهم , فنسوا حظا مما ذكروا به ; فأغرينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة ; وسوف ينبئهم الله بما كانوا يصنعون .

(وإذ قال موسى لقومه:يا قوم اذكروا نعمة الله عليكم , إذ جعل فيكم أنبياء , وجعلكم ملوكا , وآتاكم ما لم يؤت أحدا من العالمين . يا قوم ادخلوا الأرض المقدسة التي كتب الله لكم ; ولا ترتدوا على أدباركم فتنقلبوا خاسرين . قالوا:يا موسى إن فيها قوما جبارين , وإنا لن ندخلها حتى يخرجوا منها , فإن يخرجوا منها فإنا داخلون . قال رجلان من الذين يخافون أنعم الله عليهما:ادخلوا عليهم الباب ; فإذا دخلتموه فإنكم غالبون , وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين . قالوا:يا موسى إنا لن ندخلها أبدا ما داموا فيها . فاذهب أنت وربك فقاتلا , إنا هاهنا قاعدون . قال:رب إني لا أملك إلا نفسي وأخي فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين . قال:فإنها محرمة عليهم أربعين سنة يتيهون في الأرض ; فلا تأس على القوم الفاسقين . .

. . . (من أجل ذلك كتبنا على بني إسرائيل أنه من قتل نفسا أو فساد في الأرض فكأنما قتل)(الناس جميعا ; ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعا . . ولقد جاءتهم رسلنا بالبينات , ثم إن كثيرا منهم بعد ذلك في ا لأرض لمسرفون). .

يا أيها الرسول لا يحزنك الذين يسارعون في الكفر , من الذين قالوا:آمنا

بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم ; ومن الذين هادوا . سماعون للكذب , سماعون لقوم آخرين لم يأتوك , يحرفون الكلم من بعد مواضعه , يقولون إن أوتيتم هذا فخذوه , وإن لم تؤتوه فاحذروا . ومن يرد الله فتنته فلن تملك له من الله شيئا . أولئك الذين لم يرد الله أن يطهر قلوبهم , لهم في الدنيا خزي , ولهم في الآخرة عذاب عظيم . سماعون للكذب أكالون للسحت . . إلخ. .

(قل:يا أهل الكتاب هل تنقمون منا إلا أن آمنا بالله , وما أنزل إلينا , وما أنزل من قبل ; وأن أكثركم فاسقون ? قل:هل أنبئكم بشر من ذلك مثوبة عند الله ? من لعنه الله وغضب عليه , وجعل منهم القردة والخنازير , وعبد الطاغوت . . أولئك شر مكانا وأضل عن سواء السبيل . .).

وإذا جاؤوكم قالوا آمنا , وقد دخلوا بالكفر وهم قد خرجوا به ; والله أعلم بما كانوا يكتمون . وترى كثيرا منهم يسارعون في الإثم والعدوان , وأكلهم السحت . لبئس ما كانوا يعملون ! لولا ينهاهم الربانيون والأحبار عن قولهم الإثم وأكلهم السحت ! لبئس ما كانوا يصنعون ! وقالت اليهود:يد الله مغلولة . غلت أيديهم , ولعنوا بما قالوا ! بل يداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء . وليزيدن كثيرا منهم ما أنزل إليك من ربك طغيانا وكفرا ; وألقينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة , كلما أوقدوا نارا للحرب أطفأها الله ; ويسعون في الأرض فسادا , والله لا يحب المفسدين .

(قل:يا أهل الكتاب لستم على شيء حتى تقيموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليكم من ربكم . وليزيدن كثيرا منهم ما أنزل إليك من ربك طغيانا وكفرا , فلا تأس على القوم الكافرين). .

(لقد أخذنا ميثاق بني إسرائيل وأرسلنا إليهم رسلا ; كلما جاءهم رسول بما لا تهوى أنفسهم فريقا كذبوا وفريقا يقتلون . وحسبوا ألا تكون فتنة فعموا وصموا . ثم تاب الله عليهم . ثم عموا وصموا . . كثير منهم . . و الله بصير بما يعملون).

لعن الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داود وعيسى ابن مريم . ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون . كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه . لبئس ما كانوا يفعلون . ترى كثيرا منهم يتولون الذين كفروا , لبئس ما قدمت لهم أنفسهم:أن سخط الله عليهم , وفي العذاب هم خالدون . ولو كانوا يؤمنون بالله والنبي وما أنزل إليه ما اتخذوهم أولياء . ولكن كثيرا منهم فاسقون . .

(لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا . ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا:إنا نصارى . ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا وأنهم لا يستكبرون). . إلخ .

وهذه الحملة الكاشفة على أعداء الجماعة المسلمة ; والتركيز فيها على اليهود والمشركين بصفة خاصة مع إشارات إلى المنافقين والنصارى أحيانا , تؤدي بنا إلى شأن آخر مما تعالجه هذه السورة:

إنها تعالج موقفا حاضرا في حياة الجماعة المسلمة في المدينة يومذاك . . كما تعالج موقف الأمة المسلمة , في تاريخها كله تجاه المعسكرات المعادية لها . . وإنها لهي هي . . على مدار الزمان !

ففي أية فترة تاريخية من حياة الجماعة المسلمة في المدينة تنزلت هذه السورة ?

في روايات كثيرة أن هذه السورة نزلت بعد سورة الفتح . . وسورة الفتح معروف أنها نزلت في الحديبية في العام السادس من الهجرة . . وفي بعض هذه الروايات أنها نزلت مرة واحدة فيما عدا الآية الثالثة , التي فيها: (اليوم أكملت لكم دينكم . . .)فإنها نزلت في حجة الوداع في السنة العاشرة . .

ولكن المراجعة الموضوعية للسورة للسورة مع أحداث السيرة تكاد تنفي هذه الرواية التي تقول:إن السورة نزلت بكاملها بعد "الفتح" ; فضلا على أن هناك حادثة من حوادث السيرة في غزوة بدر , تقطع بأن الآيات

الخاصة بموقف بني إسرئيل مع موسى - عليه السلام - من دخول الأ
رض المقدسة , كانت معروفة للمسلمين قبل غزوة بدر في السنة الثانية
الهجرية . وقد وردت إشارة إليها على لسان سعد بن معاذ الأنصارى -
رضي الله عنه - في رواية , وعلى لسان المقداد بن عمرو في رواية ,
وهو يقول لرسول الله [ص]:"إذن والله لا نقول لك يا رسول الله كما ق
ال قوم موسى لموسى: اذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون . .
ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما متبعون . . الخ" . .

أما المراجعة الموضوعية فتصور الموقف بأنه كانت لليهود - في ذلك الوقت الذي نزلت فيه الآيات الخاصة بهم - قوة ونفوذ وعمل في المدينة , وفي الصف المسلم ; مما اقتضى هذه الحملة لكشف موقفهم وإبطال كيدهم . وهذه القوة وهذا النفوذ كانا قد تضاءلا بعد وقعة بني قريظة , عقب غزوة الخندق , وقد تطهرت الأرض من القبائل الثلاث اليهودية القوية:بني قينقاع , وبني النضير وبني قريظة . فلم يكن لهم بعد الحديبية ما يدعو إلى العناية بشأنهم إلى هذا الحد . ثم لقد كانت فترة المهادنة معهم والخطة السليمة قد انتهت ولم يعد لها موضع بعد الذي بدا منهم . فقول الله تعالى لنبيه الكريم: (ولا تزال تطلع على خائنة منهم - إلا قليلا منهم - فاعف عنهم واصفح . .)لا بد سابق على هذه الفترة . وكذلك أمره بالحكم بينهم أو الإعراض عنهم . . ومن هذه الملا
حظات يترجح لدينا أن مطالع السورة وبعض مقاطعها هي التي نزلت بعد سورة الفتح ; بينما نزلت مقاطع منها قبل ذلك , كما أن الآية التي فيها قول الله تعالى: (اليوم أكملت لكم دينكم)لا بد أن تكون قد نزلت بعد ذلك . فقد كانت آخر ما نزل من القرآن على أرجح الأقوال . وأن السورة لم تنزل كلها مرة واحدة كما جاء في إحدى الروايات .

وكما قلنا من قبل في تقديم سورة البقرة , وتقديم سورة آل عمران , وتقديم سورة النساء , نقول هنا عن المعركة التي كان القرآن يخوضها , ب
الجماعة المسلمة , مع أعداء هذه الجماعة , وأعداء دينها , وفي مقدمتهم اليهود والمشركون والمنافقون , وذلك مع بناء التصور الإسلامي في

نفوس المؤمنين ; ومع تنظيم المجتمع الإسلامي بالتوجيهات و التشريعات . . كل ذلك في وقت واحد ; وفي منهج واحد ; وفي نفس واحد ! وأهم قواعد البناء:تخليص عقيدة التوحيد من كل غبش . وبيان معنى "الدين" وأنه هو منهج الحياة ; وأن الحكم بما أنزل الله وحده , و التلقي في شئون الحياة كلها من الله وحده هو الإيمان , وهو الإسلام ; وبغير هذا لا يكون هناك توحيد لله . فتوحيد الله هو إفراده - سبحانه - بالألوهية ; وبخصائص الألوهية بحيث لا يكون له فيها شريك . و الحاكمية والتشريع للناس من خصائص الألوهية , كتعبيدهم بالعبادة الشعائرية سواء بسواء . . وهذه السورة أشد تركيزا على هذه النقطة كما أسلفنا . . ومع تقارب الموضوعات التي تعالجها السور الطوال الثلاث السابقة مع الموضوعات التي تعالجها هذه السورة - كما يبدو من هذا الا ستعراض السريع - فإنه تبقى لكل سورة "شخصيتها" وجوها وظلالها وأسلوبها الخاص في معالجة هذه الموضوعات , والزوايا التي تعالجها منها , والأضواء التي تسلطها عليها ; ونوع المؤثرات الموحية المصاحبة للعرض ; بحيث تتميز "شخصية " كل سورة تماما ; ويبرز طابعها الخاص . والطابع البارز لهذه السورة هو طابع التقرير والحسم في التعبير . . سواء في ذلك الأحكام الشرعية التي تقتضي بطبيعتها التقرير والحسم في القرآن كله ; أو المبادى ء والتوجيهات , التي قد تتخذ في غير هذه السورة صورا أخرى ; ولكنها في هذه السورة تقرر في حسم وصرامة ; في أسلوب التقرير الدقيق , وهو الطابع العام المميز لشخصية السورة . . من بدئها إلى منتهاها . وقبل أن ننهي هذا التقديم للسورة لا يسعنا إلا أن نبرز الحقيقية التي تتضمنها الآية الثالثة منها . . فإن قول الله سبحانه لهذه الأمة: (اليوم أكملت لكم دينكم , وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينًا). . يتضمن توحيد المصدر الذي تتلقى منه هذه الأمة منهج حياتها ونظام مجتمعها , وشرائع ارتباطاتها ومصالحها إلى يوم القيامة , كما يتضمن استقرار هذا الدين بكل جزئياته الاعتقادية والتعبدية والتشريعية ; فلا تعديل فيها ولا تغيير ; فقد اكتمل هذا الدين وتم وانتهى أمره . وتعديل شيء فيه كإنكاره كله ; لأنه إنكار لما قرره

الله من تمامه وكماله ; وهذا الإنكار هو الكفر الذي لا جدال فيه . . أما العدول عنه كله إلى منهج آخر , ونظام آخر , وشريعة أخرى ; فلا يحتاج منا إلى وصف , فقد وصفه الله - سبحانه - في السورة . ولا زيادة بعد وصف الله - سبحانه - لمستزيد . . إن هذه الآية تقرر - بما لا مجال للجدال فيه - أنه دين خالد , وشريعة خالدة . وأن هذه الصورة التي رضيها الله للمسلمين دينا هي الصورة الأخيرة . . إنها شريعة ذلك الزمان وشريعة كل زمان ; وليس لكل زمان شريعة , ولا لكل عصر دين . . إنما هي الرسالة الأخيرة للبشر , قد اكتملت وتمت , ورضيها الله للناس دينا . فمن شاء أن يبدل , أو يحور , أو يغير أو يطور ! إلى آخر هذه التعبيرات التي تلاك في هذا الزمان , فليبتغ غير الإسلام دينا . . (ومن يبتغ غير الإ سلام دينا فلن يقبل منه). إن هذا المنهج الإلهي المشتمل على التصور الا عتقادي , والشعائر التعبدية , والشرائع المنظمة لنشاط الحياة كله ; يحكم ويصرف ويهيمن على نشاط الحياة كله ; وهو يسمح للحياة بأن تنمو في إطاره وترتقي وتتطور ; دون خروج على أصل فيه ولا فرع , لأ نه لهذا جاء , ولهذا كان آخر رسالة للبشر أجمعين . . إن تطور الحياة في ظل هذا المنهج لا يعني مجافاتها أو إهمالها لأصل فيه ولا فرع ; ولكن يعني أن طبيعة المنهج تحتوى كل الإمكانيات التي تسع ذلك التطور ; بلا خروج على أصل أو فرع . ويعني أن كل تطور في الحياة كان محسوبا حسابه في ذلك المنهج ; لأن الله - سبحانه - لم يكن يخفي عليه - وهو يضع هذا المنهج في صورته الأخيرة , ويعلن إكماله وارتضاءه للناس دينا - أن هناك تطورات ستقع , وأن هناك حاجات ستبرز , وأن هناك مقتضيات ستتطلبها هذه التطورات والحاجات . فلا بد إذن أن يكون هذا المنهج قد احتوى هذه المقتضيات جميعا . .

وما قدر الله حق قدره من يظن غير هذا في أمر من هذه الأمور . .

1 - طبيعة القرآن المكي وحله لمشكلات الإنسان

هذه السورة مكية . . من القرآن المكي . . القرآن الذي ظل يتنزل على رسول الله [ص] ثلاثة عشر عاما كاملة , يحدثه فيها عن قضية واحدة . قضية واحدة

ولم يتجاوز القرآن المكي هذه القضية الأساسية إلى شيء مما يقوم عليها من التفريعات المتعلقة بنظام الحياة , إلا بعد أن علم الله أنها قد استوفت ما تستحقه من البيان , وأنها استقرت استقرارا مكينا ثابتا في قلوب العصبة المختارة من بني الإنسان , التي قدر الله لها أن يقوم هذا الدين عليها ; وأن تتولى هي إنشاء النظام الواقعي الذي يتمثل فيه هذا الدين .

2 - حكمة البدء بالعقيدة وليس بالقومية أو الإجتماعية أو الأخلاقية

وأصحاب الدعوة إلى دين الله , وإقامة النظام الذي يتمثل فيه هذا الدين في واقع الحياة ; خليقون أن يقفوا طويلا أمام هذه الظاهرة الكبيرة . . ظاهرة تصدي القرآن المكي خلال ثلاثة عشر عاما . . لتقرير هذه العقيدة ; ثم وقوفه عندها لا يتجاوزها إلى شيء من تفصيلات النظام الذي يقوم عليها , والتشريعات التي تحكم المجتمع المسلم الذي يعتنقها . .

لقد شاءت حكمة الله أن تكون قضية العقيدة هي القضية التي تتصدى الدعوة لها منذ اليوم الأول للرسالة . وأن يبدأ رسول الله [ص] أولى خطواته في الدعوة , بدعوة الناس أن يشهدوا أن لا إله إلا الله ; وأن يمضي في دعوته يعرف الناس بربهم الحق , ويعبدهم له دون سواه .

ولم تكن هذه - في ظاهر الأمر وفي نظرة العقل البشري المحجوب - هي

أيسر السبل إلى قلوب العرب ! فلقد كانوا يعرفون من لغتهم معنى:"إله" ومعنى:"لا إله إلا الله" . . كانوا يعرفون أن الألوهية تعني الحاكمية العليا . . وكانوا يعرفون أن توحيد الألوهية وإفراد الله - سبحانه - بها , معناه نزع السلطان الذي يزاوله الكهان ومشيخة القبائل والأمراء و الحكام , ورده كله إلى الله . . السلطان على الضمائر , والسلطان على الشعائر , والسلطان على واقعيات الحياة . . السلطان في المال , و السلطان في القضاء , والسلطان في الأرواح والأبدان . . كانوا يعلمون أن:"لا إله إلا الله" ثورة على السلطان الأرضي , الذي يغتصب أولى خصائص الألوهية , وثورة على الأوضاع التي تقوم على قاعدة من هذا ا لاغتصاب ; وخروج على السلطات التي تحكم بشريعة من عندها لم يأذن بها الله . . ولم يكن يغيب عن العرب - وهم يعرفون لغتهم جيدا , ويعرفون المدلول الحقيقي لدعوة:"لا إله إلا الله" - ماذا تعنيه هذه الدعوة بالنسبة لأوضاعهم ورياساتهم وسلطانهم . . ومن ثم استقبلوا هذه الدعوة - أو هذه الثورة - ذلك الاستقبال العنيف , وحاربوها تلك الحرب التي يعرفها الخاص والعام

فلم كانت هذه نقطة البدء في هذه الدعوة ? ولم اقتضت حكمة الله أن تبدأ بكل هذا العناء ? لقد بعث رسول الله [ص] بهذا الدين , وأخصب بلاد العرب وأغناها ليست في أيدي العرب ; إنما هي في يد غيرهم من الأجناس ! بلاد الشام كلها في الشمال خاضعة للروم , يحكمها أمراء من العرب من قبل الرومان . وبلاد اليمن كلها في الجنوب خاضعة للفرس يحكمها أمراء من العرب من قبل الفرس . . وليس في أيدي العرب إلا الحجاز ونجد وما إليهما من الصحارى القاحلة , التي تتناثر فيها الواحات الخصبة هنا وهناك ! وكان في استطاعة محمد [ص] وهو الصادق الأمين ; الذي حكمه أشراف قريش قبل ذلك في وضع الحجر الأسود , وارتضوا حكمه , منذ خمسة عشر عاما ; والذي هو في الذؤابة من بني هاشم أعلى قريش نسبا . . كان في استطاعته أن يثيرها قومية عربية تستهدف تجميع قبائل العرب , التي أكلتها الثارات , ومزقتها النزاعات ,

وتوجيهها وجهة قومية لاستخلاص أرضها المغتصبة من الإمبراطوريات المستعمرة ; الرومان في الشمال والفرس في الجنوب ; وإعلاء راية العربية والعروبة ; وإنشاء وحدة قوية في كل أرجاء الجزيرة . . ولو دعا يومها رسول الله [ص] هذه الدعوة لاستجابت له العرب قاطبة - على ا لأرجح - بدلا من أن يعاني ثلاثة عشر عاما في اتجاه معارض لأهواء أصحاب السلطان في الجزيرة ! وربما قيل:إن محمدا [ص] كان خليقا بعد أن يستجيب له العرب هذه الاستجابة ; وبعد أن يولوه فيهم القيادة والسيادة ; وبعد استجماع السلطان في يديه والمجد فوق مفرقه . . أن يستخدم هذا كله في إقرار عقيدة التوحيد التي بعثه بها ربه , وفي تعبيد الناس لسلطان ربهم بعد أن عبدهم لسلطانه ! ولكن الله - سبحانه - وهو العليم الحكيم , لم يوجه رسوله [ص] هذا التوجيه ! إنما وجهه إلى أن يصدع بلا إله إلا الله:وأن يحتمل هو والقلة التي تستجيب له كل هذا العناء ! لماذا ? إن الله - سبحانه - لا يريد أن يعنت رسوله والمؤمنين معه . . إنما هو - سبحانه - يعلم أن ليس هذا هو الطريق . . ليس الطريق أن تخلص الأرض من يد طاغوت روماني أو طاغوت فارسي . . إلى يد طاغوت عربي . . فالطاغوت كله طاغوت ! . . إن الأرض لله , ويجب أن تخلص لله . ولا تخلص لله إلا أن ترتفع عليها راية:"لا إله إلا الله" . . وليس الطريق أن يتحرر الناس في هذه الأرض من طاغوت روماني أو طاغوت فارسي . . إلى طاغوت عربي . . فالطاغوت كله طاغوت ! إن الناس عبيد لله وحده , ولا يكونون عبيدا لله وحده إلا أن ترتفع راية:"لا إله إلا الله" . . "لا اله الا الله" كما كان يدركها العربي العارف بمدلولات لغته:لا حاكمية إلا لله , ولا شريعة إلا من الله , ولا سلطان لأحد على أحد , لأن السلطان كله لله . . ولأن الجنسية التي يريدها الإسلام للناس هي جنسية العقيدة , التي يتساوي فيها العربي والروماني والفارسي وسائر الأجناس والألوان تحت راية الله . وهذا هو الطريق .

وبعث رسول الله [ص] بهذا الدين , والمجتمع العربي كأسوأ ما يكون المجتمع توزيعا للثروة والعدالة . . قلة قليلة تملك المال والتجارة ;

وتتعامل بالربا فتضاعف تجارتها ومالها . وكثرة كثيرة لا تملك إلا الشظف والجوع . . والذين يملكون الثروة يملكون معها الشرف و المكانة ; وجماهير كثيفة ضائعة من المال والمجد جميعا ! وكان في استطاعة محمد [ص] أن يرفعها راية اجتماعية ; وأن يثيرها حربا على طبقة الأشراف ; وأن يطلقها دعوة تستهدف تعديل الأوضاع ورد أموال ا لأغنياء على الفقراء !

ولو دعا يومها رسول الله [ص] هذه الدعوة , لانقسم المجتمع العربي صفين:الكثرة الغالبة فيه مع الدعوة الجديدة , في وجه طغيان المال و الشرف . بدلا من أن يقف المجتمع كله صفا في وجه:"لا إله إلا الله" التي لم يرتفع إلى أفقها في ذلك الحين إلا الأفذاذ من الناس . وربما قيل:إن محمدا [ص] كان خليقا بعد أن تستجيب له الكثرة ; وتوليه قيادها ; فيغلب بها القلة ويسلس له مقادها . . أن يستخدم مكانه يومئذ وسلطانه في إقرار عقيدة التوحيد التي بعثه بها ربه , وفي تعبيد الناس لسلطان ربهم بعد أن عبدهم لسلطانه ! ولكن الله - سبحانه - وهو العليم الحكيم , لم يوجهه هذا التوجيه . .

لقد كان الله - سبحانه - يعلم أن هذا ليس هو الطريق . . كان يعلم أن العدالة الاجتماعية لا بد أن تنبثق في المجتمع من تصور اعتقادي شامل ; يرد الأمر كله لله ; ويقبل عن رضى وعن طواعية ما يقضي به الله من عدالة في التوزيع , ومن تكافل بين الجميع ; ويستقر معه في قلب الآخذ والمأخوذ منه أنه ينفذ نظاما يرضاه الله ;ويرجو على الطاعة فيه الخير والحسنى في الدنيا والآخرة سواء . فلا تمتلىء قلوب بـ الطمع , ولا تمتلىء قلوب بالحقد ; ولا تسير الأمور كلها بالسيف والعصا ; وبالتخويف والإرهاب ! ولا تفسد القلوب كلها وتختنق الأرواح ; كما يقع في الأوضاع التي نراها قد قامت على غير:"لا إله إلا الله" . . وبعث رسول الله [ص] والمستوى الأخلاقي في الجزيرة العربية في الدرك الأ سفل في جوانب منه شتى - إلى جانب ما كان في المجتمع من فضائل الخامة البدوية . كان التظالم فاشيا في المجتمع , تعبر عنه حكمة

الشاعر:زهير بن أبى سلمى: من لم يذد عن حوضه بسلاحه % يهدم , ومن لا يظلم الناس يظلم) ويعبر عنه القول المتعارف:"انصر أخاك ظالما أو مظلومًا" . وكانت الخمر والميسر من تقاليد المجتمع الفاشية ومن مفاخرة كذلك ! يعبر عن هذه الخصلة الشعر الجاهلي بجملته . . كالذي يقوله طرفة بن العبد: فلولا ثلاث هن من زينة الفتى % وجدك لم أحفل متى قام عودي) فمنهن سبقي العاذلات بشربة % كميت متى ما تعل بِالماء تزبد !) الخ

وكانت الدعارة - في صور شتى - من معالم هذا التجمع . . كالذي روته عائشة رضي الله عنها:

"إن النكاح في الجاهلية كان على أربعة أنحاء:فنكاح منها نكاح الناس اليوم:يخطب الرجل إلى الرجل وليته أو بنته , فيصدقها ثم ينكحها . . و النكاح الآخر كان الرجل يقول لامرأته - إذا طهرت من طمثها - أرسلي إلى فلان فاستبضعي منه . ويعتزلها زوجها ولا يمسها أبدا حتى يتبين حملها من ذلك الرجل الذي تستبضع منه . فإذا تبين حملها أصابها زوجها إذا أحب . وإنما يفعل ذلك رغبة في نجابة الولد ! فكان هذا النكاح نكاح الاستبضاع . . ونكاح آخر:يجتمع الرهط ما دون العشرة فيدخلون على المرآة , كلهم يصيبها . فإذا حملت ووضعت , ومر عليها ليال , بعد أن تضع حملها , أرسلت إليهم , فلم يستطع رجل منهم أن يمتنع , حتى يجتمعوا عندها , تقول لهم:قد عرفتم الذي كان من أمركم , وقد ولدت , فهو ابنك يا فلان , تسمي من أحبت باسمه فيلحق به ولدها , ولا يستطيع أن يمتنع به الرجل . والنكاح الرابع يجتمع الناس الكثير فيدخلون على المرأة لا تمتنع ممن جاءها - وهن البغايا كن ينصبن على أبوابهن الرايات تكون علما , فمن أرادهن دخل عليهن - فإذا حملت إحداهن ووضعت حملها , جمعوا لها ودعوا القافة , ثم ألحقوا ولدها بِالذي يرون فالتاطه , ودعي ابنه لا يمتنع من ذلك" . . . [أخرجه البخاري في كتاب النكاح] .

وكان في استطاعة محمد [ص] أن يعلنها دعوة إصلاحية , تتناول تقويم الأخلاق , وتطهير المجتمع , وتزكية النفوس , وتعديل القيم و الموازين . .

وكان واحدا وقتها - كما يجد كل مصلح أخلاقي في أية بيئة - نفوسا طيبة , يؤذيها هذا الدنس ; وتأخذها الأريحية والنخوة لتلبية دعوة الإصلاح والتطهير . .

وربما قال قائل:إنه لو صنع رسول الله [ص] ذلك فاستجابت له - في أول الأمر - جمهرة صالحة ; تتطهر أخلاقها , وتزكو أرواحها , فتصبح أقرب إلى قبول العقيدة وحملها . . بدلا من أن تثير دعوة أن لا إله إلا الله المعارضة القوية منذ أول الطريق !

ولكن الله - سبحانه - وهو العليم الحكيم , لم يوجه رسوله [ص] إلى مثل هذا الطريق . .

لقد كان الله - سبحانه - يعلم أن ليس هذا هو الطريق ! كان يعلم أن الأخلاق لا تقوم إلا على أساس من عقيدة , تضع الموازين , وتقرر القيم وتقرر السلطة التي ترتكن إليها هذه الموازين والقيم ; كما تقرر الجزاء الذي تملكه هذه السلطة وتوقعه على الملتزمين والمخالفين . وأنه قبل تقرير تلك العقيدة تظل القيم كلها متأرجحة ; وتظل الأخلاق التي تقوم عليها متأرجحة كذلك ; بلا ضابط , وبلا سلطان , وبلا جزاء !

فلما تقررت العقيدة - بعد الجهد الشاق - وتقررت السلطة التي ترتكن إليها هذه العقيدة . . لما عرف الناس ربهم وعبدوه وحده . . لما تحرر الناس من سلطان العبيد , ومن سلطان الشهوات سواء . . لما تقررت في القلوب:"لا إله إلا الله" . . صنع الله بها وبأهلها كل شيء مما يقترحه المقترحون . .

تطهرت الأرض من الرومان والفرس . . لا ليتقرر فيها سلطان العرب . . ولكن ليتقرر فيها سلطان الله . . لقد تطهرت من الطاغوت كله:رومانيا

وفارسيا وعربيا على السواء .

وتطهر المجتمع من الظلم الاجتماعي بجملته . وقام النظام الإسلامي يعدل بعدل الله , ويزن بميزان الله ويرفع راية العدالة الاجتماعية باسم الله وحده ; ويسميها راية الإسلام , لا يقرن إليها اسما آخر ; ويكتب عليها:"لا إله إلا الله" !

وتطهرت النفوس والأخلاق , وزكت القلوب والأرواح ; دون أن يحتاج الأ مر إلى الحدود والتعازير التي شرعها الله - إلا في الندرة النادرة - لأن الرقابة قامت هنالك في الضمائر ; ولأن الطمع في رضى الله وثوابه , و الحياء والخوف من غضبه وعقابه قد قامت كلها مقام الرقابة ومقام العقوبات . .

وارتفعت البشرية في نظامها , وفي أخلاقها , وفي حياتها كلها , إلى القمة السامقة التي لم ترتفع إليها من قبل قط ; والتي لم ترتفع إليها من بعد إلا في ظل الإسلام . .

ولقد تم هذا كله لأن الذين أقاموا هذا الدين في صورة دولة ونظام وشرائع وأحكام ; كانوا قد أقاموا هذا الدين من قبل في ضمائرهم وفي حياتهم , في صورة عقيدة وخلق وعبادة وسلوك . وكانوا قد وعدوا على إقامة هذا الدين وعدا واحدا , لا يدخل فيه الغلب والسلطان . . ولا حتى لهذا الدين على أيديهم . . وعدا واحدا لا يتعلق بشيء في هذه الدنيا . . وعدا واحدا هو الجنة . . هذا كل ما وعدوه على الجهاد المضني , والابتلاء الشاق , والمضي في الدعوة , ومواجهة الجاهلية بالأمر الذي يكرهه أصحاب السلطان , في كل زمان وفي كل مكان , وهو:"لا إله إلا الله" !

فلما أن ابتلاهم الله فصبروا ; ولما أن فرغت نفوسهم من حظ نفوسهم ; ولما أن علم الله منهم أنهم لا ينتظرون جزاء في هذه الأرض - كائنا ما كان هذا الجزاء ولو كان هو انتصار هذه الدعوة على أيديهم , وقيام هذا الدين في الأرض بجهدهم - ولما لم يعد في نفوسهم اعتزاز بجنس ولا

قوم , ولا اعتزاز بوطن ولا أرض . ولا اعتزاز بعشيرة ولا بيت . .

لما أن علم الله منهم ذلك كله , علم أنهم قد أصبحوا - إذن - أمناء على هذه الأمانة الكبرى . أمناء على العقيدة التي يتفرد فيها الله سبحانه بـ الحاكمية في القلوب والضمائر وفي السلوك والشعائر , وفي الأرواح والأ موال , وفي الأوضاع والأحوال . . وأمناء على السلطان الذي يوضع في أيديهم ليقوموا به على شريعة الله ينفذونها , وعلى عدل الله يقيمونه , دون أن يكون لهم من ذلك السلطان شيء لأنفسهم ولا لعشيرتهم ولا لقومهم ولالجنسهم ; إنما يكون السلطان الذي في أيديهم لله ولدينه وشريعته , لأنهم يعلمون أنه من الله , هو الذي آتاهم إياه .

ولم يكن شيء من هذا المنهج المبارك ليتحقق على هذا المستوى الرفيع , إلا أن تبدأ الدعوة ذلك البدء , وإلا أن ترفع الدعوة هذه الراية وحدها . . راية لا إله إلا الله . . ولا ترفع معها سواها . . وإلا أن تسلك الدعوة هذا الطريق الوعر الشاق في ظاهره ; المبارك الميسر في حقيقته .

وما كان هذا المنهج المبارك ليخلص لله , لو أن الدعوة بدأت خطواتها الأ ولى دعوة قومية , أو دعوة اجتماعية , أو دعوة أخلاقية . . أو رفعت أي شعار إلى جانب شعارها الواحد:"لا إله إلا الله" . .

3 - لماذا بدأ القرآن بالعقيدة ثم بالتشريعات ? وطريق الدعوة

ذلك شأن تصدي القرآن المكي كله لتقرير:"لا إله إلا الله" في القلوب و العقول , واختيار هذا الطريق - على مشقته في الظاهر - وعدم اختيار السبل الجانبية الأخرى ; والإصرار على هذا الطريق . .

فأما شأن هذا القرآن في تناول قضية الاعتقاد وحدها , دون التطرق إلى تفصيلات النظام الذي يقوم عليها , والشرائع التي تنظم المعاملات فيها . . فذلك كذلك مما ينبغي أن يقف أمامه أصحاب الدعوة لهذا الدين وقفة واعية . .

إن طبيعة هذا الدين هي التي قضت بهذا . . فهو دين يقوم كله على قاعدة الألوهية الواحدة . . كل تنظيماته وكل تشريعاته تنبثق من هذا ا لأصل الكبير . . وكما أن الشجرة الضخمة الباسقة الوارفة المديدة الظلا ل المتشابكة الأغصان , الضاربة في الهواء . . لا بد لها أن تضرب بجذورها في التربة على أعماق بعيدة , وفي مساحات واسعة ; تناسب ضخامتها وامتدادها في الهواء . . فكذلك هذا الدين . . إن نظامه يتناول الحياة كلها ; ويتولى شؤون البشرية كبيرها وصغيرها ; وينظم حياة الإ نسان لا في هذه الحياة الدنيا وحدها , ولكن كذلك في الدار الآخرة ; ولا في عالم الشهادة وحده ولكن كذلك في عالم الغيب المكنون عنها ; ولا في المعاملات الظاهرة المادية , ولكن في أعماق الضمير ودنيا السرائر و النوايا . . فهو مؤسسة ضخمة هائلة شاسعة مترامية . . ولا بد له إذن من جذور وأعماق بهذه السعة والضخامة والعمق والانتشار أيضا . .

هذا جانب من سر هذا الدين وطبيعته ; يحدد منهجه في بناء نفسه وفي امتداده ; ويجعل بناء العقيدة وتمكينها , وشمول هذه العقيدة واستغراقها لشعاب النفس كلها . . ضرورة من ضرورات النشأة الصحيحة , وضمانا من ضمانات الاحتمال والتناسق بين الظاهر من الشجرة في الهواء , والضارب من جذورها في الأعماق . .

ومتى استقرت عقيدة:"لا إله إلا الله" في أعماقها الغائرة البعيدة , استقر معها في نفس الوقت النظام الذي تتمثل فيه:"لا إله إلا الله" ; وتعين أنه النظام الوحيد الذي ترتضيه النفوس التي استقرت فيها العقيدة . . واستسلمت هذه النفوس ابتداء لهذا النظام حتى قبل أن تعرض عليها تفصيلاته , وقبل أن تعرض عليها تشريعاته . فالاستسلام ابتداء هو مقتضى الإيمان . . وبمثل هذا الاستسلام تلقت النفوس تنظيمات الإسلا م وتشريعاته بالرضى والقبول , لا تعترض على شيء منه فور صدوره إليها ولا تتلكأ في تنفيذه بمجرد تلقيها له . وهكذا أبطلت الخمر , وأبطل الربا , وأبطل الميسر , وأبطلت العادات الجاهلية كلها , أبطلت بآيات من القرآن , أو كلمات من رسول الله [ص] بينما الحكومات الأرضية تجهد

في شيء من هذا كله بقوانينها وتشريعاتها ونظمها وأوضاعها , وجندها وسلطانها , ودعايتها وإعلامها . . فلا تبلغ إلا أن تضبط الظاهر من المخالفات ;بينما المجتمع يعج بالمنهيات والمنكرات !

وجانب آخر من طبيعة هذا الدين يتجلى في هذا المنهج القويم . . إن هذا الدين منهج عملي حركي جاد . . جاء ليحكم الحياة في واقعها ; ويواجه هذا الواقع ليقضي فيه بأمره . . يقره أو يعدله أو يغيره من أساسه . . ومن ثم فهو لا يشرع إلا لحالات واقعة فعلا , في مجتمع يعترف ابتداء بحاكمية الله وحده .

إنه ليس نظرية تتعامل مع الفروض ! إنه منهج يتعامل مع الواقع ! فلا بد أولا أن يقوم المجتمع المسلم الذي يقر عقيدة أن لا إله إلا الله , وأن الحاكمية ليست إلا لله ; ويرفض أن يقر بالحاكمية لأحد من دون الله ; ويرفض شرعية أي وضع لا يقوم على هذه القاعدة . .

وحين يقوم هذا المجتمع فعلا , تكون له حياة واقعية , تحتاج إلى تنظيم وإلى تشريع . . وعندئذ فقط يبدأ هذا الدين في تقرير النظم وفي سن الشرائع . . لقوم مستسلمين أصلا للنظم والشرائع , رافضين ابتداء لغيرها من النظم والشرائع . .

ولا بد أن يكون للمؤمنين بهذه العقيدة من السلطان على أنفسهم وعلى مجتمعهم ما يكفل تنفيذ النظام والشرائع في هذا المجتمع ; حتى تكون للنظام هيبته ويكون للشريعة جديتها . . فوق ما يكون لحياة هذا المجتمع من الواقعية ما يقتضي الأنظمة والشرائع من فورها .

والمسلمون في مكة لم يكن لهم سلطان على أنفسهم ولا على مجتمعهم . وما كانت لهم حياة واقعية مستقلة هم الذين ينظمونها بشريعة الله . . ومن ثم لم ينزل الله في هذه الفترة تنظيمات وشرائع ; وإنما نزل لهم عقيدة , وخلقا منبثقا من العقيدة بعد اسقرارها في الأعماق البعيدة . . فلما صارت لهم دولة في المدينة ذات سلطان تنزلت عليهم الشرائع ;

وتقرر لهم النظام ; الذي يواجه حاجات المجتمع المسلم الواقعية ; والذي تكفل له الدولة بسلطانها الجدية والنفاذ . .

ولم يشأ الله أن ينزل عليهم النظام والشرائع في مكة , ليختزنوها جاهزة , حتى تطبق بمجرد قيام الدولة في المدينة ! إن هذه ليست طبيعة هذا الدين ! إنه أشد واقعية من هذا وأكثر جدية ! إنه لا يفترض المشكلات ليفترض لها حلولا . . إنما هو يواجه الواقع بحجمه وشكله وم لابساته لصوغه في قالبه الخاص , وفق حجمه وشكله وملابساته . .

والذين يريدون من الإسلام اليوم أن يصوغ قوالب نظام , وأن يصوغ تشريعات حياة . . بينما ليس على وجه الأرض مجتمع قد قرر فعلا تحكيم شريعة الله وحدها , ورفض كل شريعة سواها , مع تملكه للسلطة التي تفرض هذا وتنفذه . . الذين يريدون من الإسلام ذلك لا يدركون طبيعة هذا الدين , ولا كيف يعمل في الحياة ; كما يريد له الله . .

إنهم يريدون منه أن يغير طبيعته ومنهجه وتاريخه ليشابه أنظمة بشرية , ومناهج بشرية . ويحاولون أن يستعجلوه عن طريقه وخطواته ليلبي رغبات وقتية في نفوسهم إنما تنشئها الهزيمة الداخلية في أرواحهم تجاه أنظمة بشرية صغيرة . . إنهم يريدون منه أن يصوغ نفسه في قالب فروض , تواجه مستقبلا غير موجود . . والله يريد لهذا الدين أن يكون كما أراده . . عقيدة تملأ القلب , وتفرض سلطانها على الضمير . عقيدة مقتضاهاألا يخضع الناس إلا لله , ولا يتلقوا الشرائع إلا من الله . وبعد أن يوجد الناس الذين هذه عقيدتهم , ويصبح لهم السلطان في مجتمعهم , تبدأ التشريعات لمواجهة حاجاتهم الواقعية , وتنظيم حياتهم الواقعية كذلك .

كذلك يجب أن يكون مفهوما لأصحاب الدعوة الإسلامية , أنهم حين يدعون الناس لإعادة إنشاء هذا الدين , يجب أن يدعوهم أولا إلى اعتناق العقيدة - حتى ولو كانوا يدعون أنفسهم مسلمين ! وتشهد لهم شهادات الميلاد بأنهم مسلمون - يجب أن يعلموهم أن الإسلام هو أولا

إقرار عقيدة:لا إله إلا الله بمدلولها الحقيقي وهو رد الحاكمية لله في أمرهم كله , وطرد المعتدين على سلطان الله بادعاء هذا الحق لأنفسهم . . إقرارها في ضمائرهم وشعائرهم , وإقرارها في أوضاعهم وواقعهم . .

ولتكن هذه القضية هي أساس دعوة الناس إلى الإسلام كما كانت هي أساس دعوتهم إلى الإسلام أول مرة . . هذه الدعوة التي تكفل بها القرآن المكي طوال ثلاثة عشر عاما كاملة . .

فإذا دخل في هذا الدين - بمفهومه هذا الأصيل - عصبة من الناس , فهذه العصبة هي التي تصلح لمزاولة النظام الإسلام في حياتها الاجتماعية ; لأنها قررت بينها وبين نفسها أن تقوم حياتها على هذا الأساس ; وألا تحكم في حياتها كلها إلا الله .

وحين يقوم هذا المجتمع بالفعل يبدأ عرض أسس النظام الإسلامي عليه ; كما يأخذ هذا المجتمع نفسه في سن التشريعات التي تقتضيها حياته الواقعية , في إطار الأسس العامة للنظام الإسلامي . . فهذا هو الترتيب الصحيح لخطوات المنهج الإسلامي الواقعي العملي الجاد . .

ولقد يخيل إلى بعض المخلصين المتعجلين , ممن لا يتدبرون طبيعة هذا الدين , وطبيعة منهجه الرباني القويم , المؤسس على حكمه العليم الحكيم , وعلمه بطبائع البشر وحاجات الحياة . . نقول لقد يخيل لبعض هؤلاء أن عرض أسس النظام الإسلامي - بل التشريعات الإسلامية كذلك - على الناس مما ييسر لهم طريق الدعوة , ويحبب الناس في هذا الدين !

وهذا وهم تنشئه العجلة ! وهم كالذي كان يقترحه المقترحون:أن تقوم دعوة رسول الله [ص] - في أولها تحت راية قومية , أو اجتماعية , أو أخلاقية , تيسيرا للطريق !

إن النفوس يجب أن تخلص أولا لله , وتعلن عبوديتها له , بقبول شرعه وحده ورفض كل شرع غيره . . من ناحية المبدأ . . قبل أن تخاطب بأي

تفصيل عن ذلك الشرع يرغبها فيه !

إن الرغبة يجب أن تنبثق من الرغبة في إخلاص العبودية لله , والتحرر من سلطان سواه . . لا من أن النظام المعروض عليها . . في ذاته . . خير مما لديها في كذا وكذا على وجه التفصيل .

إن نظام الله خير في ذاته , لأنه من شرع الله . ولن يكون شرع العبيد يوما كشرع الله . . ولكن هذه ليست قاعدة الدعوة . . إن قاعدة الدعوة أن قبول شرع الله وحدة ورفض كل شرع غيره هو ذاته الإسلام . وليس للإسلام مدلول سواه . فمن رغب في الإسلام فقد فصل في هذه القضية ولم يعد بحاجة إلى ترغيبه بجمال النظام وأفضليته . . فهذه إحدى بديهيات الإيمان !

4 - منهج القرآن في عرض العقيدة

وبعد فلا بد أن نقول كيف عالج القرآن المكي قضية العقيدة في خلال الثلاثة عشر عاما . . إنه لم يعرضها في صورة "نظرية " ! ولم يعرضها في صورة "لاهوت" ولم يعرضها في صورة جدل كلامي كالذي زاولهفيما بعد ما سمي ب "علم التوحيد" أو "علم الكلام" !

كلا . . لقد كان القرآن الكريم يخاطب فطرة "الإنسان" بما في وجوده هو وبما في الوجود من حوله من دلائل وإيحاءات . . كان يستنقذ فطرته من الركام ; ويخلص أجهزة الاستقبال الفطرية مما ران عليها وعطل وظائفها ; ويفتح منافذ الفطرة لتتلقى الموحيات المؤثرة وتستجيب لها . . والسورة التي بين أيدينا نموذج كامل من هذا المنهج المتفرد وسنتحدث عن خصائصها بعد قليل . .

هذا بصفة عامة . وبصفة خاصة كان القرآن يخوض بهذه العقيدة معركة حية واقعية . . كان يخوض بها معركة مع الركام المعطل للفطرة . . في نفوس آدمية حاضرة واقعة . . ومن ثم لم يكن شكل "النظرية " هو الشكل الذي يناسب هذا الواقع الحاضر . إنما كان هو شكل المواجهة

الحية للعقابيل والسدود والحواجز والمعوقات النفسية والواقعية في النفوس الحاضرة الحية . . ولم يكن الجدل الذهني الذي انتهجه - في العصور المتأخرة - علم التوحيد , هو الشكل المناسب كذلك . . فلقد كان القرآن يواجه واقعا بشريا كاملا بكل ملابساته الحية ; ويخاطب الكينونة البشرية بجملتها في خضم هذا الواقع . . وكذلك لم يكن "اللا هوت" هو الشكل المناسب . فإن العقيدة الإسلامية ولو أنها عقيدة , إلا أنها عقيدة تمثل منهج حياة واقعية للتطبيق العملي ; ولا تقبع في الزاوية الضيقة التي تقبع فيها الأبحاث اللاهوتية النظرية !

كان القرآن وهو يبني العقيدة في ضمائر الجماعة المسلمة يخوض بهذه الجماعة المسلمة معركة ضخمة مع الجاهلية من حولها ; كما يخوض بها معركة ضخمة مع رواسب الجاهلية في ضميرها وأخلاقها وواقعها . . ومن هذه الملابسات ظهر بناء العقيدة , لا في صورة نظرية , ولا في صورة لاهوت ولا في صورة جدل كلامي . . ولكن في صورة تكوين تنظيمي مباشر للحياة , ممثل في الجماعة المسلمة ذاتها . وكان نمو الجماعة المسلمة في تصورها الاعتقادي , وفي سلوكها الواقعي وفق هذا التصور , وفي دربتها على مواجهة الجاهلية كمنظمة محاربة لها . . كان هذا النمو ذاته ممثلا تماما لنمو البناء العقيدي , وترجمة حية له . . وهذا هو منهج الإسلام الذي يمثل طبيعته كذلك . .

وإنه لمن الضروري لأصحاب الدعوة الإسلامية أن يدركوا طبيعة هذا الدين ومنهجه في الحركة على هذا النحو الذي بيناه . . ذلك ليعلموا أن مرحلة بناء العقيدة التي طالت في العهد المكي على هذا النحو , لم تكن منعزلة عن مرحلة التكوين العملي للحركة الإسلامية , والبناء الواقعي للجماعة المسلمة . . لم تكن مرحلة تلقي "النظرية " ودراستها ! ولكنها كانت مرحلة البناء القاعدي للعقيدة وللجماعة وللحركة وللوجود الفعلي معا . . وهكذا ينبغي أن تكون كلما أريد إعادة هذا البناء مرة أخرى . .

هكذا ينبغي أن تطول مرحلة بناء العقيدة ; وأن تتم خطواتها على مهل

وفي عمق وتثبت . . وهكذا ينبغي ألا تكون مرحلة بناء العقيدة مرحلة دراسة نظرية للعقيدة ; ولكن مرحلة ترجمة لهذه العقيدة في صورة حية , متمثلة في ضمائر متكيفة بهذه العقيدة ; ومتمثلة في بناء جماعي يعبر نموه عن نمو العقيدة ذاتها ; ومتمثلة في حركة واقعية تواجه الجاهلية وتخوض معها المعركة في الضمير وفي الواقع كذلك ; لتتمثل العقيدة حية وتنمو نموا حيا في خضم المعركة .

وخطأ أي خطأ - بالقياس إلى الإسلام - أن تتبلور النظرية في صورة نظرية مجردة للدراسة النظرية . . المعرفية الثقافية . . بل خطر أي خطر كذلك . .

إن القرآن لم يقض ثلاثة عشر عاما كاملة في بناء العقيدة بسبب أنه كان يتنزل للمرة الأولى . . كلا !فلو أراد الله لأنزل هذا القرآن جملة واحدة ; ثم ترك أصحابه يدرسونه ثلاثة عشر عاما أو أكثر أو أقل , حتى يستوعبوا "النظرية الإسلامية " !

ولكن الله - سبحانه - كان يريد أمراً آخر . كان يريد منهجا معينا متفردا . كان يريد بناء الجماعة وبناء الحركة وبناء العقيدة في وقت واحد . كان يريد أن يبني الجماعة والحركة بالعقيدة , وأن يبني العقيدة بالجماعة و الحركة ! كان يريد أن تكون العقيدة هي واقع الجماعة الفعلي , وأن يكون واقع الجماعة الحركي الفعلي هو صورة العقيدة . . وكان الله - سبحانه - يعلم أن بناء النفوس والجماعات لا يتم بين يوم وليلة . . فلم يكن بد أن يستغرق بناء العقيدة المدى الذي يستغرقه بناء النفوس و الجماعة . . حتى إذا نضج التكوين العقيدي كانت الجماعة هي المظهر الواقعي لهذا النضوج . .

هذه هي طبيعة هذا الدين - كما تستخلص من منهج القرآن المكي - ولا بد أن نعرف طبيعته هذه ; ولا نحاول أن نغيرها تلبية لرغبات معجلة مهزومة أمام أشكال النظريات البشرية ! فهو بهذه الطبيعة صنع الأمة المسلمة أول مرة , وبها يصنع الأمة المسلمة في كل مرة يراد أن يعاد

إخراج الأمة المسلمة للوجود , كما أخرجها الله أول مرة . .

يجب أن ندرك خطأ المحاولة , وخطرها معا , في تحويل العقيدة الإسلامية الحية التي يجب أن تتمثل في واقع تام حي متحرك , إلى "نظرية " للدراسة والمعرفة الثقافية لمجرد أننا نريد أن نواجه "النظريات" البشرية الهزيلة بنظرية إسلامية !

إن العقيدة الإسلامية يجب أن تتمثل في نفوس حية , وفي تنظيم واقعي , وفي حركة تتفاعل مع الجاهلية من حولها , كما تتفاعل مع الجاهلية الراسبة في نفوس أصحابها - بوصفهم كانوا من أهل الجاهلية قبل أن تدخل العقيدة إلى نفوسهم وتنتزعها من الوسط الجاهلي . وهي في صورتها هذه تشغل من القلوب والعقول ومن الحياة أيضا مساحة أضخم وأوسع وأعمق مما تشغله "النظرية " ; وتشمل - فيما تشمل - مساحة النظرية ومادتها . ولكنها لا تقتصر عليها .

إن التصور الإسلامي للألوهية وللوجود الكوني وللحياة وللإنسان , تصور شامل كامل . ولكنه كذلك تصور واقعي إيجابي . وهو يكره - بطبيعته - أن يتمثل في مجرد تصور ذهني معرفي . لأن هذا يخالف طبيعته وغايته . ويجب أن يتمثل في أناسي , وفي تنظيم حي , وفي حركة واقعية . . وطريقته في التكون أن ينمو من خلال الأناسي و التنظيم الحي والحركة الواقعية ; حتى يكتمل نظريا في نفس الوقت الذي يكتمل فيه واقعيا ; ولا ينفصل في صورة نظرية ; بل يظل ممثلا في الصورة الواقعية . .

وكل نمو نظري يسبق النمو الحركي الواقعي , ولا يتمثل من خلاله , هو خطأ وخطر كذلك بالقياس إلى طبيعة هذا الدين , وغايته , وطريقة تركيبه الذاتي .

والله سبحانه يقول:

(وقرآنا فرقناه , لتقرأه على الناس على مكث , ونزلناه تنزيلًا). .

فالفرق مقصود . والمكث مقصود كذلك . . ليتم البناء التكويني المؤلف من عقيدة في صورة "منظمة حية " لا في صورة "نظرية معرفية " !

يجب أن يعرف أصحاب هذا الدين جيدا , أنه كما أن هذا الدين دين رباني , فإن منهجه في العمل منهج رباني كذلك , متواف مع طبيعته . وأنه لا يمكن فصل حقيقة هذا الدين عن منهجه في العمل .

ويجب أن يعرفوا كذلك أن هذا الدين كما أنه جاء ليغير التصور الا عتقادي - ومن ثم يغير الواقع الحيوي - فكذلك هو قد جاء ليغير المنهج الفكري والحركي الذي يبني به التصور الاعتقادي ويغير به الواقع الحيوي . . جاء ليبني عقيدة وهو يبني أمة . . ثم لينشىء منهج تفكير خاصا به بنفس الدرجة التي ينشىء بها تصورا اعتقاديا وواقعا حيويا . ولا انفصال بين منهج تفكيره الخاص وتصوره الاعتقادي وبنائه الحيوي , فكلها حزمة واحدة .

فإذا عرفنا منهجه في العمل على النحو الذي بيناه , فلنعرف أن هذا المنهج أصيل ; وليس منهج مرحلة ولا بيئة ولا ظروف خاصة بنشأة الجماعة المسلمة الأولى . إنما هو المنهج الذي لا يقوم بناء هذا الدين إلا به .

إنه لم تكن وظيفة الإسلام أن يغير عقيدة الناس وواقعهم فحسب . ولكن كانت وظيفته أن يغير طريقة تفكيرهم , وتناولهم للتصور وللواقع . ذلك أنه منهج رباني مخالف في طبيعته كلها لمناهج البشر القاصرة الهزيلة .

ونحن لا نملك أن نصل إلى التصور الرباني والحياة الربانية إلا عن طريق منهج تفكير رباني كذلك . منهج أراد الله أن يقيم منهج الناس في التفكير على أساسه ليصح تصورهم وتكوينهم الحيوي .

ونحن حين نريد من الإسلام أن يجعل من نفسه نظرية للدراسة نخرج عن طبيعة المنهج الرباني للتكوين ; وعن طبيعة المنهج الرباني للتفكير .

ونخضع الإسلام لطرائق التفكير البشرية ! كأنما المنهج الرباني أدنى من المناهج البشرية ! وكأنما نريد لنرتقي بمنهج الله في التصور والحركة ليوازي مناهج العبيد !

والأمر من هذه الناحية يكون خطيرا . والهزيمة تكون قاتلة !

إن وظيفة المنهج الرباني أن يعطينا - نحن أصحاب الدعوة الإسلامية - منهجا خاصا للتفكير نبرأ به من رواسب مناهج التفكير الجاهلية السائدة في الأرض ; والتي تضغط على عقولنا وتترسب في ثقافتنا . . فإذا نحن أردنا أن نتناول هذا الدين بمنهج تفكير غريب عن طبيعته من مناهج التفكير الجاهلية الغالبة , كنا قد أبطلنا وظيفته التي جاء ليؤديها للبشرية ; وحرمنا أنفسنا فرصة الخلاص من ضغط المنهج الجاهلي السائد في عصرنا , وفرصة الخلاص من رواسبه في عقولنا وتكويننا .

والأمر من هذه الناحية كذلك يكون خطيرا , والخسارة تكون قاتلة . .

إن منهج التفكير والحركة في بناء الإسلام , لا يقل قيمة ولا ضرورة عن منهج التصور الاعتقادي والنظام الحيوي ; ولا ينفصل عنه كذلك . . ومهما يخطر لنا أن نقدم ذلك التصور وهذا النظام في صورة تعبيرية , فيجب ألا يغيب عن بالنا أن هذا لا ينشىء "الإسلام" في الأرض في صورة حركة واقعية , بل يجب ألا يغيب عن بالنا أنه لن يفيد من تقديمنا الإسلام في هذه الصورة إلا المشتغلون فعلا بحركة إسلامية واقعية . وأن قصارى ما يفيده هؤلاء من تقديم الإسلام لهم في هذه الصورة هو أن يتفاعلوا معها بالقدر الذي وصلوا إليه هم فعلا في أثناء الحركة !

ومرة أخرى أكرر أن التصور الاعتقادي يجب أن يتمثل من فوره في تجمع حركي ; وأن يكون التجمع الحركي في الوقت ذاته تمثيلا صحيحا وترجمة حقيقية للتصور الاعتقادي .

ومرة أخرى أكرر كذلك أن هذا هو المنهج الطبيعي للإسلام الرباني , وأنه

منهج أعلى وأقوم وأشد فاعلية وأكثر انطباقا على الفطرة البشرية من منهج صياغة النظريات كاملة مستقلة وتقديمها في الصورة الذهنية الباردة للناس , قبل أن يكون هؤلاء الناس مشتغلين بالفعل بحركة واقعية ; وقبل أن يكونوا هم أنفسهم ترجمة تنمو خطوة خطوة لتمثيل ذلك المفهوم النظري .

وإذا صح هذا في أصل النظرية فهو أصح - بطبيعة الحال - فيما يختص بتقديم أسس النظام الذي يتمثل فيه التصور الإسلامي , أو تقديم التشريعات المفصلة لهذا النظام .

إن الجاهلية التي حولنا كما أنها تضغط على أعصاب بعض المخلصين من أصحاب الدعوة الإسلامية فتجعلهم يستعجلون خطوات المنهج الإسلامي , كذلك هي تتعمد أحيانا أن تحرجهم فتسألهم:أين تفصيلات نظامكم الذي تدعون إليه ? وماذا أعددتم لتنفيذه من بحوث ومن تفصيلات ومن مشروعات ? وهي في هذا تتعمد أن تعجلهم عن منهجهم , وأن تجعلهم يتجاوزون مرحلة بناء العقيدة ; وأن يحولوا منهجهم الرباني عن طبيعته , التي تتبلور فيها النظرية من خلال الحركة , ويتحدد فيها النظام من خلال الممارسة , وتسن فيها التشريعات في ثنايا مواجهة الحياة الواقعية بمشكلاتها الحقيقية . .

ومن واجب أصحاب الدعوة الإسلامية ألا يستجيبوا للمناورة ! من واجبهم أن يرفضوا إملاء منهج غريب على حركتهم وعلى دينهم ! من واجبهم ألا يستخفهم من لا يوقنون !

ومن واجبهم أن يكشفوا مناورة الإحراج وأن يستعلوا عليها ; وأن يتحركوا بدينهم وفق منهج هذا الدين في الحركة . فهذا من أسرار قوته , وهذا هو مصدر قوتهم كذلك .

إن المنهج في الإسلام يساوي الحقيقة ; ولا انفصام بينهما . . وكل منهج غريب لا يمكن أن يحقق الإسلام في النهاية . والمناهج الغريبة الغريبة

يمكن أن تحقق أنظمتها البشرية ; ولكنها لا يمكن أن تحقق نظامنا الرباني . . فالتزام المنهج ضروري كالتزام العقيدة وكالتزام النظام في كل حركة إسلامية . لا في الحركة الإسلامية الأولى كما يظن بعض الناس !

هذه هي كلمتي الأخيرة . . وإنني لأرجو أن أكون بهذا البيان لطبيعة القرآن المكي , ولطبيعة المنهج الرباني المتمثل فيه , قد بلغت ; وأن يعرف أصحاب الدعوة الإسلامية طبيعة منهجهم , ويثقوا به , ويطمئنوا إليه ; ويعلموا أن ما عندهم خير , وأنهم هم الأعلون . . (إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم). . صدق الله العظيم . .

ونمضي بعد ذلك لمواجهة السورة .

5 - موضوع سورة الأنعام وطريقتها في عرضه

هذه السورة - وهي أولى السور المكية التي نتعرض لها هنا في سياق هذه الظلال - نموذج كامل للقرآن المكي الذي تحدثنا عن طبيعته وخصائصه ومنهجه في الصفحات السابقة ; وهي تمثل طبيعة هذا القرآن وخصائصه ومنهجه , في موضوعها الأساسي , وفي منهج التناول , وفي طريقة العرض سواء . . ذلك مع احتفاظها "بشخصيتها" الخاصة ; وفق الظاهرة الملحوظة في كل سور القرآن ; والتي لا تخطئها الملاحظة البصيرة في أية سورة . . فلكل سورة شخصيتها , وملامحها , ومحورها , وطريقة عرضها لموضوعها الرئيسي ; والمؤثرات الموحية المصاحبة للعرض ; والصور والظلال والجو الذي يظللها ; والعبارات الخاصة التي تتكرر فيها ; وتكون أشبه باللوازم المطردة فيها . . . حتى وهي تتناول موضوعا واحدا أو موضوعات متقاربة . فليس الموضوع هو الذي يرسم شخصية السورة ; ولكنه هذه الملامح والسمات الخاصة بها !

وهذه السورة - مع ذلك - تعالج موضوعها الأساسي بصورة فريدة . . إنها

في كل لمحة منها وفي كل موقف , وفي كل مشهد , تمثل "الروعة الباهرة " . . الروعة التي تبده النفس , وتشده الحس , وتبهر النفس أيضا ; وهو يلاحق مشاهدها وإيقاعها وموحياتها مبهورا !

نعم ! هذه حقيقة ! حقيقة أجدها في نفسي وحسي وأنا أتابع سياق السورة ومشاهدها وإيقاعاتها . . وما أظنبشرا ذا قلب لا يجد منها لونا من هذا الذي أجد . . إن الروعة فيها تبلغ فعلا حد البهر . حتى لا يملك القلب أن يتابعها إلا مبهورا مبدوها !

إنها - في جملتها - تعرض "حقيقة الألوهية " . . تعرضها في مجال الكون والحياة , كما تعرضها في مجال النفس والضمير , وتعرضها في مجاهيل هذا الكون المشهود , كما تعرضها في مجاهيل ذلك الغيب المكنون . . وتعرضها في مشاهد النشأة الكونية والنشأة الحيوية والنشأة الإنسانية , كما تعرضها في مصارع الغابرين واستخلاف المستخلفين . . وتعرضها في مشاهد الفطرة وهي تواجه الكون , وتواجه الأحداث , وتواجه النعماء والضراء , كما تعرضها في مظاهر القدرة الإلهية والهيمنة في حياة البشر الظاهرة والمستكنة , وفي أحوالهم الواقعة والمتوقعة . . وأخيرا تعرضها في مشاهد القيامة , ومواقف الخلائق وهي موقوفة على ربها الخالق . .

إن موضوعها الذي تعالجه من مبدئها إلى منتهاها هو موضوع العقيدة , بكل مقوماتها وبكل مكوناتها . وهي تأخذ بمجامع النفس البشرية , وتطوف بها في الوجود كله , وراء ينابيع العقيدة وموحياتها المستسرة والظاهرة في هذا الوجود الكبير . . إنها تطوف بالنفس البشرية في ملكوت السماوات والأرض , تلحظ فيها الظلمات والنور , وترقب الشمس والقمر والنجوم . وتسرح في الجنات المعروشات وغير المعروشات , و المياه الهاطلة عليها والجارية فيها ; وتقف بها على مصارع الأمم الخالية , وآثارها البائدة والباقية . ثم تسبح بها في ظلمات البر والبحر , وأسرار الغيب والنفس , والحي يخرج من الميت والميت يخرج من

الحي , والحبة المستكنة في ظلمات الأرض , والنطفة المستكنة في ظلمات الرحم . ثم تموج بالجن والإنس , والطير والوحش , والأولين وا لآخرين , والموتى والأحياء , والحفظة على النفس بالليل والنهار . .

إنه الحشد الكوني الذي يزحم أقطار النفس , وأقطار الحس . . ثم إنها اللمسات المبدعة المحيية , التي تنتفض بعدها المشاهد والمعاني أحياء في الحس والخيال . . وإذا كل مكرور مألوف من المشاهد والمشاعر , جديد نابض , كأنما تتلقاه النفس أول مرة ; وكأنما لم يطلع عليه من قبل ضمير إنسان !

وهي تشبه في سياقها المتدافع بهذه المشاهد والمواقف والموحيات والإ يقاعات والصور والظلال مجرى النهر المتدافع بالأمواج المتلاحقة . ما تكاد الموجة تصل إلى قرارها حتى تبدو الموجة التالية ملاحقة لها , متشابكة معها ; في المجرى المتصل المتدفق !

وهي في كل موجة من هذه الموجات المتدافعة المتلاحقة المتشابكة , تبلغ حد "الروعة الباهرة " التي وصفنا - مع تناسق منهج العرض في شتى المشاهد كما سنبين - وتأخذ على النفس أقطارها بالروعة الباهرة , وبالحيوية الدافقة , وبالإيقاع التصويري والتعبيري والموسيقي وبالتجمع والاحتشاد ومواجهة النفس من كل درب ومن كل نافذة !

ونحن - سلفا - على يقين أننا لسنا ببالغين شيئا في نقل إيقاعات هذه السورة إلى أي قلب إلا بأن ندع السورة ذاتها تنطلق بسياقها الذاتي , وإيقاعها الذاتي , إلى هذا القلب . . لسنا ببالغين شيئا بالوصف البشري وا لأسلوب البشري . . ولكنها مجرد المحاولة لإقامة القنطرة بين المعزولين عن هذا القرآن - بحكم بعدهم عن الحياة في جو القرآن - وبين هذا القرآن !

والحياة في جو القرآن لا تعني مدارسة القرآن ; وقراءته والاطلاع على علومه . . إن هذا ليس "جو القرآن" الذي نعنيه . . إن الذي نعنيه بالحياة

في جو القرآن:هو أن يعيش الإنسان في جو , وفي ظروف , وفي حركة , وفي معاناة , وفي صراع , وفي اهتمامات . . كالتي كان يتنزل فيها هذا القرآن . . أن يعيش الإنسان في مواجهةهذه الجاهلية التي تعم وجه الأرض اليوم , وفي قلبه , وفي همه , وفي حركته , أن "ينشى ء" ا لإسلام في نفسه وفي نفوس الناس , وفي حياته وفي حياة الناس , مرة أخرى في مواجهة هذه الجاهلية . بكل تصوراتها , وكل اهتماماتها وكل تقاليدها , وكل واقعها العملي ; وكل ضغطها كذلك عليه , وحربها له , ومناهضتها لعقيدتها الربانية , ومنهجه الرباني ; وكل استجاباتها كذلك لهذا المنهج ولهذه العقيدة ; بعد الكفاح والجهاد والإصرار . .

هذا هو الجو القرآني الذي يمكن أن يعيش فيه الإنسان ; فيتذوق هذا القرآن . . فهو في مثل هذا الجو نزل , وفي مثل هذا الخضم عمل . . و الذين لا يعيشون في مثل هذا الجو معزولون عن القرآن مهما استغرقوا في مدارسته وقراءته والاطلاع على علومه . .

والمحاولة التي نبذلها لإقامة القنطرة بين المخلصين من هؤلاء وبين القرآن , ليست بالغة شيئا , إلا بعد أن يجتاز هؤلاء القنطرة ; ويصلوا إلى المنطقة الأخرى ; ويحاولوا أن يعيشوا في "جو القرآن" حقا بالعمل و الحركة . وعندئذ فقط سيتذوقون هذا القرآن ; ويتمتعون بهذه النعمة التي ينعم الله بها على من يشاء . .

6 - مجالات عرض الألوهية والعبودية والحاكمية في الأنعام

هذه السورة تعالج قضية العقيدة الأساسية . . قضية الألوهية و العبودية . . تعالجها بتعريف العباد برب العباد . . من هو ? ما مصدر هذا الوجود ? ماذا وراءه من أسرار ? من هم العباد ? من ذا الذي جاء بهم إلى هذا الوجود ? من أنشاهم ? من يطعمهم ? من يكفلهم ? من يدبر أمرهم ? من يقلب أفئدتهم وأبصارهم ? من يقلب ليلهم ونهارهم ? من يبدئهم ثم يعيدهم ? لأي شيء خلقهم ? ولأي أجل أجلهم ? ولأي مصير يسلمهم ? . . هذه الحياة المنبثقة هنا وهناك . . من بثها في هذا

الموات ? . . هذا الماء الهاطل . هذا البرعم النابغ . هذا الحب المتراكب . هذا النجم الثاقب . هذا الصبح البازغ . هذا الليل السادل . هذا الفلك الدوار . . هذا كله من وراءه ? وماذا وراءه من أسرار , ومن أخبار ? . . هذه الأمم , وهذه القرون , التي تذهب وتجيء , وتهلك وتستخلف . . من ذا يستخلفها ? ومن ذا يهلكها ? لماذا تستخلف ? ولماذا يدركها البوار ? وماذا بعد الاستخلاف والابتلاء والوفاة من مصير وحساب وجزاء ? ? ?

هكذا تطوف السورة بالقلب البشري في هذه الآماد والآفاق , وفي هذه ا لأغوار والأعماق . . ولكنها تمضي في هذه كله على منهج القرآن المكي . . الذي أسلفنا الحديث عنه في الصفحات السابقة - وعلى منهج القرآن كله . . إنها لا تهدف إلى تصوير نظرية في العقيدة ولا إلى جدل لاهوتي يشغل الأذهان والأفكار . . إنما تهدف إلى تعريف الناس بربهم الحق ; لتصل من هذا التعريف إلى تعبيد الناس لربهم الحق . تعبيد ضمائرهم وأرواحهم , وتعبيد سعيهم وحركتهم , وتعبيد تقاليدهم وشعائرهم , وتعبيد واقعهم كله لهذا السلطان المتفرد . . سلطان الله الذي لا سلطان لغيره في الأرض ولا في السماء . .

ويكاد اتجاه السورة كله يمضي إلى هذا الهدف المحدد . . من أولها إلى آخرها . . فالله هو الخالق . والله هو الرازق . والله هو المالك . والله هو صاحب القدرة والقهر والسلطان . والله هو العليم بالغيوب والأسرار . و الله هو الذي يقلب القلوب والأبصار كما يقلب الليل والنهار . . وكذلك يجب أن يكون الله هو الحاكم في حياة العباد ; وألا يكون لغيره نهى ولا أمر , ولا شرع ولا حكم , ولا تحليل ولا تحريم . فهذا كله من خصائص ا لألوهية , ولا يجوز أن يزاوله في حياة الناس أحد من دون الله , لا يخلق , ولا يرزق , ولا يحيي ولا يميت , ولا يضر ولا ينفع , ولا يمنح ولا يمنع , ولا يملك لنفسه ولا لغيره شيئا في الدنيا ولا في الآخرة . .

وسياق السورة يسوق على هذه القضية أدلته في تلك المشاهد و

المواقف والإيقاعات البالغة حد الروعة الباهرة ; والتي تواجه القلب بـ الحشود الحاشدة من المؤثرات الموحية , من كل درب ومن كل باب !

والقضية الكبيرة التي تعالجها السورة هي قضية الألوهية والعبودية في السماوات والأرض . في محيطها الواسع , وفي مجالها الشامل . . ولكن المناسبة الحاضرة في حياة الجماعة المسلمة حينذاك , المناسبة التطبيقية لهذه القاعدة الكبيرة الشاملة , هي ما تزاوله الجاهلية من حق التحليل والتحريم في الذبائح والمطاعم , ومن حق تقرير بعض الشعائر في النذور من الذبائح والثمار والأولاد . . وهي المناسبة التي تتحدث عنها هذه الآيات في أواخر السورة:

(فكلوا مما ذكر اسم الله عليه , إن كنتم بآياته مؤمنين . وما لكم ألا تأكلوا مما ذكر اسم الله عليه , وقد فصل لكم ما حرم عليكم إلا ما اضطررتم إليه , وإن كثيرا ليضلون بأهوائهم بغير علم , إن ربك هو أعلم بالمعتدين . وذروا ظاهر الإثم وباطنه , إن الذين يكسبون الإثم سيجزون بما كانوا يقترفون . ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه , وإنه لفسق وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ليجادلوكم , وإن أطعتموهم إنكم لمشركون). . [118 - 121] .

(وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيبا , فقالوا:هذا لله - بزعمهم - وهذا لشركائنا . فما كان لشركائهم فلا يصل إلى الله , وما كان لله فهو يصل إلى شركائهم , ساء ما يحكمون ! وكذلك زين لكثير من المشركين قتل أولادهم شركاؤهم ليردوهم وليلبسوا عليهم دينهم , ولو شاء الله ما فعلوه , فذرهم وما يفترون . وقالوا:هذه أنعام وحرث حجر , لا يطعمها إ لا من نشاء - بزعمهم - وأنعام حرمت ظهورها , وأنعام لا يذكرون اسم الله عليها - افتراء عليه - سيجزيهم بما كانوا يفترون . وقالوا:ما في بطون هذه الأنعام خالصة لذكورنا ومحرم على أزواجنا , وإن يكن ميتة فهم فيه شركاء . سيجزيهم وصفهم , إنه حكيم عليم . قد خسر الذين قتلوا أولادهم سفها بغير علم ; وحرموا ما رزقهم الله - افتراء على الله -

قد ضلوا وما كانوا مهتدين). . [140 - 136]

هذه هي المناسبة الحاضرة في حياة الأمة المسلمة - والجاهلية حولها - التي تتمثل فيها تلك القضية الكبيرة . . قضية التشريع . . ومن ورائها القضية الكبرى . . قضية الألوهية والعبودية التي تعالجها السورة كلها , ويعالجها القرآن المكي كله , كما يعالجها القرآن المدني أيضا كلما جاء ذكر النظام فيه وذكر التشريع .

والحشد الذي يتدفق به سياق السورة من التقريرات والمؤثرات , وهو يواجه الجاهلية وأهلها في أمر هذه الأنعام والذبائح والنذور - وهي المناسبة التي تتمثل فيها قضية حق التشريع - وربطها بقضية العقيدة كلها - قضية الألوهية والعبودية - وجعلها مسألة إيمان أو كفر , ومسألة إسلام أو جاهلية . . هذا الحشد - على النحو الذي سنحاول أن نستعرض نماذج منه في هذا التعريف المختصر بالسورة , والذي سيتجلى على حقيقته في المواجهة التفصيلية للنصوص في السياق بعد ذلك - يوقع في النفس تلك الحقيقة الأصيلة في طبيعة هذا الدين . وهي أن كل جزئية صغيرة في الحياة الإنسانية يجب أن تخضع خضوعا مطلقا لحاكمية الله المباشرة , الممثلة في شريعته . وإلا فهو الخروج من هذا الدين جملة من أجل الخروج على حاكمية الله المطلقة في تلك الجزئية الصغيرة .

كذلك يدل ذلك الحشد على مدى الأهمية التي ينوطها هذا الدين بتخليص مظهر الحياة كله من ظلال حاكمية البشر في أي شأن من شؤون البشر - جل أم حقر , كبر أم صغر - وربط أي شأن من هذه الشؤون بالأصل الكبير الذي يتمثل فيه هذا الدين . . وهو حاكمية الله المطلقة التي تتمثل فيها ألوهيته في الأرض , كما تتمثل ألوهيته في الكون كله بتصريف أمر هذا الكون كله بلا شريك .

إن سياق السورة يعقب على تلك الشعائر الجاهلية في شأن الأنعام و الثمار , والنذور منها ومن الأولاد تعقيبات منوعة . بعضها مباشر ,

لتصوير مدى السخف والتناقض في هذه الشعائر , وبعضها للربط بين مزاولة البشر لحق التحريم والتحليل وقضية العقيدة الكبرى , ولبيان أن اتباع أمر الله فيها هو صراطه المستقيم , الذي يخرج من لا يتبعه عن هذا الدين . . على النحو التالي بعد ذكر تلك الشعائر في الآيات السابقة:

وهو الذي أنشأ جنات معروشات وغير معروشات , والنخل والزرع مختلفا أكله , والزيتون والرمان متشابها وغير متشابه . كلوا من ثمره إذا أثمر وآتوا حقه يوم حصاده , ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين . ومن ا لأنعام حمولة وفرشا , كلوا مما رزقكم الله ولا تتبعوا خطوات الشيطان , إنه لكم عدو مبين . ثمانية أزواج من الضأن اثنين ومن المعز اثنين . قل:آلذكرين حرم أم الأنثيين ? أم ما اشتملت عليه أرحام الأنثيين ? نبئوني بعلم إن كنتم صادقين . ومن الإبل اثنين ومن البقر اثنين قل:آلذكرين حرم أم الأنثيين ? أما اشتملت عليه أرحام الأنثيين ? أم كنتم شهداء إذ وصاكم الله بهذا ? فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا ليضل الناس بغير علم , إن الله لا يهدي القوم الظالمين . قل:لا أجد فيما أوحي إلى محرما على طاعم يطعمه إلا أن يكون ميته أو دما مسفوحا , أو لحم خنزير - فإنه رجس - أو فسقا أهل لغير الله به . فمن اضطر غير باغ ولا عاد فإن ربك غفور رحيم . وعلى الذين هادوا حرمنا كل ذي ظفر , ومن البقر والغنم حرمنا عليهم شحومهما - إلا ما حملت ظهورهما أو الحوايا أو ما اختلط بعظم - ذلك جزيناهم ببغيهم , وإنا لصادقون . فإن كذبوك فقل:ربكم ذو رحمة واسعة ولا يرد بأسه عن القوم المجرمين . سيقول الذين أشركوا:لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا , ولا حرمنا من شيء . كذلك كذب الذين من قبلهم حتى ذاقوا بأسنا . قل:هل عندكم من علم فتخرجوه لنا ? إن تتبعون إلا الظن , وإن أنتم إلا تخرصون . قل فلله الحجة البالغة فلو شاء لهداكم أجمعين . قل هلم شهداءكم الذين يشهدون ان الله حرم هذا , فإن شهدوا فلا تشهد معهم , ولا تتبع أهواء الذين كذبوا بآياتنا , والذين لا يؤمنون بالآخرة , وهم بربهم يعدلون . قل:تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم:ألا تشركوا به شيئا ,

وبالوالدين إحسانا . ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم , ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن , ولا تقتلوا النفس التي حرم الله - إلا بالحق - ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون . ولا تقربوا مال اليتيم - إلا بالتي هي أحسن - حتى يبلغ أشده , وأوفوا الكيل والميزان بالقسط - لا نكلف نفسا إلا وسعها - وإذا قلتم فاعدلوا - ولو كان ذا قربى - وبعهد الله أوفوا . ذلكم وصاكم به لعلكم تذكرون . وأن هذا صراطي مستقيما فاتبعوه , ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله . ذلك وصاكم به لعلكم تتقون . . [141 - 153]

وكذلك نرى أن هذه المسألة الجزئية الخاصة بالتحريم والتحليل في الأ نعام والنذور في الأنعام والثمار , وفي الأولاد - على ما كان متبعا في الجاهلية - يربطها السياق بتلك القضايا الكبيرة:بالهدى والضلال . واتباع منهج الله أو اتباع خطوات الشيطان , وبرحمة الله أو بأسه وبالشهادة بوحدانية الله أو عدل غيرها به . وباتباع صراطه مستقيما أو التفرق عنه . ويستخدم نفس التعبيرات التي استخدمها وهو بصدد القضية الكبرى في محيطها الشامل . .

كما نراه يحشد لها من المؤثرات والموحيات - في هذا الموضع وحده - مشهد الخلق والإحياء في الجنات المعروشات وغير المعروشات . ومشهد النخل والزرع مختلفا ألوانه والزيتون والرمان متشابها وغير متشابه .

وموقف الإشهاد والمفاصلة . وموقف البأس والتدمير على المشركين . .

وهي ذات المشاهد التي حشدها السياق في السورة كلها من قبل , وهو يتناول قضية العقيدة بجملتها , قبل أن يتعرض لهذه المناسبة الخاصة التي تتمثل فيها . ولكل هذا دلالته التي لا تخطىء على طبيعة هذا الدين , ونظرته لقضية الحاكمية والتشريع في الكثير والقليل . .

ولعلنا قد سبقنا سياق السورة ; ونحن نبين منهجها الموضوعي وهي

تتناول قضية العقيدة بجملتها , في مواجهة مناسبة جزئية تتعلق بأمر التشريع والحاكمية . وهي المناسبة التي لا نقول:إنها اقتضت ذلك الحشد المتجمع المتدفق من التقريرات والتأثيرات في سياق السورة كله , وهذا البيان الرائع الباهر لحقيقة الألوهية في مجالها الواسع الشامل . ولكننا نقول:إنها المناسبة التي ربطت في سياق السورة بهذا كله ; فدل هذا الربط على طبيعة هذا الدين ; ونظرته لقضية التشريع و الحاكمية في الكبير والصغير , وفي الجليل والحقير من شؤون هذه الحياة الدنيا . . كما أسلفنا . .

فالآن نمضي في التعريف المجمل بالسورة وخصائصها وملامحها , على النحو الذي ألفناه في هذه الظلال , قبل الدخول في الاستعراض المفصل للسياق:

7 - مكية الأنعام ورد القول بمدنية بعض آياتها

في روايات عن ابن عباس , وعن أسماء بنت يزيد , وعن جابر , وعن أنس بن مالك وعن عبدالله بن مسعود - رضي الله عنهم جميعا - أن هذه السورة مكية , وأنها نزلت كلها جملة واحدة .

وليس في هذه الروايات ما يعين تاريخ نزول السورة ; وليس في موضوعها كذلك ما يحدد زمن نزولها من العهد المكي . . وهي حسب الترتيب الراجح لسور القرآن يجيء ترتيبها بعد سورة الحجر ; وتكون هي السورة الخامسة والخمسين . . ولكننا - كما بينا من قبل في التعريف بسورة البقرة - لا نستطيع بمثل هذه المعلومات أن نجزم بشيء عن تاريخ محدد لنزول السور . فالمعول عليه عندهم - في الغالب - في ترتيب السور على هذا النحو هو تاريخ نزول أوائلها - لا جملتها - وقد تكون هناك أجزاء من سورة متقدمة نزلت بعد أجزاء من سورة متأخرة . إذ المعول في الترتيب على أوائل السورة . . أما في سورة الأنعام فقد نزلت كلها جملة . ولكننا لا نملك تحديد تاريخ نزولها . غير أننا نرجح أنها كانت بعد السنوات الأولى من الرسالة . . ربما الخامسة أو السادسة . . و

لا نعتمد في هذا الترجيح على أكثر من رقم الترتيب ; ثم على سعة الموضوعات التي تناولتها , والتوسع في عرضها على هذا النحو , الذي يشي بأن الدعوة والجدل مع المشركين , وطول الإعراض منهم و التكذيب لرسول الله , أصبح يقتضي التوسع في عرض القضايا العقيدية على هذا النحو ; كما يقتضي تسلية رسول الله [ص] عن طول الصد وا لإعراض والتكذيب . .

وفي رواية عن ابن عباس وقتادة:أن السورة مكية كلها إلا آيتين منها نزلتا بالمدينة . قوله تعالى:(وما قدروا الله حق قدره إذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شيء . قل:من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى نورا وهدى للناس , تجعلونه قراطيس تبدونها وتخفون كثيرا , وعلمتم ما لم تعلموا أنتم ولا آباؤكم , قل:الله , ثم ذرهم في خوضهم يلعبون). . وهي الآ ية:91 . نزلت في مالك بن الصيف وكعب بن الأشرف اليهوديين . وقوله تعالى:(وهو الذي أنشأ جنات معروشات وغير معروشات والنخل والزرع مختلفا أكله , والزيتون والرمان متشابها وغير متشابه , كلوا من ثمره إذا أثمر , وآتوا حقه يوم حصاده , ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين). .

وهي الآية 141 , نزلت في ثابت بن قيس شماس الأنصاري . . وقال ابن جريج والماوردي:نزلت في معاذ ابن جبل .

والرواية عن الآية الأولى محتملة ; بسبب أن فيها ذكرا للكتاب الذي جاء به موسى نورا وهدى للناس , ومواجهة لليهود في قوله تعالى: (تجعلونه قراطيس تبدونها). . وإن كان هناك روايات أخرى عن مجاهد , وعن ابن عباس أن الذين قالوا:ما أنزل الله على بشر من شيء هم مشركو مكة وأن الآية مكية . وهناك قراءة: قل من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى نورا وهدى للناس تجعلونه قراطيس تبدونها ويخفون كثيرًا . . فهي على هذه القراءة خبر عن اليهود وليست خطابا لهم . وسياق الآية كله عن المشركين . وقد رجح ابن جرير هذه الرواية واستحسن هذه القراءة . . وعلى هذا تكون الآية مكية . .

وأما الآية الثانية فالسياق لا يحتمل أن تكون مدنية . لأن السياق بدونها ينقطع ما قبلها فيه عما بعدها في المعنى وفي العبارة . والحديث متصل عن إنشاء الله للجنات المعروشات , وعن جعله حمولة وفرشا من الأنعام في الآية التي تليها:(ومن الأنعام حمولة وفرشا كلوا مما رزقكم الله , ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين). . ثم يمضي السياق في تكملة الحديث عن الأنعام , الذي كان قد بدأه قبل آية الثمار . . يجمعها كلها موضوع واحد , هو الذي تحدثنا عنه في الفقرة السابقة الخاصة بقضية التحريم والتحليل والنذور .

وإنما الذي جعل بعضهم يعتبرها مدنية هو ما جاء فيها من قوله تعالى: (كلوا من ثمره إذا أثمر وآتوا حقه يوم حصاده). . واعتبارهم هذا الأمر يعني الزكاة . والزكاة لم تتقرر بأنصبتها المحددة في الزروع والثمار إلا في المدينة . . ولكن هذا المعنى ليس متعينا في الآية . إذ أن هناك أقوا لا مأثورة في تفسيرها بأنها تعني الصدقات , أو بأنها تعني الإطعام منها لمن يمر بهم يوم الحصاد أو جني الثمار ; أو لقرابتهم . . وأن الزكاة حددت فيما بعد بالعشر ونصف العشر . . وعلى هذا تكون الآية مكية .

وقال الثعلبي:سورة الأنعام مكية إلا ست آيات نزلت بالمدينة: (وما قدروا الله حق قدره). . إلى آخر ثلاث آيات . و (قل:تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم). . إلى آخر ثلاث آيات . .

والآيات الأولى بينا مكيتها , إذ ينطبق على الآيتين الثانية والثالثة من هذه المجموعة ما ينطبق على الآية الأولى منها . .

أما المجموعة الثانية فليس هناك - فيما وصل إليه اطلاعي - رواية عن صحابي ولا تابعي عن كونها مدنية ; وليس في موضوعها ما يدعو إلى اعتبارها مدنية . وهي تتحدث عن تصورات جاهلية ; وهي متصلة بموضوع التحريم والتحليل في الذبائح والنذور الذي سبق الحديث عنه , اتصالا وثيقا . . لذلك نميل إلى اعتبارها مكية كذلك . .

وفي المصحف الأميري أن الآيات [153 , 152 , 151 , 141 , 114 , 92 , 91 , 23 , 20] مدنية . وقد تحدثنا عن الآيات [92 - 91] و [141] و [153 - 151] وليس في الآيات [114 , 23 , 20] ما يدعو إلى الظن بأنها مدنية إلا ذكر أهل الكتاب فيها . وهذا ليس دليلا فقد ورد مثل هذه في الآيات المكية . .

لهذا كله نحن نميل إلى اعتبار الروايات المطلقة , التي تنص على أن السورة نزلت بجملتها في مكة في ليلة واحدة . وقد وردت عن ابن عباس وعن أسماء بنت يزيد , وفي الرواية عن أسماء تحديد للرواية بحادث مصاحب على النحو التالي:

"قال سفيان الثوري عن ليث عن شهر بن حوشب عن أسماء بنت يزيد قالت:"نزلت سورة الأنعام على النبي [ص] جملة وأنا آخذة بزمام ناقة النبى [ص] إن كادت من ثقلها لتكسر عظام الناقة " .

أما الرواية عن ابن عباس فقد رواها الطبراني قال:

حدثنا علي بن عبد العزيز , حدثنا حجاج بن منهال , حدثنا حماد بن سلمة , عن علي بن زيد , عن يوسف بن مهران , عن ابن عباس , قال:"نزلت الأنعام بمكة ليلة ; جملة واحدة , حولها سبعون ألف ملك يجأرون حولها بالتسبيح" . .

وهاتان الروايتان أوثق من الأقوال التي جاء فيها أن بعض الآيات مدنية . وذلك بالإضافة إلى التحليل الموضوعي الذي أسلفنا .

والواقع أن سياق السورة في تماسكه وفي تدافعه وفي تدفقه يوقع في القلب أن هذه السورة نهر يتدفق , أو سيل يتدفع , بلا حواجز ولا فواصل ; وإن بناءها ذاته ليصدق تماما هذه الروايات , أو على الأقل يرجحها ترجيحا قويا .

8 - عرض سورة الأنعام لموضوعاتها في موجات متدافقة وأمثلة على

ذلك

أما موضوع السورة الأساسي وشخصيتها العامة فقد أجملنا الإشارة إليهما في مطلع الحديث عنها . ولكن لا بد من شيء من التفصيل في هذا التعريف . .

روى أبو بكر بن مردويه - بإسناده - عن أنس بن مالك قال:قال رسول الله [ص] "نزلت سورة الأنعام معها موكب من الملائكة سد ما بين الخافقين , لهم زجل بالتسبيح , والأرض بهم ترتج" . ورسول الله يقول:" سبحان الله العظيم . سبحان الله العظيم . . " . .

هذا الموكب , وهذا الارتجاج , واضح ظلهما في السورة ! . . إنها هي ذاتها موكب . موكب ترتج له النفس , ويرتج له الكون ! . . إنها زحمة من المواقف والمشاهد والموحيات والإيقاعات ! . . وهي - كما قلنا من قبل - تشبه في سياقها المتدافع بهذه المشاهد والمواقف والموحيات والإ يقاعات مجرى النهر المتدافع بالأمواج المتلاحقة . ما تكاد الموجه تصل إلى قرارها حتى تبدو الموجة التالية ملاحقة لها , ومتشابكة معها , في المجرى المتصل المتدفق !

والموضوع الرئيسي الذي تعالجه متصل ; فلا يمكن تجزئة السورة إلى مقاطع , كل مقطع منها يعالج جانبا من الموضوع . . إنما هي موجات . . وكل موجة تتفق مع التي قبلها وتكملها .

ومن ثم فلن نحاول عرض الموضوعات التي تحتويها السورة في هذا التعريف ; وإنما سنحاول فقط عرض نماذج من هذه الموجات المتلاحقة فيها:

تبدأ السورة بمواجهة المشركين , الذين يتخذون مع الله آلهة أخرى , بينما دلائل التوحيد تجبههم وتواجههم وتحيط بهم وتطالعهم في الآفاق وفي أنفسهم . . تبدأ بمواجهتهم بحقيقة الألوهية متجلية في لمسات عريضة تشمل الوجود كله ; وتشمل وجودهم كله . . تبدأ في لمسات ثلا

ث ترسم مجالي الوجود الكبيرة على أقصى عمق واتساع:

(الحمد لله الذي خلق السماوات والأرض , وجعل الظلمات والنور , ثم الذين كفروا بربهم يعدلون .هو الذي خلقكم من طين ثم قضى أجلا , وأجل مسمى عنده , ثم أنتم تمترون . وهو الله في السماوات وفي الأ رض , يعلم سركم وجهركم , ويعلم ما تكسبون). .

ثلاث آيات تذرع الوجود الكوني كله في الآية الأولى , وتذرع الوجود الإ نساني كله في الآية الثانية . . ثم تحيط الألوهية بالوجودين كليهما في الآية الثالثة !

أي إعجاز ! وأية روعة ! وأي شمول ! وأية إحاطة !

وأمام هذا الوجود الكوني الشاهد بوحدة الخالق . وأمام هذا الوجود الإ نساني الشاهد بتدبيره . وأمام هذه الألوهية الحاكمة في السماوات وفي الأرض ; العالمة بالسر والجهر والكسب . . يبدو شرك المشركين , وامتراء الممترين , عجبا منكرا لا مكان له في نظام الكون , ولا مكان له في فطرة النفس , ولا سند له في القلب والعقل !

وفي هذه اللحظة تبدأ الموجة التالية تعرض موقف المكذبين بآيات الله هذه المبثوثة في الكون والحياة ; ومع عرض الموقف المنكر الغريب , يجيء التهديد , وتعرض مصارع الغابرين , ويتجلى السلطان القاهر الذي تدل عليه هذه المصارع , وهذه القوارع . فيبدو عجيبا منكرا تعنت المنكرين أمام هذا الحق المبين ; ويبدو أن المنكرين ليس الذي ينقصهم هو الدليل ولكنه صدق النية , وتفتح القلب للدليل:

وما تأتيهم من آية من آيات ربهم إلا كانوا عنها معرضين . فقد كذبوا بـ الحق لما جاءهم فسوف يأتيهم أنباء ما كانوا به يستهزئون , ألم يروا كم أهلكنا من قبلهم من قرن مكناهم في الأرض ما لم نمكن لكم , وأرسلنا السماء عليهم مدرارا , وجعلنا الأنهار تجري من تحتهم , فأهلكناهم بذنوبهم وأنشأنا من بعدهم قرنا آخرين . ولو نزلنا عليك كتابا في

قرطاس فلمسوه بأيديهم , لقال الذين كفروا:إن هذا إلا سحر مبين . وقالوا:لولا أنزل عليه ملك ! ولو أنزلنا ملكا لقضي الأمر ثم لا ينظرون . ولو جعلناه ملكا لجعلناه رجلًا , وللبسنا عليهم ما يلبسون . ولقد استهزئ برسل من قبلك ; فحاق بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزؤون . قل:سيروا في الأرض , ثم انظروا كيف كان عاقبة المكذبين . .

ومن هنا تبدأ موجة ثالثة في التعريف بحقيقة الألوهية , متجلية في ملكية الله سبحانه لما في السماوات وما في الأرض , ولما سكن بالليل و النهار . ومتجلية في كونه الرازق الذي يطعم ولا يطعم . فهو من ثم الولي الذي لا ولي غيره . الذي يجب أن يسلم العبيد أنفسهم إليه وحده . وهو الذي يعذب العصاة في الآخرة . وهو الذي يملك الضر والخير . وهو على كل شيء قدير . وهو القاهر فوق عباده . وهو الحكيم الخبير . .

وتبلغ الموجة قمتها بعد هذا التمهيد كله , في الإشهاد والمفاصلة بين الرسول [ص] وبين القوم , وإنذارهم والتبرؤ من شركهم , وإعلان التوحيد في مواجهتهم , في رنة عالية فاصلة جازمة:

6 :لمن ما في السماوات والأرض ? قل:لله . كتب على نفسه الرحمة ليجمعنكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه , الذين خسروا أنفسهم فهم لا يؤمنون . وله ما سكن في الليل والنهار وهو السميع العليم , قل:أغير الله أتخذ وليا فاطر السماوات والأرض , وهو يطعم ولا يطعم ? قل:إني أمرت أن أكون أول من أسلم , ولا تكونن من المشركين . قل:إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم . من يصرف عنه يومئذ فقد رحمه , وذلك الفوز المبين . وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو , وإن يمسسك بخير فهو على كل شيء قدير . وهو القاهر فوق عباده , وهو الحكيم الخبير . قل:أي شيء أكبر شهادة ? قل الله شهيد بيني وبينكم , وأوحيإلي هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ . أئنكم لتشهدون أن مع الله آلهة أخرى ? قل:لا أشهد . قل إنما هو إله واحد , وإنني بريء مما تشركون). .

ثم تبدأ موجة رابعة تتحدث عن معرفة أهل الكتاب لهذا الكتاب الجديد الذي يكذب به المشركون ; وتصف هذا الشرك بأنه أظلم الظلم ; وتقف المشركين أمام مشهدهم يوم الحشر وهم يسألون عن شركائهم فينكرون الشرك ويذهب عنهم الافتراء ; وتصور حالهم وأجهزة الاستقبال الفطرية فيهم معطلة , لا تلتقط موحيات الإيمان ولا تستجيب , وقلوبهم محجوبة لا تدرك دلائل الإيمان , وهم يدعون أن هذا القرآن أساطير الأ ولين ; وتقول لهم:إنهم يهلكون أنفسهم وهم ينهون غيرهم عن الهدى , وينأون عنه . ثم تصور حالهم وهم موقوفون على النار يقولون:يا ليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين ! ثم تعود بهم إلى الدنيا وهم ينكرون البعث والمعاد . ثم تعقب على هذا بتصوير حالهم وهم موقوفون على ربهم , وهم يسألون عن هذا الإنكار ; وهم يحملون أوزارهم على ظهورهم . وتنتهي الموجة بتقرير خسارة المكذبين بلقاء الله , وتفاهة الحياة الدنيا إلى جانب الدار الآخرة المدخرة للذين يتقون:

الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم , الذين خسروا أنفسهم فهم لا يؤمنون . ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا أو كذب بآياته ; إنه لا يفلح الظالمون . ويوم نحشرهم جميعا . ثم نقول للذين أشركوا:أين شركاؤكم الذين كنتم تزعمون . ثم لم تكن فتنتهم إلا أن ق الوا:والله ربنا ما كنا مشركين . انظر كيف كذبوا على أنفسهم , وضل عنهم ما كانوا يفترون . ومنهم من يستمع إليك وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفي آذانهم وقرا , وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها , حتى إذا جاؤوك يجادلونك يقول الذين كفروا:إن هذا إلا أساطير الأولين . وهم ينهون عنه وينأون عنه , وإن يهلكون إلا أنفسهم وما يشعرون . ولو ترى إذ وقفوا على النار , فقالوا:يا ليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين . بل بدا لهم ما كانوا يخفون من قبل , ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه , وإنهم لكاذبون . وقالوا:إن هي إلا حياتنا الدنيا وما نحن بمبعوثين . ولو ترى إذ وقفوا على ربهم قال:أليس هذا بالحق ? ق الوا:بلى وربنا ! قال:فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون . قد خسر الذين

كذبوا بلقاء الله , حتى إذا جاءتهم الساعة بغتة قالوا:يا حسرتنا على ما فرطنا فيها , وهم يحملون أوزارهم على ظهورهم , ألا ساء ما يزرون ! وما الحياة الدنيا إلا لعب ولهو , وللدار الآخرة خير للذين يتقون , أفلا تعقلون . .

ثم تبدأ موجة خامسة , يلتفت فيها السياق إلى رسول الله [ص] يسليه ويسري عنه ما يحزنه من تكذيبهم له ولما جاءهم من عند الله به . ويجعل له أسوة في الرسل قبله ممن صبروا على ما كذبوا وأوذوا حتى أتاهم نصر الله . ويقرر أن سنة الله لا تتبدل , ولكنها كذلك لا تستعجل ! فإن كان [ص] لا يصبر على إعراضهم , فليبذل جهده البشري في إتيانهم بخارقة ! ولو شاء الله لجمعهم على الهدى . إنما اقتضت مشيئته في خلقه - وهو وحده صاحب الأمر المتصرف - أن يستجيب الذين لا تتعطل أجهزتم الفطرية عن التلقي . والموتى لا حياة فيهم فهم لا يستقبلون موحيات الهدى ولا يستجيبون . والله يبعثهم , وهم إليه يرجعون . .

(قد نعلم إنه ليحزنك الذي يقولون , فإنهم لا يكذبونك , ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون . ولقد كذبت رسل من قبلك , فصبروا على ما كذبوا وأوذوا حتى أتاهم نصرنا , ولا مبدل لكلمات الله , ولقد جاءك من نبأ المرسلين . وإن كان كبر عليك إعراضهم فإن استطعت أن تبتغي نفقا في الأرض أو سلما في السماء فتأتيهمبآية . ولو شاء الله لجمعهم على الهدى , فلا تكونن من الجاهلين . إنما يستجيب الذين يسمعون , و الموتى يبعثهم الله , ثم إليه يرجعون). .

وهكذا يمضي سياق السورة موجة في إثر موجة على هذا النسق الذي عرضنا منه نماذج , لعلها تصور طبيعة السورة , كما تصور موضوعها . . وهي تبلغ في بعض موجاتها ذروة أعلى من ذرى هذه الموجات التي استعرضناها ; كما أن تدفقها في بعض المسالك أشد جيشانا وأعلى إيقاعًا . . ولكننا لا نملك أن نستعرض السورة كلها في هذا التعريف

المجمل , وسيأتى شيء من ذلك في الفقرة التالية . .

9 - حقيقة الألوهية في مواقف ومشاهد مختارة من الأنعام

ولقد سبق القول بأن هذه السورة تعالج موضوعها الأساسي بصورة فريدة , إذ أنها في كل لمحة منها وفي كل موقف وفي كل مشهد , تبلغ حد "الروعة الباهرة " التي تبده النفس وتشده الحس , وتبهر النفس وهو يلاحق مشاهدها وإيقاعاتها وموحياتها . .

فالآن ندع نصوصا من السورة ذاتها تصور هذه الحقيقة بأسلوبها القرآني . ذلك أن الوصف مهما بلغ , لا يبلغ شيئا في نقل هذه الحقيقة إلى القلب البشري !

إن تقرير حقيقة الألوهية , وتعريف الناس بربهم الحق , وتعبيدهم له وحده , هو الموضوع الأساسي للسورة . فلنسمع إذن تقرير السياق القرآني لهده الحقيقة في مواقف منه شتى:

في موقف الإشهاد والمفاصلة , حيث تتجلى تلك الحقيقة في القلب المؤمن بها ; وحيث يواجه بها المخالفين , ويصدع بها في قوة وفي يقين:

(قل:أغير الله أتخذ وليا فاطر السماوات والأرض , وهو يطعم ولا يطعم ! قل:إني أمرت أن أكون أول من أسلم , ولا تكونن من المشركين . قل:إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم . من يصرف عنه يومئذ فقد رحمه , وذلك الفوز المبين , وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو , وإن يمسسك بخير فهو على كل شيء قدير . وهو القاهر فوق عباده وهو الحكيم الخبير . قل:أي شيء أكبر شهادة ? قل:الله شهيد بيني وبينكم , وأوحي إلي هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ . أئنكم لتشهدون أن مع الله آلهة أخرى ? قل:لا أشهد . قل:إنما هو إله واحد , وإنني بريء مما تشركون). .

وفي موقف التهديد , حيث يتجلى سلطان الله محيطا بالعباد ; وتتعرى أمامه الفطرة ويسقط عنها الركام , وتتجه إلى ربها الحق وحده وتنسى الآلهة الزائفة , أمام الهول , وأمام مصارع المكذبين:

قل:أرأيتكم إن أتاكم عذاب الله أو أتتكم الساعة أغير الله تدعون إن كنتم صادقين ? بل إياه تدعون فيكشف ما تدعون إليه - إن شاء - وتنسون ما تشركون . ولقد أرسلنا إلى أمم من قبلك فأخذناهم بالبأساء والضراء لعلهم يتضرعون . فلولا إذ جاءهم بأسنا تضرعوا ! ولكن قست قلوبهم , وزين لهم الشيطان ما كانوا يعملون . فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء , حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة , فإذا هم مبلسون . فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين:قل:أرأيتم إن أخذ الله سمعكم وأبصاركم وختم على قلوبكم , من إله غير الله يأتيكم به ? انظر كيف نصرف الآيات , ثم هم يصدفون . قل:أرأيتكم إن أتاكم عذاب الله بغتة أو جهرة ? هل يهلك إلا القوم الظالمون ? . .

وفي موقف التعريف بإحاطة الله بالغيوب والأسرار , والأنفاس والأعمار , مع القدرة والقهر والسيطرة في البر والبحر , والنهار والليل , و الدنيا والأخرة , والحياة والممات:

(وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو , ويعلم ما في البر والبحر , وما تسقط من ورقة إلا يعلمها , ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين . وهو الذي يتوفاكم بالليل , ويعلم ما جرحتم بالنهار , ثم يبعثكم فيه لتقضى أجل مسمى , ثم إليه مرجعكم , ثم ينبئكم بما كنتم تعملون . وهو القاهر فوق عباده , ويرسل عليكم حفظة حتى إذا جاء أحدكم الموت توفته رسلنا وهم لا يفرطون . ثم ردوا إلى الله مولاهم الحق . ألا له الحكم وهو أسرع الحاسبين). .

وفي موقف شهادة الفطرة , واهتدائها الذاتي إلى ربها الحق , بمجرد تفتحها لاستقبال دلائل الهدى وموحياته في صفحات الكون , التي

تخاطب الفطرة بلسان مفهوم الإيقاع في أعماقها المكنونة:

وإذ قال إبراهيم لأبيه آزر:أتتخذ أصناما آلهة ? إني أراك وقومك في ضلال مبين . وكذلك نري إبراهيم ملكوت السماوات والأرض وليكون من الموقنين . فلما جن عليه الليل رأى كوكبا , قال:هذا ربي ; فلما أفل قال:لا أحب الآفلين . فلما رأى القمر بازغا قال:هذا ربي , فلما أفل قال:لئن لم يهدني ربي لأكونن من القوم الضالين . فلما رأى الشمس بازغة قال:هذا ربي , هذا أكبر , فلما أفلت قال:يا قوم إني بريء مما تشركون . إني وجهت وجهي للذي فطر السماوات والأرض حنيفا , وما أنا من المشركين . وحاجه قومه , قال:أتحاجوني في الله وقد هدان ? ولا أخاف ما تشركون به - إلا أن يشاء ربي شيئا - وسع ربي كل شيء علما أفلا تتذكرون ? وكيف أخاف ما أشركتم ولا تخافون أنكم أشركتم بالله ما لم ينزل به عليكم سلطانا ? فأي الفريقين أحق بالأمن إن كنتم تعلمون ? الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون . .

وفي مشهد الحياة النابضة في الفصائل والأنواع , ومشهد الإصباح والإمساء , ومشهد النجوم والظلمات في البر والبحر , ومشهد الماء الهاطل , والزرع النامي , والثمر اليانع . . حيث تتجلى وحدانية الخالق بلا شريك , المبدع بلا شبيه , وحيث تبدو دعوى الشركاء والأبناء سخفا تنكره العقول والقلوب:

إن الله فالق الحب والنوى يخرج الحي من الميت , ومخرج الميت من الحي , ذلكم الله فأنى تؤفكون فالق الإصباح , وجعل الليل سكنا , و الشمس والقمر حسبانا , ذلك تقدير العزيز العليم . وهو الذي جعل لكم النجوم لتهتدوا بها في ظلمات البر والبحر , قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون . وهو الذي أنشأكم من نفس واحدة فمستقر ومستودع , قد فصلنا الآيات لقوم يفقهون . وهو الذي أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شيء , فأخرجنا منه خضرا نخرج منه حبا متراكبا , ومن النخل

من طلعها قنوان دانية وجنات من أعناب , والزيتون والرمان مشتبها وغير متشابه . انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه , إن في ذلكم لآيات لقوم يؤمنون . وجعلوا لله شركاء الجن - وخلقهم - وخرقوا له بنين وبنات بغير علم , سبحانه وتعالى عما يصفون . بديع السماوات والأرض , أنى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة , وخلق كل شيء , وهو بكل شيء عليم . ذلكم الله ربكم لا إله إلا هو خالق كل شيء فاعبدوه , وهو على كل شيء وكيل . لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار , وهو اللطيف الخبير . .

وأخيرا في موقف الابتهال والإنابة إلى الله الواحد بلا شريك , والتجرد له صلاة ونسكا , ومحيا ومماتا , واستنكار ابتغاء غيره ربا وهو رب كل شيء , ورد الأمر إليه كله في الدنيا في أمر الاستخلاف والابتلاء , وفي الآخرة في أمر الحساب والجزاء , حيث تختم السورة بهذا الابتهال الخاشع المنيب:

(قل:إنني هداني ربي إلى صراط مستقيم:دينا قيما ملة إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين . قل:إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين . لا شريك له , وبذلك أمرت , وأنا أول المسلمين . قل:أغير الله أبغي ربا , وهو رب كل شيء , ولا تكسب كل نفس إلا عليها , ولا تزر وازرة وزر أخرى , ثم إلى ربكم مرجعكم , فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون . وهو الذي جعلكم خلائف الأرض , ورفع بعضكم فوق بعض درجات ليبلوكم فيما آتاكم , إن ربك سريع العقاب وإنه لغفور رحيم). .

وليست هذه النماذج الستة التي اخترناها إلا نماذج تصور حد "الروعة الباهرة " الذي يبلغه سياق السورة , في كل موقف , وفي كل مشهد , وفي كل إيقاع , وفي كل إيحاء . .

كذلك سبق القول:إن سياق السورة يبلغ حد الروعة الباهرة في كل مشهد وفي كل موقف ; مع تناسق في منهج العرض للمشاهد والمواقف ; ووعدنا أن نبين ما نعنيه بهذا التناسق .

ولن نعرض هنا إلا بعض النماذج في انتظار العرض التفصيلي للنصوص بعد التعريف المجمل . ونكتفي من هذا التناسق بثلاثة ألوان منه بارزة في سياق السورة:

إن السياق يعرض المشاهد والمواقف منوعة ; ولكنها تلتقي في ظاهرة واحدة . . إنه في كل مشهد أو موقف , كأنما يأخذ بالسامع ليقفه أمام المشهد يتملاه , وأمام المواقف يتدبره . . يقفه أمامه بحركة تكاد الأ لفاظ تجسمها ! كما أن المشاهد والمواقف ذاتها فيها ناس موقوفون , يراهم السامع في وقفتهم , والسياق يقفه هو الآخر ليشاهدهم ويتملا هم !

ففي مشاهد القيامة ومشاهد الاحتضار ترد هذه الوقفات:

(ولو ترى إذ وقفوا على النار فقالوا:يا ليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين). .

(ولو ترى إذ وقفوا على ربهم . قال:أليس هذا بالحق ? قالوا:بلى وربنا ! قال:فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون). .

(ولو ترى إذ الظالمون في غمرات الموت , والملائكة باسطوا أيديهم:أخرجوا أنفسكم , اليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تقولون على الله غير الحق وكنتم عن آياته تستكبرون . ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة , وتركتم ما خولناكم وراء ظهوركم , وما نرى معكم شفعاءكم الذين زعمتم أنهم فيكم شركاء . لقد تقطع بينكم , وضل عنكم ما كنتم تزعمون). .

(ويوم نحشرهم جميعا ثم نقول للذين أشركوا:أين شركاؤكم الذين كنتم تزعمون ? ثم لم تكن فتنتهم إلا أن قالوا:والله ربنا ما كنا مشركين . انظر كيف كذبوا على أنفسهم وضل عنهم ما كانوا يفترون). .

وفي مواقف التهديد ببطش الله وأخذ المكذبين بسلطانه الذي لا يرد ,

يقفهم أمام هذا البطش كأنهم يعاينونه:

(قل:أرأيتكم إن أتاكم عذاب الله أو أتتكم الساعة ; أغير الله تدعون إن كنتم صادقين ? بل إياه تدعون , فيكشف ما تدعون إليه - إن شاء - وتنسون ما تشركون). .

(قل:أرأيتم إن أخذ الله سمعكم وأبصاركم وختم على قلوبكم , من إله غير الله يأتيكم به ? انظر كيف نصرف الآيات , ثم هم يصدفون . . قل:أرأيتكم إن أتاكم عذاب الله بغتة أو جهرة , هل يهلك إلا القوم الظالمون ?).

وفي تمثيل حالة الضلال بعد الهدى , والرجوع عن الحق بعد الاهتداء إليه , يرسم مشهدا شاخصا يقف السامع أمامه يتملاه , ولو لم يكن في اللفظ أمر بالنظر أو إشارة إلى الوقوف:

قل:أندعوا من دون الله ما لا ينفعنا ولا يضرنا , ونرد على أعقابنا بعد إذ هدانا الله , كالذي استهوتهالشياطين في الأرض حيران , له أصحاب يدعونه إلى الهدى ; ائتنا . .). .

كذلك يقف السياق السامع أمام مشهد الثمار اليانعة في الجنات التي تتمثل فيها الحياة , والتي تتجلى فيها يد الله المبدعة للألوان والثمار:

(. . . وهو الذي أنزل من السماء ماء , فأخرجنا به نبات كل شيء , فأخرجنا منه خضرا , نخرج منه حبا متراكبا , ومن النخل من طلعها قنوان دانية , وجنات من أعناب , والزيتون والرمان مشتبها وغير متشابه . . انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه . إن في ذلكم لآيات لقوم يؤمنون). .

وهكذا كل مشاهد السورة ومواقفها يتجلى فيها هذا التناسق ويكون طابعها العام .

لون آخر من ألوان التناسق , يمت إلى هذا اللون بصلة كذلك . . مواقف ا

لإشهاد . .

إن مشاهد القيامة في السورة تعرض كأنما هي مواقف إشهاد على ما كان من المشركين والمكذبين ; ومواقف تشهير بهم ; وتوجيه للأنظار إلى هذه المواقف . . وقد سبق عرض نماذج منها . . وفي كل منها: (ولو ترى . . .)

وتلتقي بها مواقف الإشهاد على العقيدة , ومواقف الإشهاد على الشريعة . . كلتاهما سواء .

في أول السورة عند الحديث عن العقيدة في محيطها الشامل يجيء هذا الموقف:

(قل:أي شيء أكبر شهادة ? قل:الله شهيد بيني وبينكم , وأوحي إلي هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ . أئنكم لتشهدون أن مع الله آلهة أخرى ? قل: لا أشهد . قل:إنما هو إله واحد , وإنني بريء مما تشركون).

حتى إذا جاء السياق إلى المناسبة الخاصة في السورة , المتعلقة بـالعقيدة في قضية التحريم والتحليل أقام مشهدا آخر , ودعا إلى إشهاد على هذه القضية الخاصة , كالإشهاد على تلك القضية العامة , للدلالة على أنها هي هي من ناحية الموضوع ; ولضمان التناسق الذي هو طابع التعبير القرآني العام :

(قل:هلم شهداءكم الذين يشهدون أن الله حرم هذا . فإن شهدوا فلا تشهد معهم , ولا تتبع أهواء الذين كذبوا بآياتنا والذين لا يؤمنون بالآخرة , وهم بربهم يعدلون). .

لون ثالث من ألوان التناسق ; هو التناسق التعبيري الذي يقتضيه التقرير الموضوعي . والذي يتمثل في تكرار عبارات بعينها للدلالة على أنها تعبيرعن حقيقة واحدة في صور متعددة .

وهذا كالتعبير في أول السورة عن الذين كفروا حين يشركون بالله

غيره بأنهم بربهم يعدلون . ثم التعبير كذلك في أواخرها عن الذين يشرعون لأنفسهم بأنهم كذلك بربهم يعدلون . على النحو التالي:

(الحمد لله الذي خلق السماوات والأرض , وجعل الظلمات والنور , ثم الذين كفروا بربهم يعدلون). .

(قل:هلم شهداءكم الذين يشهدون أن الله حرم هذا . فإن شهدوا فلا تشهد معهم , ولا تتبع أهواء الذين كذبوا بآياتنا , والذين لا يؤمنون بالآخرة . وهم بربهم يعدلون).

ففي الآية الأولى هم يعدلون بربهم لآنهم يشركون به . . وفي الثانية هم يعدلون بربهم لأنهم يشركون به كذلك . ممثلا هذا الشرك في ادعاء حق الألوهية في التشريع . .

ولهذا دلالته الموضوعية , وجماله التعبيري أيضا . . .

كذلك يكرر كلمة الصراط , وهو يعبر عن الإسلام جملة ; وهو يعبر عن قضية التشريع على هذا النحو:

(فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام , ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقا حرجا كأنما يصعد في السماء . كذلك يجعل الله الرجس على الذين لا يؤمنون . وهذا صراط ربك مستقيما . قد فصلنا الآيات لقوم يذكرون). .

وبعد أن يتحدث عن الأنعام والحرث , والحلال والحرام في نهاية السورة كما جاء في مقدمة التعريف بالسورة يقول:

(وأن هذا صراطي مستقيما فاتبعوه , ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله:ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون). .

فيدل على أن هذه القضية هي قضية العقيدة . وأن الالتزام فيها هو المضي على صراط الله , وأن الانحراف فيها هو الخروج عن هذا

الصراط . . وأنها قضية إيمان أو كفر , وجاهلية أو إسلام . . كما فصلنا ذلك في مطلع الكلام !

وإلى هنا يحسن أن نكتفي في التعريف المجمل , لنواجه نصوص السورة في سياقها القرآني بعون الله . . ووفق طبيعة السورة سنعرضها موجة موجة - لا درسا درسا كما تعودنا ذلك في السور المدنية - فهذه الطريقة في العرض أدنى إلى طبيعة السورة ; وإلى تحقيق التناسق بينها وبين ظ لالها كذلك . .

وبالله التوفيق . .

سورة الأعراف

هذه سورة مكية - كسورة الأنعام - موضوعها الأساسي هو موضوع القرآن المكي . . العقيدة . . ولكن ما أشد اختلاف المجالين اللذين تتحرك فيهما السورتان في معالجة هذا الموضوع الواحد , وهذه القضية الكبيرة !

إن كل سورة من سور القرآن ذات شخصية متفردة , وذات ملامح متميزة , وذات منهج خاص , وذات أسلوب معين , وذات مجال متخصص في علاج هذا الموضوع الواحد , وهذه القضية الكبيرة .

إنها كلها تتجمع على الموضوع والغاية , ثم تأخذ بعد ذلك سماتها المستقلة , وطرائقها المتميزة ومجالها المتخصص في علاج هذا الموضوع , وتحقيق هذه الغاية .

إن الشأن في سور القرآن - من هذه الوجهة - كالشأن في نماذج البشر التي جعلها الله متميزة . . كلهم إنسان , وكلهم له خصائص الإنسانية , وكلهم له التكوين العضوي والوظيفي الإنساني . . ولكنهم بعد ذلك نماذج

منوعة أشد التنويع . نماذج فيها الأشباه القريبة الملامح , وفيها الأغيار التي لا تجمعها إلا الخصائص الإنسانية العامة !

هكذا عدت أتصور سور القرآن . وهكذا عدت أحسها , وهكذا عدت أتعامل معها . بعد طول الصحبة , وطول الألفة , وطول التعامل مع كل منها وفق طباعه واتجاهاته , وملامحه وسماته !

وأنا أجد في سور القرآن - تبعا لهذا - وفرة بسبب تنوع النماذج , وأنسا بسبب التعامل الشخصي الوثيق ; ومتاعا بسبب اختلاف الملامح و الطباع , والاتجاهات والمطالع !

إنها أصدقاء . . كلها صديق . . وكلها أليف . . وكلها حبيب . . وكلها ممتع . . وكلها يجد القلب عنده ألواناً من الاهتمامات طريفة , وألواناً من المتاع جديدة , وألواناً من الإيقاعات , وألواناً من المؤثرات , تجعل لها مذاقاً خاصاً , وجواً متفرداً .

ومصاحبة السورة من أولها إلى آخرها رحلة . . رحلة في عوالم ومشاهد , ورؤى وحقائق , وتقريرات وموحيات , وغوص في أعماق النفوس , واستجلاء لمشاهد الوجود . . ولكنها كذلك رحلة متميزة المعالم في كل سورة ومع كل سورة .

إن موضوع سورة الأنعام هو العقيدة . وموضوع سورة الأعراف هو العقيدة . . ولكن بينما سورة الأنعام تعالج العقيدة في ذاتها ; وتعرض موضوع العقيدة وحقيقتها ; وتواجه الجاهلية العربية في حينها - وكل جاهلية أخرى كذلك - مواجهة صاحب الحق الذي يصدع بالحق ; وتستصحب معها في هذه المواجهة تلك المؤثرات العميقة العنيفة الكثيرة الموفورة التي تحدثنا عنها إجمالا ً وتفصيلا ً ونحن نقدم السورة ونستعرضها - في الجزء السابع وفي هذا الجزء أيضاً - ووقفنا أمامها ما شاء الله أن نقف . . بينما سورة الأنعام تتخذ هذا المنهج , وتسلك ذلك الطريق . . نجد سورة الأعراف - وهي تعالج موضوع

العقيدة كذلك - تأخذ طريقاً آخر , وتعرض موضوعها في مجال آخر . . إنها تعرضه في مجال التاريخ البشري . . في مجال رحلة البشرية كلها مبتدئة بالجنة والملأ الأعلى , وعائدة إلى النقطة التي انطلقت منها . . وفي هذا المدى المتطاول تعرض "موكب الإيمان" من لدن آدم - عليه السلام - إلى محمد - [ص] - تعرض هذا الموكب الكريم يحمل هذه العقيدة ويمضي بها على مدار التاريخ . يواجه بها البشرية جيلا ً بعد جيل , وقبيلا ً بعد قبيل . . ويرسم سياق السورة في تتابعه:كيف استقبلت البشرية هذا الموكب وما معه من الهدى ? كيف خاطبها هذا الموكب وكيف جاوبته ? كيف وقف الملأ منها لهذا الموكب بالمرصاد وكيف تخطى هذا الموكب أرصادها ومضى في طريقه إلى الله ? وكيف كانت عاقبة المكذبين وعاقبة المؤمنين في الدنيا وفي الآخرة . .

إنها رحلة طويلة طويلة . . ولكن السورة تقطعها مرحلة مرحلة , وتقف منها عند معظم المعالم البارزة , في الطريق المرسوم . ملامحه واضحة , ومعالمه قائمة , ومبدؤه معلوم , ونهايته مرسومة . . والبشرية تخطو فيه بجموعها الحاشدة . ثم تقطعه راجعة . . إلى حيث بدأت رحلتها في الملأ الأعلى . .

لقد انطلقت هذه البشرية من نقطة البدء , ممثلة في شخصين اثنين . . آدم وزوجه . . أبوي البشر . . وانطلق معهما الشيطان . مأذونا من الله في غوايتهما وغواية ذراريهما ومأخوذاً عليهما عهد الله وعلى ذراريهما كذلك . ومبتلي كلاهما وذراريهما معهما بقدر من الاختيار ; ليأخذوا عهد الله بقوة أو ليركنوا إلى الشيطان عدوهم وعدو أبويهم الذي أخرجهما من الجنة ; وليسمعوا الآيات التي يحملها إليهم ذلك الرهط الكريم من الرسل على مدار التاريخ , أو يسمعوا غواية الشيطان الذي لا يني يجلب عليهم بخيله ورجله , ويأتيهم عن أيمانهم وعن شمائلهم !

انطلقت البشرية من هناك . . من عند ربها سبحانه . . انطلقت إلى الأ رض . تعمل وتسعى , وتكد وتشقى , وتصلح وتفسد , وتعمر وتخرب ,

وتتنافس وتتقاتل , وتكدح الكدح الذي لا ينجو منه شقي ولا سعيد . . ثم ها هي ذي تؤوب ! ها هي ذي راجعة إلى ربها الذي أطلقها في هذا المجال . . ها هي ذي تحمل ما كسبت طوال الرحلة المرسومة . . من ورد وشوك . ومن غال ورخيص , ومن ثمين وزهيد , ومن خير وشر , ومن حسنات وسيئات . ها هي ذي تعود في أصيل اليوم . . فقد انطلقت في مطلعه ! . . وها نحن أولاء نلمحها من خلال السياق في السورة موقورة الظهور بالأحمال - أيا كانت هذه الأحمال - ها هي ذي عائدة إلى ربها بما معها . تظلع في الطريق , وقد بلغ منها الجهد وأضناها المسير . حتى إذا عادت إلى نقطة المنطلق وضع كل منها حمله أمام الميزان , ووقف يرتقب في خشية ووجل . . إن كل فرد قد عاد بحصيلته فرداً . . وإن تدع مثقلة إلى حملها لا يحمل منه شيء ولو كان ذا قربى ! وكل فرد على حدة يلاقي حسابه , ويلقى جزاءه . . ويظل سياق السورة يتابع أفواج البشرية , فوجاً فوجاً . إلى جنة أو إلى نار . حتى تغلق الأ بواب التي فتحت لاستقبال المغتربين العائدين . فقد كانوا هنالك في هذه الأرض مغتربين:(كمابدأكم تعودون . فريقا هدى وفريقا حق عليهم الضلالة , إنهم اتخذوا الشياطين أولياء من دون الله , ويحسبون أنهم مهتدون). .

وبين الغدو والرواح تعرض معارك الحق والباطل . معارك الهدى والضلال . معارك الرهط الكريم من الرسل والموكب الكريم من المؤمنين , مع الم لأ المستكبرين والأتباع المستخفين . ويعرض الصراع المتكرر ; والمصائر المتشابهة . وتتجلي صحائف الإيمان في إشراقها ووضاءتها ; وصحائف الضلال في انطماسها وعتامتها . وتعرض مصارع المكذبين بين الحين و الحين . حيث يقف السياق عليها للتذكير والتحذير . . وهذه الوقفات تجيء وفق نظام ملحوظ في سياق السورة . فبعد كل مرحلة هامة يبدو كما لو كان السياق يتوقف عندها ليقول كلمة ! كلمة تعقيب . للإنذار و التذكير . . ثم يمضي .

إنها قصة البشرية بجملتها في رحلتها ذهاباً وإياباً . تتمثل فيها حركة

هذه العقيدة في تاريخ البشرية , ونتائج هذه الحركة في مداها المتطاول . . حتى تنتهي إلى غايتها الأخيرة في نقطة المنطلق الأولى . . وهي وجهة أخرى في عرض موضوع العقيدة غير وجهة سورة الأنعام - وإن تلاقت السورتان أحيانا في عرض مشاهد المكذبين وعرض مشاهد القيامة ومشاهد الوجود - وهو مجال آخر للعرض غير مجال الأ نعام , واضح التميز , مختلف الحدود .

ذلك إلى طبيعة التعبير في السورتين . فالتعبير في كل سورة يناسب منهجها في عرض الموضوع . وبينما يمضي السياق في الأنعام في موجات متدافعة ; وبينما تبلغ المشاهد دائما درجة اللألاء والتوهج والا لتماع , وتبلغ الإيقاعات درجة الرنين والسرعة القاصفة والاندفاع . . إذا السياق في الأعراف يمضي هادئ الخطو , سهل الإيقاع , تقريري الأ سلوب . وكأنما هو الوصف المصاحب للقافلة في سيرها المديد , خطوة خطوة , ومرحلة مرحلة , حتى تؤوب ! وقد يشتد الإيقاع أحياناً في مواقف التعقيب ; ولكنه سرعان ما يعود إلى الخطو الوئيد الرتيب !

. . وهما - بعد - سورتان مكيتان من القرآن . . !!!

ولعله يحسن هنا أن نستعرض منهج السورة في معالجة موضوع العقيدة في صورة حركة لهذه العقيدة في تيار التاريخ البشري . .

إن السورة لا تعرض قصة هذه العقيدة في التاريخ البشري , ولا تعرض رحلة البشرية منذ نشأتها الأولى إلى عودتها الأخيرة . . مجرد عرض في أسلوب قصصي . . إنما هي تعرضها في صورة معركة مع الجاهلية . . ومن ثم فإنها تعرضها في مشاهد ومواقف ; وتواجه بهذه المشاهد و المواقف ناساً أحياء كانوا يواجهون هذا القرآن ; فيواجههم هذا القرآن بتلك القصة الطويلة ; ويخاطبهم بما فيها من عبر ; مذكرا ومنذرا ; ويخوض معهم معركة حقيقية حية . . ومن ثم تجيء التعقيبات في السياق عقب كل مرحلة أساسية ; موجهة لأولئك الأحياء الذين كان القرآن يخوض معهم المعركة ; وموجهة كذلك إلى أمثالهم ممن يتخذون

موقفهم على مدار التاريخ .

إن القرآن لا يقص قصة إلا ليواجه بها حالة . ولا يقرر حقيقة إلا ليغير بها باطلا . . إنه يتحرك حركة واقعية حية في وسط واقعي حي . إنه لا يقرر حقائقه للنظر المجرد , ولا يقص قصصه لمجرد المتاع الفني !

ويركز السياق على التذكير والإنذار في وقفاته للتعقيب . كما يركز على نقطة الانطلاق , وعلى نقطة المآب . وبينهما يمر بقصص قوم نوح , وقوم هود , وقوم صالح , وقوم لوط , وقوم شعيب . ثم يركز تركيزاً شديداً على قصة قوم موسى .

وفي هذه التقدمة للسورة لا نملك إلا أن نعرض نماذج مجملة لمواضع التركيز في السورة:

تبدأ السورة على هذا النحو:

آلمص . كتاب أنزل إليك فلا يكن في صدرك حرج منه , لتنذر به , وذكرى للمؤمنين . اتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم ولا تتبعوا من دونه أولياء . قليلا ما تذكرون . .

فهي منذ اللحظة الأولى خطاب لرسول الله [ص] وخطاب لقومه الذين يجاهدهم بهذا القرآن . . وكل ما يجيء في السورة بعد ذلك من قصص , ومن وصف لرحلة البشرية الطويلة , وعودتها من الرحلة المرسومة , وكل ما يعرض من مشاهد في صفحة الكون وفي يوم القيامة . . إنما هو خطاب غير مباشر , - وأحيانا مباشر - للنبي [ص] وقومه للإنذار و التذكير , كما يشير هذا المطلع القصير .

وقول الله - سبحانه - لرسوله [ص]:

(كتاب أنزل إليك فلا يكن في صدرك حرج منه). .

يصور حالة واقعية لا يمكن أن يدركها اليوم إلا الذي يعيش في جاهلية

وهو يدعو إلى الإسلام ; ويعلم أنه إنما يستهدف أمراً هائلا ً ثقيلا ً , دونه صعاب جسام . . يستهدف إنشاء عقيدة وتصور , وقيم وموازين , وأوضاع وأحوال مغايرة تمام المغايرة لما هو كائن في دنيا الناس . ويجد من رواسب الجاهلية في النفوس , ومن تصورات الجاهلية في العقول , ومن قيم الجاهلية في الحياة , ومن ضغوطها في الأوضاع والأعصاب , ما يحس معه أن كلمة الحقيقة التي يحملها , غريبة على البيئة , ثقيلة على النفوس ; مستنكرة في القلوب . . كلمة ذات تكاليف بقدر ما تعنيه من الانقلاب الكامل لكل ما يعهده الناس في جاهليتهم من التصورات والأفكار , والقيم والموازين , والشرائع والقوانين , والعادات و التقاليد , والأوضاع والارتباطات . . ومن ثم يجد في صدره هذا الحرج من مواجهة الناس بذلك الحق الثقيل , الحرج الذي يدعو الله - سبحانه - نبيه [ص] ألا يكون في صدره من هذا الكتاب شيء منه ; وأن يمضي به ينذر ويذكر ; ولا يحفل ما تواجهه كلمة الحق من دهشة واستنكار , ومن مقاومة كذلك وحرب وعناء . .

ولأن الأمر كذلك من الثقل ومن الغرابة ومن النفرة ومن المقاومة لهذا التغيير الكامل الشامل الذي تستهدفه هذه العقيدة في حياة الناس وتصوراتهم , فإن السياق يباكر القوم بالتهديد القاصم , ويذكرهم بمصائر المكذبين , ويعرض عليهم مصارع الغابرين . . جملة قبل أن يأخذ في القصص المفصل عنهم في مواضعه من السياق:

وكم من قرية أهلكناها , فجاءها بأسنا بياتا أوهم قائلون . فما كان دعواهم إذ جاءهم بأسنا إلا أن قالوا:إنا كنا ظالمين . فلنسألن الذين أرسل إليهم ولنسألن المرسلين . فلنقصن عليهم بعلم وما كنا غائبين . و الوزن يومئذ الحق , فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون . ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم بما كانوا بآياتنا يظلمون . .

وبعد هذه المقدمة تبدأ القصة . . تبدأ بالحديث عن التمكين للجنس البشري في الأرض . . وذلك بما أودع الله هذا الكون من خصائص

وموافقات تسمح بحياة هذا الجنس وتمكينه في الأرض . وبما أودع الله هذا الجنس من خصائص وموافقات متوافقة مع الكون ; ومن قدرة على التعرف إلى نواميسه واستخدامها ;والانتفاع بطاقاته ومقدراته ومدخراته وأقواته:

(ولقد مكناكم في الأرض , وجعلنا لكم فيها معايش . قليلا ما تشكرون).
.

وليس هذا إلا التمهيد لعرض قصة النشأة الأولى , وتصوير نقطة الانطلا ق التي بدأت منها البشرية رحلتها المرسومة . والسياق يركز في هذه السورة على هذه النقطة ; ويعرض قصة النشأة , ويتخذها كذلك نقطة تعقيب للإنذار والتذكير , المستمدين مما في مشاهدها وأحداثها من عظات موحية , ومؤثرات عميقة:

ولقد خلقناكم ثم صورنا كم , ثم قلنا للملائكة:اسجدوا لآدم , فسجدوا إلا إبليس لم يكن من الساجدين . قال:ما منعك ألا تسجد إذ أمرتك ? قال:أنا خير منه , خلقتني من نار وخلقته من طين . قال:فاهبط منها , فما يكون لك أن تتكبر فيها , فاخرج إنك من الصاغرين . قال:أنظرني إلى يوم يبعثون . قال:إنك من المنظرين . قال:فبما أغويتني لأقعدن لهم صراطك المستقيم . ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم , ولا تجد أكثرهم شاكرين . قال:اخرج منها مذؤوماً مدحوراً , لمن تبعك منهم لأملأن جهنم منكم أجمعين . . ويا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة , فكلا من حيث شئتما , ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين . . فوسوس لهما الشيطان ليبدي لهما ما ووري عنهما من سوآتهما , وقال:ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين . وقاسمهما:إني لكما لمن الناصحين . فدلاهما بغرور , فلما ذاقا الشجرة بدت لهما سوآتهما , وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة , وناداهما ربهما:ألم أنهكما عن تلكما الشجرة , وأقل لكما:إن الشيطان لكما عدو مبين ? قالا:ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا

لنكونن من الخاسرين . قال:اهبطوا بعضكم لبعض عدو ; ولكم في الأ رض مستقر ومتاع إلى حين . قال:فيها تحيون , وفيها تموتون , ومنها تخرجون . .

وبهذا المشهد في نقطة الانطلاق يتحدد مصير الرحلة كلها , ومصائر المرتحلين جميعا . . وتلوح طلائع المعركة الكبرى التي لا تهدأ لحظة طوال الرحلة , بين هذا العدو الجاهر بالعداوة , وبني آدم جميعا . كما تلوح نقط الضعف في الكائن الإنساني جملة , ومنافذ الشيطان إليه منها .

ومن ثم يتخذ السياق من المشهد مناسبة للتعقيب الطويل , بالإنذار و التحذير . . تحذير بني آدم مما جرى لأبويهم من هذا العدو العنيد . . وفي ظل هذا المشهد الذي يقف فيه الشيطان وجها لوجه مع آدم وزوجه أبوي البشر . وفي ظل النتيجة التي انتهى إليها الشوط الأول في المعركة يتوجه السياق بالخطاب إلى بني آدم , يذكرهم وينذرهم , ويحذرهم مصيراً كهذا المصير:

يا بني آدم قد أنزلنا عليكم لباساً يواري سوآتكم وريشاً , ولباس التقوى ذلك خير , ذلك من آيات الله لعلهم يذكرون . . يا بني آدم لا يفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة , ينزع عنهما لباسهما ليريهما سوآتهما , إنه يراكم هو وقبيلة من حيث لا ترونهم , إنا جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون . .

(يا بني آدم إما يأتينكم رسل منكم يقصون عليكم آياتي فمن اتقى وأصلح فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون . والذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون). .

ولا بد أن نلحظ أن مشهد العري بعد ارتكاب المحظور , والخصف من ورق الجنة ; ثم هذا التعقيب بتذكير بني آدم بنعمة الله في إنزال اللباس الذي يواري سوآتهم والرياش الذي يتزينون به , وتحذيرهم من فتنة

الشيطان لهم لينزع عنهم لباسهم وريشهم كما نزعه عن أبويهم . . لا بد أن نلحظ أن ذكر هذه الحلقة من القصة والتعقيب عليها على هذا النحو إنما يواجه حالة واقعة في المجتمع الجاهلي العربي المشرك . حيث كانواتحت تأثير أساطير وتقاليد معينة يطوفون بالبيت عرايا , ويحرمون أنواعاً من الثياب , وأنواعا من الطعام في فترة الحج . ويزعمون أن هذا من شرع الله , وأن الله قد حرم عليهم هذا الذي يحرمونه على أنفسهم . . ومن ثم يجيء في استعراض قصة البشرية , وفي التعقيب عليها ما يناسب ويواجه هذه الحالة الواقعية في الجاهلية . . وفي كل جاهلية في الحقيقة . . أليست سمة كل جاهلية هي التعري والكشف وقلة الحياء من الله وقلة التقوى ?

وهذا يدلنا على سمة من سمات المنهج القرآني جديرة بالتأمل . . إنه حتى القصص في القرآن لا يسرد إلا لمواجهة حالة واقعة بالفعل . ولأنه يواجه - في كل مرة - حالة معينة , فإن الحقيقة التي تذكر منه والحلقة التي تعرض في موضع من المواضع , تعرض بقدر الحالة الواقعة التي يواجهها النص حينذاك وفي جوها . .

وهذا بالإضافة إلى ما قلناه عن المنهج القرآني في التعريف بسورة الأ نعام - في الجزء السابع - يكون قاعدة هامة . . هي أن المنهج القرآني لا يعرض شيئاً لا تستدعيه حالة واقعة . . إنه لا يعرف اختزان المعلومات والأحكام - ولا حتى القصص - إلى أن يجيء وقت الحاجة الواقعة إليها . .

والآن - وقبل أن تنطلق القافلة في طريقها , وقبل أن يواجهها الرسل بـ الهدى , وقبل أن يفصل السياق كيف تحركت العقيدة مع التاريخ البشري بعد آدم وزوجه وتجربتهما الأولى . . الآن يبادر بتصوير مشهد النهاية , نهاية المرحلة الكبرى , وذلك على طريقة القرآن الغالبة في عرض الرحلة بشطريها في دار الابتلاء وفي دار الجزاء , كأنما هي رحلة متصلة ممدودة .

وهنا نجد أطول مشهد من مشاهد القيامة , وأكثرها تفصيلا ً , وأحفلها بالمناظر المتتابعة والحوار المتنوع . . وموقعه في السورة تعقيباً على قصة آدم وخروجه من الجنة بإغواء إبليس له ولزوجه ; وتحذير الله لأ بنائه أن يفتنهم الشيطان كما أخرج أبويهم من الجنة ; وإخبارهم بأنه سيرسل إليهم رسلا ً يقصون عليهم آياته . . موقعه كذلك يجعله مصداقاً لما ينبى ء به أولئك الرسل . فإذا الذين أطاعوا الشيطان قد حرموا العودة إلى الجنة , وفتنوا عنها كما أخرج الشيطان أبويهم منها ; وإذا الذين خالفوا الشيطان وأطاعوا الله قد ردوا إلى الجنة , ونودوا: (أن تلكم الجنة أورثتموها بما كنتم تعملون). . فعاد المغتربون إلى دار النعيم !!!

والمشهد طويل لا نملك إثباته هنا في هذا التعريف المجمل وسنواجهه فيما بعد بالتفصيل .

والسياق يتخذ من هذا المشهد مناسبة للتعقيب بالإنذار والتذكير , وتحذير الذين يواجهون القرآن بالتكذيب , ويطلبون الخوارق لتصديقه , من سوء المصير:

(ولقد جئناهم بكتاب فصلناه على علم , هدى ورحمة لقوم يؤمنون . هل ينظرون إلا تأويله ? يوم يأتي تأويله يقول الذين نسوه من قبل:قد جاءت رسل ربنا بالحق . فهل لنا من شفعاء فيشفعوا لنا , أو نرد فنعمل غير الذي كنا نعمل ? قد خسروا أنفسهم , وضل عنهم ما كانوا يفترون).
.

وبعد تلك الرحلة الواسعة الآماد , من المنشأ إلى المعاد , يقف السياق ليعقب عليها , مقرراً "حقيقة الألوهية " و"حقيقة الربوبية " في مشاهد كونية ; تشهد بهذه الحقيقة ; على طريقة القرآن في جعل هذا الكون كله مجالا ً تتجلى فيه هذه الحقيقة بآثارها المبدعة , العميقة الإيحاء للقلب البشري حين يستقبلها بالحسالمفتوح والبصيرة المستنيرة . وهدف هذه الرحلة الأساسي في مشاهد الكون وأسراره هو تجلية

الحقيقة الاعتقادية الأساسية:وهي أن هذا الكون بجملته يدين بالعبودية لله وحده , فالله هو ربه وحاكمه . فأولى بالإنسان أن لا يكون نشازاً في لحن الوجود المؤمن ; وألا يشذ عن العبودية لرب هذا الكون الذي له الخلق والأمر . . وهو رب العالمين . .

إن ربكم الله الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام , ثم استوى على العرش , يغشي الليل النهار يطلبه حثيثاً , والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره . ألا له الخلق والأمر , تبارك الله رب العالمين . ادعوا ربكم تضرعاً وخفية . إنه لا يحب المعتدين . ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها , وادعوه خوفاً وطمعاً إن رحمة الله قريب من المحسنين . وهو الذي يرسل الرياح بشرا بين يدي رحمته , حتى إذا أقلت سحاباً ثقا لا ً سقناه لبلد ميت , فأنزلنا به الماء ; فأخرجنا به من كل الثمرات . كذلك نخرج الموتي لعلكم تذكرون . والبلد الطيب يخرج نباته بإذن ربه , والذي خبث لا يخرج إلا نكدا . كذلك نصرف الآيات لقوم يشكرون .

والآن تمضي الرحلة , وتجري القصة , ويبرز الموكب الإيماني الجليل , يهتف بالبشرية الضالة , يذكرها وينذرها , ويحذرها سوء المصير . و البشرية الضالة تلوي وتعاند , وتواجه الدعوة الخيرة بالعناد والتمرد ; ثم بالطغيان والبطش . . ويتولى الله سبحانه المعركة بعد أن يؤدي الرسل واجبهم من التذكير والإنذار , فيقابلوا من قومهم بالتكذيب والإعراض , ثم بالبطش والإيذاء . وبعد أن يفاصلوا قومهم على العقيدة , ويختاروا الله وحده ويدعوا له الأمر كله .

ويعرض السياق قصة نوح , وقصة هود , وقصة صالح وقصة لوط , وقصة شعيب . . مع أقوامهم , وهم يعرضون عليهم حقيقة واحدة لا تتبدل: (يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره). . ويجادلهم قومهم في إفراد الله سبحانه بالألوهية , ويستنكرون أن تكون لله وحده الربوبية . كما يجادلونهم في إرسال الله بشراً من الناس بالرسالة ! ويجادل بعضهم في أن يتعرض الدين لشؤون الحياة الدنيا , ويتحكم في التعاملات

المالية والتجارية ! - وذلك كما يحاول اليوم ناس من الجاهلية الحاضرة في هذه القضية بعينها بعد عشرات القرون , ويسمون هذا الجدل الجاهلي القديم تحرراً "وتقدمية " ! - ويعرض السياق مصارع المكذبين في نهاية كل قصة .

ويلحظ المتتبع لسياق القصص كله في السورة أن كل رسول يقول لقومه قولة واحدة: (يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره). ويتقدم لهم بالحقيقة التي استحفظه عليها ربه تقدم الناصح المخلص , المشفق على قومه مما يراه من العاقبة التي تتربص بهم وهم عنها غافلون . ولكنهم لا يقدرون نصح رسولهم لهم ; ولا يتدبرون عاقبة أمرهم , ولا يستشعرون عمق الإخلاص الذي يحمله قلب الرسول , وعمق التجرد من كل مصلحة , وعمق الإحساس بضخامة التبعة . .

ويكفي أن نثبت هنا ما ورد عن قصة نوح - أول القصص - وما ورد عن قصة شعيب , آخر هذه الجملة من القصص , التي يقف السياق بعدها للتعقيب:

لقد أرسلنا نوحا إلى قومه , فقال:يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره , إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم . قال الملأ من قومه إنا لنراك في ض لال مبين . قال:يا قوم ليس بي ضلالة , ولكني رسول من رب العالمين . أبلغكم رسالات ربي , وأنصح لكم , وأعلم من الله ما لا تعلمون . أو عجبتم أن جاءكم ذكرمن ربكم على رجل منكم لينذركم , ولتتقوا , ولعلكم ترحمون ? فكذبوه , فأنجيناه والذين معه في الفلك , وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا , إنهم كانوا قوما عمين). . .

وإلى مدين أخاهم شعيبا قال:يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره . قد جاءتكم بينة من ربكم , فأوفوا الكيل والميزان , ولا تبخسوا الناس أشياءهم , ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها . ذلكم خير لكم إن كنتم مؤمنين . ولا تقعدوا بكل صراط توعدون وتصدون عن سبيل الله من آمن به , وتبغونها عوجا , واذكروا إذ كنتم قليلا فكثركم , وانظروا كيف

كان عاقبة المفسدين . وإن كان طائفة منكم آمنوا بالذي أرسلت به وطائفة لم يؤمنوا فاصبروا حتى يحكم الله بيننا , وهو خير الحاكمين , قال الملأ الذين استكبروا من قومه:لنخرجنّك يا شعيب والذين آمنوا معك من قريتنا أو لتعودن في ملتنا . قال:أو لو كنا كارهين ? قد افترينا على الله كذباً إن عدنا في ملتكم بعد إذ نجانا الله منها , وما يكون لنا أن نعود فيها - إلا أن يشاء الله ربنا , وسع ربنا كل شيء علماً - على الله توكلنا . ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين . وقال الملأ الذين كفروا من قومه:لئن اتبعتم شعيبا إنكم إذا لخاسرون . فأخذتهم الرجفة , فأصبحوا في دارهم جاثمين . الذين كذبوا شعيباً كأن لم يغنوا فيها . الذين كذبوا شعيباً كانوا هم الخاسرين . فتولى عنهم وقال:يا قوم لقد أبلغتكم رسالات ربي , ونصحت لكم , فكيف آسى على قوم كافرين ? . .

ويمثل هذان النموذجان بقية القصص بينهما . سواء في تصوير حقيقة العقيدة الواحدة التي أرسل الله بها رسله جميعاً لأبناء آدم - كل في قومه - أو في تلقي الملأ المستكبرين والأتباع المستضعفين لهذه الحقيقة . أو في وضوح هذه العقيدة وحسمها في نفوس الرسل وأتباعهم . أو في روح النصح والرغبة في هداية قومهم . . ثم في مفاصلتهم لأقوامهم عندما يتبين لهم عنادهم وإصرارهم الأخير ثم في إدارة الله - سبحانه للمعركة , وأخذ المكذبين بعد مفاصلة رسلهم لهم , والانتهاء من إنذارهم وتذكيرهم . وعتو المكذبين وإصرارهم على ما هم فيه .

وهنا يقف السياق وقفة للتعقيب . يبين فيها سنة الله في تعامل قدر الله مع الناس حين تجيئهم الرسالة فيكذبون . إذ يأخذهم أولا بالضراء و البأساء , لعل هذا يهز قلوبهم الغافية فتستيقظ وتستجيب . فإذا لم تهزهم يد البأس وكلهم إلى الرخاء - وهو أشد فتنة من البأس - حتى تلتبس عليهم سنة الله , ولا ينتبهوا لها . ثم يأخذهم بعد ذلك بغتة وهم لا يشعرون ! . .

وبعد بيان هذه السنة يهز قلوبهم بالخطر الذي يتهددهم في غفلاتهم . فمن يدريهم أن قدر الله يتربص بهم , ليجري فيهم سنته تلك ? أفلا تهديهم مصارع الغابرين , وهم في ديارهم يسكنون ?

وما أرسلنا في قرية من نبي إلا أخذنا أهلها بالبأساء والضراء لعلهم يضرّعون . ثم بدلنا مكان السيئة الحسنة حتى عفوا , وقالوا:قد مس آباءنا الضراء والسراء ! فأخذناهم بغتة وهم لا يشعرون . ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض , ولكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون . أفأمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا بياتا وهم نائمون ? أو أمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا ضحى وهم يلعبون ? أفأمنوا مكر الله ? فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون . أولم يهد للذين يرثون الأرض من بعد أهلها أن لو نشاء أصبناهم بذنوبهم , ونطبع على قلوبهم فهم لا يسمعون . . تلك القرى نقص عليك من أنبائها , ولقد جاءتهم رسلهم بالبينات , فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا من قبل , كذلك يطبع الله على قلوب الكافرين . وما وجدنا لأكثرهم من عهد , وإن وجدنا أكثرهم لفاسقين . .

بعد ذلك يعرض السياق قصة موسى مع فرعون وملئه , ومع قومه بني إسرائيل:وتستغرق القصة أكبر مساحة استغرقتها في سورة قرآنية ; وتعرض منها حلقات شتى ; ويقف السياق عند بعض الحلقات للتعقيب ; كما يقف في نهايتها لتعقيب طويل حتى نهاية السورة .

ولقد وردت حلقات من قصة موسى - عليه السلام - قبل ذلك - حسب ترتيب النزول - في سور:المزمل , والفجر , و ق , والقمر . . وكلها إشارات قصيرة . وهذه أول سورة بعد تلك السور تجيء فيها هذه الحلقات الطويلة , في هذه المساحة العريضة . .

وقد شملت حلقة مواجهة فرعون بحقيقة العقيدة . وحلقة التحدي و السحرة - وهما كثيرتا الورود في السور الأخرى - وحلقة أخذ آل فرعون بالسنين والآفات وإرسال الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم -

التي لم تفصل إلا في هذه السورة - وحلقة إغراق فرعون والملأ من قومه . . ثم استمر السياق مع بني إسرائيل . وطلبهم من موسى أن يجعل لهم إلهاً - صنما - كالقوم الذين مروا عليهم بعد نجاتهم من فرعون وتجاوزهم للبحر ! وحلقة ميقاته مع ربه وطلبه رؤيته ودك الجبل وصعقه وتنزيل الألواح عليه . وحلقة اتخاذ قومه للعجل في غيبته . وحلقة الميقات الثاني مع السبعين من قوم موسى وأخذ الصاعقة لهم حين قالوا:لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة . وحلقة عصيانهم في دخول القرية وفي صيد السمك يوم السبت ! وحلقة نتق الجبل فوقهم كأنه ظلة . . وكلها معروضة بتفصيل واسع , مما جعل القصة تستغرق حزباً كاملا ً من السورة .

وفي موقف من مواقف القصة يُدخل السياق الرسالة النبوية الأخيرة ويصف طبيعتها وحقيقتها . وذلك عندما دعا موسى - عليه السلام - ربه في شأن من صعقوا من قومه ; واستنزل رحمته - سبحانه - على هذا النحو الذي يتداخل فيه القصص لتأدية غرض المعركة التي يخوضها القرآن فعلا ً:

(واختار موسى قومه سبعين رجلا ً لميقاتنا , فلما أخذتهم الرجفة , قال:رب لو شئت أهلكتهم من قبل وإياي , أتهلكنا بما فعل السفهاء منا ? إن هي إلا فتنتك تضل بها من تشاء وتهدي من تشاء , أنت ولينا , فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الغافرين . واكتب لنا في هذه الدنيا حسنة وفي الآخرة , إنا هدنا إليك . قال:عذابي أصيب به من أشاء , ورحمتي وسعت كل شيء , فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة . والذين هم بآياتنا يؤمنون:الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة والإنجيل , يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث , ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم . فالذين آمنوا به وعزروه , ونصروه , واتبعوا النور الذي أنزل معه , أولئك هم المفلحون).

وفي ظل هذا النبأ الصادق من الله , والوعد السابق برسالة النبي الأمي , يأمر الله النبي أن يعلن طبيعة رسالته , وحقيقة دعوته , وحقيقة ربه الذي أرسله , والأصل الاعتقادي الواحد الذي جاء به الرسل جميعاً من قبله:

(قل:يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعا الذي له ملك السماوات وا لأرض لا إله إلا هو يحيي ويميت , فآمنوا بالله ورسوله النبي الأمي الذي يؤمن بالله وكلماته , واتبعوه لعلكم تهتدون). .

ثم تواصل القصة سيرها بعد هذه الوقفة , إلى موقف العهد ونتق الجبل وأخذ الميثاق . وفي ظل مشهد الميثاق والعهد على بني إسرائيل يذكر العهد المأخوذ على فطرة البشر أجمعين:

(وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم:ألست بربكم ? قالوا:بلى شهدنا ! أن تقولوا يوم القيامة:إنا كنا عن هذا غافلين . أو تقولوا:إنما أشرك آباؤنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم , أفتهلكنا بما فعل المبطلون ?). .

ويمضي السياق بعد ذلك في تعقيبات منوعة , يعرض في أحدها بعد مشهد العهد الفطري مباشرة , مشهد الذي آتاه الله آياته ثم انسلخ منها - كبني إسرائيل وككل من يؤتيه الله آياته ثم ينسلخ منها ! - وهو مشهد يذكرنا بصوره وحركته وإيقاعه والتعقيب عليه بمشاهد سورة الأنعام وجوها كذلك:

واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها , فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين . ولو شئنا لرفعناه بها , ولكنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه , فمثله كمثل الكلب:إن تحمل عليه يلهث , أو تتركه يلهث ! ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا ; فاقصص القصص لعلهم يتفكرون . ساء مثلا القوم الذين كذبوا بآياتنا وأنفسهم كانوا يظلمون . من يهد الله فهو المهتدي , ومن يضلل فأولئك هم الخاسرون . ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من

الجن والإنس , لهم قلوب لايفقهون بها , ولهم أعين لا يبصرون بها , ولهم آذان لا يسمعون بها , أولئك كالأنعام بل هم أضل , أولئك هم الغافلون . .

ثم يمضي السياق يتحدث عن مسائل العقيدة حديثاً مباشراً . ويعرض مع الحديث بعض المؤثرات من المشاهد الكونية ومن التحذير من بأس الله وأخذه ; ومن لمس قلوبهم ليتفكروا ويتدبروا في شأن الرسول ورسالته . . .

ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها , وذروا الذين يلحدون في أسمائه , سيجزون ما كانوا يعملون . وممن خلقنا أمة يهدون بالحق وبه يعدلون . والذين كذبوا بآياتنا سنستدرجهم من حيث لا يعلمون . وأملي لهم , إن كيدي متين . أو لم يتفكروا ? ما بصاحبهم من جنة , إن هو إلا نذير مبين . أو لم ينظروا في ملكوت السماوات والأرض , وما خلق الله من شيء , وأن عسى أن يكون قد اقترب أجلهم ? فبأي حديث بعده يؤمنون ? من يضلل الله فلا هادي له , ويذرهم في طغيانهم يعمهون . .

ثم يأمر الله رسوله [ص] أن يعلمهم طبيعة الرسالة وحدود الرسول فيها . وذلك بمناسبة سؤالهم له عن تحديد موعد القيامة التي يخوفهم بها !

(يسألونك عن الساعة أيان مرساها ؟! قل:إنما علمها عند ربي , لا يجليها لوقتها إلا هو , ثقلت في السماوات والأرض , لا تأتيكم إلا بغتة . يسألونك كأنك حفي عنها ! قل:إنما علمها عند الله , ولكن أكثر الناس لا يعلمون . قل:لا أملك لنفسي نفعاً ولا ضراً - إلا ما شاء الله - ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسني السوء . إن أنا إلا نذير وبشير لقوم يؤمنون). .

ثم يصور لهم كيف تنحرف النفس - التي أخذ الله عليها العهد الذي أسلفنا - عن التوحيد الذي أقرت به فطرتها ; ويستنكر تصورات الشرك ومعبوداته ; ويوجه رسوله [ص] في نهاية هذه الفقرة إلى تحديهم

وتحدي آلهتهم العاجزة:

(قل:ادعوا شركاءكم ثم كيدون فلا تُنظرون . إن وليي الله الذي نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين .والذين تدعون من دونه لا يستطيعون نصركم ولا أنفسهم ينصرون . وإن تدعوهم إلى الهدى لا يسمعوا , وتراهم ينظرون إليك وهم لا يبصرون). .

ومن هنا إلى ختام السورة يتجه السياق إلى خطاب رسول الله [ص] كما كان افتتاحها خطاباً له - كيف يعامل الناس ? كيف يمضي بهذه الدعوة ? كيف يستعين على متاعب الطريق ? كيف يكظم غضبه وهو يعاني من نفوس الناس وكيدهم ? كيف يستمع هو والمؤمنون معه لهذا القرآن ? كيف يذكر ربه ويبقى موصولا به ? كما يذكره من عنده في الملأ الأعلى - سبحانه -:

خذ العفو , وأمر بالعرف , وأعرض عن الجاهلين . وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله , إنه سميع عليم ; إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون . وإخوانهم يمدونهم في الغي ثم لا يقصرون . وإذا لم تأتهم بآية قالوا:لولا اجتبيتها ! قل:إنما أتبع ما يوحى إليّ من ربي . هذا بصائر من ربكم , وهدى ورحمة لقوم يؤمنون . وإذا قرىء القرآن فاستمعوا له وأنصتوا لعلكم ترحمون . واذكر ربك في نفسك تضرعا وخيفة ودون الجهر من القول بالغدو والآصال و لا تكن من الغافلين . . إن الذين عند ربك لا يستكبرون عن عبادته , ويسبحونه , وله يسجدون . .

ولعل هذا التلخيص , وهذه المقتطفات الكثيرة من السورة , أن تصور ملامحها الخاصة ; وتميزها عن أختها سورة الأنعام في هذه الملامح . وفي منهج العرض . مع معالجة موضوع واحد . . موضوع العقيدة . .

وقد أرجأنا كل تفسير للنصوص , وكل تفصيل للموضوع الذي تحمله , إلى المواجهة التفصيلية .

نعود الآن إلى القرآن المدني - بعد سورتي الأنعام والأعراف المكيتين - وقد سبقت منه في هذه الظلال - التي نسير فيها وفق ترتيب المصحف لاوفق ترتيب النزول - سور:البقرة , وآل عمران , والنساء والمائدة . . ذلك أن الترتيب الزمني للنزول لا يمكن القطع فيه الآن بشيء - اللهم إلا من ناحية أن هذا قرآن مكي وهذا قرآن مدني على وجه الإجمال , على ما في هذا من خلافات قليلة - فأما الترتيب الزمني المقطوع به من ناحية زمن نزول كل آية أو كل مجموعة من الآيات أو كل سورة , فيكاد يكون متعذراً ; ولا يكاد يجد الإنسان فيه اليوم شيئاً مستيقناً - إلا في آيات معدودات تتوافر بشأنها الروايات أو تقطع بشأنها بعض الروايات . . وعلى كل ما في محاولة تتبع آيات القرآن وسوره وفق الترتيب الزمني للنزول من قيمة , ومن مساعدة على تصور منهج الحركة الإسلا مية ومراحلها وخطواتها , فإن قلة اليقين في هذا الترتيب تجعل الأمر شاقاً ; كما أنها تجعل النتائج التي يتوصل إليها تقريبية ظنية , وليست نهائية يقينية . . وقد تترتب على هذه النتائج الظنية التقريبية نتائج أخرى خطيرة . . لذلك آثرت في هذه الظلال أن أعرض القرآن بترتيب سوره في المصحف العثماني ; مع محاولة الإلمام بالملابسات التاريخية لكل سورة - على وجه الإجمال والترجيح - والاستئناس بهذا في إيضاح الجو والملابسات المحيطة بالنص - على وجه الإجمال والترجيح أيضاً - على النحو الذي سبق في التعريف بالسور الماضية في هذه الطبعة الجديدة من الظلال . . وعلى هذا النحو نمضي - بعون الله - في هذه السورة . .

نزلت سورة الأنفال التي نعرض لها هنا بعد سورة البقرة . . نزلت في غزوة بدر الكبرى في شهر رمضان من العام الثاني للهجرة بعد تسعة عشر شهراً من الهجرة على الأرجح . . ولكن القول بأن هذه السورة نزلت بعد سورة البقرة لا يمثل حقيقة نهائية . فسورة البقرة لم تنزل دفعة واحدة ; بل أن منها ما نزل في أوائل العهد بالمدينة , ومنها ما نزل في

أواخر هذا العهد . وبين هذه الأوائل وهذه الأواخر نحو تسع سنوات ! ومن المؤكد أن سورة الأنفال نزلت بين هذين الموعدين ; وأن سورة البقرة قبلها وبعدها ظلت مفتوحة ; تنزل الآيات ذوات العدد منها بين هذين الموعدين ; وتضم إليها وفق الأمر النبوي التوقيفي . ولكن المعول عليه في قولهم:إن هذه السورة نزلت بعد هذه السورة , هو نزول أوائل السور . كما ذكرنا ذلك في التعريف بسورة البقرة .

وفي بعض الروايات أن الآيات من 30 إلى غاية 36 من سورة الأنفال مكية . . وهي هذه الآيات:

وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك . ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين . وإذا تتلى عليهم آياتنا قالوا:قد سمعنا . لو نشاء لقلنا مثل هذا إن هذا إلا أساطير الأولين . وإذ قالوا:اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء , أو ائتنا بعذاب أليم . وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم , وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون . وما لهم ألا يعذبهم الله وهم يصدون عن المسجد الحرام , وما كانوا أولياءه , إن أولياؤه إلا المتقون , ولكن أكثرهم لايعلمون . وما كان صلاتهم عند البيت إلا مكاء وتصدية , فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون . إن الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله , فسينفقونها ثم تكون عليهم حسرة ثم يغلبون , والذين كفروا إلى جهنم يحشرون . .

ولعل الذي دعا أصحاب هذه الروايات إلى القول بمكية هذه الآيات أنها تتحدث عن أمور كانت في مكة قبل الهجرة . . ولكن هذا ليس بسبب . . فإن هناك كثيراً من الآيات المدنية تتحدث عن أمور كانت في مكة قبل الهجرة . وفي هذه السورة نفسها آية:26 قبل هذه الآيات تتحدث عن مثل هذا الشأن:

(واذكروا إذ أنتم قليل مستضعفون في الأرض , تخافون أن يتخطفكم الناس , فآواكم وأيدكم بنصره , ورزقكم من الطيبات لعلكم تشكرون). .

كما أن الآية:36 وهي الأخيرة من تلك الآيات تتحدث عن أمر كان بعد بدر , خاص بإنفاق المشركين أموالهم للتجهيز لغزوة أحد:

(إن الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله . فسينفقونها ثم تكون عليهم حسرة , ثم يغلبون , والذين كفروا إلى جهنم يحشرون). .

والروايات التي تذكر أن هذه الآيات مكية ذكرت في سبب النزول مناسبة هي محل اعتراض . فقد جاء فيها:أن أبا طالب قال لرسول الله [ص] ما يأتمر به قومك ? قال:يريدون أن يسحروني ويقتلوني ويخرجوني ! فقال:من أخبرك بهذا ? قال:ربي . قال:نعم الرب ربك . فاستوص به خيراً ! فقال رسول الله [ص]:أنا استوصي به ! بل هو يستوصي بي خيراً ! فنزلت: (وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك). . الآية . .

وقد ذكر ابن كثير هذه الرواية واعترض عليها بقوله:" وذكر أبي طالب في هذا غريب جداً , بل منكر . لأن هذه الآية مدنية . ثم إن هذه القصة , واجتماع قريش على هذا الائتمار , والمشاورة على الإثبات أو النفي أو القتل , إنما كانت ليلة الهجرة سواء . وذلك بعد موت أبي طالب بنحو من ثلاث سنين . لما تمكنوا منه واجترأوا عليه بسبب موت عمه أبي ط الب , الذي كان يحوطه وينصره ويقوم بأعبائه " . .

وقد ذكر ابن إسحاق . عن عبد الله ابن أبي نجيح . عن مجاهد . عن ابن عباس - وعنه كذلك من طريق آخر - حديثاً طويلا ً عن تبييت قريش ومكرهم هذا , جاء في نهايته قوله:" . . وأذن الله له عند ذلك بالخروج , وأنزل عليه - بعد قدومه المدينة - "الأنفال" يذكره نعمه عليه , وبلاءه عنده:(وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك , ويمكرون ويمكر الله . والله خير الماكرين)" . .

وهذه الرواية عن ابن عباس - رضي الله عنهما - هي التي تتفق مع السياق القرآني قبل هذه الآيات وبعدها . من تذكير الله سبحانه لنبيه

[ص] وللمؤمنين بما أسلف إليهم من فضله ; في معرض تحريضهم على الجهاد في سبيل الله والاستجابة لما يدعوهم إليه منه والثبات يوم الزحف . . إلى آخر ما تعالجه السورة من هذاالأمر كما سنبين . . والقول بأن هذه الآيات مدنية كالسورة كلها هو الأولى . .

وبعد , فإنه من أجل مثل هذه الملابسات في الروايات الواردة عن أسباب النزول , آثرنا المنهج الذي جرينا عليه في عرض القرآن الكريم كما هو ترتيب السور في مصحف عثمان - رضي الله عنه - لا وفق ترتيب النزول الذي لا سبيل اليوم فيه إلى يقين . . مع محاولة الا ستئناس بأسباب النزول وملابساته قدر ما يستطاع .

والله المستعان . .

هذه السورة نزلت في غزوة بدر الكبرى . . وغزوة بدر - بملابساتها وبما ترتب عليها في تاريخ الحركة الإسلامية وفي التاريخ البشري جملة - تقوم معلماً ضخماً في طريق تلك الحركة وفي طريق هذا التاريخ .

وقد سمى الله - سبحانه - يومها (يوم الفرقان يوم التقى الجمعان). . كما أنه جعلها مفرق الطريق بين الناس في الآخرة كذلك لا في هذه الأرض وحدها ; ولا في التاريخ البشري على هذه الأرض في الحياة الدنيا وحدها . فقال سبحانه:(هذان خصمان اختصموا في ربهم:فالذين كفروا قطعت لهم ثياب من نار , يصب من فوق رؤوسهم الحميم , يصهر به ما في بطونهم والجلود . ولهم مقامع من حديد . كلما أرادوا أن يخرجوا منها - من غم - أعيدوا فيها , وذوقوا عذاب الحريق . . إن الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجري من تحتها الأنهار يحلون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤاً ولباسهم فيها حرير . وهدوا إلى الطيب من القول وهدوا إلى صراط الحميد . . .). . [الحج:19 - 24] وقد ورد أن هذه الآيات نزلت في الفريقين اللذين التقيا يوم بدر . . يوم الفرقان . . لا في الدنيا وحدها , ولا في التاريخ البشري على الأرض وحدها ; ولكن كذلك في الآخرة وفي الأبد الطويل . . وتكفي هذه الشهادة من الجليل -

سبحانه - لتصوير ذلك اليوم وتقديره . . وسنعرف شيئاً من قيمة هذا اليوم , حين نستعرض الوقعة وملابساتها ونتائجها . .

ومع كل عظمة هذه الغزوة , فإن قيمتها لا تتضح أبعادها الحقيقية إلا حين نعرف طبيعتها وحين نراها حلقة من حلقات "الجهاد في الإسلام" , وحين ندرك بواعث هذا الجهاد وأهدافه . كذلك نحن لا ندرك طبيعة "الجهاد في الإسلام" وبواعثه وأهدافه , قبل أن نعرف طبيعة هذا الدين ذاته . .

لقد لخص الإمام ابن القيم سياق الجهاد في الإسلام في "زاد المعاد" , في الفصل الذي عقده باسم:"فصل في ترتيب سياق هديه مع الكفار و المنافقين من حين بعث إلى حين لقي الله عز وجل:أول ما أوحى إليه ربه تبارك وتعالى:أن يقرأ باسم ربه الذي خلق . وذلك أول نبوته . فأمره أن يقرأ في نفسه ولم يأمره إذ ذاك بتبليغ . ثم أنزل عليه:(يا أيها المدثر . قم فأنذر)فنبأه بقوله:(اقرأ)وأرسله ب(يا أيها المدثر). ثم أمره أن ينذر عشيرته الأقربين . ثم أنذر قومه . ثم أنذر من حولهم من العرب . ثم أنذر العرب قاطبة . ثم أنذر العالمين . فأقام بضع عشرة سنة بعد نبوته ينذر بالدعوة بغير قتال ولا جزية ; ويؤمر بالكف والصبر و الصفح . ثم أذن له في الهجرة , وأذن له في القتال . ثم أمره أن يقاتل من قاتله , ويكف عمن اعتزله ولم يقاتله . ثم أمره بقتال المشركين حتى يكون الدين كله لله . . ثم كان الكفار معه بعد الأمر بالجهاد ثلاثة أقسام:أهل صلح وهدنة . وأهل حرب . وأهل ذمة . فأمر بأن يتم لأهل العهد والصلح عهدهم , وأن يوفي لهم به ما استقاموا على العهد ; فإن خاف منهم خيانة نبذ إليهم عهدهم ولم يقاتلهم حتى يعلمهم بنقض العهد . وأمر أن يقاتل من نقض عهده . . ولما نزلت سورة براءة نزلت ببيان حكم هذه الأقسام كلها:فأمر أن يقاتل عدوه من أهل الكتاب حتى يعطوا الجزية أو يدخلوا في الإسلام . وأمره فيها بجهاد الكفار و المنافقين والغلظة عليهم . فجاهد الكفار بالسيفوالسنان , والمنافقين بـ الحجة واللسان . وأمره فيها بالبراءة من عهود الكفار ونبذ عهودهم

إليهم . . وجعل أهل العهد في ذلك ثلاثة أقسام:قسماً أمره بقتالهم وهم الذين نقضوا عهده , ولم يستقيموا له , فحاربهم وظهر عليهم . وقسماً لهم عهد موقت لم ينقضوه ولم يظاهروا عليه , فأمره أن يتم لهم عهدهم إلى مدتهم . وقسماً لم يكن لهم عهد ولم يحاربوه ; أو كان لهم عهد مطلق , فأمر أن يؤجلهم أربعة أشهر ; فإذا انسلخت قاتلهم . . فقتل الناقض لعهده ; وأجل من لا عهد له , أو له عهد مطلق , أربعة أشهر . وأمره أن يتم للموفي بعهده عهده إلى مدته ; فأسلم هؤلاء كلهم ولم يقيموا على كفرهم إلى مدتهم . وضرب على أهل الذمة الجزية . . فاستقر أمر الكفار معه بعد نزول براءة على ثلاثة أقسام:محاربين له , وأهل عهد , وأهل ذمة . . ثم آلت حال أهل العهد والصلح إلى الإسلام فصاروا معه قسمين:محاربين وأهل ذمة . والمحاربون له خائفون منه . فصار أهل الأرض معه ثلاثة أقسام:مسلم مؤمن به . ومسالم له آمن . وخائف محارب . . وأما سيرته في المنافقين فإنه أمر أن يقبل منهم علا نيتهم ; ويكل سرائرهم إلى الله ; وأن يجاهدهم بالعلم والحجة ; وأمر أن يعرض عنهم , ويغلظ عليهم , وأن يبلغ بالقول البليغ إلى نفوسهم , ونهي أن يصلي عليهم , وأن يقوم على قبورهم , وأخبر أنه إن استغفر لهم فلن يغفر الله لهم . . فهذه سيرته في أعدائه من الكفار والمنافقين" . .

ومن هذا التلخيص الجيد لمراحل الجهاد في الإسلام تتجلى سمات أصيلة وعميقة في المنهج الحركي لهذا الدين , جديرة بالوقوف أمامها طويلا ً . ولكننا في هذه الظلال لا نملك إلا أن نشير إليها إشارات مجملة:

السمة الأولى:هي الواقعية الجدية في منهج هذا الدين . . فهو حركة تواجه واقعاً بشرياً . . وتواجهه بوسائل مكافئة لوجوده الواقعي . . إنها تواجه جاهلية اعتقادية تصورية ; تقوم عليها أنظمة واقعية عملية ; تسندها سلطات ذات قوة مادية . . ومن ثم تواجه الحركة الإسلامية هذا الواقع كله بما يكافئه . . تواجهه بالدعوة والبيان لتصحيح المعتقدات والتصورات وتواجهه بالقوة والجهاد لإزالة الأنظمة والسلطات

القائمة عليها ; تلك التي تحول بين جمهرة الناس وبين التصحيح بالبيان للمعتقدات والتصورات ; وتخضعهم بالقهر والتضليل وتعبدهم لغير ربهم الجليل . . إنها حركة لا تكتفي بالبيان في وجه السلطان المادي . كما أنها لا تستخدم القهر المادي لضمائر الأفراد . . وهذه كتلك سواء في منهج هذا الدين وهو يتحرك لإخراج الناس من العبودية للعباد إلى العبودية لله وحده كما سيجيء . .

والسمة الثانية في منهج هذا الدين . . هي الواقعية الحركية . فهو حركة ذات مراحل . كل مرحلة لها وسائل مكافئة لمقتضياتها وحاجاتها الواقعية . وكل مرحلة تسلم إلى المرحلة التي تليها . . فهو لا يقابل الواقع بنظريات مجردة . كما أنه لا يقابل مراحل هذا الواقع بوسائل متجمدة . . والذين يسوقون النصوص القرآنية للاستشهاد بها على منهج هذا الدين في الجهاد , ولا يراعون هذه السمة فيه , ولا يدركون طبيعة المراحل التي مر بها هذا المنهج , وعلاقة النصوص المختلفة بكل مرحلة منها . . الذين يصنعون هذا يخلطون خلطاً شديداً ; ويلبسون منهج هذا الدين لبساً مضللا ً , ويحملون النصوص ما لا تحتمله من المبادئ و القواعد النهائية . ذلك أنهم يعتبرون كل نص منها كما لو كان نصاً نهائياً ; يمثل القواعد النهائية في هذا الدين . ويقولون - وهم مهزومون روحياً وعقلياً تحت ضغط الواقع اليائس لذراري المسلمين الذين لم يبق لهم من الإسلام إلا العنوان -:إن الإسلام لا يجاهد إلا للدفاع ! ويحسبون أنهم يسدون إلى هذا الدين جميلا ً بتخليه عن منهجه وهو إزالة الطواغيت كلها من الأرض جميعاً , وتعبيد الناس لله وحده , وإخراجهم من العبودية للعباد إلى العبودية لرب العباد ! لا بقهرهم على اعتناق عقيدته . ولكن بالتخلية بينهم وبين هذه العقيدة . . بعد تحطيمالأنظمة السياسية الحاكمة , أو قهرها حتى تدفع الجزية وتعلن استسلامها والتخلية بين جماهيرها وهذه العقيدة تعتنقها أو لا تعتنقها بكامل حريتها . .

والسمة الثالثة:هي أن هذه الحركة الدائبة , والوسائل المتجددة , لا تخرج هذا الدين عن قواعده المحددة , ولا عن أهدافه المرسومة . فهو

منذ اليوم الأول - سواء وهو يخاطب العشيرة الأقربين , أو يخاطب قريشاً , أو يخاطب العرب أجمعين , أو يخاطب العالمين , إنما يخاطبهم بقاعدة واحدة ; ويطلب منهم الانتهاء إلى هدف واحد . . هو إخلاص العبودية لله , والخروج من العبودية للعباد . . لا مساومة في هذه القاعدة ولا لين . ثم يمضي إلى تحقيق هذا الهدف الواحد , في خطة مرسومة ; ذات مراحل محددة ; لكل مرحلة وسائلها المتجددة . على نحو ما أسلفنا في الفقرة السابقة .

والسمة الرابعة:هي ذلك الضبط التشريعي للعلاقات بين المجتمع المسلم وسائر المجتمعات الأخرى - على النحو الملحوظ في ذلك التلخيص الجيد الذي نقلناه عن "زاد المعاد" . وقيام ذلك الضبط على أساس أن الإ سلام لله هو الأصل العالمي الذي على البشرية كلها أن تفيء إليه ; أو أن تسالمه بجملتها فلا تقف لدعوته بأي حائل من نظام سياسي , أو قوة مادية . وأن تخلي بينه وبين كل فرد , يختاره أو لا يختاره بمطلق إرادته . ولكن لا يقاومه ولا يحاربه ! فإن فعل ذلك أحد كان على الإسلام أن يقاتله حتى يقتله أو حتى يعلن استسلامه !

والمهزومون روحياً وعقلياً ممن يكتبون عن "الجهاد في الإسلام" ليدفعوا عن الإسلام هذا "الاتهام ! " . . يخلطون بين منهج هذا الدين في النص على استنكار الإكراه على العقيدة , وبين منهجه في تحطيم القوى السياسية المادية التي تحول بين الناس وبينه ; والتي تعبد الناس للناس ; وتمنعهم من العبودية لله . . وهما أمران لا علاقة بينهما ولا مجال للالتباس فيهما . . ومن أجل هذا التخليط - وقبل ذلك من أجل تلك الهزيمة !- يحاولون أن يحصروا الجهاد في الإسلام فيما يسمونه اليوم:"الحرب الدفاعية " . . والجهاد في الإسلام أمر آخر لا علاقة له بحروب الناس اليوم , ولا بواعثها , ولا تكييفها كذلك . . إن بواعث الجهاد في الإسلام ينبغي تلمسها في طبيعة "الإسلام" ذاته , ودوره في هذه الأرض , وأهدافه العليا التي قررها الله ; وذكر الله أنه أرسل من أجلها هذا الرسول بهذه الرسالة , وجعله خاتم النبيين وجعلها خاتمة

الرسالات . .

إن هذا الدين إعلان عام لتحرير "الإنسان" في "الأرض" من العبودية للعباد - ومن العبودية لهواه أيضاً وهي من العبودية للعباد - وذلك بإعلان ألوهية الله وحده - سبحانه - وربوبيته للعالمين . . إن إعلان ربوبية الله وحده للعالمين معناها:الثورة الشاملة على حاكمية البشر في كل صورها وأشكالها وأنظمتها وأوضاعها ; والتمرد الكامل على كل وضع في أرجاء الأرض الحكم فيه للبشر بصورة من الصور . . أو بتعبير آخر مرادف:الألوهية فيه للبشر في صورة من الصور . . ذلك أن الحكم الذي مرد الأمر فيه إلى البشر , ومصدر السلطات فيه هم البشر , هو تأليه للبشر , يجعل بعضهم لبعض أرباباً من دون الله . . إن هذا الإعلان معناه انتزاع سلطان الله المغتصب ورده إلى الله ; وطرد المغتصبين له ; الذين يحكمون الناس بشرائع من عند أنفسهم فيقومون منهم مقام الأرباب ; ويقوم الناس منهم مقام العبيد . . إن معناه تحطيم مملكة البشر لإقامة مملكة الله في الأرض . . أو بالتعبير القرآني الكريم:

(وهو الذي في السماء إله وفي الأرض إله). .

(إن الحكم إلا لله أمر ألا تعبدوا إلا إياه . . ذلك الدين القيم . .). .

(قل:يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم:ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً , ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله . فإن تولوا فقولوا:اشهدوا بأنا مسلمون). .

ومملكة الله في الأرض لا تقوم بأن يتولى الحاكمية في الأرض رجال بأعيانهم - هم رجال الدين كما كان الأمر في سلطان الكنيسة , ولا رجال ينطقون باسم الآلهة , كما كان الحال في ما يعرف باسم "الثيوقراطية " أو الحكم الإلهي المقدس !!! - ولكنها تقوم بأن تكون شريعة الله هي الحاكمة ; وأن يكون مرد الأمر إلى الله وفق ما قرره من شريعة مبينة .

وقيام مملكة الله في الأرض , وإزالة مملكة البشر . وانتزاع السلطان من

أيدي مغتصبيه من العباد ورده إلى الله وحده . وسيادة الشريعة الإلهية وحدها وإلغاء القوانين البشرية . . كل أولئك لا يتم بمجرد التبليغ و البيان . لأن المتسلطين على رقاب العباد , المغتصبين لسلطان الله في الأ رض , لا يسلمون في سلطانهم بمجرد التبليغ والبيان . وإلا فما كان أيسر عمل الرسل في إقرار دين الله في الأرض ! وهذا عكس ما عرفه تاريخ الرسل - صلوات الله وسلامه عليهم - وتاريخ هذا الدين على ممر الأ جيال !

إن هذا الإعلان العام لتحرير "الإنسان" في "الأرض" من كل سلطان غير سلطان الله , بإعلان ألوهية الله وحده وربوبيته للعالمين , لم يكن إعلاناً نظرياً فلسفياً سلبياً . . إنما كان إعلاناً حركياً واقعياً إيجابياً . . إعلاناً يراد له التحقيق العملي في صورة نظام يحكم البشر بشريعة الله ; ويخرجهم بالفعل من العبودية للعباد إلى العبودية لله وحده بلا شريك . . ومن ثم لم يكن بد من أن يتخذ شكل "الحركة " إلى جانب شكل "البيان" . . ذلك ليواجه "الواقع" البشري بكل جوانبه بوسائل مكافئة لكل جوانبه .

والواقع الإنساني , أمس واليوم وغداً , يواجه هذا الدين - بوصفه إعلاناً عاماً لتحرير "الإنسان" في "الأرض" من كل سلطان غير سلطان الله - بعقبات اعتقادية تصورية . وعقبات مادية واقعية . . عقبات سياسية واجتماعية واقتصادية وعنصرية وطبقية , إلى جانب عقبات العقائد المنحرفة والتصورات الباطلة . . وتختلط هذه بتلك وتتفاعل معها بصورة معقدة شديدة التعقيد . .

وإذا كان "البيان" يواجه العقائد والتصورات , فإن "الحركة " تواجه العقبات المادية الأخرى - وفي مقدمتها السلطان السياسي القائم على العوامل الاعتقادية التصورية , والعنصرية والطبقية , والاجتماعية والا قتصادية المعقدة المتشابكة . . وهما معاً - البيان والحركة - يواجهان "الواقع البشري" بجملته , بوسائل مكافئة لكل مكوناته . . وهما معاً لا بد

منهما لانطلاق حركة التحرير للإنسان في الأرض . . "الإنسان" كله في "الأرض" كلها . . وهذه نقطة هامة لا بد من تقريرها مرة أخرى !

إن هذا الدين ليس إعلاناً لتحرير الإنسان العربي ! وليس رسالة خاصة بالعرب ! . . إن موضوعه هو "الإنسان" . . نوع "الإنسان" . . ومجاله هو "الأرض" . . كل الأرض . إن الله - سبحانه - ليس رباً للعرب وحدهم ولا حتى لمن يعتنقون العقيدة الإسلامية وحدهم . . إن الله هو (رب العالمين). . وهذا الدين يريد أن يرد(العالمين)إلى ربهم ; وأن ينتزعهم من العبودية لغيره . والعبودية الكبرى - في نظر الإسلام - هي خضوع البشر لأحكام يشرعها لهم ناس من البشر . . وهذه هي "العبادة " التي يقرر أنها لا تكون إلا لله . وأن من يتوجه بها لغير الله يخرج من دين الله مهما ادعى أنه في هذا الدين . ولقد نص رسول الله [ص] على أن "الاتباع" في الشريعة والحكم هو "العبادة " التي صار بها اليهود والنصارى "مشركين" مخالفين لما أمروا به من "عبادة " الله وحده . .

أخرج الترمذي - بإسناده - عن عدى بن حاتم - رضي الله عنه - أنه لما بلغته دعوة رسول الله [ص] فر إلى الشام . وكان قد تنصر في الجاهلية . فأسرت أخته وجماعة من قومه . ثم منّ رسول الله [ص] على أخته وأعطاها . فرجعت إلى أخيها فرغبته في الإسلام , وفي القدوم على رسول الله [ص] فتحدث الناس بقدومه . فدخل على رسول الله [ص] وفي عنقه [أي عدي] صليب من فضة وهو [أي النبي [ص]] يقرأ هذه الآية: (اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله). . قال:فقلت:إنهم لم يعبدوهم . فقال:" بلى ! إنهم حرموا عليهم الحلال , وأحلوا لهم الحرام . فاتبعوهم . فذلك عبادتهم إياهم " . .

وتفسير رسول الله [ص] لقول الله سبحانه , نص قاطع على أن الاتباع في الشريعة والحكم هو العبادة التي تخرج من الدين , وأنها هي اتخاذ بعض الناس أرباباً لبعض . . الأمر الذي جاء هذا الدين ليلغيه , ويعلن تحرير "الإنسان" , في "الأرض" من العبودية لغير الله . .

ومن ثم لم يكن بد للإسلام أن ينطلق في "الأرض" لإزالة "الواقع" المخالف لذلك الإعلان العام . . بالبيان وبالحركة مجتمعين . . وأن يوجه الضربات للقوى السياسية التي تعبد الناس لغير الله - أي تحكمهم بغير شريعة الله وسلطانه - والتي تحول بينهم وبين الاستماع إلى "البيان" واعتناق "العقيدة " بحرية لا يتعرض لها السلطان . ثم لكي يقيم نظاماً اجتماعياً واقتصادياً وسياسياً يسمح لحركة التحرر بالانطلاق الفعلي - بعد إزالة القوة المسيطرة - سواء كانت سياسية بحتة , أو متلبسة بـ العنصرية أو الطبقية داخل العنصر الواحد !

إنه لم يكن من قصد الإسلام قط أن يكره الناس على اعتناق عقيدته . . ولكن الإسلام ليس مجرد "عقيدة " . . إن الإسلام كما قلنا إعلان عام لتحرير الإنسان من العبودية للعباد . فهو يهدف ابتداء إلى إزالة الأنظمة والحكومات التي تقوم على أساس حاكمية البشر للبشر وعبودية الإنسان للإنسان . . ثم يطلق الأفراد بعد ذلك أحراراً - بالفعل - في اختيار العقيدة التي يريدونها بمحض اختيارهم - بعد رفع الضغط السياسي عنهم وبعد البيان المنير لأرواحهم وعقولهم - ولكن هذه الحرية ليس معناها أن يجعلوا إلههم هواهم ; أو أن يختاروا بأنفسهم أن يكونوا عبيداً للعباد ! وأن يتخذ بعضهم بعضاً أرباباً من دون الله ! . . إن النظام الذي يحكم البشر في الأرض يجب أن تكون قاعدته العبودية لله وحده ; وذلك بتلقي الشرائع منه وحده . ثم ليعتنق كل فرد - في ظل هذا النظام العام - ما يعتنقه من عقيدة ! وبهذا يكون "الدين" كله لله . أي تكون الدينونة والخضوع والاتباع والعبودية كلها لله . . إن مدلول "الدين" أشمل من مدلول "العقيدة " . . إن الدين هو المنهج والنظام الذي يحكم الحياة وهو في الإسلام يعتمد على العقيدة . ولكنه في عمومه أشمل من العقيدة . . وفي الإسلام يمكن أن تخضع جماعات متنوعة لمنهجه العام الذي يقوم على أساس العبودية لله وحده ولو لم يعتنق بعض هذه الجماعات عقيدة الإسلام . .

والذي يدرك طبيعة هذا الدين - على النحو المتقدم - يدرك معها حتمية ا

لانطلاق الحركي للإسلام في صورة الجهاد بالسيف - إلى جانب الجهاد بـ البيان - ويدرك أن ذلك لم يكن حركة دفاعية - بالمعنى الضيق الذي يفهم اليوم من اصطلاح "الحرب الدفاعية " - كما يريد المهزومون أمام ضغط الواقع الحاضر وأمام هجوم المستشرقين الماكر أن يصوروا حركة الجهاد في الإسلام - إنما كان حركة اندفاع وانطلاق لتحرير "الإنسان" في "الأرض" . . بوسائل مكافئة لكل جوانب الواقع البشري ; وفي مراحل محددة لكل مرحلة منها وسائلها المتجددة .

وإذا لم يكن بد من أن نسمي حركة الإسلام الجهادية حركة دفاعية , فلا بد أن نغير مفهوم كلمة "دفاع" .

ونعتبره "دفاعاً عن الإنسان" ذاته , ضد جميع العوامل التي تقيد حريته وتعوق تحرره . . هذه العوامل التي تتمثل في المعتقدات والتصورات ; كما تتمثل في الأنظمة السياسية , القائمة على الحواجز الاقتصادية و الطبقية والعنصرية , التي كانت سائدة في الأرض كلها يوم جاء الإسلام ; والتي ما تزال أشكال منها سائدة في الجاهلية الحاضرة في هذا الزمان !

وبهذا التوسع في مفهوم كلمة "الدفاع" نستطيع أن نواجه حقيقة بواعث الانطلاق الإسلامي في "الأرض" بالجهاد ; ونواجه طبيعة الإسلام ذاتها , وهي أنه إعلان عام لتحرير الإنسان من العبودية للعباد , وتقرير ألوهية الله وحده وربوبيته للعالمين ; وتحطيم مملكة الهوى البشري في الأرض , وإقامة مملكة الشريعة الإلهية في عالم الإنسان . .

أما محاولة إيجاد مبررات دفاعية للجهاد الإسلامي بالمعنى الضيق للمفهوم العصري للحرب الدفاعية ; ومحاولة البحث عن أسانيد لإثبات أن وقائع الجهاد الإسلامي كانت لمجرد صد العدوان من القوى المجاورة على "الوطن الإسلامي ! " _وهو في عرف بعضهم جزيرة العرب - فهي محاولة تنم عن قلة إدراك لطبيعة هذا الدين , ولطبيعة الدور الذي جاء ليقوم به في الأرض . كما أنها تشي بالهزيمة أمام ضغط الواقع الحاضر ;

وأمام الهجوم الاستشراقي الماكر على الجهاد الإسلامي !

ترى لو كان أبو بكر وعمر وعثمان - رضي الله عنهم - قد أمنوا عدوان الروم والفرس على الجزيرة أكانوا يقعدون إذن عن دفع المد الإسلامي إلى أطراف الأرض ? وكيف كانوا يدفعون هذا المد , وأمام الدعوة تلك العقبات المادية - من أنظمة الدولة السياسية ; وأنظمة المجتمع العنصرية والطبقية , والاقتصادية الناشئة من الاعتبارات العنصرية و الطبقية , والتي تحميها القوة المادية للدولة كذلك ?!

إنها سذاجة أن يتصور الإنسان دعوة تعلن تحرير "الإنسان" . . نوع الإ نسان . . في "الأرض " . . كل الأرض . . ثم تقف أمام هذه العقبات تجاهدها باللسان والبيان ! . . إنها تجاهد باللسان والبيان حينما يخلى بينها وبين الأفراد , تخاطبهم بحرية , وهم مطلقو السراح من جميع تلك المؤثرات . . فهنا (لا إكراه في الدين). . أما حين توجد تلك العقبات و المؤثرات المادية , فلا بد من إزالتها أولا ً بالقوة , للتمكن من مخاطبة قلب الإنسان وعقله ; وهو طليق من هذه الأغلال !

إن الجهاد ضرورة للدعوة . إذا كانت أهدافها هي إعلان تحرير الإنسان إعلاناً جاداً يواجه الواقع الفعلي بوسائل مكافئة له في كل جوانبه ; ولا يكتفي بالبيان الفلسفي النظري السلبي ! سواء كان الوطن الإسلامي - وبالتعبير الإسلامي الصحيح:دار الإسلام - آمنا أم مهدداً من جيرانه . فا لإسلام حين يسعى إلى السلم , لا يقصد تلك السلم الرخيصة ; وهي مجرد أن يأمن على الرقعة الخاصة التي يعتنق أهلها العقيدة الإسلامية . إنما هو يريد السلم التي يكون الدين فيها كله لله . أي تكون عبودية الناس كلهم فيها لله ; والتي لا يتخذ فيها الناس بعضهم بعضاً أرباباً من دون الله . والعبرة بنهاية المراحل التي وصلت إليها الحركة الجهادية في الإسلام - بأمر من الله - لا بأوائل أيام الدعوة ولا بأوسطها . . ولقد انتهت هذه المراحل كما يقول الإمام ابن القيم:" فاستقر أمر الكفار معه - بعد نزول براءة - على ثلاثة أقسام:محاربين له , وأهل عهد , وأهل ذمة .

. ثم آلت حال أهل العهد والصلح إلى الإسلام . . فصاروا معه قسمين:محاربين , وأهل ذمة . والمحاربون له خائفون منه . . فصار أهل الأرض معه ثلاثة أقسام:مسلم مؤمن به . ومسالم له آمن [وهم أهل الذمة كما يفهم من الجملة السابقة] وخائف محارب " . . وهذه هي المواقف المنطقية مع طبيعة هذا الدين وأهدافه . لا كما يفهم المهزومون أمام الواقع الحاضر , وأمام هجوم المستشرقين الماكر !

ولقد كف الله المسلمين عن القتال في مكة ; وفي أول العهد بالهجرة إلى المدينة . . وقيل للمسلمين: (كفوا أيديكم وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة). . ثم أذن لهم فيه , فقيل لهم:(أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا , وإن الله على نصرهم لقدير , الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق - إلا أن يقولوا:ربنا الله . ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً , ولينصرن الله من ينصره , إن الله لقوي عزيز . الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر , ولله عاقبة الأمور). . ثم فرض عليهم القتال بعد ذلك لمن قاتلهم دون من لم يقاتلهم فقيل لهم: (وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم) . ثم فرض عليهم قتال المشركين كافة فقيل لهم: (وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة). . وقيل لهم:(قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر , ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله , ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب , حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون). . فكان القتال - كما يقول الإمام ابن القيم - " محرماً , ثم مأذوناً به , ثم مأموراً به لمن بدأهم بالقتال , ثم مأموراً به لجميع المشركين " . .

إن جدية النصوص القرآنية الواردة في الجهاد ; وجدية الأحاديث النبوية التي تحض عليه ; وجدية الوقائع الجهادية في صدر الإسلام , وعلى مدى طويل من تاريخه . . إن هذه الجدية الواضحة تمنع أن يجول في النفس ذلك التفسير الذي يحاوله المهزومون أمام ضغط الواقع الحاضر وأمام الهجوم الاستشراقي الماكر على الجهاد الإسلامي !

ومن ذا الذي يسمع قول الله سبحانه في هذا الشأن وقول رسوله [ص] ويتابع وقائع الجهاد الإسلامي ; ثم يظنه شأناً عارضاً مقيداً بملابسات تذهب وتجيء ; ويقف عند حدود الدفاع لتأمين الحدود ?!

لقد بين الله للمؤمنين في أول ما نزل من الآيات التي أذن لهم فيها بـ القتال أن الشأن الدائم الأصيل في طبيعة هذه الحياة الدنيا أن يدفع الناس بعضهم ببعض , لدفع الفساد عن الأرض: (أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا , وإن الله على نصرهم لقدير . الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله . ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً). . وإذن فهو الشأن الدائم لا الحالة العارضة . الشأن الدائم أن لا يتعايش الحق و الباطل في هذه الأرض . وأنه متى قام الإسلام بإعلانه العام لإقامة ربوبية الله للعالمين , وتحرير الإنسان من العبودية للعباد , رماه المغتصبون لسلطان الله في الأرض ولم يسالموه قط ; وانطلق هو كذلك يدمر عليهم ليخرج الناس من سلطانهم ويدفع عن "الإنسان" في "الأ رض" ذلك السلطان الغاصب . . حال دائمة لا يكف معها الانطلاق الجهادي التحريري حتى يكون الدين كله لله .

إن الكف عن القتال في مكة لم يكن إلا مجرد مرحلة في خطة طويلة . كذلك كان الأمر أول العهد بالهجرة . والذي بعث الجماعة المسلمة في المدينة بعد الفترة الأولى للانطلاق لم يكن مجرد تأمين المدينة . . هذا هدف أولي لا بد منه . . ولكنه ليس الهدف الأخير . . إنه هدف يضمن وسيلة الانطلاق ; ويؤمن قاعدة الانطلاق . . الانطلاق لتحرير "الإنسان" , ولإزالة العقبات التي تمنع "الإنسان" ذاته من الانطلاق !

وكف أيدي المسلمين في مكة عن الجهاد بالسيف مفهوم . لأنه كان مكفو لا ً للدعوة في مكة حرية البلاغ . . كان صاحبها [ص] يملك بحماية سيوف بني هاشم , أن يصدع بالدعوة ; ويخاطب بها الآذان والعقول و القلوب ; ويواجه بها الأفراد . . لم تكن هناك سلطة سياسية منظمة

تمنعه من إبلاغ الدعوة , أو تمنع الأفراد من سماعه ! فلا ضرورة - في هذه المرحلة - لاستخدام القوة . وذلك إلى أسباب أخرى لعلها

كانت قائمة في هذه المرحلة . وقد لخصناها عند تفسير قوله تعالى: (ألم تر إلى الذين قيل لهم كفوا أيديكم وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة . . .)من سورة النساء . ولا نرى بأساً في إثبات بعض هذا التلخيص هنا مرة أخرى:

"ربما كان ذلك لأن الفترة المكية كانت فترة تربية وإعداد , في بيئة معينة , لقوم معينين , وسط ظروف معينة . ومن أهداف التربية والإعداد في مثل هذه البيئة بالذات , تربية نفس الفرد العربي على الصبر على ما لا يصبر عليه عادة من الضيم على شخصه أو على من يلوذون به . ليخلص من شخصه , ويتجرد من ذاته , ولا تعود ذاته ولا من يلوذون به محور الحياة في نظره ودافع الحركة في حياته . وتربيته كذلك على ضبط أعصابه , فلا يندفع لأول مؤثر - كما هي طبيعته - ولا يهتاج لأول مهيج , ليتم الاعتدال في طبيعته وحركته . وتربيته على أن يتبع مجتمعاً منظماً له قيادة يرجع إليها في كل أمر من أمور حياته , ولا يتصرف إلا وفق ما تأمره به - مهما يكن مخالفاً لمألوفه وعادته - وقد كان هذا هو حجر الأساس في إعداد شخصية العربي , لإنشاء "المجتمع المسلم" الخاضع لقيادة موجهة , المترقي المتحضر , غير الهمجي أو القبلي !

"وربما كان ذلك أيضاً , لأن الدعوة السلمية كانت أشد أثراً و أنفذ , في مثل بيئة قريش , ذات العنجهية والشرف ; والتي قد يدفعها القتال معها - في مثل هذه المرحلة - إلى زيادة العناد , وإلى نشأة ثارات دموية جديدة كثارات العرب المعروفة التي أثارت حرب داحس والغبراء , وحرب البسوس , أعواماً طويلة , تفانت فيها قبائل برمتها . وتكون هذه الثارات الجديدة مرتبطة في أذهانهم وذكرياتهم بالإسلام . فلا تهدأ بعد ذلك أبداً . ويتحول الإسلام من دعوة إلى ثارات وذحول تنسى معها

وجهته الأساسية , وهو في مبدئه , فلا تذكر أبداً !

"وربما كان ذلك أيضاً , اجتناباً لإنشاء معركة ومقتلة في داخل كل بيت . فلم تكن هناك سلطة نظامية عامة , هي التي تعذب المؤمنين وتفتنهم . إنما كان ذلك موكولا ً إلى أولياء كل فرد , يعذبونه ويفتنونه "ويؤدبونه ! " ومعنى الإذن بالقتال - في مثل هذه البيئة - أن تقع معركة ومقتلة في كل بيت . . ثم يقال:هذا هو الإسلام ! ولقد قيلت حتى والإسلام يأمر بالكف عن القتال ! فقد كانت دعاية قريش في الموسم , في أوساط العرب القادمين للحج والتجارة:إن محمداً يفرق بين الوالد وولده , فوق تفريقه لقومه وعشيرته ! فكيف لو كان كذلك يأمر الولد بقتل الوالد , والمولى بقتل الولي . . في كل بيت وفي كل محلة ?

"وربما كان ذلك أيضاً لما يعلمه الله من أن كثيرين من المعاندين الذين يفتنون أوائل المسلمين عن دينهم , ويعذبونهم ويؤذونهم , هم بأنفسهم سيكونون من جند الإسلام المخلص , بل من قادته . . ألم يكن عمر بن الخطاب من بين هؤلاء ?!

"وربما كان ذلك أيضاً , لأن النخوة العربية , في بيئة قبلية , من عادتها أن تثور للمظلوم الذي يحتمل الأذى , ولا يتراجع ! وبخاصة إذا كان الأذى واقعاً على كرام الناس فيهم . . وقد وقعت ظواهر كثيرة تثبت صحة هذه النظرة - في هذه البيئة - فابن الدغنة لم يرض أن يترك أبا بكر - وهو رجل كريم - يهاجر ويخرج من مكة , ورأى في ذلك عاراً على العرب ! وعُرض عليه جواره وحمايته . . وآخر هذه الظواهر نقض صحيفة الحصار لبني هاشم في شعب أبي طالب , بعدما طال عليهم الجوع واشتدت المحنة . . بينما في بيئة أخرى من بيئات "الحضارة " القديمة التي مردت على الذل , قد يكون السكوت على الأذى مدعاة للهزء والسخرية والاحتقار من البيئة , وتعظيم المؤذي الظالم المعتدي !

"وربما كان ذلك , أيضاً , لقلة عدد المسلمين حينذاك , وانحصارهم في مكة , حيث لم تبلغ الدعوة إلى بقية الجزيرة , أو بلغت أخبارها متناثرة ,

حيث كانت القبائل تقف على الحياد من معركة داخلية بين قريش وبعض أبنائها , حتى ترى ماذا يكون مصير الموقف . ففي مثل هذه الحالة قد تنتهي المعركة المحدودة , إلى قتل المجموعة المسلمة القليلة - حتى ولو قتلوا هم أضعاف من سيقتل منهم - ويبقى الشرك , وتنمحي الجماعة المسلمة , ولم يقم في الأرض للإسلام نظام , ولا وجد له كيان واقعي . . وهو دين جاء ليكون منهاج حياة , وليكون نظاماً واقعياً عملياً للحياة . " . . . الخ . . . "

فأما في المدينة - في أول العهد بالهجرة - فقد كانت المعاهدة التي عقدها رسول الله [ص] مع اليهود من أهلها ومن بقي على الشرك من العرب فيها وفيما حولها , ملابسة تقتضيها طبيعة المرحلة كذلك . .

أولا ً:لأن هناك مجالا ً للتبليغ والبيان , لا تقف له سلطة سياسية تمنعه وتحول بين الناس وبينه , فقد اعترف الجميع بالدولة المسلمة الجديدة ; وبقيادة رسول الله [ص] في تصريف شؤونها السياسية . فنصت المعاهدة على ألا يعقد أحد منهم صلحاً ولا يثير حرباً , ولا ينشئ علاقة خارجية إلا بإذن رسول الله [ص] وكان واضحاً أن السلطة الحقيقية في المدينة في يد القيادة المسلمة . فالمجال أمام الدعوة مفتوح , والتخلية بين الناس وحرية الاعتقاد قائمة .

ثانياً:أن الرسول [ص] كان يريد التفرغ - في هذه المرحلة - لقريش ; التي تقوم معارضتها لهذا الدين حجر عثرة في وجه القبائل الأخرى ; الواقفة في حالة انتظار لما ينتهي إليه الأمر بين قريش وبعض بنيها ! لذلك بادر رسول الله [ص] بإرسال "السرايا" وكان أول لواء عقده لحمزة بن عبد المطلب في شهر رمضان على رأس سبعة أشهر من الهجرة .

ثم توالت هذه السرايا , على رأس تسعة أشهر . ثم على رأس ثلاثة عشر شهراً . ثم على رأس ستة عشر شهراً . ثم كانت سرية عبدالله بن جحش في رجب على رأس سبعة عشر شهراً . وهي أول غزاة وقع فيها قتل

وقتال . وكان ذلك في الشهر الحرام . والتي نزلت فيها آيات البقرة: (يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه ! قل:قتال فيه كبير , وصد عن سبيل الله وكفر به والمسجد الحرام , وإخراج أهله منه أكبر عند الله , و الفتنة أكبر من القتل . ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا . . .) .

ثم كانت غزوة بدر الكبرى في رمضان من هذه السنة . . وهي التي نزلت فيها هذه السورة التي نحن بصددها .

ورؤية الموقف من خلال ملابسات الواقع , لا تدع مجالا ً للقول بأن "الدفاع" بمفهومه الضيق كان هو قاعدة الحركة الإسلامية . كما يقول المهزومون أمام الواقع الحاضر , وأمام الهجوم الاستشراقي الماكر !

إن الذين يلجأون إلى تلمس أسباب دفاعية بحتة لحركة المد الإسلامي , إنما يؤخذون بحركة الهجوم الاستشراقية , في وقت لم تعد للمسلمين شوكة بل لم يعد للمسلمين إسلام ! - إلا من عصم الله ممن يصرون على تحقيق إعلان الإسلام العام بتحرير "الإنسان" في "الأرض" من كل سلطان إلا سلطان الله , ليكون الدين كله لله - فيبحثون عن مبررات أدبية للجهاد في الإسلام !

والمد الإسلامي ليس في حاجة إلى مبررات أدبية له أكثر من المبررات التي حملتها النصوص القرآنية:

(فليقاتل في سبيل الله الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة . ومن يقاتل في سبيل الله فيقتل أو يغلب فسوف نؤتيه أجراً عظيماً . وما لكم لا تقاتلون في سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين يقولون:ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها , واجعل لنا من لدنك ولياً واجعل لنا من لدنك نصيراً ? الذين آمنوا يقاتلون في سبيل الله , و الذين كفروا يقاتلون في سبيل الطاغوت , فقاتلوا أولياء الشيطان , إن كيد الشيطان كان ضعيفاً). . . [النساء:74 - 76] .

(قل للذين كفروا:إن ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف , وإن يعودوا فقد مضت سنة الأولين . وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله , فإن انتهوا فإن الله بما يعملون بصير . وإن تولوا فاعلموا أن الله مولا كم , نعم المولى ونعم النصير). . . [الأنفال:38 - 40] . .

(قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر , ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله , ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون . وقالت اليهود عزير ابن الله , وقالت النصارى:المسيح ابن الله . ذلك قولهم بأفواههم يضاهئون قول الذين كفروا من قبل , قاتلهم الله أنى يؤفكون ! اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله والمسيح ابن مريم , وما أمروا إلا ليعبدوا إلهاً واحداً , لا إله إلا هو , سبحانه عما يشركون . يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم , ويأبى الله إلا أن يتم نوره ; ولو كره الكافرون). . [التوبة: 29 - 32] .

إنها مبررات تقرير ألوهية الله في الأرض ; وتحقيق منهجه في حياة الناس . ومطاردة الشياطين ومناهج الشياطين ; وتحطيم سلطان البشر الذي يتعبد الناس , والناس عبيد الله وحده يجوز أن يحكمهم أحد من عباده بسلطان من عند نفسه وبشريعة من هواه ورأيه ! وهذا يكفي . . مع تقرير مبدأ: (لا إكراه في الدين). . أي لا إكراه على اعتناق العقيدة , بعد الخروج من سلطان العبيد ; والإقرار بمبدأ أن السلطان كله لله . أو أن الدين كله لله . بهذا الاعتبار .

إنها مبررات التحرير العام للإنسان في الأرض . بإخراج الناس من العبودية للعباد إلى العبودية لله وحده بلا شريك . . وهذه وحدها تكفي . . ولقد كانت هذه المبررات ماثلة في نفوس الغزاة من المسلمين فلم يسأل أحد منهم عما أخرجه للجهاد فيقول:خرجنا ندافع عن وطننا المهدد ! أو خرجنا نصد عدوان الفرس أو الروم علينا نحن المسلمين ! أو خرجنا نوسع رقعتنا ونستكثر من الغنيمة !

لقد كانوا يقولون كما قال ربعي بن عامر , وحذيفة بن محصن , والمغيرة بن شعبة , جميعاً لرستم قائد جيش الفرس في القادسية , وهو يسألهم واحداً بعد واحد في ثلاثة أيام متوالية , قبل المعركة:ما الذي جاء بكم ? فيكون الجواب:الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده . ومن ضيق الدنيا إلى سعتها . ومن جور الأديان إلى عدل الإ سلام . . فأرسل رسوله بدينه إلى خلقه , فمن قبله منا قبلنا منه ورجعنا عنه , وتركناه وأرضه . ومن أبى قاتلناه حتى نفضي إلى الجنة أو الظفر" .

إن هناك مبرراً ذاتياً في طبيعة هذا الدين ذاته ; وفي إعلانه العام , وفي منهجه الواقعي لمقابلة الواقع البشري بوسائل مكافئة لكل جوانبه , في مراحل محددة , بوسائل متجددة . . وهذا المبرر الذاتي قائم ابتداء - ولو لم يوجد خطر الاعتداء على الأرض الإسلامية وعلى المسلمين فيها - إنه مبرر في طبيعة المنهج وواقعيته , وطبيعة المعوقات الفعلية في المجتمعات البشرية . . لا من مجرد ملابسات دفاعية محدودة , وموقوتة !

وإنه ليكفي أن يخرج المسلم مجاهداً بنفسه وماله . . (في سبيل الله). في سبيل هذه القيم التي لا يناله هو من ورائها مغنم ذاتي ; ولا يخرجه لها مغنم ذاتي . .

إن المسلم قبل أن ينطلق للجهاد في المعركة يكون قد خاض معركة الجهاد الأكبر في نفسه مع الشيطان . . مع هواه وشهواته . . مع مطامعه ورغباته . . مع مصالحه ومصالح عشيرته وقومه . . مع كل شارة غير شارة الإسلام . . ومع كل دافع إلا العبودية لله , وتحقيق سلطانه في الأ رض وطرد سلطان الطواغيت المغتصبين لسلطان الله . .

والذين يبحثون عن مبررات للجهاد الإسلامي في حماية "الوطن الإسلا مي" يغضون من شأن "المنهج" ويعتبرونه أقل من "الموطن" ! وهذه ليست نظرة الإسلام إلى هذه الاعتبارات . . إنها نظرة مستحدثة غريبة

على الحس الإسلامي , فالعقيدة والمنهج الذي تتمثل فيه والمجتمع الذي يسود فيه هذا المنهج هي الاعتبارات الوحيدة في الحس الإسلا مي . أما الأرض - بذاتها - فلا اعتبار لها ولا وزن ! وكل قيمة للأرض في التصور الإسلامي إنما هي مستمدة من سيادة منهج الله وسلطانه فيها . وبهذا تكون محضن العقيدة وحقل المنهج و "دار الإسلام" ونقطة الانط لاق لتحرير "الإنسان" . .

وحقيقة أن حماية "دار الإسلام" حماية للعقيدة والمنهج والمجتمع الذي يسود فيه المنهج . ولكنها هي ليست الهدف النهائي . وليست حمايتها هي الغاية الأخيرة لحركة الجهاد الإسلامي . إنما حمايتها هي الوسيلة لقيام مملكة الله فيها . ثم لاتخاذها قاعدة انطلاق إلى الأرض كلها , وإلى النوع الإنساني بجملته . فالنوع الإنساني هو موضوع هذا الدين , والأ رض هي مجاله الكبير !

وكما أسلفنا فإن الانطلاق بالمنهج الإلهي تقوم في وجهه عقبات مادية من سلطة الدولة , ونظام المجتمع , وأوضاع البيئة . . وهذه كلها هي التي ينطلق الإسلام ليحطمها بالقوة . كي يخلو له وجه الأفراد من الناس , يخاطب ضمائرهم وأفكارهم , بعد أن يحررها من الأغلال المادية ; ويترك لها بعد ذلك حرية الاختيار . .

يجب ألا تخدعنا أو تفزعنا حملات المستشرقين على مبدأ "الجهاد" , وألا يثقل على عاتقنا ضغط الواقع وثقله في ميزان القوى العالمية , فنروح نبحث للجهاد الإسلامي عن مبررات أدبية خارجة عن طبيعة هذا الدين , في ملابسات دفاعية وقتية , كان الجهاد سينطلق في طريقه سواء وجدت هذه الملابسات أم لم توجد !

ويجب ونحن نستعرض الواقع التاريخي ألا نغفل عن الاعتبارات الذاتية في طبيعة هذا الدين وإعلانه العام ومنهجه الواقعي . . وألا نخلط بينها وبين المقتضيات الدفاعية الوقتية . .

حقاً إنه لم يكن بد لهذا الدين أن يدافع المهاجمين له . لأن مجرد وجوده , في صورة إعلان عام لربوبية الله للعالمين , وتحرير الإنسان من العبودية لغير الله , وتمثل هذا الوجود في تجمع تنظيمي حركي تحت قيادة جديدة غير قيادات الجاهلية , وميلاد مجتمع مستقل متميز لا يعترف لأحد من البشر بالحاكمية , لأن الحاكمية فيه لله وحده . . إن مجرد وجود هذا الدين في هذه الصورة لا بد أن يدفع المجتمعات الجاهلية من حوله , القائمة على قاعدة العبودية للعباد , أن تحاول سحقه , دفاعاً عن وجودها ذاته . ولا بد أن يتحرك المجتمع الجديد للدفاع عن نفسه . .

هذه ملابسة لا بد منها . تولد مع ميلاد الإسلام ذاته . وهذه معركة مفروضة على الإسلام فرضاً , ولا خيار له في خوضها . وهذا صراع طبيعي بين وجوددين لا يمكن التعايش بينهما طويلا ً . .

هذا كله حق . . ووفق هذه النظرة يكون لا بد للإسلام أن يدافع عن وجوده . ولا بد أن يخوض معركة دفاعية مفروضة عليه فرضاً . .

ولكن هناك حقيقة أخرى أشد أصالة من هذه الحقيقة . . إن من طبيعة الوجود الإسلامي ذاته أن يتحرك إلى الأمام ابتداء ; لإنقاذ "الإنسان" في "الأرض" من العبودية لغير الله . ولا يمكن أن يقف عند حدود جغرافية ; ولا أن ينزوي داخل حدود عنصرية ; تاركاً "الإنسان" . . نوع الإنسان . . في "الأرض" . . كل الأرض . . للشر والفساد والعبودية لغير الله .

إن المعسكرات المعادية للإسلام قد يجيء عليها زمان تؤثر فيه ألا تهاجم الإسلام , إذا تركها الإسلام تزاول عبودية البشر للبشر داخل حدودها الإقليمية ; ورضي أن يدعها وشأنها ولم يمد إليها دعوته وإعلا نه التحريري العام ! . . ولكن الإسلام لا يهادنها , إلا أن تعلن استسلامها لسلطانه في صورة أداء الجزية , ضماناً لفتح أبوابها لدعوته بلا عوائق مادية من السلطات القائمة فيها .

هذه طبيعة هذا الدين , وهذه وظيفته بحكم أنه إعلان عام لربوبية الله للعالمين وتحرير الإنسان من كل عبودية لغير الله في الناس أجمعين !

وفرق بين تصور الإسلام على هذه الطبيعة , وتصوره قابعا داخل حدود إقليمية أو عنصرية , لا يحركه إلا خوف الاعتداء ! إنه في هذه الصورة ا لأخيرة يفقد مبرراته الذاتية في الإنطلاق !

إن مبررات الانطلاق الإسلامي تبرز بوضوح وعمق عند تذكر أن هذا الدين هو منهج الله للحياة البشرية , وليس منهج إنسان , ولا مذهب شيعة من الناس , ولا نظام جنس من الأجناس ! . . ونحن لا نبحث عن مبررات خارجية إلا حين تفتر في حسنا هذه الحقيقة الهائلة . . حين ننسى أن القضية هي قضية ألوهية الله وعبودية العباد . . إنه لا يمكن أن يستحضر إنسان ما هذه الحقيقة الهائلة ثم يبحث عن مبرر آخر للجهاد الإسلامي !

والمسافة قد لا تبدو كبيرة عند مفرق الطريق , بين تصور أن الإسلام كان مضطراً لخوض معركة لا اختيار له فيها , بحكم وجوده الذاتي ووجود المجتمعات الجاهلية الأخرى التي لا بد أن تهاجمه . وتصور أنه هو بذاته لا بد أن يتحرك ابتداء , فيدخل في هذه المعركة . .

المسافة عند مفرق الطريق قد لا تبدو كبيرة . فهو في كلتا الحالتين سيدخل المعركة حتماً . ولكنها في نهاية الطريق تبدو هائلة شاسعة , تغير المشاعر والمفهومات الإسلامية تغييرا كبيرا . . خطيرا . .

إن هناك مسافة هائلة بين اعتبار الإسلام منهجاً إلهياً , جاء ليقرر ألوهية الله في الأرض , وعبودية البشر جميعاً لإله واحد , ويصب هذا التقرير في قالب واقعي , هو المجتمع الإنساني الذي يتحرر فيه الناس من العبودية للعباد , بالعبودية لرب العباد , فلا تحكمهم إلا شريعة الله , التي يتمثل فيها سلطان الله , أو بتعبير آخر تتمثل فيها ألوهيته . . فمن حقه إذن أن يزيل العقبات كلها من طريقه , ليخاطب وجدان الأفراد وعقولهم

دون حواجز ولا موانع مصطنعة من نظام الدولة السياسي , أو أوضاع الناس الاجتماعية . . إن هناك مسافة هائلة بين اعتبار الإسلام على هذا النحو , واعتباره نظاماً محلياً في وطن بعينه . فمن حقه فقط أن يدفع الهجوم عليه في داخل حدوده الإقليمية !

هذا تصور . . وذاك تصور . . ولو أن الإسلام في كلتا الحالتين سيجاهد . . ولكن التصور الكلي لبواعث هذا الجهاد وأهدافه ونتائجه , يختلف اختلافاً بعيداً , يدخل في صميم الاعتقاد كما يدخل في صميم الخطة والاتجاه .إن من حق الإسلام أن يتحرك ابتداء . فالإسلام ليس نحلة قوم , ولا نظام وطن , ولكنه منهج إله , ونظام عالم . . ومن حقه أن يتحرك ليحطم الحواجز من الأنظمة والأوضاع التي تغل من حرية "الإنسان" في الاختيار . وحسبه أنه لا يهاجم الأفراد ليكرههم على اعتناق عقيدته . إنما يهاجم الأنظمة والأوضاع ليحرر الأفراد من التأثيرات الفاسدة , المفسدة للفطرة , المقيدة لحرية الاختيار .

من حق الإسلام أن يخرج "الناس" من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده . . ليحقق إعلانه العام بربوبية الله للعالمين , وتحرير الناس أجمعين . . وعبادة الله وحده لا تتحقق - في التصور الإسلامي وفي الواقع العملي - إلا في ظل النظام الإسلامي . فهو وحده النظام الذي يشرع الله فيه للعباد كلهم . حاكمهم ومحكومهم . أسودهم وأبيضهم . قاصيهم ودانيهم . فقيرهم وغنيهم تشريعاً واحداً يخضع له الجميع على السواء . . أما في سائر الأنظمة , فيعبد الناس العباد , لأنهم يتلقون التشريع لحياتهم من العباد . وهو من خصائص الألوهية . فأيما بشر ادعى لنفسه سلطان التشريع للناس من عند نفسه فقد ادعى الألوهية اختصاصاً وعملا ً , سواء ادعاها قولا ً أم لم يعلن هذا الادعاء ! وأيما بشر آخر اعترف لذلك البشر بذلك الحق فقد اعترف له بحق الألوهية سواء سماها باسمها أم لم يسمها !

والإسلام ليس مجرد عقيدة . حتى يقنع بإبلاغ عقيدته للناس بوسيلة

البيان . إنما هو منهج يتمثل في تجمع تنظيمي حركي يزحف لتحرير كل الناس . والتجمعات الأخرى لا تمكنه من تنظيم حياة رعاياها وفق منهجه هو . ومن ثم يتحتم على الإسلام أن يزيل هذه الأنظمة بوصفها معوقات للتحرر العام . وهذا - كما قلنا من قبل - معنى أن يكون الدين كله لله . فلا تكون هناك دينونة ولا طاعة لعبد من العباد لذاته , كما هو الشأن في سائر الأنظمة التي تقوم على عبودية العباد للعباد !

إن الباحثين الإسلاميين المعاصرين المهزومين تحت ضغط الواقع الحاضر , وتحت الهجوم الاستشراقي الماكر , يتحرجون من تقرير تلك الحقيقة . لأن المستشرقين صوروا الإسلام حركة قهر بالسيف للإكراه على العقيدة . والمستشرقون الخبثاء يعرفون جيداً أن هذه ليست هي الحقيقة . ولكنهم يشوهون بواعث الجهاد الإسلامي بهذه الطريقة . . ومن ثم يقوم المنافحون - المهزومون - عن سمعة الإسلام , بنفي هذا الا تهام ! فيلجأون إلى تلمس المبررات الدفاعية ! ويغفلون عن طبيعة الإس لام ووظيفته , وحقه في "تحرير الإنسان" ابتداء .

وقد غشى على أفكار الباحثين العصريين - المهزومين - ذلك التصور الغربي لطبيعة "الدين" . . وأنه مجرد "عقيدة " في الضمير ; لا شأن لها با لأنظمة الواقعية للحياة . . ومن ثم يكون الجهاد للدين , جهاداً لفرض العقيدة على الضمير !

ولكن الأمر ليس كذلك في الإسلام . فالإسلام منهج الله للحياة البشرية . وهو منهج يقوم على إفراد الله وحده بالألوهية - متمثلة في الحاكمية - وينظم الحياة الواقعية بكل تفصيلاتها اليومية ! فالجهاد له جهاد لتقرير المنهج وإقامة النظام . أما العقيدة فأمرها موكول إلى حرية الاقتناع , في ظل النظام العام , بعد رفع جميع المؤثرات . . ومن ثم يختلف الأمر من أساسه , وتصبح له صورة جديدة كاملة .

وحيثما وجد التجمع الإسلامي , الذي يتمثل فيه المنهج الإلهي , فإن الله يمنحه حق الحركة والانطلاق لتسلم السلطان وتقرير النظام . مع ترك

مسألة العقيدة الوجدانية لحرية الوجدان . . فإذا كف الله أيدي الجماعة المسلمة فترة عن الجهاد , فهذه مسألة خطة لا مسألة مبدأ . مسألة مقتضيات حركة لا مسألة مقررات عقيدة . وعلىهذا الأساس الواضح يمكن أن نفهم النصوص القرآنية المتعددة , في المراحل التاريخية المتجددة . ولا نخلط بين دلالاتها المرحلية , والدلالة العامة لخط الحركة الإسلامية الثابت الطويل .

وبعد , فإن هناك بقية في بيان طبيعة "الجهاد في الإسلام" و "طبيعة هذا الدين" يمدنا بها المبحث المجمل القيم الذي أمدنا به المسلم العظيم السيد أبو الأعلى المودودي أمير الجماعة الإسلامية في باكستان , بعنوان "الجهاد في سبيل الله" . . وسنحتاج أن نقتبس منه فقرات طويلة ; لا غنى عنها لقارئ يريد رؤية واضحة دقيقة لهذا الموضوع الخطير العميق في بناء الحركة الإسلامية:

"لقد جرت عادة الإفرنج أن يعبروا عن كلمة "الجهاد" "بالحرب المقدسة " [ ] إذا أرادوا ترجمتها بلغاتهم . وقد فسروها تفسيراً منكراً . وتفننوا فيها , وألبسوها ثوباً فضفاضاً من المعاني المموهة الملفقة . وقد بلغ الأ مر في ذلك أن أصبحت كلمة الجهاد عندهم عبارة عن شراسة الطبع و الخلق والهمجية وسفك الدماء . وقد كان من لباقتهم , وسحر بيانهم , وتشويههم لوجوه الحقائق الناصعة , أنه كلما قرع سمع الناس صوت هذه الكلمة . . الجهاد . . تمثلت أمام أعينهم صورة مواكب من الهمج المحتشدة , مصلتة سيوفها , متقدة صدورها بنار التعصب والغضب , متطايراً من عيونها شرار الفتك والنهب , عالية أصواتها بهتاف:"الله أكبر" , زاحفة إلى الأمام , ما إن رأت كافراً حتى أمسكت بخناقه , وجعلته بين أمرين:إما أن يقول كلمة:"لا إله إلا الله" فينجو بنفسه , وإما أن يضرب عنقه , فتشخب أوداجه دماً !

"ولقد رسم الدهان هذه "الصورة " بلباقة فائقة , وتفننوا فيها بريشة المتفنن المبدع ; وكان من دهائهم ولباقتهم في هذا الفن أن صبغوها

بصبغ من النجيع الأحمر , وكتبوا تحتها:

"هذه الصورة مرآة لما كان بسلف هذه الأمة من شره إلى سفك الدماء , وجشع إلى الفتك بالأبرياء" !

"والعجب كل العجب , أن الذين عملوا على هذه الصورة ; وقاموا بما كان لهم من حظ موفور في إبرازها وعرضها على الأنظار , هم هم الذين مضت عليهم قرون وأجيال يتقاتلون ويتناحرون فيما بينهم إرضاء لشهواتهم الدنيئة وإطفاء لأوار مطامعهم الأشعبية , وتلك هي حربهم الملعونة غير المقدسة [ ] التي أثاروها على الأمم المستضعفة في مشارق الأرض ومغاربها , وجاسوا خلال ديارهم يبحثون عن أسواق لبضائعهم وأراض لمستعمراتهم التي يريدون أن يستعمروها , ويستبدوا بمنابع ثروتها دون أصحابها الشرعيين , ويفتشون عن المناجم والمعادن , وعما تغله أرض الله الواسعة من الحاصلات التي يمكن أن تكون غذاء لبطون مصانعهم ومعاملهم . يبحثون عن كل ذلك وقلوبهم كلها جشع وشره إلى المال والجاه . وبين أيديهم الدبابات المدججة , وفوق رؤوسهم الطائرات المحلقة في جو السماء , ووراء ظهورهم مئات الألوف من العساكر المدربة يقطعون على البلاد سبل رزقها , وعلى أهاليها الوادعين طريقهم إلى الحياة الكريمة , يريدون بذلك أن يهيئوا وقوداً لنيران مطامعهم الفاحشة التي لا تزيدها الأيام إلا التهاباً واضطراباً . فلم تكن حروبهم في "سبيل الله" , وإنما كانت في سبل شهواتهم الدنيئة , وأهوائهم الذميمة . .

"هذه هي حال الذين يصموننا بالغزو والقتال , الذي سبق لنا من أعمال الفتوح والحروب قد مضت عليه أحقاب طويلة . أما أعمالهم المخزية هذه فلا يزالون يقترفونها ليل نهار بمرأى ومسمع من العالم "المتحضر المتمدن ! " . وأي بلاد الله , يا ترى , قد سلمت من عدوانهم , وما تخضبت أراضيها بدماء أبنائها الزكية ? وأية هذه القارات العظيمة من آسيا وأفريقية وأمريكا ما ذاقت وبال حروبهم الملعونة ? . . لكن هؤلاء

الدهاةرسموا صورتنا بلباقة منكرة , وأبدأوا وأعادوا في عرضها بشكل هائل بشع , وقد سحب ذيل النسيان على صورتهم الدميمة , حتى لا يكاد يذكرها أحد بجنب الصورة المنكرة التي صوروا بها تاريخنا ومآثر أسلافنا . فما أعظم دهاءهم ! وما أبرعهم في التزوير والتمويه !

"أما سذاجتنا وبله رجالنا , فحدث عن البحر ولا حرج ! وأي بله أعظم من اغترارنا بالصورة المنكرة التي صوروا بها مآثرنا حتى كدنا نؤمن بصحتها ومطابقتها للحقيقة ? وما دار بخلدنا أن ننظر إلى الأيدي الأثيمة التي عملت عملها في رسم هذه الصورة المزورة , وأن نبحث عن الأقلام الخفية التي تفننت في تمويهها وزخرفتها . وقد بلغ من اغترارنا بتزويرهم , وانخداعنا بتلك الصورة المموهة أن اعترانا الخجل و الندامة , وعدنا نعتذر إلى القوم , نبدل كلام الله , ونحرف الكلم عن مواضعه , ونقول لهم:"ما لنا وللقتال , أيها السادة , إنما نحن دعاة مبشرون , ندعو إلى دين الله , دين الأمن والسلام والدعة بالحكمة و الموعظة الحسنة , نبلغ كلام الله تبليغ الرهبان والدراويش والصوفية , ونجادل من يعارضنا بالتي هي أحسن , بالخطب والرسائل والمقالات حتى يؤمن من يؤمن بدعوتنا عن بينة ! هذه هي دعوتنا لا تزيد ولا تنقص ! أما السيف والقتال به فمعاذ الله أن نمت إليه بصلة . اللهم إلا أن يقال:إننا ربما دافعنا عن أنفسنا حينما اعتدى علينا أحد ! ذلك أيضاً قد مضت عليه سنون وأعوام طويلة . أما اليوم فقد أظهرنا براءتنا من ذلك أيضاً ! ومن أجل ذلك نسخنا الجهاد "رسمياً" . ! ذلك الجهاد الممقوت الذي يعمل فيه السيف عمله ! حتى لا يقلق بالكم ولا يقض عليكم المضجع ! فما الجهاد اليوم إلا مواصلة الجهود باللسان والقلم ; وليس لنا إلا أن نلعب بمرهفات الألسنة وأسنة الأقلام ! أما المدافع والدبابات و الرشاشات وغيرها من آلات الحرب واستخدامها , فأنتم أحق بها وأهلها !
" .

"هذه مكايدهم السياسية التي كشفنا لك القناع عن بعضها فيما تقدم . لكنا إذا أنعمنا النظر في المسألة من الوجهة العلمية , ودققنا النظر في الأ

سباب التي أشكل لأجلها استجلاء حقيقة "الجهاد في سبيل الله" , واستكناه سرها على المسلمين أنفسهم فضلا ً عن غير المسلمين , لاح لنا أن مرجع هذا الخطأ إلى أمرين مهمين لم يسبروا غورهما , ولم يدركوا مغزاهما على وجه الحقيقة:

"فالأول:أنهم ظنوا الإسلام نحلة [ ] بالمعنى الذي تطلق عليه كلمة " النحلة " [ ] عامة . .

"والثاني:أنهم حسبوا المسلمين أمة [ ] بالمعنى الذي تستعمل فيه هذه الكلمة في عامة الأحوال .

"فالحقيقة أن خطأ القوم في فهم هذين الأمرين المهمين , وعدم استجلا ئهم لوجه الحق في هاتين المسألتين الأساسيتين هو الذي شوه وجه الحقيقة الناصعة في هذا الشأن , وعاقهم عن إدراك مغزى الجهاد الإسلا مي . بل الحق - والحق أحق أن يتبع - أن هذا الخطأ الأسياسي في فهم هاتين المسألتين قد أرخى سدوله على حقيقة الدين الإسلامي بأسره , وقلب الأمر ظهراً لبطن , وجعل موقف المسلمين من العالم ومسائله المتجددة ومشاكله المتشعبة حرجاً ضيقاً , لا يرضاه الإسلام وتعاليمه الخالدة:

"فالنحلة [ ] على حسب الاصطلاح الشائع عندهم , لا يراد بها إلا مجموعة من العقائد والعبادات والشعائر . ولا جرم أن "النحلة " بهذا المعنى لا تعدو أن تكون مسألة شخصية . فأنت حر فيما تختاره من العقيدة ; ولك الخيار في أن تعبد بأي طريق شئت من رضيت به رباً لنفسك . وإن أبت نفسك إلا التحمسلهذه النحلة والانتصار لعقيدتها فلك أن تخترق الأرض , وتجوب بلاد الله الشاسعة , داعياً إلى عقيدتها , مدافعاً عن كيانها بالحجج والبراهين , مجادلا ً من يخالفونك فيها بمرهفات الألسنة وأسنة الأقلام . أما السيف وآلات الحرب والقتال , فمالك ومالها في هذا الشأن ? أتريد أن تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين بعقيدتك ?! وإن كان الإسلام نحلة [ ] كنحل العالم , على حسب الاصطلا

ح الشائع عندهم كما يزعمون , فالظاهر أنه لا شأن فيها للسيف وأدوات الحرب , كما قالوا . ولو كان موقف الإسلام في نفس الأمر كما زعموا ووصفوا لما كان فيه مساغ للجهاد , ولم يكن من الإسلام في ورد ولا صدر ; لكن الأمر على خلاف ذلك , كما سوف تعرفه فيما يأتي من البيان . وكذلك كلمة "الأمة " [ ] فما هي إلا عبارة عن طائفة من الناس متوافقة فيما بينها [ ] اجتمعت وتألفت وامتازت من بين طوائف أخرى لاشتراكها في بعض الأمور الجوهرية . فالطائفة التي تكون "أمة " , بهذا المعنى , لا يبعثها على استخدام السيف إلا أمران:إما أن يعتدي عليها أحد , ويريد أن يسلبها حقوقها المعروفة ; وإما أن تحمل هي بنفسها على طائفة أخرى لتنتزع من يدها حقوقها المعروفة . ففي الصورة الأ ولى منهما , لها سعة في الأمر , وهي لا تخلو من وازع خلقي يلجئها إلى استخدام السيف والبطش بمن اعتدى عليها . وإن كان بعض المتشدقين بالأمن والسلام لا يبيح ذلك أيضاً ! - أما الصورة الثانية - أي الاعتداء على حقوق غيرها والإغارة على الشعوب والأمم من غير ما سبب - فلا يبيحها غير الجبابرة المسيطرين [ ] حتى إن ساسة الدول الكبرى كبريطانيا وأمريكا أيضاً لا يقدرون أن يجترئوا على القول بجوازها !

"فإن كان الإسلام "نحلة " كالنحل الأخرى , والمسلمون "أمة " كغيرهم من أمم العالم , فلا جرم أن "الجهاد" الإسلامي يفقد بذلك جميع المزايا والخصائص التي جعلته رأس العبادات ودرة تاجها . . لكن الحقيقة أن ا لإسلام ليس بنحلة كالنحل الرائجة , وأن المسلمين ليسو بأمة كأمم العالم . . بل الأمر أن الإسلام فكرة انقلابية [ ] ومنهاج انقلابي يريد أن يهدم نظام العالم الاجتماعي بأسره ويأتي بنيانه من القواعد , ويؤسس بنيانه من جديد حسب فكرته ومنهاجه العملي . . ومن هناك تعرف أن لفظ "المسلم" وصف للحزب الانقلابي العالمي [ ] الذي يكونه الإسلام , وينظم صفوفه , ليكون أداة في إحداث ذلك البرنامج الانقلابي الذي يرمي إليه الإسلام , ويطمح إليه ببصره . والجهاد عبارة عن الكفاح الانق لابي [ ] عن تلك الحركة الدائبة المستمرة التي يقام بها للوصول إلى

هذه الغاية , وإدراك هذا المبتغى .

"والإسلام يتجنب الكلمات الشائعة في دعوته وبيان منهجه العملي - شأن غيره من الدعوات الفكرية والمناهج الانقلابية - بل يؤثر لذلك لغة من المصطلحات [ ] خاصة , لئلا يقع الالتباس بين دعوته وما إليها من ا لأفكار والتصورات , وبين الأفكار والتصورات الشائعة الرائجة . " ف الجهاد" أيضاً من الكلمات التي اصطلح عليها الإسلام لأداء مهمته وتبيين تفاصيل دعوته . فأنت ترى أن الإسلام قد تجنب لفظة [الحرب] وغيرها من الكلمات التي تؤدي معنى القتال [ ] في اللغة العربية , واستبدل بها كلمة [ ] في اللغة الإنجليزية . غير أن لفظة [الجهاد] أبلغ منها تأثيراً , وأكثر منها إحاطة بالمعنى المقصود . فما الذي أفضى بالإس لام إلى أن يختار هذه الكلمة الجديدة , صارفاً بوجهه عن الكلمات القديمة الرائجة ؟ الذي أراه وأجزم به أنه ليس لذلك إلا سبب واحد:وهو أن لفظة "الحرب" [ ] كانت ولا تزال تطلق على القتال الذي يشب لهيبه وتستعر ناره بين الرجال والأحزاب والشعوب لمآرب شخصية وأغراض ذاتية والغايات التي ترمي إليها أمثال هذه الحروب لا تعدو أن تكون مجرد أغراض شخصية أو اجتماعية , لا تكونفيها رائحة لفكرة أو انتصار لمبدأ . وبما أن القتال المشروع في الإسلام ليس من قبيل هذه الحروب , لم يكن له بد من ترك هذه اللفظة [الحرب] البتة . فإن الإسلا م لا ينظر إلى مصلح أمة دون أمة ; ولا يقصد إلى النهوض بشعب دون شعب ; وكذلك لا يهمه في قليل ولا كثير أن تملك الأرض وتستولي عليها هذه المملكة أو تلك ; وإنما تهمه سعادة البشر وفلاحهم . وله فكرة خاصة ومنهاج عملي مختار لسعادة المجتمع البشري والصعود به إلى معارج الفلاح . فكل حكومة مؤسسة على فكرة غير هذه الفكرة , ومنهاج غير هذا المنهاج , يقاومها الإسلام , ويريد أن يقضي عليها قضاء مبرماً ; ولا يعنيه في شيء بهذا الصدد أمر البلاد التي قامت فيها تلك الحكومة غير المرضية , أو الأمة التي ينتمي إليها القائمون بأمرها . فإن غايته استعلاء فكرته , وتعميم منهاجه , وإقامة الحكومات وتوطيد

دعائمها على أساس هذه الفكرة وهذا المنهاج , بصرف النظر عمن يحمل لواء الحق والعدل بيده ومن تنتكس راية عدوانه وفساده ! والإسلام يتطلب "الأرض" , ولا يقنع بقطعة أو جزء منها ; وإنما يتطلب ويستدعي المعمورة الأرضية كلها . ولا يتطلبها لتستولي عليها وتستبد بمنابع ثروتها أمة بعينها بعد ما تنتزع من أمة أو أمم شتى , بل يتطلبها الإسلام ويستدعيها ليتمتع الجنس البشري بأجمعه بفكرة السعادة البشرية ومنهاجها العملي اللذين أكرمه الله بهما , وفضله بهما على سائر الأديان و الشرائع . وتحقيقاً لهذه الغاية السامية يريد الإسلام أن يستخدم جميع القوى والوسائل التي يمكن استخدامها لإحداث انقلاب علمي شامل ; ويبذل الجهد المستطاع للوصول إلى هذه الغاية العظمى ; ويسمي هذا الكفاح المستمر , واستنفاد القوى البالغ واستخدام شتى الوسائل المستطاعة "بالجهاد" . فالجهاد كلمة جامعة تشتمل جميع أنواع السعي وبذل الجهد . وإذا عرفت هذا فلا تعجب إذا قلت:إن تغيير وجهات أنظار الناس وتبديل ميولهم ونزعاتهم , وإحداث انقلاب عقلي وفكري بواسطة مرهفات الأقلام نوع من أنواع الجهاد , كما أن القضاء على نظم الحياة العتيقة الجائرة بحد السيوف , وتأسيس نظام جديد على قواعد العدل والنصفة أيضاً من أصناف الجهاد . وكذلك بذل الأموال , وتحمل المشاق , ومكابدة الشدائد أيضاً فصول وأبواب مهمة من كتاب "الجهاد" العظيم .

"لكن الجهاد الإسلامي ليس بجهاد لا غاية له ; وإنما هو الجهاد في سبيل الله ; وقد لزمه هذا الشرط لا ينفك عنه أبداً . وذلك أيضاً من الكلمات التي اصطلح عليها الإسلام لتبيين فكرته وإيضاح تعاليمه , كما أشرت إليه آنفاً . وقد انخدع كثير من الناس بمدلوله اللغوي الظاهر , وحسبوا أن إخضاع الناس لعقيدة الإسلام وإكراههم على قبولها هو "الجهاد في سبيل الله" وذلك أن ضيق صدورهم وعدم اتساع مجال تفكيرهم يعوقهم أن يسموا بأنفسهم فوق ذلك ويحلقوا في سماء أوسع من سمائهم . لكن الحق أن "سبيل الله" في المصطلح الإسلامي أرحب

وأوسع بكثير مما يتصورون , وأسمى غاية وأبعد مراماً مما يظنون ويزعمون . .

"فالذي يتطلبه الإسلام أنه إذا قام رجل , أو جماعة من المسلمين , تبذل جهودها , وتستنفد مساعيها للقضاء على النظم البالية الباطلة , وتكوين نظام جديد حسب الفكرة الإسلامية , فعليها أن تكون مجردة عن كل غرض , مبرأة من كل هوى أو نزعة شخصية , لا تقصد من وراء جهودها , وما تبذل في سبيل غايتها من النفوس والنفائس إلا تأسيس نظام عادل يقوم بالقسط والحق بين الناس , ولا تبتغي بها بدلا ً في هذه الحياة الفانية , ولا يكون من هم الإنسان خلال هذا الكفاح المستمر والجهاد المتواصل لإعلاء كلمة الله أن ينال جاهاً وشرفاً أو سمعة وحسن أحدوثة , ولا يخطرن بباله أثناء هذه الجهود البالغة والمساعي الغالية أن يسمو بنفسه وعشيرته , ويستبد بزمام الأمر , ويتبوأ منصب الطواغيت الفجرة , بعدما يعزل غيره من الجبابرة المستكبرين عن مناصبهم . وها هو ذا القرآن الكريم ينادي بملء صوته:

(الذين آمنوا يقاتلون في سبيل الله والذين كفروا يقاتلون في سبيل الطاغوت). . . [النساء:76]

. . . " وقد تضمنت الآية الكريمة:(يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون). . . [البقرة:21]

"لباب هذه الدعوة , دعوة الإسلام الانقلابية , وجوهرها . فإنه لا يخاطب سكان هذه الكرة باسم العمال , أو الفلاحين , أو الملاكين , أو المتمولين من أصحاب المعامل والمصانع , ولا يسميهم بأسماء أحزابهم وطبقاتهم . وإنما يخاطب الإسلام بني آدم كافة . ولا يناديهم كذلك إلا بصفة كونهم أفراد الجنس البشري , فهو يأمرهم أن يعبدوا الله وحده ولا يشركوا به شيئاً , ولا يتخذوا إلهاً ولا رباً غيره . وكذلك يدعوهم ألا يعتوا عن أمر ربهم , ولا يستنكفوا عن عبادته , ولا يتكبروا في أرض الله بغير الحق , فإن الحكم والأمر لله وحده , وبيده مقاليد السماوات والأرض ; فلا

يجوز لأحد من خلقه , كائناًمن كان , أن يعلو في الأرض ويتكبر , ويقهر الناس حتى يخضعوا له ويذعنوا لأمره وينقادوا لجبروته . ودعوته لهم جميعاً أن يخلصوا دينهم لله وحده فيكونوا سواء في هذه العبودية الشاملة , كما ورد في التنزيل: تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم:ألا نعبد إلا الله , ولا نشرك به شيئاً , ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله . . . [آل عمران:64] .

"فهذه دعوة إلى انقلاب عالمي شامل , لا غموض فيها ولا إبهام . فإنه قد نادى بملء صوته: (إن الحكم إلا لله , أمر ألا تعبدوا إلا إياه . ذلك الدين القيم). . [يوسف:40]

"فليس لأحد من بني آدم أن ينصب نفسه ملكا على الناس ومسيطراً عليهم , يأمرهم بما يشاء وينهاهم عما يريد . ولا جرم أن استقلال فرد من أفراد البشر بالأمر والنهي من غير أن يكون له سلطان من الملك الأ على , هو تكبر في الأرض على الله بغير الحق , وعتو عن أمره , وطموح إلى مقام الألوهية . والذين يرضون أمثال هؤلاء الطواغيت لهم ملوكاً وأمراء إنما يشركون بالله , وذلك مبعث الفساد في الأرض , ومنه تنفجر ينابيع الشر والطغيان .

"إن دعوة الإسلام إلى التوحيد , وعبادة الله الواحد , لم تكن قضية كلا مية . أو عقيدة لاهوتية فحسب . شأن غيره من النحل والملل ; بل الأمر أنها كانت دعوة إلى انقلاب اجتماعي [ ] أرادت في أول ما أرادت أن تقطع دابر الذين تسنموا ذروة الألوهية ; واستعبدوا الناس بحيلهم ومكايدهم المختلفة . فمنهم من تبوأ مناصب السدنة والكهان ; ومنهم من استأثر بالملك والإمرة , وتحكم في رقاب الناس ; ومنهم من استبد بمنابع الثروة وخيرات الأرض ; وجعل الناس عالة عليهم يتكففون ولا يجدون ما يتبلغون به . . فأرادت دعوة الإسلام أن تقطع دابرهم جميعاً وتستأصل شأفتهم استئصالا ً . . وهؤلاء تارة تسنموا قمة الألوهية جهراً وعلانية ; وأرادوا أن يقهروا من حولهم من الناس على أن يذعنوا

لأمرهم ; وينقادوا لجبروتهم ; مستندين إلى حقوقهم التي ورثوها عن آبائهم ; أو استأثرت بها الطبقة التي ينتمون إليها ; فقالوا: (ما علمت لكم من إله غيري). . و (وأنا ربكم الأعلى). . و (أنا أحيي وأميت). . و (من أشد منا قوة ?). . إلى غيرها من كلمات الاستكبار ودعاوى الألوهية التي تفوهوا بها وتجاسروا عليها بغياً وعدواناً . وطورا استغلوا جهل الدهماء وسفههم , فاتخذوا من الأصنام والتماثيل والهياكل آلهة , يدعون الناس ويريدونهم علىأداء مظاهر العبودية أمام هذه التماثيل والهياكل متوارين بأنفسهم من ورائها , يلعبون بعقول الناس , ويستعبدونهم لأغراضهم وشهواتهم وهم لا يشعرون ! فيتبين من ذلك أن دعوة الإسلام إلى التوحيد , وإخلاص العبادة لله الواحد الأحد , وتنديده بالكفر والشرك ب الله , واجتناب الأوثان والطواغيت . . كل ذلك يتنافى ويتعارض مع الحكومة والعاملين عليها المتصرفين في أمورها , والذين يجدون فيها سنداً لهم , وعوناً على قضاء حاجاتهم وأغراضهم . . ومن ثم ترى أنه كلما قام نبي من الأنبياء يجاهر الناس بالدعوة , وخاطبهم قائلا ً: (يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره) . قامت في وجهه الحكومات المتمكنة في عصره , وثار عليه جميع من كانوا يستغلون خيرات البلاد ويستثمرونها ظلماً وعدواناً . . خرجت تقاومه , وتضع في سبيل الدعوة العقبات . وذلك أن هذه الدعوة لم تكن مجرد بيان لعقيدة كلامية , أو شرح لمسألة من مسائل الإلهيات وإنما كانت نداء لانقلاب اجتماعي ع المي , ما كانت بوادره لتخفى على المستأثرين بمناصب العز والجاه , المستبدين بمنابع الثراء , ممن يشمون رائحة الاضطراب السياسي قبل حدوثه بأعوام !

"إن الإسلام ليس بمجرد مجموعة من العقيدة الكلامية , وجملة من المناسك والشعائر , كما يفهم من معنى الدين في هذه الأيام . بل الحق أنه نظام شامل , يريد أن يقضي على سائر النظم الباطلة الجائرة الجارية في العالم , ويقطع دابرها , ويستبدل بها نظاماً صالحاً , ومنهاجاً معتدلا ً , يرى أنه خير للإنسانية من النظم الأخرى , وأن فيه نجاة للجنس

البشري من أدواء الشر والطغيان , وسعادة له وفلاحاً في العاجلة والآ جلة معاً .

"ودعوته في هذه السبيل , سبيل الإصلاح والتجديد والهدم والبناء , عامة للجنس البشري كافة , لا تختص بأمة دون أمة , أو طائفة دون طائفة . فهو يدعو بني آدم جميعاً إلى كلمته ; حتى إنه يهيب بالطبقات الجائرة نفسها ممن اعتدوا حدود الله في أرضه . واستأثروا بخيرات الأ رض دون سائر الناس . . يهيب بالملوك والأمراء أنفسهم ويناديهم قائلا ً:لا تطغوا في الأرض , وادخلوا في كنف حدود الله التي حدها لكم , وكفوا أيديكم عما نهاكم الله عنه وحذركم إياه . فإن أسلمتم لأمر الله , ودنتم لنظام الحق والعدل الذي أقامه للناس خيرا وبركة , فلكم الأمن و الدعة والسلامة فإن الحق لا يعادي أحداً ; وإنما يعادي الحق الجور , و الفساد والفحشاء , وأن يتعدى الرجل حدوده الفطرية , ويبتغي ما وراء ذلك , مما لا حظ له فيه حسب سنن الكون , وفطرة الله التي فطر الناس عليها .

"فكل من آمن بهذه الدعوة وتقبلها بقبول حسن , يصير عضواً في "الجماعة الإسلامية " أو "الحزب الإسلامي" لا فرق في ذلك بين الأحمر منهم والأسود , أو بين الغني منهم والفقير . كلهم سواسية كأسنان المشط . لا فضل لأمة على أمة . أو لطبقة على أخرى . وبذلك يتكون ذلك الحزب العالمي أو الأممي , الذي سمي "حزب الله" بلسان الوحي .

"وما إن يتكون هذا الحزب حتى يبدأ بالجهاد في سبيل الغاية التي أنشئ لأجلها . فمن طبيعته , وما يستدعيه وجوده , أن لا يألو جهداً في القضاء على نظم الحكم التي أسس بنيانها على غير قواعد الإسلام , واستئصال شأفتها , وأن يستنفد مجهوده في أن يستبدل بها نظاماً للعمران والاجتماع معتدلا ً , مؤسساً على قواعد ذلك القانون الوسط العدل الذي يسميه القرآن الكريم: كلمة الله . فإن لم يبذل هذا الحزب الجهد المستطاع ,ولم يسع سعيه وراء تغيير نظم الحكم وإقامة نظام

الحق . . نظام الحكم المؤسس على قواعد الإسلام . . ولم يجاهد حق جهاده في هذه السبيل , فاتته غايته . وقصر عن تحقيق البغية التي أنشئ لأجلها . فإنه ما أنشئ إلا لإدراك هذه الغاية , وتحقيق هذه البغية . . بغية إقامة نظام الحق والعدل . . ولا غاية له ولا عمل إلا الجهاد في هذه السبيل . وهذه الغاية الوحيدة التي بينها الله تعالى في كتابه العزيز بقوله:

(كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله). . [آل عمران:110]

"ولا يظن أحد أن هذا الحزب . . (حزب الله)بلسان الوحي . . مجرد جماعة من الوعاظ المبشرين , يعظون الناس في المساجد , ويدعونهم إلى مذاهبهم ومسالكهم بالخطب والمقالات ليس إلا ! ليس الأمر كذلك ! وإنما هو حزب أنشأه الله ليحمل لواء الحق والعدل بيده , ويكون شهيداً على الناس ; ومن مهمته التي ألقيت على كاهله من أول يوم أن يقضي على منابع الشر والعدوان , ويقطع دابر الجور والفساد في الأرض والا ستغلال الممقوت ; وأن يكبح جماح الآلهة الكاذبة . الذين تكبروا في أرض الله بغير الحق ; وجعلوا أنفسهم أربابا من دون الله ; ويستأصل شأفة ألوهيتهم . ويقيم نظاما للحكم والعمران صالحا يتفيأ ظلاله القاصي والداني والغني والفقير . . وإلى هذا المعنى أشار الله تعالى في غير واحدة من آي الذكر الحكيم:

(وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله). . [الأنفال:38] .

(إلا تفعلوه تكن فتنة في الأرض وفساد كبير). . [الأنفال:73] .

(هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون). . [التوبة:33]

"فتبين من كل ذلك أن هذا الحزب لا بد له من امتلاك ناصية الأمر ; ولا مندوحة له من القبض على زمام الحكم ; لأن نظام العمران الفاسد لا

يقوم إلا على أساس حكومة مؤسسة على قواعد العدوان والفساد في ا لأرض ; وكذلك ليس من الممكن أن يقوم نظام للحكم صالح , ويؤتي أكله , إلا بعدما ينتزع زمام الأمر من أيدي الطغاة المفسدين . ويأخذه بأيديهم رجال يؤمنون بالله واليوم الآخر ; ولا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً .

"وأضف إلى ذلك أن هذا الحزب ; بصرف النظر عما يرمي إليه من إصلا ح العالم ; وبث الخير والفضيلة في أنحاء الأرض كافة , لا يقدر أن يبقى ثابتاً على خطته , متمسكاً بمنهاجه , عاملا ً وفق مقتضياته ما دام نظام الحكم قائماً على أساس آخر , سائراً على منهاج غير منهاجه . وذلك أن حزباً مؤمناً بمبدأ ونظام للحياة والحكم خاص , لا يمكن أن يعيش متمسكاً بمبدئه عاملا ً حسب مقتضاه في ظل نظام للحكم مؤسس على مبادئ وغايات غير المبادى ء والغايات التي يؤمن بها , ويريد السير على منهاجها . فإن رجلا ً يؤمن بمبادئ الشيوعية , إن أراد أن يعيش في بريطانيا أو ألمانيا , متمسكاً بمبدئه , سائراً في حياته على البرنامج الذي تقرره الشيوعية , فلن يتمكن من ذلك أبداً , لأن النظم التي تقررها الرأسمالية أو الناتسية تكون مهيمنة عليه , قاهرة بما أوتيت من سلطان , فلا يمكنه أن يتخلص من براثنها أصلا . . وكذلك إن أراد المسلم أن يقضي حياته مستظلا ً بنظام للحكم مناقض لمبادئ الإسلام الخالدة وبوده أن يبقى مستمسكاً بمبادئ الإسلام , سائراً وفق مقتضاه في أعماله اليومية , فلن يتسنى له ذلك , ولا يمكنه أن ينجح في بغيته هذه أبداً . لأن القوانين التي يراها باطلة , والضرائبالتي يعتقدها غرماً ونهبا لأموال الناس , والقضايا التي يحسبها جائرة عن الحق وافتئاتاً على العدل , والنظم التي يعرف أنها مبعث الفساد في الأرض , ومناهج التعليم التي يجزم بوخامة عاقبتها وسوء نتائجها , ويرى فيها هلاكاً للأ مة . . يجد كل هذه مهيمنة عليه , ومسيطرة على بيئته وأهله وأولاده , بحيث لا يمكنه أن يتخلص من قيودها وينجو بنفسه وأهله من أثرها ونفوذها . فالذي يؤمن بعقيدة ونظام - فرداً كان أو جماعة - مضطر

بطبيعة عقيدته وإيمانه بها أن يسعى سعيه في القضاء على نظم الحكم القائمة على فكرة غير فكرته , ويبذل الجهد المستطاع في إقامة نظام للحكم مستند إلى الفكرة التي يؤمن بها ; ويعتقد أن فيها سعادة للبشر . لأنه لا يتسنى له العمل بموجب عقيدته والسير على منهاجه إلا بهذا الطريق . وإذا رأيت رجلا لا يسعى وراء غايته , أو يغفل عن هذا الواجب , فاعلم أنه كاذب في دعواه . ولما يدخل الإيمان في قلبه . وبهذا المعنى ورد في التنزيل:

(عفا الله عنك . لم أذنت لهم حتى يتبين لك الذين صدقوا وتعلم الكاذبين ? لا يستأذنك الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم . والله عليم بالمتقين . . إنما يستأذنك الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر . وارتابت قلوبهم فهم في ريبهم يترددون). . [التوبة:43 - 45] .

"وأي شهادة أصدق ; وأي حجة أنصع ; من شهادة القرآن وحجته ; ففي هذه الآيات من سورة براءة قد نص القرآن الكريم على أن الذي لا يلبي نداء الجهاد ; ولا يجاهد بماله ونفسه في سبيل إعلاء كلمة الله , وإقامة الدين الذي ارتضاه لنفسه , وتوطيد نظام الحكم المبني على قواعده , فهو في عداد الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر , وارتابت قلوبهم فهم في ريبهم يترددون . . .

"لعلك تبينت مما أسلفنا آنفاً أن غاية [ ] الجهاد في الإسلام , هي هدم بنيان النظم المناقضة لمبادئه , وإقامة حكومة مؤسسة على قواعد الإسلام في مكانها واستبدالها بها . وهذه المهمة . . مهمة إحداث انقلاب إسلامي عام . غير منحصرة في قطر دون قطر . بل مما يريده الإسلام , ويضعه نصب عينيه أن يحدث هذا الانقلاب الشامل في جميع أنحاء المعمورة . . هذه غايته العليا , ومقصده الأسمى الذي يطمح إليه ببصره . إلا أنه لا مندوحة للمسلمين , أو أعضاء "الحزب الإسلامي" عن الشروع في مهمتهم بإحداث الانقلاب المنشود , والسعي وراء تغيير نظم

الحكم في بلادهم التي يسكنونها . أما غايتهم العليا وهدفهم الأسمى فهو الانقلاب العالمي الشامل [ ] المحيط بجميع أنحاء الأرض . وذلك أن فكرة انقلابية لا تؤمن بالقومية , بل تدعو الناس جميعاً إلى سعادة البشر وفلاح الناس أجمعين , لا يمكنها أصلا ً أن تضيق دائرة عملها في نطاق محدود من أمة أو قطر . بل الحق أنها مضطرة بسجيتها وجبلتها أن تجعل الانقلاب العالمي غايتها التي تضعها نصب عينها , ولا تغفل عنها طرفة عين . فإن الحق يأبى الحدود الجغرافية , ولا يرضى أن ينحصر في حدود ضيقة اخترعها علماء الجغرافية واصطلحوا عليها . ف الحق يتحدى العقول البشرية النزيهة . ويقول لها مطالباً بحقه:ما بالكم تقولون:إن القضية الفلانية "حق" في هذا الجانب من ذاك الجبل أو النهر مثلا ً ; ثم تعود القضية نفسها "باطلا ً" - بزعمكم - إذا جاوزنا ذاك الجبل أو النهر بأذرع ؟! الحق حق في كل حال وفي كل مكان ! وأي تأثير للجبال والأنهار في تغيير حقيقته المعنوية ؟! الحق ظله وارف , وخيره عام شامل , لا يختص ببيئة دون بيئة , ولا قطر دون قطر . فأينما وجد "الإنسان" مقهوراً فالحق من واجبه أن يدركه ويأخذ بحقه وينتصر له . ومهما أصيبت "الإنسانية " في أبنائها المستضعفين , فعلى العدل ومبادئهوالحاملين للوائه أن يلبوا نداءها , ويأخذوا بناصرهم حتى ينتصروا لهم من أعدائهم الجائرين , ويستردوا لهم حقوقهم المغصوبة التي استبد بها الطغاة بغياً وعدواناً . وبهذا المعنى نطق لسان الوحي , حيث ورد في التنزيل:

(وما لكم لا تقاتلون في سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء و الولدان , الذين يقولون:ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها). . . [النساء:75]

"وزد على ذلك أن الأواصر البشرية والعلاقات الإنسانية - على ما أثرت فيها الفوارق القومية والوطنية . وأحدثت فيها من نزعات الشتات والا ختلاف - قد تشتمل على تلاؤم شامل , وتجانس عام بين أجزائها , ربما يتعذر معه أن تسير مملكة في قطر بعينه بحسب مبادئها وخططها

المرسومة المستبينة , ما دامت الأقطار المجاورة لها لا توافقها على مبادئها وخطتها , ولا ترضى بالسير وفق منهاجها وبرنامجها . من أجل ذلك وجب على الحزب المسلم , حفظاً لكيانه , وابتغاء للإصلاح المنشود , ألا يقنع بإقامة نظام الحكم الإسلامي في قطر واحد بعينه . بل من واجبه الذي لا مناص له منه بحال من الأحوال , ألا يدخر جهداً في توسيع نطاق هذا النظام وبسط نفوذه في مختلف أرجاء الأرض . ذلك بأن يسعى الحزب الإسلامي , في جانب , وراء نشر الفكرة الإسلامية , وتعميم نظرياتها الكاملة ونشرها في أقصى الأرض وأدناها ; ويدعو سكان المعمورة - على اختلاف بلادهم وأجناسهم وطبقاتهم أن يتلقوا هذه الدعوة بالقبول , ويدينوا بهذا المنهاج الذي يضمن لهم السعادتين , سعادتي الدنيا والآخرة . . وبجانب آخر , يشمر عن ساق الجد , ويقاوم النظم الجائرة المناقضة لقواعد الحق والعدل وبالقوة , إذا استطاع ذلك وأعد له عدته , ويقيم مكانها نظام العدل والنصفة , المؤسس على قواعد الإسلام ومبادئه الخالدة التي لا تبلى , ولن تبلى جدتها على مرور الأيام والليالي .

"هذه هي الخطة التي سلكها . وهذا هو المنهاج الذي انتهجه النبي [ص] ومن جاء بعده , وسار بسيرته من الخلفاء الراشدين , فإنهم بدأوا ببلاد العرب . ثم أشرقت شمس الإسلام من آفاقها . وأخضعوها أولا ً لحكم الإسلام , وأدخلوها في كنف المملكة الإسلامية الجديدة . ثم دعا النبي [ص] الملوك والأمراء والرؤساء في مختلف بقاع الأرض إلى دين الحق والإذعان لأمر الله . فالذين آمنوا بهذه الدعوة انضموا إلى هذه المملكة الإسلامية وأصبحوا من أهلها , والذين لم يلبوا دعوتها ولم يتقبلوها بقبول حسن شرع في قتالهم وجهادهم . . ولما استخلف أبو بكر رضي الله عنه , بعد وفاته [ص] والتحاقه بالرفيق الأعلى , حمل على المملكتين المجاورتين للمملكة الإسلامية . . مملكتي الروم والفرس . اللتين بلغ من عتوهما وتماديهما في الغي والاستكبار في الأرض ما طبقت شهرته الآفاق . وبلغت هذه الحملات التي بدأ بها الصديق - رضي

الله عنه - غايتها في عصر الفاروق الذي يرجع إليه الفضل العظيم في توطيد دعائم المملكة الإسلامية الأولى , حتى شمل ظلها الوارف تلك الأ قطار جميعاً" . . . [انتهت المقتطفات] .

على ضوء هذا البيان لطبيعة هذا الدين وحقيقته , ولطبيعة الجهاد فيه وقيمته , ولمنهج هذا الدين وخطته الحركية في الجهاد ومراحله . . نستطيع أن نمضي في تقييم غزوة بدر الكبرى , التي قال الله سبحانه عن يومها إنه "يوم الفرقان" . . وأن نمضي كذلك في التعرف إلى سورة ا لأنفال , التي نزلت في هذه الغزوة , على وجه الإجمال .

لم تكن غزوة بدر الكبرى هي أولى حركات الجهاد الإسلامي - كما بينا من قبل - فقد سبقتها عدة سرايا , لم يقع قتال إلا في واحدة منها , هي سرية عبد الله بن جحش في رجب على رأس سبعة عشر شهراً من هجرة رسول الله [ص] إلى المدينة . . وكانت كلها تمشياً مع القاعدة التي يقوم عليها الجهاد في الإسلام . والتي أسلفت الحديث عنها من قبل . . نعم إنها كلها كانت موجهة إلى قريش التي أخرجت رسول الله [ص] وللمسلمين الكرام ; ولم تحفظ حرمة البيت الحرام المحرمة في الجاهلية وفي الإسلام ! ولكن هذا ليس الأصل في انطلاقة الجهاد الإس لامي . إنما الأصل هو إعلان الإسلام العام بتحرير الإنسان من العبودية لغير الله ; وبتقرير ألوهية الله في الأرض ; وتحطيم الطواغيت التي تعبد الناس , وإخراج الناس من العبودية للعباد إلى العبودية لله وحده . . وقريش كانت هي الطاغوت المباشر الذي يحول بين الناس في الجزيرة وبين التوجه إلى عبادة الله وحده ; والدخول في سلطانه وحده . فلم يكن بد أن يناجز الإسلام هذا الطاغوت , تمشياً مع خطته العامة ; وانتصافاً في الوقت ذاته من الظلم والطغيان اللذين وقعا بالفعل على المسلمين الكرام ; ووقاية كذلك لدار الإسلام في المدينة من الغزو و العدوان . . وإن كان ينبغي دائماً ونحن نقرر هذه الأسباب المحلية القريبة أن نتذكر - ولا ننسى - طبيعة هذا الدين نفسه وخطته التي تحتمها طبيعته هذه . وهي ألا يترك في الأرض طاغوتاً يغتصب سلطان

الله ; ويعبد الناس لغير ألوهيته وشرعه بحال من الأحوال !

أما أحداث هذه الغزوة الكبرى فنجملها هنا قبل استعراض سورة الأنفال التي نزلت فيها , ذلك لنتنسم الجو الذي نزلت فيه السورة ; وندرك مرامي النصوص فيها ; وواقعيتها في مواجهة الأحداث من ناحية ; وتوجيهها للأحداث من الناحية الأخرى . . ذلك أن النصوص القرآنية لا تدرك حق إدراكها بالتعامل مع مدلولاتها البيانية واللغوية فحسب !! إنما تدرك أولا ً وقبل كل شيء بالحياة في جوها التاريخي الحركي ; وفي واقعيتها الإيجابية , وتعاملها مع الواقع الحي . وهي - وإن كانت أبعد مدى وأبقى أثراً من الواقع التاريخي الذي جاءت تواجهه - لا تتكشف عن هذا المدى البعيد إلا في ضوء ذلك الواقع التاريخي . . ثم يبقى لها إيحاؤها الدائم , وفاعليتها المستمرة , ولكن بالنسبة للذين يتحركون بهذا الدين وحدهم ; ويزاولون منه شبه ما كان يزاوله الذين تنزلت هذه النصوص عليهم أول مرة ; ويواجهون من الظروف والأحوال شبه ما كان هؤلاء يواجهون ! ولن تتكشف أسرار هذا القرآن قط للقاعدين , الذين يعالجون نصوصه في ضوء مدلولاتها اللغوية والبيانية فحسب . . وهم قاعدون ! . .

قال ابن إسحاق :ثم إن رسول الله [ص] سمع بأبي سفيان بن حرب مقبلا ً من الشام في عير لقريش عظيمة , فيها أموال لقريش , وتجارة من تجاراتهم . وفيها ثلاثون رجلا ً من قريش أو أربعون . .

قال ابن إسحاق:فحدثني محمد بن مسلم الزهري , وعاصم بن عمر بن قتادة , وعبد الله بن أبي بكر , ويزيد بن رومان , عن عروة بن الزبير . وغيرهم من علمائنا , عن ابن عباس رضي الله عنهما . . كل قدحدثني بعض الحديث , فاجتمع حديثهم فيما سقت من حديث بدر , قالوا:

لما سمع رسول الله [ص] بأبي سفيان مقبلا ً من الشام ندب المسلمين إليهم , وقال:" هذه عير قريش فيها أموالهم , فاخرجوا إليها لعل الله ينفلكموها " فانتدب الناس , فخف بعضهم وثقل بعضهم , وذلك أنهم لم

يظنوا أن رسول الله [ص] يلقى حرباً [وفي زاد المعاد وإمتاع الأسماع أنه [ص] أمر من كان ظهره - أي ما يركبه - حاضراً بالنهوض , ولم يحتفل لها احتفالا ً كبيراً] . . وقال ابن القيم:" وجملة من حضر بدراً من المسلمين ثلاثمائة وبضعة عشر رجلا ً:من المهاجرين ستة وثمانون . ومن الأوس واحد وستون . ومن الخزرج مائة وسبعون . وإنما قل عدد الأوس عن الخزرج , وإن كانوا أشد منهم وأقوى شوكة وأصبر عند اللقاء , لأن منازلهم كانت في عوالي المدينة , وجاء النفير بغتة , وقال النبي [ص] لا يتبعنا إلا من كان ظهره حاضراً . فاستأذنه رجال ظهورهم كانت في علو المدينة أن يستأني بهم حتى يذهبوا إلى ظهورهم , فأبى . ولم يكن عزمهم على اللقاء , ولا أعدوا له عدة , ولا تأهبوا له أهبة . ولكن جمع الله بينهم وبين عدوهم على غير ميعاد " .

وكان أبو سفيان - حين دنا من الحجاز - يتحسس الأخبار , ويسأل من لقي من الركبان , تخوفاً على أمر الناس [أي على أموالهم التي معه في القافلة] حتى أصاب خبراً من بعض الركبان:أن محمداً قد استنفر أصحابه لك ولعيرك . فحذر عند ذلك . فاستأجر ضمضم بن عمرو الغفاري , فبعثه إلى مكة , وأمره أن يأتي قريشاً فيستنفرهم إلى أموالهم , ويخبرهم أن محمداً قد عرض لنا في أصحابه . فخرج ضمضم بن عمرو سريعاً إلى مكة .

قال المقريزي في "إمتاع الأسماع":فلم يرع أهل مكة إلا وضمضم يقول:يا معشر قريش , يا آل لؤي ابن غالب , اللطيمة [وهي العير التي تحمل الطيب والمسك والثياب وليس فيما تحمله طعام يؤكل] قد عرض لها محمد في أصحابه . الغوث الغوث . والله ما أرى أن تدركوها ! وقد جدّع أذني بعيره , وشق قميصه وحول رحله . فلم تملك قريش من أمرها شيئاً حتى نفروا على الصعب والذلول , وتجهزوا في ثلاثة أيام . وقيل في يومين . وأعان قويهم ضعيفهم . وقام سهيل بن عمرو , وزمعة بن الأسود , وطعيمة بن عدي , وحنظلة بن أبي سفيان , وعمرو بن أبي سفيان , يحضون الناس على الخروج . فقال سهيل:يا آل غالب , أتاركون

أنتم محمداً والصباة [أي المرتدين , يقصد المسلمين !] من أهل يثرب يأخذون عيراتكم وأمواكم ? من أراد مالا ً فهذا مال , ومن أراد قوة فهذه قوة . فمدحه أمية بن أبي الصلت بأبيات ! ومشى نوفل بن معاوية الديلي إلى أهل القوة من قريش فكلمهم في بذل النفقة والحُملان [أي ما يحمل عليه من الدواب , يقال فيما يكون هبة خاصة] لمن خرج . فقال عبد الله بن أبي ربيعة:هذه خمسمائة دينار فضعها حيث رأيت . وأخذ من حويطب بن عبد العزى مائتي دينار وثلاث مائة دينار قوى بها في السلاح والظهر , وحمل طعيمة بن عدي على عشرين بعيراً , وقواهم وخلفهم في أهلهم بمعونة . وكان لا يتخلف أحداً من قريش إلا بعث مكانه بعيثا . ومشوا إلى أبي لهب فأبى أن يخرج أو يبعث أحداً , ويقال:إنه بعث مكانه العاصي , ابن هشام بن المغيرة - وكان له عليه دين - فقال:اخرج , وديني لك . فخرج عنه ! . . . وأخذ عداس [وهو الغلام النصراني الذي أرسله عتبة وشيبة ابنا ربيعة بقطف من العنب لرسول الله [ص] يوم خرج إلى الطائف فرده أهله رداً قبيحا , وأتبعوه السفهاء والصبية يرمونه بالحجارة حتى أدموا قدميه الشريفتين , فلجأ منهم إلى بستان عتبة وشيبة . وقد وقع في نفس عداس ما وقع من أمر رسول الله [ص] , فأكب على يديه وقدميه يقبلهما !] يخذل شيبةوعتبة ابني ربيعة عن الخروج , والعاص بن منبه بن الحجاج . وأبي أمية بن خلف أن يخرج , فأتاه عقبة بن أبي معيط وأبو جهل فعنفاه . فقال ابتاعوا لي أفضل بعير في الوادي ! فابتاعوا له جملا ً بثلاث مائة درهم من نعم بني قشير , فغنمه المسلمون ! . . وما كان أحد منهم أكره للخروج من الحارث بن عامر . ورأى ضمضم بن عمرو أن وادي مكة يسيل دماً من أسفله وأعلاه . ورأت عاتكة بنت عبد المطلب رؤياها [وفيها نذير لقريش بالقتل والدم في كل بيت] . . . فكره أهل الرأي المسير , ومشى بعضهم إلى بعض , فكان من أبطئهم عن ذلك الحارث بن عامر , وأمية بن خلف , وعتبة وشيبة ابنا ربيعة , وحكيم بن حزام , وأبو البختري [ابن هشام] وعلي بن أمية بن خلف , والعاص بن منبه ; حتى بكتهم أبو جهل , وأعانه عقبة بن أبي معيط , والنضر بن

الحارث بن كلدة , فاجمعوا المسير . . وخرجت قريش بالقيان والدفاف يغنين في كل منهل , وينحرون الجزر , وهم تسعمائة وخمسون مقاتلا ً . . وقادوا مائة فرس , عليها مائة دارع سوى دروع المشاة . وكانت إبلهم سبعمائة بعير . وهم كما ذكر الله تعالى عنهم بقوله:(ولا تكونوا كالذين خرجوا من ديارهم بطراً ورئاء الناس , ويصدون عن سبيل الله , والله بما يعملون محيط). . [الأنفال:47] .

وأقبلوا في تجمل عظيم وحنق زائد على رسول الله [ص] وأصحابه , لما يريدون من أخذ عيرهم , وقد أصابوا من قبل عمرو بن الحضرمي والعير التي كانت معه [في سرية عبد الله بن جحش] . . وأقبل أبو سفيان بالعير ومعها سبعون رجلا ً [في رواية ابن إسحاق ثلاثون رجلا ً] منهم مخرمة بن نوفل , وعمرو ابن العاص , فكانت عيرهم ألف بعير تحمل المال . وقد خافوا خوفاً شديداً حين دنوا من المدينة , واستبطأوا ضمضم بن عمرو والنفير [الذين نفروا بن قريش ليمنعوا عيرهم] . . فأصبح أبو سفيان ببدر وقد تقدم العير وهو خائف من الرصد . فضرب وجه عيره , فساحل بها [أي اتجه إلى ساحل البحر بعيداً عن طريق المدينة] وترك بدراً يساراً , وانطلق سريعاً . . وأقبلت قريش من مكة ينزلون كل منهل . يطعمون الطعام من أتاهم وينحرون الجزر . . وأتاهم قيس بن امرئ القيس من أبي سفيان يأمرهم بالرجوع , ويخبرهم أن قد نجت عيرهم . فلا تجزروا أنفسكم أهل يثرب [يعني لا تعرضوا أنفسكم لأن يذبحكم أهل يثرب] فلا حاجة لكم فيما وراء ذلك . إنما خرجتم لتمنعوا العير وأموالكم , وقد نجاها الله ! فعالج قريشاً فأبت الرجوع [من الجحفة] . وقال أبو جهل:لا والله لا نرجع حتى نرد بدراً , فنقيم ثلاثاً , ننحر الجزر , ونطعم الطعام , ونشرب الخمر , وتعزف القيان علينا ; فلن تزال العرب تهابنا أبداً . . وعاد قيس إلى أبي سفيان , فأخبره بمضى قريش . فقال:واقوماه ! هذا عمل عمرو بن هشام [يعني أبا جهل] كره أن يرجع لأنه ترأس على الناس فبغى , والبغي منقصة وشؤم . إن أصاب محمد النفير ذللنا . .

قال ابن إسحاق:وقال الأخنس بن شريق بن عمرو بن وهب الثقفي , وكان حليفاً لبني زهرة , وهم بالجحفة يا بني زهرة قد نجى الله لكم أموالكم , وخلص لكم صاحبكم مخرمة بن نوفل . وإنما نفرتم لتمنعوه وماله فاجعلوا بي جبنها , وارجعوا , فإنه لا حاجة لكم بأن تخرجوا في غير ضيعة . لا ما يقول هذا [يعني أبا جهل] فرجعوا , فلم يشهدها زهري واحد . . ولم يكن بقي من قريش بطن إلا وقد نفر منهم ناس , إلا بني عدي ابن كعب , لم يخرج منهم رجل واحد [في إمتاع الأسماع أن طعمة بن عدي حمل على عشرين بعيراً , وقواهم وخلفهم في أهلهم بمعونة] . . وكان بين طالب بن أبي طالب - وكان في القوم - وبين بعض قريش محاورة . فقالوا:والله لقد عرفنا يا بني هاشم , وإن خرجتم معنا , إن هواكم لمع محمد . فرجع طالب إلى مكة مع من رجع !

قال ابن إسحاق:وخرج رسول الله [ص] في ليال مضت من شهر رمضان في أصحابه .

وكانت إبل أصحاب رسول الله [ص] يومئذ سبعين بعيراً فاعتقبوها [أي كانوا يركبونها بالتعاقب] فكان رسول الله [ص] وعلي بن أبي ط الب , ومرثد بن أبي مرثد الغنوي يعتقبون بعيراً . وكان حمزة بن عبد المطلب , وزيد بن حارثة , وأبو كبشة وأنسة موليا رسول الله [ص] يعتقبون بعيراً . وكان أبو بكر وعمر وعبد الرحمن بن عوف يعتقبون بعيراً . .

قال المقريزي في إمتاع الأسماع:

ومضى رسول الله [ص] حتى إذا كان دون بدر أتاه الخبر بمسير قريش . فاستشار الناس , فقام أبو بكر - رضي الله عنه - فقال فأحسن . ثم قام عمر فقال فأحسن . ثم قال:يا رسول الله , إنها والله قريش وعزها , والله ما ذلت منذ عزت , والله ما آمنت منذ كفرت , والله لا تسلم عزها أبداً , ولتقاتلنك , فأتهب لذلك أهبته , وأعد لذلك عدته . ثم قام المقداد بن عمرو فقال:يا رسول الله , امض لأمر الله , فنحن معك , والله

لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لنبيها: اذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون . ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا , إنا معكما مقاتلون . و الذي بعثك بالحق لو سرت بنا إلى برك الغماد لسرنا [وبرك الغماد موضع بأقصى اليمن] فقال له رسول الله [ص] خيراً ودعا له بخير . . ثم قال:" أشيروا علي أيها الناس " . وإنما يريد الأنصار . . وكان يظنهم لا ينصرونه إلا في الدار , لأنهم شرطوا له أن يمنعوه مما يمنعون منه أنفسهم وأولادهم [وذلك في بيعة العقبة الثانية التي هاجر على أساسها رسول الله [ص] إلى المدينة] فقام سعد بن معاذ - رضي الله عنه - فقال:أنا أجيب عن الأنصار , كأنك يا رسول الله تريدنا ! قال:" أجل " . قال:إنك عسى أن تكون قد خرجت عن أمر قد أوحي إليك في غيره [يعني كما يبدو أنك ربما تكون قد خرجت لأمر ثم أوحي إليك في غيره إذ كان قد خرج للعير ثم عرض النفير] , فإنا قد آمنا بك , وصدقناك , وشهدنا أن ما جئت به حق , فأعطيناك مواثيقنا وعهودنا على السمع و الطاعة . فامض يا نبي الله لما أردت . فوالذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ما بقي منا رجل . وصل من شئت , واقطع من شئت , وخذ من أموالنا ما شئت ; وما أخذت من أموالنا أحب إلينا مما تركت . والذي نفسي بيده ما سلكت هذا الطريق قط , وما لي بها من علم ; وما نكره أن نلقى عدونا غداً , وإنا لصبر عند الحرب , صدق عند اللقاء , لعل الله يريك منا بعض ما تقر به عيناك . . وفي رواية أن سعد بن معاذ قال:إنا خلفنا من قومنا قوماً ما نحن بأشد حباً لك منهم , ولا أطوع لك منهم ; ولكن إنما ظنوا أنها العير . نبني لك عريشاً فتكون فيه , ونعد عندك رواحلك , ثم نلقى عدونا , فإن أعزنا الله وأظهرنا على عدونا كان ذلك ما أحببناه , وإن تكن الأخرى جلست على رواحلك فلحقت من وراءنا . . فقال له النبي [ص] خيراً . وقال:" أو يقضي الله خيراً من ذلك يا سعد " . فلما فرغ سعد من المشورة قال رسول الله [ص]:" سيروا على بركة الله , فإن الله قد وعدني إحدى الطائفتين . و الله لكأني أنظر إلى مصارع القوم " . . فعلم القوم أنهم إنما يلاقون القتال وأن العير تفلت ; ورجوا النصر لقول النبي [ص] ومن يومئذ عقد

رسول الله [ص] الألوية . وهي ثلاثة , لواء يحمله مصعب بن عمير . ورايتان سوداوان . إحداهما مع علي , والأخرى مع رجل من الأنصار [هو سعد بن معاذ] وأظهر السلاح . . وكان خرج من المدينة على غير لواء معقود .

. . . ونزل رسول الله [ص] أدنى بدر عشاء ليلة الجمعة لسبع عشر مضت من رمضان ,فبعث علياً والزبير وسعد بن أبي وقاص وبسبس بن عمرو رضي الله عنهم يتحسسون على الماء . وأشار لهم إلى ظريب [تصغير ظرب وهو الجبل الصغير المنبسط في حجارة دقاق] وقال:أرجو أن تجدوا الخبر عند هذا القليب الذي يلي الظرب . فوجدوا على تلك القليب روايا قريش فيها سقاؤهم [الروايا من الإبل حوامل الماء وسُقاء جمع سَقاء] فأفلت عامتهم - وفيهم عجير - فجاء قريشاً , فقال:يا آل غالب , هذا ابن أبي كبشة [يعني النبي [ص]] وأصحابه قد أخذوا سقاءكم . فماج العسكر وكرهوا ذلك , والسماء تمطر عليهم . وأخذ تلك الليلة أبو يسار غلام عبيدة بن سعيد بن العاص , وأسلم غلام منبه بن الحجاج , وأبو رافع غلام أمية بن خلف , فأتي بهم النبي [ص] وهو يصلي . فقالوا:نحن سقاء قريش بعثونا نسقيهم من الماء . فكره القوم خبرهم فضربوهم . فقالوا:نحن لأبي سفيان , ونحن في العير ! فأمسكوا عنهم ! فسلم رسول الله [ص] وقال:" إن صدقوكم ضربتموهم , وإن كذبوكم تركتموهم ! " ثم أقبل عليهم يسألهم , فأخبروه أن قريشاً خلف هذا الكثيب , وأنهم ينحرون يوماً عشراً ويوماً تسعاً , وأعلموه بمن خرج من مكة . فقال [ص]:القوم ما بين الألف و التسعمائة . وقال:" هذه مكة قد ألقت إليكم أفلاذ أكبادها " .

واستشار أصحابه في المنزل , فقال الحباب بن المنذر بن الجموح . . انطلق بنا إلى أدنى بئر إلى القوم . فإني عالم بها وبقلبها . بها قليب [أي بئر قديمة لا يعلم من حفرها] قد عرفت عذوبة مائه , وماء كثير لا ينزح . ثم نبني عليها حوضاً , ونقذف فيه الآنية فنشرب ونقاتل ; ونعور ما سواها من القلب . فقال:يا حباب أشرت بالرأي [وفي رواية ابن هشام

عن ابن إسحاق أن الحباب بن المنذر قال:يا رسول الله , هذا المنزل أمنز لا ً أنزلكه الله ليس لنا أن نتقدمه ولا نتأخر عنه ? أم هو الرأي والحرب والمكيدة ? قال:" بل هو الرأي والحرب والمكيدة " قال:يا رسول الله , هذا ليس بمنزل . . ثم أشار بما أشار] ونهض رسول الله [ص] فنزل على القليب ببدر . وبات تلك الليلة يصلي إلى جذم شجرة [أي ما بقي من جذعها بعد قطع أعلاه] . وكانت ليلة الجمعة السابع عشر من رمضان . وفعل ما أشار به الحباب . . وبعث الله السماء , فأصاب المسلمين ما لبد الأرض ولم يمنع من السير . وأصاب قريشاً من ذلك ما لم يقدروا أن يرتحلوا منه . وإنما بينهم قوز من رمل . وكان مجيء المطر نعمة وقوة للمؤمنين , وبلاء ونقمة على المشركين . وأصاب المسلمين تلك الليلة نعاس ألقي عليهم . فناموا , حتى إن أحدهم تكون ذقنه بين ثدييه وما يشعر حتى يقع على جنبه . واحتلم رفاعة ابن رافع بن مالك حتى اغتسل آخر الليل . . وبعث [ص] عمار بن ياسر وعبد الله بن مسعود - رضي الله عنهما - فأطافا بالقوم , ثم رجعا فأخبراه أن القوم مذعورون , وأن السماء تسح عليهم .

وبني لرسول الله [ص] لما نزل على القليب - عريش من جريد . وقام سعد بن معاذ على بابه متوشح السيف . ومشى رسول الله [ص] على موضع الوقعة , وعرض على أصحابه مصارع رؤوس الكفر من قريش مصرعاً مصرعاً , يقول:هذا مصرع فلان , وهذا مصرع فلان . . فما عدا واحد منهم مضجعه الذي حدّ له الرسول . وعدل [ص] الصفوف . ورجع إلى العريش فدخل [ص] وأبو بكر رضي الله عنه .

قال ابن إسحاق:وقد ارتحلت قريش حتى أصبحت فأقبلت . فلما رآها رسول الله [ص] - تصوّب من العقنقل [وهو الكثيب الذي جاءوا منه] إلى الوادي , قال:" اللهم هذه قريش قد أقبلت بخيلائها وفخرها تحادّك , وتكذب رسولك , اللهم فنصرك الذي وعدتني , اللهم أحنهم الغداة " . وقد قال رسولالله [ص] وقد رأى عتبة بن ربيعة في القوم على جمل له أحمر , فقال:" إن يكن في أحد من القوم خير فعند صاحب الجمل الأ

حمر , إن يطيعوه يرشدوا " .

"وقد كان خُفاف بن أيماء بن رحضة الغفاري - أو أبوه أيماء بن رحضة الغفاري - بعث إلى قريش - حين مروا به - ابناً له بجزائر [أي ذبائح] أهداها لهم . وقال:إن أحببتم أن نمدكم بسلاح ورجال فعلنا . ق ال:فأرسلوا إليه مع ابنه أن وصلتك رحم . قد قضيت الذي عليك . فلعمري لئن كنا إنما نقاتل الناس فما بنا من ضعف عنهم , ولئن كنا إنما نقاتل الله , كما يزعم محمد , فما لأحد بالله من طاقة .

فلما نزل الناس أقبل نفر من قريش حتى وردوا حوض رسول الله [ص] فيهم حكيم ابن حزام . فقال رسول الله [ص] " دعوهم " . فما شرب منه رجل يومئذ إلا قتل . إلا ما كان من حكيم بن حزام فإنه لم يقتل . ثم أسلم بعد ذلك فحسن إسلامه . فكان إذا اجتهد في يمينه قال:لا و الذي نجاني من يوم بدر !

قال ابن إسحاق:وحدثني أبي إسحاق بن يسار وغيره من أهل العلم , عن أشياخ من الأنصار قالوا:لما اطمأن القوم بعثوا عمير بن وهب الجمحي , فقالوا:احزر لنا أصحاب محمد [[ص]] قال:فاستجال بفرسه حول العسكر ! ثم رجع إليهم , فقال:ثلاث مائة رجل , يزيدون قليلا ً أو ينقصون . ولكن أمهلوني حتى أنظر أللقوم كمين أو مدد . قال:فضرب في الوادي حتى أبعد فلم ير شيئاً , فرجع إليهم , فقال:ما وجدت شيئاً , ولكني قد رأيت يا معشر قريش , البلايا تحمل المنايا . نواضح يثرب تحمل الموت الناقع . قوم ليس معهم منعة ولا ملجأ إلا سيوفهم , والله ما أرى أن يقتل رجل منهم حتى يقتل رجلا ً منكم , فإذا أصابوا منكم أعدادهم , فما خير العيش بعد ذلك ? فروا رأيكم !

فلما سمع حكيم بن حزام ذلك مشى في الناس , فأتى عتبة بن ربيعة , فقال:يا أبا الوليد إنك كبير قريش وسيدها والمطاع فيها , هل لك إلى ألا تزال تذكر فيها بخير إلى آخر الدهر ? قال:وما ذاك يا حكيم ? قال:ترجع بالناس , وتحمل أمر حليفك عمرو بن الحضرمي . قال:قد فعلت , أنت

عليّ بذلك , إنما هو حليفي فعليّ عقله [أي دية أخيه الذي قتل في سرية عبد الله بن جحش كما سبق] وما أصيب من ماله . فأت ابن الحنظلية فإني لا أخشى أن يشجر أمر الناس غيره . يعني أبا جهل بن هشام . ثم قام عتبة بن ربيعة خطيباً فقال:يا معشر قريش , إنكم والله ما تصنعون بأن تلقوا محمداً وأصحابه شيئاً . والله لئن أصبتموه لا يزال الرجل ينظر في وجه رجل يكره النظر إليه , قتل ابن عمه أو ابن خاله أو رجلا ً من عشيرته . فارجعوا وخلوا بين محمد وسائر العرب , فإن أصابوه فذاك الذي أردتم , وإن كان غير ذلك ألفاكم ولم تعرّضوا منه ما تريدون .

قال حكيم:فانطلقت حتى جئت أبا جهل , فوجدته قد نثل درعاً له من جرابها فهو يهيئها . فقلت له:يا أبا الحكم , إن عتبة أرسلني إليك بكذا وكذا , للذي قال , فقال:انتفخ والله سَحره [يعني انتفخت رئته من الخوف !] حين رأى محمداً وأصحابه . كلا ! والله لا نرجع حتى يحكم الله بيننا وبين محمد , وما بعتبة ما قال , ولكنه قد رأى أن محمداً وأصحابه أكلة جزور , وفيهم ابنه [يعني أبا حذيفة رضي الله عنه وكان مسلماً مع المسلمين] فقد تخوفكم عليه !

ثم بعث إلى عامر بن الحضرمي , فقال:هذا حليفك يريد أن يرجع بـ الناس . وقد رأيت ثأرك بعينك , فقم فانشد خفرتك [أي عهدك] ومقتل أخيك ! فقام عامر بن الحضرمي فاكتشف , ثم صرخ:واعمراه ! فحميت الحرب , وحقب أمر الناس [أي اشتد] واستوسقوا على ما هم عليه من الشر . فأفسد على الناسالرأي الذي دعاهم إليه عتبة . فلما بلغ عتبة قول أبي جهل:انتفخ والله سحره . قال:سيعلم مصفر استه [يريد أن يشبهه في الجبن كالرجل الذي يتأنث !] من انتفخ سحره ? أنا أم هو !

قال ابن إسحاق:وقد خرج الأسود بن عبد الأسد المخزومي , وكان رجلا ً شرساً سيئ الخلق , فقال:أعاهد الله لأشربن من حوضهم أو لأهدمنه أو لأموتن دونه . فلما خرج خرج إليه حمزة بن عبد المطلب - رضي الله

عنه - فلما التقيا ضربه حمزة فأطنّ قدمه [أي أطارها] بنصف ساقه . وهو دون الحوض . فوقع على ظهره تشخب رجله دماً نحو أصحابه ; ثم حبا إلى الحوض حتى اقتحم فيه يريد - زعم - أن يبر يمينه , واتبعه حمزة , فضربه حتى قتله في الحوض !

ثم خرج بعده عتبة بن ربيعة , بين أخيه شيبة بن ربيعة وابنه الوليد بن عتبة , حتى إذا فصل من الصف دعا إلى المبارزة , فخرج إليه فتية من الأنصار ثلاثة , وهم عوف ومعوذ ابنا الحارث وأمهما عفراء , ورجل آخر يقال:هو عبد الله بن رواحة . فقالوا من أنتم ? فقالوا:رهط من الأنصار , قالوا:ما لنا بكم من حاجة [وقال ابن إسحاق:إن عتبة قال للفتية من الأنصار حين انتسبوا إليه:أكفاء كرام , إنما نريد قومنا] ثم نادى مناديهم:يا محمد أخرج إلينا أكفاءنا من قومنا . فقال رسول الله [ص] . " قم يا عبيدة ابن الحارث , قم يا حمزة , قم يا علي " . فلما قاموا ودنوا منهم قالوا:من أنتم ? قال عبيدة:عبيدة ? وقال حمزة:حمزة ! وقال علي:علي ! قالوا . نعم أكفاء كرام ! فبارز عبيدة , وكان أسن القوم , عتبة ابن ربيعة , وبارز حمزة شيبة بن ربيعة , وبارز علي الوليد بن عتبة . فأما حمزة فلم يمهل شيبة أن قتله , وأما علي فلم يمهل الوليد أن قتله . واختلف عبيدة وعتبة بينهما ضربتين كلاهما أثبت صاحبه [أي جرحه جرحاً لا يملك معه الحركة] وكر حمزة وعلي بأسيافهما على عتبة فذففا عليه [أي أجهزا عليه] واحتملا صاحبهما فحازاه إلى أصحابه .

قال ابن إسحاق:ثم تزاحف الناس , ودنا بعضهم من بعض . وقد أمر رسول الله [ص] أصحابه ألا يحملوا حتى يأمرهم . قال:" إن اكتنفكم القوم فانضحوهم عنكم بالنبل " . . ثم عدل رسول الله [ص] الصفوف ورجع إلى العريش , فدخله ومعه فيه أبو بكر ليس معه فيه غيره . ورسول الله [ص] يناشد ربه ما وعده من النصر , ويقول فيما يقول:" اللهم إن نهلك هذه العصابة اليوم لا تعبد " وأبو بكر يقول:يا نبي الله بعض مناشدتك ربك , فإن الله منجز لك ما وعدك .

وفي إمتاع الأسماع للمقريزي:أن عبد الله بن رواحة قال لرسول الله [ص] يا رسول الله إني أشير عليك - ورسول الله أعظم وأعلم من أن يشار عليه - إن الله أجل وأعظم من أن ينشد وعده ! فقال رسول الله [ص] " يا ابن رواحة , ألا أنشد الله وعده ? إن الله لا يخلف الميعاد " .

قال ابن إسحاق:وقد خفق رسول الله [ص] خفقة وهو في العريش , ثم انتبه , فقال:" أبشر يا أبا بكر , أتاك نصر الله . هذا جبريل آخذاً بعنان فرس يقوده , على ثناياه النقع " [يعني الغبار] .

وقد رمي مهجع مولى عمر بن الخطاب بسهم فقتل , فكان أول قتيل من المسلمين رحمه الله . ثم رمي حارثة بن سراقة أحد بني عدي بن النجار - وهو يشرب من الحوض - بسهم , فأصاب نحره , فقتل رحمه الله .

ثم خرج رسول الله [ص] إلى الناس فحرضهم وقال:" والذي نفس محمد بيده , لا يقاتلهم اليوم رجل , فيقتل , صابراً محتسباً مقبلا ً غير مدبر , إلا أدخله الله الجنة " . فقال عمير بن الحمام أخو بني سلمة , وفي يده ثمرات يأكلهن:بخ بخ [كلمة تقال للإعجاب] أفما بيني وبين أن أدخل الجنة إلا أنيقتلني هؤلاء ? ثم قذف التمرات من يده , وأخذ سيفه , فقاتل القوم حتى قتل رحمه الله تعالى .

قال ابن إسحاق:وحدثني عاصم بن عمر بن قتادة , أن عوف بن الحارث - وهو ابن عفراء - قال:يا رسول الله , ما يضحك الرب من عبده ? قال:" غمسه يده في العدو حاسراً " فنزع درعاً كانت عليه , فقذفها , ثم أخذ سيفه فقاتل القوم حتى قتل رحمه الله .

قال ابن إسحاق:وحدثني محمد بن مسلم بن شهاب الزهري , عن عبد الله بن ثعلبة بن صعير العذري , حليف بني زهرة , أنه حدثه , أنه لما التقى الناس , ودنا بعضهم من بعض , قال أبو جهل بن هشام:اللهم , أقطعنا للرحم وآتانا بما لا يعرف , فأحِنه الغداة ! فكان هو المستفتح .

قال ابن إسحاق:ثم إن رسول الله [ص] أخذ حفنة من الحصباء

فاستقبل بها قريشاً , ثم قال:" شاهت الوجوه ! " ثم نفحهم بها . وأمر أصحابه فقال:" شدوا " فكانت الهزيمة . فقتل الله تعالى من قتل من صناديد قريش , وأسر من أسر من أشرافهم . .

فلما وضع القوم أيديهم يأسرون , ورسول الله [ص] في العريش , وسعد بن معاذ قائم على باب العريش الذي فيه رسول الله [ص] متوشحاً السيف , في نفر من الأنصار يحرسون رسول الله [ص] يخافون عليه كرّة العدو ; ورأى رسول الله [ص] فيما ذكر لي - في وجه سعد الكراهية لما يصنع الناس ; فقال له رسول الله [ص]:" والله لكأنك يا سعد تكره ما يصنع القوم ! " قال:أجل والله يا رسول الله ; كانت أول وقعة أوقعها الله بأهل الشرك . فكان الإثخان في القتل أحب إلي من استبقاء الرجال !

قال ابن إسحاق:وحدثني العباس بن عبد الله بن معبد ; عن بعض أهله ; عن ابن عباس رضي الله عنهما . أن النبي [ص] قال لأصحابه يومئذ:" إني قد عرفت أن رجالا ً من بني هاشم وغيرهم قد أخرجوا كرهاً لا حاجة لهم بقتالنا , فمن لقي منكم أحداً من بني هاشم فلا يقتله , ومن لقي أبا البختري بن هشام بن الحارث بن أسد فلا يقتله , ومن لقي العباس بن عبد المطلب عم رسول الله [ص] فلا يقتله , فإنه إنما أخرج مستكرهاً " قال:فقال أبو حذيفة [ابن عتبة بن ربيعة]:أنقتل آباءنا وأبناءنا وإخواننا وعشيرتنا ونترك العباس ?! والله لئن لقيته لألحمنه السيف ! قال:فبلغت رسول الله [ص] فقال لعمر بن الخطاب:" يا أبا حفص " قال عمر:والله إنه لأول يوم كناني فيه رسول الله [ص] بأبي حفص - " أيضرب وجه عم رسول الله [ص] بالسيف ? " فقال عمر:يا رسول الله دعني فلأضرب عنقه بالسيف ! فوالله لقد نافق ! فكان أبو حذيفة يقول:ما أنا بآمن من تلك الكلمة التي قلت يومئذ ; ولا أزال منها خائفاً إلا أن تكفرها عني الشهادة - فقتل يوم اليمامة [في حروب الردة] شهيداً .

قال ابن هشام:وإنما نهى رسول الله [ص] عن قتل أبي البختري لأنه كان أكف القوم عن رسول الله [ص] وهو بمكة , وكان لا يؤذيه ولا يبلغه عنه شيء يكرهه , وكان ممن قام في نقض الصحيفة التي كتبت قريش على بني هاشم وبني المطلب . . . [وقد قتل لأنه رفض أن يستأسر] . . .

قال ابن إسحاق:حدثني يحيى بن عباد بن عبدالله بن الزبير عن أبيه قال:كان أمية بن خلف لي صديقاً بمكة . وكان اسمي عبد عمرو , فتسميت حين أسلمت عبدالرحمن ونحن بمكة . فكان يلقاني إذ نحن بمكة فيقول:يا عبد عمرو , أرغبت عن اسم سماكه أبواك ? فأقول:نعم ! فيقول:فإني لا أعرف الرحمن ,فاجعل بيني وبينك شيئا ادعوك به , أما أنت فلا تجيبني باسمك الأول , وأما أنا فلا أدعوك بما لا أعرف ! قال فكان إذا دعاني يا عبد عمرو لم أجبه . قال:فقلت له:يا أبا علي , اجعل ما شئت . قال:فأنت عبدالإله . قال:قلت:نعم . قال:فكنت إذا مررت به قال:يا عبد الإله , فأجيبه , فأتحدث معه . حتى إذا كان يوم بدر مررت به وهو واقف مع ابنه علي ابن أمية آخذ بيده ; ومعي أدراع لي قد استلبتها فأنا أحملها . فلما رآني قال لي:يا عبدعمرو , فلم أجبه . فقال:يا عبد الإله , فقلت:نعم , قال:هل لك فيّ ? فأنا خير لك من هذه الأدراع التي معك !:قال:قلت:نعم ! ها الله إذن . قال:فطرحت الأدراع من يدي , وأخذت بيده ويد ابنه [يعني أسيرين] وهو يقول:ما رأيت كاليوم قط ! أما لكم حاجة في اللبن ? [يعني أن من أسرني افتديت منه بإبل كثيرة اللبن !] ثم خرجت أمشي بهما .

قال ابن إسحاق:حدثني عبدالواحد بن أبي عون , عن سعيد بن إبراهيم , عن أبيه , عن عبدالرحمن ابن عوف - رضي الله عنه - قال:قال لي أمية بن خلف , وأنا بينه وبين ابنه , آخذ بأيديهما:يا عبد الإله , من الرجل منكم المعلم بريشة نعامة في صدره ? قال . قلت:حمزة بن عبدالمطلب . قال:ذاك الذي فعل بنا الأفاعيل . . قال عبدالرحمن:فوالله إني لأقودهما إذ رآه بلال معي , وكان هو الذي يعذب بلالا ً بمكة على ترك الإسلام ,

فيخرجه إلى رمضاء مكة إذا حميت , فيضجعه على ظهره , ثم يأمر بـ الصخرة العظيمة فتوضع على صدره , ثم يقول:لا تزال هكذا أو تفارق دين محمد , فيقول بلال:أحد . أحد . قال:فلما رآه قال:رأس الكفر أمية بن خلف لا نجوت إن نجا ! قال:قلت:أي بلال , أبأسيري ? قال:لا نجوت إن نجا ! قال:قلت:أتسمع يا ابن السوداء ? قال:لا نجوت إن نجا ! قال:ثم صرخ بأعلى صوته:يا أنصار الله , رأس الكفر أمية بن خلف , لا نجوت إن نجا ! قالوا:فأحاطوا بنا , حتى جعلونا في مثل المسكة [أي السوار من عاج] وأنا أذب عنه قال:فأخلف رجل السيف فضرب رجل ابنه فوقع , وصاح أمية صيحة ما سمعت بمثلها قط . قال:فقلت:انج بنفسك ولا نجاء بك . فوالله ما أغني عنك شيئاً . قال:فهبروهما بأسيافهم حتى فرغوا منهما . . فكان عبدالرحمن يقول:يرحم الله بلالاً , ذهبت أدراعي . وفجعني بأسيري !

قال ابن إسحاق:فلما فرغ رسول الله [ص] من عدوه أمر بأبي جهل بن هشام أن يلتمس في القتلى , وكان أول من لقي ابا جهل - كما حدثني ثور بن زيد , عن عكرمة , عن ابن عباس , وعبدالله بن أبي بكر أيضاً ; قد حدثني ذلك - قالا:قال معاذ بن عمرو بن الجموح أخو بني سلمة:سمعت القوم وأبو جهل في مثل الحرجة [أي الشجر الملتف] وهم يقولون:أبو الحكم لا يخلص إليه , قال:فلما سمعتها جعلته من شأني , فصمدت نحوه , فلما أمكنني حملت عليه , فضربته ضربة أطنت قدمه بنصف ساقه , فوالله ما شبهتها - حين طاحت - إلا بالنواة تطيح من تحت مرضخة النوى حين يضرب بها , قال:وضربني ابنه عكرمة على عاتقي فطرح يدي . فتعلقت بجلدة من جنبي , وأجهضني القتال عنه , فلقد قاتلت عامة يومي , وإني لأسحبها خلفي , فلما آذتني وضعت عليها قدمي ثم تمطيت بها عليها حتى طرحتها .

ثم مر بأبي جهل , وهو عقير , معوذ ابن عفراء , فضربه حتى أثبته فتركه وبه رمق , وقاتل معوذ حتى قتل , فمر عبدالله بن مسعود بأبي جهل - حين أمر رسول الله [ص] أن يلتمس في القتلى - وقد قال لهم

رسول الله [ص] فيما بلغني:" انظروا إن خفي عليكم في القتلى إلى أثر جرح في ركبته , فإني ازدحمت يوماً أنا وهو على مأدبة لعبدالله بن جدعان , ونحن غلامان , وكنت أشف منه بيسير , فدفعته , فوقع على ركبتيه , فجحش في إحداهما جحشاً لم يزل أثره به " قال عبدالله بن مسعود رضي الله عنه . فوجدتهبآخر رمق , فعرفته فوضعت رجلي على عنقه , قال وقد كان خبث بي مرة بمكة فآذاني ولكزني [أي قبض عليّ ولزمني] ثم قلت له:هل أخزاك الله يا عدو الله ? قال:وبماذا أخزاني ? أأعمد من رجل قتلتموه [يريد أكبر من رجل قتلتموه ?] أخبرني لمن الدائرة اليوم ? قال:قلت لله ورسوله .

قال ابن إسحاق:وزعم رجال من بني مخزوم أن ابن مسعود كان يقول:قال لي:لقد ارتقيت مرتقى صعباً يا رويعي الغنم . قال:ثم احتززت رأسه ; ثم جئت به رسول الله [ص] فقلت:يا رسول الله , هذا رأس عدو الله أبي جهل . قال:فقال رسول الله [ص]:" الله الذي لا إله غيره " ثم ألقيت رأسه بين يدي رسول الله [ص] فحمد الله .

قال ابن هشام:وحدثني أبو عبيدة وغيره من أهل العلم بالمغازي , أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال لسعيد بن العاص - ومر به - إني أراك كأن في نفسك شيئاً . أراك تظن أني قتلت أباك ! إني لو قتلته لم أعتذر إليك من قتله ; ولكني قتلت خالي العاص بن هشام ابن المغيرة . فأما أبوك فإني مررت به , وهو يبحث بحث الثور بروقه [أي بقرنه] فحدت عنه . وقصد له بن عمه علي فقتله !

قال ابن إسحاق:وحدثني يزيد بن رومان , عن عروة بن الزبير , عن عائشة رضي الله عنها . قالت:لما أمر رسول الله [ص] بالقتلى أن يطرحوا في القليب طرحوا فيه , إلا ما كان من أمية بن خلف . فإنه انتفخ في درعه فملأها , فذهبوا ليحركوه . فتزايل لحمه , فأقروه وألقوا عليه ما غيبه من التراب والحجارة , فلما ألقاهم في القليب , وقف عليهم رسول الله [ص] فقال:" يا أهل القليب هل وجدتم ما وعدكم

ربكم حقاً , فإني قد وجدت ما وعدني ربي حقاً " قالت:فقال له أصحابه:يا رسول الله , أتكلم قوماً موتي ? فقال لهم:" لقد علموا أن ما وعدهم ربهم حق " قالت عائشة:والناس يقولون: لقد سمعوا ما قلت لهم وإنما قال لهم رسول الله [ص]:" لقد علموا " .

قال ابن إسحاق:ولما أمر رسول الله [ص] بهم أن يلقوا في القليب , أخذ عتبة بن ربيعة فسحب إلى القليب , فنظر رسول الله [ص] - فيما بلغني - في وجه أبي حذيفة بن عتبة , فإذا هو كئيب قد تغير . فقال:" يا أبا حذيفة لعلك قد دخلك من شأن أبيك شيء " أو كما قال [ص] فقال:لا والله يا رسول الله , ما شككت في أبي ولا في مصرعه , ولكنني كنت أعرف من أبي رأياً وحلماً وفضلا ً , فكنت أرجو أن يهديهه ذلك إلى الإسلام , فلما رأيت ما أصابه , وذكرت ما مات عليه من الكفر بعد الذي كنت أرجو له , أحزنني ذلك . فدعا له رسول الله [ص] بخير , وقال له خيراً . .

ثم إن رسول الله [ص] أمر بما في العسكر مما جمع الناس فجمع , فاختلف المسلمون فيه . فقال من جمعه:هو لنا . وقال الذين كانوا يقاتلون العدو ويطلبونه:والله لولا نحن ما أصبتموه , لنحن شغلنا عنكم القوم حتى أصبتم ما أصبتم . وقال الذين كانوا يحرسون رسول الله [ص] مخافة أن يخالف إليه العدو:والله ما أنتم بأحق به منا , لقد رأينا المتاع حين لم يكن دونه ما يمنعه , ولكنا خفنا على رسول الله [ص] كرة العدو , فقمنا دونه , فما أنتم بأحق به منا .

قال ابن إسحاق:وحدثني عبدالرحمن بن الحارث وغيره من أصحابنا عن سليمان بن موسى , عن مكحول , عن أبي أمامة الباهلي , قال سألت عبادة بن الصامت عن الأنفال . فقال فينا أصحاب بدر نزلت حين اختلفنا في النفل , وساءت فيه أخلاقنا , فنزعه الله من أيدينا , فجعله إلى رسول الله [ص]فقسمه رسول الله [ص] بين المسلمين عن بواء , يقول:على السواء .

قال ابن إسحاق:وحدثني نبيه بن وهب أخو بني عبد الدار أن رسول الله [ص] حين أقبل بالأسارى , فرقهم في أصحابه , وقال ":استوصوا بالأ سارى خيراً " . فكان أبو عزيز بن عمير بن هاشم , أخو مصعب بن عمير لأبيه وأمه , في الأسارى . قال:فقال أبو عزيز:مر بي أخي مصعب بن عمير , ورجل من الأنصار يأسرني , فقال:شد يدك به , فإن أمه ذات متاع لعلها تفديه منك . قال:وكنت في رهط من الأنصار - حين أقبلوا بي من بدر - فكانوا إذا قدموا غداءهم أو عشاءهم خصوني بالخبز وأكلوا التمر , لوصية رسول الله [ص] إياهم بنا , ما تقع في يد رجل منهم كسرة خبز إلا نفحني بها . قال:فأستحيي فأردها على أحدهم , فيردها علي ما يمسها .

قال ابن هشام:وكان أبو عزيز صاحب لواء المشركين ببدر , بعد النضر بن الحارث , فلما قال أخوه مصعب ابن عمير لأبي اليسر - وهو الذي أسره - ما قال , قال له أبو عزيز:يا أخي , هذه وصاتك بي ? فقال له مصعب:إنه أخي دونك . . فسألت أمه عن أغلى ما فدي به قرشي , فقيل لها:أربعة آ لاف درهم , فبعثت بأربعة آلاف درهم , ففدته بها .

قال ابن إسحاق:ثم بعثت قريش في فداء الأسرى .

في هذه الغزوة التي أجملنا عرضها بقدر المستطاع , نزلت سورة الأ نفال . . نزلت تعرض وقائع الغزوة الظاهرة , وتعرض وراءها فعل القدرة المدبرة , وتكشف عن قدر الله وتدبيره في وقائع الغزوة , وفيما وراءها من خط سير التاريخ البشري كله ; وتحدث عن هذا كله بلغة القرآن الفريدة وبأسلوب القرآن المعجز . . وسيأتي تفصيل هذه المعاني في ثنايا استعراض النصوص القرآنية . . فأما الآن فنكتفي باستعراض الخطوط الأساسية في السورة:

إن هنالك حادثاً بعينه في الغزوة يلقي ضوءاً على خط سيرها . ذلك هو ما رواه ابن إسحاق - عن عبادة ابن الصامت - رضي الله عنه , قال:

"فينا أصحاب بدر نزلت حين اختلفنا في النفل , وساءت فيه أخلاقنا , فنزعه الله من أيدينا , فجعله إلى رسول الله [ص] فقسمه رسول الله [ص] - عن بواء [يقول:على السواء] .

هذا الحادث يلقي ضوءا على افتتاح السورة وعلى خط سيرها كذلك:

لقد اختلفوا على الغنائم القليلة في الوقعة التي جعلها الله فرقاناً في مجرى التاريخ البشري إلى يوم القيامة !

ولقد أراد الله - سبحانه - أن يعلمهم , وأن يعلم البشر كلهم من بعدهم أموراً عظاماً . . .

أراد أن يعلمهم ابتداء أن أمر هذه الوقعة أكبر كثيراً من أمر الغنائم التي يختلفون عليها . فسمى يومها: (يوم الفرقان , يوم التقى الجمعان). .

وأراد أن يعلمهم أن هذا الأمر العظيم إنما تم بتدبير الله وقدره , في كل خطوة وفي كل حركة , ليقضي من ورائه أمراً أراده , فلم يكن لهم في هذا النصر وما وراءه من عظائم الأمور يد ولا تدبير , وسواء غنائمه الصغيرة وآثاره الكبيرة , فكلها من فعل الله وتدبيره . إنما أبلاهم فيه بلا ء حسناً من فضله !

وأراد أن يريهم مدى الفرق بين ما أرادوه هم لأنفسهم من الظفر بالعير ; وما أراده الله لهم , وللبشريةكلها من ورائهم من إفلات العير , ولقاء النفير . ليروا على مد البصر مدى ما بين إرادتهم بأنفسهم وإرادة الله بهم ولهم من فرق كبير !

لقد بدأت السورة بتسجيل سؤالهم عن الأنفال وبيان حكم الله فيها وردها إلى الله والرسول ودعوتهم إلى تقوى الله , وإصلاح ذات بينهم - بعدما ساءت أخلاقهم في النفل كما يقول عبادة بن الصامت - ودعوتهم إلى طاعة الله وطاعة الرسول , وتذكيرهم بإيمانهم وهذا مقتضاه . ورسم للمؤمنين صورة موحية تجف لها القلوب:(يسألونك عن الأنفال .

قل:الأنفال لله والرسول . فاتقوا الله , وأصلحوا ذات بينكم , وأطيعوا الله ورسوله , إن كنتم مؤمنين . إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم , وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً وعلى ربهم يتوكلون . الذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون . أولئك هم المؤمنون حقاً , لهم درجات عند ربهم ومغفرة ورزق كريم). .

ثم جعل يذكرهم بأمرهم وتدبيرهم لأنفسهم وتدبير الله لهم , ومدى ما يرونه من واقع الأرض ومدى قدرة الله من ورائه ومن ورائهم: كما أخرجك ربك من بيتك بالحق , وإن فريقاً من المؤمنين لكارهون . يجادلونك في الحق بعد ما تبين , كأنما يساقون إلى الموت وهم ينظرون . وإذ يعدكم الله إحدى الطائفتين أنها لكم , وتودون أن غير ذات الشوكة تكون لكم , ويريد الله أن يحق الحق بكلماته ويقطع دابر الكافرين . ليحق الحق ويبطل الباطل ولو كره المجرمون . .

ثم ذكرهم بما أمدهم به من العون , وما يسره لهم من النصر , وما قدره لهم بفضله من الأجر:(إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أني ممدكم بألف من الملائكة مردفين . وما جعله الله إلا بشرى , ولتطمئن به قلوبكم , وما النصر إلا من عند الله , إن الله عزيز حكيم . إذ يغشيكم النعاس أمنة منه , وينزل عليكم من السماء ماء ليطهركم به , ويذهب عنكم رجز الشيطان , وليربط على قلوبكم ويثبت به الأقدام . إذ يوحي ربك إلى الملائكة أني معكم , فثبتوا الذين آمنوا , سألقي في قلوب الذين كفروا الرعب , فاضربوا فوق الأعناق , واضربوا منهم كل بنان . ذلك بأنهم شاقوا الله ورسوله , ومن يشاقق الله ورسوله فإن الله شديد العقاب . ذلكم فذوقوه , وأن للكافرين عذاب النار).

وهكذا يمضي سياق السورة في هذا المجال ; يسجل أن المعركة بجملتها من صنع الله وتدبيره بقيادته وتوجيهه . بعونه ومدده . بفعله وقدره . له وفي سبيله . . ومن ثم تجريد المقاتلين ابتداء من الأنفال وتقرير أنها لله وللرسول , حتى إذا ردها الله عليهم كان ذلك مَناً منه وفضلا ً .

وكذلك يجردهم من كل مطمع فيها ومن كل مغنم , ليكون جهادهم في سبيله خالصاً له وحده . . فترد أمثال هذه النصوص:

(فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم , وما رميت - إذ رميت - ولكن الله رمى , وليبلي المؤمنين منه بلاء حسناً , إن الله سميع عليم . ذلكم وأن الله موهن كيد الكافرين).

(واذكروا إذ أنتم قليل مستضعفون في الأرض تخافون أن يتخطفكم الناس , فآواكم وأيدكم بنصره , ورزقكم من الطيبات لعلكم تشكرون). .

(واعلموا أنما غنمتم من شيء فأن لله خمسه وللرسول ولذي القربى و اليتامى والمساكين وابن السبيل . إن كنتم آمنتم بالله وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان يوم التقى الجمعان . والله على كل شيء قدير . إذ أنتم بالعدوة الدنيا وهم بالعدوة القصوى , والركب أسفل منكم , ولو تواعدتم لاختلفتم في الميعاد , ولكن ليقضي الله أمراً كان مفعولا ً . ليهلك من هلك عن بينة ويحيا من حي عن بينة , وإن الله لسميع عليم . إذ يريكهم الله في منامكقليلا ً , ولو أراكهم كثيراً لفشلتم ولتنازعتم في الأمر , ولكن الله سلم , إنه عليم بذات الصدور . وإذ يريكموهم إذا التقيتم في أعينكم قليلا ً , ويقللكم في أعينهم , ليقضي الله أمراً كان مفعولا ً , وإلى الله ترجع الأمور). .

ولأن المعركة - كل معركة يخوضها المؤمنون - من صنع الله وتدبيره . بقيادته وتوجيهه . بعونه ومدده . بفعله وقدره . له وفي سبيله . تتكرر الدعوة في السورة إلى الثبات فيها , والمضي معها , والاستعداد لها , والا طمئنان إلى تولي الله فيها , والحذر من المعوقات عنها من فتنة الأموال والأولاد , والاستمساك بآدابها , وعدم الخروج لها بطراً ورئاء الناس . ويؤمر رسول الله [ص] بتحريض المؤمنين عليها . . وترد أمثال هذه النصوص في بيان هذه المعاني:

(يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفاً فلا تولوهم الأدبار . ومن

يولهم يومئذ دبره - إلا متحرفاً لقتال أو متحيزاً إلى فئة - فقد باء بغضب من الله , ومأواه جهنم وبئس المصير). .

(يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم , واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه , وأنه إليه تحشرون). .

(يا أيها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول وتخونوا أماناتكم وأنتم تعلمون . واعلموا أنما أموالكم وأولادكم فتنة , وأن الله عنده أجر عظيم).

(يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون . وأطيعوا الله ورسوله , ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم , واصبروا إن الله مع الصابرين . ولا تكونوا كالذين خرجوا من ديارهم بطراً ورئاء الناس , ويصدون عن سبيل الله , والله بما يعملون محيط). .

(وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم , وما تنفقوا من شيء في سبيل الله يوف إليكم , وأنتم لا تظلمون). . يا أيها النبي حرض المؤمنين على القتال , إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين , وإن يكن منكم مائة يغلبوا الفاً من الذين كفروا بأنهم قوم لا يفقهون . . . . وفي ذات الوقت الذي تتكرر الأوامر بالتثبيت في المعركة يتجه السياق إلى توضيح معالم العقيدة وتعميقها ورد كل أمر وكل حكم وكل توجيه إليها . فلا تبقى الأوامر معلقة في الفراغ , إنما ترتكز على ذلك الأصل الواضح الثابت العميق:

أ في مسألة الأنفال يردون إلى تقوى الله , والوجل عند ذكره , وتعلق الإ يمان بطاعة الله وطاعة رسوله: يسألونك عن الأنفال . قل الأنفال لله و الرسول فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم وأطيعوا الله ورسوله , إن كنتم مؤمنين . إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم , وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً وعلى ربهم يتوكلون . . .الذين يقيمون الصلاة

ومما رزقناهم ينفقون أولئك هم المؤمنون حقاً , لهم درجات عند ربهم ومغفرة ورزق كريم .

ب وفي خطة المعركة يردون إلى قدر الله وتدبيره , وتصريفه لمراحلها جميعاً: (إذ أنتم بالعدوة الدنيا وهم بالعدوة القصوى , والركب أسفل منكم , ولو تواعدتم لاختلفتم في الميعاد , ولكن ليقضي الله أمراً كان مفعولا ً . .).

ج وفي أحداثها ونتائجها يردون إلى قيادة الله لها , ومدده وعونه فيها: (فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم , وما رميت إذ رميت , ولكن الله رمى , وليبلي المؤمنين منه بلاء حسناً . . .). .

د وفي الأمر بالثبات فيها يردون إلى ما يريده الله لهم بها من حياة , وإلى قدرته على الحيلولة بينهم وبين قلوبهم , وإلى تكفله بنصر من يتوكل عليه:(يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم , واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه , وأنه إليه تحشرون). .(يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون). .

ه وفي تحديد الهدف من وراء المعركة يقرر: (وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله). . (ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض). .(وإذ يعدكم الله إحدى الطائفتين أنها لكم , وتودون أن غير ذات الشوكة تكون لكم ويريد الله أن يحق الحق بكلماته ويقطع دابر الكافرين , ليحق الحق ويبطل الباطل , ولو كره المجرمون). .

و وفي تنظيم العلاقات في المجتمع المسلم وبينه وبين غيره من المجتمعات الأخرى تبرز العقيدة قاعدة للتجمع وللتميز , وتجعل القيم العقيدية هي التي تقدم في الصف أو تؤخر: إن الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله والذين آووا ونصروا أولئك بعضهم أولياء بعض , والذين آمنوا ولم يهاجروا ما لكم من ولايتهم من

شيء حتى يهاجروا , وإن استنصروكم في الدين فعليكم النصر - إلا على قوم بينكم وبينهم ميثاق , والله بما تعملون بصير . والذين كفروا بعضهم أولياء بعض ; إلا تفعلوه تكن فتنة في الأرض وفساد كبير . والذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله والذين آووا ونصروا أولئك هم المؤمنون حقاً لهم مغفرة ورزق كريم . والذين آمنوا من بعد وهاجروا وجاهدوا معكم فأولئك منكم وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله , إن الله بكل شيء عليم . . ويبرز في سياق السورة بصفة خاصة - إلى جانب خط العقيدة - خط آخر هو خط الجهاد , وبيان قيمته الإيمانية والحركية . وتجريده كذلك من كل شائبة شخصية ; وإعطاؤه مبرراته الذاتية العليا التي ينطلق بها المجاهدون في ثقة وطمأنينة واستعلاء إلى آخر الزمان . . والسورة بجملتها تتضمن هذا الإ يحاء . فنكتفي ببعض النصوص في هذا التعريف , وندع تفصيلها إلى موضعه عند مواجهة النصوص: يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفاً فلا تولوهم الأدبار . ومن يولهم يومئذ دبره إلا متحرفاً لقتال أو متحيزاً إلى فئة فقد باء بغضب من الله , ومأواه جهنم وبئس المصير). إن شر الدواب عند الله الذين كفروا فهم لا يؤمنون . الذين عاهدت منهم ثم ينقضون عهدهم في كل مرة , وهم لا يتقون . فإما تثقفنهم في الحرب فشرد بهم من خلفهم لعلهم يذكرون). وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم , وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم , وما تنفقوا من شيء في سبيل الله يوف إليكم , وأنتم لا تظلمون). . يا أيها النبي حرض المؤمنين على القتال , إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مئتين , وإن يكن منكم مئة يغلبوا ألفاً من الذين كفروا بأنهم قوم لا يفقهون . . ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض , تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة . والله عزيز حكيم). . والذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله و الذين آووا ونصروا أولئك هم المؤمنون حقاً , لهم مغفرة ورزق كريم). . وأخيراً فإن السورة تنظم ارتباطات الجماعة المسلمة على أساس العقيدة كما أسلفنا ; وبيان الأحكام التي تتعامل بها مع غيرها من

الجماعات الأخرى في الحرب والسلم - إلى هذه الفترة التي نزلت فيها السورة - وأحكام الغنائم والمعاهدات وتضع خطوطاً أصيلة في تنظيم تلك الروابط وهذه الأحكام في مثل هذه النصوص الواضحة المحددة:

سورة التوبة

هذه السورة مدنية من أواخر ما نزل من القرآن - إن لم تكن هي آخر ما نزل من القرآن - ومن ثم قد تضمنت أحكاما نهائية في العلاقات بين الأمة المسلمة وسائر الأمم في الأرض ; كما تضمنت تصنيف المجتمع المسلم ذاته , وتحديد قيمه ومقاماته , وأوضاع كل طائفة فيه وكل طبقة من طبقاته , ووصف واقع هذا المجتمع بجملته وواقع كل طائفة منه وكل طبقة وصفا دقيقا مصورا مبينا .

والسورة - بهذا الاعتبار - ذات أهمية خاصة في بيان طبيعة المنهج الحركي للإسلام ومراحله وخطواته - حين تراجع الأحكام النهائية التي تضمنتها مع الأحكام المرحلية التي جاءت في السور قبلها - وهذه المراجعة تكشف عن مدى مرونة ذلك المنهج وعن مدى حسمه كذلك . وبدون هذه المراجعة تختلط الصور والأحكام والقواعد , كما يقع كلما انتزعت الآيات التي تتضمن أحكاما مرحلية فجعلت نهائية ; ثم أريد للآيات التي تتضمن الأحكام النهائية أن تفسر وتؤول لتطابق تلك الأحكام المرحلية ; وبخاصة في موضوع الجهاد الإسلامي , وعلاقات المجتمع المسلم بالمجتمعات الأخرى . مما نرجو أن يوفقنا الله لإيضاحه وبيانه في هذا التقديم ; وفي ثنايا استعراض النصوص القرآنية للسورة .

ومن مراجعة نصوص السورة مراجعة موضوعية ; ومراجعة ما جاء في الروايات المأثورة عن أسباب النزول وملابساته ; ومراجعة أحداث السيرة النبوية كذلك . . يتبين أن السورة بجملتها نزلت في العام التاسع من الهجرة . . ولكنها لم تنزل دفعة واحدة . . ومع أننا لا نملك الجزم ب

المواقيت الدقيقة التي نزلت فيها مقاطع السورة في خلال العام التاسع , إلا أنه يمكن الترجيح بأنها نزلت في ثلاث مراحل . . المرحلة الأولى منها كانت قبل غزوة تبوك في شهر رجب من هذا العام . والمرحلة الثانية كانت في أثناء الاستعداد لهذه الغزوة ثم في ثناياها . والمرحلة الثالثة كانت بعد العودة منها . أما مقدمات السورة من أولها إلى نهاية الآية الثامنة والعشرين منها فقد نزلتمتأخرة في نهاية السنة التاسعة قبيل موسم الحج في ذي القعدة أو في ذي الحجة . . وهذا - على الإجمال - هو كل ما يمكن ترجيحه والاطمئنان إليه .

وقد تضمنت السورة في المقطع الأول منها - من أولها إلى ختام الآية الثامنة والعشرين - تحديدا للعلاقات النهائية بين المعسكر الإسلامي و المشركين عامة في الجزيرة ; مع إبراز الأسباب الواقعية والتاريخية و العقيدية التي يقوم عليها هذا التحديد , بالأسلوب القرآني الموحي المؤثر , وفي تعبيرات قوية الإيقاع حاسمة الدلالة , عميقة التأثير ; هذه نماذج منها:

براءة من الله ورسوله إلى الذين عاهدتم من المشركين . فسيحوا في الأرض أربعة أشهر , واعلموا أنكم غير معجزي الله , وأن الله مخزي الكافرين . وأذان من الله ورسوله إلى الناس يوم الحج الأكبر أن الله بريء من المشركين ورسوله , فإن تبتم فهو خير لكم , وإن توليتم فاعلموا أنكم غير معجزي الله , وبشر الذين كفروا بعذاب أليم . إلا الذين عاهدتم من المشركين , ثم لم ينقصوكم شيئا ولم يظاهروا عليكم أحدا , فأتموا إليهم عهدهم إلى مدتهم إن الله يحب المتقين , فإذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم , وخذوهم واحصروهم واقعدوا لهم كل مرصد , فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم , إن الله غفور رحيم . وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله , ثم أبلغه مأمنه ذلك بأنهم قوم لا يعلمون .

كيف يكون للمشركين عهد عند الله وعند رسوله - إلا الذين عاهدتم عند

المسجد الحرام ؟ - فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم , إن الله يحب المتقين . كيف وإن يظهروا عليكم لا يرقبوا فيكم إلا ولا ذمة , يرضونكم بأفواههم وتأبى قلوبهم وأكثرهم فاسقون . اشتروا بآيات الله ثمنا قليلا فصدوا عن سبيله , إنهم ساء ما كانوا يعملون . لا يرقبون في مؤمن إلا ولا ذمة , وأولئك هم المعتدون . فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فإخوانكم في الدين , ونفصل الآيات لقوم يعلمون . وإن نكثوا أيمانهم من بعد عهدهم وطعنوا في دينكم فقاتلوا أئمة الكفر , إنهم لا أيمان لهم لعلهم ينتهون . ألا تقاتلون قوما نكثوا أيمانهم , وهموا بإخراج الرسول وهم بدأوكم أول مرة ؟ أتخشونهم ؟ فالله أحق أن تخشوه إن كنتم مؤمنين . قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ويخزهم , وينصركم عليهم , ويشف صدور قوم مؤمنين , ويذهب غيظ قلوبهم , ويتوب الله على من يشاء والله عليم حكيم . أم حسبتم أن تتركوا ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ولم يتخذوا من دون الله ولا رسوله ولا المؤمنين وليجة ؟ والله خبير بما تعملون . . . .

. . .(يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا آباءكم وإخوانكم أولياء - إن استحبوا الكفر على الإيمان - ومن يتولهم منكم فأولئك هم الظالمون . قل:إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم , وأموال اقترفتموها , وتجارة تخشون كسادها , ومساكن ترضونها . . أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله . . فتربصوا حتى يأتي الله بأمره , والله لا يهدي القوم الفاسقين). .

. . .(يا أيها الذين آمنوا إنما المشركون نجس , فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا , وإن خفتم عيلة فسوف يغنيكم الله من فضله - إن شاء - إن الله عليم حكيم). .

وظاهر من الأسلوب القرآني في الآيات التي اقتطفناها هنا , وفي آيات المقطع كله ; ومن القوة في التحضيضوالتأليب على قتال المشركين ومقاطعتهم في الجزيرة قاطبة , مدى ما كان يعتلج في نفوس الجماعة

المسلمة - أو فريق منها على الأقل له وزنه - من التحرج والتخوف و التردد في اتخاذ هذه الخطوة الحاسمة في ذلك الحين , بسبب عوامل شتى نرجو أن نكشف عنها في هذا التقديم وفي أثناء استعراض النصوص القرآنية قريبا .

أما المقطع الثاني - في السورة - فقد تضمن تحديدا للعلاقات النهائية كذلك بين المجتمع المسلم وأهل الكتاب عامة ; مع بيان الأسباب العقيدية والتاريخية والواقعية التي تحتم هذا التحديد ; وتكشف كذلك عن طبيعة الإسلام وحقيقته المستقلة ; وعن انحراف أهل الكتاب عن دين الله الصحيح عقيدة وسلوكا ; بما يجعلهم - في اعتبار الإسلام - ليسوا على دين الله الذي نزله لهم ; والذي به صاروا أهل كتاب:

(قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب , حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون .)

(وقالت اليهود عزير ابن الله , وقالت النصارى المسيح ابن الله . . ذلك قولهم بأفواههم يضاهئون قول الذين كفروا من قبل . . قاتلهم الله ! أنى يؤفكون ? اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله والمسيح ابن مريم , وما أمروا إلا ليعبدوا إلها واحدا , لا إله إلا هو , سبحانه عما يشركون .)

(يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم , ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون . هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله , ولو كره المشركون .)

(يا أيها الذين آمنوا إن كثيرا من الأحبار والرهبان ليأكلون أموال الناس بـ الباطل ويصدون عن سبيل الله),

(والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم . يوم يحمى عليها في نار جهنم فتكوى بها جباههم

وجنوبهم وظهورهم . . هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون).

وظاهر كذلك من الأسلوب القرآني في هذا المقطع أنه مواجهة لما كان في النفوس يومذاك من تهيب وتردد في مواجهة أهل الكتاب عامة - أو الغالبية العظمى منهم - بهذا اللون من العلاقات التي تنص عليها الآية الأ ولى في المقطع . . وحقيقة إن المقصود - كان - بالمواجهة ابتداء هم الروم وحلفاؤهم من نصارى العرب في الشام وما وراءها ; وهذا وحده كان يكفي للتردد والتهيب ; لما كان للروم من بأس وسمعة تاريخية بين أهل الجزيرة . . ولكن النص عام في أهل الكتاب عامة ; ممن تنطبق عليهم الأوصاف الواردة في الآية كما سنفصل - إن شاء الله - عند مواجهة النصوص .

وفي المقطع الثالث يبدأ النعي على المتثاقلين الذين دعوا إلى التجهز للغزوة فتثاقلوا إلى الأرض وتكاسلوا عن النفير . . وهؤلاء ليسوا كلهم من المنافقين كما سيتبين , مما يشي بمشقة هذه الخطوة , وهذه الغزوة , على النفوس في ذلك الحين للأسباب التي نرجو أن نفصلها - بإذن الله - ونقف عندها في حينها:

يا أيها الذين آمنوا ما لكم إذا قيل لكم:انفروا في سبيل الله اثاقلتم إلى ا لأرض ? أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة ? فما متاع الحياة الدنيا في ا لآخره إلا قليل . إلا تنفروا يعذبكم عذابا أليما , ويستبدل قوما غيركم , و لا تضروه شيئا . والله على كل شيء قدير . إلا تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ثاني اثنين إذ هما في الغار , إذ يقول لصاحبه:لا تحزن إن الله معنا , فأنزل الله سكينته عليه , وأيده بجنود لم تروها وجعل كلمة الذين كفروا السفلى , وكلمة الله هي العليا , والله عزيز حكيم . انفروا خفافا وثقالا وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله , ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون .

وظاهر من صيغ التأنيب والتهديد والتوكيد المكررة في هذا المقطع ; ومن تذكير الذين آمنوا بنصر الله للرسول [ص] إذ أخرجه الذين كفروا ;

دون أن يكون لأحد من البشر مشاركة في هذا النصر ; ومن الأمر الجازم لهم بأن ينفروا خفافا وثقالا . . ظاهر من هذا كله ما كان في الموقف من مشقة ومن تخلف ومن قعود ومن تهيب ومن تردد , اقتضى هذا الحشد من التأنيب والتهديد والتوكيد والتذكير والأمر الشديد . .

ثم يجيء المقطع الرابع في سياق السورة - وهو أطول مقاطعها , وهو يستغرق أكثر من نصفها - في فضح المنافقين وأفاعيلهم في المجتمع المسلم , ووصف أحوالهم النفسية والعملية , ومواقفهم في غزوة تبوك وقبلها وفي أثنائها وما تلاها , وكشف حقيقة نواياهم وحيلهم ومعاذيرهم في التخلف عن الجهاد وبث الضعف والفتنة والفرقة في الصف , وإيذاء رسول الله [ص] والخلص من المؤمنين . يصاحب هذا الكشف تحذير الخلصاء من المؤمنين من كيد المنافقين , وتحديد العلاقات بين هؤلاء وهؤلاء , والمفاصلة بين الفريقين وتمييز كل منهما بصفاته وأعماله . . وهذا القطاع يؤلف في الحقيقة جسم السورة ; ويتجلى من خلاله كيف عاد النفاق بعد فتح مكة فاستشرى بعد ما كاد أن يتلاشى من المجتمع المسلم قبيل الفتح , مما سنكشف عن أسبابه في فقرة تالية . ولن نملك أن نستعرض هنا هذا القطاع بطوله فنكتفي بفقرات منه تدل على طبيعته:

(لو كان عرضا قريبا وسفرا قاصدا لاتبعوك , ولكن بعدت عليهم الشقة , وسيحلفون بالله لو استطعنا لخرجنا معكم , يهلكون أنفسهم والله يعلم إنهم لكاذبون . . .).

. . .(ولو أرادوا الخروج لأعدوا له عدة , ولكن كره الله انبعاثهم فثبطهم , وقيل:اقعدوا مع القاعدين . لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلا خبالا , ولأوضعوا خلالكم يبغونكم الفتنة وفيكم سماعون لهم . . والله عليم بالظالمين . لقد ابتغوا الفتنة من قبل , وقلبوا لك الأمور حتى جاء الحق وظهر أمر الله وهم كارهون).

(ومنهم من يقول:ائذن لي ولا تفتني , ألا في الفتنة سقطوا , وإن جهنم

لمحيطة بالكافرين . إن تصبك حسنة تسؤهم , وإن تصبك مصيبة يقولوا:قد أخذنا أمرنا من قبل , ويتولوا وهم فرحون). . .

. . .(ويحلفون بالله إنهم لمنكم , وما هم منكم , ولكنهم قوم يفرقون . لو يجدون ملجأ أو مغارات أو مدخلا لولوا إليه وهم يجمحون).

(ومنهم من يلمزك في الصدقات فإن أعطوا منها رضوا , وإن لم يعطوا منها إذا هم يسخطون . ولو أنهم رضوا ما آتاهم الله ورسوله , وقالوا:حسبنا الله , سيؤتينا الله من فضله ورسوله , إنا إلى الله راغبون). . .

. . .(ومنهم الذين يؤذون النبي ويقولون هو أذن . قل أذن خير لكم , يؤمن بالله ويؤمن للمؤمنين , ورحمة للذين آمنوا منكم , والذين يؤذون رسول الله لهم عذاب أليم).

(يحلفون بالله لكم ليرضوكم , والله ورسوله أحق أن يرضوه إن كانوا مؤمنين . ألم يعلموا أنه من يحادد الله ورسوله فأن له نار جهنم خالدا فيها , ذلك الخزي العظيم).

يحذر المنافقون أن تنزل عليهم سورة تنبئهم بما في قلوبهم , قل:استهزئوا إن الله مخرج ما تحذرون . ولئن سألتهم ليقولن:إنما كنا نخوض ونلعب , قل:أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون ? . لا تعتذروا قد كفرتم بعد إيمانكم , إن نعف عن طائفة منكم نعذب طائفة بأنهم كانوا مجرمين .

(المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض , يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف , ويقبضون أيديهم , نسواالله فنسيهم , إن المنافقين هم الفاسقون . وعد الله المنافقين والمنافقات والكفار نار جهنم خالدين فيها هي حسبهم , ولعنهم الله ولهم عذاب مقيم). . .

. . .(يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم , ومأواهم جهنم

وبئس المصير . يحلفون بالله ما قالوا , ولقد قالوا كلمة الكفر , وكفروا بعد إسلامهم وهموا بما لم ينالوا , وما نقموا إلا أن أغناهم الله ورسوله من فضله , فإن يتوبوا يك خيرا لهم , وإن يتولوا يعذبهم الله عذابا أليما في الدنيا والآخرة , وما لهم في الأرض من ولي ولا نصير). .

(ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصدقن ولنكونن من الصالحين . فلما آتاهم من فضله بخلوا به وتولوا وهم معرضون . فأعقبهم نفاقا في قلوبهم إلى يوم يلقونه بما أخلفوا الله ما وعدوه , وبما كانوا يكذبون). .

(الذين يلمزون المطوعين من المؤمنين في الصدقات والذين لا يجدون إ لا جهدهم فيسخرون منهم سخر الله منهم ولهم عذاب أليم . استغفر لهم أو لا تستغفر لهم , إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم , ذلك بأنهم كفروا بالله ورسوله , والله لا يهدي القوم الفاسقين).

(فرح المخلفون بمقعدهم خلاف رسول الله , وكرهوا أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله , وقالوا:لا تنفروا في الحر , قل:نار جهنم أشد حرا لو كانوا يفقهون . فليضحكوا قليلا وليبكوا كثيراً جزاء بما كانوا يكسبون . فإن رجعك الله إلى طائفة منهم , فاستأذنوك للخروج . فقل:لن تخرجوا معي أبدا ولن تقاتلوا معي عدوا , إنكم رضيتم بالقعود أول مرة فاقعدوا مع الخالفين . ولا تصل على أحد منهم مات أبدا ولا تقم على قبره , إنهم كفروا بالله ورسوله وماتوا وهم فاسقون . ولا تعجبك أموالهم وأولادهم , إنما يريد الله أن يعذبهم بها في الدنيا , وتزهق أنفسهم وهم كافرون). . .

الخ . . . الخ

وهذه الحملة الطويلة الكاشفة تشي بما كان للمنافقين في هذه الفترة من محاولات كثيرة لإيذاء الصف المسلم وفتنته وشغله بشتى الفتن و الدسائس والأكاذيب عن وجهته . كما أنها في الوقت ذاته تكشف عن ح

الة من الخلخلة وعدم التناسق في التكوين العضوي للمجتمع الإسلامي في هذه الفترة ; يشير إليها قول الله سبحانه: (وفيكم سماعون لهم)كما يشير إليها النهي المشدد عن الاستغفار للمنافقين أو الصلاة عليهم . . هذه الحالة التي نشأت عن دخول جماعات كثيرة في الإسلام بعد الفتح لم يكن الإيمان قد استقر في قلوبهم , ولا كانوا قد انطبعوا بالطابع الإسلامي الصحيح ; مما سنفصل القول فيه بعد استعراض التصنيف القرآني الوارد في السورة لهذه الجماعات المتنوعة التي كان المجتمع المسلم يتألف منها في هذه الفترة .

والمقطع الخامس في سياق السورة هو الذي يتولى هذا التصنيف . ومنه نعلم أنه كان إلى جوار السابقين المخلصين من المهاجرين والأنصار - وهم الذين كانوا يؤلفون قاعدة المجتمع المسلم الصلبة القوية - جماعات أخرى . . الأعراب وفيهم المخلصون والمنافقون والذين لم تخالط قلوبهم بشاشة الإيمان والمنافقون من أهل المدينة . وآخرون خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا ولم يتم انطباعهم بالطابع الإسلامي ولم يصهروا في بوتقة الإسلام تماما . وطائفة مجهولة الحال لا تعرف حقيقة مصيرها متروك أمرها لله وفق ما يعلمه من حقيقة حالها ومآلها . ومتآمرون يتسترون باسم الدين ! . . والنصوص القرآنية تتحدث عن هذه الجماعات كلها في اختصار مفيد ; وتقرر كيف تعامل في المجتمع المسلم , وتوجه رسول الله [ص] والخلص منالمسلمين إلى طريقة التعامل مع كل منهم:

(الأعراب أشد كفرا ونفاقا وأجدر ألا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله , والله عليم حكيم . ومن الأعراب من يتخذ ما ينفق مغرما , ويتربص بكم الدوائر , عليهم دائرة السوء , والله سميع عليم . ومن الأعراب من يؤمن بالله واليوم الآخر , ويتخذ ما ينفق قربات عند الله وصلوات الرسول ; ألا إنها قربة لهم , سيدخلهم الله في رحمته , إن الله غفور رحيم).

(والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان رضي الله عنهم ورضوا عنه , وأعد لهم جنات تجري تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا , ذلك الفوز العظيم).

(وممن حولكم من الأعراب منافقون ومن أهل المدينة , مردوا على النفاق , لا تعلمهم نحن نعلمهم سنعذبهم مرتين , ثم يردون إلى عذاب عظيم).

(وآخرون اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا , عسى الله أن يتوب عليهم , إن الله غفور رحيم . خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها , وصل عليهم إن صلاتك سكن لهم , والله سميع عليم . . .).

. . .(وآخرون مرجون لأمر الله , إما يعذبهم وإما يتوب عليهم , والله عليم حكيم).

(والذين اتخذوا مسجدا ضرارا وكفرا وتفريقا بين المؤمنين وإرصادا لمن حارب الله ورسوله من قبل , وليحلفن إن أردنا إلا الحسنى , والله يشهد إنهم لكاذبون . لا تقم فيه أبدا , لمسجد أسس على التقوى من أول يوم أحق أن تقوم فيه , فيه رجال يحبون أن يتطهروا , والله يحب المطهرين . .)الخ .

وظاهر من تعدد الطوائف والطبقات والمستويات الإيمانية في المجتمع المسلم - كما تصفه هذه النصوص - مدى الخلخلة التي وجدت فيه بعد الفتح , مما كان المجتمع قد برئ منه أو كاد قبيل فتح مكة كما سيجيء .

والمقطع السادس في سياق السورة يتضمن تقريرا لطبيعة البيعة الإسلامية مع الله على الجهاد في سبيله وطبيعة هذا الجهاد وحدوده , وواجب أهل المدينة ومن حولهم من الأعراب فيه , وأنه لا يحل لهم أن يتخلفوا عنه وما كان لهم أن يتخلفوا عن رسول الله ولا يرغبوا بأنفسهم عن نفسه ; وضرورة المفاصلة مع المشركين والمنافقين . . وفي ثنايا هذا

المقطع يرد بيان لما قضى الله به في شأن بعض الذين تخلفوا عن الغزوة مخلصين غير منافقين ; ووصف لبعض أحوال المنافقين وموقفهم تجاه ما يتنزل من القرآن الكريم:

(إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة , يقاتلون في سبيل الله , فيقتلون ويقتلون , وعدا عليه حقا في التوراة والإنجيل والقرآن , ومن أوفى بعهده من الله ? فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به , وذلك هو الفوز العظيم). . .

. . .(ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولي قربى , من بعد ما تبين لهم أنهم أصحاب الجحيم . وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه , فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه إن إبراهيم لأواه حليم). . .

. . . (لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوه في ساعة العسرة من بعد ما كاد يزيغ قلوب فريق منهم , ثم تاب عليهم , إنه بهم رؤوف رحيم . وعلى الثلاثة الذين خلفوا حتى إذا ضاقت عليهم الأ رضبما رحبت , وضاقت عليهم أنفسهم , وظنوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه , ثم تاب عليهم ليتوبوا , إن الله هو التواب الرحيم). . .

. . . (ما كان لأهل المدينة ومن حولهم من الأعراب أن يتخلفوا عن رسول الله ولا يرغبوا بأنفسهم عن نفسه , ذلك بأنهم لا يصيبهم ظمأ ولا نصب ولا مخمصة في سبيل الله , ولا يطأون موطئا يغيظ الكفار , ولا ينالون من عدو نيلا إلا كتب لهم به عمل صالح , إن الله لا يضيع أجر المحسنين . ولا ينفقون نفقة صغيرة ولا كبيرة , ولا يقطعون واديا , إلا كتب لهم , ليجزيهم الله أحسن ما كانوا يعملون . وما كان المؤمنون لينفروا كافة , فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة , ليتفقهوا في الدين , ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم , لعلهم يحذرون).

يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار وليجدوا فيكم غلظة ,

واعملوا أن الله مع المتقين . . .

. . .(وإذا ما أنزلت سورة نظر بعضهم إلى بعض:هل يراكم من أحد ? ثم انصرفوا , صرف الله قلوبهم بأنهم قوم لا يفقهون). .

وفي النهاية تختم السورة بصفة رسول الله [ص] وبتوجيهه من ربه إلى التوكل عليه وحده والاكتفاء بكفالته سبحانه:

(لقد جاءكم رسول من أنفسكم , عزيز عليه ما عنتم , حريص عليكم , بالمؤمنين رؤوف رحيم . فإن تولوا فقل:حسبي الله , لا إله إلا هو , عليه توكلت , وهو رب العرش العظيم).

ولقد أطلنا الاقتباس من نصوص السورة في هذا الاستعراض الإجمالي - قبل مواجهة هذه النصوص فيما بعد بالتفصيل - عن قصد ! ذلك أن سياق السورة يرسم صورة كاملة للمجتمع المسلم في فترة ما بعد الفتح , ويصف تكوينه العضوي . . وفي هذه السورة يتجلى نوع من الخلخلة وقلة التناسق بين مستوياته الإيمانية ; كما تتكشف ظواهر وأعراض من الشح بالنفس والمال , ومن النفاق والضعف , والتردد في الواجبات والتكاليف , والخلط وعدم الوضوح في تصور العلاقات بين المعسكر الإسلامي والمعسكرات الأخرى , وعدم المفاصلة الكاملة على أساس العقيدة - وإن كان هذا كله لا يتعارض مع وجود القاعدة الصلبة الأمينة الخالصة من المهاجرين والأنصار - مما استدعى حملات طويلة مفصلة ومنوعة للكشف والتوعية والبيان والتقرير , تفي بحاجة المجتمع إليها .

ولقد سبق أن أشرنا إجمالا إلى أن سبب هذه الحالة هو دخول جماعات كثيرة متنوعة من الناس في الإسلام بعد الفتح ; لم تتم تربيتها ; ولم تنطبع بعد بالطابع الإسلامي الأصيل . إلا أن هذه الإشارة المجملة لا يمكن فهمها بوضوح إلا بمراجعة الواقع التاريخي الحركي قبل الفتح وبعده . . وسنحاول أن نلم به هنا بأشد اختصار ممكن ; قبل التعليق

بشيء على دلالة هذا الواقع التاريخي ومغزاه , ودلالة النصوص القرآنية التي وردت في سياق هذه السورة كذلك .

لقد ولدت الحركة الإسلامية في مكة على محك الشدة ; فلم تكد الجاهلية - ممثلة في قريش - تحس بالخطرالحقيقي الذي يتهددها من دعوة:"أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله" وما تمثله من ثورة على كل سلطان أرضي لا يستمد من سلطان الله ; ومن تمرد نهائي على كل طاغوت في الأرض والفرار منه إلى الله . ثم بالخطر الجدي من التجمع الحركي العضوي الجديد الذي أنشأته هذه الدعوة تحت قيادة رسول الله [ص]

هذا التجمع الذي يدين منذ اليوم الأول بالطاعة لله ورسوله الله ; ويتمرد ويخرج على القيادة الجاهلية الممثلة في قريش والأوضاع السائدة في هذه الجاهلية .

لم تكد الجاهلية - ممثلة في قريش أول الأمر - تحس بهذا الخطر وذاك حتى شنتها حربا شعواء على الدعوة الجديدة , وعلى التجمع الجديد , وعلى القيادة الجديدة ; وحتى أرصدت لها كل ما في جعبتها من أذى ومن كيد ومن فتنة ومن حيلة . .

لقد انتفض التجمع الجاهلي ليدفع عن نفسه الخطر الذي يتهدد وجوده بكل ما يدفع به الكائن العضوي خطر الموت عن نفسه . . وهذا هو الشأن الطبيعي الذي لا مفر منه كلما قامت دعوة إلى ربوبية الله للعالمين ; في مجتمع جاهلي يقوم على أساس من ربوبية العباد للعباد ; وكلما تمثلت الدعوة الجديدة في تجمع حركي جديد , يتبع في تحركه قيادة جديدة , ويواجه التجمع الجاهلي القديم مواجهة النقيض للنقيض !

وعندئذ تعرض كل فرد في التجمع الإسلامي الجديد للأذى والفتنة بكل صنوفها , إلى حد إهدار الدم في كثير من الأحيان . . ويومئذ لم يكن يقدم على شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله , والانضمام إلى

التجمع الإسلامي الوليد , والدينونة لقيادته الجديدة , إلا كل من نذر نفسه لله ; وتهيأ لاحتمال الأذى والفتنة والجوع والغربة والعذاب و الموت في أبشع الصور في بعض الأحيان . .

بذلك تكونت للإسلام قاعدة صلبة من أصلب العناصر عوداً في المجتمع العربي ; فأما العناصر التي لم تحتمل هذه الضغوط فقد فتنت عن دينها وارتدت إلى الجاهلية مرة أخرى ; وكان هذا النوع قليلا , فقد كان الأمر كله معروفا مكشوفا من قبل ; فلم يكن يقدم ابتداء على الانتقال من الجاهلية إلى الإسلام , وقطع الطريق الشائك الخطر المرهوب إلا العناصر المختارة الممتازة الفريدة التكوين .

وهكذا اختار الله السابقين من المهاجرين من تلك العناصر الفريدة النادرة , ليكونوا هم القاعدة الصلبة لهذا الدين في مكة ; ثم ليكونوا هم القاعدة الصلبة لهذا الدين بعد ذلك في المدينة ; مع السابقين من الأنصار الذين وإن كانوا لم يصطلوها في أول الأمر كما اصطلاها المهاجرون , إلا أن بيعتهم لرسول الله [ص] [بيعة العقبة] قد دلت على أن عنصرهم ذو طبيعة أصيلة مكافئة لطبيعة هذا الدين . . قال ابن كثير في التفسير:"وقال محمد بن كعب القرظي وغيره:قال عبد الله بن رواحة رضي الله عنه لرسول الله [ص] [يعني ليلة العقبة]:اشترط لربك ولنفسك ما شئت . فقال:" أشترط لربي أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئا , وأشترط لنفسي أن تمنعوني مما تمنعون منه أنفسكم وأموالكم " قالوا:فما لنا إذا نحن فعلنا ذلك ? قال:" الجنة " . قالوا:ربح البيع , ولا نقيل ولا نستقيل" .

ولقد كان هؤلاء الذين يبايعون رسول الله هذه البيعة ; ولا يرتقبون من ورائها شيئا إلا الجنة ; ويوثقون هذا البيع فيعلنون أنهم لا يقبلون أن يرجعوا فيه ولا أن يرجع فيه رسول الله [ص] ! يعلمون أنهم لا يبايعون على أمر هين ; بل كانوا مستيقنين أن قريشا وراءهم , وأن العرب كلها سترميهم ; وأنهملن يعيشوا بعدها في سلام مع الجاهلية الضاربة الأ

طناب من حولهم في الجزيرة وبين ظهرانيهم في المدينة .

ومن رواية ابن كثير في كتابه:"البداية والنهاية ":"قال الإمام أحمد:حدثنا عبد الرزاق أخبرنا معمر ابن خيثم , عن أبي الزبير , عن جابر . قال:مكث رسول الله [ص] بمكة عشر سنين , يتبع الناس في منازلهم . . عكاظ والمجنة . . وفي المواسم , يقول:" من يؤويني ? من ينصرني ? حتى أبلغ رسالة ربي وله الجنة " . فلا يجد أحدا يؤويه ولا ينصره . حتى إن الرجل ليخرج من اليمن , أو من مضر - كذا قال فيه - فيأتيه قومه وذوو رحمه فيقولون:احذر غلام قريش لا يفتنك . ويمضي بين رجالهم وهم يشيرون إليه بالأصابع حتى بعثنا الله إليه من يثرب , فآويناه وصدقناه , فيخرج الرجل منا فيؤمن به , ويقرئه القرآن فينقلب إلى أهله فيسلمون بإسلامه , حتى لم تبق دار من دور الأنصار إلا وفيها رهط من المسلمين يظهرون الأسلام . ثم ائتمروا جميعا , فقلنا:حتى متى نترك رسول الله [ص] يطوف ويطرد في جبال مكة ويخاف ? فرحل إليه منا سبعون رجلا حتى قدموا عليه في الموسم , فواعدناه شعب العقبة , فاجتمعنا عندها من رجل ورجلين , حتى توافينا . فقلنا:يا رسول الله علام نبايعك ? قال:" تبايعوني على السمع والطاعة في النشاط والكسل , والنفقة في العسر واليسر , وعلى الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر , وأن تقولوا في الله لا تخافوا في الله لومة لائم , وعلى أن تنصروني فتمنعوني إذا قدمت عليكم مما تمنعون منه أنفسكم وأزواجكم وأبناءكم , ولكم الجنة " . فقمنا إليه وأخذ بيده أسعد بن زرارة - وهو من أصغرهم - وفي رواية البيهقي - وهو أصغر السبعين - إلا أنا . فقال:رويدا يا أهل يثرب فإنا لم نضرب إليه أكباد الإبل إلا ونحن نعلم أنه رسول الله , وإن إخراجه اليوم مناوأة للعرب كافة , وقتل خياركم , وتعضكم السيوف . فإنا أنتم قوم تصبرون على ذلك فخذوه وأجركم على الله , وإما أنتم قوم تخافون من أنفسكم خيفة فذروه , فبينوا ذلك فهو أعذر لكم عند الله . . قالوا:أبط عنا يا أسعد ! فوالله لا ندع هذه البيعة , ولا نسلبها أبدا ! قال:فقمنا إليه , فبايعناه , وأخذ علينا

وشرط , ويعطينا على ذلك الجنة " [وقد رواه الإمام أحمد أيضا و البيهقي من طريق داود بن عبد الرحمن العطار - زاد البيهقي عن الحاكم - بسنده إلى يحيى بن سليم كلاهما عن عبد الله بن عثمان بن خيثم عن أبي إدريس به نحوه . وهذا إسناد جيد على شرط مسلم ولم يخرجوه . وقال البزار:وروى غير واحد غير ابن خيثم , ولا نعلمه يروى عن جابر إلا من هذا الوجه] .

فقد كان الأنصار إذن يعلمون - عن يقين واضح - تكاليف هذه البيعة ; وكانوا يعلمون أنهم لم يوعدوا على هذه التكاليف شيئا في هذه الحياة الدنيا - حتى ولا النصر والغلبة - وأنهم لم يوعدوا عليها إلا الجنة . . ثم كان هذا مدى وعيهم بها ومدى حرصهم عليها . . فلا جرم أن يكونوا - مع السابقين من المهاجرين الذين بنوا هذا البناء وأعدوا هذا الإعداد - هم القاعدة الصلبة للمجتمع المسلم أول العهد بالمدينة . .

ولكن مجتمع المدينة لم يظل بهذا الخلوص والنقاء . . لقد ظهر الإسلام وفشا في المدينة ; واضطر أفراد كثيرون - ومعظمهم من ذوي المكانة في قومهم - أن يجاروا قومهم احتفاظا بمكانتهم فيهم . . حتى إذا كانت وقعة بدر قال كبير هؤلاء عبد الله بن أبي بن سلول:هذا أمر قد توجه ! وأظهر الإسلام نفاقا . ولا بد أن كثيرين قد جرفتهم الموجة فدخلوا في الإسلام تقليدا - ولو لم يكونوا منافقين - ولكنهم لم يكونوا بعد قد فقهوا في الإسلام ولا انطبعوا بطابعه . . مما أنشأ تخلخلا في بناء المجتمع المدني ناشئا عن اختلاف مستوياته الإيمانية .

فَإِذَا انسَلَخَ الأ َ ش ْ هُ ُ ر ُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُواْ الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُواْ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ الصَّلا َ ة َ وَآتَوُاْ الزَّكَاةَ فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (5)

وهنا أخذ المنهج القرآني التربوي الفريد , بقيادة رسول الله [ص] يعمل عمله في هذه العناصر الجديدة ; ويعمل كذلك على إعادة التناسق و التوافق بين المستويات العقيدية والخلقية والسلوكية للعناصر المختلفة الداخلة في جسم المجتمع الوليد .

وحين نراجع السور المدنية - بترتيب النزول التقريبي - فإننا نطلع على الجهد الكبير الذي بذل في عملية الصهر الجديدة للعناصر المتنوعة في المجتمع المسلم ; وبخاصة أن هذه العناصر ظلت تتوارد على هذا المجتمع - على الرغم من وقفة قريش العنيدة وتأليبها لكل قبائل الجزيرة , ومن وقفة اليهود البشعة وتأليبهم كذلك للعناصر المعادية للدين الجديد والتجمع الجديد - وظلت الحاجة مستمرة لعمليات الصهر والتنسيق بصورة دائمة لا تفتر ولا تغفل لحظة . .

ومع هذا الجهد كله كانت ما تزال تظهر بين الحين والحين - وبخاصة في فترات الشدة - أعراض من الضعف , والنفاق والتردد , والشح بالنفس والمال , والتهيب من مواجهة المخاطر . . وبصفة خاصة أعراض من عدم الوضوح العقيدي الذي يحسم في العلاقة بين المسلم وقرابته من أهل الجاهلية . . والنصوص القرآنية في السور المتوالية تكشف لنا عن طبيعة هذه الأعراض التي كان المنهج القرآني يتعرض لها بالعلاج بشتى أساليبه الربانية الفريدة . . نذكر منها على سبيل المثال:

كما أخرجك ربك من بيتك بالحق , وإن فريقا من المؤمنين لكارهون . يجادلونك في الحق بعدما تبين كأنما يساقون إلى الموت وهم ينظرون . وإذ يعدكم الله إحدى الطائفتين أنها لكم , وتودون أن غير ذات الشوكة تكون لكم , ويريد الله أن يحق الحق بكلماته ويقطع دابر الكافرين , ليحق الحق ويبطل الباطل ولو كره المجرمون . . . [الأنفال:5 - 8]

هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات . فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله , وما يعلم تأويله إلا الله , والراسخون في العلم

يقولون:آمنا به , كل من عند ربنا , وما يذكر إلا أولو الألباب . ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب . ربنا إنك جامع الناس ليوم لا ريب فيه , إن الله لا يخلف الميعاد . . . [آل عمران:7 - 9]

(ألم تر إلى الذين نافقوا يقولون لإخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب:لئن أخرجتم لنخرجن معكم ولا نطيع فيكم أحدا أبدا , وإن قوتلتم لننصرنكم , والله يشهد إنهم لكاذبون . لئن أخرجوا لا يخرجون معهم , ولئن قوتلوا لا ينصرونهم ولئن نصروهم ليولن الأدبار ثم لا ينصرون . لأنتم أشد رهبة في صدورهم من الله , ذلك بأنهم قوم لا يفقهون). . . [الحشر:11 - 13]

يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءتكم جنود فأرسلنا عليهم ريحا وجنودا لم تروها , وكان الله بما تعملون بصيرا . إذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم , وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر , وتظنون بالله الظنونا , هنالك ابتلي المؤمنون وزلزلوا زلزالا شديدا . وإذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض:ما وعدنا الله ورسوله إلا غرورا . وإذ قالت طائفة منهم:يا أهل يثرب لا مقام لكمفارجعوا , ويستأذن فريق منهم النبي يقولون:إن بيوتنا عورة - وما هي بعورة - إن يريدون إلا فرارا . ولو دخلت عليهم من أقطارها ثم سئلوا الفتنة لآتوها وما تلبثوا بها إلا يسيرا . . . الخ)[الأحزاب:9 - 14]

يا أيها الذين آمنوا خذوا حذركم , فانفروا ثبات أو انفروا جميعا . وإن منكم لمن ليبطئن , فإن أصابتكم مصيبة قال:قد أنعم الله علي إذ لم أكن معهم شهيدا . ولئن أصابكم فضل من الله ليقولن - كأن لم تكن بينكم وبينه مودة -:يا ليتني كنت معهم فأفوز فوزا عظيما . . . [النساء:71 - 73]

ألم تر إلى الذين قيل لهم:كفوا أيديكم وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة , فلما كتب عليهم القتال إذا فريق منهم يخشون الناس كخشية الله أو أشد

خشية , وقالوا:ربنا لم كتبت علينا القتال ? لولا أخرتنا إلى أجل قريب ! قل:متاع الدنيا قليل , والآخرة خير لمن اتقى , ولا تظلمون فتيلا . أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم في بروج مشيدة , وإن تصبهم حسنة يقولوا:هذه من عند الله , وإن تصبهم سيئة يقولوا:هذه من عندك . قل:كل من عند الله , فمال هؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثا . . . . . . [النساء:77 - 78] .

(إنما الحياة الدنيا لعب ولهو , وإن تؤمنوا وتتقوا يؤتكم أجوركم ولا يسألكم أموالكم . إن يسألكموها فيحفكم تبخلوا ويخرج أضغانكم . ها أنتم هؤلاء تدعون لتنفقوا في سبيل الله . فمنكم من يبخل , ومن يبخل فإنما يبخل عن نفسه , والله الغني وأنتم الفقراء , وإن تتولوا يستبدل قوما غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم). . [محمد:36 - 38] .

ألم تر إلى الذين تولوا قوما غضب الله عليهم , ما هم منكم ولا منهم , ويحلفون على الكذب وهم يعلمون . أعد الله لهم عذابا شديدا , إنهم ساء ما كانوا يعملون . اتخذوا أيمانهم جنة فصدوا عن سبيل الله فلهم عذاب مهين . لن تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئا , أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون . يوم يبعثهم الله جميعا فيحلفون له كما يحلفون لكم ويحسبون أنهم على شيء , ألا إنهم هم الكاذبون . استحوذ عليهم الشيطان فأنساهم ذكر الله , أولئك حزب الشيطان , ألا إن حزب الشيطان هم الخاسرون . إن الذين يحادون الله ورسوله أولئك في الأذلين , كتب الله لأغلبن أنا ورسلي , إن الله قوي عزيز . لا تجد قوما يؤمنون بالله و اليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله , ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم , أولئك كتب في قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه , ويدخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها , رضي الله عنهم ورضوا عنه , أولئك حزب الله , ألا إن حزب الله هم المفلحون . . . [المجادلة:14 - 22] .

يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء , بعضهم أولياء

بعض , ومن يتولهم منكم فإنه منهم , إن الله لا يهدي القوم الظالمين . فترى الذين في قلوبهم مرض يسارعون فيهم , يقولون:نخشى أن تصيبنا دائرة , فعسى الله أن يأتي بالفتح أو أمر من عنده , فيصبحوا على ما أسروا في أنفسهم نادمين . ويقول الذين آمنوا:أهؤلاء الذين أقسموا بالله جهد أيمانهم إنهم لمعكم ? حبطت أعمالهم فأصبحوا خاسرين . . . [المائدة:51 - 53] .

(يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة وقد كفروا بما جاءكم من الحق , يخرجون الرسول وإياكم أن تؤمنوا ب الله ربكم , إن كنتم خرجتم جهادا في سبيلي وابتغاء مرضاتي , تسرون إليهم بالمودة , وأنا أعلم بما أخفيتم وما أعلنتم , ومن يفعله منكم فقد ضل سواء السبيل . إن يثقفوكم يكونوا لكم أعداء , ويبسطوا إليكم أيديهم وألسنتهم بالسوء وودوا لو تكفرون . لن تنفعكم أرحامكم ولا أولا دكم ,يوم القيامة يفصل بينكم , والله بما تعملون بصير . قد كانت لكم أسوة حسنة في إبراهيم والذين معه , إذ قالوا لقومهم:إنا برآء منكم ومما تعبدون من دون الله , كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوة و البغضاء أبدا حتى تؤمنوا بالله وحده . إلا قول إبراهيم لأبيه:لأستغفرن لك وما أملك لك من الله من شيء , ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير). . . [الممتحنة:1 - 4] .

وحسبنا هذه النماذج العشرة من شتى السور , للدلالة على ما كان يظهر في المجتمع المسلم من أعراض . . نتيجة طبيعية وحتمية لدخول عناصر جديدة فيه بصفة مستمرة , لا يتم صهرها وتنسيقها مع القاعدة الصلبة الخالصة إلا بعد فترة وجهد وتربية مستمرة . .

إلا أن قوام المجتمع المسلم في المدينة كان يظل سليما في جملته بسبب اعتماده أساسا على تلك القاعدة الصلبة الخالصة من السابقين من المهاجرين والأنصار ; وما تحدثه من تماسك وصلابة في قوامه في وجه جميع الأعراض والظواهر والخلخلة أحيانا , والتعرض للمخاطر التي

تكشف عن هذه العناصر التي لم يتم بعد صهرها ونضجها وتماسكها وتناسقها .

وشيئا فشيئا كانت هذه العناصر تنصهر وتتطهر وتتناسق مع القاعدة ; ويقل عدد الناشزين من ضعاف القلوب ومن المنافقين ; ومن المترددين كذلك والمتهيبين ; وممن لم يتم في نفوسهم الوضوح العقيدي الذي يقيمون على أساسه كل علاقاتهم مع الآخرين . . حتى إذا كان قبيل فتح مكة كان المجتمع الإسلامي أقرب ما يكون إلى التناسق التام مع قاعدته الصلبة الخالصة ; وأقرب ما يكون بجملته إلى النموذج الذي يهدف إليه المنهج التربوي الرباني الفريد . .

نعم إنه كانت في هذا المجتمع ما تزال هناك أقدار متفاوتة أنشأتها الحركة العقيدية ذاتها ; فتميزت مجموعات من المؤمنين بأقدارها على قدر بلائها في الحركة وسبقها وثباتها . . تميز السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار . وتميز أهل بدر . وتميز أصحاب بيعة الرضوان في الحديبية . ثم تميز بصفة عامة الذين أنفقوا من قبل الفتح وقاتلوا . وجاءت النصوص القرآنية , والأحاديث النبوية , والأوضاع العملية في المجتمع المسلم , تؤكد هذه الأقدار التي أنشأتها الحركة بالعقيدة وتنص عليها .

والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان رضي الله عنهم ورضوا عنه وأعد لهم جنات تجري من تحتها الأنهار , خالدين فيها أبدا , ذلك الفوز العظيم . . . [التوبة:100] .

"لعل الله اطلع إلى أهل بدر فقال:اعملوا ما شئتم , فقد وجبت لكم الجنة " . . [من حديث أخرجه البخاري] . وكان هذا رد رسول الله [ص] على عمر - رضي الله عنه - وقد استأذن رسول الله [ص] في أن يضرب عنق حاطب بن أبي بلتعة حينما أدركته لحظة ضعف فأرسل إلى قريش سرا ينبئهم بتجهز رسول الله [ص] لفتح مكة .

(لقد رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة , فعلم ما في قلوبهم , فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحا قريبا , ومغانم كثيرة يأخذونها وكان الله عزيزا حكيما). . . [الفتح:18 - 19] .

(لا يستوي منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل , أولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا وكلا وعد الله الحسنى , والله بما تعملون خبير). . . [الحديد:10] .

"مهلا يا خالد , دع عنك أصحابي فوالله لو كان لك أحد ذهبا , ثم أنفقته في سبيل الله ما أدركتغدوة رجل من أصحابي ولا روحة " . . . [أورده ابن القيم في زاد المعاد] وهو رد رسول الله [ص] على خالد بن الوليد إذ تلاحى مع عبدالرحمن بن عوف - رضي الله عنهما - وخالد هو سيف الله . ولكن عبدالرحمن من السابقين الأولين . فقال رسول الله [ص] لخالد:" دع عنك أصحابي " وهو يعني هذه الطبقة ذات القدر الخاص المتميز في المجتمع المسلم في المدينة .

ولكن تميز هذه الطبقات بأقدارها الإيمانية التي أنِشأتها الحركة الإسلامية , لم يكن مانعا أن تتقارب المستويات الإيمانية وتتناسق في مجتمع المدينة قبيل الفتح ; وأن يتوارى الكثير من أعراض الخلخلة في الصف , والكثير من ظواهر الضعف والتردد , والشح بالنفس والمال , وعدم الوضوح العقيدي , والنفاق . . من ذلك المجتمع بحيث يمكن اعتبار المجتمع المدني بجملته هو القاعدة الإسلامية .

إلا أن فتح مكة في العام الثامن الهجري , وما أعقبه من استسلام هوازن وثقيف في الطائف وهما آخر قوتين كبيرتين بعد قريش في الجزيرة , قد عاد فصب في المجتمع المسلم أفواجا جديدة كثيرة دخلت في الدين مستسلمة على درجات متفاوتة من المستويات الإيمانية ; وفيهم كارهون للإسلام منافقون ; وفيهم المنساقون إلى الإسلام الظاهر القاهر , وفيهم المؤلفة قلوبهم , دون انطباع بحقائق الإسلام الجوهرية ولا امتزاج بروحه الحقيقية .

لقد كانت وقفة قريش العنيدة الطويلة حاجزا قويا دون انسياح الإسلام في الجزيرة العربية . فقد كانت قريش هي صاحبة الكلمة العليا في الشؤون الدينية في الجزيرة - فوق ما كان لها من نفوذ اقتصادي وسياسي وأدبي كذلك - فكانت وقفتها في وجه الدين الجديد , بهذه الصورة العنيدة , مدعاة لصرف العرب في أنحاء الجزيرة عن الدخول فيه , أو على الأقل مدعاة للتردد والانتظار حتى تنجلي المعركة بين قريش وهذا النبي من أبنائها ! . . . فلما دانت قريش بالفتح , ودانت بعدها هوازن وثقيف في الطائف ; وكانت قبائل اليهود الثلاث القوية في المدينة قد خضدت شوكتها نهائيا فأجليت بنو قينقاع وبنو النضير إلى الشام , وأبيدت بنو قريظة , واستسلمت خيبر الاستسلام الأخير . . . كان ذلك إيذانا بدخول الناس في دين الله أفواجا , وانسياح الإسلام في أرجاء الجزيرة كلها في خلال عام واحد .

غير أن هذا الاتساع الأفقي في رقعة الإسلام قد أعاد معه جميع الأ عراض والظواهر التي ظهرت في المجتمع بعد انتصار بدر - ولكن على نطاق أوسع - بعد ما كاد المجتمع يبرأ منها بتأثير التربية الطويلة المدى , المستمرة التأثير في خلال السنوات السبع بعد بدر الكبرى ! ولولا أن المجتمع المدني بجملته كان قد تحول إلى أن يكون هو القاعدة الصلبة الخالصة لهذه العقيدة , والأساس الركين لهذا المجتمع ; لكان هناك خطر كبير من هذا الاتساع الأفقي السريع في رقعة الإسلام في الجزيرة . ولكن الله الذي كان يدبر لهذا الأمر ويرعاه , كان قد أعد العصبة المؤلفة من السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار لتكون هي القاعدة الأمينة لهذا الدين بعد التوسع النسبي الذي جاء به انتصار بدر ; كما أنه - سبحانه - كان قد أعد المجتمع المدني بجملته ليكون هو القاعدة الأمينة بعد التوسع الشديد السريع الذي جاء به فتح مكة . . والله أعلم حيث يجعل رسالته . .

وأول ما ظهر من ذلك كان يوم حنين الذي جاء عنه في هذه السورة:"التوبة ": لقد نصركم الله في مواطن كثيرة , ويوم حنين إذ

أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئا ; وضاقت عليكم الأرض بما رحبت , ثم وليتم مدبرين . ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين , وأنزل جنودا لم تروها , وعذب الذين كفروا , وذلك جزاء الكافرين . .

وكان من الأسباب الظاهرة لهذه الهزيمة في أول الأمر أن ألفين من "الطلقاء" الذين أسلموا يوم الفتح , قد خرجوا مع الآلاف العشرة من جند المدينة الذين فتحوا مكة . فكان وجود هذين الألفين - مع عشرة آلا ف - سببا في اختلال التوازن في الصف - بالإضافة إلى عامل المفاجأة من هوازن - ذلك أن الجيش لم يكن كله من القاعدة الصلبة الخالصة التي تمت تربيتها وتناسقها في الزمن الطويل ما بين بدر والفتح .

كذلك كان ما ظهر في أثناء غزوة تبوك من الأعراض والظواهر المؤذية ثمرة طبيعية لهذا الاتساع الأفقي السريع ; ودخول تلك الأفواج الجديدة , بمستوياتها الإيمانية والتنظيمية المخلخلة . . هذه الظواهر وا لأعراض التي تحدثت عنها سورة التوبة , والتي اقتضت تلك الحملات الطويلة المفصلة المنوعة الأساليب , التي أشرنا إليها في المقتطفات الممثلة لكل مقاطع السورة .

ونستطيع أن نستطرد هنا لنتابع خطوات الواقع التاريخي للمجتمع المسلم بعد عامين اثنين من الفتح ; عندما قبض رسول الله [ص] فارتدت الجزيرة العربية كلها ; ولم يثبت إلا مجتمع المدينة - القاعدة الصلبة الخالصة - فهذه الظاهرة يسهل الآن تفسيرها . . إن عامين اثنين بعد الفتح لم يكونا كافيين لاستقرار حقيقة الإسلام في نفوس هذه الأ فواج الكثيرة التي دخلت في دين الله بعد الفتح , بمستوياتها الإيمانية المخلخلة . فلما قبض رسول الله - [ص] - ارتجت الجزيرة المخلخلة , وثبتت القاعدة الصلبة . واستطاعت هذه القاعدة بصلابتها وخلوصها وتناسقها أن تقف في وجه التيار ; وأن ترده عن مجراه الجارف ; وأن تحوله إلى الإسلام مرة أخرى . .

إن رؤية هذه الحقيقة - على هذا النحو - كفيلة بأن ترينا تدبير الله الحكيم في المحنة الطويلة التي تعرضت لها الدعوة في مكة - في أول ا لأمر - وحكمته في تسليط المشركين الطواغيت على الفئة المسلمة يؤذونها , ويفتنونها عن دينها , ويهدرون دماءها , ويفعلون بها الأفاعيل !

لقد كان الله سبحانه يعلم أن هذا هو المنهج القويم لتربية الجماعة الأ ولى وتكوين القاعدة الصلبة لهذه العقيدة . وأنه بدون هذه المحنة الطويلة لاتصلب الأعواد ولاتثبت للضغوط ; وأن هذه الدرجة من الصلا بة والخلوص والتجرد والإصرار والمضي في سبيل الله على الأذى و العذاب والقتل والتنكيل والتشريد والتجويع , وقلة العدد , وانعدام النصير الأرضي . . . إن هذه الدرجة هي وحدها التي تصلح للقاعدة الأ صيلة الثابتة عند نقطة الانطلاق الأولى . .

إن هذه القاعدة الصلبة من المهاجرين الأوائل هي التي انضم إليها السابقون من الأنصار , ليكونوا القاعدة في المدينة - قبل بدر - وليكونوا هم الحراس الأقوياء الأشداء في فترة التخلخل التي أعقبت النصر في بدر , بالتوسع الأفقي الذي جاء بأعداد جديدة لم تنضج بعد , ولم تتناسق مع القاعدة في مستواها الإيماني والتنظيمي .

وأخيراً فإن القاعدة الصلبة التي اتسعت أبعادها قبيل الفتح , حتى صارت تتمثل في المجتمع المدني بجملته , هي التي حرست الإسلام وصانته من الهزات بعد الفتح ثم من الهزة الكبرى بعد وفاة رسول الله [ص] وارتداد الجزيرة عن الإسلام .

إن هذه الحقيقة - كما أنها ترينا تدبير الله الحكيم في المحنة الطويلة التي تعرضت لها الدعوة في مكة ; وفي الأهوال والمشاق والأخطار التي تعرض لها المجتمع المسلم في المدينة حتى الحديبية - هي كذلك تكشف لنا عن طبيعة المنهج الحركي للدعوة الإسلامية المتجددة في أي زمان وفي أي مكان .

إنه ابتداء يجب توجيه الحرص كله لإقامة القاعدة الصلبة من المؤمنين الخلص , الذين تصهرهم المحنة فيثبتون عليها ; والعناية بتربيتهم تربية إيمانية عميقة تزيدهم صلابة وقوة ووعياً ; ذلك مع الحذر الشديد من التوسع الأفقي قبل الاطمئنان إلى قيام هذه القاعدة الصلبة الخالصة الواعية المستنيرة . فالتوسع الأفقي قبل قيام هذه القاعدة خطر ما حق يهدر وجود أية حركة , لا تسلك طريق الدعوة الأولى من هذة الناحية , ولا تراعي طبيعة المنهج الحركي الرباني النبوي الذي سارت عليه الجماعة الأولى .

على أن الله - سبحانه - هو الذي يتكفل بهذا لدعوته . فحيثما أراد لها حركة صحيحة , عرّض طلائعها للمحنة الطويلة ; وأبطأ عليهم النصر ; وقللهم ; وبطأ الناس عنهم ; حتى يعلم منهم أن قد صبروا وثبتوا , وتهيأوا وصلحوا لأن يكونوا هم القاعدة الصلبة الخالصة الواعية الأ منية . . ثم نقل خطاهم بعد ذلك بيده - سبحانه - والله غالب على أمره , ولكن أكثر الناس لا يعلمون . . .

والآن نعرض - على وجه الإجمال - للموضوعات الرئيسية التي تضمنتها السورة , وبخاصة الأحكام النهائية التي قررتها في علاقة المعسكر الإس لامي بسائر المعسكرات حوله . . فالأحكام التي وردت في هذه السورة - بوصفها آخر ما نزل من الأحكام - هي التي تمثل قمة الخط الحركي للمنهج الإسلامي . .

ونحب هنا أن نعيد ما قلناه في الجزء التاسع - في تقديم سورة الأنفال - عن طبيعة هذا المنهج ; لنفهم على ضوئه هذه الأحكام النهائية الأ خيرة ; ولو كان في إعادته شيء من التكرار في كتاب الظلال . ذلك أن قرب هذه الفقرات التي سنعيدها هنا ضروري لحيوية السياق:

"لقد لخص الإمام ابن القيم سياق الجهاد في الأسلام في "زاد المعاد" في الفصل الذي عقده باسم:"فصل في ترتيب سياق هديه مع الكفار و المنافقين من حين بعث إلى حين لقي الله عز وجل:أول ما أوحى إليه

ربه تبارك وتعالى:أن يقرأ باسم ربه الذي خلق . وذلك أول نبوته . فأمره أن يقرأ في نفسه ولم يأمره إذ ذاك بتبليغ . ثم أنزل عليه:(يا أيها المدثر قم فأنذر)فنبأه بقوله:(اقرأ)وأرسله ب(يا أيها المدثر). ثم أمره أن ينذر عشيرته الأقربين . ثم أنذر قومه . ثم أنذر من حولهم من العرب . ثم أنذر العرب قاطبة . ثم أنذر العالمين . فأقام بضع عشرة سنة بعد نبوته ينذر بالدعوة بغير قتال ولا جزية ; ويؤمر بالكف والصبر والصفح . ثم أذن له في الهجرة , وأذن له في القتال . ثم أمره أن يقاتل من قاتله , ويكف عمن اعتزله ولم يقاتله . ثم أمره بقتال المشركين حتى يكون الدين كله لله . . ثم كان الكفار معه بعد الأمر بالجهاد ثلاثة أقسام:أهل صلح وهدنة . وأهل حرب . وأهل ذمة . . فأمر بأن يتم لأهل العهد و الصلح عهدهم , وأن يوفي لهم به ما استقاموا على العهد ; فإن خاف منهم خيانة نبذ إليهم عهدهم ولم يقاتلهم حتى يعلمهم بنقض العهد . وأمر أن يقاتل من نقض عهده . . ولما نزلت سورة براءة نزلت ببيان حكم هذه الأقسام كلها:فأمر أن يقاتل عدوه من أهل الكتاب حتى يعطوا الجزية أو يدخلوا في الإسلام . وأمره فيها بجهاد الكفار والمنافقين و الغلظة عليهم . فجاهد الكفار بالسيف والسنان , والمنافقين بالحجة و اللسان . وأمره فيها بالبراءة من عهود الكفار ونبذ عهودهم إليهم . . وجعل أهل العهد في ذلك ثلاثة أقسام:قسما أمره بقتالهم وهم الذين نقضوا عهده ولم يستقيموا له , فحاربهم وظهر عليهم . وقسما لهم عهد موقت لم ينقضوه ولم يظاهروا عليه , فأمره أن يتم لهم عهدهم إلى مدتهم . وقسما لم يكن لهم عهد ولم يحاربوه , أو كان لهم عهد مطلق , فأمر أن يؤجلهم أربعة أشهر ; فإذا انسلخت قاتلهم . . فقتل الناقض لعهده , وأجل من لا عهد له , أوله عهد مطلق , أربعة أشهر , وأمره أنيتم للموفي بعهده عهده إلى مدته ; فأسلم هؤلاء كلهم ولم يقيموا على كفرهم إلى مدتهم . وضرب على أهل الذمة الجزية . . فاستقر أمر الكفار معه بعد نزول براءة على ثلاثة أقسام:محاربين له , وأهل عهد , وأهل ذمة . . ثم آلت حالة أهل العهد والصلح إلى الإسلام , فصاروا معه قسمين:محاربين وأهل ذمة . والمحاربون له خائفون منه . . فصار أهل ا

لأرض معه ثلاثة أقسام:مسلم مؤمن به . ومسالم له آمن . وخائف محارب . . وأما سيرته في المنافقين فإنه أمر أن يقبل منهم علانيتهم ويكل سرائرهم إلى الله ; وأن يجاهدهم بالعلم والحجة ; وأمر أن يعرض عنهم , ويغلظ عليهم , وأن يبلغ بالقول البليغ إلى نفوسهم ; ونهى أن يصلي عليهم , وأن يقوم على قبورهم ; وأخبر أنه إن استغفر لهم فلن يغفر الله لهم . . فهذه سيرته في أعدائه من الكفار والمنافقين" . . انتهى .

"ومن هذا التلخيص الجيد لمراحل الجهاد في الإسلام تتجلى سمات أصيلة وعميقة في المنهج الحركي لهذا الدين , جديرة بالوقوف أمامها طويلا . ولكننا في هذه الظلال لا نملك إلا أن نشير إليها إشارات مجملة:

"السمة الأولى:هي الواقعية الجدية في منهج هذا الدين . . فهو حركة تواجه واقعا بشريا . . وتواجهه بوسائل مكافئة لوجوده الواقعي . . إنها تواجه جاهلية اعتقادية تصورية , تقوم عليها أنظمة واقعية عملية , تسندها سلطات ذات قوة مادية . . ومن ثم تواجه الحركة الإسلامية هذا الواقع كله بما يكافئه . . تواجهه بالدعوة والبيان لتصحيح المعتقدات والتصورات ; وتواجهه بالقوة والجهاد لإزالة الأنظمة و السلطات القائمة عليها , تلك التي تحول بين جمهرة الناس وبين التصحيح بالبيان للمعتقدات والتصورات ; وتخضعهم بالقهر والتضليل , وتعبدهم لغير ربهم الجليل . . إنها حركة لا تكتفي بالبيان في وجه السلطان المادي . كما أنها لا تستخدم القهر المادي لضمائر الأفراد . . وهذه كتلك سواء في منهج هذا الدين وهو يتحرك لإخراج الناس من العبودية للعباد إلى العبودية لله وحده كما سيجئ .

"والسمة الثانية في منهج هذا الدين . . هي الواقعية الحركية . . فهو حركة ذات مراحل . كل مرحلة لها وسائل مكافئة لمقتضياتها وحاجاتها الواقعية . وكل مرحلة تسلم إلى المرحلة التي تليها , فهو لا يقابل الواقع بنظريات مجردة , كما أنه لا يقابل مراحل هذا الواقع بوسائل متجمدة .

والذين يسوقون النصوص القرآنية للاستشهاد بها على منهج هذا الدين في الجهاد , ولا يراعون هذه السمة فيه , ولا يدركون طبيعة المراحل التي مر بها هذا المنهج , وعلاقة النصوص المختلفة بكل مرحلة منها . . الذين يصنعون هذا يخلطون خلطاً شديداً , ويلبسون منهج هذا الدين لبساً مضللا ً , ويحملون النصوص ما لا تحتمله من المباديء والقواعد النهائية . ذلك أنهم يعتبرون كل نص منها كما لو كان نصاً نهائياً , يمثل القواعد النهائية في هذا الدين . ويقولون - وهم مهزومون روحياً وعقلياً تحت ضغط الواقع البائس لذراري المسلمين الذين لم يبق لهم من الإسلا م إلا العنوان -:إن الإسلام لا يجاهد إلا للدفاع ! ويحسبون أنهم يسدون لهذا الدين جميلا بتخليه عن منهجه , وهو إزالة الطواغيت جميعا من الأ رض جميعا , وتعبيد الناس لله وحده , وإخراجهم من العبودية للعباد إلى العبودية لرب العباد ! لا بقهرهم على اعتناق عقيدته , ولكن بالتخلية بينهم وبين هذه العقيدة . بعد تحطيم الأنظمة السياسية الحاكمة , أو قهرها حتى تدفع الجزية , وتعلن استسلامها , والتخلية بين جماهيرها وهذه العقيدة , تعتنقها أو لا تعتنقها بكامل حريتها .

"والسمة الثالثة:هي أن هذه الحركة الدائبة , والوسائل المتجددة , لا تخرج هذا الدين عن قواعده المحددة , ولا عن أهدافه المرسومة . فهو منذ اليوم الأول سواء - وهو يخاطب العشيرة الأقربين , أو يخاطب قريشا ,أو يخاطب العرب أجمعين , أو يخاطب العالمين . . إنما يخاطبهم بقاعدة واحدة ; ويطلب منهم الانتهاء إلى هدف واحد . . هو إخلاص العبودية لله , والخروج من العبودية للعباد . . . لا مساومة في هذه القاعدة ولا لين . . ثم يمضي إلى تحقيق هذا الهدف الواحد , في خطة مرسومة , ذات مراحل محددة , لكل مرحلة وسائلها المتجددة . . على نحو ما أسلفنا في الفقرة السابقة .

"والسمة الرابعة:هي ذلك الضبط التشريعي للعلاقات بين المجتمع المسلم وسائر المجتمعات الأخرى - على النحو الملحوظ في ذلك التلخيص الجيد الذي نقلناه عن زاد المعاد - وقيام ذلك الضبط على أساس أن الإس

لام لله هو الأصل العالمي الذي على البشرية كلها أن تفيء إليه ; أو أن تسالمه بجملتها فلا تقف لدعوته بأي حائل من نظام سياسي , أو قوة مادية . وأن تخلي بينه وبين كل فرد , يختاره أو لا يختاره بمطلق إرادته . ولكن لا يقاومه ولا يحاربه . فإن فعل ذلك أحد , كان على الإسلا م أن يقاتله حتى يقتله , أو يعلن استسلامه ! " .

في ضوء هذا البيان نستطيع أن نفهم لم كانت هذه الأحكام الأخيرة الواردة في هذه السورة:من براءة الله ورسوله من عهود المشركين ; وإمهال ذوي العهود الموقوتة منهم - ممن لم ينقضوا مع المسلمين عهدا , ولم يظاهروا عليهم أحدا - إلى مدتهم . وإمهال ذوي العهود غير الموقوتة - ممن لم ينقضوا مع المسلمين عهدا كذلك ولم يظاهروا عليهم أحدا - إلى أربعة أشهر ; ومثلهم من لم يكن لهم مع المسلمين عهد أصلا من المشركين . ونبذ عهود الناقضين لعهودهم , مع إمهالهم أربعة أشهر يسيحون في الأرض آمنين . فإذا انسلخت هذه الأشهر أخذوا وقتلوا حيث وجدوا وحوصروا ومنعوا من التنقل وهم آمنون . . كما نفهم الأ حكام الواردة فيها عن قتال أهل الكتاب المنحرفين عن دين الله الصحيح , حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون . . ثم الأحكام الواردة بجهاد المنافقين مع الكافرين بالغلظة عليهم . وعدم الصلاة على موتاهم أو القيام على قبورهم . . وكلها أحكام تعدل الأحكام المرحلية السابقة في السور التي نزلت قبل التوبة . وهذا التعديل نحسب أنه أصبح مفهوما لنا الآن , في ضوء ذلك البيان !

وليس هنا مجال تفصيل القول في هذه الأحكام الأخيرة , ولا في الأ حكام المرحلية السابقة لها ; ولا في غيرها من موضوعات السورة الأ خرى . فسنعرض لهذا كله بالتفصيل - إن شاء الله - عند استعراض النصوص القرآنية في سياق السورة بالتفصيل .

ولكننا فقط نبادر فنقول:إن تلك الأحكام المرحلية ليست منسوخة بحيث لا يجوز العمل بها في أي ظرف من ظروف الأمة المسلمة بعد

نزول الأحكام الأخيرة في سورة التوبة . ذلك أن الحركة والواقع الذي تواجهه في شتى الظروف والأمكنة والأزمنة هي التي تحدد- عن طريق الاجتهاد المطلق - أي الأحكام هو أنسب للأخذ به في ظرف من الظروف , في زمان من الأزمنة . في مكان من الأمكنة ! مع عدم نسيان الأحكام الأخيرة التي يجب أن يصار إليها , متى أصبحت الأمة المسلمة في الحال التي تمكنها من تنفيذ هذه الأحكام ; كما كان حالها عند نزول سورة التوبة , وما بعد ذلك أيام الفتوحات الإسلامية التي قامت على أساس من هذه الأحكام الأخيرة النهائية . سواء في معاملة المشركين أو أهل الكتاب .

إن المهزومين في هذا الزمان أمام الواقع البائس لذراري المسلمين - الذين لم يبق لهم من الإسلام إلا العنوان - وأمام الهجوم الاستشراقي الماكر على أصل الجهاد في الإسلام ; يحاولون أن يجدوا في النصوص المرحلية مهربا من الحقيقة التي يقوم عليها الانطلاق الإسلامي في الأرض لتحرير الناس كافة من عبادة العباد , وردهم جميعا إلى عبادة الله وحده ; وتحطيم الطواغيت والأنظمة والقوى التي تقهرهم على عبادة غير الله , والخضوع لسلطان غير سلطانه , والتحاكم إلى شرع غير شرعه . .

ومن ثم نراهم يقولون مثلا:إن الله سبحانه يقول: (وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله). . ويقول: (لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم). . ويقول:(وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين). . . ويقول عن أهل الكتاب:(قل:يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله . فإن تولوا فقولوا:اشهدوا بأنا مسلمون). .

فالإسلام إذن لا يقاتل إلا الذين يقاتلون أهل دار الإسلام في داخل

حدود هذه الدار أو الذين يهددونها من الخارج ! وأنه قد عقد صلح الحديبية مع المشركين . وأنه قد عقد معاهدة مع يهود المدينة ومشركيها ! ومعنى ذلك - في تصورهم المهزوم - أن لا علاقة للإسلام إذن بسائر البشر في أنحاء الأرض . ولا عليه أن يعبدوا ما يعبدون من دون الله . ولا عليه أن يتخذ الناس بعضهم بعضا أربابا من دون الله في ا لأرض كلها ما دام هو آمنا داخل حدوده الاقليمية ! وهو سوء ظن بالإس لام وسوء ظن بالله - سبحانه ! - تمليه الهزيمة أمام الواقع البائس النكد الذي يواجههم ; وأمام القوى العالمية المعادية التي لا طاقة لهم بها في اللحظة الحاضرة !

وهان الأمر لو أنهم حين يهزمون روحيا أمام هذه القوى لا يحيلون هزيمتهم إلى الإسلام ذاته ; ولا يحملونه على ضعف واقعهم الذي جاءهم من بعدهم عن الإسلام أصلا ! ولكنهم يأبون إلا أن يحملوا ضعفهم هم وهزيمتهم على دين الله القوي المتين !

إن هذه النصوص التي يلتجئون إليها نصوص مرحلية تواجه واقعا معينا . وهذا الواقع المعين قد يتكرر وقوعه في حياة الأمة المسلمة . وفي هذه الحالة تطبق هذه النصوص المرحلية لأن واقعها يقرر أنها في مثل تلك المرحلة التي واجهتها تلك النصوص بتلك الأحكام . ولكن هذا ليس معناه أن هذه هي غاية المنى ; وأن هذه هي نهاية خطوات هذا الدين . . إنما معناه أن على الأمة المسلمة أن تمضي قدما في تحسين ظروفها ; وفي إزالة العوائق من طريقها , حتى تتمكن في النهاية من تطبيق الأحكام النهائية الواردة في السورة الأخيرة , والتي كانت تواجه واقعا غير الواقع الذي واجهته النصوص المرحلية .

إن النصوص الأخيرة تقول في شأن المشركين:

(براءة من الله ورسوله إلى الذين عاهدتم من المشركين , فسيحوا في ا لأرض أربعة أشهر واعلموا أنكم غير معجزي الله , وأن الله مخزي الكافرين . وأذان من الله ورسوله إلى الناس يوم الحج الأكبر أن الله

بريء من المشركين ورسوله , فإن تبتم فهو خير لكم , وإن توليتم فاعلموا أنكم غير معجزي الله وبشر الذين كفروا بعذاب أليم . إلا الذين عاهدتم من المشركين ثم لم ينقصوكم شيئا , ولم يظاهروا عليكم أحدا , فأتموا إليهم عهدهم إلى مدتهم إن الله يحب المتقين . فإذا انسلخ الأ شهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم وخذوهم واحصروهم واقعدوا لهم كل مرصد , فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم إن الله غفور رحيم .وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله , ثم أبلغه مأمنه ذلك بأنهم قوم لا يعلمون). .

وتقول في شأن أهل الكتاب:

(قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله , ولا باليوم الآخر , ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله , ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب , حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون). .

فإذا كان المسلمون اليوم لا يملكون بواقعهم تحقيق هذه الأحكام ; فهم - اللحظة وموقتا - غير مكلفين بتحقيقها - ولا يكلف الله نفسا إلا وسعها - ولهم في الأحكام المرحلية سعة يتدرجون معها حتى ينتهوا إلى تنفيذ هذه الأحكام الأخيرة عندما يكونون في الحال التي يستطيعون معها تنفيذها . . ولكن عليهم ألا يلووا أعناق النصوص النهائية لتوافق أحكام النصوص المرحلية . وعليهم ألا يحملوا ضعفهم الحاضر على دين الله القوي المتين . وعليهم أن يتقوا الله في مسخ هذا الدين وإصابته بـ الهزال بحجة أنه دين السلم والسلام ! إنه دين السلم والسلام فعلا , ولكن على أساس إنقاذ البشرية كلها من عبادة غير الله , وإدخال البشرية كافة في السلم كافة . . إنه منهج الله هذا الذي يراد البشر على الارتفاع إليه , والاستمتاع بخيره ; وليس منهج عبد من العبيد ; ولا مذهب مفكر من البشر ; حتى يخجل الداعون إليه من إعلان أن هدفهم الأخير هو تحطيم كل القوى التي تقف في سبيله ; لإطلاق الحرية للناس أفرادا في اختياره . .

إنه حين تكون المذاهب التي يتبعها الناس مذاهب بشرية من صنع العبيد ; وحين تكون الأنظمة والشرائع التي تصرف حياتهم من وضع العبيد أيضا . فإنه في هذه الحالة يصبح لكل مذهب ولكل نظام الحق في أن يعيش داخل حدوده آمنا , ما دام أنه لا يعتدي على حدود الآخرين , ويصبح من حق هذه المذاهب والأنظمة والأوضاع المختلفة أن تتعايش وألا يحاول أحدها إزالة الآخر !

فأما حين يكون هناك منهج إلهي وشريعة ربانية , ووضع العبودية فيه لله وحده ; وتكون إلى جانبه مناهج ومذاهب وأوضاع من صنع البشر العبودية فيها للعباد . . فإن الأمر يختلف من أساسه . ويصبح من حق المنهج الإلهي أن يجتاز الحواجز البشرية ; ويحرر البشر من العبودية للعباد ; ويتركهم أحرارا في اختيار العقيدة التي يختارونها في ظل الدينونة لله وحده .

والمهزومون الذين يحاولون أن يلووا أعناق النصوص ليا ليخرجوا من الحرج الذي يتوهمونه في انطلاق الإسلام وراء حدوده الأولى ليحرر البشر في الأرض كلها من العبودية لغير الله . ينسون هذه الحقيقة الكبرى . . وهي أن هناك منهجا ربانيا العبودية فيه لله وحده يواجه مناهج بشرية العبودية فيها للعبيد !!!

إن للجهاد المطلق في هذا الدين مبرراته النابعة من ذات المنهج الإلهي ; فليراجعها المهزومون الذين يحملون هزيمتهم وضعفهم على هذا الدين . لعل الله أن يرزقهم القوة من عنده ; وأن يجعل لهم الفرقان الذي وعد به عباده المتقين !

وأخيرا فإن هذه السورة لم تكتب البسملة في أولها كبقية السور - في مصحف عثمان رضي الله عنه وهوعمدة المصاحف - وقد روى الترمذي - بإسناده - عن ابن عباس قال:" قلت لعثمان بن عفان ما حملكم أن عمدتم إلى الأنفال - وهي من المثاني - وإلى براءة - وهي من المئين - وقرنتم بينهما , ولم تكتبوا بينهما سطر(بسم الله الرحمن الرحيم)? ووضعتموها

في السبع الطوال ? ما حملكم على ذلك ? فقال عثمان:كان رسول الله [ص] كان مما يأتي عليه الزمان وهو تتنزل عليه السور ذات العدد . فكان إذا نزل عليه الشيء دعا بعض من كان يكتب , فيقول:" ضعوا هذه الآية في السورة التي يذكر فيها كذا وكذا" . وكانت الأنفال من أول ما نزل بالمدينة . وكانت براءة من آخر ما نزل من القرآن . وكانت قصتها شبيهة بقصتها . وخشيت أنها منها . وقبض رسول الله [ص] ولم يبين لنا أنها منها . فمن أجل ذلك قرنت بينهما , ولم أكتب بينهما سطر:(بسم الله الرحمن الرحيم), ووضعتهما في السبع الطوال" .

وهذه الرواية أقرب الروايات إلى تقديم تفسير مقبول لوضع السورتين هكذا , وعدم الفصل بينهما بسطر:(بسم الله الرحمن الرحيم). كما أنها تفيدنا في تقرير أن وضع الآيات في السور , وترتيبها في مواضعها , كان يتم بأمر رسول الله [ص] في حياته . وأن سورا متعددة كانت تظل مفتوحة في الوقت الواحد ; فإذا نزلت آية أو آيات في مناسبة واقعة تواجه واقعا قائما . أو تكمل حكما أو تعد له , وفق المنهج , الحركي الواقعي لهذا الدين , أمر رسول الله [ص] أن توضع في موضعها من سورتها . . وبذلك كانت هناك حكمة معينة في أن تتضمن كل سورة ما تضمنته من الآيات , وحكمة معينة كذلك في ترتيبها في مواضعها من السورة .

ولقد لاحظنا - كما أثبتنا ذلك مرارا في التعريف بالسور - أن هناك "شخصية " خاصة لكل سورة ; وسمات معينة تحدد ملامح هذه الشخصية . كما أن هناك جوا معينا وظلالا معينة . ثم تعبيرات بعينها في السورة الواحدة . تؤكد هذه الملامح , وتبرز تلك الشخصية ! ولعل في الفقرة السابقة , وفي حديث ابن عباس قبلها , ما يفسر هذه الظاهرة الواضحة التي أثبتناها مرارا في التعريف بالسور في هذه الظلال .

نعود مرة أخرى إلى الحياة مع القرآن المكي , بجوه الخاص , وظلاله وإيقاعاته وإيحاءاته . بعدما عشنا فترة في هذه الظلال مع سورتي الأ نفال والتوبة من القرآن المدني .

والقرآن المكي , ولو أنه قرآن من القرآن , يشترك مع سائره في خصائصه القرآنية العامة ; وفي تفرده من كل قول آخر لا يحمل الطابع الرباني الفريد العجيب , في الموضوع وفي الأداء سواء . . إلا أن له مع ذلك جوه الخاص , ومذاقه المعين , الذي يعينه موضوعه الأساسي [وهو في اختصار:حقيقة الألوهية , وحقيقة العبودية , وحقيقة العلاقات بينهما ; وتعريف الناس بربهم الحق الذي ينبغي أن يدينوا له ويعبدوه , ويتبعوا أمره وشرعه ; وتنحية كل ما دخل على العقيدة الفطرية الصحيحة من غبش ودخل وانحراف والتواء ; ورد الناس إلى إلههم الحق الذي يستحق الدينونة لربوبيته] . . كما يعينه أسلوب العرض لهذا الموضوع . وهو أسلوب موح , عميق الإيقاع , بالغ التأثير ; حيث تشترك في أداء هذا الغرض كل خصائص التعبير , من البناء اللفظي , إلى المؤثرات الموضوعية على النحو الذي فصلناه من قبل , في سورة الأنعام , والذي سنلم به هنا إن شاء الله .

ولقد كان آخر عهدنا - في هذه الظلال - بالقرآن المكي سورة الأنعام وسورة الأعراف متواليتين في ترتيب المصحف - وإن لم تكونا متواليتين في ترتيب النزول - ثم جاءت الأنفال والتوبة بجوهما وطبيعتهما وموضوعاتهما المدنية الخاصة - فالآن إذ نعود إلى القرآن المكي نجد سورتي يونس وهود متواليتين في ترتيب المصحف وفي ترتيب النزول أيضا . . والعجيب أن هناك شبها كبيرا بين هاتين السورتين وتلكما في الموضوع , وفي طريقة عرض هذا الموضوع كذلك ! فسورة الأنعام تتناول حقيقة العقيدة ذاتها , وتواجه الجاهلية

بها , وتفند هذه الجاهلية عقيدة وشعورا , وعبادة وعملا . بينما سورة الأعراف تتناول حركة هذه العقيدة في الأرض وقصتها في مواجهة الجاهلية على مدار التاريخ . وكذلك نحن هنا مع سورتي يونس وهود . . في شبه كبير في الموضوع وفي طريقة العرض أيضا . . إلا أن سورة الأنعام تنفرد عن سورة يونس , بارتفاع وضخامة في الإيقاع ,وسرعة وقوة في النبض , ولألاء شديد في التصوير والحركة . . بينما تمضي سورة يونس , في إيقاع رخي , ونبض هادئ , وسلاسة وديعة ! . . فأما هود فهي شديدة الشبه بالأعراف موضوعا وعرضا وإيقاعا ونبضا . . ثم تبقى لكل سورة شخصيتها الخاصة , وملامحها المميزة , بعد كل هذا التشابه والاختلاف !

والموضوع الرئيسي في سورة يونس هو ذات الموضوع العام للقرآن المكي الذي سبق بيانه في الفقرة السابقة . . والسورة تتناول محتوياته وفق طريقتها الخاصة , التي تحدد شخصيتها وملامحها . . ونحن لا نملك - في هذا التقديم - إلا تلخيص هذه المحتويات واحداً واحداً في إجمال , حتى يجيء بيانها المفصل في أثناء استعراض النصوص القرآنية:

إنها تواجه ابتداء موقف المشركين في مكة من حقيقة الوحي إلى رسول الله - [ص] - ومن هذا القرآن ذاته بالتبعية ; فتقرر لهم أن الوحي لا عجب فيه , وأن هذا القرآن ما كان ليفترى من دون الله:(الر تلك آيات الكتاب الحكيم . أكان للناس عجبا أن أوحينا إلى رجل منهم أن أنذر الناس , وبشر الذين آمنوا أن لهم قدم صدق عند ربهم , قال الكافرون إن هذا لساحر مبين). .(وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات , قال الذين لا يرجون لقاءنا:ائت بقرآن غير هذا أو بدله . قل:ما يكون لي أن أبدله من تلقاء نفسي , إن أتبع إلا ما يوحى إلي , إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم . قل:لو شاء الله ما تلوته عليكم ولا أدراكم به , فقد لبثت فيكم عمرا من قبله , أفلا تعقلون ? فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا أو كذب بآياته ? إنه لا يفلح المجرمون). .(وما كان هذا القرآن

أن يفترى من دون الله , ولكن تصديق الذي بين يديه , وتفصيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين . أم يقولون افتراه ؟ قل:فأتوا بسورة مثله , وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين). .

وتواجه طلبهم خارقة مادية - غير القرآن - واستعجالهم بالوعيد الذي يسمعونه . فتقرر لهم أن آية هذا الدين هي هذا القرآن ; وهو يحمل برهانه في تفرده المعجز الذي تتحداهم به . وأن الآيات في يد الله ومشيئته ; وأن موعدهم بالجزاء يتعلق بأجل يقدره الله , والنبي لا يملك شيئا فهو عبد من عباد الله . - وفي هذا جانب من التعريف لهم بربهم الحق وحقيقة الألوهية وحقيقة العبودية -:(ولقد أهلكنا القرون من قبلكم لما ظلموا وجاءتهم رسلهم بالبينات , وما كانوا ليؤمنوا , كذلك نجزي القوم المجرمين . ثم جعلناكم خلائف في الأرض من بعدهم , لننظر كيف تعملون). .(ولكل أمة رسول , فإذا جاء رسولهم قضي بينهم بـ القسط وهم لا يظلمون . ويقولون:متى هذا الوعد , إن كنتم صادقين ؟ قل:لا أملك لنفسي ضرا ولا نفعا إلا ما شاء الله , لكل أمة أجل إذا جاء أجلهم فلا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون . قل:أرأيتم إن أتاكم عذابه بياتاً أو نهاراً ؟ ماذا يستعجل منه المجرمون ؟ أثم إذا ما وقع آمنتم به ؟ آلآن وقد كنتم به تستعجلون ؟!). .(ويقولون:لولا أنزل عليه آية من ربه ! فقل:إنما الغيب لله , فانتظروا إني معكم من المنتظرين).

وتواجه اضطراب تصورهم لحقيقة الألوهية وحقيقة العبودية - الأمر الذي يحدثهم رسول الله [ص] فيه , فيكذبون بالوحي أو يتشككون فيه ; ويطلبون قرآناً غيره , أو يطلبون خارقة مادية تثبت لهم صحته - بينما هم سادرون في عبادة مالا يضرهم ولا ينفعهم من الشركاء , على اعتقاد أنهم شفعاؤهم عند الله ; كما يزعمون لله الولد سبحانه بلا علم و لا بينة . . فتقرر لهم صفات الإله الحق وآثار قدرته في الوجود من حولهم , وفي وجودهم هم أنفسهم , وفيما يتقلب بهم من ظواهر الكون , وما يتقلب بهم هم من أحوالوهتاف فطرتهم وأنفسهم بربها الحق عند مواجهة الخطر الذي لا دافع له إلا الله . . وهذه هي القضية

الكبرى التي تستغرق قطاعات شتى من السورة ; والتي تتفرع عنها سائر محتوياتها الأخرى: إن ربكم الله الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام , ثم استوى على العرش يدبر الأمر , ما من شفيع إلا من بعد إذنه . ذلكم الله ربكم فاعبدوه , أفلا تذكرون ? إليه مرجعكم جميعاً , وعد الله حقاً , إنه يبدأ الخلق ثم يعيده , ليجزي الذين آمنوا وعملوا الصالحات بـ القسط , والذين كفروا لهم شراب من حميم وعذاب أليم بما كانوا يكفرون . هو الذي جعل الشمس ضياء والقمر نوراً , وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب , ما خلق الله ذلك إلا بالحق , يفصل الآيات لقوم يعلمون .

(إن في اختلاف الليل والنهار وما خلق الله في السماوات والأرض لآيات لقوم يتقون). . (ويعبدون من دون الله مالا يضرهم ولا ينفعهم , ويقولون:هؤلاء شفعاؤنا عند الله . قل:أتنبؤن الله بما لا يعلم في السماوات ولا في الأرض ? سبحانه وتعالى عما يشركون). .(هو الذي يسيركم في البر والبحر , حتى إذا كنتم في الفلك وجرين بهم بريح طيبة وفرحوا بها جاءتها ريح عاصف , وجاءهم الموج من كل مكان , وظنوا أنهم أحيط بهم , دعوا الله مخلصين له الدين:لئن أنجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين . فلما أنجاهم إذا هم يبغون في الأرض بغير الحق , يا أيها الناس إنما بغيكم على أنفسكم متاع الحياة الدنيا , ثم إلينا مرجعكم فننبئكم بما كنتم تعملون). .(قل:من يرزقكم من السماء والأ رض ? أم من يملك السمع والأبصار ? ومن يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي ? ومن يدبر الأمر ? فسيقولون:الله . فقل:أفلا تتقون ? فذلكم الله ربكم الحق , فماذا بعد الحق إلا الضلال ! فأنى تصرفون ?). . (قل هل من شركائكم من يبدأ الخلق ثم يعيده ? قل:الله يبدأ الخلق ثم يعيده , فأنى تؤفكون ? قل:هل من شركائكم من يهدي إلى الحق ? قل:الله يهدي للحق . أفمن يهدي إلى الحق أحق أن يتبع أم من لا يهدي إلا أن يهدي ? فما لكم كيف تحكمون ? وما يتبع أكثرهم إلا ظنا , إن الظن لا يغني من الحق شيئاً , إن الله عليم بما يفعلون). .(ألا إن

لله من في السماوات ومن في الأرض , وما يتبع الذين يدعون من دون الله شركاء , إن يتبعون إلا الظن , وإن هم إلا يخرصون . هو الذي جعل لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار مبصراً , إن في ذلك لآيات لقوم يسمعون). .(قالوا:اتخذ الله ولداً - سبحانه - هو الغني له ما في السماوات وما في الأرض , إن عندكم من سلطان بهذا ? أتقولون على الله ما لا تعلمون ? قل:إن الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون . متاع في الدنيا ثم إلينا مرجعهم , ثم نذيقهم العذاب الشديد بما كانوا يكفرون). .(ألا إن لله ما في السماوات والأرض . ألا إن وعد الله حق ولكن أكثرهم لا يعلمون . هو يحيي ويميت وإليه ترجعون).

وتصور لهم حضور الله - سبحانه - وشهوده لكل ما يهم به البشر , وكل ما يزاولون من نية وعمل ; مما يملأ الحس البشري بالرهبة والروعة , كما يملؤه بالحذر واليقظة . . وذلك في مثل قوله تعالى في هذه السورة:

وما تكون في شأن وما تتلوا منه من قرآن . ولا تعملون من عمل إلا كنا عليكم شهودا إذ تفيضون فيه . وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة في الأ رض ولا في السماء , ولا أصغر من ذلك ولا أكبر , إلا في كتاب مبين .

كذلك تملأ نفوسهم بالتوجس والتوقع لبأس الله في كل لحظة , ليخرجوا من الغفلة التي ينشئها الرخاء والنعمة ; ولا ينخدعوا بازدهار الحياة حولهم فيأمنوا بأس الله الذي يأتي بغتة: (إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض , مما يأكل الناس والأ نعام . حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازينت , وظن أهلها أنهم قادرون عليها , أتاها أمرنا ليلا أو نهارا , فجعلناها حصيدا كأن لم تغن بالأ مس .كذلك نفصل الآيات لقوم يتفكرون). .(قل:أرأيتم إن أتاكم عذابه بياتا أو نهارا ! ماذا يستعجل منه المجرمون ? أثم إذا ما وقع آمنتم به ? آلآن وقد كنتم به تستعجلون ? !).

وتواجه اطمئنانهم للحياة الدنيا ورضاهم بها عن الآخرة , وتكذيبهم بلقاء الله , بتحذيرهم من هذه الطمأنينة الخادعة , ومن الخسارة في الصفقة

الدون التي يرضونها , وتعريفهم بأن هذه الحياة الدينا إنما هي للابتلاء , وفي الآخرة الجزاء . . ثم تواجههم بعرض مشاهد متنوعة من مشاهد القيامة ; وخاصة ما يتصل منها بتخلي الشركاء عن عبادهم , وتبرئهم منهم إلى الله , وتعذر الفداء من العذاب مهما كبر الفداء:(إن الذين لا يرجون لقاءنا ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها , والذين هم عن آياتنا غافلون . أولئك مأواهم النار بما كانوا يكسبون . إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات يهديهم ربهم بإيمانهم , تجري من تحتهم الأنهار في جنات النعيم . دعواهم فيها:سبحانك اللهم . وتحيتهم فيها سلام . وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين). .(ولقد أهلكنا القرون من قبلكم لما ظلموا , وجاءتهم رسلهم بالبينات وما كانوا ليؤمنوا , كذلك نجزي القوم المجرمين . ثم جعلناكم خلائف في الأرض من بعدهم لننظر كيف تعملون). . (والله يدعو إلى دار السلام ويهدي من يشاء إلى صراط مستقيم . للذين أحسنوا الحسنى وزيادة , ولا يرهق وجوههم قتر ولا ذلة , أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون . والذين كسبوا السيئات جزاء سيئة بمثلها , وترهقهم ذلة , مالهم من الله من عاصم , كأنما أغشيت وجوههم قطعا . من الليل مظلما , أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون). . (ويوم نحشرهم جميعا , ثم نقول للذين أشركوا:مكانكم أنتم وشركاؤكم ! فزيلنا بينهم , وقال شركاؤهم:ما كنتم إيانا تعبدون . فكفى بالله شهيدا بيننا وبينكم , إن كنا عن عبادتكم لغافلين . هنالك تبلو كل نفس ما أسلفت , وردوا إلى الله مولاهم الحق , وضل عنهم ما كانوا يفترون). .(ويوم يحشرهم كأن لم يلبثوا إلا ساعة من النهار يتعارفون بينهم . قد خسر الذين كذبوا بلقاء الله وما كانوا مهتدين). .(ولو أن لكل نفس ظلمت ما في الأرض لافتدت به , وأسروا الندامة لما رأوا العذاب , وقضي بينهم بالقسط , وهم لا يظلمون). .

ثم تواجه ما يترتب على اضطراب تصورهم للألوهية ; وما يترتب على تكذيبهم بالبعث والآخرة , وما يترتب على تكذيبهم بالوحي والنذارة , من انطلاقهم في واقع الحياة العملية يزاولون خصائص الربوبية في

التشريع لحياتهم , والتحليل والتحريم في أرزاقهم ومعاملاتهم وفق ما تصوره لهم وثنيتهم واعتقادهم بالشركاء الذين يجعلون لهم نصيبا مما رزقهم الله يأخذه السدنة والكهنة ليحلوا لهم ما يشاءون ويحرموا عليهم ما يشاءون . . وهي القضية الكبرى التي تلي قضية الاعتقاد وتنبثق منها:(قل:أرأيتم ما أنزل الله لكم من رزق فجعلتم منه حراما وحلالا ? قل:آلله أذن لكم ? أم على الله تفترون ? وما ظن الذين يفترون على الله الكذب يوم القيامة ? إن الله لذو فضل على الناس , ولكن أكثرهم لا يشكرون).

والسورة تحتشد - في إبلاغ تلك الحقائق التي تحتويها وتثبيتها وتعميقها واستجاشة القلوب والعقول لها - بشتى المؤثرات الموحية , التي يحفل بها الأداء القرآني الفريد في الموضوع وفي التعبير عنه سواء . وهي مؤثرات - على عمقها وحيويتها وحركتها - تناسب شخصية السورة وطبيعتها التي تحدثنا في الفقرة الأولى عنها . . وهذه نماذج منها , نلم بها هنا إجمالا , حتى نستعرضها في السياق تفصيلا:

تحتشد السورة بمشاهد هذا الكون وظواهره , الموحية للفطرة البشرية بحقيقة الألوهية , الدالة على التدبير الحكيم , والقصد المرسوم في بناء هذا الكون وتصريفه , وفي الموافقات المبثوثة فيه لنشأة الحياةوالأحياء , ولحياة الكائن الإنساني وتلبية حاجاته في حياته . . وقضية الألوهية يعرضها القرآن في هذه الصورة الحية الواقعية الموحية ; ولا يعرضها في أسلوب الجدل الفلسفي والمنطق الذهني , والله خالق هذا الكون وخالق هذا الإنسان يعلم - سبحانه - أن بين فطرة هذا الإنسان ومشاهد هذا الكون وأسراره لغة مفهومة ! وتجاوباً أعمق من منطق الذهن البارد الجاف ; وأن هذه الفطرة يكفي أن توجه إلى مشاهد هذا الكون وأسراره ; وأن تستجاش لتستيقظ فيها أجهزة الاستقبال و التلقي ; وأنها عندئذ تهتز وتتفتح وتتلقى وتستجيب . . ومن ثم يكثر خطاب الفطرة البشرية - في القرآن - بهذه اللغة المفهومة . . وهذه نماذج من هذا الخطاب العميق الموحي:

إن ربكم الله الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام , ثم استوى على العرش , يدبر الأمر , ما من شفيع إلا من بعد إذنه . ذلكم الله ربكم فاعبدوه . أفلا تذكرون ? . .

(هو الذي جعل الشمس ضياء والقمر نوراً , وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب . ما خلق الله ذلك إلا بالحق , يفصل الآيات لقوم يعلمون . إن في اختلاف الليل والنهار وما خلق الله في السماوات والأ رض لآيات لقوم يتقون). .

(قل:من يرزقكم من السماء والأرض ; أم من يملك السمع والأبصار ? ومن يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي ? ومن يدبر الأ مر ? فسيقولون الله , فقل:أفلا تتقون ? فذلكم الله ربكم الحق , فماذا بعد الحق إلا الضلال ? فأنى تصرفون ?).

(هو الذي جعل لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار مبصرا , إن في ذلك لآيات لقوم يسمعون). .

(قل:انظروا ماذا في السماوات والأرض , وما تغني الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون). .

وتحتشد بمشاهد الأحداث والتجارب التي يشهدونها بأعينهم ويعيشونها بأنفسهم ; ولكنهم يمرون بها غافلين عن دلالتها على التدبير والتقدير , و التصريف والتسيير . . ويعرض السياق القرآني لهم مشاهد من واقعهم هم في استقبال تلك الأحداث والتجارب ; كما ترفع المرآة للغافل عن نفسه فيرى فيها كيف هو على حقيقته ! وهذه نماذج من ذلك المنهج القرآني الفريد:

(وإذا مس الإنسان الضر دعانا لجنبه أو قاعدا أو قائما . فلما كشفنا عنه ضره مر كأن لم يدعنا إلى ضر مسه ! كذلك زين للمسرفين ما كانوا يعملون !). .

(وإذا أذقنا الناس رحمة من بعد ضراء مستهم إذا لهم مكر في آياتنا ! قل:الله أسرع مكرا , إن رسلنا يكتبون ما تمكرون . هو الذي يسيركم في البر والبحر , حتى إذا كنتم في الفلك , وجرين بهم بريح طيبة وفرحوا بها جاءتها ريح عاصف , وجاءهم الموج من كل مكان , وظنوا أنهم أحيط بهم , دعوا الله مخلصين له الدين:لئن أنجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين . فلما أنجاهم إذا هم يبغون في الأرض بغير الحق . يا أيها الناس إنما بغيكم على أنفسكم متاع الحياة الدنيا , ثم إلينا مرجعكم فننبئكم بما كنتم تعملون). .

وتحتشد بمصارع الغابرين من المكذبين . آناً في صورة الخبر , وآنا في صورة قصص بعض الرسل .

وتلتقي كلها عند عرض مشاهد التدمير على المكذبين ; وتهديدهم بمثل هذا المصير الذي لقيه من قبلهم . فلا تغرنهم الحياة الدنيا , فإن هي إلا فترة قصيرة للابتلاء . أو ساعة من نهار يتعارف فيها الناس , ثم يعودون إلى دار الإقامة في العذاب أو في النعيم !

(ولقد أهلكنا القرون من قبلكم لما ظلموا وجاءتهم رسلهم بالبينات وما كانوا ليؤمنوا . كذلك نجزي القوم المجرمين . ثم جعلناكم خلائف في الأ رض من بعدهم لننظر كيف تعملون). .

(واتل عليهم نبأ نوح إذ قال لقومه:يا قوم إن كان كبر عليكم مقامي وتذكيري بآيات الله فعلى الله توكلت , فأجمعوا أمركم وشركاءكم , ثم لا يكن أمركم عليكم غمة , ثم اقضوا إلي ولا تنظرون . فإن توليتم فما سألتكم من أجر إن أجري إلا على الله , وأمرت أن أكون من المسلمين . فكذبوه فنجيناه ومن معه في الفلك وجعلناهم خلائف وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا . فانظر كيف كان عاقبة المنذرين). .

(ثم بعثنا من بعدهم موسى وهارون إلى فرعون وملئه بآياتنا فاستكبروا وكانوا قوما مجرمين . فلما جاءهم الحق من عندنا قالوا:إن هذا لسحر

مبين . قال موسى:أتقولون للحق لما جاءكم . أسحر هذا ؟ ولا يفلح الساحرون). . إلى قوله تعالى في نهاية القصة: وجاوزنا ببني إسرائيل البحر فأتبعهم فرعون وجنوده بغيا وعدوا - حتى إذا أدركه الغرق ق ال:آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنوا إسرائيل وأنا من المسلمين . آلآ ن ؟ وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين ؟! فاليوم ننجيك ببدنك لتكون لمن خلفك آية , وإن كثيرا من الناس عن آياتنا لغافلون . .

(فهل ينتظرون إلا مثل أيام الذين خلوا من قبلهم ؟ قل:فانتظروا إني معكم من المنتظرين . ثم ننجي رسلنا والذين آمنوا , كذلك حقا علينا ننج المؤمنين). .

وتحتشد بمشاهد القيامة , تعرض عاقبة المكذبين وعاقبة المؤمنين , عرضا حيا متحركا مؤثرا عميق الإيقاع في القلوب . فتعرض مع مشاهد المصارع في الحياة الدنيا والتدمير على المجرمين ونجاة المؤمنين , صفحتي الحياة في الدارين , وبدء المطاف ونهايته حيث لا مهرب ولا فوت:

(للذين أحسنوا الحسنى وزيادة , ولا يرهق وجوههم قتر ولا ذلة , أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون - والذين كسبوا السيئات جزاء سيئة بمثلها , وترهقهم ذلة , ما لهم من الله من عاصم , كأنما أغشيت وجوههم قطعا من الليل مظلما , أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون). .

(ويوم نحشرهم جميعا , ثم نقول للذين أشركوا:مكانكم أنتم وشركاؤكم ! فزيلنا بينهم , وقال شركاؤكم:ما كنتم إيانا تعبدون . فكفى بالله شهيدا بيننا وبينكم إن كنا عن عبادتكم لغافلين . هنالك تبلو كل نفس ما أسلفت , وردوا إلى الله مولاهم الحق , وضل عنهم ما كانوا يفترون . .

(ولو أن لكل نفس ظلمت ما في الأرض لافتدت به ! وأسروا الندامة لما رأوا العذاب , وقضي بينهم بالقسط وهم لا يظلمون). .

ومن المؤثرات التي تحتشد بها السورة تحدي المشركين المكذبين بـ الوحي , أن يأتوا بآية من مثل هذا القرآن . . ثم توجيه الرسول [ص] بعد دعوتهم وتحديهم , إلى تركهم ومصيرهم - وهو مصير المكذبين الظالمين من قبلهم - والمضي في طريقه المستقيم لا يحفلهم ولا يأبه لشأنهم . . والتحدي ثم المفاصلة والاستعلاء على هذا النحو مما يوقع في قلوبهم أن هذا النبي واثق من الحق الذي معه , واثق من ربه الذي يتولاه . وهذا بدوره يهز القلوب ويزلزل العناد:

(وما كان هذا القرآن أن يفترى من دون الله ; ولكن تصديق الذي بين يديه , وتفصيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين . أم يقولون افتراه ? قل:فأتوا بسورة مثله وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين . بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولما يأتهم تأويله . كذلك كذب الذين من قبلهم . فانظر كيف كان عاقبة الظالمين). .

قل:يأيها الناس إن كنتم في شك من ديني فلا أعبد الذين تعبدون من دون الله . ولكن أعبد الله الذي يتوفاكم , وأمرت أن أكون من المؤمنين . وأن أقم وجهك للدين حنيفا , ولا تكونن من المشركين . ولا تدع من دون الله مالا ينفعك ولا يضرك فإن فعلت فإنك إذن من الظالمين . وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو , وإن يردك بخير فلا راد لفضله , يصيب به من يشاء من عباده , وهو الغفور الرحيم . . قل يا أيها الناس قد جاءكم الحق من ربكم . فمن اهتدى فإنما يهتدي لنفسه , ومن ضل فإنما يضل عليها , وما أنا عليكم بوكيل . واتبع ما يوحى إليك واصبر حتى يحكم الله , وهو خير الحاكمين . .

وبهذه المفاصلة تختم السورة ويختم هذا الحشد من المؤثرات التي سقنا نماذج منها لا تستقصي ما في السورة من هذا المنهج القرآني الفريد في مخاطبة القلوب والعقول .

هذه السورة نزلت بعد سورة الإسراء . وقد حمي الجدل من المشركين حول صدق الوحي , وحول هذا القرآن , وما يواجههم به من تسفيه

لعقائدهم , ومن تنديد بجاهليتهم , ومن كشف لما في كيانها من تناقض واضح . تناقض بين ما يعتقدونه من أن الله - سبحانه - هو الخالق الرازق , المحيي المميت , المدبر المتصرف في كل شيء , القادر على كل شيء - وهي الجذور الباقية من حنيفية إبراهيم وإسماعيل - عليهما السلام - وبين ما يدعونه لله سبحانه من الولد , حيث كانوا يدعون أن الملائكة بنات الله , ويتخذونهم شفعاء عند الله , ويعبدون تماثيلهم من الأصنام على هذا الاعتبار ! ثم ما ينشأ عن هذا الاضطراب العقيدي من آثار في حياتهم ; وفي أوله ما كان يزاوله الكهان والرؤساء فيهم من تحريم وتحليل في الثمار والأنعام ; وجعل نصيب منها لله ونصيب لآلهتهم المدعاة !

وعندئذ كانوا يواجهون حملة القرآن على عقائدهم المهلهلة وجاهليتهم المتناقضة بأن يكذبوا رسول الله [ص] في نبوته والوحي إليه من ربه ; ويزعمون أنه ساحر ! وأن يطلبوا منه أن يأتيهم بخارقة تدل على أن الله أوحى إليه ; ويفتتنون في طلب هذه الخوارق على ما ورد من ذلك في سورة الإسراء مما حكاه القرآن الكريم عنهم . في مثل قوله تعالى: ولقد صرفنا للناس في هذا القرآن من كل مثل , فأبى أكثر الناس إلا كفورا . وقالوا:لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا , أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيرا , أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا , أو تأتي بالله والملائكة قبيلا , أو يكون لك بيت من زخرف , أو ترقى في السماء , ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتابا نقرؤه ! قل:سبحان ربي ! هل كنت إلا بشرا رسولا ? وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى إلا أن قالوا:أبعث الله بشرا رسولا ? . . وكما قال تعالى في هذه السورة:(ويقولون:لولا أنزل عليه آية من ربه !! فقل:إنما الغيب لله , فانتظروا إني معكم من المنتظرين). .

كذلك كانوا يطلبون من رسول الله [ص] أن يأتيهم بقرآن غير هذا , لا يتعرض لآلهتهم وعقائدهم وجاهليتهم ; كي يستجيبوا له ويؤمنوا به ! كما قال الله عنهم في هذه السورة: (وإذا تتلى عليهمآياتنا بينات قال

الذين لا يرجون لقاءنا:ائت بقرآن غير هذا أو بدله). . وكان الرد على مثل هذا التعسف الساذج: (قل:ما يكون لي أن أبدله من تلقاء نفسي , إن أتبع إلا ما يوحى إلي , إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم . قل:لو شاء الله ما تلوته عليكم ولا أدراكم به , فقد لبثت فيكم عمرا من قبله أفلا تعقلون ؟ فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا أو كذب بآياته ؟ إنه لا يفلح المجرمون).

نزلت السورة في هذا الجو . وظاهر من سياقها أنها لحمة واحدة , تواجه واقعا متصلا ; حتى ليصعب تقسيمها إلى قطاعات متميزة . وهذا ما ينفي الرواية التي أخذ بها المشرفون على المصحف الأميري من كون الآيات 40 , 94 , 95 , 96 مدنية . . فهذه الآيات متشابكة مع السياق , وبعضها لا يتسق السياق بدونه أصلا !

والترابط في سياق السورة يوحد بين مطلعها وختامها . فيجيء في المطلع قوله تعالى:(الر تلك آيات الكتاب الحكيم . أكان للناس عجبا أن أوحينا إلى رجل منهم أن أنذر الناس , وبشر الذين آمنوا أن لهم قدم صدق , عند ربهم قال الكافرون ! إن هذا لساحر مبين). . ويجيء في الختام:(واتبع ما يوحى إليك واصبر حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين). . فالحديث عن قضية الوحي هو المطلع وهو الختام . كما أنه هو الموضوع المتصل الملتحم بين المطلع والختام .

كذلك يبدو الترابط بين المؤثرات المختلفة في السورة . نذكر مثالا لذلك الرد على استعجالهم بالوعيد , وتهديدهم بأنه يقع بغتة , حيث لا ينفعهم وقتها إيمان ولا توبة . . ثم يجيء القصص بعد ذلك في السورة , مصورا ذلك المشهد بعينه في مصارع الغابرين .

في الرد عليهم يقول: ويقولون:متى هذا الوعد إن كنتم صادقين ؟ قل:لا أملك لنفسي ضرا ولا نفعا , إلا ما شاء الله , لكل أمة أجل , إذا جاء أجلهم فلا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون . قل:أرأيتم إن أتاكم عذابه بياتا أو نهارا , ماذا يستعجل منه المجرمون ؟ أثم إذا ما وقع آمنتم به ؟

آلآن وقد كنتم به تستعجلون ?! ثم قيل للذين ظلموا:ذوقوا عذاب الخلد , هل تجزون إلا بما كنتم تكسبون . .

وفي نهاية قصة موسى في السورة يجيء هذا المشهد , وكأنه الصورة الواقعية لذلك الوعيد: 10 وزنا ببني إسرائيل البحر فأتبعهم فرعون وجنوده بغيا وعدوا , حتى إذا أدركه الغرق قال:آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنوا إسرائيل , وأنا من المسلمين . آلآن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين . فاليوم ننجيك ببدنك لتكون لمن خلفك آية , وإن كثيرا من الناس عن آياتنا لغافلون . .

ثم تتساوق في ثنايا السورة بين ذلك الرد وهذه القصة مشاهد المباغتة بأخذ الله للمكذبين ; من حيث لا يتوقعون ولا يدرون ; فترسم جوا واحدا متناسقا يبدو فيه الترابط بين المشاهد والموضوعات والأداء سواء .

كذلك يجيء في حكاية قول المشركين عن رسول الله [ص] في أول السورة: (قال الكافرون إن هذا لساحر مبين). . ثم يجيء في حكاية فرعون وملئه عن موسى - عليه السلام -:(فلما جاءهم الحق من عندنا ق الوا:إن هذا لسحر مبين). .

وقد سميت السورة سورة يونس . بينما قصة يونس فيها لا تتجاوز إشارة سريعة على هذا النحو:(فلولا كانت قرية آمنت فنفعها إيمانها ! إلا قوم يونس لما آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا , ومتعناهم إلى حين). . ولكن قصة يونس - مع هذا - هي المثل الوحيد البارز للقوم الذين يتداركون أنفسهم قبل مباغتة العذاب لهم ; فيثوبون إلى ربهم وفي الوقت سعة ; وهم وحدهم في تاريخ الدعوات الذين آمنوا جملة بعد تكذيب , فكشف عنهم العذاب الذي أوعدهم به رسولهم قبل وقوعه بهم , كما هي سنة الله في المكذبين المصرّين .

وهكذا نجد الترابط بكل ألوانه في سياق السورة من مطلعها إلى

ختامها , مما يجعلها وحدة متكاملة متشابكة كما أسلفنا .

وواضح من المقتطفات التي سبقت من نصوص السورة - في هذا التقديم - أن القضية الأساسية التي يتكئ عليها السياق كله هي قضية ا لألوهية والعبودية , وتجلية حقيقتهما , وبيان مقتضيات هذه الحقيقة في حياة الناس . أما سائر القضايا الأخرى التي تعرضت لها السورة كقضية الوحي , وقضية الآخرة , وقضية الرسالات السابقة . . فقد جاءت في صدد إيضاح تلك الحقيقة الكبرى وتعميقها وتوسيع مدلولها ; وبيان مقتضياتها في حياة البشر واعتقادهم وعبادتهم وعملهم .

والواقع أن تلك القضية الكبرى هي قضية القرآن كله , وقضية القرآن المكي بصفة خاصة . فتعريف الألوهية الحقة ; وبيان خصائصها من الربوبية والقوامة والحاكمية ; وتعريف العبودية وحدودها التي لا تتعداها ; والوصول من هذا كله إلى تعبيد الناس لإلههم الحق ; واعترافهم بالربوبية والقوامة والحاكمية له وحده . . هذا هو الموضوع الرئيسي للقرآن كله . . وما وراءه إن هو إلا بيان لمقتضيات هذه الحقيقة الكبيرة في حياة البشر بكل جوانبها .

وهذه الحقيقة الكبيرة تستحق - عند التأمل العميق - كل هذا البيان الذي هو موضوع هذا القرآن . . تستحق أن يرسل الله من أجلها رسله جميعا , وأن ينزل بها كتبه جميعا:(وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون). .

إن حياة البشر في الأرض لا تستقيم إلا إذا استقامت هذه الحقيقة في اعتقادهم وتصورهم , واستقامت كذلك في حياتهم وواقعهم .

لا تستقيم أولا ً إزاء هذا الكون الذي يعيشون فيه , ويتعاملون مع أشيائه وأحيائه . . وهم حين يضطرب تصورهم لحقيقة الألوهية وحقيقة العبودية يروحون يؤلهون الأشياء والأحياء - بل يؤلهون الأ شباح والأوهام ! - ويُعبدون أنفسهم لها في صور مضحكة , ولكنها

بائسة ! , ويقدمون لها - بوحي من الكهان والمنتفعين بأوهام العوام في كل زمان وفي كل مكان - خلاصة كدهم من الرزق الذي أعطاهم الله . بل إنهم ليقدمون لها فلذات أكبادهم كما يقدمون لها أرواحهم في بعض الأ حيان . . وهي أشياء وأحياء لا حول لها ولا قوة , ولا تملك لهم ضراً ولا نفعاً . . وتضطرب حياتهم كلها , وهم يعيشون بين الهلع والجزع من هذه الأشياء والأحياء ; وبين التقرب والزلفى لمخلوقات مثلهم , عبوديتها لله كعبوديتهم . . وذلك كما قال الله تعا :5-136 (وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيبا . فقالوا:هذا لله - بزعمهم - وهذا لشركائنا ! فما كان لشركائهم فلا يصل إلى الله , وما كان لله فهو يصل إلى شركائهم ! ساء ما يحكمون ! وكذلك زين لكثير من المشركين قتل أولادهم شركاؤهم ليردوهم وليلبسوا عليهم دينهم - ولو شاء الله ما فعلوه فذرهم وما يفترون - وقالوا:هذه أنعام وحرث حجر لا يطعمها إلا من نشاء - بزعمهم - وأنعام حرمت ظهورها , وأنعام لا يذكرون اسم الله عليها افتراء عليه ! - سيجزيهم بما كانوا يفترون - وقالوا:ما في بطون هذه الأ نعام خالصة لذكورنا ومحرم على أزواجنا , وإن يكن ميتة فهم فيه شركاء ! سيجزيهم وصفهم إنه حكيم عليم - قد خسر الذين قتلوا أولا دهم سفها بغير علم , وحرموا ما رزقهم الله افتراء على الله , قد ضلوا وما كانوا مهتدين .

فهذه نماذج من تكاليف العبودية لغير الله في الأموال والأولاد ; التي تقدم لمخلوقات من خلق الله . أشياء أو أحياء ما أنزل الله بها من سلطان !

كذلك لا تستقيم حياة البشر إزاء بعضهم البعض بدون استقامة حقيقة ا لألوهية وحقيقة العبودية في اعتقادهم وتصورهم , وفي حياتهم وواقعهم . . إن إنسانية الإنسان وكرامته وحريته الحقيقية الكاملة لا يمكن أن تتحقق في ظل اعتقاد أو نظام لا يفرد الله سبحانه بالربوبية و القوامة والحاكمية ; ولا يجعل له وحده حق الهيمنة على حياة الناس في الدنيا والآخرة , في السر والعلانية ; ولا يعترف له وحده بحق

التشريع والأمر والحاكمية في كل جانب من جوانب الحياة الإنسانية . .

والواقع البشري على مدار التاريخ يثبت هذه الحقيقة ويصدقها . فما من مرة انحرف الناس عن الدينونة لله وحده - اعتقاداً ونظاماً - ودانوا لغير الله من العباد - سواء كانت هذه الدينونة , بالاعتقاد والشعائر أم كانت باتباع الأحكام والشرائع - إلا كانت العاقبة هي فقدانهم لإنسانيتهم وكرامتهم وحريتهم !

والتفسير الإسلامي للتاريخ ; يرد ذل المحكومين للطواغيت , وسيطرة الطواغيت عليهم , إلى عامل أساسي هو فسوق المحكومين عن دين الله , الذي يفرد الله سبحانه بالألوهية , ومن ثم يفرده بالربوبية و السلطان والقوامة والحاكمية . فيقول الله سبحانه عن فرعون وقومه:(ونادى فرعون في قومه قال:يا قوم أليس لي ملك مصر وهذه ا لأنهار تجري من تحتي ? أفلا تبصرون ? أم أنا خير من هذا الذي هو مهين ولا يكاد يبين ? فلولا ألقي عليه أسورة من ذهب , أو جاء معه الم لائكة مقترنين ! فاستخف قومه فأطاعوه إنهم كانوا قوما فاسقين). . فيرد استخفاف فرعون لهم إلى أنهم فاسقون . فما يستخف الحاكم الطاغي قومه وهم مؤمنون بالله موحدون ; لا يدينون لسواه بربوبية تزاول القوامة والحاكمية !

ولقد حدث أن الذين فسقوا عن الدينونة لله وحده , فأتاحوا لنفر منهم أن يحكموهم بغير شريعته , قد وقعوا في النهاية في شقوة العبودية لغيره . العبودية , التي تأكل إنسانيتهم وكرامتهم وحريتهم , مهما اختلفت أشكال الأنظمة التي تحكمهم ; والتي ظنوا في بعضها أنها تكفل لهم الإنسانية والحرية والكرامة !

لقد هربت أوربا من الله - في أثناء هروبها من الكنيسة الطاغية الباغية باسم الدين الزائف ! - وثارت على الله - سبحانه - في أثناء ثورتها على تلك الكنيسة التي أهدرت كل القيم الإنسانية في عنفوان سطوتها الغاشمة ! ثم ظن الناس هناك أنهم يجدون إنسانيتهم وحريتهم

وكرامتهم - ومصالحهم كذلك - في ظل الأنظمة الفردية [الديمقراطية] وعلقوا كل آمالهم على الحريات والضمانات التي تكفلها لهم الدساتير الوضعية , والأوضاع النيابية البرلمانية , والحريات الصحفية , و الضمانات القضائية والتشريعية , وحكم الأغلبية المنتخبة . . إلى آخر هذه الهالات التي أحيطت بها تلك الأنظمة . . ثم ماذا كانت العاقبة ؟ كانت العاقبة هي طغيان "الرأسمالية " ذلك الطغيان الذي أحال كل تلك الضمانات وكل تلك التشكيلات , إلى مجرد لافتات , أو إلى مجرد خيالا ت ! ووقعت الأكثرية الساحقة في عبودية ذليلة للأقلية الطاغية التي تملك رأس المال , فتملك معه الأغلبية البرلمانية ! والدساتير الوضعية ! والحريات الصحفية ! وسائر الضمانات التي ظنها الناس هناك كفيلة بضمان إنسانيتهم وحريتهم وكرامتهم , في معزل عن الله سبحانه !!!

ثم هرب فريق من الناس هناك من الأنظمة الفردية التي يطغى فيها "رأس المال" و "الطبقة ! " إلى الأنظمةالجماعية ! فماذا فعلوا ؟ لقد استبدلوا بالدينونة لطبقة "الرأسماليين" الدينونة لطبقة "الصعاليك" ! أو استبدلوا بالدينونة لأصحاب رؤوس الأموال والشركات الدينونة للدولة التي تملك المال إلى جانب السلطان ! فتصبح أخطر من طبقة الرأسماليين !

وفي كل حالة وفي كل وضع وفي كل نظام دان البشر فيه للبشر , دفعوا من أموالهم ومن أرواحهم الضريبة الفادحة . دفعوها للأرباب المتنوعة في كل حالة !

إنه لا بد من عبودية ! فإن لا تكن لله وحده , تكن لغير الله . . والعبودية لله وحده تطلق الناس أحرارا كراما شرفاء أعلياء . . والعبودية لغير الله تأكل إنسانية الناس وكرامتهم وحرياتهم وفضائلهم . . ثم تأكل أموالهم ومصالحهم المادية في النهاية !

من أجل ذلك كله تنال قضية الألوهية والعبودية كل تلك العناية في رسا لات الله - سبحانه - وفي كتبه . . وهذه السورة نموذج من تلك العناية .

. فهي قضية لا تتعلق بعبدة الأصنام والأوثان في الجاهليات الساذجة البعيدة . ولكنها تتعلق بالإنسان كله في كل زمان وفي كل مكان ; وتتعلق بالجاهليات كلها . . جاهليات ما قبل التاريخ . وجاهليات التاريخ . وجاهلية القرن العشرين . وكل جاهلية تقوم على أساس من عبادة العباد للعباد !

ومن أجل ذلك كان جوهر الرسالات والكتب هو تقرير ألوهية الله - سبحانه - وربوبيته وحده للعباد:(وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون).

وكان ختام هذه السورة التي نواجهها:

قل:يا أيها الناس إن كنتم في شك من ديني فلا أعبد الذين تعبدون من دون الله ; ولكن أعبد الله الذي يتوفاكم , وأمرت أن أكون من المؤمنين . وأن أقم وجهك للدين حنيفا , ولا تكونن من المشركين . ولا تدع من دون الله , ما لا ينفعك ولا يضرك , فإن فعلت فإنك إذن من الظالمين . وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو , وإن يردك بخير فلا راد لفضله , يصيب به من يشاء من عباده , وهو الغفور الرحيم . قل:يا أيها الناس قد جاءكم الحق من ربكم , فمن اهتدى فإنما يهتدي لنفسه , ومن ضل فإنما يضل عليها . وما أنا عليكم بوكيل . واتبع ما يوحى إليك , واصبر حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين . .

سورة هود

الَر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ (1) أَلا ّ َ
تَعْبُدُواْ إِلا ّ َ اللّهَ إِنَّنِي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ (2)

والآية 114 واردة في سياق تسرية عن الرسول [ص] بما كان من الا ختلاف على موسى من قبل . وتوجيهه للاستقامة كما أمر هو ومن تاب معه , وعدم الركون إلى الذين ظلموا [أي أشركوا] والاستعانة بالصلاة وبالصبر على مواجهة تلك الفترة العصيبة . . وتتوارد الآيات هكذا: ولقد آتينا موسى الكتاب فاختلف فيه , ولولا كلمة سبقت من ربك لقضي بينهم , وإنهم لفي شك منه مريب [110] وإن كلا لما ليوفينهم ربك أعمالهم , إنه بما يعملون خبير [111] فاستقم كما أمرت ومن تاب معك ولا تطغوا , إنه بما تعملون بصير [112] ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار , وما لكم من دون الله من أولياء , ثم لا تنصرون [113] وأقم الصلاة طرفي النهار وزلفا من الليل , إن الحسنات يذهبن السيئات , ذلك ذكرى للذاكرين [114] واصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين [115] . . وواضح أن الآية قطعة من السياق المكي , موضوعا وجوا وعبارة . .

لقد نزلت السورة بجملتها بعد يونس . ونزلت يونس بعد الإسراء . وهذا يحدد معالم الفترة التي نزلت فيها ; وهي من أحرج الفترات وأشقها كما قلنا في تاريخ الدعوة بمكة . فقد سبقها موت أبي طالب وخديجة ; وجرأة المشركين على ما لم يكونوا ليجرؤوا عليه في حياة أبي طالب - وخاصة بعد حادث الإسراء وغرابته , واستهزاء المشركين به , وارتداد بعض من كانوا أسلموا قبله - مع وحشة رسول الله [ص] من خديجة - رضي الله عنها - في الوقت الذي تجرأت فيه قريش عليه وعلى دعوته ; وبلغت الحرب المعلنة عليه وعلى دعوته أقسى وأقصى مداها ; وتجمدت حركة الدعوة حتى ما كاد يدخل في الإسلام أحد من مكة وما حولها . . وذلك قبيل أن يفتح الله على رسوله وعلى القلة المسلمة معه ببيعة العقبة الأولى ثم الثانية . .

قال ابن إسحاق:ثم إن خديجة بنت خويلد وأبا طالب هلكا في عام واحد , فتتابعت على رسول الله [ص] المصائب بهلك خديجة - وكانت له وزير صدق على الإسلام يشكو إليها - وبهلك عمه أبي طالب - وكان له

عضدا وحرزا في أمره , ومنعة وناصرا على قومه - وذلك قبل مهاجرته إلى المدينة بثلاث سنين . فلما هلك أبو طالب نالت قريش من رسول الله [ص] من الأذى ما لم تكن تطمع به في حياة أبي طالب , حتى اعترضه سفيه من سفهاء قريش , فنثر على رأسه ترابا .

قال ابن إسحاق:فحدثني هشام بن عروة , عن أبيه عروة بن الزبير , قال:لما نثر ذلك السفيه على رأس رسول الله [ص] ذلك التراب , دخل رسول الله [ص] بيته والتراب على رأسه , فقامت إليه إحدى بناته , فجعلت تغسل عنه التراب وهي تبكي . ورسول الله [ص] يقول لها:" لا تبكي يا بنية , فإن الله مانع أباك " قال:ويقول بين ذلك:" ما نالت مني قريش شيئا أكرهه حتى مات أبو طالب " .

وقال المقريزي في إمتاع الأسماع:فعظمت المصيبة على رسول الله [ص] بموتهما وسماه "عام الحزن" وقال:" ما نالت قريش مني شيئا أكرهه حتى مات أبو طالب " لأنه لم يكن في عشيرته وأعمامه حاميا له ولا ذابا عنه غيره .

ففي هذه الفترة نزلت سورة هود ويونس قبلها , وقبلهما سورة الإسراء وسورة الفرقان وكلها تحملطابع هذه الفترة ; وتحدث عن مدى تحدي قريش وتعديها .

وآثار هذه الفترة وجوها وظلالها واضحة في جو السورة وظلالها وموضوعاتها ! وبخاصة ما يتعلق بتثبيت رسول الله [ص] والذين معه على الحق ; والتسرية عنه مما يساور قلبه من الوحشة والضيق والغربة في المجتمع الجاهلي .

وقد برز طابع هذه الفترة ومقتضياتها في السورة في سمات عدة نشير إلى بعض منها:

فمن ذلك استعراض السورة لحركة العقيدة الإسلامية في التاريخ البشري كله , من لدن نوح - عليه السلام - إلى عهد محمد - عليه الصلاة

والسلام - وتقرير أنها قامت على حقائق أساسية واحدة:هي الدينونة لله وحده بلا شريك , والعبودية له وحده بلا منازع ; والتلقي في هذه الدينونة والعبودية عن رسل الله وحدهم على مدار التاريخ . مع الاعتقاد بأن الحياة الدنيا إنما هي دار ابتلاء لا دار جزاء ; وأن الجزاء إنما يكون في الآخرة ; وأن حرية الاختيار التي أعطاها الله للإنسان ليختار الهدى أو الضلال هي مناط هذا الابتلاء .

ولقد جاء محمد عليه الصلاة والسلام ومعه (كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير) . أما مضمون هذا الكتاب الأساسي فهو:(أ لا تعبدوا إلا الله , إنني لكم منه نذير وبشير . وأن استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يمتعكم متاعا حسنا إلى أجل مسمى , ويؤت كل ذي فضل فضله , وإن تولوا فإني أخاف عليكم عذاب يوم كبير . إلى الله مرجعكم وهو على كل شيء قدير) . . .

ولكن هذه لم تكن دعوة مبتدعة ولا قولا غير مسبوق . . لقد قالها من قبل نوح وهود وصالح وشعيب وموسى وغيرهم:(ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه , إني لكم نذير مبين . أن لا تعبدوا إلا الله , إني أخاف عليكم عذاب يوم أليم) . . (وإلى عاد أخاهم هودا قال:يا قوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره إن أنتم إلا مفترون . يا قوم لا أسألكم عليه أجرا إن أجري إ لا على الذي فطرني , أفلا تعقلون ? ويا قوم استغفروا ربكم ثم توبوا إليه , يرسل السماء عليكم مدرارا , ويزدكم قوة إلى قوتكم . . ولا تتولوا مجرمين) . (وإلى ثمود أخاهم صالحا , قال:يا قوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره , هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها , فاستغفروه ثم توبوا إليه , إن ربي قريب مجيب) . (وإلى مدين أخاهم شعيبا قال . يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره , ولا تنقصوا المكيال والميزان , إني أراكم بخير وإني أخاف عليكم عذاب يوم محيط . ويا قوم أوفوا المكيال والميزان بالقسط , ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تعثوا في الأ رض مفسدين . بقية الله خير لكم إن كنتم مؤمنين وما أنا عليكم بحفيظ) . .

فكلهم إذن قال هذه الكلمة الواحدة ودعا بهذه الدعوة الثابتة . .

ومن ذلك عرض مواقف الرسل - صلوات الله وسلامه عليهم - وهم يتلقون الإعراض والتكذيب , والسخرية والاستهزاء , والتهديد والإيذاء , بالصبر والثقة واليقين بما معهم من الحق , وفي نصر الله الذي لا شك آت ; ثم تصديق العواقب في الدنيا - وفي الآخرة كذلك - لظن الرسل الكرام بوليهم القادر العظيم , بالتدمير على المكذبين , وبالنجاة للمؤمنين:

ففي قصة نوح نجد هذا المشهد: (فقال الملأ الذين كفروا من قومه:ما نراك إلا بشرا مثلنا , وما نراك)(اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادي الرأي , وما نرى لكم علينا من فضل , بل نظنكم كاذبين . . قال:يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربي وآتاني رحمة من عنده فعميت عليكم , أنلزمكموها وأنتم لها كارهون ? ويا قوم لا أسألكم عليه مالا , إن أجري إ لا على الله , وما أنا بطارد الذين آمنوا , إنهم ملاقو ربهم . ولكني أراكم قوما تجهلون . ويا قوم من ينصرني من الله إن طردتهم ? أفلا تذكرون ? ولا أقول لكم عندي خزائن الله , ولا أعلم الغيب , ولا أقول:إني ملك , ولا أقول للذين تزدري أعينكم:لن يؤتيهم الله خيرا , الله أعلم بما في أنفسهم , إني إذن لمن الظالمين . قالوا:يا نوح قد جادلتنا فأكثرت جدالنا , فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين . قال:إنما يأتيكم به الله - إن شاء - وما أنتم بمعجزين). . ثم يجيء مشهد الطوفان وهلاك المكذبين ونجاة المؤمنين .

وفي قصة هود نجد هذا المشهد:(قالوا:يا هود ما جئتنا ببينة , وما نحن بتاركي آلهتنا عن قولك , وما نحن لك بمؤمنين . إن نقول:إلا اعتراك بعض آلهتنا بسوء . . قال:إني أشهد الله , واشهدوا أني بريء مما تشركون من دونه , فكيدوني جميعا ثم لا تنظرون . إني توكلت على الله ربي وربكم , ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها , إن ربي على صراط مستقيم , فإن تولوا فقد أبلغتكم ما أرسلت به إليكم , ويستخلف ربي

قوما غيركم , ولا تضرونه شيئا , إن ربي على كل شيء حفيظ). . ثم تجيء العاقبة:(ولما جاء أمرنا نجينا هودا والذين آمنوا معه برحمة منا ونجيناهم من عذاب غليظ . وتلك عاد جحدوا بآيات ربهم وعصوا رسله , واتبعوا أمر كل جبار عنيد . وأتبعوا في هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة , ألا إن عادا كفروا ربهم , ألا بعدا لعاد قوم هود !).

وفي قصة صالح نجد هذا المشهد:(قالوا:يا صالح قد كنت فينا مرجوا قبل هذا , أتنهانا أن نعبد ما يعبد آباؤنا ? وإننا لفي شك مما تدعونا إليه مريب . قال:يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربي وآتاني منه رحمة , فمن ينصرني من الله إن عصيته ? فما تزيدونني غير تخسير). . ثم تجيء العاقبة بعد عقر الناقة والتكذيب: فلما جاء أمرنا نجينا صالحا و الذين آمنوا معه برحمة منا ومن خزي يومئذ , إن ربك هو القوي العزيز , وأخذ الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا في ديارهم جاثمين . كأن لم يغنوا فيها , ألا إن ثمود كفروا ربهم , ألا بعدا لثمود ! . .

وفي قصة شعيب نجد هذا المشهد: قالوا:يا شعيب أصلاتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا أو أن نفعل في أموالنا ما نشاء ? إنك لأنت الحليم الرشيد ! قال:يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربي ورزقني منه رزقا حسنا ? وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه , إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت , وما توفيقي إلا بالله , عليه توكلت وإليه أنيب . ويا قوم لا يجرمنكم شقاقي أن يصيبكم مثل ما أصاب قوم نوح أو قوم هود أو قوم صالح , وما قوم لوط منكم ببعيد . واستغفروا ربكم ثم توبوا إليه , إن ربي رحيم ودود . قالوا:يا شعيب ما نفقه كثيرا مما تقول , وإنا لنراك فينا ضعيفا , ولولا رهطك لرجمناك , وما أنت علينا بعزيز . قال:يا قوم أرهطي أعز عليكم من الله واتخذتموه وراءكم ظهريا ? إن ربي بما تعملون محيط . ويا قوم اعملوا على مكانتكم إني عامل , سوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ومن هو كاذب , وارتقبوا إني معكم رقيب . . ثم تجيء الخاتمة:(ولما جاء أمرنا نجينا شعيبا والذين آمنوا معه برحمة منا , وأخذت الذين ظلموا الصيحة , فأصبحوا في ديارهم جاثمين . كأن

لم يغنوا فيها , ألا بعدا لمدين كما بعدت ثمود !) . .

ومن ذلك التعقيب على هذا القصص بتوجيه رسول الله [ص] إلى دلا لته:والتسريةعنه بما أصاب إخوانه الكرام قبله ; وبما أولاهم الله من رعايته ونصره ; وتوجيهه [ص] إلى مفاصلة المكذبين من قومه كما فاصل الرسل الكرام أقوامهم على الحق الذي أرسلوا به . . وذلك إلى التنويه بدلالة هذا القصص ذاته على صدق دعواه في الوحي والرسالة .

فبعد نهاية قصة نوح نجد هذا التعقيب:(تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك , ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا , فاصبر , إن العاقبة للمتقين).

وفي نهاية القصص الوارد في السورة نجد هذا التعقيب الطويل إلى ختام السورة:(ذلك من أنباء القرى نقصه عليك منها قائم وحصيد . وما ظلمناهم ولكن ظلموا أنفسهم , فما أغنت عنهم آلهتهم التي يدعون من دون الله من شيء لما جاء أمر ربك , وما زادوهم غير تتبيب . وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة , إن أخذه أليم شديد) . . . (ولقد آتينا موسى الكتاب فاختلف فيه ; ولولا كلمة سبقت من ربك لقضي بينهم , وإنهم لفي شك منه مريب . وإن كلا لما ليوفينهم ربك أعمالهم , إنه بما يعملون خبير . فاستقم كما أمرت ومن تاب معك , ولا تطغوا , إنه بما تعملون بصير . ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار , وما لكم من دون الله من أولياء , ثم لا تنصرون . وأقم الصلاة طرفي النهار وزلفا من الليل , إن الحسنات يذهبن السيئات , ذلك ذكرى للذاكرين . واصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين) . . .(وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك , وجاءك في هذه الحق , وموعظة وذكرى للمؤمنين . وقل للذين لا يؤمنون:اعملوا على مكانتكم إنا عاملون . وانتظروا إنا منتظرون . ولله غيب السماوات والأرض , وإليه يرجع الأمر كله , فاعبده , وتوكل عليه , وما ربك بغافل عما تعملون) . .

وهكذا يتجلى لنا الجانب الحركي في التوجيه القرآني ? وهكذا نرى

القرآن يواجه واقع الدعوة والحركة في كل مرحلة بالتوجيه المكافيء للموقف ; وهكذا نجد القصص في القرآن يواجه مقتضيات الحركة و المعركة مع الجاهلية في مراحلها المختلفة مواجهة حية فاعلة , شأنه شأن بقية السورة التي يجيء فيها ; ونجده في الوقت ذاته متناسقا مع سياق السورة وجوها وموضوعها , متوافيا مع أهدافها , مصدقا في عالم الواقع لما تقرره من توجيهات وأحكام وإيحاءات تقريرية .

ولقد جاء في التعريف بسورة يونس من قبل في الجزء الحادي عشر:

"ولقد كان آخر عهدنا - في هذه الظلال - بالقرآن المكي سورة الأنعام وسورة الأعراف متواليتين في ترتيب المصحف - وإن لم تكونا متواليتين في ترتيب النزول - ثم جاءت الأنفال والتوبة بجوهما وطبيعتهما وموضوعاتهما المدنية الخاصة - فالآن إذ نعود إلى القرآن المكي نجد سورتي يونس وهود متواليتين في ترتيب المصحف وفي ترتيب النزول أيضا . . والعجيب أن هناك شبها كبيرا بين هاتين السورتين وهاتين , في الموضوع , وفي طريقة عرض هذا الموضوع كذلك ! فسورة الأنعام تتناول حقيقة العقيدة ذاتها وتواجه الجاهلية بها ; وتفند هذه الجاهلية , عقيدة وشعورا , وعبادة وعملا . بينما سورة الأعراف تتناول حركة هذه العقيدة في الأرض , وقصتها في مواجهة الجاهلية على مدار التاريخ . وكذلك نحن هنا مع سورتي يونس وهود . . في شبه كبير في الموضوع وفي طريقة العرض أيضا . . إلا أن سورة ا لأنعام تنفرد عن سورة يونس بارتفاع وضخامة في الإيقاع , وسرعة وقوة في النبض , ولألاء شديد في التصوير والحركة . . بينما تمضي سورة يونسفي إيقاع رخي , ونبض هادئ , وسلاسة وديعة ! . . فأما هود فهي شديدة الشبه بالأعراف موضوعا وعرضا وإيقاعا ونبضا . . ثم تبقى لكل سورة شخصيتها الخاصة , وملامحها المميزة , بعد كل هذا التشابه والاختلاف" . .

فالآن نفصل هذه الإشارة المجملة:

إن سورة يونس تحتوي على جانب من القصص مجمل . . إشارة إلى قصة نوح , وإشارة إلى الرسل من بعده , وشيء من التفصيل في قصة موسى , وإشارة مجملة إلى قصة يونس . . ولكن القصص إنما يجيء في السورة شاهدا ومثالا لتصديق الحقائق الاعتقاديه التي تستهدفها السورة .

أما سورة هود فالقصص فيها هو جسم السورة . وهو إن جاء شاهدا ومثالا لتصديق الحقائق الاعتقاديه التي تستهدفها ; إلا أنه يبدو فيه أن استعراض حركة العقيدة الربانية في التاريخ البشري هو الهدف الواضح البارز .

لذلك نجد تركيب السورة يحتوي على ثلاثة قطاعات متميزة:

القطاع الأول يتضمن حقائق العقيدة في مقدمة السورة ويشغل حيزا محدودا .

والقطاع الثاني يتضمن حركة هذه الحقيقة في التاريخ ويشغل معظم سياق السورة .

والقطاع الثالث يتضمن التعقيب على هذه الحركة في حيز كذلك محدود . .

وواضح أن قطاعات السورة بجملتها تتعاون وتتناسق في تقرير الحقائق الاعتقادية الأساسية التي يستهدفها سياق السورة كله ; وأن كل قطاع منها يقرر هذه الحقائق وفق طبيعته وطريقة تناوله لهذه الحقائق . وهي تختلف بين التقرير والقصص والتوجيه

وهذه الحقائق الأساسية التي تستهدف السورة تقريرها هي:

أن ما جاء به النبي [ص] وما جاء به الرسل من قبله حقيقة واحدة موحى بها من الله - سبحانه - وهي تقوم على الدينونة لله وحده بلا شريك . والتلقي في هذه الدينونة عن رسل الله وحدهم كذلك . و

المفاصلة بين الناس على أساس هذه الحقيقة:

ففي مقدمة السورة تجيء هذه الآيات عن حقيقة دعوة رسول الله - [ص]:

ألر . كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير . ألا تعبدوا إلا الله , إنني لكم منه نذير وبشير . .(أم يقولون:افتراه ? قل:فأتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين . فإن لم يستجيبوا لكم فاعلموا أنما أنزل بعلم الله , وأن لا إله إلا هو , فهل أنتم مسلمون ?).

وفي قصص الرسل يرد عن حقيقة دعوتهم ; وعن المفاصلة بينهم وبين قومهم وأهلهم على أساس العقيدة:

ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه , إني لكم نذير مبين ألا تعبدوا إلا الله , إني أخاف عليكم عذاب يوم أليم .

(قال:يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربي وآتاني رحمة من عنده فعميت عليكم , أنلزمكموها وأنتم لها كارهون ?). .

(ونادى نوح ربه فقال:رب إن ابني من أهلي وإن وعدك الحق وأنت أحكم الحاكمين . قال:يا نوح)(إنه ليس من أهلك , إنه عمل غير صالح , فلا تسألن ما ليس لك به علم , إني أعظك أن تكون من الجاهلين).

وإلى عاد أخاهم هودا قال:يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره إن أنتم إلا مفترون . .

وإلى ثمود أخاهم صالحا , قال:يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره , هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها فاستغفروه ثم توبوا إليه إن ربي قريب مجيب . .

قال:يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربي وآتاني منه رحمة , فمن

ينصرني من الله إن عصيته ? فما تزيدونني غير تخسير . .

(وإلى مدين أخاهم شعيبا , قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره . . .).

(قال:يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربي ورزقني منه رزقا حسنا . . .).

وفي التعقيب ترد هذه الآيات عن حقيقة الدعوة وعن المفاصلة بين الناس على أساسها:

(ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار وما لكم من دون الله من أولياء , ثم لا تنصرون). .

(ولله غيب السماوات والأرض وإليه يرجع الأمر كله , فاعبده وتوكل عليه , وما ربك بغافل عما تعملون).

وهكذا تلتقي قطاعات السورة الثلاثة على تقرير هذه الحقيقة .

ولكي يدين الناس لله وحده بالربوبية , فإن السورة تتولى تعريفهم به سبحانه , وتقرر كذلك أنهم في قبضته في هذه الدنيا ; وأنهم راجعون إليه يوم القيامة ليجزيهم الجزاء الأخير . . وتتوافى مقاطع السورة الثلاثة في تقرير هذه الحقيقة كذلك .

في المقدمة يجيء:

ألا إنهم يثنون صدورهم ليستخفوا منه , ألا حين يستغشون ثيابهم يعلم ما يسرون وما يعلنون , إنه عليم بذات الصدور . وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها , ويعلم مستقرها ومستودعها , كل في كتاب مبين , وهو الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام , وكان عرشه على الماء ليبلوكم أيكم أحسن عملا , ولئن قلت:إنكم مبعوثون من بعد الموت ليقولن الذين كفروا:إن هذا إلا سحر مبين . ولئن أخرنا عنهم العذاب إلى

أمة معدودة ليقولن:ما يحبسه ? ألا يوم يأتيهم ليس مصروفا عنهم , وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون . .

(من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف إليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون . أولئك الذين ليس لهم في الآخرة إلا النار , وحبط ما صنعوا فيها , وباطل ما كانوا يعملون). .

وفي قصص الرسل تجيء أمثال هذه التعريفات:

(إني توكلت على الله ربي وربكم , ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها إن ربي على صراط مستقيم . فإن تولوا فقد أبلغتكم ما أرسلت به إليكم , ويستخلف ربي قوما غيركم ولا تضرونه شيئا , إن ربي على كل شيء حفيظ). .

وإلى ثمود أخاهم صالحا . قال:يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره . هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها , فاستغفروه ثم توبوا إليه , إن ربي قريب مجيب . .

وفي التعقيب يجيء:

(وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة . إن أخذه أليم شديد). .

(وإن كلا لما ليوفينهم ربك أعمالهم , إنه بما يعملون خبير).

(وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون . ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة , ولا يزالون مختلفين . إلا من رحم ربك , ولذلك خلقهم , وتمت كلمة ربك لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين). . وهكذا تتوافى قطاعات السورة الثلاثة كذلك على التعريف بحقيقة الألوهية وحقيقة الآخرة في سياقها . وهي لا تستهدف إثبات وجود الله - سبحانه - إنما تستهدف تقرير ربوبية الله وحده في حياة البشر , كما أنها مقررة في نظام الكون . . فقضية الألوهية لم تكن محل خلاف ; إنما قضية الربوبية هي التي كانت تواجهها الرسالات ; وهي التي كانت

تواجهها الرسالة الأخيرة . إنها قضية الدينونة لله وحده بلا شريك ; و الخضوع لله وحده بلا منازع . ورد أمر الناس كلهم إلى سلطانه وقضائه وشريعته وأمره . كما هو واضح من هذه المقتطفات من قطاعات السورة جميعا .

وفي سبيل إنشاء تلك الحقائق الاعتقادية في الضمائر , وتثبيتها في النفوس , وتعميقها في الكيان البشري , وبث الحياة النابضة الدافعة فيها بحيث تستحيل قوة إيجابية موحية , مكيفة للمشاعر والتصورات والأعمال والحركات . . في سبيل إنشاء تلك الحقائق على هذا النحو وفي هذا المستوى يحتوي سياق السورة على شتى المؤثرات الموحية والإيقاعات التي تلمس أوتار الكيان البشري كلها في عمق واستجاشة , وهو يعرض هذه الحقائق ويفصلها . .

يحتوي الكثير من الترغيب والترهيب . . الترغيب في خير الدنيا والآخرة لمن يستجيب لداعي الدينونة لله وحده بلا شريك , وما تحمله للبشرية من خير وصلاح ونماء . . والترهيب بالحرمان من خير الدنيا أو الآخرة ; وبالعذاب في الدنيا أو في الآخرة لمن يعرضون عن هذا الداعي , ويسلكون طريق الطواغيت حيث يسلمونهم في الآخرة إلى جهنم , التي يقودون لها أتباعهم في الآخرة جزاء ما استسلم لقيادتهم هؤلاء الأتباع في الدنيا ; ورضوا بالدينونة لهم دون الدينونة لله تعالى . وهذه نماذج من الترهيب والترغيب:

(. . . ألا تعبدوا إلا الله , إنني لكم منه نذير وبشير , وأن استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يمتعكم متاعا حسنا إلى أجل مسمى , ويؤت كل ذي فضل فضله . وإن تولوا فإني أخاف عليكم عذاب يوم كبير . إلى الله مرجعكم , وهو على كل شيء قدير). .

(من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف إليهم أعمالهم فيها , وهم فيها لا يبخسون . أولئك الذين ليس لهم في الآخرة إلا النار , وحبط ما صنعوا فيها , وباطل ما كانوا يعملون). .

أفمن كان على بينة من ربه , ويتلوه شاهد منه , ومن قبله كتاب موسى إماما ورحمة ? أولئك يؤمنون به , ومن يكفر به من الأحزاب فالنار موعده , فلا تك في مرية منه إنه الحق من ربك , ولكن أكثر الناس لا يؤمنون . ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا ? أولئك يعرضون على ربهم , ويقول الأشهاد:هؤلاء الذين كذبوا على ربهم , ألا لعنة الله على الظالمين . الذين يصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجا , وهم بالآخرة هم كافرون . أولئك لم يكونوا معجزين في الأرض , وما كان لهم من دون الله من أولياء , يضاعف لهم العذاب , ما كانوا يستطيعون السمع وما كانوا يبصرون . أولئك الذين خسروا أنفسهم , وضل عنهم ما كانوا يفترون . لا جرم أنهم في الآخرة هم الأخسرون . إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات وأخبتوا إلى

ربهم أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون . مثل الفريقين كالأعمى والأصم والبصير والسميع , هل يستويان مثلا ? أفلا تذكرون ?).

(ويا قوم استغفروا ربكم ثم توبوا إليه , يرسل السماء عليكم مدرارا ويزدكم قوة إلى قوتكم , ولا تتولوا مجرمين). . .(فإن تولوا فقد أبلغتكم ما أرسلت به إليكم , ويستخلف ربي قوما غيركم , ولا تضرونه شيئا , إن ربي على كل شيء حفيظ). .

ولقد أرسلنا موسى بآياتنا وسلطان مبين . إلى فرعون وملئه , فاتبعوا أمر فرعون , وما أمر فرعون برشيد . يقدم قومه يوم القيامة , فأوردهم النار , وبئس الورد المورود . واتبعوا في هذه لعنة ويوم القيامة بئس الرفد المرفود ! . . .

. . . الخ . . . الخ . .

ويحتوي السياق ذلك القصص الطويل الذي يصدق ذلك الترغيب و الترهيب في حركة العقيدة على مدار التاريخ ; من مصارع المكذبين ونجاة المؤمنين - على النحو الذي سبق في بعض المقتطفات - ويبرز

مشهد الطوفان بصفة خاصة ; ويبلغ نبض السورة أعلى مستواه في ثنايا هذا المشهد الكوني الفريد:

وأوحي إلى نوح أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن , فلا تبتئس بما كانوا يفعلون . واصنع الفلك بأعيننا ووحينا , ولا تخاطبني في الذين ظلموا إنهم مغرقون . ويصنع الفلك وكلما مر عليه ملأ من قومه سخروا منه , قال:إن تسخروا منا فإنا نسخر منكم كما تسخرون . فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه , ويحل عليه عذاب مقيم . حتى إذا جاء أمرنا وفار التنور قلنا:احمل فيها من كل زوجين اثنين وأهلك - إلا من سبق عليه القول - ومن آمن , وما آمن معه إلا قليل . وقال:اركبوا فيها باسم الله مجراها ومرساها إن ربي لغفور رحيم . وهي تجري بهم في موج كالجبال , ونادى نوح ابنه - وكان في معزل - يا بني اركب معنا ولا تكن مع الكافرين . قال:سآوي إلى جبل يعصمني من الماء ! قال:لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم , وحال بينهما الموج فكان من المغرقين . وقيل:يا أرض ابلعي ماءك ويا سماء أقلعي وغيض الماء , وقضي الأمر واستوت على الجودي , وقيل:بعدا للقوم الظالمين . . . الخ . . . الخ . . . الخ . . .

ويحتوي بعض صور النفس البشرية في مواجهة الأحداث الجارية بـ النعماء والبأساء ; فيرفع للمكذبين المستعجلين بالعذاب , المتحدين للنذر في استهتار . . يرفع لهم صورأنفسهم وهم في مواجهة ما يستعجلون به حين يحل بهم ; وفي الحسرات التي تصيب أنفسهم على تقلب الأحداث بهم ; وفوت النعمة وإفلاتها من أيديهم ; وفي البطر والغرور والانخداع بكشف الضر وفيض النعمة من جديد:

ولئن أخرنا عنهم العذاب إلى أمة معدودة ليقولن:ما يحبسه ? ألا يوم يأتيهم ليس مصروفا عنهم . وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون . ولئن أذقنا الإنسان منا رحمة , ثم نزعناها منه , إنه ليئوس كفور . ولئن أذقناه نعماء بعد ضراء مسته ليقولن:ذهب السيئات عني , إنه لفرح فخور . إلا

الذين صبروا وعملوا الصالحات , أولئك لهم مغفرة وأجر كبير . . .

ويحتوي شيئا من مشاهد القيامة ; وصور المكذبين فيها ; ومواجهتهم لربهم الذي كذبوا بوحيه وتولوا عن رسله ; وما يجدونه يومئذ من خزي ; لا ينصرهم منه أرباب ولا شفعاء:

ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا ? أولئك يعرضون على ربهم , ويقول الأشهاد:هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ! ألا لعنة الله عى الظالمين ! الذين يصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجا , وهم بالآخرة هم كافرون .أولئك لم يكونوا معجزين في الأرض , وما كان لهم من دون الله من أولياء , يضاعف لهم العذاب , ما كانوا يستطيعون السمع وما كانوا يبصرون , أولئك الذين خسروا أنفسهم , وضل عنهم ما كانوا يفترون . لا جرم أنهم في الآخرة هم الأخسرون).

(إن في ذلك لآية لمن خاف عذاب الآخرة , ذلك يوم مجموع له الناس , وذلك يوم مشهود . وما نؤخره إلا لأجل معدود . يوم يأت لا تكلم نفس إ لا بإذنه , فمنهم شقي وسعيد . فأما الذين شقوا ففي النار لهم فيها زفير وشهيق . خالدين فيها ما دامت السماوات والأرض - إلا ما شاء ربك - إن ربك فعال لما يريد . وأما الذين سعدوا ففي الجنة خالدين فيها ما دامت السماوات والأرض - إلا ما شاء ربك - عطاء غير مجذوذ).

ومن المؤثرات التي ترتجف لها القلوب ما يصوره السياق من حضور الله سبحانه واطلاعه على ما يخفي البشر من ذوات الصدور ; بينما هم غارون لا يستشعرون حضوره سبحانه , ولا علمه المحيط ; ولا يحسون قهره للخلائق وإحاطته بها جميعا , وهم - الذين يكذبون - في قبضته كسائر الخلائق ; من حيث لا يشعرون:(إلى الله مرجعكم , وهو على كل شيء قدير . ألا إنهم يثنون صدورهم ليستخفوا منه ! ألا حين يستغشون ثيابهم يعلم ما يسرون وما يعلنون , إنه عليم بذات الصدور . وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها , ويعلم مستقرها ومستودعها , كل في كتاب مبين). .

(إني توكلت على الله ربي وربكم , ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها , إن ربي على صراط مستقيم).

ومن المؤثرات الموحية في سياق السورة كذلك , استعراض موكب الإيمان . بقيادة الرسل الكرام , على مدار الزمان . وكل منهم يواجه الجاهلية الضالة بكلمة الحق الواحدة الحاسمة الجازمة , في صراحة وفي صرامة , وفي ثقة وطمأنينة ويقين . . وقد مر جانب من هذا الاستعراض في المقتطفات السابقة , والبقية ستأتي في موضعها في تفسير السورة . ومما لا شك فيه أن وحدة موقف الرسل الكرام , ووحدة الحقيقة التي يواجهون بها الجاهلية على مدار الزمان ; ووحدة العبارات المحكية عنهم التي تتضمن هذه الحقيقة . . يحمل في طياته ما يحمل من قوة وإيقاع وإيحاء . .

وحسبنا في تقديم السورة هذه الإشارات المجملة حتى نلتقي بنصوص السورة مفصلة . .

سورة يوسف

والسورة كلها لحمة واحدة عليها الطابع المكي واضحا في موضوعها وفي جوها وفي ظلالها وفي إيحاءاتها . بل إن عليها طابع هذه الفترة الحرجة الموحشة بصفة خاصة . . ففي الوقت الذي كان رسول الله [ص] يعاني من الوحشة والغربة والانقطاع في جاهلية قريش - منذ عام الحزن - وتعاني معه الجماعة المسلمة هذه الشدة , كان الله - سبحانه - يقص على نبيه الكريم قصة أخ له كريم - يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم - عليهم صلوات الله وسلامه أجمعين - وهو يعاني صنوفا من المحن والابتلاءات:محنة كيد الإخوة . ومحنة الجب والخوف و الترويع فيه . ومحنة الرق وهو ينتقل كالسلعة من يد إلى يد على غير إرادة منه , ولا حماية ولا رعاية من أبويه ولا من أهله . ومحنة كيد

امرأة العزيز والنسوة , وقبلها ابتلاء الإغراء والشهوة والفتنة ! ومحنة السجن بعد رغد العيش وطراوته في قصر العزيز . ثم محنة الرخاء و السلطان المطلق في يديه , وهو يتحكم في أقوات الناس وفي رقابهم , وفي يديه لقمة الخبز التي تقوتهم ! ومحنة المشاعر البشرية وهو يلقى بعد ذلك إخوته الذين ألقوه في الجب وكانوا السبب الظاهر لهذه المحن والابتلاءات كلها . . هذه المحن والابتلاءات التي صبر عليها يوسف - عليه السلام - وزاول دعوته إلى الإسلام من خلالها , وخرج منها كلها متجردا خالصا ; آخر توجهاته , وآخر اهتماماته , في لحظة الانتصار على المحن جميعا ; وفي لحظة لقاء أبويه ولم شمله ; وفي لحظة تأويل رؤياه وتحققها كما رآها:(إذ قال يوسف لأبيه:يا أبت إني رأيت أحد عشر كوكبا والشمس والقمر . رأيتهم لي ساجدين). . آخر توجهاته وآخر اهتماماته في هذه اللحظة هي التوجه المخلص المتجرد المنيب إلى ربه , منخلعا من هذا كله بكليته كما يصوره القرآن الكريم:

فلما دخلوا على يوسف آوى إليه أبويه , وقال:ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين . ورفع أبويه على العرش , وخروا له سجدا . وقال:يا أبت هذا تأويل رؤياي من قبل قد جعلها ربي حقا , وقد أحسن بي إذ أخرجني من السجن , وجاء بكم من البدو من بعد أن نزغ الشيطان بيني وبين إخوتي , إن ربي لطيف لما يشاء , إنه هو العليم الحكيم . . رب قد آتيتني من الملك , وعلمتني من تأويل الأحاديث , فاطر السماوات والأرض . أنت ولي في الدنيا والآخرة , توفني مسلما , وألحقني بالصالحين . .

وهكذا كانت طلبته الأخيرة . . بعد ذلك كله وهو في غمرة السلطان و الرخاء ولمة الشمل . . أن يتوفاه ربه مسلما , وأن يلحقه بالصالحين . . وذلك بعد الابتلاء والمحنة , والصبر الطويل والانتصار الكبير . .

فلا عجب أن تكون هذه السورة . بما احتوته من قصة ذلك النبي الكريم , ومن التعقيبات عليها بعد ذلك , مما يتنزل على رسول الله [ص

] والجماعة المسلمة معه في مكة , في هذه الفترة بالذات , تسلية وتسرية , وتطمينا كذلك وتثبيتا للمطاردين المغتربين المتوحشين !

لا بل أن الخاطر ليذهب بي اللحظة إلى الإحساس بالإيحاء البعيد بالإخراج من مكة إلى دار أخرى يكونفيها النصر والتمكين ; مهما بدا أن الخروج كان إكراها تحت التهديد ! كما أخرج يوسف من حضن أبيه , ليواجه هذه الابتلاءات كلها . ثم لينتهي بعد ذلك إلى النصر والتمكين:

(وكذلك مكنا ليوسف في الأرض , ولنعلمه من تأويل الأحاديث , والله غالب على أمره , ولكن أكثر الناس لا يعلمون). .

ولقد كان ذلك وهو يضع أقدامه في مصر في قصر العزيز . . حتى وهو ما يزال فتى يباع بين الرقيق . . !

وما يذهب بي الخاطر إليه اللحظة يجعلني أتذوق مذاقا خاصا - أشير إليه ولا أملك التعبير عنه ! - ذلك التعقيب الذي أعقب القصة:

(وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا نوحي إليهم من أهل القرى , أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم , ولدار الآخرة خير للذين اتقوا أفلا تعقلون ؟ حتى إذا استيأس الرسل وظنوا أنهم قد كذبوا جاءهم نصرنا فنجي من نشاء , ولا يرد بأسنا عن القوم المجرمين . لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب , ما كان حديثا يفترى , ولكن تصديق الذي بين يديه , وتفصيل كل شيء , وهدى ورحمة لقوم يؤمنون). .

إنه الإيحاء بمجرى سنة الله عندما يستيئس الرسل - كما استيأس يوسف في محنته الطويلة - والتلميح بالمخرج المكروه الذي يليه الفرج المرغوب ! . . الإيحاء والتلميح اللذان تدركهما القلوب المؤمنة , وهي في مثل هذه الفترة تعيش , وفي جوها تتنفس , فتتذوق وتستشرف وتلمح الإيحاء والتلميح . من بعيد . .

والسورة ذات طابع منفرد في احتوائها على قصة يوسف كاملة . ف القصص القرآني - غير قصة يوسف - يرد حلقات , تناسب كل حلقة منها أو مجموعة حلقات موضوع السورة واتجاهها وجوها . وحتى القصص الذي ورد كاملا في سورة واحدة كقصص هود وصالح ولوط وشعيب ورد مختصرا مجملا . أما قصة يوسف فوردت بتمامها وبطولها في سورة واحدة . وهو طابع متفرد في السور القرآنية جميعا .

هذا الطابع الخاص يتناسب مع طبيعة القصة ; ويؤديها أداء كاملا . . ذلك أنها تبدأ برؤيا يوسف , وتنتهي بتأويلها . بحيث لا يناسبها أن تكون حلقة منها أو جملة حلقات في سورة وتكون بقيتها في سورة أخرى .

وهذا الطابع كفل لها الأداء الكامل في جميع الوجوه ; فوق تحقيقه للهدف الأصيل الذي من أجله سيقت القصة , والتعقيبات التي تلتها .

وسنحتاج أن نقول كلمة مفصلة - بعض الشيء - عن هذا الأداء الكامل , تكشف عن ذلك المنهج القرآني الفريد .

. . وبالله التوفيق . .

إن قصة يوسف - كما جاءت في هذه السورة - تمثل النموذج الكامل لمنهج الإسلام في الأداء الفني للقصة , بقدر ما تمثل النموذج الكامل لهذا المنهج في الأداء النفسي والعقيدي والتربوي والحركي أيضا . . ومع أن المنهج القرآني واحد في موضوعه وفي أدائه , إلا أن قصة يوسف تبدو وكأنها المعرض المتخصص في عرض هذا المنهج من الناحية الفنية للأ داء !

إن القصة تعرض شخصية يوسف - عليه السلام - وهي الشخصية الرئيسية في القصة - عرضا كاملا فيكل مجالات حياتها , بكل جوانب هذه الحياة , وبكل استجابات هذه الشخصية في هذه الجوانب وفي تلك المجالات . وتعرض أنواع الابتلاءات التي تعرضت لها تلك الشخصية الرئيسية في القصة ; وهي ابتلاءات متنوعة في طبيعتها

وفي اتجاهاتها . . ابتلاءات الشدة وابتلاءات الرخاء . وابتلاءات الفتنة بـ الشهوة , والفتنة بالسلطان . وابتلاءات الفتنة بالانفعالات والمشاعر البشرية تجاه شتى المواقف وشتى الشخصيات . . ويخرج العبد الصالح من هذه الابتلاءات والفتن كلها نقيا خالصا متجردا في وقفته الأخيرة , متجها إلى ربه بذلك الدعاء المنيب الخاشع كما أسلفنا في نهاية الفقرة السابقة .

وإلى جانب عرض الشخصية الرئيسية في القصة تعرض الشخصيات المحيطة بدرجات متفاوتة من التركيز . وفي مساحات متناسبة من رقعة العرض , وعلى أبعاد متفاوتة من مركز الرؤية , وفي أوضاع خاصة من الأضواء والظلال . . وتتعامل القصة مع النفس البشرية في واقعيتها الكاملة . متمثلة في نماذج متنوعة:نموذج يعقوب الوالد المحب الملهوف والنبي المطمئن الموصول . . ونموذج إخوة يوسف وهواتف الغيرة و الحسد والحقد والمؤامرة والمناورة , ومواجهة آثار الجريمة , والضعف و الحيرة أمام هذه المواجهة , متميزا فيهم أحدهم بشخصية موحدة السمات في كل مراحل القصة ومواقفها . . ونموذج امرأة العزيز بكل غرائزها ورغائبها واندفاعاتها الأنثوية , كما تصنعها وتوجهها البيئة المصرية الجاهلية في بلاط الملوك , إلى جانب طابعها الشخصي الخاص الواضح في تصرفها وضوح انطباعات البيئة . . ونموذج النسوة من طبقة العلية في مصر الجاهلية ! والأضواء التي تلقيها على البيئة , ومنطقها كما يتجلى في كلام النسوة عن امرأة العزيز وفتاها , وفي إغرائهن كذلك ليوسف وتهديد امرأة العزيز له في مواجهتهن جميعا . وما وراء أستار القصور ودسائسها ومناوراتها , كما يتجلى في سجن يوسف بصفة خاصة . . ونموذج "العزيز" وعليه ظلال طبقته وبيئته في مواجهة جرائم الشرف من خلال مجتمعه ! . . ونموذج "الملك" في خطفة يتوارى بعدها كما توارى العزيز في منطقة الظلال بعيدا عن منطقة الأضواء في مجال العرض المتناسق . . وتبرز الملامح البشرية واضحة صادقة بواقعية كاملة في هذا الحشد من الشخصيات والبيئات ,

وهذا الحشد من المواقف والمشاهد , وهذا الحشد من الحركات و المشاعر . .

ومع استيفاء القصة لكل ملامح "الواقعية " السليمة المتكاملة وخصائصها في كل شخصية وفي كل موقف وفي كل خالجة . . فإنها تمثل النموذج الكامل لمنهج الإسلام في الأداء الفني للقصة , ذلك الأداء الصادق , الرائع بصدقه العميق وواقعيته السليمة . . المنهج الذي لا يهمل خلجة بشرية واقعية واحدة , وفي الوقت ذاته لا ينشيء مستنقعا من الوحل يسميه "الواقعية " كالمستنقع الذي أنشأته "الواقعية " الغربية الجاهلية !

وقد ألمت القصة بألوان من الضعف البشري ; بما فيها لحظة الضعف الجنسي , ودون أن تزور - أي تزوير - في تصوير النفس البشرية بواقعيتها الكاملة في هذه المواقف , ودون أن تغفل أية لمحة حقيقية من لمحات النفس أو الموقف , فإنها لم تسف قط لتنشيء ذلك المستنقع المقزز للفطرة السليمة , ذلك الذي يسمونه في جاهلية القرن العشرين "الواقعية " أو يسمونه أخيرا "الطبيعة ! " .

وظلت القصة صورة نظيفة للأداء الواقعي الكامل مع تنوع الشخصيات وتنوع المواقف:

إخوة يوسف . . والأحقاد الصغيرة في قلوبهم تكبر وتتضخم حتى تحجب عن ضمائرهم هول الجريمة وبشاعتها ونكارتها وضخامتها ! ثم تزين لهم "المحلل الشرعي ! " الذي يخرجون به من تلك الجريمة . . ملا حظا في هذا واقعيتهم في بيئتهم الدينية - وهم أولاد نبي الله يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم - عليهم صلوات‌الله وسلامه - وانطباعات هذه البيئة في تفكيرهم ومشاعرهم وتقاليدهم , وحاجتهم النفسية - من ثم - إلى مبرر للجريمة , وإلى طريقة للتحلل من نكارتها وبشاعتها:

لقد كان في يوسف وإخوته آيات للسائلين . إذ قالوا:ليوسف وأخوه

أحب إلى أبينا منا - ونحن عصبة - إن أبانا لفي ضلال مبين ! اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضا يخل لكم وجه أبيكم , وتكونوا من بعده قوما صالحين ! قال قائل منهم:لا تقتلوا يوسف وألقوه في غيابة الجب , يلتقطه بعض السيارة - إن كنتم فاعلين ! - قالوا:يا أبانا , مالك لا تأمنا على يوسف , وإنا له لناصحون . أرسله معنا غدا يرتع ويلعب , وإنا له لحافظون ! قال:إني ليحزنني أن تذهبوا به , وأخاف أن يأكله الذئب وأنتم عنه غافلون . قالوا:لئن أكله الذئب ونحن عصبة إنا إذا لخاسرون . فلما ذهبوا به وأجمعوا أن يجعلوه في غيابة الجب , وأوحينا إليه لتنبئنهم بأمرهم هذا وهم لا يشعرون . وجاءوا أباهم عشاء يبكون , قالوا:يا أبانا , إنا ذهبنا نستبق , وتركنا يوسف عند متاعنا فأكله الذئب , وما أنت بمؤمن لنا ولو كنا صادقين . وجاءوا على قميصه بدم كذب , قال:بل سولت لكم أنفسكم أمرا , فصبر جميل , والله المستعان على ما تصفون . .

ونحن نجدهم - هم هم - في كل مواقف القصة بعد ذلك - كما نجد موقف أحدهم الخاص من أول القصة إلى آخرها - فما إن يذهبوا بأخي يوسف بعدما طلبه منهم وهم لا يعرفونه يحسبون أنه عزيز مصر الذي قدموا من بلادهم - كنعان - ليشتروا منه القمح في سنوات الجدب العجاف , حيث يدبر الله ليوسف أن يأخذ أخاه منهم بحجة أنه وجد صواع الملك في رحله . . ما إن يروا هذا التدبير - وهم لا يعلمون ما وراءه - حتى ينفجر حقدهم القديم على يوسف:

(قالوا:إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل ! فأسرها يوسف في نفسه ولم يبدها لهم . قال:أنتم شر مكانا , والله أعلم بما تصفون). .

كذلك نجدهم - هم هم - بعد مواجهة أبيهم بالفجيعة الثانية في شيخوخته الحزينة , فما إن يروا تجدد حزنه على يوسف حتى ينفجر حقدهم القديم , دون مراعاة لشيخوخة أبيهم ونكبته الأليمة:

وتولى عنهم وقال:يا أسفا على يوسف ! وابيضت عيناه من الحزن فهو

كظيم . قالوا:تالله تفتأ تذكر يوسف حتى تكون حرضا أو تكون من الهالكين ! . .

ومثلها عندما أرسل يوسف قميصه إلى أبيه في النهاية - بعدما كشف لهم عن شخصيته - فلما رأوا أباهم يستنشق عبير يوسف , غاظهم هذا الاتصال الباطني الدال على عمق ما بينه وبين يوسف , فلم يملكوا أنفسهم أن يبكتوه ويؤنبوه:

(ولما فصلت العير قال أبوهم:إني لأجد ريح يوسف , لولا أن تفندون ! قالوا:تالله إنك لفي ضلالك القديم !). .

وامرأة العزيز . . في صرع الشهوة التي تعمي عن كل شيء في اندفاعها الهائج الكاسح , فلا تحفل حياء أنثويا ولا كبرياء ذاتيا , كما لا تحفل مركزا اجتماعيا ولا فضيحة عائلية . . والتي تستخدم - مع ذلك - كل مكر الأنثى وكيدها , سواء في تبرئة نفسها أو حماية من تهوى من جرائر التهمة التي ألصقتها به , وتحديد عقوبة لا تودي بحياته ! أو رد الكيد للنسوة من ثغرة الضعف الغريزي الشهوي الذي تعرفه فيهن من معرفتها لنفسها ! أو التبجح بشهوانيتها أمام انكشاف ضعف عزيمتها وكبريائها أمام من تهوى , ووقوف نسوتها معها على أرض واحدة , حيث تبدو فيها الأنثى متجردة من كل تجمل المرأة وحيائها , الأنثى التي لا تحس فيإرواء هواتفها الأنثوية أمرا يعاب أصلا ! ومع صدق التصوير والتعبير عن هذا النموذج البشري الخاص بكل واقعيته , وعن هذه اللحظة الخاصة بكل طبيعيتها , فإن الأداء القرآني - الذي ينبغي أن يكون هو النموذج الأعلى للأداء الفني الإسلامي - لم يتخل عن طابعه النظيف مرة واحدة - حتى وهو يصور لحظة التعري النفسي والجسدي الكامل بكل اندفاعها وحيوانيتها - لينشيء ذلك المستنقع الكريه الذي يتمرغ في وحله كتاب "القصة الواقعية " وكتاب "القصة الطبيعية " في هذه الجاهلية النكدة بحجة الكمال الفني في الأداء !

وقال الذي اشتراه من مصر لامرأته:أكرمي مثواه عسى أن ينفعنا أو

نتخذه ولدا . وكذلك مكنا ليوسف في الأرض , ولنعلمه من تأويل الأ حاديث , والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون . ولما بلغ أشده آتيناه حكما وعلما , وكذلك نجزي المحسنين . وراودته التي هو في بيتها عن نفسه , وغلقت الأبواب وقالت:هيت لك ! قال:معاذ الله ! إنه ربي أحسن مثواي , إنه لا يفلح الظالمون . ولقد همت به وهم بها , لو لا أن رأى برهان ربه . كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء , إنه من عبادنا المخلصين . واستبقا الباب , وقدت قميصه من دبر , وألفيا سيدها لدى الباب , قالت:ما جزاء من أراد بأهلك سوءا إلا أن يسجن أو عذاب أليم ?! قال:هي راودتني عن نفسي , وشهد شاهد من أهلها:إن كان قميصه قد من قبل فصدقت وهو من الكاذبين . وإن كان قميصه قد من دبر فكذبت وهو من الصادقين . فلما رأى قميصه قد من دبر قال:إنه من كيدكن , إن كيدكن عظيم ! يوسف أعرض عن هذا , واستغفري لذنبك إنك كنت من الخاطئين ! . . وقال نسوة في المدينة:امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه ! قد شغفها حبا ! إنا لنراها في ضلال مبين ! فلما سمعت بمكرهن أرسلت إليهن , وأعتدت لهن متكأ , وآتت كل واحدة منهن سكينا , وقالت:اخرج عليهن ! فلما رأينه أكبرنه , وقطعن أيديهن , وقلن:حاش لله ! ما هذا بشرا , إن هذا إلا ملك كريم . قالت:فذلكن الذي لمتنني فيه ! ولقد راودته عن نفسه فاستعصم , ولئن لم يفعل ما آمره ليسجنن وليكونا من الصاغرين . قال:رب , السجن أحب إلى مما يدعونني إليه , وإلا تصرف عني كيدهن أصب إليهن وأكن من الجاهلين . فاستجاب له ربه فصرف عنه كيدهن , إنه هو السميع العليم . .

"وكذلك حين نلتقي بها مرة أخرى بعدما دخل يوسف السجن بسبب كيدها وكيد النسوة ; وبقي هناك حتى رأى الملك رؤياه , وتذكر الفتى الذي كان سجينا معه أن يوسف هو وحده الذي يعرف تأويل الرؤيا , فطلب الملك أن يأتوه به , فأبى حتى يحقق قضيته , ويبريء ساحته , فاستدعاها الملك مع النسوة . وإذا بها ما تزال المرأة المحبة , مع التغير الطبيعي الواقعي الذي يحدثه الزمن والعمر والأحداث والظروف ; ومع

تسرب الإيمان الذي تعرفه من يوسف من خلال تلك المشاعر والمؤثرات جميعا:

وقال الملك:ائتوني به . فلما جاءه الرسول قال:ارجع إلى ربك فاسأله:ما بال النسوة اللاتي قطعن أيديهن ? إن ربي بكيدهن عليم . قال:ما خطبكن إذ راودتن يوسف عن نفسه ? قلن:حاش لله ! ما علمنا عليه من سوء . قالت امرأة العزيز:الآن حصحص الحق , أنا راودته عن نفسه , وإنه لمن الصادقين . ذلك ليعلم أني لم أخنه بالغيب , وأن الله لا يهدي كيد الخائنين . وما أبريء نفسي , إن النفس لأمارة بالسوء إلا ما رحم ربي , إن ربي غفور رحيم . .

ويوسف . . العبد الصالح - الإنسان - لم يزور الأداء القرآني في شخصيته الإنسانية لمحة واحدة ; وهو يواجه الفتنة بكل بشريته - مع نشأته في بيت النبوة وتربيته ودينه - وبشريته مع نشأته وتربيته ودينه تمثل بمجموعها واقعيته بكل جوانبها . . لقد ضعف حين همت به حتى هم بها ; ولكن الخيط الآخر شده وأنقذهمن السقوط فعلا . ولقد شعر بضعفه إزاء كيد النسوة . ومنطق البيئة , وجو القصور , ونسوة القصور أيضا ! ولكنه تمسك بالعروة الوثقى . . ليست هنالك لمحة واحدة مزورة في واقعية الشخصية وطبيعتها ; وليس هنالك رائحة من مستنقعات الجاهلية ووحلها الفني ! ذلك أن هذا هو الواقع السليم بكل جوانبه . .

والعزيز . . وشخصيته بطبيعتها الخاصة , وبطبيعة سمت الإمارة ; ثم بضعف النخوة , وغلبة الرياء الاجتماعي وستر الظواهر وإنقاذها ! وفيه تتمثل كل خصائص بيئته:

(فلما رأى قميصه قد من دبر , قال:إنه من كيدكن , إن كيدكن عظيم . يوسف أعرض عن هذا , واستغفري لذنبك , إنك كنت من الخاطئين !). .

والنسوة . . نسوة هذا المجتمع بكل ملامحه . . اللغط بسيرة امرأة العزيز وفتاها الذي راودته عن نفسه , بعدما شغفها حبا ! والاستنكار الذي تبدو

فيه غيرة النسوة من امرأة العزيز أكثر مما يبدو فيه استنكار الفعلة ! ثم وهلتهن أمام طلعة يوسف . قم إقرارهن الأنثوي العميق بموقف المرأة التي كن يلغطن بقصتها ويستنكرن موقفها ; وإحساس هذه المرأة بهذا ا لإقرار الذي يشجعها على الاعتراف الكامل , وهي آمنة في ظل استسلا مهن لأنوثتهن كما تصنعها بيئتهن الخاصة وتوجهها . ثم ميلهن كلهن على يوسف بالإغراء والإغواء , رغم ما أنطقتهن به الوهلة الأولى من نظافته وطهارته البادية من قولهن: (حاش لله ! ما هذا بشرا , إن هذا إلا ملك كريم). . نأخذ ذلك من قولة يوسف عليه السلام:

(قال:رب السجن أحب إلي مما يدعونني إليه , وإلا تصرف عني كيدهن أصب إليهن وأكن من الجاهلين). .

فلم تعد امرأة العزيز وحدها تراوده ; ولكن عادت نسوة تلك الطبقة بجملتها تطارده !

والبيئة . . التي تتجلى سماتها من خلال ذلك كله . ثم من خلال ذلك التصرف في أمر يوسف , على الرغم مما بدا من براءته . ذلك التصرف المقصود به مواراة الفضيحة ودفن معالمها ; ولا يهم أن يذهب بريء كيوسف ضحيتها:

(ثم بدا لهم من بعد ما رأوا الآيات ليسجننه حتى حين). .

فإذا تابعنا شخصية يوسف - عليه السلام - فإننا لا نفتقد في موقف واحد من مواقف القصة ملامح هذه الشخصية , المنبثقة من مقوماتها الذاتية البيئية الواقعية , المتمثلة في كونه "العبد الصالح - الإنسان - بكل بشريته , مع نشأته في بيت النبوة وتربيته ودينه" . .

فهو في السجن وظلماته - مع الظلم وظلماته ! - لا يغفل عن الدعوة لدينه , في كياسة وتلطف - مع الحزم والفصل - وفي إدراك لطبيعة البيئة ومداخل النفوس فيها . . كما أنه لا يغفل عن حسن تمثيله بشخصه وأدبه وسلوكه لدينه هذا الذي يدعو إليه في سجنه:

(ودخل معه السجن فتيان . قال أحدهما:إني أراني أعصر خمرا , وقال ا لآخر:إني أراني أحمل فوق رأسي خبزا تأكل الطير منه . نبئنا بتأويله , إنا نراك من المحسنين . قال:لا يأتيكما طعام ترزقانه إلا نبأتكما بتأويله قبل أن يأتيكما , ذلكما مما علمني ربي , إني تركت ملة قوم لا يؤمنون ب‍الله وهم بالآخرة هم كافرون . واتبعت ملة آبائي إبراهيم وإسحاق ويعقوب , ما كان لنا أن نشرك ب‍الله من شيء , ذلك من فضل الله علينا وعلى الناس , ولكن أكثر الناس لا يشكرون . يا صاحبي السجن , أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار ? ما تعبدون من دونه إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان , إن الحكم إلا لله ,)أمر ألا تعبدوا إلا إياه , ذلك الدين القيم , ولكن أكثر الناس لا يعلمون . يا صاحبي السجن , أما أحدكما فيسقي ربه خمرا , وأما الآخر فيصلب فتأكل الطير من رأسه , قضي الأمر الذي فيه تستفتيان). .

وهو - مع هذا كله - بشر , فيه ضعف البشر . فهو يتطلب الخلاص من سجنه , بمحاولة إيصال خبره إلى الملك , لعله يكشف المؤامرة الظالمة التي جاءت به إلى السجن المظلم . وإن كان الله - سبحانه - شاء أن يعلمه أن يقطع الرجاء إلا منه وحده:

(وقال للذي ظن أنه ناج منهما:اذكرني عند ربك . فأنساه الشيطان ذكر ربه . فلبث في السجن بضع سنين . . .).

ثم تطالعنا ملامح هذه الشخصية كذلك بعد بضع سنين , وقد رأى الملك رؤياه , فحار في تأويلها الكهنة والسدنة ; حتى تذكر صاحب السجن يوسف - بعدما تمت التربية الربانية للعبد الصالح , فاطمأن إلى قدر الله به واطمأن إلى مصيره - حتى إذا ما طلب الملك - بعد تأويله لرؤياه - أن يأتوه به , أجاب في هدوء المطمئن الواثق ; وتمنع عن مغادرة سجنه إلا بعد تحقيق تهمته وتبرئة سمعته:

وقال الملك:إني أرى سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف , وسبع سنبلا ت خضر وأخر يابسات . يا أيها الملأ أفتوني في رؤيايي , إن كنتم للرؤيا

تعبرون . قالوا:أضغاث أحلام , وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين . وقال الذي نجا منهما وادكر بعد أمة:أنا أنبئكم بتأويله فأرسلون . يوسف أيها الصديق , أفتنا في سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات , لعلي أرجع إلى الناس لعلهم يعلمون . قال:تزرعون سبع سنين دأبا , فما حصدتم فذروه في سنبله , إلا قليلا مما تأكلون . ثم يأتي من بعد ذلك سبع شداد يأكلن ما قدمتم لهن . إلا قليلا مما تحصنون . ثم يأتي من بعد ذلك عام فيه يغاث الناس وفيه يعصرون . . وقال الملك:ائتوني به . . فلما جاءه الرسول قال:ارجع إلى ربك فاسأله:ما بال النسوة اللآتي قطعن أيديهن ? إن ربي بكيدهن عليم . قا ل:ما خطبكن إذ راودتن يوسف عن نفسه ? قلن:حاش لله ! ما علمنا عليه من سوء . قالت امرأة العزيز:الآن حصحص الحق , أنا راودته عن نفسه , وإنه لمن الصادقين . ذلك ليعلم أني لم أخنه بالغيب , وأن الله لا يهدي كيد الخائنيين . وما أبريء نفسي , إن النفس لأمارة بالسوء , إلا ما رحم ربي , إن ربي غفور رحيم . . وقال الملك:ائتوني به أستخلصه لنفسي , فلما كلمه قال:إنك اليوم لدينا مكين أمين . قال:اجعلني على خزائن الأرض , إني حفيظ عليم . .

ومنذ هذه اللحظة التي تجلت فيها شخصية يوسف مكتملة ناضجة واعية , مطمئنة ساكنة واثقة , نجد هذه الشخصية تتفرد على مسرح الأ حداث , وتتوارى تماما شخصيات الملك والعزيز والنسوة والبيئة . ويمهد السياق القرآني لهذا التحول في القصة وفي الواقع بقوله:

(وكذلك مكنا ليوسف في الأرض يتبوأ منها حيث يشاء , نصيب برحمتنا من نشاء . ولا نضيع أجر المحسنين , ولأجر الآخرة خير للذين آمنوا وكانوا يتقون). .

ومنذ هذه اللحظة نجد هذه الشخصية تواجه ألوانا أخرى من الابتلا ءات , تختلف في طبيعتها عن الألوان الأولى ; وتواجهها بذلك الاكتمال الناضج الواعي , وبتلك الطمأنينة الساكنة الواثقة .

نجد يوسف وهو يواجه - للمرة الأولى - إخوته بعدما فعلوا به تلك الفعلة القديمة ; وهو في الموقف الأعلى بالقياس إليهم والأقوى . . ولكننا نجد سمة الضبط واضحة في انفعالاته وتصرفاته:

(وجاء أخوة يوسف فدخلوا عليه فعرفهم وهم له منكرون . ولما جهزهم بجهازهم قال:ائتوني بأخ لكم من أبيكم , ألا ترون أني أوفي الكيل وأنا خير المنزلين ? فإن لم تأتوني به فلا كيل لكم عندي ولا تقربون . ق الوا:سنراود عنه أباه وإنا لفاعلون . وقال لفتيانه:اجعلوا بضاعتهم في رحالهم لعلهم يعرفونها إذا انقلبوا إلى أهلهم لعلهم يرجعون). .

ونجده وهو يدبر - بتدبير الله له - كيف يأخذ أخاه . فنلمح الشخصية الناضجة الواعية الحكيمة المطمئنة , الضابطة الصابرة:

ولما دخلوا على يوسف آوى إليه أخاه:قال:إني أنا أخوك فلا تبتئس بما كانوا يعملون . فلما جهزهم بجهازهم جعل السقاية في رحل أخيه ; ثم أذن مؤذن:أيتها العير إنكم لسارقون . قالوا - وأقبلوا عليهم - ماذا تفقدون ? قالوا:نفقد صواع الملك , ولمن جاء به حمل بعير , وأنا به زعيم . قالوا:تالله لقد علمتم ما جئنا لنفسد في الأرض , وما كنا سارقين . قالوا:فما جزاؤه إن كنتم كاذبين ? قالوا:جزاؤه من وجد في رحله فهو جزاؤه , كذلك نجزي الظالمين . فبدأ بأوعيتهم قبل وعاء أخيه , ثم استخرجها من وعاء أخيه . . كذلك كدنا ليوسف , ما كان ليأخذ أخاه في دين الملك , إلا أن يشاء الله , نرفع درجات من نشاء , وفوق كل ذي علم عليم . قالوا:إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل ! فأسرها يوسف في نفسه ولم يبدها لهم , قال:أنتم شر مكانا , والله أعلم بما تصفون . قالوا:يا أيها العزيز , إن له أبا شيخا كبيرا فخذ أحدنا مكانه , إنا نراك من المحسنين . قال:معاذ الله أن نأخذ إلا من وجدنا متاعنا عنده , إنا إذا لظالمون . .

ثم نلتقي به وقد استوفت المحنة بيعقوب أجلها , وقدر الله أن تنقضي ا لابتلاءات التي نزلت به وببيته , وحن يوسف إلى أبويه وأهله , ورق لأ

خوته والضر باد بهم , فكشف لهم عن نفسه , في عتاب رقيق , وفي عفو كريم , يجيء في أوانه , وكل الملابسات توحي به , وتتوقعه من هذه الشخصية بسماتها تلك:

فلما دخلوا عليه قالوا:يا أيها العزيز مسنا وأهلنا الضر , وجئنا ببضاعة مزجاة . فأوف لنا الكيل وتصدق علينا , إن الله يجزي المتصدقين . ق ال:هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه إذ أنتم جاهلون ? قالوا:أئنك لأ نت يوسف ? قال:أنا يوسف , وهذا أخي , قد من الله علينا , إنه من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين . قالوا:تالله لقد آثرك الله علينا , وإن كنا لخاطئين . قال:لا تثريب عليكم اليوم , يغفر الله لكم , وهو أرحم الراحمين . اذهبوا بقميصي هذه فألقوه على وجه أبي يأت بصيرا , وأتوني بأهلكم أجمعين . .

وفي النهاية يجيء ذلك الموقف الجليل الرائع . . موقف اللقاء الجامع ويوسف في أوج سلطانه وأوج تأويل رؤياه وتحقق أحلامه . . وإذا به ينسلخ من هذا كله وينتحي جانبا ينفرد بربه , ويناجيه خالصا له , وذلك كله مطروح وراءه:

رب قد آتيتني من الملك , وعلمتني من تأويل الأحاديث . فاطر السماوات والأرض . أنت ولي في الدنيا والآخرة . توفني مسلما وألحقني بالصالحين . .

إنها شخصية موحدة متكاملة , بكل واقعيتها الممثلة لمقوماتها الواقعية في نشأتها وبيئتها .

ويعقوب . . الوالد المحب الملهوف , والنبي المطمئن الموصول , وهو يواجه بالاستبشار والخوف معا تلك الرؤيا الواعدة التي رآها يوسف ; وهو يرى فيها بشائر مستقبل مرموق , بينما هو يتوجس خيفة من الشيطان وفعله في نفوس بنيه . فتتجلى شخصيته بواقعيتها الكاملة في كل جوانبها:

(إذ قال يوسف لأبيه:يا أبت إني رأيت أحد عشر كوكبا والشمس والقمر رأيتهم لي ساجدين . قال:)(يا بني لا تقصص رؤياك على إخوتك فيكيدوا لك كيدا . إن الشيطان للإنسان عدو مبين . وكذلك يجتبيك ربك ويعلمك من تأويل الأحاديث , ويتم نعمته عليك وعلى آل يعقوب كما أتمها على أبويك من قبل إبراهيم وإسحاق , إن ربك عليم حكيم).

ثم نجد هذه الشخصية كذلك بكل واقعيتها البشرية النبوية , وبنوه يراودونه عن يوسف ثم وهم يفاجئونه بالفجيعة:

قالوا:يا أبانا , مالك لا تأمنا على يوسف , وإنا له لناصحون . أرسله معنا غدا يرتع ويلعب , وإنا له لحافظون . قال:إني ليحزنني أن تذهبوا به , وأخاف أن يأكله الذئب وأنتم عنه غافلون . قالوا:لئن أكله الذئب ونحن عصبة إنا إذا لخاسرون . فلما ذهبوا به وأجمعوا أن يجعلوه في غيابة الجب , وأوحينا إليه لتنبئنهم بأمرهم هذا وهم لا يشعرون . وجاءوا أباهم عشاء يبكون , قالوا:يا أبانا , إنا ذهبنا نستبق , وتركنا يوسف عند متاعنا فأكله الذئب , وما أنت بمؤمن لنا ولو كنا صادقين . وجاءوا على قميصه بدم كذب , قال:بل سولت لكم أنفسكم أمرا ; فصبر جميل , والله المستعان على ما تصفون . .

ثم نلتقي بهذه الشخصية - بكل واقعيتها تلك - وبنوه يراودونه مرة أخرى على السلوة الباقية له . . أخي يوسف . . وقد طلبه منهم عزيز مصر - يوسف - الذي لا يعرفونه ! في مقابل أن يعطيهم كيلا يقتاتون به في السنوات العجاف !

فلما رجعوا إلى أبيهم قالوا:يا أبانا منع منا الكيل , فأرسل معنا أخانا نكتل وإنا له لحافظون:قال:هل آمنكم عليه إلا كما أمنتكم على أخيه من قبل ? فالله خير حافظا وهو أرحم الراحمين . ولما فتحوا متاعهم وجدوا بضاعتهم ردت إليهم , قالوا:يا أبانا ما نبغي , هذه بضاعتنا ردت إلينا , ونمير أهلنا ونحفظ أخانا , ونزداد كيل بعير , ذلك كيل يسير . ق ال:لن أرسله معكم حتى تؤتون موثقا من الله:لتأتنني به إلا أن يحاط

بكم . فلما آتوه موثقهم قال:الله على ما نقول وكيل . . وقال:يا بني لا تدخلوا من باب واحد وادخلوا من أبواب متفرقة , وما أغنى عنكم من الله من شيء , إن الحكم إلا لله , عليه توكلت , وعليه فقليتوكل المتوكلون . ولما دخلوا من حيث أمرهم أبوهم ما كان يغني عنهم من الله من شيء , إلا حاجة في نفس يعقوب قضاها , وإنه لذو علم لما علمناه , ولكن أكثر الناس لا يعلمون . .

ثم نلتقي به في فجيعته الثانية . . والدا ملهوفا ونبيا موصولا . . ذلك بعد أن دبر الله ليوسف كيف يأخذ أخاه . فيتخلف أحد أبناء يعقوب - صاحب الشخصية الخاصة فيهم , متوافيا مع سماته التي صاحبت مواقفه كلها في القصة , مشفقا أن يقابل أباه بعد الموثق الذي آتاه إياه . إلا أن يأذن له أبوه أو يحكم له الله -:

فلما استيأسوا منه خلصوا نجيا , قال كبيرهم:ألم تعلموا أن أباكم قد أخذ عليكم موثقا من الله , ومن قبل ما فرطتم في يوسف ? فلن أبرح ا لأرض حتى يأذن لي أبي , أو يحكم الله لي وهو خير الحاكمين . ارجعوا إلى أبيكم فقولوا:يا أبانا إن ابنك سرق ! وما شهدنا إلا بما علمنا , وما كنا للغيب حافظين . واسأل القرية التي كنا فيها والعير التي أقبلنا فيها , وإنا لصادقون . قال:بل سولت لكم أنفسكم أمرا , فصبر جميل , عسى الله أن يأتيني بهم جميعا إنه هو العليم الحكيم . وتولى عنهم وقال:يا أسفا على يوسف ! وابيضت عيناه من الحزن فهو كظيم . قالوا:تالله تفتأ تذكر يوسف حتى تكون حرضا أو تكون من الهالكين ! قال:إنما أشكو بثي وحزني إلى الله , وأعلم من الله ما لا تعلمون . يا بني اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه , ولا تيأسوا من روح الله . إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون . .

وفي آخر مواقف المحنة الطويلة للشيخ المبتلي نجد ذات الملامح وذات الواقعية . وهو يشم ريح يوسف في قميصه , ويواجه غيظ بنيه وتبكيتهم فلا يشك في صدق ظنه بربه:

ولما فصلت العير قال أبوهم:إني لأجد ريح يوسف , لولا أن تفندون . قالوا:تالله إنك لفي ضلالك القديم . فلما أن جاء البشير ألقاه على وجهه فارتد بصيرا . قال:ألم أقل لكم:إني أعلم من الله ما لا تعلمون ? قالوا:يا أبانا استغفر لنا ذنوبنا إنا كنا خاطئين . قال:سوف استغفر لكم ربي , إنه هو الغفور الرحيم

إنها الشخصية الموحدة الخصائص والملامح , الواقعية المشاعر و التصرفات , الممثلة لكل واقعية ذاتها وظروفها وبيئتها بلا تزوير ولا نقص ولا تحريف !

والواقعية الصادقة الأمنية النظيفة السليمة في الوقت نفسه , لا تقف عند واقعية الشخصيات الإنسانية التي تحفل بها القصة في هذا المجال الواسع , على هذا المستوى الرائع . ولكنها تتجلى كذلك في واقعية الأحداث والسرد والعرض وصدقها وطبيعيتها في مكانها وزمانها , وفي بيئتها وملابساتها . . فكل حركة وكل خالجة وكل كلمة تجيء في أوانها ; وتجيء في الصورة المتوقعة لها ; وتجيء في مكانها من مسرح العرض ; متراوحة بين منطقة الظل ومنطقة الضوء بحسب أهميتها ودورها وطبيعة جريان الحياة بها . . الأمر الملحوظ في الشخصيات أيضا كما قررنا من قبل هذا . .

حتى لحظات الجنس في القصة ومواقفه أخذت مساحتها كاملة - في حدود المنهج النظيف اللائق "بالإنسان" في غير تزوير ولا نقص ولا تحريف للواقعية البشرية في شمولها وصدقها وتكاملها - ولكن استيفاء تلك اللحظات لمساحتها المتناسقة مع بقية الأحداث والمواقف لم يكن معناه الوقوف أمامها كما لو كانت هي كل واقعية الكائن البشري ; وكما لو كانت هي محور حياته كلها , وهي كل أهداف حياته التي تستغرقها ! كما تحاول الجاهلية أن تفهمنا أن هذا وحده هو الفن الصادق !

إن الجاهلية إنما تمسخ الكائن البشري باسم الصدق الفني ! وهي تقف أمام لحظة الجنس كما لو كانت هي كل وجهة الحياة البشرية بجملتها ;

فتنشيء منها مستنقعا واسعا عميقا , مزينا في الوقت ذاته بالأزهار الشيطانية !

وهي لا تفعل هذا لأن هذا هو الواقع , ولا لأنها هي مخلصة في تصوير هذا الواقع ! إنما تفعله لأن "بروتوكولات صهيون" تريد هذا ! تريد تجريد "الإنسان" إلا من حيوانيته حتى لا يوصم اليهود وحدهم بأنهم هم الذين يتجردون من كل القيم غير المادية ! وتريد أن تغرق البشرية كلها في وحل المستنقع كي تنحصر فيه كل اهتماماتها , وتستغرق فيه كل طاقاتها ; فهذه هي أضمن سبيل لتدمير البشرية حتى تجثو على ركبتيها خاضعة لملك صهيون المرتقب الملعون ! ثم تتخذ من الفن وسيلة إلى هذا الشر كله , إلى جانب ما تتخذه من نشر المذاهب "العلمية ! " المؤدية إلى ذات الهدف . تارة باسم "الداروينية " وتارة باسم "الفرويدية " وتارة باسم "الماركسية " أو "الاشتراكية العلمية " . . وكلها سواء في تحقيق المخططات الصهيونية الرهيبة !

والقصة بعد ذلك تتجاوز الشخصيات والأحداث لترسم ظلال الفترة التاريخية التي تجري فيها أحداث القصة , وتتحرك فيها شخصياتها الكثيرة , وتسجل سماتها العامة , فترسم مسرح الأحداث بأبعاده العالمية في تلك الفترة التاريخية . . ونكتفي ببعض اللمحات والسهام التي ترسم تلك الأبعاد:

إن مصر في هذه الفترة لم يكن يحكمها الفراعنة من الأسر المصرية ; إنما كان يحكمها "الرعاة " الذين عاش إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب قريبا منهم , فعرفوا شيئا عن دين الله منهم . نأخذ هذا من ذكر القرآن للملك بلقب "الملك" في حين يسمى الملك الذي جاء على عهد موسى - عليه السلام - من بعد بلقبه المعروف . "فرعون" . . ومن هذا يتحدد زمن وجود يوسف - عليه السلام - في مصر . فهو كان ما بين عهد الأسرة الثالثة عشرة والأسرة السابعة عشرة ; وهي أسر "الرعاة " الذين سماهم المصريون "الهكسوس" ! كراهية لهم ; إذ يقال:إن معنى

الكلمة في اللغة المصرية القديمة:"الخنازير" أو "رعاة الخنازير" ! وهي فترة تستغرق نحو قرن ونصف قرن .

إن رسالة يوسف عليه السلام كانت في هذه الفترة . وهو كان قد بدأ الدعوة إلى الإسلام . . ديانة التوحيد الخالص . . وهو في السجن ; وقرر أنها دين آبائه إبراهيم وإسحاق ويعقوب ; وقررها في صورة واضحة كاملة دقيقة شاملة , فيما حكاه القرآن الكريم من قوله:

(إني تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله , وهم بالآخرة هم كافرون . واتبعت ملة آبائي إبراهيم وإسحاق ويعقوب , ما كان لنا أن نشرك بالله من شيء , ذلك من فضل الله علينا وعلى الناس , ولكن أكثر الناس لا يشكرون . يا صاحبي السجن أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار ? ما تعبدون من دونه إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان , إن الحكم إلا لله , أمر ألا تعبدوا إلا إياه , ذلك الدين القيم , ولكن أكثر الناس لا يعلمون). .

وهي صورة للإسلام واضحة كاملة ودقيقة وشاملة - كما جاء به رسل الله جميعا - من ناحية أصول العقيدة . تحتوي , الإيمان بالله , والإيمان بالآخرة , وتوحيد الله وعدم الشرك به أصلا , ومعرفة الله سبحانه بصفاته . . الواحد , القهار . . والحكم بعدم وجود حقيقة ولا سلطان لغيره أصلا ; ومن ثم نفى الأرباب التي تتحكم في رقاب العباد , وإعلان السلطان والحكم لله وحده , ما دام أن الله أمر ألا يعبد الناس غيره . ومزاولة السلطان والحكم والربوبية هي تعبيد للناس مخالف للأمر بعبادة الله وحده . وتحديد معنى "العبادة " بأنها الخضوع للسلطان و الحكم والإذعان للربوبية , وتعريف الدين القيم بأنه إفراد الله سبحانه ب العبادة - أي إفراده بالحكم - فهما مترادفان أو متلازمان: (إن الحكم إلا لله , أمر ألا تعبدوا إلا إياه . ذلك الدين القيم). . وهذه هي أوضح صورة للإسلام وأكملها وأدقها وأشملها . .

وواضح أن يوسف - عليه السلام - عندما سيطر على مقاليد الأمور في

مصر , استمر في دعوته للإسلام على هذا النحو الواضح الكامل الدقيق الشامل . . ولا بد أن الإسلام انتشر في مصر على يديه - وهو يقبض على أقوات الناس وأزوادهم لا على مجرد مقاليد الحكم بينهم - وانتشر كذلك في البقاع المجاورة ممن كانت وفودها تجيء لتقتات مما تم ادخاره بحكمته وتدبيره - وقد رأينا إخوة يوسف يجيئون من أرض كنعان المجاورة في الأردن ضمن غيرهم من القوافل ليمتاروا من مصر ويتزودوا , مما يصور حالة الجدب التي حلت بالمنطقة كلها في هذه الفترة .

والقصة تشير إلى آثار باهتة للعقيدة الإسلامية التي عرف الرعاة شيئا عنها في أول القصة , كما تشير إلى انتشار هذه العقيدة ووضوحها بعد دعوة يوسف بها .

والإشارة الأولى وردت في حكاية قول النسوة حين طلع عليهن يوسف:

(فلما رأينه أكبرنه , وقطعن أيديهن وقلن:حاش لله ! ما هذا بشرا . إن هذا إلا ملك كريم). .

ووردت في قول العزيز لامرأته:

(يوسف أعرض عن هذا واستغفري لذنبك ; إنك كنت من الخاطئين). .

أما الإشارة الثانية الواضحة فقد جاءت على لسان امرأة العزيز التي يتجلى أنها آمنت بعقيدة يوسف وأسلمت في النهاية , فيما حكاه عنها السياق القرآني:

قالت امرأة العزيز:الآن حصحص الحق , أنا راودته عن نفسه , وإنه لمن الصادقين , ذلك ليعلم أني لم أخنه بالغيب , وأن الله لا يهدي كيد الخائنين . وما ابريء نفسي . إن النفس لأمارة بالسوء إلا ما رحم ربي , إن ربي غفور رحيم . .

وإذا اتضح أن ديانة التوحيد - على هذا المستوى - كانت قد عرفت قبل

تولي يوسف مقاليد الحكم في مصر ; فلا بد أن تكون قد انتشرت بعد ذلك واستقرت على نطاق واسع في أثناء توليه الحكم , ثم من بعد ذلك في عهد أسر الرعاة . فلما استرد الفراعنة زمام الأمور في الأسرة الثامنة عشرة أخذوا يقاومون ديانة التوحيد ممثلة في ذرية يعقوب التي تكاثرت في مصر , لإعادة الوثنية التي تقوم عليها الفرعونية ! . . .

وهذا يكشف لنا سببا أصيلا من أسباب اضطهاد الفراعنة بعد ذلك لبني إسرائيل - أي يعقوب - إلى جانب السبب السياسي , وهو أنهم جاءوا واستوطنوا وحكموا واستقروا في عهد ملوك الرعاة الوافدين . فلما طرد المصريون ملوك الرعاة طاردوا حلفاءهم من بني إسرائيل أيضا . . وإن كان اختلاف العقيدتين ينبغي أن يكون هو التفسير الأقوى لذلك الا ضطهاد الفظيع . ذلك أن انتشار عقيدة التوحيد الصحيحة يحطم القاعدة التي يقوم عليها ملك الفراعين ! فهي العدو الأصيل للطواغيت وحكم الطواغيت وربوبية الطواغيت !

ولقد وردت إشارة إلى هذا الذي نقرره في حكاية القرآن الكريم لقول مؤمن آل فرعون في سورة غافر ; في دفاعه الإسلامي المجيد عن موسى عليه السلام , في وجه فرعون وملئه عندما هم فرعون بقتل موسى , ليقتل معه الخطر الذي يتهدد ملكه كله من عقيدة التوحيد التي جاء بها موسى:

وقال فرعون:ذروني أقتل موسى وليدع ربه , إني أخاف أن يبدل دينكم أو أن يظهر في الأرض الفساد . وقال موسى:إني عذت بربي وربكم من كل متكبر لا يؤمن بيوم الحساب . وقال رجل مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه:أتقتلون رجلا أن يقول:ربي الله ? وقد جاءكم بالبينات من ربكم , وإن يك كاذبا فعليه كذبه , وإن يك صادقا يصبكم بعض الذي يعدكم , إن الله لا يهدي من هو مسرف كذاب . يا قوم لكم الملك اليوم ظاهرين في الأرض . فمن ينصرنا من بأس الله إن جاءنا ? قال فرعون:ما أريكم إ لا ما أرى . وما أهديكم إلا سبيل الرشاد . وقال الذي آمن:يا قوم إني

أخاف عليكم مثل يوم الأحزاب . مثل دأب قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم , وما الله يريد ظلما للعباد , ويا قوم إني أخاف عليكم يوم التناد . يوم تولون مدبرين ما لكم من الله من عاصم , ومن يضلل الله فما له من هاد . . ولقد جاءكم يوسف من قبل بالبينات فما زلتم في شك مما جاءكم به , حتى إذا هلك قلتم:لن يبعث الله من بعده رسولا , كذلك يضل الله من هو مسرف مرتاب . الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان أتاهم . كبر مقتا عند الله وعند الذين آمنوا ! كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر . . الخ . .

فقد كان الصراع الحقيقي بين عقيدة التوحيد التي تفرد الله سبحانه بـ الربوبية , فتفرده بالعبادة - أي بالدينونة والخضوع والاتباع لحاكميته وحده - وبين الفرعونية التي تقوم على أساس العقيدة الوثنية , ولا تقوم إلا بها .

ولعل التوحيد الناقص المشوه الذي عرف به "أخناتون" لم يكن إلا أثرا من الآثار المضطربة التي بقيتمن التوحيد الذي نشره يوسف عليه السلا م في مصر كما أسلفنا ; وبخاصة إذا صح ما يقال في التاريخ من أن أم أخناتون كانت آسيوية ولم تكن فرعونية !

وبعد هذا الاستطراد نعود إلى اللمحات الدالة على طبيعة الفترة التاريخية التي وقعت فيها أحداث القصة وتحركت فيها أشخاصها . فنجدها تتجاوز حدود الرقعة المصرية , وتسجل طابع العصر كله . فواضح تماما انطباع هذه الفترة الزمنية بالرؤى والتنبؤات التي لا تقتصر على أرض واحدة , ولا على قوم بأعيانهم . . ونحن نرى هذه الظاهرة واضحة في رؤيا يوسف وتعبيرها وتأويلها في النهاية . وفي رؤيا الفتيين صاحبي السجن . وفي رؤيا الملك في النهاية . . وكلها تتلقى بالاهتمام سواء ممن يرونها أو ممن يسمعونها مما يشي بطابع العصر كله !

وعلى وجه الإجمال فإن القصة غنية بالعناصر الفنية . غنية كذلك بـ

العنصر الإنساني , حافلة بالانفعال والحركة . وطريقة الأداء تبرز هذه العناصر إبرازا قويا . فضلا على خصائص التعبير القرآنية الموحية المؤثرة , ذات الإيقاع الموسيقي المناسب لكل جو من الأجواء التي يصورها السياق .

في القصة يتجلى عنصر الحب الأبوي في صور ودرجات منوعة واضحة الخطوط والظلال:في حب يعقوب ليوسف وأخيه وحبه لبقية أبنائه . وفي استجاباته الشعورية للأحداث حول يوسف من أول القصة إلى آخرها .

وعنصر الغيرة والتحاسد بين الإخوة من أمهات مختلفات , بحسب ما يرون من تنوع صور الحب الأبوي . وعنصر التفاوت في الاستجابات المختلفة للغيرة والحسد في نفوس الإخوة ; فبعضهم يقودهم هذا الشعور إلى إضمار جريمة القتل , وبعضهم يشير فقط بطرح يوسف في الجب تلتقطه بعض السيارة نفورا من الجريمة . .

وعنصر المكر والخداع في صور شتى . من مكر إخوة يوسف به , إلى مكر امرأة العزيز يوسف وبزوجها وبالنسوة .

وعنصر الشهوة ونزواتها والاستجابة لها بالاندفاع او بالإحجام . وبالإعجاب والتمني , والاعتصام والتأبي .

وعنصر الندم في بعض ألوانه , والعفو في أوانه . والفرح بتجمع المتفارقين . .

وذلك إلى بعض صور المجتمع الجاهلي في طبقة العلية من الملأ:في البيت والسجن والسوق والديوان - في مصر يومذاك . والمجتمع العبراني , وما يسود العصر من الرؤى والتنبؤات .

وتبدأ القصة بالرؤيا يقصها يوسف على أبيه , فينبئه أبوه بأن سيكون له شأن عظيم , وينصحه بألا يقصها على إخوته كي لا يثير حسدهم

فيغريهم الشيطان به فيكيدون له . . ثم تسير القصة بعد ذلك , وكأنما هي تأويل للرؤيا ولما توقعه يعقوب من ورائها حتى إذا اكتمل تأويل الرؤيا في النهاية أنهى السياق القصة , ولم يسر فيها كما سار كتاب "العهد القديم" بعد هذا الختام الفني الدقيق , الوافي بالغرض الديني كل الوفاء .

وما يسمى بالعقدة الفنية في القصة واضح في قصة يوسف . فهي تبدأ بالرؤيا كما سبق , ويظل تأويلها مجهولا , يتكشف قليلا قليلا , حتى تجيء الخاتمة فتحل العقدة حلا طبيعيا لا تعمل فيه ولا اصطناع !

والقصة مقسمة إلى حلقات . كل حلقة تحتوي جملة مشاهد . والسياق يترك فجوات بين المشهد والمشهد يملؤها تخيل القاريء وتصوره , ويكمل ما حذف من حركات وأقوال , مع ما في هذا من تشويق ومتاع .
.

وحسبنا هذا القدر من التحليل الفني لقصة يوسف , وتمثيلها للمنهج القرآني الإسلامي في الأداء . وفي هذا القدر ما يكشف عن مدى الإ مكانيات التي يعرضها هذا المنهج للمحاولات البشرية في الأدب الإسلا مي ,لتمكينه من الأداء الفني الكامل والواقعية الصادقة السليمة , دون أن يسف أو يحتاج إلى التخلي عن النظافة اللائقة بفن يقدم ل "الإ نسان" !

وتبقى وراء ذلك كله عبرة القصة وقيمتها في مجال الحركة الإسلامية ; وإيحاءاتها المتوافية مع حاجات الحركة في بعض مراحلها . ومع حاجاتها الثابتة التي لا تتعلق بمرحلة خاصة منها . إلى جانب الحقائق الكبرى التي تتقرر من خلال سياق القصة , ثم من خلال سياق السورة كلها بعد ذلك . وبخاصة تلك التعقيبات الأخيرة في السورة . .

ونكتفي في هذا التقديم للسورة بلمحات سريعة من هذا كله:

لقد أشرنا في مطالع هذا التقديم إلى مناسبة قصة يوسف بجملتها

للفترة الحرجة التي كانت تمر بها الحركة الإسلامية في مكة عند نزول السورة , وللشدة التي كان رسول الله [ص] والقلة المؤمنة معه يتعرضون لها . وذلك بما تحمل القصة من عرض لابتلاءات أخ كريم للنبي الكريم ; ثم بما تحمله بعد ذلك من استفزاز من الأرض ثم تمكين .

وهذا الذي سبق أن قررناه يصور لونا من إيحاءات القصة المتوافية مع حاجات الحركة الإسلامية في تلك الفترة ; ويقرب معنى "الطبيعة الحركية " لهذا القرآن وهو يزود الدعوة , ويدفع الحركة , ويوجه الجماعة المسلمة توجيها واقعيا إيجابيا محدد الهدف مرسوم الطريق .

كذلك أشرنا في ثنايا تحليل القصة إلى الصورة الواضحة الكاملة الدقيقة الشاملة للإسلام , كما عرضها يوسف عليه السلام . وهي صورة تستحق الوقوف أمامها طويلا . .

إنها تقرر ابتداء وحدة العقيدة الإسلامية التي جاء بها الرسل جميعا ; واستيفاء مقوماتها الأساسية في كل رسالة ; وقيامها على التوحيد الكامل لله سبحانه , وعلى تقرير ربوبيته للبشر وحده , ودينونة البشر له وحده . . كما تقرر تضمن تلك العقيدة الواحدة للإيمان بالدار الآخرة بصورة واضحة . وهذا التقرير يقطع الطريق على مزاعم ما يسمونه "علم الأديان المقارن" من أن البشرية لم تعرف التوحيد ولا الآخرة إلا أخيرا جدا , بعد أن اجتازت عقائد التعدد والتثنية بأشكالها وصورها المختلفة ; وأنها ترقت في معرفة العقيدة كما ترقت في معرفة العلوم و الصناعات . . هذه المزاعم التي تتجه إلى تقرير أن الأديان من صنع البشر شأنها شأن العلوم والصناعات .

كذلك هي تقرر طبيعة ديانة التوحيد التي جاء بها الرسل جميعا . . إنه ليس توحيد الألوهية فحسب . ولكنه كذلك توحيد الربوبية . . وتقرير أن الحكم لله وحده في أمر الناس كله ; وأن هذا التقرير ناشيء من أمر الله سبحانه بألا يعبد إلا إياه . والتعبير القرآني الدقيق في هذه القضية يحدد مدلول "العبادة " تحديدا دقيقا . فهي الحكم من جانب الله و

الدينونة من جانب البشر . . وهذا وحده هو "الدين القيم" فلا دين إذن لله ما لم تكن دينونة الناس لله وحده , وما لم يكن الحكم لله وحده . و لا عبادة لله إذن إذا دان الناس لغير الله فيشأن واحد من شؤون الحياة . فتوحيد الألوهية يقتضي توحيد الربوبية . والربوبية تتمثل في أن يكون الحكم لله . . أو أن تكون العبادة لله . . فهما مترادفان أو متلازمان . والعبادة التي يعتبر بها الناس مسلمين أو غير مسلمين هي الدينونة والخضوع والاتباع لحكم الله دون سواه . .

وهذا التقرير القرآني بصورته هذه الجازمة ينتهي كل جدل في اعتبار الناس في أي زمان وفي أي مكان مسلمين أو غير مسلمين , في الدين القيم أم في غير هذا الدين . . فهذا الاعتبار يعد من المعلوم من الدين بـ الضرورة . . من دان لغير الله وحكم في أي أمر من أمور حياته غير الله , فليس من المسلمين وليس في هذا الدين . ومن أفرد الله سبحانه بـ الحاكمية ورفض الدينونة لغيره من خلائقه فهو من المسلمين وفي هذا الدين . . وكل ما وراء ذلك تمحل لا يحاوله إلا المهزومون أمام الواقع الثقيل في بيئة من البيئات وفي قرن من القرون ! ودين الله واصح . وهذا النص وحده كاف في جعل هذا الحكم من المعلوم من الدين بـ الضرورة . من جادل فيه فقد جادل في هذا الدين !

ومن الإيحاءات الواردة في ثنايا القصة صورة الإيمان المتجرد الخالص الموصول كما تتجلى في قلبي عبدين صالحين من عباد الله المختارين:يعقوب ويوسف:

فأما يوسف فقد أشرنا من قبل إلى موقفه الأخير متجردا من كل شيء , نافضا عنه كل شيء , متجها إلى ربه , مبتهلا إليه في انكسار وفي خشوع يناجيه:

رب قد آتيتني من الملك , وعلمتني من تأويل الأحاديث , فاطر السماوات والأرض , أنت ولي في الدنيا والآخرة , توفني مسلما وألحقني بالصالحين . .

ولكن هذا الموقف الأخير لم يكن هو كل شيء في هذا الجانب ; فهو على مدار القصة يقف هذا الموقف , موصولا بربه , يحسه - سبحانه - قريبا منه مستجيبا له:

في موقف الإغراء والفتنة والغواية يهتف:

(معاذ الله , إنه ربي أحسن مثواي . إنه لا يفلح الظالمون). .

وفي الموقف الآخر وهو يخشى على نفسه الضعف والميل يهتف كذلك:

(رب , السجن أحب إلي مما يدعونني إليه , وإلا تصرف عني كيدهن أصب إليهن وأكن من الجاهلين). .

وفي موقف تعريف نفسه لأخوته , يبين فضل الله عليه ويشكر نعمته ويذكرها:

(قالوا:أئنك لأنت يوسف ? قال:أنا يوسف وهذا أخي قد من الله علينا , إنه من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين). .

وكلها مواقف تحمل إيحاءات يتجاوز مداها حاجة الحركة الإسلامية في مكة , إلى حاجة الحركة الإسلامية في كل فترة .

وأما يعقوب ففي قلبه تتجلى حقيقة ربه باهرة عميقة لطيفة مأنوسة في كل موقف وفي كل مناسبة ; وكلما اشتد البلاء شفت تلك الحقيقة في قلبه ورفت بمقدار ما تعمقت وبرزت . .

فمنذ البدء ويوسف يقص عليه رؤياه يذكر ربه ويشكر نعمته:

(وكذلك يجتبيك ربك ويعلمك من تأويل الأحاديث , ويتم نعمته عليك وعلى آل يعقوب كما أتمها على أبويك من قبل إبراهيم وإسحاق , إن ربك عليم حكيم). .

وفي مواجهة الصدمة الأولى في يوسف يتجه إلى ربه مستعينا به:

(قال:بل سولت لكم أنفسكم أمرا , فصبر جميل , والله المستعان على ما تصفون). .

وفي مواجهته لعاطفته الأبوية الخائفة على أبنائه , وهو يوصيهم ألا يدخلوا من باب واحد وأن يدخلوا مصر من أبواب متفرقة , لا ينسى أن هذا التدبير لا يغني عنهم من الله شيئا , وأن الحكم النافذ هو حكم الله وحده ; وإنما هي حاجة في النفس لا تغني من الله وقدره:

وقال:يابني لا تدخلوا من باب واحد وادخلوا من أبواب متفرقة , وما أغني عنكم من الله من شيء , إن الحكم إلا لله , عليه توكلت , وعليه فليتوكل المتوكلون . .

وفي مواجهة الصدمة الثانية في كبرته وهرمه وضعفه وحزنه , لم يتسرب اليأس من رحمة ربه لحظة واحدة إلى قلبه:

(قال:بل سولت لكم أنفسكم أمرا , فصبر جميل , عسى الله أن يأتيني بهم جميعا ; إنه هو العليم الحكيم).

ثم يبلغ تجلي الحقيقة في قلب يعقوب درجة البهاء والصفاء , وبنوه يؤنبونه على حزنه على يوسف وبكائه له حتى تبيض عيناه من الحزن ; فيواجههم بأنه يجد حقيقة ربه في قلبه كما لا يجدونها , ويعلم من شأن ربه ما لا يعلمون ; فمن هنا اتجاهه إليه وحده وشكواه له وبثه , ورجاؤه في رحمته وروحه:

وتولى عنهم وقال:يا أسفا على يوسف ! وابيضت عيناه من الحزن فهو كظيم . قالوا قالوا:تالله تفتأ تذكر يوسف حتى تكون حرضا أو تكون من الهالكين ! قال:إنما أشكو بثي وحزني إلى الله , وأعلم من الله ما لا تعلمون . يا بني اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه , ولا تيأسوا من روح الله . إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون . .

ولقد ذكرهم بما يعلمه من شأن ربه وما يجده من حقيقته في قلبه ,

وهم يجادلونه في ريح يوسف , وقد صدق الله فيه ظنه:

(ولما فصلت العير قال أبوهم:إني لأجد ريح يوسف , لولا أن تفندون . ق الوا:تالله إنك لفي ضلالك القديم . فلما أن جاء البشير ألقاه على وجهه فارتد بصيرا . قال:ألم أقل لكم:إني أعلم من الله ما لا تعلمون ?).

إنها الصورة الباهرة لتجلي حقيقة الألوهية في قلب من قلوب الصفوة المختارة . وهي تحمل الإيحاء المناسب لفترة الشدة في حياة الجماعة المسلمة في مكة ; كما أنها تحمل الإيحاء الدائم بالحقيقة الإيمانية الكبيرة , لكل قلب يعمل في حقل الدعوة والحركة بالإسلام على مدار الزمان أيضا .

وأخيرا نجيء إلى التعقيبات المتنوعة التي جاءت بعد القصة الطويلة إلى نهاية السورة .

إن التعقيب الأول والمباشر يواجه تكذيب قريش بالوحي إلى رسول الله [ص] بتقرير مأخوذ من هذا القصص الذي لم يكن رسول الله [ص] حاضرا وقائعه:

ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك , وما كنت لديهم إذ أجمعوا أمرهم وهم يمكرون . .

وهذا التعقيب يترابط مع التقديم للقصة في الاتجاه ذاته:

(نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن , وإن كنت من قبله لمن الغافلين). .

والتقديم والتعقيب على هذا النحو يؤلفان مؤثرا موحيا من المؤثرات الكثيرة في سياق السورة , لتقرير الحقيقة التي يعرضانها , وتوكيدها في مواجهة الاعتراض والتكذيب .

ومن ثم يعقب ذلك التسرية عن قلب رسول الله [ص] وتهوين أمر

المكذبين على نفسه . وبيان مدى عنادهم وإصرارهم وعماهم عن الآيات المبثوثة في كتاب الكون , وهي حسب الفطرة السليمة في التنبه إلى دلا ئل الإيمان , والاستماع إلى الدعوة والبرهان . ثم تهديدهم بعذاب الله الذي قد يفاجئهم وهم غافلون:

وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين . وما تسألهم عليه من أجر , إن هو إلا ذكر للعالمين . وكأي من آية في السماوات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون . وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون . أفأمنوا أن تأتيهم غاشية من عذاب الله أو تأتيهم الساعة بغتة وهم لا يشعرون ? .
.

وهي إيقاعات مؤثرة بقدر ما تحمل من حقائق عميقة عن طبيعة الناس حين لا يدينون بدين الله الصحيح . وبخاصة في قوله تعالى:(وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون). .

فهذا هو التصوير العميق لكثير من النفوس التي يختلط فيها الإيمان بـ الشرك , لأنها لم تحسم في قضية التوحيد .

وهنا يجيء الإيقاع الكبير العميق المؤثر الموحي , بتوجيه الرسول [ص] إلى تحديد طريقه وتميزها وإفرادها عن كل طريق , والمفاصلة على أساسها الواضح الفريد:

(قل:هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني , وسبحان الله , وما أنا من المشركين). .

ثم تختم السورة بإيقاع آخر يحمل عبرة القصص القرآني كله , في هذه السورة وفي سواها . يحملها للنبي [ص] والقلة المؤمنة معه , ومعها التثبيت والتسرية والبشرى ; ويحملها للمشركين المعاندين , ومعها التذكير والعظة والنذير . كما أن فيها للجميع تقريرا لصدق الوحي وصدق الرسول ; وتقريرا لحقيقة الوحي وحقيقة الرسالة , مع تخليص هذه الحقيقة من الأوهام والأساطير:

(وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا نوحي إليهم من أهل القرى . أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم ? ولدار الآخرة خير للذين اتقوا أفلا تعقلون ? حتى إذا استيأس الرسل وظنوا أنهم قد كذبوا جاءهم نصرنا , فنجي من نشاء , ولا يرد بأسنا عن القوم المجرمين . لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب , ما كان حديثا يفترى , ولكن تصديق الذي بين يديه , وتفصيل كل شيء , وهدى ورحمة لقوم يؤمنون). .

إنه الإيقاع الأخير . والإيقاع الكبير . .

وبعد فلعل من المناسب في تقديم السورة التي حوت قصة يوسف , نموذجا كاملا للأداء الفني الصادق الجميل , أن نلم بشيء من لطائف التناسق في الأداء القرآني في السورة بكاملها وأن نقف عند نماذج من هذه اللطائف تمثل سائرها:

في هذه السورة - كما في السور القرآنية الأخرى - تتكرر تعبيرات معينة , تؤلف جزءا من جو السورة وشخصيتها الخاصة . وهنا يرد ذكر العلم كثيرا , وما يقابله من الجهل وقلة العلم في مواضع شتى:

(وكذلك يجتبيك ربك ويعلمك من تأويل الأحاديث , ويتم نعمته عليك وعلى آل يعقوب كما أتمها)(على أبويك من قبل إبراهيم وإسحاق , إن ربك عليم حكيم). .

(وكذلك مكنا ليوسف في الأرض , ولنعلمه من تأويل الأحاديث . والله غ الب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون). .

(ولما بلغ أشده آتيناه حكما وعلما . وكذلك نجزي المحسنين). .

(فاستجاب له ربه فصرف عنه كيدهن ; إنه هو السميع العليم). .

(قال:لا يأتيكما طعام ترزقانه , إلا نبأتكما بتأويله قبل أن يأتيكما . ذلكما مما علمني ربي). .

إن الحكم إلا لله أمر ألا تعبدوا إلا أياه , ذلك الدين القيم , ولكن أكثر الناس لا يعلمون . .

(قالوا:أضغاث أحلام وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين). .

(يوسف أيها الصديق أفتنا في سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف , وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات , لعلي أرجع إلى الناس لعلهم يعلمون). .

(وقال الملك:ائتوني به , فلما جاءه الرسول قال:ارجع إلى ربك فاسأله:ما بال النسوة اللاتي قطعن أيديهن ? إن ربي بكيدهن عليم). .

(ذلك ليعلم أني لم أخنه بالغيب وأن الله لا يهدي كيد الخائنين). .

(قال:اجعلني على خزائن الأرض ; إني حفيظ عليم).

(. . . وإنه لذو علم لما علمناه , ولكن أكثر الناس لا يعلمون). .

(قالوا:تالله لقد علمتم ما جئنا لنفسد في الأرض وما كنا سارقين). .

(قال:أنتم شر مكانا , والله أعلم بما تصفون). .

(فلما استيأسوا منه خلصوا نجيا قال كبيرهم:ألم تعلموا أن أباكم قد أخذ عليكم موثقا من الله . .). .

(وما شهدنا إلا بما علمنا وما كنا للغيب حافظين). .

(عسى الله أن يأتيني بهم جميعا , إنه هو العليم الحكيم). .

قال:إنما أشكو بثي وحزني إلى الله , وأعلم من الله ما لاتعلمون . .

(قال:هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه إذ أنتم جاهلون ?). .

(قال:ألم أقل لكم:إني أعلم من الله ما لا تعلمون ?). .

(رب قد آتيتني من الملك وعلمتني من تأويل الأحاديث . . .).

وهي ظاهرة بارزة تلفت النظر إلى بعض أسرار التناسق ولطائفة في هذا الكتاب الكريم .

وفي السورة تعريف بخصائص الألوهية , وفي مقدمتها "الحكم" وهو يرد مرة على لسان يوسف - عليه السلام - بمعنى الحاكمية في العباد من ناحية دينونتهم وطاعتهم الإرادية , ويأتي مرة على لسان يعقوب - عليه السلام - بمعنى الحاكمية في العباد من ناحية دينونتهم لله في صورتها القهرية القدرية , فيتكامل المعنيان في تقرير مدلول الحكم وحقيقة الأ لوهية على هذا النحو الذي لا يجيء عفوا ولا مصادفة أبدا:

يقول يوسف في معرض تفنيد ربوبية الحكام في مصر ومخالفتها لوحدانية الألوهية:

(يا صاحبي السجن , أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار ? ما تعبدون من دونه إلا أسماء سميتموها)(أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان . إن الحكم إلا لله , أمر ألا تعبدوا إلا إياه , ذلك الدين القيم). .

ويقول يعقوب في معرض تقرير أن قدر الله نافذ وأن قضاءه ماض:

(يا بني:لا تدخلوا من باب واحد وادخلوا من أبواب متفرقة , وما أغني عنكم من الله من شيء , إن الحكم إلا لله , عليه توكلت , وعليه فليتوكل المتوكلون). .

وهذا التكامل في مدلول الحكم يشير إلى أن الدين لا يستقيم إلا أن تكون الدينونة الإرادية لله في الحكم , كالدينونة القهرية له سبحانه في القدر . فكلاهما من العقيدة ; وليست الدينونة في القدر القاهر وحدها هي الداخلة في نطاق الاعتقاد , بل الدينونة الإرادية في الشريعة هي كذلك في نطاق الاعتقاد .

ومن لطائف التناسق أن يذكر يوسف الحصيف الكيس اللطيف المدخل ,

صفة الله المناسبة . .(اللطيف). في الموقف الذي يتجلى فيه لطف الله في التصريف:

(ورفع أبويه على العرش , وخروا له سجدا . وقال:يا أبت هذا تأويل رؤياي من قبل قد جعلها ربي حقا . وقد أحسن بي إذ أخرجني من السجن , وجاء بكم من البدو من بعد أن نزغ الشيطان بيني وبين إخوتي . . إن ربي لطيف لما يشاء . . إنه هو العليم الحكيم). .

ومن لطائف التناسق ما سبق أن أشرنا إليه من التطابق في السورة بين تقديم القصص , والتعقيب المباشر عليه , والتعقيب الختامي الطويل . . وكل هذه التعقيبات تتجه إلى تقرير قضايا واحدة , وتتلاقى عليها بين البدء والختام . .

سورة الرعد

الوحدة الأولى: الدرس الأول:1 إثبات الوحي والنبوة

الدرس الثاني:2 - 7 مظاهر القدرة الربانية في السماوات والأرض و الحياة وإنكار موقف الكفار

الدرس الثالث:8 - 11 مظاهر لقدرة الله وعلمه في الأنفس والمشاعر والأ حياء

الدرس الرابع:12 - 16 خضوع المخلوقات لله وإثبات الوحدانية وذم كفر الكافرين

الدرس الخامس:17 - 18 ضرب الأمثال للحق والباطل وافتراق مصير المحسنين عن مصير الكافرين

الوحدة الثانية:19 - 43 الموضوع:تقرير حقائق حول الوحدانية و الوحي والبعث

الدرس الأول 19 - 26 صفات المؤمنين أولي الألباب مقابل صفات الكفار والعمي

الدرس الثاني:27 - 32 صورة الكفار العمي وصورة أخرى لأصحاب القلوب المطمئنة

الدرس الثالث:33 - 35 نقض الشرك بالله وعذاب المشركين في مقابل نعيم المؤمنين

الدرس الرابع:36 - 40 إثبات الوحي والرسالة والوحدانية وذم إنكار الكفار

الدرس الخامس:41 - 43 قدرة الله المطلقة وتهديد منكري النبوة.

سورة ابراهيم

وتنقسم السورة إلى مقطعين متماسكي الحلقات:
المقطع الأول يتضمن بيان حقيقة الرسالة وحقيقة الرسول . ويصور المعركة بين أمة الرسل وفرقة المكذبين في الدنيا وفي الآخرة , ويعقب عليها بمثل الكلمة الطيبة والكلمة الخبيثة .
والمقطع الثاني يتحدث عن نعم الله على البشر , والذين كفروا بهذه النعمة وبطروا . والذين آمنوا بها وشكروا ونموذجهم الأول هو إبراهيم . ويصور مصير الظالمين الكافرين بنعمة الله في سلسلة من أعنف مشاهد القيامة وأجملها , وأحفلها بالحركة والحياة . . ليختم السورة ختاما يتسق مع مطلعها:
هذا بلاغ للناس ولينذروا به وليعلموا أنما هو إله واحد , وليذكر أولو الأ

لباب . .
بسم الله الرحمن الرحيم
هذه السورة - سورة إبراهيم - مكية , موضوعها الأساسي هو موضوع السور المكية الغالب:العقيدة في أصولها الكبيرة:الوحي والرسالة و التوحيد والبعث والحساب والجزاء .
ولكن السياق في السورة يسلك نهجا خاصا بها في عرض هذا الموضوع وحقائقه الأصيلة . نهجا مفردا يميزها - كالشأن في كل سورة قرآنية - عن السور غيرها . يميزها بجوها وطريقة أدائها , والأضواء والظلال الخاصة التي تعرض فيها حقائقها الكبرى . ولون هذه الحقائق التي قد لا تفترق موضوعيا عن مثيلاتها في السور الأخرى ; ولكنها تعرض من زاوية خاصة , في أضواء خاصة فتوحي إيحاءات خاصة . كما تختلف مساحتها في رقعة السورة وجوها , فتزيد أطرافا وتنقص أطرافا , فيحسها القارئ جديدة بما وقع فيها من تجديد في "اللقطات الفنية " . ونحن نستعمل هذا التعبير "اللقطات الفنية " لأنه يلاحظ في صورته المعجزة في طريقة الأداء القرآنية !
ويبدو أنه كان لجو السورة من اسمها نصيب . . إبراهيم . . أبو الأنبياء . . المبارك , الشاكر الأواه المنيب . وكل الظلال التي تخلعها هذه الصفات ملحوظة في جو السورة , وفي الحقائق التي تبرزها , وفي طريقة الأ داء , وفي التعبير والإيقاع .
ولقد تضمنت السورة عدة حقائق رئيسية في العقيدة . ولكن حقيقتين كبيرتين تظللان جو السورة كلها . وهما الحقيقتان المتناسقتان مع ظل إبراهيم في جو السورة:حقيقة وحدة الرسالة والرسل , ووحدة دعوتهم , ووقفتهم أمة واحدة في مواجهة الجاهلية المكذبة بدين الله على اختلا ف الأمكنة والأزمان . وحقيقة نعمة الله على البشر وزيادتها بالشكر ; ومقابلة أكثر الناس لها بالجحود والكفران . .
وبروز هاتين الحقيقتين , أو هذين الظلين . لا ينفي أن هناك حقائق أخرى في سياق السورة . ولكن هاتين الحقيقتين تظللان جو السورة . وهذا ما أردنا الإشارة إليه:

تبدأ السورة ببيان وظيفة الرسول وما أوتيه من كتاب . . فهي إخراج الناس من الظلمات إلى النور بإذن الله:
(كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد).
وتختم بهذا المعنى وبالحقيقة الكبرى التي تتضمنها الرسالة . حقيقة التوحيد:
هذا بلاغ للناس ولينذروا به , وليعلموا أنما هو إله واحد , وليذكر أولو الأ لباب).
وفي أثنائها يذكر أن موسى قد أرسل بمثل ما أرسل به محمد [ص] ولمثل ما أرسل به , حتى في ألفاظ التعبير:
(ولقد أرسلنا موسى بآياتنا أن أخرج قومك من الظلمات إلى النور). .
ويذكر كذلك أن وظيفة الرسل عامة كانت هي البيان:
(وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم). . .
وتتضمن إلى جانب وظيفة الرسول بيان حقيقته البشرية , وهي التي تحدد وظيفته . فهو مبلغ ومنذر وناصح ومبين . ولكنه لا يملك أن يأتي بخارقة إلا بإذن الله , وحين يشاء الله , لا حين يشاء هو أو قومه ; ولا يملك كذلك أن يهدي قومه أو يضلهم , فالهدى والضلال متعلقان بسنة الله التي اقتضتها مشيئته المطلقة .
ولقد كانت بشرية الرسل هي موضع الاعتراض من جميع الأقوام في جاهليتهم , والسورة هنا تحكي قولهم مجتمعين:
(قالوا:إن أنتم إلا بشر مثلنا تريدون أن تصدونا عما كان يعبد آباؤنا , فأتونا بسلطان مبين).
وتحكي رد رسلهم كذلك مجتمعين:
(قالت لهم رسلهم:إن نحن إلا بشر مثلكم , ولكن الله يمن على من يشاء من عباده . وما كان لنا أن نأتيكم بسلطان إلا بإذن الله . وعلى الله فليتوكل المؤمنون).
ويتضمن السياق كذلك أن إخراج الناس من الظلمات إلى النور إنما يتم (بإذن ربهم). . وكل رسول يبين لقومه (فيضل الله من يشاء ويهدي من

يشاء , وهو العزيز الحكيم).
وبهذا وذلك تتحدد حقيقة الرسول , فتتحدد وظيفته في حدود هذه الحقيقة , ولا تشتبه حقيقة الرسل البشرية وصفاتهم , بشيء من حقيقة الذات الإلهية وصفاتها . وكذلك يتجرد توحيد الله بلا ظل من مماثلة أو مشابهة .
كذلك تتضمن السورة تحقق وعد الله للرسل والمؤمنين بهم إيمانا حقا . تحقق ذلك الوعد في الدنيا بالنصر والاستخلاف , وفي الآخرة بعذاب المكذبين ونعيم المؤمنين .
يصور السياق هذه الحقيقة الكبيرة في نهاية المعركة بين الرسل مجتمعين وقومهم مجتمعين في الدنيا:
(وقال الذين كفروا لرسلهم:لنخرجنكم من أرضنا أو لتعودن في ملتنا فأوحى إليهم ربهم لنهلكن الظالمين , ولنسكننكم الأرض من بعدهم . ذلك لمن خاف مقامي وخاف وعيد . . واستفتحوا وخاب كل جبار عنيد . .).
ويصورها في مشاهد القيامة في الآخرة:
(وأدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها بإذن ربهم تحيتهم فيها سلام). .
(وترى المجرمين يومئذ مقرنين في الأصفاد , سرابيلهم من قطران وتغشى وجوههم النار). .
ويصورها في الأمثال التي يضربها لهؤلاء وهؤلاء:
(ألم تر كيف ضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها ; ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون . ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجتثتمن فوق الأرض ما لها من قرار . يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة , ويضل الله الظالمين , ويفعل الله ما يشاء). .
(مثل الذين كفروا بربهم أعمالهم كرماد اشتدت به الريح في يوم عاصف , لا يقدرون مما كسبوا على شيء . ذلك هو الضلال البعيد). .
فأما الحقيقتان اللتان تظللان جو السورة , وتتسقان مع ظل إبراهيم:أبي الأنبياء . الشكور الأواه المنيب , وهما حقيقة وحدة الرسالة والرسل ,

ووحدة دعوتهم , ووقفتهم أمة واحدة في مواجهة الجاهلية المكذبة .
وحقيقة نعمة الله على البشر كافة وعلى المختارين منهم بصفة خاصة .
. فنفردهما هنا بالحديث .
فأما الحقيقة الأولى فيبرزها السياق في معرض فريد في طريقة الأداء .
لقد أبرزها سياق بعض السور الماضية في صورة توحيد الدعوة التي يجيء بها كل رسول , فيقول كلمته لقومه ويمضي , ثم يجيء رسول ورسول . كلهم يقولون الكلمة ذاتها , ويلقون الرد ذاته , ويصيب المكذبين ما يصيبهم في الدنيا , وينظر بعضهم ويمهل إلى أجل في الأ رض أو إلى أجل في يوم الحساب . ولكن السياق هناك كان يعرض كل رسول في مشهد , كالشريط المتحرك منذ الرسالات الأولى . وأقرب مثل لهذا النسق سورة الأعراف وسورة هود .
فأما سورة إبراهيم - أبي الأنبياء - فتجمع الأنبياء كلهم في صف وتجمع الجاهليين كلهم في صف . وتجري المعركة بينهم في الأرض , ثم لا تنتهي هنا , بل تتابع خطواتها كذلك في يوم الحساب !
ونبصر فنشهد أمة الرسل , وأمة الجاهلية , في صعيد واحد , على تباعد الزمان والمكان . فالزمان والمكان عرضان زائلان , أما الحقيقة الكبرى في هذا الكون - حقيقة الإيمان والكفر - فهي أضخم وأبرز من عرضي الزمان والمكان:
ألم يأتكم نبأ الذين من قبلكم قوم نوح وعاد وثمود . والذين من بعدهم لا يعلمهم إلا الله . جاءتهم رسلهم بالبينات فردوا أيديهم في أفواههم , وقالوا:إنا كفرنا بما أرسلتم به , وإنا لفي شك مما تدعوننا إليه مريب . ق الت رسلهم:أفي الله شك فاطر السماوات والأرض , يدعوكم ليغفر لكم من ذنوبكم , ويؤخركم إلى أجل مسمى ? قالوا:إن أنتم إلا بشر مثلنا , تريدون أن تصدونا عما كان يعبد آباؤنا , فأتونا بسلطان مبين . قالت لهم رسلهم:إن نحن إلا بشر مثلكم , ولكن الله يمن على من يشاء من عباده , وما كان لنا أن نأتيكم بسلطان إلا بإذن الله , وعلى الله فليتوكل المؤمنون . وما لنا ألا نتوكل على الله وقد هدانا سبلنا , ولنصبرن على ما آذيتمونا . وعلى الله فليتوكل المتوكلون . وقال الذين كفروا

لرسلهم:لنخرجنكم من أرضنا أو لتعودن في ملتنا . فأوحى إليهم ربهم لنهلكن الظالمين , ولنسكننكم الأرض من بعدهم . ذلك لمن خاف مقامي وخاف وعيد .

(واستفتحوا وخاب كل جبار عنيد , من ورائه جهنم ويسقى من ماء صديد , يتجرعه ولا يكاد يسيغه , ويأتيه الموت من كل مكان , وما هو بميت , ومن ورائه عذاب غليظ). .

فها هنا تتجمع الأجيال من لدن نوح وتتجمع الرسل ; ويتلاشى الزمان و المكان ; وتبرز الحقيقة الكبرى:حقيقة الرسالة وهي واحدة . واعتراضات الجاهليين عليها وهي واحدة . وحقيقة نصر الله للمؤمنين وهي واحدة . وحقيقة استخلاف الله للصالحين وهي واحدة . وحقيقة الخيبة والخذلا ن للمتجبرين وهي واحدة . وحقيقة العذاب الذي ينتظرهم هناك وهي واحدة . . وذلك إلى التماثل بين قول الله لمحمد [ص]:

(كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور).

وحكاية قوله لموسى - عليه السلام -:

(ولقد أرسلنا موسى بآياتنا أن أخرج قومك من الظلمات إلى النور).

ولا تنتهي المعركة بين الكفر والإيمان هنا بل يتابع السياق خطواته بها إلى ساحة الآخرة . فتبرز معالمها في مشاهد القيامة المتنوعة التي تتضمنها السورة . وهذه نماذج منها:

(وبرزوا لله جميعا , فقال الضعفاء للذين استكبروا:إنا كنا لكم تبعا , فهل أنتم مغنون عنا من عذاب الله من شيء ? قالوا:لو هدانا الله لهديناكم , سواء علينا أجزعنا أم صبرنا ما لنا من محيص . وقال الشيطان لما قضي الأمر:إن الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم , وما كان لي عليكم من سلطان , إلا أن دعوتكم فاستجبتم لي , فلا تلوموني ولوموا أنفسكم , ما أنا بمصرخكم وما أنتم بمصرخي , إني كفرت بما أشركتمون من قبل , إن الظالمين لهم عذاب أليم . . وأدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها بإذن ربهم , تحيتهم فيها سلام). .

(ولا تحسبن الله غافلا عما يعمل الظالمون , إنما يؤخرهم ليوم تشخص

فيه الأبصار . مهطعين مقنعي رؤوسهم لا يرتد إليهم طرفهم وأفئدتهم هواء). .

(وقد مكروا مكرهم , وعند الله مكرهم وإن كان مكرهم لتزول منه الجبال . فلا تحسبن الله مخلف وعده رسله . إن الله عزيز ذو انتقام . يوم تبدل الأرض غير الأرض والسماوات , وبرزوا لله الواحد القهار , وترى المجرمين يومئذ مقرنين في الأصفاد . سرابيلهم من قطران وتغشى وجوههم النار). . .

وهي كلها تشير إلى أنها معركة واحدة تبدأ في الدنيا وتنتهي في الآ خرة , وتكمل إحداهما الأخرى بلا انقطاع ولا انفصال .

وتكمل الأمثال التي تبدأ في الدنيا وتنتهي في الآخرة كذلك إبراز معالم المعركة بين الفريقين , ونتائجها الأخيرة:مثل الكلمة الطيبة كالشجرة الطيبة:شجرة النبوة , وشجرة الإيمان , وشجرة الخير . والكلمة الخبيثة: كالشجرة الخبيثة:شجرة الجاهلية والباطل والتكذيب والشر والطغيان .

وأما الحقيقة الثانية المتعلقة بالنعمة والشكر والبطر فتطبع جو السورة كله , وتتناثر في سياقها .

يعدد الله نعمه على البشر كافة , مؤمنهم وكافرهم , صالحهم وطالحهم , برهم وفاجرهم , طائعهم وعاصيهم . وإنها لرحمة من الله وسماحة وفضل أن يتيح للكافر والفاجر والعاصي نعمة في هذه الأرض , كالمؤمن والبار والطائع:لعلهم يشكرون . ويعرض هذه النعمة في أضخم مجالي الكون وأبرزها , ويضعها داخل إطار من مشاهد الوجود العظيمة:

(الله الذي خلق السماوات والأرض , وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم ; وسخر لكم الفلك لتجري في البحر بأمره , وسخر لكم الأنهار . وسخر لكم الشمس والقمر دائبين , وسخر لكم الليل والنهار . وآتاكم من كل ما سألتموه , وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها . إن الإنسان لظلوم كفار). .

وفي إرسال الرسل للناس نعمة تعدل تلك أو تربو عليها:

(كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور). .

والنور أجل نعم الله في الوجود . والنور هنا هو النور الأكبر . النور الذي

يشرق به كيان الإنسان , ويشرق به الوجود في قلبه وحسه . . وكذلك كانت وظيفة موسى في قومه . ووظيفة الرسل كما بينتها السورة .

وفي قول الرسل مجتمعين:

(يدعوكم ليغفر لكم من ذنوبكم). .

والدعوة لأجل الغفران نعمة تعدل نعمة النور , وهي منه قريب . .

وفي جو الحديث عن النعمة يذكر موسى قومه بأنعم الله عليهم:

(وإذ قال موسى لقومه:اذكروا نعمة الله عليكم إذ أنجاكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب ويذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم وفي ذلكم بلاء من ربكم عظيم).

وفي هذا الجو يذكر وعد الله للرسل:

(فأوحى إليهم ربهم لنهلكن الظالمين ولنسكننكم الأرض من بعدهم . ذلك لمن خاف مقامي وخاف وعيد). .

وهي نعمة من نعم الله الكثار الكبار .

ويبرز السياق حقيقة زيادة النعمة بالشكر:

(وإذ تأذن ربكم لئن شكرتم لأزيدنكم , ولئن كفرتم إن عذابي لشديد). .

مع بيان أن الله غني عن الشكر وعن الشاكرين:

(إن تكفروا أنتم ومن في الأرض جميعا فإن الله لغني حميد).

ويقرر السياق أن الإنسان في عمومه لا يشكر النعمة حق الشكر:

(وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها إن الإنسان لظلوم كفار). .

ولكن الذين يتدبرون آيات الله , وتتفتح لها بصائرهم يصبرون على البأساء ويشكرون على النعماء:

(إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور).

ويمثل الصبر والشكر في شخص إبراهيم في موقف خاشع , وفي دعاء واجف , عند بيت الله الحرام , كله حمد وشكر وصبر ودعاء .

(وإذ قال إبراهيم:رب اجعل هذا البلد آمنا واجنبني وبني أن نعبد الأ صنام . رب إنهن أضللن كثيرا من الناس , فمن تبعني فإنه مني , ومن عصاني فإنك غفور رحيم . ربنا إني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم . ربنا ليقيموا الصلاة , فاجعل أفئدة من الناس تهوي

إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون . ربنا إنك تعلم ما نخفي وما نعلن , وما يخفى على الله من شيء في الأرض ولا في السماء . الحمد لله الذي وهب لي على الكبر إسماعيل وإسحاق إن ربي لسميع الدعاء . رب اجعلني مقيم الصلاة ومن ذريتي , ربنا وتقبل دعاء , ربنا اغفر لي ولوالدي وللمؤمنين يوم يقوم الحساب). .

ولأن النعمة والشكر عليها والكفر بها تطبع جو السورة تجيء التعبيرات والتعليقات فيها متناسقة مع هذا الجو:

(وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون). .

(إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور). .

(ألم تر إلى الذين بدلوا نعمة الله كفرا وأحلوا قومهم دار البوار). .

(اذكروا نعمة الله عليكم). .

(الحمد لله الذي وهب لي على الكبر إسماعيل وإسحاق). .

وفي رد الأنبياء على اعتراض المكذبين بأنهم بشر يجيء:

(ولكن الله يمن على من يشاء من عباده). .

فيبرز منة الله تنسيقا للرد مع جو السورة كله . جو النعمة والمنة والشكر والكفران . .

وهكذا يتساوق التعبير اللفظي مع ظلال الجو العام في السورة كلها على طريقة التناسق الفني في القرآن . .

سورة الحجر

هذه السورة مكية بجملتها , نزلت بعد سورة يوسف , في الفترة الحرجة , ما بين "عام الحزن" وعام الهجرة . . تلك الفترة التي تحدثنا عن طبيعتها وملابساتها ومعالمها من قبل في تقديم سورة يونس وفي تقديم سورة هود وفي تقديم سورة يوسف بما فيه الكفاية . .

وهذه السورة عليها طابع هذه الفترة , وحاجاتها ومقتضياتها الحركية . . إنها تواجه واقع تلك الفترة مواجهة حركية ; وتوجه الرسول [ص] و

الجماعة المسلمة معه , توجيها واقعيا مباشرا وتجاهد المكذبين جهادا كبيرا . كما هي طبيعة هذا القرآن ووظيفته .

ولما كانت حركة الدعوة في تلك الفترة تكاد تكون قد تجمدت , بسبب موقف قريش العنيد منها ومن النبي [ص] والعصبة المؤمنة معه ; حيث اجترأت قريش على رسول الله [ص] بما لم تكن تجترئ عليه في حياة أبي طالب . واشتد استهزاؤها بدعوته ; كما اشتد إيذاؤها لصحابته . . فقد جاء القرآن الكريم في هذه الفترة يهدد المشركين المكذبين ويتوعدهم ; ويعرض عليهم مصارع المكذبين الغابرين ومصائرهم ; ويكشف للرسول [ص] عن علة تكذيبهم وعنادهم ; وهي لا تتعلق به ولا بالحق الذي معه , لكنها ترجع إلى العناد الذي لا تجدي معه الآيات البينات . ومن ثم يسلي الرسول [ص] ويواسيه ; ويوجهه إلى الإصرار على الحق الذي معه ; والصدع به بقوة في مواجهة الشرك وأهله ; و الصبر بعد ذلك على بطء الاستجابة ووحشة العزلة , وطول الطريق !

ومن هنا تلتقي هذه السورة في وجهتها وفي موضوعها وفي ملامحها مع بقية السور التي نزلت في تلك الفترة ; وتواجه مثلها مقتضيات تلك الفترة وحاجاتها الحركية . أي الحاجات والمقتضيات الناشئة من حركة الجماعة المسلمة بعقيدتها الإسلامية في مواجهة الجاهلية العربية في تلك الفترة من الزمان بكل ملابساتها الواقعية . ومن ثم تواجه حاجات الحركة الإسلامية ومقتضياتها كلما تكررت هذه الفترة , وذلك كالذي تواجهه الحركة الإسلامية الآن في هذا الزمان .

ونحن نؤكد على هذه السمة في هذا القرآن . . سمة الواقعية الحركية . . لأنها في نظرنا مفتاح التعامل مع هذا الكتاب وفهمه وفقهه وإدراك مراميه وأهدافه . .

إنه لا بد من استصحاب الأحوال والملابسات والظروف والحاجات و المقتضيات الواقعية العملية التي صاحبتنزول النص القرآني . . لا بد من هذا لإدراك وجهة النص وأبعاد مدلولاته ; ولرؤية حيويته وهو يعمل في وسط حي ; ويواجه حالة واقعة ; كما يواجه أحياء يتحركون معه أو ضده . وهذه الرؤية ضرورية لفقه أحكامه وتذوقها ; كما هي ضرورية للا

نتفاع بتوجيهاته كلما تكررت تلك الظروف والملابسات في فترة تاريخية تالية , وعلى الأخص فيما يواجهنا اليوم ونحن نستأنف الدعوة الإسلامية .

نقول هذه المقالة ونحن على يقين أنه لن يرى هذه الرؤية اليوم إلا الذين يتحركون فعلا بهذا الدين في مواجهة الجاهلية الحاضرة ; ومن ثم يواجهون أحوالا وملابسات وظروفا وأحداثا كالتي كان يواجهها صاحب الدعوة الأولى - صلوات الله وسلامه عليه - والعصبة المسلمة معه . . من الإعراض والتولي عن هذا الدين في حقيقته الكبيرة الشاملة ; التي لا تتحقق إلا بالدينونة الكاملة لله وحده في كل شأن من شؤون الحياة الاعتقادية والأخلاقية والتعبدية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية . . وما يلقونه كذلك من الإيذاء والمطاردة والتعذيب و التقتيل كالذي كانت تلك العصبة المختارة الأولى تبتلى - في سبيل الله - به . .

إن هؤلاء الذين يتحركون بهذا الدين في مواجهة الجاهلية ; ويواجهون به ما كانت تواجهه الجماعة المسلمة الأولى . . هم وحدهم الذين يرون تلك الرؤية . . وهم وحدهم الذين يفقهون هذا القرآن ; ويدركون الأبعاد الحقيقية لمدلولات نصوصه . على النحو الذي أسلفنا . . وهم وحدهم الذين يملكون استنباط فقه الحركة الذي لا يغني عنه فقه الأوراق , في مواجهة الحياة المتحركة التي لا تكف عن الحركة !

وبمناسبة هذه الإشارة إلى فقه الحركة نحب أن نقرر أن الفقه المطلوب استنباطه في هذه الفترة الحاضرة هو الفقه اللازم لحركة ناشئة في مواجهة الجاهلية الشاملة . حركة تهدف إلى إخراج الناس من الظلمات إلى النور , ومن الجاهلية إلى الإسلام ; ومن الدينونة للعباد إلى الدينونة لرب العباد ; كما كانت الحركة الأولى - على عهد محمد [ص] - تواجه جاهلية العرب بمثل هذه المحاولة ; قبل أن تقوم الدولة في المدينة ; وقبل أن يكون للإسلام سلطان على أرض وعلى أمة من الناس .

نحن اليوم في شبه هذا الموقف لا في مثله , وذلك لاختلاف بعض الظروف والملابسات الخارجية . . نحن نستهدف دعوة إلى الإسلام

ناشئة في مواجهة جاهلية شاملة . . ولكن مع اختلاف في الملابسات و الظروف والحاجات والمقتضيات الواقعية للحركة . . وهذا الاختلاف هو الذي يقتضي "اجتهادا" جديدا في "فقه الحركة " يوائم بين السوابق التاريخية للحركة الإسلامية الأولى وبين طبيعة الفترة الحاضرة ومقتضياتها المتغيرة قليلا أو كثيرا . .

هذا النوع من الفقه هو الذي تحتاج إليه الحركة الإسلامية الوليدة . . أما الفقه الخاص بأنظمة الدولة , وشرائع المجتمع المنظم المستقر , فهذا ليس أوانه . . . إنه ليس على وجه الأرض اليوم دولة مسلمة ولا مجتمع مسلم , قاعدة التعامل فيه هي شريعة الله والفقه الإسلامي ! . . هذا النوع من الفقه يأتي في حينه ; وتفصل أحكامه على قد المجتمع المسلم حين يوجد ; ويواجه الظروف الواقعية التي تكون محيطة بذلك المجتمع يومذاك !

إن الفقه الإسلامي لا ينشأ في فراغ ولا تستنبت بذوره في الهواء !

ونعود إلى استكمال الحديث عن موضوعات السورة:

محور هذه السورة الأول:هو إبراز طبيعة المكذبين بهذا الدين ودوافعهم الأصيلة للتكذيب , وتصوير المصير المخوف الذي ينتظر الكافرين المكذبين . . وحول هذا المحور يدور السياق في عدة جولات , متنوعةالموضوع والمجال , ترجع كلها إلى ذلك المحور الأصيل . سواء في ذلك القصة , ومشاهد الكون , ومشاهد القيامة , والتوجيهات و التعقيبات التي تسبق القصص وتتخلله وتعقب عليه .

وإذا كان جو سورة الرعد يذكر بجو سورة الأنعام . فإن جو هذه السورة - الحجر - يذكر بجو سورة الأعراف . - وابتداؤها كان بالإنذار , وسياقها كله جاء مصداقا للإنذار - فهنا كذلك في سورة الحجر يتشابه البدء و السياق , مع اختلاف في الطعم والمذاق !

إن الإنذار في مطلع سورة الأعراف صريح:

كتاب أنزل إليك فلا يكن في صدرك حرج منه , لتنذر به وذكرى للمؤمنين . اتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم ولا تتبعوا من دونه أولياء , قليلا ما تذكرون . وكم من قرية أهلكناها فجاءها بأسنا بياتا أوهم قائلون .

فما كان دعواهم إذ جاءهم بأسنا الا أن قالوا:إنا كنا ظالمين . .
ثم ترد فيها قصة آدم وابليس ويتابعها السياق حتى تنتهي الحياة الدنيا , ويعود الجميع إلى ربهم , فيجدوا مصداق النذير . . ويلي القصة عرض لبعض مشاهد الكون:السماوات والأرض , والليل والنهار , والشمس والقمر , والنجوم مسخرات بأمره , والرياح والسحاب والماء والثمرات . . ويلي ذلك قصص قوم نوح وهود وصالح ولوط وشعيب وموسى:وكلها تصدق النذير . .
وهنا في سورة الحجر يجيء الإنذار كذلك في مطلعها , ولكن ملفعا بظل من التهويل والغموض يزيد جوها رهبة وتوقعا للمصير:
(ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين . ذرهم يأكلوا ويتمتعوا ويلههم الأمل فسوف يعلمون . وما أهلكنا من قرية إلا ولها كتاب معلوم . ما تسبق من أمة أجلها وما يستأخرون). .
ثم يعرض السياق بعض مشاهد الكون:السماء وما فيها من بروج , والأرض الممدودة والرواسي الراسخة , والنبت الموزون , والرياح اللواقح , والماء والسقيا , والحياة والموت والحشر للجميع . . يلي ذلك قصة آدم وإبليس , منتهية بمصير أتباعه ومصير المؤمنين . . ومن ثم لمحات من قصص إبراهيم ولوط وشعيب وصالح منظورا فيها إلى مصائر المكذبين , وملحوظا فيها أن مشركي العرب يعرفون الآثار الدارسة لهذه الأقوام , وهم يمرون عليها في طريقهم إلى الشام .
فالمحور في السورتين واحد , ولكن شخصية كل منهما متميزة ; وإيقاعهما يتشابه ولا يتماثل , على عادة القرآن الكريم في تناوله لموضوعاته الموحدة , بطرق شتى , تختلف وتتشابه , ولكنها لا تتكرر أبدا ولا تتماثل !
ويمكن تقسيم سياق السورة هنا إلى خمس جولات , أو خمسة مقاطع , يتضمن كل منها موضوعا أو مجالا:
تتضمن
الجولة الأولى بيان سنة الله التي لا تتخلف في الرسالة والإيمان بها و التكذيب . مبدوءة بذلك الإنذار الضمني الملفع بالتهويل: ربما يود الذين

كفروا لو كانوا مسلمين . ذرهم يأكلوا ويتمتعوا ويلههم الأمل فسوف يعلمون). .

ومنتهية بأن المكذبين إنما يكذبون عن عناد لا عن نقص في دلائل الإيمان:

(ولو فتحنا عليهم بابا من السماء فظلوا فيه يعرجون لقالوا:إنما سكرت أبصارنا بل نحن قوم مسحورون !). . وأنهم جميعا من طراز واحد: ولقد أرسلنا من قبلك في شيع الأولين . وما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزئون . كذلك نسلكه في قلوب المجرمين . لا يؤمنون به وقد خلت سنة الأولين . . وتعرض الجولة الثانية بعض آيات الله في الكون:في السماء وفي الأرض وما بينهما . وقد قدرت بحكمة , وأنزلت بقدر: ولقد جعلنا في السماء بروجا وزيناها للناظرين . وحفظناها من كل شيطان رجيم . إلا من استرق السمع فأتبعه شهاب مبين . والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي وأنبتنا فيها من كل شيء موزون . وجعلنا لكم فيها معايش ومن لستم له برازقين . وإن من شيء إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم . وأرسلنا الرياح لواقح , فأنزلنا من السماء ماء فأسقيناكموه وما أنتم له بخازنين). .

وإلى الله مرجع كل شيء وكل أحد في الوقت المقدر المعلوم:(وإنا لنحن نحيي ونميت ونحن الوارثون . ولقد علمنا المستقدمين منكم ولقد علمنا المستأخرين . وإن ربك هو يحشرهم إنه حكيم عليم). .

أما الجولة الثالثة فتعرض قصة البشرية وأصل الهدى والغواية في تركيبها وأسبابها الأصيلة , ومصير الغاوين في النهاية والمهتدين . وذلك في خلق آدم من صلصال من حمأ مسنون والنفخ من روح الله في هذا الطين . ثم في غرور إبليس واستكباره وتوليه الغاوين دون المخلصين . والجولة الرابعة في مصارع الغابرين من قوم لوط وشعيب وصالح , مبدوءة بقول الله: نبئ عبادي أني أنا الغفور الرحيم . وأن عذابي هو العذاب الأليم ثم يتتابع القصص , يجلو رحمة الله مع إبراهيم ولوط , وعذابه لأقوام لوط وشعيب وصالح . . ملحوظا في هذا القصص أنه يعرض على قريش مصارع أقوام يمرون على أرضهم في طريقهم إلى

الشام ويرون آثارهم: إن في ذلك لآيات للمتوسمين . وإنها لبسبيل مقيم). .

أما الجولة الخامسة والأخيرة فتكشف عن الحق الكامن في خلق السماوات والأرض المتلبس بالساعة وما بعدها من ثواب وعقاب , المتصل بدعوة الرسول [ص] فهو الحق الأكبر الشامل للكون كله , وللبدء والمصير:(وما خلقنا السماوات والأرض وما بينهما إلا بالحق , وإن الساعة لآتية فاصفح الصفح الجميل . إن ربك هو الخلاق العليم . ولقد آتيناك سبعا من المثاني والقرآن العظيم . .)إلى آخر السورة . .

سورة النحل

الوحدة الأولى:1 - 21 الموضوع:بعض آيات الله في الخلق والأنعام و العلم التعريف بسورة النحل

هذه السورة هادئة الإيقاع , عادية الجرس ; ولكنها مليئة حافلة . موضوعاتها الرئيسية كثيرة منوعة ; والإطار الذي تعرض فيه واسع شامل ; والأوتار التي توقع عليها متعددة مؤثرة , والظلال التي تلونها عميقة الخطوط .

وهي كسائر السور المكية تعالج موضوعات العقيدة الكبرى:الألوهية . و الوحي . والبعث . ولكنها تلم بموضوعات جانبية أخرى تتعلق بتلك الموضوعات الرئيسية . تلم بحقيقة الوحدانية الكبرى التي تصل بين دين إبراهيم - عليه السلام - ودين محمد [ص] وتلم بحقيقة الإرادة الإ لهية والإرادة البشرية فيما يختص بالإيمان والكفر والهدى والضلال . وتلم بوظيفة الرسل , وسنة الله في المكذبين لهم . وتلم بموضوع التحليل والتحريم وأوهام الوثنية حول هذا الموضوع . وتلم بالهجرة في سبيل الله , وفتنة المسلمين في دينهم , والكفر بعد الإيمان وجزاء

هذا كله عند الله . . ثم تضيف إلى موضوعات العقيدة موضوعات المعاملة:العدل والإحسان والإنفاق والوفاء بالعهد , وغيرها من موضوعات السلوك القائم على العقيدة . . وهكذا هي مليئة حافلة من ناحية الموضوعات التي تعالجها .

فأما الإطار الذي تعرض فيه هذه الموضوعات , والمجال الذي تجري فيه الأحداث , فهو فسيح شامل . . هو السماوات والأرض . والماء الهاطل و الشجر النامي . والليل والنهار والشمس والقمر والنجوم . والبحار و الجبال والمعالم والسبل والأنهار . وهو الدنيا بأحداثها ومصائرها , والأ خرى بأقدارها ومشاهدها . وهو الغيب بألوانه وأعماقه في الأنفس والآ فاق .

في هذا المجال الفسيح يبدو سياق السورة وكأنه حملة ضخمة للتوجيه والتأثير واستجاشة العقل والضمير . حملة هادئة الإيقاع , ولكنها متعددة الأوتار . ليست في جلجلة الأنعام والرعد , ولكنها في هدوئها تخاطب كل حاسة وكل جارحة في الكيان البشري , وتتجه إلى العقل الواعي كما تتجه إلى الوجدان الحساس . إنها تخاطب العين لترى , والأ ذن لتسمع , واللمس ليستشعر , والوجدان ليتأثر , والعقل ليتدبر . وتحشد الكون كله:سماؤه وأرضه , وشمسه وقمره , وليله ونهاره , وجباله وبحاره وفجاجه وأنهاره وظلاله وأكنانه نبته وثماره , وحيوانه وطيوره . كما تحشد دنياه وآخرته , وأسراره وغيوبه . . كلها أدوات توقع بها على أوتار الحواس والجوارح والعقول والقلوب , مختلف الإ يقاعات التي لا يصمد لها فلا يتأثر بها إلا العقل المغلق والقلب الميت , و الحس المطموس .

هذه الإيقاعات تتناول التوجيه إلى آيات الله في الكون , وآلائه على الناس كما تتناول مشاهد القيامة , وصور الاحتضار , ومصارع الغابرين ; تصاحبها اللمسات الوجدانية التي تتدسس إلى أسرار الأنفس , وإلى أحوال البشر وهم أجنة في البطون , وهم في الشباب والهرم و

الشيخوخة , وهم في حالات الضعف والقوة , وهم في أحوال النعمة و النقمة . كذلك يتخذ الأمثال والمشاهد والحوار والقصص الخفيف أدوات للعرض والإيضاح .

فأما الظلال العميقة التي تلون جو السورة كله فهي الآيات الكونية تتجلى فيها عظمة الخلق , وعظمة النعمة , وعظمة العلم والتدبير . . كلها متداخلة . . فهذا الخلق الهائل العظيم المدبر عن علم وتقدير , ملحوظ فيه أن يكون نعمة على البشر , لا تلبي ضروراتهم وحدها , ولكن تلبي أشواقهم كذلك , فتسد الضرورة . وتتخذ للزينة , وترتاح بها أبدانهم وتستروح لها نفوسهم , لعلهم يشكرون . .

ومن ثم تتراءى في السورة ظلال النعمة وظلال الشكر , والتوجيهات إليها , والتعقيب بها في مقاطع السورة , وتضرب عليها الأمثال , وتعرض لها النماذج , وأظهرها نموذج إبراهيم(شاكرا لأنعمه اجتباه وهداه إلى صراط مستقيم).

كل أولئك في تناسق ملحوظ بين الصور والظلال والعبارات والإيقاعات , والقضايا والموضوعات نرجو أن نقف على نماذج منه في أثناء استعراضنا للسياق .

الوحدة الثانية:22 - 50 الموضوع:نماذج المستكبرين وتفنيد شبهاتهم في مقابل نماذج المتقين ونعيمهم مقدمة الوحدة

وقفنا في الدرس السابق عند استعراض آيات الخالق في خلقه , وفي نعمته على عباده , وفي علمه بالسر والعلن . . بينما الآلهة المدعاة , لا تخلق شيئا , بل هي مخلوقة . ولا تعلم شيئا , بل هي ميتة لا تنتظر لها حياة . وهي لا تعلم متى يبعث عبادها للجزاء ! وهذا وذلك قاطع في بط لان عبادتها , وفي بطلان عقيدة الشرك كافة . . وكان هذا هو الشوط الأ ول في قضية التوحيد في السورة مع إشارة إلى قضية البعث أيضا .

وها نحن أولاء نبدأ في الدرس الجديد من حيث انتهينا في الدرس

السابق . نبدأ شوطا جديدا , يفتتح بتقرير وحدة الألوهية , ويعلل عدم إيمان الذين لا يؤمنون بالآخرة بأن قلوبهم منكرة , فالجحود صفة كامنة فيها تصدهم عن الإقرار بالآيات البينات , وهم مستكبرون , فالاستكبار يصدهم عن الإذعان والتسليم . . ويختم بمشهد مؤثر:مشهد الظلال في الأرض كلها ساجدة لله , ومعها ما في السماوات وما في الأرض من دابة , والملائكة , قد برئت نفوسهم من الاستكبار , وامتلأت بالخوف من الله , والطاعة لأمره بلا جدال . . هذا المشهد الخاشع الطائع يقابل صورة المستكبرين المنكرة قلوبهم في مفتتح هذا الشوط الجديد .

وبين المقطع والختام يستعرض السياق مقولات أولئك المستكبرين المنكرين عن الوحي والقرآن إذ يزعمون أنه أساطير الأولين . ومقولاتهم عن أسباب شركهم بالله وتحريمهم ما لم يحرمه الله , إذ يدعون أن الله أراد منهم الشر وارتضاه . ومقولاتهم عن البعث والقيامة إذ يقسمون جهدهم لا يبعث الله من يموت . ويتولى الرد على مقولاتهم جميعا . ويعرض في ذلك مشاهد احتضارهم ومشاهد بعثهم وفيها يتبرأون من تلك المقولات الباطلة , كما يعرض بعض مصارع الغابرين من المكذبين أمثالهم , ويخوفهم أخذ الله في ساعة من ليل أو نهار وهم لا يشعرون , وهم في تقلبهم في البلاد , أو وهم على تخوف وتوقع وانتظار للعذاب . . وإلى جوار هذا

إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَالَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ (22) لاَ جَرَمَ أَنَّ اللّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ (23)

يعرض صورا من مقولات المتقين المؤمنين وما ينتظرهم عند الاحتضار ويوم البعث من طيب الجزاء . وينتهي بذلك المشهد الخاشع الطائع للظلال والدواب والملائكة في الأرض والسماء . .

الوحدة الثالثة:51 - 76 الموضوع:الأدلة على توحيد الألوهية من خلال الكون والحياة والإنسان وبعض نعم الله على الناس مقدمة الوحدة

هذا الشوط الثالث في قضية الألوهية الواحدة التي لا تتعدد , يبدأ فيقرر وحده الإله , ووحدة المالك , ووحدة المنعم في الآيات الثلاث الأ ولى متواليات , ويختم بمثلين يضربهما للسيد المالك الرازق , والعبد المملوك لا يقدر على شيء , ولا يملك شيئا . . هل يستوون ? فكيف يسوي الله المالك الرازق بمن لا يقدر ولا يملك ولا يرزق ? فيقال:هذا إله وهذا إله ?! .

وفي خلال الدرس يعرض نموذجا بشريا للناس حين يصيبهم الضر فيجأرون إلى الله وحده , حتى إذا كشف عنهم الضر راحوا يشركون به غيره ! .

ويعرض كذلك صورا من أوهام الوثنية وخرافاتها . في تخصيص بعض ما رزقهم الله لآلهتهم المدعاة , في حين أنهم لا يردون شيئا مما يملكونه على عبيدهم ولا يقاسمونهم إياه ! وفي نسبة البنات إلى الله على حين يكرهون ولادة البنات لهم:(وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسودا وهو كظيم)! وفي الوقت الذي

وَقَالَ اللّهُ لاَ تَتَّخِذُواْ إِلـهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلهٌ وَاحِدٌ فَإيَّايَ فَارْهَبُونِ (51) وَلَهُ مَا فِي الْسَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلَهُ الدِّينُ وَاصِباً أَفَغَيْرَ اللّهِ تَتَّقُونَ (52)

يجعلون لله ما يكرهون تروح ألسنتهم تتشدق بأن لهم الحسنى , وأنهم سينالون على ما فعلوا خيرا ! وهذه الأوهام التي ورثوها من المشركين قبلهم هي التي جاءهم الرسول [ص] ليبين لهم الحقيقة فيها هدى ورحمة للمؤمنين .

ثم يأخذ في عرض نماذج من صنع الألوهية الحقة في تأملها عظة وعبرة فالله وحده هو القادر عليها الموجد لها , وهي هي دلائل الألوهية لا سواها:فالله أنزل من السماء ماء فأحيا به الأرض بعد موتها . والله يسقي الناس - غير الماء - لبنا سائغا يخرج من بطون الأنعام من بين فرث ودم . والله يطلع للناس ثمرات النخيل والأعناب يتخذون منها سكرا ورزقا حسنا . والله أوحى إلى النحل لتتخذ من الجبال بيوتا ومن الشجر ومما يعرشون , ثم تخرج عسلا فيه شفاء للناس . . ثم الله يخلق الناس ويتوفاهم ويؤجل بعضهم حتى يشيخ فينسى ما تعلمه ويرتد ساذجا لا يعلم شيئا . والله فضل بعضهم على بعض في الرزق . والله جعل لهم من أنفسهم أزواجا وجعل لهم من أزواجهم بنين وحفدة . . . وهم بعد هذا كله يعبدون من دون الله ما لا يملك لهم رزقا في السماوات والأرض ولا يقدرون على شيء . ويجعلون لله الأشباه والأمثال ! .

هذه اللمسات كلها في أنفسهم وفيما حولهم , يوجههم إليها لعلهم يستشعرون القدرة وهي تعمل في ذواتهم وفي أرزاقهم وفي طعامهم وفي شرابهم , وفي كل شيء حولهم . . ثم يختمها بالمثلين الواضحين الموضحين اللذين أشرنا إليهما آنفا . فهي حملة على الوجدان البشري و العقل البشري , ذات إيقاعات عميقة , تضرب على أوتار حساسة في النفس البشرية يصعب ألا تهتز لها وتتأثر وتستجيب .

الوحدة الرابعة:77 - 89 الموضوع:من الأدلة على الوحدانية وإنعام الله على الناس ولقطات من مشهد البعث

مقدمة الوحدة يستمر السياق في هذا الدرس في استعراض دلائل الأ لوهية الواحدة التي يتكى ء عليها في هذه السورة:عظمة الخلق , وفيض النعمة وإحاطة العلم . غير أنه يركز في هذا الشوط على قضية البعث . والساعة أحد أسرار الغيب الذي يختص الله بعلمه فلا يطلع عليه أحدا .

وموضوعات هذا الدرس تشمل ألوانا من أسرار غيب الله في السماوات

والأرض , وفي الأنفس والآفاق . غيب الساعة . التي لا يعلمها إلا الله وهو عليها قادر وهي عليه هينة: (وما أمر الساعة إلا كلمح البصر أو هو أقرب). . وغيب الأرحام والله وحده هو الذي يخرج الأجنة من هذا الغيب . لا تعلم شيئا , ثم ينعم على الناس بالسمع والأبصار والأفئدة لعلهم يشكرون نعمته . . وغيب أسرار الخلق يعرض منها تسخير الطير في جو السماء ما يمسكهن إلا الله .

يلي هذا في الدرس استعراض لبعض نعم الله المادية على الناس وهي بجانب تلك الأسرار وفي جوها , نعم السكن والهدوء والاستظلال . في البيوت المبنية والبيوت المتخذة من جلود الأنعام للظعن والإقامة , والأ ثاث والمتاع من الأصواف والأوبار والأشعار . وهي كذلك الضلال والأ كنان والسرابيل تقي الحر وتقي البأس في الحرب: (كذلك يتم نعمته عليكم لعلكم تسلمون).

ثم تفصيل لأمر البعث في مشاهد يعرض فيها المشركين وشركاءهم , و الرسل شهداء عليهم . والرسول [ص] شهيدا على قومه . وبذلك تتم هذه الجولة في جو البعث والقيامة .

الوحدة الخامسة:90 - 111 الموضوع:توجيهات حول الاخلاق والوفاء بـ العهد وآداب التلاوة والإستعاذة والرخصة

وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيداً عَلَى هَـؤُلاء وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَاناً لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ (89)

مقدمة الوحدة ختم الدرس الماضي بقوله تعالى: (ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شيء , وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين). وفي هذا الدرس بيان لبعض ما في الكتاب من التبيان والهدى والرحمة والبشرى . فيه الأ مر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى , والنهي عن الفحشاء والمنكر و البغي , وفيه الأمر بالوفاء بالعهد والنهي عن نقض الأيمان بعد توكيدها . . وكلها من مباديء السلوك الأساسية التي جاء بها هذا الكتاب .

إِنّ اللّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِ ِ ح ْ س َ ا ن ِ وَإِيتَاء ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاء وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلّكُمْ تَذَكّرُونَ (90) وَأَوْفُواْ بِعَهْدِ اللّهِ إِذَا عَاهَدتّمْ وَلاَ َ تنقُضُواْ الأ َ ي ْ م َ ا ن َ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلا ً إِنّ اللّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ (91)

وفيه بيان الجزاء المقرر لنقض العهد واتخاذ الإيمان للخداع والتضليل , وهو العذاب العظيم . والبشرى للذين صبروا وتوفيتهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون .

ثم يذكر بعض آداب قراءة هذا الكتاب . وهو الاستعاذة بالله من الشيطان الرجيم , لطرد شبحه من مجلس القرآن الكريم . كما يذكر بعض تقولات المشركين عن هذا الكتاب . فمنهم من يرمي الرسول [ص] بافترائه على الله . ومنهم من يقول:إن غلاما أعجميا هو الذي يعلمه هذا القرآن !

وفي نهاية الدرس يبين جزاء من يكفر بعد إيمانه , ومن يكره على الكفر وقلبه مطمئن بالإيمان , ومن فتنوا عن دينهم ثم هاجروا وجاهدوا وصبروا . . وكل أولئك تبيان , وهدى ورحمة وبشرى للمسليمن .

الوحدة السادسة:112 - 128 الموضوع:نماذج من عقاب جاحدي نعم الله وقواعد في الدعوة إلى الله

مقدمة الوحدة سبق أن ضرب الله في هذه السورة مثلين لتقريب حقيقة من حقائق العقيدة . وهو يضرب هنا مثلا لتصوير حال مكة , وقومها المشركين , الذين جحدوا نعمة الله عليهم . لينظروا المصير الذي يتهددهم من خلال المثل الذي يضرب لهم .

ومن ذكر النعمة في المثل , وهي نعمة الرزق الرغد مع الأمن والطمأنينة ينتقل السياق بهم إلى الطيبات التي يحرمونها عليهم إتباعا لأوهام الوثنية , وقد أحلها الله لهم , وحدد المحرمات وبينها وليست هذه منها .

وذلك لون من الكفر بنعمة الله , وعدم القيام بشكرها . يتهددهم بالعذاب الأليم من أجله , وهو افتراء على الله لم ينزل به شريعة .

وَضَرَبَ اللّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَداً مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللّهِ فَأَذَاقَهَا اللّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ (112) وَلَقَدْ جَاءهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ (113)

وبمناسبة ما حرم على المسلمين من الخبائث , يشير إلى ما حرم على اليهود من الطيبات . بسبب ظلمهم . جعل هذا التحريم عقوبة لهم على عصيانهم ولم يكن محرما على آبائهم في عهد إبراهيم الذي كان أمة قانتا لله حنيفا , ولم يك من المشركين شاكرا لأنعمه اجتباه وهداه إلى صراط مستقيم , فكانت حلالا له الطيبات ولبنيه من بعده , حتى حرم الله بعضها على اليهود في صورة عقوبة لهم خاصة . ومن تاب بعد جهالته فالله غفور رحيم .

ثم جاء دين محمد امتدادا واتباعا لدين إبراهيم , فعادت الطيبات حلالا كلها . وكذلك السبت الذي منع فيه اليهود من الصيد . فإنما السبت على أهله الذين اختلفوا فيه ففريق كف عن الصيد وفريق نقض عهده فمسخه الله وانتكس عن مستوى الإنسانية الكريم .

وتختم السورة عند هذه المناسبة بالأمر إلى الرسول [ص] أن يدعو إلى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة . وأن يجادلهم بالتي هي أحسن . وأن يلتزم قاعدة العدل في رد الاعتداء بمثله دون تجاوز . . والصبر و العفو خير . والعاقبة بعد ذلك للمتقين المحسنين لأن الله معهم , ينصرهم ويرعاهم ويهديهم طريق الخير والفلاح .

هذه السورة - سورة الإسراء - مكية , وهي تبدأ بتسبيح الله وتنتهي بحمده ; وتضم موضوعات شتى معظمها عن العقيدة ; وبعضها عن قواعد السلوك الفردي والجماعي وآدابه القائمة على العقيدة ; إلى شيء من القصص عن بني إسرائيل يتعلق بالمسجد الأقصى الذي كان إليه الإ سراء . وطرف من قصة آدم وإبليس وتكريم الله للإنسان .

ولكن العنصر البارز في كيان السورة ومحور موضوعاتها الأصيل هو شخص الرسول [ص] وموقف القوم منه في مكة . وهو القرآن الذي جاء به , وطبيعة هذا القرآن , وما يهدي إليه , واستقبال القوم له . واستطرادا بهذه المناسبة إلى طبيعة الرسالة والرسل , وإلى امتياز الرسالة المحمدية بطابع غير طابع الخوارق الحسية وما يتبعها من هلاك المكذبين بها . وإلى تقرير التبعة الفردية في الهدى والضلال الاعتقادي , والتبعة الجماعية في السلوك العملي في محيط المجتمع . . كل ذلك بعد أن يعذر الله - سبحانه - إلى الناس , فيرسل إليهم الرسل بالتبشير و التحذير والبيان والتفصيل (وكل شيء فصلناه تفصيلا).

ويتكرر في سياق السورة تنزيه الله وتسبيحه وحمده وشكر آلائه . ففي مطلعها: (سبحان الذي أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى . . .)وفي أمر بني إسرائيل بتوحيد الله يذكرهم بأنهم من ذرية المؤمنين مع نوح (إنه كان عبدا شكورا). . وعند ذكر دعاوي المشركين عن الآلهة يعقب بقوله: (سبحانه وتعالى عما يقولون علوا كبيرا , تسبح له السماوات السبع والأرض ومن فيهن , وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم). . وفي حكاية قول بعض أهل الكتاب حين يتلى عليهم القرآن:(ويقولون:سبحان ربنا إن كان وعد ربنا لمفعولا). . وتختم السورة بالآية (وقل الحمد لله الذي لم يتخذ ولدا , ولم يكن لهشريك في الملك , ولم يكن له ولي من الذل , وكبره تكبيرا).

في تلك الموضوعات المنوعة حول ذلك المحور الواحد الذي بينا ,

يمضي سياق السورة في أشواط متتابعة .

يبدأ الشوط الأول بالإشارة إلى الإسراء: (سبحان الذي أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله)مع الكشف عن حكمة الإسراء (لنريه من آياتنا). . وبمناسبة المسجد الأقصى يذكر كتاب موسى وما قضى فيه لبني إسرائيل , من نكبة وهلاك وتشريد مرتين , بسبب طغيانهم وإفسادهم مع إنذارهم بثالثة ورابعة (وإن عدتم عدنا). . ثم يقرر أن الكتاب الأخير - القرآن - يهدي للتي هي أقوم , بينما الإنسان عجول مندفع لا يملك زمام انفعالاته . ويقرر قاعدة التبعة الفردية في الهدى والضلال , وقاعدة التبعة الجماعية في التصرفات و السلوك .

ويبدأ الشوط الثاني بقاعدة التوحيد , ليقيم عليها البناء الاجتماعي كله وآداب العمل والسلوك فيه , ويشدها إلى هذا المحور الذي لا يقوم بناء الحياة إلا مستندا إليه .

ويتحدث في الشوط الثالث عن أوهام الوثنية الجاهلية حول نسبة البنات والشركاء إلى الله , وعن البعث واستبعادهم لوقوعه , وعن استقبالهم للقرآن وتقولاتهم على الرسول [ص] ويأمر المؤمنين أن يقولوا قولا آخر , ويتكلموا بالتي هي أحسن .

وفي الشوط الرابع يبين لماذا لم يرسل الله محمدا [ص] بالخوارق فقد كذب بها الأولون , فحق عليهم الهلاك اتباعا لسنة الله ; كما يتناول موقف المشركين من إنذارهم لله في رؤيا الرسول [ص] وتكذيبهم وطغيانهم . ويجيء في هذا السياق طرف من قصة إبليس , وإعلانه أنه سيكون حربا على ذرية آدم . يجيء هذا الطرف من القصة كأنه كشف لعوامل الضلال الذي يبدو من المشركين . ويعقب عليه بتخويف البشر من عذاب الله , وتذكيرهم بنعمة الله عليهم في تكريم الإنسان , وما ينتظر الطائعين والعصاة يوم ندعو كل أناس بإمامهم: فمن أوتي كتابه بيمينه فأولئك يقرؤون كتابهم ولا يظلمون فتيلا . ومن كان في هذه

أعمى فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلا .

ويستعرض الشوط الأخير كيد المشركين للرسول [ص] ومحاولة فتنته عن بعض ما أنزل إليه ومحاولة إخراجه من مكة . ولو أخرجوه قسرا - ولم يخرج هو مهاجرا بأمر الله - لحل بهم الهلاك الذي حل بالقرى من قبلهم حين أخرجت رسلها أو قتلتهم . ويأمر الرسول [ص] أن يمضي في طريقه يقرأ قرآنه ويصلي صلاته , ويدعو الله أن يحسن مدخله ومخرجه ويعلن مجيء الحق وزهوق الباطل , ويعقب بأن هذا القرآن الذي أرادوا فتنته عن بعضه فيه شفاء وهدى للمؤمنين , بينما الإنسان قليل العلم (وما أوتيتم من العلم إلا قليلا).

ويستمر في الحديث عن القرآن وإعجازه . بينما هم يطلبون خوارق مادية , ويطلبون نزول الملائكة , ويقترحون أن يكون للرسول بيت من زخرف أو جنة من نخيل وعنب , يفجر الأنهار خلالها تفجيرا ! أو أن يفجر لهم من الأرض ينبوعا . أو أن يرقى هو في السماء ثم يأتيهم بكتاب مادي معه يقرأونه . . . إلى آخر هذه المقترحات التي يمليها العنت والمكابرة , لا طلب الهدى والاقتناع . ويرد على هذا كله بأنه خارج عن وظيفة الرسول وطبيعة الرسالة , ويكل الأمر إلى الله . ويتهكم على أولئك الذين يقترحون هذه الاقتراحات كلها بأنهم لو كانوا يملكون خزائن رحمة الله - على سعتها وعدم نفادها - لأمسكوها خوفا من الإنفاق ! وقد كان حسبهم أن يستشعروا أن الكون وما فيه يسبح لله , وأن الآيات الخارقة قد جاء بها موسى من قبل فلم تؤد إلىإيمان المتعنتين الذين استفزوه من الأرض , فأخذهم الله بالعذاب والنكال .

وتنتهي السورة بالحديث عن القرآن والحق الأصيل فيه . القرآن الذي نزل مفرقا ليقرأه الرسول على القوم زمنا طويلا بمناسباته ومقتضياته , وليتأثروا به ويستجيبوا له استجابة حية واقعية عملية . والذي يتلقاه الذين أوتوا العلم من قبله بالخشوع والتأثر إلى حد البكاء والسجود . ويختم السورة بحمد الله الذي لم يتخذ ولدا ولم يكن له شريك في

الملك ولم يكن له ولي من الذل . كما بدأها بتسبيحه وتنزيهه .

سورة الكهف

التعريف بسورة الكهف القصص هو العنصر الغالب في هذه السورة . ففي أولها تجيء قصة أصحاب الكهف , وبعدها قصة الجنتين , ثم إشارة إلى قصة آدم وإبليس . وفي وسطها تجيء قصة موسى مع العبد الصالح . وفي نهايتها قصة ذي القرنين . ويستغرق هذا القصص معظم آيات السورة , فهو وارد في إحدى وسبعين آية من عشر ومائة آية ; ومعظم ما يتبقى من آيات السورة هو تعليق أو تعقيب على القصص فيها . وإلى جوار القصص بعض مشاهد القيامة , وبعضمشاهد الحياة التي تصور فكرة أو معنى , على طريقة القرآن في التعبير بالتصوير .

أما المحور الموضوعي للسورة والذي ترتبط به موضوعاتها , ويدور حوله سياقها , فهو تصحيح العقيدة وتصحيح منهج النظر والفكر . وتصحيح القيم بميزان هذه العقيدة .

فأما تصحيح العقيدة فيقرره بدؤها وختامها .

في البدء: (الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا . قيما . لينذر بأسا شديدا من لدنه ; ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجرا حسنا ماكثين فيه أبدا وينذر الذين قالوا:اتخذ الله ولدا . ما لهم به من علم ولا لآبائهم . كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذبا).

وفي الختام:(قل:إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلي أنما إلهكم إله واحد , فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا).

وهكذا يتساوق البدء والختام في إعلان الوحدانية وإنكار الشرك ,

وإثبات الوحي , والتمييز المطلق بين الذات الإلهية وذوات الحوادث .

ويلمس سياق السورة هذا الموضوع مرات كثيرة في صور شتى:

في قصة أصحاب الكهف يقول الفتية الذين آمنوا بربهم: ربنا رب السماوات والأرض لن ندعوا من دونه إلها , لقد قلنا إذا شططا .

وفي التعقيب عليها: (ما لهم من دونه من ولي , ولا يشرك في حكمه أحدا). .

وفي قصة الجنتين يقول الرجل المؤمن لصاحبه وهو يحاوره: أكفرت بـ الذي خلقك من تراب ثم من نطفة ثم سواك رجلا , لكن هو الله ربي ولا أشرك بربي أحدا .

وفي التعقيب عليها:(ولم تكن له فئة ينصرونه من دون الله وما كان منتصرا , هنالك الولاية لله الحق , هو خير ثوابا وخير عقبا).

وفي مشهد من مشاهد القيامة:(ويوم يقول:نادوا شركائي الذين زعمتم , فدعوهم فلم يستجيبوا لهم , وجعلنا بينهم موبقا).

وفي التعقيب على مشهد آخر:(أفحسب الذين كفروا أن يتخذوا عبادي من دوني أولياء ? إنا أعتدنا جهنم للكافرين نزلا).

أما تصحيح منهج الفكر والنظر فيتجلى في استنكار دعاوى المشركين الذين يقولون ما ليس لهم به علم , والذين لا يأتون على ما يقولون ببرهان . وفي توجيه الإنسان إلى أن يحكم بما يعلم ولا يتعداه , وما لا علم له به فليدع أمره إلى الله .

ففي مطلع السورة: (وينذر الذين قالوا:اتخذ الله ولدا , ما لهم به من علم ولا لآبائهم)

والفتية أصحاب الكهف يقولون: (هؤلاء قومنا اتخذوا من دونه آلهة . لو لا يأتون عليهم بسلطان بين !)وعندما يتساءلون عن فترة لبثهم في

الكهف يكلون علمها لله: (قالوا:ربكم أعلم بما لبثتم).

وفي ثنايا القصة إنكار على من يتحدثون عن عددهم رجما بالغيب: (سيقولون:ثلاثة رابعهم كلبهم ; ويقولون:خمسة سادسهم كلبهم - رجما بِالغيب - ويقولون:سبعة وثامنهم كلبهم . قل:ربي أعلم بعدتهمما يعلمهم إ لا قليل ; فلا تمار فيهم إلا مراء ظاهرا , ولا تستفت فيهم منهم أحدا).

وفي قصة موسى مع العبد الصالح عندما يكشف له عن سر تصرفاته التي أنكرها عليه موسى يقول: (رحمة من ربك وما فعلته عن أمري)فيكل الأمر فيها لله .

فأما تصحيح القيم بميزان العقيدة , فيرد في مواضع متفرقة , حيث يرد القيم الحقيقية إلى الإيمان والعمل الصالح , ويصغر ما عداها من القيم الأرضية الدنيوية التي تبهر الأنظار .

فكل ما على الأرض من زينة إنما جعل للابتلاء والاختبار , ونهايته إلى فناء وزوال:(إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملا , وإنا لجاعلون ما عليها صعيدا جرزا).

وحمى الله أوسع وأرحب , ولو أوى الإنسان إلى كهف خشن ضيق . و الفتية المؤمنون أصحاب الكهف يقولون بعد اعتزالهم لقومهم:(وإذ اعتزلتموهم وما يعبدون - إلا الله - فأووا إلى الكهف ينشر لكم ربكم من رحمته , ويهيئ لكم من أمركم مرفقا)

والخطاب يوجه إلى الرسول [ص] ليصبر نفسه مع أهل الإيمان ; غير مبال بزينة الحياة الدنيا وأهلها الغافلين عن الله (واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه , ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا , ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا ; واتبع هواه وكان أمره فرطا . وقل:الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر).

وقصة الجنتين تصور كيف يعتز المؤمن بإيمانه في وجه المال والجاه و

الزينة . وكيف يجبه صاحبها المنتفش المنتفخ بالحق , ويؤنبه على نسيان الله: ال له صاحبه وهو يحاوره:أكفرت بالذي خلقك من تراب ثم من نطفة ثم سواك رجلا ? لكن هو الله ربي ولا أشرك بربي أحدا . ولولا إذ دخلت جنتك قلت:ما شاء الله , لا قوة إلا بالله . إن ترن أنا أقل منك مالا وولدا . فعسى ربي أن يؤتين خيرا من جنتك , ويرسل عليها حسبانا من السماء فتصبح صعيدا زلقا , أو يصبح ماؤها غورا فلن تستطيع له طلبا .

وعقب القصة يضرب مثلا للحياة الدنيا وسرعة زوالها بعد ازدهارها:(واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء , فاختلط به نبات الأرض , فأصبح هشيما تذروه الرياح , وكان الله على كل شيء مقتدرا).

ويعقب عليه ببيان للقيم الزائلة والقيم الباقية:(المال والبنون زينة الحياة الدنيا , والباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابا وخير أملا).

وذو القرنين لا يذكر لأنه ملك , ولكن يذكر لأعماله الصالحة . وحين يعرض عليه القوم الذين وجدهم بين السدين أن يبني لهم سدا يحميهم من يأجوج ومأجوج في مقابل أن يعطوه مالا , فإنه يرد عليهم ما عرضوه من المال , لأن تمكين الله له خير من أموالهم (قال:ما مكني فيه ربي خير). وحين يتم السد يرد الأمر لله لا لقوته البشرية:(قال:هذا رحمة من ربي , فإذا جاء وعد ربي جعله دكاء وكان وعد ربي حقا).

وفي نهاية السورة يقرر أن أخسر الخلق أعمالا , هم الذين كفروا بآيات ربهم ولقائه ; وهؤلاء لا وزن لهم ولا قيمة وإن حسبوا أنهم يحسنون صنعا:(قل:هل ننبئكم بالأخسرين أعمالا الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا ? أولئك الذين كفروا بآيات ربهم ولقائه فحبطت أعمالهم فلا نقيم لهم يوم القيامة وزنا).

وهكذا نجد محور السورة هو تصحيح العقيدة . وتصحيح منهج الفكر و

النظر . وتصحيح القيم بميزان العقيدة .

ويسير سياق السورة حول هذه الموضوعات الرئيسية في أشواط متتابعة:

تبدأ السورة بالحمد لله الذي أنزل على عباده الكتاب للإنذار والتبشير . تبشير المؤمنين وإنذار الذين قالوا:اتخذ الله ولدا ; وتقرير أن ما على الأ رض من زينة إنما هو للابتلاء والاختبار , والنهاية إلى زوال وفناء . . ويتلو هذا قصة أصحاب الكهف . وهي نموذج لإيثار الإيمان على باطل الحياة وزخرفها , والالتجاء إلى رحمة الله في الكهف , هربا بالعقيدة أن تمس .

ويبدأ الشوط الثاني بتوجيه الرسول [ص] أن يصبر نفسه مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه , وأن يغفل الغافلين عن ذكر الله . . ثم تجيء قصة الجنتين تصور اعتزاز القلب المؤمن بالله , واستصغاره لقيم الأرض . . وينتهي هذا الشوط بتقرير القيم الحقيقية الباقية .

والشوط الثالث يتضمن عدة مشاهد متصلة من مشاهد القيامة تتوسطها إشارة قصة آدم وإبليس . . وينتهي ببيان سنة الله في إهلاك الظالمين , ورحمة الله وإمهاله للمذنبين إلى أجل معلوم .

وتشغل قصة موسى مع العبد الصالح الشوط الرابع . وقصة ذي القرنين الشوط الخامس .

ثم تختم السورة بمثل ما بدأت:تبشيرا للمؤمنين وإنذارا للكافرين , وإثباتا للوحي وتنزيها لله عن الشريك

يدور سياق هذه السورة على محور التوحيد ; ونفي الولد والشريك ; ويلم بقضية البعث القائمة على قضية التوحيد . . هذا هو الموضوع الأ ساسي الذي تعالجه السورة , كالشأن في السور المكية غالبا .

والقصص هو مادة هذه السورة . فهي تبدأ بقصة زكريا ويحيى . فقصة مريم ومولد عيسى . فطرف من قصة إبراهيم مع أبيه . . ثم تعقبها إشارات إلى النبيين:إسحاق ويعقوب , وموسى وهرون , وإسماعيل , وإدريس . وآدم ونوح . ويستغرق هذا القصص حوالي ثلثي السورة . ويستهدف إثبات الوحدانية والبعث , ونفي الولد والشريك , وبيان منهج المهتدين ومنهج الضالين من أتباع النبيين .

ومن ثم بعض مشاهد القيامة , وبعض الجدل مع المنكرين للبعث .

واستنكار للشرك ودعوى الولد ; وعرض لمصارع المشركين والمكذبين في الدنيا وفي الآخرة . . وكله يتناسق مع اتجاه القصص في السورة ويتجمع حول محورها الأصيل .

وللسورة كلها جو خاص يظللها ويشيع فيها , ويتمشى في موضوعاتها .
.

إن سياق هذه السورة معرض للانفعالات والمشاعر القوية . . الانفعالات في النفس البشرية , وفي "نفس" الكون من حولها . فهذا الكون الذي نتصوره جمادا لا حس له يعرض في السياق ذا نفس وحس ومشاعر وانفعالات , تشارك في رسم الجو العام للسورة . حيث نرى السماوات وا لأرض والجبال تغضب وتنفعل حتى لتكاد تنفطر وتنشق وتنهد استنكارا:

(أن دعوا للرحمن ولدا وما ينبغي للرحمن أن يتخذ ولدا). .

أما الانفعالات في النفس البشرية فتبدأ مع مفتتح السورة وتنتهي مع ختامها . والقصص الرئيسي فيها حافل بهذه الانفعالات في مواقفه العنيفة العميقة . وبخاصة في قصة مريم وميلاد عيسى .

والظل الغالب في الجو هو ظل الرحمة والرضى والاتصال . فهي تبدأ بذكر رحمة الله لعبده زكريا(ذكر رحمة ربك عبده زكريا)وهو يناجي ربه نجاء:(إذ نادى ربه نداء خفيا). . ويتكرر لفظ الرحمة ومعناها وظلها في ثنايا السورة كثيرا . ويكثر فيها اسم(الرحمن). ويصور النعيم الذي يلقاه المؤمنون به في صورة ود:(إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن ودا)ويذكر من نعمة الله على يحيى أن آتاه الله حنانا(وحنانا من لدنا وزكاة وكان تقيا). ومن نعمة الله على عيسى أن جعله برا بوالدته وديعا لطيفا:

(وبرا بوالدتي ولم يجعلني جبارا شقيا). .

وإنك لتحس لمسات الرحمة الندية ودبيبها اللطيف في الكلمات و العبارات والظلال . كما تحس انتفاضات الكون وارتجافاته لوقع كلمة الشرك التي لا تطيقها فطرته . . كذلك تحس أن للسورة إيقاعا موسيقيا خاصا . فحتى جرس ألفاظها وفواصلها فيه رخاء وفيه عمق:رضيا . سريا . حفيا . نجيا . . فأما المواضع التي تقتضي الشد والعنف , فتجيء فيها الفاصلة مشددة دالا في الغالب . مدا . ضدا . إدا . هدا , أو زايا:عزا . أزا .

وتنوع الإيقاع المصوسيقي والفاصلة والقافية بتنوع الجو والموضوع يبدو جليا في هذه السورة . فهي تبدأ بقصة زكريا ويحيى فتسير الفاصلة والقافية هكذا:

ذكر رحمة ربك عبده زكريا . إذ نادى ربه نداء خفيا . . . الخ .

وتليها قصة مريم وعيسى فتسير الفاصلة والقافية على النظام نفسه:

واذكر في الكتاب مريم إذا انتبذت من أهلها مكانا شرقيا . فاتخذت من دونهم حجابا فأرسلنا إليها روحنا فتمثل لها بشرا سويا . . الخ

إلى أن ينتهي القصص , ويجيء التعقيب , لتقرير حقيقة عيسى ابن مريم , وللفصل في قضية بنوته . فيختلف نظام الفواصل والقوافي . . تطول الفاصلة , وتنتهي القافية بحرف الميم أو النون المستقر الساكن عند الوقف لا بالياء الممدودة الرخية . على النحو التالي:

ذلك عيسى ابن مريم قول الحق الذي فيه يمترون . ما كان لله أن يتخذ من ولد سبحانه إذا قضي أمرا فإنما يقول له:كن فيكون . . . الخ .

ذِكْرُ رَحْمَةِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا (2) إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاء خَفِيّاً (3)

حتى إذا انتهى التقرير والفصل وعاد السياق إلى القصص عادت القافية الرخية المديدة:

واذكر في الكتاب إبراهيم إنه كان صديقا نبيا . إذ قال لأبيه:يا أبت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنك شيئا . . الخ .

حتى إذا جاء ذكر المكذبين وما ينتظرهم من عذاب وانتقام , تغير الإيقاع الموسيقي وجرس القافية:

قل:من كان في الضلالة فليمدد له الرحمن مدا . حتى إذا رأوا ما يوعدون إما العذاب ; وإما الساعة فسيعلمون من هو شر مكانا وأضعف جندا . . الخ .

وفي موضع الاستنكار يشتد الجرس والنغم بتشديد الدال:

وقالوا:اتخذ الرحمن ولدا . لقد جئتم شيئا إدا , تكاد السماوات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتحز الجبال هذا . . الخ .

وهكذا يسير الإيقاع الموسيقي في السورة وفق المعنى والجو ; ويشارك في إبقاء الظل الذي يتناسق مع المعنى في ثنايا السورة , وفق انتقالات السياق من جو إلى جو ومن معنى إلى معنى .

ويسير السياق مع موضوعات السورة في أشواط ثلاثة:

الشوط الأول يتضمن قصة زكريا ويحيى , وقصة مريم وعيسى . و التعقيب على هذه القصة بالفصل في قضية عيسى التي كثر فيها الجدل , واختلفت فيها أحزاب اليهود والنصارى .

والشوط الثاني يتضمن حلقة من قصة إبراهيم مع أبيه وقومه واعتزاله لملة الشرك وما عوضه الله من ذرية نسلت بعد ذلك الأمة . ثم إشارات إلى قصص النبيين , ومن اهتدى بهم ومن خلفهم من الغواة ; ومصير هؤ لاء وهؤلاء . وينتهي بإعلان الربوبية الواحدة , التي تعبد بلا شريك:(رب السماوات والأرض وما بينهما فاعبده واصطبر لعبادته . هل تعلم له سميا ?)

والشوط الثالث والأخير يبدأ بالجدل حول قضية البعث , ويستعرض بعض مشاهد القيامة . ويعرض صورة من استنكار الكون كله لدعوى الشرك , وينتهي بمشهد مؤثر عميق من مصارع القرون ! (وكم أهلكنا قبلهم من قرن . هل تحسن منهم من أحد أو تسمع لهم ركزا)

تعريف بالسورة تبدأ هذه السورة وتختم خطابا للرسول [ص] ببيان وظيفته وحدود تكاليفه . . إنها ليست شقوة كتبت عليه , وليست عناء يعذب به . إنما هي الدعوة والتذكرة , وهي التبشير والإنذار . وأمر الخلق بعد ذلك إلى الله الواحد الذي لا إله غيره . المهيمن على ظاهر الكون وباطنه , الخبير بظواهر القلوب وخوافيها . الذي تعنو له الجباه , ويرجع إليه الناس:طائعهم وعاصيهم . . فلا على الرسول ممن يكذب ويكفر ; ولا يشقى لأنهم يكذبون ويكفرون .

وبين المطلع والختام تعرض قصة موسى عليه السلام من حلقة الرسالة إلى حلقة اتخاذ بني إسرائيل للعجل بعد خروجهم من مصر , مفصلة مطولة ; وبخاصة موقف المناجاة بين الله وكليمه موسى - وموقف الجدل بين موسى وفرعون . وموقف المباراة بين موسى والسحرة . . . وتتجلى في غضون القصة رعاية الله لموسى الذي صنعه على عينه واصطنعه لنفسه , وقال له ولأخيه: (لا تخافا إنني معكما أسمع وأرى). .

وتعرض قصة آدم سريعة قصيرة , تبرز فيها رحمة الله لآدم بعد خطيئته , وهدايته له . وترك البشر من أبنائه لما يختارون من هدى أو ضلال بعد التذكير والإنذار .

وتحيط بالقصة مشاهد القيامة . وكأنما هي تكملة لما كان أول الأمر في الملأ الأعلى من قصة آدم . حيث يعود الطائعون إلى الجنة , ويذهب العصاة إلى النار . تصديقا لما قيل لأبيهم آدم , وهو يهبط إلى الأرض بعد ما كان !

ومن ثم يمضي السياق في هذه السورة في شوطين اثنين:الشوط الأول يتضمن مطلع السورة بالخطاب إلى الرسول [ص](ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى . إلا تذكرة لمن يخشى . . .)تتبعه قصة موسى نموذجا كاملا لرعاية الله سبحانه لمن يختارهم لإبلاغ دعوته فلا يشقون بها وهم في رعايته .

والشوط الثاني يتضمن مشاهد القيامة وقصة آدم وهما يسيران في اتجاه مطلع السورة وقصة موسى . ثم ختام السورة بما يشبه مطلعها ويتناسق معه ومع جو السورة .

وللسورة ظل خاص يغمر جوها كله . . ظل علوي جليل , تخشع له القلوب , وتسكن له النفوس , وتعنو له الجباه . . إنه الظل الذي يخلعه تجلي الرحمن على الوادي المقدس على عبده موسى , في تلك المناجاة الطويلة ; والليل ساكن وموسى وحيد , والوجود كله يتجاوب بذلك

النجاء الطويل . . وهو الظل الذي يخلعه تجلي القيوم في موقف الحشر العظيم: (وخشعت الأصوات للرحمن فلا تسمع إلا همسا). . (وعنت الوجوه للحي القيوم). .

والإيقاع الموسيقي للسورة كلها يستطرد في مثل هذا الجو من مطلعها إلى ختامها رخيا شجيا نديا بذلك المد الذاهب مع الألف المقصورة في القافية كلها تقريبا .

سورة طه

تبدأ هذه السورة وتختم خطابا للرسول [ص] ببيان وظيفته وحدود تكاليفه . . إنها ليست شقوة كتبت عليه , وليست عناء يعذب به . إنما هي الدعوة والتذكرة , وهي التبشير والإنذار . وأمر الخلق بعد ذلك إلى الله الواحد الذي لا إله غيره . المهيمن على ظاهر الكون وباطنه , الخبير بظواهر القلوب وخوافيها . الذي تعنو له الجباه , ويرجع إليه الناس:طائعهم وعاصيهم . . فلا على الرسول ممن يكذب ويكفر ; ولا يشقى لأنهم يكذبون ويكفرون .

وبين المطلع والختام تعرض قصة موسى عليه السلام من حلقة الرسالة إلى حلقة اتخاذ بني إسرائيل للعجل بعد خروجهم من مصر , مفصلة مطولة ; وبخاصة موقف المناجاة بين الله وكليمه موسى - وموقف الجدل بين موسى وفرعون . وموقف المباراة بين موسى والسحرة . . . وتتجلى في غضون القصة رعاية الله لموسى الذي صنعه على عينه واصطنعه لنفسه , وقال له ولأخيه: (لا تخافا إنني معكما أسمع وأرى). .

وتعرض قصة آدم سريعة قصيرة , تبرز فيها رحمة الله لآدم بعد خطيئته , وهدايته له . وترك البشر من أبنائه لما يختارون من هدى أو ضلال بعد التذكير والإنذار .

وتحيط بالقصة مشاهد القيامة . وكأنما هي تكملة لما كان أول الأمر في الملأ الأعلى من قصة آدم . حيث يعود الطائعون إلى الجنة , ويذهب

العصاة إلى النار . تصديقا لما قيل لأبيهم آدم , وهو يهبط إلى الأرض بعد ما كان !

ومن ثم يمضي السياق في هذه السورة في شوطين اثنين:الشوط الأول يتضمن مطلع السورة بالخطاب إلى الرسول [ص](ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى . إلا تذكرة لمن يخشى . . .)تتبعه قصة موسى نموذجا كاملا لرعاية الله سبحانه لمن يختارهم لإبلاغ دعوته فلا يشقون بها وهم في رعايته .

والشوط الثاني يتضمن مشاهد القيامة وقصة آدم وهما يسيران في اتجاه مطلع السورة وقصة موسى . ثم ختام السورة بما يشبه مطلعها ويتناسق معه ومع جو السورة .

وللسورة ظل خاص يغمر جوها كله . . ظل علوي جليل , تخشع له القلوب , وتسكن له النفوس , وتعنو له الجباه . . إنه الظل الذي يخلعه تجلي الرحمن على الوادي المقدس على عبده موسى , في تلك المناجاة الطويلة ; والليل ساكن وموسى وحيد , والوجود كله يتجاوب بذلك النجاء الطويل . . وهو الظل الذي يخلعه تجلي القيوم في موقف الحشر العظيم: (وخشعت الأصوات للرحمن فلا تسمع إلا همسا). . (وعنت الوجوه للحي القيوم). .

والإيقاع الموسيقي للسورة كلها يستطرد في مثل هذا الجو من مطلعها إلى ختامها رخيا شجيا نديا بذلك المد الذاهب مع الألف المقصورة في القافية كلها تقريبا .

هذه السورة , مكية تعالج الموضوع الرئيسي الذي تعالجه السور المكية . . موضوع العقيدة . . تعالجه في ميادينه الكبيرة:ميادين التوحيد , و الرسالة والبعث .

وسياق السورة يعالج ذلك الموضوع بعرض النواميس الكونية الكبرى وربط العقيدة بها . فالعقيدة جزءمن بناء هذا الكون , يسير على نواميسه الكبرى ; وهي تقوم على الحق الذي قامت عليه السماوات والأرض , وعلى الجد الذي تدبر به السموات والأرض , وليست لعبا ولا باطلا , كما أن هذا الكون لم يخلق لعبا , ولم يشب خلقه باطل:(وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما لاعبين). .

ومن ثم يجول بالناس . . بقلوبهم وأبصارهم وأفكارهم . . بين مجالي الكون الكبرى:السماء والأرض . الرواسي والفجاج . الليل والنهار . الشمس والقمر . . . موجها أنظارهم إلى وحدة النواميس التي تحكمها وتصرفها , وإلى دلالة هذه الوحدة على وحدة الخالق المدبر , والمالك الذي لا شريك له في الملك , كما أنه لا شريك له في الخلق . . (لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا). .

ثم يوجه مداركهم إلى وحدة النواميس التي تحكم الحياة في هذه الأرض , وإلى وحدة مصدر الحياة: (وجعلنا من الماء كل شيء حي)وإلى وحدة النهاية التي ينتهي إليها الأحياء: (كل نفس ذائقة الموت). . وإلى وحدة المصير الذي إليه ينتهون: (وإلينا ترجعون). .

والعقيدة وثيقة الارتباط بتلك النواميس الكونية الكبرى . فهي واحدة كذلك وإن تعدد الرسل على مدار الزمان:(وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون). . وقد اقتضت مشيئة الله أن

يكون الرسل كلهم من البشر: (وما أرسلنا قبلك إلا رجالا نوحي إليهم). .

وكما أن العقيدة وثيقة الارتباط بنواميس الكون الكبرى , فكذلك ملا بسات هذه العقيدة في الأرض . فالسنة التي لا تتخلف أن يغلب الحق في النهاية وأن يزهق الباطل , لأن الحق قاعدة كونية وغلبته سنة إلهية: (بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق). . وأن يحل الهلاك بالظالمين المكذبين , وينجي الله الرسل والمؤمنين:(ثم صدقناهم الوعد فأنجيناهم ومن نشاء وأهلكنا المسرفين). . وأن يرث الأرض عباد الله الصالحون:(ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون). .

ومن ثم يستعرض السياق أمة الرسل الواحدة في سلسلة طويلة استعراضا سريعا . يطول بعض الشيء عند عرض حلقة من قصة إبراهيم - عليه السلام - وعند الإشارة إلى داود وسليمان . ويقصر عند ا لإشارة إلى قصص نوح , وموسى , وهارون , ولوط , وإسماعيل , وإدريس , وذي الكفل , وذي النون , وزكريا , ويحيى , وعيسى عليهم السلام .

وفي هذا الاستعراض تتجلى المعاني التي سبقت في سياق السورة . تتجلى . في صورة وقائع في حياة الرسل والدعوات , بعدما تجلت في صورة قواعد عامة ونواميس .

كذلك يتضمن سياق السورة بعض مشاهد القيامة ; وتتمثل فيها تلك المعاني نفسها في صورة واقع يوم القيامة . .

وهكذا تتجمع الإيقاعات المنوعة في السورة على هدف واحد , هو استجاشة القلب البشري لإدراك الحق الأصيل في العقيدة التي جاء بها خاتم الرسل [ص] فلا يتلقاها الناس غافلين معرضين لاهين كما يصفهم في مطلع السورة: (اقترب للناس حسابهم وهم في غفلة معرضون . ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث إلا استمعوه وهم يلعبون .

لاهية قلوبهم . . .).

إن هذه الرسالة حق وجد . كما أن هذا الكون حق وجد . فلا مجال للهو في استقبال الرسالة ; ولا مجاللطلب الآيات الخارقة ; وآيات الله في الكون وسنن الكون كله . توحي بأنه الخالق القادر الواحد , والرسالة من لدن ذلك الخالق القادر الواحد .

نظم هذه السورة من ناحية بنائه اللفظي وإيقاعه الموسيقي هو نظم التقرير , الذي يتناسق مع موضوعها , ومع جو السياق في عرض هذا الموضوع . . يبدو هذا واضحا بموازنته بنظم سورتي مريم وطه مثلا . فهناك الإيقاع الرخي الذي يناسب جوهما . وهنا الإيقاع المستقر الذي يناسب موضوع السورة وجوها . .

ويزيد هذا وضوحا بموازنة نظم قصة إبراهيم - عليه السلام - في مريم ونظمها هنا . وكذلك بالتأمل في الحلقة التي أخذت منها هنا الحلقة التي أخذت منها هناك . ففي سورة مريم أخذت حلقة الحوار الرخي بين إبراهيم وأبيه . أما هنا فجاءت حلقة تحطيم الأصنام , وإلقاء إبراهيم في النار . ليتم التناسق في الموضوع والجو والنظم والإيقاع .

والسياق في هذه السورة يمضي في أشواط أربعة:

الأول:ويبدأ بمطلع قوي الضربات , يهز القلوب هزا , وهو يلفتها إلى الخطر القريب المحدق , وهي عنه غافلة لاهية: اقترب للناس حسابهم وهم في غفلة معرضون . . . الخ.

ثم يهزها هزة أخرى بمشهد من مصارع الغابرين , الذين كانوا عن آيات ربهم غافلين , فعاشوا سادرين في الغي ظالمين:(وكم قصمنا من قرية كانت ظالمة وأنشأنا بعدها قوما آخرين . فلما أحسوا بأسنا إذا هم منها يركضون . لا تركضوا وارجعوا إلى ما أترفتم فيه ومساكنكم لعلكم تسألون . قالوا:يا ويلنا ! إنا كنا ظالمين . فما زالت تلك دعواهم حتى جعلناهم حصيدا خامدين). .

ثم يربط بين الحق والجد في الدعوة , والحق والجد في نظام الكون . وبين عقيدة التوحيد ونواميس الوجود . وبين وحدة الخالق المدبر ووحدة الرسالة والعقيدة . ووحدة مصدر الحياة ونهايتها ومصيرها على النحو الذي أسلفناه .

فأما الشوط الثاني فيرجع بالحديث إلى الكفار الذين يواجهون الرسول [ص] بالسخرية والاستهزاء , بينما الأمر جد وحق , وكل ما حولهم يوحي باليقظة والاهتمام . وهم يستعجلون العذاب والعذاب منهم قريب . . وهنا يعرض مشهدا من مشاهد القيامة . ويلفتهم إلى ما أصاب المستهزئين بالرسل قبلهم . ويقرر أن ليس لهم من الله من عاصم . ويوجه قلوبهم إلى تأمل يد القدرة وهي تنقص الأرض من أطرافها , وتزوي رقعتها وتطويها , فلعل هذا أن يوقظهم من غفلتهم التي جاءتهم من طول النعمة وامتداد الرخاء . .

وينتهي هذا الشوط بتوجيه الرسول [ص] إلى بيان وظيفته: (قل:إنما أنذركم بالوحي)وإلى الخطر الذي يتهددهم في غفلتهم: (ولا يسمع الصم الدعاء إذا ما ينذرون)حتى تنصب الموازين القسط وهم في غفلتهم سادرون .

ويتضمن الشوط الثالث استعراض أمة النبيين , وفيها تتجلى وحدة الرسالة والعقيدة . كما تتجلى رحمة الله بعباده الصالحين وإيحاؤه لهم وأخذ المكذبين .

أما الشوط الرابع والأخير فيعرض النهاية والمصير , في مشهد من مشاهد القيامة المثيرة:ويتضمن ختام السورة بمثل ما بدأت:إيقاعا قويا , وإنذارا صريحا , وتخلية بينهم وبين مصيرهم المحتوم . .

هذه السورة مشتركة بين مكية ومدنية كما يبدو من دلالة آياتها . وعلى الأخص آيات الأذن بالقتال . وآيات العقاب بالمثل , فهي مدنية قطعا . ف المسلمون لم يؤذن لهم في القتال والقصاص إلا بعد الهجرة . وبعدقيام الدولة الإسلامية في المدينة . أما قبل ذلك فقد قال رسول الله [ص] حين بايعه أهل يثرب , وعرضوا عليه أن يميلوا على أهل منى من الكفار فيقتلوهم " إني لم أومر بهذا " . حتى إذا صارت المدينة دار إسلام شرع الله القتال لرد أذى المشركين عن المسلمين والدفاع عن حرية العقيدة , وحرية العبادة للمؤمنين .

والذي يغلب على السورة هو موضوعات السور المكية , وجو السور المكية . فموضوعات التوحيد والتخويف من الساعة , وإثبات البعث , وإنكار الشرك . ومشاهد القيامة , وآيات الله المبثوثة في صفحات الكون . . بارزة في السورة وإلى جوارها الموضوعات المدنية من الإذن بالقتال , وحماية الشعائر , والوعد بنصر الله لمن يقع عليه البغي وهو يرد العدوان , والأمر بالجهاد في سبيل الله .

والظلال الواضحة في جو السورة كلها هي ظلال القوة والشدة والعنف والرهبة . والتحذير والترهيب واستجاشة مشاعر التقوى والوجل والا ستسلام .

تبدو هذه الظلال في المشاهد والأمثال . .

فمشهد البعث مزلزل عنيف رهيب:(يا أيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شيء عظيم . يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت , وتضع كل ذات حمل حملها , وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد). .

وكذلك مشهد العذاب: (فالذين كفروا قطعت لهم ثياب من نار , يصب من

فوق رؤوسهم الحميم , يصهر به ما في بطونهم والجلود , ولهم مقامع من حديد , كلما أرادوا أن يخرجوا منها - من غم - أعيدوا فيها , وذوقوا عذاب الحريق). .

ومثل الذي يشرك بالله: (ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوي به الريح في مكان سحيق). .

وحركة من ييأس من نصر الله:(من كان يظن أن لن ينصره الله في الدنيا والآخرة فليمدد بسبب إلى السماء , ثم ليقطع , فلينظر هل يذهبن كيده ما يغيظ). .

ومشهد القرى المدمرة بظلمها:(فكأين من قرية أهلكناها وهي ظالمة , فهي خاوية على عروشها , وبئر معطلة وقصر مشيد). .

تجتمع هذه المشاهد العنيفة المرهوبة إلى قوة الأوامر والتكاليف , وتبرير الدفع بالقوة , وتأكيد الوعد بالنصر والتمكين . إلى عرض الحديث عن قوة الله وضعف الشركاء المزعومين . .

ففي الأولى:(أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا , وإن الله على نصرهم لقدير , الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا:ربنا الله . ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا . ولينصرن الله من ينصره . إن الله لقوي عزيز . الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة , وآتوا الزكاة , وأمروا بالمعروف , ونهوا عن المنكر . ولله عاقبة الأمور). .

وفي الثانية:(يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له . إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له , وإن يسلبهم الذباب شيئا لا يستنقذوه منه . ضعف الطالب والمطلوب . ما قدروا الله حق قدره إن الله لقوي عزيز). .

ووراء هذا وذلك , الدعوة إلى التقوى والوجل واستجاشة مشاعر الرهبة

والاستسلام .

تبدأ بها السورة وتتناثر في ثناياها:(يا أيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شيء عظيم). .(ذلك ومن يعظم شعائر الله فإنها من تقوى القلوب). . (فإلهكم إله واحد , فله أسلموا وبشر المخبتين . الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم). . (لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم). .

ذلك إلى استعراض مشاهد الكون , ومشاهد القيامة , ومصارع الغابرين . والأمثلة والعبر والصور والتأملات لاستجاشة مشاعر الإيمان والتقوى والإخبات والاستسلام . . وهذا هو الظل الشائع في جو السورة كلها , و الذي يطبعها ويميزها .

ويجري سياق السورة في أربعة أشواط:

يبدأ الشوط الأول بالنداء العام . نداء الناس جميعا إلى تقوى الله , وتخويفهم من زلزلة الساعة , ووصف الهول المصاحب لها , وهو هول عنيف مرهوب . ويعقب في ظل هذا الهول باستنكار الجدل في الله بغير علم , واتباع كل شيطان محتوم على من يتبعه الضلال . ثم يعرض دلائل البعث من أطوار الحياة في جنين الإنسان , وحياة النبات ; مسجلا تلك القربى بين أبناء الحياة , ويربط بين تلك الأطوار المطردة الثابتة وبين أن الله هو الحق وأنه يحيي الموتى وأنه على كل شيء قدير , وأن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من في القبور . . وكلها سنن مطردة وحقائق ثابتة متصلة بناموس الوجود . . ثم يعود إلى استنكار الجدل في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير بعد هذه الدلائل المستقرة في صلب الكون وفي نظام الوجود . وإلى استنكار بناء العقيدة على حساب الربح والخسارة , والانحراف عن الاتجاه إلى الله عند وقوع الضراء , والالتجاء إلى غير حماه ; واليأس من نصرة الله وعقباه . وينتهي هذا الشوط بتقرير أن الهدى والضلال بيد الله , وأنه سيحكم بين أصحاب العقائد المختلفة يوم الحساب . . وهنا يعرض ذلك

المشهد العنيف من مشاهد العذاب للكافرين , وإلى جواره مشهد النعيم للمؤمنين .

ويتصل الشوط الثاني بنهاية الشوط الأول بالحديث عن الذين كفروا ويصدون عن سبيل الله والمسجد الحرام . ويستنكر هذا الصد عن المسجد الحرام الذي جعله الله للناس جميعا . يستوي في ذلك المقيمون به والطارئون عليه . . وبهذه المناسبة يذكر طرفا من قصة بناء البيت , وتكليف إبراهيم - عليه السلام - أن يقيمه على التوحيد , وأن يطهره من رجس الشرك . ويستطرد إلى بعض شعائر الحج وما وراءها من استجاشة مشاعر التقوى في القلوب , وهي الهدف المقصود . وينتهي هذا الشوط بالإذن للمؤمنين بالقتال لحماية الشعائر والعبادات من العدوان الذي يقع على المؤمنين ولا جريرة لهم إلا أن يقولوا:ربنا الله !

والشوط الثالث يتضمن عرض نماذج من تكذيب المكذبين من قبل , ومن مصارع المكذبين ومشاهد القرى المدمرة على الظالمين . وذلك لبيان سنة الله في الدعوات , وتسلية الرسول [ص] عما يلقاه من صد وإعراض , وتطمين المسلمين , بالعاقبة التي لا بد أن تكون . كذلك يتضمن عرض طرف من كيد الشيطان للرسل والنبيين في دعوتهم , وتثبيت الله لدعوته , وإحكامه لآياته , حتى يستيقن بها المؤمنون , ويفتن بها الضعاف والمستكبرون !

أما الشوط الأخير فيتضمن وعد الله بنصرة من يقع عليه البغي وهو يدفع عنه العدوان ويتبع هذا الوعد بعرض دلائل القدرة في صفحات الكون , وإلى جوارها يعرض صورة زرية لضعف الآلهة التي يركن إليها المشركون . . وينتهي الشوط وتنتهي السورة معه بنداء الذين آمنوا ليعبدوا ربهم , ويجاهدوا في الله حق جهاده ,ويعتصموا بالله وحده , وهم ينهضون بتكاليف عقيدتهم العريقة منذ أيام إبراهيم الخليل . .

وهكذا تتساوق موضوعات السورة وتتعاقب في مثل هذا التناسق . .

هذه سورة "المؤمنون" . . اسمها يدل عليها . ويحدد موضوعها . . فهي تبدأ بصفة المؤمنين , ثم يستطرد السياق فيها إلى دلائل الإيمان في الأنفس والآفاق . ثم إلى حقيقة الإيمان كما عرضها رسل الله - صلوات الله عليهم - من لدن نوح - عليه السلام - إلى محمد خاتم الرسل والنبيين ; وشبهات المكذبين حول هذه الحقيقة واعتراضاتهم عليها , ووقوفهم في وجهها , حتى يستنصر الرسل بربهم , فيهلك المكذبين , وينجي المؤمنين . . ثم يستطرد إلى اختلاف الناس - بعد الرسل - في تلك الحقيقة الواحدة التي لا تتعدد . . ومن هنا يتحدث عن موقف المشركين من الرسول [ص] ويستنكر هذا الموقف الذي ليس له مبرر . . وتنتهي السورة بمشهد من مشاهد القيامة يلقون فيه عاقبة التكذيب , ويؤنبون على ذلك الموقف المريب , يختم بتعقيب يقرر التوحيد المطلق والتوجه إلى الله بطلب الرحمة والغفران . .

فهي سورة "المؤمنون" أو هي سورة الإيمان , بكل قضاياه ودلائله وصفاته . وهو موضوع السورة ومحورها الأصيل .

ويمضي سياق السورة في أربعة أشواط:

يبدأ الشوط الأول بتقرير الفلاح للمؤمنين:(قد أفلح المؤمنون). . ويبين صفات المؤمنين هؤلاء الذين كتب لهم الفلاح . . ويثني بدلائل الإيمان في الأنفس والآفاق , فيعرض أطوار الحياة الإنسانية منذ نشأتها الأولى إلى نهايتها في الحياة الدنيا متوسعا في عرض أطوار الجنين , مجملا في عرض المراحل الأخرى . . ثم يتابع خط الحياة البشرية إلى البعث يوم القيامة . . وبعد ذلك ينتقل من الحياة الإنسانية إلى الدلائل الكونية:في خلق السماء , وفي إنزال الماء , وفي إنبات الزرع والثمار . ثم إلى الأنعام المسخرة للإنسان ; والفلك التي يحمل عليها وعلى الحيوان .

فأما الشوط الثاني فينتقل من دلائل الإيمان في الأنفس والآفاق إلى حقيقة الإيمان . حقيقته الواحدة التي توافق عليها الرسل دون استثناء: (يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره). . قالها نوح - عليه السلام - وقالها كل من جاء بعده من الرسل , حتى انتهت إلى محمد [ص] وكان اعتراض المكذبين دائما: (ما هذا إلا بشر مثلكم !). . (ولو شاء الله لأنزل ملائكة). . وكان اعتراضهم كذلك:(أيعدكم أنكم إذا متم وكنتم ترابا وعظاما أنكم مخرجون ؟). . وكانت العاقبة دائما أن يلجأ الرسل إلى ربهم يطلبون نصره , وأن يستجيب الله لرسله , فيهلك المكذبين . . وينتهي الشوط بنداء للرسل جميعا:(يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحا , إني بما تعملون عليم , وإن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون).

والشوط الثالث يتحدث عن تفرق الناس - بعد الرسل - وتنازعهم حول تلك الحقيقة الواحدة . التي جاءوا بها:(فتقطعوا أمرهم بينهم زبرا , كل حزب بما لديهم فرحون). وعن غفلتهم عن ابتلاء الله لهم بالنعمة , واغترارهم بما هم فيه من متاع . بينما المؤمنون مشفقون من خشية ربهم , يعبدونه ولا يشركون به , وهم مع ذلك دائمو الخوف والحذر (وقلوبهم وجلة أنهم إلى ربهم راجعون). . وهنا يرسم مشهدا لأولئك الغافلين المغرورين يوم يأخذهم العذاب فإذا هم يجأرون ; فيأخذهم التوبيخ والتأنيب:(قد كانت آياتي تتلى عليكم فكنتم على أعقابكم تنكصون , مستكبرين به سامرا تهجرون). . ويستنكر السياق موقفهم العجيب من رسولهم الأمين , وهم يعرفونه ولا ينكرونه ; وقد جاءهم بـ الحق لا يسألهم عليه أجرا . فماذا ينكرون منه ومنالحق الذي جاءهم به ؟ وهم يسلمون بملكية الله لمن في السماوات والأرض , وربوبيته للسماوات والأرض , وسيطرته على كل شيء في السماوات والأرض . وبعد هذا التسليم هم ينكرون البعث , ويزعمون لله ولدا سبحانه ! ويشركون به آلهة أخرى (فتعالى عما يشركون).

والشوط الأخير يدعهم وشركهم وزعمهم ; ويتوجه بالخطاب إلى رسول

الله [ص] أن يدفع السيئة بالتي هي أحسن , وأن يستعيذ بالله من الشياطين , فلا يغضب ولا يضيق صدره بما يقولون . . وإلى جوار هذا مشهد من مشاهد القيامة يصور ما ينتظرهم هناك من عذاب ومهانة وتأنيب . . وتختم السورة بتنزيه الله سبحانه:(فتعالى الله الملك الحق لا إله إلا هو رب العرش الكريم). وبنفي الفلاح عن الكافرين في مقابل تقرير الفلاح في أول السورة للمؤمنين:(ومن يدع مع الله إلها آخر لا برهان له به فإنما حسابه عند ربه , إنه لا يفلح الكافرون). وبالتوجه إلى الله طلبا للرحمة والغفران:(وقل:رب اغفر وارحم وأنت خير الراحمين).

جو السورة كلها هو جو البيان والتقرير , وجو الجدل الهادى ء , والمنطق الوجداني , واللمسات الموحية للفكر والضمير . والظل الذي يغلب عليها هو الظل الذي يلقيه موضوعها . . الإيمان . . ففي مطلعها مشهد الخشوع في الصلاة:(الذين هم في صلاتهم خاشعون). وفي صفات المؤمنين في وسطها:(والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة أنهم إلى ربهم راجعون). . وفي اللمسات الوجدانية:(وهو الذي أنشأ لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلا ما تشكرون).

وكلها مظللة بذلك الظل الإيماني اللطيف .

سورة النور

هذه سورة النور . . يذكر فيها النور بلفظه متصلا بذات الله: (الله نور السماوات والأرض)ويذكر فيها النور بآثاره ومظاهره في القلوب والأ رواح ; ممثلة هذه الآثار في الآداب والأخلاق التي يقوم عليها بناء هذه السورة . وهي آداب وأخلاق نفسية وعائلية وجماعية , تنير القلب , وتنير الحياة , ويربطها بذلك النور الكوني الشامل أنها نور في الأرواح , وإشراق في القلوب , وشفافية في الضمائر , مستمدة كلها من ذلك النور الكبير .

وهي تبدأ بإعلان قوي حاسم عن تقرير هذه السورة وفرضها بكل ما فيها من حدود وتكاليف , ومن آدابوأخلاق:(سورة أنزلناها وفرضناها , وأنزلنا فيها آيات بينات لعلكم تذكرون). . فيدل هذا البدء الفريد على مدى اهتمام القرآن بالعنصر الأخلاقي في الحياة ; ومدى عمق هذا العنصر وأصالته في العقيدة الإسلامية , وفي فكرة الإسلام عن الحياة ا لإنسانية . .

والمحور الذي تدور عليه السورة كلها هو محور التربية التي تشتد في وسائلها إلى درجة الحدود . وترق إلى درجة اللمسات الوجدانية الرفيقة , التي تصل القلب بنور الله وبآياته المبثوثة في تضاعيف الكون وثنايا الحياة . والهدف واحد في الشدة واللين . هو تربية الضمائر , واستجاشة المشاعر ; ورفع المقاييس الأخلاقية للحياة , حتى تشف وترف , وتتصل بنور الله . . وتتداخل الآداب النفسية الفردية , وآداب البيت والأسرة , وآداب الجماعة والقيادة . بوصفها نابعة كلها من معين واحد هو العقيدة في الله , متصلة كلها بنور واحد هو نور الله . وهي في صميمها نور وشفافية , وإشراق وطهارة . تربية عناصرها من مصدر النور الأول في السماوات والأرض . نور الله الذي أشرقت به الظلمات . في السماوات والأرض , والقلوب والضمائر , والنفوس والأرواح .

ويجري سياق السورة حول محورها الأصيل في خمسة أشواط:

الأول يتضمن الإعلان الحاسم الذي تبدأ به ; ويليه بيان حد الزنا , وتفظيع هذه الفعلة , وتقطيع ما بين الزناة والجماعة المسلمة , فلا هي منهم ولا هم منها . ثم بيان حد القذف وعلة التشديد فيه ; واستثناء الأ زواج من هذا الحد مع التفريق بين الزوجين بالملاعنة . ثم حديث الإفك وقصته . . وينتهي هذا الشوط بتقرير مشاكلة الخبيثين للخبيثات , ومشاكلة الطيبين للطيبات . وبالعلاقة التي تربط بين هؤلاء وهؤلاء .

ويتناول الشوط الثاني وسائل الوقاية من الجريمة , وتجنيب النفوس أسباب الإغراء والغواية . فيبدأ بآداب البيوت والاستئذان على أهلها , وا

لأمر بغض البصر والنهي عن إبداء الزينة للمحارم . والحض على إنكاح ا لأيامي . والتحذير من دفع الفتيات إلى البغاء . . وكلها أسباب وقائية لضمانة الطهر والتعفف في عالم الضمير والشعور , ودفع المؤثرات التي تهيج الميول الحيوانية , وترهق أعصاب المتحرجين المتطهرين , وهم يقاومون عوامل الإغراء والغواية .

والشوط الثالث يتوسط مجموعة الآداب التي تتضمنها السورة , فيربطها بنور الله . ويتحدث عن أطهر البيوت التي يعمرها وهي التي تعمر بيوت الله . . وفي الجانب المقابل الذين كفروا وأعمالهم كسراب من اللمعان الكاذب ; أو كظلمات بعضها فوق بعض . ثم يكشف عن فيوض من نور الله في الآفاق:في تسبيح الخلائق كلها لله . وفي إزجاء السحاب . وفي تقليب الليل والنهار . وفي خلق كل دابة من ماء , ثم اختلاف أشكالها ووظائفها وأنواعها وأجناسها , مما هو معروض في صفحة الكون للبصائر والأبصار . .

والشوط الرابع يتحدث عن مجافاة المنافقين للأدب الواجب مع رسول الله [ص] في الطاعة والتحاكم . ويصور أدب المؤمنين الخالص وطاعتهم . ويعدهم , على هذا , الاستخلاف في الأرض والتمكين في الدين , والنصر على الكافرين .

ثم يعود الشوط الخامس إلى آداب الاستئذان والضيافة في محيط البيوت بين الأقارب والأصدقاء . وإلى آداب الجماعة المسلمة كلها كأسرة واحدة , مع رئيسها ومربيها - رسول الله [ص] .وتتم السورة بإعلان ملكية الله لما في السماوات والأرض , وعلمه بواقع الناس , وما تنطوي عليه حناياهم , ورجعتهم إليه , وحسابهم على ما يعلمه من أمرهم . وهو بكل شيء عليم .

هذه السورة المكية تبدو كلها وكأنها إيناس لرسول الله [ص] وتسرية , وتطمين له وتقوية وهو يواجه مشركي قريش , وعنادهم له , وتطاولهم عليه , وتعنتهم معه , وجدالهم بالباطل , ووقوفهم في وجه الهدي وصدهم عنه .

فهي في لمحة منها تصور الإيناس اللطيف الذي يحيط به الله عبده ورسوله ; وكأنما يمسح على آلامه ومتاعبه مسحا رفيقا ; ويهدهد قلبه , ويفيض عليه من الثقة والطمأنينة , وينسم عليه من أنسام الرعاية و اللطف والمودة .

وهي في اللمحة الأخرى تصور المعركة العنيفة مع البشرية الضالة الجاحدة المشاقة لله ورسوله , وهي تجادل في عنف , وتشرد في جموح , وتتطاول في قحة , وتتعنت في عناد , وتجنح عن الهدى الواضح الناطق المبين .

إنها البشرية التي تقول عن هذا القرآن العظيم: (إن هذا إلا إفك افتراه وأعانه عليه قوم آخرون). . أو تقول: (أساطير الأولين اكتتبها فهي تملى عليه بكرة وأصيلا)والتي تقول عن محمد رسول الله الكريم: (إن تتبعون إلا رجلا مسحورا). . أو تقول في استهزاء: (أهذا الذي بعث الله رسولا ?). . والتي لا تكتفي بهذا الضلال , فإذا هي تتطاول في فجور على ربها الكبير:(وإذا قيل لهم:اسجدوا للرحمن قالوا:وما الرحمن ? أنسجد لما تأمرنا ? وزادهم نفورا). أو تتعنت فتقول: لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا ? .

وهي هي من قديم كما يرسمها سياق السورة من عهد نوح إلى موقفها هذا الأخير مع رسولها الأخير . . لقد اعترض القوم على بشرية الرسول [ص] فقالوا: (ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق ? لولا

أنزل إليه ملك فيكون معه نذيرا !).

واعترضوا على حظه من المال , فقالوا: (أو يلقى إليه كنز أو تكون له جنة يأكل منها).

واعترضوا على طريقة تنزيل القرآن فقالوا: (لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة !).

وذلك فوق التكذيب والاستهزاء والقحة والافتراء الأثيم .

ووقف الرسول [ص] يواجه هذا كله , وهو وحيد فريد مجرد من الجاه والمال , ملتزم حده مع ربه لا يقترح عليه شيئا , ولا يزيد على أن يتوجه إليه مبتغيا رضاه , ولا يحفل بشيء سواه:" رب إلا يكن بك علي غضب فلا أبالي . لك العتبى حتى ترضى " . .

فهنا في هذه السورة يؤويه ربه إلى كنفه , ويمسح على آلامه ومتاعبه , ويهدهده ويسري عنه , ويهون عليه مشقة ما يلقى من عنت القوم وسوء أدبهم وتطاولهم عليه , بأنهم يتطاولون على خالقهم ورازقهم , وخالق هذا الكون كله ومقدره ومدبره . . فلا عليه أن ينالوه بشيء من ذاك ! (ويعبدون من دون الله مالا ينفعهم ولا يضرهم وكان الكافر على ربه ظهيرا). .(واتخذوا من دونه آلهة لا يخلقون شيئا وهم يخلقون , ولا يملكون لأنفسهم ضرا ولا نفعا ولا يملكون موتا ولا حياة ولا نشورا). . (وإذا قيل لهم:اسجدوا للرحمن قالوا:وما الرحمن ?). .

ويعزيه عن استهزائهم به بتصوير المستوى الهابط الذي يتمرغون فيه:(أرأيت من اتخذ إلهه هواه أفأنت تكون عليه وكيلا ? أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون ? إن هم إلا كالأنعام , بل هم أضل سبيلا !).

ويعده العون والمساعدة في معركة الجدل والمحاجة:(ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيرا). . وفي نهاية المعركة كلها يعرض عليه مصارع المكذبين من قبل:قوم موسى ونوح وعاد وثمود وأصحاب الرس

وما بين ذلك من قرون .

ويعرض عليه نهايتهم التعيسة في سلسلة من مشاهد القيامة:(الذين يحشرون على وجوههم إلى جهنم أولئك شر مكانا وأضل سبيلا). . (بل كذبوا بالساعة وأعتدنا لمن كذب بالساعة سعيرا . إذا رأتهم من مكان بعيد سمعوا لها تغيظا وزفيرا . وإذا ألقوا منها مكانا ضيقا مقرنين دعوا هنالك ثبورا . لا تدعوا اليوم ثبورا واحدا ادعوا ثبورا كثيرا) (ويوم يعض الظالم على يديه يقول:يا ليتني اتخذت مع الرسول سبيلا . يا ويلتا ! ليتني لم أتخذ فلانا خليلا). .

ويسليه بأن مثله مثل الرسل كلهم قبله: (وما أرسلنا قبلك من المرسلين إ لا إنهم ليأكلون الطعام ويمشون في الأسواق). .(وكذلك جعلنا لكل نبي عدوا من المجرمين . وكفى بربك هاديا ونصيرا).

ويكلفه أن يصبر ويصابر , ويجاهد الكافرين بما معه من قرآن , واضح الحجة قوي البرهان عميق الأثر في الوجدان:(فلا تطع الكافرين وجاهدهم به جهادا كبيرا). .

ويغريه على مشاق الجهاد بالتوكل على مولاه (وتوكل علي الحي الذي لا يموت وسبح بحمده , وكفى به بذنوب عباده خبيرا . .

وهكذا تمضي السورة:في لمحة منها إيناس وتسرية وعطف وإيواء من الله لرسوله . وفي لمحة منها مشاقة وعنت من المشركين لرسول الله [ص] وتتبير ونكال من الله الكبير المتعال . حتى تقرب من نهايتها , فإذا ريح رخاء وروح وريحان , وطمأنينة وسلام . . وإذا صورة (عباد الرحمن). . (الذين يمشون على الأرض هونا , وإذا خاطبهم الجاهلون ق الوا سلاما . . .)وكأنما تتمخض عنهم معركة الجهادالشاقة مع البشرية الجاحدة الضالة المعاندة المشاقة ; وكأنما هم الثمرة الحلوة الجنية الممثلة للخير الكامن في شجرة البشرية ذات الأشواك .

وتختم السورة بتصوير هوآن البشرية على الله , لولا تلك القلوب

المؤمنة التي تلتجىء إليه وتدعوه:(قل:ما يعبأ بكم ربي لولا دعاؤكم . فقد كذبتم فسوف يكون لزاما). .

هذه هي ظلال السورة ; وذلك هو محورها الذي تدور عليه , وموضوعها الذي تعالجه . وهي وحدة متصلة , يصعب فصل بعضها عن بعض . ولكن يمكن تقسيمها إلى أربعة أشواط في علاج هذا الموضوع .

يبدأ الشوط الأول منها بتسبيح الله وحمده على تنزيل هذا القرآن على عبده ليكون للعالمين نذيرا . وبتوحيد الله المالك لما في السماوات والأرض , المدبر للكون بحكمة وتقدير , ونفي الولد والشريك . ثم يذكر اتخاذ المشركين مع ذلك آلهة من دونه لا يخلقون شيئا وهم يخلقون . . كل أولئك قبل أن يحكي مقولاتهم المؤذية عن الرسول [ص] من تكذيبه فيما جاءهم به , وادعائهم أنه إفك افتراه , وأنه أساطير الأولين اكتتبها . وقبل أن يحكي اعتراضاتهم على بشرية الرسول وحاجته للطعام والمشي في الأسواق , واقتراحاتهم أن ينزل عليه ملك أو يلقى إليه كنز , أو تكون له جنة يأكل منها . وقحتهم في وصفه [ص] بأنه رجل مسحور . . وكأنما يسبق بمقولاتهم الجاحده لربهم كي يهون على نفس الرسول [ص] مقولاتهم عنه وعن رسالته . . ومن ثم يعلن ضلالهم وتكذيبهم بالساعة , ويتوعدهم بما أعده الله لهم من سعير , يلقون فيها مكانا ضيقا مقرنين . ويعرض في الصفحة المقابلة صورة المؤمنين في الجنة . (لهم فيها ما يشاءون خالدين). . ويستمر في عرض مشهدهم يوم الحشر , ومواجهتهم بما كانوا يعبدون من دون الله , وتكذيب هؤلاء لهم فيما كانوا يدعون على الله من شرك . . وينتهي هذا الشوط بتسلية الرسول [ص] بأن الرسل جميعا كانوا بشرا مثله , يأكلون الطعام ويمشون في الأسواق .

ويبدأ الشوط الثاني بتطاول المكذبين بلقاء الله على الله , وقولهم: (لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا). ويعاجلهم بمشهد اليوم الذي يرون فيه الملائكة . . (وكان يوما على الكافرين عسيرا). .(ويوم يعض الظالم على

يديه يقول:يا ليتني اتخذت مع الرسول سبيلا). . ليكون في ذلك تأسية للرسول [ص] وهم يهجرون القرآن , وهو يشكو لربه هذا الهجران . وهم يعترضون على طريقة تنزيله ويقولون (لو لا نزل عليه القرآن جملة واحدة). ويعقب على هذا الاعتراض بمشهدهم يوم القيامة يحشرون على وجوههم , وهم المكذبون بيوم القيامة , وبتصوير عاقبة المكذبين قبلهم من قوم موسى وقوم نوح , وعاد وثمود وأصحاب الرس والقرون الكثيرة بين ذلك , ويعجب من أمرهم وهم يمرون على قرية لوط المدمرة ولا يعتبرون . فيهون بذلك كله من وقع تطاولهم على الرسول [ص] وقولهم: (أهذا الذي بعث الله رسولا ?)ثم يعقب على هذا الا ستهزاء بتحقيرهم ووضعهم في صف الأنعام بل دون ذلك: (إن هم إلا كا لأنعام بل هم أضل سبيلا).

والشوط الثالث جولة في مشاهد الكون تبدأ بمشهد الظل , وتستطرد إلى تعاقب الليل والنهار , والرياح المبشرة بالماء المحيي , وخلقة البشر من الماء . ومع هذا فهم يعبدون من دون الله ما لاينفعهم ولا يضرهم , ويتظاهرون على ربهم وخالقهم , ويتطاولون في قحة إذا دعوا إلى عبادة الله الحق . . (وإذا قيل لهم:اسجدوا للرحمن قالوا:وما الرحمن ?). . وهو الذي(جعل في السماء بروجا وجعل فيها سراجا وقمرامنيرا . وهو الذي جعل الليل والنهار خلفة لمن أراد أن يذكر أو أراد شكورا). . ولكنهم هم لا يتذكرون ولا يشكرون . .

ثم يجيء الشوط الأخير يصور (عباد الرحمن)الذين يسجدون له ويعبدونه , ويسجل مقوماتهم التي استحقوا بها هذه الصفة الرفيعة . ويفتح باب التوبة لمن يرغب في أن يسلك طريقة عباد الرحمن . ويصور جزاءهم على صبرهم على تكاليف الإيمان والعبادة:(أولئك يجزون الغرفة بما صبروا ويلقون فيها تحية وسلاما).

وتختم السورة بتقرير هوان البشرية على الله لولا هذه القلوب الطائعة المستجيبة العارفة بالله في هذا القطيع الشارد الضال من المكذبين و

الجاحدين . .

وفي هذا الهوان تهوين لما يلقاه منهم رسول الله [ص] فهو يتفق مع ظل السورة وجوها , ويتفق مع موضوعها وأهدافها , على طريقة التناسق الفني في القرآن .

سورة الشعراء

موضوع هذه السورة الرئيسي هو موضوع السور المكية جميعا . . العقيدة . . ملخصة في عناصرها الأساسية:توحيد الله:(فلا تدع مع الله إلها آخر فتكون من المعذبين). . والخوف من الآخرة:(ولا تخزني يوم يبعثون يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم). . و التصديق بالوحي المنزل على محمد رسول الله [ص]: (وإنه لتنزيل رب العالمين ; نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين). . ثم التخويف من عاقبة التكذيب , إما بعذاب الدنيا الذي يدمر المكذبين ; وإما بعذاب الآخرة الذي ينتظر الكافرين:(فقد كذبوا فسيأتيهم أنباء ما كانوا به يستهزؤون !). . (وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون).

ذلك إلى تسلية الرسول [ص] وتعزيته عن تكذيب المشركين له وللقرآن:(لعلك باخع نفسك ألا يكونوا مؤمنين)وإلى طمأنة قلوب المؤمنين وتصبيرهم على ما يلقون من عنت المشركين ; وتثبيتهم على العقيدة مهما أوذوا في سبيلها من الظالمين ; كما ثبت من قبلهم من المؤمنين .

وجسم السورة هو القصص الذي يشغل ثمانين ومائة آية من مجموع آيات السورة كلها . والسورة هي هذا القصص مع مقدمة وتعقيب . و القصص والمقدمة والتعقيب تؤلف وحدة متكاملة متجانسة , تعبر عن

موضوع السورة وتبرزه في أساليب متنوعة , تلتقي عند هدف واحد . . ومن ثم تعرض من كل قصة الحلقة أو الحلقات التي تؤدي هذه الأ غراض .

ويغلب على القصص كما يغلب على السورة كلها جو الإنذار والتكذيب , والعذاب الذي يتبع التكذيب . ذلك أن السورة تواجه تكذيب مشركي قريش لرسول الله [ص] واستهزاءهم بالنذر , وإعراضهم عن آيات الله , واستعجالهم بالعذاب الذي يوعدهم به ; مع التقول على الوحي والقرآن ; والادعاء بأنه سحر أو شعر تتنزل به الشياطين !

والسورة كلها شوط واحد - مقدمتها وقصصها وتعقيبها - في هذا المضمار . لذلك نقسمها إلى فقرات أو جولات بحسب ترتيبها .

مشاهد ولقطات من قصة موسى عليه السلام

هذه الحلقة من قصة موسى - عليه السلام - تجيء في هذه السورة متناسقة مع موضوع السورة , ومع اتجاهها إلى بيان عاقبة المكذبين بـ الرسالة ; وإلى طمأنة الرسول [ص] وتعزيته عما يلقاه مناعراض المشركين وتكذيبهم ; وإلى رعاية الله لدعوته والمؤمنين بها ولو كانوا مجردين من القوة وأعداؤهم أقوياء جبارون في الأرض مسلطون عليهم بالأذى والتنكيل - وهو الموقف الذي كان فيه المسلمون بمكة عند نزول هذه السورة - وقد كان القصص إحدى وسائل التربية القرآنية في القرآن الكريم .

وقد وردت حلقات من قصة موسى - عليه السلام - حتى الآن في سورة البقرة , وسورة المائدة , وسورة الأعراف , وسورة يونس , وسورة الإ سراء , وسورة الكهف , وسورة طه . عدا إشارات إليها في سور أخرى .

وفي كل مرة كانت الحلقات التي تعرض منها أو الإشارات متناسقة مع موضوع السورة , أو السياق الذي تعرض فيه , على نحو ما هي في هذه السورة ; وكانت تشارك في تصوير الموضوع الذي يهدف إليه السياق .

والحلقة المعروضة هنا هي حلقة الرسالة والتكذيب وما كان من غرق فرعون وملئه جزاء على هذا التكذيب , وعقابا على ائتماره بموسى ومن معه من المؤمنين . ونجاة موسى وبني إسرائيل من كيد الظالمين . وفي هذا تصديق قول الله سبحانه في هذه السورة عن المشركين: (وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون). . وقوله:(فقد كذبوا فسيأتيهم أنباء ما كانوا به يستهزؤون). .

وهذه الحلقة مقسمة إلى مشاهد استعراضية , بينها فجوات بمقدار ما يسدل الستار على المشهد , ثم يرفع عن المشهد الذي يليه . وهي ظاهرة فنية ملحوظة في طريقة العرض القرآنية للقصة .

وهنا سبعة مشاهد:أولها مشهد النداء والبعثة والوحي والمناجاة بين موسى - عليه السلام - وربه . وثانيها مشهد مواجهة موسى لفرعون وملئه برسالته وآيتي العصا واليد البيضاء . وثالثها مشهد التآمر وجمع السحرة وحشد الناس للمباراة الكبرى . ورابعها مشهد السحرة بحضرة فرعون يطمئنون على الأجر والجزاء ! وخامسها مشهد المباراة ذاته وإيمان السحرة وتهديد فرعون ووعيده . وسادسها مشهد ذو شقين:الشق الأول مشهد إيحاء الله لموسى أن يسري بعباده ليلا , و الثاني مشهد إرسال فرعون في المدائن حاشرين يجمعون الجنود لملا حقة بني إسرائيل . وسابعها مشهد المواجهة أمام البحر ونهايته من انفلا ق البحر وغرق الظالمين ونجاة المؤمنين .

وقد عرضت هذه المشاهد في سورة الأعراف , وفي سورة يونس , وفي سورة طه . ولكنها عرضت في كل موضع من الجانب الذي يناسب ذلك الموضع , وبالطريقة التي تتفق مع اتجاهه , وكان التركيز فيها على نقط معينة هنا وهناك .

ففي الأعراف مثلا بدأ بمشهد المواجهة بين موسى وفرعون مختصرا , ومر بمشهد السحرة ونهايته سريعا , بينما وسع في عرض مؤامرات فرعون وملئه بعد ذلك , وعرض آيات موسى مدة إقامته في مصر بعد

المباراة قبل مشهد الغرق والنجاة . واستطرد بعد ذلك مع بني إسرائيل بعد مجاوزتهم البحر في حلقات كثيرة . . واختصر هذا هنا فلم يشر إليه . بينما وسع في مشهد الجدال بين موسى وفرعون حول وحدانية الله سبحانه ووحيه إلى رسوله ; وهو موضوع الجدل في هذه السورة بين المشركين والنبي [ص] .

وفي يونس بدأ بمشهد المواجهة مختصرا لم يعرض فيه آيتي العصا و اليد , واختصر كذلك في مشهد المباراة . بينما توسع هنا في كليهما .

وفي سورة طه توسع في مشهد المناجاة الأول بين موسى وربه . واستطرد بعد مشهدي المواجهة والمباراة

وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَى أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (10) قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلَا يَتَّقُونَ (11) قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ (12) وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَى هَارُونَ (13)
فصاحب بني إسرائيل في رحلتهم طويلا . ولم يجاوز هنا مشهد الغرق و النجاة .

وكذلك لا نجد تكرارا في عرض القصة أبدا على كثرة ما عرضت في سور القرآن . لأن هذا التنويع في اختيار الحلقات التي تعرض , ومشاهد كل حلقة , والجانب الذي يختار من كل مشهد , وطريقة عرضه . . كل أولئك يجعلها جديدة في كل موضع . متناسقة مع هذا الموضع .

لقطات من قصة إبراهيم عليه السلام

مضت قصة موسى - عليه السلام - مع فرعون وملئه ; وانتهت بتلك النهاية , وفيها البشرى للمؤمنين المستضعفين المضطهدين - كما كانت القلة المؤمنة يومذاك في مكة - وفيها الدمار للظالمين المتجبرين الذين يشبه موقفهم موقف المشركين .

فالآن تتبعها قصة إبراهيم - عليه السلام - وقومه . ويؤمر الرسول [ص] أن يتلوها على المشركين . ذلك أنهم يزعمون أنهم ورثة إبراهيم , وأنهم على دينه القديم ; وهم يشركون بالله , ويقيمون الأصنام لعبادتها في بيته الحرام , الذي بناه إبراهيم خالصا لله . . فاتل عليهم نبأ إبراهيم ليتبينوا منه حقيقة ما يزعمون .

والقصص في هذه السورة لا يتبع الخط التاريخي , لأن العبرة وحدها هي المقصودة . فأما في سورة الأعراف مثلا فقد كان الخط التاريخي مقصودا , لعرض خط وراثة الأرض , وتتابع الرسل من عهد آدم - عليه السلام - فمضى القصص فيها يتبع خط التاريخ , منذ الهبوط من الجنة , وبدء الحياة البشرية .

والحلقة التي تعرض هنا من قصة إبراهيم - عليه السلام - هي حلقة الرسالة إلى قومه , وحواره معهم حول العقيدة , وإنكار الآلهة المدعاة , والاتجاه بالعبادة إلى الله . والتذكير باليوم الآخر . يعقب هذا مشهد كامل من مشاهد القيامة , يتنكر فيه العباد للآلهة , ويندمون على الشرك الذي انتهى بهم إلى ما هم فيه . كأنهم قد صاروا فعلا إلى ما هم فيه ! وهنا عبرة القصة للمشركين . . ومن ثم يتوسع في الحديث عن مقومات عقيدةالتوحيد , وفساد عقيدة الشرك ; ومصير المشركين في يوم الدين . لأن التركيز متجه إليها . ويختصر ما عدا ذلك مما يفصله في سور أخرى .

وقد وردت حلقات من قصة إبراهيم - عليه السلام فى البقرة , والأنعام , وهود , وإبراهيم , والحجر , ومريم , والأنبياء , والحج . وكانت في كل سورة مناسبة لسياقها العام . وعرض منها ما يتفق مع موضوع السورة وجوها وظلها .

عرضت في سورة البقرة حلقة بنائه للبيت هو وإسماعيل , ودعائه أن يجعل الله البلد الحرام آمنا , وإعلانه أن وراثة البيت ووراثة بانيه إنما هي للمسلمين , الذين يتبعون ملته , لا لمن يدعون بالنسب وراثته . وكان

هذا بصدد مخالفات بني إسرائيل , وطردهم ولعنهم , وتوريث دين إبراهيم وبيته للمسلمين . .

وعرضت كذلك حلقة محاجته للملك الكافر فى صفة الله الذي يحيي ويميت , والذي يأتي بالشمس من المشرق , وتحديه للملك أن يأتي بها من المغرب . فبهت الذي كفر .

كما عرضت حلقة طلبه من ربه أن يريه كيف يحيي الموتي , وأمره بذبح أربعة من الطير , وتوزيع أشلائهن على الجبال , ثم إحياؤها بين يديه , فجاءت تسعى إليه .

وهذا وذلك في معرض الحديث في السورة , عن آيات الله وقدرته على الإماتة والإحياء .

وعرضت في الأنعام حلقة بحثه عن ربه , واهتدائه إليه , بعد تأمل في النجوم والقمر والشمس , وتتبع مشاهد الكون . وكان ذلك في السورة التي تدور حول العقيدة , وآيات الله في الكون , ودلالتها على الصانع المبدع الذي لا شريك له .

وعرضت في سورة هود حلقة تبشيره بإسحاق , وكان ذلك فى سياق قصة لوط , ومرور الملائكة المكلفين تدمير قريته في طريقهم بإبراهيم . وفيها تبدو رعاية الله للمختارين من عباده وتدمير الفاسقين .

وعرضت في سورة إبراهيم حلقة دعائه بجوار البيت المحرم لمن أسكنه من ذريته بواد غير زرع ; وحمده على أن وهب له على الكبر إسماعيل وإسحاق ; وطلبه إلى ربه أن يجعله مقيم الصلاة هو وذريته , وأن يقبل دعاءه , ويغفر له ولوالديه وللمؤمنين يوم يقوم الحساب . . وكان سياق السورة كله هو عرض أمة الرسل ; برسالة واحدة , هي التوحيد ; وعرض المكذبين بأمة الرسل صفا واحدا كذلك ; وكأنما الرسالة شجرة ظليلة في هجير الكفر وصحراء الجحود !

وعرضت في سورة الحجر الحلقة التي عرضت في سورة هود مع شيء من التفصيل , في صدد ذكر رحمة الله بعباده المؤمنين , وعذابه للعصاة المذنبين .

وعرضت في سورة مريم حلقة دعوته في رفق لأبيه , وغلظة أبيه عليه , واعتزاله لأبيه وقومه , وهبة إسماعيل وإسحاق له . وذلك في السورة التي تعرض رعاية الله للمصطفين من عباده . وجوها كله تظلله الرحمة والود واللين .

وعرضت في سورة الأنبياء حلقة دعوته لأبيه وقومه , وزرايته على أصنامهم . وتحطيم هذه الأصنام , وإلقائه في النار التي كانت بردا وسلا ما عليه بأمر الله , ونجاته هو وابن أخيه لوط إلى الأرض التي باركنا فيها للعالمين . وذلك في صدد استعراض أمة الرسل , ورعاية الله لهذه ا لأمة واتجاهها إلى عبادة الله الواحد الذي ليس له شريك .

ووردت في سورة الحج إشارة إلى أمر بتطهير البيت للطائفين و العاكفين . .

لقطات من قصة نوح عليه السلام

كما رجع السياق القهقرى في التاريخ من قصة موسى إلى قصة إبراهيم , كذلك يرجع القهقرى من قصة إبراهيم إلى قصة نوح . إن الخط التاريخي ليس هو المقصود هنا , بل المقصود هو العبرة من نهاية الشرك والتكذيب

وقصة نوح , كقصة موسى وقصة إبراهيم , تعرض في سور شتى من القرآن . وقد عرضت من قبل في سورة "الأعراف" في الخط التاريخي للرسل والرسالات بعد هبوط آدم من الجنة عرضا مختصرا , يتلخص في دعوته قومه إلى التوحيد , وإنذارهم عذاب يوم عظيم , واتهام قومه له بالضلال , وعجبهم من أن يبعث الله إليهم رجلا منهم , وتكذيبهم له . ومن ثم إغراقهم ونجاته هو ومن معه بدون تفصيل .

وعرضت في سورة يونس باختصار كذلك في نهاية رسالته , إذ تحدى قومه فكذبوه . . ثم كانت نجاته ومن معه في الفلك , وإغراق الآخرين .

وعرضت في سورة "هود" بتفصيل في قصة الطوفان والفلك وما بعد الطوفان كذلك من دعائه لربه في أمر ابنه الذي أغرق مع المغرقين . وما كان بينه وبين قومه قبل ذلك من جدال حول عقيدة التوحيد .

وعرضت في سورة "المؤمنون" فذكر منها دعوته لقومه إلى عبادة الله الواحد , واعتراضهم عليه بأنه بشر منهم يريد أن يتفضل عليهم ; ولو شاء الله لأنزل ملائكة , واتهامه بالجنون . ثم توجهه إلى ربه يطلب نصرته . وإشارة سريعة إلى الفلك والطوفان .

وهي تعرض في الغالب في سلسلة مع قصص عاد وثمود وقوم لوط وأهل مدين - وكذلك في هذه السورة - وأظهر ما في الحلقة المعروضة هنا دعوته لقومه إلى تقوى الله , وإعلانه أنه لا يطلب منهم أجرا على الهدى , وإباؤه أن يطرد المؤمنين الفقراء الذين يستنكف منهم الكبراء - وهذا ما كان يواجهه رسول الله [ص] في مكة سواء بسواء - ثم دعاؤه لربه أن يفتح بينه وبين قومه . واستجابة الله له بإغراق المكذبين وتنجية المؤمنين .

(كذبت قوم نوح المرسلين). .

تلك هي النهاية . نهاية القصة . يبدأ بها لإبرازها منذ البداية .

قصة عاد مع هود عليه السلام

وقوم هود كانوا يسكنون الأحقاف , وهي جبال رملية قرب حضرموت من ناحية اليمن . وقد جاءوا بعد قوم نوح , وكانوا ممن زاغت قلوبهم بعد فترة من الطوفان الذي طهر وجه الأرض من العصاة .

وقد وردت هذه القصة في الأعراف مفصلة وفي هود كما وردت في سورة "المؤمنون" بدون ذكر اسم هود وعاد . وهي تعرض هنا مختصرة

بين طرفيها:طرف دعوة هود لقومه , وطرف العاقبة التي انتهى إليها المكذبون منهم . وتبدأ كما بدأت قصة قوم نوح:

قصة ثمود مع صالح عليه السلام

إنها ذات الدعوة بألفاظها يدعوها كل رسول . ويوحد القرآن عن قصد حكاية العبارة التي يلقيها كل رسول على قومه للدلالة على وحدة الرسالة جوهرا ومنهجا , في أصلها الواحد الذي تقوم عليه , وهو الإيمان بالله وتقواه , وطاعة الرسول الآتي من عند الله .

ثم يزيد ما هو من شأن ثمود خاصة , وما تقتضيه طبيعة الموقف وطبيعة الظروف . إذ يذكرهم أخوهم صالح بما هم فيه من نعمة - [وقد كانوا يسكنون بالحجر بين الشام والحجاز , وقد مر النبي [ص] بدورهم المدمرة مع صحابته في غزوة تبوك] - ويخوفهم سلب هذه النعمة , كما يخوفهم ما بعد المتاع من حساب على ما كان من تصرفهم فيه:

أتتركون فيما ها هنا آمنين . في جنات وعيون . وزروع ونخل طلعها هضيم . وتنحتون من الجبال بيوتا فارهين ? .

وإنهم ليعيشون بين هذا المتاع الذي يصوره لهم أخوهم صالح . ولكنهم يعيشون في غفلة عنه لا يفكرون فيمن وهبهم إياه ; ولا يتدبرون منشأه ومأتاه , ولا يشكرون المنعم الذي أعطاهم هذ النعيم . فيأخذ رسولهم في تصوير هذا المتاع لهم ليتدبروه ويعرفوا قيمته , ويخافوا زواله .

وفيما قاله لهم لمسات توقظ القلوب الغافية , وتنبه فيها الحرص و الخوف:(أتتركون في ما هاهنا آمنين ?)أتظنون أنكم متروكون لهذا الذي أنتم فيه من دعة ورخاء ومتعة ونعمة . . وسائر ما يتضمنه هذا الإجمال من تفخيم وتضخيم . . أتتركون في هذا كله آمنين لا يروعكم فوت , و لا يزعجكم سلب , ولا يفزعكم تغيير ?

أتتركون في هذا كله من جنات وعيون , وزروع متنوعات , ونخل جيدة

الطلع , سهلة الهضم حتى كأن جناها مهضوم لا يحتاج إلى جهد في البطون ! وتتركون في البيوت تنحتونها في الصخور بمهارة وبراعة , وفي أناقة وفراهة ?

قصة لوط عليه السلام مع قومه

تجيء قصة لوط هنا . ومكانها التاريخي كان مع قصة إبراهيم . ولكن السياق التاريخي ليس ملحوظا في هذه السورة - كما أسلفنا - إنما الملحوظ وحدة الرسالة والمنهج , وعاقبة التكذيب:من نجاة للمؤمنين وهلاك للمكذبين .

ويبدأ لوط مع قومه بما بدأ به نوح وهود وصالح . يستنكر استهتارهم ; ويستجيش في قلوبهم وجدان التقوى , ويدعوهم إلى الإيمان والطاعة , ويطمئنهم إلى أنه لن يفجعهم في شيء من أموالهم مقابل الهدى . ثم يواجههم باستنكار خطيئتهم الشاذة التي عرفوا بها في التاريخ:

أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ (181) وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ (182) وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (183) وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِبِلَّةَ الْأَوَّلِينَ (184) قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ (185) وَمَا أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ (186) فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفاً مِّنَ السَّمَاءِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (187) قَالَ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ (188) فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (189) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ (190) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (191)

وهذه قصة شعيب - ومكانها التاريخي قبل قصة موسى - تجيء هنا في مساق العبرة كبقية القصص في هذه السورة . وأصحاب الأيكة هم - غ البا - أهل مدين . والأيكة الشجر الكثيف الملتف . ويبدو أن مدين كانت

تجاورها هذه الغيضة الوريفة من الأشجار . وموقع مدين بين الحجاز وفلسطين حول خليج العقبة .

وقد بدأهم شعيب بما بدأ به كل رسول قومه من أصل العقيدة والتعفف عن الأجر , ثم أخذ يواجههم بما هو من خاصة شأنهم:

(أوفوا الكيل ولا تكونوا من المخسرين , وزنوا بالقسطاس المستقيم , و لا تبخسوا الناس أشياءهم , ولا تعثوا في الأرض مفسدين).

وقد كان شأنهم - كما ذكر في سورتي الأعراف وهود - أن يطففوا في الميزان والمكيال , وأن يأخذوا بالقسر والغصب زائدا عن حقهم , ويعطوا أقل من حق الناس , ويشتروا بثمن بخس ويبيعوا بثمن مرتفع . ويبدو أنهم كانوا في ممر قوافل التجارة , فكانوا يتحكمون فيها . وقد أمرهم رسولهم بالعدل والقسط في هذا كله , لأن العقيدة الصحيحة يتبعها حسن المعاملة . ولا تستطيع أن تغضي عن الحق والعدل في معاملات الناس .

ثم استجاش شعيب مشاعر التقوى في نفوسهم , وهو يذكرهم بخالقهم الواحد . خالق الأجيال كلها والسابقين جميعا:

الوحدة الأخيرة :نقض شبهات الكفار حول القرآن وإثبات مصدره الرباني

انتهى القصص وكله يعرض قصة الرسل والرسالات . وقصة التكذيب وا لإعراض . وقصة التحدي والعقاب .

وقد بدأ هذا القصص بعد مقدمة السورة . والحديث فيها خاص برسول الله [ص] ومشركي قريش: لعلك باخع نفسك ألا يكونوا مؤمنين . إن نشأ ننزل عليهم من السماء آية فظلت أعناقهم لها خاضعين . وما يأتيهم من ذكر من الرحمن محدث إلا كانوا عنه معرضين . فقد كذبوا فسيأتيهم أنباء ما كانوا به يستهزؤون . . ثم سيق القصص , وكله نماذج للقوم يأتيهم أنباء ما كانوا به يستهزئون !

فلما انتهى القصص عاد السياق إلى موضوع السورة الذي تضمنته المقدمة ; فجاء هذا التعقيب الأخير , يتحدث عن القرآن , فيؤكد أنه تنزيل رب العالمين - ومنه هذا القصص الذي مضت به القرون , فإذا القرآن ينزل به من رب العالمين - ويشير إلى أن علماء بني إسرائيل يعرفون خبر هذا الرسول وما معه من القرآن , لأنه مذكور في كتب الأ ولين . إنما المشركون يعاندون الدلائل الظاهرة ; ويزعمون أنه سحر أو شعر , ولو أن أعجميا لا يتكلم العربية نزل عليه هذا القرآن فتلاه عليهم بلغتهم ما كانوا به مؤمنين . لأن العناد هو الذي يقعد بهم عن الإيمان لا ضعف الدليل ! وما تنزلت الشياطين بهذا القرآن على محمد [ص] كما تتنزل بالأخبار على الكهان . وما هو كذلك بشعر , فإن له منهجا ثابتا و الشعراء يهيمون في كل واد وفق الانفعالات والأهواء . إنما هو القرآن المنزل من عند الله تذكيرا للمشركين , قبل أن يأخذهم الله بالعذاب , وقبل أن يأتيهم أنباء ما كانوا به يستهزئون (وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون). .

سورة النمل

الوحدة الأولى مقدمة سورة النمل :1 - 6 الموضوع:إثبات مصدر القرآن وأهم صفات المؤمنين

هذه السورة مكية نزلت بعد الشعراء ; وهي تمضي على نسقها في الأ داء:مقدمة وتعقيب يتمثل فيهما موضوع السورة الذي تعالجه ; وقصص بين المقدمة والتعقيب يعين على تصوير هذا الموضوع , ويؤكده , ويبرز فيه مواقف معينة للموازنة بين موقف المشركين في مكة ومواقف الغابرين قبلهم من شتى الأمم , للعبرة والتدبر في سنن الله وسنن الدعوات .

وموضوع السورة الرئيسي - كسائر السور المكية - هو العقيدة:الإيمان ب الله , وعبادته وحده , والإيمان بالآخرة , وما فيها من ثواب وعقاب . والإ يمان بالوحي وأن الغيب كله لله , لا يعلمه سواه . والإيمان بأن الله هو الخالق الرازق واهب النعم ; وتوجيه القلب إلى شكر أنعم الله على البشر . والإيمان بأن الحول والقوة كلها لله , وأن لا حول ولا قوة إلا ب الله .

ويأتي القصص لتثبيت هذه المعاني ; وتصوير عاقبة المكذبين بها , وعاقبة المؤمنين .

تأتي حلقة من قصة موسى - عليه السلام - تلي مقدمة السورة . حلقة رؤيته النار وذهابه إليها , وندائه من الملأ الأعلى , وتكليفه الرسالة إلى فرعون وملئه . ثم يعجل السياق بخبر تكذيبهم بآيات الله وهم على يقين من صدقها وعاقبة التكذيب مع اليقين . .(وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا فانظر كيف كان عاقبة المفسدين). وكذلك شأن المشركين في مكة كان مع آيات القرآن المبين .

وتليها إشارة إلى نعمة الله على دواد وسليمان - عليهما السلام - ثم قصة سليمان مع النملة , ومع الهدهد ,ومع ملكة سبأ وقومها . وفيها تظهر نعمة الله على داود وسليمان وقيامهما بشكر هذه النعمة . وهي نعمة العلم والملك والنبوة مع تسخير الجن والطير لسليمان . وفيها تظهر كذلك أصول العقيدة التي يدعو إليها كل رسول . ويبرز بصفة خاصة استقبال ملكة سبأ وقومها لكتاب سليمان - وهو عبد من عباد الله - واستقبال قريش لكتاب الله . هؤلاء يكذبون ويجحدون . وأولئك يؤمنون ويسلمون . والله هو الذي وهب سليمان ما وهب , وسخر له ما سخر . وهو الذي يملك كل شيء , وهو الذي يعلم كل شيء . وما ملك سليمان وما علمه إلا قطرة من ذلك الفيض الذي لا يغيض .

وتليها قصة صالح مع قومه ثمود . ويبرز فيها تآمر المفسدين منهم عليه وعلى أهله , وتبييتهم قتله ; ثم مكر الله بالقوم , ونجاة صالح و

المؤمنين معه , وتدمير ثمود مع المتآمرين:(فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا). . وقد كانت قريش تتآمر على رسول الله [ص] وتبيت له , كما بيتت ثمود لصالح وللمؤمنين .

ويختم القصص بقصة لوط مع قومه . وهمهم بإخراجه من قريتهم هو و المؤمنون معه , بحجة أنهم أناس يتطهرون ! وما كان من عاقبتهم بعد إذ هاجر لوط من بينهم , وتركهم للدمار:(وأمطرنا عليهم مطرا فساء مطر المنذرين). . ولقد همت قريش بإخراج الرسول [ص] وتآمرت في ذلك قبل هجرته من بين ظهرانيهم بقليل .

فإذا انتهى القصص بدأ التعقيب بقوله:(قل:الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى . آلله خير أما يشركون ?). . ثم أخذ يطوف معهم في مشاهد الكون , وفي أغوار النفس . يريهم يد الصانع المدبر الخالق الرازق , الذي يعلم الغيب وحده , وهم إليه راجعون . ثم عرض عليهم أحد أشراط الساعة وبعض مشاهد القيامة , وما ينتظر المكذبين بالساعة في ذلك اليوم العظيم .

ويختم السورة بإيقاع يناسب موضوعها وجوها:(إنما أمرت أن أعبد رب هذه البلدة الذي حرمها وله كل شيء , وأمرت أن أكون من المسلمين . وأن أتلو القرآن فمن اهتدى فإنما يهتدي لنفسه ومن ضل فقل:إنما أنا من المنذرين . وقل:الحمد لله . سيريكم آياته فتعرفونها , وما ربك بغافل عما تعملون). .

والتركيز في هذه السورة على العلم . علم الله المطلق بالظاهر والباطن , وعلمه بالغيب خاصة . وآياته الكونية التي يكشفها للناس . والعلم الذي وهبه لداود وسليمان . وتعليم سليمان منطق الطير وتنويهه بهذا التعليم . . ومن ثم يجيء في مقدمة السورة:(وإنك لتلقى القرآن من لدن حكيم عليم). ويجيء في التعقيب (قل:لا يعلم من في السماوات وا لأرض الغيب إلا الله وما يشعرون أيان يبعثون . بل ادارك علمهم في الآ خرة). .(وإن ربك ليعلم ما تكن صدورهم وما يعلنون . وما من غائبة في

السماء والأرض إلا في كتاب مبين)ويجيء في الختام: (سيريكم آياته فتعرفونها). . ويجيء في قصة سليمان:(ولقد آتينا داود وسليمان علما وقالا:الحمد لله الذي فضلنا على كثير من عباده المؤمنين). . وفي قول سليمان: (يا أيها الناس علمنا منطق الطير). . وفي قول الهدهد:(ألا يسجدوا لله الذي يخرج الخبء في السماوات والأرض ويعلم ما تخفون وما تعلنون). وعندما يريد سليمان استحضار عرش الملكة , لا يقدر على إحضاره في غمضة عين عفريت من الجن , إنما يقدر على هذه: (الذي عنده علم من الكتاب).

وهكذا تبرز صفة العلم في جو السورة تظللها بشتى الظلال في سياقها كله من المطلع إلى الختام . ويمضي سياق السورة كله في هذا الظل , حسب تتابعه الذي أسلفنا . فنأخذ في استعراضها تفصيلا .

الوحدة الثانية:7 - 44 الموضوع:لقطات من قصة موسى

تعرض هذه الحلقة السريعة من قصة موسى - عليه السلام - بعد قوله تعالى في هذه السورة:(وإنك لتلقى القرآن من لدن حكيم عليم). . وكأنما ليقول لرسول الله [ص] إنك لست بدعا في هذا التلقي . فها هو ذا موسى يتلقى التكليف , وينادى ليحمل الرسالة إلى فرعون وقومه . وليس ما تلقاه من قومك بدعا في التكذيب . فها هم أولاء قوم موسى تستيقن نفوسهم بآيات الله , ولكنهم يجحدون بها ظلما وعلوا . (فانظر كيف كان عاقبة المفسدين)ولينتظر قومك عاقبة الجاحدين المكابرين !

(إذ قال موسى لأهله:إني آنست نارا . سآتيكم منها بخبر أو آتيكم بشهاب قبس لعلكم تصطلون).

وقد ذكر هذ الموقف في سورة طه . وهو في طريق عودته من أرض مدين إلى مصر , ومعه زوجه بنت شعيب عليه السلام . وقد ضل طريقه في ليلة مظلمة باردة . يدل على هذا قوله لأهله:(سآتيكم منها بخبر أو آتيكم بشهاب قبس لعلكم تصطلون). وكان ذلك إلى جانب الطور .

وكانت النيران توقد في البرية فوق المرتفعات لهداية السالكين بالليل ; فإذا جاءوها وجدوا القرى والدفء , أو وجدوا الدليل على الطريق .

فَلَمَّا جَاءهَا نُودِيَ أَن بُورِكَ مَن فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (8) يَا مُوسَى إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (9) وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِراً وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَى لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ (10) إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْناً بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ (11)

(إني آنست نارا)فقد رآها على بعد , فشعر لها بالطمأنينة والأنس . وتوقع أن يجد عندها خبر الطريق , أو أن يقبس منها ما يستدفى ء به أهله في قر الليل في الصحراء .

ومضى موسى - عليه السلام - إلى النار التي آنسها , ينشد خبرا , فإذا هو يتلقى النداء الأسمى:

(فلما جاءها نودي أن بورك من في النار ومن حولها . وسبحان الله رب العالمين . يا موسى إنه أنا الله العزيز الحكيم). .

إنه النداء الذي يتجاوب به الكون كله , وتتصل به العوالم والأفلاك ; ويخشع له الوجود كله وترتعش له الضمائر والأرواح . النداء الذي تتصل فيه السماء بالأرض , وتتلقى الذرة الصغيرة دعوة خالقها الكبير , ويرتفع فيه الإنسان الفاني الضعيف إلى مقام المناجاة بفضل من الله .

(فلما جاءها نودي). . بهذا البناء للمجهول - وهو معلوم - ولكنه التوقير و الإجلال والتعظيم للمنادي العظيم .

(نودي أن بورك من في النار ومن حولها). .

فمن ذا كان في النار ? ومن ذا كان حولها ? إنها على الأرجح لم تكن نارا

من هذه النار التي نوقدها . إنما كانت نارا مصدرها الملأ الأعلى . نارا أوقدتها الأرواح الطاهرة من ملائكة الله للهداية الكبرى . وتراءت كالنار وهذه الأرواح الطاهرة فيها . ومن ثم كان النداء: (أن بورك من في النار)إيذانا بفيض من البركة العلوية على من في النار من الملائكة ومن حولها . . وفيمن حولها موسى . . وسجل الوجود كله هذه المنحة العليا . ومضت هذه البقعة في سجل الوجود مباركة مقدسة بتجلي ذي الجلال عليها , وإذنه لها بالبركة الكبرى .

وسجل الوجود كله بقية النداء والنجاء: (وسبحان الله رب العالمين . يا موسى إنه أنا الله العزيز الحكيم). .

نزه الله ذاته وأعلن ربوبيته للعالمين , وكشف لعبده أن الذي يناديه هو الله العزيز الحكيم . وارتفعت البشرية كلها في شخص موسى - عليه السلام - إلى ذلك الأفق الوضيء الكريم . ووجد موسى الخبر عند النار التي آنسها , ولكنه كان الخبر الهائل العظيم ; ووجد القبس الدافىء , ولكنه كان القبس الذي يهدي إلى الصراط المستقيم .

وكان النداء للاصطفاء ; ووراء الاصطفاء التكليف بحمل الرسالة إلى أكبر الطغاة في الأرض فى ذلك الحين . ومن ثم جعل ربه يعده ويجهزه ويقويه:

(وألق عصاك). . باختصار هنا , حيث لا يذكر ذلك النجاء الطويل الذي في سورة طه . لأن العبرة المطلوبة هي عبرة النداء والتكليف .

(فلما رآها تهتز كأنها جان ولى مدبرا ولم يعقب). .

فقد ألقى عصاه كما أمر ; فإذا هي تدب وتسعى , وتتحرك حركة سريعة كحركة ذلك النوع الصغير السريع من الحيات " الجان " . وأدركت موسى - عليه السلام - طبيعته الانفعالية , وأخذته هزة المفاجأة التي لم تخطر له ببال , وجرى بعيدا عن الحية دون أن يفكر في الرجوع ! وهي حركة تبدو فيها دهشة المفاجأة العنيفة في مثل تلك الطبيعة الشديدة ا

لانفعال .

ثم نودي موسى بالنداء العلوي المطمئن ; وأعلن له عن طبيعة التكليف الذي سيلقاه:

يا موسى لاتخف إني لا يخاف لدي المرسلون . .

لا تخف . فأنت مكلف بالرسالة . والرسل لا يخافون في حضرة ربهم وهم يتلقون التكليف .

وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاء مِنْ غَيْرِ سُوءٍ فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْماً فَاسِقِينَ (12) فَلَمَّا جَاءتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ (13) وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْماً وَعُلُوّاً فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ (14)

(إلا من ظلم ثم بدل حسنا بعد سوء . فإني غفور رحيم). .

إنما يخاف الذين ظلموا . ذلك إلا أن يبدلوا حسنا بعد سوء , ويدعوا الظلم إلى العدل ; ويدعوا الشرك إلى الإيمان , ويدعوا الشر إلى الخير . فإن رحمتي واسعة وغفراني عظيم .

والآن وقد اطمأن موسى وقر , يجهزه ربه بالمعجزة الثانية , قبل أن يكشف له عن جهة الرسالة ووجهة التكليف:

(وأدخل يدك في جيبك تخرج بيضاء من غير سوء). .

وكان هذا . وأدخل موسى يده في فتحة ثوبه - وهي جيبه - فخرجت بيضاء مشرقة لا عن مرض , ولكن عن معجزة . ووعده ربه أن يؤيده بتسع آيات من هذا النوع الذي شاهد منه اثنتين ; وكشف له حينئذ عن وجهته التي من أجلها دعاه وجهزه ورعاه !

(في تسع آيات إلى فرعون وقومه . إنهم كانوا قوما فاسقين). .

ولم يعدد هنا بقية هذه الآيات التسع , التي كشف عنها في سورة الأ عراف . وهي سنون الجدب , ونقص الثمرات , الطوفان , والجراد , و القمل , والضفادع , والدم . لأن التركيز هنا على قوة الآيات لا على ماهيتها . وعلى وضوحها وجحود القوم لها:

(فلما جاءتهم آياتنا مبصرة قالوا:هذا سحر مبين . وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا . فانظر كيف كان عاقبة المفسدين). .

هذه الآيات الكثيرة العدد , الكاشفة عن الحق , حتى ليبصره كل من له عينان . ويصف هذه الآيات نفسها بأنها مبصرة , فهي تبصر الناس وتقودهم إلى الهدى . ومع هذ فقد قالوا عنها:إنها سحر مبين ! قالوا ذلك لا عن اقتناع به , ولا عن شبهة فيه . إنما قالوه (ظلما وعلوا)وقد استيقنت نفوسهم أنها الحق الذي لا شبهة فيه: (واستيقنتها أنفسهم). ق الوا جحودا ومكابرة , لأنهم لا يريدون الإيمان , ولا يطلبون البرهان . استعلاء على الحق وظلما له ولأنفسهم بهذا الاستعلاء الذميم .

وكذلك كان كبراء قريش يستقبلون القرآن , ويستيقنون أنه الحق , ولكنهم يجحدونه , ويجحدون دعوة النبي [ص] إياهم إلى الله الواحد . ذلك أنهم كانوا يريدون الإبقاء على ديانتهم وعقائدهم , لما وراءها من أوضاع تسندهم , ومغانم تتوافد عليهم . وهي تقوم على تلك العقائد الباطلة , التي يحسون خطر الدعوة الإسلاميه عليها , ويحسونها تتزلزل تحت أقدامهم , وترتج في ضمائرهم . ومطارق الحق المبين تدمغ الباطل الواهي المريب !

وكذلك الحق لا يجحده الجاحدون لأنهم لا يعرفونه . بل لأنهم يعرفونه ! يجحدونه وقد استيقنته نفوسهم , لأنهم يحسون الخطر فيه على وجودهم , أو الخطر على أوضاعهم , أو الخطر على مصالحهم ومغانمهم . فيقفون في وجهه مكابرين , وهو اضح مبين .

(فانظر كيف كان عاقبة المفسدين). .

وعاقبة فرعون وقومه معروفة , كشف عنها القرآن في مواضع أخرى . إنما يشير إليها هنا هذه الإشارة , لعلها توقظ الغافلين من الجاحدين بـ الحق المكابرين فيه , إلى عاقبة فرعون وقومه قبل أن يأخذهم ما أخذ المفسدين .

ترد الإشارة إلى داود , وهذه القصة عن سليمان بعد تلك الحلقة من قصة موسى - عليهم السلام - وهم من أنبياء بني إسرائيل , في السورة التي تبدأ بالحديث عن القرآن ; ويجيء فيها:(إن هذا القرآن يقص على بني إسرائيل:أكثر الذي هم فيه يختلفون). .

وقصة سليمان - عليه السلام - في هذه السورة مبسوطة بتوسع أكثر منها في أية سورة أخرى . وإن كانت تختص بحلقة واحدة من حلقات حياته . حلقة قصته مع الهدهد وملكة سبأ . يمهد لها السياق بما يعلنه سليمان على الناس من تعليم الله له منطق الطير وإعطائه من كل شيء . وشكره لله على فضله المبين . ثم مشهد موكبه من الجن والإ نس والطير , وتحذير نملة لقومها من هذا الموكب , وإدراك سليمان لمقالة النملة وشكره لربه على فضله , وإدراكه أن النعمة ابتلاء , وطلبه من ربه أن يجمعه على الشكر والنجاح في هذا الابتلاء .

ومناسبه ورود هذا القصص إجمالا فى هذه السورة ما سبق بيانه من افتتاح السورة بحديث عن القرآن , وتقرير أن هذا القرآن يقص على بني إسرائيل أكثر الذي هم فيه يختلفون . وقصص موسى وداود وسليمان من أهم الحلقات فى تاريخ بني إسرائيل .

أما مناسبة هذه الحلقة ومقدماتها لموضوع هذه السورة فتبدو في عدة مواضع منها ومن السورة:

التركيز في جو السورة وظلالها على العلم - كما أسلفنا في أوائلها - والإ شارة الأولى في قصة داود وسليمان هي:

(ولقد آتينا داود وسليمان علما)وإعلان سليمان لنعمة الله عليه يبدأ بالإ شارة إلى تعليمه منطق الطير:(وقال:

وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ عِلْماً وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ (15)

يا أيها الناس علمنا منطق الطير). وعذر الهدهد عن غيبته في ثنايا القصة يبدأ بقوله: (أحطت بما لم تحط به وجئتك من سبأ بنبأ يقين). و الذي عنده(علم)من الكتاب هو الذي يأتي بعرش الملكة في غمضة عين .
.

وافتتاح السورة عن القرآن كتاب الله المبين إلى المشركين . وهم يتلقونه بالتكذيب . وفي القصة كتاب سليمان تتلقاه ملكة سبأ , فما تلبث طويلا حتى تأتي هي وقومها مسلمين . لما رأته من القوى المسخرة لسليمان من الجن والإنس والطير . والله هو الذي سخر لسليمان ما سخر , وهو القاهر فوق عباده وهو رب العرش العظيم .

وفي السورة استعراض لنعم الله على العباد , وآياته في الكون , واستخ لافه للناس وهم يجحدون بآيات الله , ولا يشكرونه . وفي القصة نموذج للعبد الشاكر , الذي يسأل ربه أن يوفقه إلى شكر نعمته عليه ; المتدبر لآ يات الله الذي لا يغفل عنها , ولا تبطره النعمة , ولا تطغيه القوة . . ف المناسبات كثيرة وواضحة بين موضوع السورة وإشارات القصة ومواقفها .

وقصة سليمان مع ملكة سبأ نموذج واف للقصة في القرآن , ولطريقة الأ داء الفني كذلك . فهي قصة حافلة بالحركة , وبالمشاعر , وبالمشاهد , وبتقطيع هذه المشاهد ووضع الفجوات الفنية بينها !

, بعد استعراض حلقات من قصص موسى وداود وسليمان وصالح ولوط - عليهم السلام -يأتي الختام المتصل بمطلع السورة في الموضوع . و القصص بينهما متناسق مع المطلع والختام . كل قصة تؤدي جانبا من

جوانب الغرض الذي يعالجه سياق السورة كلها .

وهو يبدأ بالحمد لله , وبالسلام على من اصطفاهم من عباده , من الأ نبياء والرسل , ومنهم الذين ورد قصصهم من قبل . يفتتح بذلك الحمد وهذا السلام جولة عن العقيدة . جولة في مشاهد الكون وأغوار النفس , وأطواء الغيب ; وفي أشراط الساعة ومشاهد القيامة , وأهوال الحشر , التي يفزع لها من في السماوات ومن في الأرض إلا من شاء الله .

في هذه الجولة يقفهم أمام مشاهدات في صفحة الكون وفي أطواء النفس , لا يملكون إنكار وجودها , ولا يملكون تعليلها بغير التسليم بوجود الخالق الواحد المدبر القدير .

ويتوالى عرض هذه المشاهدات في إيقاعات مؤثرة , تأخذ عليهم أقطار الحجة , وأقطار المشاعر ; وهو يسألهم أسئلة متلاحقة:من خلق السماوات والأرض ? من أنزل من السماء ماء فأنبتنا به حدائق ذات بهجة ? من جعل الأرض قرارا , وجعل خلالها أنهارا , وجعل لها رواسي , وجعل بين البحرين حاجزا ? من يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ? من يجعلكم خلفاء الأرض ? من يهديكم في ظلمات البر و البحر ? من يرسل الرياح بشرابين يدي رحمته ? من يبدأ الخلق ثم يعيده ? من يرزقكم من السماء والأرض ? وفي كل مرة يقرعهم:أ إله مع الله ? وهم لا يملكون أن يدعوا هذه الدعوى . لا يملكون أن يقولوا:إن إلها مع الله يفعل من هذا كله شيئا ; وهم مع هذا يعبدون أربابا من دون الله !

وعقب هذه الإيقاعات القوية التي تقتحم القلوب , لأنها إيقاعات كونية تملأ صفحة الوجود من حولهم , أو إيقاعات وجدانية يحسونها في قلوبهم . . يستعرض تكذيبهم بالآخرة , وتخبطهم في أمرها , ويعقب عليه بتوجيه قلوبهم إلى مصارع الغابرين الذين كانوا مثلهم يكذبون ويتخبطون .

ويخلص من هذا إلى عرض مشهد الحشر وما فيه من هول ومن فزع . ويرجع بهم في ومضة خاطفة إلى الأرض , ثم يردهم إلى مشهد الحشر . وكأنما يهز قلوبهم هزا ويرجها رجا . . .

وفي نهاية الجولة يجيء الختام أشبه بالإيقاع الأخير عميقا رهيبا . . ينفض رسول الله [ص] يده من أمر المشركين المستهزئين بالوعيد , المكذبين بالآخرة , وقد وجه قلوبهم إلى مشاهد الكون وأهوال الحشر , وعواقب الطائعين والعصاة - ويتركهم إلى مصيرهم الذي يختارون ; ويحدد منهجه ووسيلته ولمن شاء أن يختار:

إنما أمرت أن أعبد رب هذه البلدة الذي حرمها وله كل شيء , وأمرت أن أكون من المسلمين . و أن أتلو القرآن . فمن اهتدى فأنما يهتدي لنفسه , ومن ضل فقل:إنما أنا من المنذرين . . .

ثم يختم الجولة كما بدأها بحمد الله الذي يستأهل الحمد وحده ; ويكلهم إلى الله يريهم آياته ; ويطلع على أعمالهم ما ظهر منها وما بطن: وقل:الحمد لله . سيريكم آياته فتعرفونها . وما ربك بغافل عما تعملون).
.

وتختم السورة بهذا الإيقاع المؤثر العميق .

سورة القصص

نزلت والمسلمون في مكة قلة مستضعفة , والمشركون هم أصحاب الحول والطول والجاه والسلطان . نزلت تضع الموازين الحقيقية للقوى والقيم , نزلت تقرر أن هناك قوة واحدة في هذا الوجود ,هي قوة الله ; وأن هناك قيمة واحدة في هذا الكون , هي قيمة الإيمان . فمن كانت قوة الله معه فلا خوف عليه , ولو كان مجردا من كل مظاهر القوة , ومن كانت قوة الله عليه فلا أمن له ولا طمأنينة ولو ساندته جميع القوى ; ومن كانت له قيمة الإيمان فله الخير كله , ومن فقد هذه القيمة فليس

بنافعه شيء أصلا .

ومن ثم يقوم كيان السورة على قصة موسى وفرعون في البدء , وقصة قارون مع قومه - قوم موسى - في الختام . . الأولى تعرض قوة الحكم والسلطان . قوة فرعون الطاغية المتجبر اليقظ الحذر ; وفي مواجهتها موسى طفلا رضيعا لا حول له ولا قوة , ولا ملجأ له ولا وقاية . وقد علا فرعون في الأرض , واتخذ أهلها شيعا , واستضعف بني إسرائيل , يذبح أبناءهم , ويستحيي نساءهم , وهو على حذر منهم , وهو قابض على أعناقهم . ولكن قوة فرعون وجبروته , وحذره ويقظته , لا تغني عنه شيئا ; بل لا تمكن له من موسى الطفل الصغير , المجرد من كل قوة وحيلة , وهو في حراسة القوة الحقيقية الوحيدة ترعاه عين العناية , وتدفع عنه السوء , وتعمي عنه العيون , وتتحدى به فرعون وجنده تحديا سافرا , فتدفع به إلى حجره , وتدخل به عليه عرينه , بل تقتحم به عليه قلب امرأته وهو مكتوف اليدين إزاءه , مكفوف الأذى عنه , يصنع بنفسه لنفسه ما يحذره ويخشاه !

والقصة الثانية تعرض قيمة المال , ومعها قيمة العلم . المال الذي يستخف القوم وقد خرج عليهم قارون في زينته , وهم يعلمون أنه أوتي من المال ما إن مفاتحه لتعيي العصبة من الرجال الأقوياء . والعلم الذي يعتز به قارون , ويحسب أنه بسببه وعن طريقه أوتي ذلك المال . ولكن الذين أوتوا العلم الصحيح من قومه لا تستخفهم خزائنه , ولا تستخفهم زينته ; بل يتطلعون إلى ثواب الله , ويعلمون أنه خير وأبقى . ثم تتدخل يد الله فتخسف به وبداره الأرض , لا يغني عنه ماله ولا يغني عنه علمه ; وتتدخل تدخلا مباشرا سافرا كما تدخلت في أمر فرعون , فألقته في اليم هو وجنوده فكان من المغرقين .

لقد بغى فرعون على بني إسرائيل واستطال بجبروت الحكم والسلطان ; ولقد بغى قارون عليهم واستطال بجبروت العلم والمال . وكانت النهاية واحدة , هذا خسف به وبداره , وذلك أخذه اليم هو وجنوده . ولم تكن

هنالك قوة تعارضها من قوى الأرض الظاهرة . إنما تدخلت يد القدرة سافرة فوضعت حدا للبغي والفساد , حينما عجز الناس عن الوقوف للبغي والفساد .

ودلت هذه وتلك على أنه حين يتمحض الشر ويسفر الفساد ويقف الخير عاجزا والصلاح حسيرا ; ويخشى من الفتنة بالبأس والفتنة بالمال . عندئذ تتدخل يد القدرة سافرة متحدية , بلا ستار من الخلق , ولا سبب من قوى الأرض , لتضع حد للشر والفساد .

وبين القصتين يجول السياق مع المشركين جولات يبصرهم فها بدلالة القصص - في سورة القصص - ويفتحاأبصارهم على آيات الله المبثوثة في مشاهد الكون تارة , وفي مصارع الغابرين تارة , وفي مشاهد القيامة تارة . . وكلها تؤكد العبر المستفادة من القصص , وتساوقها وتتناسق معها ; وتؤكد سنة الله التي لا تتخلف ولا تتبدل على مدار الزمان . وقد قال المشركون لرسول الله [ص]:" إن نتبع الهدى معك نتخطف من أرضنا " . فاعتذروا عن عدم اتباعهم الهدى بخوفهم من تخطف الناس لهم , لو تحولوا عن عقائدهم القديمة التي من أجلها يخضع الناس لهم , ويعظمون البيت الحرام ويدينون للقائمين عليه .

فساق الله إليهم في هذه السورة قصة موسى وفرعون , تبين لهم أين يكون الأمن وأين تكون المخافة ; وتعلمهم أن الأمن إنما يكون في جوار الله , ولو فقدت كل أسباب الأمن الظاهرة التي تعارف عليها الناس ; وأن الخوف إنما يكون في البعد عن ذلك الجوار ولو تظاهرت أسباب الأمن الظاهرة التي تعارف عليها الناس ! وساق لهم قصة قارون تقرر هذه الحقيقة في صورة أخرى وتؤكدها .

وعقب على مقالتهم (أو لم نمكن لهم حرما آمنا يجبى إليه ثمرات كل شيء رزقا من لدنا ? ولكن أكثرهم لا يعلمون). . يذكرهم بأنه هو الذي آمنهم من الخوف فهو الذي جعل لهم هذا الحرم الآمن ; وهو الذي يديم عليهم أمنهم , أو يسلبهم إياه ; ومضى ينذرهم عاقبة البطر وعدم

الشكر:(وكم أهلكنا من قرية بطرت معيشتها فتلك مساكنهم لم تسكن من بعدهم إلا قليلا , وكنا نحن الوارثين).

ويخوفهم عاقبة أمرهم بعد أن أعذر إليهم وأرسل فيهم رسولا . وقد مضت سنة الله من قبل بإهلاك المكذبين بعد مجيء النذير:(وما كان ربك مهلك القرى حتى يبعث في أمها رسولا يتلو عليهم آياتنا , وما كنا مهلكي القرى إلا وأهلها ظالمون).

ثم يعرض عليهم مشهدهم يوم القيامة حين يتخلى عنهم الشركاء على رؤوس الأشهاد ; فيبصرهم بعذاب الآخرة بعد أن حذرهم عذاب الدنيا ; وبعد أن علمهم أين يكون الخوف وأين يكون الأمان .

وتنتهي السورة بوعد من الله لرسوله الكريم وهو مخرج من مكة مطارد من المشركين بأن الذي فرض عليه القرآن لينهض بتكاليفه , لا بد راده إلى بلده , ناصره على الشرك وأهله . وقد أنعم عليه بالرسالة ولم يكن يتطلع إليها ; وسينعم عليه بالنصر والعودة إلى البلد الذي أخرجه منه المشركون . سيعود آمنا ظافرا مؤيدا . وفي قصص السورة ما يضمن هذا ويؤكده . فقد عاد موسى - عليه السلام - إلى البلد الذي خرج منه خائفا طريدا . عاد فأخرج معه بني إسرائيل واستنقذهم , وهلك فرعون وجنوده على أيدي موسى وقومه الناجين . .

ويختم هذا الوعد ويختم السورة معه بالإيقاع الأخير:

(ولا تدع مع الله إلها آخر , لا إله إلا هو , كل شيء هالك إلا وجهه , له الحكم , وإليه ترجعون).

هذا هو موضوع السورة وجوها وظلالها العامة , فلنأخذ في تفصيل أشواطها الأربعة:قصة موسى . والتعقيب عليها . وقصة قارون . وهذا الوعد الأخير . . .

سورة العنكبوت مكية . وقد ذكرت بعض الروايات أن الإحدى عشرة آية الأولى مدنية . وذلك لذكر"الجهاد" فيها وذكر " المنافقين " . . ولكننا نرجح أن السورة كلها مكية . وقد ورد في سبب نزول الآية الثامنة أنها نزلت في إسلام سعد بن أبي وقاص كما سيجيء . وإسلام سعد كان في مكة بلا جدال . وهذه الآية ضمن الآيات الإحدى عشرة التي قيل إنها مدنية . لذلك نرجح مكية الآيات كلها . أما تفسير ذكر الجهاد فيها فيسير . لأنها واردة بصدد الجهاد ضد الفتنة . أي جهاد النفس لتصبر ولا تفتن . وهذا واضح في السياق . وكذلك ذكر النفاق فقد جاء بصدد تصوير حالة نموذج من الناس .

والسورة كلها متماسكة في خط واحد منذ البدء إلى الختام .

إنها تبدأ بعد الحروف المقطعة بالحديث عن الإيمان والفتنة , وعن تكاليف الإيمان الحقة التي تكشف عن معدنه في النفوس . فليس الإ يمان كلمة تقال باللسان , إنما هو الصبر على المكاره والتكاليف في طريق هذه الكلمة المحفوفة بالمكاره والتكاليف .

ويكاد هذا أن يكون محور السورة وموضوعها ; فإن سياقها يمضي بعد ذلك المطلع يستعرض قصص نوح وإبراهيم ولوط وشعيب , وقصص عاد وثمود وقارون وفرعون وهامان , استعراضا سريعا يصور ألوانا من العقبات والفتن في طريق الدعوة إلى الإيمان . على امتداد الأجيال .

ثم يعقب على هذا القصص وما تكشف فيه من قوى مرصودة في وجه الحق والهدى , بالتصغير من قيمة هذه القوى والتهوين من شأنها , وقد أخذها الله جميعا:

(فكلا أخذنا بذنبه , فمنهم من أرسلنا عليه حاصبا , ومنهم من أخذته الصيحة , ومنهم من خسفنا به الأرض , ومنهم من أغرقنا). .

ويضرب لهذه القوى كلها مثلا مصورا يجسم وهنها وتفاهتها:

(مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت اتخذت بيتا , وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون).

ويربط بعد ذلك بين الحق الذي في تلك الدعوات والحق الذي في خلق السماوات والأرض ; ثم يوحد بين تلك الدعوات جميعا ودعوة محمد [ص] فكلها من عند الله . وكلها دعوة واحدة إلى الله . ومن ثم يمضي في الحديث عن الكتاب الأخير وعن استقبال المشركين له ; وهم يطلبون الخوارق غير مكتفين بهذا الكتاب وما فيه من رحمة وذكرى لقوم يؤمنون . ويستعجلون بالعذاب وإن جهنم لمحيطة بالكافرين . ويتناقضون في منطقهم: (ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولن الله !) . (ولئن سألتهم من نزل من السماء ماء فأحيا به الأرض بعد موتها ليقولن الله !) . (فإذا ركبوا في الفلك دعوا الله مخلصين له الدين) . ولكنهم مع هذا كله يشركون بالله ويفتنون المؤمنين .

وفي ثنايا هذا الجدل يدعو المؤمنين إلى الهجرة فرارا بدينهم من الفتنة , غير خائفين من الموت , إذ (كل نفس ذائقة الموت ثم إلينا يرجعون). غير خائفين من فوات الرزق: وكأين من دابة لا تحمل رزقها الله يرزقها وإياكم . .

ويختم السورة بتمجيد المجاهدين في الله وطمأنتهم على الهدى وتثبيتهم:(والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا , وإن الله لمع المحسنين). . فيلتئم الختام مع المطلع وتتضح حكمة السياق في السورة , وتماسك حلقاتها بين المطلع والختام , حول محورها الأول وموضوعها الأصيل .

ويمضي سياق السورة حول ذلك المحور الواحد في ثلاثة أشواط:

الشوط الأول يتناول حقيقة الإيمان , وسنة الابتلاء والفتنة , ومصير المؤمنين والمنافقين والكافرين . ثم فردية التبعة فلا يحمل أحد عن أحد شيئا يوم القيامة: (وليسألن يوم القيامة عما كانوا يفترون) . .

والشوط الثاني يتناول القصص الذي أشرنا إليه , وما يصوره من فتن وعقبات في طريق الدعوات والدعاة , والتهوين من شأنها في النهاية حين تقاس إلى قوة الله . ويتحدث عن الحق الكامن في دعوة الرسل , وهو ذاته الحق الكامن في خلق السماوات والأرض . وكله من عند الله .

والشوط الثالث يتناول النهي عن مجادلة أهل الكتاب إلا بالحسنى . إلا الذين ظلموا منهم . وعن وحدة الدين كله , واتحاده مع هذا الدين الأخير الذي يجحد به الكافرون , ويجادل فيه المشركون . ويختم بالتثبيت والبشرى والطمأنينة للمجاهدين في الله المهديين إلى سبل الله: (وإن الله لمع المحسنين). .

ويتخلل السورة من المطلع إلى الختام إيقاعات قوية عميقة حول معنى الإيمان وحقيقته . تهز الوجدان هزا . وتقفه أمام تكاليف الإيمان وقفة جد صارم ; فإما النهوض بها وإما النكوص عنها . وإلا فهو النفاق الذي يفضحه الله .

وهي إيقاعات لا سبيل إلى تصويرها بغير النصوص القرآنية التي وردت فيها . فنكتفي بالإشارة إليها هنا حتى نستعرضها في موضعها مع السياق .

سورة الروم

نزلت الآيات الأولى من هذه السورة بمناسبة معينة . ذلك حين غلبت فارس على الروم فيما كانت تضع يدها من جزيرة العرب . وكان ذلك في إبان احتدام الجدل حول العقيدة بين المسلمين السابقين إلى الإسلام في مكة قبل الهجرة والمشركين . . ولما كان الروم في ذلك الوقت أهل كتاب دينهم النصرانية , وكان الفرس غير موحدين ديانتهم المجوسية , فقد وجد المشركون من أهل مكة في الحادث فرصة لاستعلاء عقيدة

الشرك على عقيدة التوحيد , وفألا بانتصار ملة الكفر على ملة الإيمان .

ومن ثم نزلت الآيات الأولى من هذه السورة تبشر بغلبة أهل الكتاب من الروم في بضع سنين غلبة يفرحلها المؤمنون , الذين يودون انتصار ملة الإيمان من كل دين .

ولكن القرآن لم يقف بالمسلمين وخصومهم عند هذا الوعد , ولا في حدود ذلك الحادث . إنما كانت هذه مناسبة لينطلق بهم إلى آفاق أبعد وآماد أوسع من ذلك الحادث الموقوت . وليصلهم بالكون كله , وليربط بين سنة الله في نصر العقيدة السماوية والحق الكبير الذي قامت عليه السماوات والأرض وما بينهما . وليصل بين ماضي البشرية وحاضرها ومستقبلها . ثم يستطرد بها إلى الحياة الأخرى بعد هذه الحياة الدنيا , وإلى العالم الآخر بعد عالم الأرض المحدود . ثم يطوف بهم في مشاهد الكون , وفي أغوار النفس , وفي أحوال البشر , وفي عجائب الفطر . . فإذا هم في ذلك المحيط الهائل الضخم الرحيب يطلعون على آفاق من المعرفة ترفع حياتهم وتطلقها , وتوسع آمادها وأهدافها , وتخرجهم من تلك العزلة الضيقة . عزلة المكان والزمان والحادث . إلى فسحة الكون كله:ماضيه وحاضره ومستقبله , وإلى نواميس الكون وسننه وروابطه .

ومن ثم يرتفع تصورهم لحقيقة الارتباطات وحقيقة العلاقات في هذا الكون الكبير . ويشعرون بضخامة النواميس التي تحكم هذا الكون , وتحكم فطرة البشر ; ودقة السنن التي تصرف حياة الناس وأحداث الحياة , وتحدد مواضع النصر ومواضع الهزيمة ; وعدالة الموازين التي تقدر بها أعمال الخلق , ويقوم بها نشاطهم في هذه الأرض , ويلقون على أساسها الجزاء في الدنيا والآخرة .

وفي ظل ذلك التصور المرتفع الواسع الشامل تتكشف عالمية هذه الدعوة وارتباطها بأوضاع العالم كله من حولها - حتى وهي ناشئة في مكة محصورة بين شعابها وجبالها - ويتسع مجالها فلا تعود مرتبطة بهذه الأرض وحدها إنما هي مرتبطة كذلك بفطرة هذا الكون ونواميسه

الكبرى , وفطرة النفس البشرية وأطوارها , وماضي هذه البشرية ومستقبلها . لا على هذه الأرض وحدها , ولكن كذلك في العالم الآخر الوثيق الصلة بها والارتباط .

وكذلك يرتبط قلب المسلم بتلك الآفاق والآماد ; ويتكيف على ضوئها شعوره وتصوره للحياة والقيم ; ويتطلع إلى السماء والآخرة ; ويتلفت حواليه على العجائب والأسرار , وخلفه وقدامه على الحوادث و المصائر . ويدرك موقفه هو وموقف أمته في ذلك الخضم الهائل ; ويعرف قيمته هو وقيمة عقيدته في حساب الناس وحساب الله , فيؤدي حينئذ دوره على بصيرة , وينهض بتكاليفه في ثقة وطمأنينة واهتمام .

ويمضي سياق السورة في عرض تلك الارتباطات , وتحقيق دلالاتها في نظام الكون , وتثبيت مدلولاتها في القلوب . . يمضي سياق السورة في شوطين مترابطين:

في الشوط الأول يربط بين نصر المؤمنين والحق الذي تقوم عليه السماوات والأرض وما بينهما , ويرتبط به أمر الدنيا والآخرة . ويوجه قلوبهم إلى سنة الله فيمن مضى قبلهم من القرون . ويقيس عليها قضية البعث والإعادة . ومن ثم يعرض عليهم مشهدا من مشاهد القيامة وما يجري فيه للمؤمنين والكافرين . ثم يعود من هذه الجولة إلى مشاهد الكون , وآيات الله المبثوثة في ثناياه ; ودلالة تلك المشاهد وإيحائها للقلوب . ويضرب لهم من أنفسهم ومما ملكت أيمانهم مثلا يكشف عن سخافة فكرة الشرك , وقيامها على الأهواء التي لا تستند إلى حق أو علم . . وينهي هذا الشوط بتوجيه الرسول [ص] إلى اتباع طريق الحق الواحد الثابت الواضح . طريق الفطرة التي فطر الناس عليها ; والتي لا تتبدل ولا تدور مع الهوى ; ولا يتفرق متبعوها فرقا وشيعا , كما تفرق الذين اتبعوا الهوى .

وفي الشوط الثاني يكشف عما في طبيعة الناس من تقلب لا يصلح أن

تقام عليه الحياة . ما لم يرتبطوا بمعيار ثابت لا يدور مع الأهواء , ويصور حالهم في الرحمة والضر , وعند بسط الرزق وقبضه . ويستطرد بهذه المناسبة إلى وسائل إنفاق هذا الرزق وتنميته . ويعود إلى قضية الشرك والشركاء فيعرضها من هذه الزاوية ; فإذا هم لا يرزقون ولا يميتون ولا يحيون . ويربط بين ظهور الفساد في البر والبحر وعمل الناس وكسبهم ; ويوجههم إلى السير في الأرض , والنظر في عواقب المشركين من قبل . ومن ثم يوجه الرسول [ص] إلى الاستقامة على دين الفطرة , من قبل أن يأتي اليوم الذي يجزى فيه كل بما كسبت يداه . ويعود بهم بعد ذلك إلى آيات الله في مشاهد الكون كما عاد بهم في الشوط الأول . ويعقب عليها بأن الهدى هدى الله ; وأن الرسول [ص] لا يملك إلا البلاغ , فهو لا يهدي العمي ولا يسمع الصم . ثم يطوف بهم في جولة جديدة في ذات أنفسهم ويذكرهم بأطوار نشأتهم من بدئها إلى منتهاها , منذ الطفولة الواهنة الضعيفة إلى الموت والبعث والقيامة , ويعرض عليهم مشهدا من مشاهدها . ثم ينهي هذا الشوط ويختم معه السورة بتوجيه الرسول [ص] إلى الصبر على دعوته , وما يلقاه من الناس فيها ; والاطمئنان إلى أن وعد الله حق لا بد آت ; فلا يقلقه ولا يستخفه الذين لا يوقنون .

وجو السورة وسياقها معا يتعاونان في تصوير موضوعها الرئيسي . و هو الكشف عن الارتباطات الوثيقة بين أحوال الناس , وأحداث الحياة , وماضي البشرية وحاضرها ومستقبلها , وسنن الكون ونواميس الوجود . وفي ظلال هذه الارتباطات يبدو أن كل حركة وكل نأمة , وكل حادث وكل حالة , وكل نشأة وكل عاقبة , وكل نصر وكل هزيمة . . كلها مرتبطة برباط وثيق , محكومة بقانون دقيق . وأن مرد الأمر فيها كله لله: (لله ا لأمر من قبل ومن بعد). وهذه هي الحقيقة الأولى التي يؤكدها القرآن كله , بوصفها الحقيقة الموجهة في هذه العقيدة . الحقيقة التي تنشأ عنها جميع التصورات والمشاعر والقيم والتقديرات ; والتي بدونها لا يستقيم تصور ولا تقدير . .

جاء هذا القرآن الكريم ليخاطب الفطرة البشرية بمنطقها . نزله الذي خلق هذه الفطرة , والذي يعلم ما يصلح لها وما يصلحها , ويعلم كيف يخاطبها , ويعرف مداخلها ومساربها . جاء يعرض على هذه الفطرة الحقيقة المكنونة فيها من قبل ; والتي تعرفها قبل أن تخاطب بهذا القرآن , لأنها قائمة عليها أصلا في تكوينها الأول . . تلك هي حقيقة الا عتراف بوجود الخالق وتوحيده , والتوجه إليه وحده بالإنابة والعبادة مع موكب الوجود كله المتجه إلى خالقه بالحمد والتسبيح . . إنما تغشى على الفطرة غواش من دخان هذه الأرض ; وتغمرها غمرات من فورة اللحم والدم ; وتنحرف بها عن الطريق دفعات من الهوى والشهوة . هنا يجيء هذا القرآن ليخاطب الفطرة بمنطقها الذي تعرفه ; ويعرض عليها الحقيقة التي غفلت عنها بالأسلوب الذي تألفه ; ويقيم على أساس هذه الحقيقة منهاج الحياة كله , مستقيما مع العقيدة , مستقيما مع الفطرة , مستقيما على الطريق إلى الخالق الواحد المدبر الخبير . .

وهذه السورة المكية نموذج من نماذج الطريقة القرآنية في مخاطبة القلب البشري . وهي تعالج قضية العقيدة في نفوس المشركين الذين انحرفوا عن تلك الحقيقة . إنها القضية التي تعالجها السور المكية في أساليب شتى , ومن زوايا منوعة , تتناول القلب البشري من جميع أقطاره ; وتلمس جوانبه بشتى المؤثرات التي تخاطب الفطرة وتوقظها . .

هذه القضية الواحدة - قضية العقيدة - تتلخص هنا في توحيد الخالق وعبادته وحده وشكر آلائه . وفي اليقين بالآخرة وما فيها من حساب دقيق وجزاء عادل . وفي اتباع ما أنزل الله والتخلي عما عداه من مألوفات ومعتقدات .

والسورة تتولى عرض هذه القضية بطريقة تستدعي التدبر لإدراك الأ

سلوب القرآني العجيب في مخاطبة الفطر والقلوب . وكل داع إلى الله في حاجة إلى تدبر هذا الأسلوب .

إنها تعرض هذه القضية في مجال العرض القرآني . وهو هذا الكون الكبير . سماؤه وأرضه . شمسه وقمره . نهاره وليله . أجواؤه وبحاره , أمواجه وأمطاره . نباته وأشجاره . . وهذا المجال الكوني يتكرر في القرآن الكريم . فيحيل الكون كله مؤثرات ناطقة , وآيات مبثوثة عن الإ يمان والشمائل , تخاطب القلوب البشرية وتؤثر فيها وتستحييها , وتأخذ عليها المسالك والدروب .

ومع أن القضية واحدة ومجال العرض واحد , فإنها تعرض في السورة أربع مرات في أربع جولات , تطوف كل منها بالقلب البشري في ذلك المجال الفسيح , مستصحبة في كل مرة مؤثرات جديدة , ومتبعة أسلوبا كذلك جديدا في العرض والتناول . وتتبع هذه الجولات وهي تبدأ وتنتهي بطريقة عجيبة فيه متاعللقلب والعقل . إلى جانب ما فيه من دواعي التأثر والاستجابة .

تبدأ الجولة الأولى بعد افتتاح السورة بالأحرف المقطعة ; فتقرر أن هذه السورة من جنس تلك الأحرف , هي آيات الكتاب الحكيم , وهي هدى ورحمة للمحسنين . وهؤلاء المحسنون هم:(الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم بالآخرة هم يوقنون)فتقرر قضية اليقين بالآخرة وقضية العبادة لله . ومعها مؤثر نفسي ملحوظ هو أن(أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون)ومن ذا الذي لا يريد أن يكون من المفلحين ? . وفي الجانب الآخر فريق من الناس يشتري لهو الحديث ليضل عن سبيل الله بغير علم , ويتخذ تلك الآيات هزوا . وهؤلاء يعاجلهم بمؤثر نفسي مخيف مناسب لاستهزائهم بآيات الله: (أولئك لهم عذاب مهين). ثم يمضي في وصف حركات هذا الفريق: (وإذا تتلى عليه آياتنا ولى مستكبرا كأن لم يسمعها). ومع الوصف مؤثر نفسي يحقر هذا الفريق: (كأن في أذنيه وقرا)ومؤثر آخر يخيفه مع التهكم

الواضح في التعبير: (فبشره بعذاب أليم)والبشارة هنا فيها ما فيها من التهكم الملحوظ ! . . ثم يعود إلى المؤمنين يفصل شيئا من فلاحهم الذي أجمله في أول السورة و يبين جزاءهم في الآخرة , كما كشف عن جزاء المستهزئين المستكبرين:(إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم جنات النعيم خالدين فيها وعد الله حقا , وهو العزيز الحكيم). . وهنا يعرض صفحة الكون الكبير محالا للبرهان الذي يطالع الفطرة من كل جانب , ويخاطبها بكل لسان , ويواجهها بالحق الهائل الذي يمر عليه الناس غافلين:(خلق السماوات بغير عمد ترونها , وألقى في الأرض رواسي أن تميد بكم , وبث فيها من كل دابة , وأنزلنا من السماء ماء فأنبتنا فيها من كل زوج كريم). . وأمام هذه الأدلة الكونية التي تهول الحس وتبده الشعور يأخذ بتلابيب القلوب الشاردة , التي تجعل لله شركاء وهي ترى خلقه الهائل العظيم:(هذا خلق الله . فأروني ماذا خلق الذين من دونه ? بل الظالمون في ضلال مبين). .

وعند هذا الإيقاع الكوني الضخم العميق تنتهي الجولة الأولى بقضاياها ومؤثراتها معروضة في ساحة الكون الكبير .

فأما الجولة الثانية فتبدأ من خلال نفوس آدمية , وتتناول القضية ذاتها في المجال ذاته بأسلوب جديد ومؤثرات جديدة . . (ولقد آتينا لقمان الحكمة)فما طبيعة هذه الحكمة وما مظهرها الفريد ? إنها تتلخص في ا لاتجاه لله بالشكر: (أن اشكر لله)فهذه هي الحكمة وهذا هو الاتجاه الحكيم . . والخطوة التالية هي اتجاه لقمان لابنه بالنصيحة:نصيحة حكيم لابنه . فهي نصيحة مبرأة من العيب , صاحبها قد أوتي الحكمة . وهي نصيحة غير متهمة , فما يمكن أن تتهم نصيحة والد لولده . هذه النصيحة تقرر قضية التوحيد التي قررتها الجولة الأولى وقضية الآخرة كذلك مصحوبة بهذه المؤثرات النفسية ومعها مؤثرات جديدة:(وإذ قال لقمان لابنه وهو يعظه:يا بني لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم). . ويؤكد هذه القضية بمؤثر آخر فيعرض لعلاقة الأبوة والأمومة بأسلوب يفيض انعطافا ورحمة: (ووصينا الإنسان بوالديه حملته أمه وهنا على

وهن وفصاله في عامين)ويقرن قضية الشكر لله بالشكر لهذين الوالدين , فيقدمها عليها: أن اشكر لي ولوالديك . . ثم يقرر القاعدة الأولى في قضية العقيدة , وهي أن وشيجة العقيدة هي الوشيجة الأولى , المقدمة على وشيجة النسب والدم . وعلى ما في هذه الوشيجة من انعطاف وقوة إلا أنها تالية للوشيجة الأولى: (وإن جاهداك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما , وصاحبهما في الدنيا معروفا , واتبع سبيل من أناب إلي). ويقرر معها قضية الآخرة: (ثم إلي مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعملون). . ويتبع هذه القضية بمؤثر هائل وهويصور عظمة علم الله ودقته وشموله وإحاطته , تصويرا يرتعش له الوجدان البشري وهو يتابعه في المجال الكوني الرحيب:(يا بني إنها إن تك مثقال حبة من خردل , فتكن في صخرة , أو في السماوات أو في الأرض يأت بها الله . إن الله لطيف خبير). . ثم يتابع لقمان وصيته لابنه بتكاليف العقيدة , با لأمر بالمعروف والنهي عن المنكر , والصبر على ما يستتبعه هذا وذلك من مواجهة المتاعب التي لا بد أن تواجه صاحب العقيدة , وهو يخطو بها الخطوة الطبيعية , فيتجاوز بها نفسه إلى غيره: (واصبر على ما أصابك إن ذلك من عزم الأمور). . ومع الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والصبر على المصاب الأدب الواجب . أدب الداعي إلى الله . ألا يتطاول على الناس , فيفسد بالقدوة ما يصلح بالكلام:(ولا تصعر خدك للناس ولا تمش في الأرض مرحا , إن الله لا يحب كل مختال فخور . واقصد في مشيك واغضض من صوتك . إن أنكر الأصوات لصوت الحمير). . و المؤثر النفسي بتحقير التصعير والنفخة ملحوظ في التعبير . وبه تنتهي هذه الجولة الثانية , وقد عالجت القضية ذاتها في مجالها المعهود , بمؤثرات جديدة وبأسوب جديد .

ثم تبدأ الجولة الثالثة . . تبدأ بعرض القضية المعهودة في مجال السماوات والأرض , مصحوبة بمؤثر منتزع من علاقة البشر بالسماوات و الأرض وما فيها من نعم سخرها الله للناس وهم لا يشكرون:(ألم تروا أن الله سخر لكم ما في السماوات وما في الأرض وأسبغ عليكم نعمه

ظاهرة وباطنة . ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير). . وفي ظل هذا المؤثر يبدو الجدل في الله مستنكرا من الفطرة , تمجه القلوب المستقيمة . . ثم يتابع استنكار موقف الكفر و الجمود: وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا:بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا . . وهو موقف سخيف مطموس , يتبعه بمؤثر مخيف: أولو كان الشيطان يدعوهم إلى عذاب السعير ? . . ومن ثم يعرض قضية الجزاء في الآخرة مرتبطة بقضية الإيمان والكفر: (ومن يسلم وجهه إلى الله وهو محسن فقد استمسك بالعروة الوثقى وإلى الله عاقبة الأمور . . ومن كفر فلا يحزنك كفره إلينا مرجعهم , فننبئهم بما عملوا). . ويشير إلى علم الله الواسع الدقيق: (إن الله عليم بذات الصدور). ويصحب ذلك العرض بتهديد مخيف:(نمتعهم قليلا ثم نضطرهم إلى عذاب غليظ). . وقرب ختام الجولة يقفهم وجها لوجه أمام منطق الفطرة وهي تواجه هذا الكون , فلا تملك إلا الاعتراف بالخالق الواحد الكبير:(ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولن:الله . قل:الحمد لله , بل أكثرهم لا يعلمون). . ويختم الجولة بمشهد كوني يصور امتداد علم الله بلا نهاية , وانطلاق مشيئته في الخلق والإنشاء بلا حدود ; ويجعل من هذا دليلا كونيا على البعث والإعادة وعلى الخلق والإنشاء: لو أنما في الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله . إن الله عزيز حكيم . ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة . إن الله سميع بصير . .

وتبدأ الجولة الرابعة بمشهد كوني ذي إيقاع خاص في القلب البشري . مشهد الليل وهو يطول فيدخل في جسم النهار ويمتد ; والنهار وهو يطول فيدخل في جسم الليل ويمتد . ومشهد الشمس والقمر مسخرين في فلكيهما يجريان في حدود مرسومة إلى وقت لا يعلمه إلا خالقهما الخبير بهما وبالناس وبما يعملون:(ألم تر أن الله يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل , وسخر الشمس والقمر كل يجري إلى أجل مسمى , وأن الله بما تعملون خبير). . ويتخذ من هذا المشهد الكوني

دليله إلى الفطرة على القضية المعهودة:(ذلك بأن الله هو الحق وأن ما يدعون من دونه هو الباطل وأن الله هو العلي الكبير). . ويلمس القلوب بمؤثر آخر من نعمة الله على الناس في صورة الفلك التي تجري في البحر: (ألم تر أن الفلك تجري في البحر بنعمة الله ليريكم من آياته ?)ويعقب على هذا بوقفهم أمام منطق الفطرة حين تواجه هول البحر مجردة من غرور القدرة والعلمالذي يبعدها عن بارئها ; ويتخذ من هذا المنطق دليلا على قضية التوحيد: (وإذا غشيهم موج كالظلل دعوا الله مخلصين له الدين , فلما نجاهم إلى البر فمنهم مقتصد ; وما يجحد بآياتنا إلا كل ختار كفور). . وبمناسبة موج البحر وهو له يذكرهم بالهول الأكبر , وهو يقرر قضية الآخرة . الهول الذي يفصم وشائج الدم التي لا يفصلها في الدنيا هول:(يا أيها الناس اتقوا ربكم . واخشوا يوما لا يجزي والد عن ولده , ولا مولود هو جاز عن والده شيئا . إن وعد الله حق . فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور). . وعند هذا المقطع وهذا المؤثر الذي يرتجف له الكيان يختم السورة بآية تقرر القضايا التي ع الجتها جميعا , في إيقاع قوي عميق مرهوب:(إن الله عنده علم الساعة , وينزل الغيث , ويعلم ما في الأرحام . وما تدري نفس ماذا تكسب غدا , وما تدري نفس بأي أرض تموت . إن الله عليم خبير). .

هذه الجولات الأربع بأساليبها ومؤثراتها ودلائلها وآياتها نموذج من أسلوب القرآن الكريم في معالجة القلوب . هذا الأسلوب المختار من خ الق هذه القلوب العليم بمداخلها . الخبير بما يصلح لها وما تصلح به من الأساليب . .

سورة السجدة

هذه السورة المكية نموذج آخر من نماذج الخطاب القرآني للقلب البشري بالعقيدة الضخمة التي جاء القرآن ليوقظها في الفطر , ويركزها في القلوب:عقيدة الدينونة لله الأحد الفرد الصمد , خالق الكون والناس ,

ومدبر السماوات والأرض وما بينهما وما فيهما من خلائق لا يعلمها إلا الله . والتصديق برسالة محمد [ص] الموحى إليه بهذا القرآن لهداية البشر إلى الله . والاعتقاد بالبعث والقيامة والحساب والجزاء .

هذه هي القضية التي تعالجها السورة ; وهي القضية التي تعالجها سائر السور المكية . كل منها تعالجها بأسلوب خاص , ومؤثرات خاصة ; تلتقي كلها في أنها تخاطب القلب البشري خطاب العليم الخبير , المطلع على أسرار هذه القلوب وخفاياها , ومنحنياتها ودروبها , العارف بطبيعتها وتكوينها , وما يستكن فيها من مشاعر ,وما يعتريها من تأثرات واستجابات في جميع الأحوال والظروف .

وسورة السجدة تعالج تلك القضية بأسلوب وبطريقة غير أسلوب وطريقة سورة لقمان السابقة . فهي تعرضها في آياتها الأولى ; ثم تمضي بقيتها تقدم مؤثرات موقظة للقلب , منيرة للروح , مثيرة للتأمل و التدبر ; كما تقدم أدلة وبراهين على تلك القضية معروضة في صفحة الكون ومشاهده ; وفي نشأة الإنسان وأطواره ; وفي مشاهد من اليوم ا لآخر حافلة بالحياة والحركة ; وفي مصارع الغابرين وآثارهم الناطقة بـ العبرة لمن يسمع لها ويتدبر منطقها !

كذلك ترسم السورة صورا للنفوس المؤمنة في خشوعها وتطلعها إلى ربها . وللنفوس الجاحدة في عنادها ولجاجها ; وتعرض صورا للجزاء الذي يتلقاه هؤلاء وهؤلاء , وكأنها واقع مشهود حاضر للعيان , يشهده كل قارئ لهذا القرآن .

وفي كل هذه المعارض والمشاهد تواجه القلب البشري بما يوقظه ويحركه ويقوده إلى التأمل والتدبر مرة , وإلى الخوف والخشية مرة , وإلى التطلع والرجاء مرة . وتطالعه تارة بالتحذير والتهديد , وتارة بالإ طماع , وتارة بالإقناع . . ثم تدعه في النهاية تحت هذه المؤثرات وأمام تلك البراهين . تدعه لنفسه يختار طريقه , وينتظر مصيره على علم وعلى هدى وعلى نور .

ويمضي سياق السورة في عرض تلك القضية في أربعة مقاطع أو خمسة متلاحقة متصلة:يبدأ بالأحرف المقطعة (ألف . لام . ميم)منبها بها إلى تنزيل الكتاب من جنس هذه الأحرف . ونفي الريب عن تنزيله والوحي به: (من رب العالمين). . ويسأل سؤال استنكار عما إذا كانوا يقولون:افتراه . ويؤكد أنه الحق من ربه لينذر قومه (لعلهم يهتدون). .

وهذه هي القضية الأولى من قضايا العقيدة:قضية الوحي وصدق الرسول [ص] في التبليغ عن رب العالمين .

ثم يعرض قضية الألوهية وصفتها في صفحة الوجود:في خلق السماوات والأرض وما بينهما , وفي الهيمنة على الكون وتدبير الأمر في السماوات والأرض , ورفع الأمر إليه في اليوم الآخر . . ثم في نشأة الإ نسان وأطواره وما وهبه الله من السمع والبصر والإدراك . والناس بعد ذلك قليلا ما يشكرون .

وهذه هي القضية الثانية:قضية الألوهية وصفتها:صفة الخلق , وصفة التدبير , وصفة الإحسان , وصفة الإنعام , وصفة العلم . وصفة الرحمة . وكلها مذكورة في سياق آيات الخلق والتكوين .

ثم يعرض قضية البعث , وشكهم فيه بعد تفرق ذراتهم في التراب: وقالوا:أئذا ضللنا في الأرض أئنا لفي خلق جديد ? ويرد على هذا الشك بصيغة الجزم واليقين .

وهذه هي القضية الثالثة:قضية البعث والمصير .

ومن ثم يعرض مشهدا من مشاهد القيامة: إذ المجرمون ناكسوا رؤوسهم عند ربهم يعلنون يقينهم بالآخرة ويقينهم بالحق الذي جاءتهم به الدعوة . ويقولون الكلمة التي لو قالوها في الدنيا لفتحت لهم أبواب الجنة ; ولكنها في موقفهم ذاك لا تجدي شيئا ولا تفيد . لعل هذا المشهد أن يوقظهم - قبل فوات الأوان - لقول الكلمة التي سيقولونها في الموقف العصيب . فيقولوها الآن في وقتها المطلوب .

وإلى جوار هذا المشهد البائس المكروب يعرض مشهد المؤمنين في هذه الأرض:إذا ذكروا بآيات ربهم . . (خروا سجدا وسبحوا بحمد ربهم وهم لا يستكبرون . تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفا وطمعا ومما رزقناهم ينفقون). . وهي صورة موحية شفيفة ترف حولها القلوب . يعرض إلى جوارها ما أعده الله لهذه النفوس الخاشعة الخائفة الطامعة من نعيم يعلو على تصور البشر الفانين:(فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون). . ويعقب عليه بمشهد سريع لمصائر المؤمنين والفاسقين في جنة المأوى وفي نار الجحيم وبتهديد المجرمين بالانتقام منهم في الأرض أيضا قبل أن يلاقوا مصيرهم الأ ليم .

ثم ترد إشارة إلى موسى - عليه السلام - ووحدة رسالته ورسالة محمد [ص] والمهتدين من قومه , وصبرهم على الدعوة , وجزائهم على هذا الصبر بأن جعلهم الله أئمة . وفي هذه الإشارة إيحاء بالصبر على ما يلقاه الدعاة إلى الإسلام من كيد ومن تكذيب .

وتعقب هذه الإشارة جولة في مصارع الغابرين من القرون , وهم يمشون في مساكنهم غافلين . . ثم جولة في الأرض الميتة ينزل عليها الماء بـ الحياة والنماء ; فيتقابل مشهد البلى ومشهد الحياة في سطور .

وتختم السورة بحكاية قولهم: (متى هذا الفتح ?)وهم يتساءلون في شك عن يوم الفتح الذي يتحقق فيه الوعيد . والجواب بالتخويف من هذا اليوم والتهديد . وتوجيه الرسول [ص] ليعرض عنهم ويدعهم لمصيرهم المحتوم .

سورة الأحزاب

الوحدة الأولى:1 - 8 الموضوع:توجيهات للنبي وإبطال الظهار وميثاق ا لأنبياء

هذه السورة تتناول قطاعا حقيقيا من حياة الجماعة المسلمة , في فترة تمتد من بعد غزوة بدر الكبرى , إلى ما قبل صلح الحديبية , وتصور هذه الفترة من حياة المسلمين في المدينة تصويرا واقعيا مباشرا . وهي مزدحمة بالأحداث التي تشير إليها خلال هذه الفترة , والتنظيمات التي أنشأتها أو أقرتها في المجتمع الإسلامي الناشىء .

والتوجيهات والتعقيبات على هذه الأحداث والتنظيمات قليلة نسبيا ; ولا تشغل من جسم السورة إلا حيزا محدودا , يربط الأحداث والتنظيمات با لأصل الكبير . أصل العقيدة في الله والاستسلام لقدره . ذلك كافتتاح السورة: (يا أيها النبي اتق الله ولا تطع الكافرين والمنافقين , إن الله كان عليما حكيما . واتبع ما يوحى إليك من ربك إن الله كان بما تعملون خبيرا , وتوكل على الله وكفى بالله وكيلا . ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه . . .). . وكالتعقيب على بعض التنظيمات الاجتماعية في أول السورة: (كان ذلك في الكتاب مسطورا . وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ابن مريم , وأخذنا منهم ميثاقا غليظا , ليسأل الصادقين عن صدقهم , وأعد للكافرين عذابا أليما). . والتعقيب على موقف المرجفين "يوم الأحزاب" التي سميت السورة باسمها . (قل:لن ينفعكم الفرار إن فررتم من الموت أو القتل , وإذن لا تمتعون إلا قليلا . قل:من ذا الذي يعصمكم من الله إن أراد بكم سوءا أو أراد بكم رحمة ? ولا يجدون لهم من دون الله وليا ولا نصيرا). . ومثل قوله في صدد أحد التنظيمات الاجتماعية الجديدة , المخالفة لمألوف النفوس في الجاهلية: (وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمرا أن يكون لهم الخيرة من أمرهم). . وأخيرا ذلك الإيقاع الهائل العميق:(إنا عرضنا الأمانة على السماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها , وأشفقن منها , وحملها الإنسان , إنه كان ظلوما جهولا). .

ولهذه الفترة التي تتناولها السورة من حياة الجماعة المسلمة سمة خاصة , فهي الفترة التي بدأ فيها بروز ملامح الشخصية المسلمة في حياة الجماعة وفي حياة الدولة ; ولم يتم استقرارها بعد ولا سيطرتها

الكاملة . كالذي تم بعد فتح مكة ودخول الناس في دين الله أفواجا , واستتباب الأمر للدولة الإسلامية , وللنظام الإسلامي .

والسورة تتولى جانبا من إعادة تنظيم الجماعة المسلمة , وإبراز تلك الملامح وتثبيتها في حياة الأسرة والجماعة ; وبيان أصولها من العقيدة و التشريع ; كما تتولى تعديل الأوضاع والتقاليد أو إبطالها ; وإخضاعها في هذا كله للتصور الإسلامي الجديد .

وفي ثنايا الحديث عن تلك الأوضاع والنظم يرد الحديث عن غزوة الأحزاب , وغزوة بني قريظة , ومواقف الكفار والمنافقين واليهود فيهما , ودسائسهم في وسط الجماعة المسلمة , وما وقع من خلخلة وأذى بسبب هذه الدسائس وتلك المواقف . كما تعرض بعدها دسائسهم وكيدهم للمسلمين في أخلاقهم وآدابهم وبيوتهم ونسائهم .

ونقطة الاتصال في سياق السورة بين تلك الأوضاع والنظم وهاتين الغزوتين وما وقع فيهما من أحداث , هي علاقة هذه وتلك بمواقف الكافرين والمنافقين واليهود ; وسعي هذه الفئات لإيقاع الاضطراب في صفوف الجماعة المسلمة . سواء عن طريق الهجوم الحربي والإرجاف في الصفوف والدعوة إلى الهزيمة ; أو عن طريق خلخلة الأوضاع الاجتماعية والآداب الخلقية . . ثم ما نشأ من الغزوات والغنائم من آثار في حياة الجماعة المسلمة تقتضي تعديل بعض الأوضاع الاجتماعية و التصورات الشعورية ; وإقامتها على أساس ثابت يناسب تلك الآثار التي خلفتها الغزوات والغنائم في واقع الجماعة المسلمة .

ومن هذا الجانب وذاك تبدو وحدة السورة , وتماسك سياقها , وتساوق موضوعاتها المنوعة . وهذا وذلك إلى جانب وحدة الزمن التي تربط بين الأحداث والتنظيمات التي تتناولها السورة .

تبدأ السورة ذلك البدء بتوجيه الرسول [ص] إلى تقوى الله وعدم الطاعة للكافرينوالمنافقين , واتباع ما يوحي إليه ربه , والتوكل عليه

وحده . وهو البدء الذي يربط سائر ما ورد في السورة من تنظيمات وأحداث بالأصل الكبير الذي تقوم عليه شرائع هذا الدين وتوجيهاته . ونظمه وأوضاعه , وآدابه وأخلاقه . . أصل استشعار القلب لجلال الله , والاستسلام المطلق لإرادته ; واتباع المنهج الذي اختاره , والتوكل عليه وحده والاطمئنان إلى حمايته ونصرته .

وبعد ذلك يلقي بكلمة الحق والفصل في بعض التقاليد والأوضاع الا جتماعية . مبتدئا بإيقاع حاسم يقرر حقيقة واقعة: (ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه). . يرمز بها إلى أن الإنسان لا يملك أن يتجه إلى أكثر من أفق واحد , ولا أن يتبع أكثر من منهج واحد , وإلا نافق , واضطربت خطاه . وما دام لا يملك إلا قلبا واحدا , فلا بد أن يتجه إلى إله واحد وأن يتبع نهجا واحدا ; وأن يدع ما عداه من مألوفات وتقاليد وأوضاع وعادات .

ومن ثم يأخذ في إبطال عادة الظهار - وهو أن يحلف الرجل على امرأته أنها عليه كظهر أمه فتحرم عليه حرمة أمه: (وما جعل أزواجكم اللائي تظاهرون منهن أمهاتكم). ويقرر أن هذا الكلام يقال بالأفواه ولا ينشئ حقيقة وراءه , بل تظل الزوجة زوجة ولا تصير أما بهذا الكلام . . ويثني بإبطال عادة التبني وآثاره: (وما جعل أدعياءكم أبناءكم)فلا يعودون بعد اليوم يتوارثون , ولا تترتب على هذا التبني آثاره الأخرى [التي سنفصل الحديث عنها فيما بعد] . ويستبقي بعد ذلك أو ينشىء الولاية العامة لرسول الله [ص] على المؤمنين جميعا ; ويقدم هذه الولاية على ولا يتهم لأنفسهم ; كما ينشيء صلة الأمومة الشعورية بين أزواج النبي [ص] وجميع المؤمنين: (النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجه أمهاتهم). . ثم يبطل آثار المؤاخاة التي تمت في أول الهجرة ; ويرد الأ مر إلى القرابة الطبيعية في الإرث والدية وما إليها: وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله من المؤمنين والمهاجرين . وبذلك يعيد تنظيم الجماعة الإسلامية على الأسس الطبيعية ويبطل ما عداها من التنظيمات الوقتية .

ويعقب على هذا التنظيم الجديد , الذي يستمد من منهج الإسلام وحكم الله ; بالإشارة إلى أن ذلك مسطور في كتاب الله القديم , وإلى الميثاق المأخوذ على النبيين , وعلى أولي العزم منهم بصفة خاصة . على طريقة القرآن في التعقيب على النظم والتشريعات , والمبادئ , والتوجيهات , لتقر في الضمائر والأخلاد . - (ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ابن مريم). الرسالة الأخيرة .

وبعد بيان أصحاب الميثاق عاد إلى وصف الميثاق نفسه: (وأخذنا منهم ميثاقا غليظا) . ووصف الميثاق بأنه غليظ منظور فيه إلى الأصل اللغوي للفظ ميثاق - وهو الحبل المفتول - الذي استعير للعهد والرابطة . وفيه من جانب آخر تجسيم للمعنوي يزيد إيحاءه للمشاعر . . وإنه لميثاق غليظ متين ذلك الميثاق بين الله والمختارين من عباده , ليتلقوا وحيه , ويبلغوا عنه , ويقوموا على منهجه في أمانة واستقامة .

(ليسأل الصادقين عن صدقهم) . والصادقون هم المؤمنون . فهم الذين قالوا كلمة الصدق , واعتنقوا عقيدة الصدق . ومن سواهم كاذب , لأنه يعتقد بالباطل ويقول كلمة الباطل . ومن ثم كان لهذا الوصف دلالته وإيحاؤه . وسؤالهم عن صدقهم يوم القيامة كما يسأل المعلم التلميذ النجيب الناجح عن إجابته التي استحق بها النجاح والتفوق , أمام المدعوين لحفل النتائج ! سؤال للتكريم , وللإعلان والإعلام على رؤوس الأشهاد , وبيان الاستحقاق , والثناء على المستحقين للتكريم في يوم الحشر العظيم !

فأما غير الصادقين . الذين دانوا بعقيدة الباطل , وقالوا كلمة الكذب في أكبر قضية يقال فيها الصدق أو يقال فيها الكذب . قضية العقيدة . فأما هؤلاء فلهم جزاء آخر حاضر مهيأ , يقف لهم في الانتظار: (وأعد للكافرين عذابا أليما) . .

وهذا هو إجمال الشوط الأول في السورة .

ويتناول الشوط الثاني بيان نعمة الله على المؤمنين , إذ رد عنهم كيد الأحزاب والمهاجمين . ثم يأخذ في تصوير وقعتي الأحزاب وبني قريظة تصويرا حيا , في مشاهد متعاقبة , ترسم المشاعر الباطنة , والحركات الظاهرة , والحوار بين الجماعات والأفراد . وفي خلال رسم المعركة وتطوراتها تجيء التوجيهات في موضعها المناسب ; وتجيء التعقيبات على الأحداث مقررة للمنهج القرآني في إنشاء القيم الثابتة التي يقررها للحياة , من خلال ما وقع فعلا , وما جاش في الأخلاد والضمائر .

وطريقة القرآن الدائمة في مثل هذه الوقائع التي يتخذ منها وسيلة لبناء النفوس , وتقرير القيم , ووضعالموازين وإنشاء التصورات التي يريد لها أن تسود . . طريقة القرآن في مثل هذه الوقائع أن يرسم الحركة التي وقعت , ويرسم معها المشاعر الظاهرة والباطنة , ويسلط عليها الأضواء التي تكشف زواياها وخباياها . ثم يقول للمؤمنين حكمه على ما وقع , ونقده لما فيه من خطأ وانحراف , وثناءه على ما فيه من صواب واستقامة , وتوجيهه لتدارك الخطأ والانحراف , وتنمية الصواب والاستقامة . وربط هذا كله بقدر الله وإرادته وعمله ونهجه المستقيم , وبفطرة النفس , ونواميس الوجود .

وهكذا نجد وصف المعركة يبدأ بقوله تعالى:(يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءتكم جنود فأرسلنا عليهم ريحا وجنودا لم تروها , وكان الله بما تعملون بصيرا). . ويتوسطها قوله . (قل:لن ينفعكم الفرار إن فررتم من الموت أو القتل وإذن لا تمتعون إلا قليلا . قل:من ذا الذي يعصمكم من الله إن أراد بكم سوءا أو أراد بكم رحمة . ولا يجدون لهم من دون الله وليا ولا نصيرا). . وبقوله:(لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا). . ويختمها بقوله:(ليجزي الله الصادقين بصدقهم , ويعذب المنافقين إن شاء أو يتوب عليهم إن الله كان غفورا رحيما). .

وهذا إلى جانب عرض تصورات المؤمنين الصادقين للموقف , وتصورات المنافقين والذين في قلوبهم مرض عرضا يكشف عن القيم الصحيحة و الزائفة من خلال تلك التصورات:(وإذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض:ما وعدنا الله ورسوله إلا غرورا). .(ولما رأى المؤمنون الأ حزاب قالوا:هذا ما وعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله , وما زادهم إ لا إيمانا وتسليما). . ثم تجيء العاقبة بالقول الفصل والخبر اليقين:(ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيرا , وكفى الله المؤمنين القتال , وكان الله قويا عزيزا). .

بعد ذلك يجيء قرار تخيير أزواج النبي [ص] اللواتي طالبنه بالتوسعة في النفقة عليهن بعدما وسع الله عليه وعلى المسلمين من فيء بني قريظة العظيم وما قبله من الغنائم . تخييرهن بين متاع الحياة الدنيا وزينتها وإيثار الله ورسوله والدار الآخرة . وقد اخترن الله ورسوله و الدار الآخرة , ورضين هذا المقام الكريم عند الله ورسول الله [ص] , وآثرنه على متاع الحياة . ومن ثم جاءهن البيان عن جزائهن المضاعف في الأجر إن اتقين وفي العذاب إن ارتكبن فاحشة مبينة . وعلل هذه المضاعفة بمقامهن الكريم وصلتهن برسول الله [ص] ونزول القرآن في بيوتهن وتلاوته , والحكمة التي يسمعنها من النبي [ص] واستطرد في بيان جزاء المؤمنين كافة والمؤمنات .

وكان هذا هو الشوط الثالث .

فأما الشوط الرابع فتناول إشارة غير صريحة إلى موضوع تزويج زينب بنت جحش القرشية الهاشمية بنت عمة رسول الله [ص] من زيد بن حارثة مولاه . وما نزل في شأنه أولا من رد أمر المؤمنين والمؤمنات كافة إلى الله , ليس لهم منه شيء , وليس لهم في أنفسهم خيرة . إنما هي إرادة الله وقدره الذي يسير كل شيء , ويستسلم له المؤمن الاستس لام الكامل الصريح:(وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمرا أن يكون لهم الخيرة من أمرهم . ومن يعص الله ورسوله فقد ضل

ضلالا مبينا). .

ثم يعقب حادث الزواج حادث الطلاق ; وما وراءه من إبطال آثار التبني , الذي سبق الكلام عليه في أولالسورة . إبطاله بسابقة عملية ; يختار لها رسول الله [ص] بشخصه , لشدة عمق هذه العادة في البيئة العربية , وصعوبة الخروج عليها . فيقع الابتلاء على رسول الله [ص] ليحملها فيما يحمل من أعباء الدعوة وتقرير أصولها في واقع المجتمع , بعد تقريرها في أعماق الضمير: (فلما قضى زيد منها وطرا زوجناكها لكي لا يكون على المؤمنين حرج في أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهن وطرا . وكان أمر الله مفعولا). .

وبهذه المناسبة يوضح حقيقة العلاقة بين رسول الله [ص] والمؤمنين كافة: (ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين). .

ويختم هذا الشوط بتوجيهات للرسول [ص] ومن معه من المؤمنين . .(ولا تطع الكافرين والمنافقين ودع أذاهم وتوكل على الله وكفى بالله وكيلا). .

ويبدأ الشوط الخامس ببيان حكم المطلقات قبل الدخول . ثم يتناول تنظيم الحياة الزوجية للنبي [ص] فيبين من يحل له من النساء المؤمنات ومن يحرمن عليه . ويستطرد إلى تنظيم علاقة المسلمين ببيوت النبي وزوجاته , في حياته وبعد وفاته وتقرير احتجابهن إلا على آبائهن أو أبنائهن أو إخوانهن أو أبناء إخوانهن أو أبناء أخواتهن أو نسائهن , أو ما ملكت أيمانهن . وإلى بيان جزاء الذين يؤذون رسول الله [ص] في أزواجه وبيوته وشعوره ; ويلعنهم في الدنيا والآخرة . مما يشي بأن المنافقين وغيرهم كانوا يأتون من هذا شيئا كثيرا .

ويعقب على هذا بأمر أزواج النبي وبناته ونساء المؤمنين كافة أن يدنين عليهن من جلابيبهن (ذلك أدنى أن يعرفن فلا يؤذين) . وبتهديد

المنافقين والذين في قلوبهم مرض والمرجفين في المدينة بإغراء النبي [ص] بهم وإخراجهم من المدينة كما خرج من قبل بنو قينقاع وبنو النضير , أو القضاء عليهم كما وقع لبني قريظة أخيرا . وكل هذا يشير إلى شدة إيذاء هذه المجموعة للمجتمع الإسلامي في المدينة بوسائل شريرة خبيثة .

والشوط السادس والأخير في السورة يتضمن سؤال الناس عن الساعة , والإجابة على هذا التساؤل بأن علم الساعة عند الله , والتلويح بأنها قد تكون قريبا . ويتبع هذا مشهد من مشاهد القيامة:(يوم تقلب وجوههم في النار يقولون:يا ليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسولا) . ونقمتهم على سادتهم وكبرائهم الذين أطاعوهم فأضلوهم: (ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا . ربنا آتهم ضعفين من العذاب والعنهم لعنا كبيرا) . .

ثم تختم السورة بإيقاع هائل عميق الدلالة والتأثير:(إنا عرضنا الأمانة على السماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها , وحملها الإنسان , إنه كان ظلوما جهولا . ليعذب الله المنافقين والمنافقات و المشركين والمشركات , ويتوب الله على المؤمنين والمؤمنات . وكان الله غفورا رحيما) . .

وهو إيقاع يكشف عن جسامة العبء الملقى على عاتق البشرية , وعلى عاتق الجماعة المسلمة بصفة خاصة ; وهي التي تنهض وحدها بعبء هذه الأمانة الكبرى . أمانة العقيدة والاستقامة عليها . والدعوة والصبر على تكاليفها , والشريعة والقيام على تنفيذها في أنفسهم وفي الأرض من حولهم . مما يتمشى مع موضوع السورة , وجوها ; وطبيعة المنهج ا لإلهي الذي تتولى السورة تنظيم المجتمع الإسلامي على أساسه .

الوحدة الثانية:9 - 27 الموضوع:مشاهد ولقطات من غزوة الأحزاب

في معترك الحياة ومصطرع الأحداث كانت الشخصية المسلمة تصاغ . ويوما بعد يوم وحدثا بعد حدث كانت هذه الشخصية تنضج وتنموا , وتتضح سماتها . وكانت الجماعة المسلمة التي تتكون من تلك الشخصيات تبرز إلى الوجود بمقوماتها الخاصة وقيمها الخاصة . وطابعها المميز بين سائر الجماعات .

وكانت الأحداث تقسو على الجماعة الناشئة حتى لتبلغ أحيانا درجة الفتنة , وكانت فتنة كفتنة الذهب , تفصل بين الجوهر الأصيل والزبد الزائف ; وتكشف عن حقائق النفوس ومعادنها , فلا تعود خليطا مجهول القيم .

وكان القرآن الكريم يتنزل في إبان الابتلاء أو بعد انقضائه , يصور الأ حداث , ويلقي الأضواء على منحنياته وزواياه , فتنكشف المواقف و المشاعر , والنوايا والضمائر . ثم يخاطب القلوب وهي مكشوفة في النور , عارية من كل رداء وستار ; ويلمس فيها مواضع التأثر والإ ستجابة ; ويربيها يوما بعد يوم , وحادثا بعدحادث ; ويرتب تأثراتها واستجاباتها وفق منهجه الذي يريد .

ولم يترك المسلمون لهذا القرآن , يتنزل بالأوامر والنواهي , وبالتشريعات والتوجيهات جملة واحدة ; إنما أخذهم الله بالتجارب والابتلاءات , و الفتن والامتحانات ; فقد علم الله أن هذه الخليقة البشرية لا تصاغ صياغة سليمة , ولا تنضج نضجا صحيحا , ولا تصح وتستقيم على منهج إلا بذاك النوع من التربية التجريبية الواقعية , التي تحفر في القلوب , وتنقش في الأعصاب ; وتأخذ من النفوس وتعطي في معترك الحياة ومصطرع الأحداث . أما القرآن فيتنزل ليكشف لهذه النفوس عن حقيقة ما يقع ودلالته ; وليوجه تلك القلوب وهي منصهرة بنار الفتنة , ساخنة بحرارة الابتلاء , قابلة للطرق , مطاوعة للصياغة !

ولقد كانت فترة عجيبة حقا تلك التي قضاها المسلمون في حياة الرسول [ص] فترة اتصال السماء بالأرض اتصالا مباشرا ظاهرا , مبلورا

في أحداث وكلمات . ذلك حين كان يبيت كل مسلم وهو يشعر أن عين الله عليه , وأن سمع الله إليه ; وأن كل كلمة منه وكل حركة , بل كل خاطر وكل نية , قد يصبح مكشوفا للناس , يتنزل في شأنه قرآن على رسول الله [ص] . وحين كان كل مسلم يحس الصلة المباشرة بينه وبين ربه ; فإذا حزبه أمر , أو واجهته معضلة , انتظر أن تفتح أبواب السماء غدا أو بعد غد ليتنزل منها حل لمعضلته , وفتوى في أمره , وقضاء في شأنه . وحين كان الله سبحانه بذاته العلية , يقول:أنت يا فلا ن بذاتك قلت كذا , وعملت كذا وأضمرت كذا وأعلنت كذا . وكن كذا , و لا تكن كذا . . ويا له من أمر هائل عجيب ! يا له من أمر هائل عجيب أن يوجه الله خطابه المعين إلى شخص معين . . هو وكل من على هذه الأ رض , وكل ما في هذه الأرض , وكل هذه الأرض . ذرة صغيرة في ملك الله الكبير !

لقد كانت فترة عجيبة حقا , يتملاها الإنسان اليوم , ويتصور حوادثها ومواقفها , وهو لا يكاد يدرك كيف كان ذلك الواقع , الأضخم من كل خيال !

ولكن الله لم يدع المسلمين لهذه المشاعر وحدها تربيهم , وتنضج شخصيتهم المسلمة . بل أخذهم بالتجارب الواقعية , والابتلاءات التي تأخذ منهم وتعطي ; وكل ذلك لحكمة يعلمها , وهو أعلم بمن خلق , وهو اللطيف الخبير .

هذه الحكمة تستحق أن نقف أمامها طويلا , ندركها ونتدبرها ; ونتلقى أحداث الحياة وامتحاناتها على ضوء ذلك الإدراك وهذا التدبير .

وهذا المقطع من سورة الأحزاب يتولى تشريح حدث من الأحداث الضخمة في تاريخ الدعوة الإسلامية , وفي تاريخ الجماعة المسلمة ; ويصف موقفا من مواقف الامتحان العسيرة , وهو غزوة الأحزاب , في السنة الرابعة أو الخامسة للهجرة الامتحان لهذه الجماعة الناشئة , ولكل قيمها وتصوراتها . ومن تدبر هذا النص القرآني , وطريقة عرضه

للحادث , وأسلوبه في الوصف والتعقيب ووقوفه أمام بعض المشاهد و الحوادث , والحركات والخوالج , وإبرازه للقيم والسنن . من ذلك كله ندرك كيف كان الله يربي هذه الأمة بالأحداث والقرآن في آن .

ولكي ندرك طريقة القرآن الخاصة في العرض والتوجيه فإننا قبل البدء في شرح النص القرآني , نثبت رواية الحادث كما عرضتها كتب السيرة - مع الاختصار المناسب - ليظهر الفارق بين سرد الله سبحانه , وسرد البشر للوقائع والأحداث .

عن محمد بن إسحاق قال - بإسناده عن جماعة:

إنه كان من حديث الخندق أن نفرا من اليهود منهم سلام بن أبي الحقيق النضري , وحيي بن أخطب النضري , وكنانة ابن أبي الحقيق النضري , وهوذة بن قيس الوائلي , وأبو عمار الوائلي , في نفر من بني النضير , ونفر من بني وائل , وهم الذين حزبوا الأحزاب على رسول الله [ص] خرجوا حتى قدموا على قريش في مكة , فدعوهم إلى حرب رسول الله [ص] وقالوا:إنا سنكون معكم عليه حتى نستأصله . فقالت لهم قريش:يا معشر يهود , إنكم أهل الكتاب الأول والعلم بما أصبحنا نختلف فيه نحن ومحمد أفديننا خير أم دينه ? قالوا:بل دينكم خير من دينه , وأنتم أولى بالحق منه فهم الذين أنزل الله تعالى فيهم:(ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت , ويقولون للذين كفروا:هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلا)إلى قوله: (أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله ; فقد آتينا آل إبراهيم الكتاب والحكمة وآتيناهم ملكا عظيما . فمنهم من آمن به ومنهم من صد عنه وكفى بجهنم سعيرا).

فلما قالوا ذلك لقريش سرهم ونشطوا لما دعوهم إليه من حرب رسول الله [ص] واتعدوا له .

ثم خرج أولئك النفر من يهود حتى جاءوا غطفان - من قيس عيلان -

فدعوهم إلى حرب رسول الله [ص] , وأخبروهم أنهم سيكونون معهم عليه , وأن قريشا قد تابعوهم على ذلك , فاجتمعوا معهم فيه .

فخرجت قريش وقائدها أبو سفيان بن حرب , وخرجت غطفان وقائدها عيينة بن حصن في بني فزارة , والحارث بن عوف من بني مرة , ومسعر بن رخيلة فيمن تابعه من قومه من أشجع .

فلما سمع بهم رسول الله [ص] وما أجمعوا لهم من الأمر ضرب الخندق على المدينة ; فعمل فيه رسول الله [ص] وعمل معه المسلمون فيه . فدأب فيه ودأبوا . وأبطأ عن رسول الله [ص] وعن المسلمين في عملهم ذلك رجال من المنافقين , وجعلوا يورون بالضعيف من العمل , ويتسللون إلى أهليهم بغير علم من رسول الله [ص] ولا إذن . وجعل الرجل من المسلمين إذا نابته النائبة من الحاجة التي لا بد منها يذكر ذلك لرسول الله [ص] ويستأذنه في اللحوق بحاجته فيأذن له , فإذا قضى حاجته رجع إلى ما كان فيه من عمله رغبة في الخير واحتسابا له . فأنزل الله في أولئك المؤمنين . .(إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله , وإذا كانوا معه على أمر جامع لم يذهبوا حتى يستأذنوه . إن الذين يستأذنونك أولئك الذين يؤمنون بالله ورسوله فإذا استأذنوك لبعض شأنهم فأذن لمن شئت منهم , واستغفر لهم الله , إن الله غفور رحيم). . ثم قال تعالى يعني المنافقين الذين كانوا يتسللون من العمل , ويذهبون بغير إذن من النبي [ص]:(لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضا . قد يعلم الله الذين يتسللون منكم لواذا , فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم). .

ولما فرغ رسول الله [ص] من الخندق أقبلت قريش حتى نزلت بمجتمع الأسيال من رومة , في عشرة الاف من أحابيشهم ومن تبعهم من بني كنانة وأهل تهامة . وأقبلت غطفان ومن تبعهم من أهل نجد حتى نزلوا بذنب نقمى إلى جانب أحد . وخرج رسول الله [ص] و المسلمون حتى جعلوا ظهورهم إلى سلع في ثلاثة الاف من المسلمين ;

فضرب هناك عسكره والخندق بينه وبين القوم ,وأمر بالذراري والنساء فجعلوا في الآطام [أي الحصون] .

وخرج عدو الله حيي بن أخطب النضري حتى أتى كعب بن أسد القرظي صاحب عقد بني قريظة وعهدهم . وكان قد وادع رسول الله [ص] عن قومه , وعاقده على ذلك وعاهده . . فلم يزل حيي بكعب يفتله في الذروة والغارب [أي ما زال يروضه ويخاتله] حتى سمح له - على أن أعطاه عهدا وميثاقا:لئن رجعت قريش وغطفان ولم يصيبوا محمدا أن أدخل معك في حصنك حتى يصيبني ما أصابك . فنقض كعب ابن أسد عهده , وبرئ مما كان بينه وبين رسول الله [ص] .

وعظم عند ذلك البلاء , واشتد الخوف ; وأتاهم عدوهم من فوقهم ومن أسفل منهم , حتى ظن المؤمنون كل ظن , ونجم النفاق من بعض المنافقين , حتى قال معتب بن قشير أخو بني عمرو بن عوف:كان محمد يعدنا أن نأكل كنوز كسرى وقيصر , وأحدنا اليوم لا يأمن على نفسه أن يذهب إلى الغائط ! وحتى قال أوس بن قيظي أحد بني حارثة بن الحارث:يا رسول الله , إن بيوتنا عورة من العدو - وذلك عن ملأ من رجال قومه - فأذن لنا أن نخرج فنرجع إلى دارنا , فإنها خارج من المدينة .

فأقام رسول الله [ص] وأقام عليه المشركون بضعا وعشرين ليلة , قريبا من شهر . لم تكن بينه وبينهم حرب إلا الرميا بالنبل والحصار .

فلما اشتد على الناس البلاء بعث رسول الله [ص] إلى عيينة بن حصن وإلى الحارث ابن عوف - وهما قائدا غطفان - فأعطاهما ثلث ثمار المدينة , على أن يرجعا بمن معهما عنه وعن أصحابه , فجرى بينه وبينهما الصلح حتى كتبوا الكتابة ; ولم تقع الشهادة ولا عزيمة الصلح , إ لا المراوضة في ذلك . فلما أراد رسول الله [ص] أن يفعل , بعث إلى سعد بن معاذ [سيد الأوس] وسعد بن عبادة [سيد الخزرج] فذكر ذلك لهما . و استشارهما فيه , فقالا له:يا رسول الله , أمرا تحبه فنصنعه ? أم

شيئا أمرك الله به لا بد لنا من العمل به ? أم شيئا تصنعه لنا ? قال:" بل شيء أصنعه لكم , والله ما أصنع ذلك إلا لأنني رأيت العرب قد رمتكم عن قوس واحدة وكالبوكم من كل جانب , فأردت أن أكسر عنكم من شوكتهم إلى أمر ما " . فقال سعد بن معاذ:يا رسول الله قد كنا نحن وهؤلاء القوم على الشرك بالله وعبادة الأوثان , لا نعبد الله ولا نعرفه , وهم لا يطمعون أن يأكلوا منها ثمرة إلا قرى أو بيعا . أفحين أكرمنا الله بالإسلام , وهدانا له , وأعزنا بك وبه نعطيهم أموالنا ? والله ما لنا بهذا من حاجة , والله لا نعطيهم إلا السيف حتى يحكم الله بيننا وبينهم . قال رسول الله [ص]:" فأنت وذاك " . فتناول سعد بن معاذ الصحيفة , فمحا ما فيها من الكتاب , ثم قال:ليجهدوا علينا .

وأقام رسول الله [ص] وأصحابه فيما وصف الله من الخوف والشدة , لتظاهر عدوهم عليهم , وإتيانهم من فوقهم ومن أسفل منهم .

ثم إن نعيم بن مسعود بن عامر [من غطفان] أتى رسول الله [ص] فقال:يا رسول الله إني قد أسلمت , وإن قومي لم يعلموا بإسلامي , فمرني بما شئت . فقال رسول الله [ص]:" إنما أنت فينا رجل واحد فخذل عنا إن استطعت , فإن الحرب خدعة " .

[وقد فعل حتى أفقد الأحزاب الثقة بينهم وبين بني قريظة في تفصيل مطول تحدثت عنه روايات السيرة ونختصره نحن خوف الإطالة] . . .

وخذل الله بينهم - وبعث الله عليهم الريح في ليلة شاتية باردة شديدة البرد . فجعلت تكفأ قدورهم وتطرح أبنيتهم [يعني خيامهم وما يتخذونه للطبخ من مواقد . . . الخ] .

فلما انتهى إلى رسول الله [ص] ما اختلف من أمرهم , وما فرق الله من جماعتهم , دعا حذيفة بن اليمان , فبعثه إليهم لينظر ما فعله القوم ليلا .

قال ابن إسحاق:فحدثني زيد بن زياد عن محمد بن كعب القرظي قال:

قال رجل من أهل الكوفة لحذيفة بن اليمان:يا أبا عبد الله . أرأيتم رسول الله [ص] وصحبتموه ؟ قال:نعم يا ابن أخي . قال:فكيف كنتم تصنعون ؟ قال:والله لقد كنا نجهد . فقال:والله لو أدركناه ما تركناه يمشي على الأرض , ولحملناه على أعناقنا . قال:فقال حذيفة:يا ابن أخي . والله لقد رأيتنا مع رسول الله [ص] بالخندق , وصلى رسول الله - هويا من الليل ; ثم التفت إلينا فقال:" من رجل يقوم فينظر لنا ما فعل القوم , ثم يرجع , يشرط له رسول الله [ص] الرجعة . أسأل الله تعالى أن يكون رفيقي في الجنة ؟ " فما قام رجل من القوم من شدة الخوف , وشدة الجوع , وشدة البرد . فلما لم يقم أحد دعاني رسول الله [ص] فلم يكن لي بد من القيام حين دعاني . فقال:" يا حذيفة اذهب فادخل في القوم فانظر ماذا يصنعون , ولا تحدث شيئا حتى تأتينا " قال:فذهبت فدخلت في القوم , والريح وجنود الله تفعل بهم ما تفعل , و لا تقر لهم قدرا ولا نارا ولا بناء . فقام أبو سفيان فقال:يا معشر قريش لينظر امرؤ من جليسه . قال حذيفة:فأخذت الرجل الذي كان إلى جنبي فقلت:من أنت ؟ قال:فلان ابن فلان ! ثم قال أبو سفيان:يا معشر قريش , إنكم والله ما أصبحتم بدار مقام . لقد هلك الكراع والخف [يعني الخيل والجمال] وأخلفتنا بنو قريظة , وبلغنا عنهم الذي نكره , ولقينا من شدة الريح ما ترون . ما تطمئن لنا قدر , ولا تقوم لنا نار , ولا يستمسك لنا بناء . . فارتحلوا فإني مرتحل . . ثم قام إلى جمله وهو معقول , فجلس عليه ثم ضربه فوثب به على ثلاث . فوالله ما أطلق عقاله إلا وهو قائم . ولولا عهد رسول الله [ص] إلي ألا تحدث شيئا حتى تأتيني , ثم شئت لقتلته بسهم .

قال حذيفة:فرجعت إلى رسول الله [ص] وهو قائم يصلي في مرط [أي كساء] لبعض نسائه مرجل [من وشي اليمن] فلما رآني أدخلني إلى رجليه , وطرح علي طرف المرط ; ثم ركع وسجد وإني لفيه . فلما سلم أخبرته الخبر . . وسمعت غطفان بما فعلت قريش فانشمروا راجعين إلى بلادهم .

إن النص القرآني يغفل أسماء الأشخاص , وأعيان الذوات , ليصور نماذج البشر وأنماط الطباع . ويغفل تفصيلات الحوادث وجزئيات الوقائع , ليصور القيم الثابتة والسنن الباقية . هذه التي لا تنتهي بانتهاء الحادث , ولا تنقطع بذهاب الأشخاص , ولا تنقضي بانقضاء الملابسات , ومن ثم تبقى قاعدة ومثلا لكل جيل ولكل قبيل . ويحفل بربط المواقف و الحوادث بقدر الله المسيطر على الأحداث والأشخاص , ويظهر فيها يد اللهالقادرة وتدبيره اللطيف , ويقف عند كل مرحلة في المعركة للتوجيه والتعقيب والربط بالأصل الكبير .

ومع أنه كان يقص القصة على الذين عاشوها , وشهدوا أحداثها , فإنه كان يزيدهم بها خبرا , ويكشف لهم من جوانبها ما لم يدركوه وهم أصحابها وأبطالها ! ويلقي الأضواء على سراديب النفوس ومنحنيات القلوب ومخبآت الضمائر ; ويكشف للنور الأسرار والنوايا والخوالج المستكنة في أعماق الصدور .

ذلك إلى جمال التصوير , وقوته , وحرارته , مع التهكم القاصم , و التصوير الساخر للجبن والخوف والنفاق والتواء الطباع ! ومع الجلال الرائع والتصوير الموحي للإيمان والشجاعة والصبر والثقة في نفوس المؤمنين .

إن النص القرآني معد للعمل - لا في وسط أولئك الذين عاصروا الحادث وشاهدوه فحسب . ولكن كذلك للعمل في كل وسط بعد ذلك وفي كل تاريخ . معد للعمل في النفس البشرية إطلاقا كلما واجهت مثل ذلك الحادث أو شبهه في الآماد الطويلة , والبيئات المنوعة . بنفس القوة التي عمل بها في الجماعة الأولى .

ولا يفهم النصوص القرآنية حق الفهم إلا من يواجه مثل الظروف التي واجهتها أول مرة . هنا تتفتح النصوص عن رصيدها المذخور , وتتفتح القلوب لإدراك مضامينها الكاملة . وهنا تتحول تلك النصوص من كلمات وسطور إلى قوى وطاقات . وتنتفض الأحداث والوقائع المصورة فيها .

تنتفض خلائق حية , موحية , دافعة , دافقة , تعمل في واقع الحياة , وتدفع بها إلى حركة حقيقية , في عالم الواقع وعالم الضمير .

إن القرآن ليس كتابا للتلاوة ولا للثقافة . . وكفى . . إنما هو رصيد من الحيوية الدافعة ; وإيحاء متجدد في المواقف والحوادث ! ونصوصه مهيأة للعمل في كل لحظة , متى وجد القلب الذي يتعاطف معه ويتجاوب , ووجد الظرف الذي يطلق الطاقة المكنونة في تلك النصوص ذات السر العجيب !

وإن الإنسان ليقرآ النص القرآني مئات المرات ; ثم يقف الموقف , أو يواجه الحادث , فإذا النص القرآني جديد , يوحي إليه بما لم يوح من قبل قط , ويجيب على السؤال الحائر , ويفتي في المشكلة المعقدة , ويكشف الطريق الخافي , ويرسم الاتجاه القاصد , ويفيء بالقلب إلى اليقين الجازم في الأمر الذي يواجهه , وإلى الاطمئنان العميق .

وليس ذلك لغير القرآن في قديم ولا حديث .

يبدأ السياق القرآني الحديث عن حادث الأحزاب بتذكير المؤمنين بنعمة الله عليهم أن رد عنهم الجيش الذي هم أن يستأصلهم , لولا عون الله وتدبيره اللطيف . ومن ثم يجمل في الآية الأولى طبيعة ذلك الحادث , وبدءه ونهايته , قبل تفصيله وعرض مواقفه . لتبرز نعمة الله التي يذكرهم بها , ويطلب إليهم أن يتذكروها ; وليظهر أن الله الذي يأمر المؤمنين باتباع وحيه , والتوكل عليه وحده , وعدم طاعة الكافرين و المنافقين , هو الذي يحمي القائمين على دعوته ومنهجه , من عدوان الكافرين والمنافقين:

الوحدة الثالثة:28 - 35 الموضوع:توجيهات لزوجات النبي وباقي المسلمات

هذا الدرس الثالث في سورة الأحزاب خاص بأزواج النبي [ص] فيما عدا الاستطراد الأخير لبيان جزاء المسلمين كافة والمسلمات - ولقد سبق

في أوائل السورة تسميتهن (أمهات المؤمنين). ولهذه الأمومة تكاليفها . و للمرتبة السامية التي استحققن بها هذه الصفة تكاليفها . و لمكانتهن من رسول الله [ص] تكاليفها . وفي هذا الدرس بيان لشيء من هذه التكاليف ; وإقرار للقيم التي أراد الله لبيت النبوة الطاهر أن يمثلها , وأن يقوم عليها , وأن يكون فيها منارة يهتدي بها السالكون .

الوحدة الرابعة:36 - 48 الموضوع:حقائق حول الخضوع لحكم الله وذكره ومهمة الرسول عليه السلام وزواجه بزينب بنت جحش

هذا الدرس شوط جديد في إعادة تنظيم الجماعة المسلمة على أساس التصور الإسلامي . وهو يختص ابتداء بإبطال نظام التبني الذي ورد الحديث عنه في أول السورة . وقد شاء الله أن ينتدب لإبطال هذا التقليد من الناحية العملية رسوله [ص] وقد كانت العرب تحرم مطلقة ا لابن بالتبني حرمة مطلقة الابن من النسب ; وما كانت تطيق أن تحل مطلقات الأدعياء عملا , إلا أن توجد سابقة تقرر هذه القاعدة الجديدة . فانتدب الله رسوله ليحمل هذا العبء فيما يحمل من أعباء الرسالة . وسنرى من موقف النبي [ص] من هذه التجربة أنه ما كان سواه قادرا على احتمال هذا العبء الجسيم , ومواجهة المجتمع بمثل هذه الخارقة لمألوفه العميق ! وسنرى كذلك أن التعقيب على الحادث كان تعقيبا طوي لا لربط النفوس بالله ولبيان علاقه المسلمين بالله وعلاقتهم بنبيهم , ووظيفة النبي بينهم . . كل ذلك لتيسير الأمر على النفوس , وتطييب القلوب لتقبل أمرالله في هذا التنظيم بالرضى والتسليم .

ولقد سبق الحديث عن الحادث تقرير قاعدة أن الأمر لله ورسوله , وأنه(ما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمرا أن يكون لهم الخيرة من أمرهم). مما يوحي كذلك بصعوبة هذا الأمر الشاق المخالف لمألوف العرب وتقاليدهم العنيفة .

الوحدة الخامسة:49 - 62 الموضوع:توجيهات لحياة الرسول الخاصة وتعامل المسلمين معه

هذا الشوط من السورة يتضمن في أوله حكما عاما من أحكام القرآن التشريعية في تنظيم شؤون الأسرة . ذلك حكم المطلقات قبل الدخول . يجيء بعده أحكام خاصة لتنظيم حياة النبي [ص] حياته الزوجية الخاصة مع نسائه وعلاقات نسائه كذلك ببقية الرجال , وعلاقة المسلمين ببيت الرسول . وكرامة الرسول وبيته على الله وعلى ملائكته والملأ الأعلى . . وينتهي بحكم عام يشترك فيه نساء النبي وبناته ونساء المؤمنين , يأمرهن فيه بإرخاء جلابيبهن عند الخروج لقضاء الحاجة حتى يتميزن بهذا الزي السابغ ويعرفن , فلا يتعرض لهن ذوو السيرة السيئة من المنافقين والمرجفين والفساق الذين كانوا يتعرضون للنساء في المدينة ! ويختم بتهديد هؤلاء المنافقين والمرجفين بالإجلاء عن المدينة ما لم ينتهوا عن إيذاء المؤمنات وإشاعة الفساد . .

وهذه التشريعات والتوجيهات طرف من إعادة تنظيم الجماعة المسلمة على أساس التصور الإسلامي . فأما ما يختص بحياة الرسول الشخصية , فقد شاء الله أن يجعل حياة هذا البيت صفحة معروضة للأجيال , فضمنها

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحاً جَمِيلاً (49)

هذا القرآن الباقي , المتلو في كل زمان ومكان ; وهي في الوقت ذاته آية تكريم الله - سبحانه - لهذا البيت , الذي يتولى بذاته العلية أمره , ويعرضه للبشرية كافة في قرآنه الخالد على الزمان . .

الوحدة السادسة:63 - 73 الموضوع:مشاهد من القيامة ومبدأ الأمانة وحقيقة الحساب والجزاء والعقاب

في هذا الدرس الأخير من السورة حديث عن سؤال الناس عن الساعة ,

واستعجالهم بها , وشكهم فيها . وجواب عن هذا السؤال يدع أمرها إلى الله , مع تحذيرهم من قربها , واحتمال أن تأخذهم على غرة أخذا سريعا . ثم يعرض السياق مشهدا من مشاهد الساعة لا يسر المستعجلين بها , يوم تقلب وجوههم في النار . ويوم يندمون على عدم طاعة الله ورسوله . ويوم يطلبون لسادتهم وكبرائهم ضعفين من العذاب . وهو مشهد مفجع لا يستعجل به مستعجل . . ثم يعود بهم من هذا المشهد في الاخرة إلى هذه الأرض مرة أخرى ! يعود ليحذر الذين آمنوا أن يكونوا كقوم موسى الذين آذوه واتهموه فبرأه الله مما قالوا - ويبدو أن هذا كان ردا على أمر واقع . ربما كان هو حديث بعضهم عن زواج الرسول [ص] بزينب , ومخالفته لمألوف العرب - ويدعو المؤمنين أن يقولوا قولا سديدا بعيدا عن اللمز والعيب . ليصلح الله لهم أعمالهم ويغفر لهم ذنوبهم . ويحببهم في طاعة الله ورسوله ويعدهم عليها الفوز العظيم .

ويختم السورة بالإيقاع الهائل العميق . عن الأمانة التي أشفقت من حملها السماوات والأرض والجبال , وحملها الإنسان , وهي ضخمة هائلة ساحقة . ذلك ليتم تدبير الله في ترتيب الجزاء على العمل , ومحاسبة ا لإنسان على ما رضي لنفسه واختار:(ليعذب الله المنافقين والمنافقات و المشركين والمشركات ويتوب الله على المؤمنين والمؤمنات وكان الله غفورا رحيما). .

سورة سبأ

موضوعات هذه السورة المكية هي موضوعات العقيدة الرئيسية:توحيد الله , والإيمان بالوحي , والاعتقاد بالبعث . وإلى جوارها تصحيح بعض القيم الأساسية المتعلقة بموضوعات العقيدة الرئيسية . وبيان أن الإ يمان والعمل الصالح - لا الأموال ولا الأولاد - هما قوام الحكم والجزاء عند الله . وأنه ما من قوة تعصم من بطش الله وما من شفاعة عنده إلا

بإذنه .

والتركيز الأكبر في السورة على قضية البعث والجزاء ; وعلى إحاطة علم الله وشموله ودقته ولطفه . وتتكرر الإشارة في السورة إلى هاتين القضيتين المترابطتين بطرق منوعة , وأساليب شتى ; وتظلل جو السورة كله من البدء إلى النهاية .

فعن قضية البعث يقول: (وقال الذين كفروا:لا تأتينا الساعة . قل:بلى وربي لتأتينكم). .

وعن قضية الجزاء يقول:(ليجزي الذين آمنوا وعملوا الصالحات , أولئك لهم مغفرة ورزق كريم . والذين سعوا في آياتنا معاجزين أولئك لهم عذاب من رجز أليم). .

وفي موضع آخر قريب في سياق السورة:(وقال الذين كفروا هل ندلكم على رجل ينبئكم إذا مزقتم كل ممزق إنكم لفي خلق جديد ? أفترى على الله كذبا أم به جنة ? بل الذين لا يؤمنون بالآخرة في العذاب والضلال البعيد).

ويورد عدة مشاهد للقيامة , وما فيها من تأنيب للمكذبين بها , ومن صور العذاب الذي كانوا يكذبون به , أو يشكون في وقوعه كهذا المشهد: (ولو ترى إذ الظالمون موقوفون عند ربهم يرجع بعضهم إلى بعض القول . يقول الذين استضعفوا للذين استكبروا:لولا أنتم لكنا مؤمنين . قال الذين استكبروا للذين استضعفوا:أنحن صددناكم عن الهدى بعد إذ جاءكم ? بل كنتم مجرمين . وقال الذين استضعفوا للذين استكبروا:بل مكر الليل والنهار إذ تأمروننا أن نكفر بالله ونجعل له أنداداً . وأسروا الندامة لما رأوا العذاب , وجعلنا الأغلال في أعناق الذين كفروا . هل يجزون إلا ما كانوا يعملون ?). .

وتتكرر هذه المشاهد وتتوزع في السورة وتختم بها كذلك: ولو ترى إذ فزعوا فلا فوت وأخذوا من مكان قريب . وقالوا:آمنا به . وأنى لهم

التناوش من مكان بعيد ? وقد كفروا به من قبل ويقذفون بالغيب من مكان بعيد وحيل بينهم وبين ما يشتهون كما فعل بأشياعهم من قبل . إنهم كانوا في شك مريب .

وعن قضية العلم الإلهي الشامل يرد في مطلع السورة: (يعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها , وما ينزل من السماء وما يعرج فيها). .

ويرد تعقيباً على التكذيب بمجيء الساعة: (قل:بلى وربي لتأتينكم عالم الغيب , لا يعزب عنه مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض , ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا في كتاب مبين). .

ويرد قرب ختام السورة:(قل:إن ربي يقذف بالحق علام الغيوب). .

وفي موضوع التوحيد تبدأ السورة بالحمد لله (الذي له ما في السماوات وما في الأرض , وله الحمد في الآخرة وهو الحكيم الخبير). .

ويتحداهم مرات في شأن الشركاء الذين يدعونهم من دون الله:(قل:ادعوا الذين زعمتم من دون الله , لا يملكون مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض , وما لهم فيهما من شرك , وما له منهم من ظهير). .

وتشير الآيات إلى عبادتهم للملائكة وللجن وذلك في مشهد من مشاهد القيامة: (ويوم يحشرهم جميعاًثم يقول للملائكة:أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون ? قالوا:سبحانك ! أنت ولينا من دونهم . بل كانوا يعبدون الجن أكثرهم بهم مؤمنون).

وينفي ما كانوا يظنونه من شفاعة الملائكة لهم عند ربهم:(ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له , حتى إذا فزّع عن قلوبهم قالوا:ماذا قال ربكم ? قالوا:الحق وهو العلي الكبير). .

وبمناسبة عبادتهم للشياطين ترد قصة سليمان وتسخير الجن له , وعجزهم عن معرفة موته:(فلما قضينا عليه الموت ما دلهم على موته إلا

دابة الأرض تأكل منسأته . فلما خر تبينت الجن أن لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا في العذاب المهين). .

وفي موضوع الوحي والرسالة يرد قوله: (وقال الذين كفروا:لن نؤمن بهذا القرآن ولا بالذي بين يديه). . وقوله:(وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قالوا:ما هذا إلا رجل يريد أن يصدكم عما كان يعبد آباؤكم . وقالوا:ما هذا إلا إفك مفترى , وقال الذين كفروا للحق لما جاءهم:إن هذا إلا سحر مبين). .

ويرد عليهم بتقرير الوحي والرسالة:(ويرى الذين أوتوا العلم الذي أنزل إليك من ربك هو الحق , ويهدي إلى صراط العزيز الحميد). .(وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً . ولكن أكثر الناس لا يعلمون). .

وفي موضوع تقرير القيم يرد قوله:(وما أرسلنا في قرية من نذير إلا قال مترفوها:إنا بما أرسلتم به كافرون . وقالوا:نحن أكثر أموالا ً وأولاداً وما نحن بمعذبين . قل:إن ربي يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر , ولكن أكثر الناس لا يعلمون . وما أموالكم ولا أولادكم بالتي تقربكم عندنا زلفى إلا من آمن وعمل صالحاً , فأولئك لهم جزاء الضعف بما عملوا وهم في الغرفات آمنون . والذين يسعون في آياتنا معاجزين أولئك في العذاب محضرون). .

ويضرب على هذا أمثلة من الواقع التاريخي في هذه الأرض:قصة آل داود الشاكرين على نعمة الله . وقصة سبأ المتبطرين الذين لا يشكرون . وما وقع لهؤلاء وهؤلاء . وفيه مصداق مشهود للوعد والوعيد .

هذه القضايا التي تعالجها السور المكية في صور شتى , تعرض في كل سورة في مجال كوني , مصحوبة بمؤثرات منوعة , جديدة على القلب في كل مرة . ومجال عرضها في سورة سبأ هذه هو ذلك المجال , ممثلا ً في رقعة السماوات والأرض الفسيحة , وفي عالم الغيب المجهول المرهوب . وفي ساحة الحشر الهائلة العظيمة . وفي أعماق النفس

المطوية اللطيفة . وفي صحائف التاريخ المعلومة والمجهولة , وفي مشاهد من ذلك التاريخ عجيبة غريبة . وفي كل منها مؤثر موح للقلب البشري , موقظ له من الغفلة والضيق والهمود .

فمنذ افتتاح السورة وهي تفتح على هذا الكون الهائل ; وعلى صحائفه وما فيها من آيات الله , وعلى مجالي علمه اللطيف الشامل الدقيق الهائل: (يعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها , وما ينزل من السماء وما يعرج فيها). .(وقال الذين كفروا:لا تأتينا الساعة . قل:بلى وربي لتأتينكم عالم الغيب لا يعزب عنه مثقال ذرة في السماوات ولا في الأ رض , ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا في كتاب مبين). .

والذين يكذبون بالآخرة يتهددهم بأحداث كونية ضخمة:(أفلم يروا إلى ما بين أيديهم وما خلفهم من السماء والأرض ? إن نشأ نخسف بهم الأ رض أو نسقط عليهم كسفاً من السماء . إن في ذلك لآية لكل عبد منيب). .

والذين يعبدون من دون الله ملائكة أو جناً يقفهم وجهاً لوجه أمام الغيب المرهوب في الملأ الأعلى:(ولاتنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له . حتى إذا فزع عن قلوبهم قالوا:ماذا قال ربكم ? قالوا:الحق . وهو العلي الكبير). .

أو يواجههم بالملائكة في ساحة الحشر حيث لا مجال للمواربة و المجادلة: (ويوم يحشرهم جميعا ثم يقول للملائكة:أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون) . . . الخ.

والمكذبون لرسول الله [ص] الذين يتهمونه بالافتراء أو أن به جنة يقفهم أمام فطرتهم , وأمام منطق قلوبهم بعيداً عن الغواشي والمؤثرات المصطنعة:(قل:إنما أعظكم بواحدة . أن تقوموا لله مثنى وفرادى ثم تتفكروا . ما بصاحبكم من جنة . إن هو إلا نذير لكم بين يدي عذاب شديد). .

وهكذا تطوف السورة بالقلب البشري في تلك المجالات المتنوعة , وتواجهه بتلك المؤثرات الموحية الموقظة . حتى تنتهي بمشهد عنيف أخاذ من مشاهد القيامة كما أسلفنا . .

ويجري سياق السورة في عرض موضوعاتها في تلك المجالات وتحت تلك المؤثرات في جولات قصيرة متلاحقة متماسكة ; يمكن تقسيمها إلى خمسة أشواط لتيسير عرضها وشرحها . وإلا فإنه ليس بينها فواصل تحددها تحديداً دقيقاً . . وهذا هو طابع السورة الذي يميزها . .

تبدأ السورة بالحمد لله , المالك لما في السموات والأرض المحمود في الآخرة , وهو الحكيم الخبير . وتقرر علمه الشامل الدقيق لما يلج في الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها . وتحكي إنكار الذين كفروا لمجيء الساعة ورد الله عليهم بتوكيد مجيئها , وعلم الله الذي لا يعزب عنه مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض ولا أصغر من ذلك ولا أكبر . ليتم جزاء المؤمنين وجزاء الذين يسعون في آيات الله معاجزين , عن علم دقيق . وتثبت رأي أولي العلم الحقيقي الذين يشهدون أن ما أنزل الله لنبيه هو الحق . وتحكي عجب الذين كفروا من قضية البعث , وترد عليهم بأنهم في العذاب والضلال البعيد ; وتهددهم بخسف الأرض من تحتهم أو إسقاط السماء كسفاً عليهم . .

وبذلك ينتهي الشوط الأول .

فأما الشوط الثاني فيتناول طرفاً من قصة آل داود الشاكرين لله على نعمته , بتسخير قوى كثيرة لداود وسليمان بإذن الله . غير متبطرين ولا مستكبرين , ومن هذه القوى المسخرة الجن الذين كان يعبدهم بعض المشركين , ويستفتونهم في أمر الغيب . وهم لا يعلمون الغيب . وقد ظلوا يعملون لسليمان عملاً شاقاً مهيناً بعد موته وهم لا يعلمون . . . وفي مقابل قصة الشكر تجيء قصة البطر . قصة سبأ . وما كانوا فيه من نعيم لم يشكروه: (فجعلناهم أحاديث ومزقناهم كل ممزق). . وذلك أنهم اتبعوا الشيطان , وما كان له عليهم من سلطان , لولا أنهم أعطوه

قيادهم مختارين !

ويبدأ الشوط الثالث بتحدي المشركين أن يدعوا الذين يزعمونهم آلهة من دون الله . وهم (لا يملكون مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض وما لهم فيهما من شرك وما له منهم من ظهير). . وهم لا يملكون لهم شفاعة عند الله - ولو كانوا من الملائكة - فالملائكة يتلقون أمر الله ب الخشوع الراجف ; ولا يتحدثون حتى يزول عنهم الفزع والارتجاف العميق . . ويسألهم عمن يرزقهم من السماوات والأرض . والله مالك السماوات والأرض , وهو الذي يرزقهم بلا شريك . . ثم يفوض أمره وأمرهم إلى الله , وهو الذي يفصل فيما هم مختلفون . . ويختم هذا الشوط بالتحدي كما بدأه , أن يروه الذين يلحقونهم ب الله شركاء . (كلا بل هو الله العزيز الحكيم). .

والشوط الرابع والشوط الخامس يعالجان معاً قضية الوحي والرسالة , وموقفهم منها , وموقف المترفين من كل دعوة , واعتزازهم بأموالهم وأولادهم ; ويقرران القيم الحقيقية التي يكون عليها الحساب والجزاء , وهي قيم الإيمان والعمل الصالح لا الأموال والأولاد . ويعرضان مصائر المؤمنين والمكذبين في عدة مشاهد متنوعة من مشاهد القيامة , يتبرأ فيها التابعون من المتبوعين . كما يتبرأ فيها الملائكة من عبادة الضالين المشركين . . ويدعوهم بين هذه المشاهد إلى أن يرجعوا إلى فطرتهم يستلهمونها مجردة عن الهوى وعن الضجيج في أمر هذا الرسول الذي يندفعون في تكذيبه بلا دليل . وهو لا يطلب إليهم أجراً على الهدى , وليس بكاذب ولا مجنون . . ويختم كل من الشوطين بمشهد من مشاهد القيامة . وتنتهي السورة بإيقاعات قصيرة قوية: قل:إن ربي يقذف ب الحق علام الغيوب . قل جاء الحق وما يبدئ الباطل وما يعيد . قل:إن ضللت فإنما أضل على نفسي وإن اهتديت فبما يوحي إليّ ربي إنه سميع قريب . . وتختم بمشهد من مشاهد القيامة قصير الخطى قوي عنيف .

هذه السورة المكّية نسق خاص في موضوعها وفي سياقها . أقرب ما تكون إلى نسق سورة الرعد . فهي تمضي في إيقاعات تتوالى على القلب البشري من بدئها إلى نهايتها . إيقاعات موحية مؤثرة تهزه هزاً , وتوقظه من غفلته ليتأمل عظمة هذا الوجود , وروعة هذا الكون ; وليتدبر آيات الله المبثوثة في تضاعيفه , المتناثرة في صفحاته ; وليتذكر آلاء الله , ويشعر برحمته ورعايته ; وليتصور مصارع الغابرين في الأرض ومشاهدهم يوم القيامة ; وليخشع ويعنو وهو يواجه بدائع صنع الله , وآثار يده في أطواء الكون , وفي أغوار النفس , وفي حياة البشر , وفي أحداث التاريخ . وهو يرى ويلمس في تلك البدائع وهذه الآ ثار وحدة الحق ووحدة الناموس , ووحدة اليد الصانعة المبدعة القوية القديرة . . . ذلك كله في أسلوب وفي إيقاع لا يتماسك له قلب يحس ويدرك , ويتأثر تأثر الأحياء .

والسورة وحدة متماسكة متوالية الحلقات متتالية الإيقاعات . يصعب تقسيمها إلى فصول متميزة الموضوعات فهي كلها موضوع واحد . كلها إيقاعات على أوتار القلب البشري , تستمد من ينابيع الكون والنفس و الحياة والتاريخ والبعث . فتأخذ على النفس أقطارها وتهتف بالقلب من كل مطلع , إلى الإيمان والخشوع والإذعان .

والسمة البارزة الملحوظة في هذه الإيقاعات هي تجميع الخيوط كلها في يد القدرة المبدعة . وإظهار هذه اليدتحرك الخيوط كلها وتجمعها ; وتقبضها وتبسطها , وتشدها وترخيها . بلا معقب ولا شريك ولا ظهير .

ومنذ ابتداء السورة نلمح هذه السمة البارزة , وتطرد إلى ختامها . .

هذا الكون الهائل نلمح اليد القادرة القاهرة تبرزه إلى الوجود وفق ما تريد:(الحمد لله فاطر السماوات والأرض , جاعل الملائكة رسلا ً أولي أجنحة مثنى وثلاث ورباع . يزيد في الخلق ما يشاء إن الله على كل

شيء قدير). .

وهذه القبضة القوية تنفرج فترسل بالرحمة تتدفق وتفيض , وتنقبض فتغلق ينابيعها وتغيض . بلا معقب ولا شريك:

(ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها , وما يمسك فلا مرسل له من بعده , وهو العزيز الحكيم). .

والهدى والضلال رحمة تتدفق أو تغيض: (فإن الله يضل من يشاء ويهدي من يشاء). . (إن الله يُسمع من يشاء وما أنت بمسمع من في القبور . إن أنت إلا نذير). .

وهذه اليد تصنع الحياة الأولى وتنشر الموتى في الحياة الآخرة:(والله الذي أرسل الرياح , فتثير سحاباً , فسقناه إلى بلد ميت , فأحيينا به الأ رض بعد موتها . كذلك النشور). .

والعزة كلها لله ومنه وحده تستمد: (من كان يريد العزة فلله العزة جميعاً). . والخلق والتكوين والنسل والأجل خيوطها كلها في تلك اليد لا تند عنها:(والله خلقكم من تراب , ثم من نطفة , ثم جعلكم أزواجاً . وما تحمل من أنثى ولا تضع إلا بعلمه . وما يعمر من معمر , ولا ينقص من عمره إلا في كتاب . إن ذلك على الله يسير):

وفي تلك القبضة تتجمع مقاليد السماوات والأرض وحركات الكواكب وا لأفلاك (يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل , وسخر الشمس و القمر كل يجري لأجل مسمى . ذلكم الله ربكم له الملك . والذين تدعون من دونه ما يملكون من قطمير

ويد الله المبدعة تعمل في هذا الكون بطريقتها المعلمة , وتصبغ وتلون في الجماد والنبات والحيوان والإنسان:

(ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء , فأخرجنا به ثمرات مختلفاً ألوانها , ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود , ومن

الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه كذلك).

وهذه اليد تنقل خطى البشر , وتورث الجيل الجيل: (ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا). . (هو الذي جعلكم خلائف في الأرض). .

وهي تمسك بهذا الكون الهائل تحفظه من الزوال . (إن الله يمسك السماوات والأرض أن تزولا , ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده). .

وهي القابضة على أزمة الأمور لا يعجزها شيء على الإطلاق: (وما كان الله ليعجزه من شيء في السماوات ولا في الأرض). .

وهو (على كل شيء قدير). . وهو (العزيز الحكيم). . (وإلى الله ترجع الأمور)وهو (عليم بما يصنعون). . (وله الملك). . وهو (الغني الحميد). . (وإلى الله المصير). . وهو (عزيز غفور). . وهو (غفور شكور). . وإنه بعباده (لخبير بصير). . وهو (عالم غيب السماوات والأرض). . وهو (عليم بذات الصدور). . وكان (حليماً غفوراً). . وكان (عليماً قديراً). . وكان (بعباده بصيراً). .

ومن تلك الآيات وهذه التعقيبات يرتسم جو السورة , والسمة الغالبة عليها , والظل الذي تلقيه في النفس على وجه العموم .

ونظراً لطبيعة السورة فقد اخترنا تقسيمها إلى ستة مقاطع متجانسة المعاني لتيسير تناولها . وإلا فهي شوط واحد متصل الإيقاعات و الحلقات من بدئها إلى نهايتها . . .

سورة يس

هذه السورة المكية ذات فواصل قصيرة . وإيقاعات سريعة . ومن ثم جاء عدد آياتها ثلاثاً وثمانين , بينما هي أصغر وأقصر من سابقتها - سورة فاطر - وعدد آياتها خمس وأربعون .

وقصر الفواصل مع سرعة الإيقاع يطبع السورة بطابع خاص , فتتلاحق إيقاعاتها , وتدق على الحس دقات متوالية , يعمل على مضاعفة أثرها ما تحمله معها من الصور والظلال التي تخلعها المشاهد المتتابعة من بدء السورة إلى نهايتها . وهي متنوعة وموحية وعميقة الآثار .

والموضوعات الرئيسية للسورة هي موضوعات السور المكية . وهدفها ا لأول هو بناء أسس العقيدة . فهي تتعرض لطبيعة الوحي وصدق الرسالة منذ افتتاحها:(يس . والقرآن الحكيم . إنك لمن المرسلين . على صراط مستقيم . تنزيل العزيز الرحيم . . .). وتسوق قصة أصحاب القرية إذ جاءها المرسلون , لتحذر من عاقبة التكذيب بالوحي والرسالة ; وتعرض هذه العاقبة في القصة على طريقة القرآن في استخدام القصص لتدعيم قضاياه . وقرب نهاية السورة تعود إلى الموضوع ذاته:(وما علمناه الشعر - وما ينبغي له - إن هو إلا ذكر وقرآن مبين لينذر من كان حياً ويحق القول على الكافرين). .

كذلك تتعرض السورة لقضية الألوهية والوحدانية . فيجيء استنكار الشرك على لسان الرجل المؤمن الذي جاء من أقصى المدينة ليحاج قومه في شأن المرسلين وهو يقول: وما لي لا أعبد الذي فطرني وإليه ترجعون ? أأتخذ من دونه آلهة إن يردن الرحمن بضر لا تغن عني شفاعتهم شيئاً ولا ينقذون ? إني إذاً لفي ضلال مبين . . وقرب ختام السورة يجيء ذكر هذا الموضوع مرة أخرى:(واتخذوا من دون الله آلهة لعلهم ينصرون . لا يستطيعون نصرهم وهم لهم جند محضرون). .

والقضية التي يشتد عليها التركيز في السورة هي قضية البعث و النشور , وهي تتردد في مواضع كثيرة في السورة . تجيء في أولها:(إنا نحن نحيي الموتى ونكتب ما قدموا وآثارهم وكل شيء أحصيناه في إمام مبين). . وتأتي في قصة أصحاب القرية , فيما وقع للرجل المؤمن . وقد كان جزاؤها العاجل في السياق:(قيل:ادخل الجنة . قال:يا ليت قومي يعلمون بما غفر لي ربي وجعلني من المكرمين). . ثم ترد في

وسط السورة:(ويقولون:متى هذا الوعد إن كنتم صادقين ? ما ينظرون إ لا صيحة واحدة تأخذهم وهم يخصمون فلا يستطيعون توصية ولا إلى أهلهم يرجعون). . ثم يستطرد السياق إلى مشهد كامل من مشاهد القيامة . وفي نهاية السورة ترد هذه القضية في صورة حوار (وضرب لنا مثلا ً ونسي خلقه . قال:من يحيي العظام وهي رميم ? قل يحييها الذي أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم . .

هذه القضايا المتعلقة ببناء العقيدة من أساسها , تتكرر في السور المكية . ولكنها تعرض في كل مرة من زاوية معينة , تحت ضوء معين , مصحوبة بمؤثرات تناسب جوها , وتتناسق مع إيقاعها وصورها وظلا لها .

هذه المؤثرات منتزعة في هذه السورة من مشاهد القيامة - بصفة خاصة - ومن مشاهد القصة ومواقفها وحوارها . ومن مصارع الغابرين على مدار القرون . ثم من المشاهد الكونية الكثيرة المتنوعة الموحية:مشهد الأرض الميتة تدب فيها الحياة . ومشهد الليل يسلخ منه النهار فإذا هو ظلام . ومشهد الشمس تجري لمستقر لها . ومشهد القمر يتدرج في منازله حتى يعود كالعرجون القديم . ومشهد الفلك المشحون يحمل ذرية البشر الأولين . ومشهد الأنعام مسخّرة للآدميين . ومشهد النطفة ثم مشهدها إنساناً وهو خصيم مبين ! ومشهد الشجر الأخضر تكمن فيه النار التي يوقدون !

وإلى جوار هذه المشاهد مؤثرات أخرى تلمس الوجدان الإنساني وتوقظه:منها صورة المكذبين الذين حقت عليهم كلمة الله بكفرهم فلم تعد تنفعهم الآيات والنذر: (إنا جعلنا في أعناقهم أغلالا ً فهي إلى الأ ذقان فهم مقمحون ; وجعلنا من بين أيديهم سداً ومن خلفهم سداً فأغشيناهم فهم لا يبصرون). ومنها صورة نفوسهم في سرهم وفي علا نيتهم مكشوفة لعلم الله لا يداريها منه ستار . . ومنها تصوير وسيلة الخلق بكلمة لا تزيد:(إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له:كن . فيكون). .

وكلها مؤثرات تلمس القلب البشري وهو يرى مصداقها في واقع الوجود .

ويجري سياق السورة في عرض موضوعاتها في ثلاثة أشواط:

يبدأ الشوط الأول بالقسم بالحرفين: يا . سين وبالقرآن الحكيم , على رسالة النبي [ص] وأنه على صراط مستقيم . يتلو ذلك الكشف عن النهاية البائسة للغافلين الذين يكذبون . وهي حكم الله عليهم بألا يجدوا إلى الهداية سبيلا ً , وأن يحال بينهم وبينها أبداً . وبيان أن الإنذار إنما ينفع من اتبع الذكر وخشي الرحمن بالغيب ; فاستعد قلبه لاستقبال دلا ئل الهدى وموحيات الإيمان . . ثم يوجه رسول الله [ص] إلى أن يضرب لهم مثلا ً أصحاب القرية , فيقص قصة التكذيب وعاقبة المكذبين . كما يعرض طبيعة الإيمان في قلب الرجل المؤمن وعاقبة الإ يمان والتصديق . .

ومن ثم يبدأ الشوط الثاني بنداء الحسرة على العباد الذين ما يفتأون يكذبون كل رسول ويستهزئون به . غير معتبرين بمصارع المكذبين , ولا متيقظين لآيات الله في الكون وهي كثير . . وهنا يعرض تلك المشاهد الكونية التي سبقت الإشارة إليها في تقديم السورة , كما يعرض مشهداً مطولا ً من مشاهد القيامة فيه الكثير من التفصيل .

والشوط الثالث يكاد يلخص موضوعات السورة كلها . فينفي في أوله أن ما جاء به محمد [ص] شعر , وينفي عن الرسول كل علاقة بالشعر أصلا ً . ثم يعرض بعض المشاهد واللمسات الدالة على الألوهية المتفردة , وينعى عليهم اتخاذ آلهة من دون الله يبتغون عندهم النصر وهم الذين يقومون بحماية تلك الآلهة المدعاة ! . ويتناول قضية البعث والنشور فيذكرهم بالنشأة الأولى من نطفة ليروا أن إحياء العظام وهي رميم كتلك النشأة ولا غرابة ! ويذكرهم بالشجر الأخضر الذي تكمن فيه النار وهما في الظاهر بعيد من بعيد ! وبخلق السماوات والأرض وهو شاهد بـ القدرة على خلق أمثالهم من البشر في الأولى والآخرة . . وأخيراً يجيء

الإيقاع الأخير في السورة:(إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له:كن . فيكون . فسبحان الذي بيده ملكوت كل شيء وإليه ترجعون).

سورة الصافات

هذه السورة المكية - كسابقتها - قصيرة الفواصل , سريعة الإيقاع , كثيرة المشاهد والمواقف , متنوعة الصور والظلال , عميقة المؤثرات , وبعضها عنيف الوقع , عنيف التأثير .

وهي تستهدف - كسائر السور المكية - بناء العقيدة في النفوس , وتخليصها من شوائب الشرك في كل صوره وأشكاله . ولكنها - بصفة خاصة - تعالج صورة معينة من صور الشرك التي كانت سائدة في البيئة العربية الأولى . وتقف أمام هذه الصورة طويلا ً ; وتكشف عن زيفها وبطلانها بوسائل شتى . . تلك هي الصورة التي كانتجاهلية العرب تستسيغها , وهي تزعم أن هناك قرابة بين الله - سبحانه - وبين الجن . وتستطرد في تلك الأسطورة فتزعم أنه من التزاوج بين الله - تعالى - و الجنة ولدت الملائكة . ثم تزعم أن الملائكة إناث , وأنهن بنات الله !

هذه الأسطورة تتعرض لحملة قوية في هذه السورة ; تكشف عن تهافتها وسخفها . ونظراً لأنها هي الموضوع البارز الذي تعالجه السورة , فإنها تبدأ بالإشارة إلى طوائف من الملائكة:(والصافات صفاً . فالزاجرات زجراً . فالتاليات ذكراً). . ويتلوها حديث عن الشياطين المردة , وتعرضهم للرجم بالشهب الثاقبة كي لا يقربوا من الملأ الأعلى . ولا يتسمعوا لما يدور فيه ; ولو كانوا حيث تزعم لهم أساطير الجاهلية ما طوردوا هذه المطاردة ! كذلك يشبه ثمار شجرة الزقوم التي يعذب بها الظالمون في جهنم بأنها كرؤوس الشياطين في معرض التقبيح و التفظيع ! وفي نهاية السورة تأتي الحملة المباشرة على تلك الأسطورة

المتهافتة: فاستفتهم ألربك البنات ولهم البنون ؟ أم خلقنا الملائكة إناثاً وهم شاهدون ؟ ألا إنهم من إفكهم ليقولون:ولد الله وإنهم لكاذبون . أصطفى البنات على البنين ؟ ما لكم كيف تحكمون ؟ أفلا تذكرون ؟ أم لكم سلطان مبين ؟ فأتوا بكتابكم إن كنتم صادقين . وجعلوا بينه وبين الجنة نسباً ولقد علمت الجنة إنهم لمحضرون . . سبحان الله عما يصفون ! . .

وإلى جانب علاج هذه الصورة الخاصة من صور الشرك الجاهلية تتناول السورة جوانب العقيدة الأخرى التي تتناولها السور المكية . فتثبت فكرة التوحيد مستدلة بالكون المشهود:(إن إلهكم لواحد رب السماوات والأرض وما بينهما ورب المشارق). . وتنص على أن الشرك هو السبب في عذاب المعذبين في ثنايا مشهد من مشاهد القيامة (فإنهم يومئذ في العذاب مشتركون . إنا كذلك نفعل بالمجرمين . إنهم كانوا إذا قيل لهم:لا إله إلا الله يستكبرون ; ويقولون:أئنا لتاركوا آلهتنا لشاعر مجنون ؟ بل جاء بالحق وصدق المرسلين . إنكم لذائقوا العذاب الأليم . وما تجزون إلا ما كنتم تعملون . .

كذلك تتناول قضية البعث والحساب والجزاء . (وقالوا:إن هذا إلا سحر مبين أإذا متنا وكنا تراباً وعظاماً أإنا لمبعوثون ؟ أو آباؤنا الأولون ؟ قل نعم وأنتم داخرون). . ثم تعرض بهذه المناسبة مشهداً مطولاً فريداً من مشاهد القيامة الحافلة بالمناظر والحركات والانفعالات والمفاجآت !

وتعرض لقضية الوحي والرسالة الذي ورد من قول 1 (أئنا لتاركوا آلهتنا لشاعر مجنون ؟ والرد عليهم:(بل جاء بالحق وصدق المرسلين). .

وبمناسبة ضلالهم وتكذيبهم تعرض سلسلة من قصص الرسل:نوح وإبراهيم وبنيه . وموسى وهارون . وإلياس . ولوط . ويونس . تتكشف فيها رحمة الله ونصره لرسله وأخذه للمكذبين بالعذاب والتنكيل:(ولقد ضل قبلهم أكثر الأولين . ولقد أرسلنا فيهم منذرين . فانظر كيف كان عاقبة المنذرين . إلا عباد الله المخلصين). .

وتبرز في هذا القصص قصة إبراهيم خاصة مع ابنه إسماعيل . قصة الذبح والفداء وتبرز فيها الطاعة والاستسلام لله في أروع صورها وأعمقها وأرفعها ; وتبلغ الذروة التي لا يبلغها إلا الإيمان الخالص الذي يرفع النفوس إلى ذلك الأفق السامق الوضيء .

والمؤثرات الموحية التي تصاحب عرض موضوعات السور وقضاياها , تتمثل بشكل واضح في:

مشهد السماء وكواكبها وشهبها ورجومها:(إنا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب . وحفظاً من كل شيطان مارد . لا يسمعون إلى الملأ الأعلى ويقذفون من كل جانب دحوراً ولهم عذاب واصب . إلا من خطف الخطفة فأتبعه شهاب ثاقب). .

وفي مشاهد القيامة ومواقفها المثيرة , ومفاجآتها الفريدة , وانفعالاتها القوية . والمشاهد التي تحويها هذه السورةذات طابع فريد حقاً سنلمسه عند استعراضه تفصيلا ً في مكانه من السورة .

وفي القصص ومواقفه وإيحاءاته . وبخاصة في قصة إبراهيم وولده الذبيح إسماعيل - عليهما السلام , وترتفع المؤثرات الموحية هنا إلى الذروة التي تهز القلوب هزاً عميقاً عنيفاً .

ذلك إلى الإيقاع الموسيقي في السورة وهو ذو طابع مميز يتفق مع صورها وظلالها ومشاهدها ومواقفها وإيحاءاتها المتلاحقة العميقة .

ويجري سياق السورة في عرض موضوعاتها في ثلاثة أشواط رئيسية:

الشوط الأول يتضمن افتتاح السورة بالقسم بتلك الطوائف من الملا ئكة:(والصافات صفا . فالزاجرات زجراً . فالتاليات ذكراً)على وحدانية الله رب المشارق , مزين السماء بالكواكب . ثم تجيء مسألة الشياطين وتسمعهم للملأ الأعلى ورجمهم بالشهب الثاقبة . يتلوها سؤال لهم: أهم أشد خلقاً أم تلك الخلائق:الملائكة والسماء والكواكب والشياطين و

الشهب ? للتوصل من هذا إلى تسفيه ما كانوا يقولونه عن البعث , وإثبات ما كانوا يستبعدونه ويستهزئون بوقوعه . ومن ثم يعرض ذلك المشهد المطول للبعث والحساب والنعيم والعذاب . وهو مشهد فريد . .

والشوط الثاني يبدأ بأن هؤلاء الضالين لهم نظائر في السابقين , الذين جاءتهم النذر فكان أكثرهم من الضالين . ويستطرد في قصص أولئك المنذرين من قوم نوح وإبراهيم وموسى وهارون وإلياس ولوط ويونس ; وكيف كانت عاقبة المنذرين وعاقبة المؤمنين .

والشوط الثالث يتحدث عن تلك الأسطورة التي مر ذكرها . إسطورة الجن والملائكة . ويقرر كذلك وعد الله لرسله بالظفر والغلبة:(ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين إنهم لهم المنصورون وإن جندنا لهم الغالبون). . وينتهي بختام السورة بتنزيه الله سبحانه والتسليم على رسله والاعتراف بربوبيته:(سبحان ربك رب العزة عما يصفون . وسلام على المرسلين . والحمد لله رب العالمين). . وهي القضايا التي تتناولها السورة في الصميم .

.

سورة ص

الوحدة الأولى:1 - 16 تعريف بسورة ص

هذه السورة مكية , تعالج من موضوعات السور المكية قضية التوحيد , وقضية الوحي إلى محمد [ص] وقضية الحساب في الآخرة . وتعرض هذه القضايا الثلاث في مطلعها الذي يؤلف الشوط الأول منها . وهو الآ يات الكريمة التي فوق هذا الكلام . وهي تمثل الدهش والاستغراب و المفاجآة التي تلقى بها كبار المشركين في مكة دعوة النبي [ص] لهم

إلى توحيد الله ; وإخبارهم بقصة الوحي واختيارهرسولا ً من عند الله: (وعجبوا أن جاءهم منذر منهم . وقال الكافرون هذا ساحر كذاب , أجعل الآلهة إلهاً واحداً:إن هذا لشيء عجاب . وانطلق الملأ منهم:أن امشوا واصبروا على آلهتكم إن هذا لشيء يراد . ما سمعنا بهذا في الملة الآخرة إن هذا إلا اختلاق . أأنزل عليه الذكر من بيننا ?). . كما تمثل استهزاءهم واستنكارهم لما أوعدهم به جزاء تكذيبهم من عذاب:(وقالوا:ربنا عجل لنا قطنا قبل يوم الحساب). .

لقد استكثروا أن يختار الله - سبحانه - رجلا ً منهم , لينزل عليه الذكر من بينهم . وأن يكون هذا الرجل هو محمد بن عبد الله . الذي لم تسبق له رياسة فيهم ولا إمارة ! ومن ثم ساءلهم الله في مطلع السورة تعقيباً على استكثارهم هذا واستنكارهم وقولهم: (أأنزل عليه الذكر من بيننا)ساءلهم:(أم عندهم خزائن رحمة ربك العزيز الوهاب ? أم لهم ملك السماوات والأرض وما بينهما ? فليرتقوا في الأسباب). . ليقول لهم:إن رحمة الله لا يمسكها شيء إذا أراد الله أن يفتحها على من يشاء . وإنه ليس للبشر شيء من ملك السماوات والأرض , وإنما يفتح الله من رزقه ورحمته على من يشاء وإنه يختار من عباده من يعلم استحقاقهم للخير , وينعم عليهم بشتى الإنعامات بلا قيد ولا حد , ولا حساب . . وفي هذا السياق جاءت قصة داود وقصة سليمان ; وما أغدق الله عليهما من النبوة والملك , ومن تسخير الجبال والطير , وتسخير الجن و الريح , فوق الملك وخزائن الأرض والسلطان والمتاع .

وهما - مع هذا كله - بشر من البشر ; يدركهما ضعف البشر وعجز البشر ; فتتداركهما رحمة الله ورعايته , وتسد ضعفهما وعجزهما , وتقبل منهما التوبة والإنابة , وتسدد خطاهما في الطريق إلى الله .

وجاء مع القصتين توجيه النبي [ص] إلى الصبر على ما يلقاه من المكذبين , والتطلع إلى فضل الله ورعايته كما تمثلهما قصة داود وقصة سليمان: (اصبر على ما يقولون واذكر عبدنا داود ذا الأيد إنه أواب . . .

)الخ. .

كذلك جاءت قصة أيوب تصور ابتلاء الله للمخلصين من عباده بالضراء . وصبر أيوب مثل في الصبر رفيع . وتصور حسن العاقبة , وتداركه برحمة الله , تغمره بفيضها , وتمسح على آلامه بيدها الحانية . . وفي عرضها تأسية للرسول [ص] وللمؤمنين , عما كانوا يلقونه من الضر و البأساء في مكة ; وتوجيه إلى ما وراء الابتلاء من رحمة , تفيض من خزائن الله عندما يشاء .

وهذا القصص يستغرق معظم السورة بعد المقدمة , ويؤلف الشوط الثاني منها .

كذلك تتضمن السورة رداً على استعجالهم بالعذاب , وقولهم: (ربنا عجل لنا قطنا قبل يوم الحساب) . فيعرض بها - بعد القصص - مشهد من مشاهد القيامة , يصور النعيم الذي ينتظر المتقين . والجحيم التي تنتظر المكذبين . ويكشف عن استقرار القيم الحقيقية في الآخرة بين هؤلاء وهؤلاء . حين يرى الملأ المتكبرون مصيرهم ومصير الفقراء الضعاف الذين كانوا يهزأون بهم في الأرض ويسخرون , ويستكثرون عليهم أن تنالهم رحمة الله , وهم ليسوا من العظماء ولا الكبراء . وبينما المتقون لهم حسن مآب(جنات عدن مفتحة لهم الأبواب , متكئين فيها يدعون فيها بفاكهة كثيرة وشراب . وعندهم قاصرات الطرف أتراب) . . فإن للطاغين لشر مآب(جهنم يصلونها فبئس المهاد . هذا فليذوقوه حميم وغساق , وآخر من شكله أزواج) . . وهم يتلاعنون في جهنم ويتخاصمون , ويذكرون كيف كانوا يسخرون بالمؤمنين:(وقالوا:ما لنا لا نرى رجالا ً كنا نعدهم من الأشرار . أتخذناهم سخرياً أم زاغت عنهم ا لأبصار ?)فإنهم لا يجدونهم في جهنم . وقد عُرف أنهم هنالك في الجنان ! فهذا هو جواب ذلك الاستعجال والاستهزاء !

وهذا المشهد يؤلف الشوط الثالث في السورة .

كما يرد على استنكارهم لما يخبرهم به الرسول [ص] من أمر الوحي . ويتمثل هذا الرد في قصة آدم في الملأ الأعلى . حيث لم يكن النبي [ص] حاضراً ; إنما هو إخبار الله له بما كان , مما لم يشهده - غير آدم - إنسان . . وفي ثنايا القصة يتبين أن الذي أردى إبليس , وذهب به إلى الطرد واللعنة , كان هو حسده لآدم - عليه السلام - واستكثاره أن يؤثره الله عليه ويصطفيه . كما أنهم هم يستكثرون على محمد [ص] أن يصطفيه الله من بينهم بتنزيل الذكر ; ففي موقفهم شبه واضح من موقف إبليس المطرود اللعين !

وتختم السورة بختام هذا الشوط الرابع والأخير فيها ; بقول النبي [ص] لهم:إن ما يدعوهم إليه لا يتكلفه من عنده , ولا يطلب عليه أجراً , وإن له شأناً عظيماً سوف يتجلى:(قل ما أسألكم عليه من أجر وما أنا من المتكلفين . إن هو إلا ذكر للعالمين . ولتعلمن نبأه بعد حين). .

هذه الأشواط الأربعة التي تجري بموضوعات السورة هذا المجرى ; تجول بالقلب البشري في مصارع الغابرين , الذين طغوا وتجبروا واستعلوا على الرسل والمؤمنين , ثم انتهوا إلى الهزيمة والدمار والخذلا ن:(جند ما هنالك مهزوم من الأحزاب . كذبت قبلهم قوم نوح وعاد وفرعون ذو الأوتاد . وثمود وقوم لوط وأصحاب الأيكة أولئك الأحزاب . إن كل إلا كذب الرسل فحق عقاب). .

تعرض على القلب البشري هذه الصفحة . صفحة الهزيمة والدمار والهلاك للطغاة المكذبين . ثم تعرض بإزائها صفحة العز والتمكين والرحمة و الرعاية لعباد الله المختارين , في قصص داود وسليمان وأيوب .

هذا وذلك في واقع الأرض . . ثم تطوف بهذا القلب في يوم القيامة وما وراءه من صور النعيم والرضوان . وصور الجحيم والغضب . حيث يرى لوناً آخر مما يلقاه الفريقان في دار البقاء . بعدما لقياه في دار الفناء . .

والجولة الأخيرة في قصة البشرية الأولى وقصة الحسد والغواية من

العدو الأول , الذي يقود خطى الضالين عن عمد وعن سابق إصرار . وهم غافلون .

كذلك ترد في ثنايا القصص لفتة تلمس القلب البشري وتوقظه إلى الحق الكامن في بناء السماء والأرض . وأنه الحق الذي يريد الله بإرسال الرسل أن يقره بين الناس في الأرض . فهذا من ذلك: (وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلا ً). . وهي لفتة لها في القرآن نظائر . وهي حقيقة أصيلة من حقائق هذه العقيدة التي هي مادة القرآن المكي الأ صيلة . .

الوحدة الثانية:17 - 48 الموضوع:قصص بعض الأنبياء

اصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ (17)
مقدمة الوحدة

هذا الدرس كله قصص وأمثلة من حياة الرسل - صلوات الله عليهم - تعرض كي يذكرها رسول الله [ص] ويدع ما يعانيه من قومه من تكذيب واتهام وتعجيب وافتراء ; ويصبر على ما يواجهونه به مما تضيق به الصدور .

وهذا القصص يعرض - في الوقت ذاته - آثار رحمة الله بالرسل قبله:وما أغدق عليهم من نعمة وفضل , وما آتاهم من ملك وسلطان ومن رعاية وإنعام . وذلك رداً على عجب قومه من اختيار الله له . وما هو ببدع من الرسل . وفيهم من آتاه الله إلى جانب الرسالة الملك والسلطان ; وفيهم من سخر له الجبال يسبحن معه والطير ; وفيهم من سخر له الريح و الشياطين . . كداود وسليمان . . فما وجه العجب في أن يختار الله محمداً الصادق لينزل عليه الذكر من بين قريش في آخر الزمان ?

كذلك يصور هذا القصص رعاية الله الدائمة لرسله , وحياطتهم بتوجيهه وتأديبه . فقد كانوا بشراً - كما أن محمداً [ص] بشر - وكان فيهم ضعف البشر . وكان الله يرعاهم فلا يدعهم لضعفهم ; إنما يبين لهم ويوجههم ,

ويبتليهم ليغفر لهم ويكرمهم . وفي هذا ما يطمئن قلب الرسول [ص] إلى رعاية ربه له , وحمايته وحياطته في كل خطوة يخطوها في حياته
الوحدة الثالثة:49 - 64 الموضوع:مشهد لنعيم المؤمنين وآخر لعذاب الكافرين

كانت الجولة الماضية حياة وذكرى مع المختارين من عباد الله . مع الابتلاء والصبر . والرحمة والإفضال . كان هذا ذكراً لتلك الحيوات الرفيعة في الأرض وفي هذه الدنيا . . ثم يتابع السياق خطاه مع عباد الله المتقين , ومع المكذبين الطاغين إلى العالم الآخر وفي الحياة الباقية . . يتابعه في مشهد من مشاهد القيامة نستعير لعرضه صفحات من كتاب مشاهد القيامة في القرآن مع تصرف قليل:

الوحدة الرابعة:65 - 88 الموضوع قصة آدم

قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنذِرٌ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (65) رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ (66)
مقدمة الوحدة

هذا الدرس الأخير في السورة يعود إلى تقرير القضايا التي عرضت في مقدمتها:قضية التوحيد . والوحي . وقضية الجزاء في الآخرة . ويستعرض قصة آدم دليلا ً على الوحي بما دار في الملأ الأعلى ذات يوم . وما تقرر يوم ذاك من الحساب على الهدى والضلال في يوم الحساب . كما تتضمن القصة لوناً من الحسد في نفس الشيطان هو الذي أرداه وطرده من رحمة الله ; حينما استكثر على آدم فضل الله الذي أعطاه . كذلك تصور المعركة المستمرة بين الشيطان وأبناء آدم , والتي لا يهدأ أوارها ولا تضع أوزارها . والتي يهدف من ورائها إلى إيقاع أكبر عدد منهم في حبائله , لإيرادهم النار معه , انتقاماً من أبيهم آدم , وقد كان طرده بسببه , وهي معركة معروفة الأهداف . ولكن أبناء آدم

يستسلمون لعدوهم القديم !

وتختم السورة بتوكيد قضية الوحي , وعظمه ما وراءه , مما يغفل عنه المكذبون الغافلون .

سورة الزمر

الوحدة الأولى:1 - 7 الموضوع إثبات الوحي والرسالة وأدلة على الوحدانية

هذه السورة تكاد تكون مقصورة على علاج قضية التوحيد . وهي تطوف بالقلب البشري في جولات متعاقبة ; وتوقع على أوتاره إيقاعات متلاحقة ; وتهزه هزاً عميقاً متواصلا ً لتطبع فيه حقيقة التوحيد وتمكنها , وتنفي عنه كل شبهة وكل ظل يشوب هذه الحقيقة . ومن ثم فهي ذات موضوع واحد متصل من بدئها إلى ختامها ; يعرض في صور شتى .

ومنذ افتتاح السورة تبرز هذه القضية الواحدة التي تكاد السورة تقتصر على علاجها: تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم . إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق فاعبد الله مخلصاً له الدين . ألا لله الدين الخالص . . . . الخ. . . . وتتردد في مقاطعها على فترات متقاربة فيها إما نصاً . وإما مفهوماً . .

نصاً كقوله: قل:إني أمرت أن أعبد الله مخلصاً له الدين . وأمرت لأن أكون أول المسلمين . قل:إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم . قل:الله أعبد مخلصاً له ديني فاعبدوا ما شئتم من دونه . . . الخ. . أو قوله:(قل أفغير الله تأمروني أعبد أيها الجاهلون ? ولقد أوحي إليك وإلى الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين بل الله فاعبد وكن من الشاكرين).

ومفهوماً كقوله:(ضرب الله مثلا رجلا فيه شركاء متشاكسون , ورجلا سلما لرجل . هل يستويان مثلا ً:الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون). . أو قوله:(أليس الله بكاف عبده ? ويخوفونك بالذين من دونه , ومن يضلل الله فما له من هاد , ومن يهد الله فما له من مضل . أليس الله بعزيز ذي انتقام ?). .

وإلى جانب حقيقة التوحيد التي تعالج السورة أن تطبعها في القلب وتمكنها نجد في السورة توجيهات وإيحاءات لإيقاظ هذا القلب واستجاشته وإثارة حساسيته , وإرهافه للتلقي والتأثر والاستجابة . ذلك كقوله: والذين اجتنبوا الطاغوت أن يعبدوها وأنابوا إلى الله لهم البشرى . فبشر عباد الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه , أولئك الذين هداهم الله , وأولئك هم أولوا الألباب . .(الله نزل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً مثاني تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم , ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله:ذلك هدى الله يهدي به من يشاء . ومن يضلل الله فما له من هاد). .(وإذا مس الإنسان ضر دعا ربه منيباً إليه , ثم إذا خوله نعمة منه نسي ما كان يدعو إليه من قبل . وجعل لله أنداداً ليضل عن سبيله . قل:تمتع بكفرك قليلا ً إنك من أصحاب النار). .

وهناك ظاهرة ملحوظة في جو السورة . . إن ظل الآخرة يجللها من أولها إلى آخرها . وسياقها يطوّف بالقلب البشري هناك في كل شوط من أشواطها القصيرة ; ويعيش به في ظلال العالم الآخر معظم الوقت ! وهذا هو مجال العرض الأول فيها والمؤثر البارز المتكرر في ثناياها . ومن ثم تتلاحق فيها مشاهد القيامة أو الإشارة إليها في كل مقطع من مقاطعها الكثيرة . مثل هذه الإشارات: (أم من هو قانت آناء الليل ساجداً وقائماً يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه ?). .(قل:إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم). .(أفمن حق عليه كلمة العذاب أفأنت تنقذ من في النار ?). . (أفمن يتقي بوجهه سوء العذاب يوم القيامة ?). . (ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون). . (أليس في جهنم مثوى للكافرين ?). . (ولو أن للذين ظلموا ما في الأرض جميعاً ومثله معه لا

فتدوا به من سوء العذاب يوم القيامة ; وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون). . (وأنيبوا إلى ربكم وأسلموا له من قبل أن يأتيكم العذاب ثم لا تنصرون . واتبعوا أحسن ما أنزل إليكم من ربكم من قبل أن يأتيكم العذاب بغته وأنتم لا تشعرون . أن تقول نفس:يا حسرتا على ما فرطت في جنب الله وإن كنت لمن الساخرين . أو تقول لو أن الله هداني لكنت من المتقين . أو تقول حين ترى العذاب لو أن لي كرة فأكون من المحسنين . .). . وهذا غير المشاهد الكاملة التي تشغل حيزاً من السورة كبيراً , وتظلل جوها بظلال الآخرة .

أما المشاهد الكونية التي لاحظنا كثرتها وتنوعها في السور المكية في ثنايا عرضها لحقائق العقيدة فهي قليلة في هذه السورة . .

هنالك مشهد كوني يرد في مطلعها:(خلق السماوات والأرض بالحق يكور الليل على النهار ويكور النهار على الليل , وسخر الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمى . ألا هو العزيز الغفار). .

ومشهد آخر في وسطها: (ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فسلكه ينابيع في الأرض ; ثم يخرج به زرعاً مختلفاً ألوانه ; ثم يهيج فتراه مصفراً ; ثم يجعله حطاماً ? إن في ذلك لذكرى لأولي الألباب). .

وهناك إشارات سريعة إلى خلق السماوات والأرض غير هذين المشهدين البارزين .

كذلك تتضمن السورة لمسات من واقع حياة البشر , وفي أغوار نفوسهم , تتوزع في ثناياها .

يرد في مطالعها عن نشأة البشرية: (خلقكم من نفس واحدة ; ثم جعل منها زوجها . وأنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج . يخلقكم في بطون أمهاتكم خلقاً من بعد خلق في ظلمات ثلاث . ذلكم الله ربكم له الملك . لا إله إلا هو , فأنى تصرفون ?).

ويرد عن طبيعة النفس البشرية في الضراء والسراء: وإذا مس الإنسان ضر دعا ربه منيباً إليه ; ثم إذا خوله نعمة منه نسي ما كان يدعو إليه من قبل . . . الخ. . (فإذا مس الإنسان ضر دعانا ; ثم إذا خولناه نعمة منا قال:إنما اوتيته على علم بل هي فتنة . .). .

ويرد في تصوير أنفس البشر في قبضة الله في كل حالة: (الله يتوفى الأنفس حين موتها والتي لم تمت في منامها ; فيمسك التي قضى عليها الموت , ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى . إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون). .

ولكن ظل الآخرة وجوها يظل مسيطراً على السورة كلها كما أسلفنا . حتى تختم بمشهد خاشع يرسم ظل ذلك اليوم وجوه:(وترى الملائكة حافين من حول العرش يسبحون بحمد ربهم , وقضي بينهم بالحق , وقيل:الحمد لله رب العالمين).

هذا الظل يتناسق مع جو السورة , ولون اللمسات التي تأخذ القلب البشري بها . فهي أقرب إلى جو الخشية والخوف والفزع والارتعاش . ومن ثم نجد الحالات التي ترسمها للقلب البشري هي حالات ارتعاشه وانتفاضه وخشيته . نجد هذا في صورة القانت(آناء الليل ساجداً وقائماً يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه). وفي صورة الذين يخشون ربهم تقشعر جلودهم لهذا القرآن ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله . كما نجده في التوجيه إلى التقوى والخوف من العذاب , والتخويف منه: (قل:يا عباد الذين آمنوا اتقوا ربكم).(قل:إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم). .(لهم من فوقهم ظلل من النار ومن تحتهم ظلل . ذلك يخوف الله به عباده . يا عباد فاتقون). . ثم نجده في مشاهد القيامة وما فيها من فزع ومن خشية , وما فيها كذلك من إنابة وخشوع .

الوحدة الثانية:8 - 10 الموضوع:اختلاف نظرة الناس إلى الإبتلاء ودعوة إلى عبادة الله

في الجولة الأولى لمس قلوبهم بعرض قصة وجودهم وخلقهم من نفس واحدة وتزويجها من جنسها ; وخلق الأنعام أزواجاً كذلك ; وخلقهم في بطون أمهاتهم في ظلمات ثلاث . وأشعرهم يد الله تمنحهم خصائص جنسهم البشري أول مرة ; ثم تمنحهم خصائص البقاء والارتقاء .

وهنا يلمس قلوبهم لمسة أخرى وهو يعرض عليهم صورتهم في الضراء وصورتهم في السراء ; ويريهم تقلبهم وضعفهم وادعاءهم وقلة ثباتهم على نهج ; إلا حين يتصلون بربهم , ويتطلعون إليه , ويقنتون له , فيعرفون الطريق , ويعلمون الحقيقة ; وينتفعون بما وهبهم الله من خصائص الإنسان .

الوحدة الثالثة:11 - 20 الموضوع:دعوة إلى الإخلاص في عبادة الله ولقطات من مشاهد القيامة

قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصاً لَّهُ الدِّينَ (11) وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ (12) قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (13) قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصاً لَّهُ دِينِي (14) فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِ قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ (15)

هذا المقطع كله يظلله جو الآخرة , وظل الخوف من عذابها , والرجاء في ثوابها . ويبدأ بتوجيه الرسول [ص] إلى إعلان كلمة التوحيد الخالصة ; وإعلان خوفه - وهو النبي المرسل - من عاقبة الإنحراف عنها , وإعلان تصميمه على منهجه وطريقه , وتركهم هم إلى منهجهم وطريقهم . وبيان عاقبة هذا الطريق وذاك , يوم يكون الحساب .

الوحدة الرابعة:21 - 29 الموضوع شرح الصدر للإسلام والقرآن ومشهد لعذاب الكفار يوم القيامة

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعاً مُّخْتَلِفاً أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرّاً ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَاماً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِأُوْلِي الْأَلْبَابِ (21) أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِّن رَّبِّهِ فَوَيْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (22) اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَاباً مُّتَشَابِهاً مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَن يُضْلِلْ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ (23)

في هذا المقطع من السورة لفتة إلى حياة النبات في الأرض عقب إنزال الماء من السماء ; وانتهائها إلى غايتها القريبة , وكثيراً ما يضرب هذا مثلا ً للحياة الدنيا في حقيقتها الزائلة - وتوجيه لأولي الألباب الذين يذكرون ويتدبرون ليتدبروا هذا المثل ويذكروه . وعلى ذكر إنزال الماء من السماء يشير إلى الكتاب المنزل من السماء كذلك لتحيا به القلوب وتنشرح له الصدور ; مع تصوير موح لاستجابة القلوب المفتوحة لهذا الكتاب , بخشية وقشعريرة ثم لين وطمأنينة . وتصوير كذلك لعاقبة المستجيبين لذكر الله , والقاسية قلوبهم من ذكر الله , وفي النهاية يتجه إلى حقيقة التوحيد , فيضرب مثالا ً لمن يعبد إلهاً واحداً ومن يعبد آلهة متعددة . وهما لا يستويان مثلا ً ولا يتفقان حالا ً . كما لا يستوي حال العبد الذي يملكه سادة متنازعون والعبد الذي يعمل لسيد واحد لا ينازعه أحد فيه !

الوحدة الخامسة:30 - 35 موت العباد وثواب الصالحين وعقاب الكافرين

هذا المقطع تعقيب على ما قبله فبعد أن عرض آية الماء النازل من السماء , وآية الزرع الذي يخرج بهذا الماء , وآية الكتاب النازل من عند الله ; وأشار إلى ما يضربه في القرآن من الأمثال (ولكن أكثرهم لا

يعلمون)عقب على هذا بأن أمر النبي [ص] وأمرهم موكول إلى الله ; وأنه هو الذي يحكم بينهم بعد الموت , فيجازي الكاذبين المكذبين بما يستحقون ; ويجازي الصادقين المصدقين جزاء المحسنين .

(إنك ميت وإنهم ميتون , ثم إنكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون). .

إنه الموت نهاية كل حي ; ولا يتفرد بالبقاء إلا الله وفي الموت يستوي كل البشر بما فيهم محمد رسول الله [ص] وذكر هذه الحقيقة هنا حلقة من حلقات التوحيد الذي تقرره السورة كلها وتؤكده . ثم يلي ذلك تقرير ما بعد الموت . فالموت ليس نهاية المطاف . إنما هو حلقة لها ما بعدها من حلقات النشأة المقدرة المدبرة , التي ليس شيء منها عبثاً ولا سدى . فيوم القيامة يختصم العباد فيما كان بينهم من خلاف . ويجيء رسول الله [ص] أمام ربه ويوقف القوم للخصومة فيما كانوا يقولونه ويأتونه , ويواجهون به ما أنزل الله إليهم من الهدى .

(فمن أظلم ممن كذب على الله وكذب بالصدق إذ جاءه ? أليس في جهنم مثوى للكافرين ?)

سؤال للتقرير . فليس هنالك من هو أظلم ممن كذب على الله فزعم أن له بنات وأنه له شركاء ; وكذب بالصدق الذي جاء به رسوله ; فلم يصدق بكلمة التوحيد . إنه الكفر . وفي جهنم مثوى للكافرين . على سبيل التقرير الذي يرد في صورة سؤال لزيادة الإيضاح والتوكيد .

هذا طرف من الخصومة فأما الطرف الآخر فهو الذي جاء بالصدق من عند الله . وصدق به فبلغه عن عقيدة واقتناع . ويشترك مع رسول الله [ص] في هذه الصفة كل الرسل قبله . كما يشاركه فيها كل

وَالَّذِي جَاء بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ (33) لَهُم مَّا يَشَاءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ جَزَاء الْمُحْسِنِينَ (34) لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا

وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ (35)
من دعا إلى هذا الصدق وهو مقتنع به مؤمن بأنه الحق , يشارك قلبه لسانه فيما يدعو إليه . . (أولئك هم المتقون). .

ويتوسع في عرض صفة المتقين هؤلاء وما أعده لهم من جزاء:

لهم ما يشاءون عند ربهم , ذلك جزاء المحسنين . .

وهو تعبير جامع , يشمل كل ما يخطر للنفس المؤمنة من رغائب , ويقرر أن هذا(لهم)عند ربهم , فهو حقهم الذي لا يخيب ولا يضيع . . (ذلك جزاء المحسنين). .

ذلك ليحقق الله ما أراده لهم من خير ومن كرامة , ومن فضل يزيد على العدل يعاملهم به , متفضلا ً محسناً:

(ليكفر الله عنهم أسوأ الذي عملوا ; ويجزيهم أجرهم بأحسن الذي كانوا يعملون). . فالعدل أن تحسب الحسنات وتحسب السيئات ; ثم يكون الجزاء . والفضل هو هذا الذي يتجلى به الله على عباده المتقين هؤلاء أن يكفر عنهم أسوأ أعمالهم فلا يبقى لها حساب في ميزانهم . وأن يجزيهم أجرهم بحساب الأحسن فيما كانوا يعملون , فتزيد حسناتهم وتعلو وترجح في الميزان . إنه فضل الله يؤتيه من يشاء . كتبه الله على نفسه بوعده . فهو واقع يطمئن إليه المتقون المحسنون . .

الوحدة السادسة:36 - 52 الموضوع:حقائق إعتقادية حول الموت و الحياة والتوكل والتوحيد

أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِن دُونِهِ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ (36) وَمَن يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّضِلٍّ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِي انتِقَامٍ (37)
مقدمة الوحدة

هذه الجولة أوسع مقاطع السورة . وهي تتناول حقيقة التوحيد من جوانب متعددة في لمسات متنوعة . تبدأ بتصوير حقيقة القلب المؤمن وموقفه بإزاء قوى الأرض واعتداده بالقوة الوحيدة ; واعتماده عليها دون مبالاة بسواها من القوى الضئيلة الهزيلة . ومن ثم ينفض يده من هذه القوى الوهمية ويكل أمره وأمر المجادلين له إلى الله يوم القيامة ويمضي في طريقه ثابتاً واثقاً مستيقناً بالمصير . يتلو هذا بيان وظيفة الرسول [ص] وأنه ليس وكيلا ً على العباد في هداهم وضلالهم . إنما الله هو المسيطر عليهم ; الآخذ بناصيتهم في كل حالة من حالاتهم . وليس لهم من دونه شفيع فإن لله الشفاعة جميعاً . وإليه ملك السماوات والأرض . وإليه المرجع والمصير .

ثم يصف المشركين وانقباض قلوبهم عند ذكر كلمة التوحيد وانبساطها عند ذكر كلمة الشرك . ويعقب على هذا بدعوة الرسول [ص] إلى إعلان كلمة التوحيد خالصة , وترك أمر المشركين لله . ويصورهم يوم القيامة وهم يودون لو يفتدون بملء الأرض ومثله معه . وقد تكشف لهم من الله ما يذهل ويخيف !

ذلك . وهم يدعون الله وحده إذا أصابهم الضر . فإذا وهبهم منه نعمة ادعوا دعاوى عريضة وقال قائلهم:إنما أوتيته على علم عندي ! الكلمة التي قالها الذين من قبلهم فأخذهم الله القادر على أن يأخذ هؤلاء . وما هم بمعجزين . وما كان بسط الرزق وقبضه إلا سنة من سنن الله , تجري وفق حكمته وتقديره وهو وحده الباسط القابض: إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون

الوحدة السابعة:53 - 61 الموضوع:دعوة العصاة للتوبة قبل حلول عذاب الآخرة

ولما صور الله الحال المفزعة التي يكون عليها الظالمون يوم القيامة في قوله: ولو أن للذين ظلموا ما في الأرض جميعاً ومثله معه لافتدوا به من سوء العذاب يوم القيامة , وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون ,

وبدا لهم سيئات

قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (53) وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ (54)
ما كسبوا وحاق بهم ما كانوا به يستهزؤون). . عاد يفتح أبواب رحمته على مصاريعها بالتوبة . ويطمع في رحمته ومغفرته أهل المعاصي مهما يكونوا قد أسرفوا في المعصية . ويدعوهم إلى الأوبة إليه غير قانطين ولا يائسين . ومع الدعوة إلى الرحمة والمغفرة صورة ما ينتظرهم لو لم يئوبوا ويتوبوا , ولو لم ينتهزوا هذه الفرصة المتاحة قبل إفلاتها وفوات الأوان . .

الوحدة الثامنة:62 - 75 الموضوع:الله الخالق المالك ومشهد حشر الزمر يوم القيامة مقدمة الوحدة

هذا القطاع الأخير في السورة , يعرض حقيقة التوحيد من جانب وحدانية الخالق الذي خلق كل شيء , المالك المتصرف في كل شيء . فتبدو دعوة المشركين للنبي [ص] إلى مشاركتهم عبادة آلهتهم في مقابل أن يشاركوه عبادة إلهه ! تبدو هذه الدعوة مستغربة , والله هو خ الق كل شيء , وهو المتصرف في ملكوت السماوات والأرض بلا شريك . فأنى يعبد معه غيره , وله وحده مقاليد السماوات والأرض ?!

(وما قدروا الله حق قدره)وهم يشركون به وهو وحده المعبود القادر القاهر (والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة والسماوات مطويات بيمينه). . وبمناسبة تصوير هذه الحقيقة على هذا النحو يوم القيامة يعرض مشهداً فريداً من مشاهد القيامة , ينتهي بموقف الملائكة حافين من حول العرش يسبحون بحمد ربهم , وينطق الوجود كله بحمده: (وقيل الحمد لله رب العالمين). . فتكون هذه هي كلمة الفصل في حقيقة التوحيد .

اللهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ (62) لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ
وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (63) قُلْ أَفَغَيْرَ
اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ (64) وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ
قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ (65) بَلِ اللَّهَ
فَاعْبُدْ وَكُن مِّنْ الشَّاكِرِينَ (66) وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعاً
قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّماوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا
يُشْرِكُونَ (67)

سورة غافر

هذه السورة تعالج قضية الحق والباطل . قضية الإيمان والكفر . قضية الدعوة والتكذيب وأخيراً قضية العلو في الأرض والتجبر بغير الحق , وبأس الله الذي يأخذ العالين المتجبرين . . وفي ثنايا هذه القضية تلم بموقف المؤمنين المهتدين الطائعين ونصر الله إياهم , واستغفار الملائكة لهم , واستجابة الله لدعائهم , وما ينتظرهم في الآخرة من نعيم .

وجو السورة كله - من ثم - كأنه جو معركة . وهي المعركة بين الحق و الباطل , وبين الإيمان والطغيان , وبين المتكبرين المتجبرين في الأرض وبأس الله الذي يأخذهم بالدمار والتنكيل . تنسم خلال هذا الجو نسمات الرحمة والرضوان حين يجيء ذكر المؤمنين !

ذلك الجو يتمثل في عرض مصارع الغابرين , كما يتمثل في عرض مشاهد القيامة - وهذه وتلك تتناثر في سياق السورة وتتكرر بشكل ظاهر - وتعرض في صورها العنيفة المرهوبة المخيفة متناسقة مع جو السورة كله , مشتركة في طبع هذا الجو بطابع العنف والشدة .

ولعله مما يتفق مع هذه السمة افتتاح السورة بإيقاعات ذات رنين

خاص:(غافر الذنب . وقابل التوب . شديد العقاب . ذي الطول . لا إله إلا هو . إليه المصير). . فكأنما هي مطارق منتظمة الجرس ثابتة الوقع , مستقرة المقاطع , ومعانيها كذلك مساندة لإيقاعها الموسيقي !

كذلك نجد كلمة البأس . وبأس الله . وبأسنا . . مكررة تتردد في مواضع متفرقة من السورة . وهناك غيرها من ألفاظ الشدة والعنف بلفظها أو بمعناها .

وعلى العموم فإن السورة كلها تبدو وكأنها مقارع ومطارق تقع على القلب البشري وتؤثر فيه بعنف وهي تعرض مشاهد القيامة ومصارع الغابرين . وقد ترق أحياناً فتتحول إلى لمسات وإيقاعات تمس هذا القلب برفق , وهي تعرض حملة العرش ومن حوله يدعون ربهم ليتكرم على عباده المؤمنين , أو وهي تعرض عليه الآيات الكونية والآيات الكامنة في النفس البشرية .

ونضرب بعض الأمثال التي ترسم جو السورة وظلها من هذه وتلك . .

من مصارع الغابرين:(كذبت قبلهم قوم نوح والأحزاب من بعدهم , وهمت كل أمة برسولهم ليأخذوه , وجادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق . فأخذتهم . فكيف كان عقاب ?). . (أو لم يسيروا في الأرض , فينظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم , كانوا هم أشد منهم قوة وآثاراً في الأرض , فأخذهم الله بذنوبهم ; وما كان لهم من الله من واق . ذلك بأنهم كانت تأتيهم رسلهم بالبينات فكفروا , فأخذهم الله , إنه قوي شديد العقاب). .

ومن مشاهد القيامة:(وأنذرهم يوم الآزفة إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين . ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع). .(الذين كذبوا بالكتاب وبما أرسلنا به رسلنا فسوف يعلمون إذ الأغلال في أعناقهم والسلاسل يسحبون في الحميم ثم في النار يسجرون . .) ومن اللمسات الندية مشهد حملة العرش في دعائهم الخاشع المنيب:(الذين يحملون العرش

ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به , ويستغفرون للذين آمنوا . ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلماً , فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك وقهم عذاب الجحيم . ربنا وأدخلهم جنات عدن التي وعدتهم ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم إنك أنت العزيز الحكيم . وقهم السيئات , ومن تق السيئات يومئذ فقد رحمته . وذلك هو الفوز العظيم). . ومن اللمسات الموحية عرض آيات الله في الأنفس وفي الآفاق:(هو الذي خلقكم من تراب , ثم من نطفة , ثم من علقة , ثم يخرجكم طفلا ً , ثم لتبلغوا أشدكم , ثم لتكونوا شيوخاً . ومنكم من يتوفى من قبل , ولتبلغوا أجلا ً مسمى , ولعلكم تعقلون . هو الذي يحيي ويميت . فإذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون). .(الله الذي جعل لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار مبصراً . إن الله لذو فضل على الناس , ولكن أكثر الناس لا يشكرون . ذلكم الله ربكم خالق كل شيء . لا إله إلا هو فأنى تؤفكون ?). .(الله الذي جعل لكم الأرض قراراً والسماء بناء وصوركم فأحسن صوركم . ورزقكم من الطيبات . ذلكم الله ربكم . فتبارك الله رب العالمين). وهذه وتلك تصور جو السورة وترسم ظلها , وتتناسق مع موضوعها وطابعها . ويجري سياق السورة بموضوعاتها في أربعة أشواط متميزة .

يبدأ الشوط الأول منها بافتتاح السورة بالأحرف المقطعة:(حم . تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم)تتلوها تلك الإيقاعات الرصينة الثابتة:(غافر الذنب . وقابل التوب . شديد العقاب ذي الطول . لا إله إلا هو . إليه المصير). . ثم تقرر أن الوجود كله مسلم مستسلم لله . وأنه لا يجادل في آيات الله إلا الذين كفروا فيشذون عن سائر الوجود بهذا الجدال . ومن ثم فهم لا يستحقون أن يأبه لهم رسول الله [ص] مهما تقلبوا في الخير والمتاع . فإنما هم صائرون إلى ما صارت إليه أحزاب المكذبين قبلهم ; وقد أخذهم الله أخذاً , بعقاب يستحق العجب والإعجاب ! ومع ا لأخذ في الدنيا فإن عذاب الآخرة ينتظرهم هناك . . ذلك بينما حملة العرش ومن حوله يعلنون إيمانهم بربهم , ويتوجهون إليه بالعبادة ,

ويستغفرون للذين آمنوا من أهل الأرض , ويدعون لهم بالمغفرة والنعيم والفلاح . . وفي الوقت ذاته يعرض مشهد الكافرين يوم القيامة وهم ينادون من أرجاء الوجود المؤمن المسلم المستسلم: (لمقت الله أكبر من مقتكم أنفسكم إذ تدعون إلى الإيمان فتكفرون). . وهم في موقف الذلة والانكسار بعد الاستكبار , يقرون بذنبهم , ويعترفون بربهم , فلا ينفعهم ا لاعتراف والإقرار ,إنما يذكرون بما كان منهم من شرك واستكبار . . ومن هذا الموقف بين يدي الله في الآخرة يعود بالناس إلى الله في الدنيا . . (هو الذي يريكم آياته وينزل لكم من السماء رزقاً)ويذكرهم لينيبوا إلى ربهم ويوحدوه:(فادعوا الله مخلصين له الدين ولو كره الكافرون). ويشير إلى الوحي والإنذار بذلك اليوم العصيب . ويستطرد إلى مشهدهم يوم القيامة: (يوم هم بارزون لا يخفى على الله منهم شيء)وقد توارى الجبارون والمتكبرون والمجادلون: (لمن الملك اليوم ? لله الواحد القهار). . ويستمر في عرض صور من هذا اليوم الذي يتفرد الله جل جلاله فيه بالحكم والقضاء . ويتوارى فيه ويضمحل ما يعبدون من دونه , كما يتوارى الطغاة والفجار . .

ويبدأ الشوط الثاني بلفتة إلى مصارع الغابرين قبلهم . مقدمة لعرض جانب من قصة موسى - عليه السلام - مع فرعون وهامان وقارون . تمثل موقف الطغيان من دعوة الحق . وتعرض فيها حلقة جديدة لم تعرض في قصة موسى من قبل , ولا تعرض إلا في هذه السورة . وهي حلقة ظهور رجل مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه . يدفع عن موسى ما هموا بقتله ; ويصدع بكلمة الحق والإيمان في تلطف وحذر في أول الأ مر , ثم في صراحة ووضوح في النهاية . ويعرض في جدله مع فرعون حجج الحق وبراهينه قوية ناصعة ; ويحذرهم يوم القيامة , ويمثل لهم بعض مشاهده في أسلوب مؤثر ; ويذكرهم موقفهم وموقف الأجيال قبلهم من يوسف - عليه السلام - ورسالته . . ويستطرد السياق بالقصة حتى يصل طرفها بالآخرة . فإذا هم هناك . وإذا هم يتحاجون في النار . وإذا حوار بين الضعفاء والذين استكبروا , وحوار لهم جميعاً مع خزنة

جهنم يطلبون فيه الخلاص . ولات حين خلاص ! وفي ظل هذا المشهد يوجه الله رسوله [ص] إلى الصبر والثقة بوعد الله الحق , والتوجه إلى إلى ربه بالتسبيح والحمد والاستغفار .

فأما الشوط الثالث فيبدأ بتقرير أن الذين يجادلون في آيات الله بغير حجة ولا برهان إنما يدفعهم إلى هذا كبر في نفوسهم عن الحق , وهم أصغر وأضأل من هذا الكبر . ويوجه القلوب حينئذ إلى هذا الوجود الكبير الذي خلقه الله , وهو أكبر من الناس جميعاً . لعل المتكبرين يتصاغرون أمام عظمة خلق الله ; وتتفتح بصيرتهم فلا يكونون عمياً:(وما يستوي الأعمى والبصير والذين آمنوا وعملوا الصالحات ولا المسيء . قليلا ً ما تتذكرون). ويذكرهم بمجيء الساعة , ويوجههم إلى دعوة الله الذي يستجيب للدعاء . فأما الذين يستكبرون فسيدخلون جهنم أذلاء صاغرين . ويعرض في هذا الموقف بعض آيات الله الكونية التي يمرون عليها غافلين . يعرض الليل سكناً والنهار مبصراً . والأرض قراراً والسماء بناء . ويذكرهم بأنفسهم وقد صورهم فأحسن صورهم . ويوجههم إلى دعوة الله مخلصين له الدين . ويلقن الرسول [ص] أن يبرأ من عبادتهم , ويعلن نهي ربه له عن آلهتهم , وأمره له بالإسلام لرب العالمين . ويلمس قلوبهم بأن الله الواحد هو الذي أنشأهم من تراب ثم من نطفة . . وهو الذي يحيي ويميت . ثم يعود فيعجب رسوله [ص] من أمر الذين يجادلون في الله ; وينذرهم عذاب يوم القيامة في مشهد عنيف:(إذ الأغلال في أعناقهم والسلاسل يسحبون في الحميم ثم في النار يسجرون). . وإذ يتخلى عنهم ما أشركوا وينكرون هم أنهم كانوا يعبدون شيئاً ! وينتهي بهم الأمر إلى جهنم يقال لهم: (ادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها فبئس مثوى المتكبرين). . وعلى ضوء هذا المشهد يوجه الله رسوله إلى الصبر مرة أخرى , والثقة بأن وعد الله حق . سواء أبقاه حتى يشهد بعض ما يعدهم أو توفاه قبل أن يراه . فسيتم الوعد هناك . .

والشوط الأخير في السورة يتصل بالشوط الثالث . فبعد توجيه الرسول

[ص] للصبر والانتظار يذكر أن الله قد أرسل رسلا ً قبله كثيرين . (وما كان لرسول أن يأتي بآية إلا بإذن الله). . على أن في الكونآيات قائمة , وبين أيديهم آيات قريبة ; ولكنهم يغفلون عن تدبرها . . هذه الأ نعام المسخرة لهم . من سخرها ? . وهذه الفلك التي تحملهم أليست آية يرونها ! ومصارع الغابرين ألا تثير في قلوبهم العظة والتقوى ? ويختم السورة بإيقاع قوي على مصرع من مصارع المكذبين , وهم يرون بأس الله فيؤمنون(فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا . سنة الله التي قد خلت في عباده , وخسر هنالك الكافرون). . هذا الختام الذي يصور نهاية المتكبرين , ويتفق مع جو السورة وظلها وطابعها الأصيل .

سورة فصلت

قضية العقيدة بحقائقها الأساسية هي التي تعالجها هذه السورة . . الأ لوهية الواحدة . والحياة الآخرة . والوحي بالرسالة . يضاف إليها طريقة الدعوة إلى الله وخلق الداعية .

وكل ما في السورة هو شرح لهذه الحقائق , واستدلال عليها . وعرض لآ يات الله في الأنفس والآفاق , وتحذير من التكذيب بها , وتذكير بمصارع المكذبين في الأجيال السابقة , وعرض لمشاهد المكذبين يوم القيامة . وبيان أن المكذبين من الجن والإنس هم وحدهم الذين لا يسلمون بهذه الحقائق ولا يستسلمون لله وحده ; بينما السماء والأرض و الشمس والقمر والملائكة . . . كلهم يسجدون لله ويخشعون ويسلمون ويستسلمون .

فعن حقيقة الألوهية الواحدة يرد في مطلع السورة: قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إليّ أنما إلهكم إله واحد , فاستقيموا إليه واستغفروه وويل للمشركين . . و:(قل أئنكم لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين

وتجعلون له أنداداً ؟ ذلك رب العالمين) . ويحكى عن عاد وثمود أن رسلهم قالت لهم هذه الحقيقة ذاتها: ألا تعبدوا إلا الله . . وفي وسطها يرد: (لا تسجدوا للشمس ولا للقمر , واسجدوا لله الذي خلقهن) . . وفي نهايتها يرد عن الحقيقة ذاتها: (ويوم يناديهم أين شركائي ؟ قالوا:آذناك ما منا من شهيد) . .

وعن قضية الآخرة يرد تهديد للذين لا يؤمنون بالآخرة: (وويل للمشركين الذين لا يؤتون الزكاة وهم بالآخرة هم كافرون) . . وتختم بقوله:(ألا إنهم في مرية من لقاء ربهم , ألا إنه بكل شيء محيط) . . كما يرد ذكر هذه القضية في مشاهد القيامة وهي عرض لما يقع فيها يقوم على تأكيد وقوعها طبعاً . بل إن هذا الطريق أشد توكيداً لهذه القضية وتشخيصاً .

وعن قضية الوحي يرد كلام كثير يكاد يجعل هذا الموضوع هو موضوع السورة الرئيسي . فهي تفتتح به في تفصيل: (حم . تنزيل من الرحمن الرحيم . كتاب فصلت آياته قرآناً عربياً لقوم يعلمون . بشيراً ونذيراً فأعرض أكثرهم فهم لا يسمعون . وقالوا:قلوبنا في أكنة مما تدعونا إليه , وفي آذاننا وقر , ومن بيننا وبينك حجاب , فاعمل إننا عاملون . قل:إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلي . . .) . . . وفي وسطها يجيء عن استقبال المشركين لهذا القرآن:(وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون) . . ثم يرد تفصيل كثير لهذا الاستقبال والرد على أقوالهم فيه:(إن الذين كفروا بالذكر لما جاءهم , وإنه لكتاب عزيز , لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه , تنزيل من حكيم حميد . ما يقال لك:إلا ما قد قيل للرسل من قبلك . إن ربك لذو مغفرة وذو عقاب أليم . ولو جعلناه قرآناً أعجمياً لقالوا:لولا فصلت آياته ؟ أأعجمي وعربي ؟ قل:هو للذين آمنوا هدى وشفاء , والذين لا يؤمنون في آذانهم وقر , وهو عليهم عمى . أولئك ينادون من مكان بعيد . . .) . .

وأما عن طريقة الدعوة وخلق الداعية فيرد قوله:(ومن أحسن قولا ً

ممن دعا إلى الله وعمل صالحاً , وقال:إنني من المسلمين . ولا تستوي الحسنة ولا السيئة . ادفع بالتي هي أحسن , فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم . وما يلقاها إلا الذين صبروا , وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم . وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله , إنه هو السميع العليم). .

هذه القضايا تعرض في حشد من المؤثرات الشعورية العميقة . تعرض في المجال الكوني الحافل بالآيات العظام . وتعرض في عالم النفس البشرية العجيبة التكوين . وتعرض في مجال بشري من مصارع الغابرين . وأخيراً تعرض في جو من مشاهد القيامة وتأثيرها العميق ; وبعض هذه المشاهد فريد في صوره ومواقفه يثير الدهش الشديد .

ومن بين المشاهد الكونية في هذه السورة مشهد الخلق الأول للأرض و السماء بكثير من التفصيل المثير: قل أئنكم لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين وتجعلون له أنداداً ? ذلك رب العالمين . وجعل فيها رواسي من فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقواتها في أربعة أيام سواء للسائلين . ثم استوى إلى السماء وهي دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كرهاً . قالتا أتينا طائعين . فقضاهن سبع سماوات في يومين , وأوحى في كل سماء أمرها . وزينا السماء الدنيا بمصابيح وحفظاً . ذلك تقدير العزيز العليم . . ومن بينها كذلك آيات الليل والنهار والشمس والقمر وعبادة المل لائكة وخشوع الأرض بالعبادة ونبضها بالحياة: (ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر . لا تسجدوا للشمس ولا للقمر واسجدوا لله الذي خلقهن إن كنتم إياه تعبدون . فإن استكبروا فالذين عند ربك يسبحون له بالليل والنهار وهم لا يسأمون . ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة ; فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت . إن الذي أحياها لمحيي الموتى , إنه على كل شيء قدير). . أما النفس البشرية فيكشف عن حقيقتها في هذه السورة , وتعرض على أصحابها عارية من كل ستار:(لا يسأم الإنسان من دعاء الخير , وإن مسه الشر فيؤوس قنوط , ولئن أذقناه رحمة منا من بعد ضراء مسته ليقولن:هذا لي , وما أظن الساعة قائمة , ولئن رجعت إلى

ربي إن لي عنده للحسنى , فلننبئن الذين كفروا بما عملوا ولنذيقنهم من عذاب غليظ . وإذا أنعمنا على الإنسان أعرض ونأى بجانبه , وإذا مسه الشر فذو دعاء عريض). .

ومن مصارع الغابرين يصور مصرع عاد ومصرع ثمود: فأما عاد فاستكبروا في الأرض بغير الحق , وقالوا:من أشد منا قوة ? أولم يروا أن الله الذي خلقهم هو أشد منهم قوة , وكانوا بآياتنا يجحدون . فأرسلنا عليهم ريحاً صرصراً في أيام نحسات لنذيقهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا ولعذاب الآخرة أخزى وهم لا ينصرون . وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى , فأخذتهم صاعقة العذاب الهون بما كانوا يكسبون . ونجينا الذين آمنوا وكانوا يتقون . .

ومن مشاهد القيامة المؤثرة في هذه السورة: يوم يحشر أعداء الله إلى النار فهم يوزعون . حتى إذا ما جاؤوها شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون . وقالوا لجلودهم:لم شهدتم علينا ? ق الوا:أنطقنا الله الذي أنطق كل شيء . وهو خلقكم أول مرة , وإليه ترجعون . . ومنها كذلك مشهد الحنق الواضح من المخدوعين على الخادعين:(وقال الذين كفروا:ربنا أرنا الذين أضلانا من الجن والإنس , نجعلهما تحت أقدامنا , ليكونا من الأسفلين !). .

وهكذا تعرض حقائق العقيدة - في السورة - في هذا الحشد من المؤثرات العميقة . ولعل هذا الحشد المنوع من تلك المؤثرات يصف جو السورة , ويصور طابعها , ويرسم ظلالها . . والواقع أن القلب يجد أنه منذ مطلع السورة إلى ختامها أمام مؤثرات وإيقاعات تجول به في ملكوت السماوات والأرض , وفي أغوار النفس , وفي مصارع البشر , وفي عالم القيامة , وتوقع على أوتاره إيقاعات شتى كلها مؤثر عميق . .

ويجري سياق السورة بموضوعاتها ومؤثراتها في شوطين اثنين , متماسكي الحلقات . .

الشوط الأول يبدأ بالآيات التي تتحدث عن تنزيل الكتاب وطبيعته وموقف المشركين منه . وتليها قصة خلق السماء والأرض . فقصة عاد وثمود . فمشهدهم في الآخرة تشهد عليهم الأسماع والأبصار والجلود . ومن هنا يرتد إلى الحديث عنهم في الدنيا وكيف ضلوا هذا الضلال , فيذكر أن الله قيض لهم قرناء سوء من الجن والإنس . يزينون لهم ما بين أيديهم وما خلفهم . ومن آثار هذا قولهم:لا تسمعوا لهذا القرآن و الغوا فيه لعلكم تغلبون . ثم موقفهم يوم القيامة حانقين على هؤلاء الذين خدعوهم من قرناء الجن والإنس ! وعلى الضفة الأخرى الذين ق الوا:ربنا الله ثم استقاموا . وهؤلاء تتنزل عليهم الملائكة - لا قرناء السوء - يطمئنونهم ويبشرونهم ويعلنون ولايتهم لهم في الدنيا والآخرة . ويلي هذا ما جاء عن الدعوة والداعية . . وبذلك ينتهي هذا الشوط .

ويليه الشوط الثاني يتحدث عن آيات الله من الليل والنهار والشمس و القمر والملائكة العابدة , والأرض الخاشعة , والحياة التي تهتز فيها وتربو بعد الموات . ويلي هذا الحديث عن الذين يلحدون في آيات الله وفي كتابه , وهنا يجيء ذلك الحديث عن هذا الكتاب . ويشار إلى كتاب موسى واختلاف قومه فيه . ويوكل أمرهم إلى الله بعد الأجل المضروب . وهنا يرد حديث عن الساعة واختصاص علم الله بها . وعلمه بما تكنه الأكمام من ثمرات , وما تكنه الأرحام من أنسال . ويعرض مشهد الكافرين وهم يسألون عن الشركاء . يلي هذا الحديث عن النفس البشرية عارية من أستارها . ومع حرص الإنسان على نفسه هكذا فإنه لا يحتاط لها فيكذب ويكفر , غير محتاط لما يعقب هذا التكذيب من دمار وعذاب .

وتختم السورة بوعد من الله أن يكشف للناس عن آياته في الأنفس والآ فاق حتى يتبينوا ويثقوا: سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق . أولم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد . ألا إنهم في مرية من لقاء ربهم . ألا إنه بكل شيء محيط . .

هذه السورة تعالج قضية العقيدة كسائر السور المكية ; ولكنها تركز بصفة خاصة على حقيقة الوحي والرسالة , حتى ليصح أن يقال:إنها هي المحور الرئيسي الذي ترتبط به السورة كلها ; وتأتي سائر الموضوعات فيها تبعاً لتلك الحقيقة الرئيسية فيها

هذا مع أن السورة تتوسع في الحديث عن حقيقة الوحدانية , وتعرضها من جوانب متعددة ; كما أنها تتحدث عن حقيقة القيامة والإيمان بها ; ويأتي ذكر الآخرة ومشاهدها في مواضع متعددة منها . وكذلك تتناول عرض صفات المؤمنين وأخلاقهم التي يمتازون بها . كما تلم بقضية الرزق:بسطه وقبضه ; وصفة الإنسان في السراء والضراء .

ولكن حقيقة الوحي والرسالة , وما يتصل بها , تظل - مع ذلك - هي الحقيقة البارزة في محيط السورة , والتي تطبعها وتظللها . وكأن سائر الموضوعات الأخرى مسوقة لتقوية تلك الحقيقة الأولى وتوكيدها .

ويسير سياق السورة في عرض تلك الحقيقة , وما يصاحبها من موضوعات أخرى بطريقة تدعو إلى مزيد من التدبر والملاحظة . فهي تعرض من جوانب متعددة . يفترق بعضها عن بعض ببضع آيات تتحدث عن وحدانية الخالق . أو وحدانية الرازق . أو وحدانية المتصرف في القلوب . أو وحدانية المتصرف في المصير . . ذلك بينما يتجه الحديث عن حقيقة الوحي والرسالة إلى تقرير وحدانية الموحي - سبحانه - ووحدة الوحي . ووحدة العقيدة . ووحدة المنهج والطريق . وأخيراً وحدة القيادة البشرية في ظل العقيدة .

ومن ثم يرتسم في النفس خط الوحدانية بارزاً واضحاً , بشتى معانيه وشتى ظلاله وشتى إيحاءاته , من وراء موضوعات السورة جميعاً . . ونضرب بعض الأمثلة من السورة إجمالا ً , قبل أن نأخذ في التفصيل:

تبدأ بالأحرف المقطعة: حا . ميم . عين . سين . قاف . . يليها:(كذلك يوحي إليك وإلى الذين من قبلك الله العزيز الحكيم). . مقرراً وحدة مصدر الوحي في الأولين والآخرين: (إليك وإلى الذين من قبلك). .

ثم يستطرد السياق في صفة الله العزيز الحكيم:(له ما في السماوات وما في الأرض وهو العلي العظيم). . مقرراً وحدانية المالك لما في السماوات والأرض واستعلاءه وعظمته على وجه الانفراد .

ثم يستطرد استطراداً آخر في وصف حال الكون تجاه قضية الإيمان بـ المالك الواحد , وتجاه الشرك الذي يشذ به بعض الناس:(تكاد السماوات يتفطرن من فوقهن , والملائكة يسبحون بحمد ربهم , ويستغفرون لمن في الأرض , ألا إن الله هو الغفور الرحيم , والذين اتخذوا من دونه أولياء , الله حفيظ عليهم , وما أنت عليهم بوكيل). . فإذا الكون كله مشغول بقضية الإيمان والشرك حتى إن السماوات ليكدن يتفطرن من شذوذ بعض أهل الأرض , بينما الملائكة يستغفرون لمن في الأرض جميعاً من هذه الفعلة الشنعاء التي جاء بها بعض المنحرفين !

وبعد هذه الجولة يعود السياق إلى الحقيقة الأولى:(وكذلك أوحينا إليك , قرآناً عربياً لتنذر أم القرى ومن حولها , وتنذر يوم الجمع لا ريب فيه , فريق في الجنة وفريق في السعير). .

ثم يستطرد مع (فريق في الجنة وفريق في السعير). . فيقرر أن لو شاء الله لجعلهم أمة واحدة . ولكن مشيئته اقتضت - بما له من علم وحكمة - أن يدخل من يشاء في رحمته (والظالمون ما لهم من ولي ولا نصير). . ويقرر أن الله وحده هو الولي (وهو يحيي الموتى وهو على كل شيء قدير). .

ومن ثم يعود إلى الحقيقة الأولى , حقيقة الوحي والرسالة , فيقرر أن الحكم فيما يختلف فيه البشر من شيء هو الله الذي أنزل هذا القرآن ليرجع إليه الناس في كل اختلاف:(وما اختلفتم فيه من شيء فحكمه

إلى الله . ذلكم الله ربي عليه توكلت , وإليه أنيب). .

ويستطرد مع الربوبية إلى وحدانية الخالق , وتفرد ذاته . ووحدانية المتصرف في مقادير السماوات والأرض , وفي بسط الرزق وقبضه . وفي علمه بكل شيء: (فاطر السماوات والأرض , جعل لكم من أنفسكم أزواجاً ,ومن الأنعام أزواجاً , يذرؤكم فيه , ليس كمثله شيء , وهو السميع البصير . له مقاليد السماوات والأرض , يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر , إنه بكل شيء عليم). .

ثم يعود إلى الحقيقة الأولى: شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً , و الذي أوحينا إليك , وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى:أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه . كبر على المشركين ما تدعوهم إليه . الله يجتبي إليه من يشاء , ويهدي إليه من ينيب . وما تفرقوا إلا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم , ولولا كلمة سبقت من ربك إلى أجل مسمى لقضي بينهم , وإن الذين أورثوا الكتاب من بعدهم لفي شك منه مريب . فلذلك فادع واستقم كما أمرت , ولا تتبع أهواءهم وقل:آمنت بما أنزل الله من كتاب . . . الخ. .

وعلى مثل هذا النسق تمضي السورة في عرض هذه الحقيقة ; محوطة بمثل هذا الجو , وهذه الاستطرادات المتعلقة بقضايا العقيدة الأخرى , المثبتة في الوقت ذاته للحقيقة الأولى التي تبدو كأنها موضوع السورة الرئيسي .

وهذا النسق واضح وضوحا كاملا ً في هذا الدرس الأول من السورة . فالقارىء يلتقي بعد كل بضع آيات بحقيقة الوحي والرسالة في جانب من جوانبها .

فأما الدرس الثاني ويؤلف بقية السورة , فيبدأ باستعراض بعض آيات الله في بسط الرزق وقبضه وفي تنزيل الغيث برحمته(وفي خلق السماوات والأرض وما بث فيهما من دابة وفي الفلك الجواري في البحر

كالأعلام . ويستطرد من هذه الآيات إلى صفة المؤمنين التي تفردهم وتميز جماعتهم . فإلى مشهد من مشاهد القيامة يعرض صورة الظالمين لما رأوا العذاب: (يقولون هل إلى مرد من سبيل , وتراهم يعرضون عليها خاشعين من الذل ينظرون من طرف خفي). . واستعلاء المؤمنين يومئذ ووقوفهم موقف المقرر لحال الظالمين:

(وقال الذين آمنوا:إن الخاسرين الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة . ألا إن الظالمين في عذاب مقيم). . وفي ظل هذا المشهد يدعو الناس إلى إنقاذ انفسهم من مثل هذا الموقف قبل فوات الأ وان:(استجيبوا لربكم من قبل أن يأتي يوم لا مرد له من الله , ما لكم من ملجأ يومئذ , وما لكم من نكير). .

ومن ثم يعود إلى الحقيقة الأولى في السورة . حقيقة الوحي والرسالة . في جانب من جوانبها: (فإن أعرضوا فما أرسلناك عليهم حفيظاً إن عليك إلا البلاغ . . .).

ويمضي سياق السورة حتى ختامها يدور حول هذا المحور مباشرة أو غير مباشرة , مع طابع الاستطراد بين كل إشارة وإشارة إلى تلك الحقيقة , حتى يكون ختام السورة هذا البيان في شأن الوحي والرسالة: (وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً أو من وراء حجاب , أو يرسل رسو لا ً فيوحي بإذنه ما يشاء , إنه عليّ حكيم . وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا , ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان ; ولكن جعلناه نوراً نهدي به من نشاء من عبادنا , وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم . صراط الله الذي له ما في السماوات وما في الأرض ألا إلى الله تصير الأمور). .

وبعد فمن وراء التركيز على حقيقة الوحي والرسالة في سياق السورة كله يبرز هدف خاص لعرضها على هذا النحو وفي هذا التتابع .

هذا الهدف هو تعيين القيادة الجديدة للمبشرين ممثلة في الرسالة الأ خيرة , ورسولها , والأمة المسلمة التي تتبع نهجه الإلهي الثابت القويم .

وتبدأ أول إشارة مع مطلع السورة(كذلك يوحي إليك وإلى الذين من قبلك الله العزيز الحكيم). . لتقررأن الله هو الموحي بجميع الرسالات لجميع الرسل , وأن الرسالة الأخيرة هي امتداد لأمر مقرر مطرد من قديم .

وتأتي الإشارة الثانية بعد قليل: (وكذلك أوحينا إليك قرآناً عربياً لتنذر أم القرى ومن حولها). . لتقرر مركز القيادة الجديدة التي سترد الإشارة إليها فيما بعد .

وفي الإشارة الثالثة يقرر وحدة الرسالة بعد ما قرر في الإشارة الأولى وحدة المصدر: (شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه). .

وتستطرد هذه الإشارة إلى تقرير أن التفرق قد وقع , مخالفاً لهذه التوصية , ولم يقع عن جهل من أتباع أولئك الرسل الكرام ولكن عن علم . وقع بغيا وظلما وحسدا: (وما تفرقوا إلا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم). .

ثم تستطرد كذلك إلى بيان حال الذين جاءوا من بعد أولئك الذين اختلفوا: (وإن الذين أورثوا الكتاب من بعدهم لفي شك منه مريب). . وعند هذا الحد يتبين أن البشرية قد آلت إلى فوضى وارتياب , ولم تعد لها قيادة راشدة تقوم على نهج ثابت قويم . . فرسالة السماء التي تقود البشرية قد آلت إلى اختلاف بين أتباعها . والذين جاءوا من بعدهم تلقوها في ريبة وفي شك لا تستقيم معهما قيادة راشدة . ومن ثم يعلن انتداب الرسالة الأخيرة وحاملها [ص] لهذه القيادة: فلذلك فادع واستقم كما أمرت ولا تتبع أهواءهم . وقل:آمنت بما أنزل الله من كتاب , وأمرت لأعدل بينكم . الله ربنا وربكم . . . الخ . ومن ثم تجيء صفة الجماعة المؤمنة المميزة لها طبيعية في سياق هذه السورة - في الدرس الثاني - بوصفها الجماعة التي ستقوم على قيادة هذه البشرية

على ذلك النهج الثابت القويم . وعلى ضوء هذه الحقيقة يصبح سياق السورة وموضوعها الرئيسي والموضوعات الأخرى فيه واضحة القصد و الاتجاه . وتتبع هذا السياق بالتفصيل يزيد هذا الأمر وضوحا . .

سورة الزخرف

تعرض هذه السورة جانباً مما كانت الدعوة الإسلامية تلاقيه من مصاعب وعقبات ; ومن جدال واعتراضات . وتعرض معها كيف كان القرآن الكريم يعالجها في النفوس ; وكيف يقرر في ثنايا علاجها حقائقه وقيمه في مكان الخرافات والوثنيات والقيم الجاهلية الزائفة , التي كانت قائمة في النفوس إذ ذاك , ولا يزال جانب منها قائماً في النفوس في كل زمان ومكان ......الوحدة الاولي 1-14

الدرس الأول:1 - 8 إنزال القرآن ونقاش الكفار حوله

الدرس الثاني:9 - 14 إعترافهم بالله وتذكيرهم ببعض نعم الله عليهم

الوحدة الثانية:26 - 56 الموضوع:مشاهد من قصة إبراهيم وموسى وعيسى

الدرس الأول:26 - 35 براءة إبراهيم من الكفار وشبهات قريش ضد الرسول ومقارنة بين القيم الزائفة والثابتة

الدرس الثاني:36 إفساد الشيطان لقرينه وندامته يوم القيامة

الدرس الثالث:40 - 43 تسلية ومواساة الرسول على إعراض الكفار ومصيرهم البائس

الدرس الرابع:46 - 56 سخرية فرعون بموسى واستخفافه لقومه لفسقهم وهلاكهم

الوحدة الثالثة:57 - 89 الموضوع:عيسى هو عبدالله ورسوله وعذاب المشركين وثواب الموحدين وألوهية الله وحده

الدرس الأول:57 - 65 عيسى هو عبد الله ورسوله ونقاش النصارى و المشركين حوله

الدرس الثاني:66 - 77 قيام الساعة وعداوة الأخلاء الفاسدين ونعيم المؤمنين وعذاب الكافرين

الدرس الثالث:78 - 80 تقريع الكفار لجرائمهم تجاه الحق وأهله

الدرس الرابع:81 - 83 لا شريك مع الله وتهديد الكفار

الدرس الخامس:84 ألوهية الله وملكيته للسماوات والأرض

الدرس السادس:87 اعتراف الكفار بخلق الله لهم

الدرس السابع:88 - 89 شكوى الرسول من كفر قومه ودعوته للصفح ...

سورة الدخان

يشبه إيقاع هذه السورة المكية , بفواصلها القصيرة , وقافيتها المتقاربة , وصورها العنيفة , وظلالها الموحية . . يشبه أن يكون إيقاعها مطارق على أوتار القلب البشري المشدودة . ويكاد سياق السورة أن يكون كله وحدة متماسكة , ذات محور واحد , تشد إليه خيوطها جميعاً . سواء في ذلك القصة , ومشهد القيامة , ومصارع الغابرين , والمشهد الكوني , والحديث المباشر عن قضية التوحيد والبعث والرسالة . فكلها وسائل ومؤثرات لإيقاظ القلب البشري واستجاشته لاستقبال حقيقة الإيمان حية نابضة , كما يبثها هذا القرآن في القلوب . وتبدأ السورة بالحديث عن القرآن وتنزيله في ليلة مباركة فيها يفرق كل أمر حكيم , رحمة من

الله بالعباد وإنذاراً لهم وتحذيراً . ثم تعريف للناس بربهم:رب السماوات والأرض وما بينهما , وإثبات لوحدانيته وهو المحيي والمميت رب الأ ولين والآخرين . ثم يضرب عن هذا الحديث ليتناول شأن القوم:(بل هم في شك يلعبون)! ويعاجلهم بالتهديد المرعب جزاء الشك و اللعب:(فارتقب يوم تأتي السماء بدخان مبين يغشى الناس هذا عذاب أليم). . ودعاءهم بكشف العذاب عنهم وهو يوم يأتي لا يكشف . وتذكيرهم بأن هذا العذاب لم يأت بعد , وهو الآن عنهم مكشوف , فلينتهزوا الفرصة , قبل أن يعودوا إلى ربهم , فيكون ذلك العذاب المخوف:(يوم نبطش البطشة الكبرى إنا منتقمون). . ومن هذا الإيقاع العنيف بمشهد العذاب ومشهد البطشة الكبرى والانتقام ; ينتقل بهم إلى مصرع فرعون وملئه يوم جاءهم رسول كريم , وناداهم: أن أدوا إليّ عباد الله إني لكم رسول أمين . وألا تعلوا على الله . . فأبوا أن يسمعوا حتى يئس منهم الرسول . ثم كان مصرعهم في هوان بعد الاستعلاء والا ستكبار:(كم تركوا من جنات وعيون وزروع ومقام كريم ونعمة كانوا فيها فاكهين . كذلك وأورثناها قوماً آخرين . فما بكت عليهم السماء والأ رض وما كانوا منظرين). . وفي غمرة هذا المشهد الموحي يعود إلى الحديث عن تكذيبهم بالآخرة , وقولهم:(إن هي إلا موتتنا الأولى وما نحن بمنشرين , فأتوا بآبائنا إن كنتم صادقين)ليذكرهم بمصرع قوم تبع , وما هم بخير منهم ليذهبوا ناجين من مثل مصيرهم الأليم . ويربط بين البعث , وحكمة الله في خلق السماوات والأرض ,(وما خلقنا السماوات والأرض وما بينهما لاعبين . ما خلقناهما إلا بالحق . ولكن أكثرهم لا يعلمون). . ثم يحدثهم عن يوم الفصل: (ميقاتهم أجمعين). وهنا يعرض مشهداً عنيفاً للعذاب بشجرة الزقزم , وعتل الأثيم , وأخذه إلى سواء الجحيم , يصب من فوق رأسه الحميم . مع التبكيت و الترذيل:(ذق إنك أنت العزيز الكريم . إن هذا ما كنتم به تمترون). . وإلى جواره مشهد النعيم عميقاً في المتعة عمق مشهد العذاب في الشدة . تمشياً مع ظلال السورة العميقة وإيقاعها الشديد . . وتختم السورة بالإ شارة إلى القرآن كما بدأت:(فإنما يسرناه بلسانك لعلهم يتذكرون). .

وبالتهديد الملفوف العنيف:(فارتقب إنهم مرتقبون). إنها سورة تهجم على القلب البشري من مطلعها إلى ختامها , في إيقاع سريع متواصل . تهجم عليه بإيقاعها كما تهجم عليه بصورها وظلالها المتنوعة المتحدة في سمة العنف والتتابع . وتطوف به في عوالم شتى بين السماء والأرض , والدنيا والآخرة , والجحيم والجنة , والماضي والحاضر , والغيب والشهادة , والموت والحياة , وسنن الخلق ونواميس الوجود . . فهي - على قصرها نسبياً - رحلة ضخمة في عالم الغيب وعالم الشهود . .

سورة الجاثية

هذه السورة المكية تصور جانباً من استقبال المشركين للدعوة الإسلامية , وطريقتهم في مواجهة حججها وآياتها , وتعنتهم في مواجهة حقائقها وقضاياها , واتباعهم للهوى اتباعاً كاملا ً في غير ما تحرج من حق واضح أو برهان ذي سلطان . كذلك تصور كيف كان القرآن يعالج قلوبهم الجامحة الشاردة مع الهوى , المغلقة دون الهدى ; وهو يواجهها بآيات الله القاطعة العميقة التأثير والدلالة , ويذكرهم عذابه , ويصور لهم ثوابه , ويقرر لهم سننه , ويعرفهم بنواميسه الماضية في هذا الوجود .

ومن خلال آيات السورة وتصويرها للقوم الذين واجهوا الدعوة في مكة , نرى فريقاً من الناس مصرا على الضلالة , مكابراً في الحق , شديد العناد , سيىء الأدب في حق الله وحق كلامه , ترسمه هذه الآيات , وتواجهه بما يستحقه من الترذيل والتحذير والتهديد بعذاب الله المهين الأليم العظيم:

(ويل لكل أفاك أثيم . يسمع آيات الله تتلى عليه , ثم يصر مستكبراً كأن لم يسمعها , فبشره بعذاب أليم . وإذا علم من آياتنا شيئاً اتخذها هزواً ,

أولئك لهم عذاب مهين . من ورائهم جهنم , ولا يغني عنهم ما كسبوا شيئاً ولا ما اتخذوا من دون الله أولياء ولهم عذاب عظيم). .

ونرى جماعة من الناس , ربما كانوا من أهل الكتاب سيئي التصور و التقدير ; لا يقيمون وزناً لحقيقة الإيمان الخالصة , ولا يحسون بالفارق ا لأصيل بينهم وهم يعملون السيئات وبين المؤمنين الذين يعملون الصالحات . والقرآن يشعرهم بأن هناك فارقاً أصيلا ً في ميزان الله بين الفريقين , ويقرر سوء حكمهم وسوء تصورهم للأمور ; وقيام الأمر في ميزان الله على العدل الأصيل في صلب الوجود كله منذ بدء الخلق والتكوين:

(أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات , سواء محياهم ومماتهم ? ساء ما يحكمون ! وخلق الله السماوات والأرض بالحق , ولتجزى كل نفس بما كسبت , وهم لا يظلمون). .

ونرى فريقاً من الناس لا يعرف حكماً يرجع إليه إلا هواه , فهو إلهه الذي يتعبده , ويطيع كل ما يراه . نرى هذا الفريق من الناس مصوراً تصويراً فذاً في هذه الآية ; وهو يعجب من أمره ويشهر بغفلته وعماه:

(أفرأيت من اتخذ إلهه هواه , وأضله الله على علم , وختم على سمعه وقلبه , وجعل على بصره غشاوة ? فمن يهديه من بعد الله ? أفلا تذكرون ?). .

ونرى هذا الفريق من الناس ينكر أمر الآخرة , ويشك كل الشك في قضية البعث والحساب , ويتعنت في الإنكار وفي طلب البرهان بما لا سبيل إليه في هذه الأرض . والقرآن يوجه هذا الفريق إلى الدلائل القائمة الحاضرة على صدق هذه القضية , وهم عنها معرضون:

(وقالوا:ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا , وما يهلكنا إلا الدهر . وما لهم بذلك من علم , إن هم إلا يظنون . وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات ما

كان حجتهم إلا أن قالوا:ائتوا بآبائنا إن كنتم صادقين . قل:الله يحييكم ثم يميتكم ثم يجمعكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه . ولكن أكثر الناس لا يعلمون). .

ويجوز أن يكون هؤلاء جميعاً فريقاً واحداً من الناس يصدر منه هذا وذاك , ويصفه القرآن في السورة هنا وهناك . كما يجوز أن يكونوا فرقاً متعددة ممن واجهوا الدعوة في مكة . بما في ذلك بعض أهل الكتاب , وقليل منهم كان في مكة . ويجوز أن تكون هذه إشارة عن هذا الفريق ليعتبر بها أهل مكة دون أن يقتضي هذا وجوده في مكة بالذات في ذلك الحين .

وعلى أية حال فقد واجه القرآن هؤلاء الناس بصفاتهم تلك وتصرفاتهم , وتحدث عنهم في هذه السورة ذلك الحديث . . كذلك واجههم بآيات الله في الآفاق وفي أنفسهم , وحذرهم حساب يوم القيامة , وبصرهم بما جرى لمن قبلهم ممن انحرفوا عن دين الله القويم .

واجههم بآيات الله في هذا الأسلوب البسيط المؤثر العميق:

(إن في السماوات والأرض لآيات للمؤمنين . وفي خلقكم وما يبث من دابة آيات لقوم يوقنون . واختلاف الليل والنهار وما أنزل الله من السماء من رزق فأحيا به الأرض بعد موتها , وتصريف الرياح آيات لقوم يعقلون . تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق , فبأي حديث بعد الله وآياته يؤمنون ?). .

وواجههم بها مرة أخرى في صورة نعم من أنعم الله عليهم يغفلون عن تذكرها وتدبرها:

(الله الذي سخر لكم البحر لتجري الفلك فيه بأمره ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون . وسخر لكم ما في السماوات وما في الأرض جميعاً منه . إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون). .

كذلك واجههم بحالهم يوم القيامة الذي ينكرونه أو يمارون فيه:

ويوم تقوم الساعة يومئذ يخسر المبطلون . وترى كل أمة جاثية . كل أمة تدعى إلى كتابها . اليوم تجزون ما كنتم تعملون . هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون . فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيدخلهم ربهم في رحمته . ذلك هو الفوز المبين . وأما الذين كفروا أفلم تكن آياتي تتلى عليكم فاستكبرتم وكنتم قوماً مجرمين ? وإذا قيل:إن وعد الله حق والساعة لا ريب فيها . قلتم:ما ندري ما الساعة , إن نظن إلا ظناً , وما نحن بمستيقنين . وبدا لهم سيئات ما عملوا , وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون . وقيل:اليوم ننساكم كما نسيتم لقاء يومكم هذا , ومأواكم النار , وما لكم من ناصرين:ذلكم بأنكم اتخذتم آيات الله هزواً وغرتكم الحياة الدنيا فاليوم لا يخرجون منها ولا هم يستعتبون . .

كذلك لم يدع أي لبس أو شك في عدالة الجزاء وفردية التبعة ; فبين أن هذا الأصل عميق في تكوين الوجود كله , وعليه يقوم هذا الوجود . ذلك حين يقول:

(من عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها , ثم إلى ربكم ترجعون). .

وحين يرد على من يحسبون وهم يجترحون السيئات أنهم عند الله ك المؤمنين الذين يعملون الصالحات , فيقول:

(وخلق الله السماوات والأرض بالحق , ولتجزى كل نفس بما كسبت وهم لا يظلمون). .

والسورة كلها وحدة في علاج موضوعها ; ولكننا قسمناها إلى درسين اثنين لتيسير عرضها وتفصيلها .

وهي تبدأ بالأحرف المقطعة: حا . ميم . والإشارة إلى القرآن الكريم:(تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم). . وتختم بحمد الله

وربوبيته المطلقة , وتمجيده وتعظيمه , إزاء أولئك الذين يغفلون عن آياته ويستهزئون بها ويستكبرون عنها:(فلله الحمد رب السماوات ورب ا لأرض رب العالمين . وله الكبرياء في السماوات والأرض , وهو العزيز الحكيم). .

ويسير سياق السورة في عرض موضوعها في يسر وهوادة وإيضاح هادىء , وبيان دقيق عميق . على غير ما يسير سياق سورة الدخان قبلها في إيقاع عنيف كأنه مطارق تقرع القلوب .

والله خالق القلوب , ومنزل هذا القرآن , يأخذ القلوب تارة بالقرع و الطرق . وتارة باللمس الناعم الرفيق , وتارة بالبيان الهادى ء الرقيق . حسب تنوعها هي واختلافها . وحسب تنوع حالاتها ومواقفها في ذاتها . وهو اللطيف الخبير . وهو العزيز الحكيم . .

سورة الأحقاف

الوحدة الأولى:1 - 14 الموضوع إثبات الوحي ونقاش المشركين والإ حتجاج للرسالة

هذه السورة المكية تعالج قضية العقيدة . . قضية الإيمان بوحدانية الله وربوبيته المطلقة لهذا الوجود ومن فيه وما فيه . والإيمان بالوحي و الرسالة وأن محمدا [ص] رسول سبقته الرسل , أوحي إليه بالقرآن مصدقا لما بين يديه من الكتاب . والإيمان بالبعث وما وراءه من حساب وجزاء على ما كان في الحياة الدنيا من عمل وكسب ومن إحسان وإساءة .

هذه الأسس الأولى التي يقيم عليها الإسلام بناءه كله . ومن ثم عالجها

القرآن في كل سوره المكية علاجا أساسيا , وظل يتكيء عليها كذلك في سوره المدنية كلما هم بتوجيه أو تشريع للحياة بعد قيام الجماعة المسلمة والدولة الإسلامية . ذلك أن طبيعة هذا الدين تجعل قضية الإ يمان بوحدانية الله سبحانه , وبعثة محمد [ص] والإيمان بالآخرة وما فيها من جزاء . . هي المحور الذي تدور عليه آدابه ونظمه وشرائعه كلها , وترتبط به أوثق ارتباط ; فتبقى حية حارة تنبعث من تأثير دائم بذلك الإيمان .

وتسلك السورة بهذه القضية إلى القلوب كل سبيل ; وتوقع فيها على كل وتر ; وتعرضها في مجالات شتى , مصحوبة بمؤثرات كونية ونفسية وتاريخية . كما أنها تجعلها قضية الوجود كله - لا قضية البشر وحدهم - فتذكر طرفا من قصة الجن مع هذا القرآن كذكرها لموقف بعض بني إسرائيل منه . وتقيم من الفطرة الصادقة شاهدا كما تقيم من بعض بني إسرائيل شاهدا . سواء بسواء .

ثم هي تطوف بتلك القلوب في آفاق السماوات والأرض , وفي مشاهد القيامة في الآخرة . كما تطوف بهم في مصرع قوم هود وفي مصارع القرى حول مكة . وتجعل من السماوات والأرض كتابا ينطق بالحق كما ينطق هذا القرآن بالحق على السواء .

ويمضي سياق السورة في أربعة أشواط مترابطة , كأنها شوط واحد ذو أربعة مقاطع .

يبدأ الشوط الأول وتبدأ السورة معه بالحرفين:حا . ميم . كما بدأت السور الست قبلها . تليهما الإشارة الى كتاب القرآن والوحي به من عند الله:(تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم). . وعقبها مباشرة الإشارة الى كتاب الكون , وقيامه على الحق , وعلى التقدير والتدبير: (ما خلقنا السماوات والأرض وما بينهما إلا بالحق وأجل مسمى). . فيتوافى كتاب القرآن المتلو وكتاب الكون المنظور على الحق والتقدير: (والذين كفروا عما أنذروا معرضون).

وبعد هذا الافتتاح القوي الجامع يأخذ في عرض قضية العقيدة مبتدئا بإنكار ما كان عليه القوم من الشرك الذي لا يقوم على أساس من واقع الكون , ولا يستند الى حق من القول , ولا مأثور من العلم:(قل:أرأيتم ما تدعون من دون الله ? أروني ماذا خلقوا من الأرض ? أم لهم شرك في السماوات ? ائتوني بكتاب من قبل هذا أو آثارة من علم إن كنتم صادقين). . ويندد بضلال من يدعو من دون الله من لا يسمع لعابده ولا يستجيب . ثم هو يخاصمه يوم القيامة ويبرأ من عبادته في اليوم العصيب !

ويعرض بعد هذا سوء استقبالهم للحق الذي جاءهم به محمد رسول الله [ص] وقولهم له: (هذا سحر مبين). . وترقيهم في الادعاء حتى ليزعمون أنه افتراه . ويلقن رسول الله [ص] أن يرد عليهم الرد اللائق بـ النبوة , النابع من مخافة الله وتقواه , وتفويض الأمر كله إليه في الدنيا والآخرة: (قل:إن افتريته فلا تملكون لي من الله شيئا . هو أعلم بما تفيضون فيه . كفى به شهيدا بيني وبينكم , وهو الغفور الرحيم . قل:ما كنت بدعا من الرسل , وما أدري ما يفعل بي ولا بكم , إن أتبع إلا ما يوحى إلي , وما أنا إلا نذير مبين). . ويحاججهم بموقف بعض من اهتدى للحق من بني اسرائيل حينما رأى في القرآن مصداق ما يعرف من كتاب موسى - عليه السلام -: (فآمن واستكبرتم). . ويندد بظلمهم با لإصرار على التكذيب بعد شهادة أهل الكتاب العارفين: (إن الله لا يهدي القوم الظالمين). .

ويستطرد في عرض تعلاتهم ومعاذيرهم الواهية عن هذا الإصرار , وهم يقولون عن المؤمنين: لو كان خيرا ما سبقونا إليه . . ويكشف عن علة هذا الموقف المنكر: وإذ لم يهتدوا به فسيقولون:هذا إفك قديم ! .

ويشير إلى كتاب موسى من قبله , وإلى تصديق هذا القرآن له , وإلى وظيفته ومهمته: (لينذر الذين ظلموا وبشرى للمحسنين). .

ويختم هذا الشوط بتفصيل هذه البشرى لمن صدق بالله واستقام على

الطريق:(إن الذين قالوا:ربنا الله ثم استقاموا فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون . أولئك أصحاب الجنة خالدين فيها جزاء بما كانوا يعملون). .

ويعرض الشوط الثاني نموذجين للفطرة البشرية:المستقيمة والمنحرفة , في مواجهة قضية العقيدة . ويبدأ معهما من النشأة الأولى , وهما في أحضان والديهم . ويتابع تصرفهما عند بلوغ الرشد والتبعة والاختيار . فأما الأول فشاعر بنعمة الله بار بوالديه , راغب في الوفاء بواجب الشكر , تائب ضارع مستسلم منيب:(أولئك الذين نتقبل عنهم أحسن ما عملوا ونتجاوز عن سيئاتهم في أصحاب الجنة , وعد الصدق الذي كانوا يوعدون). . وأما الآخر فعاق لوالديه كما هو عاق لربه , وهو جاحد منكر للآخرة , وهما به ضيقان متعبان:(أولئك الذين حق عليهم القول في أمم قد خلت من قبلهم من الجن والإنس , إنهم كانوا خاسرين). .

ويختم هذا الشوط بمشهد سريع من مشاهد القيامة يعرض فيه مصير هذا الفريق:(ويوم يعرض الذين كفروا على النار . أذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا واستمتعتم بها , فاليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تستكبرون في الأرض بغير الحق , وبما كنتم تفسقون). .

والشوط الثالث يرجع بهم إلى مصرع عاد , عندما كذبوا بالنذير .

ويعرض من القصة حلقة الريح العقيم , التي توقعوا فيها الري والحياة ; فإذا بها تحمل إليهم الهلاك والدمار , والعذاب الذي استعجلوا به وطلبوه:(فلما رأوه عارضا مستقبل أوديتهم قالوا:هذا عارض ممطرنا , بل هو ما استعجلتم به , ريح فيها عذاب أليم , تدمر كل شيء بأمر ربها , فأصبحوا لا يرى إلا مساكنهم , كذلك نجزي القوم المجرمين). . ويلمس قلوبهم بهذا المصرع , وهو يذكرهم بأن عادا كانوا أشد منهم قوة وأكثر ثروة:(ولقد مكناهم فيما إن مكناكم فيه , وجعلنا لهم سمعا وأبصارا وأفئدة , فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من شيء . إذ كانوا يجحدون بآيات الله , وحاق بهم ما كانوا به يستهزؤون). . ويذكرهم في نهاية الشوط مصارع ما حولهم من القرى , وعجز آلهتهم

المدعاة عن نصرتهم , وظهور إفكهم وافترائهم . لعلهم يتأثرون ويرجعون . .

ويتناول الشوط الرابع قصة نفر من الجن مع هذا القرآن , حين صرفهم الله لاستماعه , فلم يملكوا أنفسهم من التأثر والاستجابة , والشهادة له بأنه الحق: (مصدقا لما بين يديه يهدي إلى الحق وإلى طريق مستقيم). .وعادوا ينذرون قومهم ويحذرونهم ويدعونهم إلى الإيمان: يا قومنا أجيبوا داعي الله وآمنوا به , يغفر لكم من ذنوبكم , ويجركم من عذاب أليم . ومن لا يجب داعي الله فليس بمعجز في الأرض , وليس له من دونه أولياء , أولئك في ضلال مبين). .

وتتضمن مقالة النفر من الجن الإشارة إلى كتاب الكون المفتوح الناطق بقدرة الله على البدء والإعادة:(أو لم يروا أن الله الذي خلق السماوات وا لأرض ولم يعي بخلقهن بقادر على أن يحيي الموتى ? بلى إنه على كل شيء قدير). .

وهنا يلمس قلوبهم بمشهد الذين كفروا يوم يعرضون على النار , فيقرون بما كانوا ينكرون , ولكن حيث لا مجال لإقرار أو يقين !

وتختم السورة بتوجيه الرسول [ص] إلى الصبر وعدم الاستعجال لهم ب العذاب , فإنما هو أجل قصير يمهلونه , ثم يأتيهم العذاب والهلا ك:(فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل ولا تستعجل لهم , كأنهم يوم يرون ما يوعدون لم يلبثوا إلا ساعة من نهار . بلاغ . فهل يهلك إلا القوم الفاسقون ?). .

الوحدة الثانية:15 - 20 الموضوع:المؤمن البار بوالديه والكافر العاق لهما

هذا الشوط يسير مع الفطرة في استقامتها وفي انحرافها , وفيما تنتهي إليه حين تستقيم وما تنتهي إليه حين تنحرف . ويبدأ بالوصية ب الوالدين . وكثيرا ما ترد هذه الوصية لاحقة للكلام عن العقيدة في الله

أو مصاحبة لهذا الحديث . ذلك أن وشيجة الأبوة والبنوة هي أول وشيجة بعد وشيجة الإيمان في القوة والأهمية , وأولاها بالرعاية و التشريف . وفي هذا الاقتران دلالتان:أولاهما هي هذه . والثانية أن آصرة الإيمان هي الأولى وهي المقدمة , ثم تليها آصرة الدم في أوثق صورها .

وفي هذا الشوط نموذجان من الفطرة:في النموذج الأول تلتقي آصرة الإ يمان وآصرة الوالدين في طريقهما المستقيم المهتدي الواصل إلى الله . وفي الثاني تفترق آصرة النسب عن آصرة الإيمان , فلا تلتقيان . و النموذج الأول مصيره الجنة ونصيبه البشرى . والنموذج الثاني مصيره النار ونصيبه استحقاق العذاب . وبهذه المناسبة يعرض صورة العذاب في مشهد من مشاهد القيامة , يصور عاقبة الفسوق والاستكبار .

الوحدة الثالثة:21 - 28 الموضوع لقطات من قصة هود مع عاد

وهذا الشوط جولة في مجال آخر , تخدم القضية التي تعالجها السورة , وتأخذ القلب البشري من جانب غير الجوانب التي عالجها الشوطان الأو لان . . جولة في مصرع عاد ومصارع القرى غيرها حول مكة . وقد وقفوا من رسولهم وأخيهم هود - عليه السلام - موقف المشركين من رسولهم وأخيهم محمد [ص] واعترضوا اعتراضاتهم , وأجابهم نبيهم بما يليق به من أدب النبوة في حدود بشريته وحدود وظيفته . ثم أخذهم ما أخذهم من العذاب المدمر , حين لم يسمعوا النذير . فلم تغن عنهم قوتهم - وكانوا أقوى - ولم يغن عنهم ثراؤهم - وكانوا أغنى - ولم ينتفعوا بسمعهم وأبصارهم وأفئدتهم - وكانوا أذكياء - ولم تغن عنهم آلهتهم التي اتخذوها تقربا - بزعمهم - إلى الله .

وكذلك يقف المشركين في مكة أمام مصارع أسلافهم من أمثالهم ; فيقفهم أمام مصيرهم هم أنفسهم . ثم أمام الخط الثابت المطرد المتصل . خط الرسالة القائمة على أصلها الواحد الذي لا يتغير وخط السنة الإلهية التي لا تتحول ولا تتبدل . وتبدوا شجرة العقيدة عميقة

الجذور , ممتدة الفروع ضاربة في أعماق الزمان ; واحدة على اختلاف القرون واختلاف المكان .

الوحدة الرابعة:29 - 35 الموضوع:الإيمان والدعوة على لسان الجن

وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَراً مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ (29)

هذا الشوط الأخير جولة جديدة في مجال القضية التي تعالجها السورة ; فسياقة قصة النفر من الجن الذين استمعوا لهذا القرآن , فتنادوا بالإنصات , واطمأنت قلوبهم إلى الإيمان , وانصرفوا إلى قومهم منذرين يدعونهم إلى الله ويبشرونهم بالغفران والنجاة , ويحذرونهم الإعراض والضلال . سياقة الخبر في هذا المجال , بهذه الصورة , وتصوير مس القرآن لقلوب الجن هذا المس الذي يتمثل في قولهم:(أنصتوا)عندما طرق أسماعهم , يتمثل فيما حكوه لقومهم عنه , وفيما دعوهم إليه . كل هذا من شأنه أن يحرك قلوب البشر , الذين جاء القرآن لهم في الأصل . وهو إيقاع مؤثر ولا شك , يلفت هذه القلوب لفتة عنيفة عميقة . وفي الوقت ذاته تجيء الإشارة إلى الصلة بين كتاب موسى وهذا القرآن على لسان الجن , فتعلن هذه الحقيقة التي يدركها الجن ويغفل عنها البشر . ولا يخفى ما في هذه اللفتة من إيحاء عميق متفق مع ما جاء في السورة . كذلك ما يرد في كلام الجن من الإشارة إلى كتاب الكون المفتوح , ودلالته على قدرة الله الظاهرة في خلق السماوات والأرض الشاهدة بقدرته على الإحياء والبعث . وهي القضية التي يجادل فيها البشر وبها يجحدون .

وبمناسبة البعث يعرض مشهدا من مشاهد القيامة (ويوم يعرض الذين كفروا على النار). .

وفي الختام تجيء الوصية للرسول [ص] بالصبر عليهم وعدم الاستعجال لهم . وتركهم للأجل المرسوم . وهو قريب كأنه ساعة من نهار . . للبلاغ . . قبل الهلاك !

هذه السورة مدنية , ولها اسم آخر . اسمها سورة القتال . وهو اسم حقيقي لها . فالقتال هو موضوعها . والقتال هو العنصر البارز فيها . و القتال في صورها وظلالها . والقتال في جرسها وإيقاعها .

القتال موضوعها . فهي تبدأ ببيان حقيقة الذين كفروا وحقيقة الذين آمنوا في صيغة هجوم أدبي على الذين كفروا , وتمجيد كذلك للذين آمنوا , مع إيحاء بأن الله عدو للأولين ولي للآخرين , وأن هذه حقيقة ثابتة في تقدير الله سبحانه . فهو إذن إعلان حرب منه تعالى على أعدائه وأعداء دينه منذ اللفظ الأول في السورة:(الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله أضل أعمالهم , والذين آمنوا وعملوا الصالحات وآمنوا بما نزل على محمد - وهو الحق من ربهم - كفر عنهم سيئاتهم وأصلح بالهم . ذلك بأن الذين كفروا اتبعوا الباطل وأن الذين آمنوا اتبعوا الحق من ربهم . كذلك يضرب الله للناس أمثالهم).

وعقب إعلان هذه الحرب من الله على الذين كفروا , أمر صريح للذين آمنوا بخوض الحرب ضدهم . في صيغة رنانة قوية , مع بيان لحكم الأ سرى بعد الإثخان في المعركة والتقتيل العنيف: (فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب , حتى إذا أثخنتموهم فشدوا الوثاق , فإما منا بعد وإما فداء , حتى تضع الحرب أوزارها). .

ومع هذا الأمر بيان لحكمة القتال , وتشجيع عليه , وتكريم للإستشهاد فيه , ووعد من الله بإكرام الشهداء , وبالنصر لمن يخوض المعركة انتصارا لله , وبهلاك الكافرين وإحباط أعمالهم: ذلك ولو يشاء الله لا نتصر منهم , ولكن ليبلو بعضكم ببعض , والذين قتلوا في سبيل الله فلن يضل أعمالهم . سيهديهم ويصلح بالهم ويدخلهم الجنة عرفها لهم . يا أيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم . والذين كفروا فتعسا لهم وأضل أعمالهم . ذلك بأنهم كرهوا ما أنزل الله فأحبط

أعمالهم . .

ومعه كذلك تهديد عنيف للكافرين , وإعلان لولاية الله ونصرته للمؤمنين , وضياع الكافرين وخذلانهم وضعفهم وتركهم بلا ناصر ولا معين: فلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم ? دمر الله عليهم , وللكافرين أمثالها . ذلك بأن الله مولى الذين آمنوا وأن الكافرين لا مولى لهم . . كذلك تهديد آخر للقرية التي أخرجت الرسول [ص]:(وكأين من قرية هي أشد قوة من قريتك التي أخرجتك أهلكناهم فلا ناصر لهم). .

ثم تمضي السورة بعد هذا الهجوم العنيف السافر في ألوان من الحديث حول الكفر والإيمان , وحال المؤمنين وحال الكافرين في الدنيا والآخرة . فتفرق بين متاع المؤمن بالطيبات ; وتمتع الكافرين بلذائذ الأرض كالحيوان: إن الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجري من تحتها الأنهار . والذين كفروا يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام والنار مثوى لهم . . كما تصف متاع المؤمنين في الجنة بشتى الأشربة الشهية من ماء غير آسن , ولبن لم يتغير طعمه , وخمر لذة للشاربين , وعسل مصفى , في وفر وفيض . . في صورة أنهار جارية . . ذلك مع شتى الثمرات , ومع المغفرة والرضوان . ثم سؤال:أهؤلاء (كمن هو خالد في النار وسقوا ماء حميما فقطع أمعاءهم ?). .

فإذا انقضت هذه الجولة الأولى في المعركة السافرة المباشرة بين المؤمنين والكافرين . أعقبها في السورة جولة مع المنافقين , الذين كانوا هم واليهود بالمدينة يؤلفون خطرا على الجماعة الإسلامية الناشئة لا يقل عن خطر المشركين الذين يحاربونها من مكة وما حولها من القبائل في تلك الفترة , التي يبدو من الوقائع التي تشير إليها السورة أنها كانت بعد غزوة بدر , وقبل غزوة الأحزاب وما تلاها من خضد شوكة اليهود , وضعف مركز المنافقين "كما ذكرنا في تفسير سورة الأحزاب" .

والحديث عن المنافقين في هذه السورة يحمل ظلالها . ظلال الهجوم و

القتال , منذ أول إشارة . فهو يصور تلهيهم عن حديث رسول الله , وغيبة وعيهم واهتمامهم في مجلسه ; ويعقب عليه بما يدمغهم بالضلال والهوى:(ومنهم من يستمع إليك حتى إذا خرجوا من عندك قالوا للذين أوتوا العلم:ماذا قال آنفا ? أولئك الذين طبع الله على قلوبهم واتبعوا أهواءهم). .

ويهددهم بالساعة يوم لا يستطيعون الصحو ولا يملكون التذكر:(فهل ينظرون إلا الساعة أن تأتيهم بغتة ? فقد جاء أشراطها . فأنى لهم إذا جاءتهم ذكراهم ?). .

ثم يصور هلعهم وجبنهم وتهافتهم إذا ووجهوا بالقرآن يكلفهم القتال - وهم يتظاهرون بالإيمان - والفارق بينهم يومئذ وبين المؤمنين الصادقين: (ويقول الذين آمنوا:لولا نزلت سورة ! فإذا أنزلت سورة محكمة وذكر فيها القتال رأيت الذين في قلوبهم مرض ينظرون إليك نظر المغشي عليه من الموت !).

ويحثهم على الطاعة والصدق والثبات . ويرذل اتجاهاتهم , ويعلن عليهم الحرب والطرد واللعن: (فأولى لهم طاعة وقول معروف . فإذا عزم الأمر فلو صدقوا الله لكان خيرا لهم . فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا في ا لأرض وتقطعوا أرحامكم ? أولئك الذين لعنهم الله فأصمهم وأعمى أبصارهم). .

ويفضحهم في توليهم للشيطان , وفي تآمرهم مع اليهود , ويهددهم بـ العذاب عند الموت بالفضيحة التي تكشف أشخاصهم فردا فردا في المجتمع الإسلامي , الذي يدمجون أنفسهم فيه , وهم ليسوا منه , وهم يكيدون له:(إن الذين ارتدوا على أدبارهم من بعد ما تبين لهم الهدى , الشيطان سول لهم وأملى لهم . ذلك بأنهم قالوا للذين كرهوا ما نزل الله:سنطيعكم في بعض الأمر . والله يعلم إسرارهم . فكيف إذا توفتهم الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم ? ذلك بأنهم اتبعوا ما أسخط الله وكرهوا رضوانه فأحبط أعمالهم . أم حسب الذين في قلوبهم مرض أن

لن يخرج الله أضغانهم . ولو نشاء لأريناكهم فلعرفتهم بسيماهم , ولتعرفنهم في لحن القول . والله يعلم أعمالكم , ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلوا أخباركم). .

وفي الجولة الثالثة والأخيرة في السورة عودة إلى الذين كفروا من قريش ومن اليهود وهجوم عليهم:(إن الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله وشاقوا الرسول - من بعد ما تبين لهم الهدى - لن يضروا الله شيئا وسيحبط أعمالهم). .

وتحذير للذين آمنوا أن يصيبهم مثل ما أصاب أعدائهم: يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول , ولا تبطلوا أعمالكم . إن الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله ثم ماتوا وهم كفار , فلن يغفر الله لهم . .

وتحضيض لهم على الثبات عند القتال:(فلا تهنوا وتدعوا إلى السلم وأنتم الأعلون والله معكم ولن يتركم أعمالكم). .

وتهوين من شأن الحياة الدنيا وأعراضها . وحض على البذل الذي يسره الله , ولم يجعله استئصالا للمال كله , رأفة بهم , وهو يعرف شح نفوسهم البشرية , وتبرمها وضيقها لو أحفاهم في السؤال:

(إنما الحياة الدنيا لعب ولهو , وإن تؤمنوا وتتقوا يؤتكم أجوركم ولا يسألكم أموالكم . إن يسألكموها فيحفكم تبخلوا ويخرج أضغانكم). .

وتختم السورة بما يشبه التهديد للمسلمين إن هم بخلوا بإنفاق المال , وبالبذل في القتال:(ها أنتم هؤلاء تدعون لتنفقوا في سبيل الله , فمنكم من يبخل , ومن يبخل فإنما يبخل عن نفسه , والله الغني وأنتم الفقراء , وإن تتولوا يستبدل قوما غيركم , ثم لا يكونوا أمثالكم). .

إنها معركة مستمرة من بدء السورة إلى ختامها ; يظللها جو القتال , وتتسم بطابعه في كل فقراتها .

وجرس الفاصلة وإيقاعها منذ البدء كأنه القذائف الثقيلة:[أعمالهم . بـ

الهم . أمثالهم . أهواءهم . أمعائهم . .] وحتى حين تخف فإنها تشبه تلويح السيوف في الهواء:[أوزارها . أمثالها . أقفالها . . .] .

وهناك شدة في الصور كالشدة في جرس الألفاظ المعبرة عنها . . فالقتال أو القتل يقول عنه: (فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب). . والتقتيل والأسر يصوره بشدة: (حتى إذا أثخنتموهم فشدوا الوثاق). . والدعاء على الكافرين يجيء في لفظ قاس: (فتعسا لهم وأضل أعمالهم). . وهلاك الغابرين يرسم في صورة مدوية ظلا ولفظا: (دمر الله عليهم وللكافرين أمثالها). . وصورة العذاب في النار تجيء في هذا المشهد: (وسقوا ماء حميما فقطع أمعاءهم). . وحالة الجبن والفزع عند المنافقين تجيء في مشهد كذلك عنيف: (ينظرون إليك نظر المغشي عليه من الموت !). . حتى تحذير المؤمنين من التولي يجيء في تهديد نهائي حاسم: (وإن تتولوا يستبدل قوما غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم). .

وهكذا يتناسق الموضوع والصور والظلال والإيقاع في سورة القتال . .

سورة الفتح

هذه السورة مدنية , نزلت في السنة السادسة من الهجرة , عقب صلح الحديبية ; وهي تتناول هذا الحادث الخطير وملابساته ; وتصور حال الجماعة المسلمة وما حولها في إبانه:فبين وقت نزولها ووقت نزول سورة "محمد" التي تسبقها في ترتيب المصحف , نحو من ثلاث سنوات , تمت فيها تغيرات هامة وخطيرة في أحوال الجماعة المسلمة في المدينة . تغيرات في موقفها وموقف المناوئين لها , وتغيرات أهم في حالتها النفسية وصفتها الإيمانية , واستوائها على المنهج الإيماني في إدراك ونضج عميق .

وقبل أن نتحدث عن السورة وجوها ودلالتها يحسن أن نمر بصورة للحادث الذي نزلت بصدده . لنعيش في الجو الذي كان المسلمون يعيشون فيه , وهم يتلقون هذا التنزيل الكريم:

لقد أري رسول الله [ص] في منامه أنه يدخل الكعبة هو والمسلمون محلقين رؤوسهم ومقصرين . وكان المشركون قد منعوهم منذ الهجرة من دخول مكة , حتى في الأشهر الحرم التي يعظمها العرب كلهم في الجاهلية , ويضعون السلاح فيها ; ويستعظمون القتال في أيامها , و الصد عن المسجد الحرام . حتى أصحاب الثارات كانوا يتجمعون في ظ لال هذه الحرمة , ويلقى الرجل قاتل أبيه أو أخيه فلا يرفع في وجهه سيفا , ولا يصده عن البيت المحرم . ولكنهم خالفوا عن تقاليدهم الراسخة في هذا الشأن ; وصدوا رسول الله [ص] والمسلمين معه طوال السنوات الست التي تلت الهجرة . حتى كان العام السادس الذي أريفيه رسول الله [ص] هذه الرؤيا . وحدث بها أصحابه - رضوان الله عليهم - فاستبشروا بها وفرحوا .

ورواية ابن هشام لوقائع الحديبية هي أوفى مصدر نستند إليه في تصورها . وهي في جملتها تتفق مع رواية البخاري ورواية الإمام أحمد ومع تلخيص ابن حزم في جوامع السيرة وغيرهم .

قال ابن إسحاق:ثم أقام رسول الله [ص] بالمدينة شهر رمضان وشوالا "بعد غزوة بني المصطلق وما جاء في أعقابها من حديث الإفك" وخرج في ذي القعدة معتمرا لا يريد حربا . واستنفر العرب ومن حوله من أهل البوادي من الأعراب ليخرجوا معه ; وهو يخشى من قريش الذي صنعوا أن يعرضوا له بحرب , أو يصدوه عن البيت . فأبطأ عليه كثير من الأ عراب . وخرج رسول الله [ص] بمن معه من المهاجرين والأنصار , ومن لحق به من العرب ; وساق معه الهدي , وأحرم بالعمرة , ليأمن الناس من حربه , وليعلم الناس أنه إنما خرج زائرا لهذا البيت ومعظما له .

قال:وكان جابر بن عبد الله - فيما بلغني - يقول:كنا أصحاب الحديبية

أربع عشرة مائة .

قال الزهري:وخرج رسول الله [ص] حتى إذا كان بعسفان لقيه بشر بن سفيان الكعبي . فقال:يا رسول الله ! هذه قريش قد سمعت بمسيركَ , فخرجوا معهم العوذ المطافيل , قد لبسوا جلود النمور ; وقد نزلوا بذي طوى , يعاهدون الله لا تدخلها عليهم أبدا . وهذا خالد بن الوليد في خيلهم , قد قدموها إلى كراع الغميم . قال:فقال رسول الله [ص]:" يا ويح قريش ! لقد أكلتهم الحرب . ماذا عليهم لو خلوا بيني وبين سائر العرب ? فإن هم أصابوني كان ذلك الذي أرادوا , وإن أظهرني الله عليهم دخلوا في الإسلام وافرين , وإن لم يفعلوا قاتلوا وبهم قوة . فما تظن قريش ? فوالله لا أزال أجاهد على الذي بعثني الله به حتى يظهره الله , أو تنفرد هذه السالفة " . ثم قال:" من رجل يخرج بنا على طريق غير طريقهم التي هم بها ? " . .

قال ابن إسحاق:فحدثني عبد الله بن أبي بكر , أن رجلا من أسلم قال:أنا يا رسول الله . قال:فسلك بهم طريقا وعرا أجرل بين شعاب . فلما خرجوا منه - وقد شق ذلك على المسلمين - وأفضوا إلى أرض سهلة عند منقطع الوادي , قال رسول الله [ص] للناس:" قولوا نستغفر الله ونتوب إليه " . فقالوا ذلك . فقال:" والله إنها للحطة التي عرضت على بني إسرائيل , فلم يقولوها "

قال ابن شهاب الزهري:فأمر رسول الله [ص] الناس فقال:" اسلكوا ذات اليمين " بين ظهري الحمض في طريق على ثنية المرار , مهبط الحديبية من أسفل مكة ; قال:فسلك الجيش ذلكالطريق . فلما رأت خيل قريش قترة الجيش , قد خالفوا عن طريقهم , رجعوا راكضين إلى قريش . وخرج رسول الله [ص] حتى إذا سلك في ثنية المرار بركت ناقته . فقال الناس:خلأت الناقة . فقال:" ما خلأت . وما هو لها بخلق . ولكن حبسها حابس الفيل عن مكة . لا تدعوني قريش اليوم إلى خطة يسألونني فيها صلة الرحم إلا أعطيتهم إياها " - [وفي رواية البخاري]:"

والذي نفسي بيده لا يسألوني خطة يعظمون فيها حرمات الله تعالى إلا أعطيتهم إياها " . ثم قال للناس:" انزلوا " قيل له:يا رسول الله , ما بـ الوادي ماء ينزل عليه . فأخرج سهما من كنانته فأعطاه رجلا من أصحابه . فنزل في قليب من تلك القلب , فغرزه في جوفه , فجاش بـ الرواء . .

فلما اطمأن رسول الله [ص] أتاه بديل بن ورقاء الخزاعي , في رجال من خزاعة , فكلموه , وسألوه ما الذي جاء به ? فأخبرهم أنه لم يأت يريد حربا , وإنما جاء زائرا للبيت , ومعظما لحرمته . ثم قال لهم نحوا مما قال لبشر بن سفيان ; فرجعوا إلى قريش فقالوا:يا معشر قريش , إنكم تعجلون على محمد . إن محمدا لم يأت لقتال , وإنما جاء زائرا لهذا البيت . فاتهموهم وجبهوهم , وقالوا:وإن كان جاء ولا يريد قتالا . فوالله لا يدخلها علينا عنوة أبدا , ولا تحدث بذلك عنا العرب .

وكانت خزاعة عيبة نصح رسول الله [ص] مسلمها ومشركها , لا يخفون عنه شيئا كان بمكة . ثم بعثوا إليه مكرز بن حفص بن الأخيف أخا بني عامر بن لؤي . فلما رآه رسول الله [ص] مقبلا قال:" هذا رجل غادر " . فلما انتهى إلى رسول الله [ص] وكلمه , قال له رسول الله [ص] نحوا مما قال لبديل وأصحابه ; فرجع إلى قريش , فأخبرهم بما قال له رسول الله [ص] ثم بعثوا إليه الحليس بن علقمة أو ابن زبان . وكان يومئذ سيد الأحابيش , وهو أحد بني الحارث بن عبد مناة بن كنانة . فلما رآه رسول الله [ص] قال:" إن هذا من قوم يتألهون - يعني يتعبدون - فابعثوا الهدي في وجهه حتى يراه " . فلما رأى الهدي يسيل عليه من عرض الوادي في قلائده , وقد أكل أوباره من طول الحبس عن محله , رجع إلى قريش , ولم يصل إلى رسول الله [ص] إعظاما لما رأى . فقال لهم ذلك . فقالوا له:إجلس فإنما أنت أعرابي لا علم لك !

قال ابن إسحاق:فحدثني عبد الله بن أبي بكر أن الحليس غضب عند ذلك . وقال:يا معشر قريش , والله ما على هذا حالفناكم , ولا على هذا

عاقدناكم . أيصد عن بيت الله من جاء معظما له ? والذي نفس الحليس بيده لتخلن بين محمد وبين ما جاء له , أو لأنفرن بالأحابيش نفرة رجل واحد . قال:فقالوا له:مه . كف عنا يا حليس حتى نأخذ لأنفسنا ما نرضى به .

قال الزهري:ثم بعثوا إلى رسول الله [ص] عروة بن مسعود الثقفي فقال:يا معشر قريش , إني قد رأيت ما يلقى منكم من بعثتموه إلى محمد إذا جاءكم , من التعنيف وسوء اللفظ . وقد عرفتم أنكم والد وأني ولد - وكان نسبه لأمه في بني عبد شمس - وقد سمعت بالذي نابكم , فجمعت من أطاعني منقومي , ثم جئتكم حتى آسيتكم بنفسي . قالوا:صدقت , ما أنت عندنا بمتهم . فخرج حتى جاء رسول الله [ص] فجلس بين يديه . ثم قال:يا محمد . أجمعت أوشاب الناس , ثم جئت بهم إلى بيضتك لتفضها بهم ? إنها قريش قد خرجت معها العوذ المطافيل , قد لبسوا جلود النمور , يعاهدون الله لا تدخلها عليهم عنوة أبدا . وأيم الله لكأني بهؤلاء قد انكشفوا عنك غدا . قال:وأبو بكر خلف رسول الله [ص] قاعد . فزجره وقال:أنحن نكشف عنه ? قال:من هذا يا محمد ? قال:" هذا ابن أبي قحافة " . قال . أما والله لولا يد كانت لك عندي لكافأتك بها . ولكن هذه بها . قال:ثم جعل يتناول لحية رسول الله [ص] وهو يكلمه . قال:والمغيرة بن شعبة واقف على رأس رسول الله [ص] في الحديد . قال:فجعل يقرع يده إذا تناول لحية رسول الله [ص] ويقول:أكفف يدك عن وجه رسول الله [ص] قبل أن لا تصل إليك ! قال:فيقول عروة:ويحك ! ما أفظك وأغلظك ! قال:فتبسم رسول الله [ص] فقال له عروة:من هذا يا محمد ? قال:" هذا ابن أخيك المغيرة بن شعبة " . قال:أي غُدَر . وهل غسلت سوأتك إلا بالأمس ?

قال ابن هشام:أراد عروة بقوله هذا أن المغيرة قبل إسلامه قتل ثلاثة عشر رجلا من بني مالك من ثقيف , فتهايج الحيان من ثقيف:بنو مالك رهط المقتولين . والأحلاف رهط المغيرة . فودى عروة المقتولين ثلاث عشرة دية . وأصلح ذلك الأمر .

قال ابن إسحاق:قال الزهري:فكلمه رسول الله [ص] بنحو مما كلم أصحابه , وأخبره أنه لم يأت يريد حربا . فقام من عند رسول الله [ص] وقد رأى ما يصنع به أصحابه:لا يتوضأ إلا ابتدروا وضوءه , ولا يبصق بصاقا إلا ابتدروه , ولا يسقط من شعره شيء إلا أخذوه . فرجع إلى قريش فقال:يا معشر قريش , إني جئت كسرى في ملكه , وقيصر في ملكه , والنجاشي في ملكه ; وإني والله ما رأيت ملكا في قوم قط مثل محمد في أصحابه , ولقد رأيت قوما لا يسلمونه لشيء أبدا . فروا رأيكم .

قال ابن إسحاق:وحدثني بعض أهل العلم , أن رسول الله [ص] دعا خراش بن أمية الخزاعي فبعثه إلى قريش بمكة , وحمله على بعير له يقال له:الثعلب . ليبلغ أشرافهم عنه ما جاء له . فعقروا به جمل رسول الله [ص] وأرادوا قتله , فمنعته الأحابيش , فخلوا سبيله حتى جاء رسول الله [ص] .

قال ابن إسحاق:وحدثني بعض من لا أتهم , عن عكرمة مولى ابن عباس [عن ابن عباس] أن قريشا كانوا بعثوا أربعين رجلا منهم , أو خمسين رجلا , وأمروهم أن يطيفوا بعسكر رسول الله [ص] ليصيبوا لهم من أصحابه أحدا . فأخذوا أخذا , فأتي بهم رسول الله [ص] فعفا عنهم , وخلى سبيلهم . وقد كانوا رموا في عسكر رسول الله [ص] بالحجارة و النبل .

ثم دعا عمر بن الخطاب ليبعثه إلى مكة فيبلغ عنه أشراف قريش ما جاء له . فقال:يا رسول الله إني أخاف قريشا على نفسي , وليس بمكة من بني عدي بن كعب أحد يمنعني . وقد عرفت قريش عداوتي إياها وغلظتيعليها . ولكني أدلك على رجل أعز بها مني . عثمان بن عفان . فدعا رسول الله [ص] عثمان ابن عفان , فبعثه إلى أبي سفيان وأشراف قريش يخبرهم أنه لم يأت لحرب , وأنه إنما جاء زائرا لهذا البيت ومعظما لحرمته .

قال ابن إسحاق:فخرج عثمان إلى مكة , فلقيه أبان بن سعيد بن العاص , حين دخل مكة أو قبل أن يدخلها ; فحمله بين يديه , ثم أجاره حتى بلغ رسالة رسول الله [ص] فانطلق عثمان حتى أتى أبا سفيان وعظماء قريش , فبلغهم عن رسول الله [ص] ما أرسله به ; فقالوا لعثمان حين فرغ من رسالة رسول الله [ص] إليهم:إن شئت أن تطوف بالبيت فطف . فقال:ما كنت لأفعل حتى يطوف به رسول الله [ص] واحتبسته قريش عندها , فبلغ رسول الله [ص] والمسلمين أن عثمان بن عفان قد قتل .

قال ابن إسحاق:فحدثني عبد الله بن أبي بكر , أن رسول الله [ص] قال - حين بلغه ان عثمان قد قتل -:" لا نبرح حتى نناجز القوم " . فدعا رسول الله [ص] الناس إلى البيعة , فكانت بيعة الرضوان تحت الشجرة . فكان الناس يقولون:بايعهم رسول الله [ص] على الموت . وكان جابر بن عبد الله يقول:إن رسول الله [ص] لم يبايعنا على الموت , ولكن بايعنا على أن لا نفر . فبايع رسول الله [ص] الناس , ولم يتخلف عنه أحد من المسلمين حضرها إلا الجد بن قيس أخو بني سلمة . فكان جابر بن عبد الله يقول:والله لكأني أنظر إليه لاصقا بإبط ناقته قد ضبأ إليها , يستتر بها من الناس . ثم أتى رسول الله [ص] أن الذي ذكر من أمر عثمان باطل .

قال ابن هشام:وحدثني من أثق به , عمن حدثه بإسناد له , عن ابن أبي مليكة , عن ابن عمر , أن رسول الله [ص] بايع لعثمان , فضرب بإحدى يديه على الأخرى .

قال ابن إسحاق:قال الزهري:ثم بعثت قريش سهيل بن عمرو أخا بني عامر بن لؤي إلى رسول الله [ص] وقالوا له:إيت محمدا فصالحه , ولا يكن في صلحه إلا أن يرجع عنا عامه هذا , فو الله لا تحدث العرب عنا أنه دخلها علينا عنوة أبدا . فأتاه سهيل بن عمرو , فلما رآه رسول الله [ص] مقبلا قال:- " قد أراد القوم الصلح حين بعثوا هذا الرجل " . فلما

انتهى سهيل بن عمرو إلى رسول الله [ص] تكلم فأطال الكلام . وتراجعا . ثم جرى بينهما الصلح .

فلما التأم الأمر , ولم يبق إلا الكتاب وثب عمر بن الخطاب فأتى أبا بكر , فقال:يا أبا بكر , أليس برسول الله ? قال:بلى ! قال:أولسنا بالمسلمين ? قال:بلى ! قال:أوليسوا بالمشركين ? قال:بلى ! قال:فعلام نعطي الدنية في ديننا ? قال أبو بكر:يا عمر , الزم غرزه , فإني أشهد أنه رسول الله . قال عمر:وأنا أشهد انه رسول الله . ثم أتى رسول الله [ص] فقال:يا رسول الله , ألست برسول الله ? قال:بلى ! قال:أولسنا بالمسلمين ? قال:بلى ! قال:أوليسوا بالمشركين ? قال:بلى ! قال:فعلام نعطي الدنية في ديننا ? قال:" أنا عبد الله ورسوله , لن أخالف أمره , ولن يضيعني " . قال:فكان عمر يقول:ما زلت أتصدق وأصوم وأصلي وأعتق من الذي صنعت يومئذ , مخافة كلامي الذي تكلمت به , حين رجوت أن يكون خيرا .

قال:ثم دعا رسول الله [ص] علي بن أبي طالب - رضوان الله عليه - فقال:" اكتب باسم الله الرحمن الرحيم " قال:فقال سهيل:لا أعرف هذا , ولكن اكتب باسمك اللهم . فقال رسول الله [ص] " اكتب باسمك اللهم " فكتبها . ثم قال:" اكتب:هذا ما صالح عليه محمد رسول الله سهيل بن عمرو " . قال:فقال سهيل:لو شهدت أنك رسول الله لم أقاتلك ; ولكن اكتب اسمك واسم أبيك . قال:فقال رسول الله [ص]:" اكتب:هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله . سهيل بن عمرو . اصطلحا على وضع الحرب عن الناس عشر سنين , يأمن فيهن الناس , ويكف بعضهم عن بعض , على أنه من أتى محمدا من قريش بغير إذن وليه رده عليه , ومن جاء قريشا ممن مع محمد لم يردوه عليه , وأن بيننا عيبة مكفوفة , وأنه لا إسلال ولا إغلال , وأنه من أحب أن يدخل في عقد محمد وعهده دخل فيه , ومن أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل فيه - فتواثبت خزاعة فقالوا:نحن في عقد محمد وعهده , وتواثبت بنو بكر فقالوا:نحن في عقدة قريش وعهدهم - وأنك ترجع عنا عامك هذا فلا

تدخل علينا مكة , وأنه إذا كان عام قابل خرجنا عنك , فدخلتها بأصحابك , فأقمت بها ثلاثا , معك سلاح الراكب:السيوف في القرب , لا تدخلها بغيرها . "

فبينا رسول الله [ص] يكتب الكتاب هو وسهيل بن عمرو , إذ جاء أبو جندل بن سهيل ابن عمرو يرسف في الحديد , قد انفلت إلى رسول الله [ص] وقد كان أصحاب رسول الله [ص] خرجوا وهم لا يشكون في الفتح , لرؤيا رسول الله [ص] فلما رأوا ما رأوا من الصلح والرجوع , وما تحمل عليه رسول الله [ص] دخل الناس من ذلك أمر عظيم حتى كادوا يهلكون . فلما رأى سهيل أبا جندل قام إليه فضرب وجهه وأخذ بتلبيبه , ثم قال:يا محمد , قد لجت القضية بيني وبينك قبل أن يأتيك هذا . قال:" صدقت " فجعل ينتره بتلبيبه ويجره ليرده إلى قريش وجعل أبو جندل يصرخ بأعلى صوته:يا معشر المسلمين , أأرد إلى المشركين يفتنونني في ديني ? فزاد الناس إلى ما بهم . فقال رسول الله [ص]:" يا أبا جندل , اصبر واحتسب , فإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجا ومخرجا , إنا قد عقدنا بيننا وبين القوم صلحا , وأعطيناهم على ذلك وأعطونا عهد الله , وإنا لا نغدر بهم " . قال:فوثب عمر بن الخطاب مع أبي جندل يمشي إلى جنبه , ويقول:اصبر يا أبا جندل , فإنما هم المشركون , وإنما دم أحدهم دم كلب . قال:ويدني قائم السيف منه . قال:يقول عمر:رجوت أن يأخذ السيف فيضرب أباه . قال:فضن الرجل بأبيه , ونفذت القضية .

فلما فرغ من الكتاب أشهد على الصلح رجال من المسلمين ورجال من المشركين:أبو بكر الصديق , عمر بن الخطاب , وعبد الرحمن بن عوف , وعبد الله بن سهيل بن عمرو , وسعد بن أبي وقاص , ومحمود بن مسلمة , ومكرز بن حفص [وهو يومئذ مشرك] وعلي بن أبي طالب , وكتب , وكان هو كاتب الصحيفة .

قال الزهري:فلما فرغ من قضية الكتاب قال رسول الله [ص] لأ

صحابه:" قوموافانحروا ثم احلقوا " قال:فو الله ما قام منهم رجل , حتى قال [ص] ذلك ثلاث مرات . فلما لم يقم منهم أحد دخل - صلى الله عليه وآله وسلم - على أم سلمة - رضي الله عنها - فذكر لها ما لقي من الناس . قالت [أم سلمة] - رضي الله عنها -:يا نبي الله , أتحب ذلك ? أخرج ثم لا تكلم أحدا منهم كلمة حتى تنحر بدنك , وتدعو حالقك فيحلقك . فخرج رسول الله [ص] فلم يكلم أحدا منهم حتى فعل ذلك , نحر بيده , ودعا حالقه فحلقه . فلما رأوا ذلك قاموا فنحروا , وجعل بعضهم يحلق بعضا , حتى كاد بعضهم يقتل بعضا غما .

قال ابن إسحاق:فحدثني عبد الله بن أبي نجيح , عن مجاهد , عن ابن عباس . قال:حلق رجال يوم الحديبية وقصر آخرون . فقال رسول الله [ص]:" يرحم الله المحلقين " . قالوا:والمقصرين يا رسول الله ? قال:" يرحم الله المحلقين " . قالوا:والمقصرين يا رسول الله ? قال:" يرحم الله المحلقين " . قالوا:والمقصرين يا رسول الله ? قال:" والمقصرين " . فقالوا يا رسول الله , فلم ظاهرت الترحيم للمحلقين دون المقصرين ? قال:" لم يشكوا " . .

قال الزهري في حديثه . . ثم انصرف رسول الله [ص] من وجهه ذلك قافلا . حتى إذا كان بين مكة والمدينة نزلت سورة الفتح .

وروى الإمام أحمد - بإسناده - عن مجمع بن حارثة الأنصاري - رضي الله عنه - وكان أحد القراء الذين قرأوا القرآن . قال:شهدنا الحديبية , فلما انصرفنا عنها إذا الناس ينفرون الأباعر , فقال الناس بعضهم لبعض:ما للناس ? قالوا أوحي إلى رسول الله - صلى الله تعالى عليه وآله وسلم - فخرجنا مع الناس نوجف . فإذا رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - على راحلته عند كراع الغميم , فاجتمع الناس عليه فقرأ عليهم:(إنا فتحنا لك فتحا مبينا) . قال:فقال رجل من أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وعلى آله وسلم -:أي رسول الله أو فتح هو ? قال [ص]:" إي والذي نفس محمد بيده إنه لفتح " . .

وروى الإمام أحمد باسناده - عن عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - ق
ال:كنا مع رسول الله [ص] في سفر . قال:فسألته عن شيء ثلاث مرات
فلم يرد علي . قال:فقلت ثكلتك أمك يابن الخطاب . ألحت . كررت
على رسول الله [ص] ثلاث مرات , فلم يرد عليك ! قال:فركبت
راحلتي , فحركت بعيري , فتقدمت , مخافة أن يكون نزل في شيء . ق
ال:فإذا أنا بمناد يا عمر . قال:فرجعت وأنا أظن أنه نزل في شيء . ق
ال:فقال النبي [ص]:" نزل علي البارحة سورة هي أحب إلي من الدنيا
وما فيها:إنا فتحنا لك فتحا مبينا ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما
تأخر " . . [ورواه البخاري والترمذي والنسائي من طرق عن مالك رحمه
الله] . .

هذا هو الجو الذي نزلت فيه السورة . الجو الذي اطمأنت فيه نفس الرسول [ص] إلى إلهام ربه , فتجرد من كل إرادة إلا ما يوحيه هذا الإ لهام العلوي الصادق ; ومضى يستلهم هذا الإيحاء في كل خطوة وفي كل حركة , لا يستفزه عنه مستفز , سواء من المشركين أو من أصحابه الذين لم تطمئن نفوسهم في أول الأمر لقبول استفزاز المشركين وحميتهم الجاهلية . ثم أنزل الله السكينة في قلوبهم , ففاءوا إلى الرضى واليقين والقبول الخالص العميق ; كإخوانهم الذين كانوا على هذه الحال منذ أول الأمر , شأن الصديق أبي بكر الذي لم تفقد روحه لحظة واحدة صلتها الداخلية المباشرة بروح رسول الله [ص] ومن ثمبقيت على اطمئنانها دائما , ولم تفارقها الطمأنينة أبدا .

ومن ثم جاء افتتاح السورة بشرى لرسول الله [ص] , فرح لها قلبه الكبير فرحا عميقا:(إنا فتحنا لك فتحا مبينا , ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر , ويتم نعمته عليك ويهديك صراطا مستقيما . وينصرك الله نصرا عزيزا).

كما جاء في الافتتاح , الامتنان على المؤمنين بالسكينة , والاعتراف لهم بالإيمان السابق وتبشيرهم بالمغفرة والثواب , وعون السماء بجنود

الله:(هو الذي أنزل السكينة في قلوب المؤمنين ليزدادوا إيمانا - مع إيمانهم - ولله جنود السماوات والأرض وكان الله عليما حكيما , ليدخل المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها , ويكفر عنهم سيئاتهم , وكان ذلك عند الله فوزا عظيما). . ذلك مع ما أعده لأعدائهم من المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات من غضب وعذاب:(ويعذب المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات , الظانين بالله ظن السوء , عليهم دائرة السوء وغضب الله عليهم ولعنهم , وأعد لهم جهنم , وساءت مصيرا). .

ثم التنويه ببيعة رسول الله [ص] واعتبارها بيعة لله ; وربط قلوب المؤمنين مباشرة بربهم عن هذا الطريق , بهذا الرباط المتصل مباشرة ب الله الحي الباقي الذي لا يموت:(إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا , لتؤمنوا بالله ورسوله وتعزروه وتوقروه وتسبحوه بكرة وأصيلا . إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله , يد الله فوق أيديهم , فمن نكث فإنما ينكث على نفسه , ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجرا عظيما).

وبمناسبة البيعة والنكث يلتفت - قبل إكمال الحديث عن المؤمنين ومواقفهم في الحديبية - إلى الأعراب الذين تخلفوا عن الخروج , فيفضح معاذيرهم , ويكشف ما جال في خواطرهم من سوء الظن بالله , ومن توقع السوء للرسول [ص] ومن معه . ويوجه الرسول [ص] إلى ما ينبغي أن يكون موقفه منهم في المستقبل . وذلك في أسلوب يوحي بقوة المسلمين وضعف المخلفين , كما يوحي بأن هنالك غنائم وفتوحا قريبة يسيل لها لعاب المخلفين المتباطئين:

سيقول لك المخلفون من الأعراب:شغلتنا أموالنا وأهلونا فاستغفر لنا , يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم , قل:فمن يملك لكم من الله شيئا , إن أراد بكم ضرا أو أراد بكم نفعا ? بل كان الله بما تعملون خبيرا . بل ظننتم أن لن ينقلب الرسول والمؤمنون إلى أهليهم أبدا , وزين ذلك في قلوبكم , وظننتم ظن السوء , وكنتم قوما بورا . ومن لم يؤمن بالله

ورسوله فإنا أعتدنا للكافرين سعيرا . ولله ملك السماوات والأرض يغفر لمن يشاء , ويعذب من يشاء وكان الله غفورا رحيما . سيقول المخلفون إذا انطلقتم إلى مغانم لتأخذوها:ذرونا نتبعكم , يريدون أن يبدلوا كلام الله , قل:لن تتبعونا . كذلكم قال الله من قبل . فسيقولون:بل تحسدوننا . بل كانوا لا يفقهون إلا قليلا . قل للمخلفين من الأ عراب:ستدعون إلى قوم أولي بأس شديد تقاتلونهم أو يسلمون , فإن تطيعوا يؤتكم الله أجرا حسنا , وإن تتولوا كما توليتم من قبل يعذبكم عذابا أليما .

وفي هذا الصدد يبين المعذورين إذا تخلفوا , والمعفين من الجهاد لعجزهم عنه , وهو العذر الوحيد: ليس على الأعمى حرج ولا على الأ عرج حرج , ولا على المريض حرج , ومن يطع الله ورسوله يدخله جنات تجري من تحتها الأنهار , ومن يتول يعذبه عذابا أليما . .

وبعد هذه اللفتة يعود سياق السورة للحديث عن المؤمنين ومواقفهم وخوالج نفوسهم ; حديثا كله رضى وشفافية ووضاءة وتكريم ; وكله بشريات لهذه النفوس الخالصة القوية , البائعة المتجردة . حديثا يتجلى فيهالله جل جلاله على هذه المجموعة المختارة من البشر . يتجلى عليهم برضوانه وبشرياته وامتنانه وتثبيته . ويبلغهم بأشخاصهم وأعيانهم أنه عنهم راض , وأنه كان حاضرهم وهم يبايعون في مكان بعينه:"تحت الشجرة " وأنه اطلع على ما في نفوسهم . وأنه رضيهم ورضي عنهم , وأنه كتب لهم النصر في المستقبل والغنائم والفتوح , وربط هذا كله بناموس الوجود وسنة الوجود . وهو أمر يقف له الوجود كله يشهد ويرقب ويتأثر ويسجل في أطوائه ذلك الحادث العظيم الفريد:(لقد رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة , فعلم ما في قلوبهم , فأنزل السكينة عليهم , وأثابهم فتحا قريبا . ومغانم كثيرة يأخذونها وكان الله عزيزا حكيما . وعدكم الله مغانم كثيرة تأخذونها , فعجل لكم هذه , وكف أيدي الناس عنكم , ولتكون آية للمؤمنين , ويهديكم صراطا مستقيما , وأخرى لم تقدروا عليها قد أحاط الله بها

وكان الله على كل شيء قديرا . ولو قاتلكم الذين كفروا لولوا الأدبار ثم لا يجدون وليا ولا نصيرا . سنة الله التي قد خلت من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا). .

ويمتن عليهم بأخذ عدوهم النفر الذين أرادوا بهم الأذى ; ويندد بأعدائهم الذين صدوهم عن المسجد الحرام , وصدوا الهدي أن يبلغ محله , ويتلطف معهم فيكشف لهم عن حكمته في كفهم هذا العام عنهم ; وفضله في ترضيتهم بما كان , وإنزال سكينته في قلوبهم , لأمر يراه , وهو أعظم مما يرون . وهو فتح مكة ثم هيمنة هذا الدين على الدين كله بأمر الله وتدبيره: وهو الذي كف أيديهم عنكم وأيديكم عنهم ببطن مكة من بعد أن أظفركم عليهم , وكان الله بما تعملون بصيرا . هم الذين كفروا وصدوكم عن المسجد الحرام والهدي معكوفا أن يبلغ محله . ولولا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات لم تعلموهم , أن تطؤوهم فتصيبكم منهم معرة بغير علم , ليدخل الله في رحمته من يشاء , لو تزيلوا لعذبنا الذين كفروا منهم عذابا أليما . إذ جعل الذين كفروا في قلوبهم الحمية حمية الجاهلية , فأنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين , وألزمهم كلمة التقوى , وكانوا أحق بها وأهلها , وكان الله بكل شيء عليما . لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق , لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين محلقين رؤوسكم ومقصرين لا تخافون . فعلم ما لم تعلموا , فجعل من دون ذلك فتحا قريبا . هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله , وكفى بالله شهيدا . .

وتختم السورة بالصفة الكريمة الوضيئة التي تميز هذه المجموعة المختارة من البشر , وتفردها بسمتها الخاصة , وتنوه بها في الكتب السابقة:التوراة والإنجيل . وبوعد الله الكريم بالمغفرة والأجر العظيم:(محمد رسول الله , والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم , تراهم ركعا سجدا يبتغون فضلا من الله ورضوانا , سيماهم في وجوههم من أثر السجود . ذلك مثلهم في التوراة . ومثلهم في الإنجيل كزرع أخرج شطأه فآزره , فاستغلظ , فاستوى على سوقه , يعجب الزراع ,

ليغيظ بهم الكفار . وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجرا عظيما). .

وهكذا تصبح نصوص السورة مفهومة واضحة , تعيش في جوها الذي نزلت فيه , وتصوره أقوى تصوير , بأسلوب القرآن الخاص الذي لا يفصل الحوادث بترتيبها وتسلسلها ; ولكنه يأخذ منها لمحات توجيهية وتربوية ; ويربط الحادثة المفردة بالقاعدة الشاملة . والموقف الخاص با لأصل الكوني العام . ويخاطب النفوس والقلوب بطريقته الفذة ومنهجه الفريد .

ومن سياق السورة وجوها , وبالموازنة بينها وبين ايحاءات سورة محمد التي قبلها في ترتيب المصحف ; يتبين مدى ما طرأ على الجماعة المسلمة في موقفها كله من تغيرات عميقة , في مدى السنوات الثلاث , التي نرجحأنها تفرق بين السورتين في زمن النزول . ويتبين مدى فعل القرآن الكريم , وأثر التربية النبوية الرشيدة لهذه الجماعة التي سعدت بـ النشوء والنمو في ظلال القرآن , وفي رعاية النبوة . فكانت ما كانت في تاريخ البشرية الطويل .

واضح في جو سورة الفتح وإيحاءاتها أننا أمام جماعة نضج إدراكها للعقيدة , وتجانست مستوياتها الإيمانية , واطمأنت نفوسها لتكاليف هذا الدين ; ولم تعد محتاجة إلى حوافز عنيفة الوقع كي تنهض بهذه التكاليف في النفس والمال ; بل عادت محتاجة إلى من يخفض حميتها , وينهنه حدتها , ويأخذ بزمامها لتستسلم للهدوء , والمهادنة بعض الوقت , وفق حكمة القيادة العليا للدعوة .

لم تعد الجماعة المسلمة تواجه بمثل قوله تعالى:(فلا تهنوا وتدعوا إلى السلم وأنتم الأعلون والله معكم ولن يتركم أعمالكم). . ولا بمثل قوله تعالى:(ها أنتم هؤلاء تدعون لتنفقوا في سبيل الله فمنكم من يبخل , ومن يبخل فإنما يبخل عن نفسه , والله الغني وأنتم الفقراء , وإن تتولوا يستبدل قوما غيركم , ثم لا يكونوا أمثالكم).

ولم تعد في حاجة إلى حوافز قوية للجهاد بالحديث عن الشهداء وما أعد الله لهم عنده من الكرامة ; ولا بيان حكمة الابتلاء بالقتال ومشقاته كما في سورة محمد إذ يقول الله تعالى: (ذلك ولو يشاء الله لانتصر منهم , ولكن ليبلو بعضكم ببعض , والذين قتلوا في سبيل الله فلن يضل أعمالهم . سيهديهم ويصلح بالهم , ويدخلهم الجنة عرفها لهم).

إنما صار الحديث عن السكينة التي أنزلها الله في قلوب المؤمنين , أو أنزلها عليهم . والمقصود بها تهدئة فورتهم , وتخفيض حميتهم , واطمئنان قلوبهم لحكم الله وحكمة رسوله [ص] في المهادنة والملا ينة , وعن رضى الله عن المبايعين تحت الشجرة . وكانت هذه الصورة الوضيئة في نهاية السورة للرسول ومن معه .

أما الحديث عن الوفاء بالبيعة والنكث فيها في قوله تعالى:(إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله , يد الله فوق أيديهم , فمن نكث فإنما ينكث على نفسه , ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجرا عظيما) . فالإ يحاء فيه أكثر إلى تكريم المبايعين وتعظيم شأن البيعة . والإشارة إلى النكث جاءت بمناسبة الحديث عن الأعراب المتخلفين , وكذلك الإشارة إلى المنافقين والمنافقات فهي إشارة عابرة , تدل على ضعف موقف هذه الطائفة , وعلى خلوص الجماعة المسلمة بالمدينة ونضوجها وتجانسها . وهي على كل حال إشارة عابرة لا تشغل من السورة شيئا مما شغله الحديث عن المنافقين في سورة محمد , حيث كان للمنافقين شأنهم هم وحلفاؤهم اليهود . وهذا تطور آخر في موقف الجماعة المسلمة من ناحية موقفها الخارجي يساير ذلك التطور الذي تم في نفوسها من الداخل .

وواضح كذلك قوة المسلمين بالقياس إلى قوة المشركين في جو السورة كلها وفي آيات بنصها ; والإشارات إلى الفتوح المقبلة , وإلى رغبة المخلفين في الغنائم السهلة واعتذارهم , وإلى ظهور هذا الدين على الدين كله . . كلها تشي بما بلغت إليه قوة المسلمين في هذه الفترة بين

نزول السورتين .

ففي حقيقة النفوس , وفي حال الجماعة , وفي الظروف المحيطة بها , حدث تطور واضح , يدركه من يتلمس خط السيرة في النصوص القرآنية . ولهذا التطور قيمته كما أن له دلالته على أثر المنهج القرآني و التربية المحمدية , لهذه الجماعة السعيدة الفريدة في التاريخ . ثم إن لهذا التطور إيحائه للقائمين على الجماعات البشرية . فلا تضيق صدورهم بالنقص فيها والضعف ورواسب الماضي ومخلفاته , وآثار البيئة والوسط , وجواذب الأرض , وثقلة اللحم والدم . . وكلها تبدو في أول العهد قوية عميقة عنيفة . ولكنها مع المثابرة والحكمة والصبر على العلاج , تأخذ في التحسن والتطور . والتجارب والابتلاءات تعين على التحسن والتطور , حين تتخذ فرصةللتربية والتوجيه . وشيئا فشيئا تخف ثقلة الطين , وتشف كثافة اللحم والدم , وتتوارى آثار البيئة , وتصفو رواسب الماضي , وتستشرف القلوب آفاقا أعلى فأعلى , حتى ترى النور هناك على الأفق الوضيء البعيد . ولنا في رسول الله أسوة حسنة , ولنا في المنهج القرآني صراط مستقيم .

سورة الحجرات

لله سبحانه نظمه التي تكفل صيانة العالم والمجتمع . وهي شرائع ونظم تقوم على ذلك الأدب , وتنبثق منه , وتتسق معه ; فيتوافى باطن هذا العالم وظاهره , وتتلاقى شرائعه ومشاعره , وتتوازن دوافعه وزواجره ; وتتناسق أحاسيسه وخطاه , وهو يتجه ويتحرك إلى الله . . ومن ثم لا يوكل قيام هذا العالم الرفيع الكريم النظيف السليم وصيانته , لمجرد

أدب الضمير ونظافة الشعور ; ولا يوكل كذلك لمجرد التشريع والتنظيم . بل يلتقي هذا بذلك في انسجام وتناسق . كذلك لا يوكل لشعور الفرد وجهده , كما لا يترك لنظم الدولة وإجراءاتها . بل يلتقي فيه الأفراد بـ الدولة , والدولة بالأفراد ; وتتلاقى واجباتهما ونشاطهما في تعاون واتساق .

هو عالم له أدب مع الله , ومع رسول الله . يتمثل هذا الأدب في إدراك حدود العبد أمام الرب , والرسول الذي يبلغ عن الرب:(يا أيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدي الله ورسوله , واتقوا الله , إن الله سميع عليم). . فلا يسبق العبد المؤمن إلهه في أمر أو نهي , ولا يقترح عليه في قضاء أو حكم ; ولا يتجاوز ما يأمر به وما ينهى عنه ; ولا يجعل لنفسه إرادة أو رأيا مع خالقه . . تقوى منه وخشية , وحياء منه وأدبا . . وله أدب خاص فيه خطاب رسول الله [ص] وتوقيره:(يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي . ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض , أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون . إن الذين يغضون أصواتهم عند رسول الله أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى , لهم مغفرة وأجر عظيم . إن الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون , ولو أنهم صبروا حتى تخرج إليهم لكان خيرا لهم , والله غفور رحيم). .

وهو عالم له منهجه في التثبت من الأقوال والأفعال , والاستيثاق من مصدرها , قبل الحكم عليها . يستند هذا المنهج إلى تقوى الله , وإلى الرجوع بالأمر إلى رسول الله , في غير ما تقدم بين يديه , ولا اقتراح لم يطلبه ولم يأمر به: (يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوما بجهالة , فتصبحوا على ما فعلتم نادمين ; واعلموا أن فيكم رسول الله , لو يطيعكم في كثير من الأمر لعنتم . ولكن الله حبب إليكم ا لإيمان , وزينه في قلوبكم , وكره إليكم الكفر والفسوق والعصيان , أولئك هم الراشدون , فضلا من الله ونعمة , والله عليم حكيم). .

وهو عالم له نظمه وإجراءاته العملية في مواجهة ما يقع فيه من خلاف

وفتن وقلاقل واندفاعات , تخلخل كيانه لو تركت بغير علاج . وهو يواجهها بإجراءات عملية منبثقة من قاعدة الأخوة بين المؤمنين , ومن حقيقة العدل والإصلاح , ومن تقوى الله والرجاء في رحمته ورضاه: (وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما ; فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله ; فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا , إن الله يحب المقسطين . إنما المؤمنون إخوة , فأصلحوا بين أخويكم , واتقوا الله لعلكم ترحمون). .

وهو عالم له آدابه النفسية في مشاعره تجاه بعضه البعض ; وله آدابه السلوكية في معاملاته بعضه مع بعض: (يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيرا منهم ; ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيرا منهن ; ولا تلمزوا أنفسكم , ولا تنابزوا بالألقاب . بئس الا سم:الفسوق بعد الإيمان . ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون). .

وهو عالم نظيف المشاعر , مكفول الحرمات , مصون الغيبة والحضرة , لا يؤخذ فيه أحد بظنة , ولا تتبع فيه العورات , ولا يتعرض أمن الناس وكرامتهم وحريتهم فيه لأدنى مساس: (يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيرا من الظن إن بعض الظن إثم , ولا تجسسوا , ولا يغتب بعضكم بعضا . أيحب أحدكم أن يأكل لحم

يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ (13) قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِن تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئاً إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (14) إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ (15) قُلْ أَتُعَلِّمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ

بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (16) يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم
بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (17) إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ
غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (18)
أخيه ميتا ? فكرهتموه ! واتقوا الله , إن الله تواب رحيم).

وهو عالم له فكرته الكاملة عن وحدة الإنسانية المختلفة الأجناس المتعددة الشعوب ; وله ميزانه الواحد الذي يقوم به الجميع . إنه ميزان الله المبرأ من شوائب الهوى والاضطراب:(يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى , وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا . إن أكرمكم عند الله أتقاكم , إن الله عليم خبير). .

والسورة بعد عرض هذه الحقائق الضخمة التي تكاد تستقل برسم معالم ذلك العالم الرفيع الكريم النظيف السليم , تحدد معالم الإيمان , الذي باسمه دعي المؤمنون إلى إقامة ذلك العالم . وباسمه هتف لهم ليلبوا دعوة الله الذي يدعوهم إلى تكاليفه بهذا الوصف الجميل , الحافز إلى التلبية والتسليم: يا أيها الذين آمنوا . . ذلك النداء الحبيب الذي يخجل من يدعى به من الله أن لا يجيب ; والذي ييسر كل تكليف ويهون كل مشقة , ويشوق كل قلب فيسمع ويستجيب:(قالت الأعراب:آمنا . قل:لم تؤمنوا , ولكن قولوا:أسلمنا . ولما يدخل الإيمان في قلوبكم . وإن تطيعوا الله ورسوله لا يلتكم من أعمالكم شيئا , إن الله غفور رحيم . إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله , ثم لم يرتابوا , وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله , أولئك هم الصادقون . قل:أتعلمون الله بدينكم , والله يعلم ما في السماوات وما في الأرض , والله بكل شيء عليم). .

وتكشف السورة في ختامها عن ضخامة الهبة الإلهية للبشر . هبة الإيمان التي يمن بها على من يشاء , وفق ما يعلمه فيه من استحقاق: يمنون عليك أن أسلموا . قل:لا تمنوا علي إسلامكم . بل الله يمن عليكم أن هداكم للإيمان إن كنتم صادقين إن الله يعلم غيب السماوات والأرض و

الله بصير بما تعملون . .

فأما الأمر الثاني الذي يبرز للنظر من خلال السورة , ومن مراجعة المناسبات الواقعية التي صاحبت نزول آياتها , فهو هذا الجهد الضخم الثابت المطرد , الذي تمثله توجيهات القرآن الكريم والتربية النبوية الحكيمة , لإنشاء وتربية تلك الجماعة المسلمة , التي تمثل ذلك العالم الرفيع الكريم النظيف السليم , الذي وجدت حقيقته يوما على هذه الأ رض ; فلم يعد منذ ذلك الحين فكرة مثالية , ولا حلما طائرا , يعيش في الخيال !

هذه الجماعة المثالية التي تمثلت حقيقة واقعة في فترة من فترات التاريخ لم تنبت فجأة ولم توجد مصادفة ; ولم تخلق بين يوم وليلة . كذلك لم تظهر نتيجة نفحة تغير طبائع الأشياء كلها في لحظة أو ومضة . بل نمت نموا طبيعيا بطيئا كما تنمو الشجرة الباسقة العميقة الجذور . وأخذت الزمن اللازم لنموها , كما أخذت الجهد الموصول الثابت المطرد الضروري لهذا النمو . واحتاجت إلى العناية الساهرة , و الصبر الطويل , والجهد البصير في التهذيب والتشذيب , والتوجيه و الدفع , والتقوية والتثبيت . واحتاجت إلى معاناة التجارب الواقعية المريرة والابتلاءات الشاقة المضنية ; مع التوجيه لعبرة هذه التجارب وا لابتلاءات . . وفي هذا كله كانت تتمثل الرعاية الإلهية لهذه الجماعة المختارة - على علم - لحمل هذه الأمانة الكبرى ; وتحقيق مشيئة الله بها في الأرض . وذلك مع الفضائل الكامنة والاستعدادات المكنونة في ذلك الجيل ; وفي الظروف والأحوال المهيأة له على السواء . . وبهذا كله أشرقت تلك الومضة العجيبة في تاريخ البشرية ; ووجدت هذه الحقيقة التي تتراءى من بعيد وكأنها حلم مرفرف في قلب , أو رؤيا مجنحة في خيال !

كان رسول الله [ص] يخطب بهذه السورة في العيد والجمعة ; فيجعلها هي موضوع خطبته ومادتها , في الجماعات الحافلة . . وإن لها لشأنا . .

إنها سورة رهيبة , شديدة الوقع بحقائقها , شديدة الإيقاع ببنائها التعبيري , وصورها وظلالها وجرس فواصلها . تأخذ على النفس أقطارها , وتلاحقها في خطراتها وحركاتها , وتتعقبها في سرها وجهرها , وفي باطنها وظاهرها . تتعقبها برقابة الله , التي لا تدعها لحظة واحدة من المولد , إلى الممات , إلى البعث , إلى الحشر , إلى الحساب . وهي رقابة شديدة دقيقة رهيبة . تطبق على هذا المخلوق الإنساني الضعيف إطباقا كاملا شاملا . فهو في القبضة التي لا تغفل عنه أبدا , ولا تغفل من أمره دقيقا ولا جليلا , ولا تفارقه كثيرا ولا قليلا . كل نفس معدود . وكل هاجسة معلومة . وكل لفظ مكتوب . وكل حركة محسوبة . والرقابة الكاملة الرهيبة مضروبة على وساوس القلب , كما هي مضروبة على حركة الجوارح . ولا حجاب ولا ستار دون هذه الرقابة النافذة , المطلعة على السر والنجوى اطلاعها على العمل والحركة , في كل وقت وفي كل حال .

وكل هذه حقائق معلومة . ولكنها تعرض في الأسلوب الذي يبديها وكأنها جديدة , تروع الحس روعة المفاجأة ;وتهز النفس هزا , وترجها رجا , وتثير فيها رعشة الخوف , وروعة الإعجاب , ورجفة الصحو من الغفلة على الأمر المهول الرهيب !

وذلك كله إلى صور الحياة , وصور الموت , وصور البلى , وصور البعث , وصور الحشر . وإلى إرهاص الساعة في النفس وتوقعها في الحس . وإلى الحقائق الكونية المتجلية في السماء والأرض , وفي الماء والنبت , وفي الثمر والطلع . .(تبصرة وذكرى لكل عبد منيب). .

وإنه ليصعب في مثل هذه السورة التلخيص والتعريف , وحكاية الحقائق والمعاني والصور والظلال , في غير أسلوبها القرآني الذي وردت فيه ; وفي غير عبارتها القرآنية التي تشع بذاتها تلك الحقائق والمعاني و الصور والظلال , إشعاعا مباشرا للحس والضمير .

سورة الذاريات

هذه السورة ذات جو خاص . فهي تبدأ بذكر قوى أربعة . . من أمر الله . في لفظ مبهم الدلالة , يوقع في الحس لأول وهلة أنه أمام أمور ذات سر . يقسم الله - تعالى - على أمر: والذاريات ذروا , فالحاملات وقرا , ف الجاريات يسرا , فالمقسمات أمرا . إنما توعدون لصادق . وإن الدين لواقع . .

والذاريات . والحاملات . والجاريات . والمقسمات . . مدلولاتها ليست متعارفة , وهي غامضة تحتاج إلى السؤال والاستفسار , كما أنها بذاتها تلقي في الحس ذلك الظل . ولعله هو المقصود الأول منها في جو هذه السورة .

وما يكاد القسم الأول ينتهي حتى يعقبه قسم آخر بالسماء:(والسماء ذات الحبك). . يقسم بها الله تعالى . على أمر:(إنكم لفي قول مختلف). . لا استقرار له ولا تناسق فيه , قائم على التخرصات والظنون , لا على العلم واليقين . .

هذه السورة:بافتتاحها على هذا النحو , ثم بسياقها كله , تستهدف أمرا واضحا في سياقها كله . . ربط القلب البشري بالسماء ; وتعليقه بغيب الله المكنون ; وتخليصه من أوهاق الأرض , وإطلاقه من كل عائق يحول بينه وبين التجرد لعبادة الله , والانطلاق إليه جملة , والفرار إليه كلية , استجابة لقوله في السورة: (ففروا إلى الله). . وتحقيقا لإرادته في

عباده:(وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون). .

ولما كان الانشغال بالرزق وما يخبئه القدر عنه هو أكثف تلك العوائق وأشدها فقد عني في هذه السورة بإطلاق الحس من إساره , وتطمين النفس من جهته , وتعليق القلب بالسماء في شأنه , لا بالأرض وأسبابها القريبة . وتكررت الإشارة إلى هذا الأمر في السورة في مواضع متفرقة منها . إما مباشرة كقوله تعالى:(وفي السماء رزقكم وما توعدون). .(إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين). . وإما تعريضا كقوله يصور حال عباده المتقين مع المال:(وفي أموالهم حق للسائل والمحروم). . ووصفه لجود إبراهيم وسخائه وهو يقري ضيوفه القلائل - أو من حسبهم ضيوفه من الملائكة - بعجل سمين , يسارع به إليهم عقب وفودهم إليه , وبمجرد إلقاء السلام عليه , وهو لم يعرفهم إلا منذ لحظة !

فتخليص القلب من أوهاق الأرض , وإطلاقه من إسار الرزق , وتعليقه بـ السماء , ترف أشواقه حولها , ويتطلع إلى خالقها في علاه , بلا عائق يحول بينه وبين الانطلاق , ويعوقه عن الفرار إلى الله . هو محور السورة بكل موضوعاتها وقضاياها التي تطرقها . ومن ثم كان هذا الا قتتاح , وكان ذلك الإيقاع الغامض في أولها , وكان القسم بعده بالسماء , وكان تكرار الإشارة إلى السماء أيضا . .

وفي هذا كانت صورة المتقين التي يرسمها في مطلع السورة:(إن المتقين في جنات وعيون . آخذين ما آتاهم ربهم إنهم كانوا قبل ذلك محسنين . كانوا قليلا من الليل ما يهجعون . وبالأسحار هم يستغفرون . وفي أموالهم حق للسائل والمحروم). . فهي صورة التطلع إلى الله , و التجرد له , والقيام في عبادته بالليل , والتوجه إليه في الأسحار . مع إرخاص المال , والتخلص من ضغطه , وجعل نصيب السائل والمحروم حقا فيه .

وفي هذا كان التوجيه إلى آيات الله في الأرض وفي الأنفس مع تعليق القلوب بالسماء في شأن الرزق , لا بالأرض وما فيها من أسبابه

القريبة:(وفي الأرض آيات للموقنين . وفي أنفسكم أفلا تبصرون . وفي السماء رزقكم وما توعدون). .

وفي هذا كانت الإشارة إلى بناء الله للسماء على سعة , وتمهيده للأرض في يسر , وخلقه ما فيها من أزواج , والتعقيب على هذا كله بالفرار إلى الله: (والسماء بنيناها بأيد وإنا لموسعون . والأرض فرشناها فنعم الماهدون .ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون . ففروا إلى الله إني لكم منه نذير مبين). .

وفي هذا كان الإيقاع الأخير البارز في السورة , عن إرادة الله سبحانه في خلق الجن والإنس , ووظيفتهما الرئيسية الأولى:(وما خلقت الجن و الإنس إلا ليعبدون . ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون . إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين). .

فهو إيقاع واحد مطرد . ذو نغمات متعددة . ولكنها كلها تؤلف ذلك الإ يقاع , وتطلق ذلك الحداء . الحداء بالقلب البشري إلى السماء !

وقد وردت إشارات سريعة إلى حلقة من قصة إبراهيم ولوط , وقصة موسى , وقصة عاد , وقصة ثمود , وقصة قوم نوح . وفي الإشارة إلى قصة إبراهيم تلك اللمحة عن المال ; كما أن فيها لمحة عن الغيب المكنون في تبشيره بغلام عليم , ورزقه هو وامرأته به على غير ما توقع ولا انتظار . وفي بقية القصص إشارة إلى تصديق وعد الله الذي أقسم عليه في أول السورة:(إنما توعدون لصادق)والذي أشار إليه في ختامها إنذارا للمشركين:(فإن للذين ظلموا ذنوبا مثل ذنوب أصحابهم فلا يستعجلون). . بعد ما ذكر أن أجيال المكذبين كأنما تواصت على التكذيب:(كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا:ساحر أو مجنون . أتواصوا به ? بل هم قوم طاغون !). .

فالقصص في السورة - على هذا النحو - مرتبط بموضوعها الأصيل . وهو تجريد القلب لعبادة الله , وتخليصه من جميع العوائق , ووصله بـ

السماء . بالإيمان أولا واليقين . ثم برفع الحواجز والشواغل دون الرفرفة والانطلاق إلى ذلك الأفق الكريم .

سورة الطور

هذه السورة تمثل حملة عميقة التأثير فى القلب البشري . ومطاردة عنيفة للهواجس والشكوك والشبهات والأباطيل التي تساوره وتتدسس إليه وتختبئ هنا وهناك في حناياه . ودحض لكل حجة وكل عذر قد يتخذه للحيدة عن الحق والزيغ عن الإيمان . . حملة لا يصمد لها قلب يتلقاها , وهي تلاحقه حتى تلجئه إلى الإذعان والاستسلام !

وهي حملة يشترك فيها اللفظ والعبارة , والمعنى والمدلول , والصور و الظلال , والإيقاعات الموسيقية لمقاطع السورة وفواصلها على السواء . ومن بدء السورة إلى ختامها تتوالى آياتها كما لو كانت قذائف , وإيقاعاتها كما لو كانت صواعق , وصورها وظلالها كما لو كانت سياطا لا ذعة للحس لا تمهله لحظة واحدة من البدء إلى الختام !

وتبدأ السورة بقسم من الله سبحانه بمقدسات في الأرض والسماء . بعضها مكشوف معلوم ! وبعضها مغيب مجهول:(والطور . وكتاب مسطور . في رق منشور . والبيت المعمور . والسقف المرفوع). .

القسم على أمر عظيم رهيب , يرج القلب رجا , ويرعب الحس رعبا . في تعبير يناسب لفظه مدلوله الرهيب ; وفي مشهد كذلك ترجف له القلوب:(إن عذاب ربك لواقع . ما له من دافع , يوم تمور السماء مورا , وتسير الجبال سيرا). .

وفي وسط المشهد المفزع نرى ونسمع ما يزلزل ويرعب , من ويل وهول , وتقريع وتفزيع: (فويل يومئذ للمكذبين , الذين هم في خوض يلعبون . يوم يدعون إلى نار جهنم دعا . هذه النار التي كنتم بها تكذبون .أفسحر هذا ? أم أنتم لا تبصرون ? اصلوها فاصبروا أو لا

تصبروا , سواء عليكم , إنما تجزون ما كنتم تعملون). .

هذا شوط من حملة المطاردة . يليه شوط آخر من لون آخر . شوط في إطماع القلوب التي رأت ذلك الهول المرعب - إطماعها في الأمن و النعيم . بعرض صورة المتقين وما أعد لهم من تكريم . وما هيئ لهم من نعيم رخي رغيد , يطول عرضه , وتكثر تفصيلاته , وتتعدد ألوانه . مما يستجيش الحس إلى روح النعيم وبرده ; بعد كرب العذاب وهوله:(إن المتقين في جنات ونعيم . فاكهين بما آتاهم ربهم ووقاهم ربهم عذاب الجحيم . كلوا واشربوا هنيئا بما كنتم تعملون . متكئين على سرر مصفوفة وزوجناهم بحور عين . والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بإيمان ألحقنا بهم ذريتهم , وما ألتناهم من عملهم من شيء , كل امرئ بما كسب رهين . وأمددناهم بفاكهة ولحم مما يشتهون . يتنازعون فيها كأسا لا لغو فيها ولا تأثيم . ويطوف عليهم غلمان لهم كأنهم لؤلؤ مكنون . وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون . قالوا:إنا كنا قبل في أهلنا مشفقين . فمن الله علينا ووقانا عذاب السموم . إنا كنا من قبل ندعوه إنه هو البر الرحيم). .

والآن وقد أحس القلب البشري سياط العذاب في الشوط الأول ; وتذوق حلاوة النعيم في الشوط الثاني . . الآن يجيء الشوط الثالث يطارد الهواجس والوساوس ; ويلاحق الشبهات والأضاليل ; ويدحض الحجج و المعاذير . ويعرض الحقيقة بارزة واضحة بسيطة عنيفة . تتحدث بمنطق نافذ لا يحتمل التأويل , مستقيم لا يحتمل اللف والدوران . يلوي الأعناق ليا ويلجئها إلى الإذعان والتسليم . . ويبدأ هذا الشوط بتوجيه الخطاب إلى رسول الله [ص] ليمضي في تذكيره لهم , على الرغم من سوء أدبهم معه ; وليقرعهم بهذا المنطق النافذ القوي المستقيم: فذكر فما أنت بنعمة ربك بكاهن ولا مجنون . أم يقولون:شاعر نتربص به ريب المنون ? قل:تربصوا فإني معكم من المتربصين . أم تأمرهم أحلامهم بهذا ? أم هم قوم طاغون ? أم يقولون تقوله ? بل لا يؤمنون . فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين . أم خلقوا من غير شيء ? أم هم

الخالقون ? أم خلقوا السماوات والأرض ? بل لا يوقنون . أم عندهم خزائن ربك ? أم هم المصيطرون ? أم لهم سلم يستمعون فيه ? فليأت مستمعهم بسلطان مبين . أم له البنات ولكم البنون ? أم تسألهم أجرا فهم من مغرم مثقلون ? أم عندهم الغيب فهم يكتبون ? أم يريدون كيدا ? فالذين كفروا هم المكيدون . أم لهم إله غير الله ? سبحان الله عما يشركون . .

وعقب هذه الأسئلة المتلاحقة . بل هذه القذائف الصاعقة . التي تنسف الباطل نسفا , وتحرج المكابر والمعاند , وتخرس كل لسان يزيغ عن الحق أو يجادل فيه . . عقب هذا يصور تعنتهم وعنادهم في صورة الذي يكابر في المحسوس:(وإن يروا كسفا من السماء ساقطا يقولوا:سحاب مركوم). والفرق بين قطعة السماء تسقط وبين السحاب واضح , ولكنهم هم يتلمسون كل شبهة ليعدلوا عن الحق الواضح .

هنا يلقي عليهم بالقذيفة الأخيرة . قذيفة التهديد الرعيب , بملاقاة ذلك المشهد المرهوب , الذي عرض عليهم في مطلع السورة:(فذرهم حتى يلا قوا يومهم الذي فيه يصعقون . يوم لا يغني عنهم كيدهم شيئا ولا هم ينصرون). . كما يهددهم بعذاب أقرب من ذلك العذاب:(وإن للذين ظلموا عذابا دون ذلك , ولكن أكثرهم لا يعلمون). .

ثم تختم السورة بإيقاع رضي رخي . . إنه موجه إلى الرسول الكريم الذي يقولون عنه: (شاعر نتربص به ريب المنون). . ويقولون:كاهن أو مجنون . موجه إليه من ربه يسليه ويعزيه في إعزاز وتكريم . في تعبير لا نظير له في القرآن كله ; ولم يوجه من قبل إلى نبي أو رسول: (واصبر لحكم ربك , فإنك بأعيننا ,وسبح بحمد ربك حين تقوم , ومن الليل فسبحه وإدبار النجوم). .

إنه الإيقاع الذي يمسح على العنت والمشقة اللذين يلقاهما الرسول الكريم , من أولئك المتعنتين المعاندين , الذين اقتضت مواجهتهم تلك الحملة العنيفة من المطاردة والهجوم . .

هذه السورة في عمومها كأنها منظومة موسيقية علوية , منغمة , يسري التنغيم في بنائها اللفظي كما يسري في إيقاع فواصلها الموزونة المقفاة . ويلحظ هذا التنغيم في السورة بصفة عامة ; ويبدو القصد فيه واضحا في بعض المواضع ; وقد زيدت لفظة أو اختيرت قافية , لتضمن سلامة التنغيم ودقة إيقاعه - إلى جانب المعنى المقصود الذي تؤديه في السياق كما هي عادة التعبير القرآني - مثل ذلك قوله:(أفرأيتم اللات و العزى . ومناة الثالثة الأخرى). فلو قال ومناة الأخرى ينكسر الوزن . ولو قال:ومناة الثالثة فقط يتعطل إيقاع القافية ولكل كلمة قيمتها في معنى العبارة . ولكن مراعاة الوزن والقافية كذلك ملحوظة . ومثلها كلمة(إذن)في وزن الآيتين بعدها: ألكم الذكر وله الأنثى ? تلك إذا قسمة ضيزى ! وكلمة(إذن)ضرورية للوزن . وإن كانت - مع هذا - تؤدي غرضا فنيا في العبارة . . . وهكذا .

ذلك الإيقاع ذو لون موسيقي خاص . لون يلحظ فيه التموج والا نسياب . وبخاصة في المقطع الأول والمقطع الأخير من السورة . وهو يتناسق بتموجه وانسيابه مع الصور والظلال الطليقة المرفرفة في المقطع الأول . ومع المعاني واللمسات العلوية في المقطع الأخير . وما بينهما مما هو قريب منهما في الجو والموضوع .

والصور والظلال في المقطع الأول , تشع من المجال العلوي الذي تقع فيه الأحداث النورانية والمشاهد الربانية التي يصفها هذا المقطع . ومن الحركات الطليقة للروح الأمين وهو يتراءى للرسول الكريم . . والصور و الظلال والحركات والمشاهد والجو الروحي المصاحب , تستمد وتمد ذلك الإيقاع التعبيري وتمتزج به , وتتناسق معه , وتتراءى فيه , في توافق منغم عجيب .

ثم يعم ذلك العبق جو السورة كله , ويترك آثاره في مقاطعها التالية , حتى تختم بإيقاع موح شديد الإيحاء مؤثر عميق التأثير . ترتعش له

كل ذرة في الكيان البشري وترف معه وتستجيب .

وموضوع السورة الذي تعالجه هو موضوع السور المكية على الإطلاق:العقيدة بموضوعاتها الرئيسية:الوحي والوحدانية والآخرة . والسورة تتناول الموضوع من زاوية معينة تتجه إلى بيان صدق الوحي بهذه العقيدة ووثاقته , ووهن عقيدة الشرك وتهافت أساسها الوهمي الموهون !

والمقطع الأول في السورة يستهدف بيان حقيقة الوحي وطبيعته , ويصف مشهدين من مشاهده , ويثبت صحته وواقعيته في ظل هذين المشهدين ; ويؤكد تلقي الرسول [ص] عن جبريل - عليه السلام - تلقي رؤية وتمكن ودقة , واطلاعه على آيات ربه الكبرى .

ويتحدث المقطع الثاني عن آلهتهم المدعاة:اللات والعزى ومناة . وأوهامهم عن الملائكة . وأساطيرهم حول بنوتها لله . واعتمادهم في هذا كله على الظن الذي لا يغني من الحق شيئا . بينما الرسول [ص] يدعوهم إلى ما دعاهم إليه عن تثبت ورؤية ويقين .

والمقطع الثالث يلقن الرسول [ص] الإعراض عمن يتولى عن ذكر الله ويشغل نفسه بالدنيا وحدها , ويقف عند هذا الحد لا يعلم وراءه شيئا . ويشير إلى الآخرة وما فيها من جزاء يقوم على عمل الخلق , وعلى علم الله بهم , منذ أنشأهم من الأرض , ومنذ كانوا أجنة في بطون أمهاتهم . فهو أعلم بهم من أنفسهم , وعلى أساس هذا العلم المستيقن - لا الظن و الوهم - يكون حسابهم وجزاؤهم , ويصير أمرهم في نهاية المطاف .

والمقطع الرابع والأخير يستعرض أصول العقيدة - كما هي منذ أقدم الرسالات - من فردية التبعة , ودقة الحساب , وعدالة الجزاء . ومن انتهاء الخلق إلى ربهم المتصرف في أمرهم كله تصرف المشيئة المطلقة . ومع هذا لفتة إلى مصارع الغابرين المكذبين . تختم بالإيقاع الأخير:(هذا نذير من النذر الأولى . أزفت الآزفة . ليس لها من دون الله

كاشفة . أفمن هذا الحديث تعجبون وتضحكون , ولا تبكون , وأنتم سامدون ? فاسجدوا لله واعبدوا). . حيث يلتقي المطلع والختام في الإ يحاء والصور والظلال والإيقاع العام .

سورة القمر

هذه السورة من مطلعها إلى ختامها حملة رعيبة مفزعة عنيفة على قلوب المكذبين بالنذر , بقدر ما هي طمأنينة عميقة وثيقة للقلوب المؤمنة المصدقة . وهي مقسمة إلى حلقات متتابعة , كل حلقة منها مشهد من مشاهد التعذيب للمكذبين , يأخذ السياق في ختامها بالحس البشري فيضغطه ويهزه ويقول له:(فكيف كان عذابي ونذر ?). . ثم يرسله بعد الضغط والهز ويقول له:(ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر ?).

ومحتويات السورة الموضوعية واردة في سور مكية شتى . فهي مشهد من مشاهد القيامة في المطلع , ومشهد من هذه المشاهد في الختام . وبينهما عرض سريع لمصارع قوم نوح . وعاد وثمود . وقوم لوط . وفرعون وملئه . وكلها موضوعات تزخر بها السور المكية في صور شتى . .

ولكن هذه الموضوعات ذاتها تعرض في هذه السورة عرضا خاصا , يحيلها جديدة كل الجدة . فهي تعرض عنيفة عاصفة , وحاسمة قاصمة ; يفيض منها الهول , ويتناثر حولها الرعب , ويظللها الدمار والفزع والا نبهار !

وأخص ما يميزها في سياق السورة أن كلا منها يمثل حلقة عذاب رهيبة سريعة لاهثة مكروبة . يشهدها المكذبون , وكأنما يشهدون أنفسهم فيها , ويحسون إيقاعات سياطها . فإذا انتهت الحلقة وبدأوا يستردون

أنفاسهم اللاهثة المكروبة عاجلتهم حلقة جديدة أشد هولا ورعبا . . وهكذا حتى تنتهي الحلقات السبعة في هذا الجو المفزع الخانق . فيطل المشهد الأخير في السورة . وإذا هو جو آخر , ذو ظلال أخرى . وإذا هو الأمن والطمأنينة والسكينة . إنه مشهد المتقين:(إن المتقين في جنات ونهر . في مقعد صدق عند مليك مقتدر). . في وسط ذلك الهول الراجف , والفزع المزلزل , والعذاب المهين للمكذبين:(يوم يسحبون في النار على وجوههم ذوقوا مس سقر). .

فأين وأين ? مشهد من مشهد ? ومقام من مقام ? وقوم من قوم ? ومصير من مصير ?

سورة الرحمن

هذه السورة المكية ذات نسق خاص ملحوظ . إنها إعلان عام في ساحة الوجود الكبير , وأعلام بآلاء الله الباهرة الظاهرة , في جميل صنعه , وإبداع خلقه ; وفي فيض نعمائه ; وفي تدبيره للوجود وما فيه ; وتوجه الخلائق كلها إلى وجهه الكريم . . وهي إشهاد عام للوجود كله على الثقلين:الإنس والجن المخاطبين بالسورة على السواء , في ساحة الوجود , على مشهد من كل موجود , مع تحديهما إن كانا يملكان التكذيب بآلاء الله , تحديا يتكرر عقب بيان كل نعمة من نعمه التي يعددها ويفصلها , ويجعل الكون كله معرضا لها , وساحة الآخرة كذلك .

ورنة الإعلان تتجلى في بناء السورة كله , وفي إيقاع فواصلها . . تتجلى في إطلاق الصوت إلى أعلى , وامتداد التصويت إلى بعيد ; كما تتجلى في المطلع الموقظ الذي يستثير الترقب والإنتظار لما يأتي بعد المطلع من أخبار . . الرحمن . . كلمة واحدة . مبتدأ مفردا . . الرحمن كلمة واحدة في معناها الرحمة , وفي رنتها الإعلان , والسورة بعد ذلك بيان للمسات الرحمة ومعرض لآلاء الرحمن .

ويبدأ معرض الآلاء بتعليم القرآن بوصفه المنة الكبرى على الإنسان . تسبق في الذكر خلق الإنسان ذاته وتعليمه البيان .

ثم يذكر خلق الإنسان , ومنحه الصفة الإنسانية الكبرى . . البيان . .

ومن ثم يفتح صحائف الوجود الناطقة بآلاء الله . . الشمس والقمر و النجم والشجر والسماء المرفوعة . والميزان الموضوع . والأرض وما فيها من فاكهة ونخل وحب وريحان . والجن والإنس . والمشرقان و المغربان . والبحران بينهما برزخ لا يبغيان , وما يخرج منهما وما يجري فيهما .

فإذا تم عرض هذه الصحائف الكبار . عرض مشهد فنائها جميعا . مشهد الفناء المطلق للخلائق , في ظل الوجود المطلق لوجه الله الكريم الباقي . الذي إليه تتوجه الخلائق جميعا , ليتصرف في أمرها بما يشاء .

وفي ظل الفناء المطلق والبقاء المطلق يجيء التهديد المروع والتحدي الكوني للجن والإنس:(سنفرغ لكم أيها الثقلان . فبأي آلاء ربكما تكذبان . يا معشر الجن والإنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السماوات والأ رض فانفذوا . لا تنفذون إلا بسلطان . فبأي آلاء ربكما تكذبان , يرسل عليكما شواظ من نار ونحاس فلا تنتصران . فبأي آلاء ربكما تكذبان ?).
.

ومن ثم يعرض مشهد النهاية . مشهد القيامة . يعرض في صورة كونية . يرتسم فيها مشهد السماء حمراء سائلة , ومشهد العذاب للمجرمين , و الثواب للمتقين في تطويل وتفصيل .

ثم يجيء الختام المناسب لمعرض الآلاء:(تبارك اسم ربك ذي الجلال وا لإكرام). .

إن السورة كلها إعلان عام في ساحة الوجود الكبير . إعلان ينطلق من

الملأ الأعلى , فتتجاوب به أرجاء الوجود . ويشهده كل من في الوجود وكل ما في الوجود . .

سورة الواقعة

الواقعة . . اسم للسورة وبيان لموضوعها معا . فالقضية الأولى التي تعالجها هذه السورة المكية هي قضية النشأة الآخرة , ردا على قولة الشاكين فيها , المشركين بالله , المكذبين بالقرآن: أئذا متنا وكنا ترابا وعظاما أئنا لمبعوثون ? أو آباؤنا الأولون ? . .

ومن ثم تبدأ السورة بوصف القيامة . وصفها بصفتها التي تنهي كل قول , وتقطع كل شك , وتشعر بالجزم في هذا الأمر . . الواقعة . .(إذا وقعت الواقعة ليس لوقعتها كاذبة). . وتذكر من أحداث هذا اليوم ما يميزه عن كل يوم , حيث تتبدل أقدار الناس , وأوضاع الأرض , في ظل الهول الذي يبدل الأرض غير الأرض , كما يبدل القيم غير القيم سواء: خافضة رافعة . . إذا رجت الأرض رجا , وبست الجبال بسا , فكانت هباء منبثا . وكنتم أزواجا ثلاثة . . . الخ.

ثم تفصل السورة مصائر هذه الأزواج الثلاثة:السابقين وأصحاب الميمنة وأصحاب المشأمة . وتصف ما يلقون من نعيم وعذاب وصفا مفصلا أوفى تفصيل , يوقع في الحس أن هذا أمر كائن واقع , لا مجال للشك فيه , وهذه أدق تفصيلاته معروضة للعيان . حتى يرى المكذبون رأي العين مصيرهم ومصير المؤمنين . وحتى يقال عنهم هنالك بعد وصف العذاب الأليم الذي هم فيه: إنهم كانوا قبل ذلك مترفين . وكانوا يصرون على الحنث العظيم . وكانوا يقولون:أئذا متنا وكنا ترابا وعظاما أئنا لمبعوثون ? أو آباؤنا الأولون . . وكأن العذاب هو الحاضر والدنيا هي الماضي الذي يذكر للترذيل والتقبيح . ترذيل حالهم في الدنيا وتقبيح ما كانوا عليه من تكذيب !

وبهذا ينتهي الشوط الأول من السورة . ويبدأ شوط جديد يعالج قضية العقيدة كلها , متوخيا توكيد قضية البعث التي هي موضوع السورة الأ ول ; بلمسات مؤثرة , يأخذ مادتها وموضوعها مما يقع تحت حس البشر , في حدود المشاهدات التي لا تخلو منها تجربة إنسان , أيا كانت بيئته , ودرجة معرفته وتجربته .

يعرض نشأتهم الأولى من مني يمنى . ويعرض موتهم ونشأة آخرين مثلهم من بعدهم في مجال التدليل على النشأة الأخرى , التي لا تخرج في طبيعتها ويسرها عن النشأة الأولى , التي يعرفونها جميعا .

ويعرض صورة الحرث والزرع , وهو إنشاء للحياة في صورة من صورها . إنشاؤها بيد الله وقدرته . ولو شاء الله لم تنشأ , ولو شاء لم تؤت ثمارها .

ويعرض صورة الماء العذب الذي تنشأ به الحياة كلها . وهو معلق بقدرة الله ينزله من السحائب . ولو شاء جعله ملحا أجاجا , لا ينبت حياة , ولا يصلح لحياة .

وصورة النار التي يوقدون , وأصلها الذي تنشأ منه . . الشجر . . وعند ذكر النار يلمس وجدانهم منذرا . ويذكرهم بنار الآخرة التي يشكون فيها .

وكلها صور من مألوفات حياتهم الواقعة , يلمس بها قلوبهم , ولا يكلفهم فيها إلا اليقظة ليد الله وهي تنشئها وتعمل فيها .

كذلك يتناول هذا الشوط قضية القرآن الذي يحدثهم عن "الواقعة " فيشكون في وعيده . فيلوح بالقسم بمواقع النجوم , ويعظم من أمر هذا القسم لتوكيد أن هذا الكتاب هو قرآن كريم في كتاب مكنون لا يمسه إلا المطهرون , وأنه تنزيل من رب العالمين .

ثم يواجههم في النهاية بمشهد الاحتضار . في لمسة عميقة مؤثرة .

حين تبلغ الروح الحلقوم , ويقف صاحبها على حافة العالم الآخر ; ويقف الجميع مكتوفي الأيدي عاجزين , لا يملكون له شيئا , ولا يدرون ما يجري حوله , ولا ما يجري في كيانه . ويخلص أمره كله لله , قبل أن يفارق هذه الحياة . ويرى هو طريقه المقبل , حين لا يملك أن يقول شيئا عما يرى ولا أن يشير !

ثم تختم السورة بتوكيد الخبر الصادق , وتسبيح الله الخالق:(إن هذا لهو حق اليقين . فسبح باسم ربك العظيم). . فيلتئم المطلع والختام أكمل التئام . .

سورة الحديد

هذه السورة بجملتها دعوة للجماعة الإسلامية كي تحقق في ذاتها حقيقة إيمانها . هذه الحقيقة التي تخلص بها النفوس لدعوة الله ; فلا تضن عليها بشيء , ولا تحتجز دونها شيئا . . لا الأرواح ولا الأموال ; ولا خلجات القلوب ولا ذوات الصدور . . وهي الحقيقة التي تستحيل بها النفوس ربانية بينما تعيش على الأرض . موازينها هي موازين الله , و القيم التي تعتز بها وتسابق إليها هي القيم التي تثقل في هذه الموازين . كما أنها هي الحقيقة التي تشعر القلوب بحقيقة الله , فتخشع لذكره , وترجف وتفر من كل عائق وكل جاذب يعوقها عن الفرار إليه .

وعلى أساس هذه الحقيقة الكبيرة تدعو السورة الجماعة الإسلامية إلى البذل في سبيل الله . بذل النفس وبذل المال:(آمنوا بالله ورسوله وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه . فالذين آمنوا منكم وأنفقوا لهم أجر كبير , وما لكم لا تؤمنون بالله والرسول يدعوكم لتؤمنوا بربكم وقد أخذ ميثاقكم إن كنتم مؤمنين . هو الذي ينزل على عبده آيات بينات

ليخرجكم من الظلمات إلى النور , وإن الله بكم لرؤوف رحيم . وما لكم أ لا تنفقوا في سبيل الله , ولله ميراث السماوات والأرض . لا يستوي منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل أولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا . وكلا وعد الله الحسنى . والله بما تعملون خبير).

وعلى أساس هذه الحقيقة الكبيرة كذلك تدعو الجماعة الإسلامية إلى الخشوع لذكر الله وللحق الذي أنزله الله ليجيء البذل ثمرة لهذا الخشوع المنبعث من الحقيقة الإيمانية الأولى:(ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق , ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل , فطال عليهم الأمد , فقست قلوبهم , وكثير منهم فاسقون). .

وكذلك تضع قيم الدنيا وقيم الآخرة في ميزان الحق ; وتدعو الجماعة ا لإسلامية لاختيار الكفة الراجحة , والسباق إلى القيمة الباقية:(اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر في الأموال والأ ولاد , كمثل غيث أعجب الكفار نباته , ثم يهيج فتراه مصفرا , ثم يكون حطاما . وفي الآخرة عذاب شديد , ومغفرة من الله ورضوان . وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور:سابقوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها كعرض السماء والأرض أعدت للذين آمنوا بالله ورسله . ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم). .

وظاهر من سياق السورة - إلى جانب عمومية الدعوة الدائمة إلى تلك الحقيقة - أنها كانت تعالج كذلك حالة واقعة في الجماعة الإسلامية عند نزول هذه السورة في المجتمع المدني في فترة تمتد من العام الرابع الهجري إلى ما بعد فتح مكة .

فإلى جانب السابقين من المهاجرين والأنصار , الذين ضربوا أروع مثال عرفته البشرية , في تحقيق حقيقة الإيمان في نفوسهم , وفي البذل و التضحية بأرواحهم وأموالهم , في خلوص نادر , وتجرد كامل , وانطلا قمن أوهاق الأرض وجوانب الغريزة ومعوقات الطريق إلى الله . . .

إلى جانب هذه الفئة الممتازة الفذة , كانت هناك - في الجماعة الإسلامية - فئة أخرى ليست في هذا المستوى الإيماني الخالص الرفيع - وبخاصة بعد الفتح عندما ظهر الإسلام , ودخل فيه الناس أفواجا , وكان من بينهم من لم يدركوا بعد حقيقة الإيمان الكبيرة , ولم يعيشوا بها ولها كما عاشت تلك الفئة السابقة الخالصة المخلصة لله .

هؤلاء المسلمون من الفئة الأخرى كان يصعب عليهم البذل في سبيل الله ; وتشق عليهم تكاليف العقيدة في النفس والمال ; وتزدهيهم قيم الحياة الدنيا وزينتها ; فلا يستطيعون الخلاص من دعائها وإغرائها .

وهؤلاء - بصفة خاصة - هم الذين تهتف بهم هذه السورة تلك الهتافات الموحية التي أسلفنا نماذج منها , لتخلص أرواحهم من تلك الأوهاق و الجواذب , وترفعها إلى مستوى الحقيقة الإيمانية الكبرى , التي تصغر معها كل قيم الأرض , وتذوب في حرارتها كل عوائقها !

كذلك كانت هنالك طائفة أخرى - غير هؤلاء وأولئك - هي طائفة المنافقين , مختلطة غير متميزة . وبخاصة حين ظهرت غلبة الإسلام , واضطر المنافقون إلى التخفي والإنزواء ; مع بقاء قلوبهم مشوبة غير خالصة ولا مخلصة يتربصون الفرص وتجرفهم الفتن . وهؤلاء تصور السورة مصيرهم يوم يميزون ويعزلون عن المؤمنين:(يوم ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم . بشراكم اليوم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها . ذلك هو الفوز العظيم . يوم يقول المنافقون والمنافقات للذين آمنوا:انظرونا نقتبس من نوركم . قيل:ارجعوا وراءكم فالتمسوا نورا . فضرب بينهم بسور له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب , ينادونهم:ألم نكن معكم ? قالوا بلى ! ولكنكم فتنتم أنفسكم وتربصتم وارتبتم وغرتكم الأماني , حتى جاء أمر الله , وغركم بالله الغرور . فاليوم لا يؤخذ منكم فدية ولا من الذين كفروا , مأواكم النار هي مولاكم . وبئس المصير). .

وهذا إلى جانب من بقي في الجزيرة من أهل الكتاب من اليهود و

النصارى . والسورة تشير إلى شيء من أحوالهم ومواقفهم السابقة و الحاضرة في ذلك الأوان ; كالإشارة السابقة إلى قسوة قلوبهم عند تحذير الذين آمنوا أن يكونوا (كالذين أوتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم). . وهي إشارة إلى اليهود خاصة في الغالب . . وكا لإشارة إلى النصارى قرب نهاية السورة في قوله:(ثم قفينا على آثارهم برسلنا وقفينا بعيسى ابن مريم وآتيناه الإنجيل , وجعلنا في قلوب الذين اتبعوه رأفة ورحمة ورهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم إلا ابتغاء رضوان الله . فما رعوها حق رعايتها . فآتينا الذين آمنوا منهم أجرهم , وكثير منهم فاسقون). .

ولما كان مدار السورة على تحقيق حقيقة الإيمان في القلب ; وما ينبثق عن هذه الحقيقة من خشوع وتقوى , ومن خلوص وتجرد , ومن بذل وتضحية , فقد سارت في إقرار هذه الحقيقة في النفوس التي كانت تواجهها - والتي توجد في كل مجتمع إسلامي - على نسق مؤثر , أشبه ما يكون بنسق السور المكية , حافل بالمؤثرات ذات الإيقاع الآسر للقلب والحس والمشاعر !

وكان مطلعها خاصة مجموعة إيقاعات بالغة التأثير ; تواجه القلب البشري بمجموعة من صفات الله سبحانه . فيها تعريف به مع الإيحاء الآ سر بالخلوص له , نتيجة للشعور بحقيقة الألوهية المتفردة , وسيطرتها المطلقة على الوجود , ورجعة كل شيء إليها في نهاية المطاف , مع نفاذ علمها إلى خبايا القلوب وذوات الصدور , واتجاه كل شيء إليها بالعبادة والتسبيح: (سبح لله ما في السماوات والأرض . وهو العزيز الحكيم . له ملك السماواتوالأرض يحيي ويميت وهو على كل شيء قدير . هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم . هو الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام , ثم استوى على العرش , يعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها , وما ينزل من السماء وما يعرج فيها , وهو معكم أينما كنتم والله بما تعملون بصير . له ملك السماوات والأرض وإلى الله ترجع الأمور . يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل , وهو عليم بذات

الصدور). .

وهذا المطلع بذاته وبإيقاعاته كاف وحده ليهز القلوب هزا . ويوقع فيها الرهبة والخشية والارتعاش , كما يوقع فيها الرغبة الحية في الخلوص لله والالتجاء إليه , والتجرد من العوائق والأثقال المعوقة عن تلبية الهتاف إلى الخلاص من الشح بالأنفس والأموال . ولكن سياق السورة تضمن كثيرا من المؤثرات تتخلل ذلك الهتاف وتؤكده في مواضع شتى . كتلك الصورة الوضيئة للمؤمنين والمؤمنات (يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم). . وتلك الصورة التي تقرر ضآلة الحياة الدنيا وقيمها إلى جانب قيم الآخرة وما يتم فيها من الأمور الكبار .

كذلك جاءت لمسة أخرى ترد القلوب إلى حقيقة القدر المسيطرة على الوجود: ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلا في كتاب من قبل أن نبرأها . إن ذلك على الله يسير . لكي لا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم . والله لا يحب كل مختال فخور . الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل , ومن يتول فإن الله هو الغني الحميد . . كي تستقر النفس وتطمئن لما يصيبها من خير أو شر , وهي في طريقها إلى الله . فلا تطير جزعا , ولا تبطر فرحا , وهي تواجه الضراء والسراء . ولا تشرك بالله سببا ولا ظرفا ولا حادثا . فكله بقدر مقسوم لأجل معلوم . ومرد الأمر كله في النهاية إلى الله .

سورة المجادلة

نحن في هذه السورة - وفي هذا الجزء كله تقريبا - مع أحداث السيرة في المجتمع المدني . مع الجماعة المسلمة الناشئة ; حيث تربى وتقوم , وتعد للنهوض بدورها العالمي , بل بدورها الكوني , الذي قدره الله لها في دورة هذا الكون ومقدراته . وهو دور ضخم يبدأ من إنشاء تصور

جديد كامل شامل لهذه الحياة , في نفوس هذه الجماعة , وإقامة حياة واقعية على أساس هذا التصور , ثم تحمله هذه الجماعة إلى العالم كله لتنشئ للبشرية حياة إنسانية قائمة على أساس هذا التصور كذلك . . وهو دور ضخم إذن يقتضي إعدادا كاملا .

ولقد كان أولئك المسلمون الذين يعدهم القدر لهذا الدور الضخم , ناسا من الناس . منهم السابقون من المهاجرين والأنصار الذين نضج إيمانهم , واكتمل تصورهم للعقيدة الجديدة , وخلصت نفوسهم لها , ووصلوا . . وصلوا إلى حقيقة وجودهم وحقيقة هذا الوجود الكبير ; واندمجت حقيقتهم مع حقيقة الوجود , فأصبحوا بهذا طرفا من قدر الله في الكون ; لا يجدون في أنفسهم عوجا عنه , ولا يجدون في خطاهم تخلفا عن خطاه , ولا يجدون في قلوبهم شيئا إلا الله . . كانوا كما جاء عنهم في هذه السورة:(لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله , ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم . أولئك كتب في قلوبهم الإيمان , وأيدهم بروح منه , ويدخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها . رضي الله عنهم ورضوا عنه . أولئك حزب الله . ألا إن حزب الله هم المفلحون). .

ولكن هؤلاء السابقين كانوا قلة بالقياس إلى الجماعة المسلمة المتزايدة العدد - وبخاصة بعد أن أصبح الإسلام قوة ترهب - حتى قبل الفتح - ودخل فيه من لم يتلق من التربية الإسلامية القسط الكافي , ولم يتنفس في الجو الإسلامي فترة طويلة . كما دخل فيه من المنافقين من آثر المصلحة أو العافية على دخل في القلوب , وتربص بالفرص , وذبذبة بين المعسكر الإسلامي والمعسكرات القوية المناوئة له في ذلك الحين . سواء معسكرات المشركين أو اليهود ! ولقد اقتضت تربية النفوس وإعدادها للدور الكوني الكبير المقدر لها في الأرض جهودا ضخمة , وصبرا طويلا , وعلاجا بطيئا , في صغار الأمور وفي كبارها . . كانت حركة بناء هائلة هذه التي قام بها الإسلام , وقام بها رسول الإسلام [ص] بناء النفوس التي تنهض ببناء المجتمع الإسلامي والدولة الإسلامية ,

وتقوم على منهج الله , تفهمه وتحققه , وتنقله إلى أطراف الأرض في صورة حية متحركة , لا في صحائف وكلمات .

ونحن نشهد في هذه السورة - وفي هذا الجزء كله - طرفا من تلك الجهود الضخمة , وطرفا من الأسلوب القرآني كذلك في بناء تلك النفوس , وفي علاج الأحداث والعادات والنزوات ; كما نشهد جانبا من الصراع الطويل بين الإسلام وخصومه المختلفين من مشركين ويهود ومنافقين .

وفي هذه السورة بصفة خاصة نشهد صورة موحية من رعاية الله للجماعة الناشئة ; وهو يصنعها على عينه , ويربيها بمنهجه , ويشعرها برعايته , ويبني في ضميرها الشعور الحي بوجوده - سبحانه - معها في أخص خصائصها , وأصغر شؤونها , وأخفى طواياها ; وحراسته لها من كيد أعدائها خفيه وظاهره ; وأخذها في حماه وكنفه , وضمها إلى لوائه وظله ; وتربية أخلاقها وعاداتها وتقاليدها تربية تليق بالجماعة التي تنضوي إلى كنف الله , وتنتسب إليه , وتؤلف حزبه في الأرض , وترفع لواءه لتعرف به في الأرض جميعا .

ومن ثم تبدأ السورة بصورة عجيبة من صور هذه الفترة الفريدة في تاريخ البشرية . فترة اتصال السماء بالأرض في صورة مباشرة محسوسة , ومشاركتها في الحياة اليومية لجماعة من الناس مشاركة ظاهرة:(قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها وتشتكي إلى الله , و الله يسمع تحاوركما إن الله سميع بصير). . فنشهد السماءتتدخل في شأن يومي لأسرة صغيرة فقيرة مغمورة , لتقرر حكم الله في قضيتها , وقد سمع - سبحانه - للمرأة وهي تحاور رسول الله فيها , ولم تكد تسمعها عائشة وهي قريبة منها ! وهي صورة تملأ القلب بوجود الله وقربه وعطفه ورعايته .

يليها في سياق السورة توكيد أن الذين يحادون الله ورسوله - وهم أعداء الجماعة المسلمة التي تعيش في كنف الله - مكتوب عليهم الكبت

والقهر في الأرض , والعذاب المهين في الآخرة , مأخوذون بما عملوا مما أحصاه الله عليهم , ونسوه هم وهم فاعلوه !(والله على كل شيء شهيد). .

ثم توكيد وتذكير بحضور الله - سبحانه - وشهوده لكل نجوى في خلوة , يحسب أصحابها أنهم منفردون بها . والله معهم أينما كانوا: (ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة , إن الله بكل شيء عليم). . وهي صورة تملأ القلب كذلك بوجود الله وحضوره , كما تملؤه برقابته واطلاعه .

وهذا التوكيد مقدمة لتهديد الذين يتناجون في خلواتهم لتدبير المكايد للمسلمين , وملء قلوبهم بالحزن والهم والتوجس . تهديد بأن أمرهم مكشوف , وأن عين الله مطلعة عليهم , ونجواهم بالإثم والعدوان ومعصية الرسول مسجلة , وأن الله آخذهم بها ومعذبهم عليها . ونهي للمسلمين عن التناجي بغير البر والتقوى , وتربية نفوسهم وتقويمها بهذا الخصوص .

ثم يستطرد في تربية هذه النفوس المؤمنة ; فيأخذها بأدب السماحة وبالطاعة في مجلس رسول الله [ص] ومجالس العلم والذكر . كما يأخذها بأدب السؤال والحديث مع الرسول [ص] والجد في هذا الأمر والتوقير .

أما بقية السورة بعد هذا فتنصرف إلى الحديث عن المنافقين الذين يتولون اليهود ; ويتآمرون معهم , ويدارون تآمرهم بالكذب والحلف للرسول وللمؤمنين . وتصورهم في الآخرة كذلك حلافين كذابين ; يتقون بالحلف والكذب ما يواجههم من عذاب الله , كما كانوا يتقون بهما في الدنيا ما يواجههم من غضب رسول الله والمؤمنين ! مع توكيد أن الذين يحادون الله ورسوله كتب الله عليهم أنهم في الأذلين وأنهم هم ا لأخسرون . كما كتب أنه ورسله هم الغالبون . وذلك تهوينا لشأنهم , الذي كان بعض المنتسبين إلى الإسلام - وبعض المسلمين - يستعظمه , فيحافظ على مودته معهم , ولا يدرك ضرورة تميز الصف المسلم تحت

راية الله وحدها , والاعتزاز برعاية الله وحده , والاطمئنان إلى حراسته الساهرة للفئة التي يصنعها على عينه , ويهيئها لدورها الكوني المرسوم .

وفي ختام السورة تجيء تلك الصورة الوضيئة لحزب الله . هذه الصورة التي كان يمثلها بالفعل أولئك السابقون من المهاجرين والأنصار . والتي كانت الآية الكريمة تشير لها كي ينتهي إليها أولئك الذين ما زالوا بعد في الطريق !

(لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله . الخ الآية . . . كما وردت في أول هذا التقديم .)

سورة الحشر

نزلت هذه السورة في حادث بني النضير - حي من أحياء اليهود - في السنة الرابعة من الهجرة . تصف كيف وقع ? ولماذا وقع ? وما كان في أعقابه من تنظيمات في الجماعة الإسلامية . . ترويها بطريقة القرآن الخاصة , وتعقب على الأحداث والتنظيمات بطريقة القرآن كذلك في تربية تلك الجماعة تربية حية بالأحداث والتوجيهات والتعقيبات .

وقبل أن نستعرض النصوص القرآنية في السورة , نعرض شيئا مما ذكرته الروايات عن ذلك الحادث الذي نزلت السورة بشأنه ; لنرى ميزة العرض القرآني , وبعد آماده وراء الأحداث التي تتنزل بشأنها النصوص , فتفي بمقتضيات الأحداث , وتمتد وراءها وحولها في مجالات أوسع وأشمل من مقتضيات تلك الأحداث المحدودةبالزمان والمكان .

كانت وقعة بني النضير في أوائل السنة الرابعة من الهجرة بعد غزوة أحد وقبل غزوة الأحزاب . ومما يذكر عنها أن رسول الله [ص] ذهب مع عشرة من كبار أصحابه منهم أبو بكر وعمر وعلي - رضي الله عنهم -

إلى محلة بني النضير , يطلب منهم المشاركة في أداء دية قتيلين بحكم ما كان بينه وبينهم من عهد في أول مقدمه على المدينة . فاستقبله يهود بني النضير بالبشر والترحاب ووعدوا بأداء ما عليهم , بينما كانوا يدبرون أمرا لاغتيال رسول الله [ص] ومن معه . وكان [ص] جالسا إلى جدار من بيوتهم . فقال بعضهم لبعض:إنكم لن تجدوا الرجل على مثل حاله هذه . فمن رجل منكم يعلو هذا البيت , فيلقي عليه صخرة , فيريحنا منه ؟ فانتدب لذلك عمرو بن جحاش بن كعب . فقال:أنا لذلك . فصعد ليلقي عليه صخرة كما قال . فألهم رسول الله [ص] ما يبيت اليهود من غدر . فقام كأنما ليقضي أمرا . فلما غاب استبطأه من معه , فخرجوا من المحلة يسألون عنه , فعلموا أنه دخل المدينة .

وأمر رسول الله [ص] بالتهيؤ لحرب بني النضير لظهور الخيانة منهم , ونقض عهد الأمان الذي بينه وبينهم . وكان قد سبق هذا إقذاع كعب بن الأشرف - من بني النضير - في هجاء رسول الله [ص] وتأليبه الأعداء عليه . وما قيل من أن كعبا ورهطا من بني النضير اتصلوا بكفار قريش اتصال تآمر وتحالف وكيد ضد النبي [ص] مع قيام ذلك العهد بينهم وبينه . مما جعل رسول الله [ص] يأذن لمحمد بن مسلمة في قتل كعب بن الأشرف . فقتله .

فلما كان التبييت للغدر برسول الله في محلة بني النضير لم يبق مفر من نبذ عهدهم إليهم . وفق القاعدة الإسلامية:(وإما تخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء إن الله لا يحب الخائنين) . فتجهز رسول الله [ص] وحاصر محلة بني النضير , وأمهلهم ثلاثة أيام - وقيل عشرة - ليفارقوا جواره ويجلوا عن المحلة على أن يأخذوا أموالهم , ويقيموا وكلاء عنهم على بساتينهم ومزارعهم . ولكن المنافقين في المدينة - وعلى رأسهم عبدالله بن أبي بن سلول رأس النفاق - أرسلوا إليهم يحرضونهم على الرفض والمقاومة , وقالوا لهم:أن اثبتوا وتمنعوا فإنا لن نسلمكم . وإن قوتلتم قاتلنا معكم , وإن أخرجتم خرجنا معكم .

وفي هذا يقول الله تعالى:(ألم تر إلى الذين نافقوا يقولون لإخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب:لئن أخرجتم لنخرجن معكم ولا نطيع فيكم أحدا أبدا , وإن قوتلتم لننصرنكم والله يشهد إنهم لكاذبون . لئن أخرجوا لا يخرجون معهم , ولئن قوتلوا لا ينصرونهم , ولئن نصروهم ليولن الأ دبار ثم لا ينصرون . لأنتم أشد رهبة في صدورهم من الله , ذلك بأنهم قوم لا يفقهون . . .).

فتحصن اليهود في الحصون ; فأمر رسول الله [ص] بقطع نخيلهم و التحريق فيها . فنادوه:أن يا محمد قد كنت تنهى عن الفساد وتعيبه على من صنعه:فما بال قطع النخيل وتحريقها ? وفي الرد عليهم نزل قوله تعالى:(ما قطعتم من لينة أو تركتموها قائمة على أصولها فبإذن الله وليخزي الفاسقين). .

ولما بلغ الحصار ستا وعشرين ليلة , يئس اليهود من صدق وعد المنافقين لهم , وقذف الله في قلوبهم الرعب , فسألوا رسول الله [ص] أن يجليهم ويكف عن دمائهم , كما سبق جلاء بني قينقاع - وقد ذكرنا سببه وظروفه في تفسير سورة الأحزاب في الجزء الحادي والعشرين - على أن لهم ما حملت الإبل من أموالهم

هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ (2) وَلَوْلَا أَن كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاء لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ (3) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَن يُشَاقِّ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (4)

إلا السلاح . فأجابهم رسول الله [ص] فاحتملوا من أموالهم ما استقلت به الإبل . فكان الرجل منهم يهدم بيته عن خشبة بابه فيحمله على ظهر

بعيره ; أو يخربه حتى لا يقع في أيدي المسلمين ; وكان المسلمون قد هدموا وخربوا بعض الجدران التي اتخذت حصونا في أيام الحصار .

وفي هذا يقول الله في هذه السورة:(هو الذي أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لأول الحشر ما ظننتم أن يخرجوا وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله , فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا , وقذف في قلوبهم الرعب , يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين , فاعتبروا يا أولي الأبصار . ولولا أن كتب الله عليهم الجلاء لعذبهم في الدنيا ولهم في الآخرة عذاب النار . ذلك بأنهم شاقوا الله ورسوله ومن يشاق الله فإن الله شديد العقاب). .

وكان منهم من سار إلى خيبر , ومنهم من سار إلى الشام . وكان من أشرافهم ممن سار إلى خيبر سلام بن أبي الحقيق , وكنانة بن الربيع بن أبي الحقيق , وحي بن أخطب , ممن ورد ذكرهم بعد ذلك في تأليب المشركين على المسلمين في غزوة الأحزاب ووقعة بني قريظة "في سورة الأحزاب" وكان لبعضهم كذلك ذكر في فتح خيبر "في سورة الفتح" .

وكانت أموال بني النضير فيئا خالصا لله وللرسول ; لم يوجف المسلمون عليه بخيل ولا جمال . فقسمها رسول الله [ص] على المهاجرين خاصة دون الأنصار عدا رجلين من الأنصار فقيرين هما سهل بن حنيف , وأبو دجانة سماك بن خرشة . وذلك أن المهاجرين لم يكن لهم مال بعد الذي تركوه في مكة وتجردوا منه كله لعقيدتهم . وكان الأنصار قد أنزلوهم دورهم وشاركوهم مالهم في أريحية عالية , وأخوة صادقة , وإيثار عجيب . فلما واتت هذه الفرصة سارع رسول الله [ص] لإقامة الأ وضاع الطبيعية في المجتمع الإسلامي , كي يكون للفقراء مال خاص , وكي لا يكون المال متداولا في الأغنياء وحدهم . ولم يعط من الأنصار إ لا الفقيرين اللذين يستحقان لفقرهما . .

وتكلم في أموال بني النضير بعض من تكلم - والراجح أنهم من

المنافقين - فقال تعالى:(وما أفاء الله على رسوله منهم فما أوجفتم عليه من خيل ولا ركاب , ولكن الله يسلط رسله على من يشاء والله على كل شيء قدير). .

وقال رسول الله [ص] للأنصار:" إن شئتم قسمتم للمهاجرين من أموالكم ودياركم وشاركتموهم في هذه الغنيمة . وإن شئتم كانت لكم دياركم وأموالكم , ولم يقسم لكم شيء من الغنيمة " فقالت الأنصار:بل نقسم من أموالنا وديارنا ونؤثرهم بالغنيمة ولا نشاركهم فيها .

وفي هذا نزل قوله تعالى: للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلا من الله ورضوانا , وينصرون الله ورسوله , أولئك هم الصادقون . والذين تبوؤوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا , ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة . ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون .

فهذا هو الحادث الذي نزلت فيه هذه السورة , وتعلقت به نصوصها , بما في ذلك خاتمة السورة التي يتوجه فيها الخطاب للذين آمنوا ممن شهدوا هذا الحادث وممن يعرفونه بعد ذلك . على طريقة القرآن في تربية النفوس بالأحداث وبالتعقيب عليها , وربطها بالحقائق الكلية الكبيرة . . ثم الإيقاع الأخير في السورة بذكر صفات الله الذي يدعو الذين آمنوا ويخاطبهم بهذا القرآن . وهي صفات ذات فاعلية وأثر في هذا الكون ; وعلى أساستصور حقيقتها يقوم الإيمان الواعي المدرك البصير .

وتبدأ السورة وتختتم بتسبيح الله الذي له ما في السماوات والأرض وهو العزيز الحكيم . فيتناسق البدء والختام مع موضوع السورة , ومع دعوة المؤمنين للتقوى والخشوع والتفكر في تدبير الله الحكيم .

هذه السورة حلقة في سلسلة التربية الإيمانية والتنظيم الاجتماعي و الدولة في المجتمع المدني . حلقة من تلك السلسلة الطويلة , أو من ذلك المنهج الإلهي المختار للجماعة المسلمة المختارة , التي ناط بها الله تحقيق منهجه الذي يريده للحياة الإنسانية , في صورة واقعية عملية , كيما يستقر في الأرض نظاما ذا معالم وحدود وشخصية مميزة ; تبلغ إليه البشرية أحيانا , وتقصر عنه أحيانا , ولكنها تبقى معلقة دائما بمحاولة بلوغه ; وتبقى أمامها صورة واقعية منه , تحققت يوما في هذه الأرض .

وقد اقتضى هذا - كما قلنا في أول هذا الجزء - إعدادا طويلا في خطوات ومراحل . وكانت الأحداث التي تقع في محيط هذه الجماعة , أو تتعلق بها , مادة من مواد هذا الإعداد . مادة مقدرة في علم الله , تقوم عليها مادة أخرى هي التفسير والتوضيح والتعقيب والتوجيه .

وفي مضطرب الأحداث , وفي تيار الحياة المتدفق , تمت عملية بناء النفوس المختارة لتحقيق ذلك المنهج الإلهي في الأرض . فلم تكن هناك عزلة إلا العزلة بالتصور الإيماني الجديد , وعدم خلطه بأية رقع غريبة عنه في أثناء التكوين النفسي لهذه الجماعة . وكانت التربية المستمرة متجهة دائما إلى إنشاء هذا التصور الإيمانيالخاص المميز , المنعزل بحقيقته وطبيعته عن التصورات السائدة في العالم كله يومذاك , وفي الجزيرة العربية بصفة خاصة . أما الناس الذين ينشأ هذا التصور المتميز في نفوسهم فلم يكونوا بمعزل عن واقع الحياة ومضطرب الأحداث , بل كانوا يصهرون في بوتقة الحوادث يوما بعد يوم , ومرة بعد مرة , ويعاد صهرهم في الأمر الواحد والخلق الواحد مرات كثيرة , وتحت مؤثرات متنوعة ; لأن الله الذي خلق هذه النفوس يعلم أنها ليست كلها مما يتأثر ويستجيب ويتكيف ويستقر على ما تكيف به منذ اللمسة الأولى . وكان يعلم أن رواسب الماضي , وجواذب الميول الطبيعية , والضعف البشري ,

وملامسات الواقع , وتحكم الإلف والعادة , كلها قد تكون معوقات قوية تغلب عوامل التربية والتوجيه مرة بعد مرة . وتحتاج في مقاومتها إلى التذكير المتكرر , والصهر المتوالي . . فكانت الأحداث تتوالى كما هي منسوقة في قدر الله , وتتوالى الموعظة بها . والتحذير على ضوئها , و التوجيه بهديها , مرة بعد مرة .

وكان رسول الله [ص] يقوم في يقظة دائمة وإلهام بصير , بالتقاط الأ حداث والوقائع والمناسبات في كل فرصة , واستخدامها بحكمة بالغة في بناء هذه النفوس . والوحي والإلهام يؤيدانه ويسددانه [ص] حتى تصنع تلك الجماعة المختارة على عين الله . بتوفيق الله . على يدي رسول الله .

هذه السورة حلقة في سلسلة ذلك الإعداد الطويل , تستهدف - مع غيرها مما جاء في مثل موضوعها - إقامة عالم رباني خالص في ضمير المسلم . عالم محوره الإيمان بالله وحده , يشد المسلمين إلى هذا المحور وحده , بعروة واحدة لا انفصام لها ; ويبرئ نفوسهم من كل عصبية أخرى . عصبية للقوم أو للجنس أو للأرض أو للعشيرة أو للقرابة . ليجعل في مكانها جميعا عقدة واحدة . هي عقدة الإيمان ب الله . والوقوف تحت راية الله . في حزب الله .

إن العالم الذي يريده الإسلام عالم رباني إنساني . رباني بمعنى أنه يستمد كل مقوماته من توجيه الله وحكمه , ويتجه إلى الله بكل شعوره وعمله . وإنساني بمعنى أنه يشمل الجنس الإنساني كله - في رحاب العقيدة - وتذوب فيه فواصل الجنس والوطن واللغة والنسب . وسائر ما يميز إنسانا عن إنسان , عدا عقيدة الإيمان . وهذا هو العالم الرفيع اللائق أن يعيش فيه الإنسان الكريم على الله , المتضمن كيانه نفحة من روح الله .

ودون إقامة هذا العالم تقف عقبات كثيرة - كانت في البيئة العربية وما تزال في العالم كله إلى اليوم - عقبات من التعصب للبيت , والتعصب

للعشيرة , والتعصب للقوم , والتعصب للجنس , والتعصب للأرض . كما تقف عقبات أخرى من رغائب النفوس وأهواء القلوب , من الحرص و الشح وحب الخير للذات , ومن الكبرياء الذاتية والالتواءات النفسية . . وألوان غيرها كثير من ذوات الصدور !

وكان على الإسلام أن يعالج هذا كله في الجماعة التي يعدها لتحقيق منهج الله في الأرض في صورة عملية واقعة . وكانت هذه الصورة حلقة في سلسلة هذا العلاج الطويل .

وكان بعض المهاجرين الذين تركوا ديارهم وأموالهم وأهليهم في سبيل عقيدتهم , ما تزال نفوسهم مشدودة إلى بعض من خلفوا هنالك من ذرية وأزواج وذوي قربى . وعلى الرغم من كل ما ذاقوا من العنت والأذى في قريش فقد ظلت بعض النفوس تود لو وقعت بينهم وبين أهل مكة المحاسنة والمودة ; وأن لو انتهت هذه الخصومة القاسية التي تكلفهم قتال أهليهم وذوي قرابتهم , وتقطع ما بينهم وبينهم من صلات !

وكان الله يريد استصفاء هذه النفوس واستخلاصها من كل هذه الوشائج , وتجريدها لدينه وعقيدته ومنهجه .وهو - سبحانه - يعلم ثقل الضغط الواقع عليها من الميول الطبيعية ورواسب الجاهلية جميعا - وكان العرب بطبيعتهم أشد الناس احتفالا بعصبية القبيلة والعشيرة و البيت - فكان يأخذهم يوما بعد يوم بعلاجه الناجع البالغ , بالأحداث وبالتعقيب على الأحداث , ليكون العلاج على مسرح الحوادث وليكون الطرق والحديد ساخن !

وتذكر الروايات حادثا معينا نزل فيه صدر هذه السورة . وقد تكون هذه الروايات صحيحة في سبب النزول المباشر . ولكن مدى النصوص القرآنية دائما أبعد من الحوادث المباشرة .

وقد قيل في هذا الحادث:إن حاطب بن أبي بلتعة كان رجلا من المهاجرين . وكان من أهل بدر أيضا . وكان له بمكة أولاد ومال , ولم

يكن من قريش أنفسهم بل كان حليفا لعثمان . فلما عزم رسول الله [ص] على فتح مكة لما نقض أهلها عهد الحديبية أمر المسلمين بالتجهيز لغزوهم , وقال:" اللهم عم عليهم خبرنا " . . وأخبر رسول الله [ص] جماعة من أصحابه بوجهته , كان منهم حاطب . فعمد حاطب فكتب كتابا وبعثه مع امرأة مشركة - قيل من مزينة - جاءت المدينة تسترفد - إلى أهل مكة يعلمهم بعزم رسول الله [ص] على غزوهم , ليتخذ بذلك عندهم يدا . فأطلع الله - تعالى - رسوله على ذلك استجابة لدعائه . وإمضاء لقدره في فتح مكة . فبعث في أثر المرأة , فأخذ الكتاب منها .

وقد روى البخاري في المغازي , ورواه مسلم في صحيحه من حديث حصين بن عبدالرحمن , عن سعد ابن عبيدة عن أبي عبدالرحمن السلمي , عن علي - رضي الله عنه - قال:"بعثني رسول الله [ص] وأبا مرثد والزبير بن العوام - وكلنا فارس - وقال:" انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ , فإن بها امرأة من المشركين معها كتاب من حاطب بن أبي بلتعة إلى المشركين " . فأدركناها تسير على بعير لها حيث قال رسول الله [ص] فقلنا:الكتاب ? فقالت ما معي كتاب . فأنخناها فالتمسنا فلم نر كتابا . فقلنا:ما كذب رسول الله [ص] لتخرجن الكتاب أو لنجردنك . فلما رأت الجد أهوت إلى حجزتها , وهي محتجزة بكساء , فأخرجته . فانطلقنا به إلى رسول الله [ص] فقال عمر:يا رسول الله . قد خان الله ورسوله والمؤمنين , فدعني فلأضربن عنقه . فقال النبي [ص]:" ما حملك على ما صنعت ? " قال حاطب:والله ما بي إلا أن أكون مؤمنا ب الله ورسوله [ص] أردت أن تكون لي عند القوم يد . يدفع الله بها عن أهلي ومالي , وليس أحد من أصحابك إلا له هناك من عشيرته من يدفع الله به عن أهله وماله . فقال:" صدق لا تقولوا إلا خيرا " . فقال عمر:إنه قد خان الله ورسوله والمؤمنين , فدعني فلأضرب عنقه . فقال:" أليس من أهل بدر ? - فقال -:لعل الله اطلع إلى أهل بدر فقال:اعملوا ما شئتم فقد وجبت لكم الجنة - أو - قد غفرت لكم " فدمعت عينا عمر , وقال: الله ورسوله أعلم . . وزاد البخاري في كتاب المغازي:فأنزل الله السورة:

(يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء تلقون إليهم بـ
المودة) . وفي رواية أخرى أن الذين أرسلوا كانوا هم علي والزبير و
المقداد .

ولوقوف قليلا أمام هذا الحادث وما دار بشأنه لا يخرج بنا عن " ظلال القرآن" والتربية به وبالأحداث والتوجيهات والتعقيبات عن طريق رسول الله [ص] القائد المربي العظيم . .

وأول ما يقف الإنسان أمامه هو فعلة حاطب , وهو المسلم المهاجر , وهو أحد الذين أطلعهم رسول الله [ص] على سر الحملة . . وفيها ما يكشف عن منحنيات النفس البشرية العجيبة , وتعرض هذه النفس للحظات الضعف البشري مهما بلغ من كمالها وقوتها ; وأن لا عاصم إلا الله من هذه اللحظات فهو الذي يعين عليها .

ثم يقف الإنسان مرة أخرى أمام عظمة الرسول [ص] وهو لا يعجل حتى يسأل:" ما حملك على ما صنعت " في سعة صدر وعطف على لحظة الضعف الطارئة في نفس صاحبه , وإدراك ملهم بأن الرجل قد صدق , ومن ثم يكف الصحابة عنه:" صدق لا تقولوا إلا خيرا " . . ليعينه وينهضه من عثرته , فلا يطارده بها ولا يدع أحدا يطارده . بينما نجد الإيمان الجاد الحاسم الجازم في شدة عمر:"إنه قد خان الله ورسوله و المؤمنين . فدعني فلأضرب عنقه" . . فعمر - رضي الله عنه - إنما ينظر إلى العثرة ذاتها فيثور لها حسه الحاسم وإيمانه الجازم . أما رسول الله [ص] فينظر إليها من خلال إدراكه الواسع الشامل للنفس البشرية على حقيقتها , ومن كل جوانبها , مع العطف الكريم الملهم الذي تنشئه المعرفة الكلية . في موقف المربي الكريم العطوف المتأني الناظر إلى جميع الملابسات والظروف . .

ثم يقف الإنسان أمام كلمات حاطب , وهو في لحظة ضعفه , ولكن تصوره لقدر الله وللأسباب الأرضية هو التصور الإيماني الصحيح . . ذلك حين يقول:"أردت أن تكون لي عند القوم يد . . يدفع الله بها عن

أهلي ومالي" . . فالله هو الذي يدفع , وهذه اليد لا تدفع بنفسها , إنما يدفع الله بها . ويؤكد هذا التصور في بقية حديثه وهو يقول:"وليس أحد من أصحابك إلا له هناك من عشيرته من يدفع . . الله . . به عن أهله وماله" فهو الله حاضر في تصوره , وهو الذي يدفع لا العشيرة . إنما العشيرة أداة يدفع الله بها . .

ولعل حس رسول الله الملهم قد راعى هذا التصور الصحيح الحي في قول الرجل , فكان هذا من أسباب قوله [ص]:" صدق . لا تقولوا إلا خيرا " . .

وأخيرا يقف الإنسان أمام تقدير الله في الحادث ; وهو أن يكون حاطب من القلة التي يعهد إليها رسول الله [ص] بسر الحملة . وأن تدركه لحظة الضعف البشري وهو من القلة المختارة . ثم يجري قدر الله بكف ضرر هذه اللحظة عن المسلمين . كأنما القصد هو كشفها فقط وعلاجها ! ثم لا يكون من الآخرين الذين لم يعهد إليهم بالسر اعتراض على ما وقع , ولا تنفج بالقول:ها هو ذا أحد من استودعوا السر خانوه , ولو أودعناه نحن ما بحنا به ! فلم يرد من هذا شيء . مما يدل على أدب المسلمين مع قيادتهم , وتواضعهم في الظن بأنفسهم , واعتبارهم بما حدث لأخيهم . . .

والحادث متواتر الرواية . أما نزول هذه الآيات فيه فهو أحد روايات البخاري . ولا نستبعد صحة هذه الرواية ; ولكن مضمون النص القرآني - كما قلنا - أبعد مدى , وأدل على أنه كان يعالج حالة نفسية أوسع من حادث حاطب الذي تواترت به الروايات , بمناسبة وقوع هذا الحادث , على طريقة القرآن .

كان يعالج مشكلة الأواصر القريبة , والعصبيات الصغيرة , وحرص النفوس على مألوفاتها الموروثة ليخرج بها من هذا الضيق المحلي إلى ا لأفق العالمي الإنساني .

وكان ينشيء في هذه النفوس صورة جديدة , وقيما جديدة , وموازين جديدة , وفكرة جديدة عن الكون والحياة والإنسان , ووظيفة المؤمنين في الأرض , وغاية الوجود الإنساني .

وكان كأنما يجمع هذه النبتات الصغيرة الجديدة في كنف الله ; ليعلمهم الله ويبصرهم بحقيقة وجودهم وغايته , وليفتح أعينهم على ما يحيط بهم من عداوات ومكر وكيد , وليشعرهم أنهم رجاله وحزبه , وأنه يريد بهم أمرا , ويحقق بهم قدرا . ومن ثم فهم يوسمون بسمته ويحملون شارته , ويعرفون بهذه الشارة وتلك السمة بين الأقوام جميعا . في الدنيا والآخرة . وإذن فليكونوا خالصين له , منقطعين لولايته , متجردين من كل وشيجة غير وشيجته . في عالم الشعور وعالم السلوك .

والسورة كلها في هذا الاتجاه . حتى الآيات التشريعية التنظيمية الواردة في آخرها عن معاملة المهاجرات المؤمنات , ومبايعة من يدخلن في الإ سلام , والفصل بين المؤمنات وأزواجهن من الكفار . وبين المؤمنين وزوجاتهم من الكوافر . . فكلها تنظيمات منبثقة من ذلك التوجيه العام .

ثم ختام السورة كما بدأت بالنهي عن موالاة أعداء الله , ممن غضب عليهم الله , سواء من المشركين أو من اليهود . ليتم التمييز والانفراد و المفاصلة من جميع الوشائج والروابط غير رابطة العقيدة وغير وشيجة ا لإيمان . .

سورة الصف

هذه السورة تستهدف أمرين أساسيين واضحين في سياقها كل الوضوح , إلى جانب الإشارات والتلميحات الفرعية التي يمكن إرجاعها إلى ذينك الأمرين الأساسيين:

تستهدف أولا أن تقرر في ضمير المسلم أن دينه هو المنهج الإلهي للبشرية في صورته الأخيرة , سبقته صور منه تناسب أطوارا معينة في تاريخ البشرية , وسبقته تجارب في حياة الرسل وحياة الجماعات , تمهد كلها لهذه الصورة الأخيرة من الدين الواحد , الذي أراد الله أن يكون خاتمة الرسالات . وأن يظهره على الدين كله في الأرض . .

ومن ثم يذكر رسالة موسى ليقرر أن قومه الذين أرسل إليهم آذوه وانحرفوا عن رسالته فضلوا , ولم يعودوا امناء على دين الله في الأرض:(وإذ قال موسى لقومه:يا قوم لم تؤذونني وقد تعلمون أني رسول الله إليكم . فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم , والله لا يهدي القوم الفاسقين). . وإذن فقد انتهت قوامة قوم موسى على دين الله ; فلم يعودوا أمناء عليه , مذ زاغوا فأزاغ الله قلوبهم , ومذ ضلوا فأضلهم الله والله لا يهدي القوم الفاسقين .

ويذكر رسالة عيسى ليقرر أنه جاء امتدادا لرسالة موسى , ومصدقا لما بين يديه من التوراة , وممهدا للرسالة الأخيرة ومبشرا برسولها ; ووصلة بين الدين الكتابي الأول والدين الكتابي الأخير: وإذ قال عيسى ابن مريم:يا بني إسرائيل إني رسول الله إليكم , مصدقا لما بين يدي من التوراة , ومبشرا برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد . . وإذن فقد جاء ليسلم أمانة الدين الإلهي التي حملها بعد موسى إلى الرسول الذي يبشر به .

وكان مقررا في علم الله وتقديره أن تنتهي هذه الخطوات إلى قرار ثابت دائم , وأن يستقر دين الله في الأرض في صورته الأخيرة على يدي رسوله الأخير:(هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون).

هذا الهدف الأول الواضح في السورة يقوم عليه الهدف الثاني . فإن شعور المسلم بهذه الحقيقة , وإدراكه لقصة العقيدة , ولنصيبه هو من أمانتها في الأرض . . يستتبع شعوره بتكاليف هذه الأمانة شعورا يدفعه

إلى صدق النية في الجهاد لإظهار دينه على الدين كله - كما أراد الله - وعدم التردد بين القول والفعل ; ويقبح أن يعلن المؤمن الرغبة في الجهاد ثم ينكص عنه , كما يبدو أنه حدث من فريق من المسلمين كما تذكر الروايات . . ومن ثم يجيء في مطلع السورة بعد إعلان تسبيح الكون وما فيه لله . .(يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون ? كبر مقتا عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون . إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفا كأنهم بنيان مرصوص).

ثم يدعوهم في وسط السورة إلى أربح تجارة في الدنيا والآخرة:(يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم ? تؤمنون ب الله ورسوله , وتجاهدون في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم . ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون . يغفر لكم ذنوبكم ويدخلكم جنات تجري من تحتها الأنهار , ومساكن طيبة في جنات عدن , ذلك الفوز العظيم . وأخرى تحبونها:نصر من الله وفتح قريب , وبشر المؤمنين).

ثم يختم السورة بنداء أخير للذين آمنوا , ليكونوا أنصار الله كما كان الحواريون أصحاب عيسى أنصارهإلى الله , على الرغم من تكذيب بني إسرائيل به وعدائهم لله:(يا أيها الذين آمنوا كونوا أنصار الله كما قال عيسى ابن مريم للحواريين:من أنصاري إلى الله ? قال الحواريون:نحن أنصار الله . فآمنت طائفة من بني إسرائيل وكفرت طائفة , فأيدنا الذين آمنوا على عدوهم فأصبحوا ظاهرين). .

هذان الخطان واضحان في السورة كل الوضوح , يستغرقان كل نصوصها تقريبا . فلا يبقى إلا التنديد بالمكذبين بالرسالة الأخيرة - وهذه قصتها وهذه غايتها - وهذا التنديد متصل دائما بالخطين الأساسيين فيها . وذلك قول الله تعالى , عن رسول الله [ص] بعد ذكر تبشير عيسى - عليه السلام - به: (فلما جاءهم بالبينات قالوا:هذا سحر مبين . ومن أظلم ممن افترى على الله الكذب وهو يدعى إلى الإسلام ? والله لا يهدي القوم الظالمين . يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم , والله متم

نوره , ولو كره الكافرون). .

وفيه يتضح في ضمير المسلم أن دينه هو دين الله في صورته الأخيرة في الأرض ; وأن أمانة العقيدة في البشرية كلها موكولة إليه ; يعلم أنه مكلف أن يجاهد في سبيل الله , كما يحب الله ; ويتضح طريقه , فلا يبقى في تصوره غبش , ولا يبقى في حياته مجال للتمتمة والغمغمة في هذه القضية , أو للتردد والتلفت عن الهدف المرسوم والنصيب المقسوم في علم الله وتقديره منذ بعيد .

وفي أثناء توجيهه إلى هذا الهدف الواضح يوجه كذلك إلى خلق المسلم وطبيعة ضميره . وهو أن لا يقول ما لا يفعل , وألا يختلف له قول وفعل , ولا ظاهر وباطن , ولا سريرة وعلانية . وأن يكون هو نفسه في كل حال . متجردا لله . خالصا لدعوته . صريحا في قوله وفعله . ثابت الخطو في طريقه . متضامنا مع إخوانه . كالبنيان المرصوص . .

سورة الجمعة

نزلت هذه السورة بعد سورة "الصف" السابقة . وهي تعالج الموضوع الذي عالجته سورة الصف , ولكن من جانب آخر , وبأسلوب آخر , وبمؤثرات جديدة .

إنها تعالج أن تقر في أخلاد الجماعة المسلمة في المدينة أنها هي المختارة أخيرا لحمل أمانة العقيدة الإيمانية ;

وأن هذا فضل من الله عليها ; وأن بعثة الرسول الأخير في الأميين - وهم العرب - منة كبرى تستحق الالتفات والشكر , وتقتضي كذلك تكاليف تنهض بها المجموعة التي استجابت للرسول , واحتملت الأمانة ; وأنها موصولة على الزمان غير مقطوعة ولا منبتة , فقد قدر الله أن تنمو هذه البذرة وتمتد . بعدما نكل بنو إسرائيل عن حمل هذه الأمانة وانقطعت صلتهم بأمانة السماء ; وأصبحوا يحملون التوراة كالحمار يحمل أسفارا , ولا وظيفة له في إدراكها , ولا مشاركة له في أمرها !

تلك هي الحقيقة الرئيسية التي تعالج السورة إقرارها في قلوب المسلمين . من كان منهم في المدينة يومذاك على وجه الخصوص , وهم الذين ناط الله بهم تحقيق المنهج الإسلامي في صورة واقعة . ومن يأتي بعدهم ممن أشارت إليهم السورة , وضمتهم إلى السلسلة الممتدة على الزمان .

وفي الوقت ذاته تعالج السورة بعض الحالات الواقعة في تلك الجماعة الأولى ; في أثناء عملية البناء النفسي العسيرة المتطاولة الدقيقة . وتخلصها من الجواذب المعوقة من الحرص والرغبة العاجلة في الربح , وموروثات البيئة والعرف . وبخاصة حب المال وأسبابه الملهية عن الأمانة الكبرى , والاستعداد النفسي لها . وتشير إلى حادث معين . حيث كان رسول الله [ص] يخطبهم في المسجد للجمعة حين حضرت قافلة من قوافلهم التجارية ; فما إن أعلن نبأ قدومها حتى انفض المستمعون منصرفين إلى التجارة واللهو الذي كانت القافلة تحاط به - على عادة الجاهلية - من ضرب بالدفوف وحداء وهيصة ! وتركوا رسول الله [ص] قائما . فيما عدا اثني عشر من الراسخين فيهم أبو بكر وعمر بقوا يستمعون ! كما تذكر الروايات , التي قد لا تكون دقيقة من حيث العدد , ولكنها ثابتة من حيث وقوع هذه الحركة من عدد من الحاضرين اقتضى التنبيه إليها في القرآن الكريم .

وهي حادثة تكشف بذاتها عن مدى الجهد الذي بذل في تربية تلك الجماعة الأولى حتى انتهت إلى ما انتهت إليه ; وحتى صارت ذلك النموذج الفريد في تاريخ الإسلام وفي تاريخ البشرية جميعا . وتلهمنا الصبر على مشقة بناء النفوس في أي جيل من الأجيال , لتكوين الجماعة المسلمة التي تنهض بحمل أمانة هذه العقيدة , وتحاول تحقيقها في عالم الواقع كما حققتها الجماعة الأولى .

وفي السورة مباهلة مع اليهود , بدعوتهم إلى تمني الموت للمبطلين من الفريقين وذلك ردا على دعواهم أنهم أولياء الله من دون الناس , وأنهم

شعب الله المختار , وأن بعثة الرسول في غيرهم لا تكون ! كما كانوا يدعون ! مع جزم القرآن بأنهم لن يقبلوا هذه المباهلة التي دعوا إليها فنكلوا عنها لشعورهم ببطلان دعواهم . وتعقب السورة على هذا بتقرير حقيقة الموت الذي يفرون منه , وأنه ملاقيهم مهما فروا , وأنهم مردودون إلى عالم الغيب والشهادة فمنبئهم بما كانوا يعملون . . وهو تقرير لا يخص اليهود وحدهم , إنما يلقيه القرآن ويدعه يفعل فعله في نفوس المؤمنين كذلك . فهذه الحقيقة لا بد أن تستقر في نفوس حملة أمانة الله في الأرض , لينهضوا بتكاليفها وهم يعرفون الطريق !

هذا هو اتجاه السورة , وهو قريب من اتجاه سورة الصف قبلها , مع تميز كل منهما بالجانب الذي تعالجه , وبالأسلوب الذي تأخذ القلوب به , والظلال التي تلقيها هذه وتلك في الإتجاه الواحد العام .

سورة المنافقون

هذه السورة التي تحمل هذا الاسم الخاص "المنافقون" الدال على موضوعها . . ليست هي السورة الوحيدة التي فيها ذكر النفاق و المنافقين , ووصف أحوالهم ومكائدهم . فلا تكاد تخلو سورة مدنية من ذكر المنافقين تلميحا أو تصريحا . ولكن هذه السورة تكاد تكون مقصورة على الحديث عن المنافقين , والإشارة إلى بعض الحوادث والأ قوال التي وقعت منهم ورويت عنهم .

وهي تتضمن حملة عنيفة على أخلاق المنافقين وأكاذيبهم ودسائسهم ومناوراتهم , وما في نفوسهم من البغض والكيد للمسلمين , ومن اللؤم و الجبن وانطماس البصائر والقلوب .

وليس في السورة عدا هذا إلا لفتة في نهايتها إلى الذين آمنوا لتحذيرهم من كل ما يلصق بهم صفة من صفات المنافقين , ولو من بعيد . وأدنى درجات النفاق عدم التجرد لله , والغفلة عن ذكره اشتغالا با لأموال والأولاد , والتقاعس عن البذل في سبيل الله حتى يأتي اليوم

الذي لا ينفع فيه البذل والصدقات .

وحركة النفاق التي بدأت بدخول الإسلام المدينة , واستمرت إلى قرب وفاة رسول الله [ص] ولم تنقطع في أي وقت تقريبا , وإن تغيرت مظاهرها ووسائلها بين الحين والحين . . هذه الحركة ذات أثر واضح في سيرة هذه الفترة التاريخية وفي أحداثها ; وقد شغلت من جهد المسلمين ووقتهم وطاقتهم قدرا كبيرا ; وورد ذكرها في القرآن الكريم وفي الحديث الشريف مرات كثيرة تدل على ضخامة هذه الحركة , وأثرها البالغ في حياة الدعوة في ذلك الحين .

وقد ورد عن هذه الحركة فصل جيد في كتاب:"سيرة الرسول:صور مقتبسة من القرآن الكريم" لمؤلفه الأستاذ "محمد عزة دروزة " نقتطف منه فقرات كاشفة:

"وعلة ظهور تلك الحركة في المدينة واضحة , فالنبي [ص] والمسلمون الأولون في مكة لم يكونوا من القوة والنفوذ في حالة تستدعي وجود فئة من الناس ترهبهم أو ترجو خيرهم , فتتملقهم وتتزلف إليهم في الظاهر , وتتآمر عليهم وتكيد لهم وتمكر بهم في الخفاء , كما كان شأن المنافقين بوجه عام . ولقد كان أهل مكة وزعماؤها خاصة يناوئون النبي جهارا , ويتناولون من استطاعوا من المسلمين بالأذى الشديد , ويقاومون الدعوة بكل وسيلة دون ما تحرز أو تحفظ ; وكانت القوة لهم حتى اضطر المسلمون إلى الهجرة فرارا بدينهم ودمهم إلى الحبشة أولا , ثم إلى يثرب ; وحتى فتن بعضهم عن دينه بالعنف والإكراه , أو بالإغراء والتهويش ; وحتى تزلزل بعضهم وتبرم ونافق المشركين , وحتى مات بعض من ناله الأذى ممن ثبت على دينه نتيجة للتعذيب . . .

"أما في المدينة فقد كان الأمر مختلفا جدا . فالنبي [ص] استطاع قبل أن يهاجر إليها أن يكسب أنصارا أقوياء من الأوس والخزرج ; ولم يهاجر إلا بعد أن استوثق من موقفه , ولم يبق تقريبا بيت عربي فيها لم يدخله الإسلام . ففي هذه الحالة لم يكن من الهين أن يقف الذين لم يؤمنوا به

- إما عن جهالة وغباء , وإما عن غيظ وحقد وعناد , لأنهم رأوا في قدوم النبي حدا لنفوذهم وسلطانهم - موقف الجحود والعداء العلني للنبي و المسلمين من المهاجرين والأنصار ; وكان للعصبية في الوقت نفسه أثر غير قليل في عدم الوقوف هذا الموقف , لأن سواد الأوس والخزرج أصبحوا أنصار النبي , ومرتبطين به بمواثيق الدفاع والنصر , إلى أن جلهم قد حسن إسلامهم , وغدوا يرون في النبي رسول الله , وقائدهم ا لأعلى الواجب الطاعة , ومرشدهم الأعظم الواجب الاتباع , فلم يكن يسع الذين ظلت تغلبهم نزعة الشرك , ويتحكم فيهم مرض القلب و المكابرة والحقد , ويحملهم ذلك على مناوأة النبي [ص] ودعوته ونفوذه - أن يظهروا علنا في نزعتهموعدائهم , ولم يكن أمامهم إلا التظاهر بالإسلام , والقيام بأركانه , والتضامن مع قبائلهم . وجعل مكرهم وكيدهم ودسهم ومؤامراتهم بأسلوب المراوغة والخداع و التمويه , وإذا كانوا وقفوا أحيانا مواقف علنية فيها كيد ودس , وعليها طابع من النفاق بارز , فإنما كان هذا منهم في بعض الظروف والأزمات الحادة التي كانت تحدق بالنبي والمسلمين , والتي كانوا يتخذونها حجة لتلك المواقف بداعي المصلحة والمنطق والاحتياط ; ولم يكونوا على كل حال يعترفون بالكفر أو النفاق , غير أن نفاقهم وكفرهم ومواقفهم في الكيد والدس والتآمر لم تكن لتخفى على النبي [ص] والمخلصين من أصحابه من المهاجرين والأنصار , كما أن المواقف العلنية التي كانوا يقفونها في فرص الأزمات كانت مما تزيد كفرهم ونفاقهم فضيحة ومقتا . وقد كانت الآيات القرآنية توجه إليهم كذلك الفضائح المرة بعد المرة , وتدل عليهم بما يفعلون أو يمكرون , وتدمغهم بشرورهم وخبثهم ومكايدهم , وتحذر النبي [ص] والمسلمين منهم في كل ظرف ومناسبة .

"ولقد كانت مواقف المنافقين ومكايدهم بعيدة المدى والأثر على ما تلهم الآيات المدنية , حتى لكأنه نضال قوي , يذكر بما كان من نضال بين النبي [ص] وزعماء مكة , وإن اختلفت الأدوار والنتائج ; إذ أن

النبي لم يلبث أن أخذ مركزه يتوطد وقوته تزداد , ودائرة الإسلام تتسع , وصار صاحب سلطان وأمر نافذ وجانب عزيز ; وإذ لم يكن المنافقون كتلة متضامنة ذات شخصية خاصة بارزة , وكان ضعفهم وضآلة عددهم وشأنهم يسيران سيرا متناسبا عكسيا مع ما كان من تزايد قوة النبي [ص] واتساع دائرة الإسلام , وتوطد عزته وسلطانه" .

[ويكفيك لأجل أن تشعر بخطورة الدور الذي قام به المنافقون , وخاصة في أوائل العهد , أن تلاحظ أن المنافقين كانوا أقوياء نسبيا بعصبياتهم التي كانت ما تزال قوية الأثر في نفوس سواد قبائلهم , كما أنهم لم يكونوا مفضوحين فضيحة تامة , ولم يكن الإسلام قد رسخ في هذا السواد رسوخا كافيا ; وأن النبي [ص] كان محوطا بالمشركين الجاحدين من كل جانب , وأهل مكة خصومه الألداء , وهم قبلة الجزيرة يتربصون به الدوائر , ويتحينون كل فرصة ووسيلة للقضاء عليه ; و اليهود في المدينة وحولها قد تنكروا له منذ عهد مبكر وتطيروا به , ثم جاهروه بالكفر والعداء والمكر ; ولم يلبث أن انعقد بينهم وبين المنافقين حلف طبيعي على توحيد المسعى , والتضامن في موقف المعارضة و الكيد , حتى ليمكن القول:إن المنافقين لم يقووا ويثبتوا ويكن منهم ذلك الأذى الشديد والاستمرار في الكيد والدس إلا بسبب ما لقوه من اليهود من تعضيد , وما انعقد بينهم من تضامن وتواثق , ولم يضعف شأنهم ويخف خطرهم إلا بعد أن مكن الله للنبي من هؤلاء وأظهره عليهم , وكفاه شرهم] .

سورة التغابن

هذه السورة أشبه شيء بالسور المكية في موضوعها وفي سياقها وفي ظلالها وإيحاءاتها , وبخاصة المقاطع الأولى منها . فلا يكاد الجو المدني يتبين إلا في فقراتها الأخيرة .

والفقرات الأولى إلى ابتداء النداء: يا أيها الذين آمنوا . . تستهدف بناء أسس العقيدة , وإنشاء التصور الإسلامي في القلوب بأسلوب السور

المكية التي تواجه الكفار المشركين ابتداء , وتخاطبهم بهذا التصور خطاب المبتدئ في مواجهته . ثم هي تستخدم المؤثرات الكونية و النفسية كما تستعرض مصائر الغابرين من المكذبين قبلهم ; وتعرض عليهم مشاهد القيامة لإثبات البعث , وتوكيده توكيدا شديدا , يدل على أن المخاطبين به من المنكرين الجاحدين .

فأما الفقرات الأخيرة فهي تخاطب الذين آمنوا بما يشبه خطابهم في السور المدنية , لحثهم على الإنفاق , وتحذرهم فتنة الأموال والأولاد . وهي الدعوة التي تكررت نظائرها في العهد المدني بسبب مقتضيات الحياة الإسلامية الناشئة فيها . كما أن فيها ما قد يكون تعزية عن مصاب أو تكاليف وقعت على عاتق المؤمنين , ورد الأمر فيها إلى قدر الله , وتثبيت هذا التصور . . وهو ما يتكرر في السور المدنية وبخاصة بعد الأمر بالجهاد وما ينشأ عنه من تضحيات .

ولقد وردت روايات أن السورة مكية , ووردت روايات أخرى أنها مدنية مع ترجيحها . وكدت أميل إلى اعتبارها مكية تأثرا بأسلوب الفقرات الأ ولى فيها وجوها . ولكني أبقيت اعتبارها مدنية - مع الرأي الراجح فيها - لأنه ليس ما يمنع أن تكون الفقرات الأولى فيها خطابا للكفار بعد الهجرة سواء كانوا كفار مكة أم الكفار القريبين من المدينة . كما أنه ليس ما يمنع أن يستهدف القرآن المدني في بعض الأحيان جلاء أسس العقيدة , وإيضاح التصور الإسلامي , بهذا الأسلوب الغالب على أسلوب القرآن المكي . . والله أعلم . .

والمقطع الأول في السورة يستهدف بناء التصور الإيماني الكوني , وعرض حقيقة الصلة بين الخالق - سبحانه - وهذا الكون الذي خلقه . وتقرير حقيقة بعض صفات الله وأسمائه الحسنى وأثرها في الكون وفي الحياة الإنسانية:

(يسبح لله ما في السماوات وما في الأرض , له الملك وله الحمد , وهو على كل شيء قدير . هو الذي خلقكم فمنكم كافر ومنكم مؤمن والله بما

تعملون بصير . خلق السماوات والأرض بالحق , وصوركم فأحسن صوركم , وإليه المصير . يعلم ما في السماوات والأرض ويعلم ما تسرون وما تعلنون . والله عليم بذات الصدور). .

وهذا التصور الكوني الإيماني هو أدق وأوسع تصور عرفه المؤمنون في تاريخ العقيدة . ولقد جاءت الرسالاتالإلهية كلها بوحدانية الله , وإنشائه لهذا الوجود ولكل مخلوق , ورعايته لكل كائن في الوجود . . لا نشك في هذا لأن القرآن يحكيه عن الرسل وعن الرسالات كلها . ولا عبرة بما نجده في الكتب المفتراة والمحرفة ; أو فيما يكتبه عن الديانات المقارنة أناس لا يؤمنون بالقرآن كله أو بعضه . إنما جاء الانحراف عن العقيدة الإ يمانية من أتباعها , فبدا أنها لم تأت بالتوحيد الخالص , أو لم تأت بهيمنة الله واتصاله بكل كائن . فهذا من التحريف الطارئ لا من أصل الديانة . فدين الله واحد منذ أولى الرسالات إلى خاتمة الرسالات . ويستحيل أن ينزل الله دينا يخالف هذه القواعد , كما يزعم الزاعمون بناء على ما يجدونه في كتب مفتراة أو محرفة باسم الدين !

ولكن تقرير هذه الحقيقة لا ينافي أن التصور الإسلامي عن الذات الإ لهية , وصفاتها العلوية , وآثار هذه الصفات في الكون وفي الحياة الإ نسانية . . أن هذا التصور أوسع وأدق وأكمل من كل تصور سابق في الديانات الإلهية . . وهذا متفق مع طبيعة الرسالة ومهمتها الأخيرة . ومع الرشد البشري الذي جاءت هذه الرسالة لتخاطبه وتوجهه ; وتنشئ فيه هذا التصور الشامل الكامل بكل مقتضياته وفروعه وآثاره .

ومن شأن هذا التصور أن يدرك القلب البشري - بمقدار ما يطيق - حقيقة الألوهية وعظمتها , ويشعر بالقدرة الإلهية ويراها في آثارها المشهودة في الكون , ويحسها في ذوات الأنفس بآثارها المشهودة والمدركة ; ويعيش في مجال هذه القدرة وبين آثارها التي لا تغيب عن الحس و العقل والإلهام . ويراها محيطة بكل شيء , مهيمنة على كل شيء , مدبرة لكل شيء , حافظة لكل شيء , لا يند عنها شيء . سواء في ذلك

الكبير والصغير والجليل والحقير .

ومن شأنه كذلك أن يعيش القلب البشري في حساسية مرهفة , وتوفز دائم , وخشية وارتقاب , وطمع ورجاء ; وأن يمضي في الحياة معلقا في كل حركة وكل خالجة بالله , شاعرا بقدرته وهيمنته , شاعرا بعلمه ورقابته , شاعرا بقهره وجبروته , شاعرا برحمته وفضله , شاعرا بقربه منه في كل حال .

وأخيرا فإن من شأنه أن يحس بالوجود كله متجها إلى خالقه فيتجه معه , مسبحا بحمد ربه فيشاركه تسبيحه , مدبرا بأمره وحكمته فيخضع لشريعته وقانونه . . ومن ثم فهو تصور إيماني كوني بهذا المعنى , وبمعان أخرى كثيرة تتجلى في المواضع المتعددة في القرآن التي تضمنت عرض جوانب من هذا التصور الإيماني الشامل الكامل المحيط الدقيق . وأقرب مثل منها ما ورد في ختام سورة الحشر , في هذا الجزء .

سورة الطلاق

هذه سورة الطلاق , يبين الله فيها أحكامه , ويفصل فيها الحالات التي لم تفصل في السورة الأخرى "سورة البقرة " التي تضمنت بعض أحكام الطلاق ; ويقرر فيها أحكام الحالات المتخلفة عن الطلاق من شؤون الأ سرة . وقد تضمنت هذه السورة بيان الوقت الذي يمكن أن يقع فيه الط لاق الذي يقبله الله ويجري وفق سنته: (يا أيها النبي إذا طلقتم النساء فطلقوهن لعدتهن). .

وحق المطلقة وواجبها في البقاء في بيتها - وهو بيت مطلقها - فترة العدة لا تخرج ولا تخرج إلا أن تأتي بفاحشة مبينة: (لا تخرجوهن من

بيوتهن ولا يخرجن إلا أن يأتين بفاحشة مبينة). .

وحقها بعد انقضاء العدة في الخروج لتفعل بنفسها ما تشاء , ما لم يكن الزوج قد راجعها وأمسكها في فترة العدة , لا ليضارها ويؤذيها بهذا الإمساك ويعطلها عن الزواج , ولكن لتعود الحياة الزوجية بينهما بالمعروف: (فإذا بلغن أجلهن فأمسكوهن بمعروف أو فارقوهن بمعروف). . وهذا مع الإشهاد على الإمساك أو الفراق: (وأشهدوا ذوي عدل منكم). .

وفي سورة البقرة بين مدة العدة للمطلقة ذات الحيض - وهي ثلاثة قروء بمعنى ثلاث حيضات أو ثلاثة أطهار من الحيضات على خلاف فقهي - وهنا بين هذه المدة بالنسبة للآيسة التي انقطع حيضها وللصغيرة التي لم تحض: (واللائي يئسن من المحيض من نسائكم إن ارتبتم فعدتهن ثلاثة أشهر واللائي لم يحضن). .

وبين عدة الحامل: (وأولات الأحمال أجلهن أن يضعن حملهن). .

ثم فصل حكم المسكن الذي تعتد فيه المعتدة ونفقة الحمل حتى تضع: (أسكنوهن من حيث سكنتم من وجدكم , ولا تضاروهن لتضيقوا عليهن . وإن كن أولات حمل فأنفقوا عليهن حتى يضعن حملهن). .

ثم حكم الرضاعة لولد المطلقة حين تضعه , وأجر الأم على الرضاعة في حالة الإتفاق بينها وبين أبيه على مصلحة الطفل بينهما , وفي حالة إرضاعه من أخرى: (فإن أرضعن لكم فآتوهن أجورهن وأتمروا بينكم بمعروف . وإن تعاسرتم فسترضع له أخرى). .

ثم زاد حكم النفقة والأجر في جميع الحالات تفصيلا , فجعله تابعا لحالة الزوج وقدرته: (لينفق ذو سعة من سعته , ومن قدر عليه رزقه فلينفق مما آتاه الله . لا يكلف الله نفسا إلا ما آتاها). .

وهكذا تتبعت النصوص سائر الحالات , وما يتخلف عنها , بأحكام مفصلة دقيقة , ولم تدع شيئا من أنقاض الأسرة المفككة بالطلاق إلا أراحته في

مكانه , وبينت حكمه , في رفق وفي دقة وفي وضوح . .

ويقف الإنسان مدهوشا أمام هذه السورة وهي تتناول أحكام هذه الحالة ومتخلفاتها . وهي تحشد للأمر هذه الحشد العجيب من الترغيب و الترهيب , والتعقيب على كل حكم , ووصل هذا الأمر بقدر الله في السماوات والأرضين , وسنن الله في هلاك العاتين عن أمره , وفي الفرج والسعة لمن يتقونه . وتكرار الأمر بالمعروف والسماحة والتراضي , وإيثار الجميل . والإطماع في الخير . والتذكير بقدر الله في الخلق وفي الرزق , وفي اليسر والعسر . .

يقف الإنسان مدهوشا أمام هذا الحشد من الحقائق الكونية الكبرى في معرض الحديث عن الطلاق أمام هذا الاحتفال والاهتمام - حتى ليوجه الخطاب إلى النبي [ص] بشخصه , وهو أمر عام للمؤمنين وحكم عام للمسلمين , زيادة في الاهتمام وإشعارا بخطورة الأمر المتحدث فيه . وأمام هذا التفصيل الدقيق للأحكام حالة حالة , والأمر المشدد في كل حكم بالدقة في مراعاته , وتقوى الله في تنفيذه , ومراقبة الله في تناوله . والإطالة في التعقيب بالترغيب والترهيب , إطالة تشعر القلب كأن هذا الأمر هو الإسلام كله ! وهو الدين كله ! وهو القضية التي تفصل فيها السماء , وتقف لتراقب تنفيذ الأحكام ! وتعد المتقين فيها بأكبر وأسمى ما يتطلع إليه المؤمن ; وتوعد الملتوين والمتلكئين والمضارين بأعنف وأشد ما يلقاه عاص ; وتلوح للناس بالرجاء الندي والخير المخبوء وراء أخذ الأمر بالمعروف والسماحة والتجمل والتيسير .

ويقرأ القارئ في هذه السورة . . (واتقوا الله ربكم). . (وتلك حدود الله ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه). . (لا تدري لعل الله يحدث بعد ذلك أمرا). . (وأشهدوا ذوي عدل منكم وأقيموا الشهادة لله). . (ذلكم يوعظ به من كان يؤمن بالله واليوم الآخر). . (ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب . . ومن يتوكل على الله فهو حسبه إن الله بالغ أمره . قد جعل الله لكل شيء قدرا). . (ومن يتق الله يجعل

له من أمره يسرا). (ذلك أمر الله أنزله إليكم) (ومن يتق الله يكفر عنه سيئاته ويعظم له أجرا). . (سيجعل الله بعد عسر يسرا). .

كما يقرأ ذلك التهديد العنيف الطويل المفصل: (وكأين من قرية عتت عن أمر ربها ورسله فحاسبناها حسابا شديدا , وعذبناها عذابا نكرا . فذاقت وبال أمرها وكان عاقبة أمرها خسرا . أعد الله لهم عذابا شديدا). .

يعقبه التحذير من مثل هذا المصير , والتذكير بنعمة الله بالرسول وما معه من النور , والتلويح بالأجر الكبير: (فاتقوا الله يا أولي الألباب الذين آمنوا , قد أنزل الله إليكم ذكرا:رسولا يتلو عليكم آيات الله مبينات ليخرج الذين آمنوا وعملوا الصالحات من الظلمات إلى النور . ومن يؤمن بالله ويعمل صالحا يدخله جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا قد أحسن الله له رزقا). .

ثم يقرأ هذا الإيقاع الهائل الضخم في المجال الكوني الكبير:(الله الذي خلق سبع سماوات ومن الأرض مثلهن , يتنزل الأمر بينهن , لتعلموا أن الله على كل شيء قدير , وأن الله قد أحاط بكل شيء علما). .

يقرأ هذا كله تعقيبا على أحكام الطلاق . ويجد سورة كاملة في القرآن , من هذا الطراز , كلها موقوفةعلى تنظيم هذه الحالة ومتخلفاتها كذلك ! وربطها هكذا بأضخم حقائق الإيمان في المجال الكوني والنفسي . وهي حالة تهدم لا حالة بناء , وحالة انتهاء لا حالة إنشاء . . لأسرة . . لا لدولة . . وهي توقع في الحس أنها أضخم من إنشاء دولة !

علام يدل هذا ?

إن له عدة دلالات تجتمع كلها عند سمو هذا الدين وجديته وانبثاقه من نبع غير بشري على وجه التأكيد . حتى لو لم تكن هناك دلالة أخرى سوى دلالة هذه السورة !

إنه يدل ابتداء على خطورة شأن الأسرة في النظام الإسلامي:

فالإسلام نظام أسرة . البيت في اعتباره مثابة وسكن , في ظله تلتقي النفوس على المودة والرحمة والتعاطف والستر والتجمل والحصانة و الطهر ; وفي كنفه تنبت الطفولة , وتدرج الحداثة ; ومنه تمتد وشائج الرحمة وأواصر التكافل .

ومن ثم يصور العلاقة البيتية تصويرا رفافا شفيفا , يشع منه التعاطف , وترف فيه الظلال , ويشيع فيه الندى , ويفوح منه العبير: (ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة). . (هن لباس لكم وأنتم لباس لهن). . فهي صلة النفس بالنفس , وهي صلة السكن والقرار , وهي صلة المودة والرحمة , وهي صلة الستر والتجمل . وإن الإنسان ليحس في الألفاظ ذاتها حنوا ورفقا , ويستروح من خلالها نداوة وظلا . وإنها لتعبير كامل عن حقيقة الصلة التي يفترضها الإسلام لذلك الرباط الإنساني الرفيق الوثيق . ذلك في الوقت الذي يلحظ فيه أغراض ذلك الرباط كلها , بما فيها امتداد الحياة بالنسل , فيمنح هذه الأ غراض كلها طابع النظافة والبراءة , ويعترف بطهارتها وجديتها , وينسق بين اتجاهاتها ومقتضياتها . ذلك حين يقول: (نساؤكم حرث لكم). فيلحظ كذلك معنى الإخصاب والإكثار .

ويحيط الإسلام هذه الخلية , أو هذا المحضن , أو هذه المثابة بكل رعايته وبكل ضماناته . وحسب طبيعة الإسلام الكلية , فإنه لا يكتفي با لإشعاعات الروحية , بل يتبعها التنظيمات القانونية والضمانات التشريعية .

والذي ينظر في تشريعات الأسرة في القرآن والسنة في كل وضع من أوضاعها ولكل حالة من حالاتها , وينظر في التوجيهات المصاحبة لهذه التشريعات , وفي الإحتشاد الظاهر حولها بالمؤثرات والمعقبات ; وفي ربط هذا الشأن بالله مباشرة في كل موضع , كما هو الحال في هذه السورة وفي غيرها . . يدرك إدراكا كاملا ضخامة شأن الأسرة في النظام الإسلامي , وقيمة هذا الأمر عند الله , وهو يجمع بين تقواه - سبحانه -

وتقوى الرحم في أول سورة النساء حيث يقول:(يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة , وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساء , واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام . إن الله كان عليكم رقيبا). . كما يجمع بين عبادة الله والإحسان للوالدين في سورة الإسراء وفي غيرها: (وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانا). . وبين الشكر لله والشكر للوالدين في سورة لقمان: (أن اشكر لي ولوالديك). .

وإن هذه العناية القصوى بأمر الأسرة لتتناسق مع مجرى القدر الإلهي بإقامة الحياة البشرية ابتداء على أساس الأسرة , حين جرى قدر الله أن تكون أول خلية في الوجود البشري هي أسرة آدم وزوجه , وأن يتكاثر الناس بعد ذلك من هذه الخلية الأولى . وكان الله - سبحانه - قادرا على أن يخلق الملايين من الأفراد الإنسانيين دفعةواحدة . ولكن قدره جرى بهذا لحكمة كامنة في وظيفة الأسرة الضخمة في حياة هذا المخلوق , حيث تلبي حياة الأسرة فطرته واستعداداته , وحيث تنمي شخصيته وفضائله , وحيث يتلقى فيها أعمق المؤثرات في حياته . ثم جرت هذه العناية في النظام الإسلامي - منهج الله الأخير في الأرض - مع القدر الإلهي في خلقة الإنسان ابتداء . كما هو الشأن في تناسق كل ما يصدر عن الله بلا تفاوت ولا اختلاف .

والدلالة الثانية لسياق السورة , وللاحتفال بشأن العلاقات الزوجية و العائلية هذا الاحتفال في القرآن كله , هي اتجاه النظام الإسلامي لرفع هذه العلاقات الإنسانية إلى مستوى القداسة المتصلة بالله ; واتخاذها وسيلة للتطهر الروحي والنظافة الشعورية - لا كما كان ينظر إليها في العقائد الوثنية , وعند أتباع الديانات المحرفة , البعيدة بهذا التحريف عن فطرة الله التي فطر الناس عليها .

[إن الإسلام لا يحارب دوافع الفطرة ولا يستقذرها , إنما ينظمها ويطهرها , ويرفعها عن المستوى الحيواني , ويرقيها حتى تصبح هي المحور الذي يدور عليه الكثير من الآداب النفسية والاجتماعية . ويقيم

العلاقات الجنسية على أساس من المشاعر الإنسانية الراقية , التي تجعل من التقاء جسدين , التقاء نفسين وقلبين وروحين . وبتعبير شامل التقاء إنسانين , تربط بينهما حياة مشتركة , وآمال مشتركة , وآلا م مشتركة , ومستقبل مشترك , يلتقي في الذرية المرتقبة , ويتقابل في الجيل الجديد , الذي ينشأ في العش المشترك , الذي يقوم عليه الوالدان حارسين لا يفترقان] .

ويعد الإسلام الزواج وسيلة للتطهر والارتفاع فيدعو الأمة المسلمة لتزويج رجالها ونسائها إذا قام المال عقبة دون تحقيق هذه الوسيلة الضرورية لتطهير الحياة ورفعها: (وأنكحوا الأيامى منكم والصالحين من عبادكم وإمائكم , إن يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله والله واسع عليم . وليستعفف الذين لا يجدون نكاحا حتى يغنيهم الله من فضله). . ويسمي الزواج إحصانا أي وقاية وصيانة . ويستقر في أخلاد المؤمنين أن البقاء بدون إحصان ولو فترة قصيرة لا ينال رضى الله . فيقول الإ مام علي - كرم الله وجهه - وقد سارع بالزواج عقب وفاة زوجه فاطمة بنت الرسول [ص]:" لقد خشيت أن ألقى الله وأنا عزب " . . فيدخل الزواج في عرف المؤمن في الطاعات التي يتقرب بها إلى ربه . وترتفع هذه الصلة إلى مكان القداسة في ضميره بما أنها إحدى الطاعات لربه .

والدلالة الثالثة لسياق سورة الطلاق ونظائرها هي واقعية هذا النظام الإ سلامي ومعاملته للحياة وللنفس البشرية كما هي في فطرتها , مع محاولة رفعها إلى ذلك المستوى الكريم , عن طريق استعداداتها وملا بسات حياتها . ومن ثم لا يكتفي بالتشريع الدقيق في هذا الأمر الموكول إلى الضمير . ولا يكتفي بالتوجيه . ويستخدم هذا وذاك في مواجهة واقع النفس وواقع الحياة .

إن الأصل في الرابطة الزوجية هو الاستقرار والاستمرار . والإسلام يحيط هذه الرابطة بكل الضمانات التي تكفل استقرارها واستمرارها . وفي سبيل هذه الغاية يرفعها إلى مرتبة الطاعات , ويعين على قيامها

بمال الدولة للفقراء والفقيرات , ويفرض الآداب التي تمنع التبرج والفتنة كي تستقر العواطف ولا تتلفت القلوب على هتاف الفتنة المتبرجة في ا لأسواق ! ويفرض حد الزنا وحد القذف ; ويجعل للبيوت حرمتها بالا ستئذان عليهاوالاستئذان بين أهلها في داخلها .

وينظم الارتباطات الزوجية بشريعة محددة , ويقيم نظام البيت على أساس قوامة أحد الشريكين وهو الأقدر على القوامة , منعا للفوضى والا ضطراب والنزاع . . إلى آخر الضمانات والتنظيمات الواقية من كل اهتزاز . فوق التوجيهات العاطفية . وفوق ربط هذه العلاقة كلها بتقوى الله ورقابته .

ولكن الحياة الواقعية للبشر تثبت أن هناك حالات تتهدم وتتحطم على الرغم من جميع الضمانات والتوجيهات . وهي حالات لا بد أن تواجه مواجهة عملية , اعترافا بمنطق الواقع الذي لا يجدي إنكاره حين تتعذر الحياة الزوجية , ويصبح الإمساك بالزوجية عبثا لا يقوم على أساس !

"والإسلام لا يسرع إلى رباط الزوجية المقدسة فيفصمه لأول وهلة , ولأ ول بادرة من خلاف . إنه يشد على هذا الرباط بقوة , فلا يدعه يفلت إلا بعد المحاولة واليأس .

"إنه يهتف بالرجال: (وعاشروهن بالمعروف , فإن كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيرا كثيرا) . فيميل بهم إلى التريث و المصابرة حتى في حالة الكراهية , ويفتح لهم تلك النافذة المجهولة: (فعسى أن تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيرا كثيرا)فما يدريهم أن في هؤلاء النسوة المكروهات خيرا , وأن الله يدخر لهم هذا الخير . فلا يجوز أن يفلتوه . إن لم يكن ينبغي لهم أن يستمسكوا به ويعزوه ! وليس أبلغ من هذا في استحياء الإنعطاف الوجداني واستثارته , وترويض الكره وإطفاء شرته .

"فإذا تجاوز الأمر مسألة الحب والكره إلى النشوز والنفور , فليس الطلا

ق أول خاطر يهدي إليه الإسلام . بل لا بد من محاولة يقوم بها الآ خرون , وتوفيق يحاوله الخيرون:(وإن خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكما من أهله , وحكما من أهلها إن يريدا إصلاحا يوفق الله بينهما . إن الله كان عليما خبيرا). . (وإن امرأة خافت من بعلها نشوزا أو إعراضا . فلا جناح عليهما أن يصلحا بينهما صلحا والصلح خير). .

[فإذا لم تجد هذه الوساطة , فالأمر إذن جد , وهناك ما لا تستقيم معه هذه الحياة , ولا يستقر لها قرار . وإمساك الزوجية على هذا الوضع إنما هو محاولة فاشلة , يزيدها الضغط فشلا , ومن الحكمة التسليم بالواقع , وإنهاء هذه الحياة على كره من الإسلام , فإن أبغض الحلال إلى الله الط لاق] .

فإذا أراد أن يطلق فليس في كل لحظة يجوز الطلاق . إنما السنة أن يكون في طهر لم يقع فيه وطء . . وفي هذا ما يؤجل فصم العقدة فترة بعد موقف الغضب والانفعال . وفي خلال هذه الفترة قد تتغير النفوس , وتقر القلوب , ويصلح الله بين المتخاصمين فلا يقع الطلاق !

ثم بعد ذلك فترة العدة . ثلاثة قروء للتي تحيض وتلد . وثلاثة أشهر للآ يسة والصغيرة . وفترة الحمل للحوامل . وفي خلالها مجال للمعاودة إن نبضت في القلوب نابضة من مودة , ومن رغبة في استئناف ما انقطع من حبل الزوجية .

ولكن هذه المحاولات كلها لا تنفي أن هناك انفصالا يقع , وحالات لا بد أن تواجهها الشريعة مواجهة عملية واقعية , فتشرع لها , وتنظم أوضاعها , وتعالج آثارها . وفي هذا كانت تلك الأحكام الدقيقة المفصلة , التي تدل على واقعية هذا الدين في علاجه للحياة , مع دفعها دائما إلى الأمام . ورفعها دائما إلى السماء .

والدلالة الرابعة للسورة وما فيها من الترغيب والترهيب والتعقيب و التفصيل الشديد والتوكيد , هو أنهاكانت تواجه حالات واقعة في

الجماعة المسلمة متخلفة من رواسب الجاهلية , وما كانت تلاقيه المرأة من العنت والخسف , مما اقتضى هذا التشديد , وهذا الحشد من المؤثرات النفسية , ومن التفصيلات الدقيقة , التي لا تدع مجالا للتلاعب والالتواء مع ما كان مستقرا في النفوس من تصورات متخلفة عن علاقات الجنسين , ومن تفكك وفوضى في الحياة العائلية .

ولم يكن الحال هكذا في شبه الجزيرة وحدها , إنما كان شائعا في العالم كله يومذاك . فكان وضع المرأة هو وضع الرقيق أو ما هو أسوأ من الرقيق في جنبات الأرض جميعا . فوق ما كان ينظر إلى العلاقات الجنسية نظرة استقذار , وإلى المرأة كأنها شيطان يغري بهذه القذارة .

ومن هذه الوهدة العالمية ارتفع الإسلام بالمرأة وبالعلاقات الزوجية إلى ذلك المستوى الرفيع الطاهر الكريم الذي سبقت الإشارة إليه . وأنشأ للمرأة ما أنشأ من القيمة والاعتبار والحقوق والضمانات . . وليدة لا توأد ولا تهان . ومخطوبة لا تنكح إلا بإذنها ثيبا أو بكرا . وزوجة لها حقوق الرعاية فوق ضمانات الشريعة . ومطلقة لها هذه الحقوق المفصلة في هذه السورة وفي سورة البقرة وغيرها . .

شرع الإسلام هذا كله . لا لأن النساء في شبه الجزيرة أو في أي مكان في العالم حينذاك شعرن بأن مكانهن غير مرض ! ولا لأن شعور الرجال كذلك قد تأذى بوضع النساء . ولا لأنه كان هناك اتحاد نسائي عربي أو عالمي ! ولا لأن المرأة دخلت دار الندوة أو مجلس الشورى ! ولا لأن هاتفا واحدا في الأرض هتف بتغيير الأحوال . . إنما كانت هي شريعة السماء للأرض . وعدالة السماء للأرض . وإرادة السماء بالأرض . . أن ترتفع الحياة البشرية من تلك الوهدة , وأن تتطهر العلاقات الزوجية من تلك الوصمة , وأن يكون للزوجين من نفس واحدة حقوق الإنسان وكرامة الإنسان .

. . هذا دين رفيع . . لا يعرض عنه إلا مطموس . ولا يعيبه إلا منكوس , ولا يحاربه إلا موكوس . فإنه لا يدع شريعة الله إلى شريعة الناس إلا

من أخلد إلى الأرض واتبع هواه .

هذا الاستطراد لا يبعد كثيرا عن جو هذا الجزء وما فيه من تنظيم وبناء للجماعة المسلمة - والأحكام في سياق السورة شيء آخر غير ذلك التلخيص . شيء حي . فيه روح . وفيه حركة . وفيه حياة . وفيه إيحاء . . وله إيقاع . وهذا هو الفارق الأصيل بين مدارسة الأحكام في القرآن ومدارستها في كتب الفقه والأصول .

سورة التحريم

عندما جرى قدر الله أن يجعل الإسلام هو الرسالة الأخيرة ; وأن يجعل منهجه هو المنهاج الباقي إلى آخر الخليقة ; وأن تجري حياة المؤمنين به وفق الناموس الكوني العام ; وأن يكون هذا الدين هو الذي يقود حياة البشرية ويهيمن على نشاطها في كل ميدان . .

عندما جرى قدر الله بهذا كله جعل الله هذا المنهج في هذه الصورة , شاملا كاملا متكاملا , يلبي كل طاقات البشر واستعداداتهم , في الوقت الذي يرفع هذه الطاقات وهذه الاستعدادات إلى الأفق اللائق بخليفة الله في الأرض , وبالكائن الذي كرمه الله على كثير من عباده , ونفخ فيه من روحه .

وجعل طبيعة هذا الدين الانطلاق بالحياة إلى الأمام:نموا وتكاثرا , ورفعة وتطهرا , في آن واحد . فلم يعطل طاقة بانية , ولم يكبت استعدادا نافعا . بل نشط الطاقات وأيقظ الاستعدادات وفي الوقت ذاته حافظ على توازن حركة الاندفاع إلى الأمام مع حركة الارتفاع إلى الأفق الكريم , الذي يهيئ الأرواح في الدنيا لمستوى نعيم الآخرة , ويعد المخلوق الفاني في الأرض للحياة الباقية في دار الخلود .

وعندما جرى قدر الله أن يجعل طبيعة هذه العقيدة هكذا جرى كذلك

باختيار رسولها [ص] إنسانا تتمثل فيه هذه العقيدة بكل خصائصها , وتتجسم فيه بكل حقيقتها , ويكون هو بذاته وبحياته الترجمة الصحيحة الكاملة لطبيعتها واتجاهها . إنسانا قد اكتملت طاقاته الإ نسانية كلها . ضليع التكوين الجسدي , قوي البنية , سليم البناء ; صحيح الحواس , يقظ الحس , يتذوق المحسوسات تذوقا كاملا سليما . وهو في ذات الوقت ضخم العاطفة , حي الطبع , سليم الحساسية , يتذوق الجمال , متفتح للتلقي والإستجابة . وهو في الوقت ذاته كبير العقل , واسع الفكر , فسيح الأفق , قوي الإرادة , يملك نفسه ولا تملكه . . ثم هو بعد ذلك كله . . النبي . . الذي تشرق روحه بالنور الكلي , والذي تطيق روحه الإسراء والمعراج , والذي ينادى من السماء , والذي يرى نور ربه , والذي تتصل حقيقته بحقيقة كل شيء في الوجود من وراء الأشكال و الظواهر , فيسلم عليه الحصى والحجر , ويحن له الجذع , ويرتجف به أحد - الجبل . . ! . . ثم تتوازن في شخصيته هذه الطاقات كلها . فإذا هو التوازن المقابل لتوازن العقيدة التي اختير لها . .

ثم يجعل الله حياته الخاصة والعامة كتابا مفتوحا لأمته وللبشرية كلها , تقرأ فيه صور هذه العقيدة , وترى فيه تطبيقاتها الواقعية . ومن ثم لا يجعل فيها سرا مخبوءا , ولا سترا مطويا . بل يعرض جوانب كثيرة منها في القرآن , ويكشف منها ما يطوى عادة عن الناس في حياة الإ نسان العادي . حتى مواضع الضعف البشري الذي لا حيلة فيه لبشر . بل إن الإنسان ليكاد يلمح القصد في كشف هذه المواضع في حياة الرسول [ص] للناس !

إنه ليس له في نفسه شيء خاص . فهو لهذه الدعوة كله . فعلام يختبئ جانب من حياته [ص]أو يخبأ ? إن حياته هي المشهد المنظور القريب الممكن التطبيق من هذه العقيدة ; وقد جاء [ص] ليعرضها للناس في شخصه , وفي حياته , كما يعرضها بلسانه وتوجيهه . ولهذا خلق . ولهذا جاء .

ولقد حفظ عنه أصحابه [ص] ونقلوا للناس بعدهم - جزاهم الله خيرا - أدق تفصيلات هذه الحياة . فلم تبق صغيرة ولا كبيرة حتى في حياته اليومية العادية , لم تسجل ولم تنقل . . وكان هذا طرفا من قدر الله في تسجيل حياة هذا الرسول , أو تسجيل دقائق هذه العقيدة مطبقة في حياة الرسول . فكان هذا إلى جانب ما سجله القرآن الكريم من هذه الحياة السجل الباقي للبشرية إلى نهاية الحياة .

وهذه السورة تعرض في صدرها صفحة من الحياة البيتية لرسول الله [ص] وصورة من الانفعالات والاستجابات الإنسانية بين بعض نسائه وبعض , وبينهن وبينه ! وانعكاس هذه الانفعالات والاستجابات في حياته [ص] وفي حياة الجماعة المسلمة كذلك . . ثم في التوجيهات العامة للأمة على ضوء ما وقع في بيوت رسول الله وبين أزواجه .

والوقت الذي وقعت فيه الأحداث التي تشير إليها السورة ليس محددا . ولكن بالرجوع إلى الروايات التي جاءت عنه يتأكد أنه بعد زواج رسول الله [ص] من زينب بنت جحش قطعا .

ولعله يحسن أن نذكر هنا ملخصا عن قصة أزواج النبي , وعن حياته البيتية يعين على تصور الحوادث والنصوص التي جاءت بصددها في هذه السورة . ونعتمد في هذا الملخص على ما أثبته الإمام ابن حزم في كتابه:" جوامع السيرة " . . وعلى السيرة لابن هشام مع بعض التعليقات السريعة:

أول أزواجه [ص] خديجة بنت خويلد . تزوجها رسول الله [ص] وهو ابن خمس وعشرين سنة وقيل ثلاث وعشرون , وسنها - رضي الله عنها - أربعون أو فوق الأربعين , وماتت - رضي الله عنها - قبل الهجرة بثلاث سنوات , ولم يتزوج غيرها حتى ماتت . وقد تجاوزت سنه الخمسين .

فلما ماتت خديجة تزوج عليه السلام سودة بنت زمعة - رضي الله عنها - ولم يرو أنها ذات جمال ولا شباب . إنما كانت أرملة للسكران بن عمرو

بن عبد شمس . كان زوجها من السابقين إلى الإسلام من مهاجري الحبشة . فلما توفي عنها , تزوجها رسول الله - [ص] .

ثم تزوج عائشة - رضي الله عنها - بنت الصديق أبي بكر - رضي الله عنه وأرضاه - وكانت صغيرة فلم يدخل بها إلا بعد الهجرة . ولم يتزوج بكرا غيرها . وكانت أحب نسائه إليه , وقيل كانت سنها تسع سنوات وبقيت معه تسع سنوات وخمسة أشهر . وتوفي عنها رسول الله [ص] .

ثم تزوج حفصة بنت عمر - رضي الله عنه وعنها - بعد الهجرة بسنتين وأشهر . تزوجها ثيبا . بعدما عرضها أبوها على أبي بكر وعلى عثمان فلم يستجيبا . فوعده النبي خيرا منهما وتزوجها !

ثم تزوج زينب بنت خزيمة . وكان زوجها الأول عبيدة بن الحارث بن عبد المطلب قد قتل يوم بدر . وتوفيت زينب هذه في حياته [ص] . وقيل كان زوجها قبل النبي هو عبد الله بن جحش الأسدي المستشهد يوم أحد . ولعل هذا هو الأقرب .

وتزوج أم سلمة . وكانت قبله زوجا لأبي سلمة , الذي جرح في أحد , وظل جرحه يعاوده حتى مات به . فتزوج رسول الله [ص] أرملته . وضم إليه عيالها من أبي سلمة .

وتزوج زينب بنت جحش . بعد أن زوجها لمولاه ومتبناه زيد بن حارثة فلم تستقم حياتهما فطلقها . وقد عرضنا قصتها في سورة الأحزاب في الجزء الثاني والعشرين , وكانت جميلة وضيئة . وهي التي كانت عائشة - رضي الله عنها - تحس أنها تساميها , لنسبها من رسول الله [ص] وهي بنت عمته , ولوضاءتها !

ثم تزوج جويرية بنت الحارث سيد بني المصطلق بعد غزوة بني المصطلق في أواسط السنة السادسة الهجرية . قال ابن إسحاق:وحدثني محمد بن جعفر بن الزبير , عن عروة بن الزبير عن عائشة رضي الله عنها . قالت:" لما قسم رسول الله [ص] سبايا بني المصطلق وقعت

جويرية بنت الحارث في أسهم الثابت ابن قيس بن الشماس أو لابن عم له فكاتبته على نفسها , وكانت امرأة حلوة مليحة ملاحة لا يراها أحد إلا أخذت بنفسه , فأتت رسول الله [ص] تستعينه في كتابتها . قالت عائشة:فوالله ما هو إلا أن رأيتها على باب حجرتي فكرهتها ! وعرفت أنه سيرى منها [ص] ما رأيت , فدخلت عليه فقالت:يا رسول الله . أنا جويرية بنت الحارث بن أبي صرار سيد قومه . وقد أصابني من البلاء ما لم يخف عليك فوقعت في السهم لثابت بن قيس بن الشماس - أو لا بن عم له - فكاتبته على نفسي , فجئت أستعينك على كتابتي . قال:" فهل لك في خير من ذلك ? " قالت:وما هو يا رسول الله ? قال:" أقضي عنك كتابتك وأتزوجك ? " قالت:نعم يا رسول الله . قال:" قد فعلت " " .
.

ثم تزوج أم حبيبة بنت أبي سفيان بعد الحديبية . وكانت مهاجرة مسلمة في بلاد الحبشة , فارتد زوجها عبد الله بن جحش إلى النصرانية وتركها . فخطبها النبي [ص] وأمهرها عنه نجاشي الحبشة . وجاءت من هناك إلى المدينة .

وتزوج إثر فتح خيبر بعد الحديبية صفية بنت حيي بن أخطب زعيم بني النضير . وكانت زوجة لكنانة ابن أبي الحقيق وهو من زعماء اليهود أيضا . ويذكر ابن إسحاق في قصة زواجه [ص] منها:أنه أتي بها وبأخرى معها من السبي , فمر بهما بلال - رضي الله عنه - على قتلى من قتلى اليهود فلما رأتهم التي مع صفية صاحت وصكت وجهها وحثت التراب على رأسها . فقال [ص]:" اعزبوا عني هذه الشيطانة " وأمر بصفية فحيزت خلفه , وألقى عليها رداءه فعرف المسلمون أن رسول الله [ص] قد اصطفاها لنفسه . فقال رسول الله [ص] لبلال - فيما بلغني - حين رأى بتلك اليهودية ما رأى:" أنزعت منك الرحمة يا بلال ? حين تمر بامرأتين على قتلى رجالهما ? " .

ثم تزوج ميمونة بنت الحارث بن حزن . وهي خالة خالد بن الوليد وعبد

الله بن عباس . وكانت قبل رسول الله [ص] عند أبي رهم بن عبد العزى . وقيل حويطب بن عبد العزى . وهي آخر من تزوج [ص] .

وهكذا ترى أن لكل زوجة من أزواجه [ص] قصة وسببا في زواجه منها . وهن فيمن عدا زينب بنت جحش , وجويرية بنت الحارث , لم يكن شواب ولا ممن يرغب فيهن الرجال لجمال . وكانت عائشة - رضي الله عنها - هي أحب نسائه إليه . وحتى هاتان اللتان عرف عنهما الجمال والشباب كان هناك عامل نفسي وإنساني آخر - إلى جانب جاذبيتهن - ولست أحاول أن أنفي عنصر الجاذبية الذي لحظته عائشة في جويرية مثلا , ولا عنصر الجمال الذي عرفت به زينب . فلا حاجة أبدا إلى نفي مثل هذه العناصر الإنسانية من حياة النبي [ص] وليست هذه العناصر موضع اتهام يدفعه الأنصار عن نبيهم . إذا حلا لأعدائه أن يتهموه ! فقد اختير ليكون إنسانا . ولكن إنسانا رفيعا . وهكذا كان . وهكذا كانت دوافعه فيحياته وفي أزواجه [ص] على اختلاف الدوافع والأسباب .

ولقد عاش في بيته مع أزواجه بشرا رسولا كما خلقه الله , وكما أمره أن يقول: (قل:سبحان ربي ! هل كنت إلا بشرا رسولا ?). .

استمتع بأزواجه وأمتعهن , كما قالت عائشة - رضي الله عنها - عنه:" كان إذا خلا بنسائه ألين الناس . وأكرم الناس ضحاكا بساما " . . ولكنه إنما كان يستمتع بهن ويمتعهن من ذات نفسه , ومن فيض قلبه , ومن حسن أدبه , ومن كريم معاملته . فأما حياتهن المادية فكانت في غالبها كفافا حتى بعد أن فتحت له الفتوح وتبحبح المسلمون بالغنائم والفيء . وقد سبق في سورة الأحزاب قصة طلبهن الوسعة في النفقة , وما أعقب هذا الطلب من أزمة , انتهت بتخييرهن بين الله ورسوله والدار الآخرة , أو المتاع والتسريح من عصمته [ص] فاخترن الله ورسوله والدار الآخرة .

ولكن الحياة في جو النبوة في بيت رسول الله [ص] لم تكن لتقضي على المشاعر البشرية , والهواتف البشرية في نفوس أزواجه - رضي الله عنهن - فقد كان يبدر أو يشجر بينهن , ما لابد أن يشجر في قلوب النساء

في مثل هذه الحال . وقد سلف في رواية ابن إسحاق عن عائشة - رضي الله عنها - أنها كرهت جويرية بمجرد رؤيتها لما توقعته من استملا ح رسول الله [ص] لها إذا رآها . وصح ما توقعته فعلا ! وكذلك روت هي نفسها حادثا لها مع صفية . قالت . " قلت للنبي [ص]:حسبك من صفية كذا وكذا" . قال الراوي:تعني قصيرة ! فقال [ص]:" لقد قلت كلمة لو مزجت بماء البحر لمزجته " . . كذلك روت عن نفسها أن النبي [ص] حين نزلت آية التخيير التي في الأحزاب , فاختارت هي الله ورسوله والدار الآخرة , طلبت إليه ألا يخبر زوجاته عن اختيارها ! - وظاهر لماذا طلبت هذا ! - فقال [ص]:" إن الله تعالى لم يبعثني معنفا , ولكن بعثني معلما ميسرا . لا تسألني امرأة منهن عما اخترت إلا أخبرتها . . " .

وهذه الوقائع التي روتها عائشة - رضي الله عنها - عن نفسها - بدافع من صدقها ولتربيتها الإسلامية الناصعة - ليست إلا أمثلة لغيرها تصور هذا الجو الإنساني الذي لابد منه في مثل هذه الحياة . كما تصور كيف كان الرسول [ص] يؤدي رسالته بالتربية والتعلية في بيته كما يؤديها في أمته سواء .

وهذا الحادث الذي نزل بشأنه صدر هذه السورة هو واحد من تلك الأ مثلة التي كانت تقع في حياة الرسول [ص] وفي حياة أزواجه . وقد وردت بشأنه روايات متعددة ومختلفة سنعرض لها عند استعراض النصوص القرآنية في السورة .

وبمناسبة هذا الحادث وما ورد فيه من توجيهات . وبخاصة دعوة الزوجتين المتآمرتين فيه إلى التوبة . أعقبه في السورة دعوة إلى التوبة وإلى قيام أصحاب البيوت على بيوتهم بالتربية , ووقاية أنفسهم وأهليهم من النار .كما ورد مشهد للكافرين في هذه النار . واختتمت السورة بالحديث عن امرأة نوح وامرأة لوط كمثل للكفر في بيت مؤمن . وعن امرأة فرعون كمثل للإيمان في بيت كافر , وكذلك عن مريم ابنة

عمران التي تطهرت فتلقت النفخة من روح الله وصدقت بكلمات ربها وكتبه وكانت من القانتين . .

يا أيها النبي لم تحرم ما أحل الله لك , تبتغي مرضاة أزواجك , والله غفور رحيم . قد فرض الله لكم تحلة أيمانكم والله مولاكم وهو العليم الحكيم .

وإذا أسر النبي إلى بعض أزواجه حديثا فلما نبأت به وأظهره الله عليه عرف بعضه وأعرض عن بعض , فلما نبأها به قالت:من أنبأك هذا ? ق ال:نبأني العليم الخبير .

(إن تتوبا إلى الله فقد صغت قلوبكما , وإن تظاهرا عليه فإن الله هو مو لاه وجبريل وصالح المؤمنين , والملائكة بعد ذلك ظهير . عسى ربه إن طلقكن أن يبدله أزواجا خيرا منكن مسلمات مؤمنات قانتات تائبات عابدات سائحات ثيبات وأبكارا). .

وردت في سبب نزول هذه الآيات روايات متعددة منها ما رواه البخاري عند هذه الآية قال:حدثنا إبراهيم ابن موسى , أخبرنا هشام بن يوسف , عن ابن جريج , عن عطاء , عن عبيد بن عمير , عن عائشة , قالت:كان النبي - صلى الله عليه وعلى آله وسلم - يشرب عسلا عند زينب بنت جحش , ويمكث عندها . فتواطأت أنا وحفصة على أيتنا دخل عليها فلتقل له:أكلت مغافير . إني أجد منك ريح مغافير . قال:" لا . ولكني كنت أشرب عسلا عند زينب بنت جحش فلن أعود له . وقد حلفت . لا تخبري بذلك أحدا " . . فهذا هو ما حرمه على نفسه وهو حلال له: (لم تحرم ما أحل الله لك ?).

ويبدو أن التي حدثها رسول الله [ص] هذا الحديث وأمرها بستره ق الت لزميلتها المتآمرة معها . فأطلع الله رسوله [ص] على الأمر . فعاد عليها في هذا وذكر لها بعض ما دار بينها وبين زميلتها دون استقصاء لجميعه . تمشيا مع أدبه الكريم . فقد لمس الموضوع لمسا مختصرا

لتعرف أنه يعرف وكفى . فدهشت هي وسألته: (من أنبأك هذا ؟). . ولعله دار في خلدها أن الأخرى هي التي نبأته ! ولكنه أجابها: (نبأني العليم الخبير). . فالخبر من المصدر الذي يعلمه كله . ومضمون هذا أن الرسول [ص] يعلم كل ما دار , لا الطرف الذي حدثها به وحده !

وقد كان من جراء هذا الحادث وما كشف عنه من تآمر ومكايدات في بيت الرسول [ص] أن غضب . فآلى من نسائه لا يقربهن شهرا , وهم بتطليقهن - على ما تسامع المسلمون - ثم نزلت هذه الآيات . وقد هدأ غضبه [ص] فعاد إلى نسائه بعد تفصيل سنذكره بعد عرض رواية أخرى للحادث .

وهذه الرواية الأخرى أخرجها النسائي من حديث أنس , أن رسول الله [ص] كان له أمة يطؤها , فلم تزل به عائشة وحفصة حتى حرمها . فأنزل الله عز وجل: يا أيها النبي لم تحرم ما أحل الله لك ; تبتغي مرضات أزواجك . . .

وفي رواية لابن جرير ولابن أسحاق أن النبي [ص] وطئ مارية أم ولده إبراهيم في بيت حفصة . فغضبت وعدتها إهانة لها . فوعدها رسول الله [ص] بتحريم مارية وحلف بهذا .وكلفها كتمان الأمر . فأخبرت به عائشة . . فهذا هو الحديث الذي جاء ذكره في السورة .

وكلا الروايتين يمكن أن يكون هو الذي وقع . وربما كانت هذه الثانية أقرب إلى جو النصوص وإلى ما أعقب الحادث من غضب كاد يؤدي إلى طلاق زوجات الرسول [ص] نظرا لدقة الموضوع وشدة حساسيته . ولكن الرواية الأولى أقوى إسنادا . وهي في الوقت ذاته ممكنة الوقوع , ويمكن أن تحدث الآثار التي ترتبت عليها . إذا نظرنا إلى المستوى الذي يسود بيوت النبي , مما يمكن أن تعد فيه الحادثة بهذا الوصف شيئا كبيرا . . والله أعلم أي ذلك كان .

أما وقع هذا الحادث - حادث إيلاء النبي [ص] من أزواجه , فيصوره

الحديث الذي رواه الإمام أحمد في مسنده عن ابن عباس - رضي الله عنهما - وهو يرسم كذلك جانبا من صورة المجتمع الإسلامي يومذاك . . قال:حدثنا عبد الرزاق , أخبرنا معمر , عن الزهري , عن عبيد الله بن عبد الله بن أبي ثور , عن ابن عباس قال:"لم أزل حريصا على أن أسأل عمر عن المرأتين من أزواج رسول الله [ص] اللتين قال الله تعالى: (إن تتوبا إلى الله فقد صغت قلوبكما)حتى حج عمر وحججت معه , فلما كان ببعض الطريق عدل عمر وعدلت معه بالإداوة , فتبرز , ثم أتاني فسكبت على يديه فتوضأ , فقلت:يا أمير المؤمنين من المرأتان من أزواج النبي [ص] اللتان قال الله تعالى: (إن تتوبا إلى الله فقد صغت قلوبكما)? فقال عمر:واعجبا لك يا ابن عباس ! [قال الزهري:كره والله ما سأله عنه ولم يكتمه] قال:هي عائشة وحفصة . قال:ثم أخذ يسوق الحديث , قال:كنا معشر قريش قوما نغلب النساء , فلما قدمنا المدينة وجدنا قوما تغلبهم نساؤهم , فطفق نساؤنا يتعلمن من نسائهم . ق ال:وكان منزلي في دار أمية بن زيد بالعوالي . قال:فغضبت يوما على امرأتي , فإذا هي تراجعني , فأنكرت أن تراجعني . فقالت:ما تنكر أن أراجعك ? فوالله إن أزواج رسول الله [ص] ليراجعنه وتهجره إحداهن اليوم إلى الليل ! قال:فانطلقت فدخلت على حفصة فقلت:أتراجعين رسول الله [ص] ? قالت:نعم ! قلت:وتهجره إحداكن اليوم إلى الليل ? قالت:نعم ! قلت:قد خاب من فعل ذلك منكن وخسر ! أفتأمن إحداكن أن يغضب الله عليها لغضب رسوله فإذا هي قد هلكت ? لا تراجعي رسول الله [ص] ولا تسأليه شيئا وسليني من مالي ما بدا لك , ولا يغرنك إن كانت جارتك هي أوسم - أي أجمل - وأحب إلى رسول الله [ص] منك - يريد عائشة - قال:وكان لي جار من الأنصار وكنا نتناوب النزول إلى رسول الله [ص] ينزل يوما وأنزل يوما , فيأتيني بخبر الوحي وغيره وآتيه بمثل ذلك . قال:وكنا نتحدث أن غسان تنحل الخيل لتغزونا . فنزل صاحبي يوما ثم أتى عشاء فضرب بابي ثم نادى , فخرجت إليه , فقال:حدث أمر عظيم . فقلت:وما ذاك ? أجاءت غسان ? قال:لا . بل أعظم من ذلك وأطول ! طلق رسول الله [ص] نساءه ! فقلت:قد خابت

حفصة وخسرت ! قد كنت أظن هذا كائنا . حتى إذا صليت الصبح شددت على ثيابي ثم نزلت فدخلت على حفصة وهي تبكي . فقلت:أطلقكن رسول الله - صلى الله عليه وعلى آله وسلم ? - فقالت:لا أدري . هو هذا معتزل في هذه المشربة . فأتيت غلاما أسودا فقلت:استأذن لعمر . فدخل الغلام ثم خرج إلي فقال:ذكرتك له فصمت ! فانطلقت حتى أتيت المنبر , فإذا عنده رهط جلوس يبكي بعضهم . فجلست عنده قليلا , ثم غلبني ما أجد , فأتيت الغلام فقلت:استأذن لعمر . فدخل ثم خرج إلي فقال:ذكرتك له فصمت ! فخرجت فجلست إلى المنبر , ثم غلبني ما أجد , فأتيت الغلام فقلت:استأذن لعمر . فدخل ثم خرج إلي فقال:ذكرتك له فصمت ! فوليت مدبرا فإذا الغلام يدعوني . فقال:ادخل قد أذن لك . فدخلت فسلمت على رسول الله [ص]فإذا هو متكئ على رمل حصير قد أثر في جنبه . فقلت:أطلقت يا رسول الله نساءك ? فرفع رأسه إلي وقال:" لا " . فقلت:الله أكبر ! ولو رأيتنا يا رسول الله وكنا معشر قريش قوما نغلب النساء , فلما قدمنا المدينة وجدنا قوما تغلبهم نساؤهم , فطفق نساؤنا يتعلمن من نسائهم , فغضبت على امرأتي يوما , فإذا هي تراجعني , فأنكرت أن تراجعني , فقالت:ما تنكر أن أراجعك ? فوالله إن أزواج النبي [ص] ليراجعنه وتهجره إحداهن اليوم إلى الليل . فقلت:قد خاب من فعل ذلك منكن وخسر ! أفتأمن إحداكن أن يغضب الله عليها لغضب رسوله ; فإذا هي قد هلكت ? فتبسم رسول الله [ص] فقلت:يا رسول الله قد دخلت على حفصة فقلت:لا يغرنك أن كانت جارتك هي أوسم أو أحب إلى رسول الله [ص] منك ! فتبسم أخرى . فقلت:أستأنس يا رسول الله ! قال:" نعم " فجلست , فرفعت رأسي في البيت فوالله ما رأيت في البيت شيئا يرد البصر إلا هيبة مقامه فقلت:ادع الله يا رسول الله أن يوسع على أمتك فقد وسع على فارس والروم وهم لا يعبدون الله . فاستوى جالسا وقال:" أفي شك أنت يا بن الخطاب ? أولئك قوم عجلت لهم طيباتهم في الحياة الدنيا " . فقلت:استغفر لي يا رسول الله . . وكان أقسم ألا يدخل عليهن شهرا من شدة موجدته عليهن حتى عاتبه الله عز وجل " .

. [وقد رواه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي من طرق عن الزهري بهذا النص] . .

سورة الملك

هذا الجزء كله من السور المكية . كما كان الجزء الذي سبقه كله من السور المدنية . ولكل منهما طابع مميز , وطعم خاص . . وبعض مطالع السور في هذا الجزء من بواكير ما نزل من القرآن كمطلع سورة "المدثر" ومطلع سورة "المزمل" . كما أن فيه سورا يحتمل أن تكون قد نزلت بعد البعثة بحوالي ثلاث سنوات كسورة "القلم" . وبحوالي عشر سنوات كسورة "الجن" التي يروى أنها نزلت في عودة رسول الله [ص] من الطائف , حيث أوذي من ثقيف . ثم صرف الله إليه نفرا من الجن فاستمعوا إليه وهو يرتل القرآن , مما حكته سورة الجن في هذا الجزء . وكانت هذه الرحلة بعد وفاة خديجة وأبي طالب قبيل الهجرة بعام أو عامين . وإن كانت هناك رواية أخرى هي الأرجح بأن السورة نزلت في أوائل البعثة .

والقرآن المكي يعالج - في الغالب - إنشاء العقيدة . في الله وفي الوحي , وفي اليوم الآخر . وإنشاء التصور المنبثق من هذه العقيدة لهذا الوجود وعلاقته بخالقه . والتعريف بالخالق تعريفا يجعل الشعور به حيا في القلب , مؤثرا موجها موحيا بالمشاعر اللائقة بعبد يتجه إلى رب , وبالأدب الذي يلزمه العبد مع الرب , وبالقيم والموازين التي يزن بها المسلم الأشياء والأحداث والأشخاص . وقد رأينا نماذج من هذا في السور المكية السابقة , وسنرى نماذج منه في هذا الجزء .

والقرآن المدني يعالج - في الغالب - تطبيق تلك العقيدة وذاك التصور وهذه الموازين في الحياة الواقعية ;وحمل النفوس على الإضطلاع بأمانة العقيدة والشريعة في معترك الحياة , والنهوض بتكاليفها في عالم

الضمير وعالم الظاهر سواء . وقد رأينا نماذج من هذا في السور المدنية السابقة ومنها سور الجزء الماضي .

وهذه السورة الأولى - سورة تبارك - تعالج إنشاء تصور جديد للوجود وعلاقاته بخالق الوجود . تصور واسع شامل يتجاوز عالم الأرض الضيق وحيز الدنيا المحدود , إلى عوالم في السماوات , وإلى حياة في الآخرة . وإلى خلائق أخرى غير الإنسان في عالم الأرض كالجن والطير , وفي العالم الآخر كجهنم وخزنتها . وإلى عوالم في الغيب غير عالم الظاهر تعلق بها قلوب الناس ومشاعرهم , فلا تستغرق في الحياة الحاضرة الظاهرة , في هذه الأرض . كما أنها تثير في حسهم التأمل فيما بين أيديهم وفي واقع حياتهم وذواتهم مما يمرون به غافلين .

وهي تهز في النفوس جميع الصور والإنطباعات والرواسب الجامدة الهامدة المتخلفة من تصور الجاهلية وركودها ; وتفتح المنافذ هنا وهناك , وتنفض الغبار وتطلق الحواس والعقل والبصيرة ترتاد آفاق الكون , وأغوار النفس , وطباق الجو , ومسارب الماء , وخفايا الغيوب , فترى هناك يد الله المبدعة , وتحس حركة الوجود المنبعثة من قدرة الله . وتؤوب من الرحلة وقد شعرت أن الأمر أكبر , وأن المجال أوسع . وتحولت من الأرض - على سعتها - إلى السماء . ومن الظواهر إلى الحقائق . ومن الجمود إلى الحركة . مع حركة القدر , وحركة الحياة , وحركة الأحياء .

الموت والحياة أمران مألوفان مكروران . ولكن السورة تبعث حركة التأمل فيما وراء الموت والحياة من قدر الله وبلائه , ومن حكمة الله وتدبيره:(الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا , وهو العزيز الغفور).

والسماء خلق ثابت أمام الأعين الجاهلة لا تتجاوزه إلى اليد التي أبدعته , ولا تلتفت لما فيه من كمال . ولكن السورة تبعث حركة التأمل والإستغراق في هذا الجمال والكمال وما وراءها من حركة وأهداف:

(الذي خلق سبع سماوات طباقا . ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور ? ثم ارجع البصر كرتين ينقلب إليك البصر خاسئا وهو حسير . . ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوما للشياطين . .).

والحياة الدنيا تبدو في الجاهلية غاية الوجود , ونهاية المطاف . ولكن السورة تكشف الستار عن عالم آخر هو حاضرللشياطين وللكافرين . وهو خلق آخر حافل بالحركة والتوفز والإنتظار: وأعتدنا لهم عذاب السعير . وللذين كفروا بربهم عذاب جهنم وبئس المصير . إذا ألقوا فيها سمعوا لها شهيقا وهي تفور . تكاد تميز من الغيظ . كلما ألقي فيها فوج سألهم خزنتها:ألم يأتكم نذير ? قالوا:بلى ! قد جاءنا نذير فكذبنا وقلنا:ما نزل الله من شيء ; إن أنتم إلا في ضلال كبير وقالوا:لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير . فاعترفوا بذنبهم فسحقا لأصحاب السعير ! .

والنفوس في الجاهلية لا تكاد تتجاوز هذا الظاهر الذي تعيش فيه , ولا تلقي بالا إلى الغيب وما يحتويه . وهي مستغرقة في الحياة الدنيا محبوسة في قفص الأرض الثابتة المستقرة . فالسورة تشد قلوبهم وأنظارهم إلى الغيب وإلى السماء وإلى القدرة التي لم ترها عين , ولكنها قادرة تفعل ما تشاء حيث تشاء وحين تشاء ; وتهز في حسهم هذه الأ رض الثابتة التي يطمئنون إليها ويستغرقون فيها (إن الذين يخشون ربهم بالغيب لهم مغفرة وأجر كبير . وأسروا قولكم أو أجهروا به , إنه عليم بذات الصدور . ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير ? هو الذي جعل لكم الأرضذلولا فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور . أأمنتم من في السماء أن يخسف بكم الأرض فإذا هي تمور ? أم أمنتم من في السماء أن يرسل عليكم حاصبا ? فستعلمون كيف نذير).

والطير . إنه خلق يرونه كثيرا ولا يتدبرون معجزته إلا قليلا . ولكن السورة تمسك بأبصارهم لتنظر وبقلوبهم لتتدبر , وترى قدرة الله الذي صور وقدر:(أولم يروا إلى الطير فوقهم صافات ويقبضن ? ما يمسكهن إ

لا الرحمن , إنه بكل شيء بصير).

وهم آمنون في دارهم , مطمئنون إلى مكانهم , طمأنينة الغافل عن قدرة الله وقدره . ولكن السورة تهزهم من هذا السبات النفسي , بعد أن هزت الأرض من تحتهم وأثارت الجو من حولهم , تهزهم على قهر الله وجبروته الذي لا يحسبون حسابه:(أم من هذا الذي هو جند لكم ينصركم من دون الرحمن ? إن الكافرون إلا في غرور).

والرزق الذي تناله أيديهم , إنه في حسهم قريب الأسباب , وهي بينهم تنافس وغلاب . ولكن السورة تمد أبصارهم بعيدا هنالك في السماء , ووراء الأسباب المعلومة لهم كما يظنون:(أم من هذا الذي يرزقكم إن أمسك رزقه ? بل لجوا في عتو ونفور). .

وهم سادرون في غيهم يحسبون أنهم مهتدون وهم ضالون . فالسورة ترسم لهم حقيقة حالهم وحال المهتدين حقا , في صورة متحركة موحية:(أفمن يمشي مكبا على وجهه أهدى ? أم من يمشي سويا على صراط مستقيم ?).

وهم لا ينتفعون بما رزقهم الله في ذوات أنفسهم من استعدادات ومدارك ; ولا يتجاوزون ما تراه حواسهم إلى التدبر فيما وراء هذا الواقع القريب . فالسورة تذكرهم بنعمة الله فيما وهبهم , وتوجههم إلى استخدام هذه الهبة في تنور المستقبل المغيب وراء الحاضر الظاهر , وتدبر الغاية من هذه البداية: 6 :هو الذي أنشأكم وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة , قليلا ما تشكرون . قل:هو الذي ذرأكم في الأرض وإليه تحشرون . .

وهم يكذبون بالبعث والحشر , ويسألون عن موعده . فالسورة تصوره لهم واقعا مفاجئا قريبا يسوؤهم أن يكون:(ويقولون:متى هذا الوعد إن كنتم صادقين ? قل إنما العلم عند الله , وإنما أنا نذير مبين . فلما رأوه زلفة سيئت وجوه الذين كفروا , وقيل:هذا الذي كنتم به تدعون !). .

وهم يتربصون بالنبي [ص] ومن معه أن يهلكوا فيستريحوا من هذا الصوت الذي يقض عليهم مضجعهم بالتذكير والتحذير والإيقاظ من راحة الجمود ! فالسورة تذكرهم بأن هلاك الحفنة المؤمنة أو بقاءها لا يؤثر فيما ينتظرهم هم من عذاب الله على الكفر والتكذيب , فأولى لهم أن يتدبروا أمرهم وحالهم قبل ذلك اليوم العصيب:(قل:أرأيتم إن أهلكني الله ومن معي أو رحمنا فمن يجير الكافرين من عذاب أليم ? قل:هو الرحمن آمنا به وعليه توكلنا فستعلمون من هو في ضلال مبين).

وتنذرهم السورة في ختامها بتوقع ذهاب الماء الذي به يعيشون , والذي يجريه هو الله الذي به يكفرون !(قل أرأيتم إن أصبح ماؤكم غورا فمن يأتيكم بماء معين ?). .

إنها حركة . حركة في الحواس , وفي الحس , وفي التفكير , وفي الشعور .

ومفتاح السورة كلها , ومحورها الذي تشد إليه تلك الحركة فيها , هو مطلعها الجامع الموحي:

الدرس الأول:1 الله المالك القادر (تبارك الذي بيده الملك , وهو على كل شيء قدير). .

وعن حقيقة الملك وحقيقة القدرة تتفرع سائر الصور التي عرضتها السورة , وسائر الحركات المغيبة والظاهرة التي نبهت القلوب إليها . .

فمن الملك ومن القدرة كان خلق الموت والحياة , وكان الابتلاء بهما . وكان خلق السماوات وتزيينها بالمصابيح وجعلها رجوما للشياطين . وكان إعداد جهنم بوصفها وهيئتها وخزنتها . وكان العلم بالسر والجهر . وكان جعل الأرض ذلولا للبشر . وكان الخسف والحاصب والنكير على المكذبين الأولين . وكان إمساك الطير في السماء . وكان القهر والإستعلاء . وكان الرزق كما يشاء . وكان الإنشاء وهبة السمع والأبصار والأفئدة . وكان الذرء في الأرض والحشر . وكان الإختصاص بعلم الآخرة . وكان

عذاب الكافرين . وكان الماء الذي به الحياة وكان الذهاب به عندما يريد . .

فكل حقائق السورة وموضوعاتها , وكل صورها وإيحاءاتها مستمدة من إيحاء ذلك المطلع ومدلوله الشامل الكبير:(تبارك الذي بيده الملك , وهو على كل شيء قدير)!!

وحقائق السورة وإيحاءاتها تتوالى في السياق , وتتدفق بلا توقف , مفسرة مدلول المطلع المجمل الشامل

سورة القلم

لا يمكن تحديد التاريخ الذي نزلت فيه هذه السورة سواء مطلعها أو جملتها . كما أنه لا يمكن الجزم بأن مطلعها قد نزل أولا , وأن سائرها نزل أخيرا - ولا حتى ترجيح هذا الاحتمال . لأن مطلع السورة وختامها يتحدثان عن أمر واحد , وهو تطاول الذين كفروا على شخص رسول الله [ص] وقولهم:إنه مجنون !

والروايات التي تقول:إن هذه السورة هي الثانية في النزول بعد سورة العلق كثيرة , ومن المتفق عليه في ترتيب المصاحف المختلفة أنها هي السورة الثانية ; ولكن سياق السورة وموضوعها وأسلوبها يجعلنا نرجح غير هذا . حتى ليكاد يتعين أنها نزلت بعد فترة من الدعوة العامة , التي جاءت بعد نحو ثلاث سنوات من الدعوة الفردية , في الوقت الذي أخذت فيه قريش تدفع هذه الدعوة وتحاربها , فتقول عن رسول الله [ص] تلك القولة الفاجرة ; وأخذ القرآن يردها وينفيها , ويهدد المناهضين للدعوة , ذلك التهديد الوارد في السورة .

واحتمال أن مطلع السورة نزل مبكرا وحده بعد مطلع سورة العلق . وأن الجنون المنفي فيه:(ما أنت بنعمة ربك بمجنون) . جاء بمناسبة ما كان

يتخوفه النبي [ص] على نفسه في أول الوحي , من أن يكون ذلك جنونا أصابه . . هذا الاحتمال ضعيف . لأن هذا التخوف ذاته على هذا النحو ليست فيه رواية محققة , ولأن سياق السورة المتماسك يدل على أن هذا النفي ينصب على ما جاء في آخرها من قوله تعالى:(وإن يكاد الذين كفروا ليزلقونك بأبصارهم لما سمعوا الذكر ويقولون:إنه لمجنون). . فهذا هو الأمر الذي افتتح السورة بنفيه , كما يتبادر إلى الذهن عند قراءة السورة المتماسكة الحلقات .

كذلك ذكرت بعض الروايات أن في السورة آيات مدنية من الآية السابعة عشرة إلى نهاية الآية الثالثة والثلاثين . وهي الآيات التي ذكرت قصة أصحاب الجنة وابتلاءهم , والآيات من الثانية والأربعين إلى نهاية الخمسين وهي التي تشير إلى قصة صاحب الحوت . . ونحن نستبعد هذا كذلك . ونعتقد أن السورة كلها مكية . لأن طابع هذه الآيات عميق في مكيته . وهو أنسب شيء لأن يجيء في سياق السورة عند نزولها متسقا مع الموضوع ومع الحالة التي تعالجها .

والذي نرجحه بشأن السورة كلها أنها ليست الثانية في ترتيب النزول ; وأنها نزلت بعد فترة من البعثة النبوية بعد أمر النبي [ص] بالدعوة العامة . وبعد قول الله تعالى له:(وأنذر عشيرتك الأقربين). وبعد نزول طائفة من القرآن فيها شيء من قصص الأولين وأخبارهم , التي قال عنها قائلهم: (أساطير الأولين). . وبعدما أصبحت قريش مدعوة إلى الإ سلام كافة , وأصبحت تدفع هذه الدعوة بالاتهامات الباطلة والحرب العنيفة التي اقتضت تلك الحملة العنيفة الواردة في السورة على المكذبين , والتهديد القاصم في أولها وفي آخرها على السواء . . و المشهد الأخير في السورة يوحي بهذا كذلك:(وإن يكاد الذين كفروا ليزلقونك بأبصارهم لما سمعوا الذكر ويقولون:إنه لمجنون). . فهو مشهد دعوة عامة لمجموعات كبيرة . ولم يكن الأمر كذلك في أول الدعوة . إنما كانت الدعوة توجه إلى أفراد . بوسيلة فردية . ولا تلقى إلى الذين كفروا وهم متجمعون . ولم يقع شيء من هذا - كما تقول الروايات

الراجحة - إلا بعد ثلاث سنوات من بدء الدعوة .

والسورة تشير إلى شيء من عروض المشركين على النبي [ص] للالتقاء في منتصف الطريق , والتهادن على تراض في القضية التي يختلفون عليها وهي قضية العقيدة:(ودوا لو تدهن فيدهنون). . وظاهر أن مثل هذه المحاولة لا تكون والدعوة فردية , ولا خطر منها . إنما تكون بعد ظهورها , وشعور المشركين بخطرها .

وهكذا تتضافر الشواهد على أن هذه السورة نزلت متأخرة عن أيام الدعوة الأولى . وأن هناك ثلاث سنوات على الأقل - قابلة للزيادة - بين بدء الدعوة وبين وقت نزولها . ولا يعقل أن ثلاث سنوات مرت لم يتنزل فيها قرآن . والطبيعي أن تكون هناك سور كثيرة , وأجزاء من سور قد نزلت في هذه الفترة , تتحدث عن ذات العقيدة بدون مهاجمة عنيفة للمكذبين بها كالوارد في هذه السورة منذ مطلعها .

ولكن هذا لا ينفي أن تكون هذه السورة وسورتا المدثر والمزمل قد نزلت في الفترة الأولى من الدعوة . وإن لم يكن ذلك أول ما نزل كما هو وارد في المصاحف , للأسباب التي أوردناها هنا . وهي تكاد تنطبق كذلك على سورتي المزمل والمدثر .

لقد كانت هذه الغرسة - غرسة العقيدة الإسلامية - تودع في الأرض لأ ول مرة في صورتها الرفيعة المجردة الناصعة . وكانت غريبة على حس الجاهلية السائدة , لا في الجزيرة العربية وحدها بل كذلك في أنحاء الأ رض جميعا .

وكانت النقلة عظيمة بين الصورة الباهتة المحرفة المشوهة من ملة إبراهيم التي يستمسك بخيوط حائلة منها مشركو قريش , ويلصقون بها الترهات والأساطير والأباطيل السائدة عندهم , وبين الصورة الباهرة العظيمةالمستقيمة الواضحة البسيطة الشاملة المحيطة التي جاءهم بها محمد [ص] متفقة في أصولها مع الحنيفية الأولى - دين إبراهيم عليه

السلام - وبالغة نهاية الكمال الذي يناسب كونها الرسالة الأخيرة للأرض , الباقية لتخاطب الرشد العقلي في البشرية إلى آخر الزمان .

وكانت النقلة عظيمة بين الشرك بالله وتعدد الأرباب , وعبادة الملائكة وتماثيلها , والتعبد للجن وأرواحها , وسائر هذه التصورات المضطربة المفككة التي تتألف منها العقيدة الجاهلية . . وبين الصورة الباهرة التي يرسمها القرآن للذات الإلهية الواحدة وعظمتها وقدرتها , وتعلق إرادتها بكل مخلوق .

كذلك كانت النقلة عظيمة بين الطبقية السائدة في الجزيرة , والكهانة السائدة في ديانتها , واختصاص طبقات بالذات بالسيادة والشرف وسدانة الكعبة والقيام بينها وبين العرب الآخرين . . وبين البساطة و المساواة أمام الله والاتصال المباشربينه وبين عباده كما جاء بها القرآن .

ومثلها كانت النقلة بين الأخلاق السائدة في الجاهلية والأخلاق التي جاء القرآن يبشر بها , وجاء محمد [ص] يدعو إليها ويمثلها .

وكانت هذه النقلة وحدها كافية للتصادم بين العقيدة الجديدة وبين قريش ومعتقداتها وأخلاقها . ولكن هذه لم تكن وحدها . فقد كان إلى جانبها اعتبارات - ربما كانت أضخم في تقدير قريش من العقيدة ذاتها - على ضخامتها .

كانت هناك الاعتبارات الاجتماعية التي دعت بعضهم أن يقول كما حكى عنهم القرآن الكريم: (لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم !). . والقريتان هما مكة والطائف . فإن رسول الله [ص] مع شرف نسبه , وأنه في الذؤابة من قريش , لم تكن له مشيخة فيهم ولا رياسة قبل البعثة . بينما كان هناك مشيخة قريش ومشيخة ثقيف وغيرهما , في بيئة تجعل للمشيخة والرياسة القبلية كل الاعتبار , فلم يكن من السهل الانقياد خلف محمد [ص] من هؤلاء المشيخة !

وكانت هناك الاعتبارات العائلية التي تجعل رجلا كأبي جهل "عمرو بن

هشام" يأبى أن يسلم بالحق الذي يواجهه بقوة في الرسالة الإسلامية , لأن نبيها من بني عبد مناف . . وذلك كما ورد في قصته مع الأخنس بن شريق وأبي سفيان بن حرب , حين خرجوا ثلاث ليال يستمعون القرآن خفية , وهم في كل ليلة يتواعدون على عدم العودة خيفة أن يراهم الناس فيقع في نفوسهم شيء . فلما سأل الأخنس بن شريق أبا جهل رأيه فيما سمع من محمد كان جوابه:"ماذا سمعت ? تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف:أطعموا فأطعمنا , وحملوا فحملنا , وأعطوا فأعطينا . حتى إذا تجاثينا على الركب , وكنا كفرسي رهان , قالوا:منا نبي يأتيه الوحي من السماء . فمتى ندرك مثل هذه ? والله لا نؤمن به أبدا ولا نصدقه ! " .

وكانت هناك اعتبارات أخرى نفعية وطبقية ونفسية من ركام الجاهلية في المشاعر والتصورات والأوضاع كلها تحاول قتل تلك الغرسة الجديدة في مغرسها بكل وسيلة قبل أن تثبت جذورها وتتعمق , وقبل أن تمتد فروعها وتتشابك . وبخاصة بعد أن تجاوزت دور الدعوة الفردية ; وأمر الله تعالى نبيه [ص] أن يجهر بالدعوة ; وأخذت معالم الدعوة الجديدة تبرز , كما أخذ القرآن يتنزل بتسفيه عقيدة الشرك وما وراءها من الآلهة المدعاة والتصورات المنحرفة والتقاليد الباطلة .

والرسول [ص] ولو أنه نبي , ولو أنه يتلقى من ربه الوحي , ولو أنه يتصل بالملأ الأعلى . . هو بشر , تخالجه مشاعر البشر . وكان يتلقى هذه المقاومة العنيفة , وتلك الحرب التي شنها عليه المشركون , ويعاني وقعها العنيف الأليم , هو والحفنة القليلة التي آمنت به على كره من المشركين .

وكان [ص] يسمع والمؤمنون به يسمعون , ما كان يتقوله عليه المشركون , ويتطاولون به على شخصه الكريم , (ويقولون:إنه لمجنون). . ولم تكن هذه إلا واحدة من السخريات الكثيرة , التي حكاها القرآن في السور الأخرى ; والتي كانت توجه إلى شخصه [ص] وإلى الذين

آمنوا معه . وغير الأذى الذي كان يصيب الكثيرين منهم على أيدي أقربائهم الأقربين !

والسخرية والاستهزاء - مع الضعف والقلة - مؤذيان أشد الإيذاء للنفس البشرية , ولو كانت هي نفس رسول .

ومن ثم نرى في السور المكية - كسور هذا الجزء - أن الله كأنما يحتضن - سبحانه - رسوله والحفنة المؤمنة معه , ويواسيه ويسري عنه , ويثني عليه وعلى المؤمنين . ويبرز العنصر الأخلاقي الذي يتمثل في هذه الدعوة وفي نبيها الكريم . وينفي ما يقوله المتقولون عنه , ويطمئن قلوب المستضعفين بأنه هو يتولى عنهم حرب أعدائهم , ويعفيهم من التفكير في أمر هؤلاء الأعداء الأقوياء الأغنياء !

ونجد من هذا في سورة القلم مثل قوله تعالى عن النبي [ص]:

(ن . والقلم وما يسطرون . ما أنت بنعمة ربك بمجنون . وإن لك لأجرا غير ممنون . وإنك لعلى خلق عظيم). .

وقوله تعالى عن المؤمنين:

إن للمتقين عند ربهم جنات النعيم . أفنجعل المسلمين كالمجرمين ? م الكم ? كيف تحكمون ?! . .

ويقول عن أحد أعداء النبي البارزين:

(ولا تطع كل حلاف مهين . هماز مشاء بنميم . مناع للخير معتد أثيم . عتل بعد ذلك زنيم . أن كان ذا مال وبنين . إذا تتلى عليه آياتنا ق ال:أساطير الأولين . سنسمه على الخرطوم !). .

ثم يقول عن حرب المكذبين عامة:

(فذرني ومن يكذب بهذا الحديث . سنستدرجهم من حيث لا يعلمون . وأملي لهم إن كيدي متين). .

وذلك غير عذاب الآخرة المذل للمتكبرين:

يوم يكشف عن ساق ويدعون إلى السجود فلا يستطيعون . خاشعة أبصارهم ترهقهم ذلة . وقد كانوا يدعون إلى السجود وهم سالمون . .

ويضرب لهم أصحاب الجنة - جنة الدنيا - مثلا على عاقبة البطر تهديدا لكبراء قريش المعتزين بأموالهم وأولادهم ممن لهم مال وبنون ; الكائدون للدعوة بسبب مالهم من مال وبنين .

وفي نهاية السورة يوصي النبي [ص] بالصبر الجميل: (فاصبر لحكم ربك ولا تكن كصاحب الحوت . .).

ومن خلال هذه المواساة وهذا الثناء وهذا التثبيت , مع الحملة القاصمة على المكذبين والتهديد الرهيب , يتولى الله - سبحانه - بذاته حربهم في ذلك الأسلوب العنيف . . من خلال هذا كله نتبين ملامح تلك الفترة , فترة الضعف والقلة , وفترة المعاناة والشدة , وفترة المحاولة القاسية لغرس تلك الغرسة الكريمة في تلك التربة العنيدة !

كذلك نلمح من خلال أسلوب السورة وتعبيرها وموضوعاتها ملامح البيئة التي كانت الدعوة الإسلامية تواجهها . وهي ملامح فيها سذاجة وبدائية في التصور والتفكير والمشاعر والاهتمامات والمشكلات على السواء .

نلمح هذه السذاجة في طريقة محاربتهم للدعوة بقولهم للنبي [ص] (إنه لمجنون)!

وهو اتهام لا حبكة فيه ولا براعة , وأسلوب من لايجد إلا الشتمة الغليظة يقولها بلا تمهيد ولا برهان , كما يفعل السذج البدائيون .

ونلمحها في الطريقة التي يرد الله بها عليهم فريتهم ردا يناسب حـ الهم:(ما أنت بنعمة ربك بمجنون . وإن لك لأجرا غير ممنون . وإنك لعلى خلق عظيم . فستبصر ويبصرون . بأيكم المفتون). . وكذلك في التهديد

المكشوف العنيف:(فذرني ومن يكذب بهذا الحديث . سنستدرجهم من حيث لا يعلمون . وأملي لهم إن كيدي متين). .

ونلمحها في رد هذا السب على رجل منهم:(ولا تطع كل حلاف مهين . هماز مشاء بنميم . مناع للخير معتد أثيم . عتل بعد ذلك زنيم . . .).

ونلمحها في القصة - قصة أصحاب الجنة - التي ضربها الله لهم . وهي قصة قوم سذج في تفكيرهم وتصورهم وبطرهم , وفي حركاتهم كذلك وأقوالهم (وهم يتخافتون . ألا يدخلنها اليوم عليكم مسكين . . الخ).

وأخيرا نلمح سذاجتهم من خلال ما يوجهه إليهم من الجدل:(أم لكم كتاب فيه تدرسون:إن لكم فيه لما تخيرون ? أم لكم أيمان علينا بالغة إلى يوم القيامة إن لكم لما تحكمون ? سلهم أيهم بذلك زعيم ?). . .

وهي ملامح تظهر بوضوح من خلال التعبير القرآني , وتفيد في دراسة السيرة ووقائعها وخطوات الدعوة فيها ; ومدى ما ارتفع القرآن بعد ذلك بهذه البيئة وبتلك الجماعة في أواخر عهد الرسول [ص] ومدى ما نقلها من هذه السذاجة في التفكير والتصور والشعور والاهتمام . كما يتضح في أساليب الخطاب فيما بعد , وفي الحقائق والمشاعر والتصورات والا هتمامات بعد عشرين عاما لا تزيد . وهي في حياة الأمم ومضة لا تذكر . ولا تقاس إليها تلك النقلة الواسعة الشاملة . . التي انتقلتها الجماعة في هذا الوقت القصير . والتي تسلمت بها قيادة البشرية فارتفعت بتصوراتها وأخلاقها إلى القمة التي لم ترتفع إليها قيادة قط في تاريخ البشرية , لا من ناحية طبيعة العقيدة , ولا من ناحية آثارها الواقعية في حياة الإنسان في الأرض , ولا من ناحية السعة والشمول لتضم الإنسانية كلها بين جوانحها في سماحة وعطف , وفي تلبية لكل حاجاتها الشعورية , وحاجاتها الفكرية , وحاجاتها الاجتماعية , وحاجاتها التنظيمية في شتى الميادين . .

إنها المعجزة تتجلى في النقلة من هذه السذاجة التي تبدو ملامحها من

خلال مثل هذه السورة إلى ذلك العمق والشمول . وهي نقلة أوسع وأكبر من تحول القلة إلى كثرة , والضعف إلى قوة , لأن بناء النفوس والعقول أعسر من بناء الأعداد والصفوف .

سورة الحاقة

هذه سورة هائلة رهيبة ; قل أن يتلقاها الحس إلا بهزة عميقة ; وهي منذ افتتاحها إلى ختامها تقرع هذا الحس , وتطالعه بالهول القاصم , والجد الصارم , والمشهد تلو المشهد , كله إيقاع ملح على الحس , بالهول آنا وبالجلال آنا , وبالعذاب آنا , وبالحركة القوية في كل آن !

والسورة بجملتها تلقي في الحس بكل قوة وعمق إحساسا واحدا بمعنى واحد . . أن هذا الأمر , أمر الدين والعقيدة , جد خالص حازم جازم . جد كله لا هزل فيه . ولا مجال فيه للهزل . جد في الدنيا وجد في الآخرة , وجد في ميزان الله وحسابه . جد لا يحتمل التلفت عنه هنا أو هناك كثيرا ولا قليلا . وأي تلفت عنه من أي أحد يستنزل غضب الله الصارم , وأخذه الحاسم . ولو كان الذي يتلفت عنه هو الرسول . فالأمر أكبر من الرسول وأكبر من البشر . . إنه الحق . حق اليقين . من رب العالمين .

يبرز هذا المعنى في اسم القيامة المختار في هذه السورة , والذي سميت به السورة:"الحاقة " . . وهي بلفظها وجرسها ومعناها تلقي في الحس معنى الجد والصرامة والحق والاستقرار . وإيقاع اللفظ بذاته أشبه شيء برفع الثقل طويلا , ثم استقراره استقرارا مكينا . رفعه في مدة الحاء بالألف , وجده في تشديد القاف بعدها , واستقراره بالانتهاء بالتاء المربوطة التي تنطق هاء ساكنة .

ويبرز في مصارع المكذبين بالدين وبالعقيدة وبالآخرة قوما بعد قوم , وجماعة بعد جماعة , مصارعهم العاصفة القاصمة الحاسمة الجازمة: كذبت ثمود وعاد بالقارعة . فأما ثمود فأهلكوا بالطاغية , وأما عاد

فأهلكوا بريح صرصر عاتية . سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوما , فترى القوم فيها صرعى , كأنهم أعجاز نخل خاوية . فهل ترى لهم من باقية ? وجاء فرعون ومن قبله والمؤتفكات بالخاطئة , فعصوا رسول ربهم , فأخذهم أخذة رابية . إنا لما طغا الماء حملناكم في الجارية , لنجعلها لكم تذكرة وتعيها أذن واعية . . وهكذا كل من تلفت عن هذا الأمر أخذ أخذة مروعة داهمة قاصمة , تتناسب مع الجد الصارم الحاسم في هذا الأمر العظيم الهائل , الذي لا يحتمل هزلا , ولا يحتمل لعبا , ولا يحتمل تلفتا عنه من هنا أو هناك !

ويبرز في مشهد القيامة المروع , وفي نهاية الكون الرهيبة , وفي جلال التجلي كذلك وهو أروع وأهول: (فإذا نفخ في الصور نفخة واحدة . وحملت الأرض والجبال فدكتا دكة واحدة , فيومئذ وقعت الواقعة ,وانشقت السماء فهي يومئذ واهية . . والملك على أرجائها ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية). .

ذلك الهول . وهذا الجلال . يخلعان الجد الرائع الجليل على مشهد الحساب عن ذلك الأمر المهول . ويشاركان في تعميق ذلك المعنى في الحس مع سائر إيقاعات السورة وإيحاءاتها . هو وما بعده من مقالة الناجين والمعذبين: فأما من أوتي كتابه بيمينه فيقول:هاؤم اقرؤوا كتابيه . إني ظننت أني ملاق حسابيه . . فقد نجا وما يكاد يصدق بالنجاة . .(وأما من أوتي كتابه بشماله فيقول:يا ليتني لم أوت كتابيه , ولم أدر ما حسابيه . يا ليتها كانت القاضية . ما أغنى عني ماليه . هلك عني سلطانيه). . بهذا التفجع الطويل , الذي يطبع في الحس وقع هذا المصير . .

ثم يبدو ذلك الجد الصارم والهول القاصم في النطق العلوي بالقضاء الرهيب الرعيب , في اليوم الهائل , وفي الموقف الجليل:(خذوه . فغلوه . ثم الجحيم صلوه . ثم في سلسلة ذرعها سبعون ذراعا فاسلكوه). . وكل فقرة كأنها تحمل ثقل السماوات والأرض , وتنقض في

جلال مذهل , وفي هول مروع , وفي جد ثقيل . .

ثم ما يعقب كلمة القضاء الجليل , من بيان لموجبات الحكم الرهيب ونهاية المذنب الرعيبة: إنه كان لا يؤمن بـالله العظيم . ولا يحض على طعام المسكين . فليس له اليوم هاهنا حميم . ولا طعام إلا من غسلين . لا يأكله إلا الخاطئون . .

ثم يبرز ذلك المعنى في التلويح بقسم هائل , وفي تقرير الله لحقيقة الدين الأخير:(فلا أقسم بما تبصرون وما لا تبصرون . إنه لقول رسول كريم . وما هو بقول شاعر قليلا ما تؤمنون , ولا بقول كاهن , قليلا ما تذكرون . تنزيل من رب العالمين).

وأخيرا يبرز الجد في الإيقاع الأخير . وفي التهديد الجازم والأخذ القاصم لكل من يتلاعب في هذا الأمر أو يبدل . كائنا من كان , ولو كان هو محمدا الرسول:(ولو تقول علينا بعض الأقاويل لأخذنا منه باليمين ثم لقطعنا منه الوتين . فما منكم من أحد عنه حاجزين) . فهو الأمر الذي لا تسامح فيه ولا هوادة ولا لين . .

وعندئذ تختم السورة بالتقرير الجازم الحاسم والقول الفصل الأخير عن هذا الأمر الخطير:(وإنه لتذكرة للمتقين . وإنا لنعلم أن منكم مكذبين . وإنه لحسرة على الكافرين . وإنه لحق اليقين . . فسبح باسم ربك العظيم) . وهو الختام الذي يقطع كل قول , ويلقي بكلمة الفصل , وينتهي إلى الفراغ من كل لغو , والتسبيح باسم الله العظيم . .

ذلك المعنى الذي تتمحض السورة لإلقائه في الحس , يتكفل أسلوبها وإيقاعها ومشاهدها وصورها وظلالها بإلقائه وتقريره وتعميقه بشكل مؤثر حي عجيب:

إن أسلوب السورة يحاصر الحس بالمشاهد الحية , المتناهية الحيوية , بحيث لا يملك منها فكاكا , ولا يتصور إلا أنها حية واقعة حاضرة , تطالعه بحيويتها وقوتها وفاعليتها بصورة عجيبة !

فهذه مصارع ثمود وعاد وفرعون وقرى لوط [المؤتفكات] حاضرة شاخصة , والهول المروع يجتاح مشاهدها لا فكاك للحس منها . وهذا مشهد الطوفان وبقايا البشرية محمولة في الجارية مرسوما في آيتين اثنتين سريعتين . . ومن ذا الذي يقرأ:(وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية . سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوما . فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية فهل ترى لهم من باقية ?). . ولا يتمثل لحسه منظر العاصفة المزمجرةالمحطمة المدمرة . سبع ليال وثمانية أيام . ومشهد القوم بعدها صرعى مجدلين (كأنهم أعجاز نخل خاوية !).

وهو مشهد حي ماثل للعين , ماثل للقلب , ماثل للخيال ! وكذلك سائر مشاهد الأخذ الشديد العنيف في السورة .

ثم هذه مشاهد النهاية المروعة لهذا الكون . هذه هي تخايل للحس , وتقرقع حوله , وتغمره بالرعب والهول والكآبة . ومن ذا الذي يسمع:(وحملت الأرض والجبال فدكتا دكة واحدة). . ولا يسمع حسه القرقعة بعد ما ترى عينه الرفعة ثم الدكة !! ومن الذي يسمع: (وانشقت السماء فهي يومئذ واهية . والملك على أرجائها). . ولا يتمثل خاطره هذه النهاية الحزينة , وهذا المشهد المفجع للسماء الجميلة المتينة ?! ثم من الذي لا يغمر حسه الجلال والهول وهو يسمع:(والملك على أرجائها ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية . يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية). .

ومشهد الناجي الآخذ كتابه بيمينه والدنيا لا تسعه من الفرحة , وهو يدعو الخلائق كلها لتقرأ كتابه في رنة الفرح والغبطة: هاؤم اقرؤوا كتابيه . إني ظننت أني ملاق حسابيه !

ومشهد الهالك الآخذ كتابه بشماله . والحسرة تئن في كلماته ونبراته وإيقاعاته: (يا ليتني لم أوت كتابيه . ولم أدر ما حسابيه . يا ليتها كانت القاضية . ما أغنى عني ماليه . هلك عني سلطانيه).

ومن ذا الذي لا يرتعش حسه , وهو يسمع ذلك القضاء الرهيب: خذوه , فغلوه , ثم الجحيم صلوه , ثم في سلسلة ذرعها سبعون ذراعا فاسلكوه . . . الخ. . وهو يشهد كيف يتسابق المأمورون إلى تنفيذ الأمر الرهيب الجليل في ذلك البائس الحسير !

وحاله هناك: فليس له اليوم هاهنا حميم , ولا طعام إلا من غسلين . لا يأكله إلا الخاطئون .

وأخيرا فمن ذا الذي لا تأخذه الرجفة وتلفه الرهبة , وهو يتمثل في الخيال صورة التهديد الشديد:(ولو تقول علينا بعض الأقاويل , لأخذنا منه باليمين , ثم لقطعنا منه الوتين . فما منكم من أحد عنه حاجزين !).
.

إنها مشاهد من القوة والحيوية والحضور بحيث لا يملك الحس أن يتلفت عنها طوال السورة , وهي تلح عليه , وتضغط , وتتخلل الأعصاب والمشاعر في تأثير حقيقي عنيف !

ويشارك إيقاع الفاصلة في السورة , برنته الخاصة وتنوع هذه الرنة , وفق المشاهد والمواقف في تحقيق ذلك التأثير الحي العميق . . فمن المد والتشديد والسكت في مطلع السورة:

(الحاقة . ما الحاقة ? وما أدراك ما الحاقة ?). . إلى الرنة المدوية في الياء والهاء الساكنة بعدها . سواء كانت تاء مربوطة يوقف عليها بـ السكون , أو هاء سكت مزيدة لتنسيق الإيقاع , طوال مشاهد التدمير في الدنيا والآخرة , ومشاهد الفرحة والحسرة في موقف الجزاء . ثم يتغير الإيقاع عند إصدار الحكم إلى رنة رهيبة جليلة مديدة:(خذوه . فغلوه . ثم الجحيم صلوه . . .). . ثم يتغير مرة أخرى عند تقرير أسباب الحكم , وتقرير جدية الأمر , إلى رنة رزينة جادة حاسمة ثقيلة مستقرة على الميم أو النون: نه كان لا يؤمن بالله العظيم . ولا يحض على طعام المسكين . فليس له اليوم هاهنا حميم ولا طعام إلا من غسلين .

.(وإنه لحق اليقين . فسبح باسم ربك العظيم). .

وهذا التغير في حرف الفاصلة وفي نوع المد قبلها وفي الإيقاع كله ظاهرة ملحوظة تتبع تغير السياق والمشاهدوالجو , وتتناسق مع الموضوع والصور والظلال تمام التناسق . وتشارك في إحياء المشاهد وتقوية وقعها على الحس . في السورة القوية الإيقاع العميقة التأثير .

إنها سورة هائلة رهيبة . قل أن يتلقاها الحس إلا بهزة عميقة . وهي بذاتها أقوى من كل استعراض ومن كل تحليل , ومن كل تعليق !

سورة المعارج

هذه السورة حلقة من حلقات العلاج البطيء , المديد , العميق , الدقيق , لعقابيل الجاهلية في النفس البشرية كما واجهها القرآن في مكة ; وكما يمكن أن يواجهها في أية جاهلية أخرى مع اختلافات في السطوح لا في الأعماق ! وفي الظواهر لا في الحقائق !

أو هي جولة من جولات المعركة الطويلة الشاقة التي خاضها في داخل هذه النفس , وفي خلال دروبها ومنحنياتها , ورواسبها وركامها . وهي أضخم وأطول من المعارك الحربية التي خاضها المسلمون - فيما بعد - كما أن هذه الرواسب وتلك العقابيل هي أكبر وأصعب من القوى التي كانت مرصودة ضد الدعوة الإسلامية والتي ما تزال مرصودة لها في الجاهليات القديمة والحديثة !

والحقيقة الأساسية التي تعالج السورة إقرارها هي حقيقة الآخرة وما فيها من جزاء ; وعلى وجه الخصوص ما فيها من عذاب للكافرين , كما أوعدهم القرآن الكريم . وهي تلم - في طريقها إلى إقرار هذه الحقيقة - بحقيقة النفس البشرية في الضراء والسراء . وهي حقيقة تختلف حين تكون مؤمنة وحين تكون خاوية من الإيمان . كما تلم بسمات النفس

المؤمنة ومنهجها في الشعور والسلوك , واستحقاقها للتكريم . وبهوان الذين كفروا على الله وما أعده لهم من مذلة ومهانة تليق بالمستكبرين . . وتقرر السورة كذلك اختلاف القيم والمقاييس في تقدير الله وتقدير البشر , واختلاف الموازين . . .

وتؤلف بهذه الحقائق حلقة من حلقات العلاج الطويل لعقابيل الجاهلية وتصوراتها , أو جولة من جولات المعركة الشاقة في دروب النفس البشرية ومنحنياتها . تلك المعركة التي خاضها القرآن فانتصر فيها في النهاية مجردا من كل قوة غير قوته الذاتية . فقد كان انتصار القرآن الحقيقي في داخل النفس البشرية - ابتداء - قبل أن يكون له سيف يدفع الفتنة عن المؤمنين به فضلا على أن يرغم به أعداءه على الاستسلام له !

والذي يقرأ هذا القرآن - وهو مستحضر في ذهنه لأحداث السيرة - يشعر بالقوة الغالبة والسلطان البالغ الذي كان هذا القرآن يواجه به النفوس في مكة ويروضها حتى تسلس قيادها راغبة مختارة . ويرى أنه كان يواجه النفوس بأساليب متنوعة تنوعا عجيبا . . تارة يواجهها بما يشبه الطوفان الغامر من الدلائل الموحية والمؤثرات الجارفة ! وتارة يواجهها بما يشبه الهراسة الساحقة التي لا يثبت لها شيء مما هو راسخ في كيانها من التصورات والرواسب ! وتارة يواجهها بما يشبه السياط اللاذعة تلهب الحس فلا يطيق وقعها ولا يصبر على لذعها ! وتارة يواجهها بما يشبه المناجاة الحبيبة , والمسارة الودود , التي تهفو لها المشاعر وتأنس لها القلوب ! وتارة يواجهها بالهول المرعب , والصرخة المفزعة , التي تفتح الأعين على الخطر الداهم القريب ! وتارة يواجهها بالحقيقة في بساطة ونصاعة لا تدع مجالا للتلفت عنها ولا الجدال فيها . وتارة يواجهها بالرجاء الصبوح والأمل الندي الذي يهتف لها ويناجيها .وتارة يتخلل مساربها ودروبها ومنحنياتها فيلقي عليها الأضواء التي تكشفها لذاتها فترى ما يجري في داخلها رأي العين , وتخجل من بعضه , وتكره بعضه , وتتيقظ لحركاتها وانفعالاتها التي كانت غافلة عنها ! . . ومئات

من اللمسات , ومئات من اللفتات , ومئات من الهتافات , ومئات من المؤثرات . . يطلع عليها قارئ القرآن , وهو يتبع تلك المعركة الطويلة , وذلك العلاج البطيء . ويرى كيف انتصر القرآن على الجاهلية في تلك النفوس العصية العنيدة .

وهذه السورة تكشف عن جانب من هذه المحاولة في إقرار حقيقة الآ خرة , والحقائق الأخرى التي ألمت بها في الطريق إليها .

وحقيقة الآخرة هي ذاتها التي تصدت لها سورة الحاقة , ولكن هذه السورة تعالجها بطريقة أخرى , وتعرض لها من زاوية جديدة , وصور وظلال جديدة . .

في سورة الحاقة كان الاتجاه إلى تصوير الهول والرعب في هذا اليوم , ممثلين في حركات عنيفة في مشاهد الكون الهائلة:(فإذا نفخ في الصور نفخة واحدة , وحملت الأرض والجبال فدكتا دكة واحدة . فيومئذ وقعت الواقعة , وانشقت السماء فهي يومئذ واهية). . وفي الجلال المهيب في ذلك المشهد المرهوب:(والملك على أرجائها ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية). . وفي التكشف الذي ترتج له وتستهوله المشاعر:(يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية). .

كذلك كان الهول والرعب يتمثلان في مشاهد العذاب , حتى في النطق ب الحكم بهذا العذاب:(خذوه . فغلوه . ثم الجحيم صلوه . ثم في سلسلة ذرعها سبعون ذراعا فاسلكوه). . كما يتجلى في صراخ المعذبين وتأوهاتهم وحسراتهم: (يا ليتني لم أوت كتابيه . ولم أدر ما حسابيه . يا ليتها كانت القاضية . .)

فأما هنا في هذه السورة فالهول يتجلى في ملامح النفوس وسماتها وخوالجها وخطواتها , أكثر مما يتجلى في مشاهد الكون وحركاته . حتى المشاهد الكونية يكاد الهول يكون فيها نفسيا ! وهو على كل حال ليس أبرز ما في الموقف من أهوال . إنما الهول مستكن في النفس

يتجلى مداه في مدى ما يحدثه فيها من خلخلة وذهول وروعة:(يوم تكون السماء كالمهل , وتكون الجبال كالعهن . ولا يسأل حميم حميما . يبصرونهم يود المجرم لو يفتدي من عذاب يومئذ ببنيه , وصاحبته وأخيه , وفصيلته التي تؤويه , ومن في الأرض جميعا ثم ينجيه). .

وجهنم هنا "نفس" ذات مشاعر وذات وعي تشارك مشاركة الأحياء في سمة الهول الحي: إنها لظى . نزاعة للشوى . تدعوا من أدبر وتولى وجمع فأوعى . .

والعذاب ذاته يغلب عليه طابع نفسي أكثر منه حسيا:(يوم يخرجون من الأجداث سراعا كأنهم إلى نصب يوفضون , خاشعة أبصارهم ترهقهم ذلة , ذلك اليوم الذي كانوا يوعدون). .

فالمشاهد والصور والظلال لهذا اليوم تختلف في سورة المعارج عنها في سورة الحاقة , باختلاف طابعي السورتين في عمومه . مع اتحاد الحقيقة الرئيسية التي تعرضها السورتان في هذه المشاهد .

ومن ثم فقد تناولت سورة المعارج - فيما تناولت - تصوير النفس البشرية في الضراء والسراء , في حالتي الإيمان والخواء من الإيمان . وكان هذا متناسقا مع طابعها "النفسي" الخاص:فجاء في صفة الإنسان (إن الإنسان خلق هلوعا . إذا مسه الشر جزوعا , وإذا مسه الخير منوعا . إلا المصلين , الذين هم على صلاتهم دائمون . . الخ. .

واستطرد السياق فصور هنا صفات النفوس المؤمنة وسماتها الظاهرة و المضمرة تمشيا مع طبيعة السورة وأسلوبها: (إلا المصلين . الذين هم على صلاتهم دائمون . والذين في أموالهم حق معلوم للسائل و المحروم . والذين يصدقونبيوم الدين . والذين هم من عذاب ربهم مشفقون . إن عذاب ربهم غير مأمون . والذين هم لفروجهم حافظون . إ لا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين . فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون . والذين هم لآماناتهم وعهدهم راعون . و

الذين هم بشهاداتهم قائمون . والذين هم على صلاتهم يحافظون . . .).
.

ولقد كان الاتجاه الرئيسي في سورة الحاقة إلى تقرير حقيقة الجد الصارم في شأن العقيدة . ومن ثم كانت حقيقة الآخرة واحدة من حقائق أخرى في السورة , كحقيقة أخذ المكذبين أخذا صارما في الأ رض ; وأخذ كل من يبدل في العقيدة بلا تسامح . . فأما الاتجاه الرئيسي في سورة المعارج فهو إلى تقرير حقيقة الآخرة وما فيها من جزاء , وموازين هذا الجزاء . فحقيقة الآخرة هي الحقيقة الرئيسية فيها .

ومن ثم كانت الحقائق الأخرى في السورة كلها متصلة اتصالا مباشرا بحقيقة الآخرة فيها . من ذلك حديث السورة عن الفارق بين حساب الله في أيامه وحساب البشر , وتقدير الله لليوم الآخر وتقدير البشر: تعرج الملائكة والروح إليه في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة , فاصبر صبرا جميلا . إنهم يرونه بعيدا ونراه قريبا . . . الخ وهو متعلق باليوم ا لآخر .

ومنه ذلك الفارق بين النفس البشرية في الضراء والسراء في حالتي الإ يمان والخلو من الإيمان . وهما مؤهلان للجزاء في يوم الجزاء .

ومنه غرور الذين كفروا وطمعهم أن يدخلوا كلهم جنات نعيم , مع هوانهم على الله وعجزهم عن سبقه والتفلت من عقابه . وهو متصل اتصالا وثيقا بمحور السورة الأصيل .

وهكذا تكاد السورة تقتصر على حقيقة الآخرة وهي الحقيقة الكبيرة التي تتصدى لإقرارها في النفوس . مع تنوع اللمسات والحقائق الأخرى المصاحبة ! للموضوع الأصيل .

ظاهرة أخرى في هذا الإيقاع الموسيقي للسورة , الناشئ من بنائها التعبيري . . فقد كان التنوع الإيقاعي في الحاقة ناشئا من تغير القافية

في السياق من فقرة لفقرة . وفق المعنى والجو فيه . . فأما هنا في سورة المعارج فالتنوع أبعد نطاقا , لأنه يشمل تنوع الجملة الموسيقية كلها لا إيقاع القافية وحدها . والجملة الموسيقية هنا أعمق وأعرض وأشد تركيبا . ويكثر هذا التنوع في شطر السورة الأول بشكل ملحوظ .

ففي هذا المطلع ثلاث جمل موسيقية منوعة - مع اتحاد الإيقاع في نهاياتها - من حيث الطول ومن حيث الإيقاعات الجزئية فيها على النحو التالي:

(سأل سائل بعذاب واقع . للكافرين ليس له دافع . من الله ذي المعارج . تعرج الملائكة والروح إليه . في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة . فاصبر صبرا جميلا). . حيث تنتهي بمد الألف في الإيقاع الخامس .

(إنهم يرونه بعيدا . ونراه قريبا). . حيث يتكرر الإيقاع بمد الألف مرتين .

(يوم تكون السماء كالمهل . وتكون الجبال كالعهن . ولا يسأل حميم حميما). . حيث تنتهي بمد الألف في الإيقاع الثالث . مع تنوع الإيقاع في الداخل .

(يبصرونهم يود المجرم لو يفتدي من عذاب يومئذ ببنيه . وصاحبته وأخيه . وفصيلته التي تؤويه . ومن في الأرض جميعا ثم ينجيه . كلا إنها لظى). . حيث تنتهي بمد الألف في الإيقاع الخامس كالأول .

(نزاعة للشوى . . تدعو من أدبر وتولى . وجمع فأوعى . إن الإنسان خلق هلوعا . إذا مسه الشر جزوعا . وإذا مسه الخير منوعا). . حيث يتكرر إيقاع المد بالألف خمس مرات منهما اثنتان في النهاية تختلفان عن الثلا ثة الأولى .

ثم يستقيم الإيقاع في باقي السورة على الميم والنون وقبلهما واو أو ياء . .

والتنويع الإيقاعي في مطلع السورة عميق وشديد التعقيد في الصياغة الموسيقية بشكل يلفت الأذن الموسيقية إلى ما في هذا التنويع المعقد الراقي - موسيقيا - من جمال غريب على البيئة العربية وعلى الإيقاع الموسيقي العربي . ولكن الأسلوب القرآني يطوعه ويمنحه اليسر الذي يدخل به إلى الأذن العربية فتقبل عليه , وإن كان فنا إبداعيا عميقا جديدا على مألوفها الموسيقي .

سورة نوح

هذه السورة كلها تقص قصة نوح - عليه السلام - مع قومه ; وتصف تجربة من تجارب الدعوة في الأرض ; وتمثل دورة من دورات العلاج الدائم الثابت المتكرر للبشرية , وشوطا من أشواط المعركة الخالدة بين الخير والشر , والهدى والضلال , والحق والباطل .

هذه التجربة تكشف عن صورة من صور البشرية العنيدة , الضالة , الذاهبة وراء القيادات المضللة , المستكبرة عن الحق , المعرضة عن دلا ئل الهدى وموحيات الإيمان , المعروضة أمامها في الأنفس والآفاق , المرقومة في كتاب الكون المفتوح , وكتاب النفس المكنون .

وهي في الوقت ذاته تكشف عن صورة من صور الرحمة الإلهية تتجلى في رعاية الله لهذا الكائن الإنساني , وعنايته بأن يهتدي . تتجلى هذه العناية في إرسال الرسل تترى إلى هذه البشرية العنيدة الضالة الذاهبة وراء القيادات المضللة المستكبرة عن الحق والهدى .

ثم هي بعد هذا وذلك تعرض صورة من صور الجهد المضني , والعناء المرهق , والصبر الجميل , والإصرار الكريم من جانب الرسل - صلوات الله عليهم - لهداية هذه البشرية الضالة العنيدة العصية الجامحة . وهم لا مصلحة لهم في القضية ولا أجر يتقاضونه من المهتدين على الهداية , ولا مكافأة ولا جعل يحصلونه على حصول الإيمان ! كالمكافأة أو النفقة

التي تتقاضاها المدارس والجامعات والمعاهد والمعلمون , في زماننا هذا وفي كل زمان في صورة نفقات للتعليم !

هذه الصورة التي يعرضها نوح - عليه السلام - على ربه , وهو يقدم له حسابه الأخير بعد ألف سنة إلا خمسين عاما قضاها في هذا الجهد المضني , والعناء المرهق , مع قومه المعاندين , الذاهبين وراء قيادة ض الة مضللة ذات سلطان ومال وعزوة . وهو يقول:

رب . إني دعوت قومي ليلا ونهارا . فلم يزدهم دعائي إلا فرارا . وإني كلما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا أصابعهم في آذانهم واستغشوا ثيابهم , وأصروا واستكبروا استكبارا . ثم إني دعوتهم جهارا . ثم إني أعلنت لهم وأسررت لهم إسرارا . فقلت:استغفروا ربكم , إنه كان غفارا , يرسل السماء عليكم مدرارا , ويمددكم بأموال وبنين , ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهارا . مالكم لا ترجون لله وقارا ? وقد خلقكم أطوارا ? ألم تروا كيف خلق الله سبع سماوات طباقا ? وجعل القمر فيهن نورا وجعل الشمس سراجا ? والله أنبتكم من الأرض نباتا , ثم يعيدكم فيها ويخرجكم إخراجا . والله جعل لكم الأرض بساطا , لتسلكوا منها سبلا فجاجا . . !

ثم يقول بعد عرض هذا الجهد الدائب الملح الثابت المصر:

(رب إنهم عصوني , واتبعوا من لم يزده ماله وولده إلا خسارا . ومكروا مكرا كبارا . وقالوا لا تذرن آلهتكم , ولا تذرن ودا ولا سواعا ولا يغوث ويعوق ونسرا . وقد أضلوا كثيرا . . .). .

وهي حصيلة مريرة . ولكن الرسالة هي الرسالة !

هذه التجربة المريرة تعرض على رسول الله [ص] وهو الذي انتهت إليه أمانة دعوة الله في الأرض كلها في آخر الزمان , واضطلع بأكبر عبء كلفه رسول . . يرى فيها صورة الكفاح النبيل الطويل لأخ له من قبل , لإ قرار حقيقة الإيمان في الأرض . ويطلع منها على عناد البشرية أمام

دعوة الحق ; وفساد القيادة الضالة وغلبتها على القيادة الراشدة . ثم إرادة الله في إرسال الرسل تترى بعد هذا العناد والضلال منذ فجر البشرية على يدي جدها نوح عليه السلام .

وتعرض على الجماعة المسلمة في مكة , وعلى الأمة المسلمة بعامة , وهي الوارثة لدعوة الله في الأرض , وللمنهج الإلهي المنبثق من هذه الدعوة , القائمة عليه في وسط الجاهلية المشتركة يومذاك , وفي وسط كل جاهلية تالية . . ترى فيها صورة الكفاح والإصرار والثبات هذا المدى الطويل من أبي البشرية الثاني . كما ترى فيها عناية الله بالقلة المؤمنة , وإنجاءها من الهلاك الشامل في ذلك الحين .

وتعرض على المشركين ليروا فيها مصير أسلافهم المكذبين ; ويدركوا نعمة الله عليهم في إرساله إليهم رسولا رحيما بهم , لا يدعو عليهم بالهلا ك الشامل ; وذلك لما قدره الله من الرحمة بهم وإمهالهم إلى حين . فلم تصدر من نبيهم دعوة كدعوة نوح , بعدما استنفد كل الوسائل , وألهم الدعاء على القوم بما ألهم:

(ولا تزد الظالمين إلا ضلالا). .

(وقال نوح رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا . إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجرا كفارا). .

ومن خلال عرض هذه الحلقة من حلقات الدعوة الإلهية على البشرية تتجلى حقيقة وحدة العقيدة وثبات أصولها , وتأصل جذورها . كما يتجلى ارتباطها بالكون وبإرادة الله وقدره , وأحداث الحقيقة الواقعة وفق قدر الله . وذلك من خلال دعوة نوح لقومه:(قال:يا قوم إني لكم نذير مبين . أن اعبدوا الله واتقوه وأطيعون . يغفر لكم من ذنوبكم ويؤخركم إلى أجل مسمى , إن أجل الله إذا جاء لا يؤخر , لو كنتم تعلمون). . وفي حكاية قوله لهم: ما لكم لا ترجون لله وقارا وقد خلقكم أطوارا ? ألم تروا كيف خلق الله سبع سماوات طباقا ? وجعل القمر

فيهن نورا وجعل الشمس سراجا ? والله أنبتكم من الأرض نباتا , ثم يعيدكم فيها ويخرجكم إخراجا , والله جعل لكم الأرض بساطا لتسلكوا منها سبلا فجاجا . .

ولإقرار هذه الحقيقة في نفوس المسلمين قيمته في شعورهم بحقيقة دعوتهم , وحقيقة نسبهم العريق ! وحقيقة موكبهم المتصل من مطلع البشرية . وحقيقة دورهم في إقرار هذه الدعوة والقيام عليها . وهي منهج الله القويم القديم .

وإن الإنسان ليأخذه الدهش والعجب , كما تغمره الروعة والخشوع , وهو يستعرض - بهذه المناسبة - ذلك الجهد الموصول من الرسل - عليهم صلوات الله وسلامه - لهداية البشرية الضالة المعاندة . ويتدبر إرادة الله المستقرة على إرسال هؤلاء الرسل واحدا بعد واحد لهذه البشرية المعرضة العنيدة .

وقد يعن للإنسان أن يسأل:ترى تساوي الحصيلة هذا الجهد الطويل , وتلك التضحيات النبيلة , من لدن نوح - عليه السلام - إلى محمد - عليه الصلاة والسلام - ثم ما كان بينهما وما تلاهما من جهود المؤمنين بدعوة الله وتضحياتهم الضخام ?

ترى هل تساوي هذا الجهد الذي وصفه نوح في هذه السورة وفي غيرها من سور القرآن , وقد استغرق عمرا طويلا بالغ الطول , لم يكتف قومه فيه بالإعراض , بل أتبعوه بالسخرية والاتهام . وهو يتلقاهما بالصبر و الحسنى , والأدب الجميل والبيان المنير .

ثم تلك الجهود الموصولة منذ ذلك التاريخ , وتلك التضحيات النبيلة التي لم تنقطع على مدار التاريخ . من رسل يستهزأ بهم , أو يحرقون بـ النار , أو ينشرون بالمنشار , أو يهجرون الأهل والديار . . حتى تجيء الرسالة الأخيرة , فيجهد فيها محمد [ص] ذلك الجهد المشهود المعروف , هو والمؤمنون معه . ثم تتوالى الجهود المضنية والتضحيات

المذهلة من القائمين على دعوته في كل أرض وفي كل جيل ؟ ؟

ترى تساوي الحصيلة كل هذه الجهود , وكل هذه التضحيات , وكل هذا الجهاد المرير الشاق ؟ ثم . . ترى هذه البشرية كلها تساوي تلك العناية الكريمة من الله , المتجلية في استقرار إرادته سبحانه على إرسال الرسل تترى بعد العناد والإعراض والإصرار والاستكبار , من هذا الخلق الهزيل الصغير المسمى بالإنسان ؟!

والجواب بعد التدبر:أن نعم . . وبلا جدال . . !

إن استقرار حقيقة الإيمان بالله في الأرض يساوي كل هذا الجهد , وكل هذا الصبر , وكل هذه المشقة , وكل هذه التضحيات النبيلة المطردة من الرسل وأتباعهم الصادقين في كل جيل !

ولعل استقرار هذه الحقيقة أكبر من وجود الإنسان ذاته ; بل أكبر من الأ رض وما عليها ; بل أكبر من هذا الكون الهائل الذي لا تبلغ الأرض أن تكون فيه هباءة ضائعة لا تكاد تحس أو ترى !

وقد شاءت إرادة الله أن يخلق هذا الكائن الإنساني بخصائص معينة , تجعل استقرار هذه الحقيقة في ضميره وفي نظام حياته موكولا إلى الجهد الإنساني ذاته , بعون الله وتوفيقه . ولسنا نعلم لم خلق الله هذا الكائن بهذه الخصائص . ووكله إلى إدراكه وجهده وإرادته في تحقيق حقيقة الإيمان في ذاته وفي نظام حياته ; ولم يجبله على الإيمان و الطاعة لا يعرف غيرهما كالملائكة , أو يمحضه للشر والمعصية لا يعرف غيرهما كإبليس .

لسنا نعلم سر هذا . ولكننا نؤمن بأن هنالك حكمة تتعلق بنظام الوجود كله في خلق هذا الكائن بهذه الخصائص !

وإذن فلا بد من جهد بشري لإقرار حقيقة الإيمان في عالم الإنسان . هذا الجهد اختار الله له صفوة من عباده هم الأنبياء والرسل . وثلة مختارة

من أتباعهم هم المؤمنون الصادقون . اختارهم لإقرار هذه الحقيقة في ا لأرض , لأنها تساوي كل ما يبذلون فيها من جهود مضنية مريرة , وتضحيات شاقة نبيلة .

إن استقرار هذه الحقيقة في قلب معناه أن ينطوي هذا القلب على قبس من نور الله ; وأن يكون مستودعا لسر من أسراره ; وأن يكون أداة من أدوات قدره النافذ في هذا الوجود . . وهذه حقيقة لا مجرد تصوير وتقريب . . وهي حقيقة أكبر من الإنسان ذاته ومن أرضه وسمائه , ومن كل هذا الكون الكبير !

كما أن استقرار حقيقة الإيمان في حياة البشر - أو جماعة منهم - معناه اتصال هذه الحياة الأرضية بالحياة الأبدية , وارتفاعها إلى المستوى الذي يؤهلها لهذا الإتصال . معناه اتصال الفناء بالبقاء والجزء بالكل و المحدود الناقص بالكمال المطلق . . . وهي حصيلة تربى على كل جهد وكل تضحية ولو تحققت على الأرض يوما أوبعض يوم في عمر البشرية الطويل , لأن تحققها - ولو في هذه الصورة - يرفع أمام البشرية في سائر أجيالها مشعل النور في صورة عملية واقعية , تجاهد لتبلغ إليها طوال الأجيال !

ولقد أثبت الواقع التاريخي المتكرر أن النفس البشرية لم تبلغ إلى آفاق الكمال المقدر لها بأية وسيلة كما بلغتها باستقرار حقيقة الإيمان بالله فيها . وأن الحياة البشرية لم ترتفع إلى هذه الآفاق بوسيلة أخرى كما ارتفعت بهذه الوسيلة . وأن الفترات التي استقرت فيها هذه الحقيقة في الأرض , وتسلم أهلها قيادة البشرية كانت قمة في تاريخ الإنسان سامقة , بل كانت حلما أكبر من الخيال , ولكنه متمثل في واقع يحياه الناس .

وما يمكن أن ترتقي البشرية ولا أن ترتفع عن طريق فلسفة أو علم أو فن أو مذهب من المذاهب أو نظام , إلى المستوى الذي وصلت أو تصل إليه عن طريق استقرار حقيقة الإيمان بالله في نفوس الناس وحياتهم

وأخلاقهم وتصوراتهم وقيمهم وموازينهم . . وهذه الحقيقة ينبثق منها منهج حياة كامل , سواء جاءت مجملة كما هي في الرسالات الأولى , أو مفصلة شاملة دقيقة كما هي في الرسالة الأخيرة .

والدليل القاطع على أن هذه العقيدة حقيقة من عند الله ; هو هذا الذي أثبته الواقع التاريخي من بلوغ البشرية باستقرار حقيقة الإيمان في حياتها ما لم تبلغه قط بوسيلة أخرى من صنع البشر:لا علم , ولا فلسفة , ولا فن , ولا نظام من النظم . وأنها حين فقدت قيادة المؤمنين الحقيقيين لم ينفعها شيء من ذلك كله ; بل انحدرت قيمها وموازينها وانسانيتها , كما غرقت في الشقاء النفسي والحيرة الفكرية والأمراض العصبية , على الرغم من تقدمها الحضاري في سائر الميادين , وعلى الرغم من توافر عوامل الراحة البدنية والمتاع العقلي , وأسباب السعادة المادية بجملتها . ولكنها لم تنل السعادة والطمأنينة والراحة الإنسانية أبدا . ولم يرتفع تصورها للحياة قط كما ارتفع في ظل الحقيقة الإ يمانية , ولم تتوثق صلتها بالوجود قط كما توثقت في ظل هذه العقيدة , ولم تشعر بكرامة "النفس الإنسانية " قط كما شعرت بها في تلك الفترة التي استقرت فيها تلك الحقيقة . والدراسة الواعية للتصور ا لإسلامي لغاية الوجود كله وغاية الوجود الإنساني تنتهي حتما إلى هذه النتيجة .

وهذا كله يستحق - بدون تردد - كل ما يبذله المؤمنون من جهود مضنية , ومن تضحيات نبيلة , لإقرار حقيقة الإيمان بالله في الأرض . وإقامة قلوب تنطوي على قبس من نور الله , وتتصل بروح الله . وإقامة حياة إنسانية يتمثل فيها منهج الله للحياة . وترتفع فيها تصورات البشر وأخلاقهم , كما يرتفع فيها واقع حياتهم إلى ذلك المستوى الرفيع , الذي شهدته البشرية واقعا في فترة من فترات التاريخ .

وستعرض البشرية كما أعرضت عن دعوة نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد وإخوانهم الكرام . وستذهب مع القيادات الضالة المضلة

الممعنة في الضلال . وستعذب الدعاة إلى الحق أنواعا مختلفة من العذاب , وتنكل بهم ألوانا شتى من النكال . كما ألقت إبراهيم في النار , ونشرت غيره بالمنشار , وسخرت واستهزأت بالرسل والأنبياء على مدار التاريخ .

ولكن الدعوة إلى الله لا بد أن تمضي في طريقها كما أراد الله . لأن الحصيلة تستحق الجهود المضنية والتضحيات النبيلة , ولو صغرت فانحصرت في قلب واحد ينطوي على قبس من نور الله , ويتصل بروح الله !

إن هذا الموكب المتصل من الرسل والرسالات من عهد نوح - عليه السلا م - إلى عهد محمد - عليه أزكى السلام - لينبئ عن استقرار إرادة الله على اطراد الدعوة إلى حقيقة الإيمان الكبيرة , وعلى قيمة هذه الدعوة وقيمة الحصيلة . وأقل نسبة لهذه الحصيلة هي أن تستقر حقيقة الإ يمان في قلوب الدعاة أنفسهم حتى يلاقوا الموت وما هو أشد من الموت في سبيلها ولا ينكصون عنها . وبهذا يرتفعون على الأرض كلها وينطلقون منجواذبها , ويتحررون من ربقتها . وهذا وحده كسب كبير , أكبر من الجهد المرير . كسب للدعاة . وكسب للإنسانية التي تشرف بهذا الصنف منها وتكرم . وتستحق أن يسجد الله الملائكة لهذا الكائن , الذي يفسد في الأرض ويسفك الدماء . ولكنه يتهيأ - بجهده هو ومحاولته وتضحيته - لاستقبال قبس من نور الله . كما يتهيأ لأن ينهض - وهو الضعيف العاجز - بتحقيق قدر الله في الأرض , وتحقيق منهجه في الحياة . ويبلغ من الطلاقة والتحرر الروحي أن يضحي بالحياة , ويتحمل من المشقة ما هو أكبر من ضياع الحياة , لينجو بعقيدته وينهض بواجبه في محاولة إقرارها في حياة الآخرين , وتحقيق السعادة لهم والتحرر والارتفاع . وحين يتحقق لروح الإنسان هذا القدر من التحرر والانطلاق , يهون الجهد , وتهون المشقة , وتهون التضحية , ويتوارى هذا كله , لتبرز تلك الحصيلة الضخمة التي ترجح الأرض و السماء في ميزان الله . . .

هذه السورة تبده الحس - قبل أن ينظر إلى المعاني والحقائق الواردة فيها - بشيء آخر واضح كل الوضوح فيها . . إنها قطعة موسيقية مطردة الإيقاع , قوية التنغيم , ظاهرة الرنين ; مع صبغة من الحزن في إيقاعها , ومسحة من الأسى في تنغيمها , وطائف من الشجى في رنينها , يساند هذه الظاهرة ويتناسق معها صور السورة وظلالها ومشاهدها , ثم روح الإيحاء فيها . وبخاصة في الشطر الأخير منها بعد انتهاء حكاية قول الجن , والاتجاه بالخطاب إلى رسول الله [ص] هذا الخطاب الذي يثير العطف على شخص الرسول في قلب المستمع لهذه السورة , عطفا مصحوبا بالحب وهو يؤمر أن يعلن تجرده من كل شيء في أمر هذه الدعوة إلا البلاغ , والرقابة الإلهية المضروبة حوله وهو يقوم بهذا البلاغ:(قل:إنما أدعو ربي ولا أشرك به أحدا . . قل:إني لا أملك لكم ضرا ولا رشدا . . قل:إني لن يجيرني من الله أحد ولن أجد من دونه ملتحدا , إلا بلاغا من الله ورسالاته , ومن يعص الله ورسوله فإن له نار جهنم خالدين فيها أبدا , حتى إذا رأوا ما يوعدون فسيعلمون من أضعف ناصرا وأقل عددا . . قل:إن أدري أقريب ما توعدون أم يجعل له ربي أمدا , عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحدا , إلا من ارتضى من رسول فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصدا , ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم , وأحاط بما لديهم , وأحصى كل شيء عددا). .

وذلك كله إلى جانب الإيقاع النفسي للحقائق التي وردت في حكاية قول الجن , وبيانهم الطويل المديد . وهي حقائق ذات ثقل ووزن في الحس والتصور ; والاستجابة لها تغشى الحس بحاله من التدبر والتفكير , تناسب مسحة الحزن ورنة الشجى المتمشية في إيقاع السورة الموسيقي !

وقراءة هذه السورة بشيء من الترتيل الهادئ , توقع في الحس هذا الذي وصفناه من المسحة الغالبة عليها . .

فإذا تجاوزنا هذه الظاهرة التي تبده الحس ; إلى موضوع السورة ومعانيها واتجاهها فإننا نجدها حافلة بشتى الدلالات والإيحاءات .

إنها ابتداء شهادة من عالم آخر بكثير من قضايا العقيدة التي كان المشركون يجحدونها ويجادلون فيها أشد الجدل , ويرجمون في أمرها رجما لا يستندون فيه إلى حجة , ويزعمون أحيانا أن محمدا [ص] يتلقى من الجن ما يقوله لهم عنها ! فتجيء الشهادة من الجن أنفسهم بهذه القضايا التي يجحدونها ويجادلون فيها ; وبتكذيب دعواهم في استمداد محمد من الجن شيئا . والجن لم يعلموا بهذا القرآن إلا حين سمعوه من محمد [ص] فهالهم وراعهم ومسهم منه ما يدهش ويذهل , وملأ نفوسهم وفاض حتى ما يملكون السكوت على ما سمعوا , ولا الإجمال فيما عرفوا , ولا الاختصار فيما شعروا . فانطلقوا يحدثون في روعة المأخوذ , ووهلة المشدوه , عن هذا الحادث العظيم , الذي شغل السماء والأرض والإنس والجن والملائكة والكواكب . وترك آثاره ونتائجه في الكون كله ! . . وهي شهادة لها قيمتها في النفس البشرية حتما .

ثم إنها تصحيح لأوهام كثيرة عن عالم الجن في نفوس المخاطبين ابتداء بهذه السورة , وفي نفوس الناس جميعا من قبل ومن بعد ; ووضع حقيقة هذا الخلق المغيب في موضعها بلا غلو ولا اعتساف . فقد كان العرب المخاطبون بهذا القرآن أول مرة يعتقدون أن للجن سلطانا في الأرض , فكان الواحد منهم إذا أمسى بواد أو قفر , لجأ إلى الاستعاذة بعظيم الجن الحاكم لما نزل فيه من الأرض , فقال:أعوذ بسيد هذا الوادي من سفهاء قومه . . ثم بات آمنا ! كذلك كانوا يعتقدون أن الجن تعلم الغيب وتخبر به الكهان فيتنبأون بما يتنبأون . وفيهم من عبد الجن وجعل بينهم وبين الله نسبا , وزعم له سبحانه وتعالى زوجة منهم تلد له الملائكة !

والاعتقاد في الجن على هذا النحو أو شبهه كان فاشيا في كل جاهلية ,

ولا تزال الأوهام والأساطير من هذا النوع تسود بيئات كثيرة إلى يومنا هذا !!!

وبينما كانت الأوهام والأساطير تغمر قلوب الناس ومشاعرهم وتصوراتهم عن الجن في القديم , وما تزال . . نجد في الصف الآخر اليوم منكرين لوجود الجن أصلا , يصفون أي حديث عن هذا الخلق المغيب بأنه حديث خرافة . .

وبين الإغراق في الوهم , والإغراق في الإنكار , يقرر الإسلام حقيقة الجن , ويصحح التصورات العامة عنهم , ويحرر القلوب من خوفها وخضوعها لسلطانهم الموهوم:

فالجن لهم حقيقة موجودة فعلا وهم كما يصفون أنفسهم هنا:(وأنا منا الصالحون ومنا دون ذلك كنا طرائق قددا). . ومنهم الضالون المضلون ومنهم السذج الأبرياء الذين ينخدعون:(وأنه كان يقول سفيهنا على الله شططا , وأنا ظننا أن لن تقول الإنس والجن على الله كذبا). . وهم قابلون للهداية من الضلال , مستعدون لإدراك القرآن سماعا وفهما وتأثرا:(قل:أوحي إلي أنه استمع نفر من الجن فقالوا:إنا سمعنا قرآنا عجبا يهدي إلى الرشد فآمنا به , ولن نشرك بربنا أحدا). . وأنهم قابلون بخلقتهم لتوقيع الجزاء عليهم وتحقيق نتائج الإيمان و الكفر فيهم:(وأنا لما سمعنا الهدى آمنا به , فمن يؤمن بربه فلا يخاف بخسا ولا رهقا . وأنا منا المسلمون ومنا القاسطون , فمن أسلم فأولئك تحروا رشدا , وأما القاسطون , فكانوا لجهنم حطبا). . وأنهم لا ينفعون الإنس حين يلوذون بهم بل يرهقونهم:(وأنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقا). . وأنهم لا يعلمون الغيب , ولم تعد لهم صلة بالسماء: وأنا لمسنا السماء فوجدناها ملئت حرسا شديدا وشهبا , وأنا كنا نقعد منها مقاعد للسمع , فمن يستمع الآن يجد له شهابا رصدا , وأنا لا ندري أشر أريد بمن في الأرض أم أراد بهم ربهم رشدا . . وأنهم لا صهر بينهم وبين الله - سبحانه وتعالى - ولا نسب:(وأنه تعالى جد ربنا ما اتخذ

صاحبة ولا ولدا). . وأن الجن لا قوة لهم مع قوة الله ولا حيلة: (وأنا ظننا أن لن نعجزالله في الأرض ولن نعجزه هربا). .

وهذا الذي ذكر في هذه السورة عن الجن بالإضافة إلى ما جاء في القرآن من صفات أخرى كتسخير طائفة من الشياطين لسليمان - وهم من الجن - وأنهم لم يعلموا بموته إلا بعد فترة , فدل هذا على أنهم لا يعلمون الغيب: فلما قضينا عليه الموت ما دلهم على موته إلا دابة الأرض تأكل منسأته , فلما خر تبينت الجن أن لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا في العذاب المهين . .

ومثل قوله تعالى عن خصيصة من خصائص إبليس وقبيله - وهو من الجن - غير أنه تمحض للشر والفساد والإغراء: إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم . . وما يدل عليه من أن كيان الجن غير مرئي للبشر , في حين أن كيان الإنس مرئي للجن .

هذا بالإضافة إلى ما قرره في سورة الرحمن عن المادة التي منها كيان الجن والمادة التي منها كيان الإنسان في قوله:(خلق الإنسان من صلصال كالفخار , وخلق الجان من مارج من نار). . يعطي صورة عن ذلك الخلق المغيب , تثبت وجوده , وتحدد الكثير من خصائصه ; وفي الوقت ذاته تكشف الأوهام والأساطير , العالقة بالأذهان عن ذلك الخلق , وتدع تصور المسلم عنه واضحا دقيقا متحررا من الوهم والخرافة , ومن التعسف في الإنكار الجامح كذلك !

وقد تكفلت هذه السورة بتصحيح ما كان مشركو العرب وغيرهم يظنونه عن قدرة الجن ودورهم في هذا الكون . أما الذين ينكرون وجود هذا الخلق إطلاقا , فلا أدري علام يبنون هذا الإنكار , بصيغة الجزم والقطع , والسخرية من الاعتقاد بوجوده , وتسميته خرافة !

ألأنهم عرفوا كل ما في هذا الكون من خلائق فلم يجدوا الجن من بينها ?! إن أحدا من العلماء لا يزعم هذا حتى اليوم . وإن في هذه الأ

رض وحدها من الخلائق الحية لكثيرا مما يكشف وجوده يوما بعد يوم , ولم يقل أحد إن سلسلة الكشوف للأحياء في الأرض وقفت أو ستقف في يوم من الأيام !

ألأنهم عرفوا كل القوى المكنونة في هذا الكون فلم يجدوا الجن من بينها ؟! إن أحدا لا يدعي هذه الدعوى . فهناك قوى مكنونة تكشف كل يوم ; وهي كانت مجهولة بالأمس . والعلماء جادون في التعرف إلى القوى الكونية , وهم يعلنون في تواضع قادتهم إليه كشوفهم العلمية ذاتها , أنهم يقفون على حافة المجهول في هذا الكون , وأنهم لم يكادوا يبدأون بعد !

ألأنهم رأوا كل القوى التي استخدموها , فلم يروا الجن من بينها ؟! ولا هذه . فإنهم يتحدثون عن الكهرب بوصفه حقيقة علمية منذ توصلوا إلى تحطيم الذرة . ولكن أحدا منهم لم ير الكهرب قط . وليس في معاملهم من الأجهزة ما يفرزون به كهربا من هذه الكهارب التي يتحدثون عنها !

ففيم إذن هذا الجزم بنفي وجود الجن ؟ ومعلومات البشر عن هذا الكون وقواه وسكانه من الضآلة بحيث لا تسمح لإنسان يحترم عقله أن يجزم بشيء ؟ ألأن هذا الخلق المسمى الجن تعلقت به خرافات شتى وأساطير كثيرة ؟ إن طريقنا في هذه الحالة هو إبطال هذه الخرافات والأساطير كما صنع القرآن الكريم , لا التبجح بنفي وجود هذا الخلق من الأساس , بـ لا حجة ولا دليل ! ومثل هذا الغيب ينبغي تلقي نبئه من المصدر الوحيدالموثوق بصحته , وعدم معارضة هذا المصدر بتصورات سابقة لم تستمد منه . فما يقوله هو كلمة الفصل في مثل هذا الموضوع .

والسورة التي بين أيدينا - بالإضافة إلى ما سبق - تساهم مساهمة كبيرة في إنشاء التصور الإسلامي عن حقيقة الألوهية , وحقيقة العبودية , ثم عن هذا الكون وخلائقه , والصلة بين هذه الخلائق المنوعة .

وفي مقالة الجن ما يشهد بوحدانية الله , ونفي الصاحبة والولد , وإثبات

الجزاء في الآخرة ; وأن أحدا من خلق الله لا يعجزه في الأرض ولا يفلت من يديه ويفوته , فلا يلاقي جزاءه العادل . وتتكرر بعض هذه الحقائق فيما يوجه للرسول [ص] من الخطاب:(قل:إنما أدعو ربي ولا أشرك به أحدا). .(قل:إني لن يجيرني من الله أحد ولن أجد من دونه ملتحدا). . وذلك بعد شهادة الجن بهذه الحقيقة شهادة كاملة صريحة .

كما أن تلك الشهادة تقرر أن الألوهية لله وحده , وأن العبودية هي أسمى درجة يرتفع إليها البشر:(وأنه لما قام عبد الله يدعوه كادوا يكونون عليه لبدا). . ويؤكد السياق هذه الحقيقة فيما يوجه للرسول [ص] من خطاب:(قل:إني لا أملك لكم ضرا ولا رشدا). .

والغيب موكول لله وحده ; لا تعرفه الجن:(وأنا لا ندري أشر أريد بمن في الأرض أم أراد بهم ربهم رشدا). . ولا تعرفه الرسل إلا ما يطلعهم الله عليه منه لحكمة يعلمها:(قل:إن أدري أقريب ما توعدون أم يجعل له ربي أمدا . عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحدا , إلا من ارتضى من رسول , فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصدا . . .). .

"أما العباد والعبيد في هذا الكون , فقد علمتنا السورة أن بين بعضها و البعض الآخر مشاركات ومنافذ , ولو اختلف تكوينها , كالمشاركات التي بين الجن والإنس , مما حكته السورة وحكاه القرآن في مواضع أخرى . فالإنسان ليس بمعزل - حتى في هذه الأرض - عن الخلائق الأخرى . وبينه وبينها اتصال وتفاعل في صورة من الصور . وهذه العزلة التي يحسها الإنسان بجنسه - بله العزلة الفردية أو القبلية أو القومية - لا وجود لها في طبيعة الكون ولا في واقعه . وأحرى بهذا التصور أن يفسح في شعور الإنسان بالكون وما يعمره من أرواح وقوى وأسرار . قد يجهلها الإنسان , ولكنها موجودة بالفعل من حوله , فهو ليس الساكن الوحيد لهذا الكون كما يعن له أحيانا أن يشعر !!

ثم إن هناك ارتباطا بين استقامة الخلائق على الطريقة , وتحركات هذا الكون ونتائجها , وقدر الله في العباد:(وأن لو استقاموا على الطريقة لأ

سقيناهم ماء غدقا لنفتنهم فيه . ومن يعرض عن ذكر ربه يسلكه عذابا صعدا) . وهذه الحقيقة تؤلف جانبا من التصور الإسلامي للارتباطات بين الإنسان والكون وقدر الله .

وهكذا تمتد إيحاءات السورة إلى مساحات ومسافات وأبعاد وآماد واسعة بعيدة , وهي سورة لا تتجاوز الثماني والعشرين آية , نزلت في حادثة معينة ومناسبة خاصة . .

فأما هذا الحادث الذي أشارت إليه السورة . حادث استماع نفر من الجن للقرآن . فتختلف بشأنه الروايات . قال الإمام الحافظ أبو بكر البيهقي في كتابه:"دلائل النبوة ":أخبرنا أبو الحسن علي بن أحمد بنعبدان , أخبرنا أحمد بن عبيد الصفار , حدثنا إسماعيل القاضي , أخبرنا مسدد , حدثنا أبو عوانة , عن أبي بشر , عن سعيد بن جبير , عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال:" ما قرأ رسول الله [ص] على الجن ولا رآهم . انطلق رسول الله [ص] في طائفة من أصحابه عامدين إلى سوق عكاظ , وقد حيل بين الشياطين وبين خبر السماء , أرسلت عليهم الشهب , فرجعت الشياطين إلى قومهم , فقالوا:ما لكم ? فقالوا:حيل بيننا وبين خبر السماء , وأرسلت علينا الشهب . قالوا:ما حال بينكم وبين خبر السماء إلا شيء حدث , فاضربوا مشارق الأرض ومغاربها , وانظروا ما هذا الذي حال بينكم وبين خبر السماء . فانطلقوا يضربون مشارق الأرض و مغاربها يبتغون ما هذا الذي حال بينهم وبين خبر السماء . فانصرف أولئك النفر الذين توجهوا نحو تهامة إلى رسول الله [ص] وهو بنخلة عامدا إلى سوق عكاظ , وهو يصلي بأصحابه صلاة الفجر , فلما سمعوا القرآن استمعوا إليه , فقالوا:هذا والله الذي حال بينكم وبين خبر السماء , فهنالك حين رجعوا إلى قومهم قالوا: (إنا سمعنا قرآنا عجبا يهدي إلى الرشد فآمنا به ولن نشرك بربنا أحدا) . وأنزل الله على نبيه [ص]: (قل:أوحي إلي أنه استمع نفر من الجن) . وإنما أوحي إليه قول الجن" [ورواه البخاري عن مسدد بنحو هذا , وأخرجه مسلم عن شيبان ابن فروخ عن أبي عوانة بهذا النص] .

فهذه رواية . وهناك رواية أخرى . . قال مسلم في صحيحه:حدثنا محمد بن المثنى حدثنا عبد الأعلى , حدثنا داود وهو ابن أبي هند , عن عامر , قال:سألت علقمة:هل كان ابن مسعود شهد مع رسول الله [ص] ليلة الجن ? قال:فقال علقمة:أنا سألت ابن مسعود - رضي الله عنه - فقلت:هل شهد أحد منكم مع رسول الله [ص] ليلة الجن ? قال:لا , ولكنا كنا مع رسول الله [ص] ذات ليلة , ففقدناه فالتمسناه في الأودية والشعاب , فقيل:استطير ? اغتيل ? قال:فبتنا بشر ليلة بات بها قوم . فلما أصبحنا إذا هو , جاء من قبل حراء . قال:فقلنا:يا رسول الله , فقدناك فطلبناك فلم نجدك , فبتنا بشر ليلة بات بها قوم . فقال:" أتاني داعي الجن , فذهبت معهم فقرأت عليهم القرآن " . قال:" فانطلق بنا فأرانا آثارهم وآثار نيرانهم " وسألوه الزاد فقال:" كل عظم ذكر اسم الله عليه يقع في أيديكم أوفر ما يكون لحما , وكل بعرة أو روثة علف لدوابكم " . قال رسول الله [ص]:" فلا تستنجوا بهما فإنهما طعام إخوانكم " . .

وهناك رواية أخرى عن ابن مسعود أنه كان تلك الليلة مع رسول الله [ص] ولكن إسناد الرواية الأولى أوثق . فنضرب عن هذه وأمثالها . . ومن الروايتين الواردتين في الصحيحين يتبين أن ابن عباس يقول:إن الرسول [ص] لم يعرف بحضور النفر من الجن , وأن ابن مسعود يقول:إنهم استدعوه . ويوفق البيهقي بين الروايتين بأنهما حادثان لا حادث واحد .

وهناك رواية ثالثة لابن اسحق قال:

" ولما هلك أبو طالب نالت قريش من رسول الله [ص] من الأذى ما لم تكن تنال منه في حياة عمه أبي طالب , فخرج رسول الله [ص] إلى الطائف يلتمس النصرة من ثقيف , والمنعة بهم من قومه , ورجاء أن يقبلوا منه ما جاءهم به من الله عز وجل , فخرج إليهم وحده" .

" قال ابن اسحق:فحدثني يزيد بن زياد , عن محمد بن كعب القرظي ة

ال:لما انتهى رسول الله [ص] إلى الطائف عمد إلى نفر من ثقيف هم يومئذ سادة ثقيف وأشرافهم , وهم إخوة ثلاثة:"ياليل بن عمرو بن عمير , ومسعود بن عمرو بن عمير , وحبيب بن عمرو بن عمير . . . وعند أحدهم امرأة من قريش من بني جمح . فجلس إليهم رسول الله [ص] فدعاهم إلى الله , وكلمهم بما جاءهم له من نصرته على الإسلام , والقيام معه على من خالفه من قومه . فقال له أحدهم:هو يمرط ثياب الكعبة [أي يمزقها] إن كان الله أرسلك ! وقال الآخر:أما وجد الله أحدا يرسله غيرك ? وقال الثالث:والله لا أكلمك أبدا لئن كنت رسولا من الله كما تقول لأنت أعظم خطرا من أن أرد عليك الكلام . ولئن كنت تكذب على الله ما ينبغي لي أن أكلمك . فقام رسول الله [ص] من عندهم وقد يئس من خير ثقيف . وقد قال لهم - فيما ذكر لي -:" إذ فعلتم ما فعلتم فاكتموا عني " . وكره رسول الله [ص] أن يبلغ قومه عنه , فيذئرهم [أي يحرشهم] ذلك عليه ! "

" فلم يفعلوا , وأغروا به سفهاءهم وعبيدهم يسبونه ويصيحون به , حتى اجتمع عليه الناس , وألجأوه إلى حائط [أي بستان] لعتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة - وهما فيه - ورجع عنه من سفهاء ثقيف من كان يتبعه , فعمد إلى ظل حبلة من عنب [أي طاقة من قضبان الكرم] فجلس فيه , وابنا ربيعة ينظران إليه ويريان ما لقي من سفهاء أهل الطائف . . . فلما اطمأن رسول الله [ص] قال - فيما ذكر لي -:" اللهم إليك أشكو ضعف قوتي , وقلة حيلتي , وهواني على الناس , يا أرحم الراحمين , أنت رب المستضعفين وأنت ربي , إلى من تكلني ? إلى بعيد يتجهمني ? أم إلى عدو ملكته أمري ? إن لم يكن بك علي غضب فلا أبالي , ولكن عافيتك هي أوسع لي . أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات , وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن تنزل بي غضبك , أو يحل علي سخطك , لك العتبى حتى ترضى , ولا حول ولا قوة إلا بك " . . "

" قال:فلما رآه ابنا ربيعة عتبة وشيبة وما لقي تحركت له رحمهما ,

فدعوا غلاما لهما نصرانيا يقال له:عداس . فقال له "خذ قطفا من هذا العنب , فضعه في هذا الطبق , ثم اذهب به إلى ذلك الرجل , فقل له يأكل منه . ففعل عداس , ثم أقبل به حتى وضعه بين يدي رسول الله [ص] ثم قال له:كل . فلما وضع رسول الله [ص] فيه يده قال:" بسم الله " ثم أكل . فنظر عداس في وجهه ثم قال:والله إن هذا الكلام ما يقوله أهل هذه البلاد . فقال له رسول الله [ص]:" ومن أهل أي البلاد أنت يا عداس ? وما دينك ? " قال:نصراني , وأنا رجل من أهل نينوى . فقال له رسول الله [ص]:" من قرية الرجل الصالح يونس بن متى ? " فقال عداس:وما يدريك ما يونس ابن متى ? فقال رسول الله [ص]:" ذاك أخي . كان نبيا وأنا نبي " فأكب عداس على رسول الله [ص] يقبل رأسه ويديه وقدميه . قال:يقول ابنا ربيعة أحدهما لصاحبه أما غلامك فقد أفسده عليك ! فلما جاءهما عداس قالا له:ويلك يا عداس مالك تقبل رأس هذا الرجل ويديه وقدميه ? قال:يا سيدي ما في الأرض شيء خير من هذا . لقد أخبرني بأمر ما يعلمه إلا نبي . قالا له:ويحك يا عداس ! لا يصرفنك عن دينك , فإن دينك خير من دينه ! "

" قال:ثم إن رسول الله [ص] انصرف من الطائف راجعا إلى مكة , حين يئس من خير ثقيف , حتى إذا كان بنخلة قام من جوف الليل يصلي . فمر به النفر من الجن الذين ذكرهم الله تبارك وتعالى , وهم - فيما ذكر لي - سبعة نفر من جن أهل نصيبين , فاستمعوا له , فلما فرغ من صلاته ولوا إلى قومهم منذرين , قد آمنوا وأجابوا إلى ما سمعوا . فقص الله خبرهم عليه [ص] قال الله عز وجل: وإذ صرفنا إليك نفرا من الجن يستمعون القرآن إلى قوله (ويجركم من عذاب أليم). وقال تبارك وتعالى: (قل أوحي إلي أنه استمع نفر من الجن)إلى آخر القصة من خبرهم في هذه السورة .

وقد علق ابن كثير في تفسيره على رواية ابن أسحاق هذه فقال:" هذا صحيح . ولكن قوله:إن الجن كان استماعهم تلك الليلة فيه نظر . فإن الجن كان استماعهم في ابتداء الإيحاء كما دل عليه حديث ابن عباس -

رضي الله عنهما - المذكور . وخروجه [ص] إلى الطائف كان بعد موت عمه . وذلك قبل الهجرة بسنة أو سنتين كما قرره ابن إسحاق وغيره . و الله أعلم " .

وإذا صحت رواية ابن إسحاق عن أن الحادث وقع عقب عودة الرسول [ص] من الطائف , مكسور الخاطر من التصرف اللئيم العنيد الذي واجهه به كبراء ثقيف , وبعد ذلك الدعاء الكسير الودود لربه ومولاه , فإنه ليكون عجيبا حقا من هذا الجانب . أن يصرف الله إليه ذلك النفر من الجن , وأن يبلغه ما فعلوا وما قالوا لقومهم , وفيه من الدلالات اللطيفة الموحية ما فيه . .

وأيا كان زمان هذا الحادث وملابساته فهو أمر ولا شك عظيم . عظيم في دلالاته وفيما انطوى عليه . وفيما أعقبه من مقالة الجن عن هذا القرآن وعن هذا الدين . .

سورة المزمل

يروى في سبب نزول هذه السورة أن قريشا اجتمعت في دار الندوة تدبر كيدها للنبي [ص] وللدعوة التي جاءهم بها . فبلغ ذلك رسول الله [ص] فاغتم له ; والتف بثيابه وتزمل ونام مهموما . فجاءه جبريل عليه السلام بشطر هذه السورة الأول (يا أيها المزمل قم الليل إلا قليلا . . الخ)وتأخر شطر السورة الثاني من قوله تعالى: (إن ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثي الليل . . .)إلى آخر السورة . تأخر عاما كاملا . حين قام رسول الله [ص] وطائفة من الذين معه , حتى ورمت أقدامهم , فنزل التخفيف في الشطر الثاني بعد اثني عشر شهرا .

وتروى رواية أخرى تتكرر بالنسبة لسورة المدثر كذلك - كما سيجيء في عرض سورة المدثر إن شاء الله .

وخلاصتها أن رسول الله [ص] كان يتحنث في غار حراء - قبل البعثة بثلاث سنوات - أي يتطهر ويتعبد - وكان تحنثه - عليه الصلاة والسلام - شهرا من كل سنة - هو شهر رمضان - يذهب فيه إلى غار حراء على مبعدة نحو ميلين من مكة , ومعه أهله قريبا منه . فيقيم فيه هذا الشهر , يطعم من جاءه من المساكين , ويقضي وقته في العبادة و التفكير فيما حوله من مشاهد الكون , وفيما وراءها من قدرة مبدعة . . وهو غير مطمئن لما عليه قومه من عقائد الشرك المهلهلة , وتصوراتها الواهية , ولكن ليس بين يديه طريق واضح , ولا منهج محدد , ولا طريق قاصد يطمئن إليه ويرضاه .

وكان اختياره [ص] لهذه العزلة طرفا من تدبير الله له ليعده لما ينتظره من الأمر العظيم . ففي هذه العزلة كان يخلو إلى نفسه , ويخلص من زحمة الحياة وشواغلها الصغيرة ; ويفرغ لموحيات الكون , ودلائل الإ بداع ; وتسبح روحه مع روح الوجود ; وتتعانق مع هذا الجمال وهذا الكمال ; وتتعامل مع الحقيقة الكبرى وتمرن على التعامل معها في إدراك وفهم .

ولا بد لأي روح يراد لها أن تؤثر في واقع الحياة البشرية فتحولها وجهة أخرى . . لا بد لهذه الروح من خلوة وعزلة بعض الوقت , وانقطاع عن شواغل الأرض , وضجة الحياة , وهموم الناس الصغيرة التي تشغل الحياة .

لا بد من فترة للتأمل والتدبر والتعامل مع الكون الكبير وحقائقه الطليقة . فالاستغراق في واقع الحياة يجعل النفس تألفه وتستنيم له , فلا تحاول تغييره . أما الانخلاع منه فترة , والانعزال عنه , والحياة في طلاقة كاملة من أسر الواقع الصغير , ومن الشواغل التافهة فهو الذي يؤهل الروح الكبير لرؤية ما هو أكبر , ويدربه على الشعور بتكامل ذاته بدون حاجة إلى عرف الناس , والاستمداد من مصدر آخر غير هذا العرف الشائع !

وهكذا دبر الله لمحمد [ص] وهو يعده لحمل الأمانة الكبرى , وتغيير وجه الأرض , وتعديل خط التاريخ . دبر له هذه العزلة قبل تكليفه بِ الرسالة بثلاث سنوات . ينطلق في هذه العزلة شهرا من الزمان , مع روح الوجود الطليقة , ويتدبر ما وراء الوجود من غيب مكنون , حتى يحين موعد التعامل مع هذا الغيب عندما يأذن الله .

فلما أن أذن , وشاء - سبحانه - أن يفيض من رحمته هذا الفيض على أهل الأرض , جاء جبريل عليهالسلام إلى النبي [ص] وهو في غار حراء . . وكان ما قصه رسول الله [ص] من أمره معه فيما رواه ابن إسحاق عن وهب بن كيسان , عن عبيد , قال:

"فجاءني جبريل وأنا نائم بنمط من ديباج فيه كتاب فقال:اقرأ . قال قلت:ما أقرأ [وفي الروايات:ما أنا بقارئ] قال:فغتني به [أي ضغطني] حتى ظننت أنه الموت . ثم أرسلني فقال:اقرأ . قلت:ما أقرأ . قال:فغتني حتى ظننت أنه الموت . ثم أرسلني فقال:اقرأ . قلت:ما أقرأ:قال:فغتني حتى ظننت أنه الموت . ثم أرسلني فقال:اقرأ . قال قلت:ماذا أقرأ ? قال:ما أقول ذلك إلا افتداء منه أن يعود لي بمثل ما صنع بي . فقال:(اقرأ باسم ربك الذي خلق . خلق الإنسان من علق . اقرأ وربك الأكرم . الذي علم بالقلم . علم الإنسان ما لم يعلم). . قال:فقرأتها . ثم انتهى فانصرف عني . وهببت من نومي فكأنما كتبت في قلبي كتابا . قال:فخرجت حتى إذا كنت في وسط من الجبل سمعت صوتا من السماء يقول:يا محمد أنت رسول الله وأنا جبريل . قال:فرفعت رأسي إلى السماء أنظر . فإذا جبريل في صورة رجل , صاف قدميه في أفق السماء يقول:يا محمد أنت رسول الله وأنا جبريل . قال:فوقفت أنظر إليه . فما أتقدم وما أتأخر . وجعلت أحول وجهي عنه في آفاق السماء . قال:فلا أنظر في ناحية منها إلا رأيته كذلك . فما زلت واقفا ما أتقدم أمامي وما أرجع ورائي , حتى بعثت خديجة رسلها في طلبي , فبلغوا أعلى مكة , ورجعوا إليها وأنا واقف في مكاني ذلك . ثم انصرف عني وانصرفت راجعا إلى أهلي , حتى أتيت خديجة , فجلست إلى فخذها مضيفا إليها [أي

ملتصقا بها مائلا إليها] فقالت:يا أبا القاسم أين كنت ? فوالله لقد بعثت في طلبك حتى بلغوا مكة ورجعوا إلي . ثم حدثتها بالذي رأيت فقالت:" أبشر يا بن عم واثبت . فوالذي نفس خديجة بيده إني لأرجو أن تكون نبي هذه الأمة " " .

ثم فتر الوحي مدة عن النبي [ص] إلى أن كان بالجبل مرة أخرى فنظر فإذا جبريل , فأدركته منه رجفة , حتى جثى وهوى إلى الأرض , وانطلق إلى أهله يرجف , يقول:" زملوني . دثروني " . . ففعلوا . وظل يرتجف مما به من الروع . وإذا جبريل يناديه:(يا أيها المزمل). . (وقيل:يا أيها المدثر)والله أعلم أيتهما كانت .

وسواء صحت الرواية الأولى عن سبب نزول شطر السورة . أو صحت هذه الرواية الثانية عن سبب نزول مطلعها , فقد علم رسول الله [ص] أنه لم يعد هناك نوم ! وأن هناك تكليفا ثقيلا , وجهادا طويلا , وأنه الصحو والكد والجهد منذ ذلك النداء الذي يلاحقه ولا يدعه ينام !

وقيل لرسول الله [ص](قم). . فقام . وظل قائما بعدها أكثر من عشرين عاما ! لم يسترح . ولم يسكن . ولم يعش لنفسه ولا لأهله . قام وظل قائما على دعوة الله . يحمل على عاتقه العبء الثقيل الباهظ ولا ينوء به . عبء الأمانة الكبرى في هذه الأرض . عبء البشرية كلها , وعبء العقيدة كلها , وعبء الكفاح والجهاد في ميادين شتى .

حمل عبء الكفاح والجهاد في ميدان الضمير البشري الغارق في أوهام الجاهلية وتصوراتها , المثقل بأثقال الأرض وجواذبها , المكبل بأوهاق الشهوات وأغلالها . . حتى إذا خلص هذا الضمير في بعض صحابته مما يثقله من ركام الجاهلية والحياة الأرضية بدأ معركة أخرى في ميدان آخر . . بل معارك متلاحقة . . مع أعداء دعوة الله المتألبين عليها وعلى المؤمنين بها , الحريصين على قتل هذه الغرسة الزكية في منبتها , قبل أن تنمو وتمد جذورها في التربة وفروعها في الفضاء , وتظلل مساحات أخرى . . ولم يكد يفرغ من معارك الجزيرة العربية حتى كانتالروم تعد

لهذه الأمة الجديدة وتتهيأ للبطش بها على تخومها الشمالية .

وفي أثناء هذا كله لم تكن المعركة الأولى - معركة الضمير - قد انتهت . فهي معركة خالدة , الشيطان صاحبها ; وهو لا يني لحظة عن مزاولة نشاطه في أعماق الضمير الإنساني . . ومحمد [ص] قائم على دعوة الله هناك . وعلى المعركة الدائبة في ميادينها المتفرقة . في شظف من العيش والدنيا مقبلة عليه . وفي جهد وكد والمؤمنون يستروحون من حوله ظلال الأمن والراحة . وفي نصب دائم لا ينقطع . . وفي صبر جميل على هذا كله . وفي قيام الليل . وفي عبادة لربه . وترتيل لقرآنه وتبتل إليه , كما أمره أن يفعل وهو يناديه:(يا أيها المزمل . قم الليل إلا قليلا . نصفه أو انقص منه قليلا , أو زد عليه ورتل القرآن ترتيلا . إنا سنلقي عليك قولا ثقيلا . إن ناشئة الليل هي أشد وطأ وأقوم قيلا . إن لك في النهار سبحا طويلا . واذكر اسم ربك وتبتل إليه تبتيلا , رب المشرق والمغرب لا إله إلا هو فاتخذه وكيلا . واصبر على ما يقولون واهجرهم هجرا جميلا).

وهكذا قام محمد [ص] وهكذا عاش في المعركة الدائبة المستمرة أكثر من عشرين عاما . لا يلهيه شأن عن شأن في خلال هذا الأمد . منذ أن سمع النداء العلوي الجليل وتلقى منه التكليف الرهيب . . جزاه الله عنا وعن البشرية كلها خير الجزاء . .

وشطر السورة الأول يمضي على إيقاع موسيقي واحد . ويكاد يكون على روي واحد . هو اللام المطلقة الممدودة . وهو إيقاع رخي وقور جليل ; يتمشى مع جلال التكليف , وجدية الأمر , ومع الأهوال المتتابعة التي يعرضها السياق . . هول القول الثقيل الذي أسلفنا , وهول التهديد المروع:(وذرني والمكذبين أولي النعمة ومهلهم قليلا , إن لدينا أنكالا وجحيما , وطعاما ذا غصة وعذابا أليما) . وهول الموقف الذي يتجلى في مشاهد الكون وفي أغوار النفوس:(يوم ترجف الأرض والجبال وكانت الجبال كثيبا مهيلا) . (فكيف تتقون إن كفرتم يوما يجعل

الولدان شيبا , السماء منفطر به , وكان وعده مفعولا).

فأما الآية الأخيرة الطويلة التي تمثل شطر السورة الثاني ; فقد نزلت بعد عام من قيام الليل حتى ورمت أقدام الرسول [ص] وطائفة من الذين معه . والله يعده ويعدهم بهذا القيام لما يعدهم له ! فنزل التخفيف , ومعه التطمين بأنه اختيار الله لهم وفق علمه وحكمته بأعبائهم وتكاليفهم التي قدرها في علمه عليهم . . أما هذه الآية فذات نسق خاص . فهي طويلة وموسيقاها متموجة عريضة , وفيها هدوء واستقرار , وقافية تناسب هذا الاستقرار:وهي الميم وقبلها مد الياء: (غفور رحيم).

والسورة بشطريها تعرض صفحة من تاريخ هذه الدعوة . تبدأ بالنداء العلوي الكريم بالتكليف العظيم . وتصور الإعداد له والتهيئة بقيام الليل , والصلاة , وترتيل القرآن , والذكر الخاشع المتبتل . والاتكال على الله وحده , والصبر على الأذى , والهجر الجميل للمكذبين , والتخلية بينهم وبين الجبار القهار صاحب الدعوة وصاحب المعركة ! . .

وتنتهي بلمسة الرفق والرحمة والتخفيف والتيسير . والتوجيه للطاعات والقربات , والتلويح برحمة الله ومغفرته: (إن الله غفور رحيم). .

وهي تمثل بشطريها صفحة من صفحات ذلك الجهد الكريم النبيل الذي بذله ذلك الرهط المختار منالبشرية - البشرية الضالة , ليردها إلى ربها , ويصبر على أذاها , ويجاهد في ضمائرها ; وهو متجرد من كل ما في الحياة من عرض يغري , ولذاذة تلهي , وراحة ينعم بها الخليون . ونوم يلتذه الفارغون !

ينطبق على هذه السورة من ناحية سبب نزولها , ووقت نزولها ما سبق ذكره عن سورة "المزمل" . فهناك روايات بأنها هي أول ما نزل بعد سورة العلق , ورواية أخرى بأنها نزلت بعد الجهر بالدعوة وإيذاء المشركين للنبي [ص] .

قال البخاري , حدثنا يحيى , حدثنا وكيع , عن علي بن المبارك , عن يحيى بن أبي كثير قال:سألت أبا سلمة بن عبد الرحمن عن أول ما نزل من القرآن ? فقال:(يا أيها المدثر). . قلت:يقولون(اقرأ باسم ربك الذي خلق)فقال أبو سلمة:سألت جابر بن عبد الله عن ذلك , وقلت له مثل ما قلت لي , فقال جابر:لا أحدثك إلا ما حدثنا به رسول الله [ص]:" جاورت بحراء فلما قضيت جواري هبطت فنوديت , فنظرت عن يميني فلم أر شيئا , ونظرت عن شمالي فلم أر شيئا , ونظرت أمامي فلم أر شيئا , ونظرت خلفي فلم أر شيئا , فرفعت رأسي فرأيت شيئا . فأتيت خديجة فقلت:" دثروني وصبوا علي ماءا باردا " قال:فدثروني وصبوا علي ماءا باردا . قال:فنزلت:(يا أيها المدثر . قم فأنذر . وربك فكبر)" . .

وقد رواه مسلم من طريق عقيل , عن ابن شهاب , عن أبي سلمة . قال:أخبرني جابر بن عبد الله , أنه سمع رسول الله [ص] يحدث عن فترة الوحي , فقال في حديثه , " فبينا أنا أمشي إذ سمعت صوتا من السماء , فرفعت بصري قبل السماء , فإذا الملك الذي جاءني بحراء , قاعد على كرسي بين السماء والأرض , فجثيت منه حتى هويت إلى الأرض فجئت إلى أهلي فقلت زملوني , فدثروني , فأنزل الله تعالى: يا أيها المدثر . قم فأنذر . . . - إلى - والرجز فاهجر " قال أبو سلمة:والرجز الأوثان . ثم حمي الوحي وتتابع" . . ورواه البخاري من هذا الوجه أيضا . . وهذا لفظ البخاري .

وعلق ابن كثير في التفسير على هذا الحديث بقوله:"وهذا السياق هو المحفوظ , وهو يقتضي أنه قد نزل الوحي قبل هذا لقوله:" فإذا الملك الذي جاءني بحراء " وهو جبريل , حين أتاه بقوله . . . (اقرأ باسم ربك الذي خلق . خلق الإنسان من علق . اقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم , علم الإنسان ما لم يعلم . . ثم إنه حصل بعد هذا فترة , ثم نزل الملك بعد هذا . ووجه الجمع أن أول شيء نزل بعد فترة الوحي هذه السورة " . .

فهذه رواية . وهناك رواية أخرى . . قال الطبراني:حدثنا محمد بن علي بن شعيب السمسار , حدثناالحسن بن بشر البجلي , حدثنا المعافى بن عمران , عن إبراهيم بن يزيد , سمعت ابن أبي مليكة يقول:سمعت ابن عباس يقول:إن الوليد بن المغيرة صنع لقريش طعاما , فلما أكلوا منه قال:ما تقولون في هذا الرجل ؟ فقال بعضهم:ساحر . وقال بعضهم:ليس بساحر . وقال بعضهم:كاهن . وقال بعضهم:ليس بكاهن . وقال بعضهم:شاعر . وقال بعضهم:ليس بشاعر . وقال بعضهم بل سحر يؤثر . فأجمع رأيهم على أنه سحر يؤثر . فبلغ ذلك النبي [ص] فحزن , وقنع رأسه , وتدثر . فأنزل الله تعالى:(يا أيها المدثر . قم فأنذر . وربك فكبر . وثيابك فطهر . والرجز فاهجر , ولا تمنن تستكثر . ولربك فاصبر). .

وتكاد تكون هذه الرواية هي ذاتها التي رويت عن سورة "المزمل" . . مما يجعلنا لا نستطيع الجزم بشيء عن أيتهما هي التي نزلت أولا . و التي نزلت بهذه المناسبة أو تلك .

غير أن النظر في النص القرآني ذاته يوحي بأن مطلع هذه السورة إلى قوله تعالى:(ولربك فاصبر)ربما يكون قد نزل مبكرا في أوائل أيام الدعوة . شأنه شأن مطلع سورة المزمل إلى قوله تعالى:(واذكر اسم ربك وتبتل إليه تبتيلا , رب المشرق والمغرب لا إله إلا هو فاتخذه وكيلا). . وهذا وذلك لإعداد نفس الرسول [ص] للنهوض بالتبعة الكبرى , ومواجهة قريش بعد ذلك بالدعوة جهارا وكافة , مما سيترتب عليه

مشاق كثيرة متنوعة , تحتاج مواجهتها إلى إعداد نفسي سابق . . ويكون ما تلا ذلك في سورة المدثر , وما تلا هذا في سورة المزمل , قد نزلا بعد فترة بمناسبة تكذيب القوم وعنادهم , وإيذائهم للنبي [ص] بالا تهام الكاذب والكيد اللئيم .

إلا أن هذا الاحتمال لا ينفي الاحتمال الآخر , وهو أن يكون كل من المطلعين قد نزل متصلا بما تلاه في هذه السورة وفي تلك , بمناسبة واحدة , هي التكذيب , واغتمام رسول الله [ص] للكيد الذي كادته قريش ودبرته . . ويكون الشأن في السورتين هو الشأن في سورة القلم على النحو الذي بيناه هناك .

وأيا ما كان السبب والمناسبة فقد تضمنت هذه السورة في مطلعها ذلك النداء العلوي بانتداب النبي [ص] لهذا الأمر الجلل ; وانتزاعه من النوم والتدثر والدفء إلى الجهاد والكفاح والمشقة:(يا أيها المدثر . قم فأنذر). . مع توجيهه [ص] إلى التهيؤ لهذا الأمر العظيم , والاستعانة عليه بهذا الذي وجهه الله إليه:(وربك فكبر . وثيابك فطهر . والرجز فاهجر . ولا تمنن تستكثر . ولربك فاصبر). . وكان ختام التوجيه هنا بالصبر كما كان هناك في سورة المزمل !

وتضمنت السورة بعد هذا تهديدا ووعيدا للمكذبين بالآخرة , وبحرب الله المباشرة , كما تضمنت سورة المزمل سواء:(فإذا نقر في الناقور , فذلك يومئذ يوم عسير , على الكافرين غير يسير . ذرني ومن خلقت وحيدا . وجعلت له مالا ممدودا , وبنين شهودا , ومهدت له تمهيدا , ثم يطمع أن أزيد . كلا ! إنه كان لآياتنا عنيدا . سأرهقه صعودا). .

وتعين سورة المدثر أحد المكذبين بصفته , وترسم مشهدا من مشاهد كيده - على نحو ما ورد في سورة القلم , وربما كان الشخص المعني هنا وهناك واحدا , قيل:إنه الوليد بن المغيرة - [كما سيأتي تفصيل الروايات عند مواجهة النص] وتذكر سبب حرب الله سبحانه وتعالى له:(إنه فكر وقدر . فقتل ! كيف قدر ? ثم قتل:كيف قدر ? ثم نظر , ثم عبس وبسر .

ثم أدبر واستكبر . فقال:إن هذا إلا سحر يؤثر . إن هذا إلا قول البشر). . ثم تذكر مصيره: (سأصليه سقر . وما أدراك ما سقر , لا تبقي ولا تذر . لواحة للبشر .

من الاية 31 الى الاية 48

وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَاناً وَلَا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلاً كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْبَشَرِ (31) كَلَّا وَالْقَمَرِ (32) وَاللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ (33) وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ (34) إِنَّهَا لَإِحْدَى الْكُبَرِ (35) نَذِيراً لِّلْبَشَرِ (36) لِمَن شَاء مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ (37) كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ (38) إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ (39) فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءلُونَ (40) عَنِ الْمُجْرِمِينَ (41) مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ (42) قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ (43) وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ (44) وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ (45) وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ (46) حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ (47) فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ (48)

عليها تسعة عشر). .

وبمناسبة مشهد سقر . والقائمين عليها التسعة عشر . وما أثاره هذا العدد من بلبلة وفتنة وتساؤل وشك واستهزاء في أوساط المشركين وضعاف الإيمان , تتحدث السورة عن حكمة الله في ذكر هذا العدد , ثم تفتح كوة على حقيقة غيب الله , واختصاصه بهذا الغيب . وهي كوة تلقي ضوءا على جانب من التصور الإيماني لحقيقة غيب الله المكنون:(وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة . وما جعلنا عدتهم إلا فتنة للذين كفروا , ليستيقن الذين أوتوا الكتاب , ويزداد الذين آمنوا إيمانا , و لا يرتاب الذين أوتوا الكتاب والمؤمنون , وليقول الذين في قلوبهم مرض والكافرون:ماذا أراد الله بهذا مثلا ? كذلك يضل الله من يشاء ويهدي من يشاء , وما يعلم جنود ربك إلا هو , وما هي إلا ذكرى للبشر).

.

ثم يصل أمر الآخرة وسقر ومن عليها بمشاهد كونية حاضرة , ليجمع على القلوب إيحاء هذه وتلك في معرض الإيقاظ والتحذير:(كلا والقمر . والليل إذ أدبر . والصبح إذا أسفر . إنها لإحدى الكبر . نذيرا للبشر . لمن شاء منكم أن يتقدم أو يتأخر). .

كما يعرض مقام المجرمين ومقام أصحاب اليمين , حيث يعترف المكذبون اعترافا طويلا بأسباب استحقاقهم للارتهان والقيد في يوم الجزاء والحساب , يعقب عليه بكلمة الفصل في أمرهم الذي لا تنفعهم فيه شفاعة شافع:(كل نفس بما كسبت رهينة . إلا أصحاب اليمين . في جنات يتساءلون عن المجرمين . ما سلككم في سقر ? قالوا:لم نك من المصلين . ولم نك نطعم المسكين . وكنا نخوض مع الخائضين . وكنا نكذب بيوم الدين . حتى أتانا اليقين . فما تنفعهم شفاعة الشافعين). .

وفي ظل هذا المشهد المخزي , والاعتراف المهين , يتساءل مستنكرا موقف المكذبين من الدعوة إلى التذكرة والنجاة من هذا المصير , ويرسم لهم مشهدا ساخرا يثير الضحك والزراية من نفارهم الحيواني الشموس:(فما لهم عن التذكرة معرضين ? كأنهم حمر مستنفرة . فرت من قسورة !).

ويكشف عن حقيقة الغرور الذي يساورهم فيمنعهم من الاستجابة لصوت المذكر الناصح .(بل يريد كل امرئ منهم أن يؤتى صحفا منشرة). . فهو الحسد للنبي [ص] والرغبة في أن يؤتى كل منهم الرسالة ! والسبب الدفين الآخر هو قلة التقوى:(كلا ! بل لا يخافون الآخرة). .

وفي الختام يجيء التقرير الجازم الذي لا مجاملة فيه:(كلا ! إنه تذكرة . فمن شاء ذكره)ورد الأمر كله إلى مشيئة الله وقدره:(وما يذكرون إلا أن يشاء الله هو أهل التقوى وأهل المغفرة). .

وهكذا تمثل السورة حلقة من حلقات الكفاح النفسي الذي كافحه القرآن

للجاهلية وتصوراتها في قلوب قريش ; كما كافح العناد والكيد والإعراض الناشئ عن العمد والقصد بشتى الأساليب . . والمشابهات كثيرة بين اتجاهات هذه السورة واتجاهات سورة المزمل , وسورة القلم , مما يدل على أنها جميعا نزلت متقاربة , لمواجهة حالات متشابهة . . وذلك باستثناء الشطر الثاني من سورة المزمل , وقد نزل لشأن خاص بالرياضة الروحية للرسول [ص] وطائفة من الذين معه كما تقدم .

وهذه السورة قصيرة الآيات . سريعة الجريان . منوعة الفواصل و القوافي . يتئد إيقاعها أحيانا , ويجري

من الاية 49 الى الاية 52

فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ (49) كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ (50) فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ (51) بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَى صُحُفاً مُّنَشَّرَةً (52)

لاهثا أحيانا ! وبخاصة عند تصوير مشهد هذا المكذب وهو يفكر ويقدر ويعبس ويبسر . . وتصوير مشهد سقر . لا تبقي ولا تذر . لواحة للبشر . . ومشهد فرارهم كأنهم حمر مستنفرة . فرت من قسورة !

وهذا التنوع في الإيقاع والقافية بتنوع المشاهد والظلال يجعل للسورة مذاقا خاصا ; ولا سيما عند رد بعض القوافي ورجعها بعد انتهائها كقافية الراء الساكنة:المدثر . أنذر . فكبر . . وعودتها بعد فترة:قدر . بسر . استكبر . سقر . . . وكذلك الانتقال من قافية إلى قافية في الفقرة الواحدة مفاجأة ولكن لهدف خاص . عند قوله:(فما لهم عن التذكرة معرضين ? كأنهم حمر مستنفرة . فرت من قسورة). . ففي الآية الأولى كان يسأل ويستنكر . وفي الثانية والثالثة كان يصور ويسخر ! وهكذا .

هذه السورة الصغيرة تحشد على القلب البشري من الحقائق والمؤثرات والصور والمشاهد , والإيقاعات واللمسات , ما لا قبل له بمواجهته ولا التفلت منه . . تحشدها بقوة , في أسلوب خاص , يجعل لها طابعا قرآنيا مميزا , سواء في أسلوب الأداء التعبيري , أو أسلوب الأداء الموسيقي , حيث يجتمع هذا وذاك على إيقاع تأثير شعوري قوي , تصعب مواجهته ويصعب التفلت منه أيضا !

إنها تبدأ في الآيتين الأوليين منها بإيقاع عن القيامة , وإيقاع عن النفس:(لا أقسم بيوم القيامة ولا أقسم بالنفس اللوامة). . ثم يستطرد الحديث فيها متعلقا بالنفس ومتعلقا بالقيامة , من المطلع إلى الختام , تزاوج بين النفس وبين القيامة حتى تنتهي . وكأن هذا المطلع إشارة إلى موضوع السورة . أو كأنه اللازمة الإيقاعية التي ترتد إليها كل إيقاعات السورة , بطريقة دقيقة جميلة . .

من تلك الحقائق الكبيرة التي تحشدها هذه السورة في مواجهة القلب البشري , وتضرب بها عليه حصارا لا مهرب منه . . حقيقة الموت القاسية الرهيبة التي تواجه كل حي , فلا يملك لها ردا , ولا يملك لها أحد ممن حوله دفعا . وهي تتكرر في كل لحظة , ويواجهها الكبار والصغار , والأغنياء والفقراء , والأقوياء والضعاف , ويقف الجميع منها موقفا واحدا . . لا حيلة . ولا وسيلة . ولا قوة . ولا شفاعة . ولا دفع . ولا تأجيل . . مما يوحي بأنها قادمة من جهة عليا لا يملك البشر معها شيئا . ولا مفر من الاستسلام لها , والاستسلام لإرادة تلك الجهة العليا . . وهذا هو الإيقاع الذي تمس به السورة القلوب وهي تقول:(كلا ! إذا بلغت التراقي , وقيل:من راق ? وظن أنه الفراق . والتفت الساق بالساق . . إلى ربك يومئذ المساق). .

ومن تلك الحقائق الكبيرة التي تعرضها السورة , حقيقة النشأة الأولى ,

ودلالتها على صدق الخبر بالنشأة الأخرى , وعلى أن هناك تدبيرا في خلق هذا الإنسان وتقديرا . . وهي حقيقة يكشف الله للناس عن دقة أدوارها وتتابعها في صنعة مبدعة , لا يقدر عليها إلى الله , ولا يدعيها أحد ممن يكذبون بالآخرة ويتمارون فيها . فهي قاطعة في أن هناك إلها واحدا يدبر هذا الأمر ويقدره ; كما أنها بينة لا ترد على يسر النشأة الآ خرة , وإيحاء قوي بضرورة النشأة الأخرى , تمشيا مع التقدير والتدبير الذي لا يترك هذا الإنسان سدى , ولا يدع حياته وعمله بلا وزن ولا حساب . . وهذا هو الإيقاع الذي تمس السورة به القلوب وهي تقول في أولها:(أيحسب الإنسان ألن نجمع عظامه ?)ثم تقول في آخرها:(أيحسب الإنسان أن يترك سدى ? ألم يك نطفة من مني يمنى ? ثم كان علقة فخلق فسوى ? فجعل منه الزوجين:الذكر والأنثى ? أليس ذلك بقادر على أن يحيي الموتى ?). .

ومن المشاهد المؤثرة التي تحشدها السورة , وتواجه بها القلب البشري مواجهة قوية . . مشهد يوم القيامة وما يجري فيه من انقلابات كونية , ومن اضطرابات نفسية , ومن حيرة في مواجهة الأحداث الغالبة حيث يتجلى الهول في صميم الكون , وفي أغوار النفس وهي تروغ من هنا ومن هناك كالفأر في المصيدة ! وذلك ردا على تساؤل الإنسان عن يوم القيامة في شك واستبعاد ليومها المغيب , واستهانة بها ولجاج في الفجور . فيجيء الرد في إيقاعات سريعة , ومشاهد سريعة , وومضات سريعة: (بل يريد الإنسان ليفجر أمامه . يسأل:أيان يوم القيامة ? فإذا برق البصر , وخسف القمر , وجمع الشمس والقمر , يقول الإنسان يومئذ:أين المفر ? كلا ! لا وزر , إلى ربك يومئذ المستقر , ينبأ الإنسان يومئذ بما قدم وأخر . بل الإنسان على نفسه بصيرة , ولو ألقى معاذيره !). .

ومن هذه المشاهد مشهد المؤمنين المطمئنين إلى ربهم , المتطلعين إلى وجهه الكريم في ذلك الهول . ومشهد الآخرين المقطوعي الصلة بالله , وبالرجاء فيه , المتوقعين عاقبة ما أسلفوا من كفر ومعصية وتكذيب .

وهو مشهد يعرض فيه قوة وحيوية كأنه حاضر لحظة قراءة القرآن . وهو يعرض ردا على حب الناس للعاجلة , وإهمالهم للآخرة . وفي الآخرة يكون هذا الذي يكون:(كلا ! بل تحبون العاجلة , وتذرون الآخرة . وجوه يومئذ ناضرة , إلى ربها ناظرة . ووجوه يومئذ باسرة , تظن أن يفعل بها فاقرة !). .

وفي ثنايا السورة وحقائقها تلك ومشاهدها تعترض أربع آيات تحتوي توجيها خاصا للرسول [ص] وتعليما له في شأن تلقي هذا القرآن . ويبدو أن هذا التعليم جاء بمناسبة حاضرة في السورة ذاتها . إذ كان الرسول [ص] يخاف أن ينسى شيئا مما يوحى إليه , فكان حرصه على التحرز من النسيان يدفعه إلى استذكار الوحي فقرة فقرة في أثناء تلقيه ; وتحريك لسانه به ليستوثق من حفظه . فجاء هذا التعليم:(لا تحرك به لسانك لتعجل به , إن علينا جمعه وقرآنه , فإذا قرأناه , فاتبع قرآنه , ثم إن علينا بيانه). . جاءه هذا التعليم ليطمئنه إلى أن أمر هذا الوحي , وحفظ هذا القرآن , وجمعه , وبيان مقاصده . . كل أولئك موكول إلى صاحبه . ودوره هو , هو التلقي والبلاغ . فليطمئن بالا , وليتلق الوحي كاملا , فيجده في صدره منقوشا ثابتا . . وهكذا كان . . فأما هذا التعليم فقد ثبت في موضعه حيث نزل . . أليس من قول الله ? وقول الله ثابت في أي غرض كان ? ولأي أمر أراد ? وهذه كلمة من كلماته تثبت في صلب الكتاب شأنها شأن بقية الكتاب . . ودلالة إثبات هذه الآيات في موضعها هذا من السورة دلالة عميقة موحية على حقيقة لطيفة في شأن كل كلمات الله في أي إتجاه . . وفي شأن هذا القرآن وتضمنه لكل كلمات الله التي أوحى بها إلى الرسول [ص] لم يخرم منها حرف , ولم تند منها عبارة . فهو الحق والصدق والتحرج والوقار !

وهكذا يشعر القلب - وهو يواجه هذه السورة - أنه محاصر لا يهرب . مأخوذ بعمله لا يفلت . لا ملجأ له من الله ولا عاصم . مقدرة نشأته وخطواته بعلم الله وتدبيره , في النشأة الأولى وفي النشأة الآخرة سواء , بينما هو يلهو ويلعب ويغتر ويتبطر:(فلا صدق ولا صلى ولكن

كذب وتولى . ثم ذهب إلى أهله يتمطى). .

وفي مواجهة تلك الحشود من الحقائق والمؤثرات واللمسات والإيحاءات يسمع التهديد الملفوف:(أولى لك فأولى . ثم أولى لك فأولى)فيكون له وقعه ومعناه !

وهكذا تعالج السورة عناد هذا القلب وإعراضه وإصراره ولهوه . وتشعره بالجد الصارم الحازم في هذا الشأن , شأن القيامة , وشأن النفس وشأن الحياة المقدرة بحساب دقيق . ثم شأن هذا القرآن الذي لا يخرم منه حرف , لأنه من كلام العظيم الجليل , الذي تتجاوب جنبات الوجود بكلماته , وتثبت في سجل الكون الثابت , وفي صلب هذا الكتاب الكريم .

وقد عرضنا نحن لحقائق السورة ومشاهدها فرادى لمجرد البيان . وهي في نسق السورة شيء آخر . إذ أن تتابعها في السياق , والمزاوجة بينها هنا وهناك , ولمسة القلب بجانب من الحقيقة مرة , ثم العودة إليه بِالجانبالآخر بعد فترة . . كل ذلك من خصائص الأسلوب القرآني في مخاطبة القلب البشري ; مما لا يبلغ إليه أسلوب آخر , ولا طريقة أخرى .
.

سورة الإنسان

في بعض الروايات أن هذه السورة مدنية , ولكنها مكية ; ومكيتها ظاهرة جدا , في موضوعها وفي سياقها , وفي سماتها كلها . لهذا رجحنا الروايات الأخرى القائلة بمكيتها . بل نحن نلمح من سياقها أنها من بواكير ما نزل من القرآن المكي . . تشي بهذا صور النعيم الحسية المفصلة الطويلة , وصور العذاب الغليظ , كما يشي به توجيه الرسول [ص] إلى الصبر لحكم ربه , وعدم إطاعة آثم منهم أو كفور ; مما كان يتنزل عند اشتداد الأذى على الدعوة وأصحابها في مكة , مع إمهال

المشركين وتثبيت الرسول [ص] على الحق الذي نزل عليه , وعدم الميل إلى ما يدهنون به . . كما جاء في سورة القلم , وفي سورة المزمل , وفي سورة المدثر , مما هو قريب من التوجيه في هذه السورة . . واحتمال أن هذه السورة مدنية - في نظرنا - هو احتمال ضعيف جدا , يمكن عدم اعتباره !

والسورة في مجموعها هتاف رخي ندي إلى الطاعة , والالتجاء إلى الله , وابتغاء رضاه , وتذكر نعمته , والإحساس بفضله , واتقاء عذابه , و اليقظة لابتلائه , وإدراك حكمته في الخلق والإنعام والابتلاء والإملاء . .

وهي تبدأ بلمسة رفيقة للقلب البشري:أين كان قبل أن يكون ? من الذي أوجده ? ومن الذي جعله شيئا مذكورا في هذا الوجود ? بعد أن لم يكن له ذكر ولا وجود:(هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئا مذكورا ?). .

تتلوها لمسة أخرى عن حقيقة أصله ونشأته , وحكمة الله في خلقه , وتزويده بطاقاته ومداركه:(إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعا بصيرا). .

ولمسة ثالثة عن هدايته إلى الطريق , وعونه على الهدى , وتركه بعد ذلك لمصيره الذي يختاره:(إنا هديناه السبيل إما شاكرا وإما كفورا). .

وبعد هذه اللمسات الثلاث الموحية , وما تثيره في القلب من تفكير عميق , ونظرة إلى الوراء . ثم نظرة إلى الأمام , ثم التحرج والتدبر عند اختيار الطريق . . بعد هذه اللمسات الثلاث تأخذ السورة في الهتاف للإ نسان وهو على مفرق الطريق لتحذيره من طريق النار . . وترغيبه في طريق الجنة , بكل صور الترغيب , وبكلهواتف الراحة والمتاع والنعيم و التكريم: إنا أعتدنا للكافرين سلاسل وأغلالا وسعيرا . إن الأبرار يشربون من كأس كان مزاجها كافورا . عينا يشرب بها عباد الله يفجرونها تفجيرا . .

وقبل أن تمضي في عرض صور المتاع ترسم سمات هؤلاء الأبرار في عبارات كلها انعطاف ورقة وجمال وخشوع يناسب ذلك النعيم الهانئ الرغيد:(يوفون بالنذر , ويخافون يوما كان شره مستطيرا , ويطعمون الطعام - على حبه - مسكينا ويتيما وأسيرا . إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكورا . إنا نخاف من ربنا يوما عبوسا قمطريرا). .

ثم تعرض جزاء هؤلاء القائمين بالعزائم والتكاليف , الخائفين من اليوم العبوس القمطرير , الخيرين المطعمين على حاجتهم إلى الطعام , يبتغون وجه الله وحده , لا يريدون شكورا من أحد , إنما يتقون اليوم العبوس القمطرير !

تعرض جزاء هؤلاء الخائفين الوجلين المطعمين المؤثرين . فإذا هو الأ من والرخاء والنعيم اللين الرغيد:

فوقاهم الله شر ذلك اليوم , ولقاهم نضرة وسرورا , وجزاهم بما صبروا جنة وحريرا . متكئين فيها على الأرائك لا يرون فيها شمسا ولا زمهريرا . ودانية عليهم ظلالها وذللت قطوفها تذليلا . ويطاف عليهم بآنية من فضة وأكواب كانت قوارير , قوارير من فضة قدروها تقديرا . ويسقون فيها كأسا كان مزاجها زنجبيلا , عينا فيها تسمى سلسبيلا . ويطوف عليهم ولدان مخلدون إذا رأيتهم حسبتهم لؤلؤا منثورا . وإذا رأيت ثم رأيت نعيما وملكا كبيرا . عاليهم ثياب سندس خضر وإستبرق , وحلوا أساور من فضة وسقاهم ربهم شرابا طهورا . إن هذا كان لكم جزاء وكان سعيكم مشكورا .

فإذا انتهى معرض النعيم اللين الرغيد المطمئن الهانئ الودود اتجه الخطاب إلى رسول الله [ص] لتثبيته على الدعوة - في وجه الإعراض والكفر والتكذيب - وتوجيهه إلى الصبر وانتظار حكم الله في الأمر ; والا تصال بربه والاستمداد منه كلما طال الطريق:(إنا نحن نزلنا عليك القرآن تنزيلا . فاصبر لحكم ربك ولا تطع منهم آثما أو كفورا . واذكر اسم ربك بكرة وأصيلا , ومن الليل فاسجد له وسبحه ليلا طويلا). .

ثم تذكيرهم باليوم الثقيل الذي لا يحسبون حسابه ; والذي يخافه الأبرار ويتقونه , والتلويح لهم بهوان أمرهم على الله , الذي خلقهم ومنحهم ما هم فيه من القوة , وهو قادر على الذهاب بهم , والإتيان بقوم آخرين ; لولا تفضله عليهم بالبقاء , لتمضي مشيئة الابتلاء . ويلوح لهم في الختام بعاقبة هذا الابتلاء: إن هؤلاء يحبون العاجلة ويذرون وراءهم يوما ثقيلا . نحن خلقناهم وشددنا أسرهم وإذا شئنا بدلنا أمثالهم تبديلا . إن هذه تذكرة فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلا . وما تشاؤون إلا أن يشاء الله , إن الله كان عليما حكيما . يدخل من يشاء في رحمته و الظالمين أعد لهم عذابا أليما . .

تبدأ السورة بالتذكير بنشأة الإنسان وتقدير الله في هذه النشأة , على أساس الابتلاء , وتختم ببيان عاقبة الابتلاء , كما اقتضت المشيئة منذ ا لابتداء . فتوحي بذلك البدء وهذا الختام بما وراء الحياة كلها من تدبير وتقدير , لا ينبغي معه أن يمضي الإنسان في استهتاره . غير واع ولا مدرك , وهو مخلوق ليبتلى , وموهوب نعمة الإدراك لينجح في الابتلاء .

وبين المطلع والختام ترد أطول صورة قرآنية لمشاهد النعيم . أو من أطولها إذا اعتبرنا ما جاء في سورة الواقعةمن صور النعيم , وهو نعيم حسي في جملته , ومعه القبول والتكريم , وهو بتفصيله هذا وحسيته يوحي بمكيته , حيث كان القوم قريبي عهد بالجاهلية , شديدي التعلق بمتاع الحواس , يبهرهم هذا اللون ويعجبهم , ويثير تطلعهم ورغبتهم . وما يزال هذا اللون من المتاع يثير تطلع صنوف من الناس , ويصلح جزاء لهم يرضي أعمق رغباتهم . والله أعلم بخلقه ما يصلح لهم وما يصلح قلوبهم , وما يليق بهم كذلك وفق تكوينهم وشعورهم . وهناك ما هو أعلى منه وأرق كالذي جاء في سورة القيامة:(وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة). . والله أعلم بما يصلح للعباد في كل حال .

هذه السورة حادة الملامح , عنيفة المشاهد , شديدة الإيقاع , كأنها سياط لاذعة من نار . وهي تقف القلب وقفة المحاكمة الرهيبة , حيث يواجه بسيل من الاستفهامات والاستنكارات والتهديدات , تنفذ إليه ك السهام المسنونة !

وتعرض السورة من مشاهد الدنيا والآخرة , وحقائق الكون والنفس , ومناظر الهول والعذاب ما تعرض . وعقب كل معرض ومشهد تلفح القلب المذنب لفحة كأنها من نار:(ويل يومئذ للمكذبين)!

ويتكرر هذا التعقيب عشر مرات في السورة . وهو لازمة الإيقاع فيها . وهو أنسب تعقيب لملامحها الحادة , ومشاهدها العنيفة , وإيقاعها الشديد .

وهذه اللازمة تذكرنا باللازمة المكررة في سورة "الرحمن" عقب عرض كل نعمة من نعم الله على العباد:(فبأي آلاء ربكما تكذبان ?). . كما تذكرنا باللازمة المكررة في سورة "القمر" عقب كل حلقة من حلقات العذاب:(فكيف كان عذابي ونذر ?). . وتكرارها هنا على هذا النحو يعطي السورة سمة خاصة , وطعما مميزا . . حادا . .

وتتوالى مقاطع السورة وفواصلها قصيرة سريعة عنيفة , متعددة القوافي . كل مقطع بقافية . ويعود السياق أحيانا إلى بعض القوافي مرة بعد مرة . ويتلقى الحس هذه المقاطع والفواصل والقوافي بلذعها الخاص , وعنفها الخاص . واحدة إثر واحدة . وما يكاد يفيق من إيقاع حتى يعاجله إيقاع آخر , بنفس العنف وبنفس الشدة .

ومنذ بداية السورة والجو عاصف ثائر بمشهد الرياح أو الملائكة:(والمرسلات عرفا . فالعاصفات عصفا . والناشرات نشرا فالفارقات فرقا . ف الملقيات ذكرا , عذرا أو نذرا). . وهو افتتاح يلتئم مع جو السورة وظلها تمام الالتئام .

وللقرآن في هذا الباب طريقة خاصة في اختيار إطار للمشاهد في بعض السور من لون هذه المشاهد وقوتها . . وهذا نموذج منها , كما اختار إطارا من الضحى والليل إذا سجى لمشاهد الرعاية والحنان والإيواء في "سورة الضحى " وإطارا من العاديات الضابحة الصاخبة المثيرة للغبار لمشاهد بعثرة القبور وتحصيل ما في الصدور في سورة "والعاديات" . . وغيرها كثير .

وكل مقطع من مقاطع السورة العشرة بعد هذا المطلع , يمثل جولة أو رحلة في عالم , تتحول السورة معه إلى مساحات عريضة من التأملات والمشاعر والخواطر والتأثرات والاستجابات . . أعرض بكثير جدا من مساحة العبارات والكلمات , وكأنما هذه سهام تشير إلى عوالم شتى !

والجولة الأولى تقع في مشاهد يوم الفصل . وهي تصور الانقلابات الكونية الهائلة في السماء والأرض , وهي الموعد الذي تنتهي إليه الرسل بحسابها مع البشر:(فإذا النجوم طمست . وإذا السماء فرجت . وإذا الجبال نسفت . وإذا الرسل أقتت . لأي يوم أجلت ? ليوم الفصل . وما أدراك ما يوم الفصل ? ويل يومئذ للمكذبين !).

والجولة الثانية مع مصارع الغابرين , وما تشير إليه من سنن الله في المكذبين:(ألم نهلك الأولين ? ثم نتبعهم الآخرين ? كذلك نفعل بِالمجرمين . ويل يومئذ للمكذبين !). .

والجولة الثالثة مع النشأة الأولى وما توحي به من تقدير وتدبير:(ألم نخلقكم من ماء مهين ? فجعلناه في قرار مكين ? إلى قدر معلوم ? فقدرنا فنعم القادرون . ويل يومئذ للمكذبين !). .

والجولة الرابعة في الأرض التي تضم أبناءها إليها أحياء وأمواتا , وقد جهزت لهم بالاستقرار والماء المحيي:(ألم نجعل الأرض كفاتا ? أحياء وأمواتا , وجعلنا فيها رواسي شامخات وأسقيناكم ماء فراتا ? ويل يومئذ للمكذبين !). .

والجولة الخامسة مع المكذبين وما يلقونه يوم الفصل من عذاب وتأنيب:(انطلقوا إلى ما كنتم به تكذبون . انطلقوا إلى ظل ذي ثلاث شعب ! لا ظليل ولا يغني من اللهب . إنها ترمي بشرر كالقصر كأنه جمالة صفر . ويل يومئذ للمكذبين !). .

والجولة السادسة والسابعة استطراد مع موقف المكذبين , ومزيد من التأنيب والترذيل:(هذا يوم لا ينطقون , ولا يؤذن لهم فيعتذرون . ويل يومئذ للمكذبين ! هذا يوم الفصل جمعناكم والأولين . فإن كان لكم كيد فكيدون . ويل يومئذ للمكذبين !). .

والجولة الثامنة مع المتقين , وما أعد لهم من نعيم:(إن المتقين في ظلال وعيون , وفواكه مما يشتهون . كلوا واشربوا هنيئا بما كنتم تعملون . إنا كذلك نجزي المحسنين . ويل يومئذ للمكذبين !). .

والجولة التاسعة خطفة سريعة مع المكذبين في موقف التأنيب:(كلوا وتمتعوا قليلا إنكم مجرمون . ويل يومئذ للمكذبين !). .

والجولة العاشرة خطفة سريعة مع المكذبين في موقف التكذيب:(وإذا قيل لهم:اركعوا لا يركعون . ويل يومئذ للمكذبين !).

والخاتمة بعد هذه الجولات والاستعراضات والوخزات والإيقاعات: (فبأي حديث بعده يؤمنون ?). .

وهكذا يمضي القلب مع سياق السورة السريع , وكأنه يلهث مع إيقاعها وصورها ومشاهدها . فأما الحقائق الموضوعية في السورة فقد تكرر ورودها في سور القرآن - والمكية منها بوجه خاص - ولكن الحقائق القرآنية تعرض من جوانب متعددة , وفي أضواء متعددة , وبطعوم ومذاقات متعددة , وفق الحالات النفسية التي تواجهها , ووفق مداخل القلوب وأحوال النفوس التي يعلمها منزل هذا القرآن على رسوله , فتبدو في كل حالةجديدة , لأنها تستجيش في النفس استجابات جديدة .

وفي هذه السورة جدة في مشاهد جهنم . وجدة في مواجهة المكذبين بهذه المشاهد . كما أن هناك جدة في أسلوب العرض والخطاب كله . ومن ثم تبرز شخصية خاصة للسورة . حادة الملامح . لاذعة المذاق . لا هثة الإيقاع !

هذا الجزء كله - ومنه هذه السورة - ذو طابع غالب . . سوره مكية فيما عدا سورتي "البينة " و "النصر" وكلها من قصار السور على تفاوت في القصر . والأهم من هذا هو طابعها الخاص الذي يجعلها وحدة - على وجه التقريب - في موضوعها واتجاهها , وإيقاعها , وصورها وظلالها , وأسلوبها العام .

إنها طرقات متوالية على الحس . طرقات عنيفة قوية عالية . وصيحات . صيحات بنوم غارقين في النوم ! نومهم ثقيل ! أو بسكارى مخمورين ثقل حسهم الخمار ! أو بلاهين في سامر راقصين في ضجة وتصدية ومكاء ! تتوالى على حسهم تلك الطرقات والصيحات المنبثقة من سور هذا الجزء كله بإيقاع واحد ونذير واحد:اصحوا . استيقظوا . انظروا . تلفتوا . تفكروا . تدبروا . . إن هنالك إلها . وإن هنالك تدبيرا . وإن هنالك تقديرا . وإن هنالك ابتلاء . وإن هنالك تبعة . وإن هنالك حسابا . وإن هنالك جزاء . وإن هنالك عذابا شديدا . ونعيما كبيرا . . اصحوا . استيقظوا . انظروا تلفتوا تفكروا تدبروا وهكذا مرة أخرى وثالثة ورابعة وخامسة وعاشرة ومع الطرقات والصيحات يد قوية تهز النائمين المخمورين السادرين هزا عنيفا . . وهم كأنما يفتحون أعينهم ينظرون في خمار مرة , ثم يعودون لما كانوا فيه ! فتعود اليد القوية تهزهم هزا عنيفا ; ويعود الصوت العالي يصيح بهم من جديد ; وتعود الطرقات العنيفة على الأسماع والقلوب . . وأحيانا يتيقظ النوام ليقولوا:في إصرار وعناد:لا . . ثم يحصبون الصائح المنذر المنبه بالأحجار والبذاء . . ثم يعودون لما كانوا فيه . فيعود إلى هزهم من جديد .

هكذا خيل إلي وأنا أقرأ هذا الجزء . وأحس تركيزه على حقائق معينة قليلة العدد , عظيمة القدر , ثقيلة الوزن . وعلى إيقاعات معينة يلمس بها أوتار القلوب . وعلى مشاهد معينة في الكون والنفس . وعلى أحداث

معينة في يوم الفصل . وأرى تكرارها مع تنوعها . هذا التكرار الموحي بأمر وقصد !

وهكذا يحس القارئ وهو يقرأ:(فلينظر الإنسان إلى طعامه . . .). .(فلينظر الإنسان مم خلق ? . . .). .(أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت ? وإلى السماء كيف رفعت ? وإلى الجبال كيف نصبت وإلى الأ رض كيف سطحت ?).

وهو يقرأ:(أأنتم أشد خلقا أم السماء بناها ? رفع سمكها فسواها . وأغطش ليلها وأخرج ضحاها . والأرض بعد ذلك دحاها . أخرج منها ماءها ومرعاها . والجبال أرساها . متاعا لكم ولأنعامكم). .(ألم نجعل الأ رض مهادا ? والجبال أوتادا ? وخلقناكم أزواجا ? وجعلنا نومكم سباتا ? وجعلنا الليل لباسا ? وجعلنا النهار معاشا ? وبنينا فوقكم سبعا شدادا ? وجعلنا سراجا وهاجا ? وأنزلنا من المعصرات ماء ثجاجا ? لنخرج به حبا ونباتا وجنات ألفافا ?). . . . (فلينظر الإنسان الي طعامه . أنا صببنا الماء صبا . ثم شققنا الأرض شقا . فأنبتنا فيها حبا وعنبا وقضبا وزيتونا ونخ لا , وحدائق غلبا , وفاكهة وأبا . متاعا لكم ولأنعامكم). .

وهو يقرأ(يا أيها الإنسان . ما غرك بربك الكريم , الذي خلقك فسواك فعدلك , في أي صورة ما شاء ركبك ?). .

(سبح اسم ربك الأعلى , الذي خلق فسوى , والذي قدر فهدى . والذي أخرج المرعى . فجعله غثاء أحوى). .(لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم , ثم رددناه أسفل سافلين , إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم أجر غير ممنون . فما يكذبك بعد بالدين ? أليس الله بأحكم الحاكمين ?). .

وهو يقرأ: إذا الشمس كورت , وإذا النجوم انكدرت , وإذا الجبال سيرت , وإذا العشار عطلت , وإذا الوحوش حشرت , وإذا البحار سجرت , وإذا النفوس زوجت , وإذا الموؤودة سئلت بأي ذنب قتلت ? (وإذا الصحف

نشرت , وإذا السماء كشطت , وإذا الجحيم سعرت , وإذا الجنة أزلفت . علمت نفس ما أحضرت). .(إذا السماء انفطرت , وإذا الكواكب انتثرت , وإذا البحار فجرت , وإذا القبور بعثرت . علمت نفس ما قدمت وأخرت). .(إذا السماء انشقت . وأذنت لربها وحقت . وإذا الأرض مدت , وألقت ما فيها وتخلت , وأذنت لربها وحقت . . .) (إذا زلزلت الأرض زلزالها , وأخرجت الأرض أثقالها , وقال الإنسان مالها . . يومئذ تحدث أخبارها بأن ربك أوحى لها). .

وهو يقرأ اللمحات والسبحات الكونية في مفاتح عدد من السور وفي ثناياها:(فلا أقسم بالخنس . الجوار الكنس . والليل إذا عسعس . والصبح إذا تنفس). .(فلا أقسم بالشفق , والليل وما وسق . والقمر إذا اتسق). .(والفجر . وليال عشر . والشفع والوتر . والليل إذا يسر). .(والشمس وضحاها . والقمر إذا تلاها . والنهار إذا جلاها . والليل إذا يغشاها و السماء وما بناها . والأرض وما طحاها . ونفس وما سواها . فألهمها فجورها وتقواها). .(والليل إذا يغشى . والنهار إذا تجلى . وما خلق الذكر والأنثى). .(والضحى . والليل إذا سجى). .

الخ . . الخ . .

وفي الجزء كله تركيز على النشأة الأولى للإنسان والأحياء الأخرى في هذه الأرض من نبات وحيوان . وعلى مشاهد هذا الكون وآياته في كتابه المفتوح . وعلى مشاهد القيامة العنيفة الطامة الصاخة القارعة الغاشية . ومشاهد الحساب والجزاء من نعيم وعذاب في صور تقرع وتذهل وتزلزل كمشاهد القيامة الكونية في ضخامتها وهولها . . واتخاذها جميعا دلائل على الخلق والتدبير والنشأة الأخرى وموازينها الحاسمة . مع التقريع بها والتخويف والتحذير . . وأحيانا تصاحبها صور من مصارع الغابرين من المكذبين . والأمثلة على هذا هي الجزء كله . ولكنا نشير إلى بعض النماذج في هذا التقديم:

هذه السورة - سورة النبأ - كلها نموذج كامل لهذا التركيز على هذه

الحقائق والمشاهد . ومثلها سورة "النازعات" وسورة "عبس" تحتوي مقدمتها إشارة إلى حادث معين من حوادث الدعوة . . وبقيتها كلها حديث عن نشأة الحياة الإنسانية والحياة النباتية ثم عن الصاخة:(يوم يفر المرء من أخيه , وأمه , وأبيه , وصاحبته وبنيه , لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه . وجوه يومئذ مسفرة . ضاحكة مستبشرة , ووجوه يومئذ عليها غبرة , ترهقها قترة). وسورة "التكوير" وهي تصور مشاهد ا لانقلاب الكوني الهائلة في ذلك اليوم , مع عرض مشاهد كونية موحية في صدد القسم على حقيقة الوحي وصدق الرسول . وسورة "الانفطار" كذلك في عرض مشاهد الانقلاب مع مشاهد النعيم والعذاب , وهز الضمير البشري أمام هذه وتلك:(يا أيها الإنسان ما غرك بربك الكريم . . .)الخ" وسورة "الانشقاق" وهي تعرض مشاهد الانقلاب الكوني ومشاهد النعيم والعذاب . . وسورة "البروج" وهي تلقي إيقاعات سريعة حول مشاهد الكون ومشاهد اليوم بصدد إشارة إلى تعذيب الكفار لجماعة من المؤمنين في الدنيا بالنار . وعذاب الله لأولئك الكفار في الآخرة بالنار . وهو أشد وأنكى . .

وسورة "الطارق" . . وهي تعرض مشاهد كونية مع نشأة الإنسان ونشأة النبات للقسم بالجميع:(إنه لقول فصل , وما هو بالهزل). . وسورة "الأ على " وتتحدث عن الخلق والتسوية والتقدير والهداية , وإخراج المرعى وأطواره تمهيدا للحديث عن الذكر والآخرة والحساب والجزاء . . وسورة "الغاشية " . . وهي تصوير لمشاهد النعيم والعذاب . ثم توجيه إلى خلق الإبل والسماء والأرض والجبال . . وهكذا . . وهكذا . . إلى نهاية الجزء باستثناء سور قليلة تتحدث عن حقائق العقيدة ومنهج الإيمان . كسورة الإخلاص . وسورة الكافرون .وسورة الماعون . وسورة العصر . وسورة القدر . وسورة النصر . أو تسري عن رسول الله [ص] وتواسيه وتوجهه إلى الإستعاذه بربه من كل شر , كسور الضحى . والانشراح . والكوثر . و الفلق . والناس . . وهي سور قليلة على كل حال . .

وهناك ظاهرة أخرى في الأداء التعبيري لهذا الجزء . هناك أناقة واضحة

في التعبير , مع اللمسات المقصودة لمواطن الجمال في الوجود و النفوس , وافتنان مبدع في الصور والظلال والإيقاع الموسيقي و القوافي والفواصل , تتناسق كلها مع طبيعته في خطاب الغافلين النائمين السادرين , لإيقاظهم واجتذاب حسهم وحواسهم بشتى الألوان وشتى الإيقاعات وشتى المؤثرات . . يتجلى هذا كله بصورة واضحة في مثل تعبيره اللطيف عن النجوم التي تخنس وتتوارى كالظباء في كناسها وتبرز , وعن الليل وكأنه حي يعس في الظلام , والصبح وكأنه حي يتنفس بالنور: (فلا أقسم بالخنس , الجوار الكنس ; والليل إذا عسعس . والصبح إذا تنفس)وفي عرضه لمشاهد الغروب والليل و القمر:(فلا أقسم بالشفق , والليل وما وسق , والقمر إذا اتسق). أو لمشاهد الفجر والليل وهو يتمشى ويسري:(والفجر . وليال عشر . و الشفع والوتر . والليل إذا يسر).(والضحى . والليل إذا سجى). وفي خطابه الموحي للقلب البشري:(يا أيها الإنسان ما غرك بربك الكريم ? الذي خلقك فسواك فعدلك . .)وفي وصف الجنة:(وجوه يومئذ ناعمة , لسعيها راضية , في جنة عالية , لا تسمع فيها لاغية . . .)ووصف النار: وأما من خفت موازينه فأمه هاوية . وما أدراك ما هيه ? نار حامية ! . . والأناقة في التعبير واضحة وضوح القصد في اللمسات الجمالية لمشاهد الكون وخوالج النفس .

والعدول أحيانا عن اللفظ المباشر إلى الكناية , وعن اللفظ القريب إلى ا لإشتقاق البعيد , لتحقيق التنغيم المقصود , مما يؤكد هذه اللفتة خلال الجزء كله على وجه التقريب . .

وهذه السورة نموذج لاتجاه هذا الجزء بموضوعاته وحقائقه وإيقاعاته ومشاهده وصوره وظلاله وموسيقاه ولمساته في الكون والنفس , و الدنيا والآخرة ; واختيار الألفاظ والعبارات لتوقع أشد إيقاعاتها أثرا في الحس والضمير .

وهي تفتتح بسؤال موح مثير للاستهوال والاستعظام وتضخيم الحقيقة

التي يختلفون عليها , وهي أمر عظيم لا خفاء فيه , ولا شبهة ; ويعقب على هذا بتهديدهم يوم يعلمون حقيقته:(عم يتساءلون ? عن النبأ العظيم , الذي هم فيه مختلفون . كلا سيعلمون . ثم كلا سيعلمون !). .

ومن ثم يعدل السياق عن المعنى في الحديث عن هذا النبأ ويدعه لحينه , ويلفتهم إلى ما هو واقع بين أيديهم وحولهم , في ذوات أنفسهم وفي الكون حولهم من أمر عظيم , يدل على ما وراءه ويوحي بما سيتلوه:(ألم نجعل الأرض مهادا والجبال أوتادا ? وخلقناكم أزواجا ? وجعلنا نومكم سباتا ? وجعلنا الليل لباسا , وجعلنا النهار معاشا ? وبنينا فوقكم سبعا شدادا ? وجعلنا سراجا وهاجا ? وأنزلنا من المعصرات ماء ثجاجا ? لنخرج به حبا ونباتا وجنات ألفافا ?).

ومن هذا الحشد من الحقائق والمشاهد والصور والإيقاعات يعود بهم إلى ذلك النبأ العظيم الذي هم فيه مختلفون , والذي هددهم به يوم يعلمون ! ليقول لهم ما هو ? وكيف يكون:(إن يوم الفصل كان ميقاتا . يوم ينفخ في الصور فتأتون أفواجا . وفتحت السماء فكانت أبوابا . وسيرت الجبال فكانت سرابا). .

ثم مشهد العذاب بكل قوته وعنفه: (إن جهنم كانت مرصادا , للطاغين مآبا , لابثين فيها أحقابا , لا يذوقون فيها بردا ولا شرابا . إلا حميما وغساقا . جزاء وفاقا . إنهم كانوا لا يرجون حسابا , وكذبوا بآياتنا كذابا ,وكل شيء أحصيناه كتابا . فذوقوا فلن نزيدكم إلا عذابا). .

ومشهد النعيم كذلك وهو يتدفق تدفقا:(إن للمتقين مفازا:حدائق وأعنابا , وكواعب أترابا , وكأسا دهاقا , لا يسمعون فيها لغوا ولا كذابا . جزاء من ربك عطاء حسابا).

وتختم السورة بإيقاع جليل في حقيقته وفي المشهد الذي يعرض فيه . وبإنذار وتذكير قبل أن يجيء اليوم الذي يكون فيه هذا المشهد الجليل:(رب السماوات والأرض وما بينهما الرحمن لا يملكون منه

خطابا . يوم يقوم الروح والملائكة صفا لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صوابا . ذلك اليوم الحق . فمن شاء اتخذ إلى ربه مآبا . إنا أنذرناكم عذابا قريبا . يوم ينظر المرء ما قدمت يداه , ويقول الكافر يا ليتني كنت ترابا). .

ذلك هو النبأ العظيم . الذي يتساءلون عنه . وذلك ما سيكون يوم يعلمون ذلك النبأ العظيم !

الدرس الأول:1 - 5 تهديد الكفار المنكرين للنبأ العظيم

(عم يتساءلون ? عن النبأ العظيم . الذي هم فيه مختلفون . كلا ! سيعلمون . ثم كلا ! سيعلمون). . مطلع فيه استنكار لتساؤل المتسائلين , وفيه عجب أن يكون هذا الأمر موضع تساؤل . وقد كانوا يتساءلون عن يوم البعث ونبأ القيامة . وكان هو الأمر الذي يجادلون فيه أشد الجدل , ولا يكادون يتصورون وقوعه , وهو أولى شيء بأن يكون !

(عم يتساءلون ?). . وعن أي شيء يتحدثون ? ثم يجيب . فلم يكن السؤال بقصد معرفة الجواب منهم . إنما كان للتعجيب من حالهم وتوجيه النظر إلى غرابة تساؤلهم , بكشف الأمر الذي يتساءلون عنه وبيان حقيقته وطبيعته:

(عن النبأ العظيم , الذي هم فيه مختلفون). . ولم يحدد ما يتساءلون عنه بلفظه , إنما ذكره بوصفه . . النبأ العظيم . . استطرادا في أسلوب التعجيب والتضخيم . . وكان الخلاف على اليوم بين الذين آمنوا به و الذين كفروا بوقوعه . أما التساؤل فكان من هؤلاء وحدهم .

ثم لا يجيب عن التساؤل , ولا يدلي بحقيقة النبأ المسؤول عنه . فيتركه بوصفه . . العظيم . . وينتقل إلى التلويح بالتهديد الملفوف , وهو أوقع من الجواب المباشر , وأعمق في التخويف:

(كلا ! سيعلمون . ثم كلا ! سيعلمون !). . ولفظ كلا , يقال في الردع و

الزجر فهو أنسب هنا للظل الذي يراد إلقاؤه . وتكراره وتكرار الجملة كلها فيه من التهديد ما فيه .

الدرس الثاني:6 - 16 تذكيرهم ببعض نعم الله عليهم

ثم يبعد في ظاهر الأمر عن موضوع ذلك النبأ العظيم الذي هم فيه مختلفون . ليلتقي به بعد قليل . يبعد في جولة قريبة في هذا الكون المنظور مع حشد من الكائنات والظواهر والحقائق والمشاهد , تهز الكيان حين يتدبرها الجنان:

(ألم نجعل الأرض مهادا ? والجبال أوتادا ? وخلقناكم أزواجا ? وجعلنا نومكم سباتا ? وجعلنا الليل لباسا ? وجعلنا النهار معاشا ? وبنينا فوقكم سبعا شدادا ? وجعلنا سراجا وهاجا ? وأنزلنا من المعصرات ماء ثجاجا ? لنخرج به حبا ونباتا , وجنات ألفافا ?). .

وهذه الجولة التي تتنقل في أرجاء هذا الكون الواسع العريض , مع هذا الحشد الهائل من الصور والمشاهد , تذكر في حيز ضيق مكتنز من الألفاظ والعبارات , مما يجعل إيقاعها في الحس حادا ثقيلا نفاذا , كأنه المطارق

أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَاداً (6) وَالْجِبَالَ أَوْتَاداً (7) وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجاً (8)

المتوالية , بلا فتور ولا انقطاع ! وصيغة الاستفهام الموجهة إلى المخاطبين - وهي في اللغة تفيد التقرير - صيغة مقصودة هنا , وكأنما هي يد قوية تهز الغافلين , وهي توجه أنظارهم وقلوبهم إلى هذا الحشد من الخلائق والظواهر التي تشي بما وراءها من التدبير والتقدير , و القدرة على الإنشاء والإعادة , والحكمة التي لا تدع أمر الخلائق سدى بلا حساب ولا جزاء . . ومن هنا تلتقي بالنبأ العظيم الذي هم فيه مختلفون !

واللمسة الأولى في هذه الجولة عن الأرض والجبال:

(ألم نجعل الأرض مهادا , والجبال أوتادا ?). .

والمهاد:الممهد للسير . . والمهاد اللين كالمهد . . وكلاهما متقارب . وهي حقيقة محسوسة للإنسان في أي طور من أطوار حضارته ومعرفته . فلا تحتاج إلى علم غزير لإدراكها في صورتها الواقعية . وكون الجبال أوتادا ظاهرة تراها العين كذلك حتى من الإنسان البدائي ; وهذه وتلك ذات وقع في الحس حين توجه إليها النفس .

غير أن هذه الحقيقة أكبر وأوسع مدى مما يحسها الإنسان البدائي لأول وهلة بالحس المجرد . وكلما ارتقت معارف الإنسان وازدادت معرفته بطبيعة هذا الكون وأطواره , كبرت هذه الحقيقة في نفسه ; وأدرك من ورائها التقدير الإلهي العظيم والتدبير الدقيق الحكيم , والتنسيق بين أفراد هذا الوجود وحاجاتهم ; وإعداد هذه الأرض لتلقي الحياة الإنسانية وحضانتها ; وإعداد هذا الإنسان للملاءمة مع البيئة والتفاهم معها .

وجعل الأرض مهادا للحياة - وللحياة الإنسانية بوجه خاص - شاهد لا يمارى في شهادته بوجود العقل المدبر من وراء هذا الوجود الظاهر . فاختلال نسبة واحدة من النسب الملحوظة في خلق الأرض هكذا بجميع ظروفها . أو اختلال نسبة واحدة من النسب الملحوظة في خلق الحياة لتعيش في الأرض . . الاختلال هنا أو هناك لا يجعل الأرض مهادا ; ولا يبقي هذه الحقيقة التي يشير إليها القرآن هذه الإشارة المجملة , ليدركها كل إنسان وفق درجة معرفته ومداركه . .

وجعل الجبال أوتادا . . يدركه الإنسان من الناحية الشكلية بنظره المجرد , فهي أشبه شيء بأوتاد الخيمة التي تشد إليها . أما حقيقتها فنتلقاها من القرآن , وندرك منه أنها تثبت الأرض وتحفظ توازنها . . وقد يكون هذا لأنها تعادل بين نسب الأغوار في البحار ونسب المرتفعات في الجبال . . وقد يكون لأنها تعادل بين التقلصات الجوفية ا

لأرض والتقلصات السطحية , وقد يكون لأنها تثقل الأرض في نقط معينة فلا تميد بفعل الزلازل والبراكين والاهتزازات الجوفية . . وقد يكون لسبب آخر لم يكشف عنه بعد . . وكم من قوانين وحقائق مجهولة أشار إليها القرآن الكريم . ثم عرف البشر طرفا منها بعد مئات السنين !

واللمسة الثانية في ذوات النفوس , في نواحي وحقائق شتى:

(وخلقناكم أزواجا). .

وهي ظاهرة كذلك ملحوظة يدركها كل إنسان بيسر وبساطة . . فقد خلق الله الإنسان ذكرا وأنثى , وجعل حياة هذا الجنس وامتداده قائمة على اختلاف الزوجين والتقائهما . وكل إنسان يدرك هذه الظاهرة , ويحس ما وراءها من راحة ولذة ومتاع وتجدد بدون حاجة إلى علم غزير . ومن ثم يخاطب بها القرآن الإنسان في أية بيئة فيدركها ويتأثر بها حين يتوجه تأمله إليها , ويحس ما فيها من قصد ومن تنسيق وتدبير .

ووراء هذا الشعور المبهم بقيمة هذه الحقيقة وعمقها , تأملات أخرى حين يرتقي الإنسان في المعرفة وفي الشعور أيضا . . هنالك التأمل في القدرة المدبرة التي تجعل من نطفة ذكرا , وتجعل من نطفة أنثى , بدون مميز

وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتاً (9) وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاساً (10) وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشاً (11) وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعاً شِدَاداً (12)

ظاهر في هذه النطفة أو تلك , يجعل هذه تسلك طريقها لتكون ذكرا , وهذه تسلك طريقها لتكون أنثى . . اللهم إلا إرادة القدرة الخالقة وتدبيرها الخفي , وتوجيهها اللطيف , وإيداعها الخصائص التي تريدها هي لهذه النطفة وتلك , لتخلق منهما زوجين تنمو بهما الحياة وترقى !

(وجعلنا نومكم سباتا . وجعلنا الليل لباسا . وجعلنا النهار معاشا). .

وكان من تدبير الله للبشر أن جعل النوم سباتا يدركهم فيقطعهم عن الإدراك والنشاط ; ويجعلهم في حالة لا هي موت ولا هي حياة , تتكفل بإراحة أجسادهم وأعصابهم وتعويضها عن الجهد الذي بذلته في حالة الصحو والإجهاد والانشغال بأمور الحياة . . وكل هذا يتم بطريقة عجيبة لا يدرك الإنسان كنهها , ولا نصيب لإرادته فيها ; ولا يمكن أن يعرف كيف تتم في كيانه . فهو في حالة الصحو لا يعرف كيف يكون وهو في حالة النوم . وهو في حالة النوم لا يدرك هذه الحالة ولا يقدر على ملاحظتها ! وهي سر من أسرار تكوين الحي لا يعلمه إلا من خلق هذا الحي وأودعه ذلك السر ; وجعل حياته متوقفة عليه . فما من حي يطيق أن يظل من غير نوم إلا فترة محدودة . فإذا أجبر إجبارا بوسائل خارجة عن ذاته كي يظل مستيقظا فإنه يهلك قطعا .

وفي النوم أسرار غير تلبية حاجة الجسد والأعصاب . . إنه هدنة الروح من صراع الحياة العنيف , هدنة تلم بالفرد فيلقي سلاحه وجنته - طائعا أو غير طائع - ويستسلم لفترة من السلام الآمن , والسلام الذي يحتاجه الفرد حاجته إلى الطعام والشراب . ويقع ما يشبه المعجزات في بعض الحالات حيث يلم النعاس بالأجفان , والروح مثقل , والأعصاب مكدودة , والنفس منزعجة , والقلب مروع . وكأنما هذا النعاس - وأحيانا لا يزيد على لحظات - انقلاب تام في كيان هذا الفرد . وتجديد كامل لا لقواه بل له هو ذاته , وكأنما هو كائن حين يصحو جديد . . ولقد وقعت هذه المعجزة بشكل واضح للمسلمين المجهودين في غزوة بدر وفي غزوة أحد , وامتن الله عليهم بها . وهو يقول: (إذ يغشيكم النعاس أمنة منه). . (ثم أنزل عليكم من بعد الغم أمنة نعاسا يغشى طائفة منكم). . كما وقعت للكثيرين في حالات مشابهة !

فهذا السبات:أي الإنقطاع عن الإدراك والنشاط بالنوم ضرورة من ضرورات تكوين الحي ; وسر من أسرار القدرة الخالقة ; ونعمة من نعم

الله لا يملك إعطاءها إلا إياه . وتوجيه النظر إليها على هذا النحو القرآني ينبه القلب إلى خصائص ذاته , وإلى اليد التي أودعتها كيانه , ويلمسه لمسة تثير التأمل والتدبر والتأثر .

وكان من تدبير الله كذلك أن جعل حركة الكون موافقة لحركة الأحياء . وكما أودع الإنسان سر النوم والسبات , بعد العمل والنشاط , فكذلك أودع الكون ظاهرة الليل ليكون لباسا ساترا يتم فيه السبات والانزواء . وظاهرة النهار ليكون معاشا تتم فيه الحركة والنشاط . . بهذا توافق خلق الله وتناسق . وكان هذا العالم بيئة مناسبة للأحياء . تلبي ما ركب فيهم من خصائص . وكان الأحياء مزودين بالتركيب المتفق في حركته وحاجاته مع ما هو مودع في الكون من خصائص وموافقات . وخرج هذا وهذا من يد القدرة المبدعة المدبرة متسقا أدق اتساق !

واللمسة الثالثة في خلق السماء متناسقة مع الأرض والأحياء:

(وبنينا فوقكم سبعا شدادا . وجعلنا سراجا وهاجا . وأنزلنا من المعصرات ماء ثجاجا . لنخرج به حبا ونباتا , وجنات ألفافا). .

والسبع الشداد التي بناها الله فوق أهل الأرض هي السماوات السبع , وهي الطرائق السبع في موضع آخر . . والمقصود بها على وجه التحديد يعلمه الله . . فقد تكون سبع مجموعات من المجرات - وهي مجموعات من النجوم

وَجَعَلْنَا سِرَاجاً وَهَّاجاً (13) وَأَنزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاء ثَجَّاجاً (14) لِنُخْرِجَ بِهِ حَبّاً وَنَبَاتاً (15) وَجَنَّاتٍ أَلْفَافاً (16)

قد تبلغ الواحدة منها مائة مليون نجم - وتكون السبع المجرات هذه هي التي لها علاقة بأرضنا أو بمجموعتنا الشمسية . . وقد تكون غير هذه وتلك مما يعلمه الله من تركيب هذا الكون , الذي لا يعلم الإنسان عنه إلا

القليل .

إنما تشير هذه الآية إلى أن هذه السبع الشداد متينة التكوين , قوية البناء , مشدودة بقوة تمنعها من التفكك والانثناء . وهو ما نراه ونعلمه من طبيعة الأفلاك والأجرام فيما نطلق عليه لفظ السماء فيدركه كل إنسان . . كما تشير إلى أن بناء هذه السبع الشداد متناسق مع عالم الأرض والإنسان ومن ثم يذكر في معرض تدبير الله وتقديره لحياة الأرض والإنسان . يدل على هذا ما بعده:(وجعلنا سراجا وهاجا). . وهو الشمس المضيئة الباعثة للحرارة التي تعيش عليها الأرض وما فيها من الأحياء . والتي تؤثر كذلك في تكوين السحائب بتبخير المياه من المحيط الواسع في الأرض ورفعها إلى طبقات الجو العليا وهي المعصرات:(وأنزلنا من المعصرات ماء ثجاجا). . حين تعصر فتخر ويتساقط ما فيها من الماء . ومن يعصرها ؟ قد تكون هي الرياح . وقد يكون هو التفريغ الكهربائي في طبقات الجو . ومن وراء هذه وتلك يد القدرة التي تودع الكون هذه المؤثرات ! وفي السراج توقد وحرارة وضوء . . وهو ما يتوافر في الشمس . فاختيار كلمة(سراج)دقيق كل الدقة ومختار . .

ومن السراج الوهاج وما يكسبه من أشعة فيها ضوء وحرارة , ومن المعصرات وما يعتصر منها من ماء ثجاج , ينصب دفعة بعد دفعة كلما وقع التفريغ الكهربائي مرة بعد مرة , وهو الثجاج , من هذا الماء مع هذا الإشعاع يخرج الحب والنبات الذي يؤكل هو ذاته , والجنات الألفاف الكثيفة الكثيرة الأشجار الملتفة الأغصان .

وهذا التناسق في تصميم الكون , لا يكون إلا ووراءه يد تنسقه , وحكمة تقدره , وإرادة تدبره . يدرك هذا بقلبه وحسه كل إنسان حين توجه مشاعره هذا التوجيه , فإذا ارتقى في العلم والمعرفة تكشفت له من هذا التناسق آفاق ودرجات تذهل العقول وتحير الألباب . وتجعل القول بأن هذا كله مجرد مصادفة قولا تافها لا يستحق المناقشة . كما تجعل التهرب من مواجهة حقيقة القصد والتدبير في هذا الكون , مجرد تعنت

لا يستحق الاحترام !

إن لهذا الكون خالقا , وإن وراء هذا الكون تدبيرا وتقديرا وتنسيقا . وتوالي هذه الحقائق والمشاهد في هذا النص القرآني على هذا النحو:من جعل الأرض مهادا والجبال أوتادا . وخلق الناس أزواجا . وجعل نومهم سباتا [بعد الحركة والوعي والنشاط] مع جعل الليل لباسا للستر والا نزواء , وجعل النهار معاشا للوعي والنشاط . ثم بناء السبع الشداد . وجعل السراج الوهاج . وإنزال الماء الثجاج من المعصرات . لإنبات الحب والنبات والجنات . . توالي هذه الحقائق والمشاهد على هذا النحو يوحي بالتناسق الدقيق , ويشي بالتدبير والتقدير , ويشعر بالخالق الحكيم القدير . ويلمس القلب لمسات موقظة موحية بما وراء هذه الحياة من قصد وغاية . . ومن هنا يلتقي السياق بالنبأ العظيم الذي هم فيه مختلفون !

الدرس الثالث:17 - 20 من مشاهد يوم القيامة نفخ الصور()

ولقد كان ذلك كله للعمل والمتاع . ووراء هذا كله حساب وجزاء . ويوم الفصل هو الموعد الموقوت للفصل:(إن يوم الفصل كان ميقاتا . يوم ينفخ في الصور فتأتون أفواجا . وفتحت السماء فكانت أبوابا . وسيرت الجبال فكانت سرابا). .

إن الناس لم يخلقوا عبثا , ولن يتركوا سدى . والذي قدر حياتهم ذلك التقدير الذي يشي به المقطع الماضي في السياق , ونسق حياتهم مع الكون الذي يعيشون فيه ذلك التنسيق , لا يمكن أن يدعهم يعيشون سدى ويموتون هملا ! ويصلحون في الأرض أو يفسدون ثم يذهبون في التراب ضياعا ! ويهتدون في الحياة أو يضلون ثم يلقون مصيرا واحدا . ويعدلون في الأرض أو يظلمون ثم يذهب العدل والظلم جميعا !

إنّ يَوْمَ الفَصْلِ كانَ مِيقاتاً (17) يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجاً
(18) وَفُتِحَتِ السَّمَاء فَكانَتْ أَبْوَاباً (19) وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكانَتْ سَرَاباً
(20) إِنّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَاداً (21) لِلطَّاغِينَ مَآباً (22) لَابِثِينَ فِيهَا
أَحْقَاباً (23) لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْداً وَلَا شَرَاباً (24) إِلَّا حَمِيماً وَغَسّاقاً (25)
جَزَاء وِفَاقاً (26)

إن هنالك يوما للحكم والفرقان والفصل في كل ما كان . وهو اليوم المرسوم الموعود الموقوت بأجل عند الله معلوم محدود:

(إن يوم الفصل كان ميقاتا). .

وهو يوم ينقلب فيه نظام هذا الكون وينفرط فيه عقد هذا النظام .

(يوم ينفخ في الصور فتأتون أفواجا . وفتحت السماء فكانت أبوابا , وسيرت الجبال فكانت سرابا). .

والصور:البوق . ونحن لا ندري عنه إلا اسمه . ولا نعلم إلا أنه سينفخ فيه . وليس لنا أن نشغل أنفسنا بكيفية ذلك . فهي لا تزيدنا إيمانا ولا تأثرا بالحادث . وقد صان الله طاقتنا عن أن تتبدد في البحث وراء هذا الغيب المكنون , وأعطانا منه القدر الذي ينفعنا فلا نزيد ! إنما نحن نتصور النفخة الباعثة المجمعة التي يأتي بها الناس أفواجا . . نتصور هذا المشهد والخلائق التي توارت شخوصها جيلا بعد جيل , وأخلت وجه الأرض لمن يأتي بعدها كي لا يضيق بهم وجه الأرض المحدود . . نتصور مشهد هذه الخلائق جميعا . . أفواجا . . مبعوثين قائمين آتين من كل فج إلى حيث يحشرون . ونتصور الأجداث المبعثرة وهذه الخلا ئق منها قائمة . ونتصور الجموع الحاشدة لا يعرف أولها آخرها , ونتصور هذا الهول الذي تثيره تلك الحشود التي لم تتجمع قط في وقت واحد وفي ساعة واحدة إلا في هذا اليوم . . أين ? لا ندري . . ففي هذا الكون الذي نعرفه أحداث وأهوال جسام:

(وفتحت السماء فكانت أبوابا . وسيرت الجبال فكانت سرابا). .

السماء المبنية المتينة . . فتحت فكانت أبوابا . . فهي منشقة . منفرجة . كما جاء في مواضع وسور أخرى . على هيئة لا عهد لنا بها . والجبال الرواسي الأوتاد سيرت فكانت سرابا . فهي مدكوكة مبسوسة مثارة في الهواء هباء , يحركه الهواء - كما جاء في مواضع وسور أخرى . ومن ثم فلا وجود لها كالسراب الذي ليس له حقيقة . أو إنها تنعكس إليها الأشعة وهي هباء فتبدو كالسراب !

إنه الهول البادي في انقلاب الكون المنظور , كالهول البادي في الحشر بعد النفخ في الصور . وهذا هو يوم الفصل المقدر بحكمة وتدبير . .

الدرس الرابع:21 - 30 لقطات من عذاب الكفار في النار

ثم يمضي السياق خطوة وراء النفخ والحشر , فيصور مصير الطغاة ومصير التقاة . بادئا بالأولين المكذبين المتسائلين عن النبأ العظيم:

(إن جهنم كانت مرصادا , للطاغين مآبا , لابثين فيها أحقابا . لا يذوقون فيها بردا ولا شرابا , إلا حميما وغساقا . جزاء وفاقا . إنهم كانوا لا يرجون حسابا , وكذبوا بآياتنا كذابا . وكل شيء أحصيناه كتابا . فذوقوا فلن نزيدكم إلا عذابا). .

إن جهنم خلقت ووجدت وكانت مرصادا للطاغين تنتظرهم وتترقبهم وينتهون إليها فإذا هي معدة لهم , مهيأة لاستقبالهم . وكأنما كانوا في رحلة في الأرض ثم آبوا إلى مأواهم الأصيل ! وهم يردون هذا المآب للإقامة الطويلة المتجددة أحقابا بعد أحقاب:

(لا يذوقون فيها بردا ولا شرابا). . ثم يستثني . . فإذا الاستثناء أمر وأدهى:(إلا حميما وغساقا). . إلا الماء الساخن يشوي الحلوق والبطون . فهذا هو البرد ! وإلا الغساق الذي يغسق من أجساد المحروقين ويسيل . فهذا هو الشراب !

إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَاباً (27) وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَّاباً (28) وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَاباً (29) فَذُوقُوا فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَاباً (30) إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازاً (31) حَدَائِقَ وَأَعْنَاباً (32) وَكَوَاعِبَ أَتْرَاباً (33) وَكَأْساً دِهَاقاً (34) لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْواً وَلَا كِذَّاباً (35) جَزَاء مِّن رَّبِّكَ عَطَاء حِسَاباً (36) رَّبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الرحْمَنِ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَاباً (37)

(جزاء وفاقا). . يوافق ما أسلفوا وما قدموا . .(إنهم كانوا لا يرجون حسابا). . ولا يتوقعون مآبا . .(وكذبوا بآياتنا كذابا). . وجرس اللفظ فيه شدة توحي بشدة التكذيب وشدة الإصرار عليه .

بينما كان الله يحصي عليهم كل شيء إحصاء دقيقا لا يفلت منه حرف:(وكل شيء أحصيناه كتابا). . هنا يجيء التأنيب الميئس من كل رجاء في تغيير أو تخفيف:(فذوقوا فلن نزيدكم إلا عذابا). .

الدرس الخامس:31 - 36 لقطات من نعيم المتقين في الجنة

ثم يعرض المشهد المقابل:مشهد التقاة في النعيم . بعد مشهد الطغاة في الحميم:

(إن للمتقين مفازا . حدائق وأعنابا . وكواعب أترابا . وكأسا دهاقا . لا يسمعون فيها لغوا ولا كذابا . . جزاء من ربك عطاء حسابا). .

فإذا كانت جهنم هناك مرصدا ومآبا للطاغين , لا يفلتون منها ولا يتجاوزونها , فإن المتقين ينتهون إلى مفازة ومنجاة , تتمثل(حدائق وأعنابا)ويخص الأعناب بالذكر والتعيين لأنها مما يعرفه المخاطبون . .(وكواعب)وهن الفتيات الناهدات اللواتي استدارت ثديهن(أترابا)متوافيات السن والجمال .(وكأسا دهاقا)مترعة بالشراب .

وهي مناعم ظاهرها حسي , لتقريبها للتصور البشري . أما حقيقة مذاقها والمتاع بها فلا يدركها أهل الأرض وهم مقيدون بمدارك الأرض وتصوراتها . . وإلى جوارها حالة يتذوقها الضمير ويدركها الشعور:(لا

يسمعون فيها لغوا ولا كذابا) . . فهي حياة مصونة من اللغو والتكذيب الذي يصاحبه الجدل ; فالحقيقة مكشوفة لا مجال فيها لجدل ولا تكذيب ; كما أنه لا مجال للغو الذي لا خير فيه . . وهي حالة من الرفعة والمتعة تليق بدار الخلود . .

(جزاء من ربك عطاء حسابا) . . ونلمح هنا ظاهرة الأناقة في التعبير و الموسيقى في التقسيم بين(جزاء)و(عطاء) . . كما نلمحها في الإيقاع المشدود في الفواصل كلها على وجه التقريب . . وهي الظاهرة الواضحة في الجزء كله إجمالا .

الدرس السادس:37 - 38 لا كلام يوم القيامة إلا بإذن الله

وتكملة لمشاهد اليوم الذي يتم فيه ذلك كله , والذي يتساءل عنه المتسائلون , ويختلف فيه المختلفون . يجيء المشهد الختامي في السورة , حيث يقف جبريل "عليه السلام" والملائكة صفا بين يدي الرحمن خاشعين . لا يتكلمون - إلا من أذن له الرحمن - في الموقف المهيب الجليل:

(رب السماوات والأرض وما بينهما الرحمن لا يملكون منه خطابا . يوم يقوم الروح والملائكة صفا لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صوابا) . .

ذلك الجزاء الذي فصله في المقطع السابق:جزاء الطغاة وجزاء التقاة . هذا الجزاء (من ربك) . . (رب السماوات والأرض وما بينهما الرحمن) . . فهي المناسبة المهيأة لهذه اللمسة ولهذه الحقيقة الكبيرة . حقيقة الربوبية الواحدة التي تشمل الإنسان . كما تشمل السماوات والأرض , وتشمل الدنيا والآخرة , وتجازي على الطغيان والتقوى , وتنتهي إليها الآ خرة والأولى . . ثم هو(الرحمن) . . ومن رحمته ذلك الجزاء لهؤلاء وهؤلا ء . حتى عذاب الطغاة ينبثق من رحمة الرحمن . ومن الرحمة أن يجد الشر جزاءه وألا يتساوى مع الخير في مصيره !

ومع الرحمة والجلال: (لا يملكون منه خطابا) . في ذلك اليوم المهيب الرهيب:يوم يقف جبريل -

يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفّاً لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَاباً (38) ذَلِكَ الْيَوْمُ الْحَقُّ فَمَن شَاء اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ مَآباً (39) إِنَّا أَنذَرْنَاكُمْ عَذَاباً قَرِيباً يَوْمَ يَنظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنتُ تُرَاباً (40)

عليه السلام - والملائكة الآخرون (صفا لا يتكلمون) . إلا بإذن من الرحمن حيث يكون القول صوابا . فما يأذن الرحمن به إلا وقد علم أنه صواب .

الدرس السابع:39 - 40 دعوة للنجاة من ذلك اليوم

وموقف هؤلاء المقربين إلى الله , الأبرياء من الذنب والمعصية . موقفهم هكذا صامتين لا يتكلمون إلا بإذن وبحساب . . يغمر الجو بالروعة و الرهبة والجلال والوقار . وفي ظل هذا المشهد تنطلق صيحة من صيحات الإنذار , وهزة للنائمين السادرين في الخمار:

ذلك اليوم الحق . فمن شاء اتخذ إلى ربه مآبا . إنا أنذرناكم عذابا قريبا:يوم ينظر المرء ما قدمت يداه , ويقول الكافر:يال ليتني كنت ترابا . .

إنها الهزة العنيفة لأولئك الذين يتساءلون في ارتياب: (ذلك اليوم الحق). . فلا مجال للتساؤل والاختلاف . . والفرصة ما تزال سانحة ! (فمن شاء اتخذ إلى ربه مآبا) . . قبل أن تكون جهنم مرصادا ومآبا !

وهو الإنذار الذي يوقظ من الخمار: (إنا أنذرناكم عذابا قريبا) . . ليس ب البعيد , فجهنم تنتظركم وتترصد لكم . على النحو الذي رأيتم . والدنيا كلها رحلة قصيرة , وعمر قريب !

وهو عذاب من الهول بحيث يدع الكافر يؤثر العدم على الوجود: (يوم ينظر المرء ما قدمت يداه . ويقول الكافر:يا ليتني كنت ترابا). . وما يقولها إلا وهو ضائق مكروب !

وهو تعبير يلقي ظلال الرهبة والندم , حتى ليتمنى الكائن الإنساني أن ينعدم . ويصير إلى عنصر مهمل زهيد . ويرى هذا أهون من مواجهة الموقف الرعيب الشديد . . وهو الموقف الذي يقابل تساؤل المتسائلين وشك المتشككين . في ذلك النبأ العظيم !!!

سورة النازعات

وَالنَّازِعَاتِ غَرْقاً (1) وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطاً (2) وَالسَّابِحَاتِ سَبْحاً (3) فَالسَّابِقَاتِ سَبْقاً (4) فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْراً (5) يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ (6) تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ (7)

سورة النازعات

تعريف بسورة النازعات

هذه السورة نموذج من نماذج هذا الجزء لإشعار القلب البشري حقيقة الآخرة , بهولها وضخامتها , وجديتها , وأصالتها في التقدير الإلهي لنشأة هذا العالم الإنساني , والتدبير العلوي لمراحل هذه النشأة وخطواتها على ظهر الأرض وفي جوفها ; ثم في الدار الآخرة , التي تمثل نهاية هذه النشأة وعقباها .

وفي الطريق إلى إشعار القلب البشري حقيقة الآخرة الهائلة الضخمة العظيمة الكبيرة يوقع السياق إيقاعات منوعة على أوتار القلب , ويلمسه لمسات شتى حول تلك الحقيقة الكبرى . وهي إيقاعات ولمسات تمت إليها بصلة . فتلك الحقيقة تمهد لها في الحس وتهيئه لاستقبالها في يقظة وفي حساسية . .

يمهد لها بمطلع غامض الكنه يثير بغموضه شيئا من الحدس والرهبة و التوجس . يسوقه في إيقاع موسيقي راجف لاهث , كأنما تنقطع به الأ نفاس من الذعر والارتجاف والمفاجأة والانبهار:(والنازعات غرقا . و الناشطات نشطا . والسابحات سبحا . فالسابقات سبقا . فالمدبرات أمرا).
.

وعقب هذا المطلع الغامض الراجف الواجف يجيء المشهد الأول من مشاهد ذلك اليوم . ظله من ظل ذلك المطلع وطابعه من طابعه ; كأنما المطلع إطار له وغلاف يدل عليه: يوم ترجف الراجفة تتبعها الرادفة . قلوب يومئذ واجفة . أبصارها خاشعة . يقولون:أئنا لمردودون في الحافرة ? أئذا كنا عظاما نخرة ? قالوا:تلك إذا كرة خاسرة ! فإنما هي زجرة واحدة . فإذا هم بالساهرة . .

ومن هنالك . . من هذا الجو الراجف الواجف المبهور المذعور . . يأخذ في عرض مصرع من مصارع المكذبين العتاة في حلقة من قصة موسى مع فرعون . فيهدأ الإيقاع الموسيقي ويسترخي شيئا ما , ليناسب جو الحكاية والعرض: هل أتاك حديث موسى . إذ ناداه ربه بالواد المقدس طوى:اذهب إلى فرعون إنه طغى . فقل:هل لك إلى أن تزكى ? وأهديك إلى ربك فتخشى ? فأراه الآية الكبرى , فكذب وعصى , ثم أدبر يسعى , فحشر فنادى , فقال:أنا ربكم الأعلى . فأخذه الله نكال الآخرة والأولى . إن في ذلك لعبرة لمن يخشى . . وبهذا يلتقي ويمهد لتلك الحقيقة الكبرى .

ثم ينتقل من ساحة التاريخ إلى كتاب الكون المفتوح , ومشاهد الكون

الهائلة , الشاهدة بالقوة والتدبير والتقدير للألوهية المنشئة للكون , المهيمنة على مصائره , في الدنيا والآخرة . فيعرضها في تعبيرات قوية الأسر , قوية الإيقاع , تتسق مع مطلع السورة وإيقاعها العام: (أأنتم أشد خلقا أم السماء ? بناها , رفع سمكها فسواها , وأغطش ليلها وأخرج ضحاها ; والأرض بعد ذلك دحاها , أخرج منها ماءها ومرعاها , والجبال أرساها , متاعا لكم ولأنعامكم). .

وهنا - بعد هذه التمهيدات المقربة وهذه اللمسات الموحية - يجيء مشهد الطامة الكبرى , وما يصاحبها من جزاء على ما كان في الحياة الدنيا . جزاء يتحقق هو الآخر في مشاهد تتناسق صورها وظلالها مع الطامة الكبرى:(فإذا جاءت الطامة الكبرى , يوم يتذكر الإنسان ما سعى , وبرزت الجحيم لمن يرى ! فأما من طغى وآثر الحياة الدنيا , فإن الجحيم هي المأوى . وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هي المأوى). .

وفي اللحظة التي يغمر الوجدان فيها ذلك الشعور المنبعث من مشاهد الطامة الكبرى , والجحيم المبرزة لمن يرى , وعاقبة من طغى وآثر الحياة الدنيا , ومن خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى . . في هذه اللحظةيرتد السياق إلى المكذبين بهذه الساعة , الذين يسألون الرسول [ص] عن موعدها . يرتد إليهم بإيقاع يزيد من روعة الساعة وهولها في الحس وضخامتها:(يسألونك عن الساعة أيان مرساها ? فيم أنت من ذكراها ? إلى ربك منتهاها . إنما أنت منذر من يخشاها . كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا عشية أو ضحاها). . والهاء الممدودة ذات الإيقاع الضخم الطويل , تشارك في تشخيص الضخامة وتجسيم التهويل !

الدرس الأول:1 - 5 القسم بمخلوقات عظيمة

(والنازعات غرقا . والناشطات نشطا . والسابحات سبحا . فالسابقات سبقا . فالمدبرات أمرا). قيل في تفسير هذه الكلمات:إنها الملائكة نازعات للأرواح نزعا شديدا . ناشطات منطلقات في حركاتها . سابحات

في العوالم العليا سابقات للإيمان أو للطاعة لأمر ربها مدبرات ما يوكل من الأمور إليها . .

وقيل:إنها النجوم تنزع في مداراتها وتتحرك وتنشط منتقلة من منزل إلى منزل . وتسبح سبحا في فضاء الله وهي معلقة به . وتسبق سبقا في جريانها ودورانها . وتدبر من النتائج والظواهر ما وكله الله إليها مما يؤثر في حياة الأرض ومن عليها .

وقيل:النازعات والناشطات والسابحات والسابقات هي النجوم . و المدبرات هي الملائكة .

وقيل:النازعات والناشطات والسابحات هي النجوم . والسابقات و المدبرات هي الملائكة . .

وأيا ما كانت مدلولاتها فنحن نحس من الحياة في الجو القرآني أن إيرادها على هذا النحو , ينشئ أولا وقبل كل شيء هزة في الحس , وتوجسا في الشعور , وتوفزا وتوقعا لشيء يهول ويروع . ومن ثم فهي تشارك في المطلع مشاركة قوية في إعداد الحس لتلقي ما يروع ويهول من أمر الراجفة والرادفة والطامة الكبرى في النهاية !

وتمشيا مع هذا الإحساس نؤثر أن ندعها هكذا بدون زيادة في تفصيل مدلولاتها ومناقشتها ; لنعيش في ظلال القرآن بموحياته وإيحاءاته على طبيعتها . فهزة القلب وإيقاظه هدف في ذاته , يتحراه الخطاب القرآني بوسائل شتى . . ثم إن لنا في عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - أسوة . وقد قرأ سورة "عبس وتولى " حتى جاء إلى قوله تعالى:(وفاكهة وأبا). . فقال:" قد عرفنا الفاكهة . فما الأب ? ثم استدرك قائلا:لعمرك يا ابن الخطاب إن هذا لهو التكلف ! وما عليك ألا تعرف لفظا في كتاب الله تعالى ?! " . . . وفي رواية أنه قال:كل هذا قد عرفنا فما الأب ? ثم رفض عصا كانت بيده - أي كسرها غضبا على نفسه - وقال:" هذا لعمر الله التكلف ! وما عليك يا بن أم عمر أن لا تدري ما الأب " . ثم قال:"

اتبعوا ما تبين لكم من هذا الكتاب , وما لا , فدعوه " . . فهذه كلمات تنبعث عن الأدب أمام كلمات الله العظيمة . أدب العبد أمام كلمات الرب . التي قد يكون بقاؤها مغلقة هدفا في ذاته , يؤدي غرضا بذاته .

الدرس الثاني:6 - 14 الراجفة والرادفة وخسارة الكفار فيها

هذا المطلع جاء في صيغة القسم , على أمر تصوره الآيات التالية في السورة:

يوم ترجف الراجفة . تتبعها الرادفة . قلوب يومئذ واجفة . أبصارها خاشعة . يقولون:أإنا لمردودون في الحافرة ? أإذا كنا عظاما نخرة ? قالوا:تلك إذن كرة خاسرة ! . . فإنما هي زجرة واحدة . فإذا هم بالساهرة . .

والراجفة ورد أنها الأرض استنادا إلى قوله تعالى في سورة أخرى: (يوم ترجف الأرض والجبال). . والرادفة:ورد أنها السماء . أي أنها تردف الأرض وتتبعها في الانقلاب حيث تنشق وتتناثر كواكبها . .

كذلك ورد أن الراجفة هي الصيحة الأولى , التي ترجف لها الأرض و الجبال والأحياء جميعا , ويصعق لها

قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ (8) أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ (9) يَقُولُونَ أَئِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ (10) أَئِذَا كُنَّا عِظَاماً نَّخِرَةً (11) قَالُوا تِلْكَ إِذاً كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ (12) فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ (13) فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ (14)

من في السماوات ومن في الأرض إلا من شاء الله . والرادفة هي النفخة الثانية التي يصحون عليها ويحشرون [كما جاء في سورة الزمر آية 68] . .

وسواء كانت هذه أم تلك . فقد أحس القلب البشري بالزلزلة والرجفة و

الهول والاضطراب ; واهتز هزة الخوف والوجل والرعب والارتعاش . وتهيأ لإدراك ما يصيب القلوب يومئذ من الفزع الذي لا ثبات معه ولا قرار . وأدرك وأحس حقيقة قوله:(قلوب يومئذ واجفة . أبصارها خاشعة). .

فهي شديدة الاضطراب , بادية الذل , يجتمع عليها الخوف والانكسار , و الرجفة , والانهيار . وهذا هو الذي يقع يوم ترجف الراجفة تتبعها الرادفة ; وهذا هو الذي يتناوله القسم بالنازعات غرقا والناشطات نشطا , والسابحات سبحا , والسابقات سبقا , فالمدبرات أمرا . وهو مشهد يتفق في ظله وإيقاعه مع ذلك المطلع .

ثم يمضي السياق يتحدث عن وهلتهم وانبهارهم حين يقومون من قبورهم في ذهول:

يقولون:أإنا لمردودون في الحافرة ? أإذا كنا عظاما نخرة ? . .

فهم يتساءلون:أنحن مردودون إلى الحياة عائدون في طريقنا الأولى . . يقال:رجع في حافرته:أي في طريقه التي جاء منها . فهم في وهلتهم وذهولهم يسألون:إن كانوا راجعين في طريقهم إلى حياتهم ? ويدهشون:كيف يكون هذا بعد إذ كانوا عظاما نخرة . منخوبة يصوت فيها الهواء ?!

ولعلهم يفيقون , أو يبصرون , فيعلمون أنها كرة إلى الحياة , ولكنها الحياة الأخرى , فيشعرون بالخسارة والوبال في هذه الرجعة , فتند منهم تلك الكلمة:

قالوا:تلك إذن كرة خاسرة !

كرة لم يحسبوا حسابها , ولم يقدموا لها زادها , وليس لهم فيها إلا الخسران الخالص !

هنا - في مواجهة هذا المشهد - يعقب السياق القرآني بحقيقة ما هو

كائن:

(فإنما هي زجرة واحدة . فإذا هم بالساهرة). .

والزجرة:هي الصيحة . ولكنها تقال هنا بهذا اللفظ العنيف تنسيقا لجو المشهد مع مشاهد السورة جميعا . والساهرة هي الأرض البيضاء اللا معة . وهي أرض المحشر , التي لا ندري نحن أين تكون . والخبر عنها لا نعرفه إلا من الخبر الصادق نتلقاه , فلا نزيد عليه شيئا غير موثوق به و لا مضمون !

وهذه الزجرة الواحدة يغلب - بالاستناد إلى النصوص الأخرى - أنها النفخة الثانية . نفخة البعث والحشر . والتعبير عنها فيه سرعة . وهي ذاتها توحي بالسرعة . وإيقاع السورة كلها فيه هذا اللون من الإسراع وا لإيجاف . والقلوب الواجفة تأخذ صفتها هذه من سرعة النبض , ف التناسق ملحوظ في كل حركة وفي كل لمحة , وفي كل ظل في السياق !

الدرس الثالث:15 - 26 لقطات من طغيان فرعون ودماره

ثم يهدأ الإيقاع شيئا ما , في الجولة القادمة , ليناسب جو القصص , وهو يعرض ما كان بين موسى وفرعون , وما انتهى إليه هذا الطاغية عندما طغى:

هل أتاك حديث موسى . إذ ناداه ربه بالوادي المقدس طوى . اذهب إلى فرعون إنه طغى . فقل:هل لك

هَلْ أتاكَ حَدِيثُ مُوسَى (15) إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى (16)
اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى (17) فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَى أَن تَزَكَّى (18)
وَأَهْدِيَكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى (19)

إلى أن تزكى ? وأهديك إلى ربك فتخشى ? فأراه الآية الكبرى . فكذب وعصى , ثم أدبر يسعى . فحشر فنادى . فقال:أنا ربكم الأعلى . فأخذه الله نكال الآخرة والأولى . . إن في ذلك لعبرة لمن يخشى). .

وقصة موسى هي أكثر القصص ورودا وأكثرها تفصيلا في القرآن . . وقد وردت من قبل في سور كثيرة . وردت منها حلقات منوعة . ووردت في أساليب شتى . كل منها تناسب سياق السورة التي وردت فيها ; وتشارك في أداء الغرض البارز في السياق . على طريقة القرآن في إيراد القصص وسرده .

وهنا ترد هذه القصة مختصرة سريعة المشاهد منذ أن نودي موسى بـ الوادي المقدس , إلى أخذ فرعون . . أخذه في الدنيا ثم في الآخرة . . فنلتقي بموضوع السورة الأصيل . وهو حقيقة الآخرة . وهذا المدى الطويل من القصة يرد هنا في آيات معدودات قصار سريعة , ليناسب طبيعة السورة وإيقاعها .

وتتضمن هذه الآيات القصار السريعة عدة حلقات ومشاهد من القصة . .

وهي تبدأ بتوجيه الخطاب إلى الرسول [ص]:(هل أتاك حديث موسى ?). . وهو استفهام للتمهيد وإعداد النفس والأذن لتلقي القصة وتمليها . .

ثم تأخذ في عرض الحديث كما تسمى القصة . وهو إيحاء بواقعيتها فهي حديث جرى . فتبدأ بمشهد المناداة والمناجاة:(إذ ناداه ربه بالواد المقدس طوى). . وطوى اسم الوادي على الأرجح . وهو بجانب الطور ا لأيمن بالنسبة للقادم من مدين في شمال الحجاز .

ولحظة النداء لحظة رهيبة جليلة . وهي لحظة كذلك عجيبة . ونداء الله بذاته - سبحانه - لعبد من عباده أمر هائل . أهول مما تملك الألفاظ البشرية أن تعبر . وهي سر من أسرار الألوهية العظيمة , كما هي سر من أسرار التكوين الإنساني التي أودعها الله هذا الكائن , وهيأه بها لتلقي

ذلك النداء . وهذا أقصى ما نملك أن نقوله في هذا المقام , الذي لا يملك الإدراك البشري أن يحيط منه بشيء ; فيقف على إطاره , حتى يكشف الله له عنه فيتذوقه بشعوره .

وفي مواضع أخرى تفصيل للمناجاة بين موسى وربه في هذا الموقف . فأما هنا فالمجال مجال اختصار وإيقاعات سريعة . ومن ثم يبادر السياق بحكاية أمر التكليف الإلهي لموسى , عقب ذكر النداء بالوادي المقدس طوى:(اذهب إلى فرعون . إنه طغى . فقل:هل لك إلى أن تزكى ! وأهديك إلى ربك فتخشى ?). .

(اذهب إلى فرعون . إنه طغى). . والطغيان أمر لا ينبغي أن يكون ولا أن يبقى . إنه أمر كريه , مفسد للأرض , مخالف لما يحبه الله , مؤذ إلى ما يكره . . فمن أجل منعه ينتدب الله عبدا من عباده المختارين . ينتدبه بنفسه سبحانه . ليحاول وقف هذا الشر , ومنع هذا الفساد , ووقف هذا الطغيان . . إنه أمر كريه شديد الكراهية حتى ليخاطب الله بذاته عبدا من عباده ليذهب إلى الطاغية , فيحاول رده عما هو فيه , والإعذار إليه قبل أن يأخذه الله تعالى نكال الآخرة والأولى !

ذهب إلى فرعون . إنه طغى . . ثم يعلمه الله كيف يخاطب الطاغية بأحب أسلوب وأشده جاذبية للقلوب , لعله ينتهي , ويتقي غضب الله وأخذه:(فقل:هل لك إلى أن تزكى ?). . هل لك إلى أن تتطهر من رجس الطغيان ودنس العصيان ? هل لك إلى طريق الصلاة والبركة ?(وأهديك إلى ربك فتخشى). . هل لك أن أعرفك طريق ربك ? فإذا عرفته وقعت في قلبك خشيته . فما يطغى الإنسان ويعصى إلا حين يذهب عن ربه

فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَى (20) فَكَذَّبَ وَعَصَى (21) ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَى (22) فَحَشَرَ فَنَادَى (23) فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى (24) فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى (25)

بعيدا , وإلا حين يضل طريقه إليه فيقسو قلبه ويفسد , فيكون منه الطغيان والتمرد !

كان هذا في مشهد النداء والتكليف . وكان بعده في مشهد المواجهة و التبليغ . والسياق لا يكرره في مشهد التبليغ . اكتفاء بعرضه هناك وذكره . فيطوي ما كان بعد مشهد النداء , ويختصر عبارة التبليغ في مشهد التبليغ . ويسدل الستار هنا ليرفعه على ختام مشهد المواجهة:

(فأراه الآية الكبرى . فكذب وعصى). .

لقد بلغ موسى ما كلف تبليغه . بالأسلوب الذي لقنه ربه وعرفه . ولم يفلح هذا الأسلوب الحبيب في إلانة القلب الطاغي الخاوي من معرفة ربه . فأراه موسى الآية الكبرى . آية العصا واليد البيضاء كما جاء في المواضع الأخرى:(فكذب وعصى). . وانتهى مشهد اللقاء والتبليغ عند التكذيب والمعصية في اختصار وإجمال !

ثم يعرض مشهدا آخر . مشهد فرعون يتولى عن موسى , ويسعى في جمع السحرة للمباراة بين السحر والحق . حين عز عليه أن يستسلم للحق والهدى:

(ثم أدبر يسعى . فحشر فنادى . فقال:أنا ربكم الأعلى). .

ويسارع السياق هنا إلى عرض قولة الطاغية الكافرة , مجملا مشاهد سعيه وحشره للسحرة وتفصيلاتها . فقد أدبر يسعى في الكيد و المحاولة , فحشر السحرة والجماهير ; ثم انطلقت منه الكلمة الوقحة المتطاولة , المليئة بالغرور والجهالة: (أنا ربكم الأعلى). .

قالها الطاغية مخدوعا بغفلة جماهيره , وإذعانها وانقيادها . فما يخدع الطغاة شيء ما تخدعهم غفلة الجماهير وذلتها وطاعتها وانقيادها . وما الطاغية إلا فرد لا يملك في الحقيقة قوة ولا سلطانا . إنما هي الجماهير الغافلة الذلول , تمطي له ظهرها فيركب ! وتمد له أعناقها فيجر !

وتحني له رؤوسها فيستعلي ! وتتنازل له عن حقها في العزة والكرامة فيطغى !

والجماهير تفعل هذا مخدوعة من جهة وخائفة من جهة أخرى . وهذا الخوف لا ينبعث إلا من الوهم . فالطاغية - وهو فرد - لا يمكن أن يكون أقوى من الألوف والملايين , لو أنها شعرت بإنسانيتها وكرامتها وعزتها وحريتها . وكل فرد فيها هو كفء للطاغية من ناحية القوة ولكن الطاغية يخدعها فيوهمها أنه يملك لها شيئا ! وما يمكن أن يطغى فرد في أمة كريمة أبدا . وما يمكن أن يطغى فرد في أمة رشيدة أبدا . وما يمكن أن يطغى فرد في أمة تعرف ربها وتؤمن به وتأبى أن تتعبد لواحد من خلقه لا يملك لها ضرا ولا رشدا !

فأما فرعون فوجد في قومه من الغفلة ومن الذلة ومن خواء القلب من ا لإيمان , ما جرؤ به على قول هذه الكلمة الكافرة الفاجرة: (أنا ربكم الأ على). . وما كان ليقولها أبدا لو وجد أمة واعية كريمة مؤمنة , تعرف أنه عبد ضعيف لا يقدر على شيء . وإن يسلبه الذباب شيئا لا يستنقذ من الذباب شيئا !

وأمام هذا التطاول الوقح , بعد الطغيان البشع , تحركت القوة الكبرى:

(فأخذه الله نكال الآخرة والأولى). .

ويقدم هنا نكال الآخرة على نكال الأولى . . لأنه أشد وأبقى . فهو النكال الحقيقي الذي يأخذ الطغاة والعصاة بشدته وبخلوده . . ولأنه الأنسب في هذا السياق الذي يتحدث عن الآخرة ويجعلها موضوعه الرئيسي . . ولأنه يتسق لفظيا مع الإيقاع الموسيقي في القافية بعد اتساقه معنويا مع الموضوع الرئيسي , ومع الحقيقة الأصيلة .

ونكال الأولى كان عنيفا قاسيا . فكيف بنكال الآخرة وهو أشد وأنكى ؟ وفرعون كان ذا قوة وسلطان

إِنّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِمَن يَخْشَى (26) أَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقاً أَمِ السَّمَاء بَنَاهَا (27) رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوّاهَا (28) وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا (29) وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا (30) أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءهَا وَمَرْعَاهَا (31) وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا (32)

ومجد موروث عريق ; فكيف بغيره من المكذبين ? وكيف بهؤلاء الذين يواجهون الدعوة من المشركين ?

(إن في ذلك لعبرة لمن يخشى). .

فالذي يعرف ربه ويخشاه هو الذي يدرك ما في حادث فرعون من العبرة لسواه . أما الذي لا يعرف قلبه التقوى فبينه وبين العبرة حاجز , وبينه وبين العظة حجاب . حتى يصطدم بالعاقبة اصطداما . وحتى يأخذه الله نكال الآخرة والأولى . وكل ميسر لنهج , وكل ميسر لعاقبة . والعبرة لمن يخشى . .

الدرس الرابع:27 من آيات الله في السماء والأرض

ومن هذه الجولة في مصارع الطغاة المعتدين بقوتهم , يعود إلى المشركين المعتزين بقوتهم كذلك . فيردهم إلى شيء من مظاهر القوة الكبرى , في هذا الكون الذي لا تبلغ قوتهم بالقياس إليه شيئا:

(أأنتم أشد خلقا أم السماء ? بناها . رفع سمكها فسواها . وأغطش ليلها وأخرج ضحاها . والأرض بعد ذلك دحاها . أخرج منها ماءها ومرعاها . والجبال أرساها . متاعا لكم ولأنعامكم). .

وهو استفهام لا يحتمل إلا إجابة واحدة بالتسليم الذي لا يقبل الجدل: (أأنتم أشد خلقا أم السماء ?) . السماء ! بلا جدال ولا كلام ! فما الذي يغركم من قوتكم والسماء أشد خلقا منكم , والذي خلقها أشد منها ? هذا جانب من إيحاء السؤال . وهناك جانب آخر . فما الذي تستصعبونه من

أمر بعثكم ? وهو خلق السماء وهي أشد من خلقكم ; وبعثكم هو إعادة لخلقكم , والذي بنى السماء وهي أشد , قادر على إعادتكم وهي أيسر !

هذه السماء الأشد خلقا بلا مراء . .(بناها). . والبناء يوحي بالقوة و التماسك , والسماء كذلك . متماسكة . لا تختل ولا تتناثر نجومها وكواكبها . ولا تخرج من أفلاكها ومداراتها , ولا تتهاوى ولا تنهار . فهي بناء ثابت وطيد متماسك الأجزاء .

(رفع سمكها فسواها). . وسمك كل شيء قامته وارتفاعه . والسماء مرفوعة في تناسق وتماسك . وهذه هي التسوية:(فسواها). . والنظرة المجردة والملاحظة العادية تشهد بهذا التناسق المطلق . والمعرفة بحقيقة القوانين التي تمسك بهذه الخلائق الهائلة وتنسق بين حركاتها وآثارها وتأثراتها , توسع من معنى هذا التعبير , وتزيد في مساحة هذه الحقيقة الهائلة , التي لم يدرك الناس بعلومهم إلا أطرافا منها , وقفوا تجاهها مبهورين , تغمرهم الدهشة , وتأخذهم الروعة , ويعجزون عن تعليلها بغير افتراض قوة كبرى مدبرة مقدرة , ولو لم يكونوا من المؤمنين بدين من الأديان إطلاقا !

(وأغطش ليلها وأخرج ضحاها). . وفي التعبير شدة في الجرس و المعنى , يناسب الحديث عن الشدة والقوة . وأغطش ليلها أي أظلمه . وأخرج ضحاها . أي أضاءها . ولكن اختيار الألفاظ يتمشى في تناسق مع السياق . . وتوالي حالتي الظلام والضياء , في الليل والضحى الذي هو أول النهار , حقيقة يراها كل أحد ; ويتأثر بها كل قلب . وقد ينساها بطول الألفة والتكرار , فيعيد القرآن جدتها بتوجيه المشاعر إليها . وهي جديدة أبدا . تتجدد كل يوم , ويتجدد الشعور بها والانفعال بوقعها . فأما النواميس التي وراءها فهي كذلك من الدقة والعظمة بحيث تروع وتدهش من يعرفها . . فتظل هذه الحقيقة تروع القلوب وتدهشها كلما اتسع علمها وكبرت معرفتها !

(والأرض بعد ذلك دحاها . أخرج منها ماءها ومرعاها . والجبال أرساها).

.

ودحو الأرض تمهيدها وبسط قشرتها , بحيث تصبح صالحة للسير عليها , وتكوين تربة تصلح للإنبات , وإرساء الجبال وهو نتيجة لا ستقرار سطح الأرض ووصول درجة حرارته إلى هذا الاعتدال الذي يسمح بالحياة . والله أخرج من الأرض ماءها سواء ما يتفجر من الينابيع , أو ما ينزل من السماء فهو أصلا من مائها الذي تبخر

مَتَاعاً لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ (33)

ثم نزل في صورة مطر . وأخرج من الأرض مرعاها وهو النبات الذي يأكله الناس والأنعام وتعيش عليه الأحياء مباشرة وبالواسطة . .

وكل أولئك قد كان بعد بناء السماء , وبعد إغطاش الليل وإخراج الضحى . والنظريات الفلكية الحديثة تقرب من مدلول هذا النص القرآني حين تفترض أنه قد مضى على الأرض مئات الملايين من السنين , وهي تدور دوراتها ويتعاقب الليل والنهار عليها قبل دحوها وقبل قابليتها للزرع . وقبل استقرار قشرتها على ما هي عليه من مرتفعات ومستويات .

والقرآن يعلن أن هذا كله كان:(متاعا لكم ولأنعامكم) . فيذكر الناس بعظيم تدبير الله لهم من ناحية . كما يشير إلى عظمة تقدير الله في ملكه . فإن بناء السماء على هذا النحو , ودحو الأرض على هذا النحو أيضا لم يكونا فلتة ولا مصادفة . إنما كان محسوبا فيهما حساب هذا الخلق الذي سيستخلف في الأرض . والذي يقتضي وجوده ونموه ورقيه موافقات كثيرة جدا في تصميم الكون . وفي تصميم المجموعة الشمسية بصفة خاصة . وفي تصميم الأرض بصفة أخص .

والقرآن - على طريقته في الإشارة المجملة الموحية المتضمنة لأصل

الحقيقة - يذكر هنا من هذه الموافقات بناء السماوات , وإغطاش الليل , وإخراج الضحى , ودحو الأرض وإخراج مائها ومرعاها , وإرساء جبالها . متاعا للإنسان وأنعامه . وهي إشارة توحي بحقيقة التدبير والتقدير في بعض مظاهرها المكشوفة للجميع , الصالحة لأن يخاطب بها كل إنسان , في كل بيئة وفي كل زمان , فلا تحتاج إلى درجة من العلم والمعرفة , تزيد على نصيب الإنسان حيث كان . حتى يعم الخطاب بالقرآن لجميع بني الإنسان في جميع أطوار الإنسان , في جميع الأزمان .

ووراء هذا المستوى آماد وآفاق أخرى من هذه الحقيقة الكبرى . حقيقة التقدير والتدبير في تصميم هذا الكون الكبير . واستبعاد المصادفة و الجزاف واستبعادا تنطق به طبيعة هذا الكون , وطبيعة المصادفة التي يستحيل معها تجمع كل تلك الموافقات العجيبة .

هذه الموافقات التي تبدأ من كون المجموعة الشمسية التي تنتمي إليها أرضنا هي تنظيم نادر بين مئات الملايين من المجموعات النجمية . وأن الأرض نمط فريد غير مكرر بين الكواكب بموقعها هذا في المنظومة الشمسية . الذي يجعلها صالحة للحياة الإنسانية . ولا يعرف البشر - حتى اليوم - كوكبا آخر تجتمع له هذه الموافقات الضرورية . وهي تعد بـ الآلاف !

"ذلك أن أسباب الحياة تتوافر في الكوكب على حجم ملائم , وبعد معتدل , وتركيب تتلاقى فيه عناصر المادة على النسبة التي تنشط فيها حركة الحياة .

"لابد من الحجم الملائم , لأن بقاء الجو الهوائي حول الكوكب يتوقف على ما فيه من قوة الجاذبية .

"ولابد من البعد المعتدل لأن الجرم القريب من الشمس حار لا تتماسك فيه الأجسام , والجرم البعيد من الشمس بارد لا تتخلخل فيه تلك الأجسام .

"ولابد من التركيب الذي تتوافق فيه العناصر على النسبة التي تنشط بها حركة الحياة , لأن هذه النسبة لازمة لنشأة النبات ونشأة الحياة التي تعتمد عليه في تمثيل الغذاء .

"وموقع الأرض حيث هي أصلح المواقع لتوفير هذه الشروط التي لا غنى عنها للحياة , في الصورة التي

فَإِذَا جَاءتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرَى (34) يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنسَانُ مَا سَعَى (35) وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِمَن يَرَى (36) فَأَمَّا مَن طَغَى (37) وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (38) فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى (39) وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى (40)
نعرفها , ولا نعرف لها صورة غيرها حتى الآن " .

وتقرير حقيقة التدبير والتقدير في تصميم هذا الكون الكبير , وحساب مكان للإنسان فيه ملحوظ في خلقه وتطويره أمر يعد القلب والعقل لتلقي حقيقة الآخرة وما فيها من حساب وجزاء باطمئنان وتسليم . فما يمكن أن يكون هذا هو واقع النشأة الكونية والنشأة الإنسانية ثم لا تتم تمامها , ولا تلقى جزاءها . ولا يكون معقولا أن ينتهي أمرها بنهاية الحياة القصيرة في هذه العاجلة الفانية . وأن يمضي الشر والطغيان و الباطل ناجيا بما كان منه في هذه الأرض . وأن يمضي الخير والعدل و الحق بما أصابه كذلك في هذه الأرض . . فهذا الفرض مخالف في طبيعته لطبيعة التقدير والتدبير الواضحة في تصميم الكون الكبير . . ومن ثم تلتقي هذه الحقيقة التي لمسها السياق في هذا المقطع بحقيقة الآخرة التي هي الموضوع الرئيسي في السورة . وتصلح تمهيدا لها في القلوب والعقول , يجيء بعده ذكر الطامة الكبرى في موضعه وفي حينه !

الدرس الخامس:34 - 41 ما بعد الطامة الكبرى وصفات الفائزين

(فإذا جاءت الطامة الكبرى , يوم يتذكر الإنسان ما سعى , وبرزت الجحيم لمن يرى . فأما من طغى وآثر الحياة الدنيا , فإن الجحيم هي المأوى , وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى , فإن الجنة هي المأوى). .

إن الحياة الدنيا متاع . متاع مقدر بدقة وإحكام . وفق تدبير يرتبط بـ الكون كله ونشأة الحياة والإنسان . ولكنه متاع . متاع ينتهي إلى أجله . . فإذا جاءت الطامة الكبرى غطت على كل شيء , وطمت على كل شيء . على المتاع الموقوت . وعلى الكون المتين المقدر المنظم . على السماء المبنية والأرض المدحوة والجبال المرساة والأحياء والحياة وعلى كل ما كان من مصارع ومواقع . فهي أكبر من هذا كله , وهي تطم وتعم على هذا كله !

عندئذ يتذكر الإنسان ما سعى . يتذكر سعيه ويستحضره , إن كانت أحداث الحياة , وشاغل المتاع أغفلته عنه وأنسته إياه . يتذكره ويستحضره ولكن حيث لا يفيده التذكر والاستحضار إلا الحسرة والأ سى وتصور ما وراءه من العذاب والبلوى !

(وبرزت الجحيم لمن يرى). . فهي بارزة مكشوفة لكل ذي نظر . ويشدد التعبير في اللفظ(برزت)تشديدا للمعنى والجرس , ودفعا بالمشهد إلى كل عين !

عندئذ تختلف المصائر والعواقب ; وتتجلى غاية التدبير والتقدير في النشأة الأولى:

(فأما من طغى , وآثر الحياة الدنيا , فإن الجحيم هي المأوى). .

والطغيان هنا أشمل من معناه القريب . فهو وصف لكل من يتجاوز الحق والهدى . ومداه أوسع من الطغاة ذوي السلطان والجبروت , حيث يشمل

كل متجاوز للهدى , وكل من آثر الحياة الدنيا , واختارها على الآخرة . فعمل لها وحدها , غير حاسب للآخرة حسابا . واعتبار الآخرة هو الذي يقيم الموازين في يد الإنسان وضميره . فإذا أهمل حساب الآخرة أو آثر عليها الدنيا اختلت كل الموازين في يده , واختلت كل القيم في تقديره , واختلت كل قواعد الشعور والسلوك في حياته , وعد طاغيا وباغيا ومتجاوزا للمدى .

فأما هذا . .(فإن الجحيم هي المأوى). . الجحيم المكشوفة المبرزة القريبة الحاضرة . يوم الطامة الكبرى !

(وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى . فإن الجنة هي المأوى). .

والذي يخاف مقام ربه لا يقدم على معصية , فإذا أقدم عليها بحكم ضعفه البشري قاده خوف هذا المقام

فَإِنّ الْجَنّةَ هِيَ الْمَأْوَى (41) يَسْأَلُونَكَ عَنِ السّاعَةِ أَيّانَ مُرْسَاهَا (42) فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَاهَا (43)

الجليل إلى الندم والاستغفار والتوبة . فظل في دائرة الطاعة .

ونهى النفس عن الهوى هو نقطة الارتكاز في دائرة الطاعة . فالهوى هو الدافع القوي لكل طغيان , وكل تجاوز , وكل معصية . وهو أساس البلوى , وينبوع الشر , وقل أن يؤتى الإنسان إلا من قبل الهوى . ف الجهل سهل علاجه . ولكن الهوى بعد العلم هو آفة النفس التي تحتاج إلى جهاد شاق طويل الأمد لعلاجها .

والخوف من الله هو الحاجز الصلب أمام دفعات الهوى العنيفة . وقل أن يثبت غير هذا الحاجز أمام دفعات الهوى . ومن ثم يجمع بينهما السياق القرآني في آية واحدة . فالذي يتحدث هنا هو خالق هذه النفس العليم

بدائها , الخبير بدوائها وهو وحده الذي يعلم دروبها ومنحنياتها , ويعلم أين تكمن أهواؤها وأدواؤها , وكيف تطارد في مكامنها ومخابئها !

ولم يكلف الله الإنسان ألا يشتجر في نفسه الهوى . فهو - سبحانه - يعلم أن هذا خارج عن طاقته . ولكنه كلفه أن ينهاها ويكبحها ويمسك بزمامها . وأن يستعين في هذا بالخوف . الخوف من مقام ربه الجليل العظيم المهيب . وكتب له بهذا الجهاد الشاق , الجنة مثابة ومأوى:(فإن الجنة هي المأوى) . ذلك أن الله يعلم ضخامة هذا الجهاد ; وقيمته كذلك في تهذيب النفس البشرية وتقويمها ورفعها إلى المقام الأسنى .

إن الإنسان إنسان بهذا النهي , وبهذا الجهاد , وبهذا الإرتفاع . وليس إنسانا بترك نفسه لهواها , وإطاعة جواذبه إلى دركها , بحجة أن هذا مركب في طبيعته . فالذي أودع نفسه الاستعداد لجيشان الهوى , هو الذي أودعها الاستعداد للإمساك بزمامه , ونهى النفس عنه , ورفعها عن جاذبيته ; وجعل له الجنة جزاء ومأوى حين ينتصر ويرتفع ويرقى .

وهنالك حرية إنسانية تليق بتكريم الله للإنسان . تلك هي حرية الإ نتصار على هوى النفس والانطلاق من أسر الشهوة , والتصرف بها في توازن تثبت معه حرية الاختيار والتقدير الإنساني . وهنالك حرية حيوانية , هي هزيمة الإنسان أمام هواه , وعبوديته لشهوته , وانفلات الزمام من إرادته . وهي حرية لا يهتف بها إلا مخلوق مهزوم الإنسانية مستعبد يلبس عبوديته رداء زائفا من الحرية !

إن الأول هو الذي ارتفع وارتقى وتهيأ للحياة الرفيعة الطليقة في جنة المأوى . أما الآخر فهو الذي ارتكس وانتكس وتهيأ للحياة في درك الجحيم حيث تهدر إنسانيته , ويرتد شيئا توقد به النار التي وقودها الناس - من هذا الصنف - والحجارة !

وهذه وتلك هي المصير الطبيعي للارتكاس والارتقاء في ميزان هذا الدين الذي يزن حقيقة الأشياء . .

الدرس السادس:42 - 46 علم الساعة خاص بالله وقدومها مفاجيء ومهمة الرسول

وأخيرا يجيء الإيقاع الأخير في السورة هائلا عميقا مديدا:

(يسألونك عن الساعة:أيان مرساها ? فيم أنت من ذكراها ? إلى ربك منتهاها . إنما أنت منذر من يخشاها . كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا عشية أو ضحاها). .

وكان المتعنتون من المشركين يسألون الرسول [ص] كلما سمعوا وصف أهوال الساعة وأحداثها وما تنتهي إليه من حساب وجزاء . . متى أو إيان موعدها . . أو كما يحكي عنهم هنا: (أيان مرساها ?). .

والجواب:(فيم أنت من ذكراها ?). . وهو جواب يوحي بعظمتها وضخامتها , بحيث يبدو هذا السؤال تافها باهتا , وتطفلا كذلك وتجاوزا . فها هو ذا يقال للرسول العظيم:(فيم أنت من ذكراها ?). . إنها لأعظم

إِلَى رَبِّكَ مُنتَهَاهَا (44) إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَاهَا (45) كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا (46)

من أن تسأل أو تسأل عن موعدها . فأمرها إلى ربك وهي من خاصة شأنه وليست من شأنك:

(إلى ربك منتهاها). . فهو الذي ينتهي إليه أمرها , وهو الذي يعلم موعدها , وهو الذي يتولى كل شيء فيها .

(إنما أنت منذر من يخشاها). . هذه وظيفتك , وهذه حدودك . . أن تنذر بها من ينفعه الإنذار , وهو الذي يشعر قلبه بحقيقتها فيخشاها ويعمل لها , ويتوقعها في موعدها الموكول إلى صاحبها سبحانه وتعالى .

ثم يصور هولها وضخامتها في صنيعها بالمشاعر والتصورات ; وقياس الحياة الدنيا إليها في إحساس الناس وتقديرهم:

(كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا عشية أو ضحاها). .

فهي من ضخامة الوقع في النفس بحيث تتضاءل إلى جوارها الحياة الدنيا , وأعمارها وأحداثها , ومتاعها , وأشياؤها , فتبدو في حس أصحابها كأنها بعض يوم . . عشية أو ضحاها !

وتنطوي هذه الحياة الدنيا التي يتقاتل عليها أهلها ويتطاحنون . والتي يؤثرونها ويدعون في سبيلها نصيبهم في الآخرة . والتي يرتكبون من أجلها ما يرتكبون من الجريمة والمعصية والطغيان . والتي يجرفهم الهوى فيعيشون له فيها . . تنطوي هذه الحياة في نفوس أصحابها أنفسهم , فإذا هي عندهم عشية أو ضحاها .

هذه هي:قصيرة عاجلة , هزيلة ذاهبة , زهيدة تافهة . . أفمن أجل عشية أو ضحاها يضحون بالآخرة ? ومن أجل شهوة زائلة يدعون الجنة مثابة ومأوى !

ألا إنها الحماقة الكبرى . الحماقة التي لا يرتكبها إنسان . يسمع ويرى !

سورة عبس

عَبَسَ وَتَوَلَّى (1) أَن جَاءهُ الْأَعْمَى (2)

سورة عبس

تعريف بسورة عبس

هذه السورة قوية المقاطع , ضخمة الحقائق , عميقة اللمسات , فريدة

الصور والظلال والإيحاءات , موحية الإيقاعات الشعورية والموسيقية على السواء .

يتولى المقطع الأول منها علاج حادث معين من حوادث السيرة:كان النبي [ص] مشغولابأمر جماعة من كبراء قريش يدعوهم إلى الإسلام حينما جاءه ابن أم مكتوم الرجل الأعمى الفقير - وهو لا يعلم أنه مشغول بأمر القوم - يطلب منه أن يعلمه مما علمه الله , فكره رسول الله [ص] هذا وعبس وجهه وأعرض عنه , فنزل القرآن بصدر هذه السورة يعاتب الرسول [ص] عتابا شديدا ; ويقرر حقيقة القيم في حياة الجماعة المسلمة في أسلوب قوي حاسم , كما يقرر حقيقة هذه الدعوة وطبيعتها:(عبس وتولى أن جاءه الأعمى . وما يدريك لعله يزكى . أو يذكر فتنفعه الذكرى . أما من استغنى فأنت له تصدى ! وما عليك ألا يزكى ? وأما من جاءك يسعى وهو يخشى , فأنت عنه تلهى ?! كلا ! إنها تذكرة , فمن شاء ذكره , في صحف مكرمة , مرفوعة مطهرة , بأيدي سفرة , كرام بررة). .

ويعالج المقطع الثاني جحود الإنسان وكفره الفاحش لربه , وهو يذكره بمصدر وجوده , وأصل نشأته , وتيسير حياته , وتولي ربه له في موته ونشره ; ثم تقصيره بعد ذلك في أمره:

(قتل الإنسان ما أكفره ! من أي شيء خلقه ? من نطفة خلقه فقدره , ثم السبيل يسره , ثم أماته فأقبره , ثم إذا شاء أنشره , كلا ! لما يقض ما أمره). .

والمقطع الثالث يعالج توجيه القلب البشري إلى أمس الأشياء به وهو طعامه وطعام حيوانه . وما وراء ذلك الطعام من تدبير الله وتقديره له , كتدبيرة وتقديره في نشأته:

(فلينظر الإنسان إلى طعامه , أنا صببنا الماء صبا . ثم شققنا الأرض شقا , فأنبتنا فيها حبا , وعنبا وقضبا , وزيتونا ونخلا , وحدائق غلبا ,

وفاكهة وأبا , متاعا لكم ولأنعامكم). .

فأما المقطع الأخير فيتولى عرض(الصاخة)يوم تجيء بهولها , الذي يتجلى في لفظها , كما تتجلى آثارها في القلب البشري الذي يذهل عما عداها ; وفي الوجوه التي تحدث عما دهاها:

(فإذا جاءت الصاخة . يوم يفر المرء من أخيه , وأمه وأبيه , وصاحبته وبنيه , لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه , وجوه يومئذ مسفرة , ضاحكة مستبشرة , ووجوه يومئذ عليها غبرة , ترهقها قترة , أولئك هم الكفرة الفجرة). .

إن استعراض مقاطع السورة وآياتها - على هذا النحو السريع - يسكب في الحس إيقاعات شديدة التأثير . فهي من القوة والعمق بحيث تفعل فعلها في القلب بمجرد لمسها له بذاتها .

وسنحاول أن نكشف عن جوانب من الآماد البعيدة التي تشير إليها بعض مقاطعها مما قد لا تدركه النظرة الأولى .

الدرس الأول:1 - 16 حادثة الرسول مع ابن أم مكتوم

(عبس وتولى . أن جاءه الأعمى . وما يدريك لعله يزكى ? أو يذكر فتنفعه الذكرى ? أما من استغنى فأنت له تصدى ? وما عليك ألا يزكى ? وأما من جاءك يسعى وهو يخشى , فأنت عنه تلهى ?! كلا ! إنها تذكرة . فمن شاء ذكره , في صحف مكرمة , مرفوعة مطهرة , بأيدي سفرة , كرام بررة). .

إن هذا التوجيه الذي نزل بشأن هذا الحادث هو أمر عظيم جدا . أعظم بكثير مما يبدو لأول وهلة . إنه معجزة , هو والحقيقة التي أراد إقرارها في الأرض , والآثار التي ترتبت على إقرارها بالفعل في حياة البشرية . ولعلها هي معجزة الإسلام الأولى , ومعجزته الكبرى كذلك . ولكن هذا التوجيه يرد هكذا - تعقيبا على حادث فردي - على طريقة القرآن الإلهية

في اتخاذ الحادث المفرد والمناسبة المحدودة فرصة لتقرير الحقيقة المطلقة والمنهج المطرد .

وإلا فإن الحقيقة التي استهدف هذا التوجيه تقريرها هنا والآثار الواقعية التي ترتبت بالفعل على تقريرها في حياة الأمة المسلمة , هي ا لإسلام في صميمه . وهي الحقيقة التي أراد الإسلام - وكل رسالة سماوية قبله - غرسها في الأرض .

هذه الحقيقة ليست هي مجرد:كيف يعامل فرد من الناس ? أو كيف يعامل صنف من الناس ? كما هو المعنى القريب للحادث وللتعقيب . إنما هي أبعد من هذا جدا , وأعظم من هذا جدا . إنها:كيف يزن الناس كل أمور الحياة ? ومن أين يستمدون القيم التي يزنون بها ويقدرون ?

والحقيقة التي استهدف هذا التوجيه إقرارها هي:أن يستمد الناس في ا لأرض قيمهم وموازينهم من اعتبارات سماوية إلهية بحتة , آتية لهم من السماء , غير مقيدة بملابسات أرضهم , ولا بمواضعات حياتهم , ولا نابعة من تصوراتهم المقيدة بهذه المواضعات وتلك الملابسات .

وهو أمر عظيم جدا , كما أنه أمر عسير جدا . عسير أن يعيش الناس في الأرض بقيم وموازين آتية من السماء . مطلقة من اعتبارات الأرض . متحررة من ضغط هذه الاعتبارات .

ندرك عظمة هذا الأمر وعسره حين ندرك ضخامة الواقع البشري , وثقله على المشاعر , وضغطه على النفوس , وصعوبة التخلي عن الملابسات و الضغوط الناشئة من الحياة الواقعية للناس , المنبثقة من أحوال معاشهم , وارتباطات حياتهم , وموروثات بيئتهم , ورواسب تاريخهم , وسائر الظروف الأخرى التي تشدهم إلى الأرض شدا , وتزيد من ضغط موازينها وقيمها وتصوراتها على النفوس .

كذلك ندرك عظمة هذا الأمر وعسره حين ندرك أن نفس محمد بن عبد الله [ص] قد احتاجت - كي تبلغه - إلى هذا التوجيه من ربه ; بل إلى

هذا العتاب الشديد , الذي يبلغ حد التعجيب من تصرفه !

وإنه ليكفي لتصوير عظمة أي أمر في هذا الوجود أن يقال فيه:إن نفس محمد بن عبد الله [ص] قد احتاجت - كي تبلغه - إلي تنبيه وتوجيه !

نعم يكفي هذا . فإن عظمة هذه النفس وسموها ورفعتها , تجعل الأمر الذي يحتاج منها - كي تبلغه - إلى تنبيه وتوجيه أمرا أكبر من العظمة , وأرفع من الرفعة ! وهذه هي حقيقة هذا الأمر , الذي استهدف التوجيه الإلهي إقراره في الأرض , بمناسبة هذا الحادث المفرد . . أن يستمد الناس قيمهم وموازينهم من السماء , طلقاء من قيم الأرض وموازينها المنبثقة من واقعهم كله . . وهذا هو الأمر العظيم . .

إن الميزان الذي أنزله الله للناس مع الرسل , ليقوموا به القيم كلها , هو: (إن أكرمكم عند الله أتقاكم). . هذه هي القيمة الوحيدة التي يرجح بها وزن الناس أو يشيل ! وهي قيمة سماوية بحتة , لا علاقة لها بمواضعات الأرض وملابساتها إطلاقا . .

ولكن الناس يعيشون في الأرض , ويرتبطون فيما بينهم بارتباطات شتى ; كلها ذات وزن وذات ثقل وذات جاذبية في حياتهم . وهم يتعاملون بقيم أخرى . . فيها النسب , وفيها القوة , وفيها المال . وفيها ما ينشأ عن توزيع هذه القيم من ارتباطات عملية . . اقتصادية وغير اقتصادية . . تتفاوت فيها أوضاع الناس بعضهم بالنسبة لبعض . فيصبح بعضهم أرجح من بعض في موازين الأرض . .

ثم يجيء الإسلام ليقول: (إن أكرمكم عند الله أتقاكم). . فيضرب صفحا عن كل تلك القيم الثقيلة الوزن في حياة الناس , العنيفة الضغط على مشاعرهم , الشديدة الجاذبية إلى الأرض . ويبدل من هذا كلهتلك القيمة الجديدة المستمدة مباشرة من السماء , المعترف بها وحدها في ميزان السماء !

ثم يجيء هذا الحادث لتقرير هذه القيمة في مناسبة واقعية محددة .

وليقرر معها المبدأ الأساسي:وهو أن الميزان ميزان السماء , والقيمة قيمة السماء . وأن على الأمة المسلمة أن تدع كل ما تعارف عليه الناس , وكل ما ينبثق من علاقات الأرض من قيم وتصورات وموازين واعتبارات , لتستمد القيم من السماء وحدها وتزنها بميزان السماء وحده !

ويجيء الرجل الأعمى الفقير . . ابن أم مكتوم . . إلى رسول الله [ص] وهو مشغول بأمر النفر من سادة قريش . عتبة وشيبة ابني ربيعة , وأبي جهل عمرو بن هشام , وأمية بن خلف , والوليد بن المغيرة , ومعهم العباس بن عبد المطلب . . والرسول [ص] يدعوهم إلى الإسلام ; ويرجو بإسلامهم خيرا للإسلام في عسرته وشدته التي كان فيها بمكة ; وهؤلاء النفر يقفون في طريقه بمالهم وجاههم وقوتهم ; ويصدون الناس عنه , ويكيدون له كيدا شديدا حتى ليجمدوه في مكة تجميدا ظاهرا . بينما يقف الآخرون خارج مكة , لا يقبلون على الدعوة التي يقف لها أقرب الناس إلى صاحبها , وأشدهم عصبية له , في بيئة جاهلية قبلية , تجعل لموقف القبيلة كل قيمة وكل اعتبار .

يجيء هذا الرجل الأعمى الفقير إلى رسول الله [ص] وهو مشغول بأمر هؤلاء النفر . لا لنفسه ولا لمصلحته , ولكن للإسلام ولمصلحة الإسلام . فلو أسلم هؤلاء لانزاحت العقبات العنيفة والأشواك الحادة من طريق الدعوة في مكة ; ولانساح بعد ذلك الإسلام فيما حولها , بعد إسلام هؤلا ء الصناديد الكبار . .

يجيء هذا الرجل , فيقول لرسول الله [ص]:يا رسول الله أقرئني وعلمني مما علمك الله . . ويكرر هذا وهو يعلم تشاغل الرسول [ص] بما هو فيه من الأمر . فيكره الرسول قطعه لكلامه واهتمامه . وتظهر الكراهية في وجهه - الذي لا يراه الرجل - فيعبس ويعرض . يعرض عن الرجل المفرد الفقير الذي يعطله عن الأمر الخطير . الأمر الذي يرجو من ورائه لدعوته ولدينه الشيء الكثير ; والذي تدفعه إليه رغبته في نصرة

دينه , وإخلاصه لأمر دعوته , وحبه لمصلحة الإسلام , وحرصه على انتشاره !

وهنا تتدخل السماء . تتدخل لتقول كلمة الفصل في هذا الأمر ; ولتضع معالم الطريق كله , ولتقرر الميزان الذي توزن فيه القيم - بغض النظر عن جميع الملابسات والاعتبارات . بما في ذلك اعتبار مصلحة الدعوة كما يراها البشر . بل كما يراها سيد البشر [ص] .

وهنا يجيء العتاب من الله العلي الأعلى لنبيه الكريم , صاحب الخلق العظيم , في أسلوب عنيف شديد . وللمرة الوحيدة في القرآن كله يقال للرسول الحبيب القريب:(كلا !)وهي كلمة ردع وزجر في الخطاب ! ذلك أنه الأمر العظيم الذي يقوم عليه هذا الدين !

والأسلوب الذي تولى به القرآن هذا العتاب الإلهي أسلوب فريد , لا تمكن ترجمته في لغة الكتابة البشرية . فلغة الكتابة لها قيود وأوضاع وتقاليد , تغض من حرارة هذه الموحيات في صورتها الحية المباشرة . وينفرد الأسلوب القرآني بالقدرة على عرضها في هذه الصورة في لمسات سريعة . وفي عبارات متقطعة . وفي تعبيرات كأنها انفعالات , ونبرات وسمات ولمحات حية !

(عبس وتولى . أن جاءه الأعمى). . بصيغة الحكاية عن أحد آخر غائب غير المخاطب ! وفي هذا الأسلوب إيحاء بأن الأمر موضوع الحديث من الكراهة عند الله بحيث لا يحب - سبحانه - أن يواجه به نبيه وحبيبه . عطفا عليه , ورحمة به , وإكراما له عن المواجهة بهذا الأمر الكريه !

وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى (3) أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ الذِّكْرَى (4) أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَى (5) فَأَنتَ لَهُ تَصَدَّى (6) وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّى (7) وَأَمَّا مَن جَاءكَ يَسْعَى (8) وَهُوَ يَخْشَى (9) فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّى (10) كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ (11) فَمَن

شَاءَ ذَكَرَهُ (12) فِي صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ (13) مَرْفُوعَةٍ مُطَهَّرَةٍ (14) بِأَيْدِي
سَفَرَةٍ (15) كِرَامٍ بَرَرَةٍ (16) قُتِلَ الْإِنسَانُ مَا أَكْفَرَهُ (17) مِنْ أَيِّ شَيْءٍ
خَلَقَهُ (18) مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ (19) ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ (20) ثُمَّ أَمَاتَهُ
فَأَقْبَرَهُ (21) ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنشَرَهُ (22) كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ (23)

ثم يستدير التعبير - بعد مواراة الفعل الذي نشأ عنه العتاب - يستدير إلى العتاب في صيغة الخطاب . فيبدأ هادئا شيئا ما:(وما يدريك لعله يزكى ? أو يذكر فتنفعه الذكرى ?). . ما يدريك أن يتحقق هذا الخير الكبير . أن يتطهر هذا الرجل الأعمى الفقير - الذي جاءك راغبا فيما عندك من الخير - وأن يتيقظ قلبه فيتذكر فتنفعه الذكرى . وما يدريك أن يشرق هذا القلب بقبس من نور الله , فيستحيل منارة في الأرض تستقبل نور السماء ? الأمر الذي يتحقق كلما تفتح قلب للهدى وتمت حقيقة الإيمان فيه . وهو الأمر العظيم الثقيل في ميزان الله . .

ثم تعلو نبرة العتاب وتشتد لهجته ; وينتقل إلى التعجيب من ذلك الفعل محل العتاب: أما من استغنى , فأنت له تصدى وما عليك ألا يزكى ?! وأما من جاءك يسعى وهو يخشى , فأنت عنه تلهى ?! . . أما من أظهر ا لاستغناء عنك وعن دينك وعما عندك من الهدى والخير والنور والطهارة . . أما هذا فأنت تتصدى له وتحفل أمره , وتجهد لهدايته , وتتعرض له وهو عنك معرض !(وما عليك ألا يزكى ?). . وما يضيرك أن يظل في رجسه ودنسه ? وأنت لا تسأل عن ذنبه . وأنت لا تنصر به . وأنت لا تقوم بأمره . .(وأما من جاءك يسعى)طائعا مختارا ,(وهو يخشى)ويتوقى(فأنت عنه تلهى !). . ويسمى الإنشغال عن الرجل المؤمن الراغب في الخير التقي تلهيا . . وهو وصف شديد . .

ثم ترتفع نبرة العتاب حتى لتبلغ حد الردع والزجر:(كلا !). . لا يكن ذلك أبدا . . وهو خطاب يسترعي النظر في هذا المقام .

ثم يبين حقيقة هذه الدعوة وكرامتها وعظمتها ورفعتها , واستغناءها عن كل أحد . وعن كل سند وعنايتها فقط بمن يريدها لذاتها , كائنا ما

كان وضعه ووزنه في موازين الدنيا: (إنها تذكرة . فمن شاء ذكره . في صحف مكرمة . مرفوعة مطهرة . بأيدي سفرة . كرام بررة). . فهي كريمة في كل اعتبار . كريمة في صحفها , المرفوعة المطهرة الموكل بها السفراء من الملأ الأعلى ينقلونها إلى المختارين في الأرض ليبلغوها . وهم كذلك كرام بررة . . فهي كريمة طاهرة في كل ما يتعلق بها , وما يمسها من قريب أو من بعيد . وهي عزيزة لا يتصدى بها للمعرضين الذين يظهرون الاستغناء عنها ; فهي فقط لمن يعرف كرامتها ويطلب التطهر بها . .

هذا هو الميزان . ميزان الله . الميزان الذي توزن به القيم والإعتبارات , ويقدر به الناس والأوضاع . . وهذه هي الكلمة . كلمة الله . الكلمة التي ينتهي إليها كل قول , وكل حكم , وكل فصل .

وأين هذا ? ومتى ? في مكة , والدعوة مطاردة , والمسلمون قلة . و التصدي للكبراء لا ينبعث من مصلحة ذاتية ; والانشغال عن الأعمى الفقير لا ينبعث من اعتبار شخصي . إنما هي الدعوة أولا وأخيرا . ولكن الدعوة إنما هي هذا الميزان , وإنما هي هذه القيم , وقد جاءت لتقرر هذا الميزان وهذه القيم في حياة البشر . فهي لا تعز ولا تقوى ولا تنصر إلا بإقرار هذا الميزان وهذه القيم . .

ثم إن الأمر - كما تقدم - أعظم وأشمل من هذا الحادث المفرد , ومن موضوعه المباشر . إنما هو أن يتلقى الناس الموازين والقيم من السماء لا من الأرض , ومن الاعتبارات السماوية لا من الاعتبارات الأرضية . . (إن أكرمكم عند الله أتقاكم). . والأكرم عند الله هو الذي يستحق الرعاية والاهتمام والاحتفال , ولو تجرد من كل المقومات والاعتبارات الأخرى , التي يتعارف عليها الناس تحت ضغط واقعهم الأرضي ومواضعاتهم الأ رضية . النسب والقوة والمال . . وسائر القيم الأخرى , لا وزن لها حين تتعرى عن الإيمان والتقوى . والحالة الوحيدة التي يصح لها فيها وزن واعتبار هي حالة ما إذا أنفقت لحساب الإيمان والتقوى .

هذه هي الحقيقة الكبيرة التي استهدف التوجيه الإلهي إقرارها في هذه المناسبة , على طريقة القرآن في اتخاذ الحادث المفرد والمناسبة المحدودة , وسيلة لإقرار الحقيقة المطلقة والمنهج المطرد .

ولقد انفعلت نفس الرسول [ص] لهذا التوجيه , ولذلك العتاب . انفعلت بقوة وحرارة , واندفعت إلى إقرار هذه الحقيقة في حياته كلها , وفي حياة الجماعة المسلمة . بوصفها هي حقيقة الإسلام الأولى .

وكانت الحركة الأولى له [ص] هي إعلان ما نزل له من التوجيه و العتاب في الحادث . وهذا الإعلان أمر عظيم رائع حقا . أمر لا يقوى عليه إلا رسول , من أي جانب نظرنا إليه في حينه .

نعم لا يقوى إلا رسول على أن يعلن للناس أنه عوتب هذا العتاب الشديد , بهذه الصورة الفريدة في خطأ أتاه ! وكان يكفي لأي عظيم - غير الرسول - أن يعرف هذا الخطأ وأن يتلافاه في المستقبل . ولكنها النبوة . أمر آخر . وآفاق أخرى !

لا يقوى إلا رسول على أن يقذف بهذا الأمر هكذا في وجوه كبراء قريش في مثل تلك الظروف التي كانت فيها الدعوة , مع أمثال هؤلاء المستعزين بنسبهم وجاههم ومالهم وقوتهم , في بيئة لا مكان فيها لغير هذه الاعتبارات , إلى حد أن يقال فيها عن محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم: (لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم !). . وهذا نسبه فيهم , لمجرد أنه هو شخصيا لم تكن له رياسة فيهم قبل الرسالة !

ثم إنه لا يكون مثل هذا الأمر في مثل هذه البيئة إلا من وحي السماء . فما يمكن أن ينبثق هذا من الأرض . . ومن هذه الأرض بذاتها في ذلك الزمان !!

وهي قوة السماء التي دفعت مثل هذا الأمر في طريقه ; فإذا هو ينفذ من خلال نفس النبي [ص] إلى البيئة من حوله ; فيتقرر فيها بعمق

وقوة واندفاع , يطرد به أزمانا طويلة في حياة الأمة المسلمة .

لقد كان ميلادا جديدا للبشرية كميلاد الإنسان في طبيعته . وأعظم منه خطرا في قيمته . . أن ينطلق الإنسان حقيقة - شعورا وواقعا - من كل القيم المتعارف عليها في الأرض , إلى قيم أخرى تتنزل له من السماء منفصلة منعزلة عن كل ما في الأرض من قيم وموازين وتصورات واعتبارات وملابسات عملية , وارتباطات واقعية ذات ضغط وثقل , ووشائج متلبسة باللحم والدم والأعصاب والمشاعر . ثم أن تصبح القيم الجديدة مفهومة من الجميع , مسلما بها من الجميع . وأن يستحيل الأمر العظيم الذي احتاجت نفس محمد [ص] كي تبلغه إلى التنبيه و التوجيه , أن يستحيل هذا الأمر العظيم بديهية الضمير المسلم , وشريعة المجتمع المسلم , وحقيقة الحياة الأولى في المجتمع الإسلامي لآماد طويلة في حياة المسلمين .

إننا لا نكاد ندرك حقيقة ذلك الميلاد الجديد . لأننا لا نتمثل في ضمائرنا حقيقة هذا الانطلاق من كل ما تنشئه أوضاع الأرض وارتباطاتها من قيم وموازين واعتبارات ساحقة الثقل إلى الحد الذي يخيل لبعض أصحاب المذاهب "التقدمية ! " أن جانبا واحدا منها - هو الأوضاع الا قتصادية - هو الذي يقرر مصائر الناس وعقائدهم وفنونهم وآدابهم وقوانينهم وعرفهم وتصورهم للحياة ! كما يقول أصحاب مذهب التفسير المادي للتاريخ في ضيق أفق , وفي جهالة طاغية بحقائق النفس وحقائق الحياة !

إنها المعجزة . معجزة الميلاد الجديد للإنسان على يد الإسلام في ذلك الزمان . .

ومنذ ذلك الميلاد سادت القيم التي صاحبت ذلك الحادث الكوني العظيم . . ولكن المسألة لم تكن هينة ولا يسيرة في البيئة العربية , ولا في المسلمين أنفسهم . . غير أن الرسول [ص] قد استطاع - بإرادة الله , وبتصرفاته هو وتوجيهاته المنبعثة من حرارة انفعاله بالتوجيه القرآني

الثابت - أن يزرع هذه الحقيقة في الضمائر وفي الحياة ; وأن يحرسها ويرعاها , حتى تتأصل جذورها , وتمتد فروعها , وتظلل حياة الجماعة المسلمة قرونا طويلة . . على الرغم من جميع عوامل الانتكاس الأخرى .
.

كان رسول الله [ص] بعد هذا الحادث يهش لابن أم مكتوم ويرعاه ; ويقول له كلما لقيه:" أهلا بمن عاتبني فيه ربي " وقد استخلفه مرتين بعد الهجرة على المدينة . .

ولكي يحطم موازين البيئة وقيمها المنبثقة من اعتبار الأرض ومواضعاتها , زوج بنت خالته زينب بنت جحش الأسدية , لمولاه زيد بن حارثة . ومسألة الزواج والمصاهرة مسألة حساسة شديدة الحساسية . وفي البيئة العربية بصفة خاصة .

وقبل ذلك حينما آخى بين المسلمين في أول الهجرة , جعل عمه حمزة ومولاه زيدا أخوين . وجعل خالد بن رويحة الخثعمي وبلال بن رباح أخوين !

وبعث زيدا أميرا في غزوة مؤتة , وجعله الأمير الأول , يليه جعفر بن أبي طالب , ثم عبد الله بن رواحة الأنصاري , على ثلاثة آلاف من المهاجرين والأنصار , فيهم خالد بن الوليد .

وخرج رسول الله [ص] بنفسه يشيعهم . . وهي الغزوة التي استشهد فيها الثلاثة رضي الله عنهم .

وكان آخر عمل من أعماله [ص] أن أمر أسامة بن زيد على جيش لغزو الروم , يضم كثرة من المهاجرين والأنصار , فيهم أبو بكر وعمر وزيراه , وصاحباه , والخليفتان بعده بإجماع المسلمين . وفيهم سعد بن أبي وقاص قريبه [ص] ومن أسبق قريش إلى الإسلام .

وقد تململ بعض الناس من إمارة أسامة وهو حدث . وفي ذلك قال ابن

عمر رضي الله عنهما -:بعث رسول الله [ص] بعثا أمر عليهم أسامة بن زيد - رضي الله عنهما - فطعن بعض الناس في إمارته , فقال النبي [ص] إن تطعنوا في إمارته فقد كنتم تطعنون في إمارة أبيه من قبل . وأيم الله إن كان لخليقا للإمارة , وإن كان لمن أحب الناس إلي . وإن هذا لمن أحب الناس إلي . .

ولما لغطت ألسنة بشأن سلمان الفارسي , وتحدثوا عن الفارسية و العربية , بحكم إيحاءات القومية الضيقة , ضرب رسول الله [ص] ضربته الحاسمة في هذا الأمر فقال:" سلمان منا أهل البيت " فتجاوز به - بقيم السماء وميزانها - كل آفاق النسب الذي يستعزون به , وكل حدود القومية الضيقة التي يتحمسون لها . . وجعله من أهل البيت رأسا !

ولما وقع بين أبي ذر الغفاري وبلال بن رباح - رضي الله عنهما - ما أفلت معه لسان أبي ذر بكلمة "يا بن السوداء" . . غضب لها رسول الله [ص] غضبا شديدا ; وألقاها في وجه أبي ذر عنيفة مخيفة: يا أبا ذر طف الصاع ليس لابن البيضاء على ابن السوداء فضل . . ففرق في الأمر إلى جذوره البعيدة . . إما إسلام فهي قيم السماء وموازين السماء . وإما جاهلية فهي قيم الأرض وموازين الأرض !

ووصلت الكلمة النبوية بحرارتها إلى قلب أبي ذر الحساس ; فانفعل لها أشد الانفعال , ووضع جبهته على الأرض يقسم ألا يرفعها حتى يطأها ب لال . تكفيرا عن قولته الكبيرة !

وكان الميزان الذي ارتفع به بلال هو ميزان السماء . . عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال:قال رسول الله [ص]:" يا بلال حدثني بأرجى عمل عملته في الإسلام منفعة عندك . فإني سمعت الليلة خشف نعليك بين يدي في الجنة " . فقال:ما عملت في الإسلم عملا أرجى عندي منفعة من أني لا أتطهر طهورا تاما في ساعة من ليل أو نهار إلا صليت بذلك الطهور ما كتب لي أن أصلي .

وكان رسول الله [ص] يقول عن عمار بن ياسر وقد استأذن عليه:" ائذنوا له مرحبا بالطيب المطيب " . . وقال عنه:" ملئ عمار - رضي الله عنه - إيمانا إلى مشاشه " . . وعن حذيفة - رضي الله عنه قال رسول الله [ص]:" إني لا أدري ما بقائي فيكم فاقتدوا باللذين من بعدي - وأشار إلى أبي بكر وعمر رضي الله عنهما - واهتدوا بهدي عمار . وما حدثكم ابن مسعود فصدقوه " .

وكان ابن مسعود يحسبه الغريب عن المدينة من أهل بيت رسول الله . . عن أبي موسى - رضي الله عنه - قال:قدمت أنا وأخي من اليمن , فمكثنا حينا وما نرى ابن مسعود وأمه إلا من أهل بيت رسول الله [ص] من كثرة دخولهم على رسول الله [ص] ولزومهم له" .

وجليبيب - وهو رجل من الموالي - كان رسول الله [ص] يخطب له بنفسه ليزوجه امرأة من الأنصار . فلما تأبى أبواها قالت هي:أتريدون أن تردوا على رسول الله [ص] أمره ؟ إن كان قد رضيه لكم فأنكحوه . فرضيا وزوجاها .

وقد افتقده رسول الله [ص] في الوقعة التي استشهد فيها بعد فترة قصيرة من زواجه . . عن أبي برزة الأسلمي - رضي الله عنه - قال:كان رسول الله [ص] في مغزى له , فأفاء الله عليه . فقال لأصحابه:" هل تفقدون من أحد ؟ " قالوا:نعم فلانا وفلانا وفلانا . ثم قال:" هل تفقدون من أحد ؟ " قالوا:نعم فلانا وفلانا وفلانا . ثم قال:" هل تفقدون من أحد ؟ " فقالوا:لا . قال:" لكني أفقد جليبيبا " فطلبوه , فوجدوه إلى جنب سبعة قد قتلهم ثم قتلوه . فأتى النبي [ص] فوقف عليه , ثم ق ال:" قتل سبعة ثم قتلوه . هذا مني وأنا منه . هذا مني وأنا منه " . ثم وضعه على ساعديه , ليس له سريرا إلا ساعدا النبي [ص] قال:فحفر له , ووضع في قبره ولم يذكر غسلا .

بذلك التوجيه الإلهي وبهذا الهدي النبوي كان الميلاد للبشرية على هذا النحو الفريد . ونشأ المجتمع الرباني الذي يتلقى قيمه وموازينه من

السماء , طليقا من قيود الأرض , بينما هو يعيش على الأرض . . وكانت هذه هي المعجزة الكبرى للإسلام . المعجزة التي لا تتحقق إلا بإرادة إله , وبعمل رسول . والتي تدل بذاتها على أن هذا الدين من عند الله , وأن الذي جاء به للناس رسول !

وكان من تدبير الله لهذا الأمر أن يليه بعد رسول الله [ص] صاحبه الأول أبو بكر , وصاحبه الثاني عمر . . أقرب اثنين لإدراك طبيعة هذا الأمر , وأشد اثنين انطباعا بهدى رسول الله , وأعمق اثنين حبا لرسول الله , وحرصا على تتبع مواضع حبه ومواقع خطاه .

حفظ أبو بكر - رضي الله عنه - عن صاحبه [ص] ما أراده في أمر أسامة . فكان أول عمل له بعد توليه الخلافة هو إنفاذه بعث أسامة , على رأس الجيش الذي أعده رسول الله [ص] وسار يودعه بنفسه إلى ظاهر المدينة . أسامة راكب وأبو بكر الخليفة راجل . فيستحيي أسامة الفتى الحدث أن يركب والخليفة الشيخ يمشي . فيقول:" يا خليفة رسول الله لتركبن أو لأنزلن " . . فيقسم الخليفة:" والله لا تنزل . ووالله لا أركب . وما علي أن أغبر قدمي في سبيل الله ساعة ? " . .

ثم يرى أبو بكر أنه في حاجة إلى عمر . وقد حمل عبء الخلافة الثقيل . ولكن عمر إنما هو جندي في جيش أسامة . وأسامة هو الأمير . فلا بد من استئذانه فيه . فإذا الخليفة يقول:" إن رأيت أن تعينني بعمر فافعل " . . يالله ! إن رأيت أن تعينني فافعل . . إنها آفاق عوال , لا يرقى إليها الناس إلا بإرادة الله , على يدي رسول من عند الله !

ثم تمضي عجلة الزمن فنرى عمر بن الخطاب خليفة يولي عمار بن ياسر على الكوفة .

ويقف بباب عمر سهيل بن عمرو بن الحارث بن هشام , وأبو سفيان بن حرب , وجماعة من كبراء قريش من الطلقاء ! فيأذن قبلهم لصهيب وبلال . لأنهما كانا من السابقين إلى الإسلام ومن أهل بدر . فتورم أنف أبي

سفيان , ويقول بانفعال الجاهلية:"لم أر كاليوم قط . يأذن لهؤلاء العبيد ويتركنا على بابه ! " . . فيقول له صاحبه - وقد استقرت في حسه حقيقة الإسلام:"أيها القوم . إني والله أرى الذي في وجوهكم . إن كنتم غضابا فاغضبوا على أنفسكم . دعي القوم إلى الإسلام ودعيتم . فأسرعوا وأبطأتم . فكيف بكم إذا دعوا يوم القيامة وتركتم ? " .

ويفرض عمر لأسامة بن زيد أكبر مما يفرض لعبد الله بن عمر . حتى إذا سأله عبد الله عن سر ذلك قال له:"يا بني . كان زيد - رضي الله عنه - أحب إلى رسول الله [ص] من أبيك ! وكان أسامة - رضي الله عنه - أحب إلى رسول الله [ص] منك ! فآثرت حب رسول الله [ص] على حبي" . . يقولها عمر وهو يعلم أن حب رسول الله [ص] إنما كان مقوما بميزان السماء !

ويرسل عمر عمارا ليحاسب خالد بن الوليد - القائد المظفر صاحب النسب العريق - فيلببه بردائه . . ويروى أنه أوثقه بشال عمامته حتى ينتهي من حسابه فتظهر براءته فيفك وثاقه ويعممه بيده . . وخالد لا يرى في هذاكله بأسا . فإنما هو عمار صاحب رسول الله [ص] السابق إلى الإسلام الذي قال عنه رسول الله [ص] ما قال !

وعمر هو الذي يقول عن أبي بكر - رضي الله عنهما - هو سيدنا وأعتق سيدنا . يعني بلالا . الذي كان مملوكا لأمية بن خلف . وكان يعذبه عذابا شديدا . حتى اشتراه منه أبو بكر وأعتقه . . وعنه يقول عمر بن الخطاب . . عن بلال . . سيدنا !

وعمر هو الذي قال:"ولو كان سالم مولى أبي حذيفة حيا لاستخلفته" يقول هذا , وهو لم يستخلف عثمان ولا عليا , ولا طلحة ولا الزبير . . إنما جعل الشورى في الستة بعده ولم يستخلف أحدا بذاته !

وعلي بن أبي طالب - كرم الله وجهه - يرسل عمارا والحسن بن علي - رضي الله عنهما - إلى أهل الكوفة يستنفرهم في الأمر الذي كان بينه

وبين عائشة - رضي الله عنها - فيقول:"إني لأعلم أنها زوجة نبيكم [ص] في الدنيا والآخرة , ولكن الله ابتلاكم لتتبعوه أو تتبعوها" . . فيسمع له الناس في شأن عائشة أم المؤمنين , وبنت الصديق أبي بكر - رضي الله عنهم جميعا .

وبلال بن رباح يرجوه أخوه في الإسلام أبو رويحة الخثعمي أن يتوسط له في الزواج من قوم من أهل اليمن . فيقول لهم:"أنا بلال بن رباح , وهذا أخي أبو رويحة , وهو امرؤ سوء في الخلق والدين . فإن شئتم أن تزوجوه فزوجوه , وإن شئتم أن تدعوا فدعوا " . . فلا يدلس عليهم , و لا يخفي من أمر أخيه شيئا , ولا يذكر أنه وسيط وينسى أنه مسؤول أمام الله فيما يقول . . فيطمئن القوم إلى هذا الصدق . . ويزوجون أخاه , وحسبهم - وهو العربي ذو النسب - أن يكون بلال المولى الحبشي وسيطه !

واستقرت تلك الحقيقة في المجتمع الإسلامي , وظلت مستقرة بعد ذلك آمادا طويلة على الرغم من عوامل الانتكاس الكثيرة . "وقد كان عبد الله بن عباس يذكر ويذكر معه مولاه عكرمة . وكان عبد الله ابن عمر يذكر ويذكر معه مولاه نافع . وأنس بن مالك ومعه مولاه ابن سيرين . وأبو هريرة ومعه مولاه عبد الرحمن بن هرمز . وفي البصرة كان الحسن البصري . وفي مكة كان مجاهد بن جبر , وعطاء بن رباح , وطاووس بن كيسان هم الفقهاء . وفي مصر تولى الفتيا يزيد بن أبي حبيب في أيام عمر بن عبد العزيز وهو مولى أسود من دنقلة " . .

وظل ميزان السماء يرجح بأهل التقوى ولو تجردوا من قيم الأرض كلها . . وفي اعتبار أنفسهم وفي اعتبار الناس من حولهم . ولم يرفع هذا الميزان من الأرض إلا قريبا جدا بعد أن طغت الجاهلية طغيانا شاملا في أنحاء الأرض جميعا . وأصبح الرجل يقوم برصيده من الدولارات في أمريكا زعيمة الدول الغربية . وأصبح الإنسان كله لا يساوي الآلة في المذهب المادي المسيطر في روسيا زعيمة الدول الشرقية . أما أرض

المسلمين فقد سادت فيها الجاهلية الأولى , التي جاء الإسلام ليرفعها من وهدتها ; وانطلقت فيها نعرات كان الإسلام قد قضى عليها . وحطمت ذلك الميزان الإلهي وارتدت إلى قيم جاهلية زهيدة لا تمت بصلة إلى الإيمان والتقوى . .

ولم يعد هنالك إلا أمل يناط بالدعوة الإسلامية أن تنقذ البشرية كلها مرة أخرى من الجاهلية ; وأن يتحققعلى يديها ميلاد جديد للإنسان كالميلاد الذي شهدته أول مرة , والذي جاء ذلك الحادث الذي حكاه مطلع هذه السورة ليعلنه في تلك الآيات القليلة الحاسمة العظيمة . .

الدرس الثاني:17 - 23 تذكير الإنسان بأصله وتكريمه ورعاية الله له

وبعد تقرير تلك الحقيقة الكبيرة في ثنايا التعقيب على ذلك الحادث , في المقطع الأول من السورة , يعجب السياق في المقطع الثاني من أمر هذا الإنسان , الذي يعرض عن الهدى , ويستغني عن الإيمان , ويستعلي على الدعوة إلى ربه . . يعجب من أمره وكفره , وهو لا يذكر مصدر وجوده , وأصل نشأته , ولا يرى عناية الله به وهيمنته كذلك على كل مرحلة من مراحل نشأته في الأولى والآخرة ; ولا يؤدي ما عليه لخالقه وكافله ومحاسبه:

(قتل الإنسان ما أكفره ! من أي شيء خلقه ! من نطفة خلقه فقدره . ثم السبيل يسره . ثم أماته فأقبره . ثم إذا شاء أنشره . كلا ! لما يقض ما أمره). .

(قتل الإنسان !). . فإنه ليستحق القتل على عجيب تصرفه . . فهي صيغة تفظيع وتقبيح وتشنيع لأمره . وإفادة أنه يرتكب ما يستوجب القتل لشناعته وبشاعته . .

ما أكفره ! . . ما أشد كفره وجحوده ونكرانه لمقتضيات نشأته وخلقته . ولو رعى هذه المقتضيات لشكر خالقه , ولتواضع في دنياه , ولذكر آخرته . .

وإلا فعلام يتكبر ويستغني ويعرض ? وما هو أصله وما هو مبدؤه ?

(من أي شيء خلقه ?). .

إنه أصل متواضع زهيد يستمد كل قيمته من فضل الله ونعمته , ومن تقديره وتدبيره:

(من نطفة خلقه فقدره). .

من هذا الشيء الذي لا قيمة له ; ومن هذا الأصل الذي لا قوام له . . ولكن خالقه هو الذي قدره . قدره . من تقدير الصنع وإحكامه . وقدره:من منحه قدرا وقيمة فجعله خلقا سويا , وجعله خلقا كريما . وارتفع به من ذلك الأصل المتواضع , إلى المقام الرفيع الذي تسخر له فيه الأرض وما عليها .

(ثم السبيل يسره). .

فمهد له سبيل الحياة . أو مهد له سبيل الهداية . ويسره لسلوكه بما أودعه من خصائص واستعدادات . سواء لرحلة الحياة , أو للإهتداء فيها .

حتى إذا انتهت الرحلة , صار إلى النهاية التي يصير إليها كل حي . بلا اختيار ولا فرار:

(ثم أماته فأقبره). .

فأمره في نهايته كأمره في بدايته , في يد الذي أخرجه إلى الحياة حين شاء , وأنهى حياته حين شاء , وجعل مثواه جوف الأرض , كرامة له ورعاية , ولم يجعل السنة أن يترك على ظهرها للجوارح والكواسر . وأودع فطرته الحرص على مواراة ميته وقبره . فكان هذا طرفا من تدبيره له وتقديره .

حتى إذا حان الموعد الذي اقتضته مشيئته , أعاده إلى الحياة لما يراد

به من الأمر:

(ثم إذا شاء أنشره). .

فليس متروكا سدى ; ولا ذاهبا بلا حساب ولا جزاء . . فهل تراه تهيأ لهذا الأمر واستعد ?

فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ إِلَى طَعَامِهِ (24)

(كلا ! لما يقض ما أمره). .

الإنسان عامة , بأفراده جملة , وبأجياله كافة . . لما يقض ما أمره . . إلى آخر لحظة في حياته . وهو الإيحاء الذي يلقيه التعبير بلما . كلا إنه لمقصر , لم يؤد واجبه . لم يذكر أصله ونشأته حق الذكرى . . ولم يشكر خالقه وهاديه وكافله حق الشكر . ولم يقض هذه الرحلة على الأرض في الاستعداد ليوم الحساب والجزاء . . هو هكذا في مجموعه . فوق أن الكثرة تعرض وتتولى , وتستغني وتتكبر على الهدى !

الدرس الثالث:24 - 32 رعاية الله للإنسان والحيوان في الطعام

وينتقل السياق إلى لمسة أخرى في مقطع جديد . . فتلك هي نشأة هذا الإنسان . . فهلا نظر إلى طعامه وطعام أنعامه في هذه الرحلة ? وهي شيء واحد من أشياء يسرها له خالقه ?

(فلينظر الإنسان إلى طعامه . أنا صببنا الماء صبا . ثم شققنا الأرض شقا . فأنبتنا فيها حبا , وعنبا وقضبا . وزيتونا ونخلا . وحدائق غلبا . وفاكهة وأبا . متاعا لكم ولأنعامكم). .

هذه هي قصة طعامه . مفصلة مرحلة مرحلة . هذه هي فلينظر إليها ; فهل له من يد فيها ? هل له من تدبير لأمرها ? إن اليد التي أخرجته إلى

الحياة وأبدعت قصته , هي ذاتها اليد التي أخرجت طعامه وأبدعت قصته . .

(فلينظر الإنسان إلى طعامه). . ألصق شيء به , وأقرب شيء إليه , وألزم شيء له . . لينظر إلى هذا الأمر الميسر الضروري الحاضر المكرر . لينظر إلى قصته العجيبة اليسيرة , فإن يسرها ينسيه ما فيها من العجب . وهي معجزة كمعجزة خلقه ونشأته . وكل خطوة من خطواتها بيد القدرة التي أبدعته:

إنا صببنا الماء صبا . . وصب الماء في صورة المطر حقيقة يعرفها كل إنسان في كل بيئة , في أية درجة كان من درجات المعرفة والتجربة . فهي حقيقة يخاطب بها كل إنسان . فأما حين تقدم الإنسان في المعرفة فقد عرف من مدلول هذا النص ما هو أبعد مدى وأقدم عهدا من هذا المطر الذي يتكرر اليوم ويراه كل أحد . وأقرب الفروض الآن لتفسير وجود المحيطات الكبيرة التي يتبخر ماؤها ثم ينزل في صورة مطر , أقرب الفروض أن هذه المحيطات تكونت أولا في السماء فوقنا ثم صبت على الأرض صبا !

وفي هذا يقول أحد علماء العصر الحاضر:"إذا كان صحيحا أن درجة حرارة الكرة الأرضية وقت انفصالها عن الشمس كانت حوالي 12 . 000 درجة . أو كانت تلك درجة حرارة سطح الأرض . فعندئذ كانت كل العناصر حرة . ولذا لم يكن في الإمكان وجود أي تركيب كيميائي ذي شأن . ولما أخذت الكرة الأرضية , أو الأجزاء المكونة لها في أن تبرد تدريجيا , حدثت تركيبات , وتكونت خلية العالم كما نعرفه . وما كان للأكسيجين والهيدروجين أن يتحدا إلا بعد أن هبطت درجة الحرارة إلى 4000 درجة فارنهايت . وعند هذه النقطة اندفعت معا تلك العناصر , وكونت الماء الذي نعرفه الآن أنه هواء الكرة الأرضية . ولا بد أنه كان هائلا في ذلك الحين . وجميع المحيطات كانت في السماء . وجميع تلك العناصر التي لم تكن قد اتحدت كانت غازات في الهواء . وبعد أن تكون

الماء في الجو الخارجي سقط نحو الأرض . ولكنه لم يستطع الوصول إليها . إذ كانت درجة الحرارة على مقربة من الأرض أعلى مما كانت على مسافة آلاف الأميال . وبالطبع جاء الوقت الذي صار الطوفان يصل فيه إلى الأرض ليطير منها ثانيا في شكل بخار . ولما كانت المحيطات في الهواء فإن الفيضانات التي كانت تحدث مع تقدم التبريد كانت فوق الحسبان . وتمشى الجيشان مع التفتت . . . . . الخ" .

أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبّاً (25) ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقّاً (26) فَأَنبَتْنَا فِيهَا حَبّاً (27) وَعِنَباً وَقَضْباً (28) وَزَيْتُوناً وَنَخْلاً (29) وَحَدَائِقَ غُلْباً (30) وَفَاكِهَةً وَأَبّاً (31) مَّتَاعاً لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ (32)

وهذا الفرض - ولو أننا لا نعلق به النص القرآني - يوسع من حدود تصورنا نحن للنص والتاريخ الذي يشير إليه . تاريخ صب الماء صبا . وقد يصح هذا الفرض , وقد تجد فروض أخرى عن أصل الماء في الأ رض . ويبقى النص القرآني صالحا لأن يخاطب به كل الناس في كل بيئة وفي كل جيل .

ذلك كان أول قصة الطعام:(أنا صببنا الماء صبا). . ولا يزعم أحد أنه أنشأ هذا الماء في أي صورة من صوره , وفي أي تاريخ لحدوثه ; ولا أنه صبه على الأرض صبا , لتسير قصة الطعام في هذا الطريق !

(ثم شققنا الأرض شقا). . وهذه هي المرحلة التالية لصب الماء . وهي صالحة لأن يخاطب بها الإنسان البدائي الذي يرى الماء ينصب من السماء بقدرة غير قدرته , وتدبير غير تدبيره . ثم يراه يشق الأرض ويتخلل تربتها . أو يرى النبت يشق تربة الأرض شقا بقدرة الخالق وينمو على وجهها , ويمتد في الهواء فوقها . . وهو نحيل نحيل , والأرض فوقه ثقيلة ثقيلة . ولكن اليد المدبرة تشق له الأرض شقا , وتعينه على النفاذ فيها وهو ناحل لين لطيف . وهي معجزة يراها كل من يتأمل

انبثاق النبتة من التربة ; ويحس من ورائه انطلاق القوة الخفية الكامنة في النبتة الرخية .

فأما حين تتقدم معارف الإنسان فقد يعن له مدى آخر من التصوير في هذا النص . وقد يكون شق الأرض لتصبح صالحة للنبات أقدم بكثير مما نتصور . إنه قد يكون ذلك التفتت في صخور القشرة الأرضية بسبب الفيضانات الهائلة التي يشير إليها الفرض العلمي السابق . وبسبب العوامل الجوية الكثيرة التي يفترض علماء اليوم أنها تعاونت لتفتيت الصخور الصلبة التي كانت تكسو وجه الأرض وتكون قشرتها ; حتى وجدت طبقة الطمي الصالحة للزرع . وكان هذا أثرا من آثار الماء تاليا في تاريخه لصب الماء صبا . مما يتسق أكثر مع هذا التتابع الذي تشير إليه النصوص . .

وسواء كان هذا أم ذاك أم سواهما هو الذي حدث , وهو الذي تشير إليه ا لآيتان السابقتان فقد كانت المرحلة الثالثة في القصة هي النبات بكل صنوفه وأنواعه . التي يذكر منها هنا أقربها للمخاطبين , وأعمها في طعام الناس والحيوان:

(فأنبتنا فيها حبا). . وهو يشمل جميع الحبوب . ما يأكله الناس في أية صورة من صوره , وما يتغذى به الحيوان في كل حالة من حالاته .

(وعنبا وقضبا). . والعنب معروف . والقضب هو كل ما يؤكل رطبا غضا من الخضر التي تقطع مرة بعد أخرى . .(وزيتونا ونخلا . وحدائق غلبا . وفاكهة وأبا) . والزيتون والنخل معروفان لكل عربي والحدائق جمع حديقة , وهي البساتين ذات الأشجار المثمرة المسورة بحوائط تحميها . و(غلبا)جمع غلباء . أي ضخمة عظيمة ملتفة الأشجار . والفاكهة من ثمار الحدائق و "الأب" أغلب الظن أنه الذي ترعاه الأنعام . وهو الذي سأل عنه عمر بن الخطاب ثم راجع نفسه فيه متلوما ! كما سبق في الحديث عن سورة النازعات ! فلا نزيد نحن شيئا !

هذه هي قصة الطعام . كلها من إبداع اليد التي ابدعت الإنسان . وليس فيها للإنسان يد يدعيها , في أية مرحلة من مراحلها . . حتى الحبوب و البذور التي قد يلقيها هو في الأرض . . إنه لم يبدعها , ولم يبتدعها . و المعجزة في إنشائها ابتداء من وراء تصور الإنسان وإدراكه . والتربة واحدة بين يديه , ولكن البذور والحبوب منوعة , وكل منها يؤتي أكله في القطع المتجاورات من الأرض . وكلها تسقى بماء واحد , ولكن اليد المبدعة تنوع النبات وتنوع الثمار ; وتحفظ في البذرة الصغيرة خصائص أمها التي ولدتها فتنقلها إلى بنتها التي تلدها . . كل أولئك في خفية عن الإنسان ! لا يعلم سرها ولا يقضي أمرها , ولا يستشار في شأن من شؤونها . .

فَإِذَا جَاءتِ الصَّاخَّةُ (33) يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ (34) وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ
(35) وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ (36) لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ (37)
وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ (38) ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ (39) وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا
غَبَرَةٌ (40) تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ (41) أُوْلَئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ (42)

هذه هي القصة التي أخرجتها يد القدرة:(متاعا لكم ولأنعامكم). . إلى حين . ينتهي فيه هذا المتاع ; الذي قدره الله حين قدر الحياة . ثم يكون بعد ذلك أمر آخر يعقب المتاع . أمر يجدر بالإنسان أن يتدبره قبل أن يجيء:

الدرس الرابع:33 - 42 في الصاخة وجوه مسفرة مستبشرة ووجوه معذبة

فإذا جاءت الصاخة , يوم يفر المرء من أخيه , وأمه وأبيه , وصاحبته وبنيه . لكل أمرئ منهم يومئذ شأن يغنيه . . وجوه يومئذ مسفرة , ضاحكة مستبشرة , ووجوه يومئذ عليها غبرة , ترهقها قترة , أولئك هم الكفرة الفجرة . .

فهذه هي خاتمة المتاع . وهذه هي التي تتفق مع التقدير الطويل , و التدبير الشامل , لكل خطوة وكل مرحلة في نشأة الإنسان . وفي هذا المشهد ختام يتناسق مع المطلع . مع الذي جاء يسعى وهو يخشى . و الذي استغنى وأعرض عن الهدى . ثم هذان هما في ميزان الله .

"والصاخة لفظ ذو جرس عنيف نافذ , يكاد يخرق صماخ الأذن , وهو يشق الهواء شقا , حتى يصل إلى الأذن صاخا ملحا !

"وهو يمهد بهذا الجرس العنيف للمشهد الذي يليه:مشهد المرء يفر وينسلخ من ألصق الناس به:(يوم يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه , وصاحبته وبنيه). . أولئك الذين تربطهم به وشائج وروابط لا تنفصم ; ولكن هذه الصاخة تمزق هذه الروابط تمزيقا , وتقطع تلك الوشائج تقطيعا .

"والهول في هذا المشهد هول نفسي بحت , يفزع النفس ويفصلها عن محيطها . ويستبد بها استبدادا . فلكل نفسه وشأنه , ولديه الكفاية من الهم الخاص به , الذي لا يدع له فضلة من وعي أو جهد:(لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه). .

"والظلال الكامنة وراء هذه العبارة وفي طياتها ظلال عميقة سحيقة . فما يوجد أخصر ولا أشمل من هذا التعبير , لتصوير الهم الذي يشغل الحس والضمير:(لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه)!

ذلك حال الخلق جميعا في هول ذلك اليوم . . إذا جاءت الصاخة . . ثم يأخذ في تصوير حال المؤمنين وحال الكافرين , بعد تقويمهم ووزنهم بميزان الله هناك:

(وجوه يومئذ مسفرة . ضاحكة مستبشرة). .

فهذه وجوه مستنيرة منيرة متهللة ضاحكة مستبشرة , راجية في ربها , مطمئنة بما تستشعره من رضاه عنها . فهي تنجو من هول الصاخة

المذهل لتتهلل وتستنير وتضحك وتستبشر . أو هي قد عرفت مصيرها , وتبين لها مكانها , فتهللت واستبشرت بعد الهول المذهل . .

(ووجوه يومئذ عليها غبرة . ترهقها قترة . أولئك هم الكفرة الفجرة). .

فأما هذه فتعلوها غبرة الحزن والحسرة , ويغشاها سواد الذل والا نقباض . وقد عرفت ما قدمت فاستيقنت ما ينتظرها من جزاء . .(أولئك هم الكفرة الفجرة). . الذين لا يؤمنون بالله وبرسالاته , والذين خرجوا عن حدوده وانتهكوا حرماته . .

وفي هذه الوجوه وتلك قد ارتسم مصير هؤلاء وهؤلاء . ارتسم ملامح وسمات من خلال الألفاظ والعبارات . وكأنما الوجوه شاخصة , لقوة التعبير القرآني ودقة لمساته .

بذلك يتناسق المطلع والختام . . المطلع يقرر حقيقة الميزان . والختام يقرر نتيجة الميزان . وتستقل هذه السورة القصيرة بهذا الحشد من الحقائق الضخام , والمشاهد والمناظر , والإيقاعات والموحيات . وتفي كلها هذا الوفاء الجميل الدقيق . .

سورة التكوير

إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ (1) وَإِذَا النُّجُومُ انكَدَرَتْ (2) وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ (3)

سورة التكوير

تعريف بسورة التكوير

هذه السورة ذات مقطعين اثنين تعالج في كل مقطع منهما تقرير حقيقة ضخمة من حقائق العقيدة:

الأولى حقيقة القيامة , وما يصاحبها من انقلاب كوني هائل كامل , يشمل الشمس والنجوم والجبال والبحار , والأرض والسماء , والأنعام و الوحوش , كما يشمل بني الإنسان .

والثانية حقيقة الوحي , وما يتعلق بها من صفة الملك الذي يحمله , وصفة النبي الذي يتلقاه , ثم شأن القوم المخاطبين بهذا الوحي معه , ومع المشيئة الكبرى التى فطرتهم ونزلت لهم الوحي .

والإيقاع العام للسورة أشبه بحركة جائحة . تنطلق من عقالها . فتقلب كل شيء , وتنثر كل شيء ; وتهيجالساكن وتروع الآمن ; وتذهب بكل مألوف وتبدل كل معهود ; وتهز النفس البشرية هزا عنيفا طويلا , يخلعها من كل ما اعتادت أن تسكن إليه , وتتشبث به , فإذا هي في عاصفة الهول المدمر الجارف ريشة لا وزن لها ولا قرار . ولا ملاذ لها ولا ملجأ إلا في حمى الواحد القهار , الذي له وحده البقاء والدوام , وعنده وحده القرار والاطمئنان . .

ومن ثم فالسورة بإيقاعها العام وحده تخلع النفس من كل ما تطمئن إليه وتركن , لتلوذ بكنف الله , وتأوي إلى حماه , وتطلب عنده الأمن و الطمأنينة والقرار . .

وفي السورة - مع هذا - ثروة ضخمة من المشاهد الرائعة , سواء في هذا الكون الرائع الذي نراه , أو في ذلك اليوم الآخر الذي ينقلب فيه الكون بكل ما نعهده فيه من أوضاع . وثروة كذلك من التعبيرات الأنيقة ! المنتقاة لتلوين المشاهد والإيقاعات . وتلتقي هذه وتلك في حيز السورة الضيق , فتضغط على الحس وتنفذ إليه في قوة وإيحاء .

ولولا أن في التعبير ألفاظا وعبارات لم تعد مألوفة ولا واضحة للقارئ في هذا الزمان , لآثرت ترك السورة تؤدي بإيقاعها وصورها وظلالها وحقائقها ومشاهدها , مالا تؤديه أية ترجمة لها في لغة البشر ; وتتصل بذاتها إلى أوتار القلوب فتهزها من الأعماق .

ولكن لا بد مما ليس منه بد . وقد بعدنا في زماننا هذا عن مألوف لغة القرآن !

الدرس الأول:1 - 14 من مشاهد يوم القيامة

إذا الشمس كورت , وإذا النجوم انكدرت , وإذا الجبال سيرت , وإذا العشار عطلت , وإذا الوحوش حشرت , وإذا البحار سجرت , وإذا النفوس زوجت , وإذا الموءودة سئلت:بأي ذنب قتلت ؟ وإذا الصحف نشرت , وإذا السماء كشطت , وإذا الجحيم سعرت , وإذا الجنة أزلفت . . علمت نفس ما أحضرت . .

هذا هو مشهد الانقلاب التام لكل معهود , والثورة الشاملة لكل موجود . الانقلاب الذي يشمل الأجرام السماوية والأرضية , والوحوش النافرة والأنعام الأليفة , ونفوس البشر , وأوضاع الأمور . حيث ينكشف كل مستور , ويعلم كل مجهول ; وتقف النفس أمام ما أحضرت من الرصيد والزاد في موقف الفصل والحساب . وكل شيء من حولها عاصف ; وكل شيء من حولها مقلوب !

وهذه الأحداث الكونية الضخام تشير بجملتها إلى أن هذا الكون الذي نعهده . الكون المنسق الجميل , الموزون الحركة , المضبوط النسبة , المتين الصنعة , المبني بأيد وإحكام . أن هذا الكون سينفرط عقد نظامه , وتتناثر أجزاؤه , وتذهب عنه صفاته هذه التي يقوم بها ; وينتهي إلى أجله المقدر , حيث تنتهي الخلائق إلى صورة أخرى من الكون ومن الحياة ومن الحقائق غير ما عهدت نهائيا من هذا الكون المعهود .

وهذا ما تستهدف السورة إقراره في المشاعر والقلوب كي تنفصل من هذه المظاهر الزائلة - مهما بدت لها ثابتة - وتتصل بالحقيقة الباقية . . حقيقة الله الذي لا يحول ولا يزول , حين يحول كل شيء من الحوادث ويزول . ولكي تنطلق من إسار المعهود المألوف في هذا الكون المشهود .

إلى الحقيقة المطلقة التي لا تتقيد بزمان ولا مكان ولا رؤية ولا حس , و لا مظهر من المظاهر التي تقيدها في ظرف أو إطار محدود !

وهذا هو الشعور العام الذي ينسرب إلى النفس وهي تطالع مشاهد هذا ا لانقلاب المرهوب .

فأما حقيقة ما يجري لكل هذه الكائنات , فعلمها عند الله ; وهي حقيقة أكبر من أن ندركها الآن بمشاعرنا

وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ (4) وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ (5) وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ (6) وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ (7)

وتصوراتنا المقيدة بمألوف حسنا وتفكيرنا . . وأكبر ما نعهده من الانقلابات هو أن ترجف بنا الأرض في زلزال مدمر , أو يتفجر من باطنها بركان جائح , أو أن ينقض على الأرض شهاب صغير , أو صاعقة . . وأشد ما عرفته البشرية من طغيان الماء كان هو الطوفان . . كما أن أشد ما رصدته من الأحداث الكونية كان هو انفجارات جزئية في الشمس على بعد مئات الملايين من الأميال . .

وهذه كلها بالقياس إلى ذلك الانقلاب الشامل الهائل في يوم القيامة . . تسليات أطفال !!!

فإذا لم يكن بد أن نعرف شيئا عن حقيقة ما يجري للكائنات , فليس أمامنا إلا تقريبها في عبارات مما نألف في هذه الحياة !

إن تكوير الشمس قد يعني برودتها , وانطفاء شعلتها , وانكماش ألسنتها الملتهبة التي تمتد من جوانبها كلها الآن إلى ألوف الأميال حولها في الفضاء . كما يتبدى هذا من المراصد في وقت الكسوف . واستحالتها من الغازية المنطلقة بتأثير الحرارة الشديدة التي تبلغ 12000 درجة , و التي تحول جميع المواد التي تتكون منها الشمس إلى غازات منطلقة

ملتهبة . . استحالتها من هذه الحالة إلى حالة تجمد كقشرة الأرض , وتكور لا ألسنة له ولا امتداد !

قد يكون هذا , وقد يكون غيره . . أما كيف يقع والعوامل التي تسبب وقوعه فعلم ذلك عند الله .

وانكدار النجوم قد يكون معناه انتثارها من هذا النظام الذي يربطها , وانطفاء شعلتها وإظلام ضوئها . . والله أعلم ما هي النجوم التي يصيبها هذا الحادث . وهل هي طائفة من النجوم القريبة منا . . مجموعتنا الشمسية مثلا . أو مجرتنا هذه التي تبلغ مئات الملايين من النجوم . . أم هي النجوم جميعها والتي لا يعلم عددها ومواضعها إلا الله . فوراء ما نرى منها بمراصدنا مجرات وفضاءات لها لا نعرف لها عددا ولا نهاية . فهناك نجوم سيصيبها الانكدار كما يقرر هذا الخبر الصادق الذي لا يعلم حقيقته إلا الله . .

وتسيير الجبال قد يكون معناه نسفها وبسها وتذريتها في الهواء , كما جاء في سورة أخرى:(ويسألونك عن الجبال فقل ينسفها ربي نسفا). .(وبست الجبال بسا فكانت هباء منبثا). .(وسيرت الجبال فكانت سرابا). . فكلها تشير إلى حدث كهذا يصيب الجبال , فيذهب بثباتها ورسوخها وتماسكها واستقرارها , وقد يكون مبدأ ذلك الزلزال الذي يصيب الأرض , والذي يقول عنه القرآن:(إذا زلزلت الأرض زلزالها وأخرجت الأرض أثقالها . .)وكلها أحداث تقع في ذلك اليوم الطويل . .

أما قوله سبحانه:(وإذا العشار عطلت). . فالعشار هي النوق الحبالى في شهرها العاشر . وهي أجود وأثمن ما يملكه العربي . وهي في حالتها هذه تكون أغلى ما تكون عنده , لأنها مرجوة الولد واللبن , قريبة النفع . ففي هذا اليوم الذي تقع فيه هذه الأهوال تهمل هذه العشار وتعطل فلا تصبح لها قيمة , ولا يهتم بشأنها أحد . . والعربي المخاطب ابتداء بهذه ا لآية لا يهمل هذه العشار ولا ينفض يده منها إلا في حالة يراها أشد ما يلم به !

وَإِذَا الْمَوْؤُودَةُ سُئِلَتْ (8) بِأَيِّ ذَنبٍ قُتِلَتْ (9)

(وإذا الوحوش حشرت). . فهذه الوحوش النافرة قد هالها الرعب والهول فحشرت وانزوت تتجمع من الهول وهي الشاردة في الشعاب ; ونسيت مخاوفها بعضها من بعض , كما نسيت فرائسها , ومضت هائمة على وجوهها , لا تأوي إلى جحورها أو بيوتها كما هي عادتها , ولا تنطلق وراء فرائسها كما هو شأنها . فالهول والرعب لا يدعان لهذه الوحوش بقية من طباعها وخصائصها ! فكيف بالناس في ذلك الهول العصيب ?!

وأما تسجير البحار فقد يكون معناه ملؤها بالمياه . وإما أن تجيئها هذه المياه من فيضانات كالتي يقال إنها صاحبت مولد الأرض وبرودتها [التي تحدثنا عنها في سورة النازعات] وإما بالزلازل والبراكين التي تزيل الحواجز بين البحار فيتدفق بعضها في بعض . . وإما أن يكون معناه التهابها وانفجارها كما قال في موضع آخر:(وإذا البحار فجرت). . فتفجير عناصرها وانفصال الأيدروجين عن الأكسوجين فيها . أو تفجير ذراتها على نحو ما يقع في تفجير الذرة , وهو أشد هولا . أو على أي نحو آخر . وحين يقع هذا فإن نيرانا هائلة لا يتصور مداها تنطلق من البحار . فإن تفجير قدر محدود من الذرات في القنبلة الذرية أو الأ يدروجينية يحدث هذا الهول الذي عرفته الدنيا ; فإذا انفجرت ذرات البحار على هذا النحو أو نحو آخر , فإن الإدراك البشري يعجز عن تصور هذا الهول ; وتصور جهنم الهائلة التي تنطلق من هذه البحار الواسعة !

وتزويج النفوس يحتمل أن يكون هو جمع الأرواح بأجسادها بعد إعادة إنشائها . ويحتمل أن يكون ضم كل جماعة من الأرواح المتجانسة في مجموعة , كما قال في موضع آخر:(وكنتم أزواجا ثلاثة)أي صنوفا ثلاثة هم المقربون وأصحاب الميمنة وأصحاب المشأمة . أو في غير ذلك من التشكيلات المتجانسة !

وإذا الموءودة سئلت:بأي ذنب قتلت ? وقد كان من هوان النفس الإ نسانية في الجاهلية أن انتشرت عادة وأد البنات خوف العار أو خوف الفقر . وحكى القرآن عن هذه العادة ما يسجل هذه الشناعة على الجاهلية , التي جاء الإسلام ليرفع العرب من وهدتها , ويرفع البشرية كلها . فقال في موضع:(وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسودا وهو كظيم . يتوارى من القوم من سوء ما بشر به . أيمسكه على هون أم يدسه في التراب ? ألا ساء ما يحكمون !). . وقال في موضع: وإذا بشر أحدهم بما ضرب للرحمن مثلا [أي البنات] ظل وجهه مسودا وهو كظيم . أو من ينشأ في الحلية وهو في الخصام غير مبين ? . . وقال في موضع ثالث: (ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزقهم وإياكم).
.

وكان الوأد يتم في صورة قاسية . إذ كانت البنت تدفن حية ! وكانوا يفتنون في هذا بشتى الطرق . فمنهم من كان إذا ولدت له بنت تركها حتى تكون في السادسة من عمرها , ثم يقول لأمها:طيبيها وزينيها حتى أذهب بها إلى أحمائها ! وقد حفر لها بئرا في الصحراء , فيبلغ بها البئر , فيقول لها:انظري فيها . ثم يدفعها دفعا ويهيل التراب عليها ! وعند بعضهم كانت الوالدة إذا جاءها المخاض جلست فوق حفرة محفورة . فإذا كان المولود بنتا رمت بها فيها وردمتها . وإن كان ابنا قامت به معها ! وبعضهم كان إذا نوى ألا يئد الوليدة أمسكها مهينة إلى أن تقدر على الرعي , فيلبسها جبة من صوف أو شعر ويرسلها في البادية ترعى له إبله !

فأما الذين لا يئدون البنات ولا يرسلونهن للرعي , فكانت لهم وسائل أخرى لإذاقتها الخسف والبخس . . كانت إذا تزوجت ومات زوجها جاء وليه فألقى عليها ثوبه . ومعنى هذا أن يمنعها من الناس فلا يتزوجها أحد

وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ (10) وَإِذَا السَّمَاء كُشِطَتْ (11)

فإن أعجبته تزوجها , لاعبرة برغبتها هي ولا إرادتها ! وإن لم تعجبه حبسها حتى تموت فيرثها . أو أن تفتدي نفسها منه بمال في هذه الحالة أو تلك . . وكان بعضهم يطلق المرأة ويشترط عليها ألا تنكح غيره إلا من أراد . إلا أن تفتدي نفسها منه بما كان أعطاها . . وكان بعضهم إذا مات الرجل حبسوا زوجته على الصبي فيهم حتى يكبر فيأخذها . . وكان الرجل تكون اليتيمة في حجره يلي أمرها , فيحبسها عن الزواج , رجاء أن تموت امرأته فيتزوجها ! أو يزوجها من ابنه الصغير طمعا في مالها أو جمالها . .

فهذه كانت نظرة الجاهلية إلى المرأة على كل حال . حتى جاء الإسلام . يشنع بهذه العادات ويقبحها . وينهى عن الوأد ويغلظ فعلته . ويجعلها موضوعا من موضوعات الحساب يوم القيامة . يذكره في سياق هذا الهول الهائج المائج , كأنه حدث كوني من هذه الأحداث العظام . ويقول:إن الموءودة ستسأل عن وأدها . . فكيف بوائدها ؟!

وما كان يمكن أن تنبت كرامة المرأة من البيئة الجاهلية أبدا ; لولا أن تتنزل بها شريعة الله ونهجه في كرامة البشرية كلها , وفي تكريم الإنسان:الذكر والأنثى ; وفي رفعه إلى المكان اللائق بكائن يحمل نفخة من روح الله العلي الأعلى . فمن هذا المصدر انبثقت كرامة المرأة التي جاء بها الإسلام , لا من أي عامل من عوامل البيئة .

وحين تحقق ميلاد الإنسان الجديد باستمداد القيم التي يتعامل بها من السماء لا من الأرض , تحققت للمرأة الكرامة , فلم يعد لضعفها وتكاليف حياتها المادية على أهلها وزن في تقويمها وتقديرها . لأن هذه ليست من قيم السماء ولا وزن لها في ميزانها . إنما الوزن للروح الإنساني الكريم المتصل بالله . وفي هذا يتساوى الذكر والأنثى .

وحين تعد الدلائل على أن هذا الدين من عند الله , وأن الذي جاء به

رسول أوحي إليه . . تعد هذه النقلة في مكانة المرأة إحدى هذه الدلائل التي لا تخطئ . حيث لم تكن توجد في البيئة أمارة واحدة ينتظر أن تنتهي بالمرأة إلى هذه الكرامة ; ولا دافع واحد من دوافع البيئة وأحوالها الاقتصادية بصفة خاصة لولا أن نزل النهج الإلهي ليصنع هذا ابتداء بدافع غير دوافع الأرض كلها , وغير دوافع البيئة الجاهلية بصفة خاصة . فأنشأ وضع المرأة الجديد إنشاء , يتعلق بقيمة سماوية محضة وبميزان سماوي محض كذلك !

(وإذا الصحف نشرت)صحف الأعمال . ونشرها يفيد كشفها ومعرفتها , ف لا تعود خافية ولا غامضة . وهذه العلنية أشد على النفوس وأنكى . فكم من سوأة مستورة يخجل صاحبها ذاته من ذكراها , ويرجف ويذوب من كشفها ! ثم إذا هي جميعها في ذلك اليوم منشورة مشهودة !

إن هذا النشر والكشف لون من ألوان الهول في ذلك اليوم ; كما أنه سمة من سمات الانقلاب حيث يكشف المخبوء , ويظهر المستور , ويفتضح المكنون في الصدور ?

وهذا التكشف في خفايا الصدور يقابله في الكون مشهد مثله:(وإذا السماء كشطت). وأول ما يتبادر إلى الذهن من كلمة السماء هو هذا الغطاء المرفوع فوق الرؤوس . وكشطها إزالتها . . فأما كيف يقع هذا وكيف يكون فلا سبيل إلى الجزم بشيء . ولكنا نتصور أن ينظر الإنسان فلا يرى هذه القبة فوقه نتيجة لأي سبب يغير هذه الأوضاع الكونية , التي توجد بها هذه الظاهرة . وهذا يكفي . .

وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ (12) وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ (13) عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا أَحْضَرَتْ (14) فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ (15) الْجَوَارِ الْكُنَّسِ (16) وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ (17)

ثم تجيء الخطوة الأخيرة في مشاهد ذلك اليوم الهائل المرهوب:

(وإذا الجحيم سعرت . وإذا الجنة أزلفت). .

حيث تتوقد الجحيم وتتسعر , ويزداد لهيبها ووهجها وحرارتها . . أما أين هي ؟ وكيف تتسعر وتتوقد ؟ وبأي شيء تتوقد ؟ فليس لدينا من ذلك إلا قوله تعالى: (وقودها الناس والحجارة). وذلك بعد إلقاء أهلها فيها . أما قبل ذلك فالله أعلم بها وبوقودها !

وحيث تقرب الجنة وتظهر لروادها الموعودين بها , وتبدو لهم سهولة مدخلها , ويسر ولوجها . فهي مزلفة مقربة مهيأة . واللفظ كأنما يزحلقها أو يزحلق الأقدام بيسر إليها !!

عندما تقع هذه الأحداث الهائلة كلها , في كيان الكون , وفي أحوال الأ حياء والأشياء . عندئذ لا يبقى لدى النفوس شك في حقيقة ما عملت , وما تزودت به لهذا اليوم , وما حملت معها للعرض , وما أحضرت للحساب:

(علمت نفس ما أحضرت). .

كل نفس تعلم , في هذا اليوم الهائل ما معها وما لها وما عليها . . تعلم وهذا الهول يحيط بها ويغمرها . . تعلم وهي لا تملك أن تغير شيئا مما أحضرت , ولا أن تزيد عليه ولا أن تنقص منه . . تعلم وقد انفصلت عن كل ما هو مألوف لها , معهود في حياتها أو تصورها . وقد انقطعت عن ع المها وانقطع عنها عالمها . وقد تغير كل شيء وتبدل كل شيء , ولم يبقى إلا وجه الله الكريم , الذي لا يتحول ولا يتبدل . . فما أولى أن تتجه النفوس إلى وجه الله الكريم , فتجده - سبحانه - عندما يتحول الكون كله ويتبدل !

وبهذا الإيقاع ينتهي المقطع الأول وقد امتلأ الحس وفاض بمشاهد اليوم الذي يتم فيه هذا الانقلاب .

الدرس الثاني:15 - 18 القسم ببعض المظاهر الكونية

ثم يجيء المقطع الثاني في السورة يبدأ بالتلويح بالقسم بمشاهد كونية جميلة , تختار لها تعبيرات أنيقة . . القسم على طبيعة الوحي , وصفة الرسول الذي يحمله , والرسول الذي يتلقاه , وموقف الناس حياله وفق مشيئة الله:

فلا أقسم بالخنس , الجوار الكنس , والليل إذا عسعس , والصبح إذا تنفس . إنه لقول رسول كريم , ذي قوة عند ذي العرش مكين , مطاع ثم أمين . وما صاحبكم بمجنون . ولقد رآه بالأفق المبين , وما هو على الغيب بضنين . وما هو بقول شيطان رجيم . فأين تذهبون ? إن هو إلا ذكر للعالمين . لمن شاء منكم أن يستقيم . وما تشاءون إلا أن يشاء الله رب العالمين . .

والخنس الجوار الكنس . . هي الكواكب التي تخنس أي ترجع في دورتها الفلكية وتجري وتختفي . والتعبير يخلع عليها حياة رشيقة كحياة الظباء . وهي تجري وتختبئ في كناسها وترجع من ناحية أخرى . فهناك حياة تنبض من خلال التعبير الرشيق الأنيق عن هذه الكواكب , وهناك إيحاء شعوري بالجمال في حركتها . في اختفائها وفي ظهورها . في تواريها وفي سفورها . في جريها وفي عودتها . يقابله إيحاء بالجمال في شكل اللفظ وجرسه .

(والليل إذا عسعس). . أي إذا أظلم . ولكن اللفظ فيه تلك الإيحاءات كذلك . فلفظ عسعس مؤلف من مقطعين:عس . عس . وهو يوحي بجرسه بحياة في هذا الليل , وهو يعس في الظلام بيده أو برجله لا يرى !

وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ (18) إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ (19) ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ (20) مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ (21) وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ (22) وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ (23) وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ (24)

وهو إيحاء عجيب واختيار للتعبير رائع .

ومثله:(والصبح إذا تنفس). . بل هو أظهر حيوية , وأشد إيحاء . و الصبح حي يتنفس . أنفاسه النور والحياة والحركة التي تدب في كل حي . وأكاد أجزم أن اللغة العربية بكل مأثوراتها التعبيرية لا تحتوي نظيرا لهذا التعبير عن الصبح . ورؤية الفجر تكاد تشعر القلب المتفتح أنه بالفعل يتنفس ! ثم يجيء هذا التعبير فيصور هذه الحقيقة التي يشعر بها القلب المتفتح .

وكل متذوق لجمال التعبير والتصوير يدرك أن قوله تعالى:(فلا أقسم بـ الخنس الجوار الكنس , والليل إذا عسعس , والصبح إذا تنفس). . ثروة شعورية وتعبيرية . فوق ما يشير إليه من حقائق كونية . ثروة جميلة بديعة رشيقة ; تضاف إلى رصيد البشرية من المشاعر , وهي تستقبل هذه الظواهر الكونية بالحس الشاعر .

الدرس الثالث:19 - 21 من صفات جبريل عليه السلام

يلوح بهذه المشاعر الكونية التي يخلع عليها الحياة ; ويصل روح الإ نسان بأرواحها من خلال التعبير الحي الجميل عنها ; لتسكب في روح الإ نسان أسرارها , وتشي لها بالقدرة التي وراءها , وتحدثها بصدق الحقيقة الإيمانية التي تدعى إليها . . ثم يذكر هذه الحقيقة في أنسب الحالات لذكرها واستقبالها:

(إنه لقول رسول كريم . ذي قوة عند ذي العرش مكين . مطاع ثم أمين).
.

إن هذا القرآن , وهذا الوصف لليوم الآخر . . لقول رسول كريم . . وهو جبريل الذي حمل هذا القول وأبلغه . . فصار قوله باعتبار تبليغه .

ويذكر صفة هذا الرسول , الذي اختير لحمل هذا القول وإبلاغه . .(كريم)عند ربه . فربه هو الذي يقول . . (ذي قوة). . مما يوحي بأن

هذا القول يحتاج في حمله إلى قوة . (عند ذي العرش مكين). . في مقامه ومكانته . . وعند من ? عند ذي العرش العلي الأعلى . (مطاع ثم)هناك في الملأ الأعلى .(أمين). . على ما يحمل وما يبلغ . .

وهذه الصفات في مجموعها توحي بكرامة هذا القول وضخامته وسموه كذلك وارتفاعه . كما توحي بعناية الله سبحانه بالإنسان , حتى ليختار هذا الرسول صاحب هذه الصفة ليحمل الرسالة إليه , ويبلغ الوحي إلى النبي المختار منه . . وهي عناية تخجل هذا الكائن , الذي لا يساوي في ملك الله شيئا , لولا أن الله - سبحانه - يتفضل عليه فيكرمه هذه الكرامة !

الدرس الرابع:22 - 27 رد اتهامات الكفار للرسول وإثبات حقيقة الوحي

فهذه صفة الرسول الذي حمل القول وأداه , فأما الرسول الذي حمله إليكم فهو(صاحبكم). . عرفتموه حق المعرفة عمرا طويلا . فما لكم حين جاءكم بالحق تقولون فيه ما تقولون . وتذهبون في أمره المذاهب , وهو(صاحبكم)الذي لا تجهلون . وهو الأمين على الغيب الذي يحدثكم عنه عن يقين:

(وما صاحبكم بمجنون . ولقد رآه بالأفق المبين . وما هو على الغيب بضنين . وما هو بقول شيطان رجيم . فأين تذهبون ? إن هو إلا ذكر للعالمين). .

ولقد قالوا عن النبي الكريم الذي يعرفونه حق المعرفة , ويعرفون رجاحة عقله , وصدقه وأمانته وتثبته , قالوا عنه:إنه مجنون . وإن شيطانا يتنزل عليه بما يقول . قال بعضهم هذا كيدا له ولدعوته كما وردت بذلك الأخبار . وقاله بعضهم عجبا ودهشة من هذا القول الذي لا يقوله البشر فيما يألفون ويعهدون . وتمشيا مع ظنهم

وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ (25) فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ (26) إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ (27) لِمَن شَاء مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ (28) وَمَا تَشَاؤُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (29)

أن لكل شاعر شيطانا يأتيه بالقول الفريد . وأن لكل كاهن شيطانا يأتيه بـ الغيب البعيد . وأن الشيطان يمس بعض الناس فينطق على لسانهم بـ القول الغريب ! وتركوا التعليل الوحيد الصادق , وهو أنه وحي وتنزيل من رب العالمين .

فجاء القرآن يحدثهم في هذا المقطع من السورة عن جمال الكون البديع , وحيوية مشاهده الجميلة . ليوحي إلى قلوبهم بأن القرآن صادر عن تلك القدرة المبدعة , التي أنشأت ذلك الجمال . على غير مثال . وليحدثهم بصفة الرسول الذي حمله , والرسول الذي بلغه . وهو صاحبهم الذي عرفوه . غير مجنون . والذي رأى الرسول الكريم - جبريل - حق الرؤية , بالأفق المبين الواضح الذي تتم فيه الرؤية عن يقين . وأنه [ص] لمؤتمن على الغيب , لا تظن به الظنون في خبره الذي يرويه عنه , فما عرفوا عنه إلا الصدق واليقين .(وما هو بقول شيطان رجيم)فـ الشياطين لا توحي بهذا النهج القويم . ويسألهم مستنكرا:(فأين تذهبون ?). أين تذهبون في حكمكم وقولكم ? أو أين تذهبون منصرفين عن الحق وهو يواجهكم أينما ذهبتم !

إن هو إلا ذكر للعالمين ذكر يذكرهم بحقيقة وجودهم , وحقيقة نشأتهم , وحقيقة الكون من حولهم . .(للعالمين). فهو دعوة عالمية من أول مرحلة . والدعوة في مكة محاصرة مطاردة . كما تشهد مثل هذه النصوص المكية . .

الدرس الخامس:28 القرآن هدى لمن يريد الإستقامة والهداية

وأمام هذا البيان الموحي الدقيق يذكرهم أن طريق الهداية ميسر لمن يريد . وأنهم إذن مسؤولون عن أنفسهم , وقد منحهم الله هذا التيسير:

(لمن شاء منكم أن يستقيم). .

أن يستقيم على هدى الله , في الطريق إليه , بعد هذا البيان , الذي يكشف كل شبهة , وينفي كل ريبة , ويسقط كل عذر . ويوحي إلى القلب السليم بالطريق المستقيم . فمن لم يستقم فهو مسؤول عن انحرافه . فقد كان أمامه أن يستقيم .

والواقع أن دلائل الهدى وموحيات الإيمان في الأنفس والآفاق من القوة والعمق والثقل بحيث يصعب على القلب التفلت من ضغطها إلا بجهد متعمد . وبخاصة حين يسمع التوجيه إليها بأسلوب القرآن الموحي الموقظ . وما ينحرف عن طريق الله - بعد ذلك - إلا من يريد أن ينحرف . في غير عذر ولا مبرر !

الدرس السادس:29 الهداية بيد الله يهبها لمن يطلبها

فإذا سجل عليهم إمكان الهدى , ويسر الاستقامة , عاد لتقرير الحقيقة الكبرى وراء مشيئتهم . حقيقة أن المشيئة الفاعلة من وراء كل شيء هي مشيئة الله سبحانه . .

(وما تشاؤون إلا أن يشاء الله رب العالمين). .

وذلك كي لا يفهموا أن مشيئتهم منفصلة عن المشيئة الكبرى , التي يرجع إليها كل أمر . فإعطاؤهم حرية الاختيار , ويسر الاهتداء , إنما يرجع إلى تلك المشيئة . المحيطة بكل شيء كان أو يكون !

وهذه النصوص التي يعقب بها القرآن الكريم عند ذكر مشيئة الخلائق , يراد بها تصحيح التصور الإيماني وشموله للحقيقة الكبيرة:حقيقة أن كل شيء في هذا الوجود مرده إلى مشيئة الله . وأن ما يأذن به للناس من قدرة على الاختيار هو طرف من مشيئته ككل تقدير آخر وتدبير . شأنه شأن ما يأذن به للملائكة من الطاعةالمطلقة لما يؤمرون , والقدرة الكاملة على أداء ما يؤمرون . فهو طرف من مشيئته كإعطاء الناس القدرة على

اختيار أحد الطريقين بعد التعليم والبيان .

ولا بد من إقرار هذه الحقيقة في تصور المؤمنين , ليدركوا ما هو الحق لذاته . وليلتجئوا إلى المشيئة الكبرى يطلبون عندها العون والتوفيق , ويرتبطون بها في كل ما يأخذون وما يدعون في الطريق !

سورة الانفطار

إِذَا السَّمَاء انفَطَرَتْ (1) وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انتَثَرَتْ (2) وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ (3) وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ (4) عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ (5) يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ (6) الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ (7) فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاء رَكَّبَكَ (8)

سورة الانفطار

تعريف بسورة الإنفطار

تتحدث هذه السورة القصيرة عن الانقلاب الكوني الذي تتحدث عنه سورة التكوير . ولكنها تتخذ لها شخصية أخرى , وسمتا خاصا بها , وتتجه إلى مجالات خاصة بها تطوف بالقلب البشري فيها ; وإلى لمسات وإيقاعات من لون جديد . هادئ عميق . لمسات كأنها عتاب . وإن كان في طياته وعيد !

ومن ثم فإنها تختصر في مشاهد الانقلاب , فلا تكون هي طابع السورة الغالب - كما هو الشأن في سورة التكوير - لأن جو العتاب أهدأ , وإيقاع العتاب أبطأ . . وكذلك إيقاع السورة الموسيقي . فهو يحمل هذا الطابع . فيتم التناسق في شخصية السورة والتوافق !

إنها تتحدث في المقطع الأول عن انفطار السماء وانتثار الكواكب ,

وتفجير البحار وبعثرة القبور كحالات مصاحبة لعلم كل نفس بما قدمت وأخرت , في ذلك اليوم الخطير . .

وفي المقطع الثاني تبدأ لمسة العتاب المبطنة بالوعيد , لهذا الإنسان الذي يتلقى من ربه فيوض النعمة في ذاته وخلقته , ولكنه لا يعرف للنعمة حقها , ولا يعرف لربه قدره , ولا يشكر على الفضل والنعمة و الكرامة:(يا أيها الإنسان ما غرك بربك الكريم الذي خلقك فسواك فعدلك ? في أي صورة ما شاء ركبك). .

كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ (9) وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ (10) كِرَاماً كَاتِبِينَ (11) يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ (12) إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ (13) وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ (14) يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ الدِّينِ (15) وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ (16)

وفي المقطع الثالث يقرر علة هذا الجحود والإنكار . فهي التكذيب بـ الدين - أي بالحساب - وعن هذا التكذيب ينشأ كل سوء وكل جحود . ومن ثم يؤكد هذا الحساب توكيدا , ويؤكد عاقبته وجزاءه المحتوم:(كلا . بل تكذبون بالدين . وإن عليكم لحافظين كراما كاتبين . يعلمون ما تفعلون . إن الأبرار لفي نعيم . وإن الفجار لفي جحيم . يصلونها يوم الدين . وما هم عنها بغائبين). .

فأما المقطع الأخير فيصور ضخامة يوم الحساب وهوله , وتجرد النفوس من كل حول فيه , وتفرد الله سبحانه بأمره الجليل:(وما أدراك ما يوم الدين ? ثم ما أدراك ما يوم الدين ? يوم لا تملك نفس لنفس شيئا , والأمر يومئذ لله). .

فالسورة في مجموعها حلقة في سلسلة الإيقاعات والطرقات التي يتولاها هذا الجزء كله بشتى الطرق والأساليب .

الدرس الأول:1 - 5 بعض مشاهد القيامة في الطبيعة

(إذا السماء انفطرت , وإذا الكواكب انتثرت , وإذا البحار فجرت , وإذا القبور بعثرت . علمت نفس ما قدمت وأخرت). .

وقد تحدثنا في السورة الماضية عن الإيحاء الذي يتسرب في الحس من رؤية هذا الكون تتناوله يد القدرة بالتغيير , وتهزه هزة الانقلاب المثير , فلا يبقى شيء على حاله في هذا الكون الكبير . وقلنا:إن هذا الإيحاء يتجه إلى خلع النفس من كل ما تركن إليه في هذا الوجود , إلا الله سبحانه خالق هذا الوجود , الباقي بعد أن يفنى كل موجود . والاتجاه بِ القلب إلى الحقيقة الوحيدة الثابتة الدائمة التي لا تحول ولا تزول , ليجد عندها الأمان والاستقرار , في مواجهة الانقلاب والاضطراب و الزلزلة والانهيار , في كل ما كان يعهده ثابتا مستقرا منتظما انتظاما يوحي بالخلود ! ولا خلود إلا للخالق المعبود !

ويذكر هنا من مظاهر الانقلاب انفطار السماء . . أي انشقاقها . وقد ذكر انشقاق السماء في مواضع أخرى:قال في سورة الرحمن:(فإذا انشقت السماء فكانت وردة كالدهان). . وقال في سورة الحاقة:(وانشقت السماء . فهي يومئذ واهية). . وقال في سورة الانشقاق:(إذا السماء انشقت . . .). . فانشقاق السماء حقيقة من حقائق ذلك اليوم العصيب . أما المقصود بانشقاق السماء على وجه التحديد فيصعب القول به , كما يصعب القول عن هيئة الانشقاق التي تكون . . وكل ما يستقر في الحس هو مشهد التغير العنيف في هيئة الكون المنظور , وانتهاء نظامه هذا المعهود , وانفراط عقده , الذي يمسك به في هذا النظام الدقيق . .

ويشارك في تكوين هذا المشهد ما يذكر عن انتثار الكواكب . بعد تماسكها هذا الذي تجري معه في أفلاكها بسرعات هائلة مرعبة , وهي ممسكة في داخل مداراتها لا تتعداها , ولا تهيم على وجهها في هذا الفضاء الذي لا يعلم أحد له نهاية . ولو انتثرت - كما سيقع لها يوم ينتهي أجلها - وأفلتت من ذلك الرباط الوثيق - غير المنظور - الذي يشدها

ويحفظها , لذهبت في الفضاء بددا , كما تذهب الذرة التي تنفلت من عقالها !

وتفجير البحار يحتمل أن يكون هو امتلاؤها وغمرها لليابسة وطغيانها على الأنهار . كما يحتمل أن يكون هو تفجير مائها إلى عنصريه:الأكسوجين والهيدروجين ; فتتحول مياهها إلى هذين الغازين كما كانت قبل أن يأذن الله بتجمعهما وتكوين البحار منهما . كذلك يحتمل أن يكون هو تفجير ذرات هذين الغازين - كما يقع في تفجير القنابل الذرية والهيدروجينية اليوم . . فيكون هذا التفجير من الضخامة والهول بحيث تعتبرهذه القنابل الحاضرة المروعة لعب أطفال ساذجة ! . . أو أن يكون بهيئة أخرى غير ما يعرف البشر على كل حال . . إنما هو الهول الذي لم تعهده أعصاب البشر في حال من الأحوال !

وبعثرة القبور . . إما أن تكون بسبب من هذه الأحداث السابقة . وإما أن تكون حادثا بذاته يقع في ذلك اليوم الطويل , الكثير المشاهد والأحداث . فتخرج منها الأجساد التي أعاد الله إنشاءها - كما أنشأها أول مرة - لتتلقى حسابها وجزاءها . .

يؤيد هذا ويتناسق معه قوله بعد عرض هذه المشاهد والأحداث:(علمت نفس ما قدمت وأخرت) . أي ما فعلته أولا وما فعلته أخيرا . أو ما فعلته في الدنيا , وما تركته وراءها من آثار فعلها . أو ما استمتعت به في الدنيا وحدها , وما ادخرته للآخرة بعدها .

على أية حال سيكون علم كل نفس بهذا مصاحبا لتلك الأهوال العظام . وواحدا منها مروعا لها كترويع هذه المشاهد والأحداث كلها !

والتعبير القرآني الفريد يقول: (علمت نفس) . وهو يفيد من جهة المعنى:كل نفس . ولكنه أرشق وأوقع . . كما أن الأمر لا يقف عند حدود علمها بما قدمت وأخرت . فلهذا العلم وقعه العنيف الذي يشبه عنف تلك المشاهد الكونية المتقلبة . والتعبير يلقي هذا الظل دون أن يذكره نصا .

فإذا هو أرشق كذلك وأوقع !

الدرس الثاني:6 - 8 عتاب الإنسان والجماد في خلق الله له

وبعد هذا المطلع الموقظ المنبه للحواس والمشاعر والعقول والضمائر , يلتفت إلى واقع الإنسان الحاضر , فإذا هو غافل لاه سادر . . هنا يلمس قلبه لمسة فيها عتاب رضي , وفيها وعيد خفي , وفيها تذكير بنعمة الله الأولى عليه:نعمة خلقه في هذه الصورة السوية على حين يملك ربه أن يركبه في أي صورة تتجه إليها مشيئته . ولكنه اختار له هذه الصورة السوية المعتدلة الجميلة . . وهو لا يشكر ولا يقدر:

(يا أيها الإنسان ما غرك بربك الكريم , الذي خلقك فسواك فعدلك , في أي صورة ما شاء ركبك). .

إن هذا الخطاب: (يا أيها الإنسان)ينادي في الإنسان أكرم ما في كيانه , وهو "إنسانيته" التي بها تميز عن سائر الأحياء ; وارتفع إلى أكرم مكان ; وتجلى فيها إكرام الله له , وكرمه الفائض عليه .

ثم يعقبه ذلك العتاب الجميل الجليل: (ما غرك بربك الكريم ?)يا أيها الإ نسان الذي تكرم عليك ربك , راعيك ومربيك , بإنسانيتك الكريمة الواعية الرفيعة . . يا أيها الإنسان ما الذي غرك بربك , فجعلك تقصر في حقه , وتتهاون في أمره , ويسوء أدبك في جانبه ? وهو ربك الكريم , الذي أغدق عليك من كرمه وفضله وبره ; ومن هذا الإغداق إنسانيتك التي تميزك عن سائر خلقه , والتي تميز بها وتعقل وتدرك ما ينبغي وما لا ينبغي في جانبه ?

ثم يفصل شيئا من هذا الكرم الإلهي , الذي أجمله في النداء الموحي العميق الدلالة , المشتمل على الكثير من الإشارات المضمرة في التعبير . يفصل شيئا من هذا الكرم الإلهي المغدق على الإنسان المتمثل في إنسانيته التي ناداه بها في صدر الآية . فيشير في هذا التفصيل إلى خلقه وتسويته وتعديله ; وهو القادر على أن يركبه في أي صورة وفق

مشيئته . فاختياره هذه الصورة له منبثق من كرمه وحده , ومن فضله وحده , ومن فيضه المغدق على هذا الإنسان الذي لا يشكر ولا يقدر . بل يغتر ويسدر !

(يا أيها الإنسان ما غرك بربك الكريم الذي خلقك فسواك فعدلك ?). .

إنه خطاب يهز كل ذرة في كيان الإنسان حين تستيقظ إنسانيته , ويبلغ من القلب شغافه وأعماقه , وربه الكريم يعاتبه هذا العتاب الجليل , ويذكره هذا الجميل , بينما هو سادر في التقصير , سيء الأدب في حق مولاه الذي خلقه فسواه فعدله . .

إن خلق الإنسان على هذه الصورة الجميلة السوية المعتدلة , الكاملة الشكل والوظيفة , أمر يستحق التدبر الطويل , والشكر العميق , والأدب الجم , والحب لربه الكريم , الذي أكرمه بهذه الخلقة , تفضلا منه ورعاية ومنة . فقد كان قادرا أن يركبه في أية صورة أخرى يشاؤها . فاختار له هذه الصورة السوية المعتدلة الجميلة .

وإن الإنسان لمخلوق جميل التكوين , سوي الخلقة , معتدل التصميم , وإن عجائب الإبداع في خلقه لأضخم من إدراكه هو , وأعجب من كل ما يراه حوله .

وإن الجمال والسواء والاعتدال لتبدو في تكوينه الجسدي , وفي تكوينه العقلي , وفي تكوينه الروحي سواء , وهي تتناسق في كيانه في جمال واستواء !

وهناك مؤلفات كاملة في وصف كمال التكوين الإنساني العضوي ودقته وإحكامه وليس هنا مجال التوسع الكامل في عرض عجائب هذا التكوين . ولكنا نكتفي بالإشارة إلى بعضها . .

هذه الأجهزة العامة لتكوين الإنسان الجسدي . . الجهاز العظمي . و الجهاز العضلي . والجهاز الجلدي . والجهاز الهضمي . والجهاز الدموي . و

الجهاز التنفسي . والجهاز التناسلي . والجهاز اللمفاوي . والجهاز العصبي . والجهاز البولي . وأجهزة الذوق والشم والسمع والبصر . . كل منها عجيبة لا تقاس إليها كل العجائب الصناعية التي يقف الإنسان مدهوشا أمامها . وينسى عجائب ذاته وهي أضخم وأعمق وأدق بما لا يقاس !

"تقول مجلة العلوم الإنجليزية:إن يد الإنسان في مقدمة العجائب الطبيعية الفذة ; وإنه من الصعب جدا - بل من المستحيل - أن تبتكر آلة تضارع اليد البشرية من حيث البساطة والقدرة وسرعة التكيف . فحينما تريد قراءة كتاب تتناوله بيدك , ثم تثبته في الوضع الملائم للقراءة . وهذه اليد هي التي تصحح وضعه تلقائيا . وحينما تقلب إحدى صفحاته تضع أصابعك تحت الورقة , وتضغط عليها بالدرجة التي تقلبها بها , ثم يزول الضغط بقلب الورقة . واليد تمسك القلم وتكتب به . وتستعمل كافة الآلات التي تلزم الإنسان من ملعقة , إلى سكين , إلى آلة الكتابة . وتفتح النوافذ وتغلقها , وتحمل كل ما يريده الإنسان . . واليدان تشتملا ن على سبع وعشرين عظمة وتسع عشرة مجموعة من العضلات لكل منهما " .

و"إن جزءا من أذن الإنسان [الأذن الوسطى] هو سلسلة من نحو أربعة آ لاف حنية [قوس] دقيقة معقدة , متدرجة بنظام بالغ , في الحجم و الشكل , ويمكن القول بأن هذه الحنيات تشبه آلة موسيقية . ويبدو أنها معدة بحيث تلتقط وتنقل إلى المخ , بشكل ما , كل وقع صوت أو ضجة , من قصف الرعد إلى حفيف الشجر . فضلا عن المزيج الرائع من أنغام كل أداة موسيقية في الأركسترا ووحدتها المنسجمة " . .

"ومركز حاسة الإبصار في العين التي تحتوي على مائة وثلاثين مليونا من مستقبلات الضوء وهي أطراف الأعصاب , ويقوم بحمايتها الجفن ذو الأهداب الذي يقيها ليلا ونهارا , والذي تعتبر حركته لاإرادية , الذي يمنع عنها الأتربة والذرات والأجسام الغريبة , كما يكسر من حدة الشمس بما

تلقي الأهداب علىالعين من ظلال . وحركة الجفن علاوة على هذه الوقاية تمنع جفاف العين , أما السائل المحيط بالعين والذي يعرف باسم الدموع , فهو أقوى مطهر . . . " .

"وجهاز الذوق في الإنسان هو اللسان , ويرجع عمله إلى مجموعات من الخلايا الذوقية القائمة في حلمات غشائه المخاطي . ولتلك الحلمات أشكال مختلفة , فمنها الخيطية والفطرية والعدسية ويغذي الحلمات فروع من العصب اللساني البلعومي , والعصب الذوقي . وتتأثر عند الأ كل الأعصاب الذوقية , فينتقل الأثر إلى المخ . وهذا الجهاز موجود في أول الفم , حتى يمكن للإنسان أن يلفظ ما يحس أنه ضار به , وبه يحس المرء المرارة والحلاوة , والبرودة والسخونة , والحامض والملح , واللا ذع ونحوه . ويحتوي اللسان على تسعة آلاف من نتوءات الذوق الدقيقة , يتصل كل نتوء منها بالمخ بأكثر من عصب . فكم عدد الأ عصاب ؟ وما حجمها ؟ وكيف تعمل منفردة , وتتجمع بالإحساس عند المخ" ؟ .

"ويتكون الجهاز العصبي الذي يسيطر على الجسم سيطرة تامة من شعيرات دقيقة تمر في كافة أنحاء الجسم . وتتصل بغيرها أكبر منها . وهذه بالجهاز المركزي العصبي . فإذا ما تأثر جزء من أجزاء الجسم , ولو كان ذلك لتغير بسيط في درجة الحرارة بالجو المحيط , نقلت الشعيرات العصبية هذا الإحساس إلى المراكز المنتشرة في الجسم . وهذه توصل ا لإحساس إلى المخ حيث يمكنه أن يتصرف . وتبلغ سرعة سريان الإ شارات والتنبيهات في الأعصاب مائة متر في الثانية " .

"ونحن إذا نظرنا إلى الهضم على أنه عملية في معمل كيماوي , وإلى الطعام الذي نأكله على أنه مواد غفل , فإننا ندرك توا أنه عملية عجيبة . إذ تهضم تقريبا كل شيء يؤكل ما عدا المعدة نفسها !

"فأولا نضع في هذا المعمل أنواعا من الطعام كمادة غفل دون أي مراعاة للمعمل نفسه , أو تفكير في كيفية معالجة كيمياء الهضم له ! فنحن نأكل

شرائح اللحم والكرنب والحنطة والسمك المقلي , وندفعها بأي قدر من الماء . .

"ومن بين هذا الخليط تختار المعدة تلك الأشياء التي هي ذات فائدة , وذلك بتحطيم كل صنف من الطعام إلى أجزائه الكيماوية دون مراعاة للفضلات , وتعيد تكوين الباقي إلى بروتينات جديدة , تصبح غذاء لمختلف الخلايا . وتختار أداة الهضم الجير والكبريت واليود والحديد وكل المواد الأخرى الضرورية , وتعني بعدم ضياع الأجزاء الجوهرية , وبإمكان إنتاج الهرمونات , وبأن تكون جميع الحاجات الحيوية للحياة حاضرة في مقادير منتظمة , ومستعدة لمواجهة كل ضرورة . وهي تخزن الدهن والمواد الاحتياطية الأخرى , للقاء كل حالة طارئة , مثل الجوع , وتفعل ذلك كله بالرغم من تفكير الإنسان أو تعليله . إننا نصب هذه الأنواع التي لا تحصى من المواد في هذا المعمل الكيماوي , بصرف النظر كلية تقريبا عما نتناوله , معتمدين على ما نحسبه عملية ذاتية [أوتوماتيكية] لإبقائنا على الحياة . وحين تتحلل هذه الأطعمة وتجهز من جديد , تقدم باستمرار إلى كل خلية من بلايين الخلايا , التي تبلغ من العدد أكثر من عدد الجنس البشري كله على وجه الأرض . ويجب أن يكون التوريد إلى كل خلية فردية مستمرا , وألا يورد سوى تلك المواد التي تحتاج إليها تلك الخلية المعينة لتحويلها إلى عظام وأظافر ولحم وشعر وعينين وأسنان , كما تتلقاها الخلية المختصة !

فها هنا إذن معمل كيماوي ينتج من المواد أكثر مما ينتجه أي معمل ابتكره ذكاء الإنسان ! وها هنا نظام للتوريد أعظم من أي نظام للنقل أو التوزيع عرفه العالم ! ويتم كل شيء فيه بمنتهى النظام ! .

وكل جهاز من أجهزة الإنسان الأخرى يقال فيه الشيء الكثير . ولكن هذه الأجهزة - على إعجازها الواضح - قد يشاركه فيها الحيوان في صورة من الصور . إنما تبقى له هو خصائصه العقلية والروحية الفريدة التي هي موضع الامتنان في هذه السورة . بصفة خاصة:(الذي خلقك فسواك

فعدلك). بعد ندائه: (يا أيها الإنسان). .

هذا الإدراك العقلي الخاص , الذي لا ندري كنهه . إذ أن العقل هو أداتنا لإ دراك ما ندرك . والعقل لا يدرك ذاته ولا يدرك كيف يدرك !!

هذه المدركات . . نفرض أنها كلها تصل إلى المخ عن طريق الجهاز العصبي الدقيق . ولكن أين يختزنها ! إنه لو كان هذا المخ شريطا مسجلا لاحتاج الإنسان في خلال الستين عاما التي هي متوسط عمره إلى آلاف الملايين من الأمتار ليسجل عليها هذا الحشد من الصور والكلمات و المعاني والمشاعر والتأثرات , لكي يذكرها بعد ذلك , كما يذكرها فعلا بعد عشرات السنين !

ثم كيف يؤلف بين الكلمات المفردة والمعاني المفردة , والحوادث المفردة , والصور المفردة , ليجعل منها ثقافة مجمعة . ثم ليرتقي من المعلومات إلى العلم ? ومن المدركات إلى الإدراك ? ومن التجارب إلى المعرفة ?

هذه هي إحدى خصائص الإنسان المميزة . . وهي مع هذا ليست أكبر خصائصه , وليست أعلى مميزاته . فهنالك ذلك القبس العجيب من روح الله . . هنالك الروح الإنساني الخاص , الذي يصل هذا الكائن بجمال الوجود , وجمال خالق الوجود ; ويمنحه تلك اللحظات المجنحة الوضيئة من الاتصال بالمطلق الذي ليس له حدود . بعد الإتصال بومضات الجمال في هذا الوجود .

هذا الروح الذي لا يعرف الإنسان كنهه - وهل هو يعلم ما هو أدنى وهو إدراكه للمدركات الحسية ?! - والذي يمتعه بومضات من الفرح والسعادة العلوية حتى وهو على هذه الأرض . ويصله بالملأ الأعلى , ويهيئه للحياة المرسومة بحياة الجنان والخلود . وللنظر إلى الجمال الإلهي في ذلك العالم السعيد !

هذا الروح هو هبة الله الكبرى لهذا الإنسان . وهو الذي به صار إنسانا .

وهو الذي يخاطبه بإسمه: (يا أيها الإنسان). . ويعاتبه ذلك العتاب المخجل ! (ما غرك بربك الكريم ?)هذا العتاب المباشر من الله للإنسان . حيث يناديه - سبحانه - فيقف أمامه مقصرا مذنبا مغترا غير مقدر لجلا ل الله , ولا متأدب في جنابه . . ثم يواجهه بالتذكير بالنعمة الكبرى . ثم بالتقصير وسوء الأدب والغرور !

إنه عتاب مذيب . . حين يتصور "الإنسان" حقيقة مصدره , وحقيقة مخبره , وحقيقة الموقف الذي يقفه بين يدي ربه , وهو يناديه ذلك النداء , ثم يعاتبه هذا العتاب:

(يا أيها الإنسان ما غرك بربك الكريم . الذي خلقك فسواك فعدلك , في أي صورة ما شاء ركبك). .

ثم يكشف عن علة الغرور والتقصير - وهي التكذيب - بيوم الحساب - ويقرر حقيقة الحساب , واختلاف الجزاء , في توكيد وتشديد:

الدرس الثالث:9 - 16 الرقابة على الإنسان وافتراق الأبرار عن الفجار (كلا ! بل تكذبون بالدين . وإن عليكم لحافظين , كراما كاتبين , يعلمون ما تفعلون . إن الأبرار لفي نعيم . وإن الفجار لفي جحيم , يصلونها يوم الدين , وما هم عنها بغائبين). .

وكلا كلمة ردع وزجر عما هم فيه . وبل كلمة إضراب عما مضى من الحديث . ودخول في لون من القول جديد . لون البيان والتقرير و التوكيد . وهو غير العتاب والتذكير والتصوير . .

(كلا . بل تكذبون بالدين). . تكذبون بالحساب والمؤاخذة والجزاء . وهذه هي علة الغرور , وعلة التقصير . فما يكذب القلب بالحساب و الجزاء ثم يستقيم على هدى ولا خير ولا طاعة . وقد ترتفع القلوب وتشف , فتطيع ربها وتعبده حبا فيه , لا خوفا من عقابه , ولا طمعا في ثوابه . ولكنها تؤمن بيوم الدين وتخشاه , وتتطلع إليه , لتلقى ربها الذي تحبه وتشتاق لقاءه وتتطلع إليه . فأما حين يكذب الإنسان تكذيبا بهذا

اليوم , فلن يشتمل على أدب ولا طاعة ولا نور . ولن يحيا فيه قلب , ولن يستيقظ فيه ضمير .

تكذبون بيوم الدين . . وأنتم صائرون إليه , وكل ما عملتم محسوب عليكم فيه . لا يضيع منه شيء , ولا ينسى منه شيء:(وإن عليكم لحافظين , كراما كاتبين , يعلمون ما تفعلون). .

وهؤلاء الحافظون هم الأرواح الموكلة بالإنسان - من الملائكة - التي ترافقه , وتراقبه , وتحصي عليه كل ما يصدر عنه . . ونحن لا ندري كيف يقع هذا كله , ولسنا بمكلفين أن نعرف كيفيته . فالله يعلم أننا لم نوهب الاستعداد لإدراكها . وأنه لا خير لنا في إدراكها . لأنها غير داخلة في وظيفتنا وفي غاية وجودنا . فلا ضرورة للخوض فيما وراء المدى الذي كشفه الله لنا من هذا الغيب . ويكفي أن يشعر القلب البشري أنه غير متروك سدى . وأن عليه حفظة كراما كاتبين يعلمون ما يفعله , ليرتعش ويستيقظ , ويتأدب ! وهذا هو المقصود !

ولما كان جو السورة جو كرم وكرامة , فإنه يذكر من صفة الحافظين كونهم . .(كراما). . ليستجيش في القلوب إحساس الخجل والتجمل بحضرة هؤلاء الكرام . فإن الإنسان ليحتشم ويستحيي وهو بمحضر الكرام من الناس أن يسف أو يتبذل في لفظ أو حركة أو تصرف . . فكيف به حين يشعر ويتصور أنه في كل لحظاته وفي كل حالاته في حضرة حفظة من الملائكة(كرام)لا يليق أن يطلعوا منه إلا على كل كريم من الخصال والفعال ?!

إن القرآن ليستجيش في القلب البشري أرفع المشاعر بإقرار هذه الحقيقة فيه بهذا التصور الواقعي الحي القريب إلى الإدراك المألوف . .

ثم يقرر مصير الأبرار ومصير الفجار بعد الحساب , القائم على ما يكتبه الكرام الكاتبون:

(إن الأبرار لفي نعيم . وإن الفجار لفي جحيم . يصلونها يوم الدين . وما

هم عنها بغائبين). .

فهو مصير مؤكد , وعاقبة مقررة . أن ينتهي الأبرار إلى النعيم . وأن ينتهي الفجار إلى الجحيم . والبر هو الذي يأتي أعمال البر حتى تصبح له عادة وصفة ملازمة . وأعمال البر هي كل خير على الإطلاق . والصفة تتناسق في ظلها مع الكرم والإنسانية . كما أن الصفة التي تقابلها:(الفجار)فيها سوء الأدب والتوقح في مقارفة الإثم والمعصية . و الجحيم هي كفء للفجور ! ثم يزيد حالهم فيها ظهورا . .(يصلونها يوم الدين). . ويزيدها توكيدا وتقريرا:(وما هم عنها بغائبين)لا فرارا ابتداء . ولا خلاصا بعد الوقوع فيها ولو إلى حين ! فيتم التقابل بين الأبرار و الفجار . وبين النعيم والجحيم . مع زيادة الإيضاح والتقرير لحالة رواد الجحيم !

الدرس الرابع:17 - 19 الهول يوم الدين وعجز الناس والأمر لله

ولما كان يوم الدين هو موضع التكذيب , فإنه يعود إليه بعد تقرير ما يقع فيه . يعود إليه ليقرر حقيقته

وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ (17) ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ (18) يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئاً وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ (19)

الذاتية في تضخيم وتهويل بالتجهيل وبما يصيب النفوس فيه من عجز كامل وتجرد من كل شبهة في عون أو تعاون . وليقرر تفرد الله بالأمر في ذلك اليوم العصيب:

(وما أدراك ما يوم الدين ? ثم ما أدراك ما يوم الدين ? يوم لا تملك نفس لنفس شيئا , والأمر يومئذ لله). .

والسؤال للتجهيل مألوف في التعبير القرآني . وهو يوقع في الحس أن ا

لأمر أعظم جدا وأهول جدا من أن يحيط به إدراك البشر المحدود . فهو فوق كل تصور وفوق كل توقع وفوق كل مألوف .

وتكرار السؤال يزيد في الاستهوال . .

ثم يجيء البيان بما يتناسق مع هذا التصوير: (يوم لا تملك نفس لنفس شيئا). . فهو العجز الشامل . وهو الشلل الكامل . وهو الانحسار والا نكماش والانفصال بين النفوس المشغولة بهمها وحملها عن كل من تعرف من النفوس ! (والأمر يومئذ لله). . يتفرد به سبحانه . وهو المتفرد بالأمر في الدنيا والآخرة . ولكن في هذا اليوم - يوم الدين - تتجلى هذه الحقيقة التي قد يغفل عنها في الدنيا الغافلون المغرورون . فلا يعود بها خفاء , ولا تغيب عن مخدوع ولا مفتون !

ويتلاقى هذا الهول الصامت الواجم الجليل في نهاية السورة , مع ذلك الهول المتحرك الهائج المائج في مطلعها . وينحصر الحس بين الهولين . . وكلاهما مذهل مهيب رعيب ! وبينهما ذلك العتاب الجليل المخجل المذيب !

سورة المطففين

وَيۡلٌ لِّلۡمُطَفِّفِينَ (1)

سورة المطففين

تقديم لسورة المطففين

هذه السورة تصور قطاعا من الواقع العملي الذي كانت الدعوة تواجهه في مكة - إلى جانب ما كانت تستهدفه من إيقاظ القلوب , وهز المشاعر , وتوجيهها إلى هذا الحدث الجديد في حياة العرب وفي حياة الإنسانية , وهو الرسالة السماوية للأرض , وما تتضمنه من تصور جديد

شامل محيط .

هذا القطاع من الواقع العملي تصوره السورة في أولها , وهي تتهدد المطففين بالويل في اليوم العظيم ,(يوم يقوم الناس لرب العالمين). . كما تصوره في ختامها وهي تصف سوء أدب الذين أجرموا مع الذين آمنوا , وتغامزهم عليهم , وضحكهم منهم , وقولهم عنهم: (إن هؤلاء لضالون !).

وهذا إلى جانب ما تعرضه من حال الفجار وحال الأبرار ; ومصير هؤلاء وهؤلاء في ذلك اليوم العظيم .

وهي تتألف من أربعة مقاطع . . يبدأ المقطع الأول منها بإعلان الحرب على المطففين: (ويل للمطففين . الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون ; وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون . ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون ليوم عظيم ? يوم يقوم الناس لرب العالمين ?). .

ويتحدث المقطع الثاني عن الفجار في شدة وردع وزجر , وتهديد بالويل والهلاك , ودمغ بالإثم والاعتداء , وبيان لسبب هذا العمى وعلة هذا الا نطماس , وتصوير لجزائهم يوم القيامة , وعذابهم بالحجاب عن ربهم , كما حجبت الآثام في الأرض قلوبهم , ثم بالجحيم مع الترذيل والتأنيب: كلا . إن كتاب الفجار لفي سجين . وما أدراك ما سجين ? كتاب مرقوم . ويل يومئذ للمكذبين ! الذين يكذبون بيوم الدين . وما يكذب به إلا كل معتد أثيم , إذا تتلى عليه آياتنا قال:أساطير الأولين . كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون . كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون . ثم إنهم لصالوا الجحيم . ثم يقال:هذا الذي كنتم به تكذبون . .

والمقطع الثالث يعرض الصفحة المقابلة . صفحة الأبرار . ورفعة مقامهم . والنعيم المقرر لهم . ونضرته التي تفيض على وجوههم . و الرحيق الذي يشربون وهم على الأرائك ينظرون . . وهي صفحة ناعمة وضيئة:(كلا إن كتاب الأبرار لفي عليين . وما أدراك ما عليون ? كتاب

مرقوم , يشهده المقربون . إن الأبرار لفي نعيم , على الأرائك ينظرون , تعرف في وجوههم نضرة النعيم , يسقون من رحيق مختوم , ختامه مسك - وفي ذلك فليتنافس المتنافسون - ومزاجه من تسنيم . عينا يشرب بها المقربون). .

والمقطع الأخير يصف ما كان الأبرار يلاقونه في عالم الغرور الباطل من الفجار من إيذاء وسخرية وسوء أدب . ليضع في مقابله ما آل إليه أمر ا لأبرار وأمر الفجار في عالم الحقيقة الدائم الطويل:

(إن الذين أجرموا كانوا من الذين آمنوا يضحكون , وإذا مروا بهم يتغامزون , وإذا انقلبوا إلى أهلهم انقلبوا فكهين . وإذا رأوهم قالوا:إن هؤلاء لضالون . وما أرسلوا عليهم حافظين . فاليوم الذين آمنوا من الكفار يضحكون على الأرائك ينظرون . هل ثوب الكفار ما كانوا يفعلون ?). .

والسورة في عمومها تمثل جانبا من بيئة الدعوة , كما تمثل جانبا من أسلوب الدعوة في مواجهة واقع البيئة , وواقع النفس البشرية . . . وهذا ما سنحاول الكشف عنه في عرضنا للسورة بالتفصيل . .

الدرس الأول:1 - 6 ذم المطففين ومظاهر التطفف

(ويل للمطففين:الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون , وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون . ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون ليوم عظيم:يوم يقوم الناس لرب العالمين ?). .

تبدأ السورة بالحرب يعلنها الله على المطففين:(ويل للمطففين). . و الويل:الهلاك . وسواء كان المراد هو تقرير أن هذا أمر مقضي , أو أن هذا دعاء . فهو في الحالين واحد فالدعاء من الله قرار . .

الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُواْ عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ (2) وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ (3)

وتفسر الآيتان التاليتان معنى المطففين . فهم:(الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون . وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون). . فهم الذين يتقاضون بضاعتهم وافية إذا كانوا شراة . ويعطونها للناس ناقصة إذا كانوا بائعين . .

ثم تعجب الآيات الثلاثة التالية من أمر المطففين , الذين يتصرفون كأنه ليس هناك حساب على ما يكسبون في الحياة الدنيا ; وكأن ليس هناك موقف جامع بين يدي الله في يوم عظيم يتم فيه الحساب والجزاء أمام العالمين:(ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون ليوم عظيم ? يوم يقوم الناس لرب العالمين ?). .

والتصدي لشأن المطففين بهذا الأسلوب في سورة مكية أمر يلفت النظر . فالسورة المكية عادة توجه اهتمامها إلى أصول العقيدة الكلية:كتقرير وحدانية الله , وانطلاق مشيئته , وهيمنته على الكون و الناس . . . وكحقيقة الوحي والنبوة . . وكحقيقة الآخرة والحساب و الجزاء . مع العناية بتكوين الحاسة الأخلاقية في عمومها , وربطها بأصول العقيدة . أما التصدي لمسألة بذاتها من مسائل الأخلاق - كمسألة التطفيف في الكيل والميزان - والمعاملات بصفة عامة , فأمر جاء متأخرا في السورة المدنية عند التصدي لتنظيم حياة المجتمع في ظل الدولة الإسلامية , وفق المنهج الإسلامي , الشامل للحياة . .

ومن ثم فإن التصدي لهذا الأمر بذاته في هذه السورة المكية أمر يستحق الانتباه . وهو يشي بعدة دلالات متنوعة , تكمن وراء هذه الآ يات القصار . .

إنه يدل أولا على أن الإسلام كان يواجه في البيئة المكية حالة صارخة من هذا التطفيف يزاولها الكبراء , الذين كانوا في الوقت ذاته هم أصحاب التجارات الواسعة , التي تكاد تكون احتكارا . فقد كانت هنالك

أموالا ضخمة في أيدي هؤلاء الكبراء يتجرون بها عن طريق القوافل في رحلتي الشتاء والصيف إلى اليمن وإلى الشام . كما افتتحوا أسواقا موسمية كسوق عكاظ في موسم الحج , يقومون فيها بالصفقات ويتناشدون فيها الأشعار !

والنصوص القرآنية هنا تشي بأن المطففين الذين يتهددهم الله بالويل , ويعلن عليهم هذه الحرب , كانوا طبقة الكبراء ذوي النفوذ , الذين يملكون إكراه الناس على ما يريدون . فهم يكتالون (على الناس). . لا من الناس . . فكأن لهم سلطانا على الناس بسبب من الأسباب , يجعلهم يستوفون المكيال والميزان منهم استيفاء وقسرا . وليس المقصود هو أنهم يستوفون حقا . وإلا فليس في هذا ما يستحق إعلان الحرب عليهم . إنما المفهوم أنهم يحصلون بالقسر على أكثر من حقهم , ويستوفون ما يريدون إجبارا . فإذا كالوا للناس أو وزنوا كان لهم من السلطان ما يجعلهم ينقصون حق الناس , دون أن يستطيع هؤلاء منهم نصفة ولا استيفاء حق . . ويستوي أن يكون هذا بسلطان الرياسة و الجاه القبلي . أو بسلطان المال وحاجة الناس لما في أيديهم منه ; واحتكارهم للتجارة حتى يضطر الناس إلى قبول هذا الجور منهم ; كما يقع حتى الآن في الأسواق . . فقد كانت هناك حالة من التطفيف صارخة استحقت هذه اللفتة المبكرة .

كما أن هذه اللفتة المبكرة في البيئة المكية تشي بطبيعة هذا الدين ; وشمول منهجه للحياة الواقعية وشؤونها العملية ; وإقامتها على الأساس الأخلاقي العميق الأصيل في طبيعة هذا المنهج الإلهي القويم . فقد كره هذه الحالة الصارخة من الظلم والانحراف الأخلاقي في التعامل . وهو لم يتسلم بعد زمام الحياة الاجتماعية , لينظمها وفق شريعته بقوة القانون وسلطان الدولة . وأرسل هذه الصيحة المدوية بالحرب والويل على المطففين . وهم يومئذ سادة مكة , أصحاب السلطان المهيمن - لا على أرواح الناس ومشاعرهم عن طريق العقيدة الوثنية فحسب , بل كذلك على اقتصادياتهم وشؤون معاشهم . ورفع صوته عاليا في وجه

الغبن والبخس الواقع على الناس وهم جمهرة الشعب المستغلين لكبرائه المتجرين بأرزاقه , المرابين المحتكرين , المسيطرين في الوقت ذاته على الجماهير

أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ (4) لِيَوْمٍ عَظِيمٍ (5) يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (6)

بأوهام الدين ! فكان الإسلام بهذه الصيحة المنبعثة من ذاته ومن منهجه السماوي موقظا للجماهير المستغلة . ولم يكن قط مخدرا لها حتى وهو محاصر في مكة , بسطوة المتجبرين , المسيطرين على المجتمع بالمال والجاه والدين !

ومن ثم ندرك طرفا من الأسباب الحقيقية التي جعلت كبراء قريش يقفون في وجه الدعوة الإسلامية هذه الوقفة العنيدة . فهم كانوا يدركون - ولا ريب - أن هذا الأمر الجديد الذي جاءهم به محمد [ص] ليس مجرد عقيدة تكمن في الضمير , ولا تتطلب منهم إلا شهادة منطوقة , بأن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله . وصلاة يقيمونها لله بـ لا أصنام ولا أوثان . . كلا . لقد كانوا يدركون أن هذه العقيدة تعني منهجا يحطم كل أساس الجاهلية التي تقوم عليها أوضاعهم ومصالحهم ومراكزهم . وأن طبيعة هذا المنهج لا تقبل مثنوية ولا تلتئم مع عنصر أرضي غير منبثق من عنصرها السماوي ; وأنها تهدد كل المقومات الأ رضية الهابطة التي تقوم عليها الجاهلية . . ومن ثم شنوا عليها تلك الحرب التي لم تضع أوزارها لا قبل الهجرة ولا بعدها . الحرب التي تمثل الدفاع عن أوضاعهم كلها في وجه الأوضاع الإسلامية . لا عن مجرد الا عتقاد والتصور المجردين . .

والذين يحاربون سيطرة المنهج الإسلامي على حياة البشر في كل جيل وفي كل أرض يدركون هذه الحقيقة . يدركونها جيدا . ويعلمون أن أوضاعهم الباطلة , ومصالحهم المغتصبة , وكيانهم الزائف . . وسلوكهم

المنحرف . . هذه كلها هي التي يهددها المنهج الإسلامي القويم الكريم !

والطغاة البغاة الظلمة المطففون - في أية صورة من صور التطفيف في المال أو في سائر الحقوق والواجبات - هم الذين يشفقون أكثر من غيرهم من سيطرة ذلك المنهج العادل النظيف ! الذي لا يقبل المساومة , ولا المداهنة , ولا أنصاف الحلول ?

ولقد أدرك ذلك الذين بايعوا رسول الله [ص] من نقباء الأوس والخزرج بيعة العقبة الثانية قبل الهجرة:قال ابن إسحاق:وحدثني عاصم بن عمر بن قتادة أن القوم لما اجتمعوا لبيعة رسول الله [ص] قال العباس بن عبادة بن نضلة الأنصاري أخو بني سالم بن عوف:يا معشر الخزرج . هل تدرون علام تبايعون هذا الرجل ? قالوا:نعم . قال:إنكم تبايعونه على حرب الأحمر والأسود من الناس . فإن كنتم ترون أنكم إذا نهكت أموالكم مصيبة وأشرافكم قتل أسلمتموه فمن الآن ! فهو والله إن فعلتم خزي الدنيا والآخرة . وإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه , على نهكة الأموال وقتل الأشراف فخذوه , فهو والله خير الدنيا والآخرة , قالوا:فإنا نأخذه على مصيبة الأموال وقتل الأشراف . فما لنا بذلك يا رسول الله إن نحن وفينا ? قال:" الجنة " . . قالوا:ابسط يدك . فبسط يده فبايعوه .

فقد أدرك هؤلاء - كما أدرك كبراء قريش من قبل - طبيعة هذا الدين . وأنه قائم كحد السيف للعدل والنصفة وإقامة حياة الناس على ذلك , لا يقبل من طاغية طغيانا , ولا من باغ بغيا , ولا من متكبر كبرا . ولا يقبل للناس الغبن والخسف والاستغلال . ومن ثم يحاربه كل طاغ باغ متكبر مستغل ; ويقف لدعوته ولدعاته بالمرصاد .

(ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون ليوم عظيم ? يوم يقوم الناس لرب العالمين ?). .

وإن أمرهم لعجيب . فإن مجرد الظن بالبعث لذلك اليوم العظيم . يوم

يقوم الناس متجردين لرب العالمين , ليس لهم مولى يومئذ سواه , وليس بهم إلا التطلع لما يجريه عليهم من قضاء , وقد علموا أن ليس لهم من دونه ولي ولا نصير . . إن مجرد الظن بأنهم مبعوثون لذلك اليوم كان يكفي ليصدهم عن التطفيف , وأكل أموال

كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ (7) وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ (8) كِتَابٌ مَّرْقُومٌ (9) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ (10) الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ (11) وَمَا يُكَذِّبُ بِهِ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ (12) إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (13)

الناس بالباطل , واستخدام السلطان في ظلم الناس وبخسهم حقهم في التعامل . . ولكنهم ماضون في التطفيف كأنهم لا يظنون أنهم مبعوثون ! وهو أمر عجيب , وشأن غريب !

الدرس الثاني:7 - 14 عذاب الكفار في النار وبعض جرائمهم في الدنيا

وقد سماهم المطففين في المقطع الأول . فأما في المقطع الثاني فيسميهم الفجار . إذ يدخلهم في زمرة الفجار , ويتحدث عن هؤلاء . يتحدث عن اعتبارهم عند الله , وعن حالهم في الحياة . وعما ينتظرهم يوم يبعثون ليوم عظيم .

كلا ! إن كتاب الفجار لفي سجين . وما أدراك ما سجين ? كتاب مرقوم . ويل يومئذ للمكذبين:الذين يكذبون بيوم الدين ; وما يكذب به إلا كل معتد أثيم , إذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين . كلا ! بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون . كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون . ثم إنهم لصالو الجحيم . ثم يقال:هذا الذي كنتم به تكذبون . .

إنهم لا يظنون أنهم مبعوثون ليوم عظيم . . فالقرآن يردعهم عن هذا

ويزجرهم , ويؤكد أن لهم كتابا تحصى فيه أعمالهم . . ويحدد موضعه زيادة في التوكيد . ويوعدهم بالويل في ذلك اليوم الذي يعرض فيه كتابهم المرقوم:(كلا . إن كتاب الفجار لفي سجين . وما أدراك ما سجين ? كتاب مرقوم . ويل يومئذ للمكذبين)! .

والفجار هم المتجاوزون للحد في المعصية والإثم . واللفظ يوحي بذاته بهذا المعنى . وكتابهم هو سجل أعمالهم . ولا ندري نحن ماهيته ولم نكلف هذا . وهو غيب لا نعرف عنه إلا بمقدار ما يخبرنا عنه صاحبه ولا زيادة - فهناك سجل لأعمال الفجار يقول القرآن:إنه في سجين . ثم يسأل سؤال الاستهوال المعهود في التعبير القرآني:(وما أدراك ما سجين ?)فيلقي ظلال التفخيم ويشعر المخاطب أن الأمر أكبر من إدراكه , وأضخم من أن يحيط به علمه . ولكنه بقوله: (إن كتاب الفجار لفي سجين)يكون قد حدد له موضعا معينا , وإن يكن مجهولا للإنسان . وهذا التحديد يزيد من يقين المخاطب عن طريق الإيحاء بوجود هذا الكتاب . وهذا هو الإيحاء المقصود من وراء ذكر هذه الحقيقة بهذا القدر , دون زيادة .

ثم يعود إلى وصف كتاب الفجار ذاك فيقول:إنه(كتاب مرقوم). . أي مفروغ منه , لا يزاد فيه ولا ينقص منه , حتى يعرض في ذلك اليوم العظيم .

فإذا كان ذلك:كان(ويل يومئذ للمكذبين)!

ويحدد موضوع التكذيب , وحقيقة المكذبين:

(الذين يكذبون بيوم الدين . وما يكذب به إلا كل معتد أثيم . إذا تتلى عليه آياتنا قال:أساطير الأولين). . فالاعتداء والإثم يقودان صاحبهما إلى التكذيب بذلك اليوم ; وإلى سوء الأدب مع هذا القرآن فيقول عن آياته حين تتلى عليه: (أساطير الأولين). . لما يحويه من قصص الأولين المسوقة فيه للعبرة والعظة , وبيان سنة الله التي لا تتخلف , والتي

تأخذ الناس في ناموس مطرد لا يحيد .

ويعقب على هذا التطاول والتكذيب بالزجر والردع:(كلا !)ليس كما يقولون . .

ثم يكشف عن علة هذا التطاول وهذا التكذيب ; وهذه الغفلة عن الحق الواضح وهذا الانطماس في قلوب المكذبين:

(بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون). .

أي غطى على قلوبهم ما كانوا يكسبونه من الإثم والمعصية . والقلب الذي يمرد على المعصية ينطمس ويظلم ;

كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ (14) كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ (15) ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ (16) ثُمَّ يُقَالُ هَذَا الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ (17) كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ (18) وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ (19) كِتَابٌ مَّرْقُومٌ (20) يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ (21) إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ (22)

ويرين عليه غطاء كثيف يحجب النور عنه ويحجبه عن النور , ويفقده الحساسية شيئا فشيئا حتى يتبلد ويموت . .

روى ابن جرير والترمذي والنسائي وابن ماجة من طرق , عن محمد بن عجلان , عن القعقاع بن حكيم , عن أبي صالح , عن أبي هريرة , عن النبي [ص] قال:" إن العبد إذا أذنب ذنبا كانت نكتة سوداء في قلبه . فإن تاب منها صقل قلبه وإن زاد زادت " . . وقال الترمذي حسن صحيح . ولفظ النسائي:" إن العبد إذا أخطأ خطيئة نكت في قلبه نكتة سوداء . فإن هو نزع واستغفر وتاب صقل قلبه فإن عاد زيد فيها حتى تعلو قلبه , فهو الران الذي قال الله تعالى:(كلا ! بل ران على قلوبهم ما

كانوا يكسبون). . "

وقال الحسن البصري:هو الذنب على الذنب حتى يعمى القلب فيموت . .

ذلك حال الفجار المكذبين . وهذه هي علة الفجور والتكذيب . . ثم يذكر شيئا عن مصيرهم في ذلك اليوم العظيم . يناسب علة الفجور و التكذيب:

كلا ! إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون . ثم إنهم لصالو الجحيم . ثم يقال:هذا الذي كنتم به تكذبون . .

لقد حجبت قلوبهم المعاصي والآثام , حجبتها عن الإحساس بربها في الدنيا . وطمستها حتى أظلمت وعميت في الحياة . . فالنهاية الطبيعية والجزاء الوفاق في الآخرة أن يحرموا النظر إلى وجه الله الكريم , وأن يحال بينهم وبين هذه السعادة الكبرى , التي لا تتاح إلا لمن شفت روحه ورقت وصفت واستحقت أن تكشف الحجب بينها وبين ربها . ممن قال فيهم في سورة القيامة:

(وجوه يومئذ ناضرة , إلى ربها ناظرة). .

وهذا الحجاب عن ربهم , عذاب فوق كل عذاب , وحرمان فوق كل حرمان . ونهاية بائسة لإنسان يستمد إنسانيته من مصدر واحد هو اتصاله بروح ربه الكريم . فإذا حجب عن هذا المصدر فقد خصائصه كإنسان كريم ; وارتكس إلى درجة يستحق معها الجحيم:(ثم إنهم لصالوا الجحيم) . ومع الجحيم التأنيب وهو أمر من الجحيم:(ثم يقال:هذا الذي كنتم به تكذبون)!!

الدرس الثالث:18 - 28 صور من نعيم الأبرار في الجنة

ثم يعرض الصفحة الأخرى . صفحة الأبرار . على العهد بطريقة القرآن في عرض الصفحتين متقابلتين في الغالب , لتتم المقابلة بين حقيقتين وحالين ونهايتين:

(كلا ! إن كتاب الأبرار لفي عليين . وما أدراك ما عليون ? كتاب مرقوم , يشهده المقربون . إن الأبرار لفي نعيم , على الأرائك ينظرون , تعرف في وجوههم نضرة النعيم , يسقون من رحيق مختوم , ختامه مسك . وفي ذلك فليتنافس المتنافسون . ومزاجه من تسنيم . عينا يشرب بها المقربون). .

وكلمة(كلا)تجيء في صدر هذا المقطع زجرا عما ذكر قبله من التكذيب في قوله:(ثم يقال:هذا الذي كنتم به تكذبون). . ويعقب عليه بقوله:(كلا)ثم يبدأ الحديث عن الأبرار في حزم وفي توكيد .

فإذا كان كتاب الفجار في(سجين)فإن كتاب الأبرار في(عليين). . . والأبرار هم الطائعون الفاعلون كل خير . وهم يقابلون الفجار العصاة المتجاوزين لكل حد . .

ولفظ(عليين)يوحي بالعلو والارتفاع مما قد يؤخذ منه أن(سجين)يفيد الانحطاط والسفول . ثم يعقب عليه بسؤال التجهيل والتهويل المعهود:(وما أدراك ما عليون ?). . فهو أمر فوق العلم والإدراك !

ويعود من هذا الظل الموحي إلى تقرير حقيقة كتاب الأبرار . . فهو(كتاب مرقوم يشهده المقربون)وقد

عَلَى الْأَرَائِكِ يَنظُرُونَ (23) تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ (24) يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ (25)

سبق ذكر معنى مرقوم . ويضاف إليه هنا أن الملائكة المقربين يشهدون هذا الكتاب ويرونه . وتقرير هذه الحقيقة هنا يلقي ظلا كريما طاهرا رفيعا على كتاب الأبرار . فهو موضع مشاهدة المقربين من الملائكة , ومتعتهم بما فيه من كرائم الأفعال والصفات . وهذا ظل كريم شفيف ,

يذكر بقصد التكريم .

ثم يذكر حال الأبرار أنفسهم , أصحاب هذا الكتاب الكريم . ويصف ما هم فيه من نعيم في ذلك اليوم العظيم:

(إن الأبرار لفي نعيم). . يقابل الجحيم الذي ينتهي إليه الفجار . .(على الأرائك ينظرون)أي إنهم في موضع التكريم , ينظرون حيث يشاءون , لا يغضون من مهانة , ولا يشغلون عن النظر من مشقة . . وهم على الأرائك وهي الأسرة في الحجال . وأقرب ما يمثلها عندنا ما نسميه "الناموسية " أو الكلة ! وصورتها الدنيوية كانت أرقى وأرق مظاهر النعيم عند العربي ذي العيشة الخشنة ! أما صورتها الأخروية فعلمها عند الله . وهي على أية حال أعلى من كل ما يعهده الإنسان مما يستمده من تجاربه في الأرض وتصوراته !

وهم في هذا النعيم ناعمو النفوس والأجسام , تفيض النضرة على وجوههم وملامحهم حتى ليراها كل راء:

(تعرف في وجوههم نضرة النعيم). .

(يسقون من رحيق مختوم ختامه مسك). .

والرحيق الشراب الخالص المصفى , الذي لا غش فيه ولا كدرة . ووصفه بأنه مختوم ختامه مسك , قد يفيد أنه معد في أوانيه , وأن هذه الأواني مقفلة مختومة , تفض عند الشراب , وهذا يلقي ظل الصيانة و العناية ! . كما أن جعل الختم من المسك فيه أناقة ورفاهية ! وهذه الصورة لا يدركها البشر إلا في حدود ما يعهدون في الأرض . فإذا كانوا هنالك كانت لهم أذواق ومفاهيم تناسب تصورهم الطليق من جو الأرض المحدود !

وقبل أن يتم وصف الشراب الذي يجيء في الآيتين التاليتين:(ومزاجه من تسنيم عينا يشرب بها المقربون). . أي أن هذا الرحيق المختوم يفض

ختامه ثم يمزج بشيء من هذه العين المسماة:(تسنيم)التي (يشرب بها المقربون). . قبل أن يتم الوصف يلقي بهذا الإيقاع , وبهذا التوجيه: (وفي ذلك فليتنافس المتنافسون). . وهو إيقاع عميق يدل على كثير . . .

إن أولئك المطففين , الذين يأكلون أموال الناس بالباطل , ولا يحسبون حساب اليوم الآخر , ويكذبون بيوم الحساب والجزاء , ويرين على قلوبهم الإثم والمعصية . . إن هؤلاء إنما يتنافسون في مال أو متاع من متاع الأرض الزهيد . يريد كل منهم أن يسبق إليه , وأن يحصل على أكبر نصيب منه . ومن ثم يظلم ويفجر ويأثم ويرتكب ما يرتكب في سبيل متاع من متاع الأرض زائل . .

وما في هذا العرض القريب الزهيد ينبغي التنافس . إنما يكون التنافس في ذلك النعيم وفي ذلك التكريم: (وفي ذلك فليتنافس المتنافسون). . فهو مطلب يستحق المنافسة , وهو أفق يستحق السباق , وهو غاية تستحق الغلاب .

والذين يتنافسون على شيء من أشياء الأرض مهما كبر وجل وارتفع وعظم , إنما يتنافسون في حقير قليل فان قريب . والدنيا لا تزن عند الله جناح بعوضة . ولكن الآخرة ثقيلة في ميزانه . فهي إذن حقيقة تستحق المنافسة فيها والمسابقة . .

خِتَامُهُ مِسْكٌ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ (26) وَمِزَاجُهُ مِن تَسْنِيمٍ (27) عَيْناً يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ (28) إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُواْ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ (29)

ومن عجب أن التنافس في أمر الآخرة يرتفع بأرواح المتنافسين جميعا . بينما التنافس في أمر الدنيا ينحط بها جميعا . والسعي لنعيم الآخرة

يصلح الأرض ويعمرها ويطهرها للجميع . والسعي لعرض الدنيا يدع الأرض مستنقعا وبيئا تأكل فيه الديدان بعضها البعض . أو تنهش فيه الهوام والحشرات جلود الأبرار الطيبين !

والتنافس في نعيم الآخرة لا يدع الأرض خرابا بلقعا كما قد يتصور بعض المنحرفين . إنما يجعل الإسلام الدنيا مزرعة الآخرة , ويجعل القيام بخلافة الأرض بالعمار مع الصلاح والتقوى وظيفة المؤمن الحق . على أن يتوجه بهذه الخلافة إلى الله , ويجعل منها عبادة له تحقق غاية وجوده كما قررها الله - سبحانه - وهو يقول: وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون .

وإن قوله (وفي ذلك فليتنافس المتنافسون). . لهو توجيه يمد بأبصار أهل الأرض وقلوبهم وراء رقعة الأرض الصغيرة الزهيدة , بينما هم يعمرون الأرض ويقومون بالخلافة فيها . ويرفعها إلى آفاق أرفع وأطهر من المستنقع الآسن بينما هم يطهرون المستنقع وينظفونه !

إن عمر المرء في هذه العاجلة محدود , وعمره في الآجلة لا يعلم نهايته إلا الله . وإن متاع هذه الأرض في ذاته محدود . ومتاع الجنة لا تحده تصورات البشر . وإن مستوى النعيم في هذه الدنيا معروف ومستوى النعيم هناك يليق بالخلود ! فأين مجال من مجال ? وأين غاية من غاية ? حتى بحساب الربح والخسارة فيما يعهد البشر من الحساب ?!

ألا إن السباق إلى هناك . . (وفي ذلك فليتنافس المتنافسون). .

الدرس الرابع:29 - 34 من جرائم المجرمين ضد المؤمنين في الدنيا واختلاف الموقف يوم القيامة

وكأنما أطال السياق في عرض صور النعيم الذي ينتظر الأبرار , تمهيدا للحديث عما كانوا يلقون في الأرض من الفجار . من أذى واستهزاء وتطاول وادعاء . . وقد أطال في عرضه كذلك . ليختمه بالسخرية من الكفار , وهم يشهدون نعيم الأبرار:

(إن الذين أجرموا كانوا من الذين آمنوا يضحكون . وإذا مروا بهم يتغامزون . وإذا انقلبوا إلى أهلهم انقلبوا فكهين . وإذا رأوهم قالوا:إن هؤلاء لضالون . . وما أرسلوا عليهم حافظين). .

(فاليوم الذين آمنوا من الكفار يضحكون , على الأرائك ينظرون). .

(هل ثوب الكفار ما كانوا يفعلون ?). .

والمشاهد التي يرسمها القرآن لسخرية الذين أجرموا من الذين آمنوا , وسوء أدبهم معهم , وتطاولهم عليهم , ووصفهم بأنهم ضالون . . مشاهد منتزعة من واقع البيئة في مكة . ولكنها متكررة في أجيال وفي مواطن شتى . وكثير من المعاصرين شهدوها كأنما هذه الآيات قد نزلت في وصفها وتصويرها . مما يدل على أن طبيعة الفجار المجرمين واحدة متشابهة في موقفها من الأبرار في جميع البيئات والعصور !!

(إن الذين أجرموا كانوا من الذين آمنوا يضحكون). . كانوا . . فقد طوى السياق الدنيا العاجلة الزائلة . فإذا المخاطبون به في الآخرة . يرون نعيم الأبرار الذين آمنوا . وهو يذكر لهم ما كان من أمر الدنيا !

إنهم كانوا يضحكون من الذين آمنوا استهزاء بهم , وسخرية منهم . إما لفقرهم ورثاثة حالهم . وإما لضعفهم

وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ (30) وَإِذَا انقَلَبُواْ إِلَى أَهْلِهِمُ انقَلَبُواْ فَكِهِينَ (31) وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَؤُلَاء لَضَالُّونَ (32) وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ (33) فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُواْ مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ (34) عَلَى الْأَرَائِكِ يَنظُرُونَ (35) هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (36)

عن رد الأذى . وإما لترفعهم عن سفاهة السفهاء . . فكل هذا مما يثير ضحك الذين أجرموا . وهم يتخذون المؤمنين مادة لسخريتهم أو

فكاهتهم المرذولة . وهم يسلطون عليهم الأذى , ثم يضحكون الضحك اللئيم الوضيع , مما يصيب الذين آمنوا , وهم صابرون مترفعون متجملون بأدب المؤمنين !

(وإذا مروا بهم يتغامزون). . يغمز بعضهم لبعض بعينه , أو يشيره بيده , أو يأتي بحركة متعارفة بينهم للسخرية من المؤمنين . وهي حركة وضيعة واطية تكشف عن سوء الأدب , والتجرد من التهذيب . بقصد إيقاع الانكسار في قلوب المؤمنين , وإصابتهم بالخجل والربكة , وهؤلاء الأوغاد يتغامزون عليهم ساخرين !

(وإذا انقلبوا إلى أهلهم)بعدما أشبعوا نفوسهم الصغيرة الرديئة من السخرية بالمؤمنين وإيذائهم . . (انقلبوا فكهين). . راضين عن أنفسهم , مبتهجين بما فعلوا , مستمتعين بهذا الشر الصغير الحقير . فلم يتلوموا ولم يندموا , ولم يشعروا بحقارة ما صنعوا وقذارة ما فعلوا . وهذا منتهى ما تصل إليه النفس من إسفاف وموت للضمير !

(وإذا رأوهم قالوا:إن هؤلاء لضالون)!

وهذه أعجب . . فليس أعجب من أن يتحدث هؤلاء الفجار المجرمون عن الهدى والضلال . وأن يزعموا حين يرون المؤمنين , أن المؤمنين ض الون . ويشيروا إليهم مؤكدين لهذا الوصف في تشهير وتحقير: (إن هؤلا ء لضالون !). .

والفجور لا يقف عند حد , ولا يستحيي من قول , ولا يتلوم من فعل . واتهام المؤمنين بأنهم ضالون حين يوجهه الفجار المجرمون , إنما يمثل الفجور في طبيعته التي هي تجاوز لجميع الحدود !

والقرآن لا يقف ليجادل عن الذين آمنوا , ولا ليناقش طبيعة الفرية . فهي كلمة فاجرة لا تستحق المناقشة . ولكنه يسخر سخرية عالية من القوم الذين يدسون أنوفهم فيما ليس من شأنهم , ويتطفلون بلا دعوة من أحد في هذا الأمر:(وما أرسلوا عليهم حافظين). . وما وكلوا بشأن

هؤلاء المؤمنين , وما أقيموا عليهم رقباء , ولا كلفوا وزنهم وتقدير ح
الهم ! فما لهم هم وهذا الوصف وهذا التقرير !

وينهي بهذه السخرية العالية حكاية ما كان من الذين أجرموا في الدنيا . . ما كان . . ويطوي هذا المشهد الذي انتهى . ليعرض المشهد الحاضر و الذين آمنوا في ذلك النعيم:

(فاليوم الذين آمنوا من الكفار يضحكون . على الأرائك ينظرون). .

اليوم والكفار محجوبون عن ربهم , يقاسون ألم هذا الحجاب الذي تهدر معه إنسانيتهم , فيصلون الجحيم , مع الترذيل والتأنيب حين يقال: (هذا الذي كنتم به تكذبون). .

اليوم والذين آمنوا على الأرائك ينظرون . في ذلك النعيم المقيم , وهم يتناولون الرحيق المختوم بالمسك الممزوج بالتسنيم . .

فاليوم . . الذين آمنوا من الكفار يضحكون . .

والقرآن يتوجه بالسخرية العالية مرة أخرى وهو يسأل:

(هل ثوب الكفار ما كانوا يفعلون ?).

أجل ! هل ثوبوا ? هل وجدوا ثواب ما فعلوا ? وهم لم يجدوا(الثواب)المعروف من الكلمة . فنحن نشهدهم اللحظة في الجحيم ! ولكنهم من غير شك لاقوا جزاء ما فعلوا . فهو ثوابهم إذن . وياللسخرية الكامنة في كلمة الثواب في هذا المقام !

ونقف لحظة أمام هذا المشهد الذي يطيل القرآن عرض مناظره وحركاته - مشهد سخرية الذين أجرموا من الذين آمنوا في الدنيا - كما أطال من قبل في عرض مشهد نعيم الأبرار وعرض مناظره ومناعمه . فنجد أن هذه الإطالة من الناحية التأثيرية فن عال في الأداء التعبيري , كما أنه فن عال في العلاج الشعوري . فقد كانت القلة المسلمة في مكة تلاقي

من عنت المشركين وأذاهم ما يفعل في النفس البشرية بعنف وعمق . وكان ربهم لا يتركهم بلا عون , من تثبيته وتسريته وتأسيته .

وهذا التصوير المفصل لمواجعهم من أذى المشركين , فيه بلسم لقلوبهم . فربهم هو الذي يصف هذه المواجع . فهو يراها , وهو لا يهملها - وإن أمهل الكافرين حينا - وهذا وحده يكفي قلب المؤمن ويمسح على آلامه وجراحه . إن الله يرى كيف يسخر منهم الساخرون . وكيف يؤذيهم المجرمون . وكيف يتفكه بآلامهم ومواجعهم المتفكهون . وكيف لا يتلوم هؤلاء السفلة ولا يندمون ! إن ربهم يرى هذا كله . ويصفه في تنزيله . فهو إذن شيء في ميزانه . . . وهذا يكفي ! نعم هذا يكفي حين تستشعره القلوب المؤمنة مهما كانت مجروحة موجوعة .

ثم إن ربهم يسخر من المجرمين سخرية رفيعة عالية فيها تلميح موجع . قد لا تحسه قلوب المجرمين المطموسة المغطاة بالرين المطبق عليها من الذنوب . ولكن قلوب المؤمنين الحساسة المرهفة , تحسه وتقدره , وتستريح إليه وتستنيم !

ثم إن هذه القلوب المؤمنة تشهد حالها عند ربها , ونعيمها في جناته , وكرامتها في الملأ الأعلى . على حين تشهد حال أعدائها ومهانتهم في الملأ الأعلى وعذابهم في الجحيم , مع الإهانة والترذيل . . تشهد هذا وذلك في تفصيل وفي تطويل . وهي تستشعر حالها وتتذوقه تذوق الواقع اليقين . وما من شك أن هذا التذوق يمسح على مرارة ما هي فيه من أذى وسخرية وقلة وضعف . وقد يبلغ في بعض القلوب أن تتبدل هذه المرارة فيها بالفعل حلاوة , وهي تشهد هذه المشاهد في ذلك القول الكريم .

ومما يلاحظ أن هذا كان هو وحده التسلية الإلهية للمؤمنين المعذبين المألومين من وسائل المجرمين الخسيسة , وأذاهم البالغ , وسخريتهم اللئيمة . . الجنة للمؤمنين , والجحيم للكافرين . وتبديل الحالين بين الدنيا والآخرة تمام التبديل . . وهذا كان وحده الذي وعد به النبي [ص

] المبايعين له . وهم يبذلون الأموال والنفوس !

فأما النصر في الدنيا , والغلب في الأرض , فلم يكن أبدا في مكة يذكر في القرآن المكي في معرض التسرية والتثبيت . .

لقد كان القرآن ينشئ قلوبا يعدها لحمل الأمانة . وهذه القلوب كان يجب أن تكون من الصلابة والقوة والتجرد بحيث لا تتطلع - وهي تبذل كل شيء وتحتمل كل شيء - إلى شيء في هذه الأرض . ولا تنتظر إلا الآ خرة . ولا ترجو إلا رضوان الله . قلوبا مستعدة لقطع رحلة الأرض كلها في نصب وشقاء وحرمان وعذاب وتضحية واحتمال , بلا جزاء في هذه الأرض قريب . ولو كان هذا الجزاء هو انتصار الدعوة وغلبة الإسلام وظهور المسلمين !

حتى إذا وجدت هذه القلوب التي تعلم أن ليس أمامها في رحلة الأرض شيء إلا أن تعطي بلا مقابل . وأن تنتظر الآخرة وحدها موعدا للجزاء . وموعدا كذلك للفصل بين الحق والباطل . . حتى إذا وجدت هذه القلوب , وعلم الله منها صدق نيتها على ما بايعت وعاهدت , آتاها النصر في الأرض , وائتمنها عليه . لا لنفسها . ولكن لتقوم بأمانة المنهج ا لإلهي وهي أهل لأداء الأمانة , مذ كانت لم توعد بشيء من المغنم في الدنيا تتقاضاه ; ولمتتطلع إلى شيء من المغنم في الأرض تعطاه . وقد تجردت لله حقا يوم كانت لا تعلم لها جزاء إلا رضاه !

وكل الآيات التي ورد فيها ذكر للنصر في الدنيا جاءت في المدينة . بعد ذلك . وبعد أن أصبح هذا الأمر خارج برنامج المؤمن وانتظاره وتطلعه . وجاء النصر ذاته لأن مشيئة الله اقتضت أن تكون لهذا المنهج واقعية في الحياة الإنسانية تقرره في صورة عملية محددة , تراها الأجيال . فلم يكن جزاء على التعب والنصب والتضحية والآلام . إنما كان قدرا من قدر الله تكمن وراءه حكمة نحاول رؤيتها الآن !

سورة الانشقاق

إِذَا السَّمَاء انشَقَّتْ (1) وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ (2) وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ (3)
وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ (4) وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ (5)

سورة الانشقاق

تعريف بسورة الإنشقاق

تبدأ السورة ببعض مشاهد الانقلاب الكونية التي عرضت بتوسع في سورة التكوير , ثم في سورة الانفطار . ومن قبل في سورة النبأ . ولكنها هنا ذات طابع خاص . طابع الاستسلام لله . استسلام السماء واستسلام الأرض , في طواعية وخشوع ويسر:(إذا السماء انشقت , وأذنت لربها وحقت . وإذا الأرض مدت , وألقت ما فيها وتخلت , وأذنت لربها وحقت). .

ذلك المطلع الخاشع الجليل تمهيد لخطاب "الإنسان" , وإلقاء الخشوع في قلبه لربه . وتذكيره بأمره ; وبمصيره الذي هو صائر إليه عنده . حين ينطبع في حسه ظل الطاعة والخشوع والاستسلام الذي تلقيه في حسه

يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحاً فَمُلَاقِيهِ (6) فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ (7) فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَاباً يَسِيراً (8) وَيَنقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُوراً (9)
السماء والأرض في المشهد الهائل الجليل:(يا أيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحا فملاقيه . فأما من أوتي كتابه بيمينه فسوف يحاسب حسابا

يسيرا , وينقلب إلى أهله مسرورا , وأما من أوتي كتابه وراء ظهره فسوف يدعو ثبورا , ويصلى سعيرا . إنه كان في أهله مسرورا . إنه ظن أن لن يحور . بلى إن ربه كان به بصيرا). .

والمقطع الثالث عرض لمشاهد كونية حاضرة , مما يقع تحت حس "الإنسان" لها إيحاؤها ولها دلالتها على التدبير والتقدير , مع التلويح بالقسم بها على أن الناس متقلبون في أحوال مقدرة مدبرة , لا مفر لهم من ركوبها ومعاناتها: (فلا أقسم بالشفق , والليل وما وسق , والقمر إذا اتسق ; لتركبن طبقا عن طبق). .

ثم يجيء المقطع الأخير في السورة تعجيبا من حال الناس الذين لا يؤمنون ; وهذه هي حقيقة أمرهم , كما عرضت في المقطعين السابقين . وتلك هي نهايتهم ونهاية عالمهم كما جاء في مطلع السورة:(فما لهم لا يؤمنون ? وإذا قرئ عليهم القرآن لا يسجدون ?). . ثم بيان لعلم الله بما يضمون عليه جوانحهم وتهديد لهم بمصيرهم المحتوم:(بل الذين كفروا يكذبون . والله أعلم بما يوعون . فبشرهم بعذاب أليم . إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات . لهم أجر غير ممنون). .

الدرس الأول:1 - 5 بعض مشاهد الكون في الآخرة

إنها سورة هادئة الإيقاع , جليلة الإيحاء , يغلب عليها هذا الطابع حتى في مشاهد الانقلاب الكونية التي عرضتها سورة التكوير في جو عاصف . سورة فيها لهجة التبصير المشفق الرحيم , خطوة خطوة . في راحة ويسر , وفي إيحاء هادئ عميق . والخطاب فيها: (يا أيها الإنسان)فيه تذكير واستجاشة للضمير .

وهي بترتيب مقاطعها على هذا النحو تطوف بالقلب البشري في مجالات كونية وإنسانية شتى , متعاقبة تعاقبا مقصودا . . فمن مشهد الاستسلام الكوني . إلى لمسة لقلب "الإنسان" . إلى مشهد الحساب والجزاء . إلى مشهد الكون الحاضر وظواهره الموحية . إلى لمسة للقلب البشري

أخرى . إلى التعجيب من حال الذين لا يؤمنون بعد ذلك كله . إلى التهديد بالعذاب الأليم واستثناء المؤمنين بأجر غير ممنون . .

كل هذه الجولات والمشاهد والإيحاءات واللمسات في سورة قصيرة لا تتجاوز عدة أسطر . . وهو ما لا يعهد إلا في هذا الكتاب العجيب ! فإن هذه الأغراض يتعذر الوفاء بها في الحيز الكبير ولا تؤدى بهذه القوة وبهذا التأثير . . ولكنه القرآن ميسر للذكر ; يخاطب القلوب مباشرة من منافذها القريبة . صبغة العليم الخبير !

(إذا السماء انشقت , وأذنت لربها وحقت . وإذا الأرض مدت , وألقت ما فيها وتخلت , وأذنت لربها وحقت). .

وانشقاق السماء سبق الحديث عنه في سور سابقة . أما الجديد هنا فهو استسلام السماء لربها ; ووقوع الحق عليها , وخضوعها لوقع هذا الحق وطاعتها:

(وأذنت لربها وحقت). .

فإذن السماء لربها:استسلامها وطاعتها لأمره في الانشقاق ,(وحقت). . أي وقع عليها الحق . واعترفت بأنها محقوقة لربها . وهو مظهر من مظاهر الخضوع , لأن هذا حق عليها مسلم به منها .

والجديد هنا كذلك هو مد الأرض:(وإذا الأرض مدت). . وقد يعني هذا مط رقعتها وشكلها , مما ينشأ عن انقلاب النواميس التي كانت تحكمها , وتحفظها في هذا الشكل الذي انتهت إليه - والمقول إنه كروياًو بيضاوي - والتعبير يجعل وقوع هذا الأمر لها آتيا من فعل خارج عنها , مما يفيده بناء الفعل للمجهول:(مدت).

(وألقت ما فيها وتخلت). . وهو تعبير يصور الأرض كائنة حية تلقي ما فيها وتتخلى عنه . وما فيها كثير . منه تلك الخلائق التي لا تحصى , و التي طوتها الأرض في أجيالها التي لا يعلم إلا الله مداها . ومنه سائر ما

يختبئ في جوف الأرض من معادن ومياه وأسرار لا يعلمها إلا بارئها . وقد حملت حملها هذا أجيالا بعد أجيال , وقرونا بعد قرون . حتى إذا كان ذلك اليوم:ألقت ما فيها وتخلت . .

(وأذنت لربها وحقت). . هي الأخرى كما أذنت السماء لربها وحقت . واستجابت لأمره مستسلمة مذعنة , معترفة أن هذا حق عليها , وأنها طائعة لربها بحقه هذا عليها . .

وتبدو السماء والأرض - بهذه الآيات المصورة - ذواتي روح . وخليقتين من الأحياء . تستمعان للأمر , وتلبيان للفور , وتطيعان طاعة المعترف بِ الحق , المستسلم لمقتضاه , استسلاما لا التواء فيه ولا إكراه .

ومع أن المشهد من مشاهد الانقلاب الكوني في ذلك اليوم . فإن صورته هنا يظللها الخشوع والجلال والوقار والهدوء العميق الظلال . والذي يتبقى في الحس منه هو ظل الاستسلام الطائع الخاشع في غير ما جلبة ولا معارضة ولا كلام !

الدرس الثاني:6 - 15 كدح الإنسان وملاقاته له من يأخذ كتابه بيمينه ومن يأخذه وراء ظهره

وفي هذا الجو الخاشع الطائع يجيء النداء العلوي للإنسان , وأمامه الكون بسمائه وأرضه مستسلما لربه هذا الاستسلام:

(يا أيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحا فملاقيه). .

(يا أيها الإنسان). . الذي خلقه ربه بإحسان ; والذي ميزه بهذه "الإنسانية " التي تفرده في هذا الكون بخصائص كان من شأنها أن يكون أعرف بربه , وأطوع لأمره من الأرض والسماء . وقد نفخ فيه من روحه , وأودعه القدرة على الإتصال به , وتلقي قبس من نوره , والفرح باستقبال فيوضاته , والتطهر بها أو الارتفاع إلى غير حد , حتى يبلغ الكمال المقدر لجنسه , وآفاق هذا الكمال عالية بعيدة !

(يا أيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحا فملاقيه). . يا أيها الإنسان إنك تقطع رحلة حياتك على الأرض كادحا , تحمل عبئك , وتجهد جهدك , وتشق طريقك . . لتصل في النهاية إلى ربك . فإليه المرجع وإليه المآب . بعد الكد والكدح والجهاد . .

يا أيها الإنسان . . إنك كادح حتى في متاعك . . فأنت لا تبلغه في هذه ا لأرض إلا بجهد وكد . إن لم يكن جهد بدن وكد عمل , فهو جهد تفكير وكد مشاعر . الواجد والمحروم سواء . إنما يختلف نوع الكدح ولون العناء , وحقيقة الكدح هي المستقرة في حياة الإنسان . . ثم في النهاية في آخر المطاف إلى الله سواء .

يا أيها الإنسان . . إنك لا تجد الراحة في الأرض أبدا . إنما الراحة هناك . لمن يقدم لها بالطاعة والاستسلام . . والتعب واحد في الأرض والكدح واحد - وإن اختلف لونه وطعمه - أما العاقبة فمختلفة عندما تصل إلى ربك . . فواحد إلى عناء دونه عناء الأرض . وواحد إلى نعيم يمسح على آلام الأرض كأنه لم يكن كدح ولا كد . .

يا أيها الإنسان . . الذي امتاز بخصائص "الإنسان" . . ألا فاختر لنفسك ما يليق بهذا الامتياز الذي خصك به الله , اختر لنفسك الراحة من الكدح عندما تلقاه .

ولأن هذه اللمسة الكامنة في هذا النداء , فإنه يصل بها مصائر الكادحين عندما يصلون إلى نهاية الطريق ,

وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاء ظَهْرِهِ (10) فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُوراً (11)
ويلقون ربهم بعد الكدح والعناء:

(وأما من أوتي كتابه وراء ظهره فسوف يدعو ثبورا , ويصلى سعيرا . إنه كان في أهله مسرورا . إنه ظن أن لن يحور . بلى إن ربه كان به بصيرا). .

والذي يؤتى كتابه بيمينه هو المرضي السعيد , الذي آمن وأحسن , فرضي الله عنه وكتب له النجاة . وهو يحاسب حسابا يسيرا . فلا يناقش ولا يدقق معه في الحساب . والذي يصور ذلك هو الآثار الواردة عن الرسول [ص] وفيها غناء . .

عن عائشة - رضي الله عنها - قالت:قال رسول الله [ص]:" من نوقش الحساب عذب " قالت:قلت:أفليس قال الله تعالى:(فسوف يحاسب حسابا يسيرا). قال:" ليس ذلك بالحساب , ولكن ذلك العرض . من نوقش الحساب يوم القيامة عذب " . .

وعنها كذلك قالت:سمعت رسول الله [ص] يقول في بعض صلاته:" الله م حاسبني حسابا يسيرا " . . فلما انصرف قلت:يا رسول الله , ما الحساب اليسير ? قال:" أن ينظر في كتابه فيتجاوز له عنه . من نوقش الحساب يا عائشة يومئذ هلك " . .

فهذا هو الحساب اليسير الذي يلقاه من يؤتى كتابه بيمينه . . ثم ينجو(وينقلب إلى أهله مسرورا). . من الناجين الذين سبقوه إلى الجنة . . وهو تعبير يفيد تجمع المتوافقين على الإيمان والصلاح من أهل الجنة . كل ومن أحب من أهله وصحبه . ويصور رجعة الناجي من الحساب إلى مجموعته المتآلفة بعد الموقف العصيب . رجعته متهللا فرحا مسرورا بالنجاة واللقاء في الجنان !

وهو وضع يقابل وضع المعذب الهالك المأخوذ بعمله السيء , الذي يؤتى كتابه وهو كاره:

(وأما من أوتي كتابه وراء ظهره فسوف يدعو ثبورا . ويصلى سعيرا). .

والذي ألفناه في تعبيرات القرآن من قبل هو كتاب اليمين وكتاب الشمال . فهذه صورة جديدة:صورة إعطاء الكتاب من وراء الظهر . وليس يمتنع أن يكون الذي يعطى كتابه بشماله يعطاه كذلك من وراء ظهره . فهي هيئة الكاره المكره الخزيان من المواجهة !

ونحن لا ندري حقيقة الكتاب ولا كيفية إيتائه باليمين أو بالشمال أو من وراء الظهر . إنما تخلص لنا حقيقة النجاة من وراء التعبير الأول ; وحقيقة الهلاك من وراء التعبير الثاني . وهما الحقيقتان المقصود أن نستيقنهما . وما وراء ذلك من الأشكال إنما يحيي المشهد ويعمق أثره في الحس , والله أعلم بحقيقة ما يكون كيف تكون !

فهذا التعيس الذي قضى حياته في الأرض كدحا , وقطع طريقه إلى ربه كدحا - ولكن في المعصية والإثم والضلال - يعرف نهايته , ويواجه مصيره , ويدرك أنه العناء الطويل بلا توقف في هذه المرة ولا انتهاء . فيدعو ثبورا , وينادي الهلاك لينقذه مما هو مقدم عليه من الشقاء . وحين يدعو الإنسان بالهلاك لينجو به , يكون في الموقف الذي ليس بعده ما يتقيه . حتى ليصبح الهلاك أقصى أمانيه . وهذا هو المعنى الذي أراده المتنبي وهو يقول:كفى بك داء أن ترى الموت شافيا وحسب المنايا أن يكن أمانيا

وَيَصْلَى سَعِيراً (12) إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُوراً (13) إِنَّهُ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ (14) بَلَى إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيراً (15) فَلَا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ (16) وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ (17) وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ (18)

فإنما هي التعاسة التي ليس بعدها تعاسة . والشقاء الذي ليس بعده شقاء ! . .(ويصلى سعيرا). . وهذا هو الذي يدعو الهلاك لينقذه منه . . وهيهات هيهات !

وأمام هذا المشهد التعيس يكر السياق راجعا إلى ماضي هذا الشقي الذي انتهى به إلى هذا الشقاء . .

(إنه كان في أهله مسرورا . إنه ظن أن لن يحور). .

وذلك كان في الدنيا . . نعم كان . . فنحن الآن - مع هذا القرآن - في يوم الحساب والجزاء وقد خلفنا الأرض وراءنا بعيدا في الزمان والمكان !

(إنه كان في أهله مسرورا). . غافلا عما وراء اللحظة الحاضرة ; لاهيا عما ينتظره في الدار الآخرة , لا يحسب لها حسابا ولا يقدم لها زادا . .(إنه ظن أن لن يحور)إلى ربه , ولن يرجع إلى بارئه , ولو ظن الرجعة في نهاية المطاف لاحتقب بعض الزاد ولادخر شيئا للحساب !

(بلى إن ربه كان به بصيرا). .

إنه ظن أن لن يحور . ولكن الحقيقة أن ربه كان مطلعا على أمره , محيطا بحقيقته , عالما بحركاته وخطواته , عارفا أنه صائر إليه , وأنه مجازيه بما كان منه . . وكذلك كان , حين انتهى به المطاف إلى هذا المقدور في علم الله . والذي لم يكن بد أن يكون !

وصورة هذا التعيس وهو مسرور بين أهله في حياة الأرض القصيرة المشوبة بالكدح - في صورة من صور الكدح - تقابلها صورة ذلك السعيد , وهو ينقلب إلى أهله مسرورا في حياة الآخرة المديدة , الطليقة , الجميلة , السعيدة , الهنيئة , الخالية من كل شائبة من كدح أو عناء . .

الدرس الثالث:16 - 19 القسم بمشاهد الكون على تغيير أحوال الناس

ومن هذه الجولة الكبيرة العميقة الأثر بمشاهدها ولمساتها الكثيرة , يعود السياق بهم إلى لمحات من هذا الكون الذي يعيشون فيه حياتهم , وهم غافلون عما تشي به هذه اللمحات من التدبير والتقدير , الذي يشملهم كذلك , ويقدر بإحكام ما يتوارد عليهم من أحوال:

(فلا أقسم بالشفق , والليل وما وسق , والقمر إذا اتسق . . لتركبن طبقا عن طبق). .

وهذه اللمحات الكونية التي يلوح بالقسم بها , لتوجيه القلب البشري إليها , وتلقي إيحاءاتها وإيقاعاتها . . لمحات ذات طابع خاص . طابع يجمع بين الخشوع الساكن , والجلال المرهوب . وهي تتفق في ظلالها مع ظلال مطلع السورة ومشاهدها بصفة عامة .

فالشفق هو الوقت الخاشع المرهوب بعد الغروب . . وبعد الغروب تأخذ النفس روعة ساكنة عميقة . ويحس القلب بمعنى الوداع وما فيه من أسى صامت وشجى عميق . كما يحس برهبة الليل القادم , ووحشة الظلام الزاحف . ويلفه في النهاية خشوع وخوف خفي وسكون !

(والليل وما وسق). . هو الليل وما جمع وما حمل . . بهذا التعميم , وبهذا التجهيل , وبهذا التهويل . والليل يجمع ويضم ويحمل الكثير . . ويذهب التأمل بعيدا , وهو يتقصى ما يجمعه الليل ويضمه ويحمله من أشياء وأحياء وأحداث ومشاعر , وعوالم خافية ومضمرة , ساربة في الأرض وغائرة في الضمير . . ثم يؤوب من هذه الرحلة المديدة , ولم يبلغ من الصور ما يحتويه النص القرآني القصير:(والليل وما وسق). . إنما يغمره من النص العميق العجيب , رهبة ووجل , وخشوع وسكون تتسق مع الشفق وما يضفيه من خشوع وخوف وسكون !

لَتَرْكَبُنَّ طَبَقاً عَن طَبَقٍ (19) فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (20) وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ (21) بَلِ الَّذِينَ كَفَرُواْ يُكَذِّبُونَ (22) وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ (23) فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (24)

(والقمر إذا اتسق). . مشهد كذلك هادئ رائع ساحر . . وهو القمر في ليالي اكتماله . . وهو يفيض على الأرض بنوره الحالم الخاشع الموحي بـ

الصمت الجليل , والسياحة المديدة , في العوالم الظاهرة والمكنونة في الشعور . . وهو جو له صلة خفية بجو الشفق , والليل وما وسق . يلتقي معهما في الجلال والخشوع السكون . .

هذه اللمحات الكونية الجميلة الجليلة الرائعة المرهوبة الموحية يلتقطها القرآن لقطات سريعة , ويخاطب بها القلب البشري , الذي يغفل عن خطابها الكوني . ويلوح بالقسم بها ليبرزها للمشاعر والضمائر , في حيويتها , وجمالها وإيحائها وإيقاعها , ودلالتها على اليد التي تمسك بأقدار هذا الكون , وترسم خطواته , وتبدل أحواله . . وأحوال الناس أيضا وهم غافلون:

(لتركبن طبقا عن طبق). . أي لتعانون حالا بعد حال , وفق ما هو مرسوم لكم من تقديرات وأحوال . ويعبر عن معاناة الأحوال المتعاقبة بركوبها . والتعبير بركوب الأمور والأخطار والأهوال والأحوال مألوف في التعبير العربي , كقولهم:"إن المضطر يركب الصعب من الأمور وهو عالم بركوبه" . . وكأن هذه الأحوال مطايا يركبها الناس واحدة بعد واحدة . وكل منها تمضي بهم وفق مشيئة القدر الذي يقودها ويقودهم في الطريق , فتنتهي بهم عند غاية تؤدي إلى رأس مرحلة جديدة , مقدرة كذلك مرسومة , كتقدير هذه الأحوال المتعاقبة على الكون من الشفق , والليل وما وسق , والقمر إذا اتسق . حتى تنتهي بهم إلى لقاء ربهم , الذي تحدثت عنه الفقرة السالفة . . وهذا التتابع المتناسق في فقرات السورة , والانتقال اللطيف من معنى إلى معنى , ومن جولة إلى جولة , هو سمة من سمات هذا القرآن البديع . .

الدرس الرابع:20 - 25 لوم وعذاب الكفار لعدم إيمانهم وثواب المؤمنين الصالحين

وفي ظل هذه اللمحات الأخيرة , والمشاهد والجولات السابقة لها في السورة , يجيء التعجيب من أمر الذين لا يؤمنون . وأمامهم هذا الحشد من موحيات الإيمان ودلائله في أنفسهم وفي الوجود:

فما لهم لا يؤمنون ? و إذا قرئ عليهم القرآن لا يسجدون ? . .

أجل ! فما لهم لا يؤمنون ?

إن موحيات الإيمان في لمحات الوجود , وفي أحوال النفوس , تواجه القلب البشري حيثما توجه ; وتتكاثر عليه أينما كان . وهي من الكثرة و العمق والقوة والثقل في ميزان الحقيقة بحيث تحاصر هذا القلب لو أراد التفلت منها . بينما هي تناجيه وتناغيه وتناديه حيثما ألقى بسمعه وقلبه إليها !

(فما لهم لا يؤمنون ? وإذا قرئ عليهم القرآن لا يسجدون ?)وهو يخاطبهم بلغة الفطرة , ويفتح قلوبهم على موحيات الإيمان ودلائله في الأنفس والآفاق . ويستجيش في هذه القلوب مشاعر التقوى والخشوع والطاعة والخضوع لبارئ الوجود . . وهو "السجود" . .

إن هذا الكون جميل . وموح . وفيه من اللمحات والومضات واللحظات والسبحات ما يستجيش في القلب البشري أسمى مشاعر الاستجابة و الخشوع .

وإن هذا القرآن جميل . وموح . وفيه من اللمسات والموحيات ما يصل القلب البشري بالوجود الجميل , وببارئ الوجود الجليل . ويسكب فيه حقيقة الكون الكبيرة الموحية بحقيقة خالقه العظيم . .(فما لهم لا يؤمنون ? وإذا قرئ عليهم القرآن لا يسجدون ?). .

إنه لأمر عجيب حقا . يضرب عنه السياق ليأخذ في بيان حقيقة حال الكفار , وما ينتظرهم من مآل:

إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ (25)

(بل الذين كفروا يكذبون . والله أعلم بما يوعون . فبشرهم بعذاب أليم).
.

بل الذين كفروا يكذبون . يكذبون إطلاقا . فالتكذيب طابعهم وميسمهم وطبعهم الأصيل . والله أعلم بما يكنون في صدورهم , ويضمون عليه جوانحهم , من شر وسوء ودوافع لهذا التكذيب . .

ويترك الحديث عنهم , ويتجه بالخطاب إلى الرسول الكريم: (فبشرهم بعذاب أليم). . ويا لها من بشرى لا تسر ولا يودها متطلع إلى بشرى من بشير !

وفي الوقت ذاته يعرض ما ينتظر المؤمنين الذين لا يكذبون , فيستعدون بالعمل الصالح لما يستقبلون . ويجيء هذا العرض في السياق كأنه استثناء من مصير الكفار المكذبين:

(إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات . لهم أجر غير ممنون). .

وهو الذي يقال عنه في اللغة إنه استثناء منقطع . فالذين آمنوا وعملوا الصالحات لم يكونوا داخلين ابتداء في تلك البشارة السوداء ثم استثنوا منها ! ولكن التعبير على هذا النحو أشد إثارة للانتباه إلى الأمر المستثنى !

والأجر غير الممنون . . هو الأجر الدائم غير المقطوع . . في دار البقاء و الخلود . .

وبهذا الإيقاع الحاسم القصير , تنتهي السورة القصيرة العبارة , البعيدة ا لآماد في مجالات الكون والضمير .

وَالسَّمَاء ذَاتِ الْبُرُوجِ (1) وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ (2) وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ (3) قُتِلَ
أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ (4) النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ (5) إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ (6) وَهُمْ
عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ (7) وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ
الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ (8) الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ
شَهِيدٌ (9)

سورة البروج

تعريف بسورة البروج

هذه السورة القصيرة تعرض , حقائق العقيدة , وقواعد التصور الإيماني . . أمورا عظيمة وتشع حولها أضواء قوية بعيدة المدى , وراء المعاني و الحقائق المباشرة التي تعبر عنها نصوصها حتى لتكاد كل آية - وأحيانا كل كلمة في الآية - أن تفتح كوة على عالم مترامي الأطراف من الحقيقة . .

والموضوع المباشر الذي تتحدث عنه السورة هو حادث أصحاب الأ خدود . . والموضوع هو أن فئة من المؤمنين السابقين على الإسلام - قيل إنهم من النصارى الموحدين - ابتلوا بأعداء لهم طغاة قساة شريرين , وأرادوهم على ترك عقيدتهم والارتداد عن دينهم , فأبوا وتمنعوا بعقيدتهم . فشق الطغاة لهم شقا في الأرض , وأوقدوا فيه النار , وكبوا فيه جماعة المؤمنين فماتوا حرقا , على مرأى من الجموع التي حشدها المتسلطون لتشهد مصرع الفئة المؤمنةبهذه الطريقة البشعة , ولكي يتلهى الطغاة بمشهد الحريق . حريق الآدميين المؤمنين:(وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد). .

تبدأ السورة بقسم:(والسماء ذات البروج , واليوم الموعود , وشاهد

ومشهود , قتل أصحاب الأخدود . .)فتربط بين السماء وما فيها من بروج هائلة , واليوم الموعود وأحداثه الضخام , والحشود التي تشهده و الأحداث المشهودة فيه . . تربط بين هذا كله وبين الحادث ونقمة السماء على أصحابه البغاة .

ثم تعرض المشهد المفجع في لمحات خاطفة , تودع المشاعر بشاعة الحادث بدون تفصيل ولا تطويل . . مع التلميح إلى عظمة العقيدة التي تعالت على فتنة الناس مع شدتها , وانتصرت على النار وعلى الحياة ذاتها , وارتفعت إلى الأوج الذي يشرف الإنسان في أجياله جميعا . و التلميح إلى بشاعة الفعلة , وما يكمن فيها من بغي وشر وتسفل , إلى جانب ذلك الارتفاع والبراءة والتطهر من جانب المؤمنين:(النار ذات الوقود . إذ هم عليها قعود . وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود). .

بعد ذلك تجيء التعقيبات المتوالية القصيرة متضمنة تلك الأمور العظيمة في شأن الدعوة والعقيدة والتصور الإيماني الأصيل:

إشارة إلى ملك الله في السماوات والأرض وشهادته وحضوره تعالى لكل ما يقع في السماوات والأرض:الله(الذي له ملك السماوات والأرض . و الله على كل شيء شهيد). .

وإشارة إلى عذاب جهنم وعذاب الحريق الذي ينتظر الطغاة الفجرة السفلة ; وإلى نعيم الجنة . . ذلك الفوز الكبير . . الذي ينتظر المؤمنين الذين اختاروا عقيدتهم على الحياة , وارتفعوا على فتنة النار و الحريق:(إن الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات - ثم لم يتوبوا - فلهم عذاب جهنم ولهم عذاب الحريق . إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم جنات تجري من تحتها الأنهار . ذلك الفوز الكبير). .

وتلويح ببطش الله الشديد , الذي يبدئ ويعيد:(إن بطش ربك لشديد . إنه هو يبدئ ويعيد). . وهي حقيقة تتصل اتصالا مباشرا بالحياة التي أزهقت في الحادث , وتلقي وراء الحادث إشعاعات بعيدة . .

وبعد ذلك بعض صفات الله تعالى . وكل صفة منها تعني أمرا . .

(وهو الغفور الودود)الغفور للتائبين من الإثم مهما عظم وبشع . الودود لعباده الذين يختارونه على كل شيء . والود هنا هو البلسم المريح لمثل تلك القروح !

(ذو العرش المجيد . فعال لما يريد). . وهي صفات تصور الهيمنة المطلقة , والقدرة المطلقة , والإرادة المطلقة . . وكلها ذات اتصال بـ الحادث . . كما أنها تطلق وراءه إشعاعات بعيدة الآماد .

ثم إشارة سريعة إلى سوابق من أخذه للطغاة , وهم مدججون بالسلاح . .(هل أتاك حديث الجنود . فرعون وثمود ?)وهما مصرعان متنوعان في طبيعتهما وآثارهما . ووراءهما - مع حادث الأخدود - إشعاعات كثيرة .

وفي الختام يقرر شأن الذين كفروا وإحاطة الله بهم وهم لا يشعرون:(بل الذين كفروا في تكذيب . والله من ورائهم محيط). .

ويقرر حقيقة القرآن , وثبات أصله وحياطته:(بل هو قرآن مجيد في لوح محفوظ). . مما يوحي بأن ما يقرره هو القول الفصل والمرجع الأخير , في كل الأمور .

هذه لمحات مجملة عن إشعاعات السورة ومجالها الواسع البعيد . تمهد لا ستعراض هذه الإشعاعات بالتفصيل:

الدرس الأول:1 - 3 القسم بمخلوقات عظيمة (والسماء ذات البروج , و اليوم الموعود , وشاهد ومشهود). .

تبدأ السورة - قبل الإشارة إلى حادث الأخدود - بهذا القسم:بالسماء ذات البروج , وهي إما أن تكون أجرام النجوم الهائلة وكأنها بروج السماء الضخمة أي قصورها المبنية , كما قال:(والسماء بنيناها بأيد وإنا لموسعون). . وكما قال(أأنتم أشد خلقا أم السماء بناها). . وإما أن تكون هي المنازل التي تتنقل فيها تلك الأجرام في أثناء دورانها , وهي مجالا

تها التي لا تتعداها في جريانها في السماء . والإشارة إليها يوحي بـ
الضخامة . وهو الظل المراد إلقاؤه في هذا الجو .

(واليوم الموعود). . وهو يوم الفصل في أحداث الدنيا , وتصفية حساب الأرض وما كان فيها . وهو الموعود الذي وعد الله بمجيئه , ووعد بـ
الحساب والجزاء فيه ; وأمهل المتخاصمين والمتقاضين إليه . وهو اليوم العظيم الذي تتطلع إليه الخلائق , وتترقبه لترى كيف تصير الأ
مور .

(وشاهد ومشهود). . في ذلك اليوم الذي تعرض فيه الأعمال , وتعرض فيه الخلائق , فتصبح كلها مشهودة , ويصبح الجميع شاهدين . . ويعلم كل شيء . ويظهر مكشوفا لا يستره ساتر عن القلوب والعيون . .

وتلتقي السماء ذات البروج , واليوم الموعود , وشاهد ومشهود . . تلتقي جميعا في إلقاء ظلال الاهتمام والاحتفال والاحتشاد والضخامة على الجو الذي يعرض فيه بعد ذلك حادث الأخدود . . كما توحي بالمجال الواسع الشامل الذي يوضع فيه هذا الحادث . وتوزن فيه حقيقته ويصفى فيه حسابه . . وهو أكبر من مجال الأرض , وأبعد من مدى الحياة الدنيا وأجلها المحدود . .

الدرس الثاني:4 - 9 جريمة أصحاب الأخدود في حرق المؤمنين بالنار

وبعد رسم هذا الجو , وفتح هذا المجال , تجيء الإشارة إلى الحادث في لمسات قلائل:

(قتل أصحاب الأخدود . النار ذات الوقود . إذ هم عليها قعود . وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود . وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد . الذي له ملك السماوات والأرض , والله على كل شيء شهيد). .

وتبدأ الإشارة إلى الحادث بإعلان النقمة على أصحاب الأخدود:(قتل أصحاب الأخدود). . وهي كلمة تدل على الغضب . غضب الله على

الفعلة وفاعليها . كما تدل على شناعة الذنب الذي يثير غضب الحليم , ونقمته , ووعيده بالقتل لفاعليه .

ثم يجيء تفسير الأخدود:(النار ذات الوقود)والأخدود:الشق في الأرض . وكان أصحابه قد شقوه وأوقدوا فيه النار حتى ملأوه نارا , فصارت النار بدلا في التعبير من الأخدود للإيحاء بتلهب النار فيه كله وتوقدها .

قتل أصحاب الأخدود , واستحقوا هذه النقمة وهذا الغضب , في الحالة التي كانوا عليها وهم يرتكبون ذلك الإثم , ويزاولون تلك الجريمة:(إذ هم عليها قعود . وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود). . وهو تعبير يصور موقفهم ومشهدهم , وهم يوقدون النار , ويلقون بالمؤمنين و المؤمنات فيها وهم قعود على النار , قريبون من عملية التعذيب البشعة , يشاهدون أطوار التعذيب , وفعل النار في الأجسام في لذة وسعار , كأنما يثبتون في حسهم هذا المشهد البشع الشنيع !

وما كان للمؤمنين من ذنب عندهم ولا ثأر:(وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد . الذي له ملك السماوات والأرض . والله على كل شيء شهيد). . فهذه جريمتهم أنهم آمنوا بالله , العزيز:القادر على ما يريد , الحميد:المستحق للحمد في كل حال , والمحمود بذاته ولو لم يحمده الجهال ! وهو الحقيق بالإيمان وبالعبودية له . وهو وحده الذي له ملك السماوات والأرض وهو يشهد كل شيء وتتعلق به إرادته تعلق الحضور .

إِنّ الّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ (10) إِنّ الّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصّالِحَاتِ لَهُمْ جَنّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ (11)

ثم هو الشهيد على ما كان من أمر المؤمنين وأصحاب الأخدود . . وهذه

لمسة تطمئن قلوب المؤمنين , وتهدد العتاة المتجبرين . فالله كان شهيدا . وكفى بالله شهيدا .

وتنتهي رواية الحادث في هذه الآيات القصار , التي تملأ القلب بشحنة من الكراهية لبشاعة الفعلة وفاعليها , كما تستجيش فيه التأمل فيما وراء الحادث ووزنه عند الله وما استحقه من نقمته وغضبه . فهو أمر لم ينته بعد عند هذا الحد , ووراءه في حساب الله ما وراءه .

كذلك تنتهي رواية الحادث وقد ملأت القلب بالروعة . روعة الإيمان المستعلي على الفتنة , والعقيدة المنتصرة على الحياة , والانطلاق المتجرد من أوهاق الجسم وجاذبية الأرض . فقد كان في مكنة المؤمنين أن ينجوا بحياتهم في مقابل الهزيمة لإيمانهم . ولكن كم كانوا يخسرون هم أنفسهم في الدنيا قبل الآخرة ? وكم كانت البشرية كلها تخسر ? كم كانوا يخسرون وهم يقتلون هذا المعنى الكبير:معنى زهادة الحياة بلا عقيدة , وبشاعتها بلا حرية , وانحطاطها حين يسيطر الطغاة على الأرواح بعد سيطرتهم على الأجساد ! إنه معنى كريم جدا ومعنى كبير جدا هذا الذي ربحوه وهم بعد في الأرض . ربحوه وهم يجدون مس النار فتحترق أجسادهم , وينتصر هذا المعنى الكريم الذي تزكيه النار ? وبعد ذلك لهم عند ربهم حساب , ولأعدائهم الطاغين حساب . . يعقب به السياق . .

الدرس الثالث:10 - 11 حرق الكفار في جهنم ونجاة المؤمنين وفوزهم بـ الجنة

(إن الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات - ثم لم يتوبوا - فلهم عذاب جهنم ولهم عذاب الحريق . إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم جنات تجري من تحتها الأنهار . ذلك الفوز الكبير). .

إن الذي حدث في الأرض وفي الحياة الدنيا ليس خاتمة الحادث وليس نهاية المطاف . فالبقية آتية هناك . والجزاء الذي يضع الأمر في نصابه ,

ويفصل فيما كان بين المؤمنين والطاغين آت . وهو مقرر مؤكد , وواقع كما يقول عنه الله:

(إن الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات). . ومضوا في ضلالتهم سادرين , لم يندموا على ما فعلوا (ثم لم يتوبوا). . (فلهم عذاب جهنم ولهم عذاب الحريق). . وينص على(الحريق). وهو مفهوم من عذاب جهنم . ولكنه ينطق به وينص عليه ليكون مقابلا للحريق في الأخدود . وبنفس اللفظ الذي يدل على الحدث . ولكن أين حريق من حريق ? في شدته أو في مدته ! وحريق الدنيا بنار يوقدها الخلق . وحريق الآخرة بنار يوقدها الخالق ! وحريق الدنيا لحظات وتنتهي , وحريق الآخرة آباد لا يعلمها إلا الله ! ومع حريق الدنيا رضى الله عن المؤمنين وانتصار لذلك المعنى الإ نساني الكريم . ومع حريق الآخرة غضب الله , والارتكاس الهابط الذميم !

ويتمثل رضى الله وإنعامه على الذين آمنوا وعملوا الصالحات في الجنة: (إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم جنات تجري من تحتها الأنهار). . وهذه هي النجاة الحقيقية: (ذلك الفوز الكبير). . والفوز:النجاة و النجاح . والنجاة من عذاب الآخرة فوز . فكيف بالجنات تجري من تحتها الأنهار ?

بهذه الخاتمة يستقر الأمر في نصابه . وهي الخاتمة الحقيقية للموقف . فلم يكن ما وقع منه في الأرض إلا طرفا من أطرافه , لا يتم به تمامه . . وهذه هي الحقيقة التي يهدف إليها هذا التعقيب الأول على الحادث لتستقر في قلوب القلة المؤمنة في مكة , وفي قلوب كل فئة مؤمنة تتعرض للفتنة على مدار القرون .

إِنّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ (12) إِنّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ (13) وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ

(14) ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ (15) فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ (16) هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ (17) فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ (18)

الدرس الرابع 12 - 18 تعقيبات على قصة أصحاب الأخدود , من صفات الله وهلاك الكفار ثم تتوالى التعقيبات . .

(إن بطش ربك لشديد). . وإظهار حقيقة البطش وشدته في هذا الموضع هو الذي يناسب ما مر في الحادث من مظهر البطش الصغير الهزيل الذي يحسبه أصحابه ويحسبه الناس في الأرض كبيرا شديدا . فالبطش الشديد هو بطش الجبار . الذي له ملك السماوات والأرض . لا بطش الضعاف المهازيل الذين يتسلطون على رقعة من الأرض محدودة , في رقعة من الزمان محدودة . .

ويظهر التعبير العلاقة بين المخاطب - وهو الرسول [ص] والقائل وهو الله عز وجل . وهو يقول له: (إن بطش ربك . .)ربك الذي تنتسب إلى ربوبيته , وسندك الذي تركن إلى معونته . . ولهذه النسبة قيمتها في هذا المجال الذي يبطش فيه الفجار بالمؤمنين !

(إنه هو يبدئ ويعيد). . والبدء والإعادة وإن اتجه معناهما الكلي إلى النشأة الأولى والنشأة الآخرة . . إلا أنهما حدثان دائبان في كل لحظة من ليل أو نهار . ففي كل لحظة بدء وإنشاء , وفي كل لحظة إعادة لما بلي ومات . والكون كله في تجدد مستمر . . وفي بلى مستمر . . وفي ظل هذه الحركة الدائبة الشاملة من البدء والإعادة يبدو حادث الأخدود ونتائجه الظاهرة مسألة عابرة في واقع الأمر وحقيقة التقدير . فهو بدء لإعادة . أو إعادة لبدء . في هذه الحركة الدائبة الدائرة . .

(وهو الغفور الودود). . والمغفرة تتصل بقوله من قبل: (ثم لم يتوبوا). . فهي من الرحمة والفضل الفائض بلا حدود ولا قيود . وهي الباب المفتوح الذي لا يغلق في وجه عائد تائب . ولو عظم الذنب وكبرت المعصية . . أما الود . . فيتصل بموقف المؤمنين , الذين اختاروا ربهم على كل شيء . وهو الإيناس اللطيف الحلو الكريم . حين يرفع الله

عباده الذين يؤثرونه ويحبونه إلى مرتبة , يتحرج القلم من وصفها لولا أن فضل الله يجود بها . . مرتبة الصداقة . . الصداقة بين الرب والعبد . . ودرجة الود من الله لأودائه وأحبائه المقربين . . فماذا تكون الحياة التي ضحوا بها وهي ذاهبة ? وماذا يكون العذاب الذي احتملوه وهو موقوت ? ماذا يكون هذا إلى جانب قطرة من هذا الود الحلو ? وإلى جانب لمحة من هذا الإيناس الحبيب ?

إن عبيدا من رقيق هذه الأرض . عبيد الواحد من البشر , ليلقون بأنفسهم إلى التهلكة لكلمة تشجيع تصدر من فمه , أو لمحة رضاء تبدو في وجهه . . وهو عبد وهم عبيد . . فكيف بعباد الله . الذين يؤنسهم الله بوده الكريم الجليل , الله(ذو العرش المجيد)العالي المهيمن الماجد الكريم ? ألا هانت الحياة . وهان الألم . وهان العذاب . وهان كل غال عزيز , في سبيل لمحة رضى يجود بها المولى الودود ذو العرش المجيد . .

(فعال لما يريد). . هذه صفته الكثيرة التحقق , الدائبة العمل . . فعال لما يريد . . فهو مطلق الإرادة , يختار ما يشاء ; ويفعل ما يريده ويختاره , دائما أبدا , فتلك صفته سبحانه .

يريد مرة أن ينتصر المؤمنون به في هذه الأرض لحكمة يريدها . ويريد مرة أن ينتصر الإيمان على الفتنة وتذهب الأجسام الفانية لحكمة يريدها . . يريد مرة أن يأخذ الجبارين في الأرض . ويريد مرة أن يمهلهم لليوم الموعود . . لحكمة تتحقق هنا وتتحقق هناك , في قدره المرسوم . .

فهذا طرف من فعله لما يريد . يناسب الحادث ويناسب ما سيأتي من حديث فرعون وثمود . وتبقى حقيقة الإرادة الطليقة والقدرة المطلقة وراء الأحداث ووراء الحياة والكون تفعل فعلها في الوجود . فعال لما يريد . . وهاك نموذجا من فعله لما يريد:

بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ (19) وَاللَّهُ مِن وَرَائِهِم مُّحِيطٌ (20) بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ (21) فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ (22)

(هل أتاك حديث الجنود:فرعون وثمود ?). وهي إشارة إلى قصتين طويلتين , ارتكانا إلى المعلوم من أمرهما للمخاطبين , بعدما ورد ذكرهما كثيرا في القرآن الكريم . ويسميهم الجنود . إشارة إلى قوتهم واستعدادهم . . هل أتاك حديثهم ? وكيف فعل ربك بهم ما يريد ?

وهما حديثان مختلفان في طبيعتهما وفي نتائجهما . . فأما حديث فرعون , فقد أهلكه الله وجنده ونجى بني إسرائيل , ومكن لهم في الأرض فترة , ليحقق بهم قدرا من قدره , وإرادة من إرادته . وأما حديث ثمود فقد أهلكهم الله عن بكرة أبيهم وأنجى صالحا والقلة معه حيث لم يكن لهم بعد ذلك ملك ولا تمكين . إنما هي مجرد النجاة من القوم الفاسقين .

وهما نموذجان لفعل الإرادة , وتوجه المشيئة . وصورتان من صور الدعوة إلى الله واحتمالاتها المتوقعة , إلى جانب الاحتمال الثالث الذي وقع في حادث الأخدود . . وكلها يعرضها القرآن للقلة المؤمنة في مكة , ولكل جيل من أجيال المؤمنين . .

الدرس الخامس:19 - 22 هزيمة الكفار وحفظ القرآن

وفي الختام يجيء إيقاعان قويان جازمان . في كل منهما تقرير , وكلمة فصل وحكم أخير:

(بل الذين كفروا في تكذيب , والله من ورائهم محيط). .

فشأن الكفار وحقيقة حالهم أنهم في تكذيب يمسون به ويصبحون .(والله من ورائهم محيط) . وهم غافلون عما يحيط بهم من قهر الله

وعلمه . فهم أضعف من الفيران المحصورة في الطوفان العميم !

(بل هو قرآن مجيد في لوح محفوظ). .

والمجيد الرفيع الكريم العريق . . وهل أمجد وأرفع وأعرق من قول الله العظيم ? وهو في لوح محفوظ . لا ندرك نحن طبيعته , لأنه من أمر الغيب الذي تفرد الله بعلمه . إنما ننتفع نحن بالظل الذي يلقيه التعبير , و الإيحاء الذي يتركه في القلوب . وهو أن هذا القرآن مصون ثابت , قوله هو المرجع الأخير , في كل ما يتناوله من الأمور . يذهب كل قول , وقوله هو المرعي المحفوظ . .

ولقد قال القرآن قوله في حادث الأخدود , وفي الحقيقة التي وراءه . . وهو القول الأخير . .

سورة الطارق

وَالسّمَاء وَالطّارِقِ (1) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطّارِقُ (2) النّجْمُ الثّاقِبُ (3) إِن كُلّ
نَفْسٍ لّمّا عَلَيْهَا حَافِظٌ (4) فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ مِمّ خُلِقَ (5) خُلِقَ مِن مّاء
دَافِقٍ (6) يَخْرُجُ مِن بَيْنِ الصّلْبِ وَالتّرَائِبِ (7) إِنّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ (8)
يَوْمَ تُبْلَى السّرَائِرُ (9) فَمَا لَهُ مِن قُوّةٍ وَلَا نَاصِرٍ (10) وَالسّمَاء ذَاتِ الرّجْعِ
(11) وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصّدْعِ (12) إِنّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ (13) وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ
(14)

سورة الطارق

تعريف بسورة الطارق

جاء في مقدمة هذا الجزء أن سوره تمثل طرقات متوالية على الحس . طرقات عنيفة قوية عالية , وصيحات بنوم غارقين في النوم . . . تتوالى على حسهم تلك الطرقات والصيحات بإيقاع واحد , ونذير

واحد . "اصحوا . تيقظوا . انظروا . تلفتوا . تفكروا . تدبروا . إن هنالك إلها . وإن هنالك تدبيرا . وإن هنالك تقديرا . وإن هنالك ابتلاء . وإن هنالك تبعة . وإن هنالك حسابا وجزاء . وإن هنالك عذابا شديدا ونعيما كبيرا . . "

وهذه السورة نموذج واضح لهذه الخصائص . ففي إيقاعاتها حدة يشارك فيها نوع المشاهد , ونوع الإيقاع الموسيقي , وجرس الألفاظ , وإيحاء المعاني .

ومن مشاهدها:الطارق . والثاقب . والدافق . والرجع . والصدع .

ومن معانيها:الرقابة على كل نفس:(إن كل نفس لما عليها حافظ). . ونفي القوة والناصر:(يوم تبلى السرائر فما له من قوة ولا ناصر). . و الجد الصارم:(إنه لقول فصل وما هو بالهزل). .

والوعيد فيها يحمل الطابع ذاته:(إنهم يكيدون كيدا وأكيد كيدا . فمهل الكافرين أمهلهم رويدا !)!

وتكاد تتضمن تلك الموضوعات التي أشير إليها في مقدمة الجزء:"إن هنالك إلها . وإن هنالك تدبيرا . وإن هنالك تقديرا . وإن هنالك ابتلاء . وإن هنالك تبعة . وإن هنالك حسابا وجزاء . . . الخ" .

وبين المشاهد الكونية والحقائق الموضوعية في السورة تناسق مطلق دقيق ملحوظ يتضح من استعراض السورة في سياقها القرآني الجميل .
.

الدرس الأول:1 - 4 القسم بالطارق على الحافظ على النفس

(والسماء والطارق . وما أدراك ما الطارق ? النجم الثاقب . إن كل نفس لما عليها حافظ). .

هذا القسم يتضمن مشهدا كونيا وحقيقة إيمانية . وهو يبدأ بذكر السماء

والطارق ويثني بالاستفهام المعهود في التعبير القرآني:(وما أدراك ما الطارق ?). . وكأنه أمر وراء الإدراك والعلم . ثم يحدده ويبينه بشكله وصورته:(النجم الثاقب)الذي يثقب الظلام بشعاعه النافذ . وهذا الوصف ينطبق على جنس النجم . ولا سبيل إلى تحديد نجم بذاته من هذا النص , ولا ضرورة لهذا التحديد . بل إن الإطلاق أولى . ليكون المعنى:و السماء ونجومها الثاقبة للظلام , النافذة من هذا الحجاب الذي يستر الأ شياء . ويكون لهذه الإشارة إيحاؤها حول حقائق السورة وحول مشاهدها الأخرى . . كما سيأتي . .

يقسم بالسماء ونجمها الثاقب:أن كل نفس عليها من أمر الله رقيب:(إن كل نفس لما عليها حافظ). . وفي التعبير بصيغته هذه معنى التوكيد الشديد . . ما من نفس إلا عليها حافظ . يراقبها , ويحصي عليها , ويحفظ عنها , وهو موكل بها بأمر الله . ويعين النفس لأنها مستودع الأ سرار والأفكار . وهي التي يناط بها العمل والجزاء .

ليست هنالك فوضى إذن ولا هيصة ! والناس ليسوا مطلقين في الأرض هكذا بلا حارس . ولا مهملين في شعابها بلا حافظ , ولا متروكين يفعلون كيف شاءوا بلا رقيب . إنما هو الإحصاء الدقيق المباشر , و الحساب المبني على هذا الإحصاء الدقيق المباشر .

ويلقي النص إيحاءه الرهيب حيث تحس النفس أنها ليست أبدا ي خلوة - وإن خلت - فهناك الحافظ الرقيب عليها حين تنفرد من كل رقيب , وتتخفي عن كل عين , وتأمن من كل طارق . هنالك الحافظ الذي يشق كل غطاء وينفذ إلى كل مستور . كما يطرق النجم الثاقب حجاب الليل الساتر . . وصنعة الله واحدة متناسقة في الأنفس وفي الآفاق .

الدرس الثاني:5 - 7 خلق الإنسان من الماء الدافق

ويخلص من هذه اللمسة التي تصل النفس بالكون , إلى لمسة أخرى تؤكد حقيقة التقدير والتدبير , التي أقسم عليها بالسماء والطارق . فهذه

نشأة الإنسان الأولى تدل على هذه الحقيقة ; وتوحي بأن الإنسان ليس متروكا سدى , ولا مهملا ضياعا:

(فلينظر الإنسان مم خلق . خلق من ماء دافق , يخرج من بين الصلب و الترائب). .

فلينظر الإنسان من أي شيء خلق وإلى أي شيء صار . . إنه خلق من ماء دافق يخرج من بين الصلب والترائب , خلق من هذا الماء الذي يجتمع من صلب الرجل وهو عظام ظهره الفقارية ومن ترائب المرأة وهي عظام صدرها العلوية . . ولقد كان هذا سرا مكنونا في علم الله لا يعلمه البشر . حتى كان نصف القرن الأخير حيث اطلع العلم الحديث على هذه الحقيقة بطريقته ; وعرف أنه في عظام الظهر الفقارية يتكون ماء الرجل , وفي عظام الصدر العلوية يتكون ماء المرأة . حيث يلتقيان في قرار مكين فينشأ منهما الإنسان !

والمسافة الهائلة بين المنشأ والمصير . . بين الماء الدافق الذي يخرج من بين الصلب والترائب وبين الإنسان المدرك العاقل المعقد التركيب العضوي والعصبي والعقلي والنفسي . . هذه المسافة الهائلة التي يعبرها الماء الدافقإلى الإنسان الناطق توحي بأن هنالك يدا خارج ذات الإنسان هي التي تدفع بهذا الشيء المائع الذي لا قوام له ولا إرادة ولا قدرة , في طريق الرحلة الطويلة العجيبة الهائلة , حتى تنتهي به إلى هذه النهاية الماثلة . وتشي بأن هنالك حافظا من أمر الله يرعى هذه النطفة المجردة من الشكل والعقل , ومن الإرادة والقدرة , في رحلتها الطويلة العجيبة . وهي تحوي من العجائب أضعاف ما يعرض للإنسان من العجائب من مولده إلى مماته !

هذه الخلية الواحدة الملقحة لا تكاد ترى بالمجهر , إذ أن هنالك ملايين منها في الدفقة الواحدة . . هذه الخليقة التي لا قوام لها ولا عقل ولا قدرة ولا إرادة , تبدأ في الحال بمجرد استقرارها في الرحم في عملية بحث عن الغذاء . حيث تزودها اليد الحافظة بخاصية أكالة تحول بها

جدار الرحم حولها إلى بركة من الدم السائل المعد للغذاء الطازج ! وبمجرد اطمئنانها على غذائها تبدأ في عملية جديدة . عملية انقسام مستمرة تنشأ عنها خلايا . . وتعرف هذه الخليقة الساذجة التي لا قوام لها ولا عقل ولا قدرة ولا إرادة . . تعرف ماذا هي فاعلة وماذا هي تريد . . حيث تزودها اليد الحافظة بالهدى والمعرفة والقدرة والإرادة التي تعرف بها الطريق ! إنها مكلفة أن تخصص كل مجموعة من هذه الخلايا الجديدة لبناء ركن من أركان هذه العمارة الهائلة . . عمارة الجسم الإ نساني . . فهذه المجموعة تنطلق لتنشئ الهيكل العظمي . وهذه المجموعة تنطلق لتنشئ الجهاز العضلي . وهذه المجموعة تنطلق لتنشئ الجهاز العصبي . وهذه المجموعة تنطلق لتنشئ الجهاز اللمفاوي . . إلى آخر هذه الأركان الأساسية في العمارة الإنسانية ! . . ولكن العمل ليس بمثل هذه البساطة . . إن هنالك تخصصا أدق . فكل عظم من العظام . وكل عضلة من العضلات . وكل عصب من الأعصاب . . لا يشبه الآخر . لأ ن العمارة دقيقة الصنع , عجيبة التكوين , متنوعة الوظائف . . . ومن ثم تتعلم كل مجموعة من الخلايا المنطلقة لبناء ركن من العمارة , أن تتفرق طوائف متخصصه , تقوم كل طائفة منها بنوع معين من العمل في الركن المخصص لها من العمارة الكبيرة ! . . إن كل خلية صغيرة تنطلق وهي تعرف طريقها . تعرف إلى أين هي ذاهبة , وماذا هو مطلوب منها ! ولا تخطئ واحدة منها طريقها في هذه المتاهة الهائلة . فالخلايا المكلفة أن تصنع العين تعرف أن العين ينبغي أن تكون في الوجه , ولا يجوز أبدا أن تكون في البطن أو القدم أو الذراع . مع أن كل موضع من هذه المواضع يمكن أن تنمو فيه عين . ولو أخذت الخلية الأولى المكلفة بصنع العين وزرعت في أي من هذه المواضع لصنعت عينا هنالك ! ولكنها هي بذاتها حين تنطلق لا تذهب إلا للمكان المخصص للعين في هذا الجهاز الإنساني المعقد . . فمن ترى قال لها:إن هذا الجهاز يحتاج إلى عين في هذا المكان دون سواه ? إنه الله . إنه الحافظ الأعلى الذي يرعاها ويوجهها ويهديها إلى طريقها في المتاهة التي لا هادي فيها إلا الله !

وكل تلك الخلايا فرادى ومجتمعة تعمل في نطاق ترسمه لها مجموعة معينة من الوحدات كامنة فيها . هي وحدات الوراثة , الحافظة لسجل النوع ولخصائص الأجداد . فخلية العين وهي تنقسم وتتكاثر لكي تكون العين , تحاول أن تحافظ في أثناء العمل على شكل معين للعين وخصائص محددة تجعلها عين إنسان لا عين أي حيوان آخر . وإنسان لأ جداده شكل معين للعين وخصائص معينة . . وأقل انحراف في تصميم هذه العين من ناحية الشكل أو ناحية الخصائص يحيد بها عن الخط المرسوم . فمن ذا الذي أودعها هذه القدرة ? وعلمها ذلك التعليم ? وهي الخلية الساذجة التي لا عقل لها ولا إدراك , ولا إرادة لها ولا قوة ? إنه الله . علمها ما يعجز الإنسان كله عن تصميمه لو وكل إليه تصميم عين أو جزء من عين . بينما خلية واحدة منه أو عدة خلايا ساذجة , تقوم بهذا العمل العظيم !

ووراء هذه اللمحة الخاطفة عن صور الرحلة الطويلة العجيبة بين الماء الدافق والإنسان الناطق , حشودلا تحصى من العجائب والغرائب , في خصائص الأجهزة والأعضاء , لا نملك تقصيها في هذه الظلال . . تشهد كلها بالتقدير والتدبير . وتشي باليد الحافظة الهادية المعينة . وتؤكد الحقيقة الأولى التي أقسم عليها بالسماء والطارق . كما تمهد للحقيقة التالية . حقيقة النشأة الآخرة التي لا يصدقها المشركون , المخاطبون أول مرة بهذه السورة . .

الدرس الثالث:8 - 10 الله يبعث الإنسان يوم القيامة

(إنه على رجعه لقادر . يوم تبلى السرائر . فما له من قوة ولا ناصر). .

إنه - الله الذي أنشأه ورعاه - إنه لقادر على رجعه إلى الحياة بعد الموت , وإلى التجدد بعد البلى , تشهد النشأة الأولى بقدرته , كما تشهد بتقديره وتدبيره . فهذه النشأة البالغة الدقة والحكمة تذهب كلها عبثا إذا لم تكن هناك رجعة لتختبر السرائر وتجزى جزاءها العادل:(يوم تبلى السرائر). . السرائر المكنونة , المطوية على الأسرار المحجوبة . . يوم تبلى وتختبر ,

وتتكشف وتظهر كما ينفذ الطارق من خلال الظلام الساتر ; وكما ينفذ الحافظ إلى النفس الملفعة بالسواتر ! كذلك تبلى السرائر يوم يتجرد الإنسان من كل قوة ومن كل ناصر:(فما له من قوة ولا ناصر). . ما له من قوة في ذاته , وما له من ناصر خارج ذاته . . والتكشف من كل ستر , مع التجرد من كل قوة , يضاعف شدة الموقف ; ويلمس الحس لمسة عميقة التأثير . وهو ينتقل من الكون والنفس , إلى نشأة الإنسان ورحلته العجيبة , إلى نهاية المطاف هناك , حيث يتكشف ستره ويكشف سره , ويتجرد من القوة والنصير . .

الدرس الرابع:11 - 14 القسم بالأرض والسماء على جدية حقيقة البعث

ولعل طائفا من شك , أو بقية من ريب , تكون باقية في النفس , في أن هذا لا بد كائن . . فمن ثم يجزم جزما بأن هذا القول هو القول الفصل , ويربط بين هذا القول وبين مشاهد الكون , كما صنع في مطلع السورة:

(والسماء ذات الرجع , والأرض ذات الصدع , إنه لقول فصل , وما هو بالهزل). .

والرجع المطر ترجع به السماء مرة بعد مرة , والصدع النبت يشق الأرض وينبثق . . وهما يمثلان مشهدا للحياة في صورة من صورها . حياة النبات ونشأته الأولى:ماء يتدفق من السماء , ونبت ينبثق من الأرض . . أشبه شيء بالماء الدافق من الصلب والترائب ; والجنين المنبثق من ظلمات الرحم . الحياة هي الحياة . والمشهد هو المشهد . والحركة هي الحركة . . نظام ثابت , وصنعة معلمة , تدل على الصانع . الذي لا يشبهه أحد لا في حقيقة الصنعة ولا في شكلها الظاهر !

وهو مشهد قريب الشبه بالطارق . النجم الثاقب . وهو يشق الحجب و الستائر . كما أنه قريب الشبه بابتلاء السرائر وكشف السواتر . . صنعة واحدة تشير إلى الصانع !

يقسم الله بهذين الكائنين وهذين الحدثين:السماء ذات الرجع . والأرض

ذات الصدع . . حيث يوقع مشهدهما وإيحاؤهما , كما يوحي جرس التعبير ذاته , بالشدة والنفاذ والجزم . . يقسم بأن هذا القول الذي يقرر الرجعة والابتلاء - أو بأن هذا القرآن عامة - هو القول الفصل الذي لا يتلبس به الهزل . القول الفصل الذي ينهي كل قول وكل جدل وكل شك وكل ريب . القول الذي ليس بعده قول . تشهد بهذا السماء ذات الرجع , والأرض ذات الصدع !

الدرس الخامس:15 - 17 تهديد الكفار بالعذاب القادم

وفي ظل هذا القول الفصل بالرجعة والابتلاء يتجه الخطاب إلى الرسول [ص] وهو ومن

إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْداً (15) وَأَكِيدُ كَيْداً (16) فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْداً (17)

معه من القلة المؤمنة في مكة يعانون من كيد المشركين ومؤامراتهم على الدعوة والمؤمنين بها - وقد كانوا في هم مقعد مقيم للكيد لها و التدبير ضدها وأخذ الطرق عليها وابتكار الوسائل في حربها - يتجه الخطاب إلى الرسول [ص] بالتثبيت والتطمين , وبالتهوين من أمر الكيد والكائدين . وأنه إلى حين . وأن المعركة بيده هو - سبحانه - وقيادته . فليصبر الرسول وليطمئن هو والمؤمنون:

(إنهم يكيدون كيدا , وأكيد كيدا , فمهل الكافرين , أمهلهم رويدا). .

إنهم - هؤلاء الذين خلقوا من ماء دافق يخرج من بين الصلب والترائب - بلا حول ولا قوة ولا قدرة ولا إرادة , ولا معرفة ولا هداية . والذين تولتهم يد القدرة في رحلتهم الطويلة . والذين هم صائرون إلى رجعة تبلى فيها السرائر , حيث لا قوة لهم ولا ناصر . . إنهم هؤلاء يكيدون

كيدا . .

وأنا - أنا المنشئ . . الهادي . الحافظ . الموجه . المعيد . المبتلي . القادر . القاهر . خالق السماء والطارق . وخالق الماء الدافق , والإنسان الناطق , وخالق السماء ذات الرجع , والأرض ذات الصدع . . أنا الله . . أكيد كيدا . .

فهذا كيد . وهذا كيد . وهذه هي المعركة . . . ذات طرف واحد في الحقيقة . . وإن صورت ذات طرفين لمجرد السخرية والهزء !

(فمهل الكافرين). . (أمهلهم رويدا). . لا تعجل . ولا تستبطئ نهاية المعركة . وقد رأيت طبيعتها وحقيقتها . . فإنما هي الحكمة وراء الإ مهال . الإمهال قليلا . . وهو قليل حتى لو استغرق عمر الحياة الدنيا . فما هو عمر الحياة الدنيا إلى جانب تلك الآباد المجهولة المدى ?

ونلحظ في التعبير الإيناس الإلهي للرسول:(فمهل الكافرين أمهلهم رويدا). . كأنه هو [ص] صاحب الأمر , وصاحب الإذن , وكأنه هو الذي يأذن بإمهالهم . أو يوافق على إمهالهم . وليس من هذا كله شيء للرسول [ص] إنما هو الإيناس والود في هذا الموضع الذي تنسم نسائم الرحمة على قلبه [ص] الإيناس الذي يخلط بين رغبة نفسه وإرادة ربه . ويشركه في الأمر كأن له فيه شيئا . ويرفع الفوارق والحواجز بينه وبين الساحة الإلهية التي يقضى فيها الأمر ويبرم . . وكأنما يقول له ربه:إنك مأذون فيهم . ولكن أمهلهم . أمهلهم رويدا . . فهو الود العطوف والإ يناس اللطيف . يمسح على الكرب والشدة والعناء والكيد , فتنمحي كلها وتذوب . . ويبقى العطف الودود . .

سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى (1) الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى (2) وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى (3) وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى (4) فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى (5)

سورة الأعلى

تعريف بسورة الأعلى

في رواية للإمام أحمد عن الإمام علي - كرم الله وجهه - أن رسول الله [ص] كان يحب هذه السورة:(سبح اسم ربك الأعلى). . وفي صحيح مسلم أنه كان يقرأ في العيدين ويوم الجمعة بسبح اسم ربك الأعلى , و (هل أتاك حديث الغاشية). وربما اجتمعا في يوم واحد فقرأهما . .

وحق لرسول الله [ص] أن يحب هذه السورة وهي تحيل له الكون كله معبدا تتجاوب أرجاؤه بتسبيح ربه الأعلى وتمجيده , ومعرضا يحفل بموحيات التسبيح والتحميد:(سبح اسم ربك الأعلى . الذي خلق فسوى . والذي قدر فهدى . والذي أخرج المرعى . فجعله غثاء أحوى). . وإيقاع السورة الرخي المديد يلقي ظلال التسبيح ذي الصدى البعيد . .

وحق له [ص] أن يحبها , وهي تحمل له من البشريات أمرا عظيما . وربه يقول له , وهو يكلفه التبليغ والتذكير:(سنقرئك فلا تنسى - إلا ما شاء الله إنه يعلم الجهر وما يخفى - ونيسرك لليسرى . فذكر إن نفعت الذكرى). . وفيها يتكفل له ربه بحفظ قلبه لهذا القرآن , ورفع هذه الكلفة عن عاتقه . ويعده أن ييسره لليسرى في كل أموره وأمور هذه الدعوة . وهو أمر عظيم جدا .

وحق له [ص] أن يحبها , وهي تتضمن الثابت من قواعد التصور الإ يماني:من توحيدالرب الخالق وإثبات الوحي الإلهي , وتقرير الجزاء في ا لآخرة . وهي مقومات العقيدة الأولى . ثم تصل هذه العقيدة بأصولها

البعيدة , وجذورها الضاربة في شعاب الزمان:(إن هذا لفي الصحف الأ ولى . صحف إبراهيم وموسى). . فوق ما تصوره من طبيعة هذه العقيدة , وطبيعة الرسول الذي يبلغها والأمة التي تحملها . . طبيعة اليسر والسماحة . .

وكل واحدة من هذه تحتها موحيات شتى ; ووراءها مجالات بعيدة المدى . .

الدرس الأول:1 - 5 تسبيح الله والإرشاد إلى بعض أفعاله

(سبح اسم ربك الأعلى . الذي خلق فسوى . والذي قدر فهدى . والذي أخرج المرعى . فجعله غثاء أحوى). .

إن هذا الإفتتاح , بهذا المطلع الرخي المديد , ليطلق في الجو ابتداء أصداء التسبيح , إلى جانب معنى التسبيح . وإن هذه الصفات التي تلي الأمر بالتسبيح: (الأعلى الذي خلق فسوى . والذي قدر فهدى . والذي أخرج المرعى . فجعله غثاء أحوى). . لتحيل الوجود كله معبدا يتجاوب جنباته بتلك الأصداء ; ومعرضا تتجلى فيه آثار الصانع المبدع:(الذي خلق فسوى والذي قدر فهدى). .

والتسبيح هو التمجيد والتنزيه واستحضار معاني الصفات الحسنى لله , والحياة بين إشعاعاتها وفيوضاتها وإشراقاتها ومذاقاتها الوجدانية بـ القلب والشعور . وليست هي مجرد ترديد لفظ:سبحان الله ! . . و(سبح اسم ربك الأعلى). . تطلق في الوجدان معنى وحالة يصعب تحديدها بـ اللفظ , ولكنها تتذوق بالوجدان . وتوحي بالحياة مع الإشراقات المنبثقة من استحضار معاني الصفات .

والصفة الأولى القريبة في هذا النص هي صفة الرب . وصفة الأعلى . . والرب:المربي والراعي , وظلال هذه الصفة الحانية مما يتناسق مع جو السورة وبشرياتها وإيقاعاتها الرخية . . وصفة الأعلى تطلق التطلع إلى ا لآفاق التي لا تتناهى ; وتطلق الروح لتسبح وتسبح إلى غير مدى . .

وتتناسق مع التمجيد والتنزيه , وهو في صميمه الشعور بصفة الأعلى . .

والخطاب هنا لرسول الله [ص] ابتداء . وهذا الأمر صادر إليه من ربه . بهذه الصيغة:(سبح اسم ربك الأعلى). . وفيه من التلطف والإيناس ما يجل عن التعبير . وقد كان رسول الله [ص] يقرأ هذا الأمر , ثم يعقب عليه بالاستجابة المباشرة , قبل أن يمضي في آيات السورة , يقول:" سبحان ربي الأعلى " . . فهو خطاب ورده . وأمر وطاعته . وإيناس ومجاوبته . . إنه في حضرة ربه , يتلقى مباشرة ويستجيب . في أنس وفي اتصال قريب . . وحينما نزلت هذه الآية قال:" اجعلوها في سجودكم " . وحينما نزلت قبلها:(فسبح باسم ربك العظيم). . قال:" اجعلوها في ركوعكم " . . فهذا التسبيح في الركوع والسجود كلمة حية ألحقت بالصلاة وهي دافئة بالحياة . لتكون استجابة مباشرة لأمر مباشر . أو بتعبير أدق . . لإذن مباشر . . فإذن الله لعباده بأن يحمدوه ويسبحوه إحدى نعمه عليهم وأفضاله . إنه إذن بالاتصال به - سبحانه - في صورة مقربة إلى مدارك البشر المحدودة . صورة تفضل الله عليهم بها ليعرفهم ذاته . في صفاته . في الحدود التي يملكون أن يتطلعوا إليها . وكل إذن للعباد بالاتصال بالله في أية صورة من صور الاتصال , هو مكرمة له وفضل على العباد .

(سبح اسم ربك الأعلى). .(الذي خلق فسوى . والذي قدر فهدى). .

الذي خلق كل شيء فسواه , فأكمل صنعته , وبلغ به غاية الكمال الذي يناسبه . . والذي قدر لكل مخلوق وظيفته وغايته فهداه إلى ما خلقه لأجله , وألهمه غاية وجوده ; وقدر له ما يصلحه مدة بقائه , وهداه إليه أيضا . .

وهذه الحقيقة الكبرى ماثلة في كل شيء في هذا الوجود ; يشهد بها كل شيء في رحاب الوجود . من الكبير إلى الصغير . ومن الجليل إلى الحقير . . كل شيء مسوى في صنعته , كامل في خلقته . معد لأداء وظيفته . مقدر له غاية وجوده , وهو ميسر لتحقيق هذه الغاية من

أيسر طريق . . وجميع الأشياء مجتمعة كاملة التناسق , ميسرة لكي تؤدي في تجمعها دورها الجماعي ; مثلما هي ميسرة فرادى لكي تؤدي دورها الفردي .

الذرة بمفردها كاملة التناسق بين كهاربها وبروتوناتها وإلكتروناتها , شأنها شأن المجموعة الشمسية في تناسق شمسها وكواكبها وتوابعها . . وهي تعرف طريقها وتؤدي مثلها وظيفتها . .

والخلية الحية المفردة كاملة الخلقة والإستعداد لأداء وظائفها كلها , شأنها شأن أرقى الخلائق الحية المركبة المعقدة .

وبين الذرة المفردة والمجموعة الشمسية ; كما بين الخلية الواحدة وأرقى الكائنات الحية , درجات من التنظيمات والتركيبات كلها في مثل هذا الكمال الخلقي , وفي مثل هذا التناسق الجماعي , وفي مثل هذا التدبير والتقدير الذي يحكمها ويصرفها . . والكون كله هو الشاهد الحاضر على هذه الحقيقة العميقة . .

هذه الحقيقة يدركها القلب البشري جملة حين يتلقى إيقاعات هذا الوجود ; وحين يتدبر الأشياء في رحابه بحس مفتوح . وهذا الإدراك الإ لهامي لا يستعصي على أي إنسان في أية بيئة , وعلى أية درجة من درجات العلم الكسبي , متى تفتحت منافذ القلب , وتيقظت أوتاره لتلقي إيقاعات الوجود .

والملاحظة بعد ذلك والعلم الكسبي يوضحان بالأمثلة الفردية ما يدركه ا لإلهام بالنظرة الأولى . . وهناك من رصيد الملاحظة والدراسة ما يشير إلى طرف من تلك الحقيقة الشاملة لكل ما في الوجود .

يقول العالم [ا . كريسي موريسون] رئيس أكاديمية العلوم بنيورك في كتابه:"الإنسان لا يقوم وحده "

"إن الطيور لها غريزة العودة إلى الموطن . فعصفور الهزاز الذي عشش

ببابك يهاجر جنوبا في الخريف . ولكنه يعود إلى عشه في الربيع التالي . وفي شهر سبتمبر تطير أسراب من معظم طيورنا إلى الجنوب . وقد تقطع في الغالب نحو ألف ميل فوق أرض البحار . ولكنها لا تضل طريقها . وحمام الزاجل إذا تحير من جراء أصوات جديدة عليه في رحلة طويلة داخل قفص , يحوم برهة ثم يقصد قدما إلى موطنه دون أن يضل . . والنحلة تجد خليتها مهما طمست الريح , في هبوبها على الأعشاب والأشجار , كل دليل يرى . وحاسة العودة إلى الوطن هذه هي ضعيفة في الإنسان , ولكنه يكمل عتاده القليل منها بأدوات الملاحة . ونحن في حاجة إلى هذه الغريزة , وعقولنا تسد هذه الحاجة . ولا بد أن للحشرات الدقيقة عيونا ميكروسكوبية [مكبرة] لا ندري مبلغها من الإحكام ; وأن للصقور بصرا تلسكوبيا [مكبرا مقربا] . وهنا أيضا يتفوق الإنسان بأدواته الميكانيكية فهو بتلسكوبه يبصر سديما بلغ من الضعف أنه يحتاج إلى مضاعفة قوة إبصاره مليوني مرة ليراه . وهو بمكروسكوبه الكهربائي يستطيع أن يرى بكتريا كانت غير مرئية [بل كذلك الحشرات الصغيرة التي تعضها !] .

"وأنت إذا تركت حصانك العجوز وحده , فإنه يلزم الطريق مهما اشتدت ظلمة الليل . وهو يقدر أن يرى ولو في غير وضوح . ولكنه يلحظ اختلاف درجة الحرارة في الطريق وجانبيه , بعينين تأثرتا قليلا بالأشعة تحت الحمراء التي للطريق . والبومة تستطيع أن تبصر الفأر الدافئ اللطيف وهو يجري على العشب البارد مهماتكن ظلمة الليل . ونحن نقلب الليل نهارا بإحداث إشعاع في تلك المجموعة التي نسميها الضوء " . .

. . . "إن العاملات من النحل تصنع حجرات مختلفات الأحجام في المشط الذي يستخدم في التربية . وتعد الحجرات الصغيرات للعمال , والأكبر منها لليعاسيب [ذكور النحل] وتعد غرفة خاصة للملكات الحوامل . والنحلة الملكية تضع بيضا غير مخصب في الخلايا المخصصة للذكور , وبيضا مخصبا في الحجرات الصحيحة المعدة للعاملات الإناث والملكات المنتظرات . والعاملات اللائي هن إناث معدلات

بعد أن انتظرن طويلا مجيء الجيل الجديد , تهيأن أيضا لإعداد الغذاء للنحل الصغير بمضغ العسل واللقح ومقدمات هضمه . ثم ينقطعن عن عملية المضغ ومقدمات الهضم عند مرحلة معينة من تطور الذكور والإناث , ولا يغذين سوى العسل واللقح . والإناث اللاتي يعالجن على هذا الشكل يصبحن عاملات" . .

"أما الإناث اللاتي في حجرات الملكة , فإن التغذية بالمضغ ومقدمات الهضم تستمر بالنسبة لهن . وهؤلاء اللاتي يعاملن هذه المعاملة الخاصة يتطورن إلى ملكات نحل , وهن وحدهن اللائي ينتجن بيضا مخصبا . وعملية تكرار الإنتاج هذه تتضمن حجرات خاصة , وبيضا خاصا , كما تتضمن الأثر العجيب الذي لتغيير الغذاء , وهذا يتطلب الانتظار والتمييز وتطبيق اكتشاف أثر الغذاء ! وهذه التغيرات تنطبق بوجه خاص على حياة الجماعة , وتبدو ضرورية لوجودها . ولا بد أن المعرفة والمهارة اللازمتين لذلك قد تم اكتسابهما بعد ابتداء هذه الحياة الجماعية , وليستا بالضرورة ملازمتين لتكوين النحل ولا لبقائه على الحياة . وعلى ذلك فيبدو أن النحل قد فاق الإنسان في معرفة تأثير الغذاء تحت ظروف معينة !

"والكلب بما أوتي من أنف فضولي يستطيع أن يحس الحيوان الذي مر . وليس ثمة من أداة من اختراع الإنسان لتقوي حاسة الشم الضعيفة لديه . ومع هذا فإن حاسة الشم الخاصة بنا - على ضعفها - قد بلغت من الدقة أنها يمكنها أن تتبين الذرات المكروسكوبية البالغة الدقة . .

"وكل الحيوانات تسمع الأصوات التي يكون كثير منها خارج دائرة الاهتزازات الخاصة بنا , وذلك بدقة تفوق كثيرا حاسة السمع المحدودة عندنا . وقد أصبح الإنسان يستطيع بفضل وسائله أن يسمع صوت ذبابة تطير على بعد أميال , كما لو كانت فوق طبلة أذنه . ويستطيع بمثل تلك الأدوات أن يسجل وقع شعاع شمسي !

"إن إحدى العناكب المائية تصنع لنفسها عشا على شكل منطاد [بالون]

من خيوط العنكبوت . وتعلقه بشيء ما تحت الماء . ثم تمسك ببراعة فقاعة هواء في شعر جسمها , وتحملها إلى الماء , ثم تطلقها تحت العش . ثم تكرر هذه العملية حتى ينتفخ العش . وعندئذ تلد صغارها وتربيها , آمنة عليها من هبوب الهواء . فها هنا نجد طريقة النسج , بما يشمله من هندسة وتركيب وملاحة جوية !

وسمك "السلمون" الصغير يمضي سنوات في البحر , ثم يعود إلى نهره الخاص به . والأكثر من ذلك أنه يصعد إلى جانب النهر الذي يصب عنده النهير الذي ولد فيه . . فما الذي يجعل السمك يرجع إلى مكان مولده بهذا التحديد ? إن سمكة السلمون التي تصعد في النهر صعدا إذا نقلت إلى نهير آخر أدركت توا أنه ليس جدولها . فهي لذلك تشق طريقها خلال النهر , ثم تحيد ضد التيار , قاصدة إلى مصيرها !

"وهناك لغز أصعب من ذلك يتطلب الحل , وهو الخاص بثعابين الماء التي تسلك عكس هذا المسلك , فإن تلك المخلوقات العجيبة متى اكتمل نموها , هاجرت من مختلف البرك والأنهار . وإذا كانت في أوربا قطعت آ لاف الأميال في المحيط قاصدة كلها إلى الأعماق السحيقة جنوبي برمودا . وهناك تبيض وتموت . أما صغارها تلك التي لا تملك وسيلة لتعرف بها أي شيء سوى أنها في مياه قفرة - فإنها تعود أدراجها وتجد طريقهاإلى الشاطئ الذي جاءت منه أمهاتها . ومن ثم إلى كل نهر أو بحيرة أو بركة صغيرة . ولذا يظل كل جسم من الماء آهلا بثعابين البحار . لقد قاومت التيارات القوية , وثبتت للأمداد والعواصف , وغالبت الأمواج المتلاطمة على كل شاطئ . وهي الآن يتاح لها النمو . حتى إذا اكتمل نموها دفعها قانون خفي إلى الرجوع حيث كانت بعد أن تتم الرحلة كلها . فمن أين ينشأ الحافز الذي يوجهها لذلك ? لم يحدث قط أن صيد ثعبان ماء أمريكي في المياه الأوربية , أو صيد ثعبان ماء أوربي في المياه الأمريكية . والطبيعة تبطئ في إنماء ثعبان الماء الأ وربي مدة سنة أو أكثر لتعوض من زيادة مسافة الرحلة التي يقطعها [إذ أن مسافته أطول من مسافة زميله الأمريكي] ترى هل الذرات و

الهباءات إذا توحدت معا في ثعبان ماء يكون لها حاسة التوجيه وقوة ا لإرادة اللازمة للتنفيذ ?!

. . . "وإذا حمل الريح فراشة أنثى من خلال نافذة إلى علية بيتك , فإنها لا تلبث حتى ترسل إشارة خفية . وقد يكون الذكر على مسافة بعيدة . ولكنه يتلقى هذه الإشارة ويجاوبها , مهما أحدثت أنت من رائحة بعملك لتضليلهما . ترى هل لتلك المخلوقة الضئيلة محطة إذاعة ? وهل لذكر الفراشة جهاز راديو عقلي , فضلا عن السلك اللاقط للصوت [إيريال] ? أتراها تهز الأثير فهو يتلقى الاهتزاز ?!

. . . "إن التليفون والراديو هما من العجائب الآلية . وهما يتيحان لنا الا تصال السريع . ولكنا مرتبطون في شأنهما بسلك ومكان . وعلى ذلك لا تزال الفراشة متفوقة علينا من هذه الوجهة " .

"والنبات يتحايل على استخدام وكلاء لمواصلة وجوده دون رغبة من جانبهم ! كالحشرات التي تحمل اللقح من زهرة إلى أخرى , والرياح , وكل شيء يطير أو يمشي , ليوزع بذوره . وأخيرا أوقع النبات الإنسان ذا السيادة في الفخ ! فقد حسن الطبيعة وجازته بسخاء . غير أنه شديد التكاثر ; حتى أصبح مقيدا بالمحراث , وعليه أن يبذر ويحصد ويخزن , وعليه أن يربي ويهجن , وأن يشذب ويطعم . وإذا هو أغفل هذه الأعمال كانت المجاعة نصيبه , وتدهورت المدنية , وعادت الأرض إلى حالتها الفطرية ! " . .

"وكثير من الحيوانات هي مثل "سرطان البحر" الذي إذا فقد مخلبا عرف أن جزءا من جسمه قد ضاع , وسارع إلى تعويضه بإعادة تنشيط الخلايا وعوامل الوراثة ; ومتى تم ذلك كفت الخلايا عن العمل , لأنها تعرف بطريقة ما أن وقت الراحة قد حان !

"وكثير الأرجل المائي إذا انقسم إلى قسمين استطاع أن يصلح نفسه عن طريق أحد هذين النصفين . وأنت إذا قطعت رأس دودة الطعم تسارع

إلى صنع رأس بدلا منه . ونحن نستطيع أن ننشط التئام الجروح , ولكن متى يتاح للجراحين أن يعرفوا كيف يحركون الخلايا لتنتج ذراعا جديدة , أو لحما أو عظاما أو أظافر أو أعصابا ? - إذا كان ذلك في حيز ا لإمكان ?!

"وهناك حقيقة مدهشة تلقي بعض الضوء على لغز هذا الخلق من جديد:فإن الخلايا في المراحل الأولى من تطورها , إذا تفرقت , صار لكل منها القدرة على خلق حيوان كامل . ومن ثم فإنه إذا انقسمت الخلية الأولى إلى قسمين , وتفرق هذان , تطور منهما فردان . وقد يكون في ذلك تفسير لتشابه التوأمين . ولكنه يدل على أكثر من ذلك . وهو أن كل خلية في البداية يمكن أن تكون فردا كاملا بالتفصيل . فليس هناك شك إذن , في أنك أنت , في كل خلية ونسيج ! " . .

ويقول في فصل آخر:

"إن جوزة البلوط تسقط على الأرض , فتحفظها قشرتها السمراء الجامدة , وتتدحرج في حفرة ما من الأرض ,وفي الربيع تستيقظ الجرثومة , فتنفجر القشرة , وتزدرد الطعام من اللب الشبيه بالبيضة الذي اختفت فيه "الجينات" [وحدات الوراثة] وهي تمد الجذور في الأ رض , وإذا بك ترى فرخا أو شتلة [شجيرة] وبعد سنوات شجرة ! وإن الجرثومة بما فيها من جينات قد تضاعفت ملايين الملايين , فصنعت الجذع والقشرة وكل ورقة وكل ثمرة , مماثلة لتلك التي لشجرة البلوط التي تولدت عنها . وفي خلال مئات السنين قد بقي من ثمار البلوط التي لا تحصى نفس ترتيب الذرات تماما الذي أنتج أول شجرة بلوط منذ ملا يين السنين " .

وفي فصل ثالث يقول:

"وكل خلية تنتج في أي مخلوق حي يجب أن تكيف نفسها لتكون جزءا من اللحم . أو أن تضحي بنفسها كجزء من الجلد الذي لا يلبث حتى

يبلى . وعليها أن تصنع ميناء الأسنان , وأن تنتج السائل الشفاف في العين , أو أن تدخل في تكوين الأنف أو الأذن . ثم على كل خلية أن تكيف نفسها من حيث الشكل وكل خاصية أخرى لازمة لتأدية مهمتها . ومن العسير أن نتصور أن خلية ما هي ذات يد يمنى أو يسرى . ولكن إحدى الخلايا تصبح جزءا من الأذن اليمنى , بينما الأخرى تصبح جزءا من الأذن اليسرى .

. . . "وإن مئات الآلاف من الخلايا تبدو كأنها مدفوعة لأن تفعل الشيء الصواب في الوقت الصواب . وفي المكان الصواب" !

وفي فصل رابع . .

. . . "في خليط الخلق قد أتيح لكثير من المخلوقات أن تبدي درجة عالية من أشكال معينة من الغريزة أو الذكاء أو ما لا ندري . فالدبور مثلا يصيد الجندب النطاط , ويحفر حفرة في الأرض , ويخز الجندب في المكان المناسب تماما حتى يفقد وعيه , ولكنه يعيش كنوع من اللحم المحفوظ . . وأنثى الدبور تضع بيضا في المكان المناسب بالضبط , ولعلها لا تدري أن صغارها حين تفقس يمكنها أن تتغذى , دون أن تقتل الحشرة التي هي غذاؤها , فيكون ذلك خطرا على وجودها . ولا بد أن الدبور قد فعل ذلك من البداية وكرره دائما , وإلا ما بقيت زنابير على وجه الأرض . . والعلم لا يجد تفسيرا لهذه الظاهرة الخفية , ولكنها مع ذلك لا يمكن أن تنسب إلى المصادفة !

"وإن أنثى الدبور تغطي حفرة في الأرض , وترحل فرحا , ثم تموت . فلا هي ولا أسلافها قد فكرت في هذه العملية , وهي لا تعلم ماذا يحدث لصغارها , أو أن هناك شيئا يسمى صغارا . . بل إنها لا تدري أنها عاشت وعملت لحفظ نوعها !

. . . "وفي بعض أنواع النمل يأتي العملة منه بحبوب صغيرة لإطعام غيرها من النمل في خلال فصل الشتاء . وينشئ النمل ما هو معروف

"بمخزن الطحن" وفيه يقوم النمل الذي أوتي أفكاكا كبيرة معدة للطحن , بإعداد الطعام للمستعمرة . وهذا هو شاغلها الوحيد . وحين يأتي الخريف , وتكون الحبوب كلها قد طحنت فإن "أعظم خير لأكبر عدد" يتطلب حفظ تلك المؤونة من الطعام . وما دام الجيل الجديد سينتظم كثيرا من النمل الطحان , فإن جنود النمل تقتل النمل الطاحن الموجود . ولعلها ترضي ضميرها الحشري بأن ذلك النمل قد نال جزاءه الكافي , إذ كانت له الفرصة الأولى في الإفادة من الغذاء أثناء طحنه !

"وهناك أنواع من النمل تدفعها الغريزة أو التفكير [واختر منهما ما يحلو لك] إلى زرع أعشاش للطعامفيما يمكن تسميته "بحدائق الأعشاش" . وتصيد أنواعا معينة من الدود والأرق أو اليرق [وهي حشرات صغيرة تسبب آفة الندوة العسلية] فهذه المخلوقات هي بقر النمل وعنزاتها ! ومنها يأخذ النمل إفرازات معينة تشبه العسل ليكون طعاما له .

"والنمل يأسر طوائف منه ويسترقها . وبعض النمل حين يصنع أعشاشه , يقطع الأوراق مطابقة للحجم المطلوب . وبينما يضع بعض عملة النمل ا لأطراف في مكانها , تستخدم صغارها - التي وهي في الدور اليرقي تقدر أن تغزل الحرير - لحياكتها معا ! وربما حرم طفل النمل عمل شرنقة لنفسه , ولكنه قد خدم الجماعة !

"فكيف يتاح لذرات المادة التي تتكون منها النملة , أن تقوم بهذه العمليات المعقدة ?

"لا شك أن هناك خالقا أرشدها إلى كل ذلك" . . انتهى . .

أجل . لا شك أن هناك خالقا أرشدها , وأرشد غيرها من الخلائق . كبيرها وصغيرها . إلى كل ذلك . . إنه (الأعلى الذي خلق فسوى , والذي قدر فهدى). .

وهذه النماذج التي اقتطفناها من كلام ذلك العالم ليست سوى طرف صغير من الملاحظات التي سجلها البشر في عوالم النبات والحشرات و

الطيور والحيوان . ووراءها حشود من مثلها كثيرة . . وهذه الحشود لا تزيد على أن تشير إلى جانب صغير من مدلول قوله تعالى:(الذي خلق فسوى . والذي قدر فهدى). . في هذا الوجود المشهود الذي لا نعرف عنه إلا أقل من القليل . ووراءه عالم الغيب الذي ترد لنا عنه لمحات فيما يحدثنا الله عنه ; بالقدر الذي يطيقه تكويننا البشري الضعيف !

وبعد عرض هذا المدى المتطاول , من صفحة الوجود الكبيرة , وإطلاق التسبيح في جنباته , تتجاوب به أرجاؤه البعيدة , يكمل التسبيحة الكبرى بلمسة في حياة النبات لها إيحاؤها ولها مغزاها:

(والذي أخرج المرعى فجعله غثاء أحوى).

والمرعى كل نبات . وما من نبات إلا وهو صالح لخلق من خلق الله . فهو هنا أشمل مما نعهده من مرعى أنعامنا . فالله خلق هذه الأرض وقدر فيها أقواتها لكل حي يدب فوق ظهرها أو يختبئ في جوفها , أو يطير في جوها .

والمرعى يخرج في أول أمره خضرا , ثم يذوي فإذا هو غثاء , أميل إلى السواد فهو أحوى , وقد يصلح أن يكون طعاما وهو أخضر , ويصلح أن يكون طعاما وهو غثاء أحوى . وما بينهما فهو في كل حالة صالح لأمر من أمور هذه الحياة , بتقدير الذي خلق فسوى وقدر فهدى .

والإشارة إلى حياة النبات هنا توحي من طرف خفي , بأن كل نبت إلى حصاد وأن كل حي إلى نهاية . وهي اللمسة التي تتفق مع الحديث عن الحياة الدنيا والحياة الأخرى . . .(بل تؤثرون الحياة الدنيا والآخرة خير وأبقى). . والحياة الدنيا كهذا المرعى , الذي ينتهي فيكون غثاء أحوى . . والآخرة هي التي تبقى .

وبهذا المطلع الذي يكشف عن هذا المدى المتطاول من صفحة الوجود الكبيرة . . تتصل حقائق السورة الآتية في سياقها , بهذا الوجود ; ويتصل الوجود بها , في هذا الإطار العريض الجميل . والملحوظ أن

سَنُقْرِؤُكَ فَلَا تَنسَى (6) إِلَّا مَا شَاء اللَّهُ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى (7) وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَى (8) فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَى (9) سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَى (10) وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى (11) الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَى (12) ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى (13) قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّى (14) وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى (15)

في هذا الجزء تتضمن مثل هذا الإطار . الإطار الذي يتناسق مع جوها وظلها وإيقاعها تناسقا كاملا .

الدرس الثاني:6 - 7 بشرى للرسول بتكفل ربه حفظ القرآن في قلبه

بعدئذ يجيء بتلك البشرى العظيمة لرسول الله [ص] وامته من ورائه:

(سنقرئك فلا تنسى - إلا ما شاء الله إنه يعلم الجهر وما يخفى - ونيسرك لليسرى . فذكر إن نفعت الذكرى). .

وتبدأ البشرى برفع عناء الحفظ لهذا القرآن والكد في إمساكه عن عاتق الرسول [ص]:(سنقرئك فلا تنسى). . فعليه القراءة يتلقاها عن ربه , وربه هو المتكفل بعد ذلك بقلبه , فلا ينسى ما يقرئه ربه .

وهي بشرى للنبي [ص] تريحه وتطمئنه على هذا القرآن العظيم الجميل الحبيب إلى قلبه . الذي كان يندفع بعاطفة الحب له , وبشعور الحرص عليه , وبإحساس التبعة العظمى فيه . . إلى ترديده آية آية وجبريل يحمله إليه , وتحريك لسانه به خيفة أن ينسى حرفا منه . حتى جاءته هذه البشائر المطمئنة بأن ربه سيتكفل بهذا الأمر عنه .

وهي بشرى لأمته من ورائه , تطمئن بها إلى أصل هذه العقيدة . فهي من

الله . والله كافلها وحافظها في قلب نبيها . وهذا من رعايته سبحانه , ومن كرامة هذا الدين عنده , وعظمة هذا الأمر في ميزانه .

وفي هذا الموضع كما في كل موضع يرد فيه وعد جازم , أو ناموس دائم , يرد ما يفيد طلاقة المشيئة الإلهية من وراء ذلك , وعدم تقيدها بقيد ما ولو كان هذا القيد نابعا من وعدها وناموسها . فهي طليقة وراء الوعد والناموس . ويحرص القرآن على تقرير هذه الحقيقة في كل موضع - كما سبق أن مثلنا لهذا في الظلال - ومن ذلك ما جاء هنا:

(إلا ما شاء الله). . فهو الاحتراس الذي يقرر طلاقة المشيئة الإلهية , بعد الوعد الصادق بأنه لا ينسى . ليظل الأمر في إطار المشيئة الكبرى ; ويظل التطلع دائما إلى هذه المشيئة حتى فيما سلف فيه وعد منها . ويظل القلب معلقا بمشيئة الله حيا بهذا التعلق أبدا . .

(إنه يعلم الجهر وما يخفى). . وكأن هذا تعليل لما مر في هذا المقطع من الإقرار والحفظ والاستثناء . . فكلها ترجع إلى حكمة يعلمها من يعلم الجهر وما يخفى ; ويطلع على الأمر من جوانبه جميعا , فيقرر فيه ما تقتضيه حكمته المستندة إلى علمه بأطراف الأمر جميعا .

الدرس الثالث:8 - 15 الله ييسر الرسول لليسرى ومطالبته بالتذكير ومن يتذكر ومن لا يتذكر

والبشرى الثانية الشاملة:

(ونيسرك لليسرى). .

بشرى لشخص الرسول [ص] وبشرى لأمته من ورائه . وتقرير لطبيعة هذا الدين , وحقيقة هذه الدعوة , ودورها في حياة البشر , وموضعها في نظام الوجود . . وإن هاتين الكلمتين:(ونيسرك لليسرى), لتشتملان على حقيقة من أضخم حقائق هذه العقيدة , وحقائق هذا الوجود أيضا . فهي تصل طبيعة هذا الرسول بطبيعة هذه العقيدة بطبيعة هذا الوجود .

الوجود الخارج من يد القدرة في يسر . السائر في طريقه بيسر . المتجه إلى غايته بيسر . فهي انطلاقة من نور ; تشير إلى أبعاد وآماد وآفاق من الحقيقة ليس لها حدود . .

إن الذي ييسره الله لليسرى ليمضي في حياته كلها ميسرا . يمضي مع هذا الوجود المتناسق التركيب والحركة والاتجاه . . إلى الله . . فلا يصطدم إلا مع المنحرفين عن خط هذا الوجود الكبير - وهم لا وزن لهم ولا حساب حين يقاسون إلى هذا الوجود الكبير - يمضي في حركة يسيرة لطيفة هينة لينة مع الوجود كله ومع الأحداث والأشياء والأشخاص , ومع القدر الذي يصرف الأحداث والأشياء والأشخاص . اليسر في يده . واليسر في لسانه . واليسر في خطوه . واليسر في عمله . و اليسر في تصوره . واليسر في تفكيره . واليسر في أخذه للأمور . و اليسر في علاجه للأمور . اليسر مع نفسه واليسر مع غيره .

وهكذا كان رسول الله [ص] في كل أمره . . ما خير بين أمرين إلا اختار أيسرهما كما روت عنه عائشة - رضي الله عنها - وكما قالت عنه:" كان رسول الله [ص] إذا خلا في بيته ألين الناس , بساما ضحاكا " وفي صحيح البخاري:" كانت الأمة تأخذ بيد رسول الله [ص] فتنطلق به حيث شاءت " !

وفي هديه [ص] في اللباس والطعام والفراش وغيرها ما يعبر عن اختيار اليسر وقلة التكلف البتة . جاء في زاد المعاد لشمس الدين أبي عبد الله محمد بن قيم الجوزية , عن هديه [ص] في "ملابسه":"كانت له عمامة تسمى السحاب كساها عليا , وكان يلبسها ويلبس تحتها القلنسوة . وكان يلبس القلنسوة بغير عمامة , ويلبس العمامة بغير قلنسوة . وكان إذا أعتم أرخى عمامته بين كتفيه - كما رواه مسلم في صحيحه . عن عمر بن حريث قال:رأيت رسول الله [ص] على المنبر وعليه عمامة سوداء قد أرخى طرفها بين كتفيه . وفي مسلم أيضا عن جابر ذؤابة , فدل على أن الذؤابة لم يكن يرخيها دائما بين كتفيه . وقد

يقال:إنه دخل مكة وعليه أهبة القتال والمغفر على رأسه فلبس في كل موطن ما يناسبه" .

وفي فصل آخر قال:"والصواب أن أفضل الطرق طريق رسول الله [ص] التي سنها وأمر بها ورغب فيها وداوم عليها . وهي أن هديه في اللباس أن يلبس ما تيسر من اللباس . من الصوف تارة , والقطن تارة , والكتان تارة , ولبس البرود اليمانية والبرد الأخضر . ولبس الجبة والقباء و القميص والسراويل والإزار والرداء والخف والنعل , وأرخى الذؤابة من خلفه تارة وتركها تارة . . الخ" . .

وقال في هديه في الطعام:"وكذلك كان هديه [ص] وسيرته في الطعام , لا يرد موجودا ولا يتكلف مفقودا . فما قرب إليه شيء من الطيبات إلا أكله - إلا أن تعافه نفسه فيتركه من غير تحريم - وما عاب طعاما قط . إن اشتهاه أكله , وإلا تركه , كما ترك أكل الضب لما لم يعتده , ولم يحرمه على الأمة , بل أكل على مائدته وهو ينظر . وأكل الحلوى والعسل - وكان يحبهما - وأكل الرطب والتمر , وشرب اللبن خ الصا ومشوبا والسويق والعسل بالماء , وشرب نقيع التمر , وأكل الخزبرة - وهي حساء يتخذ من اللبن والدقيق - وأكل القثاء بالرطب , وأكل الأ قط , وأكل التمر بالخبز , وأكل الخبز بالخل , وأكل القديد , وأكل الدباء المطبوخة - وكان يحبها - وأكل المسلوقة , وأكل الثريد بالسمن , وأكل الجبن , وأكل الخبز بالزيت , وأكل البطيخ بالرطب . وأكل التمر بالزبد - وكان يحبه - ولم يكن يرد طيبا ولا يتكلفه , بل كان هديه أكل ما تيسر , فإن أعوزه صبر . . . الخ" .

وقال عن هديه في نومه وانتباهه:"كان ينام على فراشه تارة وعلى النطع تارة , وعلى الحصير تارة , وعلىالأرض تارة , وعلى السرير تارة بين رماله , وتارة على كساء أسود" . .

وأحاديثه التي تحض على اليسر والسماحة والرفق في تناول الأمور - وفي أولها أمر العقيدة وتكاليفها - كثيرة جدا يصعب تقصيها . من هذا

قوله [ص]:" إن هذا الدين يسر , ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه " [أخرجه البخاري] . . " لا تشددوا على أنفسكم فيشدد عليكم فإن قوما شددوا على أنفسهم فشدد عليهم . . . " [أخرجه أبو داود] . . " إن المنبت لا أرضا قطع ولا ظهرا أبقى " [أخرجه البخاري] . . " يسروا ولا تعسروا " [أخرجه الشيخان] .

وفي التعامل:" رحم الله رجلا سمحا إذا باع وإذا اشترى وإذا اقتضى " [أخرجه البخاري] " المؤمن هين لين " [أخرجه البيهقي] " المؤمن يألف ويؤلف " [أخرجه الدارقطني] . " إن أبغض الرجال إلى الله الألد الخصم " [أخرجه الشيخان] .

ومن اللمحات العميقة الدلالة كراهيته [ص] للعسر والصعوبة حتى في الأسماء وسمات الوجوه , مما يوحي بحقيقة فطرته وصنع ربه بها وتيسيره لليسرى انطباعا وتكوينا . . عن سعيد بن المسيب عن أبيه - رضي الله عنه - أنه جاء للنبي [ص] فقال:" ما اسمك ? " قال:حزن [أي صعب وعر] قال:" بل أنت سهل " . قال:لا أغير اسما سمانيه أبي ! قال ابن المسيب رحمه الله:"فما زالت فينا حزونة بعد" ! [أخرجه البخاري] . . " وعن ابن عمر رضي الله عنهما - أن رسول الله [ص] غير اسم عاصية وسماها جميلة " [أخرجه مسلم] . ومن قوله:" إن من المعروف أن تلقى أخاك بوجه طلق " [أخرجه الترمذي] . .

فهو الحس المرهف الذي يلمح الوعورة والشدة حتى في الأسماء والملامح فينفر منها , ويميل بها إلى اليسر والهوادة !

وسيرة رسول الله [ص] كلها صفحات من السماحة واليسر والهوادة و اللين والتوفيق إلى اليسر في تناول الأمور جميعا .

وهذا مثل من علاجه للنفوس , يكشف عن طريقته [ص] وطبيعته:

"جاءه أعرابي يوما يطلب منه شيئا فأعطاه . قال له:أحسنت إليك ? قال الأعرابي:لا . ولا أجملت ! فغضب المسلمون , وقاموا إليه ; فأشار إليهم

أن كفوا . ثم دخل منزله , وأرسل إلى الأعرابي , وزاده شيئا . ثم ق ال:أحسنت إليك ؟ قال:نعم . فجزاك الله من أهل ومن عشيرة خيرا . فقال له النبي [ص]:إنك قلت ما قلت وفي نفس أصحابي شيء من ذلك , فإذا أحببت فقل بين أيديهم ما قلت بين يدي , حتى يذهب من صدورهم ما فيها عليك . قال:نعم . فلما كان الغداة جاء , فقال النبي [ص]:إن هذا الأعرابي قال ما قال , فزدناه , فزعم أنه رضي . أكذلك ؟ قال الأعرابي:نعم , فجزاك الله من أهل وعشيرة خيرا . فقال [ص] إن مثلي ومثل هذا الأعرابي كمثل رجل كانت له ناقة شردت عليه , فتبعها الناس , فلم يزيدوها إلا نفورا , فناداهم صاحب الناقة:خلوا بيني وبين ناقتي , فإني أرفق بها وأعلم . فتوجه لها صاحب الناقة بين يديها , فأخذ لها من قمام الأرض , فردها هونا هونا , حتى جاءت واستناخت , وشد عليها رحلها , واستوى عليها . وإني لو تركتكم حيث قال الرجل ما قال فقتلتموه دخل النار " . .

فهكذا كان أخذه [ص] للنفوس الشاردة . بهذه البساطة , وبهذا اليسر , وبهذا الرفق وبهذا التوفيق . . والنماذج شتى في سيرته كلها . وهي من التيسير لليسرى كما بشره ربه ووفقه في حياته وفيدعوته وفي أموره جميعا . .

هذه الشخصية الكريمة الحبيبة الميسرة لليسرى كانت كذلك لكي تحمل إلى البشرية هذه الدعوة . فتكون طبيعتها من طبيعتها , وحقيقتها من حقيقتها , وتكون كفاء للأمانة الضخمة التي حملتها - بتيسير الله وتوفيقه - على ضخامتها . . . حيث تتحول الرسالة بهذا التيسير من عبء مثقل , إلى عمل محبب , ورياضة جميلة , وفرح وانشراح . .

وفي صفة محمد [ص] , وصفة وظيفته التي جاء ليؤديها ورد في القرآن الكريم: وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين . . (الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة والإنجيل يأمرهم ب المعروف , وينهاهم عن المنكر , ويحل لهم الطيبات , ويحرم عليهم

الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم)فقد جاء [ص] رحمة للبشرية . جاء ميسرا يضع عن كواهل الناس الأثقال والأغلال التي كتبت عليهم , حينما شددوا فشدد عليهم .

وفي صفة الرسالة التي حملها ورد: ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر . . (وما جعل عليكم في الدين من حرج). . (لا يكلف الله نفسا إلا وسعها). . (ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج ولكن يريد ليطهركم)فقد جاءت هذه الرسالة ميسرة في حدود الطاقة لا تكلف الناس حرجا ولا مشقة . وسرى هذا اليسر في روحها كما سرى في تكاليفها (فطرة الله التي فطر الناس عليها).

وحيثما سار الإنسان مع هذه العقيدة وجد اليسر ومراعاة الطاقة البشرية , والحالات المختلفة للإنسان , والظروف التي يصادفها في جميع البيئات والأحوال . . العقيدة ذاتها سهلة التصور . إله واحد ليس كمثله شيء . أبدع كل شيء , وهداه إلى غاية وجوده . وأرسل رسلا تذكر الناس بغاية وجودهم , وتردهم إلى الله الذي خلقهم . والتكاليف بعد ذلك كلها تنبثق من هذه العقيدة في تناسق مطلق لا عوج فيه ولا انحراف . وعلى الناس أن يأتوا منها بما في طوقهم بلا حرج ولا مشقة:" إذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم , وما نهيتكم عنه فاجتنبوه " . . والمنهي عنه لا حرج فيه في حالة الضرورة: إلا ما اضطررتم إليه . . وبين هذه الحدود الواسعة تنحصر جميع التكاليف . . .

ومن ثم التقت طبيعة الرسول بطبيعة الرسالة , والتقت حقيقة الداعي بحقيقة الدعوة . في هذه السمة الأصيلة البارزة . وكذلك كانت الأمة التي جاءها الرسول الميسر بالرسالة الميسرة . فهي الأمة الوسط , وهي الأمة المرحومة الحاملة للرحمة . الميسرة الحاملة لليسر . . تتفق فطرتها هذه مع فطرة هذا الوجود الكبير . .

وهذا الوجود بتناسقه وانسياب حركته يمثل صنعة الله من اليسر والا نسياب الذي لا تصادم فيه ولا احتكاك . . ملايين الملايين من الأجرام

تسبح في فضاء الله وتنساب في مداراتها متناسقة متجاذبة . لا تصطدم ولا تضطرب ولا تميد . . وملايين الملايين من الخلائق الحية تجري بها الحياة إلى غاياتها القريبة والبعيدة في انتظام وفي احكام .وكل منها ميسر لما خلق له , سائر في طريقه إلى غاية . وملا يين الملايين من الحركات والأحداث والأحوال تتجمع وتتفرق وهي ماضية في طريقها كنغمات الفرقة العازفة بشتى الآلات , لتجتمع كلها في لحن واحد طويل مديد !

إنه التوافق المطلق بين طبيعة الوجود , وطبيعة الرسالة , وطبيعة الرسول , وطبيعة الأمة المسلمة . . صنعة الله الواحد , وفطرة المبدع الحكيم .

(فذكر إن نفعت الذكرى). .

لقد أقرأه فلا ينسى (إلا ما شاء الله)ويسره لليسرى . لينهض بالأمانة الكبرى . . ليذكر . فلهذا أعد , ولهذا بشر . . فذكر حيثما وجدت فرصة للتذكير , ومنفذا للقلوب , ووسيلة للبلاغ . ذكر (إن نفعت الذكرى). . و الذكرى تنفع دائما , ولن تعدم من ينتفع بها كثيرا كان أو قليلا . ولن يخلو جيل ولن تخلو أرض ممن يستمع وينتفع , مهما فسد الناس وقست القلوب وران عليها الحجاب . .

وحين نتأمل هذا الترتيب في الآيات , ندرك عظمة الرسالة , وضخامة الأ مانة , التي اقتضت للنهوض بها هذا التيسير لليسرى , وذلك الإقراء و الحفظ وتكفل الله بهما ; كي ينهض الرسول [ص] بعبء التذكير , وهو مزود بهذا الزاد الكبير .

فإذا نهض [ص] بهذا العبء فقد أدى ما عليه , والناس بعد ذلك وشأنهم ; تختلف مسالكهم وتختلف مصائرهم , ويفعل الله بهم ما يشاء وفق ما يستجيبون لهذه الذكرى:

سيذكر من يخشى , ويتجنبها الأشقى , الذي يصلى النار الكبرى , ثم لا

يموت فيها ولا يحيا . قد أفلح من تزكى , وذكر اسم ربه فصلى . .

فذكر . . . وسينتفع بالذكرى (من يخشى). . ذلك الذي يستشعر قلبه التقوى , فيخشى غضب الله وعذابه . والقلب الحي يتوجس ويخشى , مذ يعلم أن للوجود إلها خلق فسوى , وقدر فهدى , فلن يترك الناس سدى , ولن يدعهم هملا ; وهو لا بد محاسبهم على الخير والشر , ومجازيهم بالقسط والعدل . ومن ثم فهو يخشى . فإذا ذكر ذكر , وإذا بصر أبصر , وإذا وعظ اعتبر .

(ويتجنبها الأشقى). . يتجنب الذكرى , فلا يسمع لها ولا يفيد منها . وهو إذن(الأشقى)الأشقى إطلاقا وإجمالا . الأشقى الذي تتمثل فيه غاية الشقوة ومنتهاها . الأشقى في الدنيا بروحه الخاوية الميتة الكثيفة الصفيقة , التي لا تحس حقائق الوجود , ولا تسمع شهادتها الصادقة , و لا تتأثر بموحياتها العميقة . والذي يعيش قلقا متكالبا على ما في الأرض كادحا لهذا الشأن الصغير ! والأشقى في الآخرة بعذابها الذي لا يعرف له مدى: الذي يصلى النار الكبرى . ثم لا يموت فيها ولا يحيى . .

والنار الكبرى هي نار جهنم . الكبرى بشدتها , والكبرى بمدتها , والكبرى بضخامتها . . حيث يمتد بقاؤه فيها ويطول . فلا هو يموت فيجد طعم الراحة ; ولا هو يحيا في أمن وراحة . إنما هو العذاب الخالد , الذي يتطلع صاحبه إلى الموت كما يتطلع إلى الأمنية الكبرى !

وفي الصفحة المقابلة نجد النجاة والفلاح مع التطهر والتذكر:

(قد أفلح من تزكى . وذكر اسم ربه فصلى). .

والتزكي:التطهر من كل رجس ودنس , والله - سبحانه - يقرر أن هذا الذي تطهر وذكر اسم ربه ,

بَلْ تُؤْثِرُونَ الحَيَاةَ الدُّنْيَا (16) وَالآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى (17) إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الأُولَى (18) صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى (19)

فاستحضر في قلبه جلاله:(فصلى). . إما بمعنى خشع وقنت . وإما بمعنى الصلاة الاصطلاحي , فكلاهما يمكن أن ينشأ من التذكر واستحضار جلال الله في القلب , والشعور بمهابته في الضمير . . هذا الذي تطهر وذكر وصلى (قد أفلح)يقينا . أفلح في دنياه , فعاش موصولا , حي القلب , شاعرا بحلاوة الذكر وإيناسه . وأفلح في أخراه , فنجا من النار الكبرى , وفاز بالنعيم والرضى . .

فأين عاقبة من عاقبة ? وأين مصير من مصير ?

الدرس الرابع:16 - 17 ذم طالبي الدنيا مع أن الآخرة خير وأبقى

وفي ظل هذا المشهد . مشهد النار الكبرى للأشقى . والنجاة والفلاح لمن تزكى , يعود بالمخاطبين إلى علة شقائهم , ومنشأ غفلتهم , وما يصرفهم عن التذكر والتطهر والنجاة والفلاح , ويذهب بهم إلى النار الكبرى و الشقوة العظمى:

(بل تؤثرون الحياة الدنيا . والآخرة خير وأبقى). .

إن إيثار الحياة الدنيا هو أساس كل بلوى . فعن هذا الإيثار ينشأ الإعراض عن الذكرى ; لأنها تقتضيهم أن يحسبوا حساب الآخرة ويؤثروها . وهم يريدون الدنيا , ويؤثرونها . .

وتسميتها(الدنيا)لا تجيء مصادفة . فهي الواطية الهابطة - إلى جانب أنها الدانية:العاجلة:(والآخرة خير وأبقى). . خير في نوعها , وأبقى في أمدها .

وفي ظل هذه الحقيقة يبدو إيثار الدنيا على الآخرة حماقة وسوء تقدير . لا يقدم عليهما عاقل بصير .

الدرس الخامس:18 - 19 عراقة الدعوة ووحدة الرسالة

وفي الختام تجيء الإشارة إلى قدم هذه الدعوة , وعراقة منبتها , وامتداد جذورها في شعاب الزمن , وتوحد أصولها من وراء الزمان و المكان:

(إن هذا لفي الصحف الأولى صحف إبراهيم وموسى). .

هذا الذي ورد في هذه السورة وهو يتضمن أصول العقيدة الكبرى . هذا الحق الأصيل العريق . هو الذي في الصحف الأولى . صحف إبراهيم وموسى .

ووحدة الحق , ووحدة العقيدة , هي الأمر الذي تقتضيه وحدة الجهة التي صدر عنها , ووحدة المشيئة التي اقتضت بعثة الرسل إلى البشر . . إنه حق واحد , يرجع إلى أصل واحد . تختلف جزئياته وتفصيلاته باختلاف الحاجات المتجددة , والأطوار المتعاقبة . ولكنها تلتقي عند ذلك الأصل الواحد . الصادر من مصدر واحد . . من ربك الأعلى الذي خلق فسوى والذي قدر فهدى . .

سورة الغاشية

هَلْ أَتاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ (1) وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ (2) عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ (3) تَصْلَى نَاراً حَامِيَةً (4) تُسْقَى مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ (5) لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ (6) لَا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِن جُوعٍ (7)

سورة الغاشية

هذه السورة واحدة من الإيقاعات العميقة الهادئة . الباعثة إلى التأمل و التدبر , وإلى الرجاء والتطلع , وإلى المخافة والتوجس , وإلى عمل الحساب ليوم الحساب !

وهي تطوف بالقلب البشري في مجالين هائلين:مجال الآخرة وعالمها

الواسع , ومشاهدها المؤثرة . ومجال الوجود العريض المكشوف للنظر , وآيات الله المبثوثة في خلائقه المعروضة للجميع . ثم تذكرهم بعد هاتين الجولتين الهائلتين بحساب الآخرة , وسيطرة الله , وحتمية الرجوع إليه في نهاية المطاف . . كل ذلك في أسلوب عميق الإيقاع , هادئ , ولكنه نافذ . رصين ولكنه رهيب !

(هل أتاك حديث الغاشية ?). .

بهذا المقطع تبدأ السورة التي تريد لترد القلوب إلى الله , ولتذكرهم بآياته في الوجود , وحسابه في الآخرة وجزائه الأكيد . وبهذا الإستفهام الموحي بالعظمة الدال على التقدير ; الذي يشير في الوقت ذاته إلى أن أمر الآخرة مما سبق به التقرير والتذكير . وتسمى القيامة هذا الإسم الجديد:(الغاشية). . أي الداهية التي تغشى الناس وتغمرهم بأهوالها . وهو من الأسماء الجديدة الموحية التي وردت في هذا الجزء . . الطامة . . الصاخة . . الغاشية . . القارعة . . مما يناسب طبيعة هذا الجزء المعهودة .

وهذا الخطاب: هل أتاك . . ? كان رسول الله [ص] يحس وقع توجيهه إلى شخصه , حيثما سمع هذه السورة , وكأنما يتلقاه أول أمر مباشرة من ربه , لشدة حساسية قلبه بخطاب الله - سبحانه - واستحضاره لحقيقة الخطاب , وشعوره بأنه صادر إليه بلا وسيط حيثما سمعته أذناه . . قال ابن أبي حاتم:حدثنا علي بن محمد الطنافسي , حدثنا أبو بكر بن عباس , عن أبي إسحاق , عن عمر بن ميمون , قال:مر النبي [ص] على امرأة تقرأ:(هل أتاك حديث الغاشية ?)فقام يستمع ويقول:" نعم قد جاءني " . .

والخطاب - مع ذلك - عام لكل من يسمع هذا القرآن . فحديث الغاشية هو حديث هذا القرآن المتكرر . يذكر به وينذر ويبشر ; ويستجيش به في الضمائر الحساسية والخشية والتقوى والتوجس ; كما يثير به الرجاء والارتقاب والتطلع . ومن ثم يستحيي هذه الضمائر فلا تموت ولا تغفل .

الدرس الأول:1 - 16 بعض مشاهد يوم القيامة الوجوه الخاشعة المعذبة والناعمة المنعمة

(هل أتاك حديث الغاشية ?). . ثم يعرض شيئا من حديث الغاشية:

(وجوه يومئذ خاشعة . عاملة ناصبة . تصلى نارا حامية . تسقى من عين آنية . ليس لهم طعام إلا من ضريع . لا يسمن ولا يغني من جوع). .

إنه يعجل بمشهد العذاب قبل مشهد النعيم ; فهو أقرب إلى جو(الغاشية)وظلها . . فهناك:يومئذ وجوه خاشعة ذليلة متعبة مرهقة ; عملت ونصبت فلم تحمد العمل ولم ترض العاقبة , ولم تجد إلا الوبال و الخسارة , فزادت مضضا وإرهاقا وتعبا , فهي:(عاملة ناصبة). . عملت لغير الله , ونصبت في غير سبيله . عملت لنفسها وأولادها . وتعبت لدنياها ولأطماعها . ثم وجدت عاقبة العمل والكد . وجدته في الدنيا شقوة لغير زاد . ووجدته في الآخرة سوادا يؤدي إلى العذاب . وهي تواجه النهاية مواجهة الذليل المرهق المتعوس الخائب الرجاء !

ومع هذا الذل والرهق العذاب والألم:(تصلى نارا حامية)وتذوقها وتعانيها .

(تسقى من عين آنية). . حارة بالغة الحرارة . . (ليس لها طعام إلا من ضريع لا يسمن ولا يغني من جوع). . والضريع قيل:شجر من نار في جهنم . استنادا إلى ما ورد عن شجرة الزقوم التي تنبت في أصل الجحيم . وقيل:نوع من الشوك اللاطئ بالأرض , ترعاه الإبل وهو أخضر , ويسمى "الشبرق" فإذا جني صار اسمه "الضريع" ولم تستطع الإ بل مذاقه فهو عندئذ سام ! فهذا أو ذاك هو لون من ألوان الطعام يومئذ مع الغسلين والغساق وباقي هذه الألوان التي لا تسمن ولا تغني من جوع !

وواضح أننا لا نملك في الدنيا أن ندرك طبيعة هذا العذاب في الآخرة . إنما تجيء هذه الأوصاف لتلمس في حسنا البشري أقصى ما يملك

تصوره من الألم , الذي يتجمع من الذل والوهن والخيبة ومن لسع النار الحامية , ومن التبرد والارتواء بالماء الشديد الحرارة ! والتغذي بالطعام الذي لا تقوى الإبل على تذوقه , وهو شوك لا نقع فيه ولا غناء . . من مجموعة هذه التصورات يتجمع في حسنا إدراك لأقصى درجات الألم . وعذاب الآخرة

وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاعِمَةٌ (8) لِسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ (9) فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ (10) لَا تَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً (11) فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ (12) فِيهَا سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ (13) وَأَكْوَابٌ مَوْضُوعَةٌ (14) وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ (15) وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ (16)

بعد ذلك أشد . وطبيعة لا يتذوقها إلا من يذوقها والعياذ بالله !

وعلى الجانب الآخر:(وجوه يومئذ ناعمة . لسعيها راضية:في جنة ع الية . لا تسمع فيها لاغية . فيها عين جارية . فيها سرر مرفوعة . وأكواب موضوعة . ونمارق مصفوفة . وزرابي مبثوثة). .

فهنا وجوه يبدو فيها النعيم . ويفيض منها الرضى . وجوه تنعم بما تجد , وتحمد ما عملت . فوجدت عقباه خيرا , وتستمتع بهذا الشعور الروحي الرفيع . شعور الرضى عن عملها حين ترى رضى الله عنها . وليس أروح للقلب من أن يطمئن إلى الخير ويرضى عاقبته , ثم يراها ممثلة في رضى الله الكريم . وفي النعيم . ومن ثم يقدم القرآن هذا اللون من السعادة على ما في الجنة من رخاء ومتاع , ثم يصف الجنة ومناعمها المتاحة لهؤلاء السعداء:

(في جنة عالية). . عالية في ذاتها رفيعة مجيدة . ثم هي عالية الدرجات . وعالية المقامات . وللعلو في الحس إيقاع خاص .

(لا تسمع فيها لاغية). . ويطلق هذا التعبير جوا من السكون والهدوء و

السلام والاطمئنان والود والرضى والنجاء والسمر بين الأحباء والأوداء , والتنزه والارتفاع عن كل كلمة لاغية , لا خير فيها ولا عافية . . وهذه وحدها نعيم . وهذه وحدها سعادة . سعادة تتبين حين يستحضر الحس هذه الحياة الدنيا , وما فيها من لغو وجدل وصراع وزحام ولجاج وخصام وقرقعة وفرقعة . وضجة وصخب , وهرج ومرج . ثم يستسلم بعد ذلك لتصور الهدوء الآمن والسلام الساكن والود الرضي والظل الندي في العبارة الموحية:(لا تسمع فيها لاغية)وألفاظها ذاتها تنسم الروح و الندى وتنزلق في نعومة ويسر , وفي إيقاع موسيقي ندي رخي ! وتوحي هذه اللمسة بأن حياة المؤمنين في الأرض وهم ينأون عن الجدل واللغو , هي طرف من حياة الجنة , يتهيأون بها لذلك النعيم الكريم .

وهكذا يقدم الله من صفة الجنة هذا المعنى الرفيع الكريم الوضيء . ثم تجيء المناعم التي تشبع الحس والحواس . تجيء في الصورة التي يملك البشر تصورها . وهي في الجنة مكيفة وفق ما ترتقي إليه نفوس أهل الجنة . مما لا يعرفه إلا من يذوقه !

(فيها عين جارية). . والعين الجارية:الينبوع المتدفق . وهو يجمع إلى الري الجمال . جمال الحركة والتدفق والجريان . والماء الجاري يجاوب الحس بالحيوية وبالروح التي تنتفض وتنبض ! وهو متعة للنظر و النفس من هذا الجانب الخفي , الذي يتسرب إلى أعماق الحس .

(فيها سرر مرفوعة). . والارتفاع يوحي بالنظافة كما يوحي بالطهارة . .(وأكواب موضوعة). . مصفوفة مهيأة للشراب لا تحتاج إلى طلب ولا إعداد !(ونمارق مصفوفة). . والنمارق الوسائد والحشايا للاتكاء في ارتياح !(وزرابي مبثوثة). . والزرابي البسط ذات الخمل "السجاجيد" مبثوثة هنا وهناك للزينة وللراحة سواء !

وكلها مناعم مما يشهد الناس له أشباها في الأرض . وتذكر هذه الأشياء لتقريبها إلى مدارك أهل الأرض . أما طبيعتها وطبيعة المتاع بها فهي

موكولة إلى المذاق هناك . للسعداء الذين يقسم الله لهم هذا المذاق !

ومن اللغو الدخول في موازنات أو تحقيقات حول طبيعة النعيم - أو طبيعة العذاب - في الآخرة . فإدراك طبيعة شيء ما متوقف على نوع هذا الإدراك . وأهل الأرض يدركون بحس مقيد بظروف هذه الأرض وطبيعة الحياة فيها . فإذا كانوا هناك رفعت الحجب وأزيلت الحواجز وانطلقت الأرواح والمدارك , وتغيرت مدلولات الألفاظ ذاتها بحكم تغير مذاقها , وكان ما سيكون , مما لا نملك أن ندرك الآن كيف يكون !

إنما نفيد من هذه الأوصاف أن يستحضر تصورنا أقصى ما يطيقه من صور اللذاذة والحلاوة والمتاع . وهو

أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ (17) وَإِلَى السَّمَاء كَيْفَ رُفِعَتْ (18)
ما نملك تذوقه ما دمنا هنا . حتى نعرف حقيقته هناك . حين يكرمنا الله بفضله ورضاه .

الدرس الثاني:17 دعوة للتأمل في آيات الله في الكون

وتنتهي هذه الجولة في العالم الآخر , فيؤوب منها إلى هذا الوجود الظاهر . الحاضر . الموحي بقدرة القادر وتدبير المدبر , وتميز الصنعة , وتفرد الطابع . الدال على أن وراء التدبير والتقدير أمرا بعد هذه الحياة , وشأنا غير شأن الأرض . وخاتمة غير خاتمة الموت:

(أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت , وإلى السماء كيف رفعت , وإلى الجبال كيف نصبت , وإلى الأرض كيف سطحت ?). .

وتجمع هذه الأيات الأربعة القصار , أطراف بيئة العربي المخاطب بهذا القرآن أول مرة . كما تضم أطراف الخلائق البارزة في الكون كله . حين

تتضمن السماء والأرض والجبال والجمال [ممثلة لسائر الحيوان] على مزية خاصة بالإبل في خلقها بصفة عامة وفي قيمتها للعربي بصفة خاصة .

إن هذه المشاهد معروضة لنظر الإنسان حيثما كان . . السماء والأرض و الجبال والحيوان . . وأيا كان حظ الإنسان من العلم والحضارة فهذه المشاهد داخلة في عالمه وإدراكه . موحية له بما وراءها حين يوجه نظره وقلبه إلى دلالتها .

والمعجزة كامنة في كل منها . وصنعة الخالق فيها معلمة لا نظير لها . وهي وحدها كافية لأن توحي بحقيقة العقيدة الأولى . ومن ثم يوجه القرآن الناس كافة إليها:

(أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت ؟). . والإبل حيوان العربي الأول . عليها يسافر ويحمل . ومنها يشرب ويأكل . ومن أوبارها وجلودها يلبس وينزل . فهي مورده الأول للحياة . ثم إن لها خصائص تفردها من بين الحيوان . فهي على قوتها وضخامتها وضلاعة تكوينها ذلول يقودها الصغير فتنقاد , وهي على عظم نفعها وخدمتها قليلة التكاليف . مرعاها ميسر , وكلفتها ضئيلة , وهي أصبر الحيوان المستأنس على الجوع و العطش والكدح وسوء الأحوال . . ثم إن لهيئتها مزية في تناسق المشهد الطبيعي المعروض كما سيجيء . .

لهذا كله يوجه القرآن أنظار المخاطبين إلى تدبر خلق الإبل ; وهي بين أيديهم , لا تحتاج منهم إلى نقلة ولا علم جديد . .(أفلا ينظرون إلى الإ بل كيف خلقت ؟). . أفلا ينظرون إلى خلقتها وتكوينها ؟ ثم يتدبرون:كيف خلقت على هذا النحو المناسب لوظيفتها , المحقق لغاية خلقها , المتناسق مع بيئتها ووظيفتها جميعا ! إنهم لم يخلقوها . وهي لم تخلق نفسها , فلا يبقى إلا أن تكون من إبداع المبدع المتفرد بصنعته , التي تدل عليه , وتقطع بوجوده ; كما تشي بتدبيره وتقديره .

(وإلى السماء كيف رفعت ?). . وتوجيه القلب إلى السماء يتكرر في القرآن . وأولى الناس بأن يتوجهوا إلى السماء هم سكان الصحراء . حيث للسماء طعم ومذاق , وإيقاع وإيحاء , كأنما ليست السماء إلا هناك في الصحراء !

السماء بنهارها الواضح الباهر الجاهر . والسماء بأصيلها الفاتن الرائق الساحر . والسماء بغروبها البديع الفريد الموحي . والسماء بليلها المترامي ونجومها المتلألئة وحديثها الفاتر . والسماء بشروقها الجميل الحي السافر .

هذه السماء . في الصحراء . . أفلا ينظرون إليها ? أفلا ينظرون إليها كيف رفعت ? من ذا رفعها بلا عمد ? ونثر فيها النجوم بلا عدد ? وجعل فيها هذه البهجة وهذا الجمال وهذا الإيحاء ? إنهم لم يرفعوها وهي لم ترفع نفسها . فلا بد لها من رافع ولا بد لها من مبدع . لا يحتاج الأمر إلى علم ولا إلى كد ذهن . فالنظرة الواعية وحدها تكفي . . .

وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ (19) وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ (20) فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ (21) لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ (22)

(وإلى الجبال كيف نصبت ?). . والجبال عند العربي - بصفة خاصة - ملجأ وملاذ , وأنيس وصاحب , ومشهدها يوحي إلى النفس الإنسانية - بصفة عامة - جلالا واستهوالا . حيث يتضاءل الإنسان إلى جوارها ويستكين , ويخشع للجلال السامق الرزين . والنفس في أحضان الجبل تتجه بطبيعتها إلى الله ; وتشعر أنها إليه أقرب , وتبعد عن واغش الأرض وضجيجها وحقاراتها الصغيرة . ولم يكن عبثا ولا مصادفة أن يتحنث محمد [ص] في غار حراء في جبل ثور . وأن يتجه إلى الجبل من يريدون النجوة بأرواحهم فترات من الزمان !

والجبال هنا (كيف نصبت)لأن هذه اللمحة تتفق من الناحية التصويرية مع طبيعة المشهد كما سيجيء .

(وإلى الأرض كيف سطحت ?). . والأرض مسطوحة أمام النظر , ممهدة للحياة والسير والعمل , والناس لم يسطحوها كذلك . فقد سطحت قبل أن يكونوا هم . . أفلا ينظرون إليها ويتدبرون ما وراءها , ويسألون:من سطحها ومهدها هكذا للحياة تمهيدا ?

إن هذه المشاهد لتوحي إلى القلب شيئا . بمجرد النظر الواعي والتأمل الصاحي . وهذا القدر يكفي لاستجاشة الوجدان واستحياء القلب . وتحرك الروح نحو الخالق المبدع لهذه الخلائق .

ونقف وقفة قصيرة أمام جمال التناسق التصويري لمجموعة المشهد الكوني لنرى كيف يخاطب القرآن الوجدان الديني بلغة الجمال الفني , وكيف يعتنقان في حس المؤمن الشاعر بجمال الوجود . .

إن المشهد الكلي يضم مشهد السماء المرفوعة والأرض المبسوطة . وفي هذا المدى المتطاول تبرز الجبال "منصوبة " السنان لا راسية ولا ملقاة , وتبرز الجمال منصوبة السنام . . خطان أفقيان وخطان رأسيان في المشهد الهائل في المساحة الشاسعة . ولكنها لوحة متناسقة الأبعاد والا تجاهات ! على طريقة القرآن في عرض المشاهد , وفي التعبير بالتصوير على وجه الإجمال .

الدرس الثالث:21 - 26 واجب الرسول التذكير وتهديد الكفار بالعذاب

والآن بعد الجولة الأولى في عالم الآخرة , والجولة الثانية في مشاهد الكون المعروضة , يلتفت إلى الرسول [ص] يوجهه إلى حدود واجبه وطبيعة وظيفته , ويلمس قلوبهم اللمسة الأخيرة الموقظة:

فذكر إنما أنت مذكر . لست عليهم بمسيطر . إلا من تولى وكفر . فيعذبه الله العذاب الأكبر . إن إلينا إيابهم . ثم إن علينا حسابهم . .

فذكر بها وذاك . ذكرهم بالآخرة وما فيها . وذكرهم بالكون وما فيه . إنما أنت مذكر . هذه وظيفتك على وجه التحديد . وهذا دورك في هذه الدعوة , ليس لك ولا عليك شيء وراءه . عليك أن تذكر . فإنك ميسر لهذا ومكلف إياه .

(لست عليهم بمسيطر) . فأنت لا تملك من أمر قلوبهم شيئا . حتى تقهرها وتقسرها على الإيمان . فالقلوب بين أصابع الرحمن , لا يقدر عليها إنسان .

فأما الجهاد الذي كتب بعد ذلك فلم يكن لحمل الناس على الإيمان . إنما كان لإزالة العقبات من وجه الدعوة لتبلغ إلى الناس . فلا يمنعوا من سماعها . ولا يفتنوا عن دينهم إذا سمعوها . كان إزالة العقبات من طريق التذكير . الدور الوحيد الذي يملكه الرسول .

وهذا الإيحاء بأن ليس للرسول من أمر هذه الدعوة شيء إلا التذكير والبلاغ يتكرر في القرآن لأسباب شتى .

إِلَّا مَن تَوَلَّى وَكَفَرَ (23) فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ (24) إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ (25) ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ (26)

في أولها إعفاء أعصاب الرسول من حمل هم الدعوة بعد البلاغ , وتركها لقدر الله يفعل بها ما يشاء . فإلحاح الرغبة البشرية بانتصار دعوة الخير وتناول الناس لهذا الخير , إلحاح عنيف جدا يحتاج إلى هذا الإيحاء المتكرر بإخراج الداعية لنفسه ولرغائبه هذه من مجال الدعوة , كي ينطلق إلى أدائها كائنة ما كانت الاستجابة , وكائنة ما كانت العاقبة . فلا يعني نفسه بهم من آمن وهم من كفر . ولا يشغل باله بهذا الهم الثقيل حين تسوء الأحوال من حول الدعوة , وتقل الاستجابة , ويكثر المعرضون والمخاصمون .

ومما يدل على إلحاح الرغبة البشرية في انتصار دعوة الله وتذوق الناس لما فيها من خير ورحمة , هذه التوجيهات المتكررة للرسول [ص] وهو من هو تأدبا بأدب الله ومعرفة لحدوده ولقدر الله . . ومن ثم اقتضى إلحاح هذه الرغبة هذا العلاج الطويل المتكرر في شتى الأحيان . .

ولكن إذا كان هذا هو حد الرسول , فإن الأمر لا ينتهي عند هذا الحد . و لا يذهب المكذبون ناجين , ولا يتولون سالمين . إن هنالك الله وإليه تصير الأمور:

(إلا من تولى وكفر . فيعذبه الله العذاب الأكبر). .

وهم راجعون إلى الله وحده قطعا , وهو مجازيهم وحده حتما . وهذا هو الإيقاع الختامي في السورة في صيغة الجزم والتوكيد .

(إن إلينا إيابهم . ثم إن علينا حسابهم). .

بهذا يتحدد دور الرسول في هذه الدعوة . ودور كل داعية إليها بعده . . إنما أنت مذكر وحسابهم بعد ذلك على الله . ولا مفر لهم من العودة إليه , ولا محيد لهم من حسابه وجزائه . غير أنه ينبغي أن يفهم أن من التذكير إزالة العقبات من وجه الدعوة لتبلغ إلى الناس وليتم التذكير . فهذه وظيفة الجهاد كما تفهم من القرآن ومن سيرة الرسول سواء , بلا تقصير فيها ولا اعتداء . .

سورة الفجر

هذه السورة في عمومها حلقة من حلقات هذا الجزء في الهتاف بالقلب البشري إلى الإيمان والتقوى واليقظة والتدبر . . ولكنها تتضمن ألوانا شتى من الجولات والإيقاعات والظلال . ألوانا متنوعة تؤلف من تفرقها وتناسقها لحنا واحدا متعدد النغمات موحد الإيقاع !

في بعض مشاهدها جمال هادئ رفيق ندي السمات والإيقاعات ، كهذا المطلع الندي بمشاهده الكونية الرقيقة ، وبظل العبادة والصلاة في ثنايا

تلك المشاهد . . " والفجر . وليال عشر . والشفع والوتر . والليل إذا يسر " . . .

وفي بعض مشاهدها شد وقصف . سواء مناظرها أو موسيقاها كهذا المشهد العنيف المخيف : " كلا . إذا دكت الأرض دكا دكا . وجاء ربك و الملك صفا صفا . وجيء يومئذ بجهنم . يومئذ يتذكر الإنسان وأنى له الذكرى . يقول : يا ليتني قدمت لحياتي . فيومئذ لا يعذب عذابه أحد و لا يوثق وثاقه أحد " . .

وفي بعض مشاهدها نداوة ورقة ورضى يفيض وطمأنينة . تتناسق فيها المناظر والأنغام ، كهذا الختام : " يا أيتها النفس المطمئنة ، ارجعي إلى ربك راضية مرضية . فادخلي في عبادي وادخلي جنتي " . .

وفيها إشارات سريعة لمصارع الغابرين المتجبرين ، وإيقاعها بين بين . بين إيقاع القصص الرخي وإيقاع المصرع القوي : " ألم تر كيف فعل ربك بعاد . إرم ذات العماد . التي لم يخلق مثلها في البلاد . وثمود الذين جابوا الصخر بالواد . وفرعون ذي الأوتاد الذين طغوا في البلاد فأكثروا فيها الفساد . فصب عليهم ربك سوط عذاب . إن ربك لبالمرصاد " .

وفيها بيان لتصورات الإنسان غير الإيمانية وقيمه غير الإيمانية . وهي ذات لون خاص في السورة تعبيرا وإيقاعا : " فأما الإنسان إذا ما ابتلاه ربه فأكرمه ونعمه فيقول : ربي أكرمن . وأما إذا ما ابتلاه فقدر عليه رزقه فيقول : ربي أهانن " . . .

ثم الرد على هذه التصورات ببيان حقيقة حالهم التي تنبع منها هذه التصورات . وهي تشمل لونين من ألوان العبارة والتنغيم : " كلا . بل لا تكرمون اليتيم . ولا تحاضون على طعام المسكين . وتأكلون التراث أكلا لما ، وتحبون المال حبا جما " . .

ويلاحظ أن هذا اللون الأخير هو قنطرة بين تقرير حالهم وما ينتظرهم في مآلهم . فقد جاء بعده : " كلا إذا دكت الأرض دكا دكا " . . الخ . . فهو

وسط في شدة التنغيم بين التقرير الأول والتهديد الأخير !

ومن هذا الاستعراض السريع تبدو الألوان المتعددة في مشاهد السورة . وإيقاعاتها في تعبيرها وفي تنغيمها . . كما يبدو تعدد نظام الفواصل وتغير حروف القوافي . بحسب تنوع المعاني والمشاهد . فالسورة من هذا الجانب نموذج واف لهذا الأفق من التناسق الجمالي في التعبير القرآني. فوق ما فيها عموما من جمال ملحوظ مأنوس !

فأما أغراض السورة الموضوعية التي يحملها هذا التعبير المتناسق الجميل . فنعرضها فيما يلي بالتفصيل :

* * *

" والفجر وليال عشر . والشفع والوتر . والليل إذا يسر . هل في ذلك قسم لذي حجر ؟ " . .

هذا القسم في مطلع السورة يضم هذه المشاهد والخلائق . ذات الأرواح اللطيفة المأنوسة الشفيقة : " والفجر " . . ساعة تنفس الحياة في يسر ، وفرح ، وابتسام ، وإيناس ودود ندي ، والوجود الغافي يستيقظ رويدا رويدا ، وكأن أنفاسه مناجاة ، وكأن تفتحه ابتهال !

" وليال عشر " أطلقها النص القرآني ووردت فيها روايات شتى . . قيل هي العشر من ذي الحجة ، وقيل هي العشر من المحرم . وقيل هي العشر من رمضان . . وإطلاقها هكذا أوقع وأندى . فهي ليال عشر يعلمها الله . ولها عنده شأن . تلقي في السياق ظل الليلات ذات الشخصية الخاصة . وكأنها خلائق حية معينة ذوات أرواح ، تعاطفنا ونعاطفها من خلال التعبير القرآني الرفاف !

" والشفع والوتر " . . يطلقان روح الصلاة والعبادة في ذلك الجو المأنوس الحبيب . جو الفجر والليالي العشر . . " ومن الصلاة الشفع و الوتر " [كما جاء في حديث أخرجه الترمذي] وهذا المعنى هو أنسب

المعاني في هذا الجو . حيث تلتقي روح العبادة الخاشعة ، بروح الوجود الساجية ! وحيث تتجاوب الأرواح العابدة مع أرواح الليالي المختارة ، وروح الفجر الوضيئة .

" والليل إذا يسر " . . والليل هنا مخلوق حي ، يسري في الكون ، وكأنه ساهر يجول في الظلام ! أو مسافر يختار السرى لرحلته البعيدة ! يا لأ ناقة التعبير ! ويا لأنس المشهد ! ويا لجمال النغم ! ويا للتناسق مع الفجر ، والليالي العشر . والشفع والوتر !

إنها ليست ألفاظا وعبارات . إنما هي أنسام من أنسام الفجر ، وأنداء مشعشعة بالعطر ! أم إنه النجاء الأليف للقلب ؟ والهمس اللطيف للروح ؟ واللمس الموحي للضمير ؟

إنه الجمال . . الجمال الحبيب الهامس اللطيف . الجمال الذي لا يدانيه جمال التصورات الشاعرية الطليقة . لأنه الجمال الإبداعي ، المعبر في الوقت ذاته عن حقيقة .

ومن ثم يعقب عليه في النهاية : - " هل في ذلك قسم لذي حجر ؟ " وهو سؤال للتقرير . إن في ذلك قسما لذي لب وعقل . إن في ذلك مقنعا لمن له إدراك وفكر . ولكن صيغة الاستفهام - مع إفادتها التقرير - أرق حاشية . فهي تتناسق مع ذلك الجو الهامس الرقيق !

* * *

الكفار أما المقسم عليه بذلك القسم ، فقد طواه السياق ، ليفسره ما بعده ، فهو موضوع الطغيان والفساد ، وأخذ ربك لأهل الطغيان والفساد ، فهو حق واقع يقسم عليه بذلك القسم في تلميح يناسب لمسات السورة الخفيفة على وجه الإجمال :

" ألم تر كيف فعل ربك بعاد ، إرم ذات العماد ، التي لم يخلق مثلها في البلاد ؟ وثمود الذين جابوا الصخر بالواد ؟ وفرعون ذي الأوتاد ؟ . .

الذين طغوا في البلاد ، فأكثروا فيها الفساد ، فصب عليهم ربك سوط عذاب ؟ إن ربك لبالمرصاد " . .

وصيغة الاستفهام في مثل هذا السياق أشد إثارة لليقظة والالتفات . و الخطاب للنبي - صلى الله عليه وسلم - ابتداء . ثم هو لكل من تتأتى منه الرؤية أو التبصر في مصارع أولئك الأقوام ، وكلها مما كان المخاطبون بالقرآن أول مرة يعرفونه ؛ ومما تشهد به الآثار والقصص الباقية في الأجيال المتعاقبة ، وإضافة الفعل إلى " ربك " فيها للمؤمن طمأنينة وأنس وراحة . وبخاصة أولئك الذين كانوا في مكة يعانون طغيان الطغاة ، وعسف الجبارين من المشركين ، الواقفين للدعوة وأهلها بالمرصاد .

وقد جمع الله في هذه الآيات القصار مصارع أقوى الجبارين الذين عرفهم التاريخ القديم . . مصرع : " عاد إرم " وهي عاد الأولى . وقيل : إنها من العرب العاربة أو البادية . وكان مسكنهم بالأحقاف وهي كثبان الرمال . في جنوبي الجزيرة بين حضرموت واليمن . وكانوا بدوا ذوي خيام تقوم على عماد . وقد وصفوا في القرآن بالقوة والبطش ، فقد كانت قبيلة عاد هي أقوى قبيلة في وقتها وأميزها : " التي لم يخلق مثلها في البلاد " في ذلك الأوان . .

" وثمود الذين جابوا الصخر بالواد " . . وكانت ثمود تسكن بالحجر في شمال الجزيرة العربية بين المدينة والشام . وقد قطعت الصخر وشيدته قصورا ؛ كما نحتت في الجبال ملاجئ ومغارات . .

" وفرعون ذي الأوتاد " . . وهي على الأرجح الأهرامات التي تشبه الأ وتاد الثابتة في الأرض المتينة البنيان . وفرعون المشار إليه هنا هو فرعون موسى الطاغية الجبار .

هؤلاء هم " الذين طغوا في البلاد ، فأكثروا فيها الفساد " . . وليس وراء الطغيان إلا الفساد . فالطغيان يفسد الطاغية ، ويفسد الذين يقع

عليهم الطغيان سواء . كما يفسد العلاقات والارتباطات في كل جوانب الحياة . ويحول الحياة عن خطها السليم النظيف ، المعمر الباني ، إلى خط آخر لا تستقيم معه خلافة الإنسان في الأرض بحال . .

إنه يجعل الطاغية أسير هواه ، لأنه لا يفيء إلى ميزان ثابت ، ولا يقف عند حد ظاهر ، فيفسد هو أول من يفسد ؛ ويتخذ له مكانا في الأرض غير مكان العبد المستخلف ؛ وكذلك قال فرعون . . " أنا ربكم الأعلى " عندما أفسده طغيانه ، فتجاوز به مكان العبد المخلوق ، وتطاول به إلى هذا الادعاء المقبوح ، وهو فساد أي فساد .

ثم هو يجعل الجماهير أرقاء أذلاء ، مع السخط الدفين والحقد الكظيم ، فتتعطل فيهم مشاعر الكرامة الإنسانية ، وملكات الابتكار المتحررة التي لا تنمو في غير جو الحرية . والنفس التي تستذل تأسن وتتعفن ، وتصبح مرتعا لديدان الشهوات الهابطة والغرائز المريضة . وميدانا للا نحرافات مع انطماس البصيرة والإدراك . وفقدان الأريحية والهمة و التطلع والارتفاع ، وهو فساد أي فساد . .

ثم هو يحطم الموازين والقيم والتصورات المستقيمة ، لأنها خطر على الطغاة والطغيان . فلابد من تزييف للقيم ، وتزوير في الموازين ، وتحريف للتصورات كي تقبل صورة البغي البشعة ، وتراها مقبولة مستساغة . . وهو فساد أي فساد .

فلما أكثروا في الأرض الفساد ، كان العلاج هو تطهير وجه الأرض من الفساد :

" فصب عليهم ربك سوط عذاب . إن ربك لبالمرصاد " . .

فربك راصد لهم ومسجل لأعمالهم . فلما أن كثر الفساد وزاد صب عليهم سوط عذاب ، وهو تعبير يوحي بلذع العذاب حين يذكر السوط ، وبفيضه وغمره حين يذكر الصب . حيث يجتمع الألم اللاذع والغمرة الطاغية ، على الطغاة الذين طغوا في البلاد فأكثروا فيها الفساد .

ومن وراء المصارع كلها تفيض الطمأنينة على القلب المؤمن وهو يواجه الطغيان في أي زمان وأي مكان . ومن قوله تعالى : " إن ربك لبالمرصاد " تفيض طمأنينة خاصة . فربك هناك . راصد لا يفوته شيء . مراقب لا يند عنه شيء . فليطمئن بال المؤمن ، ولينم ملء جفونه . فإن ربه هناك ! . . بالمرصاد . . للطغيان والشر والفساد

وهكذا نرى هنا نماذج من قدر الله في أمر الدعوة ، غير النموذج التي تعرضه سورة البروج لأصحاب الأخدود . وقد كان القرآن - ولا يزال - يربي المؤمنين بهذا النموذج وذاك . وفق الحالات والملابسات . ويعد نفوس المؤمنين لهذا وذاك على السواء . لتطمئن على الحالين . وتتوقع الأمرين ، وتكل كل شيء لقدر الله يجريه كما يشاء .

* * *

" إن ربك لبالمرصاد " . . يرى ويحسب ويحاسب ويجازي ، وفق ميزان دقيق لا يخطئ ولا يظلم ولا يأخذ بظواهر الأمور لكن بحقائق الأشياء . . فأما الإنسان فتخطئ موازينه وتضل تقديراته ، ولا يرى إلا الظواهر ، ما لم يتصل بميزان الله :

" فأما الإنسان إذا ما ابتلاه ربه فأكرمه ونعمه ، فيقول : ربي أكرمن . وأما إذا ما ابتلاه فقدر عليه رزقه فيقول : ربي أهانن " . .

فهذا هو تصور الإنسان لما يبتليه الله به من أحوال ، ومن بسط وقبض ، ومن توسعة وتقدير . . يبتليه بالنعمة والإكرام . بالمال أو المقام . فلا يدرك أنه الابتلاء ، تمهيدا للجزاء . إنما يحسب هذا الرزق وهذه المكانة دليلا على استحقاقه عند الله للإكرام ، وعلامة على اصطفاء الله له واختياره . فيعتبر البلاء جزاء والامتحان نتيجة ! ويقيس الكرامة عند الله بعرض هذه الحياة ! ويبتليه بالتضييق عليه في الرزق ، فيحسب الابتلاء جزاء كذلك ، ويحسب الاختبار عقوبة ، ويرى في ضيق الرزق مهانة عند الله ، فلو لم يرد مهانته ما ضيق عليه رزقه . .

وهو في كلتا الحالتين مخطئ في التصور ومخطئ في التقدير . فبسط الرزق أو قبضه ابتلاء من الله لعبده . ليظهر منه الشكر على النعمة أو البطر . ويظهر منه الصبر على المحنة أو الضجر . والجزاء على ما يظهر منه بعد . وليس ما أعطي من عرض الدنيا أو منع هو الجزاء . . وقيمة العبد عند الله لا تتعلق بما عنده من عرض الدنيا . ورضى الله أو سخطه لا يستدل عليه بالمنح والمنع في هذه الأرض . فهو يعطي الصالح والطالح ، ويمنع الصالح والطالح . ولكن ما وراء هذا وذلك هو الذي عليه المعول . إنه يعطي ليبتلي ويمنع ليبتلي . والمعول عليه هو نتيجة الابتلاء !

غير أن الإنسان - حين يخلو قلبه من الإيمان - لا يدرك حكمة المنع و العطاء . ولا حقيقة القيم في ميزان الله . . فإذا عمر قلبه بالإيمان اتصل وعرف ما هنالك . وخفت في ميزانه الأعراض الزهيدة ، وتيقظ لما وراء الابتلاء من الجزاء ، فعمل له في البسط والقبض سواء . واطمأن إلى قدر الله به في الحالين ؛ وعرف قدره في ميزان الله بغير هذه القيم الظاهرة الجوفاء !

* * *

وقد كان القرآن يخاطب في مكة أناسا - يوجد أمثالهم في كل جاهلية تفقد اتصالها بعالم أرفع من الأرض وأوسع - أناسا ذلك ظنهم بربهم في البسط والقبض . وذلك تقديرهم لقيم الناس في الأرض . ذلك أن المال والجاه عندهم كل شيء . وليس وراءهما مقياس ! ومن ثم كان تكالبهم على المال عظيما ، وحبهم له حبا طاغيا ، مما يورثهم شراهة وطمعا . كما يورثهم حرصا وشحا . . ومن ثم يكشف لهم عن ذوات صدورهم في هذا المجال ، ويقرر أن هذا الشره والشح هما علة خطئهم في إدراك معنى الابتلاء من وراء البسط والقبض في الأرزاق .

" كلا . بل لا تكرمون اليتيم ، ولا تحاضون على طعام المسكين . وتأكلون التراث أكلا لما ، وتحبون المال حبا جما " . .

كلا ليس الأمر كما يقول الإنسان الخاوي من الإيمان . ليس بسط الرزق دليلا على الكرامة عند الله . وليس تضييق الرزق دليلا على المهانة والإهمال . إنما الأمر أنكم لا تنهضون بحق العطاء ، ولا توفون بحق المال . فأنتم لا تكرمون اليتيم الصغير الذي فقد حاميه وكافله حين فقد أباه ، ولا تتحاضون فيما بينكم على إطعام المسكين . الساكن الذي لا يتعرض للسؤال وهو محتاج ! وقد اعتبر عدم التحاض والتواصي على إطعام المسكين قبيحا مستنكرا . كما يوحي بضرورة التكافل في الجماعة في التوجيه إلى الواجب وإلى الخير العام . وهذه سمة الإسلام .

. . إنكم لا تدركون معنى الابتلاء . فلا تحاولون النجاح فيه ، بإكرام اليتيم والتواصي على إطعام المسكين ، بل أنتم - على العكس - تأكلون الميراث أكلا شرها جشعا ؛ وتحبون المال حبا كثيرا طاغيا ، لا يستبقي في نفوسكم أريحية ولا مكرمة مع المحتاجين إلى الإكرام والطعام .

وقد كان الإسلام يواجه في مكة - كما ذكرنا من قبل - حالة من التكالب على جمع المال بكافة الطرق ، تورث القلوب كزازة وقساوة . وكان ضعف اليتامى مغريا بانتهاب أموالهم وبخاصة الإناث منهم في صور شتى ؛ وبخاصة ما يتعلق في الميراث [كما سبق بيانه في مواضع متعددة في الظلال] كما كان حب المال وجمعه بالربا وغيره ظاهرة بارزة في المجتمع المكي قبل الإسلام . وهي سمة الجاهليات في كل زمان ومكان ! حتى الآن !

وفي هذه الآيات فوق الكشف عن واقع نفوسهم ، تنديد بهذا الواقع ، وردع عنه ، يتمثل في تكرار كلمة " كلا " كما يتمثل في بناء التعبير وإيقاعه ، وهو يرسم بجرسه شدة التكالب وعنفه :

" وتأكلون التراث أكلا لما . وتحبون المال حبا جما ! " . .

*   *   *

وعند هذا الحد من فضح حقيقة حالهم المنكرة ، بعد تصوير خطأ

تصورهم في الابتلاء بالمنع والعطاء ، يجيء التهديد الرعيب بيوم الجزاء وحقيقته ، بعد الابتلاء ونتيجته ، في إيقاع قوي شديد :

" كلا . إذا دكت الأرض دكا دكا . وجاء ربك والملك صفا صفا . وجيء يومئذ بجهنم . يومئذ يتذكر الإنسان وأنى له الذكرى ؟ يقول : يا ليتني قدمت لحياتي . فيومئذ لا يعذب عذابه أحد ، ولا يوثق وثاقه أحد " . .

ودك الأرض ، وتحطيم معالمها وتسويتها ؛ وهو أحد الانقلابات الكونية التي تقع في يوم القيامة . فأما مجيء ربك والملائكة صفا صفا ، فهو أمر غيبي لا ندرك طبيعته ونحن في هذه الآرض . ولكنا نحس وراء التعبير بالجلال والهول . كذلك المجيء بجهنم . نأخذ منه قربها منهم وقرب المعذبين منها وكفى . فأما حقيقة ما يقع وكيفيته فهي من غيب الله المكنون ليومه المعلوم .

إنما يرتسم من وراء هذه الآيات ، ومن خلال موسيقاها الحادة التقسيم ، الشديدة الأسر ، مشهد ترجف له القلوب ، وتخشع له الأبصار . والأرض تدك دكا دكا ! والجبار المتكبر يتجلى ويتولى الحكم والفصل ، ويقف الملائكة صفا صفا . ثم يجاء بجهنم فتقف متأهبة هي الأخرى !

" يومئذ يتذكر الإنسان " . . الإنسان الذي غفل عن حكمة الابتلاء بالمنع والعطاء . والذي أكل التراث أكلا لما ، وأحب المال حبا جما . والذي لم يكرم اليتيم ولم يحض على طعام المسكين . والذي طغى وأفسد وتولى . . يومئذ يتذكر . يتذكر الحق ويتعظ بما يرى . . ولكن لقد فات ا لأوان " وأنى له الذكرى ؟ " . . ولقد مضى عهد الذكرى ، فما عادت تجدي هنا في دار الجزاء أحدا ! وإن هي إلا الحسرة على فوات الفرصة في دار العمل في الحياة الدنيا !

وحين تتجلى له هذه الحقيقة : " يقول : يا ليتني قدمت لحياتي " . . يا ليتني قدمت شيئا لحياتي هنا . فهي الحياة الحقيقية التي تستحق اسم الحياة . وهي التي تستأهل الاستعداد والتقدمة والادخار لها . يا

ليتني . . أمنية فيها الحسرة الظاهرة ، وهي أقسى ما يملكه الإنسان في الآخرة !

ثم يصور مصيره بعد الحسرة الفاجعة والتمنيات الضائعة : " فيومئذ لا يعذب عذابه أحد ، ولا يوثق وثاقه أحد " . . إنه الله القهار الجبار . الذي يعذب يومئذ عذابه الفذ الذي لا يملك مثله أحد . والذي يوثق وثاقه الفذ الذي لا يوثق مثله أحد . وعذاب الله ووثاقه يفصلهما القرآن في مواضع أخرى في مشاهد القيامة الكثيرة المنوعة في ثنايا القرآن كله ، ويجملهما هنا حيث يصفهما بالتفرد بلا شبيه من عذاب البشر ووثاقهم . أو من عذاب الخلق جميعا ووثاقهم . وذلك مقابل ما أسلف في السورة من طغيان الطغاة ممثلين في عاد وثمود وفرعون ، وإكثارهم من الفساد في الأرض ، مما يتضمن تعذيب الناس وربطهم بالقيود والأغلال . فها هو ذا ربك - أيها النبي وأيها المؤمن - يعذب ويوثق من كانوا يعذبون الناس ويوثقونهم . ولكن شتان بين عذاب وعذاب ، ووثاق ووثاق . . وهان ما يملكه الخلق من هذا الأمر ، وجل ما يفعله صاحب الخلق والأمر . فليكن عذاب الطغاة للناس ووثاقهم ما يكون . فسيعذبون هم ويوثقون ، عذابا ووثاقا وراء التصورات والظنون !

* * *

وفي وسط هذا الهول المروع ، وهذا العذاب والوثاق ، الذي يتجاوز كل تصور تنادى " النفس " المؤمنة من الملأ الأعلى :

" يا أيتها النفس المطمئنة . ارجعي إلى ربك راضية مرضية . فادخلي في عبادي . وادخلي جنتي " . .

هكذا في عطف وقرب : " يا أيتها " وفي روحانية وتكريم : " يا أيتها النفس " . . وفي ثناء وتطمين . . " يا أيتها النفس المطمئنة " . . وفي وسط الشد والوثاق ، الانطلاق والرخاء : " ارجعي إلى ربك " ارجعي إلى مصدرك بعد غربة الأرض وفرقة المهد . ارجعي إلى ربك بما بينك وبينه

من صلة ومعرفة ونسبة . . " راضية مرضية " بهذه النداوة التي تفيض على الجو كله بالتعاطف والرضى . . " فادخلي في عبادي " . . المقربين المختارين لينالوا هذه القربى . . " وادخلي جنتي " . . في كنفي ورحمتي . .

إنها عطفة تنسم فيها أرواح الجنة . منذ النداء الأول : " يا أيتها النفس المطمئنة " . . المطمئنة إلى ربها . المطمئنة إلى طريقها . المطمئنة إلى قدر الله بها . المطمئنة في السراء والضراء ، وفي البسط والقبض ، وفي المنع والعطاء . المطمئنة فلا ترتاب والمطمئنة فلا تنحرف . والمطمئنة ف لا تتلجلج في الطريق . والمطمئنة فلا ترتاع في يوم الهول الرعيب . .

ثم تمضي الآيات تباعا تغمر الجو كله بالأمن والرضى والطمأنينة ، و الموسيقى الرخية الندية حول المشهد ترف بالود والقربى والسكينة .

ألا إنها الجنة بأنفاسها الرضية الندية ، تطل من خلال هذه الآيات . وتتجلى عليها طلعة الرحمن الجليلة البهية . . .

سورة البلد

لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ (1) وَأَنتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ (2)

سورة البلد

تعريف بسورة البلد الدرس الأول:1 - 4 القسم بمكة والرسول والتوالد على كبد وتعب الإنسان

تضم هذه السورة الصغيرة جناحيها على حشد من الحقائق الأساسية في حياة الكائن الإنساني ذات الإيحاءات الدافعة واللمسات الموحية . حشد يصعب أن يجتمع في هذا الحيز الصغير في غير القرآن الكريم , وأسلوبه الفريد في التوقيع على أوتار القلب البشري بمثل هذه اللمسات

السريعة العميقة . .

تبدأ السورة بالتلويح بقسم عظيم , على حقيقة في حياة الإنسان ثابتة:

(لا أقسم بهذا البلد . وأنت حل بهذا البلد . ووالد وما ولد . لقد خلقنا الإ
نسان في كبد).

والبلد هو مكة . بيت الله الحرام . أول بيت وضع للناس في الأرض . ليكون مثابة لهم وأمنا . يضعون عنده سلاحهم وخصوماتهم وعداواتهم , ويلتقون فيه مسالمين , حراما بعضهم على بعض , كما أن البيت وشجره وطيره وكل حي فيه حرام . ثم هو بيت إبراهيم والد إسماعيل أبي العرب والمسلمين أجمعين .

ويكرم الله نبيه محمدا [ص] فيذكره ويذكر حله بهذا البلد وإقامته , بوصفها ملابسة تزيد هذا البلد حرمة , وتزيده شرفا , وتزيده عظمة . وهي إيماءة ذات دلالة عميقة في هذا المقام . والمشركون يستحلون

وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ (3) لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي كَبَدٍ (4)

حرمة البيت , فيؤذون النبي والمسلمين فيه , والبيت كريم , يزيده كرما أن النبي [ص] حل فيه مقيم . وحين يقسم الله - سبحانه - بالبلد و المقيم فيه , فإنه يخلع عليه عظمة وحرمة فوق حرمته , فيبدو موقف المشركين الذين يدعون أنهم سدنة البيت وأبناء إسماعيل وعلى ملة إبراهيم , موقفا منكرا قبيحا من جميع الوجوه .

ولعل هذا المعنى يرشح لاعتبار:(ووالد وما ولد). . إشارة خاصة إلى إبراهيم , أو إلى إسماعيل - عليهما السلام - وإضافة هذا إلى القسم بِ البلد والنبي المقيم به , وبانيه الأول وما ولد . . وإن كان هذا الاعتبار لا ينفي أن يكون المقصود هو:والد وما ولد إطلاقا . وأن تكون هذه إشارة إلى طبيعة النشأة الإنسانية , واعتمادها على التوالد . تمهيدا للحديث عن حقيقة الإنسان التي هي مادة السورة الأساسية .

وللأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده في هذا الموضع من تفسيره للسورة في "جزء عم" لفتة لطيفة تتسق في روحها مع روح هذه "الظلال" فنستعيرها منه هنا . . قال رحمه الله:

"ثم أقسم بوالد وما ولد , ليلفت نظرنا إلى رفعة قدر هذا الطور من أطوار الوجود - وهو طور التوالد - وإلى ما فيه من بالغ الحكمة وإتقان الصنع , وإلى ما يعانيه الوالد والمولود في إبداء النشء وتكميل الناشئ , وإبلاغه حده من النمو المقدر له .

"فإذا تصورت في النبات كم تعاني البذرة في أطوار النمو:من مقاومة فواعل الجو , ومحاولة إمتصاص الغذاء مما حولها من العناصر , إلى أن تستقيم شجرة ذات فروع وأغصان , وتستعد إلى أن تلد بذرة أو بذورا أخرى تعمل عملها , وتزين الوجود بجمال منظرها - إذا أحضرت ذلك في ذهنك , والتفت إلى ما فوق النبات من الحيوان والإنسان , حضر لك من أمر الوالد والمولود فيهما ما هو أعظم , ووجدت من المكابدة والعناء الذي يلاقيه كل منهما في سبيل حفظ الأنواع , واستبقاء جمال الكون بصورها ما هو أشد وأجسم" . . انتهى . .

يقسم هذا القسم على حقيقة ثابتة في حياة الكائن الإنساني:

(لقد خلقنا الإنسان في كبد). .

في مكابدة ومشقة , وجهد وكد , وكفاح وكدح . . كما قال في السورة الأ خرى:(يا أيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحا فملاقيه). .

الخلية الأولى لا تستقر في الرحم حتى تبدأ في الكبد والكدح والنصب لتوفر لنفسها الظروف الملائمة للحياة والغذاء - بإذن ربها - وما تزال كذلك حتى تنتهي إلى المخرج , فتذوق من المخاض - إلى جانب ما تذوقه الوالدة - ما تذوق . وما يكاد الجنين يرى النور حتى يكون قد ضغط ودفع حتى كاد يختنق في مخرجه من الرحم !

ومنذ هذه اللحظة يبدأ الجهد الأشق والكبد الأمر . يبدأ الجنين ليتنفس هذا الهواء الذي لا عهد له به , ويفتح فمه ورئتيه لأول مرة ليشهق ويزفر في صراخ يشي بمشقة البداية ! وتبدأ دورته الهضمية ودورته الدموية في العمل على غير عادة ! ويعاني في إخراج الفضلات حتى يروض أمعاءه على هذا العمل الجديد ! وكل خطوة بعد ذلك كبد , وكل حركة بعد ذلك كبد . والذي يلاحظ الوليد عندما يهم بالحبو وعندما يهم بـ المشي يدرك كم يبذل من الجهد العنيف للقيام بهذه الحركة الساذجة .

وعند بروز الأسنان كبد . وعند انتصاب القامة كبد . وعند الخطو الثابت كبد . وعند التعلم كبد . وعند التفكر كبد . وفي كل تجربة جديدة كبد كتجربة الحبو والمشي سواء !

ثم تفترق الطرق , وتتنوع المشاق ; هذا يكدح بعضلاته . وهذا يكدح بفكره . وهذا يكدح بروحه . وهذا يكدح للقمة العيش وخرقة الكساء . وهذا يكدح ليجعل الألف ألفين وعشرة آلاف . . . وهذا يكدح لملك أو جاه ,

أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ (5) يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالاً لُّبَداً (6) أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُ أَحَدٌ (7) أَلَمْ نَجْعَل لَّهُ عَيْنَيْنِ (8) وَلِسَاناً وَشَفَتَيْنِ (9) وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ (10)

وهذا يكدح في سبيل الله . وهذا يكدح لشهوة ونزوة . وهذا يكدح لعقيدة ودعوة . وهذا يكدح إلى النار . وهذا يكدح إلى الجنة . . والكل يحمل حمله ويصعد الطريق كادحا إلى ربه فيلقاه ! وهناك يكون الكبد الأكبر للأشقياء . وتكون الراحة الكبرى للسعداء .

إنه الكبد طبيعة الحياة الدنيا . تختلف أشكاله وأسبابه . ولكنه هو الكبد في النهاية . فأخسر الخاسرين هو من يعاني كبد الحياة الدنيا لينتهي إلى الكبد الأشق الأمر في الأخرى . وأفلح الفالحين من يكدح في الطريق إلى ربه ليلقاه بمؤهلات تنهي عنه كبد الحياة , وتنتهي به إلى الراحة الكبرى في ظلال الله .

على أن في الأرض ذاتها بعض الجزاء على ألوان الكدح والعناء . إن الذي يكدح للأمر الجليل ليس كالذي يكدح للأمر الحقير . ليس مثله طمأنينة بال وارتياحا للبذل , واسترواحا بالتضحية , فالذي يكدح وهو طليق من أثقال الطين , أو للانطلاق من هذه الأثقال , ليس كالذي يكدح ليغوص في الوحل ويلصق بالأرض كالحشرات والديدان ! والذي يموت في سبيل دعوة ليس كالذي يموت في سبيل نزوة . . ليس مثله في خاصة شعوره بالجهد والكبد الذي يلقاه .

الدرس الثاني:5 - 7 الإنكار على بعض تصرفات الإنسان المالية

وبعد تقرير هذه الحقيقة عن طبيعة الحياة الإنسانية يناقش بعض دعاوى "الإنسان" وتصوراته التي تشي بها تصرفاته:

(أيحسب أن لن يقدر عليه أحد ? يقول:أهلكت مالا لبدا . أيحسب أن لم يره أحد ?).

إن هذا "الإنسان" المخلوق في كبد , الذي لا يخلص من عناء الكدح و الكد , لينسى حقيقة حاله وينخدع بما يعطيه خالقه من أطراف القوة و القدرة والوجدان والمتاع , فيتصرف تصرف الذي لا يحسب أنه مأخوذ بعمله , ولا يتوقع أن يقدر عليه قادر فيحاسبه . . فيطغى ويبطش ويسلب وينهب , ويجمع ويكثر , ويفسق ويفجر , دون أن يخشى ودون أن يتحرج . . وهذه هي صفة الإنسان الذي يعرى قلبه من الإيمان .

ثم إنه إذا دعي للخير والبذل [في مثل المواضع التي ورد ذكرها في السورة](يقول:أهلكت مالا لبدا). . وأنفقت شيئا كثيرا فحسبي ماأنفقت وما بذلت !(أيحسب أن لم يره أحد)? وينسى أن عين الله عليه , وأن علمه محيط به , فهو يرى ما أنفق , ولماذا أنفق ? ولكن هذا "الإنسان" كأنما ينسى هذه الحقيقة , ويحسب أنه في خفاء عن عين الله !

الدرس الثالث:8 - 10 تذكير الإنسان ببعض نعم الله عليه

وأمام هذا الغرور الذي يخيل للإنسان أنه ذو منعة وقوة , وأمام ضنه بـ المال وادعائه أنه بذل الكثير , يجابهه القرآن بفيض الآلاء عليه في خاصة نفسه , وفي صميم تكوينه , وفي خصائص طبيعته واستعداداته تلك الآلاء التي لم يشكرها ولم يقم بحقها عنده:

(ألم نجعل له عينين ? ولسانا وشفتين ? وهديناه النجدين ?). .

إن الإنسان يغتر بقوته , والله هو المنعم عليه بهذا القدر من القوة . ويضن بالمال . والله هو المنعم عليه بهذا المال . ولا يهتدي ولا يشكر , وقد جعل له من الحواس ما يهديه في عالم المحسوسات:جعل له عينين على هذا القدر من الدقة في تركيبهما وفي قدرتهما على الإبصار . وميزه بالنطق , وأعطاه أداته المحكمة:(ولسانا وشفتين). . ثم أودع نفسه خصائص القدرة على إدراك الخير والشر , والهدى والضلال , والحق و الباطل:(وهديناه النجدين)

فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ (11) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ (12) فَكُّ رَقَبَةٍ (13) أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ (14) يَتِيماً ذَا مَقْرَبَةٍ (15) أَوْ مِسْكِيناً ذَا مَتْرَبَةٍ (16)

. . ليختار أيهما شاء , ففي طبيعته هذا الاستعداد المزدوج لسلوك أي النجدين . والنجد الطريق المرتفع . وقد اقتضت مشيئة الله أن تمنحه القدرة على سلوك أيهما شاء , وأن تخلقه بهذا الازدواج طبقا لحكمة الله في الخلق , وإعطاء كل شيء خلقه , وتيسيره لوظيفته في هذا الوجود .

وهذه الآية تكشف عن حقيقة الطبيعة الإنسانية ; كما أنها تمثل قاعدة "النظرية النفسية الإسلامية " هي والآيات الأخرى في سورة الشمس:(ونفس وما سواها , فألهمها فجورها وتقواها . قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها)] وسنرجئ عرضها بشيء من التفصيل إلى

الموضع الآخر في سورة الشمس لأنه أوسع مجالا] .

الدرس الرابع:11 - 18 دعوة الناس لاقتحام العقبة وتوجيههم إلى البذل والنفقة والصبر والرحمة

هذه الآلاء التي أفاضها الله على جنس الإنسان في خاصة نفسه , وفي صميم تكوينه , والتي من شأنها أن تعينه على الهدى:عيناه بما تريان في صفحات هذا الكون من دلائل القدرة وموحيات الإيمان ; وهي معروضة في صفحات الكون مبثوثة في حناياه . ولسانه وشفتاه وهما أداة البيان والتعبير ; وعنهما يملك الإنسان أن يفعل الشيء الكثير . والكلمة أحيانا تقوم مقام السيف والقذيفة وأكثر ; وأحيانا تهوي بصاحبها في النار كما ترفعه أو تخفضه . في هذه النار . . " عن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال:كنت مع النبي [ص] في سفر , فأصبحت يوما قريبا منه , ونحن نسير , فقلت:يا رسول الله أخبرني بعمل يدخلني الجنة , ويباعدني عن النار . قال:سألت عن عظيم وإنه ليسير على من يسره الله عليه:تعبد الله ولا تشرك به شيئا , وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة وتصوم رمضان وتحج البيت . ثم قال:ألا أدلك على أبواب الخير ? قلت:بلى يا رسول الله . قال:الصوم جنة . والصدقة تطفئ الخطيئة كما يطفئ الماء النار , وصلاة الرجل في جوف الليل شعار الصالحين , ثم تلا قوله تعالى: (تتجافى جنوبهم عن المضاجع . . . . .)ثم قال:ألا أخبرك برأس الأمر وعموده وذروة سنامه ? قلت:بلى يا رسول الله . قال:رأس الأمر الإسلام وعموده الصلاة وذروة سنامه الجهاد . ثم قال:ألا أخبرك بملاك ذلك كله ? قلت:بلى يا رسول الله . قال:كف عليك هذا , وأشار إلى لسانه . قلت:يا نبي الله وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به ? قال:ثكلتك أمك ! وهل يكب الناس في النار على وجوههم - أو قال:على مناخرهم - إلا حصائد ألسنتهم ? " رواه أحمد والترمذي والنسائي وابن ماجة .

وهدايته إلى إدراك الخير والشر , ومعرفة الطريق إلى الجنة والطريق إلى النار , وإعانته على الخير بهذه الهداية . .

هذه الآلاء كلها لم تدفع هذا "الإنسان" إلى اقتحام العقبة التي تحول بينه وبين الجنة . هذه العقبة التي يبينها الله له في هذه الآيات:

فلا اقتحم العقبة . . وما أدراك ما العقبة ? فك رقبة . أو إطعام في يوم ذي مسغبة , يتيما ذا مقربة , أو مسكينا ذا متربة . ثم كان من الذين آمنوا وتواصوا بالصبر وتواصوا بالمرحمة . أولئك أصحاب الميمنة . .

هذه هي العقبة التي يقتحمها الإنسان - إلا من استعان بالإيمان - هذه هي العقبة التي تقف بينه وبين الجنة . لو تخطاها لوصل ! وتصويرها كذلك حافز قوي , واستجاشة للقلب البشري , وتحريك له ليقتحم العقبة وقد وضحت ووضح معها أنها الحائل بينه وبين هذا المكسب الضخم . .(فلا اقتحم العقبة)! ففيه تحضيض ودفع وترغيب !

ثم تفخيم لهذا الشأن وتعظيم:(وما أدراك ما العقبة !). . إنه ليس تضخيم العقبة , ولكنه تعظيم شأنها عند الله , ليحفز به "الإنسان" إلى اقتحامها وتخطيها ; مهما تتطلب من جهد ومن كبد . فالكبد واقع واقع . وحين يبذل لاقتحام العقبة يؤتي ثمره ويعوض المقتحم عما يكابده , و لا يذهب ضياعا وهو واقع واقع على كل حال !

ثُمّ كانَ مِنَ الّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ (17) أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ (18)

ويبدأ كشف العقبة وبيان طبيعتها بالأمر الذي كانت البيئة الخاصة التي تواجهها الدعوة في أمس الحاجة إليه:فك الرقاب العانية ; وإطعام الطعام والحاجة إليه ماسة للضعاف الذين تقسو عليهم البيئة الجاحدة المتكالبة , وينتهي بالأمر الذي لا يتعلق ببيئة خاصة ولا بزمان خاص , و الذي تواجهه النفوس جميعا , وهي تتخطى العقبة إلى النجاة:(ثم كان من الذين آمنوا وتواصوا بالصبر وتواصوا بالمرحمة). . .

وقد ورد أن فك الرقبة هو المشاركة في عتقها , وأن العتق هو الاستقلال بهذا . . وأيا ما كان المقصود فالنتيجة الحاصلة واحدة .

وقد نزل هذا النص والإسلام في مكة محاصر ; وليست له دولة تقوم على شريعته . وكان الرق عاما في الجزيرة العربية وفي العالم من حولها . وكان الرقيق يعاملون معاملة قاسية على الإطلاق . فلما أن أسلم بعضهم كعمار بن ياسر وأسرته , وبلال بن رباح , وصهيب . . وغيرهم - رضي الله عنهم جميعا - اشتد عليهم البلاء من سادتهم العتاة , وأسلموهم إلى تعذيب لا يطاق . وبدا أن طريق الخلاص لهم هو تحريرهم بشرائهم من سادتهم القساة , فكان أبو بكر - رضي الله عنه - هو السابق كعادته دائما إلى التلبية والاستجابة في ثبات وطمأنينة واستقامة . .

قال ابن اسحاق:"وكان بلال مولى أبي بكر - رضي الله عنهما - لبعض بني جمح مولدا من مولديهم وكان صادق الإسلام , طاهر القلب , وكان أمية بن خلف بن وهب بن حذافة بن جمح يخرجه إذا حميت الظهيرة فيطرحه على ظهره في بطحاء مكة ; ثم يأمر بالصخرة العظيمة فتوضع على صدره , ثم يقول له لا تزال هكذا حتى تموت أو تكفر بمحمد وتعبد اللات والعزى . فيقول وهو في ذلك البلاء:أحد أحد . . .

"حتى مر به أبو بكر الصديق - رضي الله عنه - يوما وهم يصنعون ذلك به - وكانت دار أبي بكر في بني جمح . فقال لأمية بن خلف , ألا تتقي الله في هذا المسكين ? حتى متى ? قال:أنت الذي أفسدته فأنقذه مما ترى . فقال أبو بكر:أفعل . عندي غلام أسود أجلد منه وأقوى , على دينك" أعطيكه به . قال:قد قبلت . قال:هو لك . فأعطاه أبو بكر الصديق - رضي الله عنه - غلامه ذلك وأخذه وأعتقه .

"ثم أعتق معه على الإسلام قبل أن يهاجر إلى المدينة ست رقاب . بلال سابعهم:عامر بن فهيرة [شهد بدرا وقتل يوم بئر معونة شهيدا] وأم عبيس , وزنيرة . [وأصيب بصرها حين أعتقها , فقالت قريش:ما أذهب

بصرها إلا اللات والعزى ! فقالت:كذبوا وبيت الله ما تضر اللات والعزى وما تنفعان . فرد الله بصرها] وأعتق النهدية وابنتها , وكانتا لامرأة من بني عبد الدار فمر بهما وقد بعثتهما سيدتهما بطحين لها وهي تقول:و الله لا أعتقكما أبدا . فقال أبو بكر - رضي الله عنه - حل يا أم فلان [أي تحللي من يمينك] فقالت:حل ! أنت أفسدتهما فأعتقهما . قال فبكم هما ? قالت:بكذا وكذا . قال:قد أخذتهما وهما حرتان . أرجعا إليها طحينها . قالتا:أو نفرغ منه يا أبا بكر ثم نرده إليها ? قال:ذلك إن شئتما .

"ومر بجارية بني مؤمل - هي من بني عدي - وكانت مسلمة , وكان عمر بن الخطاب يعذبها لتترك الإسلام - وهو يومئذ مشرك - وهو يضربها , حتى إذا مل قال:إني أعتذر إليك , إني لم أتركك إلا ملالة ! فتقول:كذلك فعل الله بك ! فابتاعها أبو بكر فأعتقها" .

قال ابن إسحاق:وحدثني محمد بن عبد الله بن أبي عتيق , عن عامر بن عبد الله بن الزبير عن بعض أهله , قال:قال أبو قحافة لأبي بكر:يا بني إني أراك تعتق رقابا ضعافا . فلو أنك إذا فعلت ما فعلت أعتقت رجالا جلدا يمنعونك ويقومون دونك ! قال:فقال أبو بكر رضي الله عنه:يا أبت إني إنما أريد ما أريد لله . . . " . .

لقد كان - رضي الله عنه - يقتحم العقبة وهو يعتق هذه الرقاب العانية . لله . . وكانت الملابسات الحاضرة في البيئة تجعل هذا العمل يذكر في مقدمة الخطوات والوثبات لاقتحام العقبة في سبيل الله .

(أو إطعام في يوم ذي مسغبة يتيما ذا مقربة أو مسكينا ذا متربة). .

والمسغبة:المجاعة , ويوم المجاعة الذي يعز فيه الطعام هو محك لحقيقة الإيمان . وقد كان اليتيم يجد في البيئة الجاهلية الجاحدة المتكالبة الخسف والغبن . ولو كان ذا قربى . وقد حفل القرآن بالوصية ب اليتيم . مما يدل على قسوة البيئة من حول اليتامى . وظلت هذه

الوصايا تتوالى حتى في السور المدنية بمناسبة تشريعات الميراث و الوصاية والزواج . وقد مر منها الكثير في سورة النساء خاصة . . وفي سورة البقرة وغيرهما . وكذلك إطعام المسكين ذي المتربة - أي اللاصق بـ التراب من بؤسه وشدة حاله - في يوم المسغبة يقدمه السياق القرآني خطوة في سبيل اقتحام العقبة , لأنه محك للمشاعر الإيمانية من رحمة وعطف وتكافل وإيثار , ومراقبة لله في عياله , في يوم الشدة والمجاعة والحاجة . وهاتان الخطوتان:فك الرقاب وإطعام الطعام كانتا من إيحاءات البيئة الملحة , وإن كانت لهما صفة العموم , ومن ثم قدمها في الذكر . ثم عقب بالوثبة الكبرى الشاملة:

(ثم كان من الذين آمنوا وتواصوا بالصبر , وتواصوا بالمرحمة). . .

و(ثم)هنا ليست للتراخي الزمني , إنما هي للتراخي المعنوي باعتبار هذه الخطوة هي الأشمل والأوسع نطاقا والأعلى أفقا . وإلا فما ينفع فك رقاب ولا إطعام طعام بلا إيمان . فالإيمان مفروض وقوعه قبل فك الرقاب وإطعام الطعام . وهو الذي يجعل للعمل الصالح وزنا في ميزان الله . لأنه يصله بمنهج ثابت مطرد . فلا يكون الخير فلتة عارضة ترضية لمزاج متقلب , أو ابتغاء محمدة من البيئة أو مصلحة .

وكأنما قال:فك رقبة . أو إطعام في يوم ذي مسغبة , يتيما ذا مقربة , أو مسكينا ذا متربة . . وفوق ذلك كان من الذين آمنوا وتواصوا بالصبر وتواصوا بالمرحمة . فثم هنا لإفادة معنى الفضل والعلو .

والصبر هو العنصر الضروري للإيمان بصفة عامة , ولاقتحام العقبة بصفة خاصة . والتواصي به يقرر درجة وراء درجة الصبر ذاته . درجة تماسك الجماعة المؤمنة , وتواصيها على معنى الصبر , وتعاونها على تكاليف الإ يمان . فهي أعضاء متجاوبة الحس . تشعر جميعا شعورا واحدا بمشقة الجهاد لتحقيق الإيمان في الأرض وحمل تكاليفه , فيوصي بعضها بعضا بالصبر على العبء المشترك ; ويثبت بعضها بعضا فلا تتخاذل ; ويقوي بعضها بعضا فلا تنهزم . وهذا أمر غير الصبر الفردي . وإن يكن قائما

على الصبر الفردي . وهو إيحاء بواجب المؤمن في الجماعة المؤمنة . وهو ألا يكون عنصر تخذيل بل عنصر تثبيت , ولا يكون داعية هزيمة بل داعية اقتحام ; ولا يكون مثار جزع بل مهبط طمأنينة .

وكذلك التواصي بالمرحمة . فهو أمر زائد على المرحمة . إنه إشاعة الشعور بواجب التراحم في صفوف الجماعة عن طريق التواصي به , و التحاض عليه , واتخاذه واجبا جماعيا فرديا في الوقت ذاته , يتعارف عليه الجميع , ويتعاون عليه الجميع .

فمعنى الجماعة قائم في هذا التوجيه . وهو المعنى الذي يبرزه القرآن كما تبرزه أحاديث رسول الله [ص] لأهميته في تحقيق حقيقة هذا الدين . فهو دين جماعة , ومنهج أمة , مع وضوح التبعة الفردية و الحساب الفردي فيه وضوحا كاملا . .

وأولئك الذين يقتحمون العقبة - كما وصفها القرآن وحددها -(أولئك أصحاب الميمنة). . وهم أصحاب

وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ (19) عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤْصَدَةٌ (20)
اليمين كما جاء في مواضع أخرى . أو أنهم أصحاب اليمين والحظ و السعادة . . وكلا المعنيين متصل في المفهوم الإيماني .

الدرس الخامس:19 - 20 الكفار أصحاب المشأمة في النار الموقدة

(والذين كفروا بآياتنا هم أصحاب المشأمة . عليهم نار مؤصدة). .

ولم يحتج هنا إلى ذكر أوصاف أخرى لفريق المشأمة غير أن يقول: (و الذين كفروا بآياتنا). . لأن صفة الكفر تنهي الموقف . فلا حسنة مع الكفر . ولا سيئة إلا والكفر يتضمنها أو يغطي عليها . فلا ضرورة للقول بأنهم الذين لا يفكون الرقاب ولا يطعمون الطعام , ثم هم الذين كفروا بآياتنا . . فإذا كفروا فما هو بنافعهم شيء من ذلك حتى لو فعلوه !

وهم أصحاب المشأمة . أي أصحاب الشمال أو هم أصحاب الشؤم و النحس . . وكلاهما كذلك قريب في المفهوم الإيماني . وهؤلاء هم الذين بقوا وراء العقبة لم يقتحموها !

(عليهم نار مؤصدة). . أي مغلقة . . إما على المعنى القريب . أي أبوابها مغلقة عليهم وهم في العذاب محبوسون . وإما على لازم هذا المعنى القريب ; وهو أنهم لا يخرجون منها . فبحكم إغلاقها عليهم لا يمكن أن يزايلوها . . وهذان المعنيان متلازمان . .

هذه هي الحقائق الأساسية في حياة الكائن الإنساني , وفي التصور الإ يماني . تعرض في هذا الحيز الصغير . بهذه القوة وبهذا الوضوح . . وهذه خاصية التعبير القرآني الفريد . . .

سورة الشمس

وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا (1) وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا (2) وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا (3)

سورة الشمس

تعريف بسورة الشمس الدرس الأول:1 - 6 القسم بمشاهد كونية على طبيعة النفس الإنسانية

هذه السورة القصيرة ذات القافية الواحدة , والإيقاع الموسيقي الواحد , تتضمن عدة لمسات وجدانية تنبثق من مشاهد الكون وظواهره التي تبدأ بها السورة والتي تظهر كأنها إطار للحقيقة الكبيرة التي تتضمنها السورة . حقيقة النفس الإنسانية , واستعداداتها الفطرية , ودور الإنسان في شأن نفسه , وتبعته في مصيرها . . هذه الحقيقة التي يربطها سياق السورة بحقائق الكون ومشاهده الثابتة .

كذلك تتضمن قصة ثمود , وتكذيبها بإنذار رسولها , وعقرها للناقة ,

ومصرعها بعد ذلك وزوالها . وهي نموذج من الخيبة التي تصيب من لا يزكي نفسه , فيدعها للفجور , ولا يلزمها تقواها:كما جاء في الفقرة الأ ولى في السورة:(قد أفلح من زكاها . وقد خاب من دساها). .

(والشمس وضحاها . والقمر إذا تلاها . والنهار إذا جلاها . والليل إذا يغشاها . والسماء وما بناها . والأرض وما طحاها . ونفس وما سواها . فألهمها فجورها وتقواها . قد أفلح من زكاها . وقد خاب من دساها). .

يقسم الله سبحانه بهذه الخلائق والمشاهد الكونية , كما يقسم بالنفس وتسويتها وإلهامها . ومن شأن هذا القسم أن يخلع على هذه الخلائق قيمة كبرى ; وأن يوجه إليها القلوب تتملاها , وتتدبر ماذا لها من قيمة وماذا

وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا (4) وَالسَّمَاء وَمَا بَنَاهَا (5)
بها من دلالة , حتى استحقت أن يقسم بها الجليل العظيم .

ومشاهد الكون وظواهره إطلاقا بينها وبين القلب الإنساني لغة سرية ! متعارف عليها في صميم الفطرة وأغوار المشاعر . وبينها وبين الروح الإ نساني تجاوب ومناجاة بغير نبرة ولا صوت , وهي تنطق للقلب , وتوحي للروح , وتنبض بالحياة المأنوسة للكيان الإنساني الحي , حيثما التقى بها وهو مقبل عليها , متطلع عندها إلى الأنس والمناجاة و التجاوب والإيحاء .

ومن ثم يكثر القرآن من توجيه القلب إلى مشاهد الكون بشتى الأس اليب , في شتى المواضع . تارة بالتوجيهات المباشرة , وتارة باللمسات الجانبية كهذا القسم بتلك الحقائق والمشاهد , ووضعها إطارا لما يليها من الحقائق . وفي هذا الجزء بالذات لاحظنا كثرة هذه التوجيهات و اللمسات كثرة ظاهرة . فلا تكاد سورة واحدة تخلو من إيقاظ القلب لينطلق إلى هذا الكون , يطلب عنده التجاوب والإيحاء . ويتلقى عنه -

بلغة السر المتبادل - ما ينطق به من دلائل وما يبثه من مناجاة !

وهنا نجد القسم الموحي بالشمس وضحاها . . بالشمس عامة وحين تضحى وترتفع عن الأفق بصفة خاصة . وهي أروق ما تكون في هذه الفترة وأحلى . في الشتاء يكون وقت الدفء المستحب الناعش . وفي الصيف يكون وقت الإشراق الرائق قبل وقدة الظهيرة وقيظها . فالشمس في الضحى في أروق أوقاتها وأصفاها . وقد ورد أن المقصود بالضحى هو النهار كله , ولكنا لا نرى ضرورة للعدول عن المعنى القريب للضحى . وهو ذو دلالة خاصة كما رأينا .

وبالقمر إذا تلاها . . إذا تلا الشمس بنوره اللطيف الشفيف الرائق الصافي . . وبين القمر والقلب البشري ود قديم موغل في السرائر والأعماق , غائر في شعاب الضمير , يترقرق ويستيقظ كلما التقى به القلب في اية حال . وللقمر همسات وإيحاءات للقلب , وسبحات وتسبيحات للخالق , يكاد يسمعها القلب الشاعر في نور القمر المنساب . . وإن القلب ليشعر أحيانا أنه يسبح في فيض النور الغامر في الليلة القمراء , ويغسل أدرانه , ويرتوي , ويعانق هذا النور الحبيب ويستروح فيه روح الله .

ويقسم بالنهار إذا جلاها . . مما يوحي بأن المقصود بالضحى هو الفترة الخاصة لا كل النهار . والضمير في(جلاها). . الظاهر أن يعود إلى الشمس المذكورة في السياق . . ولكن الإيحاء القرآني يشي بأنه ضمير هذه البسيطة . وللأسلوب القرآني إيحاءات جانبية كهذه مضمرة في السياق لأنها معهودة في الحس البشري , يستدعيها التعبير استدعاء خفيا . فالنهار يجلي البسيطة ويكشفها . وللنهار في حياة الإنسان آثاره التي يعلمها . وقد ينسى الإنسان بطول التكرار جمال النهار وأثره . فهذه اللمسة السريعة في مثل هذا السياق توقظه وتبعثه للتأمل في هذه الظاهرة الكبرى .

ومثله:(والليل إذا يغشاها). . والتغشية هي مقابل التجلية . والليل غشاء يضم كل شيء ويخفيه . وهو مشهد له في النفس وقع . وله في حياة ا

لإنسان أثر كالنهار سواء .

ثم يقسم بالسماء وبنائها:(والسماء وما بناها). .(وما)هنا مصدرية . ولفظ السماء حين يذكر يسبق إلى الذهن هذا الذي نراه فوقنا كالقبة حيثما اتجهنا , تتناثر فيه النجوم والكواكب السابحة في أفلاكها ومداراتها . فأما حقيقة السماء فلا ندريها . وهذا الذي نراه فوقنا متماسكا لا يختل ولا يضطرب تتحقق فيه صفة البناء بثباته وتماسكه . أما كيف هو مبني , وما الذي يمسك أجزاءه فلا تتناثر وهو سابح في الفضاء الذي لا نعرف له أولا ولا آخرا . . فذلك ما لا ندريه . وكل ما قيل عنه مجرد نظريات قابلة للنقض والتعديل . ولا قرار لها ولا ثبات . .

وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا (6) وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (7) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا (8)

إنما نوقن من وراء كل شيء أن يد الله هي تمسك هذا البناء: (إن الله يمسك السماوات والأرض أن تزولا . ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده). . وهذا هو العلم المستيقن الوحيد !

كذلك يقسم بالأرض وطحوها:(والأرض وما طحاها). . والطحو كالدحو:البسط والتمهيد للحياة . وهي حقيقة قائمة تتوقف على وجودها حياة الجنس البشري وسائر الأجناس الحية . وهذه الخصائص و الموافقات التي جعلتها يد الله في هذه الأرض هي التي سمحت بالحياة فيها وفق تقديره وتدبيره . وحسب الظاهر لنا أنه لو اختلت إحداها ما أمكن أن تنشأ الحياة ولا أن تسير في هذا الطريق الذي سارت فيه . . وطحو الأرض أو دحوها كما قال في الآية الأخرى: والأرض بعد ذلك دحاها أخرج منها ماءها ومرعاها . وهو أكبر هذه الخصائص و الموافقات . ويد الله وحدها هي التي تولت هذا الأمر . فحين يذكر هنا بطحو الأرض , فإنما يذكر بهذه اليد التي وراءه . ويلمس القلب البشري هذه اللمسة للتدبر والذكرى .

ثم تجيء الحقيقة الكبرى عن النفس البشرية في سياق هذا القسم , مرتبطة بالكون ومشاهده وظواهره . وهي إحدى الآيات الكبرى في هذا الوجود المترابط المتناسق:

(ونفس وما سواها . فألهمها فجورها وتقواها . قد أفلح من زكاها , وقد خاب من دساها). .

وهذه الآيات الأربع , بالإضافة إلى آية سورة البلد السابقة:(وهديناه النجدين). . وآية سورة الإنسان:(إنا هديناه السبيل إما شاكرا وإما كفورا). . تمثل قاعدة النظرية النفسية للإسلام . . وهي مرتبطة ومكملة للآيات التي تشير إلى ازدواج طبيعة الإنسان , كقوله تعالى في سورة " ص":(إذ قال ربك للملائكة إني خالق بشرا من طين . فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين). . كما أنها مرتبطة ومكملة للآيات التي تقرر التبعة الفردية:كقوله تعالى في سورة المدثر:(كل نفس بما كسبت رهينة). . والآيات التي تقرر أن الله يرتب تصرفه بالإنسان على واقع هذا الإنسان , كقوله تعالى في سورة الرعد: إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم .

ومن خلال هذه الآيات وأمثالها تبرز لنا نظرة الإسلام إلى الإنسان بكل معالمها . .

إن هذا الكائن مخلوق مزدوج الطبيعة , مزدوج الاستعداد , مزدوج الا تجاه ونعني بكلمة مزدوج على وجه التحديد أنه بطبيعة تكوينه [من طين الأرض ومن نفخة الله فيه من روحه] مزود باستعدادات متساوية للخير والشر , والهدى والضلال . فهو قادر على التمييز بين ما هو خير وما هو شر . كما أنه قادر على توجيه نفسه إلى الخير وإلى الشر سواء . وأن هذه القدرة كامنة في كيانه , يعبر عنها القرآن بالإلهام تارة:(ونفس وما سواها , فألهمها فجورها وتقواها). . ويعبر عنها بالهداية

تارة:(وهديناه النجدين). . فهي كامنة في صميمه في صورة استعداد . . والرسالات والتوجيهات والعوامل الخارجية إنما توقظ هذه الاستعدادات وتشحذها وتوجهها هنا أو هناك . ولكنها لا تخلقها خلقا . لأنها مخلوقة فطرة , وكائنة طبعا , وكامنة إلهاما .

وهناك إلى جانب هذه الاستعدادات الفطرية الكامنة قوة واعية مدركة موجهة في ذات الإنسان . هي التي تناط بها التبعة . فمن استخدم هذه القوة في تزكية نفسه وتطهيرها وتنمية استعداد الخير فيها , وتغليبه على استعداد

قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا (9) وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا (10) كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا (11) إِذِ انبَعَثَ أَشْقَاهَا (12) فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا (13)

الشر . . فقد أفلح . ومن أظلم هذه القوة وخبأها وأضعفها فقد خاب:(قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها). .

وهناك إذن تبعة مترتبة على منح الإنسان هذه القوة الواعية القادرة على الاختيار والتوجيه . توجيه الاستعدادات الفطرية القابلة للنمو في حقل الخير وفي حقل الشر سواء . فهي حرية تقابلها تبعة , وقدرة يقابلها تكليف , ومنحة يقابلها واجب . .

ورحمة من الله بالإنسان لم يدعه لاستعداد فطرته الإلهامي , ولا للقوة الواعية المالكة للتصرف , فأعانه بالرسالات التي تضع له الموازين الثابتة الدقيقة , وتكشف له عن موحيات الإيمان , ودلائل الهدى في نفسه وفي الآفاق من حوله , وتجلو عنه غواشي الهوى فيبصر الحق في صورته الصحيحة . . وبذلك يتضح له الطريق وضوحا كاشفا لا غبش فيه ولا شبهة فتتصرف القوة الواعية حينئذ عن بصيرة وإدراك لحقيقة الاتجاه الذي تختاره وتسير فيه . وهذه في جملتها هي مشيئة الله بالإنسان .

وكل ما يتم في دائرتها فهو محقق لمشيئة الله وقدره العام .

هذه النظرة المجملة إلى أقصى حد تنبثق منها جملة حقائق ذات قيمة في التوجيه التربوي:فهي أولا ترتفع بقيمة هذا الكائن الإنساني , حين تجعله أهلا لاحتمال تبعة اتجاهه , وتمنحه حرية الاختيار [في إطار المشيئة الإلهية التي شاءت له هذه الحرية فيما يختار] فالحرية والتبعة يضعان هذا الكائن في مكان كريم , ويقرران له في هذا الوجود منزلة ع الية تليق بالخليقة التي نفخ الله فيها من روحه وسواها بيده , وفضلها على كثير من العالمين .

وهي ثانيا تلقي على هذا الكائن تبعة مصيره , وتجعل أمره بين يديه [في إطار المشيئة الكبرى كما أسلفنا] فتثير في حسه كل مشاعر اليقظة والتحرج والتقوى . وهو يعلم أن قدر الله فيه يتحقق من خلال تصرفه هو بنفسه: (إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم). . وهي تبعة ثقيلة لا يغفل صاحبها ولا يغفو !

وهي ثالثا تشعر هذا الإنسان بالحاجة الدائمة للرجوع إلى الموازين الإ لهية الثابتة , ليظل على يقين أن هواه لم يخدعه , ولم يضلله , كي لا يقوده الهوى إلى المهلكة , ولا يحق عليه قدر الله فيمن يجعل إلهه هواه . وبذلك يظل قريبا من الله , يهتدي بهديه , ويستضيء بالنور الذي أمده به في متاهات الطريق !

ومن ثم فلا نهاية لما يملك هذا الإنسان أن يصل إليه من تزكية النفس وتطهيرها , وهو يغتسل في نور الله الفائض , ويتطهر في هذا العباب الذي يتدفق حوله من ينابيع الوجود . .

بعد ذلك يعرض نموذجا من نماذج الخيبة التي ينتهي إليها من يدسي نفسه , فيحجبها عن الهدى ويدنسها . ممثلا هذا النموذج فيما أصاب ثمود من غضب ونكال وهلاك:

(كذبت ثمود بطغواها . إذ انبعث أشقاها . فقال لهم رسول الله:ناقة الله

وسقياها . فكذبوه فعقروها . فدمدم عليهم ربهم بذنبهم فسواها . ولا يخاف عقباها). .

وقد وردت قصة ثمود ونبيها صالح - عليه السلام - في مواضع شتى من القرآن . وسبق الحديث عنها في كل موضع . وأقربها ما جاء في هذا الجزء في سورة "الفجر" فيرجع إلى تفصيلات القصة هناك .

فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنبِهِمْ فَسَوَّاهَا (14) وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا (15)

فأما في هذا الموضع فهو يذكر أن ثمود بسبب من طغيانها كذبت نبيها , فكان الطغيان وحده هو سبب التكذيب . وتمثل هذا الطغيان في انبعاث أشقاها . وهو الذي عقر الناقة . وهو أشدها شقاء وأكثرها تعاسة بما ارتكب من الإثم . وقد حذرهم رسول الله قبل الإقدام على الفعلة فقال لهم . احذروا أن تمسوا ناقة الله أو أن تمسوا الماء الذي جعل لها يوما ولهم يوم كما اشترط عليهم عند ما طلبوا منه آية فجعل الله هذه الناقة آية - ولا بد أنه كان لها شأن خاص لا نخوض في تفصيلاته , لأن الله لم يقل لنا عنه شيئا - فكذبوا النذير فعقروا الناقة . والذي عقرها هو هذا الأ شقى . ولكنهم جميعا حملوا التبعة وعدوا أنهم عقروها , لأنهم لم يضربوا على يده , بل استحسنوا فعلته . وهذا مبدأ من مبادئ الإسلام الرئيسية في التكافل في التبعة الإجتماعية في الحياة الدنيا . لا يتعارض مع التبعة الفردية في الجزاء الأخروي حيث لا تزر وازرة وزر أخرى . على أنه من الوزر إهمال التناصح والتكافل والحض على البر والأخذ على يد البغي والشر .

عندئذ تتحرك يد القدرة لتبطش البطشة الكبرى: (فدمدم عليهم ربهم بذنبهم فسواها). .

والدمدمة الغضب وما يتبعه من تنكيل . واللفظ ذاته . .(دمدم)يوحي

بما وراءه , ويصور معناه بجرسه , ويكاد يرسم مشهدا مروعا مخيفا ! وقد سوى الله أرضهم عاليها بسافلها , وهو المشهد الذي يرتسم بعد الدمار العنيف الشديد . .

(ولا يخاف عقباها) . سبحانه وتعالى . . ومن ذا يخاف ؟ وماذا يخاف ؟ وأنى يخاف ؟ إنما يراد من هذا التعبير لازمة المفهوم منه . ف الذي لا يخاف عاقبة ما يفعل , يبلغ غاية البطش حين يبطش . وكذلك بطش الله كان:إن بطش ربك لشديد . فهو إيقاع يراد إيحاؤه وظله في النفوس . .

وهكذا ترتبط حقيقة النفس البشرية بحقائق هذا الوجود الكبيرة , ومشاهده الثابتة , كما ترتبط بهذه وتلك سنة الله في أخذ المكذبين و الطغاة , في حدود التقدير الحكيم الذي يجعل لكل شيء أجلا , ولكل حادث موعدا , ولكل أمر غاية , ولكل قدر حكمة , وهو رب النفس و الكون والقدر جميعا . .

سورة الليل

وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى (1)

سورة الليل

التعريف بسورة الليل

في إطار من مشاهد الكون وطبيعة الإنسان تقرر السورة حقيقة العمل و الجزاء . ولما كانت هذه الحقيقة منوعة المظاهر:(إن سعيكم لشتى . فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى . وأما من

بخل واستغنى وكذب بالحسنى فسنيسره للعسرى). . وكانت العاقبة كذلك في الآخرة مختلفة وفق العمل والوجهة:(فأنذرتكم نارا تلظى . لا يصلاها إلا الأشقى . الذي كذب وتولى . وسيجنبها الأتقى , الذي يؤتي م اله يتزكى . .).

لما كانت مظاهر هذه الحقيقة ذات لونين , وذات اتجاهين . . كذلك كان الإطار المختار لها في مطلع السورة ذا لونين في الكون وفي النفس سواء:(والليل إذا يغشى . والنهار إذا تجلى). .(وما خلق الذكر والأنثى). . وهذا من بدائع التناسق في التعبير القرآني .

الدرس الأول:1 - 3 القسم بالليل والنهار والذكر والأنثى

(والليل إذا يغشى . والنهار إذا تجلى . . وما خلق الذكر والأنثى). . .

وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى (2) وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى (3)
يقسم الله - سبحانه - بهاتين الآيتين:الليل والنهار . مع صفة كل منهما الصفة المصورة للمشهد . (والليل إذا يغشى). .(والنهار إذا تجلى). . الليل حين يغشى البسيطة , ويغمرها ويخفيها . والنهار حين يتجلى ويظهر , فيظهر في تجليه كل شيء ويسفر . وهما آنان متقابلان في دورة الفلك , ومتقابلان في الصورة , ومتقابلان في الخصائص , ومتقابلان في الآ ثار . . كذلك يقسم بخلقه الأنواع جنسين متقابلين:(وما خلق الذكر والأ نثى). . تكملة لظواهر التقابل في جو السورة وحقائقها جميعا .

والليل والنهار ظاهرتان شاملتان لهما دلالة توحيان بها إيحاء للقلب البشري ; ولهما دلالة كذلك أخرى عند التدبر والتفكر فيهما وفيما وراءهما . والنفس تتأثر تأثرا تلقائيا بتقلب الليل والنهار . الليل إذا يغشى ويعم , والنهار إذا تجلى وأسفر . ولهذا التقلب حديث وإيحاء . حديث عن هذا الكون المجهول الأسرار , وعن هذه الظواهر التي لا يملك البشر من أمرها شيئا . وإيحاء بما وراء هذا التقلب من قدرة تدير الآونة

في الكون كما تدار العجلة اليسيرة ! وبما هنالك من تغير وتحول لا يثبت أبدا على حال .

ودلالتهما عند التدبر والتفكر قاطعة في أن هنالك يدا أخرى تدير هذا الفلك , وتبدل الليل والنهار . بهذا الانتظام وهذا الاطراد وهذه الدقة . وأن الذي يدير الفلك هكذا يدير حياة البشر أيضا . ولا يتركهم سدى , كما أنه لا يخلقهم عبثا .

ومهما حاول المنكرون والمضلون أن يلغوا في هذه الحقيقة , وأن يحولوا الأنظار عنها , فإن القلب البشري سيظل موصولا بهذا الكون , يتلقى إيقاعاته , وينظر تقلباته , ويدرك تلقائيا كما يدرك بعد التدبر و التفكر , أن هنالك مدبرا لا محيد من الشعور به , والاعتراف بوجوده من وراء اللغو والهذر , ومن وراء الجحود والنكران !

وكذلك خلقة الذكر والأنثى . . إنها في الأنسان والثدييات الحيوانية نطفة تستقر في رحم . وخلية تتحد ببويضة . ففيم هذا الاختلاف في نهاية المطاف ؟ ما الذي يقول لهذه:كوني ذكرا . ويقول لهذه:كوني أنثى ؟ . . إن كشف هذه العوامل التي تجعل هذه النطفة تصبح ذكرا , وهذه تصبح أنثى لا يغير من واقع الأمر شيئا . . فإنه لماذا تتوفر هذه العوامل هنا وهذه العوامل هناك ؟ وكيف يتفق أن تكون صيرورة هذه ذكرا , وصيرورة هذه أنثى هو الحدث الذي يتناسق مع خط سير الحياة كلها , ويكفل امتدادها بالتناسل مرة أخرى ؟

مصادفة ؟! إن للمصادفة كذلك قانونا يستحيل معه أن تتوافر هذه الموافقات كلها من قبيل المصادفة . . فلا يبقى إلا أن هنالك مدبرا يخلق الذكر والأنثى لحكمة مرسومة وغاية معلومة . فلا مجال للمصادفة , ولا مكان للتلقائية في نظام هذا الوجود أصلا .

والذكر والأنثى شاملان بعد ذلك للأنواع كلها غير الثدييات . فهي مطردة في سائر الأحياء ومنها النبات . . قاعدة واحدة في الخلق لا تختلف . لا

يتفرد ولا يتوحد إلا الخالق سبحانه الذي ليس كمثله شيء . .

هذه بعض إيحاءات تلك المشاهد الكونية , وهذه الحقيقة الإنسانية التي يقسم الله - سبحانه - بها , لعظيم دلالتها وعميق إيقاعها . والتي يجعلها السياق القرآني إطارا لحقيقة العمل والجزاء في الحياة الدنيا وفي الحياة الأخرى . .

الدرس الثاني:4 - 21 سعي الناس شتى مختلف وصفات المؤمنين الإ يجابية وصفات الكفار السلبية

يقسم الله بهذه الظواهر والحقائق المتقابلة في الكون وفي الناس , على أن سعي الناس مختلف وطرقهم مختلفة , ومن ثم فجزاؤهم مختلف كذلك ; فليس الخير كالشر , وليس الهدى كالضلال , وليس الصلاح ك الفساد ,

إِنّ سَعْيَكُمْ لَشَتّى (4) فَأَمّا مَن أَعْطَى وَاتقى (5) وَصَدّقَ بِالْحُسْنَى (6)
فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى (7) وَأَمّا مَن بَخِلَ وَاسْتَغْنَى (8) وَكَذّبَ بِالْحُسْنَى (9)
فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى (10) وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدّى (11)

وليس من أعطى واتقى كمن بخل واستغنى , وليس من صدق وآمن كمن كذب وتولى . وأن لكل طريقا , ولكل مصيرا , ولكل جزاء وفاقا:

(إن سعيكم لشتى . فأما من أعطى واتقى , وصدق بالحسنى , فسنيسره لليسرى . وأما من بخل واستغنى , وكذب بالحسنى , فسنيسره للعسرى , وما يغني عنه ماله إذا تردى). .

إن سعيكم لشتى . . مختلف في حقيقته . مختلف في بواعثه . مختلف في اتجاهه . مختلف في نتائجه . . والناس في هذه الأرض تختلف طبائعهم , وتختلف مشاربهم , وتختلف تصوراتهم , وتختلف اهتماماتهم , حتى لكأن كل واحد منهم عالم خاص يعيش في كوكب

خاص .

هذه حقيقة . ولكن هناك حقيقة أخرى . حقيقة إجمالية تضم أشتات البشر جميعا . وتضم هذه العوالم المتباينة كلها . تضمها في حزمتين اثنتين . وفي صفين متقابلين . تحت رايتين عامتين: (من أعطى واتقى وصدق بالحسنى). . و (من بخل واستغنى وكذب بالحسنى). .

من أعطى نفسه وماله . واتقى غضب الله وعذابه . وصدق بهذه العقيدة التي إذا قيل(الحسنى)كانت اسما لها وعلما عليها .

ومن بخل بنفسه وماله . واستغنى عن الله وهداه . وكذب بهذه الحسنى . .

هذان هما الصفان اللذان يلتقي فيهما شتات النفوس , وشتات السعي , وشتات المناهج , وشتات الغايات . ولكل منهما في هذه الحياة طريق . . ولكل منهما في طريقه توفيق !

(فأما من أعطى واتقى , وصدق بالحسنى . . فسنيسره لليسرى). .

والذي يعطي ويتقي ويصدق بالحسنى يكون قد بذل أقصى ما في وسعه ليزكي نفسه ويهديها . عندئذ يستحق عون الله وتوفيقه الذي أوجبه - سبحانه - على نفسه بإرادته ومشيئته . والذي بدونه لا يكون شيء , ولا يقدر الإنسان على شيء .

ومن يسره الله لليسرى فقد وصل . . وصل في يسر وفي رفق وفي هوادة . . وصل وهو بعد في هذه الأرض . وعاش في يسر . يفيض اليسر من نفسه على كل ما حوله وعلى كل من حوله . اليسر في خطوه . واليسر في طريقه . واليسر في تناوله للأمور كلها . والتوفيق الهادئ المطمئن في كلياتها وجزئياتها . وهي درجة تتضمن كل شيء في طياتها . حيث تسلك صاحبها مع رسول الله [ص] في وعد ربه له: ونيسرك لليسرى . .

(وأما من بخل واستغنى . وكذب بالحسنى . . فسنيسره للعسرى . وما يغني عنه ماله إذا تردى .). .

والذي يبخل بنفسه وماله , ويستغني عن ربه وهداه , ويكذب بدعوته ودينه . . يبلغ أقصى ما يبلغه إنسان بنفسه من تعريضها للفساد . ويستحق أن يعسر الله عليه كل شيء , فييسره للعسرى ! ويوفقه إلى كل وعورة ! ويحرمه كل تيسير ! ويجعل في كل خطوة من خطاه مشقة وحرجا , ينحرف به عن طريق الرشاد . ويصعد به في طريق الشقاوة . وإن حسب أنه سائر في طريق الفلاح . وإنما هو يعثر فيتقي العثار بعثرة أخرى تبعده عن طريق الله , وتنأى به عن رضاه . . فإذا تردى وسقط في نهاية العثرات والانحرافات لم يغن عنه ماله الذي بخل به , و الذي استغنى به كذلك عن الله وهداه . .(وما يغني عنه ماله إذا تردى). . والتيسير للشر والمعصية من التيسير للعسرى , وإن أفلح صاحبها في هذه الأرض ونجا . . وهل أعسر من جهنم ? وإنها لهي العسرى ! .

إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى (12) وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَى (13) فَأَنذَرْتُكُمْ نَاراً تَلَظَّى (14) لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى (15) الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى (16) وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى (17) الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى (18) وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَى (19) إِلَّا ابْتِغَاء وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى (20)

هكذا ينتهي المقطع الأول في السورة . وقد تبين طريقان ونهجان للجموع البشرية في كل زمان ومكان . وقد تبين أنهما حزبان ورايتان مهما تنوعت وتعددت الأشكال والألوان . وأن كل إنسان يفعل بنفسه ما يختار لها ! فييسر الله له طريقه:إما إلى اليسرى وإما إلى العسرى .

فأما المقطع الثاني فيتحدث عن مصير كل فريق . ويكشف عن نهاية المطاف لمن يسره لليسرى , ومن يسره للعسرى . وقبل كل شيء يقرر أن

ما يلاقيه كل فريق من عاقبة ومن جزاء هو عدل وحق , كما أنه واقع وحتم . فقد بين الله للناس الهدى , وأنذرهم نارا تلظى:

(إن علينا للهدى وإن لنا للآخرة والأولى . فأنذرتكم نارا تلظى , لا يصلاها إلا الأشقى الذي كذب وتولى . وسيجنبها الأتقى , الذي يؤتي ماله يتزكى , وما لأحد عنده من نعمة تجزى إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى , ولسوف يرضى). .

لقد كتب الله على نفسه - فضلا منه بعباده ورحمة - أن يبين الهدى لفطرة الناس ووعيهم . وأن يبينه لهم كذلك بالرسل والرسالات والآيات , فلا تكون هناك حجة لأحد , ولا يكون هناك ظلم لأحد:(إن علينا للهدى). .

واللمسة الثانية هي التقرير الجازم لحقيقة السيطرة التي تحيط بـ الناس , فلا يجدون من دونها موئلا:(وإن لنا للآخرة والأولى). . فأين يذهب من يريد أن يذهب عن الله بعيدا ?!

وتفريعا على أن الله كتب على نفسه بيان الهدى للعباد , وأن له الآخرة وا لأولى داري الجزاء والعمل . تفريعا على هذا يذكرهم أنه أنذرهم وحذرهم وبين لهم:(فأنذرتكم نارا تلظى). . وتتسعر . . هذه النار المتسعرة(لا يصلاها إلا الأشقى). . أشقى العباد جميعا . وهل بعد الصلي في النار شقوة ? ثم يبين من هو الأشقى . إنه:(الذي كذب وتولى). . كذب بالدعوة وتولى عنها . تولى عن الهدى وعن دعوة ربه له ليهديه كما وعد كل من يأتي إليه راغبا .

(وسيجنبها الأتقى). . وهو الأسعد في مقابل الأشقى . . ثم يبين من هو الأتقى:(الذي يؤتي ماله يتزكى). . الذي ينفق ماله ليتطهر بإنفاقه , لا ليرائي به ويستعلي . ينفقه تطوعا لا ردا لجميل أحد , ولا طلبا لشكران أحد , وإنما ابتغاء وجه ربه خالصا . . ربه الأعلى . .

(وما لأحد عنده من نعمة تجزى . إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى). .

ثم ماذا ? ماذا ينتظر هذا الأتقى , الذي يؤتي ماله تطهرا , وابتغاء وجه ربه الأعلى ? إن الجزاء الذي يطالع القرآن به الأرواح المؤمنة هنا عجيب . ومفاجئ . وعلى غير المألوف .

(ولسوف يرضى).

إنه الرضى ينسكب في قلب هذا الأتقى . إنه الرضى يغمر روحه . إنه الرضى يفيض على جوارحه . إنه الرضى يشيع في كيانه . إنه الرضى يندي حياته . .

ويا له من جزاء ! ويا لها من نعمة كبرى !

(ولسوف يرضى). . يرضى بدينه . ويرضى بربه . ويرضى بقدره . ويرضى بنصيبه . ويرضى بما يجد من سراء وضراء . ومن غنى وفقر . ومن يسر وعسر . ومن رخاء وشدة . يرضى فلا يقلق ولا يضيق ولا يستعجل ولا يستثقل العبء , ولا يستبعد الغاية . . إن هذا الرضى جزاء - جزاء أكبر من كل جزاء - جزاء يستحقه من

وَلَسَوْفَ يَرْضَى (21)

يبذل له نفسه وماله - من يعطي ليتزكى . ومن يبذل ابتغاء وجه ربه الأ على .

إنه جزاء لا يمنحه إلا الله . وهو يسكبه في القلوب التي تخلص له , فلا ترى سواه أحدا .

(ولسوف يرضى). .

يرضى وقد بذل الثمن . وقد أعطى ما أعطى . .

إنها مفاجآة في موضعها هذا . ولكنها المفاجآة المرتقبة لمن يبلغ ما بلغه الأتقى الذي يؤتي ماله يتزكى , وما لأحد عنده من نعمة تجزى , إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى . .

(ولسوف يرضى). . .

سورة الضحى

وَالضُّحَى (1) وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى (2)

سورة الضحى

تعريف بسورة الضحى

هذه السورة بموضوعها , وتعبيرها , ومشاهدها , وظلالها وإيقاعها , لمسة من حنان . ونسمة من رحمة , وطائف من ود . ويد حانية تمسح على الآلام والمواجع , وتنسم بالروح والرضى والأمل . وتسكب البرد والطمأنينة واليقين .

إنها كلها خالصة للنبي [ص] كلها نجاء له من ربه , وتسرية وتسلية وترويح وتطمين . كلها أنسام من الرحمة وأنداء من الود , وألطاف من القربى , وهدهدة للروح المتعب , والخاطر المقلق , والقلب الموجوع .

ورد في روايات كثيرة أن الوحي فتر عن رسول الله [ص] وأبطأ عليه جبريل - عليه السلام - فقال المشركون:ودع محمدا ربه ! فأنزل الله تعالى هذه السورة . .

والوحي ولقاء جبريل والاتصال بالله , كانت هي زاد الرسول [ص] في مشقة الطريق . وسقياه في هجير الجحود . وروحه في لأواء التكذيب .

وكان [ص] يحيا بها في هذه الهاجرة المحرقة التي يعانيها في النفوس النافرة الشاردة العصية العنيدة . ويعانيها في المكر والكيد والأذى المصبوب على الدعوة , وعلى الإيمان , وعلى الهدى من طغاة المشركين .

فلما فتر الوحي انقطع عنه الزاد , وانحبس عنه الينبوع , واستوحش قلبه من الحبيب . وبقي للهاجرة وحده . بلا زاد . وبلا ري . وبغير ما اعتاد من رائحة الحبيب الودود . وهو أمر أشد من الاحتمال من جميع الوجوه . .

عندئذ نزلت هذه السورة . نزل هذا الفيض من الود والحب والرحمة والإيناس والقربى والأمل والرضى والطمأنينة واليقين .

مَا وَدّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى (3) وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولَى (4) وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى (5) أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فَآوَى (6) وَوَجَدَكَ ضَالّاً فَهَدَى (7) وَوَجَدَكَ عَائِلا ً فَأَغْنَى (8) فَأَمّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ (9) وَأَمّا السّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ (10) وَأَمّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدّثْ (11)

(ما ودعك ربك وما قلى . وللآخرة خير لك من الأولى . ولسوف يعطيك ربك فترضى). .

وما تركك ربك من قبل أبدا , وما قلاك من قبل قط , وما أخلاك من رحمته ورعايته وإيوائه . .

(ألم يجدك يتيما فآوى ? ووجدك ضالا فهدى ? ووجدك عائلا فأغنى ?).

.

ألا تجد مصداق هذا في حياتك ? ألا تحس مس هذا في قلبك ? ألا ترى أثر هذا في واقعك ?

لا . لا . .(ما ودعك ربك وما قلى). . وما انقطع عنك بره وما ينقطع أبدا . .(وللآخرة خير لك من الأولى). . وهناك ما هو أكثر وأوفى:(ولسوف يعطيك ربك فترضى)!

ومع هذه الأنسام اللطيفة من حقيقة الأمر وروحه . . الأنسام اللطيفة في العبارة والإيقاع . . وفي الإطار الكوني الذي وضعت فيه هذه الحقيقة:

(والضحى . والليل إذا سجى). .

"لقد أطلق التعبير جوا من الحنان اللطيف , والرحمة الوديعة , والرضى الشامل , والشجى الشفيف:

(ما ودعك ربك وما قلى . وللآخرة خير لك من الأولى . ولسوف يعطيك ربك فترضى). .(ألم يجدك يتيما فآوى ? ووجدك ضالا فهدى ? ووجدك عائلا فأغنى ?). . ذلك الحنان . وتلك الرحمة . وذاك الرضى . وهذا الشجى:تنسرب كلها من خلال النظم اللطيف العبارة , الرقيق اللفظ , ومن هذه الموسيقى السارية في التعبير . الموسيقى الرتيبة الحركات , الوئيدة الخطوات , الرقيقة الأصداء , الشجية الإيقاع . . فلما أراد إطارا لهذا الحنان اللطيف , ولهذه الرحمة الوديعة , ولهذا الرضى الشامل , ولهذا الشجي الشفيف , جعل الإطار من الضحى الرائق , ومن الليل الساجي . أصفى آنين من آونة الليل والنهار . وأشف آنين تسري فيهما التأملات . وتتصل الروح بالوجود وخالق الوجود . وتحس بعبادة الكون كله لمبدعه , وتوجهه لبارئه بالتسبيح والفرح والصفاء . وصورهما في اللفظ المناسب . فالليل هو (الليل إذا سجى), لا الليل على إطلاقه بوحشته وظلامه . الليل الساجي الذي يرق ويسكن ويصفو , وتغشاه سحابة رقيقة من الشجى الشفيف , والتأمل الوديع . كجو اليتم و العيلة . ثم ينكشف ويجلي مع الضحى الرائق الصافي . . فتلتئم ألوان الصورة مع ألوان الإطار . ويتم التناسق والإتساق" .

إن هذا الإبداع في كمال الجمال ليدل على الصنعة . صنعة الله التي لا تماثلها صنعة , ولا يتلبس بها تقليد !

(والضحى . والليل إذا سجى . ما ودعك ربك . وما قلى . وللآخرة خير لك من الأولى ولسوف يعطيك ربك فترضى). .

يقسم الله سبحانه - بهذين الآنين الرائقين الموحيين . فيربط بين ظواهر الكون ومشاعر النفس . ويوحي إلى القلب البشري بالحياة الشاعرة المتجاوبة مع هذا الوجود الجميل الحي , المتعاطف مع كل حي . فيعيش ذلك القلب في أنس من هذا الوجود , غير موحش ولا غريب فيه فريد . . وفي هذه السورة بالذات يكون لهذا الأنس وقعه . فظل الأنس هو المراد مده . وكأنما يوحي الله لرسوله [ص] منذ مطلع السورة , أن ربه أفاض من حوله الأنس في هذا الوجود , وأنه من ثم غير مجفو فيه ولا فريد !

وبعد هذا الإيحاء الكوني يجيء التوكيد المباشر:(ما ودعك ربك وما قلى). . ما تركك ربك ولا جافاك - كما زعم من يريدون إيذاء روحك وإيجاع قلبك وإقلاق خاطرك . . وهو(ربك)وأنت عبده المنسوب إليه , المضاف إلى ربوبيته , وهو راعيك وكافلك . .

وما غاض معين فضله وفيض عطائه . فإن لك عنده في الآخرة من الحسنى خيرا مما يعطيك منها في الدنيا:(وللآخرة خير لك من الأولى). . فهو الخير أولا وأخيرا . .

وإنه ليدخر لك ما يرضيك من التوفيق في دعوتك , وإزاحة العقبات من طريقك , وغلبة منهجك , وظهور حقك . . وهي الأمور التي كانت تشغل باله [ص] وهو يواجه العناد والتكذيب والأذى والكيد . . والشماتة . .(ولسوف يعطيك ربك فترضى). .

ويمضي سياق السورة يذكر الرسول [ص] ما كان من شأن ربه معه منذ أول الطريق . ليستحضر في خاطره جميل صنع ربه به , ومودته له ,

وفيضه عليه , ويستمتع باستعادة مواقع الرحمة والود والإيناس الإلهي . وهو متاع فائق تحييه الذكرى على هذا النحو البديع:

(ألم يجدك يتيما فآوى ? ووجدك ضالا فهدى ? ووجدك عائلا فأغنى ?).
.

انظر في واقع حالك , وماضي حياتك . . هل ودعك ربك وهل قلاك - حتى قبل أن يعهد إليك بهذا الأمر ? - ألم تحط يتمك رعايته ? ألم تدرك حيرتك هدايته ? ألم يغمر فقرك عطاؤه ?

لقد ولدت يتيما فآواك إليه , وعطف عليك القلوب حتى قلب عمك أبي طالب وهو على غير دينك !

ولقد كنت فقيرا فأغنى الله نفسك بالقناعة , كما أغناك بكسبك ومال أهل بيتك [خديجة رضي الله عنها] عن أن تحس الفقر , أو تتطلع إلى ما حولك من ثراء !

ثم لقد نشأت في جاهلية مضطربة التصورات والعقائد , منحرفة السلوك والأوضاع , فلم تطمئن روحك إليها . ولكنك لم تكن تجد لك طريقا واضحا مطمئنا . لا فيما عند الجاهلية ولا فيما عند أتباع موسى وعيسى الذين حرفوا وبدلوا وانحرفوا وتاهوا . . ثم هداك الله بالأمر الذي أوحي به إليك , وبالمنهج الذي يصلك به .

والهداية من حيرة العقيدة وضلال الشعاب فيها هي المنة الكبرى , التي لا تعدلها منة ; وهي الراحة والطمأنينة من القلق الذي لا يعدله قلق ; ومن التعب الذي لا يعدله تعب , ولعلها كانت بسبب مما كان رسول الله [ص] يعانيه في هذه الفترة , من انقطاع الوحي وشماتة المشركين ووحشة الحبيب من الحبيب . فجاءت هذه تذكره وتطمئنه على أن ربه لن يتركه بلا وحي في التيه وهو لم يتركه من قبل في الحيرة والتيه !

وبمناسبة ما ذكره ربه بإيوائه من اليتم , وهدايته من الحيرة وإغنائه من

العيلة . . يوجهه ويوجه المسلمين من ورائه إلى رعاية كل يتيم , وإلى كفاية كل سائل , وإلى التحدث بنعمة الله الكبرى عليه , وفي أولها:الهداية إلى هذا الدين:

(فأما اليتيم فلا تقهر . وأما السائل فلا تنهر . وأما بنعمة ربك فحدث). .

وهذه التوجيهات إلى إكرام اليتيم والنهي عن قهره وكسر خاطره وإذلاله , وإلى إغناء السائل مع الرفق به والكرامة , كانت - كما ذكرنا مرارا - من أهم إيحاءات الواقع في البيئة الجاحدة المتكالبة , التي لا ترعى حق ضعيف , غير قادر على حماية حقه بسيفه ! حيث رفع الإسلام هذه البيئة بشرعة الله إلى الحق والعدل , والتحرج والتقوى , والوقوف عند حدود الله , الذي يحرس حدوده ويغار عليها ويغضب للاعتداء على حقوق عباده الضعفاف الذين لا يملكون قوة ولا سيفا يذودون به عن هذه الحقوق .

وأما التحدث بنعمة الله - وبخاصة نعمة الهدى والإيمان - فهو صورة من صور الشكر للمنعم . يكملها البر بعباده , وهو المظهر العملي للشكر , و الحديث الصامت النافع الكريم . .

سورة الشرح

أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ (1) وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ (2) الَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ (3)

سورة الشرح

تعريف بسورة الشرح

نزلت هذه السورة بعد سورة الضحى . وكأنها تكملة لها . فيها ظل العطف الندي . وفيها روح المناجاة الحبيب . وفيها استحضار مظاهر العناية . واستعراض مواقع الرعاية . وفيها البشرى باليسر والفرج .

وفيها التوجيه إلى سر اليسر وحبل الاتصال الوثيق . .

(ألم نشرح لك صدرك ? ووضعنا عنك وزرك . الذي أنقض ظهرك ? ورفعنا لك ذكرك ?)

وهي توحي بأن هناك ضائقة كانت في روح الرسول [ص] لأمر من أمور هذه الدعوة التي كلفها , ومن العقبات الوعرة في طريقها ; ومن الكيد والمكر المضروب حولها . . توحي بأن صدره [ص] كان مثقلا بهموم هذه الدعوة الثقيلة , وأنه كان يحس العبء فادحا على كاهله . وأنه كان في حاجة إلى عون ومدد وزاد ورصيد . .

ثم كانت هذه المناجاة الحلوة , وهذا الحديث الودود !

(ألم نشرح لك صدرك ?). . ألم نشرح صدرك لهذه الدعوة ? ونيسر لك أمرها ? . ونجعلها حبيبة لقلبك , ونشرع لك طريقها ? وننر لك الطريق حتى ترى نهايته السعيدة !

فتش في صدرك - ألا تجد فيه الروح والانشراح والإشراق والنور ? واستعد في حسك مذاق هذا العطاء , وقل:ألا تجد معه المتاع مع كل مشقة والراحة مع كل تعب , واليسر مع كل عسر , والرضى مع كل حرمان ?

(ووضعنا عنك وزرك الذي أنقض ظهرك). . ووضعنا عنك عبئك الذي أثقل ظهرك حتى كاد يحطمه من ثقله . . وضعناه عنك بشرح صدرك له فخف وهان . وبتوفيقك وتيسيرك للدعوة ومداخل القلوب . وبالوحي الذي يكشف لك عن الحقيقة ويعينك على التسلل بها إلى النفوس في يسر وهوادة ولين .

وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ (4) فَإِنّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً (5) إِنّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً (6) فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ (7) وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ (8)

ألا تجد ذلك في العبء الذي أنقض ظهرك ? ألا تجد عبئك خفيفا بعد أن شرحنا لك صدرك ?

(ورفعنا لك ذكرك). . رفعناه في الملأ الأعلى , ورفعناه في الأرض , ورفعناه في هذا الوجود جميعا . . رفعناه فجعلنا اسمك مقرونا باسم الله كلما تحركت به الشفاه:

"لا إله إلا الله . محمد رسول الله" . . وليس بعد هذا رفع , وليس وراء هذا منزلة . وهو المقام الذي تفرد به [ص] دون سائر العالمين . .

ورفعنا لك ذكرك في اللوح المحفوظ , حين قدر الله أن تمر القرون , وتكر الأجيال , وملايين الشفاه في كل مكان تهتف بهذا الأسم الكريم , مع الصلاة والتسليم , والحب العميق العظيم .

ورفعنا لك ذكرك . وقد ارتبط بهذا المنهج الإلهي الرفيع . وكان مجرد الاختيار لهذا الأمر رفعة ذكر لم ينلها أحد من قبل ولا من بعد في هذا الوجود . .

فأين تقع المشقة والتعب والضنى من هذا العطاء الذي يمسح على كل مشقة وكل عناء ?

ومع هذا فإن الله يتلطف مع حبيبه المختار , ويسري عنه , ويؤنسه , ويطمئنه ويطلعه على اليسر الذي لا يفارقه:

(فإن مع العسر يسرا . إن مع العسر يسرا). .

إن العسر لا يخلو من يسر يصاحبه ويلازمه . وقد لازمه معك فعلا . فحينما ثقل العبء شرحنا لك صدرك , فخف حملك , الذي أنقض ظهرك . وكان اليسر مصاحبا للعسر , يرفع إصره , ويضع ثقله .

وإنه لأمر مؤكد يكرره بألفاظه:(فإن مع العسر يسرا . إن مع العسر يسرا). . وهذا التكرار يشي بأن الرسول [ص] كان في عسرة وضيق ومشقة , اقتضت هذه الملاحظة , وهذا التذكير , وهذا الاستحضار لمظاهر العناية , وهذا الاستعراض لمواقع الرعاية , وهذا التوكيد بكل ضروب التوكيد . . والأمر الذي يثقل على نفس محمد هكذا لا بد أنه كان أمرا عظيما . .

ثم يجيء التوجيه الكريم لمواقع التيسير , وأسباب الانشراح , ومستودع الري والزاد في الطريق الشاق الطويل:(فإذا فرغت فانصب . وإلى ربك فارغب). .

إن مع العسر يسرا . . فخذ في أسباب اليسر والتيسير . فإذا فرغت من شغلك مع الناس ومع الأرض , ومع شواغل الحياة . . إذا فرغت من هذا كله فتوجه بقلبك كله إذن إلى ما يستحق أن تنصب فيه وتكد وتجهد . . العبادة والتجرد والتطلع والتوجه . .(وإلى ربك فارغب). . إلى ربك وحده خاليا من كل شيء حتى من أمر الناس الذين تشتغل بدعوتهم . . إنه لا بد من الزاد للطريق . وهنا الزاد . ولا بد من العدة للجهاد . وهنا العدة . . وهنا ستجد يسرا مع كل عسر , وفرجا مع كل ضيق . . هذا هو الطريق !

وتنتهي هذه السورة كما انتهت سورة الضحى , وقد تركت في النفس شعورين ممتزجين:الشعور بعظمة الود الحبيب الجليل الذي ينسم على روح الرسول [ص] من ربه الودود الرحيم . والشعور بالعطف على شخصه [ص] ونحن نكاد نلمس ما كان يساور قلبه الكريم في هذه الآ ونةالتي اقتضت ذلك الود الجميل .

إنها الدعوة . هذه الأمانة الثقيلة وهذا العبء الذي ينقض الظهر . وهي مع هذا وهذا مشرق النور الإلهي ومهبطه , ووصلة الفناء بالبقاء , والعدم بالوجود !

وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ (1) وَطُورِ سِينِينَ (2) وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ (3)

سورة التين

تعريف بسورة التين

الحقيقة الرئيسية التي تعرضها هذه السورة هي حقيقة الفطرة القويمة التي فطر الله الإنسان عليها , واستقامة طبيعتها مع طبيعة الإيمان , و الوصول بها معه إلى كمالها المقدور لها . وهبوط الإنسان وسفوله حين ينحرف عن سواء الفطرة واستقامة الإيمان .

ويقسم الله - سبحانه - على هذه الحقيقة بالتين والزيتون , وطور سينين , وهذا البلد الأمين , وهذا القسم على ما عهدنا في كثير من سور هذا الجزء - هو الإطار الذي تعرض فيه تلك الحقيقة . وقد رأينا في السور المماثلة أن الإطار يتناسق مع الحقيقة التي تعرض فيه تناسقا دقيقا .

وطور سينين هو الطور الذي نودي موسى - عليه السلام - من جانبه . و البلد الأمين هو مكة بيت الله الحرام . . وعلاقتهما بأمر الدين والإيمان واضحة . . فأما التين والزيتون فلا يتضح فيهما هذا الظل فيما يبدو لنا .

وقد كثرت الأقوال المأثورة في التين والزيتون . . قيل:إن التين إشارة إلى طورتينا بجوار دمشق .

وقيل:هو إشارة إلى شجرة التين التي راح آدم وزوجه يخصفان من ورقها على سوآتهما في الجنة التي كانا فيها قبل هبوطهما إلى هذه الحياة الدنيا . وقيل:هو منبت التين في الجبل الذي استوت عليه سفينة

نوح - عليه السلام .

وقيل في الزيتون:إنه إشارة إلى طور زيتا في بيت المقدس . وقيل:هو إشارة إلى بيت المقدس نفسه . وقيل:هو إشارة إلى غصن الزيتون الذي عادت به الحمامة التي أطلقها نوح عليه السلام - من السفينة - لترتاد حالة الطوفان . فلما عادت ومعها هذا الغصن عرف أن الأرض انكشفت وأنبتت !

وقيل:بل التين والزيتون هما هذان الأكلان الذان نعرفهما بحقيقتهما . وليس هناك رمز لشيء وراءهما . .

لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ (4) ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ (5) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ (6)
أو أنهما هما رمز لمنبتهما من الأرض . . .

وشجرة الزيتون إشير إليها في القرآن في موضع آخر بجوار الطور:فقال:(وشجرة تخرج من طور سيناء تنبت بالدهن وصبغ للآكلين). . كما ورد ذكر الزيتون:(وزيتونا ونخلا). . فأما "التين" فذكره يرد في هذا الموضع لأول مرة وللمرة الوحيدة في القرآن كله .

ومن ثم فإننا لا نملك أن نجزم بشيء في هذا الأمر . وكل ما نملك أن نقوله - اعتمادا على نظائر هذا الإطار في السور القرآنية -:إن الأقرب أن يكون ذكر التين والزيتون إشارة إلى أماكن أو ذكريات ذات علاقة بالدين والإيمان . أو ذات علاقة بنشأة الإنسان في أحسن تقويم [وربما كان ذلك في الجنة التي بدأ فيها حياته] . . كي تلتئم هذه الإشارة مع الحقيقة الرئيسية البارزة في السورة ; ويتناسق الإطار مع الحقيقة الموضوعة في داخله . على طريقة القرآن . . .

فأما الحقيقة الداخلية في السورة فهي هذه:(لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم . ثم رددناه أسفل سافلين . إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم أجر غير ممنون). .

ومنها تبدو عناية الله بخلق هذا الإنسان ابتداء في أحسن تقويم . والله - سبحانه - أحسن كل شيء خلقه . فتخصيص الإنسان هنا وفي مواضع قرآنية أخرى بحسن التركيب , وحسن التقويم , وحسن التعديل . . فيه فضل عناية بهذا المخلوق .

وإن عناية الله بأمر هذا المخلوق - على ما به من ضعف وعلى ما يقع منه من انحراف عن الفطرة وفساد - لتشير إلى أن له شأنا عند الله , ووزنا في نظام هذا الوجود . وتتجلى هذه العناية في خلقه وتركيبه على هذا النحو الفائق , سواء في تكوينه الجثماني البالغ الدقة و التعقيد , أم في تكوينه العقلي الفريد , أم في تكوينه الروحي العجيب .

والتركيز في هذا المقام على خصائصه الروحية . فهي التي تنتكس إلى أسفل سافلين حين ينحرف عن الفطرة ويحيد عن الإيمان المستقيم معها . إذ أنه من الواضح أن خلقته البدنية لا تنتكس إلى أسفل سافلين .

وفي هذه الخصائص الروحية يتجلى تفوق التكوين الإنساني . فهو مهيأ لأن يبلغ من الرفعة مدى يفوق مقام الملائكة المقربين . كما تشهد بذلك قصة المعراج . . حيث وقف جبريل - عليه السلام - عند مقام , وارتفع محمد بن عبد الله - الإنسان - إلى المقام الأسنى .

بينما هذا الإنسان مهيأ - حين ينتكس - لأن يهوي إلى الدرك الذي لا يبلغ إليه مخلوق قط:(ثم رددناه أسفل سافلين). . حيث تصبح البهائم أرفع منه وأقوم , لاستقامتها على فطرتها , وإلهامها تسبيح ربها , وأداء وظيفتها في الأرض على هدى . بينما هو المخلوق في أحسن تقويم , يجحد ربه , ويرتكس مع هواه , إلى درك لا تملك البهيمة أن ترتكس إليه .

(لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم). . فطرة واستعدادا . .(ثم رددناه أسفل سافلين). . حين ينحرف بهذه الفطرة عن الخط الذي هداه الله إليه , وبينه له , وتركه ليختار أحد النجدين .

(إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات). . فهؤلاء هم الذين يبقون على سواء الفطرة , ويكملونها بالإيمان والعمل الصالح , ويرتقون بها إلى الكمال المقدر لها , حتى ينتهوا بها إلى حياة الكمال في دار الكمال . (فلهم أجر غير ممنون)دائم غير مقطوع .

فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ (7) أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ (8)

فأما الذين يرتكسون بفطرتهم إلى أسفل سافلين , فيظلون ينحدرون بها في المنحدر , حتى تستقر في الدرك الأسفل . هناك في جهنم , حيث تهدر آدميتهم , ويتمحضون للسفول !

فهذه وتلك نهايتان طبيعيتان لنقطة البدء . . إما استقامة على الفطرة القويمة , وتكميل لها بالإيمان , ورفع لها بالعمل الصالح . . فهي واصلة في النهاية إلى كمالها المقدر في حياة النعيم . . وإما انحراف عن الفطرة القويمة , واندفاع مع النكسة , وانقطاع عن النفخة الإلهية . . فهي واصلة في النهاية إلى دركها المقرر في حياة الجحيم .

ومن ثم تتجلى قيمة الإيمان في حياة الإنسان . . إنه المرتقى الذي تصل فيه الفطرة القويمة إلى غاية كمالها . إنه الحبل الممدود بين الفطرة وبارئها . إنه النور الذي يكشف لها مواقع خطاها في المرتقى الصاعد إلى حياة الخالدين المكرمين .

وحين ينقطع هذا الحبل , وحين ينطفئ هذا النور , فالنتيجة الحتمية هي الارتكاس في المنحدر الهابط إلى أسفل سافلين , والانتهاء إلى إهدار الآدمية كلية , حين يتمحض الطين في الكائن البشري , فإذا هو وقود النار مع الحجارة سواء بسواء !

وفي ظل هذه الحقيقة ينادى "الإنسان":

(فما يكذبك بعد بالدين ؟ أليس الله بأحكم الحاكمين ؟). .

فما يكذبك بالدين بعد هذه الحقيقة ؟ وبعد إدراك قيمة الإيمان في حياة البشرية ؟ وبعد تبين مصير الذين لا يؤمنون , ولا يهتدون بهذا النور , و لا يمسكون بحبل الله المتين ؟

(أليس الله بأحكم الحاكمين ؟). . أليس الله بأعدل العادلين حين يحكم في أمر الخلق على هذا النحو ؟ أو . . أليست حكمة الله بالغة في هذا الحكم على المؤمنين وغير المؤمنين ؟

والعدل واضح . والحكمة بارزة . . ومن ثم ورد في الحديث المرفوع عن أبي هريرة:" فإذا قرأ أحدكم(والتين والزيتون)فأتى آخرها:(أليس الله بأحكم الحاكمين ؟). . فليقل . . بلى وأنا على ذلك من الشاهدين " . .

سورة العلق

اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (1) خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ (2)

سورة العلق

تعريف بسورة العلق

مطلع هذه السورة هو أول ما نزل من القرآن باتفاق . والروايات التي تذكر نزول غيرها ابتداء ليست وثيقة . قال الإمام أحمد:حدثنا عبد الرزاق , حدثنا معمر بن الزهري , عن عروة , عن عائشة - رضي الله عنها - قالت:

"أول ما بدئ به رسول الله [ص] من الوحي الرؤيا الصادقة في النوم , فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح . ثم حبب إليه الخلاء . وكان يخلو بغار حراء فيتحنث فيه - وهو التعبد - الليالي ذوات العدد , قبل أن ينزع إلى أهله , ويتزود إلى ذلك . ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها . حتى جاءه الحق وهو في غار حراء . فجاءه الملك , فقال:اقرأ . قال:ما أنا بقارئ , قال:فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجهد . ثم أرسلني فقال:اقرأ . فقلت:ما أنا بقارئ , فأخذني فغطني الثانية حتى بلغ مني الجهد , ثم أرسلني فقال:اقرأ . فقلت:ما أنا بقارئ . فأخذني فغطني الثالثة , ثم قال:(اقرأ باسم ربك الذي خلق . خلق الإنسان من علق . اقرأ وربك الأكرم . الذي علم بالقلم . علم الإنسان ما لم يعلم). . فرجع بها رسول الله [ص] ترجف بوادره , حتى دخل على خديجة , فقال " زملوني زملوني " فزملوه حتى ذهب عنه الروع ,فقال:يا خديجة مالي ? وأخبرها الخبر . وقال:" قد خشيت على نفسي " فقالت له:كلا . أبشر فو الله لا يخزيك الله أبدا . إنك لتصل الرحم , وتصدق الحديث , وتحمل الكل , وتقري الضيف , وتعين على نوائب الحق . ثم انطلقت به خديجة حتى أتت به ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى بن قصي , وهو ابن عم خديجة أخي أبيها . وكان امرأ قد تنصر في الجاهلية . كان يكتب الكتاب العربي , وكتب العبرانية من الإنجيل - ما شاء الله أن يكتب - وكان شيخا كبيرا قد عمي . فقالت خديجة:أي ابن عم , اسمع من ابن أخيك , فقال ورقة:ابن أخي , ما ترى ? فأخبره رسول الله [ص] بما رأى . فقال ورقة:هذا الناموس الذي أنزل على موسى . ليتني فيها جذع , ليتني أكون حيا حين يخرجك قومك . فقال رسول الله [ص]:" أو مخرجي هم ? " فقال ورقة:نعم . لم يأت رجل قط بما جئت به إلا عودي , وإن أدركني يومك أنصرك نصرا مؤزرا . ثم لم ينشب ورقة أن توفي . . . الخ" . وهذا الحديث مخرج في الصحيحين من حديث الزهري . .

وروى الطبري - بإسناده - عن عبد الله بن الزبير . قال:

"قال رسول الله [ص]:فجاءني - وأنا نائم - بنمط من ديباج فيه كتاب . فقال:اقرأ . فقلت:ما اقرأ . فغتني حتى ظننت أنه الموت . ثم أرسلني فقال:اقرأ . فقلت:ماذا أقرأ ? وما أقول ذلك إلا افتداء من أن يعود إلي بمثل ما صنع بي . قال: اقرأ باسم ربك الذي خلق . . . إلى قوله:علم الإ نسان ما لم يعلم قال:فقرأته . ثم انتهى , ثم انصرف عني . وهببت من نومي , وكأنما كتب في قلبي كتابا . قال:ولم يكن من خلق الله أبغض علي من شاعر أو مجنون . كنت لا أطيق أن أنظر إليهما , قال:قلت:إن الأ بعد - يعني نفسه - لشاعر أو مجنون ! لا تحدث بها عني قريش أبدا ! لأ عمدن إلى حالق من الجبل فلأطرحن نفسي منه فلأقتلنها فلأستريحن ! قال:فخرجت أريد ذلك . حتى إذا كنت في وسط الجبل سمعت صوتا من السماء يقول:يا محمد . أنت رسول الله وأنا جبريل . قال فرفعت رأسي إلى السماء , فإذا جبريل في صورة رجل صاف قدميه في أفق السماء يقول:يا محمد أنت رسول الله وأنا جبريل . قال:فوقفت أنظر إليه , وشغلني ذلك عما أردت , فما أتقدم وما أتأخر , وجعلت أصرف وجهي عنه في آفاق السماء , فلا أنظر في ناحية منها إلا رأيته كذلك , فما زلت واقفا ما أتقدم أمامي , ولا أرجع ورائي , حتى بعثت خديجة رسلها في طلبي , حتى بلغوا مكة ورجعوا إليها وأنا واقف في مكاني . . ثم انصرف عني وانصرفت راجعا إلى أهلي . . . " . .

وقد رواه ابن إسحاق مطولا عن وهب بن كيسان عن عبيد أيضا . .

وقفت هنا أمام هذا الحادث الذي طالما قرأناه في كتب السيرة وفي كتب التفسير , ثم مررنا به وتركناه , أو تلبثنا عنده قليلا ثم جاوزناه !

إنه حادث ضخم . ضخم جدا . ضخم إلى غير حد . ومهما حاولنا اليوم أن نحيط بضخامته , فإن جوانب كثيرة منه ستظل خارج تصورنا !

إنه حادث ضخم بحقيقته . وضخم بدلالته . وضخم بآثاره في حياة البشرية جميعا . . وهذه اللحظة التي تم فيها هذا الحادث تعد - بغير مبالغة - هي أعظم لحظة مرت بهذه الأرض في تاريخها الطويل .

ما حقيقة هذا الحادث الذي تم في هذه اللحظة ?

حقيقته أن الله جل جلاله , العظيم الجبار القهار المتكبر , مالك الملك كله , قد تكرم - في عليائه - فالتفت إلى هذه الخليقة المسماة بالإنسان , القابعة في ركن من أركان الكون لا يكاد يرى اسمه الأرض . وكرم هذهالخلقية باختيار واحد منها ليكون ملتقى نوره الإلهي , ومستودع حكمته , ومهبط كلماته , وممثل قدره الذي يريده - سبحانه - بهذه الخليقة .

وهذه حقيقة كبيرة . كبيرة إلى غير حد . تتكشف جوانب من عظمتها حين يتصور الإنسان - قدر طاقته - حقيقة الألوهية المطلقة الأزلية الباقية . ويتصور في ظلها حقيقة العبودية المحدودة الحادثة الفانية . ثم يستشعر وقع هذه العناية الربانية بهذا المخلوق الإنساني ; ويتذوق حلاوة هذا الشعور ; ويتلقاه بالخشوع والشكر والفرح والابتهال . . وهو يتصور كلمات الله , تتجاوب بها جنبات الوجود كله , منزلة لهذا الإنسان في ذلك الركن المنزوي من أركان الوجود الضئيلة !

وما دلالة هذا الحادث ?

دلالته - في جانب الله سبحانه - أنه ذو الفضل الواسع , والرحمة السابغة , الكريم الودود المنان . يفيض من عطائه ورحمته بلا سبب ولا علة , سوى أن الفيض والعطاء بعض صفاته الذاتية الكريمة .

ودلالته - في جانب الإنسان - أن الله - سبحانه - قد أكرمه كرامة لا يكاد يتصورها , ولا يملك أن يشكرها . وأن هذه وحدها لا ينهض لها شكره ولو قضى عمره راكعا ساجدا . . هذه . . أن يذكره الله , ويلتفت إليه , ويصله به , ويختار من جنسه رسولا يوحي إليه بكلماته . وأن تصبح الأ رض . . مسكنه . . مهبطا لهذه الكلمات التي تتجاوب بها جنبات الوجود في خشوع وابتهال .

فأما آثار هذا الحادث الهائل في حياة البشرية كلها فقد بدأت منذ

اللحظة الأولى . بدأت في تحويل خط التاريخ , منذ أن بدأت في تحويل خط الضمير الإنساني . . منذ أن تحددت الجهة التي يتطلع إليها الإنسان ويتلقى عنها تصوراته وقيمه وموازينه . . إنها ليست الأرض وليس الهوى . . إنما هي السماء والوحي الإلهي .

ومنذ هذه اللحظة عاش أهل الأرض الذين استقرت في أرواحهم هذه الحقيقة . . في كنف الله ورعايته المباشرة الظاهرة . عاشوا يتطلعون إلى الله مباشرة في كل أمرهم . كبيره وصغيره . يحسون ويتحركون تحت عين الله . ويتوقعون أن تمتد يده - سبحانه - فتنقل خطاهم في الطريق خطوة خطوة . تردهم عن الخطأ وتقودهم إلى الصواب . . وفي كل ليلة كانوا يبيتون في ارتقاب أن يتنزل عليهم من الله وحي يحدثهم بما في نفوسهم , ويفصل في مشكلاتهم , ويقول لهم:خذوا هذا ودعوا ذاك !

ولقد كانت فترة عجيبة حقا . فترة الثلاثة والعشرين عاما التالية , التي استمرت فيها هذه الصلة الظاهرة المباشرة بين البشر والملأ الأعلى . فترة لا يتصور حقيقتها إلا الذين عاشوها . وأحسوها . وشهدوا بدأها ونهايتها . وذاقوا حلاوة هذا الاتصال . وأحسوا يد الله تنقل خطاهم في الطريق . ورأوا من أين بدأوا وإلى أين انتهوا . . وهي مسافة هائلة لا تقاس بأي مقياس من مقاييس الأرض . مسافة في الضمير لا تعدلها مسافة في الكون الظاهر , ولا يماثلها بعد بين الأجرام والعوالم ! المسافة بين التلقي من الأرض والتلقي من السماء . بين الاستمداد من الهوى والا ستمداد من الوحي بين الجاهلية والإسلام . بين البشرية والربانية , وهي أبعد مما بين الأرض والسماء في عالم الأجرام !

وكانوا يعرفون مذاقها . ويدركون حلاوتها . ويشعرون بقيمتها , ويحسون وقع فقدانها حينما انتقل رسول الله [ص] إلى الرفيق الأ على , وانقطعت هذه الفترة العجيبة التي لا يكاد العقل يتصورها لولا أنها وقعت حقا .

عن أنس - رضي الله عنه - قال:قال أبو بكر لعمر - رضي الله عنهما - بعد وفاة رسول الله [ص]انطلق بنا إلى أم أيمن - رضي الله عنها - نزورها كما كان رسول الله [ص] يزورها . فلما أتيا إليها بكت . فقالا لها:ما يبكيك ? أما تعلمين أن ما عند الله خير لرسول الله [ص] ? قالت:بلى , إني لأعلم أن ما عند الله خير لرسول الله [ص] ولكن أبكي أن الوحي قد انقطع من السماء . فهيجتهما على البكاء , فجعلا يبكيان معها . . . [أخرجه مسلم] . . .

ولقد ظلت آثار هذه الفترة تعمل في حياة البشر منذ تلك اللحظة إلى هذه اللحظة , وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

لقد ولد الإنسان من جديد باستمداد قيمه من السماء لا من الأرض , واستمداد شريعته من الوحي لا من الهوى .

لقد تحول خط التاريخ كما لم يتحول من قبل قط , وكما لم يتحول من بعد أيضا . وكان هذا الحدث هو مفرق الطريق . وقامت المعالم في الأرض واضحة عالية لا يطمسها الزمان , ولا تطمسها الأحداث . وقام في الضمير الإنساني تصور للوجود وللحياة وللقيم لم يسبق أن اتضح بمثل هذه الصورة , ولم يجيء بعده تصور في مثل شموله ونصاعته وطلاقته من اعتبارات الأرض جميعا , مع واقعيته وملاءمته للحياة الإنسانية . ولقد استقرت قواعد هذا المنهج الإلهي في الأرض ! وتبينت خطوطه ومعالمه . (ليهلك من هلك عن بينة ويحيا من حي عن بينة). . لا غموض ولا إبهام . إنما هو الضلال عن علم , والانحراف عن عمد , والالتواء عن قصد !

إنه الحادث الفذ في تلك اللحظة الفريدة . الحادث الكوني الذي ابتدأ به عهد في هذه الأرض وانتهى عهد . والذي كان فرقانا في تاريخ البشر لا في تاريخ أمة ولا جيل . والذي سجلته جنبات الوجود كله وهي تتجاوب به , وسجله الضمير الإنساني . وبقي أن يتلفت هذا الضمير اليوم على تلك الذكرى العظيمة ولا ينساها . وأن يذكر دائما أنه ميلاد

جديد للإنسانية لم يشهده إلا مرة واحدة في الزمان . . .

ذلك شأن المقطع الأول من السورة . فأما بقيتها فواضح أنها نزلت فيما بعد . فهي تشير إلى مواقف وحوادث في السيرة لم تجيء إلا متأخرة , بعد تكليف الرسول [ص] إبلاغ الدعوة , والجهر بالعبادة , وقيام المشركين بالمعارضة . وذلك ما يشير إليه قوله تعالى في السورة:(أرأيت الذي ينهى عبدا إذا صلى ?). . . الخ

ولكن هناك تناسقا كاملا بين أجزاء السورة , وتسلسلا في ترتيب الحقائق التي تضمنتها بعد هذا المطلع المتقدم . يجعل من السورة كلها وحدة منسقة متماسكة . .

(اقرأ باسم ربك الذي خلق . خلق الإنسان من علق . اقرأ وربك الأكرم . الذي علم بالقلم . علم الإنسان ما لم يعلم). .

إنها السورة الأولى من هذا القرآن , فهي تبدأ باسم الله . وتوجه الرسول [ص] أول ما توجه , في أول لحظة من لحظات اتصاله بالملأ الأعلى , وفي أول خطوة من خطواته في طريق الدعوة التي اختير لها . . توجهه إلى أن يقرأ باسم الله: (اقرأ باسم ربك). .

وتبدأ من صفات الرب بالصفة التي بها الخلق والبدء: (الذي خلق).

ثم تخصص:خلق الإنسان ومبدأه:(خلق الإنسان من علق). . من تلك النقطة الدموية الجامدة العالقة

اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (3) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (4) عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ (5)
كَلَّا إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَى (6) أَن رَّآهُ اسْتَغْنَى (7)

بالرحم . من ذلك المنشأ الصغير الساذج التكوين . فتدل على كرم الخالق

فوق ما تدل على قدرته . فمن كرمه رفع هذا العلق إلى درجة الإنسان الذي يعلم فيتعلم:(اقرأ وربك الأكرم , الذي علم بالقلم . علم الإنسان ما لم يعلم). .

وإنها لنقلة بعيدة جدا بين المنشأ والمصير . ولكن الله قادر . ولكن الله كريم . ومن ثم كانت هذه النقلة التي تدير الرؤوس !

وإلى جانب هذه الحقيقة تبرز حقيقة التعليم . . تعليم الرب للإنسان(بالقلم). . . لأن القلم كان وما يزال أوسع وأعمق أدوات التعليم أثرا في حياة الإنسان . . ولم تكن هذه الحقيقة إذ ذاك بهذا الوضوح الذي نلمسه الآن ونعرفه في حياة البشرية . ولكن الله - سبحانه - كان يعلم قيمة القلم , فيشير إليه هذه الإشارة في أول لحظة من لحظات الرسالة الأخيرة للبشرية . في أول سورة من سور القرآن الكريم . . هذا مع أن الرسول الذي جاء بها لم يكن كاتبا بالقلم , وما كان ليبرز هذه الحقيقة منذ اللحظة الأولى لو كان هو الذي يقول هذا القرآن . لولا أنه الوحي , ولولا أنها الرسالة !

ثم تبرز مصدر التعليم . . إن مصدره هو الله . منه يستمد الإنسان كل ما علم , وكل ما يعلم . وكل ما يفتح له من أسرار هذا الوجود , ومن أسرار هذه الحياة , ومن أسرار نفسه . فهو من هناك . من ذلك المصدر الواحد , الذي ليس هناك سواه .

وبهذا المقطع الواحد الذي نزل في اللحظة الأولى من اتصال الرسول [ص] بالملأ الأعلى , بهذا المقطع وضعت قاعدة التصور الإيماني العريضة . .

كل أمر . كل حركة . كل خطوة . كل عمل . باسم الله . وعلى اسم الله . باسم الله تبدأ . وباسم الله تسير . وإلى الله تتجه . وإليه تصير .

والله هو الذي خلق . وهو الذي علم . فمنه البدء والنشأة , ومنه التعليم و المعرفة . . والإنسان يتعلم ما يتعلم , ويعلم ما يعلم . . فمصدر هذا كله

هو الله الذي خلق والذي علم . .(علم الإنسان ما لم يعلم). .

وهذه الحقيقة القرآنية الأولى , التي تلقاها قلب رسول الله [ص] في اللحظة الأولى هي التي ظلت تصرف شعوره , وتصرف لسانه , وتصرف عمله واتجاهه , بعد ذلك طوال حياته . بوصفها قاعدة الإيمان الأولى .

قال الإمام شمس الدين أبو عبد الله محمد بن قيم الجوزية في كتابه:"زاد المعاد في هدى خير العباد" يلخص هدي رسول الله [ص] في ذكر الله:

"كان النبي [ص] أكمل الخلق ذكرا لله عز وجل . بل كان كلامه كله في ذكر الله وما والاه . وكان أمره ونهيه وتشريعه للأمة ذكرا منه لله , وإخباره عن أسماء الرب وصفاته وأحكامه وأفعاله ووعده ووعيده ذكرا منه له , وثناؤه عليه بآلائه وتمجيده وتحميده وتسبيحه ذكرا منه له , وسؤاله ودعاؤه إياه ورغبته ورهبته ذكرا منه له . وسكوته وصمته ذكرا منه له بقلبه . فكان ذاكرا لله في كل أحيانه وعلى جميع أحواله . وكان ذكره لله يجري مع أنفاسه قائما وقاعدا وعلى جنبه , وفي مشيته وركوبه , وسيره ونزوله , وظعنه وإقامته .

"وكان إذا استيقظ قال:الحمد لله الذي أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النشور . وقالت عائشة كان إذا هب من الليل كبر عشرا , وهلل عشرا , ثم قال:اللهم إني أعوذ بك من ضيق الدنيا وضيق يوم القيامة عشرا , ثم يستفتح الصلاة . وقالت أيضا:كان إذا استيقظ من الليل قال:لا إله إلا أنت سبحانك . اللهم أستغفركلذنبي وأسألك رحمتك . اللهم زدني علما , ولا تزغ قلبي بعد إذ هديتني وهب لي من لدنك رحمة , إنك أنت الوهاب " ذكرها أبو داود" . وأخبر أن من استيقظ من الليل فقال:"لا إله إلا الله وحده , لا شريك له , له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير , الحمد لله وسبحان الله ولا إله إلا الله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا ب الله العلي العظيم ثم قال:اللهم اغفر لي , أو دعاء آخر استجيب له . فإن توضأ وصلى قبلت صلاته "ذكره البخاري" .

وقال ابن عباس عنه [ص] ليلة مبيته عنده:إنه لما استيقظ رفع رأسه للسماء , وقال العشر الآيات الخواتيم من سورة آل عمران . . (إن في خلق السماوات والأرض . . . الخ)ثم قال . . " اللهم لك الحمد أنت نور السماوات والآرض ومن فيهن . ولك الحمد أنت قيم السماوات والأرض ومن فيهن . ولك الحمد أنت الحق , ووعدك الحق , وقولك الحق , ولقاؤك حق , والجنة حق , والنار حق , والنبيون حق , ومحمد حق , و الساعة حق . اللهم لك أسلمت , وبك آمنت , وعليك توكلت , وإليك أنبت , وبك خاصمت , وإليك حاكمت , فاغفر لي ما قدمت وما أخرت , وما أسررت وما أعلنت . أنت إلهي لا إله إلا أنت , ولا حول ولا قوة إلا ب الله العلي العظيم " .

"وقد قالت عائشة - رضي الله عنها - كان إذا قام من الليل قال:" اللهم رب جبرائيل وميكائيل وإسرافيل , فاطر السماوات والأرض , عالم الغيب والشهادة , أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون , اهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك , إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم " . وربما قالت:كان يفتتح صلاته بذلك .

"وكان إذا أوتر ختم وتره بعد فراغه بقوله:سبحان الله القدوس [ثلاثا] ويمد بالثالثة صوته .

"وكان إذا خرج من بيته يقول:بسم الله توكلت على الله , اللهم إني أعوذ بك أن أضل أو أضل , أو أزل , أو أظلم أو أظلم , أو أجهل , أو يجهل علي " [حديث صحيح] .

"وقال [ص] من قال إذا خرج من بيته بسم الله توكلت على الله ولا حول ولا قوة إلا بالله يقال له:هديت وكفيت ووقيت وتنحى عنه الشيطان " [حديث حسن] .

"وقال ابن عباس عنه - ليلة مبيته عنده -:إنه خرج إلى صلاة الفجر وهو يقول:اللهم اجعل في قلبي نورا , واجعل في لساني نورا , واجعل في

سمعي نورا , واجعل في بصري نورا , واجعل من خلفي نورا , ومن أمامي نورا , واجعل من فوقي نورا , واجعل من تحتي نورا , اللهم أعظم لي نورا " .

"وقال فضل بن مرزوق عن عطية العوفي , عن أبي سعيد الخدري:قال:قال رسول الله [ص]:" ما خرج رجل من بيته إلى الصلاة فقال:اللهم إني أسألك بحق السائلين عليك , وبحق ممشاي إليك , فإني لم أخرج بطرا و لا أشرا ولا رياء ولا سمعة , وإنما خرجت اتقاء سخطك , وابتغاء مرضاتك , أسألك أن تنقذني من النار وأن تغفر لي ذنوبي , فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت . إلا وكل الله به سبعين ألف ملك يستغفرون له , وأقبل الله عليه بوجهه حتى يقضي صلاته " .

وذكر أبو داود عنه [ص] أنه كان إذا دخل المسجد قال أعوذ بالله العظيم , وبوجهه الكريم , وسلطانه القديم , من الشيطان الرجيم . فإذا قال ذلك قال الشيطان:حفظ مني سائر اليوم" .

وقال [ص]:" إذا دخل أحدكم المسجد فليصل وليسلم على النبي [ص] وليقل:اللهم افتح لي أبواب رحمتك , فإذا خرج فليقل:اللهم إني أسألك من فضلك " . . " وذكر عنه أنه كان إذا دخل المسجد صلى على محمد وآله وسلم , ثم يقول:اللهم اغفر لي ذنوبي , وافتح لي أبواب رحمتك " . فإذا خرج صلى على محمد وآله وسلم , ثم يقول:اللهم اغفر لي ذنوبي وافتح لي باب فضلك .

"وكان إذا صلى الصبح جلس في مصلاه حتى تطلع الشمس يذكر الله عز وجل . وكان يقول إذا أصبح:اللهم بك أصبحنا , وبك أمسينا , وبك نحيا , وبك نموت , وإليك النشور . " [حديث صحيح] . " وكان يقول:"أصبحنا وأصبح الملك لله , والحمد لله , ولا إله إلا الله وحده لا شريك له , له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير . رب أسألك خير ما في هذا اليوم وخير ما بعده , وأعوذ بك من شر هذا اليوم , وشر ما بعده ; رب أعوذ بك من الكسل وسوء الكبر , رب أعوذ بك من عذاب في

النار وعذاب في القبر . وإذا أمسى قال:أمسينا وأمسى الملك لله . . " الخ [ذكره مسلم] .

"وقال له أبو بكر الصديق رضي الله عنه - مرني بكلمات أقولهن إذا أصبحت وإذا أمسيت . قال:قل:اللهم فاطر السماوات والآرض , عالم الغيب والشهادة , رب كل شيء مليكه ومالكه . أشهد أن لا إله إلا أنت , أعوذ بك من شر نفسي وشر الشيطان وشركه , وأن أقترف على نفسي سوءا أو أجره إلى مسلم . قال:قلها إذا أصبحت وإذا أمسيت وإذا أخذت مضجعك " [حديث صحيح] . "ثم ذكر أحاديث كثيرة في هذا الباب" .

. . . "وكان [ص] إذا استجد ثوبا سماه باسمه عمامة أو قميصا أو رداء . ثم يقول:" اللهم لك الحمد , أنت كسوتنيه , أسألك خيره وخير ما صنع له , وأعوذ بك من شره وشر ما صنع له " . [حديث صحيح] .

"ويذكر عنه [ص] أنه كان يقول إذا انقلب إلى بيته:" الحمد لله الذي كفاني وآواني , والحمد لله الذي أطعمني وسقاني , والحمد لله الذي من علي . أسألك أن تجيرني من النار " .

"وثبت عنه في الصحيحين أنه كان يقول عند دخوله الخلاء:" اللهم إني أعوذ بك من الخبث والخبائث " .

وكان إذا خرج من الخلاء قال:" غفرانك " ويذكر عنه أنه كان يقول:" الحمد لله الذي أذهب عني الأذى وعافاني " [ذكره ابن ماجة] .

"وثبت عنه أنه وضع يده في الإناء الذي فيه الماء , ثم قال للصحابة:" توضأوا باسم الله " .

"ويذكر عنه أنه كان يقول "عند رؤية الهلال":" اللهم أهله علينا بالأمن وا لإيمان , والسلامة والإسلام , ربي وربك الله " [قال الترمذي حديث حسن] .

"وكان إذا وضع يده في الطعام قال:باسم الله . ويأمر الآكل بالتسمية

ويقول:إذا أكل أحدكم فليذكر اسم الله تعالى , فإن نسي أن يذكر اسم الله في أوله فليقل:باسم الله في أوله وآخره " [حديث صحيح] .

وهكذا كانت حياته كلها [ص] بدقائقها متأثرة بهذا التوجيه الإلهي الذي تلقاه في اللحظة الأولى . وقام به تصوره الإيماني على قاعدته الأصيلة العريقة . .

ولقد كان من مقتضيات تلك الحقيقة:حقيقة أن الله هو الذي خلق . وهو الذي علم . وهو الذي أكرم . أن يعرف الإنسان . ويشكر . ولكن الذي حدث كان غير هذا , وهذا الانحراف هو الذي يتحدث عنه المقطع الثاني للسورة:

(كلا ! إن الإنسان ليطغى . أن رآه استغنى . إن إلى ربك الرجعى). .

إِنّ إِلَى رَبِّكَ الرُّجْعَى (8) أَرَأَيْتَ الّذِي يَنْهَى (9) عَبْداً إِذَا صَلّى (10)
أَرَأَيْتَ إِن كَانَ عَلَى الْهُدَى (11) أَوْ أَمَرَ بِالتّقْوَى (12) أَرَأَيْتَ إِن كَذّبَ
وَتَوَلّى (13) أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنّ اللّهَ يَرَى (14) كَلّا لَئِن لّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعاً بِالنّاصِيَةِ
(15)

إن الذي أعطاه فأغناه هو الله . كما أنه هو الذي خلقه وأكرمه وعلمه . ولكن الإنسان في عمومه - لا يستثني إلا من يعصمه إيمانه - لا يشكر حين يعطى فيستغني ; ولا يعرف مصدر النعمة التي أغنته , وهو المصدر الذي أعطاه خلقه وأعطاه علمه . . ثم أعطاه رزقه . . ثم هو يطغى ويفجر , ويبغي ويتكبر , من حيث كان ينبغي أن يعرف ثم يشكر .

وحين تبرز صورة الإنسان الطاغي الذي نسي نشأته وأبطره الغنى , يجيء التعقيب بالتهديد الملفوف:(إن إلى ربك الرجعى)فأين يذهب هذا الذي طغى واستغنى ?

وفي الوقت ذاته تبرز قاعدة أخرى من قواعد التصور الإيماني . قاعدة الرجعة إلى الله . الرجعة إليه في كل شيء وفي كل أمر , وفي كل نية , وفي كل حركة , فليس هناك مرجع سواه . إليه يرجع الصالح والطالح . والطائع والعاصي . والمحق والمبطل . والخير والشرير . والغني و الفقير . . وإليه يرجع هذا الذي يطغى أن رآه استغنى . ألا إلى الله تصير الأمور . . ومنه النشأة وإليه المصير . .

وهكذا تجتمع في المقطعين أطراف التصور الإيماني . . الخلق والنشأة . والتكريم والتعليم . . ثم . . الرجعة والمآب لله وحده بلا شريك:(إن إلى ربك الرجعى). .

ثم يمضي المقطع الثالث في السورة القصيرة يعرض صورة من صور الطغيان:صورة مستنكرة يعجب منها , ويفظع وقوعها في أسلوب قرآني فريد .

(أرأيت الذي ينهى عبدا إذا صلى ? أرأيت إن كان على الهدى أو أمر بـ التقوى ? أرأيت إن كذب وتولى ? ألم يعلم بأن الله يرى ?).

والتشنيع والتعجيب واضح في طريقة التعبير , التي تتعذر مجاراتها في لغة الكتابة . ولا تؤدى إلا في أسلوب الخطاب الحي . الذي يعبر بـ اللمسات المتقطعة في خفة وسرعة !

(أرأيت)? أرأيت هذا الأمر المستنكر ? أرأيته يقع ?(أرأيت الذي ينهى عبدا إذا صلى ?).

أرأيت حين تضم شناعة إلى شناعة ? وتضاف بشاعة إلى بشاعة ? أرأيت إن كان هذا الذي يصلي ويتعرض له من ينهاه عن صلاته . . إن كان على الهدى أو أمر بالتقوى ? ثم ينهاه من ينهاه . مع أنه على الهدى , آمر بالتقوى ? . أرأيت إن أضاف إلى الفعلة المستنكرة فعلة أخرى أشد نكرا ?(أرأيت إن كذب وتولى ?).

هنا يجيء التهديد الملفوف كما جاء في نهاية المقطع الماضي:(ألم يعلم بأن الله يرى ?)يرى تكذيبه وتوليه . ويرى نهيه للعبد المؤمن إذا صلى , وهو على الهدى , آمر بالتقوى . يرى . وللرؤية ما بعدها !(ألم يعلم بأن الله يرى !).

وأمام مشهد الطغيان الذي يقف في وجه الدعوة وفي وجه الإيمان , وفي وجه الطاعة , يجيء التهديد الحاسم الرادع الأخير , مكشوفا في هذه المرة لا ملفوفا: كلا . لئن لم ينته لنسفعا بالناصية . ناصية كاذبة خاطئة . فليدع ناديه . سندع الزبانية .

إنه تهديد في إبانه . في اللفظ الشديد العنيف:(كلا . لئن لم ينته لنسفعا بالناصية).

نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ (16) فَلْيَدْعُ نَادِيَه (17) سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ (18) كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ (19)

هكذا(لنسفعن)بهذا اللفظ الشديد المصور بجرسه لمعناه . والسفع:الأخذ بعنف . والناصية:الجبهة . أعلى مكان يرفعه الطاغية المتكبر . مقدم الرأس المتشامخ:إنها ناصية تستحق السفع والصرع:(ناصية كاذبة خاطئة)! وإنها للحظة سفع وصرع . فقد يخطر له أن يدعو من يعتز بهم من أهله وصحبه:(فليدع ناديه)أما نحن فإننا(سندع الزبانية)الشداد الغلا ظ . . والمعركة إذن معروفة المصير !

وفي ضوء هذا المصير المتخيل الرعيب . . تختم السورة بتوجيه المؤمن الطائع إلى الإصرار والثبات على إيمانه وطاعته . .

(كلا . لا تطعه , واسجد , واقترب .)

كلا ! لا تطع هذا الطاغي الذي ينهى عن الصلاة والدعوة . واسجد لربك

واقترب منه بالطاعة والعبادة . ودع هذا الطاغي . الناهي دعه للزبانية !

ولقد وردت بعض الروايات الصحيحة بأن السورة - عدا المقطع الأول منها - قد نزلت في أبي جهل إذ مر برسول الله [ص] وهو يصلي عند المقام . فقال [يا محمد . ألم أنهك عن هذا ? وتوعده . فأغلظ له رسول الله [ص] وانتهره . .] ولعلها هي التي أخذ فيها رسول الله [ص] بخناقه وقال له: أولى لك ثم أولى فقال:يا محمد بأي شي تهددني ? أما والله إني لأكثر هذا الوادي ناديا , فأنزل الله:(فليدع ناديه . . .)وقال ابن عباس لو دعا ناديه لأخذته ملائكة العذاب من ساعته . ولكن دلالة السورة عامة في كل مؤمن طائع عابد داع إلى الله . وكل طاغ باغ ينهى عن الصلاة , ويتوعد على الطاعة , ويختال بالقوة . . والتوجيه الرباني ا لأخير:(كلا ! لا تطعه واسجد واقترب). .

وهكذا تتناسق مقاطع السورة كلها وتتكامل إيقاعاتها . . .

سورة القدر

إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ (1) وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ (2) لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ (3) تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ (4) سَلَامٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ (5)

سورة القدر

تعريف بسورة القدر

الحديث في هذه السورة عن تلك الليلة الموعودة المشهودة التي سجلها الوجود كله في فرح وغبطة وابتهال . ليلة الاتصال المطلق بين الأرض و الملأ الأعلى . ليلة بدء نزول هذا القرآن على قلب محمد [ص] ليلة ذلك الحدث العظيم الذي لم تشهد الأرض مثله في عظمته , وفي دلالته , وفي آثاره في حياة البشرية جميعا . العظمة التي لا يحيط بها الإدراك

البشري:(إنا أنزلناه في ليلة القدر . وما أدراك ما ليلة القدر ?). .(ليلة القدر خير من ألف شهر). .

والنصوص القرآنية التي تذكر هذا الحدث تكاد ترف وتنير . بل هي تفيض بالنور الهادئ الساري الرائق الودود . نور الله المشرق في قرآنه:(إنا أنزلناه في ليلة القدر)ونور الملائكة والروح وهم في غدوهم ورواحهم طوال الليلة بين الأرض والملأ والأعلى:

(تنزل الملائكة والروح فيها بإذن ربهم من كل أمر). . ونور الفجر الذي تعرضه النصوص متناسقا مع نور الوحي ونور الملائكة , وروح السلام المرفرف على الوجود وعلى الأرواح السارية في هذا الوجود:(سلام هي حتى مطلع الفجر).

والليلة التي تتحدث عنها السورة هي الليلة التي جاء ذكرها في سورة الدخان:(إنا أنزلناه في ليلة مباركة , إنا كنا منذرين , فيها يفرق كل أمر حكيم . أمرا من عندنا إنا كنا مرسلين . رحمة من ربك إنه هو السميع العليم). . والمعروف أنها ليلة من ليالي رمضان , كما ورد في سورة البقرة: (شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن , هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان). . أي التي بدأ فيها نزول القرآن على قلب الرسول [ص] ليبلغه إلى الناس . وفي رواية ابن إسحاق أن أول الوحي بمطلع سورة العلق كان في شهر رمضان , ورسول الله [ص] يتحنث في غار حراء .

وقد ورد في تعيين هذه الليلة آثار كثيرة . بعضها يعين الليلة السابعة و العشرين من رمضان . وبعضها يعين الليلةالواحدة والعشرين . وبعضها يعينها ليلة من الليالي العشر الأخيرة . وبعضها يطلقها في رمضان كله . فهي ليلة من ليالي رمضان على كل حال في أرجح الآثار .

واسمها: (ليلة القدر). . قد يكون معناه التقدير والتدبير . وقد يكون معناه القيمة والمقام . وكلاهما يتفق مع ذلك الحدث الكوني العظيم . حدث القرآن والوحي والرسالة . . وليس أعظم منه ولا أقوم في أحداث

هذا الوجود . وليس أدل منه كذلك على التقدير والتدبير في حياة العبيد . وهي خير من ألف شهر . والعدد لا يفيد التحديد . في مثل هذه المواضع من القرآن . إنما هو يفيد التكثير . والليلة خير من آلاف الشهور في حياة البشر . فكم من آلاف الشهور وآلاف السنين قد انقضت دون أن تترك في الحياة بعض ما تركته هذه الليلة المباركة السعيدة من آثار وتحولات .

والليلة من العظمة بحيث تفوق حقيقتها حدود الإدراك البشري:(وما أدراك ما ليلة القدر ?)وذلك بدون حاجة إلى التعلق بالأساطير التي شاعت حول هذه الليلة في أوهام العامة . فهي ليلة عظيمة باختيار الله لها لبدء تنزيل هذا القرآن . وإفاضة هذا النور على الوجود كله , وإسباغ السلام الذي فاض من روح الله على الضمير البشري والحياة الإنسانية , وبما تضمنه هذا القرآن من عقيدة وتصور وشريعة وآداب تشيع السلام في الأرض والضمير . وتنزيل الملائكة وجبريل - عليه السلام - خاصة , بإذن ربهم , ومعهم هذا القرآن - باعتبار جنسه الذي نزل في هذه الليلة - وانتشارهم فيما بين السماء والأرض في هذا المهرجان الكوني , الذي تصوره كلمات السورة تصويرا عجيبا . .

وحين ننظر اليوم من وراء الأجيال المتطاولة إلى تلك الليلة المجيدة السعيدة , ونتصور ذلك المهرجان العجيب الذي شهدته الأرض في هذه الليلة , ونتدبر حقيقة الأمر الذي تم فيها , ونتملى آثاره المتطاولة في مراحل الزمان , وفي واقع الأرض , وفي تصورات القلوب والعقول . . فإننا نرى أمرا عظيما حقا . وندرك طرفا من مغزى هذه الإشارة القرآنية إلى تلك الليلة:(وما أدراك ما ليلة القدر ?). .

ولقد فرق فيها من كل أمر حكيم . وقد وضعت فيها من قيم وأسس وموازين . وقد قررت فيها من أقدار أكبر من أقدار الأفراد . أقدار أمم ودول وشعوب . بل أكثر وأعظم . . أقدار حقائق وأوضاع وقلوب !

ولقد تغفل البشرية - لجهالتها ونكد طالعها - عن قدر ليلة القدر . وعن

حقيقة ذلك الحدث , وعظمة هذا الأمر . وهي منذ أن جهلت هذا وأغفلته فقدت أسعد وأجمل آلاء الله عليها , وخسرت السعادة والسلام الحقيقي - سلام الضمير وسلام البيت وسلام المجتمع - الذي وهبها إياه الإسلام . ولم يعوضها عما فقدت ما فتح عليها من أبواب كل شيء من المادة والحضارة والعمارة . فهي شقية , شقية على الرغم من فيض الإ نتاج وتوافر وسائل المعاش !

لقد انطفأ النور الجميل الذي أشرق في روحها مرة , وانطمست الفرحة الوضيئة التي رفت بها وانطلقت إلى الملأ الأعلى . وغاب السلام الذي فاض على الأرواح والقلوب . فلم يعوضها شيء عن فرحة الروح ونور السماءوطلاقة الرفرفة إلى عليين . .

ونحن - المؤمنين - مأمورون أن لا ننسى ولا نغفل هذه الذكرى ; وقد جعل لنا نبينا [ص] سبيلا هينا لينا لاستحياء هذه الذكرى في أرواحنا لتظل موصولة بها أبدا , موصولة كذلك بالحدث الكوني الذي كان فيها . . وذلك فيما حثنا عليه من قيام هذه الليلة من كل عام , ومن تحريها و التطلع إليها في الليالي العشر الأخيرة من رمضان . . في الصحيحين:" تحروا ليلة القدر في العشر الأواخر من رمضان " . . وفي الصحيحين كذلك:" من قام ليلة القدر إيمانا واحتسابا غفر له ما تقدم من ذنبه " . .

والإسلام ليس شكليات ظاهرية . ومن ثم قال رسول الله [ص] في القيام في هذه الليلة أن يكون "إيمانا واحتسابا" . . وذلك ليكون هذا القيام استحياء للمعاني الكبيرة التي اشتملت عليها هذه الليلة "إيمانا" وليكون تجردا لله وخلوصا "واحتسابا" . . ومن ثم تنبض في القلب حقيقة معينة بهذا القيام . ترتبط بذلك المعنى الذي نزل به القرآن .

والمنهج الإسلامي في التربية يربط بين العبادة وحقائق العقيدة في الضمير , ويجعل العبادة وسيلة لاستحياء هذه الحقائق وإيضاحها وتثبيتها في صورة حية تتخلل المشاعر ولا تقف عند حدود التفكير .

وقد ثبت أن هذا المنهج وحده هو أصلح المناهج لإحياء هذه الحقائق ومنحها الحركة في عالم الضمير وعالم السلوك . وأن الإدراك النظري وحده لهذه الحقائق بدون مساندة العبادة , وعن غير طريقها , لا يقر هذه الحقائق , ولا يحركها حركة دافعة في حياة الفرد ولا في حياة الجماعة .
.

وهذا الربط بين ذكرى ليلة القدر وبين القيام فيها إيمانا واحتسابا , هو طرف من هذا المنهج الإسلامي الناجح القويم .

سورة البينة

لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ
الْبَيِّنَةُ (1) رَسُولٌ مِّنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفاً مُّطَهَّرَةً (2) فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ (3)
وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءتْهُمُ الْبَيِّنَةُ (4) وَمَا أُمِرُوا
إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاء وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ
وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ (5) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ
جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُوْلَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ (6) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا
الصَّالِحَاتِ أُوْلَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ (7)

سورة البينة

تعريف بسورة البينة

هذه السورة معدودة في المصحف وفي أكثر الروايات أنها مدنية . وقد وردت بعض الروايات بمكيتها . ومع رجحان مدنيتها من ناحية الرواية , ومن ناحية أسلوب التعبير التقريري , فإن كونها مكية لا يمكن استبعاده . وذكر الزكاة فيها وذكر أهل الكتاب لا يعتبر قرينة مانعة . فقد ورد ذكر أهل الكتاب في بعض السور المقطوع بمكيتها . وكان في

مكة بعض أهل الكتاب الذين آمنوا , وبعضهم لم يؤمنوا . كما أن نصارى نجران وفدوا على الرسول [ص] في مكة وآمنوا كما هو معروف . وورد ذكر الزكاة كذلك في سور مكية .

والسورة تعرض عدة حقائق تاريخية وإيمانية في أسلوب تقريري هو الذي يرجح أنها مدنية إلى جانب الروايات القائلة بهذا .

والحقيقة الأولى هي أن بعثة الرسول [ص] كانت ضرورية لتحويل الذين كفروا من أهلالكتاب ومن المشركين عما كانوا قد انتهوا إليه من الضلال والاختلاف , وما كانوا ليتحولوا عنه بغير هذه البعثة: لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين منفكين حتى تأتيهم البينة:رسول من الله يتلو صحفا مطهرة , فيها كتب قيمة . .

والحقيقة الثانية:أن أهل الكتاب لم يختلفوا في دينهم عن جهالة ولا عن غموض فيه , إنما اختلفوا من بعد ما جاءهم العلم وجاءتهم البينة:(وما تفرق الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءتهم البينة).

والحقيقة الثالثة:أن الدين في أصله واحد , وقواعده بسيطة واضحة , لا تدعو إلى التفرق والاختلاف في ذاتها وطبيعتها البسيطة اليسيرة:(وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء , ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة , وذلك دين القيمة).

والحقيقة الرابعة:أن الذين كفروا بعد ما جاءتهم البينة هم شر البرية , وأن الذين آمنوا وعملوا الصالحات هم خير البرية . ومن ثم يختلف جزاء هؤلاء عن هؤلاء اختلافا بينا:

ن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين في نار جهنم خالدين فيها . أولئك هم شر البرية . إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير البرية , جزاؤهم عند ربهم جنات عدن تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا , رضي الله عنهم ورضوا عنه , ذلك لمن خشي ربه . .

وهذه الحقائق الأربع ذات قيمة في إدراك دور العقيدة الإسلامية ودور الرسالة الأخيرة . وفي التصور الإيماني كذلك . نفصلها فيما يلي:

(لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين منفكين حتى تأتيهم البينة:رسول من الله يتلو صحفا مطهرة , فيها كتب قيمة).

لقد كانت الأرض في حاجة ماسة إلى رسالة جديدة كان الفساد قد عم أرجاءها كلها بحيث لا يرتجى لها صلاح إلا برسالة جديدة , ومنهج جديد , وحركة جديدة . وكان الكفر قد تطرق إلى عقائد أهلها جميعا سواء أهل الكتاب الذين عرفوا الديانات السماوية من قبل ثم حرفوها , أو المشركون في الجزيرة العربية وفي خارجها سواء .

وما كانوا لينفكوا ويتحولوا عن هذا الكفر الذي صاروا إليه إلا بهذه الرسالة الجديدة , وإلا على يد رسول يكون هو ذاته بينة واضحة فارقة فاصلة:(رسول من الله يتلو صحفا مطهرة). . مطهرة من الشرك و الكفر(فيها كتب قيمة). . والكتاب يطلق على الموضوع , كما يقال كتاب الطهارة وكتاب الصلاة , وكتاب القدر , وكتاب القيامة , وهذه الصحف المطهرة - وهي هذا القرآن - فيها كتب قيمة أي موضوعات وحقائق قيمة . .

ومن ثم جاءت هذه الرسالة في إبانها , وجاء هذا الرسول في وقته , وجاءت هذه الصحف وما فيها من كتب وحقائق وموضوعات لتحدث في الأرض كلها حدثا لا تصلح الأرض إلا به . فأما كيف كانت الأرض في حاجة إلى هذه الرسالة وإلى هذا الرسول فنكتفي في بيانه باقتطاف لمحات كاشفة من الكتاب القيم الذي كتبه الرجل المسلم "السيد أبو الحسن علي الحسني الندوي" بعنوان:"ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين" . . وهو أوضح وأخصر ما قرأناه في موضوعه:

جاء في الفصل الأول من الباب الأول:

كان القرن السادس والسابع لميلاد المسيح من أحط أدوار التاريخ بلا خ

لاف . فكانت الإنسانية متدلية منحدرة منذ قرون . وما على وجه الأ رض قوة تمسك بيدها وتمنعها من التردي وقد زادتها الأيام سرعة في هبوطها وشدة في إسفافها . وكان الإنسان في هذا القرن قد نسي خ القه , فنسي نفسه ومصيره , وفقد رشده , وقوة التمييز بين الخير و الشر , والحسن والقبيح . وقد خفتت دعوة الأنبياء من زمن , والمصابيح التي أوقدوها قد انطفأت من العواصف التي هبت بعدهم , أو بقيت ونورها ضعيف ضئيل لا ينير إلا بعض القلوب , فضلا عن البيوت , فضلا عن البلاد . وقد انسحب رجال الدين من ميدان الحياة , ولاذوا بالأديرة والكنائس والخلوات فرارا بدينهم من الفتن , وضنا بأنفسهم , أو رغبة إلى الدعة والسكون , وفرارا من تكاليف الحياة وجدها , أو فشلا في كفاح الدين والسياسة , والروح والمادة ; ومن بقي منهم في تيار الحياة اصطلح مع الملوك وأهل الدنيا وعاونهم على إثمهم وعدوانهم , وأكل أموال الناس بالباطل . . .

أصبحت الديانات العظيمة فريسة العابثين والمتلاعبين ; ولعبة المجرمين والمنافقين , حتى فقدت روحها وشكلها , فلو بعث أصحابها ا لأولون لم يعرفوها ; وأصبحت مهود الحضارة والثقافة والحكم و السياسة مسرح الفوضى والانحلال والاختلال وسوء النظام وعسف الحكام , وشغلت بنفسها لا تحمل للعالم رسالة , ولا للأمم دعوة , وأفلست في معنوياتها , ونضب معين حياتها , لا تملك مشرعا صافيا من الدين السماوي , ولا نظاما ثابتا من الحكم البشري" . .

هذه اللمحة السريعة تصور في إجمال حالة البشرية والديانات قبيل البعثة المحمدية . وقد أشار القرآن إلى مظاهر الكفر الذي شمل أهل الكتاب والمشركين في مواضع شتى . .

من ذلك قوله عن اليهود والنصارى: وقالت اليهود عزير ابن الله . وقالت النصارى المسيح ابن الله . . (وقالت اليهود ليست النصارى على شيء , وقالت النصارى ليست اليهود على شيء). .

وقوله عن اليهود: وقالت اليهود:يد الله مغلولة . غلت أيديهم ولعنوا بما قالوا . بل يداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء .

وقوله عن النصارى: لقد كفر الذين قالوا:إن الله هو المسيح ابن مريم . . (لقد كفر الذين قالوا:إن الله ثالث ثلاثة).

وقوله عن المشركين: (قل يا أيها الكافرون , لا أعبد ما تعبدون , ولا أنتم عابدون ما أعبد . ولا أنا عابد ما عبدتم ; ولا أنتم عابدون ما أعبد . لكم دينكم ولي دين). . وغيرها كثير . .

وكان وراء هذا الكفر ما وراءه من الشر والانحطاط والشقاق والخراب الذي عم أرجاء الأرض . . . "وبالجملة لم تكن على ظهر الأرض أمة صـ الحة المزاج , ولا مجتمع قائم على أساس الأخلاق والفضيلة , ولا حكومة مؤسسة على أساس العدل والرحمة , ولا قيادة مبنية على العلم والحكمة , لا دين صحيح مأثور عن الأنبياء " .

ومن ثم اقتضت رحمة الله بالبشرية إرسال رسول من عنده يتلو صحفا مطهرة فيها كتب قيمة . وما كانالذين كفروا من المشركين ومن الذين أوتوا الكتاب ليتحولوا عن ذلك الشر والفساد إلا ببعثة هذا الرسول المنقذ الهادي المبين . . .

ولما قرر هذه الحقيقة في مطلع السورة عاد يقرر أن أهل الكتاب خاصة لم يتفرقوا ويختلفوا في دينهم عن جهل أو عن غموض في الدين أو تعقيد . إنما هم تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم العلم ومن بعد ما جاءتهم البينة من دينهم على أيدي رسلهم:

(وما تفرق الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءتهم البينة). .

وكان أول التفرق والاختلاف ما وقع بين طوائف اليهود قبل بعثة عيسى - عليه السلام - فقد انقسموا شعبا وأحزابا . مع أن رسولهم هو موسى - عليه السلام - وكتابهم هو التوراة . فكانوا طوائف خمسة رئيسية هي

طوائف الصدوقيين , والفريسيين , والآسيين , والغلاة , والسامريين . . ولكل طائفة سمة واتجاه . ثم كان التفرق بين اليهود والنصارى , مع أن المسيح - عليه السلام - هو أحد أنبياء بني إسرائيل وآخرهم , وقد جاء مصدقا لما بين يديه من التوراة , ومع هذا فقد بلغ الخلاف والشقاق بين اليهود والمسيحيين حد العداء العنيف والحقد الذميم . وحفظ التاريخ من المجازر بين الفريقين ما تقشعر له الأبدان .

"وقد تجدد في أوائل القرن السابع من الحوادث ما بغضهم [أي اليهود] إلى المسيحيين وبغض المسيحيين إليهم , وشوه سمعتهم . ففي السنة ا لأخيرة من حكم فوكاس [610م] أوقع اليهود بالمسيحيين في أنطاكية , فأرسل الأمبراطور قائده [ابنوسوس] ليقضي على ثورتهم , فذهب وأنفذ عمله بقسوة نادرة , فقتل الناس جميعا قتلا بالسيف , وشنقا , وإغراقا , وإحراقا , وتعذيبا , ورميا للوحوش الكاسرة . . . وكان ذلك بين اليهود والنصارى مرة بعد مرة , قال المقريزي في كتاب الخطط:"وفي أيام [فوقا] ملك الروم , بعث كسرى ملك فارس جيوشه إلى بلاد الشام ومصر فخربوا كنائس القدس , وفلسطين وعامة بلاد الشام , وقتلوا النصارى بأجمعهم , وأتوا إلى مصر في طلبهم , وقتلوا منهم أمة كبيرة , وسبوا منهم سبيا لا يدخل تحت حصر . وساعدهم اليهود في محاربة النصارى وتخريب كنائسهم ; وأقبلوا نحو الفرس من طبرية , وجبل الجليل , وقرية الناصرة ومدينة صور , وبلاد القدس ; فنالوا من النصارى كل منال وأعظموا النكاية فيهم , وخربوا لهم كنيستين بالقدس , وأحرقوا أماكنهم , وأخذوا قطعة من عود الصليب , وأسروا بطرك القدس وكثيرا من أصحابه . إلى أن قال - بعد أن ذكر فتح القدس:

"فثارت اليهود في أثناء ذلك بمدينة صور , وأرسلوا بقيتهم في بلادهم , وتواعدوا على الإيقاع بالنصارى وقتلهم , فكانت بينهم حرب , اجتمع فيها من اليهود نحو 20 ألفا وهدموا كنائس النصارى خارج صور . فقوس النصارى عليهم وكاثروهم فانهزم اليهود هزيمة قبيحة , وقتل

منهم كثير . وكان هرقل قد ملك الروم بقسطنطينية , وغلب الفرس بحيلة دبرها على كسرى حتى رحل عنه , ثم سار من قسطنطينية ليمهد ممالك الشام ومصر , ويجدد ما خربه الفرس , فخرج إليه اليهود من طبرية وغيرها , وقدموا له الهدايا الجليلة وطلبوا منه أن يؤمنهم منه ويحلف لهم على ذلك , فأمنهم وحلف لهم . ثم دخل القدس , وقد تلقاهم النصارى بالأناجيل والصلبان والبخور والشموع المشعلة , فوجد المدينة وكنائسها خرابا , فساءه ذلك , وتوجع لهم , وأعلمه النصارى بما كان من ثورة اليهود مع الفرس , وإيقاعهم بالنصارى وتخريبهم الكنائس , وأنهم كانوا أشد نكاية لهم من الفرس , وقاموا قياما كبيرا في قتلهم عن آخرهم , وحثوا هرقل على الوقيعة بهم , وحسنوا له ذلك . فاحتجعليهم بما كان من تأمينه لهم وحلفه , فأفتاه رهبانهم وبطارقتهم وقسيسوهم بأنه لا حرج عليه في قتلهم , فإنهم عملوا عليه حيلة حتى أمنهم من غير أن يعلم بما كان منهم , وأنهم يقومون عنه بكفارة يمينه بأن يلتزموا ويلزموا النصارى بصوم جمعة في كل سنة عنه على مر الزمان والدهور ! فمال إلى قولهم وأوقع باليهود وقيعة شنعاء أبادهم جميعهم فيها , حتى لم يبق في ممالك الروم في مصر والشام إلا من فر واختفى . .

"وبهذه الروايات يعلم ما وصل إليه الفريقان:اليهود والنصارى , من القسوة والضراوة بالدم الإنساني , وتحين الفرص للنكاية في العدو , وعدم مراعاة الحدود في ذلك" .

ثم كان التفرق والاختلاف بين النصارى أنفسهم , مع أن كتابهم واحد ونبيهم واحد . تفرقوا واختلفوا أولا في العقيدة . ثم تفرقوا واختلفوا طوائف متعادية متنافرة متقاتلة . وقد دارت الخلافات حول طبيعة المسيح - عليه السلام - وعما إذا كان لاهوتية أو ناسوتية . وطبيعة أمه مريم . وطبيعة الثالوث الذي يتألف منه "الله" - في زعمهم - وحكى القرآن قولين منها أو ثلاثة في قوله: (لقد كفر الذين قالوا:إن الله هو المسيح ابن مريم). . (لقد كفر الذين قالوا:إن الله ثالث ثلاثة) (وإذ قال الله يا عيسى بن مريم أأنت قلت للناس:اتخذوني وأمي إلهين من دون

الله ?).

"وكان أشد مظاهر هذا الخلاف الديني ما كان بين نصارى الشام والدولة الرومية , وبين نصارى مصر . أو بين "الملكانية " , "المنوفوسية " بلفظ أصح . فكان شعار الملكانية عقيدة ازدواج طبيعة المسيح , وكان المنوفوسيون يعتقدون أن للسيد المسيح طبيعة واحدة هي الإلاهية . التي تلاشت فيها طبيعة المسيح البشرية كقطرة من الخل تقع في بحر عميق لا قرار له . وقد اشتد هذا الخلاف بين الحزبين في القرنين السادس والسابع , حتى صار كأنه حرب عوان بين دينين متنافسين , أو كأنه خلاف بين اليهود والنصارى . . كل طائفة تقول للأخرى:إنها ليست على شيء .

"وحاول الإمبراطور هرقل [610 - 641] بعد انتصاره على الفرس [سنة 638] جمع مذاهب الدولة المتصارعة وتوحيدها , وأراد التوفيق , وتقررت صورة التوفيق أن يمتنع الناس عن الخوض في الكلام عن كنه طبيعة السيد المسيح , وعما إذا كانت له صفة واحدة أم صفتان , ولكن عليهم بأن يشهدوا بأن الله له إرادة واحدة أو قضاء واحد . وفي صدر عام 631 حصل وفاق على ذلك , وصار المذهب المنوثيلي مذهبا رسميا للدولة , ومن تضمهم من أتباع الكنيسة المسيحية . وصمم هرقل على إظهار المذهب الجديد على ما عداه من المذاهب المخالفة , متوسلا إلى ذلك بكل الوسائل . ولكن القبط نابذوه العداء , وتبرأوا من هذه البدعة والتحريف ! وصمدوا له واستماتوا في سبيل عقيدتهم القديمة . وحاول الإمبراطور مرة أخرى توحيد المذاهب وحسم الخلاف فاقتنع بأن يقر الناس بأن الله له إرادة واحدة . وأما المسألة الأخرى وهي نفاذ تلك الإرادة بالفعل فأرجأ القول فيه , ومنع الناس أن يخوضوا في مناظراته . وجعل ذلك رسالة رسمية , ذهب بها إلى جميع جهات العالم الشرقي . ولكن الرسالة لم تهدئ العاصفة في مصر , ووقع اضطهاد فظيع على يد قيصر في مصر استمر عشر سنين , ووقع في خلالها ما تقشعر منه الجلود , فرجال كانوا يعذبون ثم يقتلون

غرقا , وتوقد المشاعل وتسلط نارها على الأشقياءحتى يسيل الدهن من الجانبين إلى الأرض ويوضع السجين في كيس مملوء بالرمل ويرمى في البحر . إلى غير ذلك من الفظائع" .

وكان هذا الخلاف كله بين أهل الكتاب جميعا (من بعد ما جاءتهم البينة). . فلم يكن ينقصهم العلم والبيان ; إنما كان يجرفهم الهوى والا نحراف .

على أن الدين في أصله واضح والعقيدة في ذاتها بسيطة:

(وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء , ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة وذلك دين القيمة)وهذه هي قاعدة دين الله على الإطلاق:

عبادة الله وحده , وإخلاص الدين له , والميل عن الشرك وأهله , وإقامة الصلاة , وإيتاء الزكاة: (وذلك دين القيمة). . عقيدة خالصة في الضمير , وعبادة لله , تترجم عن هذه العقيدة , وإنفاق للمال في سبيل الله , وهو الزكاة . . فمن حقق هذه القواعد , فقد حقق الإيمان كما أمر به أهل الكتاب , وكما هو في دين الله على الإطلاق . دين واحد . وعقيدة واحدة , تتوالى بها الرسالات , ويتوافى عليها الرسل . . دين لا غموض فيه ولا تعقيد . وعقيدة لا تدعو إلى تفرق ولا خلاف , وهي بهذه النصاعة , وبهذه البساطة , وبهذا التيسير . فأين هذا من تلك التصورات المعقدة , وذلك الجدل الكثير ?

فأما وقد جاءتهم البينة من قبل في دياناتهم على أيدي رسلهم ; ثم جاءتهم البينة , حية في صورة رسول من الله يتلو صحفا مطهرة ; ويقدم لهم عقيدة , واضحة بسيطة ميسرة , فقد تبين الطريق . ووضح مصير الذين يكفرون والذين يؤمنون:

(إن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين في نار جهنم خالدين فيها أولئك هم شر البرية . إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير البرية . جزاؤهم عند ربهم جنات عدن تجري من تحتها الأنهار خالدين

فيها أبدا . رضي الله عنهم ورضوا عنه , ذلك لمن خشي ربه). .

إن محمدا [ص] هو الرسول الأخير ; وإن الإسلام الذي جاء به هو الرسالة الأخيرة . وقد كانت الرسل تتوالى كلما فسدت الأرض لترد الناس إلى الصلاح . وكانت هناك فرصة بعد فرصة ومهلة بعد مهلة , لمن ينحرفون عن الطريق فأما وقد شاء الله أن يختم الرسالات إلى الأرض بهذه الرسالة الأخيرة الجامعة الشاملة الكاملة , فقد تحددت الفرصة الأ خيرة , فإما إيمان فنجاة , وإما كفر فهلاك . ذلك أن الكفر حينئذ دلالة على الشر الذي لا حد له , وأن الإيمان دلالة على الخير البالغ أمده .

(إن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين في نار جهنم خالدين فيها . أولئك هم شر البرية)حكم قاطع لا جدال فيه ولا محال . مهما يكن من صلاح بعض أعمالهم وآدابهم ونظمهم ما دامت تقوم على غير إيمان , بهذه الرسالة الأخيرة , وبهذا الرسول الأخير . لا نستريب في هذا الحكم لأي مظهر من مظاهر الصلاح , المقطوعة الاتصال بمنهج الله الثابت القويم .

(إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات , أولئك هم خير البرية).

جَزَاؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ (8)

حكم كذلك قاطع لا جدال فيه ولا محال . ولكن شرطه كذلك واضح لا غموض فيه ولا احتيال . إنه الإيمان . لا مجرد مولد في أرض تدعى الإ سلام , أو في بيت يقول:إنه من المسلمين . ولا بمجرد كلمات يتشدق بها الإنسان ! إنه الإيمان الذي ينشئ آثاره في واقع الحياة: (وعملوا الصالحات). وليس هو الكلام الذي لا يتعدى الشفاه ! والصالحات هي كل ما أمر الله بفعله من عبادة وخلق وعمل وتعامل . وفي أولها إقامة

شريعة الله في الأرض , والحكم بين الناس بما شرع الله . فمن كانوا كذلك فهم خير البرية .

(جزاؤهم عند ربهم جنات عدن تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا). .

جنات للإقامة الدائمة في نعيمها الذي يمثله هنا الأمن من الفناء و الفوات . والطمأنينة من القلق الذي يعكر وينغص كل طيبات الأرض . . كما يمثله جريان الأنهار من تحتها , وهو يلقي ظلال النداوة والحياة و الجمال !

ثم يرتقي السياق درجة أو درجات في تصوير هذا النعيم المقيم:

(رضي الله عنهم ورضوا عنه). .

هذا الرضا من الله وهو أعلى وأندى من كل نعيم . وهذا الراضا في نفوسهم عن ربهم الرضا عن قدره فيهم . والرضا عن إنعامه عليهم و الرضا بهذه الصلة بينه وبينهم . الرضا الذي يغمر النفس بالهدوء و الطمأنينة والفرح الخالص العميق . .

إنه تعبير يلقي ظلاله بذاته . . (رضي الله عنهم ورضوا عنه)حيث يعجز أي تعبير آخر عن إلقاء مثل هذه الظلال !

(ذلك لمن خشي ربه). .

وذلك هو التوكيد الأخير . التوكيد على أن هذا كله متوقف على صلة القلب بالله , ونوع هذه الصلة , والشعور بخشيته خشية تدفع إلى كل صلاح , وتنهى عن كل انحراف . . الشعور الذي يزيح الحواجز , ويرفع ا لأستار , ويقف القلب عاريا أمام الواحد القهار . والذي يخلص العبادة ويخلص العمل من شوائب الرياء والشرك في كل صورة من صوره . ف الذي يخشى ربه حقا لا يملك أن يخطر في قلبه ظلا لغيره من خلقه . وهو يعلم أن الله يرد كل عمل ينظر فيه العبد إلى غيره معه , فهو أغنى

الشركاء عن الشرك . فإما عمل خالص له , وإلا لم يقبله .

تلك الحقائق الأربعة الكبيرة هي مقررات هذه السورة الصغيرة , يعرضها القرآن بأسلوبه الخاص , الذي يتجلى بصفة خاصة في هذه السور القصار . .

سورة الزلزلة

إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا (1) وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا (2) وَقَالَ الْإِنسَانُ مَا لَهَا (3)

سورة الزلزلة

تعريف بسورة الزلزلة

هذه السورة مدنية في المصحف وفي بعض الروايات ; ومكية في بعض الروايات الأخرى . ونحن نرجح الروايات التي تقول بأنها مكية , وأسلوبها التعبيري وموضوعها يؤيدان هذا .

إنها هزة عنيفة للقلوب الغافلة . هزة يشترك فيها الموضوع والمشهد والإيقاع اللفظي . وصيحة قوية مزلزلة للأرض ومن عليها ; فما يكادون يفيقون حتى يواجههم الحساب والوزن والجزاء في بضع فقرات قصار !

وهذا هو طابع الجزء كله , يتمثل في هذه السورة تمثلا قويا . . .

إذا زلزلت الأرض زلزالها , وأخرجت الأرض أثقالها , وقال الإنسان مالها ? يومئذ تحدث أخبارها بأن ربك أوحى لها .

إنه يوم القيامة حيث ترتجف الأرض الثابتة ارتجافا , وتزلزل زلزالا , وتنفض ما في جوفها نفضا , وتخرج ما يثقلها من أجساد ومعادن وغيرها مما حملته طويلا . وكأنها تتخفف من هذه الأثقال , التي حملتها

طويلا !

وهو مشهد يهز تحت أقدام المستمعين لهذه السورة كل شيء ثابت ; ويخيل إليهم أنهم يترنحون ويتأرجحون , والأرض من تحتهم تهتز وتمور ! مشهد يخلع القلوب من كل ما تتشبث به من هذه الأرض , وتحسبه ثابتا باقيا ; وهو الإيحاء الأول لمثل هذه المشاهد التي يصورها القرآن , ويودع فيها حركة تكاد تنتقل إلى أعصاب السامع بمجرد سماع العبارة القرآنية الفريدة !

ويزيد هذا الأثر وضوحا بتصوير "الإنسان" حيال المشهد المعروض , ورسم انفعالاته وهو يشهده:

(وقال الإنسان:ما لها ?). .

يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا (4) بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا (5) يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتاً لِّيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ (6) فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ (7) وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ (8)

وهو سؤال المشدوه المبهوت المفجوء , الذي يرى ما لم يعهد , ويواجه ما لا يدرك , ويشهد ما لا يملك الصبر أمامه والسكوت . مالها ? ما الذي يزلزلها هكذا ويرجها رجا ? مالها ? وكأنه يتمايل على ظهرها ويترنح معها ; ويحاول أن يمسك بأي شيء يسنده ويثبته , وكل ما حوله يمور مورا شديدا !

"والإنسان" قد شهد الزلازل والبراكين من قبل . وكان يصاب منها بالهلع والذعر , والهلاك والدمار , ولكنه حين يرى زلزال يوم القيامة لا يجد أن هناك شبها بينه وبين ما كان يقع من الزلازل والبراكين في الحياة الدنيا . فهذا أمر جديد لا عهد للإنسان به . أمر لا يعرف له سرا , ولا يذكر له

نظيرا . أمر هائل يقع للمرة الأولى !

(يومئذ). . يوم يقع هذا الزلزال ويشده أمامه الإنسان (تحدث أخبارها بأن ربك أوحى لها). . يومئذ تحدث هذه الأرض أخبارها , وتصف حالها وما جرى لها . . لقد كان ما كان لها(بأن ربك أوحى لها). . وأمرها أن تمور مورا , وأن تزلزل زلزالها , وأن تخرج أثقالها ! فأطاعت أمر ربها(وأذنت لربها وحقت). . تحدث أخبارها . فهذا الحال حديث واضح عما وراءه من أمر الله ووحيه أليها . .

وهنا و"الإنسان" مشدوه مأخوذ , والإيقاع يلهث فزعا ورعبا , ودهشة وعجبا , واضطرابا ومورا . . هنا و"الإنسان" لا يكاد يلتقط أنفاسه وهو يتساءل:مالها مالها ? هنا يواجه بمشهد الحشر والحساب والوزن و الجزاء:

(يومئذ يصدر الناس أشتاتا ليروا أعمالهم . فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره . ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره).

وفي لمحة نرى مشهد القيام من القبور: (يومئذ يصدر الناس أشتاتا). . نرى مشهدهم شتيتا منبعثا من أرجاء الأرض (كأنهم جراد منتشر). . وهو مشهد لا عهد للإنسان به كذلك من قبل . مشهد الخلائق في أجيالها جميعا تنبعث من هنا ومن هناك: (يوم تشقق الأرض عنهم سراعا). . وحيثما امتد البصر رأى شبحا ينبعث ثم ينطلق مسرعا ! لا يلوي على شيء , ولا ينظر وراءه ولا حواليه: (مهطعين إلى الداع)ممدودة رقابهم , شاخصة أبصارهم .(لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه).

إنه مشهد لا تعبر عن صفته لغة البشر . هائل مروع . مفزع . مرعب . مذهل . . .

كل أولئك وسائر ما في المعجم من أمثالها لا تبلغ من وصف هذا المشهد شيئا مما يبلغه إرسال الخيال قليلا يتملاه بقدر ما يملك وفي حدود ما يطيق !

(يومئذ يصدر الناس أشتاتا). . (ليروا أعمالهم). . وهذه أشد وأدهى . . إنهم ذاهبون إلى حيث تعرض عليهم أعمالهم , ليواجهوها , ويواجهوا جزاءها . ومواجهة الإنسان لعمله قد تكون أحيانا أقسى من كل جزاء . وإن من عمله ما يهرب من مواجهته بينه وبين نفسه , ويشيح بوجهه عنه لبشاعته حين يتمثل له في نوبة من نوبات الندم ولذع الضمير . فكيف به وهو يواجه بعمله على رؤوس الأشهاد , في حضرة الجليل العظيم الجبار المتكبر ?!

إنها عقوبة هائلة رهيبة . . مجرد أن يروا أعمالهم , وأن يواجهوا بما كان منهم !

ووراء رؤيتها الحساب الدقيق الذي لا يدع ذرة من خير أو من شر لا يزنها ولا يجازي عليها .

(فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره . ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره). .

ذرة . . كان المفسرون القدامى يقولون:إنها البعوضة . وكانوا يقولون:إنها الهباءة التي ترى في ضوء الشمس . . . فقد كان ذلك أصغر ما يتصورون من لفظ الذرة . . .

فنحن الآن نعلم أن الذرة شيء محدد يحمل هذا الإسم , وأنه أصغر بكثير من تلك الهباءة التي ترى في ضوء الشمس , فالهباءة ترى بالعين المجردة . أما الذرة فلا ترى أبدا حتى بأعظم المجاهر في المعامل . إنما هي "رؤيا" في ضمير العلماء ! لم يسبق لواحد منهم أن رآها بعينه ولا بمجهره . وكل ما رآه هو آثارها !

فهذه أو ما يشبهها من ثقل , من خير أو شر , تحضر ويراها صاحبها ويجد جزاءها ! . . .

عندئذ لا يحقر "الإنسان" شيئا من عمله . خيرا كان أو شرا . ولا يقول:هذه صغيرة لا حساب لها ولا وزن . إنما يرتعش وجدانه أمام كل

عمل من أعماله إرتعاشة ذلك الميزان الدقيق الذي ترجح به الذرة أو تشيل !

إن هذا الميزان لم يوجد له نظير أو شبيه بعد في الأرض . . إلا في القلب المؤمن . .

القلب الذي يرتعش لمثقال ذرة من خير أو شر . . . وفي الأرض قلوب لا تتحرك للجبل من الذنوب والمعاصي والجرائر . . ولا تتأثر وهي تسحق رواسي من الخير دونها رواسي الجبال . .

إنها قلوب عتلة في الأرض , مسحوقة تحت أثقالها تلك في يوم الحساب !!

سورة العاديات

وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحاً (1) فَالْمُورِيَاتِ قَدْحاً (2) فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحاً (3) فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعاً (4) فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعاً (5)

سورة العاديات

يجري سياق هذه السورة في لمسات سريعة عنيفة مثيرة , ينتقل من احداها إلى الأخرى قفزا وركضا ووثبا , في خفة وسرعة وانطلاق , حتى ينتهي إلى آخر فقرة فيها فيستقر عندها اللفظ والظل والموضوع والإيقاع ! كما يصل الراكض إلى نهاية المطاف !

وتبدأ بمشهد الخيل العادية الضابحة , القادحة للشرر بحوافرها , المغيرة مع الصباح , المثيرة للنقع وهو الغبار , الداخلة في وسط العدو فجأة تأخذه على غرة , وتثير في صفوفه الذعر والفرار !

يليه مشهد في النفس من الكنود والجحود والأثرة والشح الشديد !

ثم يعقبه مشهد لبعثرة القبور وتحصيل ما في الصدور !

وفي الختام ينتهي النقع المثار , وينتهي الكنود والشح , وتنتهي البعثرة والجمع . . إلى نهايتها جميعا . إلى الله . فتستقر هناك: (إن ربك بهم يومئذ لخبير). . .

والإيقاع الموسيقي فيه خشونة ودمدمة وفرقعة , تناسب الجو الصاخب المعفر الذي تنشئه القبور المبعثرة , والصدور المحصل ما فيها بشدة وقوة , كما تناسب جو الجحود والكنود , والأثرة والشح الشديد . . فلما أراد لهذا كله إطارا مناسبا , اختاره من الجو الصاخب المعفر كذلك , تثيره الخيل العادية في جريها , الصاخبة بأصواتها , القادحة بحوافرها , المغيرة فجاءة مع الصباح , المثيرة للنقع والغبار , الداخلة في وسط العدو على غير انتظار . . . فكان الإطار من الصورة والصورة من الإطار .

إِنَّ الْإِنسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ (6) وَإِنَّهُ عَلَى ذَلِكَ لَشَهِيدٌ (7) وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ (8) أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ (9) وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ (10)

(والعاديات ضبحا , فالموريات قدحا , فالمغيرات صبحا , فأثرن به نقعا , فوسطن به جمعا . . إن الإنسان لربه لكنود . وإنه على ذلك لشهيد . وإنه لحب الخير لشديد . . .)

يقسم الله سبحانه بخيل المعركة , ويصف حركاتها واحدة واحدة منذ أن تبدأ عدوها وجريها ضابحة بأصواتها المعروفة حين تجري , قارعة للصخر بحوافرها حتى توري الشرر منها , مغيرة في الصباح الباكر لمفاجأة العدو , مثيرة للنقع والغبار . غبار المعركة على غير انتظار . وهي تتوسط صفوف الأعداء على غرة فتوقع بينهم الفوضى والاضطراب !

إنها خطوات المعركة على ما يألفه المخاطبون بالقرآن أول مرة . . . و القسم بالخيل في هذا الإطار فيه إيحاء قوي بحب هذه الحركة و النشاط لها , بعد الشعور بقيمتها في ميزان الله والتفاته سبحانه إليها ؟

وذلك فوق تناسق المشهد مع المشاهد المقسم عليها والمعقب بها كما أسلفنا . أما الذي يقسم الله - سبحانه - عليه , فهو حقيقة في نفس الإ نسان , حين يخوى قلبه من دوافع الإيمان . حقيقة ينبهه القرآن إليها , ليجند إرادته لكفاحها مذ كان الله يعلم عمق وشائجها في نفسه , وثقل وقعها في كيانه:

(إن الإنسان لربه لكنود . وإنه على ذلك لشهيد . وإنه لحب الخير لشديد). .

إن الإنسان ليجحد نعمة ربه , وينكر جزيل فضله . ويتمثل كنوده وجحوده في مظاهر شتى تبدو منه أفعالا وأقوالا , فتقوم عليه مقام الشاهد الذي يقرر هذه الحقيقة . وكأنه يشهد على نفسه بها . أو لعله يشهد على نفسه يوم القيامة بالكنود والجحود:(وإنه على ذلك لشهيد). . يوم ينطق بالحق على نفسه حيث لا جدال ولا محال !

(وإنه لحب الخير لشديد)فهو شديد الحب لنفسه , ومن ثم يحب الخير . ولكن كما يتمثله مالا وسلطة ومتاعا بأعراض الحياة الدنيا . . .

هذه فطرته . وهذا طبعه . ما لم يخالط الإيمان قلبه . فيغير من تصوراته وقيمه وموازينه واهتماماته . ويحيل كنوده وجحوده اعترافا بفضل الله وشكرانا . كما يبدل أثرته وشحه إيثارا ورحمة . ويريه القيم الحقيقية التي تستحق الحرص والتنافس والكد والكدح . وهي قيم أعلى من المال والسلطة والمتاع الحيواني بأعراض الحياة الدنيا . .

إن الإنسان - بغير إيمان - حقير صغير . حقير المطامع , صغير الا هتمامات . ومهما كبرت أطماعه . واشتد طموحه , وتعالت أهدافه , فإنه يظل مرتكسا في حمأة الأرض , مقيدا بحدود العمر , سجينا في سجن

الذات . . لا يطلقه ولا يرفعه إلا الاتصال بعالم أكبر من الأرض , وأبعد من الحياة الدنيا , وأعظم من الذات . . عالم يصدر عن الله الأزلي , ويعود إلى الله الأبدي , وتتصل فيه الدنيا بالآخرة إلى غير انتهاء . .

ومن ثم تجيء اللفتة الأخيرة في السورة لعلاج الكنود والجحود والأثرة والشح , لتحطيم قيد النفس وإطلاقها منه . مع عرض مشهد البعث و الحشر في صورة تنسي حب الخير , وتوقظ من غفلة البطر:

(أفلا يعلم إذا بعثر ما في القبور , وحصل ما في الصدور ?). .

وهو مشهد عنيف مثير . بعثرة لما في القبور . بعثرة بهذا اللفظ العنيف المثير . وتحصيل لأسرار الصدور التي ضنت بها وخبأتها بعيدا عن العيون . تحصيل بهذا اللفظ العنيف القاسي . . فالجو كله عنف وشدة وتعفير !

أفلا يعلم إذا كان هذا ? ولا يذكر ماذا يعلم ? لأن علمه بهذا وحده يكفي لهز المشاعر . ثم ليدع النفس

إِنّ رَبّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لّخَبِيرٌ (11)

تبحث عن الجواب , وترود كل مراد , وتتصور كل ما يمكن أن يصاحب هذه الحركات العنيفة من آثار وعواقب !

ويختم هذه الحركات الثائرة باستقرار ينتهي إليه كل شيء , وكل أمر , وكل مصير:

(إن ربهم بهم يومئذ لخبير). .

فالمرجع إلى ربهم . وإنه لخبير بهم(يومئذ)وبأحوالهم وأسرارهم . . والله خبير بهم في كل وقت وفي كل حال . ولكن لهذه الخبرة(يومئذ)آثار هي

التي تثير انتباههم لها في هذا المقام . . . إنها خبرة وراءها عاقبة . خبرة وراءها حساب وجزاء . وهذا المعنى الضمني هو الذي يلوح به في هذا المقام !

إن السورة مشوار واحد لاهث صاخب ثائر . . حتى ينتهي إلى هذا القرار . . معنى ولفظا وإيقاعا , على طريقة القرآن !

سورة القارعة

الْقَارِعَةُ (1) مَا الْقَارِعَةُ (2)

سورة القارعة

القارعة:القيامة . كالطامة , والصاخة , والحاقة , والغاشية . والقارعة توحي بالقرع واللطم , فهي تقرع القلوب بهولها .

والسورة كلها عن هذه القارعة . حقيقتها . وما يقع فيها . وما تنتهي إليه . . فهي تعرض مشهدا من مشاهد القيامة .

والمشهد المعروض هنا مشهد هول تتناول آثاره الناس والجبال . فيبدو الناس في ظله صغارا ضئالا على كثرتهم:فهم (كالفراش المبثوث)مستطارون مستخفون في حيرة الفراش الذي يتهافت على الهلاك , وهو لا يملك لنفسه وجهة , ولا يعرف له هدفا ! وتبدو الجبال التي كانت ثابتة راسخة كالصوف المنفوش تتقاذفه الرياح وتعبث به حتى الأنسام ! فمن تناسق التصوير أن تسمى القيامة بالقارعة , فيتسق الظل الذي يلقيه اللفظ , والجرس الذي تشترك فيه حروفه كلها , مع آثار القارعة في الناس والجبال سواء ! وتلقي إيحاءها للقلب والمشاعر , تمهيدا لما ينتهي إليه المشهد من حساب وجزاء !

(القارعة . ما القارعة ? وما أدراك ما القارعة ?). .

لقد بدأ بإلقاء الكلمة مفردة كأنها قذيفة:(القارعة)بلا خبر ولا صفة . لتلقي بظلها وجرسها الإيحاء المدوي المرهوب !

ثم أعقبها سؤال التهويل:(ما القارعة ?). . فهي الأمر المستهول الغامض الذي يثير الدهش والتساؤل !

وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ (3) يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ (4) وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنفُوشِ (5) فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ (6) فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ (7) وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ (8) فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ (9) وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ (10) نَارٌ حَامِيَةٌ (11)

ثم أجاب بسؤال التجهيل:(وما أدراك ما القارعة ?). . فهي أكبر من أن يحيط بها الإدراك , وأن يلم بها التصور !

ثم الإجابة بما يكون فيها , لا بماهيتها . فماهيتها فوق الإدراك والتصور كما أسلفنا:

(يوم يكون الناس كالفراش المبثوث , وتكون الجبال كالعهن المنفوش). .

هذا هو المشهد الأول للقارعة . مشهد تطير له القلوب شعاعا , وترجف منه الأوصال ارتجافا . ويحس السامع كأن كل شيء يتشبث به في الأرض قد طار حوله هباء ! ثم تجيء الخاتمة للناس جميعا:

(فأما من ثقلت موازينه فهو في عيشة راضية , وأما من خفت موازينه فأمه هاوية . وما أدراك ما هيه ? نار حامية !).

وثقل الموازين وخفتها تفيدنا:قيما لها عند الله اعتبار , وقيما ليس لها عنده اعتبار . وهذا ما يلقيه التعبير بجملته , وهذا - والله أعلم - ما يريده الله بكلماته . فالدخول في جدل عقلي ولفظي حول هذه

التعبيرات هو جفاء للحس القرآني , وعبث ينشئه الفراغ من الاهتمام الحقيقي بالقرآن والإسلام !

(فأما من ثقلت موازينه)في اعتبار الله وتقويمه(فهو في عيشة راضية). . ويدعها مجملة بلا تفصيل , توقع في الحس ظلال الرضى وهو أروح النعيم .

(وأما من خفت موازينه)في اعتبار الله وتقويمه (فأمه هاوية). . والأم هي مرجع الطفل وملاذه . فمرجع القوم وملاذهم يومئذ هو الهاوية ! وفي التعبير أناقة ظاهرة , وتنسيق خاص . وفيه كذلك غموض يمهد لإ يضاح بعده يزيد في عمق الأثر المقصود:

وما أدراك ما هيه ? . .

سؤال التجهيل والتهويل المعهود في القرآن , لإخراج الأمر عن حدود التصور وحيز الإدراك !

ثم يجيء الجواب كنبرة الختام:

نار حامية . .

هذه هي أم الذي خفت موازينه ! أمه التي يفيء إليها ويأوي ! والأم عندها الأمن والراحة . فماذا هو واجد عند أمه هذه . . الهاوية . . النار . . الحامية !!

إنها مفاجأة تعبيرية تمثل الحقيقة القاسية !

أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ (1) حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ (2) كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ (3) ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ (4) كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ (5) لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ (6) ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ (7)

سورة التكاثر

هذه السورة ذات إيقاع جليل رهيب عميق وكأنما هي صوت نذير , قائم على شرف عال . يمد بصوته ويدوي بنبرته . يصيح بنوم غافلين مخمورين سادرين , أشرفوا على الهاوية وعيونهم مغمضة , وحسهم مسحور . فهو يمد بصوته إلى أعلى وأبعد ما يبلغ:

(ألهاكم التكاثر . حتى زرتم المقابر). .

أيها السادرون المخمورون . أيها اللاهون المتكاثرون بالأموال والأولاد وأعراض الحياة وأنتم مفارقون . أيها المخدوعون بما أنتم فيه عما يليه . أيها التاركون ما تتكاثرون فيه وتتفاخرون إلى حفرة ضيقة لا تكاثر فيها ولا تفاخر . . استيقظوا وانظروا . . فقد(ألهاكم التكاثر حتى زرتم المقابر).

ثم يقرع قلوبهم بهول ما ينتظرهم هناك بعد زيارة المقابر في إيقاع عميق رزين:

(كلا سوف تعلمون). . ويكرر هذا الإيقاع بألفاظه وجرسه الرهيب الرصين:

(ثم كلا سوف تعلمون). ثم يزيد التوكيد عمقا ورهبة , وتلويحا بما وراءه من أمر ثقيل , لا يتبينون حقيقته الهائلة في غمرة الخمار والا ستكثار:

(كلا لو تعلمون علم اليقين). . ثم يكشف عن هذه الحقيقة المطوية الرهيبة:

(لترون الجحيم). . ثم يؤكد هذه الحقيقة ويعمق وقعها الرهيب في القلوب:

ثُمّ لَتُسْأَلُنّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النّعِيمِ (8)
(ثم لترونها عين اليقين). .

ثم يلقي بالإيقاع الأخير , الذي يدع المخمور يفيق , والغافل يتنبه , و السادر يتلفت , والناعم يرتعش ويرتجف مما في يديه من نعيم

(ثم لتسألن يومئذ عن النعيم)!

لتسألن عنه من أين نلتموه ? وفيم أنفقتموه ? أمن طاعة وفي طاعة ? أم من معصية وفي معصية ? أمن حلال وفي حلال ? أم من حرام وفي حرام ? هل شكرتم ? هل أديتم ? هل شاركتم ? هل استأثرتم ?

(لتسألن)عما تتكاثرون به وتتفاخرون . . فهو عبء تستخفونه في غمرتكم ولهوكم ولكن وراءه ما وراءه من هم ثقيل !

إنها سورة تعبر بذاتها عن ذاتها . وتلقي في الحس ما تلقي بمعناها وإيقاعها . وتدع القلب مثقلا مشغولا بهم الآخرة عن سفساف الحياة الدنيا وصغائر اهتماماتها التي يهش لها الفارغون !

إنها تصور الحياة الدنيا كالومضة الخاطفة في الشريط الطويل . .(ألهاكم التكاثر حتى زرتم المقابر). . وتنتهي ومضة الحياة الدنيا وتنطوي صفحتها الصغيرة . . ثم يمتد الزمن بعد ذلك وتمتد الأثقال ; ويقوم الأ داء التعبيري ذاته بهذا الإيحاء . فتتسق الحقيقة مع النسق التعبيري

الفريد . .

وما يقرأ الإنسان هذه السورة الجليلة الرهيبة العميقة , بإيقاعاتها الصاعدة الذاهبة في الفضاء إلى بعيد في مطلعها , الرصينة الذاهبة إلى القرار العميق في نهايتها . . حتى يشعر بثقل ما على عاتقه من أعقاب هذه الحياة الوامضة التي يحياها على الأرض ثم يحمل ما يحمل منها ويمضي به مثقلا في الطريق !

ثم ينشئ يحاسب نفسه على الصغير والزهيد !!!

سورة العصر

وَالْعَصْرِ (1) إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ (2)

سورة العصر

في هذه السورة الصغيرة ذات الآيات الثلاث يتمثل منهج كامل للحياة البشرية كما يريدها الإسلام . وتبرز معالم التصور الإيماني بحقيقته الكبيرة الشاملة في أوضح وأدق صورة . إنها تضع الدستور الإسلامي كله في كلمات قصار . وتصف الأمة المسلمة:حقيقتها ووظيفتها . في آية واحدة هي الآية الثالثة من السورة . . وهذا هو الإعجاز الذي لا يقدر عليه إلا الله . .

والحقيقة الضخمة التي تقررها هذه السورة بمجموعها هي هذه:

إنه على امتداد الزمان في جميع الأعصار , وامتداد الإنسان في جميع الأ دهار , ليس هنالك إلا منهج واحد رابح , وطريق واحد ناج . هو ذلك المنهج الذي ترسم السورة حدوده , وهو هذا الطريق الذي تصف السورة معالمه . وكل ما وراء ذلك ضياع وخسار . .

(والعصر , إن الإنسان لفي خسر . إلا الذين آمنوا , وعملوا الصالحات ,

وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر). إنه الإيمان . والعمل الصالح . و التواصي بالحق . والتواصي بالصبر . .

فما الإيمان ? ?

نحن لا نعرف الإيمان هنا تعريفه الفقهي ; ولكننا نتحدث عن طبيعته وقيمته في الحياة .

إنه اتصال هذا الكائن الإنساني الفاني الصغير المحدود بالأصل المطلق ا لأزلي الباقي الذي صدر عنه الوجود . ومن ثم اتصاله بالكون الصادر عن ذات المصدر , وبالنواميس التي تحكم هذا الكون , وبالقوى والطاقات المذخورة فيه . والانطلاق حينئذ من حدود ذاته الصغيرة إلى رحابة الكون الكبير . ومن حدود قوته الهزيلة إلعظمة الطاقات الكونية المجهولة . ومن حدود عمره القصير إلى امتداد الآباد التي لا يعلمها إلا الله .

وفضلا عما يمنحه هذا الاتصال للكائن الإنساني من قوة وامتداد وانطلا ق , فإنه يمنحه إلى جانب هذا كله متاعا بالوجود وما فيه من جمال , ومن مخلوقات تتعاطف أرواحها مع روحه . فإذا الحياة رحلة في مهرجان إلهي مقام للبشر في كل مكان وفي كل أوان . . . وهي سعادة رفيعة , وفرح نفيس , وأنس بالحياة والكون كأنس الحبيب بالحبيب . وهو كسب لا يعدله كسب . وفقدانه خسران لا يعدله خسران . . .

ثم إن مقومات الإيمان هي بذاتها مقومات الإنسانية الرفيعة الكريمة . . .

التعبد لإله واحد , يرفع الإنسان عن العبودية لسواه , ويقيم في نفسه المساواة مع جميع العباد , فلا يذل لأحد , ولا يحني رأسه لغير الواحد القهار . . ومن هنا الانطلاق التحرري الحقيقي للإنسان . الانطلاق الذي ينبثق من الضمير ومن تصور الحقيقة الواقعة في الوجود . إنه ليس هناك إلا قوة واحدة وإلا معبود واحد . فالانطلاق التحرري ينبثق من

هذا التصور انبثاقا ذاتيا , لأنه هو الأمر المنطقي الوحيد .

والربانية التي تحدد الجهة التي يتلقى منها الإنسان تصوراته وقيمه وموازينه واعتباراته وشرائعه وقوانينه , وكل ما يربطه بالله , أو بالوجود , أو بالناس . فينتفي من الحياة الهوى والمصلحة , وتحل محلهما الشريعة والعدالة . وترفع من شعور المؤمن بقيمة منهجه , وتمده بالاستعلاء على تصورات الجاهلية وقيمها واعتباراتها , وعلى القيم المستمدة من الارتباطات الأرضية الواقعة . . ولو كان فردا واحدا , لأنه إنما يواجهها بتصورات وقيم واعتبارات مستمدة من الله مباشرة فهي الأعلى والأقوى والأولى بالاتباع والاحترام .

ووضوح الصلة بين الخالق والمخلوق , وتبين مقام الألوهية ومقام العبودية على حقيقتهما الناصعة , مما يصل هذه الخليقة الفانية بالحقيقة الباقية في غير تعقيد , وبلا وساطة في الطريق . ويودع القلب نورا , والروح طمأنينة , والنفس أنسا وثقة . وينفي التردد والخوف و القلق والاضطراب كما ينفي الاستكبار في الأرض بغير الحق , والاستعلاء على العباد بالباطل والافتراء !

والاستقامة على المنهج الذي يريده الله . فلا يكون الخير فلتة عارضة , ولا نزوة طارئة , ولا حادثة منقطعة . إنما ينبعث عن دوافع , ويتجه إلى هدف , ويتعاون عليه الأفراد المرتبطون في الله , فتقوم الجماعة المسلمة ذات الهدف الواحد الواضح , والراية الواحدة المتميزة . كما تتضامن الأجيال المتعاقبة الموصولة بهذا الحبل المتين .

والاعتقاد بكرامة الإنسان على الله , يرفع من اعتباره في نظر نفسه , ويثير في ضميره الحياء من التدني عن المرتبة التي رفعه الله إليها . وهذا أرفع تصور يتصوره الإنسان لنفسه . . . أنه كريم عند الله . . وكل مذهب أو تصور يحط من قدر الإنسان في نظر نفسه , ويرده إلى منبت حقير , ويفصل بينه وبين الملأ الأعلى . . هو تصور أو مذهب يدعوه إلى التدني والتسفل ولو لم يقل له ذلك صراحة !

ومن هنا كانت إيحاءات الدارونية والفرويدية والماركسية هي أبشع ما تبتلى به الفطرة البشرية والتوجيه الإنساني , فتوحي إلى البشر بأن كل سفالة وكل قذارة وكل حقارة هي أمر طبيعي متوقع , ليس فيه ما يستغرب , ومن ثم ليس فيه ما يخجل . . وهي جناية على البشرية تستحق المقت والازدراء !

ونظافة المشاعر تجيء نتيجة مباشرة للشعور بكرامة الإنسان على الله . ثم برقابة الله على الضمائر واطلاعه على السرائر . وإن الإنسان السوي الذي لم تمسخه إيحاءات فرويد وكارل ماركس وأمثالهما , ليستحيي أن يطلع إنسان مثله على شوائب ضميره وخائنة شعوره . والمؤمن يحس وقع نظر الله - سبحانه - في أطواء حسه إحساسا يرتعش له ويهتز . فأولى أن يطهر حسه هذا وينظفه !

والحاسة الأخلاقية ثمرة طبيعية وحتمية للإيمان بإله عادل رحيم عفو كريم ودود حليم , يكره الشر ويحب الخير . ويعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور .

وهناك التبعة المترتبة على حرية الإرادة وشمول الرقابة , وما تثيره في حس المؤمن من يقظة وحساسية , ومن رزانة وتدبر . وهي ليست تبعة فردية فحسب , إنما هي كذلك تبعة جماعية , وتبعة تجاه الخير في ذاته , وإزاء البشرية جميعا . . أمام الله . . وحين يتحرك المؤمن حركة فهو يحس بهذا كله , فيكبر في عين نفسه , ويقدر نتيجة خطوه قبل أن يمد رجله . . إنه كائن له قيمة في الوجود , وعليه تبعة في نظام هذا الوجود . .

والارتفاع عن التكالب على أعراض الحياة الدنيا - وهو بعض إيحاءات ا لإيمان - واختيار ما عند الله , وهو خير وأبقى . (وفي ذلك فليتنافس المتنافسون) . والتنافس على ما عند الله يرفع ويطهر وينظف . . يساعد على هذا سعة المجال الذي يتحرك فيه المؤمن . . بين الدنيا والآ خرة , والأرض والملأ الأعلى . مما يهدئ في نفسه القلق على النتيجة و

العجلة على الثمرة . فهو يفعل الخير لأنه الخير , ولأن الله يريده , ولا عليه ألا يدر الخير خيرا على مشهد من عينيه في عمره الفردي المحدود . فالله الذي يفعل الخير ابتغاء وجهه لا يموت - سبحانه - ولا ينسى , ولا يغفل شيئا من عمله . والأرض ليست دار جزاء . والحياة الدنيا ليست نهاية المطاف . ومن ثم يستمد القدرة على مواصلة الخير من هذا الينبوع الذي لا ينضب . وهذا هو الذي يكفل أن يكون الخير منهجا موصولا , لا دفعة طارئة , ولا فلتة مقطوعة . وهذا هو الذي يمد المؤمن بهذه القوة الهائلة التي يقف بها في وجه الشر . سواء تمثل في طغيان طاغية , أو في ضغط الاعتبارات الجاهلية , أو في اندفاع نزواته هو وضغطها على إرادته . هذا الضغط الذي ينشأ أول ما ينشأ من شعور الفرد بقصر عمره عن استيعاب لذائذه وتحقيق أطماعه , وقصره كذلك عن رؤية النتائج البعيدة للخير , وشهود انتصار الحق على الباطل ! والإ يمان يعالج هذا الشعور علاجا أساسيا كاملا .

إن الإيمان هو أصل الحياة الكبير , الذي ينبثق منه كل فرع من فروع الخير , وتتعلق به كل ثمرة من ثماره , وإلا فهو فرع مقطوع من شجرته , صائر إلى ذبول وجفاف . وإلا فهي ثمرة شيطانية , وليس لها امتداد أو دوام !

وهو المحور الذي تشد إليه جميع خيوط الحياة الرفيعة . وإلا فهي مفلتة لا تمسك بشيء , ذاهبة بددا مع الأهواء والنزوات . .

وهو المنهج الذي يضم شتات الأعمال , ويردها إلى نظام تتناسق معه وتتعاون , وتنسلك في طريق واحد , وفي حركة واحدة , لها دافع معلوم , ولها هدف مرسوم . .

ومن ثم يهدر القرآن قيمة كل عمل لا يرجع إلى هذا الأصل , ولا يشد إلى هذا المحور , ولا ينبع من هذا المنهج . والنظرية الإسلامية صريحة في هذا كل الصراحة . . جاء في سورة إبراهيم: (مثل الذين كفروا بربهمأعمالهم كرماد اشتدت به الريح في يوم عاصف . لا يقدرون مما

كسبوا على شيء) . وجاء في سورة النور: (والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء , حتى إذا جاءه لم يجده شيئا) . وهي نصوص صريحة في إهدار قيمة العمل كله , ما لم يستند إلى الإ يمان , الذي يجعل له دافعا موصولا بمصدر الوجود , وهدفا متناسقا مع غاية الوجود . وهذه هي النظرة المنطقية لعقيدة ترد الأمور كلها إلى الله . فمن انقطع عنه فقد انقطع وفقد حقيقة معناه .

إن الإيمان دليل على صحة الفطرة وسلامة التكوين الإنساني , وتناسقه مع فطرة الكون كله , ودليل التجاوب بين الإنسان والكون من حوله . فهو يعيش في هذا الكون , وحين يصح كيانه لا بد أن يقع بينه وبين هذا الكون تجاوب . ولا بد أن ينتهي هذا التجاوب إلى الإيمان , بحكم ما في الكون ذاته من دلائل وإيحاءات عن القدرة المطلقة التي أبدعته على هذا النسق . فإذا فقد هذا التجاوب أو تعطل , كان هذا بذاته دليلا على خلل ونقص في الجهاز الذي يتلقى , وهو هذا الكيان الإنساني . وكان هذا دليل فساد لا يكون معه إلا الخسران . ولا يصح معه عمل ولو كان في ظاهره مسحة من الصلاح .

وإن عالم المؤمن من السعة والشمول والامتداد والارتفاع والجمال و السعادة بحيث تبدو إلى جانبه عوالم غير المؤمنين صغيرة ضئيلة هابطة هزيلة شائهة شقية . . خاسرة أي خسران !

والعمل الصالح وهو الثمرة الطبيعية للإيمان , والحركة الذاتية التي تبدأ في ذات اللحظة التي تستقر فيها حقيقة الإيمان في القلب . فالإيمان حقيقة إيجابية متحركة . ما أن تستقر في الضمير حتى تسعى بذاتها إلى تحقيق ذاتها في الخارج في صورة عمل صالح . . هذا هو الإيمان الإ سلامي . . لا يمكن أن يظل خامدا لا يتحرك , كامنا لا يتبدى في صورة حية خارج ذات المؤمن . . فإن لم يتحرك هذه الحركة الطبيعية فهو مزيف أو ميت . شأنه شأن الزهرة لا تمسك أريجها . فهو ينبعث منها انبعاثا طبيعيا . وإلا فهو غير موجود !

ومن هنا قيمة الإيمان . . إنه حركة وعمل وبناء وتعمير . . يتجه إلى الله . . إنه ليس انكماشا وسلبية وانزواء في مكنونات الضمير . وليس مجرد النوايا الطيبة التي لا تتمثل في حركة وهذه طبيعة الإسلام البارزة التي تجعل منه قوة بناء كبرى في صميم الحياة .

وهذا مفهوم ما دام الإيمان هو الارتباط بالمنهج الرباني . وهذا المنهج حركة دائمة متصلة في صميم الوجود . صادرة عن تدبير , متجهة إلى غاية . وقيادة الإيمان للبشرية هي قيادة لتحقيق منهج الحركة التي هي طبيعة الوجود . الحركة الخيرة النظيفة البانية المعمرة اللائقة بمنهج يصدر عن الله .

أما التواصي بالحق والتواصي بالصبر فتبرز من خلالها صورة الأمة المسلمة - أو الجماعة المسلمة - ذات الكيان الخاص , والرابطة المميزة , والوجهة الموحدة . الجماعة التي تشعر بكيانها كما تشعر بواجبها . و التي تعرف حقيقة ما هي مقدمة عليه من الإيمان والعمل الصالح , الذي يشمل فيما يشمل قيادة البشرية في طريق الإيمان والعملالصالح ; فتتواصى فيما بينها بما يعينها على النهوض بالأمانة الكبرى .

فمن خلال لفظ التواصي ومعناه وطبيعته وحقيقته تبرز صورة الأمة - أو الجماعة - المتضامة المتضامنة . الأمة الخيرة . الواعية . القيمة في ا لأرض على الحق والعدل والخير . . وهي أعلى وأنصع صورة للأمة المختارة . . وهكذا يريد الإسلام أمة الإسلام . . هكذا يريدها أمة خيرة قوية واعية قائمة على حراسة الحق والخير , متواصية بالحق والصبر في مودة وتعاون وتآخ تنضح بها كلمة التواصي في القرآن . .

والتواصي بالحق ضرورة . فالنهوض بالحق عسير . والمعوقات عن الحق كثيرة:هوى النفس , ومنطق المصلحة , وتصورات البيئة . وطغيان الطغاة , وظلم الظلمة , وجور الجائرين . . والتواصي تذكير وتشجيع وإشعار بالقربى في الهدف والغاية , والأخوة في العبء والأمانة . فهو مضاعفة لمجموع الاتجاهات الفردية , إذ تتفاعل معا فتتضاعف .

تتضاعف بإحساس كل حارس للحق أن معه غيره يوصيه ويشجعه ويقف معه ويحبه ولا يخذله . . وهذا الدين - وهو الحق - لا يقوم إلا في حراسة جماعة متعاونة متواصية متكافلة متضامنة على هذا المثال .

والتواصي بالصبر كذلك ضرورة . فالقيام على الإيمان والعمل الصالح , وحراسة الحق والعدل , من أعسر ما يواجه الفرد والجماعة . ولا بد من الصبر . لا بد من الصبر على جهاد النفس , وجهاد الغير , والصبر على الأذى والمشقة . والصبر على تبجح الباطل وتنفج الشر . والصبر على طول الطريق وبطء المراحل , وانطماس المعالم , وبعد النهاية !

والتواصي بالصبر يضاعف المقدرة , بما يبعثه من إحساس بوحدة الهدف , ووحدة المتجه , وتساند الجميع , وتزودهم بالحب والعزم والاصرار . . إلى آخر ما يثيره من معاني الجماعة التي لا تعيش حقيقة الإسلام إلا في جوها , ولا تبرز إلا من خلالها . . وإلا فهو الخسران والضياع .

وننظر اليوم من خلال هذا الدستور الذي يرسمه القرآن لحياة الفئة الرابحة الناجية من الخسران , فيهولنا أن نرى الخسر يحيق بالبشرية في كل مكان على ظهر الأرض بلا استثناء . يهولنا هذا الضياع الذي تعانيه البشرية في الدنيا - قبل الآخرة - يهولنا أن نرى إعراض البشرية ذلك الإعراض البائس عن الخير الذي أفاضه الله عليها ; مع فقدان السلطة الخيرة المؤمنة القائمة على الحق في هذه الأرض . . هذا و المسلمون - أو أصحاب دعوى الإسلام بتعبير أدق - هم أبعد أهل الأرض عن هذا الخير , وأشدهم إعراضا عن المنهج الإلهي الذي اختاره الله لهم , وعن الدستور الذي شرعه لأمتهم , وعن الطريق الوحيد الذي رسمه للنجاة من الخسران والضياع . والبقاع التي انبعث منها هذا الخير أول مرة تترك الراية التي رفعها لها الله , راية الإيمان , لتتعلق برايات عنصرية لم تنل تحتها خيرا قط في تاريخها كله . لم يكن لها تحتها ذكر في الأرض ولا في السماء . حتى جاء الإسلام فرفع لها هذه الراية المنتسبة لله , لا شريك له , المسماة باسم الله لا شريك له , الموسومة

بميسم الله لا شريك له . . الراية التي انتصر العرب تحتها وسادوا وقادوا البشرية قيادة خيرة قوية واعية ناجية لأول مرة في تاريخهم وفي تاريخ البشرية الطويل . .

يقول الأستاذ أبو الحسن الندوي في كتابه القيم:"ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ? " . . عن هذه القيادة الخيرة الفذة في التاريخ كله , وتحت عنوان "عهد القيادة الإسلامية ":"الأئمة المسلمون وخصائصهم":

"ظهر المسلمون , وتزعموا العالم , وعزلوا الأمم المزيفة من زعامة الإ نسانية التي استغلتها وأساءت عملها ,وساروا بالإنسانية سيرا حثيثا متزنا عادلا , وقد توفرت فيهم الصفات التي تؤهلهم لقيادة الأمم , وتضمن سعادتها وفلاحها في ظلهم وتحت قيادتهم . " أولا:أنهم أصحاب كتاب منزل وشريعة إلهية , فلا يقننون ولا يشترعون من عند أنفسهم . لأن ذلك منبع الجهل والخطأ والظلم , ولا يخبطون في سلوكهم وسياستهم ومعاملتهم للناس خبط عشواء , وقد جعل الله لهم نورا يمشون به في الناس , وجعل لهم شريعة يحكمون بها الناس (أو من كان ميتا فأحييناه وجعلنا له نورا يمشي به في الناس كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها ?)وقد قال الله تعالى:(يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط , ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا . اعدلوا هو أقرب للتقوى , واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون).

ثانيا:- أنهم لم يتولوا الحكم والقيادة بغير تربية خلقية وتزكية نفس , بخلاف غالب الأمم والأفراد ورجال الحكومة في الماضي والحاضر , بل مكثوا زمنا طويلا تحت تربية محمد [ص] وإشرافه الدقيق , يزكيهم ويؤدبهم , ويأخذهم بالزهد والورع والعفاف والأمانة والإيثار وخشية الله , وعدم الاستشراف للإمارة والحرص عليها . يقول:" إنا والله لا نولي هذا العمل أحدا سأله , أو أحدا حرص عليه " .

ولا يزال يقرع سمعهم:(تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا

في الأرض ولا فسادا والعاقبة للمتقين). . فكانوا لا يتهافتون على الوظائف والمناصب , فضلا عن أن يرشحوا أنفسهم للإمارة , ويزكوا أنفسهم , وينشروا دعاية لها , وينفقوا الأموال سعيا وراءها . فإذا تولوا شيئا من أمور الناس لم يعدوه مغنما أو طعمة أو ثمنا لما أنفقوا من مال أو جهد ; بل عدوه أمانة في عنقهم , وامتحانا من الله ; ويعلمون أنهم موقوفون عند ربهم , ومسؤولون عن الدقيق والجليل , وتذكروا دائما قول الله تعالى: (إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها , وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل). . وقوله . . (وهو الذي جعلكم خلائف الأرض , ورفع بعضكم فوق بعض درجات , ليبلوكم فيما آتاكم). .

"ثالثا:أنهم لم يكونوا خدمة جنس , ورسل شعب أو وطن , يسعون لرفاهيته ومصلحته وحده , ويؤمنون بفضله وشرفه على جميع الشعوب والأوطان , لم يخلقوا إلا ليكونوا حكاما , ولم تخلق إلا لتكون محكومة لهم . ولم يخرجوا ليؤسسوا إمبراطورية عربية ينعمون ويرتعون في ظلها , ويشمخون ويتكبرون تحت حمايتها , ويخرجون الناس من حكم الروم والفرس إلى حكم العرب وإلى حكم أنفسهم ! إنما قاموا ليخرجوا الناس من عبادة العباد جميعا إلى عبادة الله وحده . كما قال ربعي بن عامر رسول المسلمين في مجلس يزدجرد:الله ابتعثنا لنخرج الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده , ومن ضيق الدنيا إلى سعتها , ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام .

فالأمم عندهم سواء , والناس عندهم سواء . الناس كلهم من آدم , وآدم من تراب . لا فضل لعربي على عجمي , ولا لعجمي على عربي إلا بالتقوى: (يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا , إن أكرمكم عند الله أتقاكم).

وقد قال عمر بن الخطاب لعمرو بن العاص عامل مصر - وقد ضرب ابنه مصريا وافتخر بآبائه قائلا:خذها من ابن الأكرمين . فاقتص منه عمر -:متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أحرارا أمهاتهم ? فلم يبخل هؤلا

ءبما عندهم من دين وعلم وتهذيب على أحد , ولم يراعوا في الحكم وا لإمارة والفضل نسبا ولونا ووطنا , بل كانوا سحابة انتظمت البلاد وعمت العباد , وغوادي مزنة أثنى عليها السهل والوعر , وانتفعت بها البلاد و العباد على قدر قبولها وصلاحها .

في ظل هؤلاء وتحت حكمهم استطاعت الأمم والشعوب - حتى المضطهدة منها في القديم - أن تنال نصيبها من الدين والعلم والتهذيب والحكومة , وأن تساهم العرب في بناء العالم الجديد , بل إن كثيرا من أفرادها فاقوا العرب في بعض الفضائل , وكان منهم أئمة هم تيجان مفارق العرب وسادة المسلمين من الأئمة والفقهاء والمحدثين . .

"رابعا:إن الإنسان جسم وروح , وهو ذو قلب وعقل وعواطف وجوارح , لا يسعد ولا يفلح ولا يرقى رقيا متزنا عادلا حتى تنمو فيه هذه القوى كلها نموا متناسبا لائقا بها , ويتغذى غذاء صالحا , ولا يمكن أن توجد المدنية الصالحة البتة إلا إذا ساد وسط ديني خلقي عقلي جسدي يمكن فيه للإنسان بسهولة أن يبلغ كماله الإنساني . وقد أثبتت التجربة أنه لا يكون ذلك إلا إذا مكنت قيادة الحياة وإدارة دفة المدنية بين الذين يؤمنون بالروح والمادة , ويكونون أمثلة كاملة في الحياة الدينية و الخلقية , وأصحاب عقول سليمة راجحة , وعلوم صحيحة نافعة " . . .

إلى أن يقول تحت عنوان:"دور الخلافة الراشدة مثل المدنية الصالحة ":

"وكذلك كان , فلم نعرف دورا من أدوار التاريخ أكمل وأجمل وأزهر في جميع هذه النواحي من هذا الدور - دور الخلافة الراشدة - فقد تعاونت فيه قوة الروح والأخلاق والدين والعلم والأدوات المادية في تنشئة الإ نسان الكامل . وفي ظهور المدنية الصالحة . . كانت حكومة من أكبر حكومات العالم , وقوة سياسية مادية تفوق كل قوة في عصرها , تسود فيها المثل الخلقية العليا , وتحكم معايير الأخلاق الفاضلة في حياة الناس ونظام الحكم , وتزدهر فيها الأخلاق والفضيلة مع التجارة و الصناعة , ويساير الرقي الخلقي والروحي اتساع الفتوح واحتفال

الحضارة , فتقل الجنايات , وتندر الجرائم بالنسبة إلى مساحة المملكة وعدد سكانها ورغم دواعيها وأسبابها , وتحسن علاقة الفرد بالفرد , و الفرد بالجماعة , وعلاقة الجماعة بالفرد . وهو دور كمالي لم يحلم الإ نسان بأرقى منه , ولم يفترض المفترضون أزهى منه . . " .

هذه بعض ملامح تلك الحقبة السعيدة التي عاشتها البشرية في ظل الدستور الإسلامي الذي تضع "سورة العصر" قواعده , وتحت تلك الراية الإيمانية التي تحملها جماعة الإيمان والعمل الصالح والتواصي بالحق و التواصي بالصبر .

فأين منها هذا الضياع التي تعانيه البشرية اليوم في كل مكان , والخسار الذي تبوء به في معركة الخير والشر , والعماء عن ذلك الخير الكبير الذي حملته الأمة العربية للبشر يوم حملت راية الإسلام فكانت لها القيادة . ثم وضعت هذه الراية فإذا هي في ذيل القافلة . وإذا القافلة كلها تعطو إلى الضياع والخسار . وإذا الرايات كلها بعد ذلك للشيطان ليس فيها راية واحدة لله . وإذا هي كلها للباطل ليس فيها راية واحدة للحق . وإذا هي كلها للعماء والضلال ليس فيها راية واحدة للهدى والنور , وإذا هى كلها للخسار ليس فيها راية واحدة للفلاح ! وراية الله ما تزال . وإنها لترتقب اليد التي ترفعها والأمة التي تسير تحتها إلى الخير والهدى و الصلاح والفلاح .

ذلك شأن الربح والخسر في هذه الأرض . وهو على عظمته إذا قيس بشأن الآخرة صغير . وهناك . هناك

إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ (3)

الربح الحق والخسر الحق . هناك في الأمد الطويل , وفي الحياة الباقية , وفي عالم الحقيقة , هناك الربح والخسر:ربح الجنة والرضوان ,

أو خسر الجنة والرضوان . هناك حيث يبلغ الإنسان أقصى الكمال المقدر له , أو يرتكس فتهدر آدميته , وينتهي إلى أن يكون حجرا في القيمة ودون الحجر في الراحة:

(يوم ينظر المرء ما قدمت يداه ويقول الكافر:يا ليتني كنت ترابا). .

وهذه السورة حاسمة في تحديد الطريق . . إنه الخسر . .(إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات , وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر). . طريق واحد لا يتعدد . طريق الإيمان والعمل الصالح وقيام الجماعة المسلمة , التي تتواصى بالحق وتتواصى بالصبر . وتقوم متضامنة على حراسة الحق مزودة بزاد الصبر .

إنه طريق واحد . ومن ثم كان الرجلان من أصحاب رسول الله [ص] إذا التقيا لم يتفرقا حتى يقرأ أحدهما على الآخر سورة "العصر" ثم يسلم أحدهما على الآخر . . لقد كانا يتعاهدان على هذا الدستور الإلهي , يتعاهدان على الإيمان والصلاح , ويتعاهدان على التواصي بالحق و التواصي بالصبر . ويتعاهدان على أنهما حارسان لهذا الدستور . ويتعاهدان على أنهما من هذه الأمة القائمة على هذا الدستور . .

سورة الهمزة

وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ (1) الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ (2) يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ (3) كَلَّا لَيُنبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ (4) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ (5) نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ (6) الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ (7) إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ (8) فِي عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ (9)

سورة الهمزة

تعكس هذه السورة صورة من الصور الواقعية في حياة الدعوة في عهدها الأول . وهي في الوقت ذاته نموذج يتكرر في كل بيئة . . صورة

اللئيم الصغير النفس , الذي يؤتى المال فتسيطر نفسه به , حتى ما يطيق نفسه ! ويروح يشعر أن المال هو القيمة العليا في الحياة . القيمة التي تهون أمامها جميع القيم وجميع الأقدار:أقدار الناس . وأقدار المعاني . وأقدار الحقائق . وأنه وقد ملك المال فقد ملك كرامات الناس وأقدارهم بلا حساب !

كما يروح يحسب أن هذا المال إله قادر على كل شيء ; لا يعجز عن فعل شيء ! حتى دفع الموت وتخليد الحياة . ودفع قضاء الله وحسابه وجزائه إن كان هناك في نظره حساب وجزاء !

ومن ثم ينطلق في هوس بهذا المال يعده ويستلذ تعداده ; وتنطلق في كيانه نفخة فاجرة , تدفعه إلى الاستهانة بأقدار الناس وكراماتهم . ولمزهم وهمزهم . . يعيبهم بلسانه ويسخر منهم بحركاته . سواء بحكاية حركاتهم وأصواتهم , أو بتحقير صفاتهم وسماتهم . . بالقول والإشارة . بـ الغمز واللمز . باللفتة الساخرة والحركة الهازئة !

وهي صورة لئيمة حقيرة من صور النفس البشرية حين تخلو من المروءة وتعرى من الإيمان . والإسلام يكره هذه الصورة الهابطة من صور النفوس بحكم ترفعه الأخلاقي . وقد نهى عن السخرية واللمز و العيب في مواضع شتى . إلا أن ذكرها هنا بهذا التشنيع والتقبيح مع الوعيد والتهديد , يوحي بأنه كان يواجه حالة واقعية من بعض المشركين تجاه رسول الله [ص] وتجاه المؤمنين . . فجاء الرد عليها في صورة الردع الشديد , والتهديد الرعيب . وقد وردت روايات بتعيين بعض الشخصيات . ولكنها ليست وثيقة . فنكتفي نحن بما قررناه عنها .
.

والتهديد يجيء في صورة مشهد من مشاهد القيامة يمثل صورة للعذاب مادية ونفسية , وصورة للنار حسية ومعنوية . وقد لوحظ فيها التقابل بين الجرم وطريقة الجزاء وجو العقاب . فصورة الهمزة اللمزة , الذي يدأب على الهزء بالناس وعلى لمزهم في أنفسهم وأعراضهم , وهو يجمع

المال فيظنه كفيلا بالخلود ! صورة هذا المتعالي الساخر المستقوي بـ المال , تقابلها صورة "المنبوذ" المهمل المتردي في(الحطمة)التي تحطم كل ما يلقى إليها , فتحطم كيانه وكبرياءه . وهي(نار الله الموقدة)وإضافتها لله وتخصيصها هكذا يوحي بأنها نار فذة , غير معهودة , ويخلع عليها رهبة مفزعة رعيبة . وهي(تطلع)على فؤاده الذي ينبعث منه الهمز واللمز , وتكمن فيه السخرية والكبرياء والغرور . . وتكملة لصورة المحطم المنبوذ المهمل . . هذه النار مغلقة عليه , لا ينقذه منها أحد , ولا يسأل عنه فيها أحد ! وهو موثق فيها إلى عمود كما توثق البهائم بلا احترام ! وفي جرس الألفاظ تشديد: عدده . كلا . لينبذن . تطلع . ممددة وفي معاني العبارات توكيد بشتى أساليب التوكيد: (لينبذن في الحطمة . وما أدراك ما الحطمة ? نار الله الموقدة . .)فهذا الإجمال والإبهام . ثم سؤال الاستهوال . ثم الإجابة والبيان . . كلها من أساليب التوكيد والتضخيم . . وفي التعبير تهديد (ويل . لينبذن . الحطمة . . . نار الله الموقدة . التي تطلع على الأفئدة . إنها عليهم مؤصدة . في عمد ممددة). .

وفي ذلك كله لون من التناسق التصويري والشعوري يتفق مع فعلة(الهمزة اللمزة)!

لقد كان القرآن يتابع أحداث الدعوة ويقودها في الوقت ذاته . وكان هو السلاح البتار الصاعق الذي يدمر كيد الكائدين , ويزلزل قلوب الأعداء ويثبت أرواح المؤمنين .

وإنا لنرى في عناية الله سبحانه بالرد على هذه الصورة معنيين كبيرين:

الأول:تقبيح الهبوط الأخلاقي وتبشيع هذه الصورة الهابطة من النفوس .

والثاني:المنافحة عن المؤمنين وحفظ نفوسهم من أن تتسرب إليها مهانة الإهانة , وإشعارهم بأن الله يرى ما يقع لهم , ويكرهه , ويعاقب

عليه . . وفي هذا كفاية لرفع أرواحهم واستعلائها على الكيد اللئيم . . .

سورة الفيل

أَلَمْ ترَ كيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأصْحَابِ الفِيلِ (1) أَلَمْ يَجْعَلْ كيْدَهُمْ فِي تضْلِيلٍ (2) وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْراً أَبَابِيلَ (3) ترْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ (4) فَجَعَلَهُمْ كعَصْفٍ مَّأكُولٍ (5)

سورة الفيل

تعريف بسورة الفيل

تشير هذه السورة إلى حادث مستفيض الشهرة في حياة الجزيرة العربية قبل البعثة , عظيم الدلالة على رعاية الله لهذه البقعة المقدسة التي اختارها الله لتكون ملتقى النور الأخير , ومحضن العقيدة الجديدة , والنقطة التي تبدأ منها زحفها المقدس لمطاردة الجاهلية في أرجاء الأرض , وإقرار الهدى والحق والخير فيها . .

وجملة ما تشير إليها الروايات المتعددة عن هذا الحادث , أن الحاكم الحبشي لليمن - في الفترة التي خضعت فيها اليمن لحكم الحبشة بعد طرد الحكم الفارسي منها - وتسميه الروايات:"أبرهة " , كان قد بنى كنيسة في اليمن باسم ملك الحبشة وجمع لها كل أسباب الفخامة , على نية أن يصرف بها العرب عن البيت الحرام في مكة , وقد رأى مبلغ انجذاب أهل اليمن الذين يحكمهم إلى هذا البيت , شأنهم شأن بقية العرب في وسط الجزيرة وشماليها كذلك . وكتب إلى ملك الحبشة بهذه النية . .

ولكن العرب لم ينصرفوا عن بيتهم المقدس , فقد كانوا يعتقدون أنهم

أبناء إبراهيم وإسماعيل صاحبي هذا البيت , وكان هذا موضع اعتزازهم على طريقتهم بالفخر والأنساب . وكانت معتقداتهم - على تهافتها - أفضل في نظرهم من معتقدات أهل الكتاب من حولهم , وهم يرون ما فيها من خلل واضطراب وتهافت كذلك .

عندئذ صح عزم "أبرهة " على هدم الكعبة ليصرف الناس عنها ; وقاد جيشا جرارا تصاحبه الفيلة , وفي مقدمتها فيل عظيم ذو شهرة خاصة عندهم . فتسامع العرب به وبقصده . وعز عليهم أن يتوجه لهدم كعبتهم . فوقف في طريقه رجل من أشراف أهل اليمن وملوكهم يقال له ذو نفر , فدعا قومه ومن أجابه من سائر العرب إلى حرب أبرهة وجهاده عن البيت الحرام , فأجابه إلى ذلك من أجابه . ثم عرض له فقاتله , ولكنه هزم وأخذه أبرهة أسيرا .

ثم وقف له في الطريق كذلك نفيل ابن حبيب الخثعمي في قبيلتين من العرب ومعهما عرب كثير , فهزمهم كذلك وأسر نفيلا , الذي قبل أن يكون دليله في أرض العرب .

حتى إذا مر بالطائف خرج إليه رجال من ثقيف فقالوا له:إن البيت الذي يقصده ليس عندهم إنما هو في مكة . وذلك ليدفعوه عن بيتهم الذي بنوه للات ! وبعثوا معه من يدله على الكعبة !

فلما كان أبرهة بالمغمس بين الطائف ومكة , بعث قائدا من قواده حتى انتهى إلى مكة فساق إليه أموال تهامة من قريش وغيرهم , فأصاب فيها مائتي بعير لعبد المطلب بن هاشم , وهو يومئذ كبير قريش وسيدها . فهمت قريش وكنانة وهذيل ومن كان بذلك الحرم بقتاله . ثم عرفوا أنهم لا طاقة لهم به فتركوا ذلك .

وبعث أبرهة رسولا إلى مكة يسأل عن سيد هذا البلد , ويبلغه أن الملك لم يأت لحربهم وإنما جاء لهدم هذا البيت , فإن لم يتعرضوا له فلا حاجة له في دمائهم ! فإذا كان سيد البلد لا يريد الحرب جاء به إلى

الملك . . فلما كلم عبد المطلب فيما جاء به قال له:والله ما نريد حربه وما لنا بذلك من طاقة . هذا بيت الله الحرام . وبيت خليله إبراهيم عليه السلام . . فإن يمنعه منه فهو بيته وحرمه , وإن يخل بينه وبينه فوالله ما عندنا دفع عنه . . فانطلق معه إلى أبرهة . .

قال ابن إسحاق:وكان عبد المطلب أوسم الناس وأجملهم وأعظمهم . فلما رآه أبرهة أجله وأعظمه , وأكرمه عن أن يجلسه تحته , وكره أن تراه الحبشة يجلس معه على سرير ملكه . فنزل أبرهة عن سريره , فجلس على بساطه وأجلسه معه إلى جانبه . ثم قال لترجمانه:قل له:ما حاجتك ? فقال:حاجتي أن يرد علي الملك مائتي بعير أصابها لي . فلما قال ذلك , قال أبرهة لترجمانه:قل له:قد كنت أعجبتني حين رأيتك , ثم قد زهدت فيك حين كلمتني ! أتكلمني في مئتي بعير أصبتها لك وتترك بيتا هو دينك ودين آبائك قد جئت لهدمه لا تكلمني فيه ? قال له عبد المطلب:إني أنا رب الإبل . وإن للبيت رب سيمنعه . قال:ما كان ليمتنع مني . قال:أنت وذاك ! . . فرد عليه إبله .

ثم انصرف عبد المطلب إلى قريش فأخبرهم الخبر , وأمرهم بالخروج من مكة , والتحرز في شعف الجبال . ثم قام فأخذ بحلقة باب الكعبة , وقام معه نفر من قريش يدعون الله ويستنصرونه . وروي عن عبد المطلب أنه أنشد:

لاهم إن العبد يمنع رحله فامنع رحالك .

لا يغلبن صليبهم ومحالهم أبدا محالك

إن كنت تاركهم وقبلتنا فأمر ما بدا لك !

فأما أبرهة فوجه جيشه وفيله لما جاء له . فبرك الفيل دون مكة لا يدخلها , وجهدوا في حمله على اقتحامها فلم يفلحوا . وهذه الحادثة ثابتة بقول رسول الله [ص] يوم الحديبية حين بركت ناقته القصواء دون مكة , فقالوا:خلأت القصواء [أي حرنت] فقال رسول الله [ص] "

ما خلأت القصواء , وما ذاك لها بخلق , ولكن حبسها حابس الفيل . . " وفي الصحيحين أن رسول الله [ص] قال يوم فتح مكة:" إن الله حبس عن مكة الفيل وسلط عليها رسوله والمؤمنين , وإنه قد عادت حرمتها اليوم كحرمتها بالأمس , ألا فليبلغ الشاهد الغائب " , فهي حادثة ثابتة أنه قد حبس الفيل عن مكة في يوم الفيل . .

ثم كان ما أراده الله من إهلاك الجيش وقائده , فأرسل عليهم جماعات من الطير تحصبهم بحجارة من طين وحجر , فتركتهم كأوراق الشجر الجافة الممزقة . كما يحكي عنهم القرآن الكريم . . وأصيب أبرهة في جسده ,وخرجوا به معهم يسقط أنملة أنملة , حتى قدموا به صنعاء , فما مات حتى انشق صدره عن قلبه كما تقول الروايات . .

وتختلف الروايات هنا في تحديد نوع هذه الجماعات من الطير , وأشكالها , وأحجامها , وأحجام هذه الحجارة ونوعها وكيفية فعلها . كما أن بعضها يروي أن الجدري والحصبة ظهرا في هذا العام في مكة .

ويرى الذين يميلون إلى تضييق نطاق الخوارق والغيبيات , وإلى رؤية السنن الكونية المألوفة تعمل عملها , أن تفسير الحادث بوقوع وباء الجدري والحصبة أقرب وأولى . وأن الطير قد تكون هي الذباب و البعوض التي تحمل الميكروبات , فالطير هو كل ما يطير .

قال الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده في تفسيره للسورة في جزء عم:

"وفي اليوم الثاني فشا في جند الجيش داء الجدري والحصبة . . قال عكرمة:وهو أول جدري ظهر ببلاد العرب . وقال يعقوب بن عتبة فيما حدث:إن أول ما رؤيت الحصبة والجدري ببلاد العرب ذلك العام . وقد فعل الوباء بأجسامهم ما يندر وقوع مثله . فكان لحمهم يتناثر ويتساقط فذعر الجيش وصاحبه وولوا هاربين , وأصيب الجيش , ولم يزل يسقط لحمه قطعة قطعة , وأنملة أنملة حتى انصدع صدره ومات في صنعاء" .

"هذا أول ما اتفقت عليه الروايات , ويصح الاعتقاد به . وقد بينت لنا

هذه السورة الكريمة أن ذلك الجدري أو تلك الحصبة نشأت من حجارة يابسة سقطت على أفراد الجيش بواسطة فرق عظيمة من الطير مما يرسله الله مع الريح" .

"فيجوز لك أن تعتقد أن هذا الطير من جنس البعوض أو الذباب الذي يحمل جراثيم بعض الأمراض , وأن تكون هذه الحجارة من الطين المسموم اليابس الذي تحمله الرياح فيعلق بأرجل هذه الحيوانات , فإذا اتصل بجسد دخل في مسامه , فأثار فيه تلك القروح التي تنتهي بإفساد الجسم وتساقط لحمه . وأن كثيرا من هذه الطيور الضعيفة يعد من أعظم جنود الله في إهلاك من يريد إهلاكه من البشر , وأن هذا الحيوان الصغير - الذي يسمونه الآن بالمكروب - لا يخرج عنها . وهو فرق وجماعات لا يحصي عددها إلا بارئها . . ولا يتوقف ظهور أثر قدرة الله تعالى في قهر الطاغين , على أن يكون الطير في ضخامة رؤوس الجبال , ولا على أن يكون من نوع عنقاء مغرب , ولا على أن يكون له ألوان خاصة به , ولا على معرفة مقادير الحجارة وكيفية تأثيرها . . فلله جند من كل شيء " .

وفي كل شيء له آية تدل على أنه الواحد

"وليست في الكون قوة إلا وهي خاضعة لقوته . فهذا الطاغية الذي أراد أن يهدم البيت , أرسل الله عليه من الطير ما يوصل إليه مادة الجدري أو الحصبة , فأهلكته وأهلكت قومه , قبل أن يدخل مكة . وهي نعمة غمر الله بها أهل حرمه - على وثنيتهم - حفظا لبيته , حتى يرسل من يحميه بقوة دينه [ص] وإن كانت نعمة من الله حلت بأعدائه أصحاب الفيل الذين أرادوا الاعتداء على البيت دون جرم اجترمه , ولا ذنب اقترفه" .

"هذا ما يصح الاعتماد عليه في تفسير السورة . وما عدا ذلك فهو مما لا يصح قبوله إلا بتأويل , إن صحت روايته . ومما تعظم به القدرة أن يؤخذ من استعز بالفيل - وهو أضخم حيوان من ذوات الأربع جسما - ويهلك , بحيوان صغير لا يظهر للنظر , ولا يدرك بالبصر , حيث ساقه

القدر . لا ريب عند العاقل أن هذا أكبر وأعجب وأبهر !! " .

ونحن لا نرى أن هذه الصورة التي افترضها الاستاذ الإمام - صورة الجدري أو الحصبة من طين ملوث بالجراثيم - أو تلك التي جاءت بها بعض الروايات من أن الحجارة ذاتها كانت تخرق الرؤوس والأجسام وتنفذ منها وتمزق الأجساد فتدعها كفتات ورق الشجر الجاف وهو(العصف). . لا نرى أن هذه الصورة أو تلك أدل على قدرة الله , ولا أولى بتفسير الحادث . فهذه كتلك في نظرنا من حيث إمكان الوقوع . ومن حيث الدلالة على قدرة الله وتدبيره , ويستوي عندنا أن تكون السنة المألوفة للناس , المعهودة المكشوفة لعلمهم هي التي جرت فأهلكت قوما أراد الله إهلاكهم أو أن تكون سنة الله قد جرت بغير المألوف للبشر , وغير المعهود المكشوف لعلمهم , فحققت قدره ذاك .

إن سنة الله ليست فقط هي ما عهده البشر وما عرفوه . وما يعرف البشر من سنة الله إلا طرفا يسيرا يكشفه الله لهم بمقدار ما يطيقون , وبمقدار ما يتهيأون له بتجاربهم ومداركهم في الزمن الطويل , فهذه الخوارق - كما يسمونها - هي من سنة الله . ولكنها خوارق بالقياس إلى ما عهدوه وما عرفوه !

ومن ثم فنحن لا نقف أمام الخارقة مترددين ولا مؤولين لها - متى صحت الرواية - أو كان في النصوص وفي ملابسات الحادث ما يوحي بأنها جرت خارقة , ولم تجر على مألوف الناس ومعهودهم . وفي الوقت ذاته لا نرى أن جريان الأمر على السنة المألوفة أقل وقعا ولا دلالة من جريانه على السنة الخارقة للمألوف . فالسنة المألوفة هي في حقيقتها خارقة بالقياس إلى قدرة البشر . . إن طلوع الشمس وغروبها خارقة - وهي معهودة كل يوم - وإن ولادة كل طفل خارقة - وهي تقع كل لحظة , وإلا فليجرب من شاء أن يجرب ! وإن تسليط طير - كائنا ما كان - يحمل حجارة مسحوقة ملوثة بميكروبات الجدري والحصبة وإلقائها في هذه الأرض , في هذا الأوان , وإحداث هذا الوباء في

الجيش , في اللحظة التي يهم فيها باقتحام البيت . . إن جريان قدر الله على هذا النحو خارقة بل عدة خوارق كاملة الدلالة على القدرة وعلى التقدير . وليست بأقل دلالة ولا عظمة من أن يرسل الله طيرا خاصا يحمل حجارة خاصة تفعل بالأجسام فعلا خاصا في اللحظة المقررة . . هذه من تلك . . هذه خارقة وتلك خارقة على السواء . .

فأما في هذا الحادث بالذات , فنحن أميل إلى اعتبار أن الأمر قد جرى على أساس الخارقة غير المعهودة , وأن الله أرسل طيرا أبابيل غير معهودة - وإن لم تكن هناك حاجة إلى قبول الروايات التي تصف أحجام الطير وأشكالها وصفا مثيرا , نجد له نظائر في مواضع أخرى تشي بأن عنصر المبالغة والتهويل مضاف إليها ! - تحمل حجارة غير معهودة , تفعل بالأجسام فعلا غير معهود . .

نحن أميل إلى هذا الاعتبار . لا لأنه أعظم دلالة ولا أكبر حقيقة . ولكن لأ ن جو السورة وملابسات الحادث تجعل هذا الاعتبار هو الأقرب . فقد كان الله - سبحانه - يريد بهذا البيت أمرا . كان يريد أن يحفظه ليكون مثابة للناس وأمنا ; وليكون نقطة تجمع للعقيدة الجديدة تزحف منه حرة طليقة , في أرض حرة طليقة , لا يهيمن عليها أحد من خارجها , ولا تسيطر عليها حكومة قاهرة تحاصر الدعوة في محضنها . ويجعل هذا الحادث عبرة ظاهرة مكشوفة لجميع الأنظار في جميع الأجيال , حتى ليمتن بها على قريش بعد البعثة في هذه السورة , ويضربها مثلا لرعاية الله لحرماته وغيرته عليها . . فمما يتناسق مع جو هذه الملابسات كلها أن يجيء الحادث غير مألوف ولا معهود , بكل مقوماته وبكل أجزائه . و لا داعي للمحاولة في تغليب صورة المألوف من الأمر في حادث هو في ذاته وبملابساته مفرد فذ . .

وبخاصة أن المألوف في الجدري أو الحصبة لا يتفق مع ما روي من آثار الحادث بأجسام الجيش وقائده ,فإن الجدري أو الحصبة لا يسقط الجسم عضوا عضوا وأنملة أنملة , ولا يشق الصدر عن القلب . .

وهذه الصورة هي التي يوحي بها النص القرآني:(فجعلهم كعصف مأكول). . إيحاء مباشرا قريبا .

ورواية عكرمة وما حدث به يعقوب بن عتبة ليست نصا في أن الجيش أصيب بالجدري . فهي لا تزيد على أن تقول:إن الجدري ظهر في الجزيرة في هذا العام لأول مرة . ولم ترد في أقوالهما أية إشارة لأبرهة وجيشه خاصة بالإصابة بهذا المرض . . ثم إن إصابة الجيش على هذا النحو وعدم إصابة العرب القريبين بمثله في حينه تبدو خارقة إذا كان الطير تقصد الجيش وحده بما تحمل . وما دامت المسألة خارقة فعلام العناء في حصرها في صورة معينة لمجرد أن هذه الصورة مألوفة لمدارك البشر ! وجريان الأمر على غير المألوف أنسب لجو الحادث كله ؟!

إننا ندرك ونقدر دوافع المدرسة العقلية التي كان الأستاذ الإمام - رحمه الله - على رأسها في تلك الحقبة . . ندرك ونقدر دوافعها إلى تضييق نطاق الخوارق والغيبيات في تفسير القرآن الكريم وأحداث التاريخ , ومحاولة ردها إلى المألوف المكشوف من السنن الكونية . . فلقد كانت هذه المدرسة تواجه النزعة الخرافية الشائعة التي تسيطر على العقلية العامة في تلك الفترة ; كما تواجه سيل الأساطير والإسرائيليات التي حشيت بها , كتب التفسير والرواية في الوقت الذي وصلت فيه الفتنة ب العلم الحديث إلى ذروتها , وموجة الشك في مقولات الدين إلى قمتها . فقامت هذه المدرسة تحاول أن ترد إلى الدين اعتباره على أساس أن كل ما جاء به موافق للعقل . ومن ثم تجتهد في تنقيته من الخرافات وا لأساطير . كما تحاول أن تنشئ عقلية دينية تفقه السنن الكونية , وتدرك ثباتها واطرادها , وترد إليها الحركات الإنسانية كما ترد إليها الحركات الكونية في الأجرام والأجسام - وهي في صميمها العقلية القرآنية - ف القرآن يرد الناس إلى سنن الله الكونية باعتبارها القاعدة الثابتة المطردة المنظمة لمفردات الحركات والظواهر المتناثرة .

ولكن مواجهة ضغط الخرافة من جهة وضغط الفتنة بالعلم من جهة أخرى تركت آثارها في تلك المدرسة . من المبالغة في الاحتياط , والميل إلى جعل مألوف السنن الكونية هو القاعدة الكلية لسنة الله . فشاع في تفسير الأستاذ الشيخ محمد عبده - كما شاع في تفسير تلميذيه الأستاذ الشيخ رشيد رضا والأستاذ الشيخ عبد القادر المغربي - رحمهم الله جميعا - شاع في هذا التفسير الرغبة الواضحة في رد الكثير من الخوارق إلى مألوف سنة الله دون الخارق منها , وإلى تأويل بعضها بحيث يلائم ما يسمونه "المعقول" ! وإلى الحذر والاحتراس الشديد في تقبل الغيبيات .

ومع إدراكنا وتقديرنا للعوامل البيئية الدافعة لمثل هذا الاتجاه , فإننا نلاحظ عنصر المبالغة فيه , وإغفال الجانب الآخر للتصور القرآني الكامل . وهو طلاقة مشيئة الله وقدرته من وراء السنن التي اختارها - سواء المألوف منها للبشر أو غير المألوف - هذه الطلاقة التي لا تجعل العقل البشري هو الحاكم الأخير . ولا تجعل معقول هذا العقل هو مرد كل أمر بحيث يتحتم تأويل ما لا يوافقه - كما يتكرر هذا القول في تفسير أعلام هذه المدرسة .

هذا إلى جانب أن المألوف من سنة الله ليس هو كل سنة الله . إنما هو طرف يسير لا يفسر كل ما يقع من هذه السنن في الكون . وأن هذه كتلك دليل على عظمة القدرة ودقة التقدير . .

وكل ذلك مع الاحتياط من الخرافة ونفي الأسطورة في اعتدال كامل , غير متأثر بإيحاء بيئة خاصة , ولا مواجهة عرف تفكيري شائع في عصر من العصور !!!

إن هنالك قاعدة مأمونة في مواجهة النصوص القرآنية , لعل هنا مكان تقريرها . . إنه لا يجوز لنا أن نواجه النصوص القرآنية بمقررات عقلية سابقة . لا مقررات عامة . , ولا مقررات في الموضوع الذي تعالجه النصوص . بل ينبغي أن نواجه هذه النصوص لنتلقى منها مقرراتنا .

فمنها نتلقى مقرراتنا الإيمانية , ومنها نكون قواعد منطقنا وتصوراتنا جميعا ; فإذا قررت لنا أمرا فهو المقرر كما قررته ! ذلك أن ما نسميه "العقل" ونريد أن نحاكم إليه مقررات القرآن عن الأحداث الكونية و التاريخية والإنسانية والغيبية هو إفراز واقعنا البشري المحدود , وتجاربنا البشرية المحدودة .

وهذا العقل وإن يكن في ذاته قوة مطلقة لا تتقيد بمفردات التجارب و الوقائع بل تسمو عليها إلى المعنى المجرد وراء ذواتها , إلا أنه في النهاية محدود بحدود وجودنا البشري . وهذا الوجود لا يمثل المطلق كما هو عند الله . والقرآن صادر عن هذا المطلق فهو الذي يحكمنا . ومقرراته هي التي نستقي منها مقرراتنا العقلية ذاتها . ومن ثم لا يصلح أن يقال:إن مدلول هذا النص يصطدم مع العقل فلا بد من تأويله - كما يرد كثيرا في مقررات أصحاب هذه المدرسة . وليس معنى هذا هو الإ ستسلام للخرافة . ولكن معناه أن العقل ليس هو الحكم في مقررات القرآن . ومتى كانت المدلولات التعبيرية مستقيمة واضحة فهي التي تقرر كيف تتلقاها عقولنا , ويكف تصوغ منها قواعد تصورها ومنطقها تجاه مدلولاتها , وتجاه الحقائق الكونية الأخرى . .

ونعود من هذا الاستطراد إلى سورة الفيل , وإلى دلالة القصة . .

(ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل ?) . وهو سؤال للتعجيب من الحادث , والتنبيه إلى دلالته العظيمة . فالحادث كان معروفا للعرب ومشهورا عندهم , حتى لقد جعلوه مبدأ تاريخ . يقولون حدث كذا عام الفيل , وحدث كذا قبل عام الفيل بعامين , وحدث كذا بعد عام الفيل بعشر سنوات . . والمشهور أن مولد رسول الله [ص] كان في عام الفيل ذاته . ولعل ذلك من بدائع الموافقات الإلهية المقدرة !

وإذن فلم تكن السورة للإخبار بقصة يجهلونها , إنما كانت تذكيرا بأمر يعرفونه , المقصود به ما وراء هذا التذكير . .

ثم أكمل القصة بعد هذا المطلع في صورة الاستفهام التقريري كذلك:

(ألم يجعل كيدهم في تضليل ?). . أي ألم يضل مكرهم فلا يبلغ هدفه وغايته , شأن من يضل الطريق فلا يصل إلى ما يبتغيه . . ولعله كان بهذا يذكر قريشا بنعمته عليهم في حماية هذا البيت وصيانته , في الوقت الذي عجزوا هم عن الوقوف في وجه أصحاب الفيل الأقوياء . لعلهم بهذه الذكرى يستحون من جحود الله الذي تقدمت يده عليهم في ضعفهم وعجزهم , كما يطامنون من اغترارهم بقوتهم اليوم في مواجهة محمد [ص] والقلة المؤمنة معه . فقد حطم الله الأقوياء حينما شاءوا ا لاعتداء على بيته وحرمته ; فلعله يحطم الأقوياء الذين يقفون لرسوله ودعوته .

فأما كيف جعل كيدهم في تضليل فقد بينه في صورة وصفية رائعة:(وأرسل عليهم طيرا أبابيل , ترميهم بحجارة من سجيل . فجعلهم كعصف مأكول). . والأبابيل:الجماعات . وسجيل كلمة فارسية مركبة من كلمتين تفيدان:حجر وطين . أو حجارة ملوثة بالطين . والعصف:الجاف من ورق الشجر . ووصفه بأنه مأكول:أي فتيت طحين ! حين تأكله الحشرات وتمزقه , أو حين يأكله الحيوان فيمضغه ويطحنه ! وهي صورة حسية للتمزيق البدني بفعل هذه الأحجار التي رمتهم بها جماعات الطير . ولا ضرورة لتأويلها بأنها تصويرلحال هلاكهم بمرض الجدري أو الحصبة .

فأما دلالة هذا الحادث والعبر المستفادة من التذكير به فكثيرة . .

وأول ما توحي به أن الله - سبحانه - لم يرد أن يكل حماية بيته إلى المشركين , ولو أنهم كانوا يعتزون بهذا البيت , ويحمونه ويحتمون به . فلما أراد أن يصونه ويحرسه ويعلن حمايته له وغيرته عليه ترك المشركين يهزمون أمام القوة المعتدية . وتدخلت القدرة سافرة لتدفع عن بيت الله الحرام , حتى لا تتكون للمشركين يد على بيته ولا سابقة في حمايته , بحميتهم الجاهلية . ولعل هذه الملابسة ترجح ترجيحا

قويا أن الأمر جرى في إهلاك المعتدين مجرى السنة الخارقة - لا السنة المألوفة المعهودة - فهذا أنسب وأقرب . .

ولقد كان من مقتضى هذا التدخل السافر من القدرة الإلهية لحماية البيت الحرام أن تبادر قريش ويبادر العرب إلى الدخول في دين الله حينما جاءهم به الرسول [ص] وألا يكون اعتزازهم بالبيت وسدانته وما صاغوا حوله من وثنية هو المانع لهم من الإسلام ! وهذا التذكير بـ الحادث على هذا النحو هو طرف من الحملة عليهم , والتعجيب من موقفهم العنيد !

كذلك توحي دلالة هذا الحادث بأن الله لم يقدر لأهل الكتاب - أبرهة وجنوده - أن يحطموا البيت الحرام أو يسيطروا على الأرض المقدسة . حتى والشرك يدنسه , والمشركون هم سدنته . ليبقي هذا البيت عتيقا من سلطان المتسلطين , مصونا من كيد الكائدين . وليحفظ لهذه الأرض حريتها حتى تنبت فيها العقيدة الجديدة حرة طليقة , لا يهيمن عليها سلطان , ولا يطغى فيها طاغية , ولا يهيمن على هذا الدين الذي جاء ليهيمن على الأديان وعلى العباد , ويقود البشرية ولا يقاد . وكان هذا من تدبير الله لبيته ولدينه قبل أن يعلم أحد أن نبي هذا الدين قد ولد في هذا العام !

ونحن نستبشر بإيحاء هذه الدلالة اليوم ونطمئن , إزاء ما نعلمه من أطماع فاجرة ماكرة ترف حول الأماكن المقدسة من الصليبية العالمية و الصهيونية العالمية , ولا تني أو تهدأ في التمهيد الخفي اللئيم لهذه الأ طماع الفاجرة الماكرة . فالله الذي حمى بيته من أهل الكتاب وسدنته مشركون , سيحفظه إن شاء الله , ويحفظ مدينة رسوله من كيد الكائدين ومكر الماكرين !

والإيحاء الثالث هو أن العرب لم يكن لهم دور في الأرض . بل لم يكن لهم كيان . قبل الإسلام . كانوا في اليمن تحت حكم الفرس أو الحبشة . وكانت دولتهم حين تقوم هناك أحيانا تقوم تحت حماية الفرس . وفي

الشمال كانت الشام تحت حكم الروم إما مباشرة وإما بقيام حكومة عربية تحت حماية الرومان . . ولم ينج إلا قلب الجزيرة من تحكم الأ جانب فيه . ولكنه ظل في حالة بداوة أو في حالة تفكك لا تجعل منه قوة حقيقية في ميدان القوى العالمية . وكان يمكن أن تقوم الحروب بين القبائل أربعين سنة , ولكن لم تكن هذه القبائل متفرقة ولا مجتمعة ذات وزن عند الدول القوية المجاورة . وما حدث في عام الفيل كان مقياسا لحقيقة هذه القوة حين تتعرض لغزو أجنبي .

وتحت راية الإسلام ولأول مرة في تاريخ العرب أصبح لهم دور عالمي يؤدونه . وأصبحت لهم قوة دولية يحسب لها حساب . قوة جارفة تكتسح الممالك وتحطم العروش , وتتولى قيادة البشرية , بعد أن تزيح القيادات الجاهلية المزيفة الضالة . . ولكن الذي هيأ للعرب هذا لأول مرة في تاريخهم هو أنهم نسوا أنهم عرب ! نسوا نعرة الجنس , وعصبية العنصر , وذكروا أنهم ومسلمون . مسلمون فقط . ورفعوا راية الإسلام , وراية الإسلاموحدها . وحملوا عقيدة ضخمة قوية يهدونها إلى البشرية رحمة وبرا بالبشرية ; ولم يحملوا قومية ولا عنصرية ولا عصبية . حملوا فكرة سماوية يعلمون الناس بها لا مذهبا أرضيا يخضعون الناس لسلطانه . وخرجوا من أرضهم جهادا في سبيل الله وحده , ولم يخرجوا ليؤسسوا إمبراطورية عربية ينعمون ويرتعون في ظلها , ويشمخون ويتكبرون تحت حمايتها , ويخرجون الناس من حكم الروم والفرس إلى حكم العرب وإلى حكمهم أنفسهم ! إنما قاموا ليخرجوا الناس من عبادة العباد جميعا إلى عبادة الله وحده , كما قال ربعي بن عامر رسول المسلمين في مجلس يزدجرد:"الله ابتعثنا لنخرج الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده , ومن ضيق الدنيا إلى سعة الآخرة , ومن جور الأ ديان إلى عدل الإسلام " .

عندئذ فقط كان للعرب وجود , وكانت لهم قوة , وكانت لهم قيادة . . ولكنها كانت كلها لله وفي سبيل الله . وقد ظلت لهم قوتهم . وظلت لهم قيادتهم ما استقاموا على الطريقة . حتى إذا انحرفوا عنها وذكروا

عنصريتهم وعصبيتهم , وتركوا راية الله ليرفعوا راية العصبية نبذتهم الأ
رض وداستهم الأمم , لأن الله قد تركهم حيثما تركوه , ونسيهم مثلما
نسوه !

وما العرب بغير الإسلام ? ما الفكرة التي قدموها للبشرية أو يملكون تقديمها إذا هم تخلوا عن هذه الفكرة ? وما قيمة أمة لا تقدم للبشرية فكرة ? إن كل أمة قادت البشرية في فترة من فترات التاريخ كانت تمثل فكرة . والأمم التي لم تكن تمثل فكرة كالتتار الذين اجتاحوا الشرق , والبرابرة الذين اجتاحوا الدولة الرومانية في الغرب لم يستطيعوا الحياة طويلا , إنما ذابوا في الأمم التي فتحوها . والفكرة الوحيدة التي تقدم بها العرب للبشرية كانت هي العقيدة الإسلامية , وهي التي رفعتهم إلى مكان القيادة , فإذا تخلوا عنها لم تعد لهم في الأ
رض وظيفة , ولم يعد لهم في التاريخ دور . . وهذا ما يجب أن يذكره العرب جيدا إذا هم أرادوا الحياة , وأرادوا القوة , وأرادوا القيادة . . و
الله الهادي من الضلال . .

سورة قريش

لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ (1) إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاء وَالصَّيْفِ (2) فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ (3) الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ (4)

سورة قريش

استجاب الله دعوة خليله إبراهيم , وهو يتوجه إليه عقب بناء البيت وتطهيره: (رب اجعل هذا بلدا آمنا وارزق أهله من الثمرات) . فجعل هذا البيت آمنا , وجعله عتيقا من سلطة المتسلطين وجبروت الجبارين ; وجعل من يأوي إليه آمنا والمخافة من حوله في كل مكان . . حتى حين انحرف الناس وأشركوا بربهم وعبدوا معه الأصنام . . لأمر يريده سبحانه بهذا البيت الحرام .

ولما توجه أصحاب الفيل لهدمه كان من أمرهم ما كان , مما فصلته سورة الفيل . وحفظ الله للبيت أمنه , وصان حرمته ; وكان من حوله كما قال الله فيهم: (أو لم يروا أنا جعلنا حرما آمنا ويتخطف الناس من حولهم ?).

وقد كان لحادث الفيل أثر مضاعف في زيادة حرمة البيت عند العرب في جميع أنحاء الجزيرة , وزيادة مكانة أهله وسدنته من قريش , مما ساعدهم على أن يسيروا في الأرض آمنين , حيثما حلوا وجدوا الكرامة والرعاية , وشجعهم على إنشاء خطين عظيمين من خطوط التجارة - عن طريق القوافل - إلى اليمن في الجنوب , وإلى الشام في الشمال . وإلى تنظيم رحلتين تجاريتين ضخمتين:إحداهما إلى اليمن في الشتاء , والثانية إلى الشام في الصيف .

ومع ما كانت عليه حالة الأمن في شعاب الجزيرة من سوء ; وعلى ما كان شائعا من غارات السلب والنهب , فإن حرمة البيت في أنحاء الجزيرة قد كفلت لجيرته الأمن والسلامة في هذه التجارة المغرية , وجعلت لقريش بصفة خاصة ميزة ظاهرة ; وفتحت أمامها أبواب الرزق الواسع المكفول , في أمان وسلام وطمأنينة . وألفت نفوسهم هاتين الرحلتين الآمنتين الرابحتين , فصارتا لهم عادة وإلفا !

هذه هي المنة التي يذكرهم الله بها - بعد البعثة - كما ذكرهم منة حادث الفيل في السورة السابقة , منة إيلافهم رحلتي الشتاء والصيف , ومنة الرزق الذي أفاضه عليهم بهاتين الرحلتين - وبلادهم قفرة جفرة وهم طاعمون هانئون من فضل الله . ومنة أمنهم الخوف . سواء في عقر دارهم بجوار بيت الله , أم في أسفارهموترحالهم في رعاية حرمة البيت التي فرضها الله وحرسها من كل اعتداء .

يذكرهم بهذه المنن ليستحيوا مما هم فيه من عبادة غير الله معه ; وهو رب هذا البيت الذي يعيشون في جواره آمنين طاعمين ; ويسيرون باسمه مرعيين ويعودون سالمين . .

يقول لهم:من أجل إيلاف قريش:رحلة الشتاء والصيف فليعبدوا رب هذا البيت الذي كفل لهم الأمن فجعل نفوسهم تألف الرحلة , وتنال من ورائها ما تنال (فليعبدوا رب هذا البيت الذي أطعمهم من جوع). . وكان الأصل - بحسب حالة أرضهم - أن يجوعوا , فأطعمهم الله وأشبعهم من هذا الجوع (وآمنهم من خوف). . وكان الأصل - بحسب ما هم فيه من ضعف وبحسب حالة البيئة من حولهم - أن يكونوا في خوف فآمنهم من هذا الخوف !

وهو تذكير يستجيش الحياء في النفوس . ويثير الخجل في القلوب . وما كانت قريش تجهل قيمة البيت وأثر حرمته في حياتها . وما كانت في ساعة الشدة والكربة تلجأ إلا إلى رب هذا البيت وحده . وها هو ذا عبد المطلب لا يواجه أبرهة بجيش ولا قوة . إنما يواجهه برب هذا البيت الذي يتولى حماية بيته ! لم يواجهه بصنم ولا وثن , ولم يقل له . . إن الآلهة ستحمي بيتها . إنما قال له:"أنا رب الإبل وإن للبيت ربا سيمنعه" . . ولكن انحراف الجاهلية لا يقف عند منطق , ولا يثوب إلى حق , ولا يرجع إلى معقول .

وهذه السورة تبدو امتدادا لسورة الفيل قبلها من ناحية موضوعها وجوها . وإن كانت سورة مستقلة مبدوءة بالبسملة , والروايات تذكر أنه يفصل بين نزول سورة الفيل وسورة قريش تسع سور . ولكن ترتيبهما في المصحف متواليتين يتفق مع موضوعهما القريب . .

سورة الماعون

أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ (1) فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ (2) وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ (3) فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ (4) الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ (5) الَّذِينَ هُمْ يُرَاؤُونَ (6) وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ (7)

سورة الماعون

هذه السورة مكية في بعض الروايات , ومكية مدنية في بعض الروايات [الثلاث الآيات الأولى مكية والباقيات مدنية] وهذه الأخيرة هي الأرجح . وإن كانت السورة كلها وحدة متماسكة , ذات اتجاه واحد , لتقرير حقيقة كلية من حقائق هذه العقيدة , مما يكاد يميل بنا إلى اعتبارها مدنية كلها , إذ أن الموضوع التي تعالجه هو من موضوعات القرآن المدني - وهو في جملته يمت إلى النفاق والرياء مما لم يكن معروفا في الجماعة المسلمة في مكة . ولكن قبول الروايات القائلة بأنها مكية مدنية لا يمتنع لاحتمال تنزيل الآيات الأربع الأخيرة في المدينة وإلحاقها بالآيات الثلاث الأولى لمناسبة التشابه والاتصال في الموضوع . . وحسبنا هذا لنخلص إلى موضوع السورة وإلى الحقيقة الكبيرة التي تعالجها . .

إن هذه السورة الصغيرة ذات الآيات السبع القصيرة تعالج حقيقة ضخمة تكاد تبدل المفهوم السائد للإيمان والكفر تبديلا كاملا . فوق ما تطلع به على النفس من حقيقة باهرة لطبيعة هذه العقيدة , وللخير الهائل العظيم المكنون فيها لهذه البشرية , وللرحمة السابغة التي أرادها الله للبشر وهو يبعث إليهم بهذه الرسالة الأخيرة . .

إن هذا الدين ليس دين مظاهر وطقوس ; ولا تغني فيه مظاهر العبادات والشعائر , ما لم تكن صادرة عن إخلاص لله وتجرد , مؤدية بسبب هذا الإخلاص إلى آثار في القلب تدفع إلى العمل الصالح , وتتمثل في سلوك تصلح به حياة الناس في هذه الأرض وترقى .

كذلك ليس هذا الدين أجزاء وتفاريق موزعة منفصلة , يؤدي منها الإنسان ما يشاء , ويدع منها ما يشاء . . إنما هو منهج متكامل , تتعاون عباداته وشعائره , وتكاليفه الفردية والاجتماعية , حيث تنتهي كلها إلى غاية تعودكلها على البشر . . غاية تتطهر معها القلوب , وتصلح للحياة , ويتعاون الناس ويتكافلون في الخير والصلاح والنماء . . وتتمثل فيها رحمة الله السابغة بالعباد .

ولقد يقول الإنسان بلسانه:إنه مسلم وإنه مصدق بهذا الدين وقضاياه . وقد يصلي , وقد يؤدي شعائر أخرى غير الصلاة ولكن حقيقة الإيمان وحقيقة التصديق بالدين تظل بعيدة عنه ويظل بعيدا عنها , لأن لهذه الحقيقة علامات تدل على وجودها وتحققها . وما لم توجد هذه العلا مات فلا إيمان ولا تصديق مهما قال اللسان , ومهما تعبد الإنسان !

إن حقيقة الإيمان حين تستقر في القلب تتحرك من فورها [كما قلنا في سورة العصر] لكي تحقق ذاتها في عمل صالح . فإذا لم تتخذ هذه الحركة فهذا دليل على عدم وجودها أصلا . وهذا ما تقرره هذه السورة نصا . .

(أرأيت الذي يكذب بالدين ? فذلك الذي يدع اليتيم , ولا يحض على طعام المسكين). .

إنها تبدأ بهذا الاستفهام الذي يوجه كل من تتأتى منه الرؤية ليرى:(أرأيت الذي يكذب بالدين ?)وينتظر من يسمع هذا الاستفهام ليرى إلى أين تتجه الإشارة وإلى من تتجه ? ومن هو هذا الذي يكذب بـ الدين , والذي يقرر القرآن أنه يكذب بالدين . . وإذا الجواب:(فذلك الذي يدع اليتيم . ولا يحض على طعام المسكين)!

وقد تكون هذه مفاجأة بالقياس إلى تعريف الإيمان التقليدي . . ولكن هذا هو لباب الأمر وحقيقته . . إن الذي يكذب بالدين هو الذي يدفع اليتيم دفعا بعنف - أي الذي يهين اليتيم ويؤذيه . والذي لا يحض على طعام المسكين ولا يوصي برعايته . فلو صدق بالدين حقا , ولو استقرت حقيقة التصديق في قلبه ما كان ليدع اليتيم , وما كان ليقعد عن الحض على طعام المسكين .

إن حقيقة التصديق بالدين ليست كلمة تقال باللسان ; إنما هي تحول في القلب يدفعه إلى الخير والبر بإخوانه في البشرية , المحتاجين إلى الرعاية والحماية . والله لا يريد من الناس كلمات . إنما يريد منهم معها

أعمالا تصدقها , وإلا فهي هباء , لا وزن لها عنده ولا اعتبار .

وليس أصرح من هذه الآيات الثلاث في تقرير هذه الحقيقة التي تمثل روح هذه العقيدة وطبيعة هذا الدين أصدق تمثيل .

ولا نحب أن ندخل هنا في جدل فقهي حول حدود الإيمان وحدود الإسلام . فتلك الحدود الفقهية إنما تقوم عليها المعاملات الشرعية . فأما هنا فالسورة تقرر حقيقة الأمر في اعتبار الله وميزانه . وهذا أمر آخر غير الظواهر التي تقوم عليها المعاملات !!

ثم يرتب على هذه الحقيقة الأولى صورة تطبيقية من صورها:

فويل للمصلين , الذين هم عن صلاتهم ساهون , والذين هم يراؤون ويمنعون الماعون إنه دعاء أو وعيد بالهلاك للمصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون . . فمن هم هؤلاء الذين هم عن صلاتهم ساهون !

إنهم (الذين يراءون ويمنعون الماعون). .

إنهم أولئك الذين يصلون , ولكنهم لا يقيمون الصلاة . الذين يؤدون حركات الصلاة , وينطقون بأدعيتها , ولكن قلوبهم لا تعيش معها , ولا تعيش بها , وأرواحهم لا تستحضر حقيقة الصلاة وحقيقة ما فيها من قراءات ودعوات وتسبيحات . إنهم يصلون رياء للناس لا إخلاصا لله . ومن ثم هم ساهون عن صلاتهم وهم يؤدونها .ساهون عنها لم يقيموها . والمطلوب هو إقامة الصلاة لا مجرد أدائها . وإقامتها لا تكون إلا باستحضار حقيقتها والقيام لله وحده بها .

ومن هنا لا تنشئ الصلاة آثارها في نفوس هؤلاء المصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون . فهم يمنعون الماعون . يمنعون المعونة والبر والخير عن إخوانهم في البشرية . يمنعون الماعون عن عباد الله . ولو كانوا يقيمون الصلاة حقا لله ما منعوا العون عن عباده , فهذا هو محك العبادة الصادقة المقبولة عند الله . .

وهكذا نجد أنفسنا مرة أخرى أمام حقيقة هذه العقيدة , وأمام طبيعة هذا الدين . ونجد نصا قرآنيا ينذر مصلين بالويل . لأنهم لم يقيموا الصلاة حقا . إنما أدوا حركات لا روح فيها . ولم يتجردوا لله فيها . إنما أدوها رياء . ولم تترك الصلاة أثرها في قلوبهم وأعمالهم فهي إذن هباء . بل هي إذن معصية تنتظر سوء الجزاء !

وننظر من وراء هذه وتلك إلى حقيقة ما يريده الله من العباد , حين يبعث إليهم برسالاته ليؤمنوا به وليعبدوه . . .

إنه لا يريد منهم شيئا لذاته سبحانه - فهو الغني - إنما يريد صلاحهم هم أنفسهم . يريد الخير لهم . يريد طهارة قلوبهم ويريد سعادة حياتهم . يريد لهم حياة رفيعة قائمة على الشعور النظيف , والتكافل الجميل , والأريحية الكريمة والحب والإخاء ونظافة القلب والسلوك .

فأين تذهب البشرية بعيدا عن هذا الخير ? وهذه الرحمة ? وهذا المرتقى الجميل الرفيع الكريم ? أين تذهب لتخبط في متاهات الجاهلية المظلمة النكدة وأمامها هذا النور في مفرق الطريق ?

سورة الكوثر

إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ (1)

سورة الكوثر

هذه السورة خالصة لرسول الله [ص] كسورة الضحى , وسورة الشرح . يسري عنه ربه فيها , ويعده بالخير , ويوعد أعداءه بالبتر , ويوجهه إلى طريق الشكر .

ومن ثم فهي تمثل صورة من حياة الدعوة , وحياة الداعية في أول

العهد بمكة . صورة من الكيد والأذى للنبي [ص] ودعوة الله التي يبشر بها ; وصورة من رعاية الله المباشرة لعبده وللقلة المؤمنة معه ; ومن تثبيت الله وتطمينه وجميل وعده لنبيه ومرهوب وعيده لشانئه .

كذلك تمثل حقيقة الهدى والخير والإيمان . وحقيقة الضلال والشر و الكفران . . الأولى كثرة وفيض وامتداد . والثانية قلة وانحسار وانبتار . وإن ظن الغافلون غير هذا وذاك . .

ورد أن سفهاء قريش ممن كانوا يتابعون الرسول [ص] ودعوته بالكيد والمكر وإظهار السخرية والاستهزاء . ليصرفوا جمهرة الناس عن الا ستماع للحق الذي جاءهم به من عند الله , من أمثال العاص ابن وائل , وعقبة بن أبي معيط , وأبي لهب , وأبي جهل , وغيرهم , كانوا يقولون عن النبي [ص] إنه أبتر . يشيرون بهذا إلى موت الذكور من أولاده . وقال أحدهم:دعوه فإنه سيموت بلا عقب وينتهي أمره !

وكان هذا اللون من الكيد اللئيم الصغير يجد له في البيئة العربية التي تتكاثر بالأبناء صدى ووقعا . وتجد هذه الوخزة الهابطة من يهش لها من أعداء رسول الله [ص] وشانئيه , ولعلها أوجعت قلبه الشريف ومسته ب الغم أيضا .

ومن ثم نزلت هذه السورة تمسح على قلبه [ص] بالروح والندى , وتقرر حقيقة الخير الباقي الممتد الذي اختاره له ربه ; وحقيقة الانقطاع والبتر المقدر لأعدائه .

فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ (2)

(إنا أعطيناك الكوثر). . والكوثر صيغة من الكثرة . . وهو مطلق غير محدود . يشير إلى عكس المعنى الذي أطلقه هؤلاء السفهاء . . إنا

أعطيناك ما هو كثير فائض غزير . غير ممنوع ولا مبتور . . فإذا أراد أحد أن يتتبع هذا الكوثر الذي أعطاه الله لنبيه فهو واجده حيثما نظر أو تصور .

هو واجده في النبوة . في هذا الاتصال بالحق الكبير , والوجود الكبير . الوجود الذي لا وجود غيره ولا شيء في الحقيقة سواه . وماذا فقد من وجد الله ?

وهو واجده في هذا القرآن الذي نزل عليه . وسورة واحدة منه كوثر لا نهاية لكثرته , وينبوع ثر لا نهاية لفيضه وغزارته !

وهو واجده في الملأ الأعلى الذي يصلي عليه , ويصلي على من يصلي عليه في الأرض , حيث يقترن اسمه باسم الله في الأرض والسماء .

وهو واجده في سنته الممتدة على مدار القرون , في أرجاء الأرض . وفي الملايين بعد الملايين السائرة على أثره , وملايين الملايين من الألسنة والشفاه الهاتفة باسمه , وملايين الملايين من القلوب المحبة لسيرته وذكراه إلى يوم القيامة .

وهو واجده في الخير الكثير الذي فاض على البشرية في جميع أجيالها بسببه وعن طريقه . سواء من عرفوا هذا الخير فآمنوا به , ومن لم يعرفوه ولكنه فاض عليهم فيما فاض !

وهو واجده في مظاهر شتى , محاولة إحصائها ضرب من تقليلها وتصغيرها !

إنه الكوثر , الذي لا نهاية لفيضه , ولا إحصاء لعوارفه , ولا حد لمدلوله . ومن ثم تركه النص بلا تحديد , يشمل كل ما يكثر من الخير ويزيد . .

وقد وردت روايات من طرق كثيرة أن الكوثر نهر في الجنة أوتيه رسول الله [ص] ولكن ابن عباس أجاب بأن هذا النهر هو من بين الخير الكثير الذي أوتيه الرسول . فهو كوثر من الكوثر ! وهذا هو الأنسب في هذا

السياق وفي هذه الملابسات .

(فصل لربك وانحر).

بعد توكيد هذا العطاء الكثير الفائض الكثرة , على غير ما أرجف المرجفون وقال الكائدون , وجه الرسول [ص] إلى شكر النعمة بحقها الأول . حق الإخلاص والتجرد لله في العبادة وفي الاتجاه . . في الصلاة وفي ذبح النسك خالصا لله:(فصل لربك وانحر). . غير ملق بالا إلى شرك المشركين , وغير مشارك لهم في عبادتهم أو في ذكر غير اسم الله على ذبائحهم .

وفي تكرار الإشارة إلى ذكر اسم الله وحده على الذبائح , وتحريم ما أهل به لغير الله , وما لم يذكر اسم الله عليه . . ما يشي بعناية هذا الدين بتخليص الحياة كلها من عقابيل الشرك وآثاره . لا تخليص التصور والضمير وحدهما . فهو دين الوحدة بكل معنى من معانيها , وكل ظل من ظلالها ; كما أنه دين التوحيد الخالص المجرد الواضح . ومن ثم فهو يتتبع الشرك في كل مظاهره , وفي كل مكامنه ; ويطارده مطاردة عنيفة دقيقة سواء استكن في الضمير , أم ظهر في العبادة , أم تسرب إلى تقاليد الحياة فالحياة وحدة ما ظهر منها وما بطن , والإسلام يأخذها كلا لا يتجزأ , ويخلصها من شوائب الشرك جميعا , ويتجه بها إلى الله خالصة واضحة

إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ (3)

ناصعة , كما نرى في مسألة الذبائح وفي غيرها من شعائر العبادة أو تقاليد الحياة . .

(إن شانئك هو الأبتر). .

في الآية الأولى قرر أنه ليس أبتر بل هو صاحب الكوثر . وفي هذه الآية يرد الكيد إلى كائديه , ويؤكد - سبحانه - أن الأبتر ليس هو محمد , إنما هم شانئوه وكارهوه .

ولقد صدق فيهم وعيد الله . فقد انقطع ذكرهم وانطوى . بينما امتد ذكر محمد وعلا . ونحن نشهد اليوم مصداق هذا القول الكريم , في صورة باهرة واسعة المدى كما لم يشهدوه سامعوه الأولون !

إن الإيمان والحق والخير لا يمكن أن يكون أبتر . فهو ممتد الفروع عميق الجذور . وإنما الكفر والباطل والشر هو الأبتر مهما ترعرع وزها وتجبر . .

إن مقاييس الله غير مقاييس البشر . ولكن البشر ينخدعون ويغترون فيحسبون مقاييسهم هي التي تقرر حقائق الأمور ! وأمامنا هذا المثل الناطق الخالد . . فأين الذين كانوا يقولون عن محمد [ص] قولتهم اللئيمة , وينالون بها من قلوب الجماهير , ويحسبون حينئذ أنهم قد قضوا على محمد وقطعوا عليه الطريق ? أين هم ? وأين ذكراهم , وأين آثارهم ? إلى جوار الكوثر من كل شيء , ذلك الذي أوتيه من كانوا يقولون عنه:الأبتر ?!

إن الدعوة إلى الله والحق والخير لا يمكن أن تكون بتراء ولا أن يكون صاحبها أبتر , وكيف وهي موصولة بالله الحي الباقي الأزلي الخالد ? إنما يبتر الكفر والباطل والشر ويبتر أهله , مهما بدا في لحظة من اللحظات أنه طويل الأجل ممتد الجذور . .

وصدق الله العظيم . وكذب الكائدون الماكرون . .

سورة الكافرون

قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ (1) لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ (2) وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (3) وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ (4)

سورة الكافرون

لم يكن العرب يجحدون الله ولكن كانوا لا يعرفونه بحقيقته التي وصف بها نفسه . أحد . صمد . فكانوا يشركون به ولا يقدرونه حق قدره , ولا يعبدونه حق عبادته . كانوا يشركون به هذه الأصنام التي يرمزون بها إلى أسلافهم من الصالحين أو العظماء . أو يرمزون بها إلى الملائكة . . وكانوا يزعمون أن الملائكة بنات الله , وأن بينه - سبحانه - وبين الجنة نسبا , أو ينسون هذا الرمز ويعبدون هذه الآلهة , وفي هذه الحالة أو تلك كانوا يتخذونها لتقربهم من الله كما حكى عنهم القرآن الكريم في سورة الزمر قولهم: (ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى). .

ولقد حكى القرآن عنهم أنهم كانوا يعترفون بخلق الله للسماوات والأرض , وتسخيره للشمس والقمر , وإنزاله الماء من السماء كالذي جاء في سورة العنكبوت: (ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض وسخر الشمس والقمر ليقولن الله). . (ولئن سألتهم من نزل من السماء ماء فأحيا به الأرض من بعد موتها ليقولن الله). . وفي إيمانهم كانوا يقولون: والله . وتالله . وفي دعائهم كانوا يقولون:اللهم . . الخ .

ولكنهم مع إيمانهم بالله كان هذا الشرك يفسد عليهم تصورهم كما كان يفسد عليهم تقاليدهم وشعائرهم , فيجعلون للآلهة المدعاة نصيبا في زرعهم وأنعامهم ونصيبا في أولادهم . حتى ليقتضي هذا النصيب أحيانا التضحية بأبنائهم . وفي هذا يقول القرآن الكريم عنهم في سورة الأنعام: وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيبا . فقالوا هذا لله - بزعمهم - وهذا لشركائنا . فما كان لشركائهم فلا يصل إلى الله . وما كان لله فهو يصل إلى شركائهم . ساء ما يحكمون ! وكذلك زين لكثير من المشركين قتل أولادهم شركاؤهم ليردوهم , وليلبسوا عليهم دينهم , ولو شاء الله ما فعلوه , فذرهم وما يفترون . وقالوا:هذه أنعام وحرث حجر لا يطعمها إلا من نشاء - بزعمهم - وأنعام حرمت ظهورها , وأنعام لا يذكرون اسم الله عليها افتراء عليه . سيجزيهم بما كانوا يفترون , وقالوا:ما في بطون هذه الأنعام خالصة لذكورنا , ومحرم على أزواجنا , وإن يكن ميتة فهم فيه شركاء . (سيجزيهم وصفهم إنه حكيم عليم . قد خسر الذين قتلوا

أولادهم سفها بغير علم . وحرموا ما رزقهم الله افتراء على الله . قد ضلوا وما كانوا مهتدين).

وكانوا يعتقدون أنهم على دين إبراهيم , وأنهم أهدى من أهل الكتاب , الذين كانوا يعيشون معهم في الجزيرة العربية , لأن اليهود كانوا يقولون:عزير ابن الله . والنصارى كانوا يقولون:عيسى ابن الله . بينما هم كانوا يعبدون الملائكة والجن على اعتبار قرابتهم من الله - بزعمهم - فكانوا يعدون أنفسهم أهدى . لأن نسبة الملائكة إلى الله ونسبة الجن كذلك أقرب من نسبة عزير وعيسى . . وكله شرك . وليس في الشرك خيار . ولكنهم هم كانوا يحسبون أنفسهم أهدى وأقوم طريقا !

فلما جاءهم محمد [ص] يقول:إن دينه هو دين إبراهيم - عليه السلام - قالوا:نحن على دين إبراهيم فما حاجتنا إذن إلى ترك ما نحن عليه واتباع محمد ؟! وفي الوقت ذاته راحوا يحاولون مع الرسول [ص] خطة وسطا بينهم وبينه ; وعرضوا عليه أن يسجد لآلهتهم مقابل أن يسجدوا هم لإلهه ! وأن يسكت عن عيب آلهتهم وعبادتهم , وله فيهم وعليهم ما يشترط !

ولعل اختلاط تصوراتهم , واعترافهم بالله مع عبادة آلهة أخرى معه . . لعل هذا كان يشعرهم أن المسافة بينهم وبين محمد قريبة , يمكن التفاهم عليها , بقسمة البلد بلدين , والالتقاء في منتصف الطريق , مع بعض الترضيات الشخصية !

ولحسم هذه الشبهة , وقطع الطريق على المحاولة , والمفاصلة الحاسمة بين عبادة وعبادة , ومنهج ومنهج , وتصور وتصور , وطريق وطريق . . نزلت هذه السورة . بهذا الجزم . وبهذا التوكيد . وبهذا التكرار . لتنهي كل قول , وتقطع كل مساومة وتفرق نهائيا بين التوحيد والشرك , وتقيم المعالم واضحة , لا تقبل المساومة والجدل في قليل ولا كثير:

(قل يا أيها الكافرون . لا أعبد ما تعبدون , ولا أنتم عابدون ما أعبد , ولا

أنا عابد ما عبدتم , ولا أنتم عابدون ما أعبد . لكم دينكم ولي دين).

نفي بعد نفي . وجزم بعد جزم . وتوكيد بعد توكيد . بكل أساليب النفي والجزم والتوكيد . .

(قل). . فهو الأمر الإلهي الحاسم الموحي بأن أمر هذه العقيدة أمر الله وحده . ليس لمحمد فيه شيء . إنما هو الله الآمر الذي لا مرد لأمره , الحاكم الذي لا راد لحكمه .

قل يا أيها الكافرون . . ناداهم بحقيقتهم , ووصفهم بصفتهم . . إنهم ليسوا على دين , وليسوا بمؤمنين وإنما هم كافرون . فلا التقاء إذن بينك وبينهم في طريق . .

وهكذا يوحي مطلع السورة وافتتاح الخطاب , بحقيقة الانفصال الذي لا يرجى معه اتصال !

(لا أعبد ما تعبدون). . فعبادتي غير عبادتكم , ومعبودي غير معبودكم .
.

(ولا أنتم عابدون ما أعبد)فعبادتكم غير عبادتي , ومعبودكم غير معبودي .

(ولا أنا عابد ما عبدتم). . توكيد للفقرة الأولى في صيغة الجملة الإسمية وهي أدل على ثبات الصفة واستمرارها

.(ولا أنتم عابدون ما أعبد). . تكرار لتوكيد الفقرة الثانية . كي لا تبقي مظنة ولا شبهة , ولا مجال لمظنة أو شبهة بعد هذا التوكيد المكرر بكل وسائل التكرار والتوكيد !

وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ(5) لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ(6)
ثم إجمال لحقيقة الافتراق الذي لا التقاء فيه , والاختلاف الذي لا تشابه فيه , والانفصال الذي لا اتصال فيه , والتمييز الذي لا اختلاط فيه:

(لكم دينكم ولي دين). . أنا هنا وأنتم هناك , ولا معبر ولا جسر ولا طريق !!!

مفاصلة كاملة شاملة , وتميز واضح دقيق . .

ولقد كانت هذه المفاصلة ضرورية لإيضاح معالم الاختلاف الجوهري الكامل , الذي يستحيل معه اللقاء على شيء في منتصف الطريق . الاختلاف في جوهر الاعتقاد , وأصل التصور , وحقيقة المنهج , وطبيعة الطريق .

إن التوحيد منهج , والشرك منهج آخر . . ولا يلتقيان . . التوحيد منهج يتجه بالإنسان - مع الوجود كله - إلى الله وحده لا شريك له . ويحدد الجهة التي يتلقى منها الإنسان , عقيدته وشريعته , وقيمه وموازينه , وآدابه وأخلاقه , وتصوراته كلها عن الحياة وعن الوجود . هذه الجهة التي يتلقى المؤمن عنها هي الله , الله وحده بلا شريك . ومن ثم تقوم الحياة كلها على هذا الأساس . غير متلبسة بالشرك في أية صورة من صوره الظاهرة والخفية . . وهي تسير . .

وهذه المفاصلة بهذا الوضوح ضرورية للداعية . وضرورية للمدعوين . .

إن تصورات الجاهلية تتلبس بتصورات الإيمان , وبخاصة في الجماعات التي عرفت العقيدة من قبل ثم انحرفت عنها . وهذه الجماعات هي أعصى الجماعات على الإيمان في صورته المجردة من الغبش والالتواء والانحراف . أعصى من الجماعات التي لا تعرف العقيدة أصلا . ذلك أنها تظن بنفسها الهدى في الوقت الذي تتعقد انحرافاتها وتتلوى ! واختلاط عقائدها وأعمالها وخلط الصالح بالفاسد فيها , قد يغري الداعية نفسه بالأمل في اجتذابها إذا أقر الجانب الصالح وحاول تعديل الجانب الفاسد .

. وهذا الإغراء في منتهى الخطورة !

إن الجاهلية جاهلية , والإسلام إسلام . والفارق بينهما بعيد . والسبيل هو الخروج عن الجاهلية بجملتها إلى الإسلام بجملته . هو الانسلاخ من الجاهلية بكل ما فيها والهجرة إلى الإسلام بكل ما فيه .

وأول خطوة في الطريق هي تميز الداعية وشعوره بالانعزال التام عن الجاهلية:تصورا ومنهجا وعملا . الانعزال الذي لا يسمح بالالتقاء في منتصف الطريق . والانفصال الذي يستحيل معه التعاون إلا إذا انتقل أهل الجاهلية من جاهليتهم بكليتهم إلى الإسلام .

لا ترقيع . ولا أنصاف حلول . ولا التقاء في منتصف الطريق . . مهما تزيت الجاهلية بزي الإسلام , أو ادعت هذا العنوان !

وتميز هذه الصورة في شعور الداعية هو حجر الأساس . شعوره بأنه شيء آخر غير هؤلاء . لهم دينهم وله دينه , لهم طريقهم وله طريقه . لا يملك أن يسايرهم خطوة واحدة في طريقهم . ووظيفته أن يسيرهم في طريقه هو , بلا مداهنة ولا نزول عن قليل من دينه أو كثير !

وإلا فهي البراءة الكاملة , والمفاصلة التامة , والحسم الصريح . .(لكم دينكم ولي دين). .

وما أحوج الداعين إلى الإسلام اليوم إلى هذه البراءة وهذه المفاصلة وهذا الحسم . . ما أحوجهم إلى الشعور بأنهم ينشئون الإسلام من جديد في بيئة جاهلية منحرفة , وفي أناس سبق لهم أن عرفوا العقيدة , ثم ط ال عليهم الأمد (فقست قلوبهم وكثير منهم فاسقون). . وأنه ليس هناك أنصاف حلول , ولا التقاء في منتصف الطريق ,

ولا إصلاح عيوب , ولا ترقيع مناهج . . إنما هي الدعوة إلى الإسلام ك الدعوة إليه أول ما كان , الدعوة بين الجاهلية . والتميز الكامل عن الجاهلية . .(لكم دينكم ولي دين). . وهذا هو ديني:التوحيد الخالص

الذي يتلقى تصوراته وقيمه , وعقيدته وشريعته . . كلها من الله . . دون شريك . . كلها . . في كل نواحي الحياة والسلوك .

وبغير هذه المفاصلة . سيبقى الغبش وتبقى المداهنة ويبقى اللبس ويبقى الترقيع . . والدعوة إلى الإسلام لا تقوم على هذه الأسس المدخولة الواهنة الضعيفة . إنها لا تقوم إلا على الحسم والصراحة و الشجاعة والوضوح . . . .

وهذا هو طريق الدعوة الأول:(لكم دينكم ولي دين). .

سورة النصر

إِذَا جَاء نَصْرُ اللهِ وَالْفَتْحُ (1) وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللهِ أَفْوَاجاً (2) فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّاباً (3)

سورة النصر

هذه السورة الصغيرة . . كما تحمل البشرى لرسول الله [ص] بنصر الله والفتح ودخول الناس في دين الله أفواجا ; وكما توجهه [ص] حين يتحقق نصر الله وفتحه واجتماع الناس على دينه إلى التوجه إلى ربه بـ التسبيح والحمد والاستغفار . .

كما تحمل إلى الرسول [ص] البشرى والتوجيه . . تكشف في الوقت ذاته عن طبيعة هذه العقيدة وحقيقة هذا المنهج , ومدى ما يريد أن يبلغ بالبشرية من الرفعة والكرامة والتجرد والخلوص , والانطلاق والتحرر . . هذه القمة السامقة الوضيئة , التي لم تبلغها البشرية قط إلا في ظل الإسـلام . ولا يمكن أن تبلغها إلا وهي تلبي هذا الهدف العلوي الكريم .

وقد وردت روايات عدة عن نزول هذه السورة نختار منها رواية الإمام

أحمد:حدثنا محمد بن أبي عدي , عن داود , عن الشعبي , عن مسروق , قال:قالت عائشة:كان رسول الله [ص] يكثر في آخر أمره من قوله:" سبحان الله وبحمده , أستغفر الله وأتوب إليه " وقال:" إن ربي كان أخبرني أني سأرى علامة في أمتي , وأمرني إذا رأيتها أن أسبح بحمده وأستغفره إنه كان توابا ; فقد رأيتها " . . (إذا جاء نصر الله والفتح , ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجا , فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا) . .

[ورواه مسلم من طريق داود بن أبي هند بهذا النص] . .

وقال ابن كثير في التفسير:والمراد بالفتح ها هنا فتح مكة . قولا واحدا . فإن أحياء العرب كانت تتلوم [أي تنتظر] بإسلامها فتح مكة يقولون:إن ظهر على قومه فهو نبي , فلما فتح الله عليه مكة دخلوا في دين الله أفواجا , فلم تمض سنتان حتى استوسقت جزيرة العرب إيمانا , ولم يبق في سائر قبائل العرب إلا مظهرللإسلام ولله الحمد والمنة , وقد روى البخاري في صحيحه عن عمرو بن سلمة قال:لما كان الفتح بادر كل قوم بإسلامهم إلى رسول الله [ص] وكانت الأحياء تتلوم بإسلامها فتح مكة يقولون:دعوه وقومه فإن ظهر عليهم فهو نبي . . . "الحديث" . .

فهذه الرواية هي التي تتفق مع ظاهر النص في السورة:(إذا جاء نصر الله والفتح) . الخ فهي إشارة عند نزول السورة إلى أمر سيجيء بعد ذلك , مع توجيه النبي [ص] إلى ما يعمله عند تحقق هذه البشارة وظهور هذه العلامة .

وهناك رواية أخرى عن ابن عباس ; لا يصعب التوفيق بينها وبين هذه الرواية التي اخترناها .

قال البخاري:حدثنا موسى بن إسماعيل , حدثنا أبو عوانة , عن أبي بشر , عن سعيد بن جبير , عن ابن عباس قال:كان عمر يدخلني مع أشياخ بدر , فكأن بعضهم وجد في نفسه , فقال:لم يدخل هذا معنا ولنا

أبناء مثله ؟ فقال عمر:إنه ممن قد علمتم . فدعاهم ذات يوم فأدخلني معهم . فما رأيت أنه دعاني فيهم يومئذ إلا ليريهم فقال:ما تقولون في قول الله عز وجل:(إذا جاء نصر الله والفتح)؟ فقال بعضهم:أمرنا أن نحمد الله ونستغفره إذا نصرنا وفتح علينا . وسكت بعضهم فلم يقل شيئا . فقال لي:أكذلك تقول يا بن عباس ؟ "فقلت لا . فقال:ماتقول ؟ فقلت:هو أجل رسول الله [ص] أعلمه له . قال:(إذا جاء نصر الله و الفتح)فذلك علامة أجلك(فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا). فقال عمر ابن الخطاب:لا أعلم منها إلا ما تقول [تفرد به البخاري] .

فلا يمتنع أن يكون الرسول [ص] حين رأى علامة ربه أدرك أن واجبه في الأرض قد كمل , وأنه سيلقى ربه قريبا . فكان هذا معنى قول ابن عباس:هو أجل رسول الله [ص] أعلمه له . . الخ . .

ولكن هناك حديث رواه الحافظ البيهقي - بإسناده - عن ابن عباس كذلك:قال:لما نزلت:(إذا جاء نصر الله والفتح). . دعا رسول الله [ص] فاطمة وقال:" إنه قد نعيت إلي نفسي " فبكت . ثم ضحكت . وقالت أخبرني:أنه نعيت إليه نفسه فبكيت , ثم قال:" اصبري فإنك أول أهلي لحوقا بي " فضحكت .

ففي هذا الحديث تحديد لنزول السورة . فكأنها نزلت والعلامة حاضرة . أي أنه كان الفتح قد تم ودخول الناس أفواجا قد تحقق . فلما نزلت السورة مطابقة للعلامة علم رسول الله [ص] أنه أجله . . إلا أن السياق الأول أوثق وأكثر اتساقا مع ظاهر النص القرآني . وبخاصة أن حديث بكاء فاطمة وضحكها قد روي بصورة أخرى تتفق مع هذا الذي نرجحه . . عن أم سلمة - رضي الله عنها - قالت:" دعا رسول الله [ص] فاطمة عام الفتح فناجاها , فبكت , ثم ناجاها فضحكت . قالت:فلما توفي رسول الله [ص] سألتها عن بكائها وضحكها . قالت:أخبرني رسول الله [ص] أنه يموت , فبكيت , ثم أخبرني أني سيدة نساء أهل الجنة إلا مريم بنت عمران . فضحكت . . " [أخرجه الترمذي] .

فهذه الرواية تتفق مع ظاهر النص القرآني , ومع الحديث الذي رواه الإمام أحمد وأخرجه مسلم في صحيحه . من أنه كانت هناك علامة بين الرسول [ص] وربه هي:(إذا جاء نصر الله والفتح . .)فلما كان الفتح عرف أن قد قرب لقاؤه لربه فناجى فاطمة رضي الله عنها بما روته عنها أم سلمة رضي الله عنها .

ونخلص من هذا كله إلى المدلول الثابت والتوجيه الدائم الذي جاءت به هذه السورة الصغيرة . . فإلى أي مرتقى يشير هذا النص القصير:

(إذا جاء نصر الله والفتح , ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجا , فسبح بحمد ربك واستغفره , إنه كان توابا). . .

في مطلع الآية الأولى من السورة إيحاء معين لإنشاء تصور خاص , عن حقيقة ما يجري في هذا الكون من أحداث , وما يقع في هذه الحياة من حوادث . وعن دور الرسول [ص] ودور المؤمنين في هذه الدعوة , وحدهم الذي ينتهون إليه في هذا الامر . . هذا الإيحاء يتمثل في قوله تعالى: (إذا جاء نصر الله . . .). . فهو نصر الله يجيء به الله:في الوقت الذي يقدره . في الصورة التي يريدها . للغاية التي يرسمها . وليس للنبي ولا لأصحابه من أمره شيء , وليس لهم في هذا النصر يد . وليس لإشخاصهم فيه كسب . وليس لذواتهم منه نصيب . وليس لنفوسهم منه حظ ! إنما هو أمر الله يحققه بهم أو بدونهم . وحسبهم منه أن يجريه الله على أيديهم , وأن يقيمهم عليه حراسا , ويجعلهم عليه أمناء . . هذا هو كل حظهم من النصر ومن الفتح ومن دخول الناس في دين الله أفواجا . .

وبناء على هذا الإيحاء وما ينشئه من تصور خاص لحقيقة الأمر يتحدد شأن الرسول [ص] ومن معه بإزاء تكريم الله لهم , وإكرامهم بتحقيق نصره على أيديهم . إن شأنه - ومن معه - هو الإتجاه إلى الله بالتسبيح وبالحمد والاستغفار في لحظة الانتصار .

التسبيح والحمد على ما أولاهم من منة بأن جعلهم أمناء على دعوته حراسا لدينه . وعلى ما أولى البشرية كلها من رحمة بنصره لدينه , وفتحه على رسوله ودخول الناس أفواجا في هذا الخير الفائض العميم , بعد العمى والضلال والخسران .

والاستغفار لملابسات نفسية كثيرة دقيقة لطيفة المدخل:الاستغفار من الزهو الذي قد يساور القلب أو يتدسس إليه من سكرة النصر بعد طول الكفاح , وفرحة الظفر بعد طول العناء . وهو مدخل يصعب توقيه في القلب البشري . فمن هذا يكون الاستغفار .

والاستغفار مما قد يكون ساور القلب أو تدسس إليه في فترة الكفاح الطويل والعناء القاسي , والشدة الطاغية والكرب الغامر . . من ضيق بـ الشدة , واستبطاء لوعد الله بالنصر , وزلزلة كالتي قال عنها في موضع آخر:(أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله ؟ ألا إن نصر الله قريب) فمن هذا يكون الاستغفار .

والاستغفار من التقصير في حمد الله وشكره . فجهد الإنسان , مهما كان , ضعيف محدود , وآلاء الله دائمة الفيض والهملان . . (وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها). . فمن هذا التقصير يكون الاستغفار . .

وهناك لطيفة أخرى للاستغفار لحظة الانتصار . . ففيه إيحاء للنفس واشعار في لحظة الزهو والفخر بأنها في موقف التقصير والعجز . فأولى أن تطامن من كبريائها . وتطلب العفو من ربها . وهذا يصد قوى الشعور بالزهو والغرور . .

ثم إن ذلك الشعور بالنقص والعجز والتقصير والإتجاه إلى الله طلبا للعفو والسماحة والمغفرة يضمن كذلك عدم الطغيان على المقهورين المغلوبين . ليرقب المنتصر الله فيهم , فهو الذي سلطه عليهم , وهو العاجز القاصر المقصر . وإنها سلطة الله عليهم تحقيقا لأمر يريده هو . و

النصر نصره , والفتح فتحه , والدين دينه , وإلى الله تصير الأمور .

إنه الأفق الوضيء الكريم , الذي يهتف القرآن الكريم بالنفس البشرية لتتطلع إليه , وترقى في مدارجه , على حدائه النبيل البار . الأفق الذي يكبر فيه الإنسان لأنه يطامن من كبريائه , وترف فيه روحه طليقة لانها تعنو لله !

إنه الانطلاق من قيود الذات ليصبح البشر أرواحا من روح الله . ليس لها حظ في شيء إلا رضاه . ومع هذا الانطلاق جهاد لنصرة الخير وتحقيق الحق ; وعمل لعمارة الأرض وترقية الحياة ; وقيادة للبشرية قيادة رشيدة نظيفة معمرة , بانية عادلة خيرة , . . الإتجاه فيها إلى الله .

وعبثا يحاول الإنسان الانطلاق والتحرر وهو مشدود إلى ذاته , مقيد برغباته , مثقل بشهواته . عبثا يحاول ما لم يتحرر من نفسه , ويتجرد في لحظة النصر والغنم من حظ نفسه ليذكر الله وحده .

وهذا هو الأدب الذي اتسمت به النبوة دائما , يريد الله أن ترتفع البشرية إلى آفاقه , أو تتطلع إلى هذه الآفاق دائما . .

كان هذا هو أدب يوسف - عليه السلام - في اللحظة التي تم له فيها كل شيء , وتحققت رؤياه:(ورفع أبويه على العرش وخروا له سجدا , وقال:يا أبت هذا تأويل رؤياي من قبل قد جعلها ربي حقا . وقد أحسن بي إذ أخرجني من السجن وجاء بكم من البدو من بعد أن نزغ الشيطان بيني وبين إخوتي . إن ربي لطيف لما يشاء , إنه هو العليم الحكيم). .

وفي هذه اللحظة نزع يوسف - عليه السلام - نفسه من الصفاء والعناق والفرحة والابتهاج ليتجه إلى ربه في تسبيح الشاكر الذاكر . كل دعوته وهو في أبهة السلطان وفي فرحة تحقيق الأحلام:

(رب قد آتيتني من الملك وعلمتني من تأويل الأحاديث , فاطر السماوات والأرض , أنت وليي في الدنيا والآخرة , توفني مسلما ,

وألحقني بالصالحين). . وهنا يتوارى الجاه والسلطان , وتتوارى فرحة اللقاء وتجمع الأهل ولمة الإخوان , ويبدو المشهد الأخير مشهد إنسان فرد يبتهل إلى ربه أن يحفظ له إسلامه حتى يتوفاه إليه , وأن يلحقه بـ الصالحين عنده . من فضله ومنه وكرمه . .

وكان هذا هو أدب سليمان عليه السلام وقد رأى عرش ملكة سبأ حاضرا بين يديه قبل أن يرتد إليه طرفه: (فلما رآه مستقرا عنده قال:هذا من فضل ربي ليبلوني أأشكر أم أكفر , ومن شكر فإنما يشكر لنفسه , ومن كفر فإن ربي غني كريم). .

وهذا كان أدب محمد [ص] في حياته كلها , وفي موقف النصر والفتح الذي جعله ربه علامة له . . انحنى لله شاكرا على ظهر دابته ودخل مكة في هذه الصورة . مكة التي آذته وأخرجته وحاربته ووقفت في طريق الدعوة تلك الوقفة العنيدة . . فلما أن جاءه نصر الله والفتح , نسي فرحة النصر وانحنى انحناءةالشكر , وسبح وحمد واستغفر كما لقنه ربه , وجعل يكثر من التسبيح والحمد والاستغفار كما وردت بذلك الآثار . وكانت هذه سنته في أصحابه من بعده , رضي الله عنهم أجمعين .

وهكذا ارتفعت البشرية بالإيمان بالله , وهكذا أشرقت وشفت ورفرفت , وهكذا بلغت من العظمة والقوة والانطلاق . .

سورة المسد

تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ (1) مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ (2) سَيَصْلَى نَاراً ذَاتَ لَهَبٍ (3) وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ (4) فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ (5)

سورة المسد

أبو لهب - [واسمه عبد العزى بن عبد المطلب] هو عم النبي [ص] وإنما

سمي أبو لهب لإشراق وجهه , وكان هو وامرأته "أم جميل" من أشد الناس إيذاء لرسول الله [ص] وللدعوة التي جاء بها . .

قال ابن اسحاق:"حدثني حسين بن عبد الله بن عبيد الله بن عباس قال:سمعت ربيعة بن عباد الديلي يقول:"إني لمع أبي رجل شاب أنظر إلى رسول الله [ص] يتبع القبائل , ووراءه رجل أحول , وضيء الوجه ذو جمة , يقف رسول الله [ص] على القبيلة فيقول:" يا بني فلان . إني رسول الله إليكم آمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا , وأن تصدقوني وتمنعوني حتى أنفذ عن الله ما بعثني به " وإذا فرغ من مقالته قال الآخر من خلفه:يا بني فلان . هذا يريد منكم أن تسلخوا اللات والعزى وحلفاءكم من الجن من بني مالك بن أقمس , إلى ما جاء به من البدعة والضلالة , فلا تسمعوا له , ولا تتبعوه . فقلت لأبي:من هذا ؟ قال عمه أبو لهب . [ورواه الإمام أحمد والطبراني بهذا اللفظ] .

فهذا نموذج من نماذج كيد أبي لهب للدعوة وللرسول [ص] , وكانت زوجته أم جميل في عونه في هذه الحملة الدائبة الظالمة . [وهي أروى بنت حرب بن أمية أخت أبي سفيان] .

ولقد اتخذ أبو لهب موقفه هذا من رسول الله [ص] منذ اليوم الأول للدعوة . أخرج البخاري - بإسناده - عن ابن عباس , أن النبي [ص] خرج إلى البطحاء , فصعد الجبل فنادى:" يا صباحاه " فاجتمعت إليه قريش , فقال:أرأيتم إن حدثتكم أن العدو مصبحكم أو ممسيكم ؟ أكنتم مصدقي ؟ قالوا:نعم . قال:" فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد " . فقال أبو لهب . ألهذا جمعتنا ؟ تبا لك . فأنزل الله(تبت يدا أبي لهب وتب . . .)الخ . وفي رواية فقام ينفض يديه وهو يقول:تبا لك سائر اليوم ! ألهذا جمعتنا ؟! فأنزل الله السورة .

ولما أجمع بنو هاشم بقيادة أبي طالب على حماية النبي [ص] ولو لم يكونوا على دينه , تلبية لدافع العصبية القبلية , خرج أبو لهب على إخوته , وحالف عليهم قريشا , وكان معهم في الصحيفة التي كتبوها

بمقاطعة بني هاشم وتجويعهم كي يسلموا لهم محمدا [ص] .

وكان قد خطب بنتي رسول الله [ص] رقية وأم كلثوم لولديه قبل بعثة النبي [ص] فلما كانت البعثة أمرهما بتطليقهما حتى يثقل كاهل محمد بهما !

وهكذا مضى هو وزوجته أم جميل يثيرانها حربا شعواء على النبي [ص] وعلى الدعوة , لا هوادة فيها ولا هدنة . وكان بيت أبي لهب قريبا من بيت رسول الله [ص] فكان الأذى أشد . وقد روي أن أم جميل كانت تحمل الشوك فتضعه في طريق النبي ; وقيل:إن حمل الحطب كناية عن سعيها بالأذى والفتنة والوقيعة .

نزلت هذه السورة ترد على هذه الحرب المعلنة من أبي لهب وامرأته . وتولى الله - سبحانه - عن رسوله [ص] أمر المعركة !

(تبت يدا أبي لهب وتب). . والتباب الهلاك والبوار والقطع .(وتبت)الأولى دعاء .(وتب)الثانية تقرير لوقوع هذا الدعاء . ففي آية قصيرة واحدة في مطلع السورة تصدر الدعوة وتتحقق , وتنتهي المعركة ويسدل الستار !

فأما الذي يتلو آية المطلع فهو تقرير ووصف لما كان .

(ما أغنى عنه ماله وما كسب). . لقد تبت يداه وهلكتا وتب هو وهلك . فلم يغن عنه ماله وسعيه ولم يدفع عنه الهلاك والدمار .

ذلك - كان - في الدنيا . أما في الآخرة فإنه:(سيصلى نارا ذات لهب). . ويذكر اللهب تصويرا وتشخيصا للنار وإيحاء بتوقدها وتلهبها .

(وامرأته حمالة الحطب). . وستصلاها معه امرأته حالة كونها حمالة للحطب . . وحالة كونها:(في جيدها حبل من مسد). . أي من ليف . . تشد هي به في النار . أو هي الحبل الذي تشد به الحطب . على المعنى الحقيقي إن كان المراد هو الشوك . أو المعنى المجازي إن كان حمل

الحطب كناية عن حمل الشر والسعي بالأذى والوقيعة .

وفي الأداء التعبيري للسورة تناسق دقيق ملحوظ مع موضوعها وجوها , نقتطف في بيانه سطورا من كتاب:"مشاهد القيامة في القرآن" نمهد بها لوقع هذه السورة في نفس أم جميل التي ذعرت لها وجن جنونها:

"أبو لهب . سيصلى نارا ذات لهب . . وامرأته حمالة الحطب . ستصلاها وفي عنقها حبل من مسد . .

"تناسق في اللفظ , وتناسق في الصورة . فجنهم هنا نار ذات لهب . يصلاها أبو لهب ! وامرأته تحمل الحطب وتلقيه في طريق محمد لإيذائه (بمعناه الحقيقي أو المجازي" . . والحطب مما يوقد به اللهب . وهي تحزم الحطب بحبل . فعذابها في النار ذات اللهب أن تغل بحبل من مسد . ليتم الجزاء من جنس العمل , وتتم الصورة بمحتوياتها الساذجة:الحطب والحبل . والنار واللهب . يصلى به أبو لهب وامرأته حمالة الحطب !وتناسق من لون آخر . في جرس الكلمات , مع الصوت الذي يحدثه شد أحمال الحطب وجذب العنق بحبل من مسد . اقرأ:(تبت يدا أبي لهب وتب)تجد فيها عنف الحزم والشد ! الشبيه بحزم الحطب وشده . والشبيه كذلك بغل العنق وجذبه . والشبيه بجو الحنق والتهديد الشائع في السورة .

"وهكذا يلتقي تناسق الجرس الموسيقي , مع حركة العمل الصوتية , بتناسق الصور في جزئياتها المتناسقة , بتناسق الجناس اللفظي ومراعاة النظير في التعبير , ويتسق مع جو السورة وسبب النزول . ويتم هذا كله في خمس فقرات قصار , وفي سورة من أقصر سور القرآن" .

هذا التناسق القوي في التعبير جعل أم جميل تحسب أن الرسول [ص] قد هجاها بشعر . وبخاصة حين انتشرت هذه السورة وما تحمله من تهديد ومذمة وتصوير زري لأم جميل خاصة . تصوير يثير السخرية من امرأة معجبة بنفسها , مدلة بحسبها ونسبها . ثم ترتسم لها هذه الصورة:

(حمالة الحطب . في جيدها حبل من مسد)! في هذا الأسلوب القوي الذي يشيع عند العرب !

قال ابن إسحاق:فذكر لي أن أم جميل حمالة الحطب حين سمعت ما نزل فيها وفي زوجها من القرآن , أتت رسول الله [ص] وهو جالس في المسجد عند الكعبة , ومعه أبو بكر الصديق , وفي يدها فهر [أي بمقدار ملء الكف] من حجارة . فلما وقفت عليهما أخذ الله ببصرها عن رسول الله [ص] فلا ترى إلا أبا بكر . فقالت:يا أبا بكر . أين صاحبك ? قد بلغني أنه يهجوني . والله لو وجدته لضربت بهذا الفهر فاه . أما والله واني لشاعرة ! ثم قالت:

مذمما عصينا وأمره أبينا

ثم انصرفت . فقال أبو بكر:يا رسول الله , أما تراها رأتك ? فقال:ما رأتني , لقد أخذ الله ببصرها عني . .

وروى الحافظ أبو بكر البزار - بإسناده - عن ابن عباس قال:لما نزلت: (تبت يدا أبي لهب)جاءت امرأة أبي لهب , ورسول الله [ص] جالس ومعه أبو بكر . فقال له أبو بكر:لو تنحيت لا تؤذيك بشيء ! فقال رسول الله [ص]:" إنه سيحال بيني وبينها " . . فأقبلت حتى وقفت على أبي بكر , فقالت:يا أبا بكر , هجانا صاحبك . فقال أبو بكر:لا ورب هذه البنية ما ينطق بالشعر ولا يتفوه به , فقالت:إنك لمصدق . فلما ولت قال أبو بكر:ما رأتك ? قال:" لا . ما زال ملك يسترني حتى ولت " . .

فهكذا بلغ منها الغيظ والحنق , من سيرورة هذا القول الذي حسبته شعرا [وكان الهجاء لا يكون إلا شعرا] مما نفاه لها أبو بكر وهو صادق ! ولكن الصورة الزرية المثيرة للسخرية التي شاعت في آياتها , قد سجلت في الكتاب الخالد , وسجلتها صفحات الوجود أيضا تنطق بغضب الله وحربه لأبي لهب وامرأته جزاء الكيد لدعوة الله ورسوله , والتباب والهلاك و السخرية والزراية جزاء الكائدين لدعوة الله في الدنيا , والنار في الآخرة

جزاء وفاقا , والذل الذي يشير إليه الحبل في الدنيا والآخرة جميعا . . .

سورة الإخلاص

قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (1) اللَّهُ الصَّمَدُ (2) لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ (3) وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُواً أَحَدٌ (4)

سورة الاخلاص

هذه السورة الصغيرة تعدل ثلث القرآن كما جاء في الروايات الصحيحة . قال البخاري:حدثنا إسماعيل:حدثني مالك عن عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الرحمن بن أبي صعصعة , عن أبيه , عن أبي سعد , أن رجلا سمع رجلا يقرأ:(قل هو الله أحد)يرددها . فلما أصبح جاء إلى النبي [ص] فذكر ذلك له - وكأن الرجل يتقالها - فقال النبي [ص]:" و الذي نفسي بيده , إنها لتعدل ثلث القرآن " . .

وليس في هذا من غرابة . فإن الأحدية التي أمر رسول الله [ص] أن يعلنها:(قل هو الله أحد) . هذه الأحدية عقيدة للضمير , وتفسير للوجود , ومنهج للحياة . . وقد تضمنت السورة - من ثم - أعرض الخطوط الرئيسية في حقيقة الإسلام الكبيرة . .

(قل هو الله أحد) . وهو لفظ أدق من لفظ "واحد" . . لأنه يضيف إلى معنى "واحد" أن لا شيء غيره معه . وأن ليس كمثله شيء .

إنها أحدية الوجود . . فليس هناك حقيقة إلا حقيقته . وليس هناك وجود حقيقي إلا وجوده . وكل موجود آخر فإنما يستمد وجوده من ذلك الوجود الحقيقي , ويستمد حقيقته من تلك الحقيقة الذاتية .

وهي - من ثم - أحدية الفاعلية . فليس سواه فاعلا لشيء , أو فاعلا في شيء , في هذا الوجود أصلا . وهذه عقيدة في الضمير وتفسير للوجود أيضا . .

فإذا استقر هذا التفسير , ووضح هذا التصور , خلص القلب من كل غاشية ومن كل شائبة , ومن كل تعلق بغير هذه الذات الواحدة المتفردة بحقيقة الوجود وحقيقة الفاعلية .

خلص من التعلق بشيء من أشياء هذا الوجود - إن لم يخلص من الشعور بوجود شيء من الأشياء أصلا ! - فلا حقيقة لوجود إلا ذلك الوجود الإلهي . ولا حقيقة لفاعلية إلا فاعلية الإرادة الإلهية . فعلام يتعلق القلب بما لا حقيقة لوجوده ولا لفاعليته !

وحين يخلص القلب من الشعور بغير الحقيقة الواحدة , ومن التعلق بغير هذه الحقيقة . . فعندئذ يتحرر من جميع القيود , وينطلق من كل الأ وهاق . يتحرر من الرغبة وهي أصل قيود كثيرة , ويتحرر من الرهبة وهي أصل قيود كثيرة . وفيم يرغب وهو لا يفقد شيئا متى وجد الله ? ومن ذا يرهب ولا وجود لفاعلية إلا لله ?

ومتى استقر هذا التصور الذي لا يرى في الوجود إلا حقيقة الله , فستصحبه رؤية هذه الحقيقة في كل وجود آخر انبثق عنها - وهذه درجة يرى فيها القلب يد الله في كل شيء يراه . ووراءها الدرجة التي لا يرى فيها شيئا في الكون إلا الله . لأنه لا حقيقة هناك يراها إلا حقيقة الله .

كذلك سيصحبه نفي فاعلية الأسباب . ورد كل شيء وكل حدث وكل حركة إلى السبب الأول الذي منه صدرت , وبه تأثرت . . وهذه هي الحقيقة التي عني القرآن عناية كبيرة بتقريرها في التصور الإيماني . ومن ثم كان ينحي الأسباب الظاهرة دائما ويصل الأمور مباشرة بمشيئة الله: (وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى). . (وما النصر إلا من عند الله).

. (وما تشاءون إلا أن يشاء الله). . وغيرها كثير . .

وبتنحية الأسباب الظاهرة كلها , ورد الأمر إلى مشيئة الله وحدها , تنسكب في القلب الطمأنينة , ويعرف المتجه الوحيد الذي يطلب عنده ما يرغب , ويتقي عنده ما يرهب , ويسكن تجاه الفواعل والمؤثرات والأسباب الظاهرة التي لا حقيقة لها ولا وجود !

وهذه هي مدارج الطريق التي حاولها المتصوفة , فجذبتهم إلى بعيد ! ذلك أن الإسلام يريد من الناس أن يسلكوا الطريق إلى هذه الحقيقة وهم يكابدون الحياة الواقعية بكل خصائصها , ويزاولون الحياة البشرية , والخلافة الأرضية بكل مقوماتها , شاعرين مع هذا أن لا حقيقة إلا الله . وأن لا وجود إلا وجوده . وأن لا فاعلية إلا فاعليته . . و لا يريد طريقا غير هذا الطريق !

من هنا ينبثق منهج كامل للحياة , قائم على ذلك التفسير وما يشيعه في النفس من تصورات ومشاعر واتجاهات:منهج لعبادة الله وحده . الذي لا حقيقة لوجود إلا وجوده , ولا حقيقة لفاعلية إلا فاعليته , ولا أثر لإرادة إلا إرادته .

ومنهج للاتجاه إلى الله وحده في الرغبة والرهبة . في السراء والضراء . في النعماء والبأساء . وإلا فما جدوى التوجه إلى غير موجود وجودا حقيقيا , وإلى غير فاعل في الوجود أصلا ؟!

ومنهج للتلقي عن الله وحده . تلقي العقيدة والتصور والقيم والموازين , والشرائع والقوانين والأوضاع والنظم , والآداب والتقاليد . فالتلقي لا يكون إلا عن الوجود الواحد والحقيقة المفردة في الواقع وفي الضمير .

ومنهج للتحرك والعمل لله وحده . . ابتغاء القرب من الحقيقة , وتطلعا إلى الخلاص من الحواجز المعوقة والشوائب المضللة . سواء في قرارة النفس أو فيما حولها من الأشياء والنفوس . ومن بينها حاجز الذات , وقيد الرغبة والرهبة لشيء من أشياء هذا الوجود !

ومنهج يربط - مع هذا - بين القلب البشري وبين كل موجود برباط الحب والأنس والتعاطف والتجاوب . فليس معنى الخلاص من قيودها هو كراهيتها والنفور منها والهروب من مزاولتها . . فكلها خارجة من يد الله ; وكلها تستمد وجودها من وجوده , وكلها تفيض عليها أنوار هذه الحقيقة . فكلها إذن حبيب , إذ كلها هدية من الحبيب !

وهو منهج رفيق طليق . . الأرض فيه صغيرة , والحياة الدنيا قصيرة , ومتاع الحياة الدنيا زهيد , والانطلاق من هذه الحواجز والشوائب غاية وأمنية . . ولكن الانطلاق عند الإسلام ليس معناه الاعتزال ولا الإهمال , ولا الكراهية ولا الهروب . . إنما معناه المحاولة المستمرة , والكفاح الدائم لترقية البشرية كلها , وإطلاق الحياة البشرية جميعها . . ومن ثم فهي الخلافة والقيادة بكل أعبائهما , مع التحرر والانطلاق بكل مقوماتهما . كما أسلفنا .

إن الخلاص عن طريق الصومعة سهل يسير . ولكن الإسلام لا يريده . لأ ن الخلافة في الأرض والقيادة للبشر طرف من المنهج الإلهي للخلاص . إنه طريق أشق , ولكنه هو الذي يحقق إنسانية الإنسان . أي يحقق انتصار النفخة العلوية في كيانه . . وهذا هو الانطلاق . انطلاق الروح إلى مصدرها الإلهي , وتحقيق حقيقتها العلوية . وهي تعمل في الميدان الذي اختاره لها خالقها الحكيم . .

من أجل هذا كله كانت الدعوة الأولى قاصرة على تقرير حقيقة التوحيد بصورتها هذه في القلوب . لأن التوحيد في هذه الصورة عقيدة للضمير , وتفسير للوجود , ومنهج للحياة . وليس كلمة تقال باللسان أو حتى صورة تستقر في الضمير . إنما هو الأمر كله , والدين كله ; وما بعده من تفصيلات وتفريعات لا يعدو أن يكون الثمرة الطبيعية لاستقرار هذه الحقيقة بهذه الصورة في القلوب .

والانحرافات التي أصابت أهل الكتاب من قبل , والتي أفسدت عقائدهم وتصوراتهم وحياتهم , نشأت أول ما نشأت عن انطماس صورة التوحيد

الخالص . ثم تبع هذا الانطماس ما تبعه من سائر الانحرافات .

على أن الذي تمتاز به صورة التوحيد في العقيدة الإسلامية هو تعمقها للحياة كلها , وقيام الحياة على أساسها , واتخاذها قاعدة للمنهج العملي الواقعي في الحياة , تبدو آثاره في التشريع كما تبدو في الاعتقاد سواء . وأول هذه الآثار أن تكون شريعة الله وحدها هي التي تحكم الحياة . فإذا تخلفت هذه الآثار فإن عقيدة التوحيد لا تكون قائمة , فإنها لا تقوم إلا ومعها آثارها محققة في كل ركن من أركان الحياة . .

ومعنى أن الله أحد:أنه الصمد . وأنه لم يلد ولم يولد . ولم يكن له كفوا أحد . . ولكن القرآن يذكر هذه التفريعات لزيادة التقرير والإيضاح:

(الله الصمد). . ومعنى الصمد اللغوي:السيد المقصود الذي لا يقضى أمر إ لا بإذنه . والله - سبحانه - هو السيد الذي لا سيد غيره , فهو أحد في ألوهيته والكل له عبيد . وهو المقصود وحده بالحاجات , المجيب وحده لأصحاب الحاجات . وهو الذي يقضي في كل أمر بإذنه , ولا يقضي أحد معه . . وهذه الصفة متحققة ابتداء من كونه الفرد الأحد .

(لم يلد ولم يولد). . فحقيقة الله ثابتة أبدية أزلية , لا تعتورها حال بعد حال . صفتها الكمال المطلق في جميع الأحوال . والولادة انبثاق وامتداد , ووجود زائد بعد نقص أو عدم , وهو على الله محال . ثم هي تقتضي زوجية . تقوم على التماثل . وهذه كذلك محال . ومن ثم فإن صفة(أحد)تتضمن نفي الوالد والولد . .

(ولم يكن له كفوا أحد). . أي لم يوجد له مماثل أو مكافئ . لا في حقيقة الوجود , ولا في حقيقة الفاعلية , ولا في أية صفة من الصفات الذاتية . وهذا كذلك يتحقق بأنه(أحد)ولكن هذا توكيد وتفصيل . . وهو نفي للعقيدة الثنائية التي تزعم أن الله هو إله الخير وأن للشر إلها يعاكس الله - بزعمهم - ويعكس عليه أعماله الخيرةوينشر الفساد في الأ رض . وأشهر العقائد الثنائية كانت عقيدة الفرس في إله النور وإله الظلا

م , وكانت معروفة في جنوبي الجزيرة العربية حيث للفرس دولة وسلطان !!

هذه السورة إثبات وتقرير لعقيدة التوحيد الإسلامية , كما أن سورة "الكافرون" نفي لأي تشابه أو التقاء بين عقيدة التوحيد وعقيدة الشرك . . وكل منهما تعالج حقيقة التوحيد من وجه . وقد كان الرسول [ص] يستفتح يومه - في صلاة سنة الفجر - بالقراءة بهاتين السورتين . . وكان لهذا الافتتاح معناه ومغزاه . .

سورة الفلق

قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ (1) مِن شَرِّ مَا خَلَقَ (2) وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ (3) وَمِن شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ (4)

سورة الفلق

هذه السورة والتي بعدها توجيه من الله - سبحانه وتعالى - لنبيه [ص] ابتداء وللمؤمنين من بعده جميعا , للعياذ بكنفه , واللياذ بحماه , من كل مخوف:خاف وظاهر , مجهول ومعلوم , على وجه الإجمال وعلى وجه التفصيل . . وكأنما يفتح الله - سبحانه - لهم حماه , ويبسط لهم كنفه , ويقول لهم , في مودة وعطف:تعالوا إلى هنا . تعالوا إلى الحمى . تعالوا إلى مأمنكم الذي تطمئنون فيه . تعالوا فأنا أعلم أنكم ضعاف وأن لكم أعداء وأن حولكم مخاوف وهنا . . هنا الأمن والطمأنينة والسلام . .

ومن ثم تبدأ كل منهما بهذا التوجيه .(قل:أعوذ برب الفلق). .(قل:أعوذ برب الناس). .

وفي قصة نزولها وقصة تداولها وردت عدة آثار , تتفق كلها مع هذا الظل

الذي استروحناه , والذي يتضح من الآثار المروية أن رسول الله [ص] استروحه في عمق وفرح وانطلاق:

عن عقبة - ابن عامر - رضي الله عنه - أن رسول الله [ص] قال:" ألم تر آيات أنزلت هذه الليلة لم ير مثلهن قط ? قل:أعوذ برب الفلق وقل:أعوذ برب الناس " . .

وعن جابر - رضي الله عنه - قال:قال لي رسول الله [ص]:" اقرأ يا جابر " . قلت:ماذا بأبي أنت وأمي ? قال " اقرأ:قل أعوذ برب الفلق . وقل أعوذ برب الناس " فقرأتهما . فقال:" اقرأ بهما فلن تقرأ بمثلهما " . .

وعن ذر بن حبيش قال:سألت أبي بن كعب - رضي الله عنه - عن المعوذتين . قلت:يا أبا المنذر إن أخاكابن مسعود يقول كذا وكذا [وكان ابن مسعود لا يثبتهما في مصحفه ثم ثاب إلى رأي الجماعة وقد أثبتهما في المصحف] فقال:سألت رسول الله [ص] فقال:" قيل لي:قل . فقلت " . فنحن نقول كما قال رسول الله [ص] وكل هذه الآثار تشي بتلك الظ لال الحانية الحبيبة . .

وهنا في هذه السورة يذكر الله - سبحانه - نفسه بصفته التي بها يكون العياذ من شر ما ذكر في السورة .

(قل أعوذ برب الفلق). . والفلق من معانيه الصبح , ومن معانيه الخلق كله . بالإشارة إلى كل ما يفلق عنه الوجود والحياة , كما قال في الأنعام: (إن الله فالق الحب والنوى يخرج الحي من الميت ومخرج الميت من الحي). . وكما قال: (فالق الإصباح وجعل الليل سكنا والشمس والقمر حسبانا). .

وسواء كان هو الصبح فالاستعاذة برب الصبح الذي يؤمن بالنور من شر كل غامض مستور , أو كان هو الخلق فالاستعاذة برب الخلق الذي يؤمن من شر خلقه , فالمعنى يتناسق مع ما بعده . .

(من شر ما خلق). . أي من شر خلقه إطلاقا وإجمالا . وللخلائق شرور في حالات اتصال بعضها ببعض . كما أن لها خيرا ونفعا في حالات أخرى . والاستعاذة بالله هنا من شرها ليبقى خيرها . والله الذي خلقها قادر على توجيهها وتدبير الحالات التي يتضح فيها خيرها لا شرها !

(ومن شر غاسق إذا وقب). . والغاسق في اللغة الدافق , والوقب النقرة في الجبل يسيل منها الماء . والمقصود هنا - غالبا - هو الليل وما فيه . الليل حين يتدفق فيغمر البسيطة . والليل حينئذ مخوف بذاته . فضلا على ما يثيره من توقع للمجهول الخافي من كل شيء:من وحش مفترس يهجم . ومتلصص فاتك يقتحم . وعدو مخادع يتمكن . وحشرة سامة تزحف . ومن وساوس وهواجس وهموم وأشجان تتسرب في الليل , وتخنق المشاعر والوجدان , ومن شيطان تساعده الظلمة على الا نطلاق والإيحاء . ومن شهوة تستيقظ في الوحدة والظلام . ومن ظاهر وخاف يدب ويثب , في الغاسق إذا وقب !

(ومن شر النفاثات في العقد). . والنفاثات في العقد:السواحر الساعيات بـ الأذى عن طريق خداع الحواس , وخداع الأعصاب , والإيحاء إلى النفوس والتأثير والمشاعر . وهن يعقدن العقد في نحو خيط أو منديل وينفثن فيها كتقليد من تقاليد السحر والإيحاء !

والسحر لا يغير من طبيعة الأشياء ; ولا ينشئ حقيقة جديدة لها . ولكنه يخيل للحواس والمشاعر بما يريده الساحر . وهذا هو السحر كما صوره القرآن الكريم في قصة موسى عليه السلام:سورة طه (قالوا:يا موسى إما أن تلقي وإما أن نكون أول من ألقى . قال:بل ألقوا . فإذا حبالهم وعصيهم يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى . فأوجس في نفسه خيفة موسى . قلنا:لا تخف إنك أنت الأعلى . وألق ما في يمينك تلقف ما صنعوا إن ما صنعوا كيد ساحر ولا يفلح الساحر حيث أتى . . .).

وهكذا لم تنقلب حبالهم وعصيهم حيات فعلا , ولكن خيل إلى الناس - وموسى معهم - أنها تسعى إلى حد أن أوجس في نفسه خيفة , حتى

جاءه التثبيت . ثم انكشفت الحقيقة حين انقلبت عصا موسى بالفعل حية فلقفت الحبال والعصي المزورة المسحورة .

وهذه هي طبيعة السحر كما ينبغي لنا أن نسلم بها . وهو بهذه الطبيعة يؤثر في الناس ، وينشئ لهم مشاعر وفق إيحائه . . مشاعر تخيفهم وتؤذيهم وتوجههم الوجهة التي يريدها الساحر ، وعند هذا الحد نقف في فهم طبيعة السحر والنفث في العقد . . وهي شر يستعاذ منه بالله ، ويلجأ منه إلى حماه .

وقد وردت روايات - بعضها صحيح ولكنه غير متواتر - أن لبيد بن الأعصم اليهودي سحر النبي - صلى الله عليه وسلم - في المدينة . . قيل أياما ، وقيل أشهرا . . حتى كان يخيل إليه أنه يأتي النساء وهو لا يأتيهن في رواية ، وحتى كان يخيل إليه أنه فعل الشيء ولم يفعله في رواية ، وأن السورتين نزلتا رقية لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - فلما استحضر السحر المقصود - كما أخبر في رؤياه - وقرأ السورتين انحلت العقد ، وذهب عنه السوء .

ولكن هذه الروايات تخالف أصل العصمة النبوية في الفعل والتبليغ ، ولا تستقيم مع الاعتقاد بأن كل فعل من أفعاله - صلى الله عليه وسلم - وكل قول من أقواله سنة وشريعة ، كما أنها تصطدم بنفي القرآن عن الرسول - صلى الله عليه وسلم - أنه مسحور ، وتكذيب المشركين فيما كانوا يدعونه من هذا الإفك . ومن ثم تستبعد هذه الروايات . . وأحاديث الآحاد لا يؤخذ بها في أمر العقيدة . والمرجع هو القرآن . و التواتر شرط للأخذ بالأحاديث في أصول الاعتقاد . وهذه الروايات ليست من المتواتر . فضلا على أن نزول هاتين السورتين في مكة هو الراجح . مما يوهن أساس الروايات الأخرى .

" ومن شر حاسد إذا حسد " . .

والحسد انفعال نفسي إزاء نعمة الله على بعض عباده مع تمني زوالها . وسواء أتبع الحاسد هذا الانفعال بسعي منه لإزالة النعمة تحت تأثير الحقد والغيظ ، أو وقف عند حد الانفعال النفسي ، فإن شرا يمكن أن يعقب هذا الانفعال .

ونحن مضطرون أن نطامن من حدة النفي لما لا نعرف من أسرار هذا الوجود ، وأسرار النفس البشرية ، وأسرار هذا الجهاز الإنساني . فهنالك وقائع كثيرة تصدر عن هذه الأسرار ، ولا نملك لها حتى اليوم تعليلا . . هنالك مثلا ذلك التخاطر على البعد . وفيه تتم اتصالات بين أشخاص متباعدين . اتصالات لا سبيل إلى الشك في وقوعها بعد تواتر ا لأخبار بها وقيام التجارب الكثيرة المثبتة لها . ولا سبيل كذلك لتعليلها بما بين أيدينا من معلومات . وكذلك التنويم المغناطيسي . وقد أصبح ا لآن موضعا للتجربة المتكررة المثبتة . وهو مجهول السر والكيفية . . وغير التخاطر والتنويم كثير من أسرار الوجود وأسرار النفس وأسرار هذا الجهاز الإنساني . . .

فإذا حسد الحاسد ، ووجه انفعالا نفسيا معينا إلى المحسود فلا سبيل لنفي أثر هذا التوجيه لمجرد أن ما لدينا من العلم وأدوات الاختبار ، لا تصل إلى سر هذا الأثر وكيفيته . فنحن لا ندري إلا القليل في هذا الميدان . وهذا القليل يكشف لنا عنه مصادفة في الغالب ، ثم يستقر كحقيقة واقعة بعد ذلك !

فهنا شر يستعاذ منه بالله ، ويستجار منه بحماه

والله برحمته وفضله هو الذي يوجه رسوله - صلى الله عليه وسلم - وأمته من ورائه إلى الاستعاذة به من هذه الشرور . ومن المقطوع به أنهم متى استعاذوا به - وفق توجيهه - أعاذهم . وحماهم من هذه الشرور إجمالا وتفصيلا .

وقد روى البخاري - بإسناده - عن عائشة - رضي الله عنها - أن النبي -

صلى الله عليه وسلم - كان إذا آوى إلى فراشه كل ليلة جمع كفيه ، ثم نفث فيهما ، وقرأ فيهما ، " قل هو الله أحد " . . و " قل : أعوذ برب الفلق " . . و " قل : أعوذ برب الناس " . . ثم يمسح بهما ما استطاع من جسده ، يبدأ بهما على رأسه ووجهه ، وما أقبل من جسده ، يفعل ذلك ثلاث مرات . . وهكذا رواه أصحاب السنن . . .

سورة الناس

قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ (1) مَلِكِ النَّاسِ (2) إِلَهِ النَّاسِ (3) مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ (4) الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ (5) مِنَ الْجِنَّةِ وَ النَّاسِ (6)

سورة الناس

الاستعاذة في هذه السورة برب الناس , ملك الناس , إله الناس . و المستعاذ منه هو:شر الوسواس الخناس , الذي يوسوس في صدور الناس , من الجنة والناس .

والاستعاذة بالرب , الملك , الإله , تستحضر من صفات الله - سبحانه - ما به يدفع الشر عامة , وشر الوسواس الخناس خاصة .

فالرب هو المربي والموجه والراعي والحامي . والملك هو المالك الحاكم المتصرف . والإله هو المستعلي المستولي المتسلط . . وهذه الصفات فيها حماية من الشر الذي يتدسس إلى الصدور . . وهي لا تعرف كيف تدفعه لأنه مستور .

والله رب كل شيء , وملك كل شيء , وإله كل شيء . ولكن تخصيص ذكر الناس هنا يجعلهم يحسون بالقربى في موقف العياذ والاحتماء .

والله - برحمة منه - يوجه رسوله [ص] وأمته إلى العياذ به والالتجاء

إليه , مع استحضار معاني صفاته هذه , من شر خفي الدبيب , لا قبل لهم بدفعه إلا بعون من الرب الملك الإله . فهو يأخذهم من حيث لا يشعرون , ويأتيهم من حيث لا يحتسبون . والوسوسة:الصوت الخفي . والخنوس:الاختباء والرجوع . والخناس هو الذي من طبعه كثرة الخنوس .

وقد أطلق النص الصفة أولا: (الوسواس الخناس). . وحدد عمله:(الذي يوسوس في صدور الناس). ثم حدد ماهيته:(من الجنة والناس). . وهذا الترتيب يثير في الحس اليقظة والتلفت والانتباه لتبين حقيقة الوسواس الخناس , بعد إطلاق صفته في أول الكلام ; ولإدراك طريقة فعله التي يتحقق بها شره , تأهبا لدفعه أو مراقبته !

والنفس حين تعرف - بعد هذا التشويق والإيقاظ - أن الوسواس الخناس يوسوس في صدور الناس خفيةوسرا , وأنه هو الجنة الخافية , وهو كذلك الناس الذين يتدسسون إلى الصدور تدسس الجنة , ويوسوسون وسوسة الشياطين . . النفس حين تعرف هذا تتأهب للدفاع , وقد عرفت المكمن والمدخل والطريق !

ووسوسة الجنة نحن لا ندري كيف تتم , ولكنا نجد آثارها في واقع النفوس وواقع الحياة . ونعرف أن المعركة بين آدم وإبليس قديمة قديمة ; وأن الشيطان قد أعلنها حربا تنبثق من خليقة الشر فيه , ومن كبريائه وحسده وحقده على الإنسان ! وأنه قد استصدر بها من الله إذنا , فأذن فيها - سبحانه - لحكمة يراها ! ولم يترك الإنسان فيها مجردا من العدة . فقد جعل له من الإيمان جنة , وجعل له من الذكر عدة , وجعل له من الاستعاذة سلاحا . . فإذا أغفل الإنسان جنته وعدته وسلاحه فهو إذن وحده الملوم !

عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال:قال رسول الله [ص]:" الشيطان جاثم على قلب ابن آدم فإذا ذكر الله تعالى خنس , وإذا غفل وسوس " .

وأما الناس فنحن نعرف عن وسوستهم الشيء الكثير . ونعرف منها ما هو أشد من وسوسة الشياطين !

رفيق السوء الذي يتدسس بالشر إلى قلب رفيقه وعقله من حيث لا يحتسب ومن حيث لا يحترس , لأنه الرفيق المأمون !

وحاشية الشر التي توسوس لكل ذي سلطان حتى تتركه طاغية جبارا مفسدا في الأرض , مهلكا للحرث والنسل !

والنمام الواشي الذي يزين الكلام ويزحلقه , حتى يبدو كأنه الحق الصراح الذي لا مرية فيه .

وبائع الشهوات الذي يتدسس من منافذ الغريزة في إغراء لا تدفعه إلا يقظة القلب وعون الله .

وعشرات من الموسوسين الخناسين الذين ينصبون الأحابيل ويخفونها , ويدخلون بها من منافذ القلوب الخفية التي يعرفونها أو يتحسسونها . . وهم شر من الجنة وأخفى منهم دبيبا !

والإنسان عاجز عن دفع الوسوسة الخفية . ومن ثم يدله الله على عدته وجنته وسلاحه في المعركة الرهيبة !

وهناك لفتة ذات مغزى في وصف الوسواس بأنه(الخناس). فهذه الصفة تدل من جهة على تخفيه واختبائه حتى يجد الفرصة سانحة فيدب ويوسوس . ولكنها من جهة أخرى توحي بضعفه أمام من يستيقظ لمكره , ويحمي مداخل صدره . فهو - سواء كان من الجنة أم كان من الناس - إذا ووجه خنس , وعاد من حيث أتى , وقبع واختفى . أو كما قال الرسول الكريم في تمثيله المصور الدقيق:" فإذا ذكر الله تعالى خنس , وإذا غفل وسوس " . .

وهذه اللفتة تقوي القلب على مواجهة الوسواس . فهو خناس . ضعيف أمام عدة المؤمن في المعركة .

ولكنها - من ناحية أخرى - معركة طويلة لا تنتهي أبدا . فهو أبدا قابع خانس , مترقب للغفلة . واليقظة مرة لا تغني عن اليقظات . . والحرب سجال إلى يوم القيامة ; كما صورها القرآن الكريم في مواضع شتى , ومنها هذه الصورة العجيبة في سورة الإسراء:

" وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم ، فسجدوا إلا إبليس ، قال : أأسجد لمن خلقت طينا ؟ قال : أرأيتك هذا الذي كرمت علي لئن أخرتني إلى يوم القيامة لأحتنكن ذريته إلا قليلا . قال : اذهب فمن تبعك منهم فإن جهنم جزاؤكم جزاء موفورا . واستفزز من استطعت منهم بصوتك ، وأجلب عليهم بخيلك ورجلك وشاركهم في الأموال والأولاد ، وعدهم ، وما يعدهم الشيطان إلا غرورا . إن عبادي ليس لك عليهم سلطان وكفى بربك وكيلا " . .

وهذا التصور لطبيعة المعركة ودوافع الشر فيها - سواء عن طريق الشيطان مباشرة أو عن طريق عملائه من البشر - من شأنه أن يشعر الإ نسان أنه ليس مغلوبا على أمره فيها فإن ربه وملكه وإلهه مسيطر على الخلق كله وإذا كان قد أذن لإبليس بالحرب فهو آخذ بناصيته . وهو لم يسلطه إلا على الذين يغفلون عن ربهم وملكهم وإلههم فأما من يذكرونه فهم في نجوة من الشر ودواعيه الخفية فالخير إذن يستند إلى القوة التي لا قوة سواها وإلى الحقيقة التي لا حقيقة غيرها يستند ودواعيه الخفية فالخير إذن يستند إلى القوة التي لا قوة سواها وإلى الحقيقة التي لا حقيقة غيرها . يستند إلى الرب الملك الإله . والشر يستند إلى وسواس خناس يضعف عن المواجهة ويخنس عند اللقاء وينهزم أمام العياذ بالله . .

وهذا أكمل تصور للحقيقة القائمة عن الخير والشر كما أنه أفضل تصور يحمي القلب من الهزيمة ويفعمه بالقوة والثقة والطمأنينة . .

والحمد لله أولا وأخيرا . وبه الثقة والتوفيق . . وهو المستعان المعين .
. .

زاد الربّانى من معرفة الله ومحبّته

إعداد

أبوالطيب الحسن

بسم الله , والحمد لله ، والصلاة والسلام على رسول الله

ربّنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية

2105 / 20317

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ، والصلاة والسلام على رسول الله

إهداء ..

إليك أيها الإغاثة الربانيّة والمدد الإلهى والوراثة النبوية والنور المبين و المئاجِز بالحق, أيها الأخ الربانى....لقد أخرجنا الله من الجنة ليعيدنا إليها على أتم وجوه التكريم ، بعد جهاد ومعاناة وصراع فى الحياة ؛ فنكون بذلك أفضل من الملائكة ، وما أدخل الله ُ آدمَ -عليه السلام - الجنّة إلا ليعطيه درسا وتدريبا عمليا ليعرف عدوه ويعرف الصراع ويعرف مجاهدة الشهوات ، ولو لم نخرج من الجنة إلى الأرض لكنا على درجة الملائكة ،لكن بجهادنا وتعبنا وإيماننا بالغيب جعلنا الله أفضل منهم!! ،فـ المؤمن من الجنس الإنسانى هو خير خلق الله!! ، والصدّيقون هم خلا صتهم ، والأنبياء هم خلاصة الصديقين ، والرسل هم خلاصة الأنبياء ، وأولو العزم خلاصة الرسل ، وسيدنا محمد – صلى الله عليه وسلم – خ لاصة ذلك كله!؟ .

ومن لوازم ذلك أن يخلق الله تعالى الشر والكفر وما لا يحبه!؟ ؟ ليحدث الجهاد المحبوب لله تعالى: فيتم الإنعام والكرامة لأهل الإيمان ، أما من لا خير فيه فمصيره العدل الإلهى ووضعه فى موضعه اللائق به وهو العقوبة ، فلابد أن تظهر صفات الله تعالى وحكمه الأزلى .إن وجود الشر والشدائد, إنما هو بالقدر الذى يرقى ويرفع ويطهّر ويربّى ويهذّب أهل الإيمان! فتتم عليهم بذلك النعمة! وليس لله حاجة فى التشقّى من أحد-حاشاه سبحانه-ولم يجعل الله الشر ليمكنه؟ أو يرفعه؟ وإن انتفش, وإنما هو دافع للمؤمنين إلى الله! ويظهر به صفات الله وفضله! فلا تتميّز الأشياء إلا بأضدادها.

فأنت أيها الحبيب الربّانى أمل أهل الدنيا ، وأنت من خُلقتْ لك الملائكةُ لتستغفر لك وتعينك وتعتنى بك وترعاك ، فالسماء من العرش إلى تخوم الثرى ينظرون إليك وينتظرونك ، أنت من أهدى له هذا الزاد ليكون لك صديقا وأنيسا ومعينا ومقويّا وموصّلا ,لأن الطريق طويلةٌ وشاقّة (وتزوّدوا فإن خير الزاد التقوى)، إنّه يساعدك على الافتقار لله تعالى ،

(إنما الصدقات للفقراء)، فيتصدق عليك ربّك بالقوة والمدد والهداية و النور والنصر ، ويساعدك على حمد الله والثناء عليه ومناجاته ودعائه ومعرفته وذكره والصلاة على رسوله فيسعفك ربك ويجيبك ويغيثك، ويمحو صفاتك بنور صفاته ، ويخرجك من الظلمات إلى النور،كما أخرجك من ظلمة عدمك إلى نور وجودك ،وهذا ابن تيمية – رحمه الله تعالى – ? يذكر ربّه من الفجر إلى قريب من الظهر قائلا : (هذا غدائى ولو لم أتناول غدائى لسقطت قواى ، وكان نتيجة هذا الزاد ثباته وقوته ، فيقول : ماذا يفعل أعدائى بى ، أنا جنتى وبستانى فى صدرى أينما حللت ارتحلت معى إن قتلى شهادة ، وسجنى خلوة ونفيى سياحة إنّما المسجون من سُجن قلبُه عن الله ، والمأسور من أسرته شهواته ونفسه)، ويقول:"الذكر للقلب كالماء للسمك,ولاأترك الذكر إلا بنية إجمام نفسى وإراحتها لأستعد بتلك الراحة لذكر آخر",وفى الأحاديث:(مثل الذى يذكر الله ربه والذى لا يذكر الله مثل الحى والميت),(أكثروا ذكر الله حتى يقولوا مجنون),(من عجز منكم عن الليل أن يكابده وبخل بالمال أن ينفقه وجبن عن العدو أن يجاهده؟ فليكثر ذكر الله!),فالذاكر المجاهد أفضل من الذاكر بلا جهاد..ومن المجاهد الغافل..,والذاكر بلا جهاد أفضل..من المجاهد الغافل عن الله! فأفضل الذاكرين المجاهدون! وأفضل المجاهدين الذاكرون!,(إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون).

فأكثر من الذكر والثناء والمناجاة والافتقار وحفظ وفهم أسماء الله الحسنى والتخلق بها والخشوع فى الصلاة وحفظ وتدبّر القرآن والتفكر والقراءة والتلخيص ورياضة النفس بالمجاهدة الشاقّة البغيضة القاسية وفطامها عن مألوفاتها وعاداتها فهذه وغيرها من وسائل التزكية, هى تمارين التقوية للربانية ولعضلات الروح والعقل,وهى طعام وشراب القلب, لتستطيع السير والوصول .

ابن آدم .. كلٌ يريدك لنفسه وأنا أريدك لك ، ابن آدم ..اطلبنى تجدنى فإن وجدتنى وجدتَ كل شيء ، وإن فُتّك فاتك كلُ شيء ،وأنا أحبُ إليك من كلّ شيء .

من كل شيء إن ضيعته عوضُ

وما إن فاتك الله من عوضِ

إذا كان غير الله للمرء عدةً

أتته الرزايا من وجوه المكاسبِ

إن عبدنا الله وتذللنا له عاد ذلك علينا بالنفع ، وحدث فى داخلنا الاتزان والسلام النفسى مع الكون والحياة ،وإذا كنا الآن ندخل على الله دخول العبيد على الملوك،فإن نجحنا فى اختبار العبودية فغدا يُدخلنا الله ُ عليه دخول الملوك على الملوك فى مقعد صدق عند مليك مقتدر.

لقد رتّب الله بحكمته الموجودات فجعل بعضها يفدى بعضا! , فالأقل كما لا يفدى من هو أعلى منه كمالا فيتكمل به!, فكمال النبات أن يأكله الحيوان فيصير جزءا منه , وكمال الحيوان أن يأكله الإنسان فيصير جزءا فيتكمل بذلك,(أمّا السباع فلها فوائد سياسية وطبية كما ذكر الغزّالى) ,وكمال الإنسان أن يفدى الله سبحانه وتعالى -كماتفعل الملائكة -بالتنازل عن إرادته واستقلاليته لإرادة الله , والتحقق بما يطيق من كما لات الله , والاستغراق بالله مشاهدة وهمّا وحبا وخوفا ورجاءا , و التعب فى ذات الله والموت من أجله , وهذا هو الربانى الحقّ , وهذا هو كمال الإنسان, وإلّا فإنه ربما يصير عبدا للأبقار أوحتى للفئران .

إن قلب الإنسان فيه فاقة وضرورة واضطرار واضطراب وقلق وحزن وخوف وثلم وحيرة وكسرة وألم,ولايذهب ذلك كله إلا حب الله والذل له والافتقار إليه ومعرفته والعبودية الخالصة له.

زاد الفقر وشهود المنن واليقظة

قال تعالى : (يأيها الناس أنتم الفقراء إلى الله) ، (وما بكم من نعمة فمن الله) ، (وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب) (والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا وجعل لكم السمع والأبصار و الأفئدة لعلكم تشكرون) , (ألم تر أن الله سخّر لكم ما فى السموات وما فى الأرض وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة ....) .

(ولولا فضل الله عليكم ورحمته ما زكى منكم من أحد أبدا ولكن الله يزكّى من يشاء) ، (فلولا فضل الله عليكم ورحمته لكنتم من الخاسرين) ، (ولولا فضل الله عليكم ورحمته لاتبعتم الشيطان) ، (ولولا فضل الله عليك ورحمته لهمت طائفة منهم أن يضلّوك) ، (ولولا أن ثبتّناك لقد كدت تركن إليهم) ، (ولولا نعمة ربى لكنت من المحضرين) ، (لولا أن منّ الله علينا لخسف بنا) ، (لولا أن تداركه نعمة من ربه لنُبذ ....) .

الحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله ، الحمد لله الذى نجانا ، الحمد لله الذى أذهب عنا الحزن ، الحمد لله الذى صدقنا وعده ، الحمد لله الذى فضّلنا.

اذكروا نعمت الله عليكم ، واذكروه كما هداكم وإن كنتم من قبله لمن الضآلّين ، فاذكروا الله كما علمكم ما لم تكونوا تعلمون .. واذكروا نعمت الله عليكم وما أنزل عليكم من الكتاب والحكمة يعظكم به .. كما أرسلنا فيكم رسولا منكم يتلوا عليكم آياتنا ويزكيكم ويعلمكم الكتاب والحكمة ويعلمكم مالم تكونوا تعلمون فاذكرونى أذكركم واشكروا لى ولا تكفرون..واذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم وآتى فضلتكم .. اذكروا نعمة الله عليكم إذ أنجاكم .. واذكروا إذ كنتم قليلا فكثركم .. واذكروا إذ أنتم قليل مستضعفون فى الأرض تخافون أن يتخطفكم الناس فآواكم وأيدكم بنصره ورزقكم من الطيبات لعلكم تشكرون .. اذكروا نعمت الله عليكم إذ كنتم أعداءًا فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانًا وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها .. اذكروا نعمت الله عليكم إذ همّ

قوم أن يبسطوا إليكم أيديهم فكفّ أيديهم عنكم .. اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءتكم جنود فأرسلنا عليهم ريحا وجنودًا لم تروها .. اذكروا نعمت الله عليكم هل من خالق غير الله يرزقكم .. ألم تر أن الفلك تجرى فى البحر بنعمت الله ليريكم من آياته إن فى ذلك لآيات لكل صبار شكور..فاذكروا آلاء الله لعلكم تفلحون, فاذكروا آلاء الله ولاتعثوا فى الأ رض مفسدين ، ربّ بماأنعمت عليّ فلن أكون ظهيراً للمجرمين ,كذلك يتم نعمته عليكم لعلكم تسلمون.

بعد تدبّر الآيات : استشعر فقرك واحتياجك وعظيم فضل الله عليك ، وعِظَم خطر نعم الله تعالى وشدة اضطرارك إليها ، وأنها ليست لك ولا منك ولا بك ولا إليك وإنما هى فيك ، وأنها لو تخلفت عنك طرفة عين لهلكت ، وأنك لا شيء ، قال تعالى : (إن الله يمسك السموات والأرض أن تزولا ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده ...) ، يمسك النعم ,الوجود ,الإيمان والتوحيد فى قلبك ، ويمدك بها لحظة بعد أخرى ، كل لحظة لنعمه هى نعمة ، وكل جزئية من النعمة هى نعمة , وما تحتاجه النعمة وماهو من لوازمها هو نعمة ، وبين اللحظة واللحظة ما لا نهاية من الكسور ، وكل ذلك نعم لا تُحصى ، قال تعالى : (وإن تعدّوا نعمت الله لا تحصوها ...) ، فلله عليك فى النعمة الواحدة مليارات أو تريليونات النعم , فمثلا التنفس فيه24ألف نفس يوميا, وآلاف الليترات من الهواء ,وتريليونات الذارّت من الأوكسيجين, وجسمك فيه تريليونات الخلايا ,إن كل مايمكن عدّه من ذلك هو تعداد للنعمة, كما أن إمداد الله بذلك كله فى كل لحظة, هو أيضاً تعداد ,ووجود الكون بذرّاته التى لا تحصى ,هو من تعداد النعم فكل نفع أو فائدة ومايحتاجه ذلك النفع هو من النعم ,ووقت الإمداد بذلك هو من النعم,قل مثل ذلك فى كل النعم وهذا فى النعم الصغيرة عند الله فمابالك بالنعم العليا!التى توجب الفوز بالسعادة الأبدية....اكتم نَفَسَك دقيقة لكى تعرف شدة احتياجك وتعرف إمداد الله المتواصل ولطف الله وكرمه!هل تستطيع المواصلة؟!,نحن عدم حوّله الله سبحانه وتعالى إلى وجود! ثم يمدّه بدوام وكمال الوجود كل لحظة!.إن الله يمسك عرش إيمانك وتوحيدك فى قلبك أن يزولا

ولئن زالا إن أمسكهما من أحد من بعده .
هذا من الأوراد المهمة ؛إنّه بداية الشكر: (وكذلك فتنّا بعضهم ببعض ليقولوا أهؤلاء منّ الله عليهم من بيننا؟ أليس الله بأعلم بالشاكرين)، ويتمّ بمطالعات عدة :
أولًا : رؤية عيب نفسك وشرّها وعدمها وظلمتها وآفات عملك وشدة احتياجك لتشعر بِذُلِّك وضعفك وفقرك واحتياجك واضطرارك.
ثانيًا : رؤية كمال الله تعالى وجماله وعظمته وكبريائه وحفظ وفهم الأسماء الحسنى وذكر الله تعالى ودعائه بها والتحقق بمعانيها على قدر الطاقة البشرية ,ورؤية منن الله تعالى ونعمه الدنيوية والأخروية فى كل لحظاتك ، من نقطة خلقك وما قبله إلى ما لا نهاية وأنت فى نعيم الجنة -إن شاء الله- ؛لتشعر بحبك لله.
فالذلّ لله وحبه هو العزّ والفرح والسرور, هو العبودية العزيزة المُحرّرة من العبودية الذليلة, عبودية الألم والحزن والضيق ,عبودية الشهوات و الشيطان والأهواء.
ووسائل ذلك الورد شعور ومشاهدة وتفكّر وصلاة حاجة واستخارة وسجدات الشكر وأوراد الدعاء والثناء والمناجاة فيوفقك الله تعالى أى يَكِلك إليه ، وإلا فالخذلان وهو أن يكلك إلى نفسك والشيطان ، قال تعالى : (واصبر وما صبرك إلا بالله) ، (ولله غيب السموات والأرض وإليه يُرجع الأمر كله فاعبده وتوكل عليه) ، لا صبر إلا بالله ولا عبادة و لا عبودية إلا بالتوكل عليه والاستعانة به ، والفقر إليه,(إياك نعبد وإياك نستعين) .
- ورد الفقر وشهود المنن ثمرته التوفيق والنصر .
- ورد اليقظة تتذكر الدار الآخرة والموت والشدائد والأهوال والكروب و المصائب والبلايا بالتفكر أو مشاهدة الفيديوهات أو أخذ العبرة من مواطنها العملية فتتولد اليقظة والخوف والاستعداد والقوة النفسية والإيمان والتقوى، قال تعالى : (إنا أخلصناهم بخالصة ذكرى الدار) .

الحمد لله ربّ العالمين, الرحمن الرحيم, مالك يوم الدين ,إيّاك نعبد وإيّاك نستعين, اهدنا الصراط المستقيم ,صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضآلّين ،إن الله وملائكته يصلون على النبى ، يأيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليمًا ، ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين ، أنت ولينا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الغافرين ، ربنا اغفر لنا ذنوبنا وكفر عنا سيئاتنا وتوفنا مع الأبرار ، ربنا وآتنا ما وعدتنا على رسلك ولا تخزنا يوم القيامة..

إنك لا تخلف الميعاد ، ربنا آمنا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الراحمين ، وأدخلنا فى رحمتك وأنت أرحم الراحمين,ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل فى قلوبنا غلًا للذين آمنوا ربنا إنك رءوف رحيم ، ربنا اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا فى أمرنا ، رب اغفر لى ولوالدى وللمؤمنين يوم يقوم الحساب ، رب ارحمهما كما ربيانى صغيرًا ، ربنا لا تزِغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب ، رب زدنى علمًا ، رب أدخلنى مدخل صدق وأخرجنى مخرج صدق واجعل لى من لدنك سلطانًا نصيرًا ، ربنا أتمم لنا نورنا واغفر لنا إنك على كل شيء قدير ، رب ابن لى عندك بيتًا فى الجنة ونجنى من فرعون وعمله ونجّنى من القوم الظالمين ، رب أرنى أنظر إليك ,وجوه يومئذ ناضرة إلى ربّها ناظرة، ربنا ما خلقت هذا باطلًا سبحانك فقنا عذاب النار ، ربنا اصرف عنا عذاب جهنم إن عذابها كان غرامًا ، ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآ خرة حسنة وقنا عذاب النار ، ربنا آتنا من لدنك رحمة وهيئ لنا من أمرنا رشدًا ، رب أوزعنى أن أشكر نعمتك التى أنعمت عليّ وعلى والدى وأن أعمل صالحًا ترضاه وأدخلنى برحمتك فى عبادك الصالحين ، رب هب لى حكمًا وألحقنى بالصالحين,واجعل لى لسان صدق فى الآخرين, واجعلنى من ورثة جنة النعيم ... ولا تخزنى يوم يبعثون ،يوم لاينفع م ال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم , رب أعوذ بك أن أسألك ما ليس لى به علم ، أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين ، رب أعوذ بك من همزات الشياطين وأعوذ بك رب أن يحضرون ، رب لا تذرنى فردًا وأنت خير

الوارثين ، رب هب لى من لدنك ذرية طيبة ، رب هب لى من الصالحين ، هب لى من لدنك وليًا.... واجعله رب رضيًا ، ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين واجعلنا للمتقين إمامًا ، رب نجنى وأهلى مما يعملون ، رب اجعلنى مقيم الصلاة ومن ذريتى ربنا وتقبل دعاء ، واجنبنى وبنى أن نعبد الأصنام ، وأصلح لى فى ذريتى إنى تبت إليك وإنى من المسلمين ,ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا ، وارزقنا وأنت خير الرازقين ، رب إنى لما أنزلت إليّ من خير فقير ، رب اجعل هذا بلدًا آمنًا وارزق أهله من الثمرات ، رب أنزلنى منزلًا مباركًا وأنت خير المنزلين ، ربنا اكشف عنا العذاب إنا مؤمنون ،أنى مسنى الضر وأنت أرحم الراحمين ، أنى مسنى الشيطان بنصب وعذاب ، رب اشرح لى صدرى ويسّر لى أمرى ، لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين ، فنجّيناه من الغمّ وكذلك ننجى المؤمنين ، وإلا تصرف عنى كيدهن أصب إليهن وأكن من الجاهلين ، رب احكم بالحق ، وربنا الرحمن المستعان على ماتصفون ، رب إما تربنى ما يوعدون ، رب فلا تجعلنى فى القوم الظالمين ، ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين ، رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارًا ، ولا تزد الظالمين إلا تبارًا ، عسى الله أن يكفّ بأس الذين كفروا ، ُ ا ف ر ق بيننا وبين القوم الفاسقين ، افتح بيني وبينهم فتحًا ونجّنى ومن معى من المؤمنين ، ونجّنا برحمتك من القوم الكافرين ، ربنا اطمس على أموالهم واشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم ، رب انصرنى على القوم المفسدين ، رب إنى مغلوب فانتصر ، ربنا أفرغ علينا صبرًا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين ، ربنا لا تجعلنا فتنة للذين كفروا ,ربنا لا تجعلنا فتنة للقوم الظالمين ، ربنا أفرغ علينا صبرًا وتوفنا مسلمين ، أنت وليى فى الدنيا والآخرة توفّنى مسلمًا وألحقنى بالصالحين ، رب اغفر وارحم وأنت خير الراحمين ، ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ، ربنا ولا تحمل علينا إصرًا كما حملته على الذين من قبلنا ، ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به واعف عنا واغفر لنا وارحمنا أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين ، ربنا تقبّل منّا إنّك أنت السميع العليم ، ربنا وتقبل دعاء ، عسى ألا أكون

بدعائك رب شقيا .ويمكنك أن تدعو بصيغة الجمع.

زاد اليأس من النفس والحذر من العدو

سبحان الله السرمدى....لا بداية لا نهاية ، لا زمان لا مكان ، لا فناء لا حدوث كل شيء هالك إلا وجه الله ،... سبحان من استوى على عرشه استواءا يليق بجلاله,لايقربه من شيء أو يبعده عن شيء....سبحان من لا تدركه الأبصار ولا تحيط به البصائر ، سبحان الله الموجود بلا حلول ، الحاضر بلا غيبة ، القريب بلا مجاورة ، ومع كل شيء بلا اتِحاد ، الكائن بلا كيف فى المكان واللا مكان ، والزمان واللازمان ، فى الغيوب و الشهادات ، كان الله ولا شيء معه فى عماء وما فوقه هواء وما تحته هواء .اللهم لك الحمد هديتَنى من الضلالة فلا مُكرم لمن أهنتَ ولامُهين لمن أكرمتَ ولامعز لمن أذللتَ ولامذل لمن أعززتَ ولاناصر لمن خذلتَ و لامعطى لمن منعتَ ولامانع لما أعطيتَ ولارازق لمن حرمتَ ولاحارم لمن رزقتَ ولارافع لمن خفضتَ ولاخافض لمن رفعتَ ولاخارق لمن سترتَ و لاساتر لمن خرقتَ ولامُقرّبَ لماباعدتَ ولامباعد لما قربتَ لا إله إلا الله العظيم الحليم..لاإله إلاالله رب العرش العظيم..لاإله إلاالله رب السموات ورب الأرضين ورب العرش الكريم.

إنما الصدقات للفقراء ، اللهم إنى أسألك بوصف الفقر والاضطرار والا حتياج ؛ فتصدّق عليّ بما أرجوه منك وما سألتك وما لم أسألك ، فإنى أبرأ إليك منّى ومن حولى ومن قوتى ، إلهى إنى استيأست منى ومن العالمين فلم يبق لى إلا أنت فلا تجعلنى عبدَ سوءٍ يأكل خيرَك ويعمل لغيرك ، اللهم إن أهلكتنى وعذبتنى فلا ينفعك ذلك ، وإن تعفو عنى وترحمنى فلا ينقصك ذلك ، اللهم فأعطنى ما لا ينقصك ، وعافنى مما لا ينفعك ، اللهم إن تعذبنى وتهلكنى وتؤلمنى وتحزِنِى أفرحتَ إبليس ، اللهم لا تُشمِت بى عدوًا ، فإن رحمتك سبقت غضبَك . أستغفر الله العلي العظيم الذي لا إله إلا هو الحي القيوم وأتوب إليه توبة عبد ظالم لا

يملك لنفسه ضرا ولا نفعا ولا موتا ولا حياة ولا نشورا اللهم إني أستغفرك من كل ذنب يصرف عني رحمتك أو يحل بي نقمتك أو يحرمني كرامتك أو يزيل عني نعمتك اللهم إني أستغفرك لكل ذنب يمحق الحسنات ويضاعف السيئات ويحل النقمات ويغضبك يا رب الأ رض والسموات •••• اللهم إني أستغفرك لكل ذنب استقللته واستصغرته فأكبرته أوردني فيه جهل به•••• اللهم إني أستغفرك لكل ذنب أضللت به أحدا من خلقك، أو أسأت به إلى أحد من بريتك أو زينته لي نفسي أو أشرت به إلى غيري، أو دللت عليه بسهوي أو أصررت عليه بعمدي أو أقمت عليه بجهلي••••اللهم إني أستغفرك لكل ذنب كان بسبب عجب مني بنفسي أو رياء أو سمعة أو حقد أو شحناء أو خيانة أوخيلاء أو ع ند أو حسد أو أشر أو بطر أو فرح أو مرح أو ترح أو حمية أو عصبية أو غضب أو رضاء أو رجاء أو شح أو سخاء أو ظلم أو حيلة أو سرقة أو كذب أو غيبة أو لهو أو لغو أو نميمة أو لعب أو نوع من الأنواع مما تكتسب بمثله الذنوب ويكون في اتباعه العطب والحوب •••• اللهم إني أستغفرك لكل ذنب يميت القلب ويشعل الكرب ويرضي الشيطان ويغضب الرحمن •••• اللهم إني أستغفرك لكل ذنب رهبت فيه سواك وعاديت فيه أولياءك وواليت فيه أعداءك وخذلت فيه أحباءك وتعرضت فيه لشيء من غضبك.•••• اللهم إني أستغفرك لكل ذنب تبت إليك منه ثم عدت فيه ونقضت فيه العهد فيما بيني وبينك جراءة مني عليك لمعرفتي بعفوك •••• اللهم إني أستغفرك لكل ذنب أدناني من عذابك أو نأى بي عن ثوابك أو حجب عني رحمتك أو كدر علي نعمتك•••• اللهم إني أستغفرك لكل ذنب حللت به عقدا شددته أو شددت به عقدا حللته أو حرمت به خيرا وعدته •••• اللهم إني أستغفرك لكل ذنب خطوت إليه برجلي وخواطري وفكري وأماني النفس الباطلة أو مددت إليه يدي أو تأملته ببصري أو أصغيت إليه بأذني أو نطقت به بلساني أو أتلفت فيه ما رزقتني ثم استرزقتك على عصياني فرزقتني ثم استعنت برزقك على عصيانك فسترته علي وسألتك الزيادة فلم تحرمني ثم جاهرتك الزيادة فلم تفضحني فلا أزال مصرا علي عصيانك ولا تزال عائدا على بحلمك

وإحسانك يا أكرم الأكرمين••••• اللهم إني أستغفرك لكل ذنب يوجب علي صغيره أليم عذابك ويحل بي كبيره شديد عقابك وفي اتباعه تعجيل نقمتك وفي الإصرار عليه زوال نعمتك••• اللهم إني أستغفرك لكل ذنب يزيل النعم ويحل النقم ويورث الندم ويطيل السقم ويعجل الألم •••• اللهم إني أستغفرك لكل ذنب يكون في اجترائه قطع الرجاء ورد الدعاء وتوارد البلاء وترادف الهموم وتضاعف الغموم•••• اللهم إني أستغفرك لكل ذنب يرد عنك دعائي ويقطع منك رجائي ويطيل في سخطك عنائي ويقصر بي عنك أملي•••• اللهم إني أستغفرك لكل ذنب يعقب اليأس من رحمتك والقنوط من مغفرتك والحرمان من سعة ما عندك••••اللهم أستغفرك لكل ذنب يوجب سواد الوجه يوم تبيض وجوه أوليائك ، وتسود وجوه أعدائك ••••• اللهم إني أستغفرك لكل ذنب يبغضني إلى عبادك وينفر عني أولياءك، ويوحشني من أهل طاعتك بوحشية المعاصي وركوب الحوب، وارتكاب الذنوب •••• اللهم إني أستغفرك لكل ذنب يدعو إلى الكفر ويطيل الفكر ويورث الفقر ويجلب العسر ويصد عن الخير ويهتك الستر ويمنع اليسر •••• اللهم إني أستغفرك لكل ذنب يدني الآجال ويقطع الآمال ويشين الأعمال .

من غيرك؟ يُقدر العاجز ويُعَلِم الجاهل ويوقظ الغافل ويملأ القلب بما تحب ويُفرّغ القلب مما تبغض،ومن يجمع القلب عليك ، ومن يُقرّب الغيب البعيد ,ويبعد الدنيا القريبة ، أو يجمع مافترق على العبد مما ينجيه ، أو يُفرّق ما اجتمع على العبد مما يهلكه ، ليس ذلك إلا أنت ، فافعل ما أنت له أهل .

يا موقظ الغافل ومُعلِم الجاهل ومُقدِر العاجز ومقوى الضعيف ومُقرّب البعيد ومُبعِّد القريب ومُجمِّع المفترق ومُفرّق المجتمِع ، تولنى بما تتولى به عبادَك الصالحين ، ياغيات المستغيثين وملاذ اللائذين وملجأ اللا جئين لا تكلنى إلى نفسى طرفة عين فأهلك ولا إلى أحد من الناس فأضيع ، وافعل ما أنت له أهل ولا تفعل ما أنا له أهل ، إنك أهل التقوى وأهل المغفرة ، اللهم يا من حوّل العدم إلى وجود حوّل السوء إلى

حُسن ، ولاحسن إلا كمالاتك ، فحققنا اللهم بما نطيق منها ، وأخرج النفاق والكفر من قلوبنا ، وحقق اللهم بالإيمان والتقوى أرواحنا ، وزيّن بِـ المشاهدة والمكالمة والمحاضرة والقرب أسرارنا.
اللهم إنى الخائف فى الأمن؛إن لم تؤمِّنى,أو الآمن فى الخوف؛إن أمنتنى,أو الشقى فى السعادة؛إن لم تسعدنى,أو السعيد فى الشقاء؛إن أسعدتنى,فالفعل فعلك,والجعل جعلك,والحق حقك. يا من ضره خير وبلاؤه عافية ومنعه عطاء وعذابه رحمة وشدته رخاء وإيجاده تطول وإمداده امتنان وإبقاؤه تكرم وإعداده منة ارحم من وجوده عدم وغناه فقر وعزه ذل وأمنه خوف وفرحه حزن وسعادته شقاء ووجدانه فقدان وعلمه جهل وتول أمره بما شئت وكيف شئت .
اللهم ارزقنا من منازل الصديقين والربانيين وحلاوة الإيمان ولذة العبادة ما تيسر به علينا العسير والصعب والمشقة وما تهون به علينا المصائب والأهوال والكربات والسكرات وماتعيننا به على السير إليك والوصول و الفوز والنجاة والتكميل والاستكمال ومايستغرقنا فيك عن كل ما سواك وما تثبتنا به عند فتن الآلام والشهوات والشبهات والبأساء والضراء و البأس والزلزلة وارزقنا من برك وودك ولطفك ما تجعل به علينا الأمر كله بردا وسلاما حتى نجد عند المحن والمنح والشدائد والرخاء نجد الروح والفرح والطمأنينة والربط على القلوب وفتح الرحمة والرضا واليقين و الصبر والذكر والشكر ما تتكمل به أنوارنا وتبتهج به أسرارنا وإذا انتقلنا من عالم الفناء إلى عالم البقاء فاستعملنا فيه في إعلاء كلمتك وإهلاك أعدائك ونصرة أوليائك وإعانتهم وتأييدهم وإغاثتهم وإسنادهم وتقويمهم وترقيتهم استعمالا توجب به الفرح والسرور واستعملنا الآن بمثل ذلك استعمالا توجب به الفوز والنجاة وشفاء صدور المؤمنين وأنزل آيات الإنعام بأوليائك وبنا حتى لانجد شقاءا ألبتة وأنزل آيات الغضب والانتقام بأعدائك وأعدائنا حتى لا يجدوا نعيما ألبتة .
اللهم إنك سلطتَ علينا عدوًا بصيرًا بنا وبعيوبنا يرانا هو وقبيله من حيث لا نراه ، اللهم آيسه منّا كما آيسته من عفوك وقَنِّطه منّا كما قنطته من رحمتك ، وباعد بيننا وبينه كما باعدتَ بين المشرق والمغرب ,أعوذ

بكلمات الله التامّات اللاتى لا يجاوزهن بر ولا فاجر من شر ما خلق وذرأ وبرأ ومن شر ما ينزل من السماء ومن شر ما يعرج فيها ومن شر ما يلج فى الأرض ومن شر ما يخرج منها ومن شر فتن الليل والنهار ومن شر كل طارق يطرق إلا طارقًا يطرق بخير يا رحمن .

نعوذ بـالله الذى ليس منه شيء مُمْتَنِع ، وبسلطان الله المنيع نحتجب ، وبأسماء الله الحسنى كلها ، نعوذ من الأبالسة ، ومن شر شياطين الإنس والجن ، ومن شر كل مُعلِن أومُسِرّ ، ومن شر ما يكمن بالليل أو يظهر بـ النهار ،أو يظهر بالليل ويكمن بالنهار, ومن شر كل دابّة أنت آخذ بناصيتها ، إن ربى على صراط مستقيم .

اللهم إنا نسألك باسمك الذى انخلعتْ القلوبُ من رهبته ، وتزلزلتْ الأ قدامُ من سطوته ، وفزعت الجنُّ من مخافته ، أن تحجبنا من جنود إبليس والمردة والأبالسة وجميع الجن ، وأن تكفّ عنا أذاهم وشرهم ، اللهم اكفنا الشياطين والسحرة والحسدة والطغاة بما شئت وكيف شئت إنك على ماتشاء قدير ، اللهم إنا ندرأ بك فى نحورهم ونعوذ بك من شرورهم ، اللهم اجعلنا منهم فى حصن حصين وبرزخ متين وعياذ منيع ، فلا يصلون إلينا ، وجنبنا الاستجابة لوعود الشيطان وإضلاله وأمانيه وفتنته وسحره وخطواته وخطراته وتيئيسه وتحزينه وتخويفه وتزيينه وتلبيسه وتسويفه ، رب أعوذ بك من همزات الشياطين وأعوذ بك رب أن يحضرون ، وصلّ الله على الذات المصطفوية ، والقبضة الأ صلية والفيضة الرحمانية نقطة دائرة الوجود خير خلقك أجمعين ، وعلى آله ، ونوابه ووراثه وصحابته وعترته وأتباعه إلى يوم الدين .

زاد المحبة والمعرفة والوراثة (1)

الحمد لله رب العالمين بجميع محامده التى حمد بها نفسَه أو حمده بها أحدٌ من خلقه فيما كان بغير بداية ، وفيما يكون بغير نهاية ، صاحب الأ سماء الحسنى بأسرها ، والصفات العليا بحصرها ، ومصدر الخيرات كلها ، ومُولِى جميع النعم إلى أهلها ، المستحق للحمد والشكر والمدح والثناء

كله ، وكل مدح أو ثناء منه لأحد من خلقه هو فى الحقيقة راجع إليه ومقصور عليه ، وصلّ الله ُ على محمد وآله وعترته وصحابته وكتيبته وحزبه من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين,والإنس والجنّ والملائكة ، ونوّابه وورّاثه وأتباعه إلى يوم الدين ، توجب بها الفوز والنجاة والخروج من الظلمات إلى النور وقضاء الحاجات ومغفرة السيئات .

اللهم أنت الملك الحق المبين القديم المتعالى بالعظمة والكبرياء المنفرد بِالبقاء الحى القيوم القادر المقتدر الجبار القهار الذى لا إله إلا أنت ، أنت ربى وأنا عبدك عملتُ سوءا وظلمتُ نفسى واعترفتُ بذنبى ، فاغفر لى ذنوبى كلها فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت ، اللهم إنى أحمدك وأنت المحمود وأنت للحمد أهل ، وأشكرك وأنت المشكور وأنت للشكر أهل ، على ما خصصتَنى به من مواهب الرغائب ، وأوصلتَ إليّ من فضائل الصنائع وأوليتَنى من إحسانك وبوّآتنى من مظنّة الصدق عندك وأنلتنى من مننك الواصلة إليّ وأحسنتَ به إليّ كل وقت من دفع البليّة عنى و التوفيق لى والإجابة لدعائى حين أناديك داعيا وأناجيك راغبا ، لم أعدم عوتك وبرك وخيرك وعزك وإحسانك طرفة عين ، منذ أنزلتنى دار الاختبار ، والفكر والاعتبار .

إلهى لا أذكر منك إلا الجميل ، ولم أرَ منك إلا التفضيل ، خيرُك لى شامل ، وصنعك لى كامل ، ولطفك لى كافل ، وبرّك لى غامر وفضلك عليّ دائم متواتر ، ونعمك عندى متصلة ، لم تخفر لى جوارى ، وأمّنتَ خوفى وصدّقتَ رجائى ، وحققتَ آمالى ، وصاحبتَنى فى أسفارى ، وأكرمتَنى فى أحضارى(الإقامات فى الحضر) ، وعافيت أمراضى وشفيتَ أوصابى وأحسنتَ منقلبى ومثواى ، ولم تشمتْ بى أعدائى وحسادى ، ورميتَ من رمانى بسوء ، وكفيتنى شرَ من عادانى ، فأنا أسألك يا الله الآن أن تدفع عنى كيدَ الحاسدين ، وظلم الظالمين وشر المعاندين ، سبحانك أنت الذى لا ينتهى إليك بصرُ ناظر فى مجد جبروتك ، ولا يبلغك بُعدُ الهمم ، ولا ينالك غوصُ الفطن ، كلّتْ الألسنُ عن تفسير صفتك ، وانحسرتْ العقولُ عن كنه معرفتك ، وكيف يُوصف كنهُ صفتك يارب ، وأنت الله الملك الجبّار القدوس الأزلى الذى لم يزل ولايزال أزليًا أبديا

باقيًا سرمديًا دائمًا فى الغيوب وحدك لا شريك لك ، ليس فيها أحدٌ غيرُك ، حارتْ فى بحار بهاء ملكوتك عميقاتُ مذاهب التفكر ، خضعتْ لك الرقابُ وعنتْ الوجوهُ بذلة الاستكانة لعزتك ، فمن تفكّر فى إنشائك البديع وثنائك الرفيع وتعمّق فى ذلك ، رجع طرفهُ إليه خاسئًا حسيرًا وعقلُه مبهوتًا وتفكّره متحيّرًا أسيرًا ، وكلّ دون ذلك تعبيرُ اللغات ، وضلّ هنالك التدبيرُ فى تصاريف الصفات .

اللهم لك الحمد حمدًا كثيرًا دائمًا متواليًا متواترًا متضاعفًا متسعًا متسقًا يدوم ويتضاعف ولا يبيد غير مفقود فى الملكوت ، ولا مطموس فى المعالم ، ولا منتقصٍ فى العرفان ، فلك الحمد على مكارمك التى لا تُحصى ، ونعمك التى لا تُستقصى ، فى الليل إذا أدبر ، والصبح إذا أسفر ، وفى البر والبحار ، والغدو والآصال ، والعشى والإبكار ، والظهيرة والأسحار ، وفى كل جزء من أجزاء الليل والنهار .

اللهم لك الحمد بتوفيقك قد أحضَرْتنى النجاة ، وجعلتَنى منك فى ولاية العصمة ، فلم أبرح فى سبوغ نعمائك وتتابع آلائك ، محروسًا بك فى الردّ والامتناع ، ومحفوظًا بك فى المنعة والدفاع ..

اللهم إنى أحمدك إذ لم تكلفنى فوق طاقتى ، ولم ترضَ منى إلا طاعتى ، ورضيتَ منى من طاعتك وعبادتك دون استطاعتى ، وأقل من وسعى ومقدرتى ، فإنك أنت الله الملك الحق الذى لا إله إلا أنت ، لم تغب ولا تغيب عنك غائبة ، ولا تخفى عليك خافية ، ولا تضل عنك فى ظلمات الخفيات ضالة ، إنما أمرك إذا أردتَ شيئًا أن تقول له كن فيكون .

اللهم لك الحمد حمدًا كثيرًا دائمًا مثلما حمدتَ به نفسَك ، وأضعاف ما حمدك به الحامدون ، وسبّحك به المسبّحون ، وكبّرك به المكبّرون ، ومجّدك به الممجّدون ، وهلّلك به المهللون ، وقدّسك به المقدّسون ، ووحّدك به الموحدون ، وعظّمك به المعظّمون ، واستغفرك به المستغفرون ،..

حتى يكون لك منى وحدى كل طرفة عين وأقل من ذلك ، مثل حمد جميع الحامدين ، وتوحيد أصناف الموحدين والمخلصين ، وتقديس أجناس العارفين ، وثناء جميع المهللين والمصلين ، ومثل ما أنت به عالم

، وأنت محمود ومحبوب ومحجوب عن جميع خلقك كلهم .
اللهم إنى أسألك بمسائلك ، وأرغب إليك فى بركات ما أنطقتنى به من حمدك ، ووفقتنى له من شكرك وتمجيدى لك ، فما أيسر ما كلفتنى به من حقك ، وأعظم ما وعدتنى به من نعمائك ومزيد الخير على شكرك ، أنت الذى ابتدأتنى بالنعم فضلًا وطولًا ، وأمرتنى بالشكر حقًا وعدلًا ، ووعدتنى أضعافًا ومزيدًا ، وأعطيتنا من رزقك واسعًا كثيرًا ، اختيارًا ورضا ، وسألتَنى عنه شكرًا يسيرًا ، فلك الحمد اللهم إذ نجّيتنا وعافيتنا برحمتك من جهد البلاء ودرك الشقاء ، ولم تسلمنا لسوء القضاء والبلاء، وجعلتَ ملبسنا العافية ، وأوليتَنا البسطَ والرخاء ، وشرعتَ لنا أيسر القصد ، وضاعفتَ لنا أشرف الفضل ، واصطفيتنا بأعظم النبيين دعوة ، وأفضلهم شفاعة ، وأرفعهم درجة ، وأقربهم منزلة ، وأوضحهم حجة ، سيدنا محمد ، اللهم صل عليه وعلى آله واغفر لى ولأهلى ولإخوانى كلهم ما لا يسعه إلا مغفرتك ، وبلّغنى الكرامة من عندك ، وأوزعنى شكر ما أنعمتَ به عليّ ، فإنك أنت الله الذى لا إله إلا أنت الواحد الأحد ، الرفيع البديع ، ليس لأمرك مدفع ولا عن قضائك ممتنع ، فلك الحمد على ما لا أستطيع إحصاءه ، ولا تعديده من عوائد فضلك وعوارف رزقك ، وألوان ما أوليتَنى به من إرفادك وكرمك ، تملك من الأنام ما تشاء ولا يملكون منك إلا ما تريد ، لك المنُّ القديم والسلطان الشايخ و الملك الباذخ والجود الواسع والقدرة الكاملة والحكمة البالغة والعزة الشاملة ، فلك الحمد على ما جعلتنى من أمة محمد – صلى الله عليه وسلم – وجعلتَنى سميعًا بصيرًا صحيحًا سويًا سالمًا معافى ، لم تشغلنى بنقصان فى بدنى عن طاعتك ، ولا بآفة فى جوارحى ولا عاهة فى نفسى ولا فى عقلى ، ولم تمنعنى كرامتَك إيّاى وحسن صنيعك عندى وفضل منائحك لديّ ونعمائك عليّ ، أنت الذى أوسعتَ عليّ فى الدنيا رزقًا ، وفضلتَنى على كثير من أهلها تفضيلًا ، فجعلتَ لى سمعًا يسمع آياتِك ، وعقلًا يفهم إيمانك وبصرًا يرى قدرتك ، وفؤادًا يعرف عظمتَك ، وقلبًا يعتقد توحيدَك ، ولم تقطع خيرَك عنى فى كل وقت ، ولم تقطع رجائى ، ولم تنزل بى عقوباتِ النقم ولم تغير عليّ وثائقَ النعم ، ولم

تمنع عنى دقائقَ العِصم ، فلو لم أذكر من إحسانك وإنعامك عليّ إلا عفوك عنى والتوفيق لى والاستجابة لدعائى ، حين رفعتُ صوتى بدعائك وتحميدك وتوحيدك وتمجيدك ، وإلا فى تقديرك خَلقى حين صوّرتنى فأحسنتَ صورتى ، وإلا فى قسمة الأرزاق حين قدّرتها لى ، لكان فى ذلك ما يشغل فكرى عن جهدى ، فكيف إذا فكرتُ فى النّعم العظام التى أتقلّبُ فيها ، ولا أبلغ شكرَ شيء منها .

اللهم إنى مقرٌ بنعمتك علىّ فتمِّم إحساناك إليّ فيما بقى من عمرى أعظم و أتم وأكمل وأحسن مما أحسنتَ إليّ فيما مضى منه برحمتك يا أرحم الراحمين .

اللهم إنى أسألك وأتوسّل إليك بتوحيدك وتمجيدك وتحميدك وتهليلك وتكبيرك وتسبيحك وتعظيمك وتقديسك ونورك ورأفتك وعلمك ورحمتك وعزتك وحكمك وعلوك ووقارك وفضلك وجودك وجلالك وكمالك وكبريائك وسلطانك وقدرتك وتدبيرك وإحسانك وامتنانك وجمالك وبهائك وبرهانك وغفرانك ونبيك وعترته الطاهرين .. أن تصلى على سيدنا محمد وعلى سائر إخوانه من الأنبياء والمرسلين ونوّابه وورّاثه وأتباعه وألا تحرمنا رفدك وفضلك وفوائد كرامتك فإنك لا يعتريك لكثرة ما قد نشرتَ من العطايا عوائقُ البخل ، ولا ينقص جودَك التقصيرُ فى شكر نعمتك ، ولا تنفد خزائنُك ومواهبك المتّسعة ، و لا يؤثّر فى جودك العظيم منحُك الفائقة الجليلة الجميلة الأصيلة ، ولا تخاف ضيمَ إملاق فَتُكْدى ، ولا يلحقك خوفُ عدم فينقص من جودك فيضُ فضلك ، إنك على ما تشاء قدير وبالإجابة جدير .. اللهم إنك أمرتنا بدعائك ووعدتنا بإجابتك ، وقد دعوناك كما أمرتنا فاستجب لنا كما وعدتنا يا ذا الجلال والإكرام ، إنك لا تخلف الميعاد ، وحسبنا الله ونعم الوكيل

اللهم إنى أعوذ بك وبنور قدسك وبركة طهارتك وعظمة جلالك من كل آفة وعاهة ومن طوارق الليل والنهار إلا طارقا يطرق بخير يا رحمن ، اللهم أنت غياثى فبك أغوث ، وأنت عياذى فبك أعوذ ، وأنت ملاذى فبك ألوذ ، يا من ذلت له رقابُ الجبابرة ، وخضعتْ لك مقاليدُ الفراعنة ،

أجرنى من خزيك وعقوبتك ، واحفظنى فى ليلى ونهارى وقرارى ، لا إله إلا أنت تعظيمًا لوجهك وتكريمًا لسبحات عرشك ، فاصرف عنى شر عبادك ، واجعلنى فى حفظ عنايتك وسرادقات عزك وعُد عليّ بخير يا أرحم الراحمين .

اللهم لا يأت بالحسنات إلا أنت ، ولا يُذهب السيئات إلا أنت ، يا مؤنس كل وحيد وصاحب كل فريد ، ويافريبًا غير بعيد ، ويا شاهدًا غير غائب ، ويا غالبًا غير مغلوب ، يا ذا الطّوْل والإنعام ، لا إله إلا أنت ظهر اللاجين ، وجار المستجيرين ، وأنيس الخائفين ، يا عظيم يا عظيم اغفر لى فإنه لا يغفر الذنب العظيم إلا الرب العظيم ، لا سهل إلا ما جعلته سهلًا ، يا من لم يحرمنى عندما قلّ الشكرُ ، ويا من لم يخذلنى عندما قلّ الصبرُ ، ويا من رآنى على الخطايا فلم يفضحنى ، ويا من يكفى عن كل أحد ولا يكفى عنه أحدٌ ، يا أحدَ من لا أحد له ، يا سند من لا سند له ، انقطع الرجاء إلا منك ، نجّنى مما أنا فيه ، وأعنّى على ما أنا عليه ، بجاه وجهك الكريم ، وبحقّ سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ..آمين آمين .

اللهم اهدنا لصالح الأعمال والأخلاق فإنه لا يهدى لصالحها ولا يصرف عنا سيئها إلا أنت ، اللهم مغفرتك أوسع من ذنوبى ورحمتك أرجى عندى من عملى ، اللهم إنى أسألك بأسمائك الحسنى كلها الحميدة الكريمة التى إذا وضعت على شيء ذلّ لها ، وإذا طُلب بها الحسناتُ أُدركت ، وإذا دُرِئ بها السيئات صُرفت ، يا من لا يسكن قلبٌ إلا بقربه وقراره ، ولا يحيا عبدٌ إلا بلطفه وإبراره ، ولا يبقى وجودٌ إلا بإمداده وإظهاره ، يا من آنس عبادَه الأبرار بمناجاته وأسراره ،

يا من أمات وأحيا ، وأقصى وأدنى وأسعد وأشقى وأضل وهدى وأفقر وأغنى وأبلى وعافى ، وقدّر وقضى ، كلٌ بعظيم لطف تدبيره ، وسابق تقديره ، يا من إليه يلجأ الخائفون ، يا من بكرمه وجميل عوائده يتعلق الراجون ، يا من بسلطان قهره وعظيم برّه ورحمته يستغيث المضطرون ، يامن لوسيع عطائه وجميل فضله ونعمائه تُبسط الأيدى ويسأله السائلون ، إلهى بابك مفتوحٌ للسائل ، وفضلك مبذولٌ للنائل ، وإليك منتهى الشكوى وغاية الوسائل ، يا من إليه رفعُ الشكوى ، يا عالم السر و

النجوى ، يا من يسمع ويرى ، ويا من هو بالمنظر الأعلى ، يا عظيم الجناب ، يا كريم ُ يا وهاب ، يا من غمر العباد فضلُه وعطاؤه ، ووسع البريةَ جودُه ونعماؤه ، ليس إلا كرمُك وجودُك ، يا من لا ملجأ منه إلا إليه ، يا من يُجير ولا يُجار عليه ، رب إلى من أشكو حالتى وأنت العليم القادر ، أم بمن أستنصر وأنت الولى الناصر ، أم بمن أستغيث وأنت القوى الناظر ، أم إلى من ألتجى وأنت الكريم الساتر ،أمّن ذا الذى يجبر كسرى وأنت للقلوب جابر ، أمّن ذا الذى يغفر عظيمَ ذنبى وأنت الرحيم الغافر ، يا من هو المطّلع على مكنون الضمائر ، يا من هو فوق عباده قاهر ، سبحان الله تسبيحًا يليق بجلال من له السبحات ،
والحمد لله حمدًا كثيرًا يوافى نعمَه ويكافئ مزيدَه على جميع الحالات ، والله أكبر من أن يُحاط ويُدرك ، بل هو مُدرِك محيط بكل الجهات ، العلى العظيم رفيع الدرجات ، إلهنا .. تعاظمتَ على الكبراء والعظماء فأنت الله الكبير العظيم ، وتكرّمتَ على الأغنياء والفقراء فأنت الله الغنى الكريم ، ومننتَ على العصاة والطائعين بسعة رحمتك فأنت الله الرحمن الرحيم ، لا تدبير للعبد مع تدبيرك ، أشهدتَ من شئت حظيراتِ قدسك ، ولطائف معانى سرّك الباطن الظاهر بأنواع التجليات ، إلهنا .. أى كيد للشيطان وهو ضعيف مع قوتك واقتدارك ، وأى ران على القلوب مع ظهور أنوارك ، إلهنا ..إذا عمرت قلبًا اضمحل عنه كلُ شيطان ، وإذا عُنيتَ بعبد لم يكن لأحد عليه سلطان ، سبحانك .. خلّصتَ أرواحَ من اختصصتَ من ضيق ا لأشباح إلى فضاء الشهود ، لا موجود إلا بوجودك ، ولا حياة للأرواح إلا بشهودك ، إلهنا .. طهّر قلوبَنا من الدنس لتكون محلًا لتنزلات جودك ، وخلّصنا من لوَث الأغيار بخالص توحيدك حتى لا نشهد غيرَ أفعالك وصفاتك ، وتجلّى عظيم ذاتك ، فإنك أنت الله الواهب المانح ، الهادى القادر الفاتح ، إلهنا .. إن الخير كله بيدك وأنت واهبه ومعطيه ، وعلمه مُغيّب عن العبد لا يدرى من أين يأتيه ، وطريقه عليه مبهم مجهول ، لو لا أنت دليله إليه وقائده وهاديه ، إلهنا .. خذ بنواصينا إليه هو أحسنه وأتمه ، وخصّصنا بما هو أوسعه وأعمه ، أنت الكنز الذى لا حد له ولا نفاد ، إلهنا .. أعطنا فوق ما نؤمِّل ولا يخطر ببال ، لا رادّ لما قضيتَ ولا مبدّل

لما حكمتَ ،ولا هادى لمن أضللت ولا مضل لمن هديت ، ولا مُقعِد لمن أقمتَ ولا مُعذِّب لمن رحمت ، لا قوة لنا على الطاعة ولا حول لنا عن المعصية إلا بك ، إلهنا .. ما حيلة العبد وأنت تُقعِده وما وصوله وأنت تبعده ، هل الحركات والسكنات إلا بإذنك ، إلهنا .. اقطع جميعَ توجّهاتِنا بـ التوجه إليك ، هنيئا لمن سبقت له منك العناية ، وفاز بالقرب والرعاية ، فحكمك عدل وسرّك غامض فى هذا الخلق ، وما ندرى ما يُفعل بنا ، فافعل بنا ما أنت أهله ، إنك أهل التقوى وأهل المغفرة ، إلهنا .. نسألك بجلال كمال وجهك الكريم ، وبضياء سناء نورك العظيم ، وبتدقيق تحقيق علمك يا عليم ، أن تُنزّل على قلوبنا من نور الذكر والحكمة ، ما نجد بالحس والمشاهده بَرْدَه ، حتى لا ننساك ولا نعصيك أبدًا ، وكن لنا سمعًا وبصرًا وقلبًا ويدًا ومؤيدًا ، إن رجاءنا لا ينقطع عنك وإن عصيناك ، كما أن خوفنا لا يزايلنا منك وإن أطعناك ، نسألك اللهم باسمك العظيم الأ عظم الكبير الأكبر الذى من أسعدته ورحمتَه ألهمتَه أن يدعوك به أن تقسم لنا من الرحمة والمغفرة ما تصلح به شأننا كله ، وأن تحيينا حياة طيبة ,ياجامع .. يا من لا يمنعه من العطاء مانع ، يا معطى النوال قبل السؤال ، أنت الله لا إله إلا أنت ، الأحد المتوحّد الفرد المتفرّد ، الكريم المتكرّم العظيم المتعظّم الكبير المتكبّر الدائم الأدوم ، الأول قبل كل أحد والآخر بعد كل عدد ، الدانى فى علوه والعالى فى دنوه ، ذو البهاء و المجد والكبرياء والحمد ، أنت الله الذى لا يحويك مكان ولم يُعْيِك برهانٌ ولا بيان ، أحصيتَ كلَ شيء عددًا ، ووسعتَ كلَ شيء علمًا ،أنت الله الذى لا ضد معك فيعاندك ، ولا عدل لك فيكاثرك ، ولا ند لك فيعارضك ، سبحانك لا تُحَس ولا تُجَس ولا تُمَس ، ولا تكاد ولا تُماطَل ، ولا تُنازَع ولا تُخادَع ولا تُجادَل ، ولا تُمارى ولا ت ُ م ا ك َ ر ، لك الحمد حمدًا يدوم بدوامك ، خالدًا بنعمتك ، ولك الحمد حمدًا يوازى صنعك ، ولك الحمد حمدًا يزيد على رضاك ، مع حمد كل حامد وشكر كل شاكر ، أكرم مسئول وخير مقصود ، رفيع الدرجات ومنزل البركات ، ضجتْ إليك الأصواتُ بصنوف اللغات يسألونك الحاجات ، وحاجتى إليك ألا تنسانى فى دار البِلى إذا نسينى أهلُ الدنيا .

اللهم إنك تسمع كلامى وترى مكانى وتعلم سرّى وعلانيتى ولا يخفى عليك شيء من أمرى ، أنا البائس الفقير المستغيث المستجير ، الوجل المشفق المعترف بذنبه ، أسألك مسألةَ المسكين وأبتهل إليك ابتهال المذنب الذليل ، وأدعوك دعاءَ الخائف الضرير دعاء من خضعتْ لك رقبتُه وفاضت لك عبرته وذلّ لك جسمُه ورَغِم لك أنفُه .. اللهم لا تجعلنى بدعائك رب شقيًا ، وكن بى رءوفًا رحيمًا خير المسئولين وأكرم المعطين .

إلهى .. أخرستْ المعاصى لسانى فما لى وسيلة من عمل ولا شفيع سوى الأمل ، يا ملجأ كل حى وولى كل مؤمن ، اللهم إياك أمّلنا وما عندك طلبنا ، ولإحسانك تعرضّنا ورحمتك رجونا ، ومن عذابك أشفقنا وإليك بأثقال الذنوب هربنا ، من يملك حوائجَ السائلين ويعلم ضمائرَ الصادقين ، يا من ليس معه ربٌ يُدعى ويامن ليس فوقه خالقٌ يُخشى ، ويامن ليس له وزيرٌ يؤتى ولا حاجبٌ يُرشى ، يا من لا يشغله شأنٌ عن شأن ولا سمع عن سمع ، ولا تشتبه عليه الأصوات ، يا من لا تُغَلِّطه المسائلُ ولا تختلف عليه اللغاتُ ، يا من لا يبرمه إلحاحُ الملحِّين ولا تضجره مسألةُ السائلين ، أذقنا بردَ عفوك وحلاوة مناجاتك.

الحمد لله الذى أحاط بكل شيء سلطانُه ووسعت كلَ شيء رحمتُه ، لك الحمد على حلمك بعد علمك وعلى عفوك بعدقدرتك ، ولك الحمد على ما تأخذ وتعطى حمدا لا يقصِّر عن شيء من محامدك ، اللهم إنى أحمدك بمحامدك كلها ما علمتُ منها وما لم أعلم ، وأحمدك بالذى أنت أهله ، الله م أنت الخالق وأنا المخلوق وأنت الرازق وأنا المرزوق ، وأنت الرب وأنا العبد وأنت العزيز وأنا الذليل ، وأنت الغنى وأنا الفقير وأنت القوى وأنا الضعيف ، وأنت المعطى وأنا السائل وأنت الغفور وأنا الخاطئ وأنا عبدٌ أموت وأنت الحى الذى لا يموت ، لا يفوتُك شيء ولا يمتنع منك أحدٌ ، يا من أسبغ عليّ نعمَه فعصيتُه فلم يُزل عنى نعمتَه ، يا من ستر عيوبى وأظهر محاسنى حتى كأنى لم أزل أعمل بطاعته ، يا من أرضيتُ العبادَ بسخطه فلم يكلنى إليهم وأغنانى من سعة فضله ورحمته ، ياذا العز المنيع يا ذا الجاه الرفيع ، يا خير الغافرين يا خير الرازقين ياخير

المنعمين يا خير الفاصلين يا خير الناصرين يا أحكم الحاكمين يا أسرع الحاسبين يا أرحم الراحمين ، يا جميل الصفح يا حسن التجاوز,وصل اللهم على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم,سبحان ربك رب العزة عما يصفون,وسلام على المرسلين,والحمد لله رب العالمين .

زاد المحبة والمعرفة والوراثة (2)

الكبرياء والعظمة والخلق والأمر والحول والقوة والسلطان لله ، اللهم أنت تكشف المغرمَ والمأثم ، اللهم لا يُهزم جندُك ولا يخلف وعدك ، ولا ينفع ذا الجدِّ منك الجدُّ الحمد لله الذى يمسك السمواتِ والأرضَ أن تزو لا ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده ، الحمد لله الذى عافانى وفضلنى على كثير ممن خلق تفضيلًا ،..

اللهم إنى أسألك من فضلك العظيم ورضوانك الأكبر ، اللهم إليك المشتكى وبك المستعان وعليك التكلان يا حى يا قيوم ، إنك ربٌ عظيم لا يسعك شيء مما خلقتَ ، وأنت ترى ولا تُرى ، وإنك بالمنظر الأعلى ، وإن لك الآخرة والأولى ، ولك الممات والمحيا ، وإن إليك المنتهى و الرُجعى .

يا من هو المحيط الجامع ويا من لا يمنعه من العطاء مانع ، يا من له الغنى المطلق ولعبده الفقر المحقق ، يا من له الوجود المطلق فلا يُعلم ما هو إلا هو ، ولا يُستدل عليه إلا به ، يا جوادًا فوق الآمال يا معطى النوال قبل السؤال ، يا من هو لكل شيء واهب وإذا شاء سالب ، تجليات أنوارك لا تُدرك ولا تُلحق ، ورموز أسرارك لا تنحلّ ولا تنفك ، أيعلم الموجودُ كُنْهَ من أوجده ، أم يبلغ العبدُ حقيقةَ من استعبده ، كيف أعرفك وأنت الباطن الذى لا تُعرف ، أم كيف لا أعرفك وأنت الظاهر الذى فى كل شيء تتعرف ، يا عليم علمنى من علمك ، يا حكيم أيّدنى بحكمتك ، يا سميع َ أ س ْ م ع ن ى منك يا بصير بصّرنى فى آلا

ئك ، يا خبير فهّمنى عنك يا حيّ أحينى بذكرك ، يا مريد خلّص إرادتى بمنّتك وقدرتك وعظمتك إنك على كل شيء قدير .

يا من أبرز نورَ كل موجود من ظلمة عدمه ، أناديك استغاثة بعيد بقريب وأطلبك طلب محبٍّ لحبيب ، واسألك سؤال مضطر لمجيب ، سبحانك أعجزتَ كلَ طالب عن الوصول إليك إلا بك ، يا عزيز باعد بينى وبين أعدائك كما باعدتَ بين المشرق والمغرب واخطف أبصارَهم وزلزل أقدامَهم وادفع عنى شرّهم وضرهم بنور قدسك وجلال مجدك . إلهى .. كيف أُصَدّ عن بابك بخيبة منك وقد وردتُه على ثقة بك ، وكيف تؤيسنى من عطائك وقد أمرتنى بدعائك ، وهأنذا مقبل عليك مُتّجه إليك ، يا كاشف أسرار المعارف والعلوم ، إنك المحبّ المحبوب والطالب المطلوب ، ياواقى يا دافع يا محسن يا عطوف يا رءوف يا لطيف يا عزيز يا سلام ، إلهى .. أنت القائم بذاتك والمحيط بصفاتك والمتجلى بأسمائك و الظاهر بأفعالك والباطن بما لا يعلمه إلا أنت ، توحّدتَ بالكبرياء فى جلا لك فأنت الواحد الأوحد ، وتفرّدتَ بالبقاء فى الأزل والأبد ، أنت أنت الله المنفرد بالوحدانية فى إياك ، لا معك غيرك ولا فيك سواك ، إلهى .. أنت لا يحصرك الوجوبُ ولا يحدّك الإمكانُ ولا يحجبك الإبهامُ ولا يوضّحك البيانُ ولا يرجحك الدليلُ ولا يحققك البرهانُ ، أنت الأزل والأبد فى حقك سيان ، أنت المحيط بغيب كل شاهد والمستولى على كل باطن وظاهر ، أسألك بوجهك الذى عنتْ له الوجوه ، وبنورك الذى شخصتْ له ا لأبصار ، أن تهدينى إلى صراطك الخاص هدايةً تصرف بها وجهى عمن سواك ، يا من هو السيد المطلق وأنا العبد المقيد ، شأنك قهر الأعداء وقمع الجبابرة ، أسألك مددًا من عزتك يمنعنى من كل من أرادنى بسوء ، ظهرتَ فى كل باطن وظاهر ، ودمتَ بعد كل أول وآخر ، تنعّمَتْ بذكرك الشفاهُ أنت ربُ كل شيء ومربيه ، رحمتَ الذواتِ ورفعتَ الدرجاتِ ، قربُك روح الأرواح وريحان الأفراح وعنوان الفلاح وراحة كل مرتاح ، سيدى :التحيات لك ، أنت سندى وعالم أمرى ، تسمع ندائى وتجيب دعائى ، محوتَ بنورك ظلمتى وأحييت بروحك ميتتى وأعليتَ قدرى ورفعتَ ذكرى ، مليكى .. أناديك وأناجيك مناجاة عبد كسير يعلم أنك

تسمع ، ويطمع أنك تجيب ، واقفٌ ببابك وقوف مضطر لا يجد من دونك وكيلًا ، أسألك اللهم باسمك الذى أفضتَ به الخيراتِ وأنزلتَ به البركات ومنحتَ به أهلَ الشكر الزيادات وأخرجتَ به من الظلمات ، أن تفيض عليّ من ملابس أنوارك ما تردّ به عنى أبصارَ الأعادى حاسرة ، وأيديهم قاصرة ، واجعل حظى منك إشراقًا يجلو لى كل أمر خفى ويكشف لى عن كل سرٍّ عليّ ، يا نور النور يا كاشف كل مستور إليك ترجع الأمور وبك تُدفع الشرور ، أنت مسبب الأسباب ومرتِّبها ، ومُصرِّف القلوب ومقلبها ، أنت الباعث على كل خير ، لك الكبرياء والجبروت والعظمة و الملكوت ، تقهر الجبارين وتبيد الظالمين وتبدد شمل الملحدين وتذلُّ رقابَ المتكبرين ، أسألك يا غالب كل غالب ، ويا مُدرك كل هارب ، برداء كبريائك وإزار عظمتك وسرادقات هيبتك وبما وراء ذلك كله مما لا يعلم علمَه إلا أنت ، أن تكسونى هيبةً من هيبتك ، توجل لها القلوبُ وتخشع لها الأبصارُ، وملكنى ناصيةَ كل جبار عنيد وشيطان مريد ، وَأَبْق عليّ ذلّ العبودية فى ذلك كله ، واعصمنى من الخطأ والزلل ، وأيّدنى فى القول و العمل ، أنت مُثبّت القلوب وكاشف الكروب ، لا إله إلا أنت وجهى وجاهى ، وإليك المرجع والتناهى ، تجبر الكسيرَ وتكسر الجبارين ، وتجبر الخائفين وتخيف الظالمين ، لك المجد الأرفع والتجلّى الأجمع والحجاب الأمنع ، يا جامع الشتات ومُفيض الأنوار على الذوات ، تدعو من تشاء إليك وتدلّ بك عليك ، أنت الخير المحض والجود الصرف والكمال المطلق ، أسألك باسمك الذى أفضتَ به النورَ على القلوب والقوالب ، ومحوتَ به ظُلَمَ الغواسق ، أن تملأ وجودى نورًا من نورك الذى هو مادة كل نور ، وغاية كل مطلوب .

اللهم إنى أعوذ بك من قول يوجب حيرةً ، أو يعقب فتنة ، أو يوهم شبهة ، الحمد لله الذى أحلنى حمى لطف الله ، الحمدلله الذى أنزلنى جنةَ رحمة الله ، الحمد لله الذى أجلسنى فى مقام محبة الله ، الحمد لله الذى أذاقنى من موائد مدد الله ، الحمد لله الذى وهبنى لطافةَ الإضافة لا صطفاء الله ، الحمد لله الذى كسانى حلل صدق عبودية الله ، كل ذلك على ما فرطتُ فى جنب الله ، وضيّعتُ من حقوق الله ، وذلك الفضل من

الله ، ومن يغفر الذنوب إلا الله ، أسألك سلامةَ منحة الوداد ، من محنة البعاد ، ومحو ظلمة العناد ، بنور شمس الرشاد ، وفتح أبواب السداد ، بأيدى مدد إن الله لطيف بالعباد ، فأنت الذى أنعمتَ بالإيجاد من غير جهد ولا اجتهاد ، وجرتْ مطامعى من كرمك على بلوغ المراد ، من غير استحقاق لى ولا استعداد . إلهى .. تفضّلتَ فعمّ إفضالك ، وأنعمتَ فتمّ نوالك ، وسترتَ فتواصل غفرانك ، وغفرتَ فتكامل إحسانك ، تعاليتْ فى دنوك ، وتقرّبتَ فى علوك ، فلا يدركك وهمٌ ، ولا يحيط بك فهم ، أنت الواحد لا من عدد ، الباقى بعد الأبد ، إلهى .. كيف يحيط بك عقلٌ أنت خلقتَه ، أم كيف يحصى الثناءَ عليك لسانٌ أنت أنطقته ، إلهى .. كيف يناجيك فى الصلوات من يعصيك فى الخلوات لولا حلمك ، أم كيف يدعوك عند الحاجات من ينساك عند الشهوات لولا فضلك ، وكيف تنام العيون وفى كل ليلة تقول هل من تائب هل من سائل ،

أم كيف كفّتْ الأكفُ عن سؤالك وسيل الجود سائل ، أم كيف يباع الباقى بالفانى وإنما هى أيام قلائل ، اللهم ارزقنا حسنَ الإقبال عليك والإصغاء إليك ، وارزقنا الفهمَ عنك والبصيرة فى أمرك ، والنفاذ فى طاعتك ، و المواظبة على إرادتك ، والمبادرة إلى خدمتك ، وحسن الأدب فى معاملتك ، والتسليم إليك والرضا بقضائك .

اللهم يا حبيب كل غريب ، ويا أنيس كل كئيب ، أى منقطع إليك لم تكفه بنعمتك ، أم أى طالب لم تلقه برحمتك ، أم أى مهاجر هجر فيك الخلقَ فلم تصله ، أم أى محبٍّ خلا بذكرك فلم تؤنسه ، أم أى داع دعاك فلم تجبه ، اللهم يا من يغضب على من لا يسأله لا تمنع من قد سألك ، من ذا الذى عاملك فلم يربح ،..

من ذا الذى التجأ إليك فلم ينجح ، من وصل إلى بساط قربك واشتهى أن يبرح ، تقدمتْ محبتُك لأقوام قبل خلقهم فى الأزل ، وغضبتَ على قوم فلم ينتفعْ عاملُهم بما فعل ، فلا قوة على طاعتك إلا بإعانتك ، ولا حول عن معصيتك إلا بمشيئتك ، ولا ملجأ منك إلا إليك ، ولا خير يرجى إلا من يديك ، يا من بيده إصلاح القلوب أصلح قلوبنا ، إنا قد أتيناك ط البين فلا تردنا خائبين ، لم نزل إلى باب جودك مائلين ، فأصلح كلَ قلب

قسا فلا يلين ، واسلك بنا مناهجَ المتقين ، وألبسنا خلعَ الإيمان واليقين ، بدروع الصدق فإنهن يقين ، ولا تجعلنا ممن يعاهد على التوبة ويمين ، واجعلنا بفضلك من السابقين أهل اليمين ، برحمة منك يا أرحم الراحمين .

إلهى .. لولا أنك بالفضل تجود ما كان عبدك إلى الذنب يعود ، ولولا محبّتك للغفران ما أمهلتَ من يبارزك بالعصيان ، وما أسبلتَ ستركَ على من أسبل ذيلَ النسيان، وما قابلتَ إساءتَنَا منك بالإحسان ، إلهى ما أمرتنا بالاستغفار إلا وأنت تريد المغفرة ، ولولا كرمك ما ألهمتنا المعذرة ، أنت المبتدئ بالنوال قبل السؤال ، والمعطى من الإفضال فوق الآمال ، اللهم إنا نسألك برحمتك التى بدأت بها الطائعين حتى قاموا بطاعتهم ، أن تمنّ بها على العاصين بعد معصيتهم ، فإنك المحسن بادئًا وعائدًا يا كريم ، اللهم انظر إلينا نظر الرضا ، والطف بنا فى القدر والقضا ، ونجّنا من ديوان أهل الجفا ، وأثبتنا فى ديوان أهل الصفا ، وارزقنا على ما عاهدنا حسن الوفا .

إلهى .. من أطمعنا فى عفوك وجودك وكرمك ، وألهمنا شكرَ نعمك ، وأتى بنا إلى بابك ، ورغّبنا فيما أعددته لأحبابك ، هل ذلك كله إلا منك ، دللتَنا عليك وجئتَ بنا إليك ، إلهى .. الصبر جميل إلا عنك والأسف قبيح إلا منك ، أعطيتَنا الإيمانَ قبل السؤال ، وهو أفضل ما تعطيه من النوال ، و الكريم لا يرجع فى هبته ، والغنى لا يعود فى عطيته ، اللهم اجعل الإ يمانَ هادمًا للسيئات كما جعلتَ الكفرَ هادمًا للحسنات ، أنت أكرم مسئول وأعظم مأمول ، يا حبيب التائبين ، وسرور العابدين ، وقرّة أعين العارفين، وأنيس المنفردين ، وحرز اللاجين ، وظهير المنقطعين ، ومن حنّتْ إليه قلوبُ الصديقين ، اجعلنا من أوليائك المتقين ، وحزبك المفلحين ، ارحمنا لكرم الربوبية وضعف العبودية .

إلهى .. أنت لنا كما نحبّ فاجعلنا لك كما تحب ، إلهى .. كل فرح بغيرك زائل ، وكل شغل بسواك باطل ، والسرور بك هو السرور ، السرور بغيرك هو الغرور ، إلهى .. أين يذهب عنك من لا يجد بدًّا منك ، يا من أعنتَنا على أكبر الطاعات الإيمان بك والافتقار إليك ، وأعنتنا على ترك أكبر

السيئات الشرك بك والافتراء عليك ، اغفر لنا ما بينهما ولا تخجلنا بين يديك ، اللهم تمّم ما به بدأتنا ، ولا تسلبنا ما به أكرمتنا .

إلهى .. إن نظرنا إلى فضلك فالعجب ممن هلك كيف هلك ، وإن نظرنا إلى عدلك فالعجب ممن نجا كيف نجا ، يا من ستر الزلاتِ وغفر السيئات وأبدلها حسنات ، أجرنا من مكرك وزيّنا بذكرك واستعملنا بأمرك ووفقنا لشكرك ، واغفر لنا ولوالدينا ولجميع المسلمين .

اللهم إنك إن تكلنى إلى نفسى تكلنى إلى ضعف وعورة وذنب وخطيئة ، وأنا لا أثق إلا برحمتك فاغفر لى ذنوبى كلها فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت ، سبحان ذى الملك والملكوت ، سبحان ذى العزة والجبروت ، سبحان الحى الذى لا يموت ، أنت عضدى ونصيرى ، بك أحول وبك أصول وبك أقاتل ولا حول ولا قوة إلا بك ، أقرب شهيد وأدنى حفيظ ، وأنصر من ابتُغى وأرأف من ملك ، وأجود من سُئل وأوسع من أعطى ، كل شيء ه الك إلا وجهك .

اللهم إنك تعلم أنى بالجهالة معروف ، وأنت بالعلم موصوف ، وقد وسعتَ كلّ شيء من جهالتى بعلمك ، فسع ذلك برحمتك كما وسعتَه بعلمك ، واغفر لى إنك على كل شيء قدير , يا وهاب هب لنا من نُعماك ما علمتَ لنا فيه رضاك ، واكسنا كسوةً تقينا بها من الفتن فى جميع عطاياك ، وقدّسنا بها عن كل وصف يوجب نقصًا مما استأثرتَ به فى علمك عمن سواك ، نسألك الفقرَ مما سواك ، والغنى بك حتى لا نشهد إلا إياك ، والطف بنا لطفًا علمتَه يصلح لمن والاك ، واكسنا جلابيبَ العصمة فى الأنفاس واللحظات ، وعلّمنا من لدنك علمًا نصير به كاملين فى المحيا والممات ، اللهم أنت الحميد الربّ المجيد الفعّال لما تريد ، تعلم فرحَنا بماذا ولماذا وعلى ماذا وتعلم حزننا كذلك ، وقد أوجبتَ كونَ ما أردته فينا ومنا ولا نسألك دفعَ ما تريد ، ولكن نسألك التأييد بروح من عندك فيما تريد ، كما أيدتَ رسلك وأنبياءك وخاصّةَ الصديقين من خلقك ، إنك على كل شيء قدير .

اللهم إن كل عزٍّ يمنع دونك نسألك بدلَه ذلًا تصحبه لطائفُ رحمتك ، وكل وُجْدٍ يحجب عنك فنسألك عوضَه فقدًا تصحبه أنوارُ محبتك ، وهب لنا

من موارد السعداء واعصمنا من موارد الأشقياء ، ونسألك عزّ الدنيا والآ خرة ، عز الدنيا بالإيمان والمعرفة ، وعز الآخرة باللقاء والمشاهدة ، إنك سميع قريب مجيب ، أقسمتُ عليك ببسط يديك وكرم وجهك ونور عينيك وكمال أعينك ، أن تعطينا خيرَ ما نفذتْ به مشيئتُك وتعلّقتْ به قدرتك وأحاط به علمُك ، واكفنا شرَ ما هو ضدٌ لذلك وأكمل لنا دينَنا وأتمم علينا نعمتَك ، وهب لنا حكمةَ الحكمة البالغة ، مع الحياة الطيبة و الموتة الحسنة ، وتول قبضَ أرواحنا بيدك ، وحل بيننا وبين غيرك فى البرزخ وما قبله وما بعده ، بنور ذاتك وعظيم قدرتك وجميل فضلك ، واكتب لنا من الرزق ما توصّلنا به إلى رحمتك ، ومن رحمتك ما تحول به بيننا وبين نقمك ، ومن حلمك ما يسعنا به عفوك ، واختم لنا بالسعادة التى ختمتَ بها لأوليائك ، واجعل لنا برزخًا بيننا وبين أعدائك ، واجعل خيرَ أيامنا وأسعدها يوم لقائك ، وزحزحنا فى الدنيا عن نار الشهوة ، واجعل لنا ظهيرًا من عقولنا ، ومُهيمِنًا من أرواحنا ، ومُسخّرًا من أنفسنا كى نسبحك كثيرًا ، ونذكرك كثيرًا ، وهب لنا مشاهدة تصحبها مكالمة ، واذكرنا إذا غفلنا عنك بأحسن مما تذكرنا به إذا ذكرناك ، وارحمنا إذا عصينا بأتم مما ترحمنا به إذا أطعناك ، والطف بنا لطفًا يحجبنا عن غيرك ولا يحجبنا عنك اللهم يا من لطفه بخلقه شامل ، وخيره لعبده واصل ، وستره على عباده سابل ، لا تخرجنا عن دائرة الألطاف ، وأمِّنا من كل ما نخاف ،

وكن لنا بلطفك الخفى الظاهر ، نسألك وقايةَ اللطف فى القضا والتسليم مع السلامة عند نزوله والرضا ، يا لطيف لم تزل حقنا بلطفك فيما نزل , إلهنا .. من رعتْه عينُ عنايتك ياقدير كان ملطوفًا به فى التقدير محفوظًا ملحوظًا برعايتك يا كبير ، ارعنا بعين عنايتك يا خير من رعى ، إلهنا .. لطفك الخفى ألطف من أن يُرى ، وأنت اللطيف الذى لطفتَ بجميع الورى ، وقد حجبتَ سريانَ سرّك فى الأكوان ، فلا يشهده إلا أهلُ المعرفة والعيان ، فلما شهدوا سرّ هذا اللطف الواقى ، هاموا مادام لطفك الدائم الباقى ، إلهنا .. أنت اللطيف بعبادك ، لاسيما بأهل محبتك ووددك ، خصّنا بلطائف اللطف يا جواد ، إلهنا .. لطفتَ بنا قبل كوننا ونحن للُطف

إذ ذاك غير محتاجين ، أفتمنعنا منه مع الحاجة وأنت أرحم الراحمين ، حاشا لطفك الكافى ولطفك الوافى يُمنع عنا وأنت الشافى ،..

إلهى .. لطفك هو حفظك إذا رعيتَ ، وحفظك هو لطفك إذا وقيتَ ، فأدخلنا فى سرادقات لطفك واضرب علينا أستارَ حفظك ، يا لطيف نسألك اللطفَ أبدًا ، يا حفيظ قنا السوءَ وشرّ العدا ، يا لطيف من لعبدك العاجز الخائف الضعيف ، آنسنى بلطفك يا لطيف أنسَ الخائف فى حال المَخيف ، تأنّستُ بلطفك يا لطيف ، وُقيتُ بلطفك الردى فى المخيف ، واحتجبتُ بلطفك من العدا يا لطيف ، اللهم إنى أسألك يالطيف أن تلطف بى لطفًا جميلًا لا يدركه وهمُ الواهمين ، يا خفى الألطاف نجنى مما أخاف . اللهم أغننا بلا سبب واجعلنا سبب الغنى لأوليائك ، وبرزخًا بينهم وبين أعدائك ، وأفض علينا من بحر كرمك وفضلك ، ونورك وعفوك ، حتى نخرج من الدنيا على السلامة من وبالها ، واجعلنا عند الموت ناطقين بالشهادة عالمين بها ، وارؤف بنا رأفةَ الحبيب بحبيبه عند الشدائد ونزولها ، وأرحنا من هموم الدنيا وغمومها بالروح والريحان إلى الجنة ونعيمها ، واجعل سيئاتِنا سيئات من أحببتَ ، ولا تجعل حسناتنا حسنات من أبغضتَ ، فظاهر الإحسان لا ينفع مع البغض منك ، وظاهر الإساءة لا يضر مع الحب منك ، وقد أبهمتَ الأمر علينا لنرجو ونخاف ، فأمّن خوفَنا ولا تخيب رجاءَنا ، وأعطنا سؤلنا ، وَأسْفر وجوهَنا بنور صفاتك ، وأضحكنا وبشرّنا يوم القيامة بين أوليائك ، واجعل يدَك مبسوطة علينا وعلى أهلنا وأولادنا ومن معنا ، برحمتك يا ذا الجلال والإكرام .

يا محيطًا بالليالى والأيام ، أشكو إليك من غمّ الحجاب وسوء الحساب وشدة العذاب ، وإن ذلك لواقع ما له من دافع إن لم ترحمنى ، ولقد شكا إليك يعقوبُ فخلّصتَه من حزنه ورددتَ عليه ما ذهب من بصره وجمعتَ بينه وبين ولده ، ولقد ناداك نوحُ من قبل فنجيتَه من كربه ، ولقد ناداك أيوبُ من بعد فكشفتَ ما به من ضرّه ، ولقد ناداك يونسُ فنجيتَه من غمه ، ولقد ناداك زكريا فوهبتَ له ولدًا من صلبه ، بعد يأس أهله وكبر سنه ، ولقد علمتَ مانزل بإبراهيم فأنقذته من نار عدوه ، وأنجيتَ لوطًا

وأهله من العذاب النازل بقومه ، فهأنذا عبدك إن تعذبنى بجميع ما علمتَ فأنا حقيق ، وإن ترحمنى كما رحمتَهم مع عِظَم إجرامى فأنت أولى بذلك ، وأحق من أكرم به .

اللهم إنا نسألك الخوفَ منك والرجاء فيك والمحبةَ لك والشوقَ إليك والأ نس بك والرضا عنك والطاعة لأمرك ، على بساط مشاهدتك ناظرين منك إليك ، وناطقين بك عنك ، لا إله إلا أنت ، من ذا الذى يرحمنى غيرك ، ومن ذا الذى يسعدنى سواك ، فارحمنى وأرنى سبيلَ الرشد ، واهدنى إليه سبيلًا ، وأرنى سبيلَ الغى وجنبنى إياه سبيلًا، وأصْحِبنى منك الحقَ والنور والحكم والعقل والبيان ، واحرسنى بنورك يا حق يا مبين يا فتّاح ، افتح قلبى بنورك ، وعلمنى من علمك ، وفهّمنى عنك وَأسْمِعنى منك وبصّرنى بك وأحينى بنور حياتك وقدِّرنى بك ، وامنعنى من كل عدو هو لك ومن كل شيء يشغلنى عنك ، وهب لى لسانًا لا يفتر عن ذكرك ، وقلبًا يسمع بالحق منك ، وروحًا يكرّم بالنظر إلى وجهك الكريم ، وسرًّا ممتّعًا بحقائق قربك ، وعقلًا حامدًا لجلال عظمتك .

إنى أشكو إليك ضعفَ قوتى وقلةَ حيلتى وهوانى على المخلوقين وأنت رب العالمين ورب المستضعفين مثلى ، ربِّ أشكو إليك تلونَ أحوالى وتوقفَ سؤالى وضعف قوتى وحيلتى وحالى ، يا من تعلقتْ بلطيف كرمه عوائدُ أمالى ، يا من يعلم نطقى قبل سؤالى ، وعاقبة أمرى ومآلى ، ولا يخفى عليه خفيٌ حالى ، ربِّ إن ناصيتى بيدك وأمورى كلها راجعة إليك ، وآلامى وأحزانى وهمومى وغمومى وكروبى وشدائدى معلومة لديك ، يا من يعلم ألمى وحقيقةَ ما بى ، أنت ملجئى ووسيلتى ، وذخرى وعمدتى ، إليك أرفع بثّى وحزنى وشكايتى ، وأرجوك لبُرْء علّتى ورفع غمّى وبليّتى ، إلهى .. بابك مفتوح للسائل وفضلك مبذول للنائل ، وإليك منتهى الشكوى وغاية الوسائل ، عبدك قد ضاقتْ به الأسبابُ ، وغُلّقتْ دونه الأبوابُ ، وأنت المرجو لكشف هذا المُصاب ، وإزالة كل حجاب ، ربّ لا تحجب دعوتى ، ولا تكلنى إلى حولى وقوتى ، فقد ضاق صدرى وتحيرتُ فى أمرى ، وأنت العالم بسرى وجهرى ، المالك لنفعى وضرى ، القادر على انشراح صدرى وتيسير عسرى وتسهيل أمرى، وفكاك

أسرى, وتفريج كربى وضرى ، رب ارحم من عظم مرضُه وعزّ شفاؤه ، وأنت ملجؤه ورجاؤه ، وغوثه وشفاؤه ، يا من غمر العبادَ فضلُه وعطاؤه ، ووسع البريةَ جودُه ونعماؤه ، هأنذا عبدك فقير إلى رحمتك محتاج إلى ما عندك ، منتظر إلى رفدك وجودك وكرمك ، وإحسانك ونعمك وعفوك ومغفرتك ، يارب ارحم من ضاقتْ عليه الأكوانُ ، ولم تؤنسه الثقلان ، يا من لا يسكن قلبُ المحب إلا بقربه ، ولا يحيا لُبٌ المشوق إلا بوده ، يا من آنس عبادَه الأبرار بمناجاته وأسراره ، وأمداده وأنواره ، هل من حاكم سواك فَتُرفع إليه الشكوى ، أم هل طبيب غيرك فيكشف الضرّ و البلوى ، ليس إلا كرمُك وجودُك ، فقد جفانى القريبُ ، وملنى الطبيبُ ، واشتد بيَ الكربُ والنحيب ، وأنت الودود القريب ، يا مُمرضِى وأنت طبيبى ، يا مُسقمى وأنت حبيبى ، فلمن يارب أشتكى ضعف حالتى و الذى بى ، يا من يسمع تضرعى وندائى ، ويا من تُرفع إليه شكايتى ودعائى ، يا مُفرّج الكربات وغافر الخطيئات وقاضى الحاجات ومستجيب الدعوات ومُجلِى المهمّات ورافع الملمّات ودافع البليّات وكاشف الظلمات وساتر العورات, يا مُزيل العظيمات,ورفيع الدرجات ,يارب الأرضين والسموات ، خذ بيدى وارحم قلةَ صبرى وضعف تجلُدى ، وارحم من ضاقتْ به الحيلُ ، فقد عجزتْ قدرتى وضعفتْ قوتى وقلتْ حيلتى وتاهتْ فكرتى وأشكلتْ قضيتى ، واتسعتْ قصتى وساءتْ حالتى وعظمتْ حسرتى ، وفضح مكنونَ سرّى إسبالُ دمعتى ، وأنت ملجئى ووسيلتى ، وإليك أرفع بثّى وحزنى وشكايتى ، وأرجوك لدفع ملمتى ، رب ّ ِ إلى من أشتكى وأنت العليم القادر ، أم بمن استنصر وأنت الولى النّاصر ، أم بمن أستعين وأنت القوى القاهر ، أم إلى من أتوجّه وأنت الكريم الساتر ، يا من هو الأول والآخر والظاهر و الباطن ، أزل حَيرةَ هذا العبد الحائر ، وجُد بالعناية واللطف والهداية و التوفيق والرعاية على عبد ليس له منك بُدّ وهو إليك صائر ، أدرك بقيةَ من ذابتْ حشاشتُه قبل الفوات فقد ضاقتْ به الحيلُ ، وأطلقنى من سجن الحجاب ، وامنن عليّ بما مننتَ به على الأولياء الأحباب ، وطهّر قلبى من الشك والشرك والارتياب ، وثبّتنى فى الحياة الدنيا وعند

الممات على السنة والكتاب ، فقد ضاقتْ بعبدك الأسبابُ وتعذّر عليه سلوكُ طريق الصواب ، وغلِقتْ دونه الأبوابُ ، يا من لا يبرمه سؤالُ من سأل ،
أنت الذى بقدرتك خلقتَنى وبرحمتك هديتَنى وبنعمتك ربّيتَنى وبلطفك غذّيتَنى وبجميل سترك سترتنى وعلى فضلك العميم وكّلتَنى ، وفى أحسن صورة ما شئت ركّبتَنى ، وفى عوالم إبداعك أبديتَنى ، وفى خير أمة أُخرجتْ للناس أخرجتَنى ، فأتمم عليّ نعمتَك التى لا تُحصى ، وتمّم لديّ أياديك التى لا تُنسى ، واجعلنى ممن هدى واهتدى ، وممن سبقتْ له منك الحسنى . اللهم بسطوة جبروت قهرك,وبسرعة إغاثة نصرك,وبغيرتك لانتهاك حرماتك,وبحمايتك لمن احتمى بآياتك,يا منتقم يا قهار يا شديد البطش يا من لا يُعجزه قهرُ الجبابرة ولا يعظم عليه هلاكُ المتمردة ، من الملوك الأكاسرة ، اجعل كيدَ من كادنى فى نحره ، ومكر من مكر بى عائدًا إليه .
يا من أجاب نوحًا فى قومه ، يا من نصر إبراهيمَ على أعدائه ، يا من ردّ يوسفَ على يعقوب ، يا من كشف الضرّ عن أيوب ، يا من أجاب دعوة زكريا ، يا من قبِل تسبيحَ يونس بن متّى، نسألك بأسرار أصحاب هذه الدعوات المستجابات أن تتقبل ما به دعوناك ، وأن تعطينا ما سألناك ، وأن تنجز لنا وعدكَ الذى وعدته لعبادك المؤمنين ، واجعلنا ممن حُمِل فى سفينة النجاة ، وَوُقِى من جميع الآفات طول الحياة ، نجوتُ من كل خطب جسيم بقول ربى ولا يئوده حفظهما وهو العليّ العظيم ، سلمتُ من كل شيطان وحاسد بقول ربى وحفظًا من كل شيطان مارد ، كُفيتُ كلُ همٍّ فى كل سبيل بقولى حسبى الله ونعم الوكيل ، اصرف عنى وعمن تحيط بهم شفقةٌ قلبى ضُرّ الأضرار ومكرَ الفجار وشرّ الأشرار فى الليل والنهار ، يا عزيز يا غفار ، يا وهاب يا ستار يا حفيّ يا بارّ يا جبارّ يا شديد البطش يا قهار يا عزيز .. أعزنى بعزتك ، يا غفار .. اغفر لى ما علمتَه ، يا وهّاب .. هب لى نفسى ومالى وولدى ودينى ، وغطنى بسترك يا ستار ، يا حفى .. كن بى حفيًا ، يا بارّ .. اجعلنى فى عفوك واكتبنى من الأبرار ، يا شديد البطش حُل بينى وبين من يؤذينى ، يا قهار .. اقهر

من كادنى بسوء واغلل يدَه الباطشة فلا تُمَدّ إليّ ، ربّ أتوسل بك إليك وأقسم بك عليك ، اللهم كما كنتَ دليلى عليك ، فكن اللهم شفيعى إليك ، إن حسناتى من عطائك ، وسيئاتى من قضائك ، فجُدِ اللهم بما أعطيتَ على ما قضيتَ حتى تمحو ذلك بذلك كما قلتَ فى كتابك المبين,إن الحسناتِ يُذهبن السيئاتِ ، وقد جعلتَ لأسمائك حرمة ، فمن دعاك بها لا يشرك بك شيئًا أجبتَه ، ومن كل ما سألك من بركتها أعطيتَه ، فبحرمة أسمائك عليك وشرفها بك، وتعظيمها لديك قنى من الهمّ والغمّ والحزن والعجز والكسل والجبن والبخل والشك والضنك والكرب والسوء والا رتياب والغفلة والغلبة والقهر والمكر والغدر وشماتة الأعداء والحساد و البغى والعناد وسوء الظنّ واليقين وقهر الرجال وغلبة الدين ، وَصِلْنى بمواهبك ورفدك من حيث تعلم بما لا أعلم ، وارزقنى من رحمتك ما أحمدك به وأكون من المؤمنين ، ومن نعمتك ما أشكرك عليه وأكون من المحسنين ، وارزقنى من لطائف عزّك ومواهبك ما أكون به بارًّا تقيًا من الصالحين ، وهب لى صبرًا جميلًا على بلائك لأكون من الصابرين ، اللهم إن عظمتك ملأتْ قلوبَ أوليائك فصغرلديهم كلُ شيء ، فاملأ قلبى بعظمتك حتى لا يصغر ولا يعظم عليه شيء . لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين ، وحسبنا الله ونعم الوكيل.

زاد المحبة والمعرفة والوراثة (3)

أعوذ بالله الذى لاإله إلا هو المُمسِك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه ، من شرّ الإنس والجنّ ، لا إله إلا الله وحده أعزّ جندَه ، ونصر عبدَه وغلب الأحزابَ وحده فلا شيء بعده ، سبحان الملك القدوس ربِّ الملا ئكة والروح ، جلّلتَ السمواتِ والأرضَ بالعزة والجبروت ، سبحان ذى الملك والملكوت والجبروت والكبرياء والعظمة ، اجعلنى مخلصًا لك وأهلى فى كل ساعة فى الدنيا والآخرة ، ذا الجلال والإكرام ، اسمع واستجب ، الله أكبر الأكبر ، حسبى الله ونعم الوكيل ، الله أكبر الأكبر ، إنا

لله وإنا إليه راجعون ، الحمد لله الذى بعزته وجلاله تتم الصالحاتُ ، الحمد لله حمدًا كثيرًا مع خلودك ، ولك الحمد حمدًا لا أجر لقائله إلا رضاك ، اغفر لى وارحمنى وعافنى وارزقنى واسترنى واجبرنى وارفعنى ولا تضلّنى ، أدخلنى الجنةَ برحمتك يا أرحم الراحمين .

يانور السموات والأرض ، يا زَيْن السموات والأرض ، يا جبّار السموات وا لأرض ، يا عماد السموات والأرض ، يا بديع السموات والأرض ، يا قيّام السموات والأرض ،ياذا الجلال والإكرام ، يا صريخ المستصرخين ، يا غياث المستغيثين ، يا كاشف السوء ومنتهى رغبة العابدين ، المُفرِّج عن المكروبين المروِّح عن المغمومين ، ومجيب دعاء المضطرين ، وكاشف الكرب يا إله العالمين ، ويا أرحم الراحمين ، منزول بك كل حاجةبك أُنزِل حاجتى وأنت أعلم بها فاقضها .

يا من أظهر الجميلَ وستر القبيحَ ، يا من لا يؤاخذ بالجريرة ولا يهتك السترَ ، يا عظيم العفو يا حسن التجاوز ، يا واسع المغفرة يا باسط اليدين بالرحمة ، يا صاحب كلّ نجوى يا منتهى كل شكوى ، يا كريم الصفح يا عظيم المنّ ، يا مبتدئ النعم قبل استحقاقها ياربنا ويا سيدنا ويا مولانا ويا غاية رغبتنا .. أسألك يا الله ألا تشوى خَلْقى بالنار ، يا من لا تراه العيونُ ولا تخالطه الظنونُ ، ولا يصفه الواصفون ولا تغيّره الحوادثُ ولا يخشى الدوائرَ ، يعلم مثاقيلَ الجبال ومكاييل البحار ، وعدد قطر الأمطار وعدد ورق الأشجار ، وعدد ما أظلم عليه الليل وأشرق عليه النهار ، ولا تُوارى منه سماءٌ سماءًا ولا أرضٌ أرضًا ، ولا بحرٌ ما فى قعره ولا جبلٌ ما فى وعره ، اجعل خيرَ عمرى آخره وخير عملى خواتمه ، وخير أيامى يوم ألقاك فيه ، واجعل لنا من لدنك سلطانًا نصيرًا ، واجعلنى حسنةً من حسناتك ورحمةً بين عبادك ، تهدى بها من تشاء إلى صراط مستقيم ، أنت الذى أيّدتَ من شئتَ بما شئت كيف شئت على ماشئت فأيِّدنا بنصرك لخدمة أوليائك ، ووسع صدورنا بمعرفتك عند ملا قاة أعدائك ، هب لى من نور أسمائك ما أتحقّق به من حقيقة ذاتك ، وأشهدنى كرمَك على بساط رحمتك ، وأوزعنى شكرَ نعمتك ، وغطّنى برداء عافيتك ، حتى لا أشرك بك غيرك ، وامنن عليّ بالفهم عنك .

إلهى .. أنا الفقير فى غناى فكيف لا أكون فقيرًا فى فقرى ، إلهى .. أنا الجاهل فى علمى فكيف لا أكون جهولًا فى جهلى ، إن ظهرتْ المحاسنُ منى فبفضلك ولك المنّةُ عليّ ، وإن ظهرتْ المساوى منى فبعدلك ولك الحجة عليّ ، إلهى .. من كانت محاسُنه مساوى فكيف لا تكون مساويه مساوى ، ومن كانت حقائقه دعاوى فكيف لا تكون دعاويه دعاوى ، إلهى .. منّى ما يليق بلؤمى ومنك ما يليق بكرمك ، إلهى ..إن اختلاف تدابيرك وسرعة حلول مقاديرك ، منعا عبادَك العارفين بك من السكون إلى عطاء ، واليأس منك فى بلاء ، إلهى .. وصفتَ نفسَك باللطف والرأفة بى قبل وجود ضعفى أفتمنعنى منهما بعد وجود ضعفى ،

إلهى .. كيف تكلنى إلى نفسى وقد توكّلتَ لى ، وكيف أُضام وأنت الناصر لى ، أم كيف أخيب وأنت الحفيٌ بى ، إلهى .. كيف أشكو إليك حالى وهو لا يخفى عليك ، أم كيف أُترجِم بمقالى وهو منك برز إليك ، أم كيف تخيب آمالى وهى قد وفدتْ إليك ، أم كيف لا تُحَسِّن أحوالى وبك قامتْ وإليك ، إلهى .. ما أقربك منّى وما أبعدنى عنك ، إلهى .. ما أرأفك بى فما الذى يحجبنى عنك ، إلهى .. قد علمتُ باختلاف الآثار وتنقّلات الأطوار أن مرادك منى أن تتعرّف إليّ فى كل شيء ، حتى لا أجهلك فى شيء ، إلهى .. كلما أخرسنى لؤمى أنطقنى كرمُك ، وكلما آيستنى أوصافى أطمعتنى مِنَنُك،..

إلهى .. حكمك النافذ ومشيئتك القاهرة لم يتركا لذى مقال ٍ مقالًا ولا لذى حالٍ حالًا ، إلهى .. كم من طاعة بنيتُها وحالة شيدتُها ، هدم اعتمادى عليها عدلُك ، بل أقالنى منها فضلُك ، إلهى .. أنت تعلم وإن لم تدُم الطاعةُ منى فعلًا جزمًا فقد دامتْ محبةً وعزمًا ، اللهم ارزقنى طاعتَك والغنى بك عنها ، إلهى .. أرجعنى إليك من الآثار كما دخلتُ إليك منها ، مصون السر عن النظر إليها ، ومرفوع الهمة عن الاعتماد عليها ، منك أطلب الوصول إليك وبك أستدل عليك ، فاهدنى بنورك إليك ، وأقمنى بصدق العبودية بين يديك ، وعلّمنى من علمك المخزون ، وصنّى بسرّ اسمك المصون ، وحققنى بحقائق أهل القرب واسلك بى مسالكَ أهل الجذب ، وأغننى بتدبيرك عن تدبيرى ، وباختيارك لى عن اختيارى ،

وأوقفنى على مراكز اضطرارى ، وأخرجنى من ذلّ نفسى ، وطهّرنى من شكّى وشركى ، قبل حلول رمسى (الدفن) ، كن أنت النصير لى حتى تنصرنى وتنصر بى ، وأغننى بفضلك حتى أستغنى بك عن طلبى ، أنت الذى أشْرَقْتَ الأنوارَ فى قلوب أوليائك ، وأنت الذى أزلتَ الأغيارَ من قلوب أحبائك ، أنت المُؤنس لهم حيث أوحشتْهم العوالمُ ، وأنت الذى هديتَهم حتى استبانتْ لهم المعالم ، ماذا وجد من فقدك وما الذى فقد من وجدك ، فقد خاب من رضى دونك بدلًا ، ولقد خسر من بغِى عنك متحولًا ، إلهى .. كيف يُرجى سواك وأنت ما قطعتَ الإحسانَ ، وكيف يُطلب من غيرك وأنت ما بدّلتَ عادةَ الامتنان ، يا من أذاق عبادَه حلاوةَ مؤانسته ، فقاموا بين يديه متملقين ، ويا من ألبس أولياءَه ملابسَ هيبته فقاموا بعزّته مُستعزّين ، أنت الوهاب ثم أنت لما وهبتنا من المستقرضين ، وأنت الجواد بالعطاء من قبل طلب الطالبين ، إلهى .. اطلبنى برحمتك حتى أصل إليك ، واجذبنى بمنتك حتى أقبل عليك ، إلهى .. كيف أستعزّ وأنت فى الذلة أركزتنى ، أم كيف لا أستعزّ وإليك نسبتَنى ، أم كيف لا أفتقر وأنت الذى فى الفقر أقمتَنى ، أم كيف أفتقر وأنت الذى بجودك أغنيتَنى ، أنت الذى لا إله غيرك ، تعرفّتَ لكل شيء فما جهلك شيء ، ورأيتك ظاهرًا فى كل شيء ، يا من استوى برحمانيته على عرشه فصار العرشُ غيبًا فى رحمانيته ، كما صارتْ العوالمُ غيبًا فى عرشه ، محوتَ الآثارَ بالآثار ، ومحوتَ الأغيارَ بمحيطات أفلاك الأنوار ، يا من احتجب فى سرادقات عزّه عن أن تدركه الأبصارُ ، يا من تجلّى بكمال بهائه فَتَحَقّقتْ عظمتَه الأسرارُ ، اللهم أخرجنا من التدبير معك أو عليك ، واجعلنا من المفوّضين إليك ، واجعلنا من المستسلمين إليك ، ومن الدائمين بين يديك ، وأخرج ظلماتِ التدبير من قلوبنا ، وَأشْرِقْ أنوارَ التفويض فى أسرارنا ، وأدخلنا رياضَ التفويض وجنّاتِ التسليم ونعّمنا فيها وبها ، واجعل أسرارَنا معك لا مع نعيمها ولذتها ، وبك لا بزينتها وبهجتها ، اللهم اجعلنا من المختارين لك ولا تجعلنا من المختارين عليك ، ومن المفوّضين لك لا من المعترضين عليك ، وَأشهدنا حسنَ اختيارك لنا حتى يكون ما تقضيه لنا وتختاره أحب إلينا من

مختارنا لأنفسنا ، اللهم َ أ ش ْ ر ِ ق ْ علينا من نور الاستسلام إليك والإقبال عليك ما تبتهج به أسرارُنا وتتكمل به أنوارُنا ، ألبسنا ملا بسَ لطفك ، وأقبل علينا بحنانيتك وعطفك ، ولا تشغلنا بشيء أنت ط البنا به عن شيء أنت طالبه منا ، ولا بما ضمنتَ لنا عما أمرتنا ، اللهم إنا عاجزون عن الانقياد إليك والدوام بين يديك إلا أن تُقدِرنا ، وضعفاء إلا أن تقوينا ، ومن أين لنا أن نكون بشيء إلا إن كوّنتنا ، وكيف لنا أن نصل لشيء إلا إن وصّلتنا ، وأنّى لنا أن نقوى على شيء إلا إن أعنتَنا ، فوفّقنا لما به أمرتنا ، وأعنّا على الانكفاف عما عنه زجرتنا ، اللهم إنك قد دبّرتَ كلّ شيء قبل وجود كل شيء ، وقد علمنا أنه لن يكون إلا ما تريد ، فليس هذا العلم نافعًا لنا إلا أن تريد,فَأرِدنا بخيرك وَشئنا بفضلك واقصِدنا بعنايتك وحقنّا برعايتك واكسنا من ملابس أهل ولايتك ، وأدخلنا فى وجود حمايتك ، إنك على كل شيء قدير ، ونسألك لطفاً فيما قضيتَ وتأييدا فيما أمضيتَ ، واجعلنا فى ذلك ممن رعيتَ ، ووصِّل إلينا قسمتَك بالهنا ، والسلامة من العنا ، مصانين بها من الحُجبة ، محفوفين فيها بأنوار الوصلة ، نشهدها منك فنكون لك بها من الشاكرين ، ونضيفها لك ولا نضيفها لأحد من العالمين ، وارزقنا ما علمتَ فيه المصلحةَ لنا ، والعود بالجدوى علينا ، وهب لنا القدرة على طاعتك ، وعجزًا عن معصيتك ، واستسلامًا لربوبيتك ، وصبرًا على أحكام ألوهيتك ، وعزًا بالانتساب إليك ، وراحة لقلوبنا بالتوكل عليك ، واجعلنا ممن دخل فى ميادين الرضا ، وكرِعَ من تسنيم التسليم ، وجَنى من ثمار المعارف ,وَأُلبِس خِلِعَ التخصيص ، وَأتحِف بتحفة القرب ، وفُوتِح من حضرة الحب ، دائمين على خدمتك ، مُحققين بمعرفتك ، متبعين لرسولك وارثين عنه وآخذين منه ، ومحقِّقين به وقائمين بالنيابة عنه ، واختم لنا منك بخير يا رب العالمين ، وحسبنا الله ونعم الوكيل ، والحمد لله رب العالمين ، وصلّ الله على سيدنا محمد ، وعلى آله وصحبه وكتيبته وأتباعه وعترته .. آمين .

بسم الله وبالله خير الأسماء ، حسبى الله لدينى ، حسبى الله لما أهمّنى ، حسبى الله لمن بغى عليّ ، حسبى الله لمن حسدنى ، حسبى الله لمن

كادنى بسوء ، حسبى الله عند الموت ، حسبى الله عند المسألة فى القبر ، حسبى الله عند الميزان ، حسبى الله عند الصراط ، حسبى الله لا إله إلا هو عليه توكلتُ وإليه أنيب ، الحمد لله الذى كسانى وآوانى وأطعمنى وسقانى والذى مَنّ عليّ فَأَفْضَلَ والذى أعطانى فأجزل ، يا من وعد فوفّى وأوعد فعفا ، اغفر لمن ظلم وأسا ، يامن تسرُّه طاعتى ولا تضرُّه معصيتى ، هب لى ما يسرّك واغفرلى ما لا يضرّك ، اللهم إنى أسألك باسمك بسم الله الرحمن الرحيم ، الحيّ القيوم الذى لا تأخذه سنة ولا نوم ، وأسألك باسمك بسم الله الرحمن الرحيم الحيّ القيوم الذى عنتْ له الوجوهُ ، وخشعتْ له الأصواتُ ووجلتْ له القلوبُ أن تصلّى على سيدنا محمد وأن تقضى حاجتى .

اللهم إنه ليس لى عليك حقٌ فأطلبه منك ، ولك عليّ حقٌ فلم أستطع كمالَ تأديتِه إليك ، ولكنّى أقف بوصف الذل والفقر والمسكنة على باب عزّك وغناك وكرمك ، وأمدّ كفَ الفقر والفاقة لوسيع عطائك ، اللهم هب لنا الخلوةَ معك والعزلة عما سواك ، واملأ أسماعَنا بلذيذ خطابك ، واصرفنا عن مشاهدة غيرك ، وَأَقْصِر أرجلَنا عن السعى فى غير طاعتك ، واجعل قلوبَنا مطمئنة بذكرك ، وعقولنا مسترشدة بعلمك ، وأبداننا هينة لينة بطاعتك ،

وهب لنا المداومةَ على ذلك على بساط العلم والمراقبة ، والتوسط بين الخوف والرجاء ، وأيّدنا فى استغراق رؤية ذلك بنور المعرفة والمشاهدة ، اللهم اسْتَغرِق أنفسَنا وعقولنا وأرواحنا وقلوبنا وأسرارنا فى أنوار جمالك وجلالك ، وألبسنا خِلَعَ الكمال ، وأستغرقنا فى نور التوحيد ، وأبقنا بك وبصِّرنا فى آلائك ،

وأحينا بروح القرب وانفحنا بروح الشوق ، واحجب أبصارَنا بأنوار جمالك عن مشاهدة الأغيار ، وضيّق علينا بقربك حتى نشهدك أقربَ إلينا من كل شيء ، وتجلّ علينا بعظمتك حتى لا نخاف أحدًا غيرك ، وَأَشْهدنا عظيم رحمتك حتى لا نرجو أحدًا سواك ، اللهم خذنا من كل شيء إليك واجمعنا بك عليك ، وزيّن ألسنتَنا بالصدق والعلم والحكمة وجوامع الكلم ، وأسماعَنا بالتصديق والوعْى ، وأنفسنا بالطمأنينة والعبودية ، وقلوبنا بـ

السكينة والإيمان ، وأرواحنا بالقرب والمشاهدة والمكالمة ، وأسرارنا بـ التحقيق والسيادة ، وامحُ صفاتِنا بأنوار صفاتك ،
واجمعنا على أهل العلم والمعرفة والولاية والخصوصية والاصطفائية وا لاجتبائية والمحبّة والولاية والجهاد بحسن الأدب والإخلاص فى القصد والتوفيق فى المطالب ، وهب لنا فرقانًا نُفرّق به بين الحق والباطل ، واسلك بنا طريقَ السنّة وجنّبنا طريقَ البدعة . إلهى .. من أقوى منّى حولًا وأنت حولى ، ومن أولى منّى بِوُجْدِ آماله وأنت مأمولى ، ومن أعظم منى قوة وأنت قوتى, ومن أحق منّى بالأمان وأنت عصمتى ، أنت ربّى وربّ الذين أردتَ أن تمن عليهم وتجعلهم أئمةً وتجعلهم الوارثين وتمكِّن لهم فى الأرض ، لك العظمةُ التى لا تُضاهى والنعمة التى لا تتناهى ، يا من توّحد بالأحدية فى الأزلية ، وتفرّد بالوحدانية فى الأ بدية ، لك سبحانك عزّ الفردانية وملك الربوبية وعظمة الألوهية و الصفات القدسية ، ما حواك مكان ولا أحاط بك زمان ، وأنت كل يوم فى شان ، تضع وترفع ، وتعطى وتمنع ، قدرتك قاهرة وأحكامك باهرة وأنوارك ظاهرة ، سبحانك من حيث أنت بما أنت على ما أنت وسبحانك من حيث سبّحك المسبّحون وقدّسك المقدّسون ، وسبحانك من حيث لا عبارة تدلّ عليك ولا إشارة تصل إليك ، لا يكيّفك فكرٌ ولا يعلمك علمٌ ولا يلحقك وهمٌ وليس لك كم ولا كيف ولا ظرف ولا أين ولا جهة تُسامِتُها الجهات ، ولا جسم ولا حس ولا قبل ولا بعد ، باينتَ الكلّ بوصفك القديم ، استحال عليك النقصُ ، وثبُتَ لك الجمالُ والجلال والكمال و البهاء والعظمة والتقديس والتنزيه والأحديّة والواحديّة والفردانية و الصمدانية والديمومية والجبروت والرحموت والرغبوت والرهبوت و الملك والملكوت، استويتَ على عرشك سبحانك استواءًا يليق بكمال التنزيه ، بلا قرارٍ ولا مماسة ولا تشبيه ، وتنزّلتَ بلا حركة ولا انتقال ، أحاطتْ أسماؤك بكل حقائق الوجود من جواهر وأعراض وأحوال وعقول وأرواح ووسائط ومركّبات وبسائط ، وتجليتَ بصفاتك فعلمتَنا تنزيهَ سرِّك المصون ، سبحانك ما أسمى أسماك ، وما أجلّ وأعظم مسمّاك ، حجبتَ الذاتَ بالصفات ، وسترتَ الصفاتِ بالأفعال ، حكمتك بالغة لا

تدركها العقولُ ، كل ذرّة منها تغنى المُستدِل بها عليك وتوصلُه إليك ، هذا إذا تجلّيتَ سبحانك فى حجاب المظاهر ، أما إذا تجليت سبحانك بِكُنْه الذات ، اضْمَحَلّتِ الأغيارُ وَأظلمتْ الأنوارُ ، وانقلبتِ المعرفةُ نكرًا و العلم جهلًا ، والفصاحة لُكنةً والوجود عدمًا , كان الله ولا شيء معه وهو الآن على ما عليه كان ، سبحانك تجلّيتَ بوصف الألوهية فتولّهتْ العقولُ وانفطرتْ القلوبُ وهامتْ الأرواحُ وحارتْ الأسرارُ وذلّتْ النفوسُ ، كل عزيز لسلطان عزّك ذليل ، وكل جبار متكبر لعظمة عظمتك حقير ، من ناديتَه إليك أقبل عليك ، ومن حجبتَه عنك حرمتَه منك ، ومن فتحتَ له بابَ الوِصال لبِسَ خِلعةَ الكمال ، فترى سيدى نحن ممن حَكمتْ له السابقةُ بسعادة العناية فى الأزل وأغنيتَه بك عن كل علم و عمل ، أنت المُمِدُ بالمدد فى الأزل والأبد ، بأمداد لا تُحصى ولا يحصرها العدُ فتُستقصى ، إلهنا .. سبحانك فى سابق علمك القديم تعَيَنّتْ ذرّاتُ العوالم وبإرادتك خصّصتَها ، وبقدرتك أبرزتها ، وبحكمتك رتبتَها ، وبأمدادك أمددتها ، ولولا ذلك تلاشتْ ، وما دام لها وجودٌ وعاشتْ ، سَعِد من واجهه فضلُك يا كريم ، ورحِمتْه رحمتُك يارحيم .

إلهنا .. سبحانك نور جمال حضرتك القدسية ، هيّمَ أهلَ محبتك فى البريّة ، وجلالُ سطوةِ عظمتِك الكبير ، خضع له كلُ كبير وصغير ، تجلّيتَ دائمًا وما حللتَ فى كون ولا مكان ولا زمان ، ولا حلّ بك حادثٌ يا ديّان ، إلهى هب لنا ما سألناك وما لم نسأل ، واكتبنا فى سجل السعادة الأبدية لأحبابك الذين سبقتْ لهم السعادةُ فى أمِّ الكتاب ، وَأشْرِقْ علينا من أنوارهم القدسية ، حتى نفوزَ كفوزهم ، ونعزّ كعزهم ، ونرقى معهم إلى حضرات الارتقاء حيث الشهود واللقاء ، اللهم مُنّ علينا بتلك المشاهد الربانيّة ، وأنزلنا عندك المنازلَ العيانية ، وخذ منا ولا تُبقِ فينا لغيرك بقية ، وطهّرنا بطهرك يا طهور وطيّبنا بطيبك يا طيب ، وقدِّسنا بقدسك يا قدوس ، نوّرنا بنورك يا نور ، كمّلنا بكمال الحضرة واجعلنا من أهل النضرة ، عجّل لنا خيرَك امنحنا ميرَك ، اجبرنا جبرَك ، نسألك باسمك المخزون المكنون الطاهر المطهّر ، المقدّس المبارك الحيّ القيوم ، الإجابةَ والقبول والعناية والوصول ، إلى غاية المأمول ، آمين آمين .

سبحانك بلسان الأزل ، سبحانك بلسان الأبد ، سبحانك بلسان الجمع ، سبحانك بلسان الفرق ، سبحانك بلسان الصفات ، سبحانك فى حضرة الذات ، سبحانك بك ، تقدّسَ جمالُ نورك أن يكون معه جمال من الأنوار ، اللهم يا من ملأ نورُه الكائناتِ فى أعلى السموات والعرش ، وأدنى الأ رضين والفرش ، اللهم يا من هو منزّه فى عزّ كماله الأقدس ، وعلمه محيط فى جلال جماله المقدّس ، َ أ ش ْ هـ ِ د ن ى هذا النور المُشْرِق فيّ وفى الآفاق ، واجذبنى إليك بجواذب الأشواق ، ونعِّمنى فى حضرة وصالك بأنوار جمالك وكمالك ، وافتقْ لسانَ علمى بك فى حضرة مناجاتك ، بالأدب معك والأخذ عنك والاستغراق فيك والبقاء بك ، واجعلنى الخزانةَ الجامعة لأسرارك ، المُمِدة بإذنك من شئتَ إمدادَه من حضرة شهودك ، سبحانك أعجزتَ العقولَ عن إدراك حضرة الذات ، وتعرّفْتَ لها فى بيان الصفات ، وظهرتَ بظواهر الأسماء عن بواطن المسمّيات ، فَتَعرّفتَ لكل شيء فما جهلك شيء ، وتنَكّرتَ لكل شيء فما علمك شيء ، سبحانك من حيث ذاتك التى لا تُعرف ، وحضرتِك التى لا توصف . إلهى .. غلب سلطانُ جمالك على الأرواح فهيّمَها ، وعلى الأسرار فنعّمها ، وعلى القلوب فشوّقها ، وعلى العقول فعوقّها ، وعلى النفوس فأماتها بعزّ سلطانه ، وسطوة قهره ، وعلو شأنه . إلهى .. كم حيّر كمالُ قدسك من ذى لُبٍّ فى تيهِ الأفكار ، وكم جمع فضلُك من عاجز على حضرة الأسرار ، وأبعد عدلك من مدّعٍ حالة الوصول إلى جنابك العليّ المقدار ، وأعتق إحسانك من عبد وكتبه فى سجل الأحرار ، لا وصول إليك إلا بك ، ولا دخول عليك إلا بإذنك ، تقدس جنابُك الأعلى ، وتنزه وِصالك الأعلى ، أن يُنال بحيلة وحول ، بل بفضل الامتنان والطول , يا مولايَ يا واحد يا مولاى يا دائم يا عليّ يا حكيم ، لا عزيز إلا من نُشر عليه لواءُ الولاية ، ولا قريب إلا من أدْنَتْه العنايةُ ، ولا معصوم إلا من أمِن منْ غين الغواية ،ولا محفوظ إلا من وُقيّ بقاف الوِقاية ، بما قُدِّر فى الأزل السابق ، وعُيّن فى الأبد اللاحق , إلهى .. اجمعنى بك عليك من أودية الشتات ، ونجّنى من حظوظ الأنفس والشهوات ، واكفنى كلَ همّ يبُعِد ويُدْنى، وفكر فى الأمور يهدم ويبنى ، ووسواس يوسوس بضيق ا

لأرزاق ، ويُسيء الظنّ بالرزاق الخلاق ، وشيطان يَجْلِب الخوفَ من المخلوقين ، ويُنسى الاعتمادَ على رب العالمين .
إلهى .. كونى شاهدٌ عليّ بالافتقار ، إلى غناك المطلق الكامل بالذات ، فامنن على عبدك بغنىً يكون به غنيًا مُغنيًا من شئت غناه ، بوصف الفقر بين يديك ، إنك أنت الغنى الوهاب .إلهى .. ذلّى نادى بعزّك ، وضعفى نادى بقوّتك ، وفقرى نادى بغناك ، وعجزى نادى بحولك ، وطلبى نادى بطولك ، فأجب المضطرَ إلى هذه المطالب ، وَأنِله ما سأل من المآرب ، يا مجيب يا قريب يا الله يا مولايَ يا واحد يا مولايَ يا دائم يا عليّ يا حكيم ..
إلهى أطْلَقتَ سوابقَ الأرواح ، فى ميادين الأزل ، وجعلتَ منها الفاضلَ و المفضول والتابع والمتبوع والمخفوض والمرفوع ، وناديتَها إلى حضراتِ الوصال ، ومشاهدات الجمال ، فأجابتك بأنواع الكمال ، ملبية خاضعة متواضعة خاشعة , إلهى .. أحى روحى بك حياةً أبدية ، ومتِّع سرّى بسرّك فى الحضراتِ الشهوديّة ، واملأ قلبى بالمعارف الربانيّة ، وأطلق لسانى بالعلوم اللدنيّة،واجعلنى فتّاحًا لأقفال المشكلات ، مستأنسًا بك فى أندية المخاطبات ، سابحًا فى بحار الذات ، واقفًا على ساحل النجاة ، مُفَوّهًا بفنون الغناء ، طليقًا من يد الأسر والعناء ، آخذًا بيد الغريق ، ممكّنًا بك فى كل فريق ، ماسكًا بأزمّةِ التحقيق ، جامعًا لأشتات الطريق ، مستغرقا بالوحدانية ،باقيا بالصمدانيّة , قائمًا بالفردانيّة ، ظاهرًا بالجمال ، متظاهرًا بالجلال ، متحققًا بالكمال ، مُكمِّلًا للأتباع ، مُخَلِّصًا لهم من ظلمة الطباع ، وغطاء الحجاب ، وشَرَك الأسباب ، يا نور كل شيء وهداه ووليه ومولاه , اللهم مُنّ علينا بصفة قُدسك ، وأذقنا حلاوة المناجاة ، وآنسنا بأنسك ، وهب لنا كمالَ التخلّى ، وحلِنا بحلية التجلِّى ، لنتملّى بشهودك فى حضرات التملّى ، واجمعنا على سرّك الجامع لكل الأسرار ، وببهجة جمال حضرتك متّعنا ، وبكل كمال كمِّلنا ، ومن كل نقص قدِّسنا ، اللهم إن سرّك منعش للأرواح بالنفحات ، وبارق جمال حضرتك يلوح منه للعقول لمحات ، وطيب نسمات رحمتك يفوح منه على القلوب رحمات ، لها عطف عواطف المبرّات والمسرّات ,فبحق الجود والعطف والإحسان و

الرحمة والرأفة والامتنان والوصف الطاهر الأقدس ، والنعت المنزّه المقدس ، أسألك نظرةَ الحنان والعطف يا عطوف ، ولمحة الفضل برحمة منك يارحيم يارءوف .
يا من لا يُنال فضله إلا بفضله ، ولا تُعطى رحمتُه إلا برحمته ، أسألك المزيدَ من فضلك ، وما يليق بفضلك يا ذا الفضل العظيم ، ربّ أغنِ فاقةَ افتقارى,ياكفيل اضطرارى ، دفعتُ بقوتك فى نحور أعدائى ، واشتفيتُ بشفائك من عظيم دائى ، يا عياذى يا ملاذى يا شفائى يا سعد سعودى وأمانى من شقائى ، أنت أنت بما أنت على ما أنت ، سبحانك من حيث أنت ، لا تُتخيَل بخيال ، ولا تُمثّل بمثال ، سبحانك يا ذا الجلال والجمال والكمال .

زاد المحبة والمعرفة والوراثة (4)

سبحان القائم الدائم ، سبحان الحيّ الذى لا يموت ، سبحان الله العظيم وبحمده ، سبحان العلى الأعلى ، اللهم لك الحمدُ كله ، لا قابض لما بسطتَ ولا باسط لما قبضتَ ، ولا هادى لمن أضللتَ ولا مُضِلّ لمن هديتَ ، ولا مُعطى لما منعتَ ولا مانع لما أعطيتَ ، ولا مُقرّب لما باعدتَ ولا مُباعد لما قرّبتَ ، تمّ نورُك فهديتَ فلك الحمد ، عظُم حلمُك فعفوت فلك الحمد ، بسطتَ يدَك فأعطيتَ فلك الحمد ، ربُنا وجهُك أكرم الوجوه ، وجاهك أعظم الجاه ، وعطيتك أفضل العطية وأهنؤها ، تُطاع ربُنا فتشكر ، وتُعصى فتغفر ، وتجيب المضطرَ ، وتكشف الضرّ ، وتشفى السقيمَ وتغفر الذنبَ وتقبل التوبةَ ، ولا يجزى بآلائك أحدٌ ، ولا يبلغ مَدحتَك قولُ قائل ، اللهم لك الشرَف على كل شرْف ، ولك الحمد على كل حال ، اللهم يا عمادَ من لا عماد له ، يا سند من لا سند له ، يا ذخر من لا ذخر له ، يا غياث من لا غياث له ، يا كريم العفو ، يا حسن التجاوز ، يا كاشف البلاء ، ويا عظيم الرجاء ، يا عون الضعفاء ، يا مُنقذ الغرقى ، يا مُنجّى الهلكى ، يا محسن يا مُجْمِل ، يا منعم يا مفضل ، أنت الذى سجد لك سوادُ الليل ونور النهار ، وضوء القمر وشعاع الشمس ، ودويٌ الماء

وحفيف الشجر ، يا الله لا شريك لك ، يارب يارب يارب ، يا عُدّتى عند كربتى ، ويا صاحبى عند شدّتى ، ويا وليّ نعمتى ، يا إلهى وإله آبائى ، لا تكلنى إلى نفسى فأقرب من الشر ، وأتباعد من الخير ، وآنسنى فى قبرى ، واجعل لى عهدًا عندك يوم القيامة مسئولًا ، اللهم إنى أعوذ برضاك من سخطك ، وبمعافاتك من عقوبتك ، وأعوذ بك منك ، لا أحصى ثناءًا عليك ، أنت كما أثنيتَ على نفسك .

لا إله إلا الله الحليم العظيم ، لا إله إلا الله رب العرش العظيم ، لا إله إلا الله رب السموات ورب الأرض ورب العرش الكريم ، اللهم أنت ربنا وربُّ كل شيء ، أنا شهيد أنك الربّ وحدك ، لا شريك لك ، وأن محمّدًا عبدُك ورسولك ، وأن العبادَ كلّهم إخوة ، أبوء بنعمتك عليّ ، هذه يداى وما جنيتُ على نفسى ، اللهم إنا نستعينك ونستغفرك ونثنى عليك ولا نكفرك ، ونخلع ونترك من يَفْجُرك ، سبحان الله وبحمده ، عدد خلقه ، ورضا نفسه ، وزنة عرشه ، ومداد كلماته ، الحمد لله الذى سوّى خلقى ، وأحسن صورتى ، وزان منّى ما شان من غيرى ، والحمد لله الذى سوّى خلقى فعدله ، وصور صورةَ وجهى فأحسنها ، وجعلنى من المسلمين ، فتبارك الله أحسن الخالقين . اللهم بديع السموات والأرض ، ذا الجلال والإكرام ، والعزّة التى لا ترام ، أسألك يا الله يا رحمن ، بجلالك ونور وجهك ، أن تنوّر بكتابك بصرى ، وأن تطلق به لسانى ، وأن تُفرّج به عن قلبى ، وأن تشرح به صدرى ، وأن تغفر به ذنبى ، فإنه لا يعيننى على الحقّ غيرك ، و لا يُؤتيه إلا أنت ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم .

اللهم,إنى أسألك بنعمتك السابغة عليّ ، وبلائِك الحسن الذى ابتليتَنى به ، وفضلك الذى أفضلتَ عليّ ، أن تُدخلنى الجنةَ بمنّك وفضلك ورحمتك ، اللهم فارج الهمّ ,كاشف الغمّ ، مجيب دعوة المضطرين ، رحمن الدنيا والآخرة ورحيمهما ، أنت ترحمنى فارحمنى برحمة تغنينى بها عن رحمة من سواك .

إلهى كلّ صفة مجدٍ تحققتْ لك وانفردتَ بها ، وكل كمال هو لك ، فأسألك بتوحيدك أن توّحدنى لك ، وبتفريدك أن تفردنى لك ، وألا تُبقى فيّ ذرّة ولا أصغر إلا وهى لك ، يا جامع الكمالات ، يا من أحاط بالملك و

الملكوت والغيب والشهادات ، يا كامل الصفات ، يا منزّهًا عن الاختلافات ، أحْوجتَنى لك فى كلّ شيء ، فمن أنا لولاك ، هل ثم إلا نورُك ، وهل سطع إلا ظهورُك ، سبحانك عن سواك ، وسبحانك عن شهود علاك ، وسبحانك تقدّستْ أسماؤك ، وسبحانك عن إدراك تنزيهك ، وإدراك ذاتك .

إلهى .. من أنا؟وماعلمى؟وماعملى؟، وما وجودى بصلاحى وزللى ، وما سؤلى وما أملى ، وما جودى وما بخلى ، وما هذه المظاهر الحاجبة ، المصحوبة الواصلة الموصولة ، بحسبى علاك وشهودى لذاك ، أنت المُثبِت الماحى ، أنت الواحد ورَغِم أنفُ اللاحى ، يا مُكّون الأكوان ، يارب كل زمان ، دنى لك من أدْنيتَ ، وبعيدٌ عنك من أقصيتْ ، يا حنّان يا منّان ، يا إله العالمين ، أنت القيوم القائم ، وأنا الفقير الحائم ، ببابك جاثٍ ملا زم ، كيف يُحجب من أُذِن له فى الدخول ، أم كيف يسأل سواك من زُفّ له الوصولُ ، حاشا علاك أن يُحوِج لسؤال مما سواك ، تعاليتَ يا ذا الجلا ل فى كل مقام ومقال وحال وقال ، أنت الحقّ الوكيل ، والمولى الجليل ، يا مُظِهر الجميل بالجميل أنت حسبى ونعم الوكيل ، لا شيء إلا وهو موكول إليك ، مفتقرٌ بك إليك ، مستدلٌ بك عليك ، يا نور البصائر لشهود المآثر ، يا كاشف الضرِّ عمن دعاه ، وصارف السوء عمن ناجاه ، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ,والله ذو الفضل العظيم ، خصصتَ بسرِّ أحديّتك الصفوةَ الخيّرة من عبادك ، نظرتَ باسمك الباطن لبواطن أوليائك فغابوا فيك عما سواك ، وظهروا متسربّلين من اسمك الظاهر بسرابيل قدسك وحُلل أنسك ، لك العظمة التى تخرُّ عندها جهاتُ السموات وجبال الأرض هدًا ، والجلالة التى جعلتْ بين أصفيائك وأعدائك من سلطان قاهريتك وبرهان قيوميّتك حجابًا وسدًا ، اجعلنا من أهل خصوصيتك المتمتعين بقربك ورؤيتك ، وسلِمنا من كل وصف ذميم ، واجعلنا ممن أتى الله بقلب سليم ، وأمّنا يوم الفزع الأكبر ، وحققنا بالذلة لك والعزّة بك فى كلّ شيء ، حتى نعتزّ بعزتك بين أهل التوحيد والعرفان ، ولا تذّلنا باتباع شهوات الأنفس ,وخطرات الشيطان .

يا من إليه افتقر الأغنياءُ فكيف حال المساكين ، وجهل حقَ قدره

العلماءُ, فكيف بالجهلة المقصرين ، لا يخيب من أنت ناصره ، ولا يُنسى من أنت بلطفك ذاكره ، ظلمة بُعدنا عنك يكشفها نورُ اقترابك ، دلّتْ الآثارُ والأطوار أنّك تعرّفتَ لعبادك فى كلّ شيء ، فيا فوز من عرف ، وما جهلك شيء حيث كنتَ أنت الذى لذاته بذاته دلّ ووصف ، يا ذُلّ من ليس له من حبّك نصيب ، ويا عزّ من أنت له محبٌ وحبيب ، حقِّقنا اللهمّ بحقائق أهل القرب ، وأقمنا بصدق العبودية إليك فى مشاهد أهل الا صطفاء والحب ، وأغننا بتدبيرك لنا عن تدبيرنا ، واختيارك عن اختيارنا ، واجعل فى مرادك مرادَنا ، كل جزءٍ منّى مضطرٌ إليك وأنت غنيٌ عنّى ، لا تُوحش العوالمُ قلبًا أنت نوره وأنسه ، ولا تلِجُ الظلمةٌ فؤادًا أشرَقتْ من نور سماء حكمتك شمسُه ، كم لك من وليٍّ أذقتَه حلاوةَ مؤانستك فقام بين يديك متملقًا ، وكم لك من صفيٍّ ألبستَه من ملابس الهيبة والجلال ، والقبول والإقبال والتقى .

يا من محق بنور جماله وجلاله حُجُبَ الأكدار والأغيار ، لا تغيب وأنت الرقيب الحاضر ، يا مُنفّس كربةَ كلِّ مكروب ، وكاشف الضُرّ والبلوى عن أيوب ، ويا من أقرّ بيوسف عينَ صفيّه يعقوب ، ونجى نوحًا من الغرق وإبراهيم من الحرَق ويونس من الظلمات ، وسلّمَ موسى من شرّ الجبابرة العتاة ، وأعاذ محمدًا صلى الله عليه وسلم من شياطين الإنس والجنّة ، وحفظ الأرواحَ قبل الأشباح ، وبعدما صارتْ فى البطون أجِنّة ، وصوّرها بحكمته ، وأبداها إلى هذا الوجود بقدرته ، وقدّر لها رزقًا وأجلا ، إلى أن أعادها إلى ما كانت عليه أولا ، ثم إنّ عليه النشأة الأخرى ، إلى سلطانك العظيم ألتجى ، ولعفوك الواسع وإحسانك العميم أرتجى ، هأنا أشكو إليك ما لا يخفى عليك ، فاكشف بنور ألوهيتك عنّى سحائبَ ضرّى وبثّى وحزنى ، يا قهار اقهر جنودَ أعدائى فى كل وقت وحين ، يا مقتدر اشدد وطأتك على حسّادى باسمك القاهر المتين ، واجعلنى بولايتك يا وليّ يا حميد وليًا محمودًا ، واملأ باطنى وظاهرى يا باعث يا شهيد يقينًا وشهودًا ، ارحمنى رحمةً تجمع بها شتاتَ قلبى ، وتحقّق بها غفرانَ ذنبى ، وتفريج كربى ، أنت الحقّ الذى لا حقّ سواه ، ولا معه غيره ولا شيء لو لاه ، اللهم ربّ جبريل وإسرافيل وميكاءيل وربّ محمد ، هب لنا من

لدنك سلطانًا نصيرًا ، واجبر كسرنا وأغن فقرَنا وارحم ضعفنا وانصر حزبَنا يا الله يا أرحم الراحمين ، يا حيّ يا قيوم يا عليّ يا عظيم يا ذا الجلال والإكرام .

يا صانع كلّ مصنوع ويا جابر كلّ كسير ، ويا مؤنس كل وحيد ويا صاحب كل غريب ، ويا قريبًا غير بعيد ويا حاضرًا غير غائب ، ويا غالبًا غير مغلوب ، ويا شاهد كل نجوى ويا منتهى كل شكوى ، ويا سابق الفوت ويا سامع الصوت ، ويا كاسيَ العظام لحمًا بعد الموت ، يا مُسيّر السحاب يا معتق الرقاب ، إن كنتَ كتبتَنى شقيًا ، فامحنى واكتبنى سعيدًا ، فإنك تمحو ما تشاء وتثبت ، واجعل لنا من أمرنا فرجًا ومخرجًا ، وأن ترزقنا من حيث لا نحتسب ، برحمتك يا أرحم الراحمين .

اللهم بإحاطةِ ربوبيتك ، وعظمةِ ألوهيتك ، وغوثك الذى أغثتَ به يونسَ فى باطن الحوت ، وعلمك الذى أحاط بما فوق التخوم ، وما تحت التخوم ، وما وراء البهموت ، اضرب سرادقَ حمايتِك واسدل سترَ حنانِك وعنايتك حول عبدك الذى لا ملجأ له منك إلا إليك ، ولا تعويل له فى شيء من الأشياء إلا عليك ، واشدد وطأتك على أعدائى فى كل مقام ، واكفنى شرّ جملةِ حسادى بجلال وجهك يا ذا الجلال والإكرام .

اللهم إنّك وليّ حميد ، جوادٌ وفيٌ مجيد ، كاشف الكربات وباسط الخيرات ومجيب الدعوات ، يا من ظهر فَبَهَر ، وكشف فستر ، اللهم صلّ على سيدنا محمد عبدك ورسولك وحبيبك وخليلك ، وعلى آله الكرام ، وصحبه العظام ، وورّاثه الفخام .

اللهم إنى ، ومنْ إنى ؟! ولولاك لم تكن لى أنانيّة ، ولم تظهر لى من العدم إلى الوجود طَويّة ، عبدك من حيث أنت ، ومن حيث صفاتك وأسمائك ، أشكرك وأثنى عليك الخير كله ، إذ أوجدتنى ورضيتَنى ، عبدًا غمرته آلا ؤك ونعماؤك ، كلّ جزء منّى منك ابتداؤه ، وإليك انتهاؤه ، ولرحمتك اضطراره وللطفك افتقاره ، السعيد كل السعيد من وفقتَه لاستجلاء عرائسِ تجلياتك ، وأنوار شهودك ، إن كنت كتبتَنى من السعداء فحقّقنى بك فى مراتب السعادة إلى أعلى مرتقى ، وإن كانت الأخرى ,والعياذ بك من ذلك,ثم العياذ بك من ذلك ، ثم العياذ بك من ذلك,فامحُ هذا الوصف

وأثبِتْنى فى ديوان أهل السعادة والتقى ، اللهم بحقّك الأعلى,وباسمك الأ سمى الذى إذا دُعيتَ به أجبتَ ، وبمجدك الأحمى الذى اصطفيتَ به من أردتَ ، وبمحمدك الذى على كل عبادك قد اخترتَ ، وبحق اللهمّ وعظمتها لديك ، وبجلال هُويّتك وربوبيتك وأحديتك عليك ، يا من وسع الوجودَ رحمةً وعلمًا ، أنت الحليم الستار ، العفو الكريم الغفار ، أجرنا من خزى الدنيا وعذاب النار ، أنا مضطرٌ لرحمتك وجبرك ونصرك وجودك ، غوثاه غوثاه ، ربّاه رباه ، لا تخزنى يوم يبعثون ، أنت أعلم بما تُسعِد به عبادَك ، وأنت أخبر بما ترشد به وإليه عُبّادَك ، فاجعلنى اللهم من عبادك الذين أسعدتهم وعبّادك الذين اخترتهم ، يا حيرة من لم تقدّر له هداية ، ويا ضيعة من لم تشمله منك نظرةُ رحمة وعناية ، إنى عبدك الذى كوّنتَه من ماء وطين ، وصوّرته من ماء مهين ، غير أنى بنفخة روحك التى سَرَىَ فيّ سرُها ، وأشرق ولاح من أفق تكوينى بك نورُها وبدرُها ، ليَ الهناء و الفوز والسعد بذلك ، حيث أهلتَنى ورضيتنى مظهرًا لما أبديتَه من سرّك هنالك ، وحقِك لم نتجاسر على سؤالك إلا بعدما أمرتنا بأن نسألك من فضلك فى كتابك ،

وإلا فمن نحن ؟! وما نحن ؟! وما مسألتُنا ، بالنسبة إلى عزّة سلطانك ، وعلوّ شانك ورفعة جنابك ، قد أرشدتنا إلى كرمك بقولك ادعونى فدعوناك ، وأطمعتَنا فى فضلك بقولك أستجب لكم ، وها نحن نرجو وفاك وولاك ، وعدك وعدك يا صادق الوعد ، أدركنا بلطفك الذى من أدركتَه بشيء منه تحقق بكل مجدٍ وسعد ، يا مُقشِع الغمّاء ، وكاشف الظلماء ، ونور الأنوار وبحر الأسرار ، إلهى .. كيف نطلبك وأنت قبل الطلب موجود ، أم كيف نجدك وأنت بعد الطلب مفقود ، لستَ مفقودًا بِ العين ، ولكنّك مفقودٌ عن العين ، يا من وضع مفاتيحَ القلوب فى خزائن الغيوب ، افتح قلوبَنا بيديك ، واصرفها عمن سواك إليك ، إلهى .. تلاشتْ الكائناتُ فى بقائك ، وعاشتْ الأرواحُ كلها بلقائك ، إلهى .. قد أثقلتْ الأ وزارُ ظهورنا ، وحجبتْ عقولنا عن شهود نورنا ، فخفِّفها اللهمّ بعفوك الوسيع ، وبشفاعة هذا النبيّ الشفيع صلى الله عليه وسلم ، إلهى .. قرّط أسماعَنا بِحُليّ كلامك ، ولذّذ قلوبَنا بحلاوة رضائك ، وعطِّر أفواهَنا

بطيب ثنائك ، واجعل جوارحنا وقلوبنا مستعدةً للقائك ، اللهم زيّن صفحاتِ أيامنا بأنوار العبادة ، واختمها بفضلك على النُجحِ والسعادة ، نبّهنا من نومة الغافلين ، ونَقّ صحائفَنا عن لحظات الآثام ، واكتب لنا فيها رقومَ السعادة على الدوام ، نرجو من لطفك الخفيّ وبرّك الحفيّ ، أن تثبِّتَنا بالقول الثابت عند سكرة الحين ، وسؤال الملكين ، وأن تعيننا على حفظ ميثاقك حتى نلاقيك بما لاقاك به جميعُ أوليائك ، اللهم أزِل عن أفكارنا وأبصارنا غشاوةَ الغفلة عن ملاحظة الجبروت ، واجعلها مرآةً تتجلّى فيها عجائبُ الملك والملكوت ، واجعل اللهم أنفاسَنا مراكبَ أذكارك ، وخطرات قلوبنا مهابط أسرارك ، وارحم ضعفَ بنيتنا ، وخور طينتنا ، وأعذنا من حدة غضبك وشدّة بأسك ،فليس تُرمى البعوضُ بِالصخور الثقال,ولايقوى الذرُّ والنمل على جرّ الجبال , إلهى .. أنت الذى نقشتَ على ساق العرش صورَ المُبدَعات من أعمال أهل الأرض و السموات ، فكل طاعة ومعصية تجرى لأهل الفرش تتزيّا صورتُها على ساق العرش ، يا من أظهر الجميلَ وستر القبيحَ ، حسِّن صورتنا هناك بحسن سيرتنا هنا ، ولا تُقبِّحها بقبح سيرتنا فى الدُنا ، إلهى .. بصِّرنا بمواقع أقدامنا ، ومطارح أبصارنا ، ومسابح أفكارنا ، ومواقف عقولنا ، حتى نرى بواطنَ الأشياء من ظواهرها ، ونختار الحقّ عن باطلها ، يا من أزال قساوةَ التراب حتى قَبِل الأرواحَ والصور ، أزل اللهم قساوةَ قلوبنا حتى تقبل المواعظَ والعبر ، يا قوى يا عزيز ، إلهى .. رقِّنا إلى سماء السمو عند حضرة الملائكة الكرام ، واصقل مرائيّ قلوبنا عن صدى الشهوات والشبهات ، واكفف اللهم عنّا شرّ كلّ ظالم ، فإنّك قلتَ أنا الظالم إن جاوزنى ظالمٌ ,واعتق رقابَنا عن حمل المظالم ، وامح عن قلوبنا ظلماتِ المآثم ، إلهنا .. إن أعمالنا بضاعة مزجاة ، لا يُرجى لنا بمثلها النجاة ، اللهم ثبتنا على سنن السنة والجماعة ، وَأسْبل على وجوهنا قناعَ القناعة ، ومِل بقلوبنا عن مذاهب أهل الشناعة ، ولا تتلف بضاعةَ أعمارنا فى وادى الإضاعة ، وزيّن جوارحَنا بأعمال البرِّ والطاعة ، واحفظنا اللهمّ من الفتن وأهوال الساعة ، اجعل الحقّ طريقنا والتوفيق رفيقنا ، وامح آثارَ الأغيار من قلوبنا ، وحُلّ عقدةَ الباطل عن جيوبنا ، وخذ بنواصينا

وأيدينا ، ولا تكلنا إلى أعادينا ، وصدِّق فقرَنا ومسكنتنا بالعبودية بين يديك ، يا غنى يا كريم ، واجمعنى اللهم بفضلك عليك ، بخدمةٍ صالحةٍ توصِّلنى إليك ، فأنت الذى أشْرَقْتَ الأنوارَ فى قلوب أوليائك حتى عرفوك ، وأنت الذى أزلتَ حبّ الأغيار من قلوبهم حتى ألِفوك ، فلقد خاب من رضى بدونك بدلا ، ولقد خسر من بغى عنك متحولا ، إلهى كيف يُرجى سواك وأنت ما قطعتَ الإحسانَ ، وكيف يُطلب البرُّ من غيرك وأنت ما غيّرتَ عادةَ الامتنان ، أنت البادئ بالإحسان قبل توجّه العابدين ، اللهمّ اطلبنا برحمتك حتى نصل إليك بمنتك .

(يا مريح المكروبين ، ويا مجيب المضطرين ، ويا كاشف همّى وغمّى وكربى ، فقد ترى حالى وحال أصحابى - هذا من دعاء يوم الأحزاب – فنزل جبريلُ فقال يا محمد ، إن الله قد سمع دعوتك ، وكفاك هول عدوك ، فخرّ رسول الله – صلى الله عليه وسلم – على ركبتيه ، وبسط يديه وأرخى عينيه ، ويقول : شكرًا لما رحمتنى ورحِمت أصحابى) .

اللهم أنت خلقتَنى فلا علم لى ، ورزقتنى فلا حيلة لى ، وإن حاسبتنى فـ لا حجّة لى ، وإن عاقبتنى فلا قوّة لى ، وإن غفرتَ لى فإنّك أهلُ التقوى وأهل المغفرة ، اللهمّ افطم جوارحَنا عن المخالفات ، وأنفسنا عن المألوفات ، وقلوبنا عن الرعونات ، وعقولنا عن الخيالات والأوهام ، اللهم إنى أسألك يا الله يا رحمن أن تفتح عليّ بمعانى القرآن الأربعة ، ظاهره وباطنه وَحَدّه ومَطْلَعه ، أستغفرك اللهمّ منّى ، تب عليّ يا تواب منّى ، خذنى إليك منّى ، أنت أولى بى منّى, اللهم أيدنى بك لك ، وانصرنى بك لك ، واجمعنى بك عليك ، وحُل بينى وبين غيرك.إلهى .. نعّمتَنى فلم تجدنى شاكرًا ، وابتليتَنى فلم تجدنى صابرًا ، فلا أنت سلبتَ النعمةَ بترك الشكر ، ولا أنت أدَمْتَ الشدّةَ بترك الصبر ، إلهى .. ما يكون من الكريم إلا الكرم ، اللهمّ إنى توسلتُ بك إليك ، وأقسمتُ بك عليك ، أن تنصر المؤمنين على الكافرين ، اللهم مهما عذبتَنى بشيء فلا تعذبنى بجحيم ولظى الحجاب ، اللهم اكشف لى عن غوامض سرِّ اسمك الله ، حتى أصل به إلى مشاهدة مسماه ، حتى لا أشهد إلا إياه ، واحشرنى بفضلك مع الذين عليهم أنعم الله ، اللهم اجمع بينى وبين نبيك محمد –

صلى الله عليه وسلم – كما جمعتَ بين الروح والنفس ، ظاهرًا وباطنًا ، يقظة ومنامًا ، واجعله يا رب روحًا لذاتى من جميع الوجوه فى الدنيا قبل الآخرة يا عظيم ، اللهم إنى أسألك بنور الأنوار ، الذى هو عينُك لا غيرُك ، أن تريَنى وجه حبيبك – صلى الله عليه وسلم – كما هو عندك .. آمين . دعوناك بصدق الرجاء واليأس من جميع المخلوقين ، فأغثنا يا ربنا إغاثة الملهوفين ، وأجبنا إجابة الموقنين ، بحق من جعلته نقطة دائرة الوجود ، ودرّة بحر الكرم والجود ، صلّ الله عليه وسلم ، وعلى آله وصحبه, سبحان ربك رب العزة عما يصفون,وسلام على المرسلين,و الحمد لله رب العالمين .

زاد الجوامع والكوامل

اللهم إنى أسألك حبك ، وحب من يحبك ، وحب عمل يقربنى إلى حبك ، اللهم ما رزقتَنى مما أحب فاجعله قوةً لى فيما تحب ، وما زَويتَ عنى مما أحب فاجعله فراغًا لى فيما تحب ، اللهم اجعل حبّك أحبّ إليّ من أهلى ومالى ، ومن الماء البارد على الظمأ ، اللهم حبّبنى إليك وإلى ملا ئكتِك وأنبيائك ورسلك وعبادك الصالحين ، اللهم أحيى قلبى بحبك ، واجعلنى لك كما تحب ، اللهم اجعلنى أحبك بقلبى كلِه ، وأرضيك بجهدى كله ، اللهم اجعل حبى كلّه لك ،وسعيى كله فى مرضاتك ،

اللهم إنى أسألك من النعمةِ تمامها ، ومن العصمة دوامها, ومن الرحمة شمولها, ومن العافية حصولها , ومن العيش أرغده ، ومن العمر أسعده ، ومن الإحسان أتمّه ، ومن الإنعام أعمّه ، ومن الفضل أعذبه ، ومن اللطف أقربه ، اللهم كن لنا ولا تكن علينا ، اللهم اختم بالسعادة آجالنا ، وحقق بـ الزيادة آمالنا ، واقرن بالعافية غدونا وآصالنا ، واجعل إلى رحمتك مصيرنا ومآلنا ، واصبب سجالَ عفوك على ذنوبنا ، ومُنّ علينا بإصلاح عيوبنا ، واجعل التقوى زادنا ، وفى دينك اجتهادنا ، وعليك توكلنا واعتمادنا ، اللهم ثبّتنا على نهج الاستقامة ، وأعذنا فى الدنيا من موجبات الندامة يوم القيامة ، وخفِّف عنا ثقلَ الأوزار ، وارزقنا عيشَ الأ

برار ، واكفنا واصرف عنا شرّ الأشرار ، وأعتق رقابَنا ورقاب آبائنا وأمهاتنا ، وإخواننا وأخواتنا من النار ، برحمتك يا عزيز يا غفار ,يا كريم يا ستار ، يا حليم يا جبار ، يا الله يا الله يا الله ، برحمتك يا أرحم الراحمين ، ويا أول الأولين ، ويا آخر الآخرين ، ويا ذا القوة المتين ، لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين ، اللهم بعلمك الغيب وقدرتك على الخلق ، أحينى إذا كانت الحياةُ خيرًا لى ، وتوفّنى إذا كانت الوفاةُ خيرًا لى ، وأسألك خشيتَك فى الغيب والشهادة ، وأسألك كلمةَ الحقّ فى الغضب و الرضا ، وأسألك القصدَ فى الفقر والغنى ، وأسألك نعيمًا لا ينفد ، وأسألك قرّة عين لا تنقطع ، وأسألك الرضا بعد القضاء ، وأسألك بردَ العيش بعد الموت ، وأسألك لذةَ النظر إلى وجهك الكريم ، وأسألك الشوق إلى لقائك فى غير ضراء مضرة ، ولا فتنة مُضلّة ، اللهم زيّنا بزينة الإيمان واجعلنا هداةً مهتدين ، اللهم إنى أسألك من الخير كلِّه ، عاجله وآجله ، ما علمتُ منه وما لم أعلم ، وأعوذ بك من الشرّ كله, عاجله وآجله ، ما علمتُ منه وما لم أعلم ، وأسألك الجنةَ وما قرّب إليها من قول أو عمل ، وأعوذ بك من النار وما قرب إليها من قول أو عمل ، وأسألك من خير ما سألك عبدُك ونبيُك محمدٌ – صلى الله عليه وسلم - وأستعيذك من شر ما استعاذك منه عبدُك ونبيك محمد – صلى الله عليه وسلم - ، وأسألك ما قضيتَ لى من أمر أن تجعل عاقبتَه رشدًا ، برحمتك يا أرحم الراحمين .

اللهم ألهمنى رشدى ، وقنى شر نفسى ، اللهم مُقلِّب القلوب ثبت قلوبَنا على دينك ، اللهم مُصرّف القلوب صرف قلوبَنا على طاعتك ، اللهم إنا نسألك السعادةَ والتوفيق, وموجبات ذلك ، ونعوذبك من الشقاء والخذلا ن, وموجبات ذلك , اللهم إنى أسألك بخير ما سُئِلتَ به خيرَ ما سُئلتَ له وخير ماأنت مسئول له إلى يوم القيامة ، وأستعيذ بخير ما استُعِذتَ به ، من شر ما استُعِذْتَ منه ، اللهم لا تُؤمِّنا مكرك ، ولا تولنا غيرك ، ولا تنزع عنا سترَك ، ولا تُنسِنا ذكرَك ، ولا تجعلنا من الغافلين ، اللهم إنى أسألك الثباتَ فى الأمر ، والعزيمة فى الرشد ، وأسألك شكرَ نعمتك ، وحسن عبادتك ، وأسألك قلبًا خاشعًا سليمًا ، وخلقًا مستقيمًا ، ولسانًا صادقًا ذاكرًا ، وعملا متقبلا ، وأسألك من خير ما تعلم ، وأعوذ بك من شر ما

تعلم ، وأستغفرك لما تعلم ، فإنك تعلم ولا أعلم ، وأنت علام الغيوب ، اللهم إنا نسألك إيمانًا لا يرتد ، ونعيمًا لا ينفد ، وقرة عين الأبد ، ومرافقة نبيك – صلى الله عليه وسلم - فى أعلى جنة الخلد .
اللهم إنى أسألك رحمةً من عندك تهدى بها قلبى ، وتجمع بها شملى وأمرى ، وتلمّ بها شعثى ، وتردّ بها الفتنَ عنى ، وتصلح بها دينى ، وتحفظ وترد بها غائبى ، وترفع بها شاهدى ، وتزكى بها عملى ، وتبيّض بها وجهى ، وتلهمنى بها رشدى ، وتعصمنى بها من كل سوء ، اللهم أعطنى إيمانًا صادقًا ، ويقينًا ليس بعده كفر ، ورحمة أنال بها شرفَ كرامتك فى الدنيا والآخرة ، اللهم إنى أسألك الفوزَ عند القضاء ، ومنازل الشهداء ، وعيش السعداء ، والنصر على الأعداء ، ومرافقة الأنبياء ، اللهم إنى أُنزِل بك حاجتى ، وإن ضعف رأيى وقلّتْ حيلتى ، وقصُرَ عملى وافتقرتُ إلى رحمتك ، فأسألك يا كافى الأمور ، ويا شافى الصدور ، كما تجير بين البحور ، أن تجيرنى من عذاب السعير ، ومن دعوة الثبور ، ومن فتنة القبور ، اللهم وما قصُر عنه رأيى ، وضعُف عنه عملى ، ولم تبلغه نيتى ، ولم تبلغه مسألتى وأمنيتى ، من خير وعدته أحدًا من عبادك ، أو خيرٍ أنت معطيه أحدًا من خلقك ، فإنى أرغب إليك فيه ، وأسألكه برحمتك يا أرحم الراحمين ، اللهم اجعلنا هادين مهتدين ، غير ضالّين ولا مُضلِّين ، حربًا لأعدائك ، وسلمًا لأوليائك ، نحب بحبك من أحبك من خلقك ، ونعادى بعداوتك من خالفك من خلقك ، اللهم هذا الدعاء وعليك الإجابة ، وهذا الجهد وعليك التكلان ، وإنا لله وإنا إليه راجعون ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم ,اللهم ذا الحبل الشديد ، والأمر الرشيد ، أسألك الأ منَ يوم الوعيد ، والجنة يوم الخلود ، مع المقربين الشهود ، والركع السجود ، الموفين بالعهود ، إنك رحيم ودود وأنت تفعل ما تريد ، سبحان الذى لبس العز وقال به ، سبحان الذى تعطّف بالمجد وتكرّم به ، سبحان الذى لا ينبغى التسبيحُ إلا له , سبحان ذى الفضل والنعم ، سبحان ذى العزة والكرم ،، سبحان الذى أحصى كلّ شيء بعلمه ، اللهم اجعل لى نورًا فى قلبى ، ونورًا فى قبرى ، ونورًا فى سمعى ونورًا فى بصرى ، ونورًا فى شعرى ونورًا فى بشرى ونورًا فى لحمى ، ونورًا فى دمى ، ونورًا فى

عظامى ، ونورًا فى مخِّى ، ونورًا من بين يدى ، ونورًا من خلفى ، ونورًا عن يمينى ونورًا عن شمالى ، ونورًا من فوقى ونورًا من تحتى ، اللهم زدنى نورًا وأعطنى نورًا ، واجعل لى نورًا اللهم أعظم لى نورًا .

اللهم إنى أسألك خيرَ المسألة وخير الدعاء ، وخير النجاح ،وخير العلم, وخير العمل ,وخير الثواب ، وخير الحياة ,وخير الممات ، وثبِّتنى وثقِّل موازينى ، وحقِّق إيمانى وارفع درجتى ، وتقبل صلاتى واغفر خطيئتى ، واسألك الدرجاتِ العلى من الجنة .. آمين .

اللهم إنى أسألك خير ما أُتِيَ وخير ما فُعِلْ وخير ما عُمِل ، وخير ما بطن وخير ما ظهر ، اللهم إنى أسألك أن ترفع ذكرى وتضع وزرى ، وتصلح أمرى وتطهّر قلبى ، وتحصِّن فرجى ، وتنوِّر لى قلبى ، وتغفر لى ذنبى ، وأسألك الدرجات العلى من الجنة .. آمين .

اللهم نجِّنى من النار ، وأسألك أن تبارك لى فى نفسى ، وفى سمعى وفى بصرى ، وفى روحى وفى خَلقى ، وفى خُلُقى وفى أهلى ، وفى محياى وفى مماتى ، وفى عملى ، وتقبل حسناتى ، وأسألك الدرجاتِ العلى من الجنة .. آمين .

ربِّ أعنِّى ولا تُعِن عليّ ، وانصرنى ولا تنصر عليّ ، وامكر لى ولا تمكر على ّ ، واهدنى ويسر لِى الهدى ، وانصرنى على من بغى عليّ ، ربّ اجعلنى لك شكارًا لك ذكارًا ، لك رهابًا لك مطواعًا ، لك مخبتًا إليك أواها منيبًا ، ربِّ تقبّل توبتى واغسل حوبتى ، وأجب دعوتى وثبّت حجتى ، وسدِّد لسانى, واهد قلبى ، واسْلل سخيمةَ صدرى ، اللهم إنى أعوذ بك من مباهاة المكثرين ، والإزراء على المقلِين ، وأن أنصر ظالمًا ، أو أخذل مظلومًا ، وأن أقول فى العلم بغير علم ، أو أعمل فى الدين بغير يقين ، يا هادى المضلين ، ومقيل عثرة العاثرين ، ارحم عبدك ذا الخطر العظيم ، والمسلمين كلهم أجمعين ، اللهم ارزقنا حزنَ خوفِ الوعيد ، وسرور رجاء الموعود ، حتى نجد لذةَ ما نطلب ، وخوف ما منه نهرب ، اللهم ألبس وجوهَنا منك الحياء ، واملأ قلوبَنا بك فرحًا ، وأسكن فى نفوسنا من عظمتك مهابة ،

وذلل جوارحَنا لخدمتك ، واجعلك أحبَ إلينا مما سواك ، واجعلنا أخشى

لك ممن سواك ، أسألك تمامَ النعمة بتمام التوبة ، ودوام العافية بدوام العصمة ، وأداء الشكر بحسن العبادة ، اللهم إنى أسألك بركةَ الحياة وخير الحياة ، وأعوذ بك من شر الحياة وشر الوفاة ، وأسألك خيرَ ما بينهما ، أحينى حياة السعداء ،حياة من تحب بقاءَه ، وتوفّنى وفاة الشهداء ، وفاة من تحب لقاءه ،واجعل خيرَ عمرى آخره وخير عملى خواتمه وخير أيامى يوم ألقاك فيه, وارحم ما خلقتَ ، واغفر ما قدّرتَ ، وطيّب ما رزقتَ ، وتمِّم ما أنعمتَ ، وتقبل ما استعملتَ ، واحفظ ما استُحفظِتَ ، ولا تهتك ستَرك ، اللهم إنى أستغفرك من كل لذّة بغير ذكرك ، ومن كل راحة بغير خدمتك ، ومن كل سرور بغير قُربك ، ومن كل فرح بغير مجالستك ، ومن كل شُغْل بغير معاملتك ، اللهم إنى أستغفرك من كل ذنب تبتُ إليك منه ثم عدّتُ فيه ، وأستغفرك من كل عقد عقدتُه ثم لم أوفّ به ، ومن كل نعمة قويتُ بها على معصيتك ، ومن كل عمل خ الطه ما ليس لك ، أسألك جوامعَ الخير وفواتحه وخواتمه ، وأعوذ بك من جوامع الشر وفواتحه وخواتمه ، ارزقنا العونَ على الطاعة ، و العصمة من المعصية ، وإفراغ الصبر فى الخدمة ، وإيداع الشكر فى النعمة ، وأسألك حسن الخاتمة ، وفرج عن أمة محمد – صلى الله عليه وسلم – فرجًا عاجلا.اللهم إنا نسألك عيشةً هنيّة ، وميتة سويّة ، ومردًا غير مخزٍ ولا فاضح ، اللهم أصلح لنا دينَنا الذى هو عصمة أمرنا ، وأصلح لنا دنيانا التى فيها معاشُنا ، وأصلح لنا آخرتنا التى فيها معادنا ، واجعل الحياةَ زيادة لنا فى كل خير ، واجعل الموتَ راحة لنا من كل شر ، اللهم لا تجعل مصيبتَنا فى ديننا ، ولا تجعل الدنيا أكبر همنا ، ولا مبلغ علمنا ، ولا إلى النار مصيرنا ، واجعل الجنة هى دارنا ، اللهم ألهمنى رشدى، وأعذنى من شر نفسى، اللهم مغفرتك أوسع من ذنوبى ، ورحمتك أرجى عندى من عملى ، اللهم إنى أسألك صحةً فى إيمان ، وإيمانًا فى حسن خلق ، ونجاحًا يتبعه فلاح ، ورحمةً منك وعافية ، ومغفرة منك ورضوانًا ، اللهم إنا نسألك موجباتِ رحمتك ، وعزائم مغفرتك ، والسلامة من كل إثم ، والغنيمة من كل بر ، والفوز بالجنة ، والنّجاة من النّار ، اللهم إنى أسألك من خيرٍ خزائنه بيدك ، وأعوذ بك من شرٍّ خزائنه بيدك ، اللهم إن

أعوذ بك من قلبٍ لا يخشع ، ونفسٍ لا تشبع ، وعلم لا ينفع , ومن عين لا تدمع ، ودعوة لا يستجاب لها وصلاة لاتنفع، ، اللهم آت نفسى تقواها ، وزكّها أنت خير من زكاها ، إنّك وليها ومولاها ، اللهم جنِّبنى منكراتِ الأخلاق والأعمال والأدواء والأهواء ، اللهم إنى أعوذ بك من زوال نعمتك ، ومن تحوّلِ عافيتك ، ومن فجأةِ نقمتك ، ومن جميع سخطك ، اللهم ارزقنى حلالا لا تعاقبنى عليه ، وقنّعنى بما رزقتَنى ، واستعملنى به صالحًا تقبّله منى ، اللهم إنى أعوذ برضاك من سخطك ، وبمعافاتك من عقوبتك ، وأعوذ بك منك لا أحصى ثناءًا عليك ، أنت كما أثنيتَ على نفسك ، اللهم إنى أعوذ بك من جهد البلاء ، ودرك الشقاء ، وسوء القضاء ، وشماتة الأعداء ، اللهم إنى أعوذ بك من الهدم ، وأعوذ بك من التردى ، وأعوذ بك من الغَرَق والحَرق والهرم ، وأعوذ بك أن يتخبطنى الشيطانُ عند الموت ، وأعوذ بك أن أموت فى سبيلك مدبرًا ، وأعوذ بك أن أموت فى تطِّلب الدنيا ، وأعوذ بك أن أموت لديغًا ، اللهم إنى أعوذ بك من القسوة والغفلة والعيلة والذلة والمسكنة ، وأعوذ بك من الكفر والفقر ، و الفسوق والشقاق والنفاق وسوء الأخلاق ، وضيق الأرزاق ، والسمعة و الرياء ، وأعوذ بك من الصمم والبكم والعمى والجنون ، والجذام والبرص ، وسيئ الأسقام ، اللهم إنى أعوذ بك من الحَوْر بعد الكوْر ،يا من لا تضره الذنوب ، ولا تنقصه المغفرة ، هب لى ما لا يضرك ، وأعطنى ما لا ينقصك ، وصل اللهم على محمد وآله وصحبه وسلم, سبحان ربك رب العزة عما يصفون,وسلام على المرسلين,والحمد لله رب العالمين .

قال صاحب الظلال – رحمه الله - : (وللدِّعاء أدب لابد أن يُراعى : إنّه إخلاص القلب لله, والثقة بالاستجابة, مع عدم اقتراح صورة معينة لها ,أو تخصيص وقت أو ظرف, فهذا الاقتراح ليس من أدب السؤال ، إن التوجُه للدعاء توفيق من الله ,والاستجابة فضل آخر) .(واعلموا أن الله لايقبل دعاء من قلب غافلٍ لاهٍ)؛لأن الغافل مستغنٍ , والغنى لا يتصدق على غنيٍ مثله (إنّما الصدقات للفقراء)(إن الله يحب الملحِّين فى الدعاء)(أمّن يجيب المضطر) إنما يتصدق على فقير محتاج مكروب , أمّا المستكبر المستغنى وهو - بعد - عدم حوّله الله إلى

وجود,فهو إذن (من لم يسأل الله يغضب عليه)(إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى)(وقال ربّكم ادعونى استجب لكم إن الّذين يستكبرون عن عبادتى سيدخلون جهنم داخرين).

زاد الشعور والارتباط

إلى حبّاتِ القلوب الذين أتذكرهم عند الغروب ...اُذكر أحبّاءك, و المصلحين , والمكروبين ..

اللهم انصر دعوتنا وحقِق غايتَنا ، وارفع رايتَنا وَأظهر ملتنا ، ووفّق اللهم واحفظ قادتنا وإمامَنا ، وارحم شهداءنا وأئمتنا ، وألِفنا وألف بنا أمتَنا ، وسدِّدنا ورشِّدنا واهدنا وأنجحنا ، وأفلحنا وأصلحنا وأخلصنا ويسّرنا ، وأصلح دينَنا ودنيانا وأخرانا وأرحامنا وأزواجنا وذريتنا ، وبارك أخوتنا وقوّ رابطتنا وَأدِم ودّنا ، واهدنا سبلَنا ، وتوفّنا مسلمين ، وألحقنا بِ الصالحين ، وأدخلنا فى رحمتك جميعَنا ، وألف بين قلوبنا وأهوائنا ، وتقبّل أعمالنا وأخلص نيتنا ، وأقم على الحق والجهاد قاعدنا ، وانصر ووفق مجاهدينا وعلماءنا ودعاتنا ، وقوّ فى رضاك همّنا وعزمنا ، ولا تخيب فيك سعينا ، وبرحمتك عمّنا ، وقنا شر ما أهمّنا ، وعلى الإيمان الكامل توفنا ، وبالأحبة ألحقنا واغفر ذنوبنا ، وارحمنا وعافنا واهدنا وارزقنا واجبرنا وارفعنا ، وعلِّم جاهلنا ، واهد ضالّنا واحفظ أبصارَنا ، وفروجنا وخواطرنا ، وحقّقنا بمنجياتِنا ، وجنّبنا مهلكاتنا ، ومن تسلّط الكفرة والمنافقين نجّنا ، وتولّ أمرنا ، واجعل لك وحدَك عبوديتنا وحبّنا وخوفنا ورجاءنا وتوكلنا ,ووفق طلابنا، وأمِّن خائفنا ، واستر عوراتِنا ، وآمن روعاتنا ، وآوى مشردنا وأطعم جائعنا ، واكس عرياننا وأهلك عدونا ، وأرنا فيهم آياتِك التى تشهد للإيمان ، وتشفى صدور قوم مؤمنين ، وفك أسرَ مأسورنا واشف مريضنا ، وداوِ جريحنا ، وعاف مصابنا ومبتلانا ومكروبنا ومهمومنا ومغمومنا ,واقضِ الدين عن مديننا، واكفل محتاجنا وضعفاءنا ، وأغن فقيرنا ، وارحم ميتنا وشهيدنا ، واعف عما مضى ، وأكمل إحسانك وإنعامك فيما بقى ،ومن كل شيء سببا آتنا, وصل اللهم على سيدنا محمد – صلى الله عليه وسلم - ، سبحان ربك رب العزة عما يصفون ، وسلام على المرسلين ، والحمد لله رب العالمين .

زاد الصلاة على النبى

ما الصلاة على النبى ؟

ولماذا الصلاة على النبى – صلى الله عليه وسلم - ؟

خلق الله بجوده وكرمه ورحمته ، فبنعمته حوّل العدم واللاشيء إلى وجود وشئ ، ولكمال ربوبية الله وقدرته أوجد المتقابلات ، خيرًا لا شر فيه - ملائكة- شرًا لا خير فيه- شياطين - خيرًا مختلطًا بشر- إنسان- ، من ليس كل هذا -البهائم والدواب والأنعام وغيرهم- ، وكانت أقداره عزّ وجل ، إما خير يؤدى إلى خير ، أو شر يؤدى إلى خير ، أى أنه يوجد ما يحب وما يكره المؤديان لما يحب ، وليس فى أقداره ألبتة محبوب أو مكروه يؤدى لمكروه أو شر، حاشاه من ذلك ، وكان خلق الإنسان المبتلى بالاختيار للخير أو للشر هو الأمر الجلل ، وهو المظهر الأعظم للإنعام و الحكمة وظهور صفات الله ومقتضياتها فى عالم الواقع ، وكان المؤمن من البشر أفضل من الملائكة لأنه قاوم وصارع وكافح وجاهد جهادًا مريرًا وتحمل وصبر .

كان يمكنه - سبحانه - ألا يخلق وألا ينعم بالإيجاد والإمداد والإعداد و الكرم والجود ، فهو الغنى المستغنى بذاته ، لكن مقتضى الصفات الإلهية وجود الكائنات باختلافها وتبايناتها ، فوجود الخالق يقتضى وجود المخلوق ، وصفة الرحمة تقتضى وجود منعمًا عليه ، كما يقتضى وجود الشمس وجود الضياء ، فكأنّما جود الله وإنعامه بخلق السموات والأرض والعرش والكرسى والملائكة والشياطين وما لا نعلم لهذا الأمر الجلل ، وهو خلق الإنسان الذى هو أعلى صورة لجود الله وكرمه وعدله وحكمته ، فإن الله تعالى بكرمه ورحمته يريد أن يوجد مخلوقات تكون مظهرًا لصفاته ، ومثالا لذاته-وليس مثلا ، لأن الله ليس كمثله شيء - فخلق المل لائكة-ألاترى أن أفضل ما يمكن أن يقدّمه القائد أو العالِم أو المربّى من إنجاز هو أن يدرّب ويوجد نسخة منه فهذا أفضل ما يمكن إنجازه ولله المثل الأعلى- ، لكن يوجد فى الاحتمالات الممكنة فى العلم الأزليّ من هم أفضل من الملائكة ، وهم الكائنات التى تكون على حالة الملائكة ، لكن بمجهود وصبر ومعاناة ومقاساة ، فخلق البشر ، وأخرج من البشر

أعلى صورة للإنعام والجود وهم المؤمنين ، واستخلص منهم الصديقين ، ومنهم النبيين ، ومنهم الرسل ومنهم أولى العزم ، واستخلص فى النهاية محمد – صلى الله عليه وسلم – فهو خلاصة خلاصات النعم و الكرم والجود الإلهى ، فهو نعمة الله ورحمته ونوره وهداه – عليه الصلاة والسلام - قائد الخليقة والمتحدث عنها وباسمها ، خليل الله، صديق الله ،ومراد الله,وحبيب الله , وأعلى مظهر للإنعام والجود - ياالصعوبة الألفاظ !، الصداقة والصحبة !، بين الحدوث والأزلية ، والفناء والأبدية ، إنها رحمة الله الذى يريد أن يجود وهو لا ينفعه ذلك ولا يحتاج إليه – وفى الأثر الإلهى,(كنت كنزا مكنونا فأردت أن أعرف),فهو إذن المراد النهائى للخلقة ، فقد تجمّع فيه ما تفرّق فى العالمين , وهو مركز دائرة الوجود وفى الآثار السابقة(عبدى الذى سرّت به نفسى),وذلك كما أتك كى تنتج رغيفَ الخبز تحتاج لآلاف الأعمال فليست مرادة إلا لهذا الهدف وهو الرغيف.

الله يريد إعمال صفاته وإحسانه وحمده ورحمته ، فجعل من ذلك نصيبًا لما خلق ؛ ليكونوا مظهرًا ومثالا له ، وكأنه يعيش لغيره ، وقد علّمنا الله أن نقول : ما استحق أن يولد من عاش لنفسه ، يريد الله أن يعطى من كماله وجلاله وجماله للخلق على قدر ما يتحملون ، يريد لهم بذل المجهود والمشقة فى العبودية ليكرمهم ، ويدخلهم عليه فى الآخرة دخول الملوك على الملوك ، وطريق ذلك فى الدنيا هو العبودية و المجاهدة والمصارعة والمصابرة والمرابطة ، هو الدخول على الله دخول العبيد على الملوك ، فتتحقق الحكمة ، ويتحقق الإنعام إلى ما لا نهاية بـ الجنة ومشاهدة الله ومكالمته والنعيم والسعادة والملك المتزايد بلا ملل ما لا نهاية ، بقيادة وإمامة محمد – صلى الله عليه وسلم – فى الدنيا و الآخرة .

ومعنى الصلاة على النبى – صلى الله عليه وسلم – :

أنك تطلب له الحمد والمجد ، أى تطلب له من الله تعالى الرفعة و التقريب والتشريف ورفع الذكر وزيادة الحب والتعظيم والثناء والمنزلة ، فيعود ذلك على جميع من هم تحت قيادة رسول الله – صلى الله عليه

وسلم – بالرفعة والثناء والتقريب والتشريف ... إلى آخره .
فكأنّما تطلب من الله – عزوجل – أن يزيد إكرامَه وإنعامه وجوده على الجميع ,وفى هذا يظهر حمد ومجد الله ، والله تعالى يحب ذاته وجوده وكرمه ، ويفرح بإنعامه ، وقد جعل الله لكل شيء سببًا ، وجعل الصلاة على رسوله – صلى الله عليه وسلم – من أسباب إكرام الجميع ،, كما جعل استغفار الملائكة لنا من أسباب النجاة والفوز ، واقتضتِ الحكمةُ الإلهية ترتيب الأسباب وتوجيهها إلى مُسبّبَاتِها ، ولا مُعقِّب لحكم الله .
- معنى الصلاة لغةً : الدعاء والتبريك والثناء ، والدعاء نوعان ، دعاء عبادة ، ودعاء مسألة ، والصلاة من الله على أحد هى الرفعة والتقريب و التشريف ورفع الذكر ، والبركة هى النماء والزيادة ، والتسليم ,هو السلامة من العيوب والآفات والشر والنقص .
لماذا كان الثناء على الله ، والصلاة على النبى خير الأعمال وبدايتها ونهايتها ؟
لأن الشكر خير العمل ، وهو اعتراف بإحسان الغير ، فالثناء على الله هو حمد لله لذاته ، بجلاله وجماله وكماله ، والصلاة على رسوله – صلى الله عليه وسلم – متضمّنة حمد الله وتمجيده والثناء عليه بالاعتراف ،بالإنعام العظيم المستمر المتواصل الذى هو حمد لله بتفعيل ذاته وجلاله وجماله وكماله ، فى إيجاد خير الخلق-صلى الله عليه وسلم- فإنه أعظم إنجازات الله وأعظم أعماله سبحانه وتعالى إن صح التعبير, فإن حمد الله نوعان:ذاتى بكماله المطلق ,وهذا له منذ الأزل,أما النوع الثانى فهو الحمد الاستحقاقى التنجيزى ,فهذا حادث ويزيد بإنجازه إيجادا وإنعاما ؛فكلما تصلى على محمد فأنت تطلب زيادة حمد ومجد الله التنجيزى فى أعلى صوره ,فرجع الأمر كله إلى حمد الله ،والحمد أحب الأمور إلى الله تعالى ، ولا حق إلا حمد الله ، إذ لا يوجد فى الحقيقة إلا هو ،وكل حمد لغيره هو فى الحقيقة راجع إلى الله. ورسولنا – صلى الله عليه وسلم – معه يوم القيامة لواء الحمد ،إنه محمد – صلى الله عليه وسلم – أعلى النعم ، المتضمن لجميع النعم ، والقائد والزعيم لجميع المنعَم عليهم من الإنس والجن والملائكة من النبيين والصديقين والشهداء و

الصالحين ، قد خُلِق من حمد الله ، وبحمد الله ولحمد الله ، فكان حامدًا محمودًا ,فمن أحبه أو ذكره فقد أحب الله وذكر الله.
الله – سبحانه – مالك يوم الدين ، ما أهمية هذا اليوم ؟
- إنه يوم الظهور الأعلى للإنعام والجود والحمد والعدل ، فيقود محمد – صلى الله عليه وسلم – أهل كرامة الله , إلى الجنّة ومشاهدة الله ومحاضرته ومكالمته, ويُظهر الله فضله ونعمته وحمده عليه، وهو يوم العدل والحكمة ووضع كل شيء فى محله اللائق به ، الناجحون الشاكرون للكرامة ، والفشلة الجاحدون للإهانة .
فوائد وثمرات الصلاة على النبى – صلى الله عليه وسلم :
- طاعة الله وامتثال أمره وموافقته فى الصلاة على رسوله ، فصلاتنا دعاء وصلاته ثناء وتشريف ، موافقة الملائكة ، حصول عشر صلوات من الله ، وعشر درجات ,وعشر حسنات ,ومحو عشر سيئات ، والخروج من ظلمات الشبهات والشهوات إلى النور ، ترفع الدعاء ، وسبب للشفاعة و الغفران ، وكفاية العبد ما أهمّه ، وقرب العبد من الرسول – صلى الله عليه وسلم – وتقوم مقام الصدقة لذى العسرة ، وسبب لقضاء الحوائج ، وزكاة للمصلى وطهارة ، وسبب لتبشير العبد بالجنة قبل موته ، وسبب للنجاة من الأهوال ، وسبب لردّ الرسول – صلى الله عليه وسلم - ، الصلا ة والسلام والتبريك على المصلى ، سبب لطيب المجلس ، وألا يعود حسرة على أهله يوم القيامة ، سبب لنفى الفقر ، وسبب لتذكر العبد ما نسيه ، وترمى بصاحبها على طريق الجنة ، وتخطئ بتاركها عن طريقها ، تنجى من نتن المجلس الذى لا يذكر فيه الله ورسوله ، ويُحمد ويُثنى فيه عليه ويُصلى على رسوله ، سبب لوفور نور العبد على الصراط ، تُخرِج العبد عن الجفاء ، سبب للثناء على العبد بين أهل الأرض والسماء ، سبب للبركة والرحمة ، سبب لدوام محبة الرسول – صلى الله عليه وسلم – الذى هو عقد من عقود الإيمان ، وقلب المؤمن مكتوب فيه توحيد الله وذكر رسوله ، وهى سبب محبة الرسول للمصلى ، وعرض اسم المصلى عليه ، وتثبيت القدم على الصراط ، وهى أداء لأقل القليل من حقه ، وهى متضمنة لذكر الله وشكره وحمده وتمجيده .

وتجوز الصلاة والسلام مع النبى أو منفردة عنه ,على سائر الأنبياء و المرسلين وآل النبى - وهم كل الأمة بالأعم ,وأحبابه وصحابته ونوابه وورّاثه الصالحين وعترته بالأخص - وتجوز على الملائكة وأهل الطاعة أيضًا كذلك، وإن كان شخصًا بعينه أو طائفة معينة فلا بأس به أحيانًا ، إن لم يتخذ ذلك شعارًا كما تفعل الروافض مع على رضى الله عنه .

مواطن الصلاة على النبى – صلى الله عليه وسلم :

التشهد ، آخر القنوط ، صلاة الجنازة ، الخطب ، بعد إجابة المؤذن ، والإ قامة ، وعند الدعاء ، بعد الثناء وأوسطه وآخره ، وهى للدعاء كالفاتحة للصلاة ، وعند دخول المسجد والخروج منه ، الصفا والمروة ، عند الا جتماع وقبل التفرق من الاجتماع ، عند ذكر النبى ، عند استلام الحجر ا لأسود ، عند الوقوف على قبره – صلى الله عليه وسلم - ، إذا خرج إلى السوق ، أو إلى دعوة ونحوها ، عقب ختام القرآن ، يوم الجمعة ، عند القيام من المجلس، عند الهمّ والشدائد وطلب المغفرة من الله – تعالى - ، عند كتابة اسمه – صلى الله عليه وسلم - ، عند تبليغ العلم والمواعظ و الدروس والتعليم وخطبة النكاح ، وكل موطن يجتمع فيه ذكر الله – تعالى - ، عند الحاجة التى تعرض للعبد ، عند كل كلام ذى بال ، وفى نفل الصلاة إذا ذكر ، وأثناء صلاة العيد.

صيغ للصلاة على النبى – صلى الله عليه وسلم :

أقل صيغة تجزئ هى : اللهم صل وسلم على محمد،ومعنى اللهم : يعنى يا الله بأسمائه الحسنى وصفاته العليا كلها .

اللهم إنى أتقرّب إليك بالصلاة على سيدنا محمد ، سيد المرسلين ، امتثا لا لأمرك وتصديقًا له ومحبة فيه وشوقًا إليه وتعظيمًا لقدره ولكونه أهلا لذلك ، فتقبّلها منى بفضلك ، واجعلنى من عبادك الصالحين .

سبحانك يارب أنت واحد لا من قلة ، وموجود لا من علة ، بالبرّ معروف وبالإحسان موصوف ، لا توهنه السنونُ وأمره بين الكاف والنون ، وبرؤيته تقرُ العيونُ ، وبتوحيده ابتهج الموحدون ، علم عددَ أنفاس مخلوقاته بعلمه القديم ، ويرى حركاتِ أرجل النمل فى جنح الليل البهيم ، يسبّحه الطائرُ فى وكره ، ويمجّده الوحشُ فى قفره ، اللهم صلّ أفضلَ

صلواتك على أسعد مخلوقاتك ، محمد وآله ، عدد معلوماتك ومداد كلماتك ، كلما ذكرك الذاكرون ، وغفل عن ذكرك الغافلون .
اللهم يارب – بنبيك المصطفى ، ورسولك المرتضى صلى الله عليه وسلم – طهّر قلوبَنا من كل وصفٍ يباعدنا عن مشاهدتك ومحبتك ، اللهم يا داحى المدحوات ، وبارئ المسموكات ، وجبّار القلوب على فطرتها ، شقيها وسعيدها ، اجعل شرائفَ صلواتك ونوامِيَ بركاتك ورأفة تحننك على محمد عبدك ورسولك ، الفاتح لما أغلِق ، والخاتم لما سبق ، والمعلن الحق بالحق ، والدامغ لجيشات الأباطيل ، كما حُمِّل فاضطلع بأمرك ، مُستوفِزا فى مرضاتك ، واعيًا لوحيك حافظًا لعهدك ، ماضيًا على نفاذ أمرك ، اللهم أعل على بناء الناس بناءَه ، وأكرم مثواه لديك ونزله ، وأتمم له نورَه ، واجزه من ابتعاثك له مقبولَ الشهادة ، ومرضيَ المقالة ، اللهم ابعثه مقامًا محمودًا الذى وعدته ، يغبطه فيه الأولون والآخرون ، اللهم صلِّ عليه عددَ من صلى عليه ، وعدد من لم يصلْ عليه ، وكما أمرتنا بِ الصلاة عليه ، وكما يحب أن يُصلَّى عليه ، وكما هو أهله ، وكما تحب وترضاه له ، وأعط له الدرجةَ والوسيلة فى الجنة ، اللهم صل على محمد وآله حتى لا يبقى من الصلاة شيء ، وبارك حتى لا يبقى من البركة شيء ، وسلم حتى لا يبقى من السلام شيء ، اللهم صل على محمد فى ا لأولين والآخرين وفى النبيين وفى الملأ الأعلى إلى يوم الدين ، اللهم أبلغ روحُ سيدنا محمد منّا تحيةً وسلامًا ، ولا تحرمنا فى الجنان رؤيتَه ، وآته سؤله فى الآخرة والأولى ، اللهم صل على سيدنا محمد عدد خلقك ، ورضاء نفسك ،
وزنة عرشك ومداد كلماتك ، وكما هو أهله ، صلاةً تفوق وتفضل صلاة المصلين عليه من الخلق أجمعين ، كفضلك على جميع خلقك ، اللهم صل على سيدنا محمد كما تنبغى الصلاةُ عليه ، وكما تجب الصلاةُ عليه ، وكما أمرتَ أن يُصلَّى عليه ، صلاة تدوم بدوامك ، وتبقى ببقائك ، صلاة ترضيك وترضيه ، وترضى بها عنا يا أرحم الراحمين . اللهم ربّ الحِلّ و الحرام ، وربّ المشعر الحرام ، ورب البيت الحرام ، وربّ الركن والمقام ، أبلغ سيدَنا محمد منّا السلام ، اللهم صل على سيدنا محمد عدد دوابّ

البحار ، وعدد مياه البحار ، وعدد ما أظلم عليه الليل ، وأضاء عليه النهار ، وعدد الرمال, فى الغدو والآصال ، اللهم صل على سيدنا محمد أفضل صلواتك نبى الرحمة ، كاشف الغمة ، مُجلى الظلمة ، مُولى النعمة ,مُؤتى الرحمة ، صاحب الحوض المورود ، صاحب المقام المحمود ، صاحب اللواء المعقود ، صاحب المكان المشهود ، الموصوف بالكرم والجود ، من كان يرى مَنْ خلفه كما يرى من أمامه ، صاحب الضراعة المقصود بِ الزعامة ، صاحب الفضيلة والوسيلة والدرجة الرفيعة ، مخترق السبع الطباق ، من سبّح فى كفه الطعامُ ، من بكى إليه الجذعُ وحنّ لفراقه ، من توسّل به طيرُ الفلاة ، من سبّحتْ فى كفه الحصاةُ ، من شكا إليه البعيرُ ، من تفجّر من بين أصابعه الماءُ النمير ، من انشقّ له القمر ، الطيّب المطيّب ، الفجر الساطع ، العروة الوثقى ، صاحب لواء الحمد ، المشمر عن ساعد الجد ، المُستعمِل فى مرضاتك غاية الجهد ، صاحب الآ يات والدلالات ، والكرامات والإشارات والمعجزات والعلامات ، من طابتْ ببركته الثمارُ ، من سجدتْ بين يديه الأشجار ، من اخضرّتْ من بقية وضوئه الأشجارُ ، من بالصلاة عليه تُحطُّ الأوزارُ ، وتُنال منازل الأبرار ، اللهم صل وسلم وبارك عليه ، واجزه عنا ما هو أهله ، حبيبك وخليلك ، اللهم صل على روح سيدنا محمد فى الأرواح ، وعلى جسده فى الأ جساد ، وعلى قبره فى القبور ، وعلى مشهده فى المشاهد ، صلاة وسلا مًا لا يُحصى عددها ، ولا ينقطع مددها ، اللهم توّجه بتاج العز والرضا و الكرامة ، وأعط سيدنا محمد خير ما أنت مسئول له إلى يوم القيامة ، اللهم صل على سيدنا محمد نقطة دائرةالوجود ، ومرادك من الوجود ، ودرّة بحر الكرم والجود ، المدد الرحمانى ، والقطب الربانى ، والغوث الصمدانى ، وأعنا وأغثنا به يارب العالمين ، اللهم صل وسلم وبارك عليه صلاة لا تنقطع أبدَ الآباد ولا تبيد ، وصل على سيدنا محمد بحر أنوارك ، ومعدن أسرارك ، ولسان حجتك وعروس مملكتك ، وإمام حضرتك ، وطراز ملكك وخزائن رحمتك ، وطريق شريعتك ، المتلذذ بتوحيدك ، إنسان عين الوجود ، والسبب فى كل موجود ، عين أعيان خلقك ، المُتقدِّم من نور ضيائك ، صلاة تدوم بدوامك ، وتبقى ببقائك ، لا منتهى

لها دون علمك ، وعلى قدر حبك فيه وعنايتك به ، وحق قدره ومقداره ، تنجِّنا بها من جميع الأهوال والآفات ، وتقضى بها جميعَ الحاجات ، وتطهّرنا بها من جميع السيئات ، وترفعنا بها أعلى الدرجات ، وتبلغنا بها أقصى الغايات من جميع الخيرات ، فى الحياة وبعد الممات ، اللهم صل عليه صلاة تستغرق العدّ وتحيط بالحدّ ، صلاة لا غاية ولا منتهى ولا انقضاء لها ، سيدنا محمد الذى ملأتَ قلبَه من جلالك ، وعينه من جمالك ، فأصبح فرحًا مؤيدًا منصورًا ، اللهم ببركة الصلاة عليه اجعلنا من الفائزين ، اللهم صل على سيدنا محمد أفضل قائم بحقك ، المبعوث بتيسيرك ورفقك ، صلاة يتوالى تكرارُها ، ويلوح على الأكوان أنوارُها ، تبلّغنا بها فى الدارين عميمَ فضلك وكرامةَ رضوانك ووصلك ، اللهم صل على سيدنا محمد الرفيع مقامه ، الواجب تعظيمه واحترامه ، المخصوص بالخلق العظيم ,صلاة لا تنقطع أبدًا ولا تفنى سرمدًا ولا تنحصر عددًا ، اللهم صل على مولانا محمد نبى الحكم والحكمة ، السراج الوهاج ، المقصود بالخُلُق العظيم ، ذى المعراج ، وعلى آله وأصحابه وأتباعه السالكين على منهجه القويم ، صلاة دائمة مستمرة ، الناهض بأعباء الرسالة والتبليغ الأعم ، والمخصوص بشرف السعاية فى الصلاح ا لأعظم ، أفضل صلوات الله ، وأجلّ صلوات الله ، وأجمل صلوات الله ، وأكمل صلوات الله ، وأسبغ صلوات الله ، وأتمّ صلوات الله ، وأظهر صلوات الله ، وأعظم صلوات الله ، وأزكى صلوات الله ، وأطيب صلوات الله ، وأبرك صلوات الله ، وأوفى وأسمى وأعلى وأكبر وأجمع وأعم وأدوم صلوات الله ، على أفضل وأحسن وأجل وأكرم وأجمل وأكمل وأتم وأعظم خلق الله عند الله ، حبيب الله وصفى الله ونبى الله وخليل الله وولى الله وأمين الله وخيرة الله من خلق الله ونخبة الله من برية الله وصفوة الله من أنبياء الله وعروة الله وعصمة الله ونعمة الله ومفتاح رحمة الله ، المختار من رسل الله ، المنتخب من خلق الله ، الصادع بأمر الله ، أكمل خلق الله محاسنًا وفضلا ، وأبينهم بيانًا وخطابًا ، وخيرهم نفسًا وأطهرهم قلبًا ، وأمكنهم مجدًا وأكرمهم طبعًا ، وأعلاهم مقامًا وأزكاهم سلامًا ، وأعظمهم فخرًا وأرفعهم فى الملأ الأعلى ذكرًا ،

هو أبهى من القمر التام وأكرم من السحاب المرسلة والبحر الخضم ، الذى قُرنتْ البركةُ بذاته ومحيّاه ، وتعطّرتْ العوالمُ بطيب ذكراه ورِيّاه ، اللهم صل على سيدنا محمد أكرم الأسلاف ، القائم بالعدل والإنصاف ، المنعوت فى سورة الأعراف ، المنتخب من أصلاب الشراف ، والبطون الظراف ، الذى هديتَ به من الخلاف ، أسألك بأفضل مسألتك ، وبأحب أسمائك إليك ، وأكرمها إليك ، وبما مننتَ علينا بسيدنا محمد ، وجعلتَ صلاتنا عليه كفارةً ودرجة ولطفًا ومنًا من إعطائك ، فأدعوك منتجزًا لموعودك لما يجب لنبينا فى أداء حقه ، ونسألك بجلال وجهك ونور عظمتك أن تصلى على نبيك وصفيك وخيرتك أفضل ما صليتَ على أحد من خلقك ، ارفع درجتَه وَأكرِم مقامَه ، وثقِّل ميزانه وَأبْلِج حجّته ، اللهم اجعل سيدنا محمد أكثر النبيين تبعًا ، وأكثرهم أزراء ، وأفضلهم كرامة ونورًا ، وأعلاهم درجة ، وأفسحهم فى الجنة منزلة ، اللهم إنى أسألك بحقك العظيم ، وبحق نور وجهك الكريم ، وبحق عرشك العظيم ، وبما حمل كرسيُّك من عظمتك وجلالك وجمالك وبهائك وقدرتك وسلطانك ، وبحق أسمائك المخزونة المكنونة التى لم يطلع عليها أحدٌ من خلقك , اللهم وأسالك بالاسم الذى وضعتَه على الليل فأظلم ، وعلى النهار فاستنار ، وعلى السموات فاستقلتْ وعلى الأرض فاستقرّتْ ، وعلى الجبال فَرَستْ ، وعلى البحار والأودية فَجَرَتْ ، وعلى العيون فَنَبعتْ ، وعلى السحاب فأمطرت ، أسألك اللهم بالأسماء المكتوبة فى جبهة إسرافيل – عليه السلام - ، وبالأسماء المكتوبة فى جبهة جبريل – عليه السلام وعلى الملائكة المقربين -، وأسألك اللهم بالأسماء المكتوبة حول العرش ، وبالأسماء المكتوبة حول الكرسى ، وأسألك اللهم بالاسم المكتوب على ورق الزيتون ، وأسألك اللهم بالأسماء العظام التى سميتَ بها نفسَك ، ما علمتُ منها وما لم أعلم ، وأسألك بالأسماء التى دعاك بها آدمُ ونوح وهود وإبراهيم وصالح ويونس وأيوب ويعقوب ويوسف وموسى وهارون وشعيب وإسماعيل وداود وسليمان وزكريا ويحيى وأرميا وأشعيا وإلياس واليسع وذو الكفل ويوشع وعيسى – عليهم الصلاة والسلام - ، وأسألك بالأسماء التى دعاك بها سيدُنا محمد نبيك أن

تصلى على نبيك عددَ ما خلقتَه من قبل أن تكون السماء مبنية ، والأرض مدحية والجبال مرساة والبحار مجراة والعيون منفجرة والأنهار منهمرة والشمس مضحية والقمر مضيئًا والكواكب مستنيرة ، كنت حيث كنت ، لا يعلم أحد حيث كنت إلا أنت ، وحدك لا شريك لك .

اللهم صل على محمد عددَ حلمك وعدد كلماتك ونعمتك ، وملء سمواتك وأرضك ، وملء عرشك ، وعدد ماجرى به القلمُ فى أمّ الكتاب ، وعدد ما خلقتَ فى سبع سمواتك ، وعدد ما أنت خالقه فيهن إلى يوم القيامة ، فى كل يوم ألف مرة ، اللهم صل على سيدنا محمد عدد كل قطرة قطرت من سمواتك إلى أرضك ، من يوم خلقتَ الدنيا إلى يوم القيامة ، فى كل يوم ألف مرة ، اللهم صل على سيدنا محمد عدد من يسبحك ويهللك ويكبّرك ويعظِّمك من يوم خلقتَ الدنيا إلى يوم القيامة ، فى كل يوم ألف مرة ، اللهم صل على سيدنا محمد عدد أنفاسهم وألفاظهم ولحظاتهم ، وصل على سيدنا محمد عدد كل نسمة خلقتها فيهم ، من يوم خلقتَ الدنيا إلى يوم القيامة ، فى كل يوم ألف مرة ، اللهم صل على سيدنا محمد عدد السحاب الجارية ، وصل على سيدنا محمد عدد الرياح الذارية ، من يوم خلقتَ الدنيا إلى يوم القيامة ، فى كل يوم ألف مرة ، اللهم صل على سيدنا محمد عدد ما هبّت عليه الرياحُ ، وحرّكتْه الأشجارُ والأغصان والأوراق والثمار وجميع ما خلقتَ على أرضك ، وما بين سمواتك ، من يوم خلقت الدنيا إلى يوم القيامة ، فى كل يوم ألف مرة ، اللهم صل على سيدنا محمد عدد نجوم السماء ، من يوم خلقت الدنيا إلى يوم القيامة ، فى كل يوم ألف مرة ، اللهم صل على سيدنا محمد ملء أرضك مما حملتْ وأقلّتْ من قدرتك ، اللهم صل على سيدنا محمد عدد ما خلقتَ فى سبع بحارك ، مما لا يعلم علمه إلا أنت ، وما أنت خالقه فيها إلى يوم القيامة ، فى كل يوم ألف مرة ، اللهم صل على سيدنا محمد ملء سبع بحارك وزنة سبع بحارك مما حملتْ وأقلتْ من قدرتك ، اللهم صل على سيدنا محمد عدد أمواج بحارك من يوم خلقتَ الدنيا إلى يوم القيامة ، فى كل يوم ألف مرة ، اللهم صل على سيدنا محمد عدد الرمل والحصى فى مستقرّ الأرضين شرقها وغربها وسهلها وجبالها ، من

يوم خلقت الدنيا إلى يوم القيامة ، فى كل يوم ألف مرة ، اللهم صل على سيدنا محمد عدد اضطراب المياه العَذبة والمَلِحة ، من يوم خلقتَ الدنيا إلى يوم القيامة ، فى كل يوم ألف مرة ، اللهم صل على سيدنا محمد عدد ما خلقتَه على جديد أرضك فى مستقر الأرضين شرقها وغربها وسهلها وجبالها وأوديتها وطريقها وعامرها وغامرها إلى سائر ماخلقتَه عليها ومافيها من حصاة ومدر وحجر ، من يوم خلقتَ الدنيا إلى يوم القيامة ، فى كل يوم ألف مرة ، اللهم صل على سيدنا محمد عدد نبات ا لأرض من قبلتها وشرقها وغربها وسهلها وجبالها وأوديتها وأشجارها وثمارها وأوراقها وزروعها وجميع ما يخرج من نباتها وبركاتها ، من يوم خلقتَ الدنيا إلى يوم القيامة ، فى كل يوم ألف مرة ، اللهم صل على سيدنا محمد عدد ما خلقتَ من الجن والإنس والشياطين وما أنت خالقه منهم إلى يوم القيامة ، فى كل يوم ألف مرة ، اللهم صل على سيدنا محمد عدد كل شعرة فى أبدانهم وفى وجوههم وعلى رءوسهم منذ خلقتَ الدنيا إلى يوم القيامة ، فى كل يوم ألف مرة ، اللهم صل على سيدنا محمد عدد خفقان الطير وطيران الجن والشياطين من يوم خلقتَ الدنيا إلى يوم القيامة ، فى كل يوم ألف مرة ، اللهم صل على سيدنا محمد عدد كل بهيمة خلقتَها على جديد أرضك من صغير أو كبير فى مشارق الأرض ومغاربها من إنسها وجنها ، ومما لا يعلم علمه إلا أنت من يوم خلقتَ الدنيا إلى يوم القيامة ، فى كل يوم ألف مرة ، اللهم صل على سيدنا محمد عدد خطاهم على وجه الأرض من يوم خلقت الدنيا إلى يوم القيامة ، فى كل يوم ألف مرة ، اللهم صل على سيدنا محمد عدد من صلى عليه,وصل عليه عدد من لم يصل عليه ، وصل عليه عدد القطر والمطر والنبات ، اللهم صل على سيدنا محمد عدد كل شيء ، الله م صل على سيدنا محمد فى الليل إذا يغشى ، وصل على سيدنا محمد فى النهار إذا تجلى ، وصل على سيدنا محمد فى الآخرة والأولى ، وصل على سيدنا محمد شابًا زكيّاً ، وصل على سيدنا محمد كهلا مرضيًا ، وصل على سيدنا محمد منذ كان فى المهد صبيًا ، وصل على سيدنا محمد حتى لا يبقى من الصلاة شيء ، اللهم أعط سيدَنا محمد المقامَ

المحمود الذى وعدته ، الذى إذا قال صدّقته ، وإذا سأل أعطيتَه ، اللهم وَأعِظم برهانه ، وشرّف بنيانه ، وَأبْلِج حجّتَه ، وَبيّن فضيلتَه ، اللهم وتقبّل شفاعَتَه فى أمته ، واستعملنا بسنته ، وتوفّنا على ملته ، واحشرنا فى زمرته وتحت لوائه ، واجعلنا من رفقائه ، وَأوْرِدنا حوضَه ، واسقنا بكأسه ، وانفعنا بمحبته .. اللهم آمين . اللهم إنى أسألك بأسمائك التى دعوتك بها أن تصلى على محمد عدد ما وصفتُ ومما لا يعلم علمه إلا أنت ، وأن ترحمنى وتتوب على وتعافيَنى من جميع البلاء والبلواء ، وأن تغفر لى ولوالدى وترحم المؤمنين والمؤمنات ، والمسلمين والمسلمات ، ا لأحياء منهم والأموات ، وأن تغفر لعبدك قارئ هذا الكتاب المذنب الخاطئ الضعيف ، وأن تتوب عليه إنك غفور رحيم .

اللهم صل على محمد ما أزعجتِ الرياحُ سحابا ركاما ، وذاق كلُ ذى روح حِمَاما، وأوصل السلامَ لأهل السلام فى دار السلام تحية وسلامًا ، وفرّحنا برسولك وفرّحه بنا يوم القيامة ، اللهم كما قام بأعباء الرسالة ، وقاسى الشدائدَ فى إرشاد عبيدك ، وجاهد أهلَ الكفر والضلالة ، فبلّغه مأموله ، وآته الوسيلةَ والفضيلة ، والدرجة العالية الرفيعة ، وابعثه المقامَ المحمود ، صاحب الحسن والجمال والبهجة والكمال والبهاء و النور ، والجيش المنصور ، والعلو على الدرجات والكرم والجود ، عبدالله ، كنز الله ، حجة الله ، قائد الغرّ المحجلين إلى جنات النعيم ، مصباح الظ لام ، وقمر التمام ، صاحب الوجه الجميل ، صلى الله عليه صلاة دائمة على الأبد ، غير مضمحلة ، يتجدّد بها حبورُه ، أسألك يا نور النور ، قبل ا لأزمنة والدهور ، وأنت الباقى بلا زوال ، الغنى بلا مثال ، القدوس القادر ، العلى القاهر ، الذى لا يحيط به مكان ، ولا يشتمل عليه زمان ، أسألك بأسمائك الحسنى كلها ، وبأعظم أسمائك إليك ، وأشرفها عندك منزلة ، وأجزلها عندك ثوابًا ، وأسرعها منك إجابة ، وباسمك المخزون المكنون ، الجليل الأجلّ ، الكبير الأكبر ، العظيم الأعظم ، الذى تحبه وترضى عمن دعاك به ، وتستجيب له دعاءه ، أسألك اللهم بلا إله إلا أنت ، الحنان المنان ، بديع السموات والأرض ، ذا الجلال والإكرام ، عالم الغيب و الشهادة ، الكبير المتعال ، وأسألك باسمك العظيم الأعظم الذى إذا دعيتَ

به أجبتَ وإذا سُئِلتَ به أعطيتَ وأسألك باسمك الذى يذلّ لعظمته العظماءُ والملوك والسباع والهوام ، وكل شيء خلقتَه ، يالله .. استجب دعوتى ، أسألك باسمك العظيم التام الكبير ، ألّا تُسلّط علينا جبارًا عنيدًا ، ولا شيطانًا مريدًا ، ولا إنسانًا حسودًا ، ولا ضعيفًا من خلقك ولا شديدًا ، ولا بارًا ولا فاجرًا ، ولا عبيدًا ولا عنيدًا ، يا أزلى يا أبدى ، يا دهرى يا ديمومى ، الحى القيوم الديّان ، الحنان المنان ، اللهم صل على سيدنا محمد ، سرّك الجامع الدالّ عليك ، وحجابك الأعظم القائم لك بين يديك ، واجعل حجابَك الأعظم حياةَ روحى ، وروحه سرّ حقيقتى ، وحقيقته جامع عوالمى ، بتحقيق الحق الأول ، وألحقنى بنسبه ، وحققنى بحسبه ، واحملنى على سبيله إلى حضرتك ، حملا محفوظًا بنصرتك ، واقذف بى على الباطل فأدمغه ، اللهم صل على من منه انشقتْ الأسرارُ ، وانفلقتْ ا لأنوارُ ، وفيه ارتقتْ الحقائقُ ، وتنزّلتْ علومُ آدم - عليه السلام - ، فأعجز الخلائقَ ، وله تضاءلتْ الفهومُ ، فلم يدركه منا سابقُ ولا لاحق ، صلاة تليق بك منك إليه كما هو أهله ، سبحان ربّك ربِّ العزة عما يصفون ، وس لام على المرسلين ، والحمد لله رب العالمين .

فائدة مهمة:

ذكر بعض العلماء: أن ألف مرة صلاة على النبى – صلى الله عليه وسلم – يوميا ، يعنى حوالى نصف ساعة ، ربما تقوم مقام شيخ ربانى مربى ، إن تعذّر التلمذة والتربية على يد شيخ ، لقول الله – سبحانه وتعالى -: (هو الذى يصلى عليكم وملائكته ليخرجكم من الظلمات إلى النور ...) ، والحمد لله رب العالمين .

كمال العبد وسعادته فى التخلق بأخلاق الله ، والتحلى بمعانى أسمائه وصفاته بقدر ما يُتصوّر فى حقه ، فيعرف أولا معانى الأسماء وآثارها فى كل شيء ، ويرى جمال وعظمة وكمال وجلال الله وكبرياءه ، ثم يتشوق إلى الاتصاف بما يمكنه ، ليقرب من الحق - سبحانه وتعالى - بـ الصفة لا بالمكان ، فيأخذ بذلك شبهًا من الملائكة المقربين عند الله ، لكن لابد من تفريغ القلب من أى شوق آخر ، والخلو عن حسيكة الشهوات ، وعن إرادة ما سوى الله ، ثم يسعى فى اكتساب الممكن من تلك الصفات والتخلّق والتحلّى بمحاسنها ، وبه يصير العبد ربانيًا ، قريبًا من الله ، رفيقًا للملائكة ، فيغلب الشهوة والغضب ، ويفطم نفسه عن الجمود على الخيالات والمحسوسات ، ويأنس بإدراك أمور تجلّ عن أن ينالها حس أو خيال .

معانى الأسماء هى صفات الله ، وصفاته لا تصير صفة لغيره ، لكن يحصل للعبد الربانى ما يناسب تلك الأوصاف على الجملة ، ويشاركها فى الاسم لكن لا تماثلها ، فالمشاركة لا توجب المماثلة ، فإننا نعرف الله – تعالى - بما عرفناه من أنفسنا ، لكن حقيقة الله وماهيته والخاصية الإلهية لا يعرفها إلا الله ، وما عرفناه ما هو إلا مثال للحقيقة ، ونهاية معرفة العارفين عجزهم عن المعرفة ، ولا يحظى مخلوق فى ملاحظة حقيقة ذاته إلا بالحيرة والدهشة ، والخاصية الإلهية أنه الموجود الواجب الوجود بذاته ، الذى عنه يوجد كل ما فى الإمكان وجوده ، على أحسن وجوه النظام والكمال ، وهذه الخاصية لا يُتصور فيها مشاركة ألبتة ، وليست إلا لله ، ولا يعرفها إلا الله ، فإذن لا يحظى مخلوق فى ملاحظة حقيقة ذاته وصفاته وأسمائه ومعرفة ذلك إلا بالمثال والآثار ، وليس المِثْل ، قال تعالى : (فانظر إلى آثار رحمة الله) ، ويكون اتساع المعرفة بمعرفة الآثار ، فليس من يعرف أن الله قادر على الجملة كمن شاهد عجائب آياته وبدائع المملكة وغرائب الصنعة ، ممعنًا فى التفصيل

، مستقصيًا دقائق الحكمة ، مستوفيًا لطائف التدبير ، وبينهما ما لا يكاد يُحصى من البون العظيم ، وفى تفاصيل ذلك ومقاديره يتفاوت الأنبياء والأولياء ، ويتفاوت الخلق فى معرفة الله وصفاته وأسمائه ، بقدر ما ينكشف من معلومات الله وعجائب مقدوراته وبدائع آياته ، فى الدنيا وا لآخرة والملك والملكوت .

اعلم أن السلوك هو تهذيب الأخلاق والأعمال والمعارف ، وذلك اشتغال بعمارة الظاهر والباطن ، فيعمر ظاهره بالعبادة ، وباطنه بتهذيب الأخلاق ، وكل ذلك طهارة ، وهى البداية ليستعد للوصول ، الذى هو انكشاف جلية الحق والاستغراق به عن كل شيء ، فلا يعرف إلا الله ، وليس له همة سواه ، فيكون كله مشغولا بكله ، مشاهدة وهمًا ، ولا يلتفت إلى نفسه ، بل ينسلخ منها بالكلية ويتجرد لله ، فيصير كأنه هو ، لا أنه هو تحقيقًا ، إذ أنه ليس فى قلبه إلا جلال الله وجماله ، مع الاستغراق التام بالله ، وما يحل القلب يكون كالمتحد به ، لا أنه متحد به تحقيقًا ، فالقلب خالٍ فى نفسه عن الصور والهيئات ، وإنما هيئاته قبول معانى الهيئات والصور والحقائق ، كما أن الصورة واللون المنطبع فى المرآة ليس هو لونها وصورتها ، وإن كان يتخيل إلى الناظرين إلى ظاهر الأمور أن ذلك صورة المرآة .

الاسم غير المسمى : اللفظ (الاسم) والعلم والمعلوم ، ثلاث أمور متباينة ، لكنها متطابقة متوازية ، فاسم السماء هو الوجود اللسانى الدليلى ، أما صورة السماء المنطبقة فى أبصارنا ثم فى خيالنا ، هى مثال المعلوم المحاكية والموازية له كالصورة المنطبعة فى المرآة ، وهذه الصورة يُعبّر عنها بالعلم ، وهو الوجود فى الأذهان ، أما وجود السماء الأصلى الحقيقى فهو الوجود فى الأعيان ، فمعانى أسماء الله كانت ثابتة فى الأ زل . معنى (سبح اسم ربك الأعلى) ،أى ذاته ، فإنه قد يُكنّى عن المسمى بالاسم إجلالا للمسمى ، كما يُكنى عن الشريف بالجناب و الحضرة والمجلس ، فيُقال السلام على حضرته المباركة ومجلسه الشريف ، والمراد السلام عليه . ومعنى (ما تعبدون من دونه إلا أسماءًا سميتموها ....) ، أى بلا مسمى ، لأنه لم تكن ألوهيتهم ثابتة فى الأ

عيان ، ولا معلومة فى الأذهان ، فليس وراء الاسم معنى ولا شيء .

الأسامى المتقاربة فى المعنى ، لابد وأن تختلف مفهوماتها ، وأن تحت كل اسم خصوص معنى ، وليست مترادفة ، فالاسم يراد لمعانيه وليس لحروفه ، وعلى الجملة يبعد الترادف المحض فى الأسماء الداخلة فى التسعة والتسعين .

الاسم الواحد الذى له معانى مختلفة وهو مشترك بالإضافة إليها ، فالمراد منه أحد معانيه ، وإن كان بعض الأسماء التعميم فيه أقرب .

هناك رخصة فى جواز وصف الله عز وجل بكل ما هو متصف به ، وإن لم يرد فيه إذن ولا توقيف ، إذ لم يرد منع ؛ ما لم يُشعر أو يوهم معناه بنقص ، وكان من أوصاف المدح والجلال فقط (ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها)، فنقول يا مقيل العثرات ، يا منزل البركات ، يا ميسر كل عسير ، والكاشف ، والقاذف بالحق ، والفاصل ، والقاضى ، وما يجرى مجراه ، لكن لا نقول يا ماكر ، يا مخادع ، يا محرك ، يا مُسكِن ، فلا تُطلق على الله ولا ندعوه إلا بأوصاف المدح والجلال ، وما لا يوهم نقصًا أو عيبًا ولذلك قد يُمنع من إطلاق لفظ فإذا قُرن به قرينة جاز ، مثلا لا يجوز أن يقال لله يا زارع ، لكن يجوز أن يقال من بثّ البذر ، فليس هو الزارع ، إنما الله هو الزارع ، كذلك إذا استُخبرنا عن محرك الأشياء ومسكَنِها ، ومسودها ومبيضها ، قلنا هو الله ، ومن رمى فليس هو الرامى ، إنما الله هو الرامى ، كذلك لا نقول لله يا مذّل ، وإنما نقول يا معزّ يا مذّل ، فإنه إذا جُمعَ بينهما كان وصف مدح ، إذ يدل على أن طرفى الأمور بيده ،

فلا يُدعَى الله-لاينادى ولايسمى- بكل ما يوصف ويُخبر به عنه من الأوصاف والأفعال ويُشتق له منها اسم إلا أن يكون فيه مدح وإجلال ، ولا يوهم نقصًا ، فإن قيل لم لا يجوز أن يقال له العارف والعاقل والفطن والذكى ؛ذلك لما فيه من إيهام ، فالعاقل هو الذى له معرفة تعقله أى تمنعه ، والفطنة والذكاء يشعران بسرعة الإدراك لما غاب عن المدرك ، والمعرفة قد تشعر بسبق نكرة.لا يُمنع من إطلاق ما لا يوهم أصلا بين المتفاهِمَين ، ولم يرد بالشرع المنع منه ، فيجوز إطلاقه قطعًا .

فى الحديث الذى رواه الترمذى عن أبى هريرة :(أن لله تسعة وتسعين اسمًا ، من أحصاها دخل الجنة)، لكن أسماء الله من حيث التوقيف غير مقصورة على التسعة والتسعين ، بل لله من الأسماء ما لا يُعدّ ولا يحصى ، ولا يعلمها إلا الله ، وقد ورد فى النصوص أن السيد هو الله ، وأن رمضان اسم من أسماء الله ، وورد الحنان والمنان ، والمولى و النصير والغالب ، والقريب والربّ والناصر وشديد العقاب ، وقابل التوب وغافر الذنب ، والمدبّر والرفيع ، وذى الطول وذى المعارج ، وذى الفضل والخلاق ، والأحد والقاهر والشاكر ، والدائم والكافى والمبين والجميل و الصادق والمحيط والقديم والوتر والغافر والعلام والأكرم . ومما وقع عليه الاتفاق بين العلماء من الأسماء المريد والمتكلم ، والموجود و الشيء والذات والأزلى والأبدى ،وأن ذلك مما يجوز إطلاقه فى حق الله .

معنى من أحصاها : أى جمعها وحفظها وذكر الله بها ودعا الله بها مجتمعة ، وتحقق بمعانيها وكانت له منهجًا فى حياته ،فهذه التسعة و التسعين تجمع أنواعًا من المعانى المنبئة عن الجلال لا يجمع ذلك غيرها ، فتختص بزيادة شرف ، فالأسماء يجوز أن تتفاوت فضيلتها لتفاوت معانيها فى الجلالة والشرف .

فهل هى تسعة وتسعون بأعيانها ؟، أو أيها كان لمن يلتقطها من الكتاب و السنة؟، الأمر محتمل ، والذى ظهر لى أن من أحصى تسعة وتسعين اسمًا مما تأثر به واحتاج إليه فى مسيرته إلى الله لإصلاح نفسه ، وإصلاح العالمين ، وتفاعل معها وتذوقها ، فذكر الله ودعاه بها مجتمعة, وتحقق بمعانيها ، استحق ثواب الإحصاء وهو دخول الجنة ، وقد اعتمدت رواية أبى هريرة رضى الله عنه مع بعض الإبدالات والعلم عند الله ، وهذا اجتهادى .

صفات الله الواجب معرفتها والإيمان بها، ثلاث عشرة صفة ، وهى:

الوجود: وهو صفة نفسية تدل على نفس الذات ، وخمس صفات سلبية تسلب عن الله ما لا يليق ، وهى 1-القدم : أو (الأزلية) تسلب الحدوث ، 2-البقاء :أو (الأبدية) تسلب الفناء ،3- والوحدانية أو الأحدية :التى

تنفى القسمة والنظير عن الذات الإلهية ، أى ليست ذاته مركبة من أجزاء وأنه متفرّد فى ذاته وأفعاله وصفاته وربوبيّته وألوهيّته، 4-المخالفة للحوادث : فليس كمثله شيء ،5- القيام بالذات: أى أنه لا يحتاج إلى محل يقوم به ، فهو قائم بذاته و يقوم به كل شيء .

وهناك سبع صفات معانى-ليست هى هو وليست هى غيره- تدل على معانى زائدة على الذات ، وهى الحياة والعلم والإرادة والقدرة والسمع و البصر والكلام .

فإن كانت أسماء الله كثيرة ، وقد منعنا فيها الترادف ، لكن ترجع جميعها إلى الذات ، وصفات المعانى السبع ، ذلك لأن الأفعال كثيرة والإ ضافات كثيرة والسلوب كثيرة ويكاد يخرج جميع ذلك عن الحصر ، ثم يمكن التركيب من مجموع صفتين ، أو صفة وإضافة أو صفة وسلب أو سلب وإضافة ، ويوضع بإزائه اسم ، فتكثر الأسماء بذلك ، ومجموعها يرجع إلى عشرة أقسام :

القسم الأول : ما يدل على الذات كقولك الله ، واسم الحق إذا أريد به الذات من حيث وجوب الوجود .

الثانى : الذات مع سلب ، كالقدوس والسلام والغنى والأحد ونظائره ، فإن القدوس هو المسلوب عنه كل ما يخطر بالبال ويدخل فى الوهم ، و السلام هو المسلوب عنه العيوب والنقص والشر ، والغنى مسلوب عنه الحاجة ، والأحد مسلوب عنه القسمة والنظير .

الثالث : الذات مع إضافة مثل العلى والعظيم والأول والآخر والظاهر و الباطن ونظائره ، فإن العلى هو الذات التى هى فوق سائر الذوات فى المرتبة ، فهى إضافة ، والعظيم يدل على الذات من حيث تجاوز حدود ا لإدراكات ، والأول هو السابق على الموجودات ، والآخر هو الذى إليه مصير الموجودات ، والظاهر هو الذات بالإضافة إلى دلالة العقل ، و الباطن هو الذات مضافة إلى إدراك الحس والوهم ، وقس على هذا .

الرابع : الذات مع سلب وإضافة كالملك والعزيز ، فإن الملك يدل على ذات لا تحتاج إلى شيء ، ويحتاج إليها كل شيء ، والعزيز هو الذى لا نظير له ، وهو مما يصعب نيله والوصول إليه,وهو الغالب غير المغلوب.

الخامس : ما يرجع إلى صفة من السبعة ، كالعليم والحى والقادر و السميع والبصير .
السادس : ما يرجع إلى العلم مع إضافة ، كالخبير والشهيد والحكيم و المحصى ، فالخبير يدل على العلم مضافًا إلى الأمور الباطنة ، والشهيد يدل على العلم مضافًا إلى ما يشاهد ، والحكيم يدل على العلم مضافًا إلى أشرف المعلومات ، والمحصى يدل على العلم من حيث يحيط بمعلومات محصورة معدودة التفاصيل .
السابع : كالقهار والقوى والمتين ، يرجع إلى القدرة مع زيادة إضافة ، فإن القوة هى تمام القدرة ، والمتانة شدتها ، والقهر تأثيرها فى المقدور بـ الغلبة .
الثامن : ما يرجع إلى الإرادة مع إضافة أو مع فعل كالرحيم والرءوف و الودود ، فإن الرحمة ترجع إلى الإرادة مضافة إلى قضاء حاجة المحتاج والضعيف ، والرأفة شدة الرحمة ، وهى مبالغة فى الرحمة ، والودّ يرجع إلى الإرادة مضافًا إلى الإحسان والإنعام على سبيل الابتداء ، ففعل الرحيم يستدعى محتاجًا ، وفعل الودود لا يستدعى ذلك .
التاسع : ما يرجع إلى صفات الفعل والقدرة ، كالخالق والبارئ والمصور و الوهاب والرزاق والفتاح والقابض والباسط والخافض والرافع والمعز و المذل والعدل والمغيث والمجيب والواسع والباعث والمبدئ والمعيد و المحيى والمميت والمقدم والمؤخر والوالى والبر والتواب والمنتقم و المقسط والجامع والمانع والمغنى والهادى ونظائره .
العاشر : ما يرجع إلى الدلالة على الفعل مع الزيادة ، كالمجيد والكريم و اللطيف ، فالكريم يدل على سعة الإكرام مع شرف الذات ، والمجيد كذلك مع إفادة قدم الشرف ، واللطيف يدل على الرفق فى الفعل ، فقس على ما أوردناه ، فإن ذلك يدل على وجه خروج الأسامى عن الترادف ، مع رجوعها إلى هذه الصفات المحصورة المشهورة .
بعض التوضيح لمعانى الأسماء :
الله : لفظ الجلالة العلم ، اسم للموجود الحق الواجب الوجود ، الجامع للصفات الإلهية ، المنعوت بنعوت الربوبية ، المتفرد بالوجود الحقيقى ،

المستحق لجميع المحامد والثناء ، وكل موجود سواه استفاد الوجود منه ، فالمخلوق من حيث ذاته هالك ، ومن حيث الجهة التى منحته الوجود موجود .

حظ العبد من هذا الاسم : التأله ، وهو استغراق القلب والهمة بالله ، لا يرى غيره ، ولا يلتفت إلى سواه.

الرحمن الرحيم : الرحمة : إفاضة الخير على المحتاجين ، وإرادته لهم عناية بهم ، لكن يتنزه الربُ – سبحانه – عن الرقة المؤلمة التى تعترى الرحيم ، وهذا من كمال الربّ ، فهى إما أنها إرادة إيصال النعمة ، أو هو نفس الإيصال ,والرحمن يجرى مجرى العَلَم ، فلا يسمى به إلا الله ، و الرحمن يفيد تمام الرحمة ، لذلك تعلق بالسعادة الأخروية ، فهو سبحانه العطوف على العباد بالإيجاد أولا ، والهداية ثانيًا إلى الإيمان وأسباب السعادة ، وبالإسعاد فى الآخرة ثالثًا ,والإنعام بالنظر إلى وجهه الكريم رابعًا .

الرءوف : يفيد شدة الرحمة والرحيم يفيد دوامها .لكن ما معنى الرحمة مع وجود آلام وضُرّ وبلاء؟ ؛اعلم أنه ليس فى الوجود شر إلا وفى ضمنه من الخير ما لو رُفع ذلك الشر لبطل الخير الذى فى ضمنه ، ووجود الملزوم بدون اللازم محال ، والتوصل إلى الخير العام بالشر الخاص هو خيرٌ محض ، أما مريد الشر للشر لا للخير غير مستحق لاسم الرحمة وهو مايتنزه عنه الله .

الملك : يستغنى فى ذاته وصفاته عن كل موجود ، ويحتاج إليه كل موجود ، وجودًا وصفاتًا وبقاءًا .

القدوس : المنزه عن كل وصف يدركه حس ، أو يتصوره خيال أو يسبق إليه وهم ، أو يختلج به ضمير ، أو يقضى به فكر .

وحظ العبد منه : أن يتجرد العبد فى نفسه عن عالم الصور والألوان و المحسوسات والمتخيلات، ويدخل فى عالم القدس وحظيرة القدس ، وهو العالم المُنزّه عن الحسّ والخيال والصور والألوان ، فيترقى من الإ دراكات الحسّية والخيالية ، وينزه إرادته من الحظوظ البشرية فلا يريد إلا الله ، ولا شوق له إلا إلى لقائه ، ويكون تردد نظره وتطواف علمه

حول الأمور الأزلية الإلهية المنزهة عن أن تقرُب أو تبعُد فتُدرَك بالحسّ، أو تغيب عن الحسّ .

السلام : تسلم ذاته عن العيب ، وصفاته عن النقص ، وأفعاله عن الشر المطلق المراد لذاته ، لا لخير حاصل فى ضمنه ,وجوده خير من عدم هذا الشر، وكل سلامة فى الوجود معزية إليه صادرة منه .

المؤمن : هو خالق سبب الخوف والأمن جميعًا ، وهو الذى يُعْزَى إليه الأ من والأمان بإفادته أسبابه ، وسدّه طرق المخاوف ، وهى إمكان العدم و النقص والهلاك ، وذلك بالأدوية والأطعمة والأشربة والحواس المحذرة المنذرة والأعضاء الدافعة, والأكنّة والكهوف والبيوت ، وكلمة التوحيد المؤمّنة من الهلاك الأكبر فى الآخرة .

المهيمن : قائم على خلقه باشرافه واستيلائه وحفظه ، الإشراف بالعلم ، والاستيلاء بالقدرة ، وحفظه بالفعل .

وحظ العبد من هذا الاسم : أن يراقب قلبه ، ويشرف على أغواره ، ويستولى على تقويمه ، ويحافظ على ذلك ، فإن كان متفرسًا ومستدلا بـ الظواهر على بواطن البعض ، فيقوم معهم بذلك أيضًا فهو الشيخ المربّى .

العزيز : هو الخطير الذى يستحيل وجود مثله ، وتشتد الحاجة إليه ، ويصعب الوصول إليه وإدراكه ,وهو الغالب غير المغلوب.

الجبار : يجبر الكل ولا يجبره أحد ، وتنفذ مشيئته فى الكل ولا تنفذ فيه مشيئة أحد ، وينفذ أوامره وحكمه على سبيل الإجبار ، ولا يخرج أحد من قبضته ، وتقصر الأيادى دون حمى حضرته ، وهو المصلح لشئون عباده .

حظ العبد : أن يُجبر الخلق بهيئته وصورته على الاقتداء به ، لأن أخلاقه وسمته وسيرته فى منتهى العلو ، ويؤثر ولا يتأثر، ويفيد ولا يستفيد، ويُستتبع ولا يتبع، ولا يلاحظه أحد إلا ويذهل عن ملاحظة نفسه ، متشوقًا إليه، وقد حظى بهذا سيد الخلق محمد – صلى الله عليه وسلم - ، إذ يقول :" لو كان موسى حيًا ما وسعه إلا اتباعى " .

المتكبر :المتكبر بحق هو من ينفرد بالعظمة ، فيرى الكل حقيرًا بالإضافة

إلى ذاته ، ولا يرى العظمة والكبرياء إلا لنفسه ، فإن كانت هذه الرؤية صادقة كان التكبر حقًا ، وليس ذلك إلا لله ، أما ما سواه فالتكبر فى حقه كذبًا وزورًا وباطلا مذمومًا .

حظ العبد من هذا الاسم : أن يتكبر على الدنيا والشهوات والصغائر ، مترفعًا عن أن ينشغل بذلك عن الحق –سبحانه وتعالى – .

الخالق ، البارئ ، المصور : كل ما يخرج من العدم إلى الوجود ،يحتاج إلى تقدير (هندسة تصميمية) أولا ، وإيجاد وفق التقدير(هندسة تنفيذية) ثانيًا ، والتصوير ثالثًا وهو إعطاء الصورة المناسبة المميزة ، ف الخالق هو المُقدِّر ، والبارئ هو المظهر للأشياء والمبرز لها .

الغفار : يغفر الذنوب الكثيرة المرة بعد المرة ، والمغفرة هى إظهار الجميل وستر القبيح ، وأول ستر الله على عبده أن جعل مقابح بدنه مستورة بجمال ظاهره ، وثانى ستره أن جعل مستقر خواطره المذمومة وإرادته القبيحة سر قلبه ، فانظر كيف ستر عن غيره أسراره وعوراته وسوء ظنه وخواطره وأفكاره القبيحة وغشه وخيانته ، ما لو رآه الناس لسعوا فى تلف روحه وهلاكه ، وثالث ستر الله مغفرة ذنوبه المستحق ل لافتضاح بها ، وقد وعد بتبديلها حسنات ؛ ليستر مقابح ذنوبه بثواب حسناته مهما مات على الإيمان .

حظ العبد : أن يستر من غيره ما يحب أن يُستر منه ، ويتغافل عن المقابح ويذكر المحاسن ، أما المغتاب والمتجسس والمكافئ على الإ ساءة بالإساءة بمعزل عن هذا. رأى الحواريون كلبا ميتا,فقالوا :ما أشد نتنه ,فرد عليهم المسيح عليه السلام :ماأشد بياض أسنانه .

القهار : كل شيء مسخر تحت قهره ، عاجز فى قبضته ، يقصم ظهور الجبابرة من أعدائه بما يشاء ، والقهار رمز للسطوة والقوة والغلبة .

الوهاب : الهبة هى العطية الخالية عن الأعواض والأغراض ، فإن كثرت العطايا كان صاحبها وهابًا جوادًا ، فهو العطاء والنوال الجزيل الكثير فوق الوصف والخيال ، والوهاب الجواد من الخلق الذى يبذل جميع ما يملكه حتى الروح لوجه الله فقط لا للجنة أو حظ عاجل أو آجل ، فليس له محبوب إلا الله ، ولا ابتهاج ولا التذاذ ولا سعادة له إلا به ولقائه و

القرب منه والمرافقة مع الملأ الأعلى المقربين من حضرته ، فيُقال أنه يعبد الله لله ، لا على معنى أنه غير طالب للحظ ، بل على معنى أن الله هو حظه ، أى مشاهدته ومكالمته ومحاضرته ولقاؤه ورؤيته هى منتهى لذته وسعادته وفرحه وقرة عينه .

الرزاق : خالق الأرزاق والمرتزقة وأسباب التمتع بها وموصلها إليهم ، رزق الظاهر والباطن ، والدنيا والآخرة ، والمعارف والمكاشفات .

حظ العبد من الرزاق : كن سببًا لوصول الأرزاق ووسيطًا ، فإذا أحب الله عبدًا أكثر حوائج الخلق إليه ، وخصوصًا رزق الهداية وأسباب الجنة .

الفتاح : يفتح بعنايته كل منغلق ، وبهدايته ينكشف كل مشكل ، وتارة يفتح لأوليائه الممالك ويخرجها من أيدى أعدائه ، وتارة يفتح القلوب إلى ملكوت سمائه وجمال عظمته وجلاله ، ويرفع الحجاب عن القلوب ، وبيده مفاتح الغيب ، ومفاتيح الرزق ، وخزائن الرحمة .

العليم : يعلم ما كان وما يكون وما لم يكن لو كان كيف كان يكون ، علم إحاطة وعلم سابق وعلم على أتم ما يمكن من الكشف والوضوح و المشاهدة ، وعلمه سابق بكل شيء وسبب لكل شيء ، ولا يكون مستفادًا من المعلومات ، بل تكون مستفادة منه .

القابض ، الباسط : يقبض الصدقات من الأغنياء ، ويبسط الأرزاق للضعفاء ، ويقبض الرزق حتى لا يبقى طاقة ، ويبسطه حتى لا تبقى فاقة ، ويقبض القلوب فيضيقها لجلاله وعلوه ، ويبسطها بما يتقرب إليها من بره ولطفه وجماله .

وحظ العبد : أن يبسط القلوب بآلاء الله ، وتارة يقبضها بما ينذرهم من جلال الله وكبريائه وفنون عذابه وانتقامه .

الخافض ، الرافع : يخفض بالإشقاء والإبعاد ، ويرفع بالإسعاد والتقريب من يشاء ، ويرفع من يحب عن مشاهدة المحسوسات والمتخيلات ، فيكون مثل الملائكة ، فيرفع إرادته عن الشهوات ، ويخفض إلى أسفل سافلين من قصرت مشاهدته على المحسوسات ، وهمته على ما يشارك فيه البهائم .

حظ العبد : يرفع الحق ، ويخفض المبطلين ، ويوالى ويعادى فى الله .

المعز ، المذل : يؤتى الملك وينزعه ، والملك الحقيقى فى الخلاص من ذل الحاجة ، وقهر الشهوة ، ووصمة الجهل ، فمن شاهد الجمال والجلال ، ورُزق القناعة والقوة ، فاستولى على صفات نفسه ، فقد أعزه وآتاه الملك عاجلا ، ومن مدّ عينيه حتى احتاج ، وتسلط عليه الحرص ، وبقيَ فى الاغترار والجهل ، فقد أذله وسلبه ملكه .

حظ العبد : عش عزيزًا ، أو مت وأنت كريم .

السميع ، البصير : صفة ينكشف بها كمال صفات المسموعات ، وكمال نعوت المبصرات .

حظ العبد : أن يسمع ويبصر بالحق ، ويراقب الله السميع البصير وأن يطلب قوة السمع والبصر المادى والقلبى بهذين الاسمين.

الحكم : لا رادّ لقضائه ، ولا معقب لحكمه ،، فهو الحاكم المُحكّم ، و القاضى المسلّم .الحكم المطلق المتصف بالحكمة ، التى هى الإتقان و العلم الجليل، وترتيب الأسباب ، وتوجيهها إلى مسبباتها ، وربطهما ببعض ، فالنار تحرق ، والسكين يقطع ، والطعام يُشبع ، والعمل الصالح يُدخل الجنة ، ومن اسم الحكم ينشأ القضاء والقدر ، فالحُكم هو التدبير الأول الكلى ، والأمر الأزلى ، وهو كلمح البصر, وتدبيره أصل وضع الأ سباب ، ليتوجه إلى المسببات حكمه ، أما القضاء فهو الإيجاد والوضع الكلى للأسباب ، والقدر هو توجيه الأسباب بحركتها المقدرة المحسوبة إلى مسبباتها المعدودة المحدودة ، بقدر معلوم ، لا يزيد ولا ينقص . فكل ما يدخل فى الوجود يدخل بوجوب القضاء الأزلى الذى لا مردّ له.

لكن إذا كان الأمر انتهى فلِمَ الحركة والعمل ؟

أجاب على ذلك رسول الله – صلى الله عليه وسلم - :" اعملوا فكل ميسر لما خلق له " .

من الناس من ينظر للسابقة,ومنهم من ينظر للخاتمة, ومنهم من هو ابن وقته فلاشغل له إلا بالله.

العدل : ترتيب ووضع كل شيء فى موضعه ومحله اللائق به ، فلو آذى الجناة بالعقوبة ، والمريض بالعلاج ، كان عدلا.

حظ العبد من العدل : أن يجعل الشهوة والغضب تحت إشارة العقل و

الدين ، فإن جعل العقل خادمًا للشهوة والغضب فقد ظلم ، وعدله فى كل عضو أن يستعمله على الوجه الصحيح المرضى لله ، ولا يسب الدهر ، و لا ينسب شيء للأفلاك ، فالكل مسخر ومرتب فى أحسن وضع .

الأمور ليست بظواهرها

اللطيف : يعلم دقائق المصالح وغوامضها وما دقّ وما لطُف وماخفيَ ، ثم يوصلها برفق دون عنف ، فهو رفق فى الفعل ، ولطف فى الإدراك ، ومن لطف الله أعطى كثيرًا وكلف دون الطاقة ، ويسر السعادة بسعيٍ خفيف ، وأخرج اللبن الصافى والجوهر النفيس من الفرث والدم والحجر الصلب ، والعسل من ذبابة ، والحرير من دودة ، والدرّ من الصدف ، وأعجب من هذا أخرج من النطفة القذرة الإنسان ، حامل الأمانة ومستودع المعرفة ومشاهد الملكوت ، فاللطف إذن هو تدابير خفية رفيقة دقيقة ، تخرج الشيء من ضده ، أو بما لا يتخيل خروجه منه ، فهو - سبحانه – مصوّر الأشياء فى قوالب ضدها ,المحنة من منحة!, والمنحة من محنة!, والتمكين من سجن!,فهو سبحانه مع كل شيء وليس معه شيء فهو الخفى وهو الذى يخرج من العدم المتضادات ويخرج من المادة الشيء وضده ألا ترى الماء يطفئ النار وهو بعد يتكون من مادتين أحدهما تشتعل بفرقعة والأخرى تساعد على الإشتعال.

حظ العبد : الرفق والتلطف والهداية من غير عنف ، ولا ازدراء وتعصب وخصام ، وأحسن ذلك الهداية بالشمائل والسيرة المرضية ، فهى ألطف من ألفاظ مُزيّنَة .

الرحمة العدل اللطف الحكمة

خلق الله الموجودات جسمانية وروحانية ، كاملها وناقصها ، وأعطى كل شيء خلقه ، وهو بذلك جواد رحمن وهاب رزاق ... إلخ ، ورتبها فى مواضعها اللائقة بها ، وهو بذلك عدل ، ولم يترك فيها دقائق وجوه الرفق ، وهو بذلك لطيف ، ومن حيث دبر الأمور أزلا فهو حكم .

الخبير : الخبرة من أسماء العلم ، إذا أضيف إلى الخفايا الباطنة .

الحليم : لا يستفزه غضب ، ولا يعتريه غيظ ولا عجلة ولا طيش ولا

يتعجل بالعقوبة والانتقام .
العليّ : بلغ أعلى مراتب لا يتصورها عقل ولا يدركها فهم للشرف والكرم والجلال والجمال والعظمة والكبرياء .
حظ العبد : من يفيض على الناس من كماله ، فيكملهم عقلا وورعًا وعلمًا ، فهو التقى المرشد الصالح لأن يكون قدوة
العظيم ، الجليل ، الكبير ، الجميل :
الكبير من كمُلت ذاته .. والجليل من كمُلت صفاته .. والعظيم من كمُلت ذاته وصفاته ، كمالا جاوز حدود الإدراكات و الإحاطة ، فلا يحيط به عقل اصلا بكنه حقيقته ، ويستغرق البصيرة ، ولا تستغرقه البصيرة .
نسبة الكمال إلى تجاوز حدود الإدراكات تسمى عظمة وجلالًا وكبرياءًا ، ونسبة الكمال إلى إدراك الاستمتاع واللذة يسمى جمالا ، فما تراه لا تحيط به كالبحر والسماء تقول عليه عظيما ، وهذا الذى لا تحيط به أنت مستمتع به فهو جميل .
فالكبير عبارة عن كمال الذات ، أى كمال الوجود وذلك يرجع إلى الدوام أزلا وأبدًا ، وصدور كل وجود عن وجوده ، ولا تستطيع الحواس ولا العقول إدراكه . والجليل هو المنعوت بنعوت الجلال كالعز والملك و التقدس والعلم والغنى والقدرة وغيرها من الصفات .
والجميل لأن كل ما فى العالم من لذّات وجمال ظاهر وباطن وكمال وبهاء وحسن فهو من أنوار ذاته وآثار صفاته ، ويدرك صاحب البصيرة من اللذة والبهجة والسرور والاهتزاز للجمال الباطن أكثر مما يدركه الناظر بالبصر الظاهر إلى الصورة الجميلة ، لأن الصورة الجميلة ليست إ لا ظل للحقيقة الباطنة ، والجميل المطلق هو الله ، ولذلك يدرك عارفه و الناظر إلى جماله من السعادة ما يستحقر معه كل نعيم ، وما يجعله فى دهشة وحيرة وذهول وبهجة ولذة واهتزاز قد تصل إلى السُكْر ، فسبحان الله هو الكمال المطلق والجود الصرِف والخير المحض .
عالم الصور والألوان هو ظل للذوات والصفات والأخلاق ، جمال الذوات والصفات هو الجمال الحقيقى ، ولومُثِّلت صفة الشجاعة أو الكرم أو الحكمة صورة ، لكانت من أفضل الصور الجميلة الحسنة ، إنما الجمال

الظاهر المدرَك بالبصر ظل وانعكاس للجمال المدرَك بالبصيرة ، ومثال ذلك أن من له صورة ظاهرة حسنة لكن أخلاقه وصفاته رديئة فإنك تنفر منه وتكرهه ، لأنك ترى سوء باطنه وصفاته فى جماله الظاهرى ، ولو أن إنسانًا سمعت عنه له أخلاق وصفات غاية فى العلو فإنك تحبه وتنجذب إليه ، ولو لم ترى صورته الظاهرية .

الحسيب : فهو الحسب الكافى(حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين),(حسبنا الله ونعم الوكيل).

ولا يتصور لغيره الكفاية,فالكفاية إمداد بالوجود ودوام الوجود وكمال الوجود وهو خالق أسباب الكفاية وموجهها.وهو المحاسب عباده وكل شيء عنده بحساب.

الحفيظ : يحفظ أعمال العباد ,ويحفظ الأشياء من الخلل ، يديم الوجود ويبقى الموجودات، وضده الإعدام,ويصون المتعاديات والمتضادات بعضها عن بعض، فيحدث الاعتدال ،وجعل للإنسان قوى وجواسيس من حواسه ، وأدوات للقتال والهرب وأكنة وكهوف وخنادق ومأوى ، وكل ذلك من الحفظ ، بل كل قطرة تنزل من السماء معها ملك يحفظها ، وكل الكون حفظ بعضه من بعض ، فالحفظ رعاية وعناية ووقاية وإحصاء للأعمال.

الوثيق : الثقة ؛ لكفايته ولطفه وسائر صفاته ، فتشعر معه بالأمان والأمن والكفاية .

الحيى : وفى الحديث :" إن ربكم حيىٌ كريم ، يستحيى من عبده إذا رفع يديه إليه، أن يردهما صفرًا خائبتين " .

الكريم : هو الذى إذا قدر عفا ، وإذا وعد أوفى ، وإذا أعطى زاد على منتهى الرجاء ، ولا يبالى كم أعطى ولمن أعطى ، ,وإذا رُفعت حاجة إلى غيره لا يرضى ، وإن جُفِى عاتب وما استقصى ، ولا يضيع من لاذ به و التجا ، ويغنيه عن الوسائل والشفعا .

القريب : بلا مجاورة ولا حلول ولا اتحاد ، القريب فلا تيأس ، القريب تتقرب منه وإليه ، القريب فالحياء منه واجب,والتجمل له من الأدب.

المجيب : يقابل المسألة بالإسعاف ، والدعاء بالإجابة , وضرورة

المضطرين بالكفاية ، بل ينعم قبل النداء ، ويتفضل قبل الدعاء ، فإنه يعلم حاجة المحتاجين قبل سؤالهم أزلا ، وقد دبر أسباب الكفاية والآلا ت الموصلة إلى جميع المهمات .

حظ العبد : إجابة المطلوب شرعًا ، ثم العباد بما يقدر عليه ، وفى إسعاف كل سائل ، ولطف الجواب إن عجز ، ويجيب الدعوات ويقبل الهدايا .

الواسع : عمّت رحمته ، ووسع علمه كل شيء ، إنه علم وكرم لا حدود له ، فوَسِّع أخلاقك فلا يضيقها خوف فقر أوغيظ أوحسد أوغلبة الحرص أوغير ذلك ، وكن واسع المعارف .

الحكيم : الحكمة عبارة عن معرفة أفضل الأشياء بأجلّ العلوم ، وأفضل ا لأشياء هو الله ، وأجل العلوم هو العلم الأزلى الدائم المطابق للمعلوم بلا شبهة ولا خفاء ، ومن يحسن دقائق الصناعات ويحكمها ويتقن صناعتها حكيم ، فهو صاحب الحكمة لكمال العلم والإتقان ، ومن عرف الله فهو حكيم ، وإن كان ضعيف الفطنة كليل اللسان فى سائر العلوم الرسمية ، ومن عرف الله كان كلامه مخالقًا لكلام غيره ، ويكون كلامه كليًا ، ويتعرض لما ينفع فى العاقبة .

الودود : الرحمة تستدعى محتاجًا ومضطرًا ، أما الودّ لا يستدعى ذلك ، بل هو إنعام على سبيل الابتداء ، وتقريب وثناء وتجاوز عن الهفوات وحب خالص ورحمة ، فالله هو المحب الخير للغير ، والمحسن فى كل الأحوال ، ويثنى على خلقه ويقربهم منه ، ووده هو إرادته الكرامة و النعمة والإحسان مع التنزيه عن ميل المودة والرحمة ، فالمودة والرحمة لا ثرادان فى حق المرحوم والمودود إلا لثمرتهما وفائدتهما .

حظ العبد : أن يريد للخلق ما يريده لنفسه ، وأعلى منه من يؤثرهم ، وكمال ذلك ألا يمنعه الغضب والأذى عن إرادته الخير لهم .

المجيد : هو شرف الذات مع جمال وحسن الأفعال وجزيل النوال و العطاء ، فهو البالغ النهاية فى المجد والشرف .

الباعث : للهمم ، والرسل ، ولمن فى القبور ، وهو إنشاء وبعث بعد إنشاء ، وللإنسان نشآت كثيرة ، فالنطفة نشأة ، العلقة نشأة ، المضغة نشأة ... ... إلخ ، الإدراكات الحسية نشأة ، التمييز نشأة ، العقل نشأة ، خاصية الولا

ية نشأة ، خاصية النبوة نشأة ، كل ذلك أطوار ونشآت لذات واحدة ، ومراقيها التى تصعد بها إلى درجات الكمال حتى تقرب من الحضرة الإلهية التى هى منتهى كل كمال ، وتكون عند الله بين ردٍّ وقبول ، وحجابٍ ووصول ، فإن قُبِل ترقى إلى أعلى عليين ، وإن رُدّ فإلى أسفل سافلين .

حظ العبد : أن يُحيى الناس بالمعرفة ويردهم للأنبياء والعلماء الوارثين .

الشهيد : يشهد على الخلق ، وهو من أسماء العلم مع خصوص إضافة للأمور الظاهرة .

الحق : الثابت الذى لايتغير ، والواجب الوجود بذاته ، أما الممتنع الوجود بذاته فهو الباطل مطلقًا ، والممكن بذاته الواجب لغيره ، هو حق من وجه باطل من وجه ، فمن ذاته لا وجود له ، فهو باطل ، ومن جهة موجده فهو حق ، (كل شيء هالك إلا وجهه) ، فأحق الأشياء بأن يكون حقًا هو الذى يكون وجوده ثابتًا لذاته أزلا وأبدًا ، ومعرفته حقًا أزلا وأبدًا ، والشهادة له حقًا أزلا وأبدًا,وليس ذلك إلا الله.

الوكيل : الموكول له الأمور كلها بذاته بدون تفويض ولا تولية ، موفيًا بما وُكِل إليه وفاءًا تامًا من غير قصور ، فهو قائم بأمور عباده وحوائجهم وكافيهم .

الوليّ : المحب الناصر لأوليائه ، والقامع لأعداء الدين ، والمتولى أمر خلقه لحبه لهم ونصره إياهم .

الحميد : المحمود المثنى عليه ، بحمده لنفسه أزلا ، وبحمد عباده له أبدًا ، ويرجع هذا إلى صفات الجلال والعلو والكمال منسوبًا إلى ذكر الذاكرين له ، فهو المستحق للثناء والحمد ، الذى هو ذكر أوصاف الكمال من حيث هو كمال .

المحصى : من أسماء العلم مضافًا إلى معلوم معدود محاط به .

المبدئ ، المعيد : الإيجاد إذا لم يكن مسبوقًا بمثله سُمّى إبداءًا ، وإن كان مسبوقًا بمثله سُمّى إعادة ، فالموجودات منه وبه بدأت ، وبه وإليه تعود .

المحيى ، المميت : خالق الحياة ، وخالق الموت ، وهو محيى ومميت

القلوب.
الحى: صاحب الحياة الدائمة والفعّال والدرّاك.
القيوم : القائم بنفسه مطلقًا ، فيكفى ذاته بذاته ، ولا قوام له بغيره ، ولا يشترط فى دوام وجوده وجود غيره ليستمدّ منه الوجود ، ويقوم به كل موجود وجودًا وإمدادًا بالوجود ، ولا يحتاج إلى محل يقوم به .
الحنان ، المنان : وهما من أسماء الرحمة والإنعام والإحسان والبر ، لكن تحت كل اسم خصوص معنى ، فالحنان هو ذو الرحمة ،مع الاهتمام بشأنك, والحنان من الخلق هو الذى عنده مع الرحمة الشفقة والحب ، ف الدعاء باسم الحنان يكون له مذاق خاص حينما تشتد الأزمة بالإنسان ويحتاج إلى رحمة واسعة وشفقة ومحبة ورعاية خاصة ، أما المنان فهو إنعام ومنة من الله مما لا تعب فيه ولا نصب .
الأحد : ينفى القسمة والنظير عن الله .
الصمد : هو السيد الذى إليه منتهى السؤدد ، ويُصمد إليه فى الحوائج ، ويُقصد إليه فى الرغائب ، ومن جعله الله مقصدًا لعباده فى مهمات الدين والدنيا ، وأجرى على لسانه ويده الخير وحوائج خلقه ، فقد أنعم عليه بحظ من معنى هذا الوصف .
المقتدر: فهو إذا شاء فعل ، وإن شاء لم يفعل ، ويخترع كل موجود اختراعًا يتفرد به ، ويستغنى فيه عن معاونة غيره ، فيوجد ما يشاء ، ويُمِدّ ويُفنِى متقدرا بتقدير العلم والإرادة ، وقد يقال أنه قادر إذا لم يفعل ما يقدر على فعله,والقدير مبالغة فيه ، فإن أظهر قدرته بفعل ما يقدر عليه فهو المقتدر بمعنى الفعّال لما يريد.
المقدم ، المؤخر : يقدم الأشياء بعضها على بعض ، فى الوجود والشرف والزمان والمكان .فهو الذى يصرّف فى الوقت مايشاء تقديما وتأخيرا.
يقول إبن عطاء(ماترك من الجهل شيئا من أراد أن يظهر فى الوقت غير ماأظهره الله).
الأول ، الآخر : منه المبدأ ، وهو آخر ما يرتقى إليه درجات العارفين ، وكل معرفة تحصل قبل معرفته فهى مرقاة إلى معرفته .
الظاهر ، الباطن : بالإضافة إلى الإدراكات ، ولا يكون وجه واحد ظاهرًا

وباطنًا ، لكنه باطن إن طُلِب من إدراك الحواس وخزانة الخيال ، ظاهر إن طُلِب من خزانة العقل بالاستدلال .
الوالى : دبّر وولى أمور الخلق وتولاها بولايته ، إدامةً وإبقاءًا وحفظًا وغير ذلك ، فهو قد تولى الأشياء وملَكها .
الطبيب : فى الحديث القدسى :" فأنا طبيبهم ، أبتليهم بالمصائب لأ طهرهم من المعائب " ، وهو طبٌ للقلوب والأبدان بشفائها من أمراضها ، وتحقيقها بصحتها .
البَرّ: من أسماء الرحمة ، لكن مع معنى الصلة ، وكثرة الخير .
التواب : ييسير أسباب التوبة مرة بعد أخرى بما يُظهر لهم من آياته ، ويسوق من تنبيهاته ، ويطلعهم عليه من تخويفاته وتحذيراته ، فرجعوا إلى التوبة ، فرجع إليهم فضل الله بالقبول ، فهو يوفق للتوبة ويقبلها ، وإذا كانت التوبة ترقى من حالة إلى حالة أفضل ,
وانتقال من مكروه إلى محبوب ومن محبوب إلى ماهو أحب ومن منزلة أقل إلى منزلة أعلى فلا ينفك عنها أحد وهى أول المقامات وآخرها,(لقد تاب الله على النبى)، فتوبة الله على العبد مسامحة وترقية لمنزلة أعلى ، ومن قبِل معاذير المجرمين من رعاياه وأصدقائه ومعارفه مرة بعد أخرى فله نصيب من هذا الاسم .
المنتقم : يقصم ظهور العتاة ، وينكل بالمجرمين ، ويشدد العقاب على الطغاة بعد إعذار وإنذار ، وتمكين وإمهال،وهو إرادة العقاب أو نفس العقاب .
حظ العبد : أن ينتقم من أعداء الله ، وأعدى الأعداء نفسه ، وحقه أن ينتقم منها بالعقاب مهما قارفت معصية أو أخلت بعبادة .
العفو : أبلغ من المغفرة ، لأنه محو للسيئات ، وتجاوز عن المعاصى ، وهذا أبلغ من الستر .
حظ العبد : أن يعفو عمن ظلمه ، بل يحسن إليه ، ألا ترى إحسان الله مع العصيان والكفر بغير معاجلة عقوبة ، مع توبة وعفو ومحو .
مالك الملك : هو الذى ينفذ مشيئته فى مملكته ، إيجادًا وإعدامًا ، وإبقاءًا وإفناءًا ، والمالك بمعنى القادر ، والملك بمعنى المملكة .

حظ العبد : املك نفسك ، ونفذّ مشيئتك فى صفات قلبك وجوارحك .
ذو الجلال والإكرام : توحى بالسعة والتفرد فى الجلال والكمال والكرم والكرامة ، فلا جلال ولا كمال إلا وهو له ، ولا كرامة ولا مكرُمة إلا وهى صادرة منه ، فهو يجمع بين الجليل والكريم على أوسع المعانى .
المقسط : منصف المظلومين بعدله إنصافًا أضاف إلى إرضاء المظلوم إرضاء الظالم ، وهذا غاية الإنصاف .
وحظ العبد أن ينتصف أولا من نفسه ، ثم لغيره من غيره ، ولا ينتصف لنفسه من غيره .
الجامع : هو المؤلف بين المتماثلات والمتباينات والمتضادات ، ويجمع شتات الحقائق المختلفة ، ويجمع الناس ليوم الدين ، ومن جمع بين الآداب الظاهرة والباطنة ، وبين البصر والبصيرة ، فله حظ من ذلك .
الغنى ، المغنى : المستغنى عن كل ما عداه ، والمفتقر إليه كل ما سواه ، والمتفضل بإغناء من شاء من عباده ، وإمداده بالغنى ، لكن لا تنقطع عن العبد أصل الحاجة والفقر والاضطرار لله.
المانع ، الدافع : يرد أسباب الهلاك والنقصان فى الدين والبدن بما يخلقه من الأسباب المُعِدّة للحفظ ، وكل حفظ فمن ضرورته منع ودفع ، والمنع إضافة إلى السبب المهلك ، والحفظ إضافة إلى المحروس وهو مقصود المنع والدفع وغايته ، فكل حافظ مانع ، وليس كل مانع حافظ ، إلا إذا كان مانعًا مطلقًا لجميع أسباب الهلاك والنقص،حتى يحصل الحفظ من ضرورته .
الضار النافع : عم خيره البلاد والعباد ، وينزل عقابه بأعدائه ، ويملك الإسعاد والإشقاء ، فهو الذى يصدر منه الخير والشر ، والنفع والضر ، منسوبًا إلى الله ، إما بواسطة الملائكة والإنس والجمادات أو بغير واسطة .
النور : الظاهر الذى به كل ظهور ، ومهما قوبل الوجود بالعدم كان الظهور لا محالة للوجود ، ولا ظلام أظلم من العدم ؛ فالبريء من ظلمة العدم ، المخرج كل الأشياء من ظلمة العدم إلى ظهور الوجود جدير بأن يسمى نورًا ، والوجود نور فائض على الأشياء كلها من نور ذاته ، فهو نور

السموات والأرض .
الهادى : هدَى كل مخلوق إلى ما لابد منه فى قضاء حاجاته ، وهدى وأرشد كل شيء إلى ما يحفظ وجوده, وهدى خواص عباده وعوامهم إليه هداية بالبيان وهداية بالتوفيق -وهو خلق قدرة الطاعة - البيان للعلم والتوفيق للعمل.
الرشيد : المرشد لعباده ، والمسدد لهم ، وتجرى تصاريفه لغاياتها بمنتهى الحكمة والسداد من غير إشارة مشير وتسديد مسدد وإرشاد مرشد , وفى الحديث :(سل الله الهدى والسداد ,وتذكر بالهدى هدايتك الطريق فى السفر, وتذكر بالسداد إصابتك الهدف فى الرمية)أو كما قال ,فهو يجسد للصحابى المعنى ؛فالهدى معرفة الهدف والغاية والطريق الموصل إليها,فيصلح العلم,والسداد السير فى الطريق المستقيم الموصل للهدف بـ لا انحراف ولاتوقف؛فيصلح العمل(فالغاية الله والطريق العبودية),وبصلا حهما يكون الإنسان من المنعم عليهم,غير المغضوب عليهم, الذين علموا ولم يعملوا,ولا الضالين, الذين عملوا على غير هدى من العلم,وإن كان كل منهما مغضوب عليه وضال,مع ملاحظة أن الهداية الكاملة هى عين السداد الكامل.
البديع : لا عهد بمثله ذاتًا وصفاتًا وأفعالا ، فهو البديع المطلق ، ليس له قبل فيكون معهودًا قبله ، فهو لا نظير له .
الدائم السرمدى: ما جلّ عن التغير والحركة ، فليس فيه ماضٍ ومستقبل ، فلا ينفصل فيه القِدَم عن البقاء ،فوجوب وجوده بذاته يتضمن أزليته وأبديته ، وقِدَمه وبقاءه ، لكن القِدَم والبقاء بالنسبة إلى الذهن وبالإ ضافة إلى الماضى والاستقبال .
الصبور : لا تحمله عجلة على مسارعة إلى فعل قبل أوانه ، وإذا كان العبد يقاسى فى مضادة باعث الشهوة بباعث الدين والعقل ، وقهر باعث العجلة ، فالله يتنزه عن مقاساة داعٍ على مضاد الإرادة .
الشكور : يعطى الكثير على العمل القليل .
فروقات ....
الفروقات بين الرحمن والرحيم والرءوف والبر والودود والحنان والمنان

والوهاب، أن كلها من أسماء الجود الإلهى ، لكن مع خصوص معنى تحت كل اسم ، فالرحمن يفيد سعة وتمام الرحمة ، والرحيم يفيد دوامها ، و الرءوف يفيد شدتها ، والبَرّ يفيد الصلة مع الإنعام ، والودود يفيد التقريب ، والمنان يفيد سهولة ويسر العطية بلا تعب ، كما نقول مثلا غنيمة باردة ، والحنان يفيد الرحمة مع اهتمام ورعاية من يجود عليك ، كأنما يخاف ويشفق عليك ويحبك مع تنزه الله – سبحانه وتعالى – عن الرقّة المؤلمة التى توجد فى قلب الرحيم , والهبة تفيد الخلو عن الغرض والعوض وهكذا.

خطة العمل مع الأسماء الحسنى

من لم يتولّ الله,(فليس من الله فى شيء)، هناك أناسٌ من الله فى شيء ، هناك أناسٌ حينما تراهم وترى أخلاقهم العالية ، وما تمثلوا به من أخلاق الله وأسمائه على قدر مايطاق ، فتراهم قمة فى الكرم والجود و المسامحة والعفو والمغفرة والعطاء والبذل والبِر والودّ والحنان والقوة و الشدة والحكمة والعلم ووضع كل شيء فى موضعه ومحله، إنهم من الله فى شيء ، حينما تراهم تشعر بالله ويذكرونك به لأنهم تمثّلوا بالله ، فهم من الله فى شيء- وليس فيهم نصيبا مفروضا للشيطان- حينما تراه يقرّبك من الله ، ويحببك إلى الله ويحبب الله إليك ,إنه الربانى, فاذكر كل اسم خمس مرات أو أكثر يوميًا مع التفكر فى معناه حتى تحفظها ، ثم بعد ذلك من الناس من يذكر كل اسم ألف مرة أو أكثر أو أقل حسب طاقتك ، ومن الأفضل أن تقول فى ذكر الأسماء مثلا : سبحان الرحمن ، سبحان الرحيم ، سبحان الملك ، سبحان القدوس .... إلخ ، أو تقول الرحمن الله ، الرحيم الله ، الملك الله ، القدوس الله .... إلخ ، ليثبت فى ذهنك ، عندما تقول يا الله كل معانى الأسماء والصفات ، ثم تتعامل بالأسماء مع الحياة قارنًا بها الحياة والأحداث والكون والتاريخ وكل شيء ، وإذا كان لك حاجة تدعو الله بالاسم المناسب للحاجة على ضوء فهمك للأسماء وشعورك بمعانيها ، ويمكنك أن تسبح بالاسم المناسب للحاجة والواقعة والحدث والموقف ، من غير أن تدعو ومن غير أن تسأل حاجتك ،(من شغله ذكرى عن مسألته أعطيته أفضل ما أعطى

السائلين) ,يعنى تقول مثلا : سبحان الرحمن الحنان ، أو تقول سبحان القهار الجبار المنتقم ، حسب الاحتياج ؛ لأن أهل الجنة إذا أرادوا شيئًا ينادون ويطلبون بالتسبيح ، فيقولون مافى الآية الكريمة (دعواهم فيها سبحانك اللهم) ، فيأتيهم ما يطلبون ، وبعد انقضاء حاجتهم يحمدون الله (وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين) ، وكان النبى – صلى الله عليه وسلم – إذا أهمّه أمر ، رفع رأسه إلى السماء وقال : " سبحان الله العظيم " ، كأنك حينما تسبح بالاسم تقول اللهم إنى أسألك بتسبيحك أن تقضى حاجتى ، فإذا قضيت الحاجة لا تنسى أن تحمد الله ، وتشهد منة الله وحمده بعدها.

معانى التكبير والحوقلة والتهليل والبسملة

التكبير:الله أكبر من أن يُعرف أويُحاط أويُتخيل وهو أكبر من أن يقال له أكبر على وجه التقدير والمقارنة, سرعة إغاثة نصر الله ,سرعة أخذ الله: أكبر من الظنون والرغبة والرهبة ,ونعيم الله, وعذاب الله: أكبر من النعيم والعذاب الفتنة,وأكبر النعيم وأكبر العذاب, وجود الله ,وكمال الله :أكبر الكمال والوجود...ذكر الله حبا ورغبة ورهبةوتوكلا وإيثار الله في قلبك يجب أن يكون أكبر الذكر والإيثار .

الحوقلة:الحول فعل القدرة وهو التصرف على وجه التحويل من حال إلى حال من عدم إلى وجود ومن وجود إلى عدم , والقوة هى دوام وتمام القدرة ,ومعنى ذلك لاحدوث ولابقاء إلا بالله, لافعل ولااستمرار فعل إلا بالله, لاتكوين ولا إمداد إلا بالله لافعل لأحد إلا بالله, بقدرته بحكمته بلطفه بعلمه بقهره برحمته ...لا فاعل إلا الله .

التهليل:لاوجود ولابقاء إلا لله ,لافاعل إلاالله, لاقوة لاجمال لاكمال إلاالله, لامرغوب ولامرهوب ولامقصود ولا محبوب إلاالله, لاسعادة إلا فى لقاء الله ,لاشقاء إلا فى فوات الله.

البسملة: هى عنوان كل كتب الله, فالعنوان يلخّص لك كل مافى الكتاب,كتاب التقريرات- القرءان -كتاب التاريخ -أفعال النعم والنقم و الوقائع والأحداث- كتاب الله فى النفس, كتاب الوجود والكون, فبها تقرأ وتفهم فبأسماء الله وصفاته وبرحمته وبإنعامه بتحويل العدم إلى وجود وإبقاء الوجود: تُقرأ الكتب.

ابدأ, تحرك, افعل, اترك, اسكن, تكلم, اصمت, فكّر, ادخل فى الأمور, واخرج منها: بالله...اقرأ, حلل, استنتج, افهم الأحداث والوقائع: بأسماء وصفات الله وكما نسبّح بأسماء الله لحاجاتنا فالبسملة كذلك...عندما تواجه ظلما قل بسم الله القهار الجبار المنتقم أوتواجه ضعفا قل بسم الله القوى وهكذا فهى بمعنى الطلب مع الاسم المناسب للواقعة.وكل ما لا يبدأ بالبسملة وحمد الله والصلاة على نبيه فهو أبتر لابركة فيه.

ذكر الأسماء الحسنى ,يكون باللفظ المفرد أو بالتسبيح والتحميد و التكبير والتهليل أوبالبسملة أو بالإضافة إلى لفظ الجلالة, مثل الرحمن

الرحمن ,سبحان الرحمن ,الرحمن: الله..الحمد للرحمن..الرحمن أكبر..لا إله إلا الرحمن..بسم الرحمن....وهكذا مع كل الأسماء.

لاتحرم نفسك من ألف مرة أوربع ساعة يوميا استغفار وتهليل وحوقلة وتكبير وتحميد وتسبيح والصلاة على النبى حتى يتنور قلبك مستشعرا معانيها كما شرحته لك.وابدأ وردك بذكر الموت والآخرة ومنن الله وأفعال الله فى أيام الله أيام النعم ,وأيام النقم؛وذلك لاستجلاب اليقظة والخوف والحب,وتستشعر وجوده وحضوره معك , ثم الأسماء الحسنى ,فالصلاة على النبى,فالاستغفار,فالتهليل,فالتكبير, ف الحوقلة....وغير ذلك .

ولاتنس الصدقة؛فهى خير رصيد وإرث تتركه لأولادك,وخير معين ومساعد على السير والوصول إلى الله,وتدفع ميتة السوء,وتطفئ غضب الرب.

(١) بصمات الهداية والضلال

هل؟لكل إنسان بصمة هداية أو ضلال مترتبة على اختياره...اطرادا مع منظومة البصمات الموجودة فى الكون,هل؟الاحتمالات الممكنة غير المتكررة لاختيار إرادات حرة وضعت فى امتحان الاختيار بين الفجور و التقوى فى عدد ما هو نفسه عدد البشر؟ لأن مابين قمة الهدى وقاع الضـ ـلال من الدرجات ما لا يحصى وما هو عدد البشر بالبصمة المميزة؟مع مـ ـلاحظة أن العلم الإلهى مرآة تكشف وليس قوة تجبر والعمل فيما قد كتب لافيما يستأنف فقد جفت الصحف على علم الله,ومن المناسب هنا ذكر الآتى:أن محتملات الوجود الكائنة فى علم الله أزلا منها ماهو مستحق للمدح أو للذم بحسب الحسن والقبح فيها وميزانه التوافق أو المخالفة مع كمال الله وحكمته إذ لا يوجد فى الحقيقة إلاهو ,ولايوجد إلا معياره ومقياسه ,ويخلق الله من هذه المحتملات فقط مايحب وما يكره المؤديان لما يحب , فلو خلق الله منها شيئا مستحقا المدح وأثابه ,أو خلق ماهو مستحقا الذم وعاقبه فلا يتوجّه عليه السؤال ههنا,لم؟يخلق ويثيب,لم يخلق؟ ويعذب,ويلاحظ ههنا أن الخير وجودى, والشر عدمى,من عدم وجود الخير فيه, فإيجاد الله للشيء خير, وإمداد وإعداد الله للشيء بعد الإيجاد خير,فلو أوجد الله شيئا ولم يتم إمداده وإعداده كان فيه من الشر بقدر مانقص من الإعداد والإمدد ,فالشر ليس إلى الله بل هو من عدم الخير فى الشيء, فهو ذاتى فى الشيء نفسه.فـ ـالعدم ظلمة وشر ,فهو حقير بالذات وفقير بالذات,والوجود نور وخير بحسب إمداده وإعداده.كذلك الهداية أمر وجودى, والضلال عدمى,فـ ـالتوفيق أن يكلك الله إليه, والخذلان أن يكلك إلى نفسك: إلى عدم وظلمة وشر...

فالحسن عارض (بتحسين الله إيجادا وإنعاماوكرما) والقبح ذاتي لأن القبح عدم والعدم شر وظلمة وقبح وفقر محض فإذا تم إعداد وإمداد

شئ بعد إيجاده حسن وكمل وإلا قبح ونقص......فالإيجاد خير كله لكن نقص الإعداد والإمداد يجعل الشئ شرا بحسب النقص لتتم الحكمة..فـ الحسن وجود والقبح هو عدم الحسن فهو ذاتي...والله سبحانه وتعالى الغني بالذات أخرج وأظهر كل موجود من ظلمة عدمه وأغناه بالوجود ودوام الوجود...وما سواه فقير بالذات.....

إحتمالات الممكن لذاته أزلا تحمد أوتذم حسب بصمتها فلما أظهرها استحقت ثوابا أوعقابا فلو افترضنا محددا خطيا وافترضنا أن الإمداد والإعداد وحدات فكل وحدة إمداد وإعداد ستمثل بصمة من درجات الحسن كما أن كل زيادة إلكترون في الذرة يعبر عن عنصر من عناصر المادة له بصمته المميزة والتمايز لا ينفي التشابه بل ينفي التطابق..وفي هذا المحدد بصمات الناجين والهالكين فأول طرفه الأسوأ وآخره :

الأحسن وفي موضع منه من في قلبه مثقال ذرة من خير وإيمان فكل من هم مظنة استحقاق الجود يخلقهم ويخلق لهم من الأسوأ ماهو سبب لاستحقاق الجود بسبب من حصول البلاء بهم في الدنيا أو عقابهم في ا لآخرة لأن عذاب أهل النار من تمام نعيم ونصرة أهل الجنة (إنا لننصر رسلنا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد) فإذا نزعت الرقة المؤلمة من القلوب صار عقابهم كإحراق الحطب لايبكي عليه أحد .

البصمات بين العلم والإظهار وبين الضرورة والإجبار

بصمات المحدثات معلومة لله أزلا بلا جبر على خصوصيتها وصفتها المميزة فالعلم الإلهي له الكشف وليس الجبر...فبـصمتها من ضرورة إمكانها أزلا إنما الجبر في إظهارها - خلقا وإيجادا وإمدادا وإعدادا - على هذه الخصوصية...وهي على ما هي عليه من بصمة تستحق لازم وصفها مدحا أو ذما من حيثية العدل والحكمة والكرم والتفضل والجود الإلهي لا وجوبا على الله....أما من حيثية نسبة الممكنات ببصماتها للعدم فكلها سواء في الذم…ومن حيثية التفضل عليها بالإظهار فالكل لزمته المنة وتوجه عليه الحق وركبه فليس للمخلوق إلا النقص المطلق وليس لخالقه إلا الكمال المطلق فالمخلوق سداه ولحمته نقص وذنب وعورة وخطيئة وسوء…لكن اللزوم يزيد لمن المنة عليهم أكبر -لزيادة الإمداد و

الإعداد - وهذا يعلل كثرة خوف وشفقة أكابر الخلق من الرسل ووراثهم من العلماء والأولياء...فلو عذب الله أهل سمواته وأرضه لعذبهم وهو غير ظالم لهم.....لاستحالة أداء عظيم حق الله....وعند النظر في نسبة البصمات إلى خالقها فالنظر لـمحض فضل ومنة المتفضل ومن هنا لزم الخضوع والتعظيم للرسل ووراثهم تعظيما وخضوعا للمتفضل (وما منا إ لا له مقام معلوم).....ثم إنه ليس للحادث من نفسه إلا ظلمة العدم الذي أتى منه وتوجه الحقوق والمنة عليه.......فالفضل بالإظهار والنعم ليس للحادث ولا منه ولا إليه ولا به وإنما هو لله ومنه وبه وإليه

...ويترتب على ذلك الذل والانكسار والشفقة والرضا والاستسلام و المحبة....والعبودية الخالصة لله وترك التقدم بين يدي الله ورسوله وعدم الاستهانة بمن تراه أقل ومعرفة قدر من هو أعلى وتعظيمه تقديرا للمتفضل وعدم رؤية النفس على أحد....ونكتة الأمر أن ترى نفسك مسيئا وترى ربك محسنا ...ثم ترضى ببصمتك فلن تكون غيرك ولن يكون غيرك أنت...ولاتحسد أحدا ثم تحسن استثمار ما وهبك الله غير ناظر إلى ما وهبه لغيرك .

وعلى ضوء ماسبق تفهم النصوص التي ورد فيها أن الله خلق الخلق في ظلمة ورش عليهم من نوره فمن أصابه من ذلك النور اهتدى ومن أخطأه ضل...إن الله كتب أهل الجنة في كتاب لا يزاد فيه ولا ينقص وكتب أهل النار في كتاب لا يزاد فيه ولاينقص...ولقد ذرأنا لجهنم كثيرا من الجن والإنس....إن الله قبض قبضة فقال هؤلاء إلى الجنة ولا أبالي وقبض قبضة وقال هؤلاء إلى النار ولا أبالي....فكلها تعني إحاطة العلم بما كان ومايكون وتعني أنه ما خرج شيء عن علم الله وإرادته فإن الله علم وأراد منذ الأزل وأبرز وأظهر بقدرته كل ما هو كائن إلى يوم القيامة... فالله رش من نوره على من يستحق وكتب من بصمتهم نجاة وفوز في كتاب وقبض أهل الفوز والنجاة في قبضة أهل الجنة ..وذرأ لجهنم جنا وإنسا بصمتهم جهنمية..ويجدر بنا هنا أن نذكر أن العبد لا يعرف ماهي بصمته الحقيقية هل ماهو عليه هو بصمته أم لا ؟ أم أنه يظهر بغير بصمته؟ ويعيش عليها طيلة عمرة ثم يتوفاه الله على سابق

علمه ببصمته الحقيقية ؟ فالإنسان يجهل السابقة التي سبقت له في علم الله الأزلي ويجهل الخاتمة التي سيموت عليها..وقد ورد في الحديث أنه من بني آدم من يعيش مؤمنا ويموت كافرا ومنهم من يعيش كافرا ويموت مؤمنا ومنهم من يعيش مؤمنا ويموت مؤمنا ومنهم من يعيش كافرا ويموت كافرا...ذلك أن الله قد يستعمل المؤمن بعمل الكافر والكافر بعمل المؤمن - من خلال آلية التوفيق والخذلان - لحكم يعلمها وأقدار يقررها فالله ينصر دينه بالبر وبالفاجر وبقوم لاخلاق لهم لكن لابد أن يموت كل صاحب بصمة على بصمته الأزلية الحقيقية..فإن الله كتب أهل الجنة في كتاب لا يزاد فيه ولا ينقص وإن أحدكم ليعمل بعمل بأهل الجنة وليس من أهلها فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها....نسأل الله السلامة والحفظ ...رضينا بالله ربا وبالإسلام دينا وبمحمد صلى الله عليه وسلم نبيا وإماما .

(٢) حقائق

من خاف غير الله سلط عليه ومن أحب غير الله عذب به ومن رجا غير الله خذل من جهته ومن اطمأن لغير الله كان قلقه واضطرابه ومن انشغل بغير الله كان شؤما عليه....

ماذا يفعل أعدائي بي؟ أنا جنتي وبستاني في صدري أينما حللت ارتحلت معي...إن قتلي شهادة وسجني خلوة ونفيي سياحة....إنما المسجون من سجن قلبه عن الله والمأسور من أسرته شهواته....

إذا فتح الله رحمته صار الصعب سهلا والعذاب نعيما والمحنة منحة والبلاء عافية والفقد وجدا...

إذا أمسك الله رحمته صار السهل صعبا والنعيم عذابا والمنحة محنة و العافية بلاء والوجد فقدا...

إذ السعادة والشقاء يخلقها الله في القلب بموجب مناسب أو بغير موجب أو بعكس الموجب....

(مايفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها)

ماذا فقد من وجد الله وما الذي وجده من فقد الله
لا إله إلا الله..لا سعادة إلا في لقاء الله...لا شقاء إلا في فوات الله
لا مرغوب ولامرهوب إلا الله

اللهم إن الفرح بك هو الفرح والسرور بك هو السرور..السرور بغيرك هو الغرور..وكل فرح بغيرك زائل ...وكل شغل بسواك باطل....وكل عز يمنع دونك فنسألك بدله ذلا تصحبه لطائف رحمتك..وكل وجد يحجب عنك فنسألك عوضه فقدا تصحبه أنوار محبتك اللهم أنت الخير المحض والجود الصرف والكمال المطلق.... سبحانك.....
في القلب فاقة وكسرة
وقلق واضطراب وهم
وحزن وحيرة وألم..
ولايذهب ذلك إلا إخلاص
العبودية لله وحبه ومعرفته والافتقار إليه واللهج بذكره ... غير ذلك وهم وكذب وغرور وخداع .

(٣) احذر الانحراف عن الهدف

أحيانا كثيرة نؤخذ عن أهدافنا وعن طريقنا بالانشغال بالتفاصيل عن الأساسيات وبالجزئيات عن الكليات وبالقشور والظلال عن الحقائق وبالظواهر عن البواطن وبالسفاسف عن العظائم والشيطان لا يتركنا فإنه إما يستهدف أن نكون مثله! لكن هل ييأس إن لم يتحقق هذا الهدف؟؟ إنه ينتقل إلى الهدف التالي...... فإن لم.... انتقل إلى الذي يليه وهكذا.......فإن لم نكن مثله محاربين لله؟ فلنكن كفارا؟ أو منافقين؟ أو مبتدعين؟أو من أهل الكبائر؟ أو الصغائر؟ أو نترك المستحبات ونفعل المكروهات؟؛ ... أو التوسع في المباحات لنتلهى بها عن التكاليف؟ وقد يدخل علينا من ترك الترتيب بين رتب التكاليف فيستهدف منا تضييع أمور على حساب ما هو أهم منها.....مثل الانشغال بالفرض الكفائي عن

العيني...وبالمستحب عن الواجب وبالواجب الكفائي الذي له قائم عن الكفائي الذي ليس له قائم وبالعيني الذي لم يحن وقته عن العيني الذي حان وقته! وبالعيني الأقل رتبة عن العيني الأعلى رتبة- عند التعارض- وبالمهم الذي ضاق وقته عن الأهم الذي يتسع وقته فترك الترتيب بين التكاليف من جملة الشرو ر كما ذكر ذلك أبوحامد الغزالي رحمه الله ....وكما قيل : إن لله عمل بالليل لايقبله بالنهار وله عمل بالنهار لايقبله بـ الليل ولايقبل السنة حتى تؤدى الفريضة

وقد يفتح علينا٧٠ بابا من الخير!!!!!؟؟؟؟؟ لنقع في باب واحد من الشر هو أشد منها جميعا؟؟؟!!!! قال بعض العارفين لتلميذه يابني أنت الآن في مرحلة لا يدخل عليك الشيطان من أبواب الشر بل من أبواب الخير!!!؟؟؟؟

وأراني الآن أنا وكثير من أحبائي نستدرج في أمور جانبية فإننا نستدرج إلى فخاخ التدقيق والتحقيق لنحجب بها عن التحقق والعمل ....قال شيخ لتلميذه يابني كن عين المعنى وإلا فاتك المعنى.......

لقد اختلف أهل العلم في فروع الفقه بل وفي أصوله وفي الحكم على ا لأحاديث قبولا أو ردا وفي التفسير فهل هذا الخلاف يعطينا سعة ومرونة أم نستثمره في تضييع وقتنا بالجدال وتدابر القلوب ....قال الشافعي أجمع العلماء على أن الله لايعذب فيما اختلف فيه العلماء وقال غيره إن الله لايعذب فيما يثيب عليه وقال عمر بن عبد العزيز ماوددت أن أصحاب محمد لم يختلفوا لو لم يختلفوا لما كانت رخصة وقال القاسم بن محمد كان اختلاف أصحاب محمد رحمة بالعباد........فمن الناس من يستثمر الاختلاف العلمي لصالح التقوى وتجميع القلوب ومنهم من يستثمره لصالح التفلت من الشرع ولصالح التباغض والتدابر وإقامة معارك وهمية وتضييع الأوقات؟!

(وأمر قومك يأخذوا بأحسنها....خذوا ما آتيناكم بقوة....فيتبعون أحسنه) وكان الصحابة يتركون الحلال مخافة الوقوع في الحرام فهذا

استثمارهم لموضوع الخلاف العلمي!!! نحن غرقنا في الشجار حول التحقيق والتدقيق وتركنا التحقق والعمل والعاطفة الجياشة والروحانية الفاعلة والربانية واشتغلنا بالتفلسف والتنظير..... وأقول لو أنني قرأت المسند لابن حنبل أو أي كتاب من كتب السلف الصالح دونما تحقيق وتدقيق على طريقة المعاصرين أكون آثم!!!!!! وهل كان الدين ناقصا حتى أتى فلان أو علان من المحققين الذين لم يفعلوا شيئا سوى الترجيح والترجيح فقط بين أقوال علماء السلف سواء في الحكم على الحديث أو الفروع الفقهية !!!؟؟ وهل ترجيح هؤلاء ملزم لأحد وهل تشنج البعض لرأي هؤلاء وفرضه على الأمة بدعة أم سنة حق أم باطل؟! لقد رد بعض العلماء الحديث الصحيح وقبل الحديث الضعيف !!!!! رد الصحيح سندا لكن لأن معناه شاذ مخالفا لما هو أصح منه متنا وقبل الضعيف سندا لأن متنه موافق للصحيح من الحديث أو قواعد الشرع وأصوله العامة وهذه هي شغلانة ووظيفة الراسخين في العلم؟؟؟!!!! وليس لنا إلا اتباعهم لا اتباع أنفسنا في فهم الشرع إلا رجلا بلغ رتبهم

نحن مأمورون باتباع الشرع بفهم الثقات من العلماء وليس اتباع الشرع بفهمنا القاصر !!!! فإذا اختلفت علينا الفتوى والأقوال فلنا الأخذ برأي من شئنا طالما كانوا من أهل السنة وكانوا ثقات وكانوا علماء ربانيين عاملين مجاهدين لا علماء سلطة ولافقهاء شرطة ولارجال دنيا....وكان علينا أن نأخذ بالأحوط والأورع والأحسن والأقوى لننجوا عند الله فقد نلفق بين أقوال العلماء إلتماسا للرخصة لكن سيكون ذلك وبالا علينا آجلا وعاجلا ....والله ولي التوفيق .

(٤) لا لذة مجانا

إذا أراد الله أن يبلغ عبده غاية عظيمة وهدفا كبيرا وأن يحقق له مقصدا مهما أو يعطيه نعما جليلة فإنه يبلغه ذلك بتعب ونصب ومجهود وبلاء !!؟؟ لهذا لما سئل الشافعي أيمكن المؤمن أم يبتلى؟؟ قال لايمكن حتى يبتلى !! ولهذا كان الوحي شديدا على رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى الجنة لايكون دخولها يوم القيامة سهلا (حتى إذا جاءوها؟؟......(و)فتحت) بخلاف أهل النار (حتى إذا جاءوها!!فتحت) وهذا يعلل حدوث البلاء قبل بعض الأمور وبعدها!؟وكأنه أقساط ثمن النعمة وبلوغ الغايات الكبرى!!!! وكأنه كالجبر للقصور!!!! وكأنه ثمن تفضيل المؤمنين من الجنس الإنساني على الملائكة!!!!!!! ويبين ذلك:- أن اللذة والألم وحدات مقسومة يخلقها الله سبحانه وتعالى في القوة المدركة عند العبد ولابد وأن يستوفي العبد حظه منهما وهذه الدار يختلط فيها اللذة بالألم والألم باللذة -بخلاف الآخرة إذ يتمحض فيها الألم واللذة - هذا لأن تناوب اللذة والألم في هذه الدار نعمة إذ بها يُعرف الله بالجلال والجمال ومعرفة الله من أجل وأعظم نعم الله على عبده......ونعمة حتى لا يركن عبد إلى الدنيا ولينكسر طغيان النفوس وتتهذب فيقرب العبد من الحضرة الربوبية ...فلا لذة بغير ألم......فكأن الآلام والبلايا ثمن للنعم والمقاصد الكبرى في الدنيا وثمن للجنة في الآخرة!!!وكلمة(كأن) هنا تدل على أنها في الحقيقة ليست بثمن لكن بفضل الله جعلها الله كالثمن!!فلن يدخل أحد الجنة بعمله؟؟؟فلاتحزن عند البلاء ولاتبكي بسبب اللأواء فإن مابعد ذلك تمكين ونعم وبلوغ الأهداف العظيمة ولاتفرح عند النعم لتناوب البلاء بعدها !!!......بل اتزن وتمهل في حزنك وفي فرحك إذ بعد البلاء نعمة وبعد النعمة بلاء وبعد الفرح حزن وبعد الحزن فرح وبعد الشدة فرج وبعد الفرج شدة وبعد التمكين انتكاس وبعد الانتكاس تمكين...... هذه هي الدنيا؟؟؟!!!! تقلبات وزلازل وبلابل .....فاستعد للآخرة وحاسب نفسك فمن شدد على نفسه الحساب اليوم فقد خفف عليها الحساب غدا ومن أتعبها فقد

أراحها ومن أذلها بمجاهدتها وأهانها بترك شهواتها فقد أعزها وأكرمها ولا يجمع الله على عبد أمنين ولا خوفين فمن أمن الآن خاف غدا ومن خاف الآن أمن غدا ومن استعجل شيئا قبل أوانه عوقب بحرمانه ف الراحة تعب والتعب راحة والأمن خوف والخوف أمن والتأني-الحكيم- سرعة والاستعجال-غير الحكيم-بطء....واجعل شعارك الصبر وراحتك التعب ولا تعبأ بلذة المدح ولا بألم الذم..... واجعل رحمك الله جنتك وبستانك في صدرك من معرفة الله ومحبته والتعب من أجله إذ غير ذلك وهم وكذب وغرور وخداع!!! فإن كانت جنتك في صدرك.... الآن وهنا فإنك سوف تصطحبها معك هناك في الآخرة.....أما من يصطلي بنار الأخلاق السيئة ونار عبادة الدنيا فماذا سيصطحب معه غدا؟؟؟؟!!!!! ولهذا يقال إن الجنة أقرب لأحدكم من شراك نعله والنار مثل ذلك فجنة المرء في صدره هي أخلاقه الحسنة ومعرفته بربه و العبودية الخالصة له وناره في صدره هي أخلاقه السيئة وشركه وجهله وغفلته أما الجنة والنار فهي ظلال لهذه الجنة أو هذه النار .

(٥) سعة الكون وعظمة الخالق

هذه الكواكب والنجوم والمجرات الهائلة ماهي إلا كحلقة مبهمة (مفرغة) ألقيت في فلاة(صحراء) بالنسبة للسماء الأولى والسماء الأ ولى كحلقة في فلاة بالنسبة للسماء الثانية والثانية كذلك بالنسبة للثالثة وهكذا حتى السماء السابعة (السموات كروية) التي هي كحلقة في فلا ة بالنسبة للكرسي الذي هو بدوره كحلقة في فلاة بالنسبة لعرش الرحمن سبحانه وتعالى فكأن السابق يتلاشى وجوده في وجود اللاحق ويصير صغيرا جدا بالنسبة إليه وكل ذلك لاشئ بالنسبة للذات الإلهية!!!!!! فماذا تكون الأرض بالنسبة لهذا كله؟؟!! وماذا نكون نحن؟؟!! بإيماننا وكفرنا بحياتنا ووجودنا وموتنا وعدمنا؟؟!! وماذا تكون الدنيا ؟؟!! التي نتعلق بها وماذا يكون الظلمة وأصحاب النفوذ والقوة؟؟!! سبحان الله عما يصفون!!! وسبحان من يدير ويقيم ويوجد ويمد بالوجود كل ذرة فضلا عن المجرة!!! إن الله يمسك السموات والأرض أن تزولا ولئن زالتا إن

أمسكهما من أحد من بعده...... وسبحان من خلق الخير والشر وسلط هذا على ذاك ....ولو يشاء الله لانتصر منهم ولكن ليبلوا بعضكم ببعض.......ليتخذ منكم شهداء......ليكرمهم......

...الجنة سقفها عرش الرحمن وهي موجودة الآن على محيط السماء السابعة (الكروية)وكما نعلم فالمحيط في الدائرة أكبر من القطر(بنسبة ٣.١٤)من ههنا كانت الجنة عرضها هو قطر السموات والأرض وطولها هوالمحيط!!!! وهذه أبعاد هائلة جدا ورهيبة جدا ولايمكن تخيلها؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟!!!!!!

أما النار أعاذنا الله وإياكم منها فهي في الأرض السابعة والتي هي على ا لأرجح الطبقة السابعة من أرضنا هذه وهي منزوية فإذا كان يوم القيامة خرجت منها وتمددت .....فالجنة هائلة وكبيرة جدا أما النار فضيقة نسبيا !! إذ السعة نوع نعيم والضيق نوع عذاب!! وفي أحداث يوم القيامة تطوى وتجمع السموات والأرض..يوم نطوي السماء...كما بدأنا أول خلق نعيده...كانتا رتقا ففتقناهما....بعد انفجارات رهيبة تكون الا نفجارات الذرية بالنسبة إليها كالصفر.....وليس هذا فناءا بل كما يقال إعادة انتشار أو الوجود في شكل آخر هو الشكل النهائي للسموات و المجرات والكون......وكلمة (السماء) تطلق ويراد بها مطلق العلو...كل ما علاك فأظلك فهو سماء....أو المجرات.....أو السموات السبع.....وتطلق كلمة (السموات) على المجرات وعلى السموات السبع.....والسموات السبع مغيبة فهي من عالم الغيب وفي كل سماء كعبة تسامت كعبة الدنيا يحج إليها الملائكة بحيث لو وقعت لوقعت عليها ....أولها بيت العزة في السماء الدنيا وآخرها البيت المعمور في السابعة......وسمك كل سماء مسيرة٥٠٠ عام وبين الأرض والسماء وبين كل سماء والتي تليها مسيرة ٥٠٠ عام وذلك رغم الأبعاد الرهيبة ويبدو أن ذلك يوضحه: أن هذه المسافات تكون عند نقطة معينة - وهي الأبواب - !! فلوافترضنا دوائر داخل بعضها فإن اقترابها من بعضها عند نقطة معينة لاينفي كون بعضها كبيرا جدا والآخر دون ذلك...وعلى ذلك

فيمكن أن تكون المجرات لها امتدادات في بعض أو كل السموات - إذ السموات لطيفة - وذلك عند نقاط اقتراب السموات من بعضها وهي امتدادات متحركة وعلى ذلك فالسموات تتحرك أيضا لتتسق المجرات مع السموات مع الأبواب . سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم: أين يكون الناس (يوم تبدل........) فقال: في الظلمة دون الجسر؟؟!! للأرض عدة تبدلات يوم القيامة فأولها تبدل بالصفة ثم تبدل بالذات ومن هذه التبدلات أرض الظلمة وهي المرحلة التي تسبق المرور على الصراط ثم تبدل إلى خبزة يأكلها أهل الجنة فلا يقال إنه لا يوجد إلا الجنة والنار و الصراط......إذ يوجد أرض الظلمة في المشهد أيضا.......والسموات و المجرات لاتفنى بل تتحول إلى صورة أخرى إذ هذا الكون خلق للبقاء و الديمومة إلا ما شاءه الله من انقطاع مؤقت - وهي فترة التبدل إلى الصورة النهائية-......راجع الأساس في السنة قسم العقائد لسعيد حوى.... وخاتمة كتاب آفاق الوحدة القرآنية وتفسير أواخر سورة هود منه

(خالدين فيها مادامت السموات والأرض إلا ماشاء ربك) فخلودهم وديمومتهم في الجنة أو النار كديمومة السموات والأرض إلا إنه لا انقطاع لهذه الديمومة كما حدث للسموات والأرض وقت التبدل و التحول إلى صورة أخرى

بل خلود أبدي لا انقطاع فيه ولا اسئناف له

وكما درسنا فإن المادة تتحول إلى طاقة وفي الحقيقة المادة ليست إلا طاقة متكثفة فما نراه صلبا أو سائلا أو غازيا ليس إلا طاقة وما يخلقه الله في حواسنا ماهو إلا تمثيل للمادة أو مايشبه السراب لأن حقيقة المادة أنها طاقة والطاقة لا ترى بالعين فهل مانراه مثلا في دماغنا إنسانا مما التقطته عيوننا وتحول إلى إشارات كهربية في الدماغ إلى صورة إنسان .....هل هو حقيقة الإنسان؟؟؟؟؟؟؟ هل رأينا مثلا تريليونات الخلايا والذرات المكونة للإنسان وهي في الحقيقة ليست إلا

طاقة!!!!! لا ترى بالعين!!!! فنحن في الحقيقة نعيش في عالم حواسنا وإدراكاتنا والتي يخلقها الله لحظة بلحظة وهذه الإدراكات ما هي إلا تعبير عن الحقيقة وظل لها فسبحان الله!! (راجع فيديوهات روعة الخلق المستفادة من مؤلفات هارون يحيى) أما إدراكات أهل الجنة و التي يخلقها في الروح والبدن فهي أعلى بكثير من إدراكات أهل الدنيا... كما ورد في الحديث أن الرجل يرى مخ ساق زوجته وكبده مرآة لها وكبدها مرآة له!!! وغير ذلك مما يستحيل تخيله لأن الخيال لم يعط القدرة إلا على تصور ما أدركته الحواس سابقا....... ونحن لم نمت لكي نعرف ماهو الموت ولم نذهب إلى الأخرة لكي نعرف ما الجنة وما النار؟ لكن أعطانا الله في هذه الدنيا نماذج وأمثلة للذة والألم لنقيس عليها

.......فالحمد لله أولا وآخرا.........

(٦) مشايخ السلطان

أما بعد فهذه تذكرة لي ولإخواني المسلمين في التحذير من علماء الا ستعمار وشيوخ السلاطين بالرغم من ظهور الحقائق إلا إن الحاجة ماسة للتذكير بالحقائق ....من هو العالم الذي يجب اتباعه؟ ....إنه العالم الرباني..العالم العامل المعلم المجاهد الصادع بالحق المقاوم للفساد و الباطل الذي لا يأكل من موائد السلاطين والذي يعرف قضيته ودوره ويعرف الناس دورهم وقضيتهم.....فلا يحرف الناس عن الأصول و الكليات والمجمع عليه والمهمات من أمور الدين إلى الفروع والجزئيات و المختلف عليه والسفساف من الأمور....ولا يخدر الناس عن مقاومة فساد السلاطين وأسيادهم من أعداء الإسلام بإشغالهم بتحقيقات علمية أو تدقيقات فقهية أو خيالات وهمية أو شطحات صوفية أو رياضات روحية أو أذواق ومواجيد قلبية..منسيا إياهم جهاد أعدائهم ومقاومة فساد سلاطينهم....ولا يخذل الأمة ويخوفها من عدوها كما يدعي بعضهم أن العمليات الفدائية ضد أعداء الدين هي انتحار!!؟ وان السلاح الذي تصنعه المقاومة ما هو إلا حديد لايجدي شئيا مع سلاح أعداء

الدين!! وبعضهم ينصح الشعوب المحتلة بترك أوطانها تاركة إياها للمستعمر!! هل هذا هو العالم الذي تتبعه!؟ هذا إما أنه جبان أو عميل أو تابع لعميل وهو لا يدري أو بائع دينه بعرض من الدنيا رخيص وأيا من هؤلاء ليس هو العالم الذي يمكن أن يسمى عالما أو يمكن اتباعه أو يغني عنك شئيا أمام الله سبحانه يوم القيامة....ليس عالما يخاطب الناس عن الفضائل في الوقت الذي تترك فيه الفرائض...ولا عن فروض الكفايات في الوقت الذي تضيع فيه فروض الأعيان....وليس الذي يلقي كل ما في جعبته الخاسرة من ذم للناس غاضا الطرف عن الحكام وأسيادهم...ليس الذي ينسب للناس غلاء سببه فساد الملأ المفسدين في الأرض....ليس الذي يخطب في الناس خطب التيئيس والإحباط و التنفير والمذمة ويلقي بكل التهم عليهم تاركا الكلام عن أسياده من المفسدين وأعداء الدين....ولكم ينفق أعداء الدين من أموال لدعم دين ينفر عن دين ودين يلهي عن دين ودين يخدر عن دين!!!!؟؟؟ وذلك كما رأوا المسلمين يتوجهون لإنشاء جامعة إسلامية بعد سقوط الخلافة فألهوهم عن ذلك بإنشاء جامعة عربية إذ العروبة لا تجمعهم بل تفرقهم والإسلام يجمعهم! فالدين الذي يرضي الاستعمار هو دين الجزئيات وهو دين الفردية وهو دين الروحانيات المجردة وهو دين الفروع وهو دين الجمعيات الخيرية وهو دين (الذين جعلوا القرآن عضين) دين الأبعاض الذي يترك أشياءا ويلتزم بأشياء (أفتؤمنون ببعض....وتكفرون ببعض) دين الشعائر بلا شرائع وهو دين الخلق السلبي والإيمان المتقوقع هو الدين العلماني الذي فيه ما لقيصر لقيصر وما لله لله! ..هو دين تكبير الشخصيات على حساب التجمعات ....وبهذه الأديان الباطلة يواجهون دين(ادخلوا في السلم كافة) الدين الشامل من السواك للجهاد ويواجهون به الدين الحيوي المتجدد الشامل الكامل الإيجابي الفاعل الدين الذي يضع الأمور في نصابها ومكانها ووقتها وظرفها المناسب دين الكليات قبل الجزئيات والأصول قبل الفروع والعمل الجماعي مع العمل الفردي الدين الذي يذوب فيه الأنا الفردي في الأنا الجماعي....رأينا السلفية المقاومة والصوفية المجاهدة ورأينا التجمعات والمجامع والا

تحادات العلمية الرائدة لكن هناك سلفية يدعمها الاستعمار وصوفية ينفق عليها أعداء الدين ومنتديات علمية لاهم لها إلا إلهاء الناس بالفروع وتخديرهم بدقائق لا تعنيهم وجمعيات خيرية صنعت لتفتيت التجمعات الإسلامية الكبرى...لقد فطن الغرب لحقيقة أن الشعوب الإسلامية شعوب متدينة فعملوا على إشباع الأشواق الدينية والروحية وملء الفراغ الروحي بأنواع من الدين أنواع وديعة! لا أنياب لها! لاجهاد فيها و لاروح ولا إيجابية! فصنعوا لذلك سلفية وصوفية وجمعيات خيرية وشخصيات فردية - تفتت التجمعات - لتمتص حاجة الناس للدين ولا تصطدم مع الغرب وحين أقول صنعوا أقصد عدة أمور : منها الدعم و التشجيع ومنها فتح مجال للبعض وإغلاقه أمام البعض ومنها الصناعة الكاملة كما اكتشفت بعض الشخصيات والمجموعات المتظاهرة بالعلم و الدين وهي في الحقيقة صناعة مخابراتية كاملة أو متعاونة وهي تدري أو وهي لا تدري.... وقد يدعم الغرب أويترك المجال أو يصنع صناعة كاملة لتجمعات مجاهدة قاصر فهمها أو متطرف فكرها أو ليضرب بها أهل الجهاد الحق أوليأخذها تكئة لتشويه الدين أو ليستنزف بها موارد المسلمين فلنحذر أيضا من ذلك.....فإن رجل القول غير رجل الفعل ورجل الفعل غير رجل الجهاد ورجل الجهاد المثمر المستمر غير رجل الجهاد العشوائي المنقطع......(إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفا كأنهم بنيان مرصوص) فإن عدو الدين يخطط بتخطيط الشيطان والشيطان له نفخة غلو وإفراط أو نفخة تقصير وتفريط فإذا رآك مندفعا نفخ فيك بالغلو والإفراط كالخوارج فتكفر الناس ثم إنك بعد ذلك ستتوقف فالغلو عمره قصير وإن رآك متراخيا نفخ فيك بالتقصير و التفريط وكلا الغلو والتفريط محبوب للشيطان فالحق صراط مستقيم بين التفريط والإفراط ...ومن فهم كلامي هذا في غير سياقه فإنه سيخبط خبط عشواء...فكلامي لا يعني ترك الجزئيات والفروع والعمل الخيري والتحقيق العلمي والتصوف السني المحقق لكن يفهم في سياقه الصحيح وهو أخذ الدين كاملا بلا تجزئة لأن التجزئة لا تعني إلا الفرقة والاختلاف والعذاب والتباغض والحرب (فنسوا حظا مما ذكروا به

فأغرينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة - أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض فما جزاء من يفعل ذلك منكم إلا خزي في الحياة الدنيا ويوم القيامة يردون إلى أشد العذاب - ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك) وهم أهل قوله (ادخلوا في السلم كافة) فإذا أردنا الوحدة والألفة والرحمة فلنأخذ بشمول الدين ولنربي على الشمول ولندعوا إلى الشمول ولنعمل بالشمول ولنتأهب ولنستعد دائما للجهاد بكل أنواعه ولنجتمع في تنظيمات (فأجمعوا كيدكم ثم أتوا صفا -إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفا) وليس حزب الله قبل وجود الخلافة الإسلامية هو تجمع واحد وتنظيم واحد لأهل الإيمان بل تجمعات وتنظيمات وكلها يطلق عليها حزب الله ويطلب منها التعاون و التناصر وترك التعصب تماما كما يطلب من أصحاب المذاهب الفقهية و السلوكية . كن مع الصادقين المجاهدين أنصار الله الربانيين القوامين لله الشهداء وإياك والكسالى والقاعدين فإن أبيت فإن كتيبة الله تسير لا تبالي بقلة ولا كثرة وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون .

(٧) وسائط الشيطان

أما وسائط الشيطان فهو السحر الذي سحر الناس وشغلهم عن الله وعن مصالح أنفسهم (سحروا أعين الناس واسترهبوهم وجاءوا بسحر عظيم!؟)هذه الوسائط الإلكترونية في عصرنا هي عنوان هذا السحر كان يمكن أن نجعل هذه الوسائط من تلفاز وشبكة اتصال وحاسوب وهاتف جوال ووسائل اتصال وغير ذلك... نجعل منها وسائط الرحمن لو أحسنا استخدامها وجعلنا منها خادما للدين فمن الناس من بدل نعمة الله كفرا إذ جعلها وسائط للشيطان حين أساء استخدامها ذلك حين وقع في فخ سحرها ومنهم من قابلها شكرا إذ يسخرها لخدمة الحق ولا يكن مسخرا لها فنملكها ولا نسمح لها أن تتملكنا ونسخرها ولا نتسخر لها فهذه الوسائط نعمة من الله لكنها نعمة في يد أعدائنا فيجب الحذر لأن الغرب يستعملها وبقوة في التجسس ويستعملها لنشر الرذيلة ولنشر أفكاره وغزو الشعوب فكريا وإشاعة الرعب والحرب النفسية والتهوين

من شأننا وتعظيم شأنهم ونشر الشهوات بكل صورها وشذوذها ويريد الذين يتبعون الشهوات أن تميلوا ميلا عظيما فلنأخذ خيرها ولنذر شرها ولنتحرر من رقها وسحرها ولا نتخذها وسيلة لهو وتضييع للوقت وغفلة عن الله ومهمات الدين وملء الفراغ فليس لدى المؤمن فراغ بل نقتصر على الضرورة منها ...ولنستعملها نحن في التجسس عليهم ونشر ديننا ولنأخذ حذرنا في التعامل معها لأننا بهذه الوسائط عراة أمامهم...ومن يستطيع التحرر من سحر هذه الوسائط؟ إنه المسلم المجاهد لنفسه المشغول قلبه بالله المستهتر بذكره وحبه الذاكر للآخرة المنشغل بها الممتلئ قرآنا المستعد للقاء ربه المجاهد لعدوه والداعية لدين الله...من جنته وبستانه في صدره أينما حل ارتحلت معه فالمسجون من سجن قلبه عن الله والمأسور من أسرته شهواته....أما الذي يريد التسلية بهذه الوسائط فإنه يسلم نفسه لعدوه ليصنع به ما شاء قد تشاهد فيلما تدعي أنه لا يخالف الشرع أو رسوما متحركة أو كرة قدم ويخدعك الشيطان بسحره فقد أجلب عليك بخيله ورجله فضيع لك وقتك وغفلك عن الله ونشر فيك أفكار أوليائه فصرت تتبناها وأنت لا تشعر وملأ قلبك بما يضرك عند سكرات الموت وجعلك تستمع للأباطيل وبما يضاد دينك وأنت ساكت على ذلك ولعلك تقول الرسوم المتحركة ماذا فيها وتترك أو لادك نهبة لها لتعلمهم الفواحش والعنف والأفكار المخالفة للدين وإرهاب الأولاد وتخويفهم......ومنها الذي يدمر عقيدة الأطفال في الله كتلك التي تعلق الأطفال بالشخصيات الوهمية الخارقة....وكرة القدم يا مسكين ملأت قلبك بغير الله....والبرامج الحوارية تسمع فيها الأكاذيب فأصبحت ممن هم (سماعون للكذب) والفيلم الغربي أحدث فيك انهزاما داخليا أمام أعدائك وأمام أفكاره وكيف ستقاومهم وقد أصبح فيك من الولاء لهم بقدر ما سلمت نفسك لأفلامهم.....مع ما في كل ماسبق من إيقاعات موسيقية تصويرية تحدث اضطرابات نفسية شديدة ومشاعر غير إسلامية وحالة غفلة ولهو.....وقد تناولت أبحاث كثيرة الأثر السلبي للمكث أمام هذه الوسائط أكثر من ساعات محددة بأنها تسبب أثرا على الصحة العامة البدنية والنفسية....ولا تقل الألعاب خطورة عن ذلك فلقد

أصبحت إلها يعبد مع الله أو من دونه مع أنها أيضا ليس برئية بل موجهة في التدمير...أما التواصل الاجتماعي فقد صار إدماننا وملهاة عن كل شيء...فوسائط التواصل الاجتماعي كم لها من قتيل وصريع وسجين وكم خربت من بيوت!!!!إننا الآن أمام سحر الغرب..الغرب الذي منذ أكثر من ٥٠٠عام وهو في حالة حرب ضروس مع المسلمين وغيرهم بل حتى مع نفسه فكم من ملايين الضحايا في الحروب العالمية...وكم من شعوب أبيدت واستعبدت وكم من ثروات نهبت وكم من شعوب أحلوها مكان أخرى وكم من إفساد في الأرض أفسدوه..سحروا أعين الناس واسترهبوهم....فهناك العصى والجزرة وهناك النساء والمدفع وهناك الغزو الفكري والعسكري والاجتماعي والاقتصادي....فلم يتركوا وسيلة إلا وأرهبوا بها الخلق....فاتقوا الله ولا توالوا الغرب ولاتنجروا وراء سحره.....بل استعدوا لمناجزته على كافة الأصعدة....والحذر الحذر من الافتتان بلغتهم أو عاداتهم أو أسلوبهم ونمطهم فهذا من الا نهزام النفسي أمام حضارة هؤلاء اللصوص المغتصبين المعتدين كيف تناجز عدوك بسلاح من صنعه أو وأنت منهزم داخليا أمامه؟؟!! القضية إذا أكبر بكثير من قضية وسائط أنت تسلم نفسك لها بل قضية غرب مجرم أنت تضع قلبك ونفسك ومشاعرك ورقبتك تحت مقصلته فقد و الله هزمك قبل دخول المعركة والآن نتخيل إنسان غيور على دينه يمسك مدفعا رشاشا يحمي به أسرته من الغرب وهو يجلس على باب بيته لا يدري المسكين أن الغرب قد دخل غرفة نومه وغرف أولاده من خلال هذه الوسائط فقبل أن يدخل الغرب علينا بمدفعه دخل علينا بـ الرقيق الأبيض والفواحش ودخل بغزوه الفكري والثقافي الهابط ودمر العقائد والأخلاق .

لن تستطيع التخلص من هذا السحر إلا بتركه جملة واحدة فترة من الزمان حتى إذا تأكد لك التحرر من هذا السحر حينئذ تستطيع القول : آخذ خيره وأترك شره....ويفسر هذا أنك إذا أردت الانضباط في الكلام فينبغي أن تصمت تماما إلا عن الضروري وحين تتمكن من ذلك يمكن أن

يقال لك - فليقل خيرا أو ليصمت - فيجب إذا أردت تعلم الانضباط الترك بالكلية ثم تأتي المرحلة التالية وهي مرحلة الفلترة إذ لا يستطيع كثير من الناس الفلترة إلا بعد شديد المجاهدة في الترك بالكلية أولا لتأتي مرحلة أخذ النافع المفيد وترك الضار المؤذي ....كما يذكر الإمام الغزالي رحمه الله هذه القاعدة : وهو أنه إذا كان في الطبع شدة الشره لشيء فإن الشرع يبالغ في مدح فضيلة الشيء المعاكس للطبع وليس مقصود الشرع المبالغة لكن مقصوده أن يتقابل مبالغة الطبع مع مبالغة النصوص فيحدث من جراء ذلك الاعتدال....فإذا كان في الطبع المبالغة في الشبع فالشرع يبالغ في مدح شدة الجوع ومقصوده حدوث الاعتدال......

فعلى العاقل الضبط أو المنع التام فترة حتى يحدث الضبط الرشيد بعد ذلك...ولا تضعف أمام زوجتك وأولادك ونفسك فتتركهم نهبة لهذه الوسائط فلو انتصرنا في هذه المعركة مع أنفسنا وأولادنا فنحن أقدر على الانتصار على أعدائنا

والله يقول الحق وهو يهدي السبيل .

(٨) ذكر الله الدائم

يقول ابن تيمية قدس الله سره الشريف إني لأستجم من ذكر وأريح نفسي لأستعد بذلك لذكر آخر - أو قريبا من نحو ذلك الكلام - فحياته كلها ذكر فالعلم ذكر والتسبيح ووظائف الأوراد والتلاوة ذكر والجهاد ذكر ومواجهة الظلم والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ذكر وتعليم وتعلم الدين ذكر والبحث العلمي الذي يرفع من شأن الإيمان في الأرض ذكر فلكل وقت ذكر ولكل حال ذكر والسعيد من كان كل أمره ذكر وكان ابن تيمية قدس الله روحه يذكر الله من بعد الفجر إلى قريبا من الظهر فلما تعجب من ذلك بعض تلامذته قال يا هذا هذه غدوتي- طعام الإفطار - ولو تركت غدوتي لسقطت قواي فكان رحمه الله يجاهد باللسان و السيف السنان مع كثير ذكر وشدة عبادة وسجن وابتلاء وكان تلامذته

إذا فزعوا لجئوا إليه فوجدوه أطيب الناس نفسا وكان لايحمل غلا لأحد وكان إذا مات أحد من خصومه عزى أهله وقال لهم خذوني بدلا منه أخدمكم وأعينكم وكان رحمه الله من الأولياء الأبدال- وهم الذين يظهرون في أكثر من مكان في وقت واحد - وسئل في ذلك رحمه الله هل هذه الصور لملائكة تتشكل بصورته فاستبعد ذلك وقال لعلهم من الجن الصالحين

رحم الله أئمتنا اللهم صل وسلم وبارك على أنبيائك وأوليائك والصديقين والربانيين والصالحين وعلينا معهم آمين......آمين......آمين

(٩) غسيل القلب وغسيل المخ

سمعنا فيما سبق عن غسيل المخ الذي كانت تقوم به النظم الشيوعية سابقا والأجهزة المشبوهة الآن ....وفي هذا الغسيل كانوا يضعون الشخص موضوع الغسيل في ظروف صعبة من حبس وجوع وقلة نوم وتنكيل وأساليب قذرة...ويسخرون من عقائده ومشاعره وأفكاره.....ويكررون عليه الأفكار موضوع الغسيل آلاف المرات....حتى يصيب الشخص مايشبه الجنون....فيتبرمج على هذا الإرهاب الفكري

أما غسيل القلب بالقرآن والذكر والفكر والعلم والعمل الصالح والجهاد في سبيل الله فيتم في ظروف آمنة وجو من الحب والسكينة و الطمأنينة والقبول وفي محاضن الإيمان من مسجد وجمعة وجماعات وعمرة وحج وميادين المقاومة والجهاد وبيوت مضيئة ووجوه منيرة وقلوب كبيرة...فإنه لفرق بين الثرى والثريا والسماء والأرض.....بين غسيل بالخوف والإرهاب والترهيب والبطش والظلام والقهر والجبر و الكراهية..وبين غسيل بالحب والنور والأمن والطمأنينة والطوع والإرادة الحرة ...بين غسيل هو ضرب من الجنون وغسيل هو قمة السمو والعلو ا لإنساني .

وهناك غسيل بسحر الوسائط الإلكترونية من أفلام وكارتون ومسلسلات

وألعاب وتواصل وإتصالات وأغاني وإيقاعات موسيقية تسبب أهدافا موجهة وأحوالا قلبية ومشاعر نفسية في قمة الخطورة وقد فطن لذلك حجة الإسلام ومجدد الدين في القرن الخامس أبو حامد الغزالي رحمه الله فأخبر أن من هذه الألحان مايسبب الجنون ومنها مايسبب الحزن و الفرح والوجد والعشق وغير ذلك ...فهذه الإيقاعات الموجهة تسبب الوقوع في الفواحش والعنف والقتل وكل ما تتخيل؟؟!! ومن لا يعرف ماتسببه هذه الإيقاعات فهذا غافل جدا !! فهي عبارة عن تدمير في تدمير ......هذا السحر الرهيب الموجود في الوسائط أشد خطرا من غسيل المخ الذي كانت تمارسه الشيوعية سابقا ولاحول ولاقوة إلا ب الله فالحذر الحذر فكم لهذه الوسائط من قتيل وصريع وجريح وفاسد ومفسد وكم علمت شباب العنف والجنس والشذوذ والمخدرات و الجريمة ؟ وكم خربت من بيوت آمنة مجتمعة ففرقتها ومزقتها؟ومزقتها ؟

والآن إما أن يضع المرء نفسه في محاضن ووسائل غسيل القلب وهذا أمر يحتاج إلى شديد المجاهدة..أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون ؟!! ..فالجنة قمة في الروعة والعظمة ودائمة واللذة فيها مطردة ومتزايدة فلا وقوف للذة عند حد بل إن المرء في الجنة لتجري في جسده لذة الشهوة ٧٠ سنة !! أين هذا من لذة ثوان معدودة ؟ فإذ تكون السلعة غالية يكن السعر والثمن غاليا أيضا...كذلك الألم في النار مطرد ومتزايد فهو يزيد باطراد وهذا تفسير...لابثين فيها أحقابا...فكل حقب إلى ما لا نهاية يزيد فيها الآلام فهي أحقاب لا نهائية من الآلام...

فإن أبى المرء إلا أن يضع نفسه وذويه في المحاضن الإلكترونية بلا ضوابط مناسبة وبكم أكثر من الضروري ويفتح أذنيه لأي كلام من أي أحد ويعيش في محاضن الغفلة والدنيا والرفاهية والترف والطعام و المنام والكلام والخلطةغير الهادفة والخواطر الرديئة والسيئة فما أسهل هذا....حفت النار بالشهوات.وحفت الجنة بالمكاره....فهذا قد عمل لنفسه غسيل مخ أووووو توسيخ مخ! فتجده يقيس ويزن الأمور ليس بموازين القرآن ولا بمعايير الإيمان ولا بمقاييس الإسلام بل بمعايير

وموازين ومقاييس العلمنة والعلمانية لأنه سلم نفسه وترك ذويه لغسيل المخ ولم يبذل مجهودا في عملية غسيل القلب.....وأيهما فاختر والسلام

(١٠) التوحيد الخالص

اعبدوا الله واتقوه وأطيعون...لا نجاة ولا فوز إلا بتوحيد الوجهة....ولا توحيد إلا بالتبعية لقيادة....فمن آمن بـالله ولم يؤمن بمحمد فهو من الهالكين يقينا فمن عبد الله وحده لكن بهواه دون تبعية لقيادة فقد هلك...القيادة هي الرسول ونوابه ووراثه من العلماء وأولي الأمر التابعين للنبوة ووراثها والوالدين وكل من جعله الله أميرا لكن الطاعة ليست مطلقة بل في المعروف في المنشط والمكره والعسر واليسر فمن رفض التبعية وتمرد وعاند وتكبر أو أراد أن يكون هو المتبوع أو ادّعي لنفسه أو ادُعي له ما هو خالص حق الله مثل حق وضع القيم والشرائع و التصورات أو جعل نفسه وأفكاره مصدرا لتقرير الموازين والمقاييس و المعايير فيما هو من حق الله فهذا هو الطاغوت الذي يجب الكفر به ليتم التوحيد فلا إله..كفر...وإلا الله إيمان فلا توحيد إلا بكفر...كفر..بكل من اتخذ طاغوتا من دون الله أو معه..وأول طاغوت يجب الكفر به هو الهوى ثم الشيطان ثم كل من تابعهما من المخلوقين...أما من اتُخذ طاغوتا لكن بغير رضى منه أمثال من عُبد من دون الله أو معه من الملا ئكة والصالحين فهؤلاء كما ذكرت الآية (إن الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون) .

(١١) الولاء والبراء؟

ذلك الأثر المباشر للإيمان والعقيدة...والمنتج العملي للإسلام....والباعث الأساسي لذروة سنام الإسلام: الجهاد....لاتتخذوا اليهود والنصارى أولياء...ومن يتولهم منكم فإنه منهم...إذ قالوا لقومهم إنا برءاء منكم ومما تعبدون من دون الله كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبدا حتى تؤمنوا بالله وحده..لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء.....إن تطيعوا فريقا من الذين أوتوا الكتاب يردوكم بعد إيمانكم كافرين....إن تطيعوا الذين كفروا يردوكم على أعقابكم فتنقلبوا خاسرين...لاتتخذوا بطانة من دونكم...بشر المنافقين بأن لهم عذابا أليما الذين يتخذون الكافرين أولياء...ألم تر إلى الذين نافقوا يقولون لإخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب لئن أخرجتم لنخرجن معكم ولانطيع فيكم أحدا أبدا وإن قوتلتم لننصرنكم....إن الذين ارتدوا؟..قالوا للذين كرهوا مانزل الله سنطيعكم في بعض الأمر....إن وليي الله...إنما وليكم الله ورسوله و الذين آمنوا ... ومن يتول الله ورسوله والذين آمنوا فإن حزب الله هم الغالبون..لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله...أولئك كتب في قلوبهم الإيمان.....أولئك حزب الله ألا إن حزب الله هم المفلحون....ألم تر إلى الذين تولوا قوما غضب الله عليهم ماهم منكم ولا منهم ويحلفون على الكذب وهم يعلمون...استحوذ عليهم الشيطان فأنساهم ذكر الله أولئك حزب الشيطان ألا إن حزب الشيطان هم الخاسرون ...

ماذا تعني عقيدة الولاء والبراء والتي ألغاها آل سعود بطلب من جبابرة ا لأرض ٢٠٠١ من مناهج التعليم!! ......مع من تكون وفي صف من تحارب وضد من ومن تحب وبمن تتشبه- من تشبه بقوم فهو منهم - ومن تناصر ومن تربط مصيرك بمصيره ومن تتخذ منه بطانة ومن تُقرّب ومن تُبعِّد وممن تتقرب وممن تتباعد ومن تطيعه ومن تتحالف معه وضد من ومن مشاعرك وقلبك معه ومن إلهك الذي يطوف قلبك حوله وتتجول خواطرك فيه...إن وليي الله...وإلى حزبه وكتيبته ومؤسساته

ودولته وأرضه التي تعلو فيها كلمته أنتمي   ليس الإيمان معنى سلبي بل ولاء وبراء وجهاد وشهادة وكينونة مع   وكينونة ضد   فالحياد هو النفاق...مذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء.... وقد قال جبابرة الأرض : من ليس معي فهو ضدي...تأمرك وإلا انتهى أمرك.....محور الخير ومحور الشر....ولقد كانوا علمانيين فما شأنهم بـ الخير والشر   ومن خولهم الكلام عن معيار الخيرية والشرية....إن المعيار هو....إن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين في نار جهنم خـ الدين فيها..أولئك هم شر البرية...ولو كانوا في قمة التقدم المادي و الإ داري...لا يغرنك تقلب الذين كفروا في البلاد متاع قليل....ولايحسبن الذين كفروا أنما نملي لهم خير لأنفسهم إنما نملي لهم ليزدادوا إثما ولهم عذاب مهين...ولايحسبن الذين كفروا سبقوا إنهم لا يعجزون...أم حسب الذين يعملون السيئات أن يسبقونا ساء ما يحكمون.....أما الذين آمنوا وإن كانوا في قمة التخلف التقني والإداري والمادي فهم وإن كانوا مقصرين في ذلك فهم كما قال الله.....إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير البرية...فلا يحدد محور الشر ومحور الخير ومن هو خير البرية ومن هو شر البرية إلا البارئ سبحانه وتعالى ونحن المسلمين وكلا ؤه وخلفاؤه في تقييم الأمور والحكم عليها وإقامة شرعه والشهادة على العالمين وتحقيق العدل فليس شرطي العالم كما ادعت القوى الغاشمة و التي ملّـكها الله لغيابنا عن المشهد هي أي أحد غير المسلمين بل نحن ا لأمة الوسط الشهيدة على العالمين المناط بنا تحقيق ألوهية الله في الأ رض وإقامة سلطانه في عالم الإرادة والطوع لأن سلطان الله وألوهيته سبحانه قائمة في عالم الجبر رغما عن الجميع ...هذا هو الولاء و البراء....إنه وقفة وموقف وجهاد ودماء وحب وكره وسلم وعداوة.....وانتماء لمن....وانسلاخ ممن؟ .....فليس الإيمان سلبية ودروشة...أو حياد.... أوإمساك العصى من المنتصف...فإلى من تنتمي؟ ألفريق كرة أم لجنرالات أعوان أعداء الإسلام أم لمؤسسات دولة الجنرالا ت الدينية والإدارية....أم لله ولرسوله وللمؤمنين .....أم تنتمي لوطن مغصوب ودولة موالية لأعداء الدين أم لتراب أهينت عليه الكرامة أم

لعقيدة يحميها سياج يسمى وطن العقيدة وتراب العقيدة فهذا نفديه بالأرواح لأنه هو والعقيدة شيء واحد.....ولماذا قدم بعض الدعاة والعلماء روحه فداءً للعقيدة أليس من أجل تحقيق كل القرآن وليس بعضه ؟ أليس لجعل القرآن المكتوب على الأوراق والرقائع إلى حقائق ووقائع ؟ لكن من والى غير الله ورسوله والمؤمنين فاختار طريق السلبية و العلمانية والحياد والنفاق وطاعة الكافرين من أهل الكتاب وغيرهم و التشبه بهم والاستسلام لوسائطهم الإلكترونية وقنواتهم ومنتجاتهم وطاعة أعوانهم.....هل تحقق له الراحة والأمن والرخاء والرفاه و السعادة والعزة ....أم تحقق له غير ذلك ....هذه دعوة لترك الانهزام النفسي أمام ضعفنا وأمام انتفاش أعدائنا الكاذب .....ولاتهنوا ولاتحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين.....يقول سيد قطب رحمه الله: إن للعز ضريبة وللذل ضريبة...لكن ضريبة الذل أفدح من ضريبة العز..والله غالب على أمره ولكن أكثرهم لا يعلمون...

(١٢) التصوف والسلفية بين الأصالة والحداثة

السلفية اتباع للشرع بفهم السلف الصالح ..الصحابة والتابعين وتابعيهم بإحسان إلى يوم الدين..فالفهم العلماني الذي يفصل الدين عن الحياة و الفهم الباطني الذي ينطلق بلا أية ضوابط لغوية ولا غيرها بل مطلق الأهواء والفكر المعتزلي الذي يحكم العقل على النقل ويجعل العقل القاصر حاكما على الشريعة...ليس منهج سلفنا الصالح رحمهم الله
وكان السلف الصالح عالمين مجاهدين عابدين صادعين بالحق مقاومين للفساد صالحين في أنفسهم مصلحين للغير عالمين بزمانهم متيقظين لما يدور حولهم مهتمين بشأن المسلمين راصدين لعدوهم مؤثرين للوحدة مؤلفين للقلوب يتعاونون في المتفق عليه يعذر بعضهم البعض في المختلف فيه وكان يحترم بعضهم بعضا وقد اختلف سيدنا عمر مع

سيدنا عبد الله بن مسعود في أكثر من مائة مسألة فقهية ذكر ابن القيم رحمه الله أربع مسائل منها في إعلام الموقعين...ولم يكن بينهما إلا كل الحب والإحترام والذلة على المؤمنين .... كان عندهم رحمهم الله فقه ا لأولويات والموازنات وواجب الوقت وعبادة الوقت ...قال سيدنا عمر ليس العاقل من يعرف الخير من الشر بل من يعرف خير الشرين..... كان السلف القمة والنموذج للكمالات لكن في إطار البشرية والإصابة والخطأ والواقعية وليس المثالية فكمالات الإسلام قابلة للتطبيق ....لكن لمن يريد ذلك ويتبنى الوصول إليها ويضعها في مجال استهدافه.

أما السلفية الحديثة في الكثير من تجمعاتها فصارت اهتمام بالشكل وغرق في التحقيق والتدقيق ثم لا عمل وجدل ومعارك وحروب على الفرعيات المختلف عليها واستدراج إلى فخاخ الجزئيات والفروع و القشور والظواهر والظلال على حساب الكليات والأصول والجوهر و الباطن والحقائق فهذه إذا سلفية الغرب والاستعمار؟ .

أما التصوف فهو يتضمن معنى التحقق بالشرع والمشاعر والعواطف الإ يمانية والإيمان الذوقي - الشعور بمعاني العقيدة - مع الإيمان العقلي و التحرر من أمراض القلوب وآفات النفوس ومحبطات ومفسدات الأعمال مثل شره شهوة البطن والفرج وآفات اللسان والشهوات المعنوية مثل العجب والرياء والكبر والحسد والإدلال وحب الدنيا والبخل والشح و الطمع والحرص والغرور -الذي هو اتباع الوهم مع الاعتداد - وحب الجاه والرياسة والظهور والتصدر والتأله والسيطرة والتسلط والفوقية المريضة والتشفي والانتقام واتباع الهوى وسائر المهلكات ومحبطات ومفسدات العمل الصالح....ويتضمن التحقق بمقامات ومنازل الإيمان مثل الحب والخوف والرجاء والتوكل والتوبة والإنابة والزهد ومحاسبة النفس والتفكر والشوق إلى الله والأنس به والخشوع واليقظة والبصيرة والعزيمة وغير ذلك ويتضمن التحقق بمكارم الآخلاق مثل الشجاعة و الكرم والعفة والعدل - ضبط الغضب والشهوة - والحكمة وغير ذلك....ويتضمن العبادة الصحيحة والمجاهدة الصادقة ومراقبة

الخواطر والتقلل من الدنيا.
أما التصوف الحديث الذي يحبه الغرب ويدعمه فلا يمت إلى ماسبق بينت شفة ولاصلة بينهما لا من قريب ولا من بعيد..
فرأس الطائر الجهاد وجناحاه السلفية والصوفية ورجلاه البحث العلمي...قال الشيخ أحمد زروق في قواعد التصوف نقلا عن الإمام مالك: من تفقه ولم يتصوف فقد تفسق ومن تصوف ولم يتفقه فقد تزندق.....ومن جمع بينهما فقد تحقق..ومن أراد تصوفا محررا فليقرأ سلسلة سعيد حوى في التربية والسلوك كتاب المستخلص وهو خلاصة من إحياء علوم الدين ومذكرات في منازل الصديقين والربانيين وهو شرح حكم ابن عطاء الله وتربيتنا الروحية وهو معالم في الطريق وقواعد وأصول وليقرأ أيضا قواعد التصوف والرسالة القشيرية ثم بعد ذلك يقرأ المنن الكبرى والطبقات الكبرى للشعراني رحمه الله مع ملاحظة أن الأخير والشيخ ابن عربي كان يدس عليهما الكتب ويوضع عليهما الكلام فكانا رحمهما الله يرسلان في الأمصار بالنسخ الصحيحة ...وكان من ذلك أن حكم بعض العلماء على ابن عربي بالكفر في رسالة تنبيه الغبي بتكفير ابن عربي فرد عليه الإمام السيوطي في رسالة تنبيه الغبي بتبرئة ابن عربي وللإمام السيوطي في كتابه الحاوي للفتاوي ردود على من يبدعون المتصوفة بالحق وبالباطل .
ومن تزاوج السلفية والصوفية يولد الجهاد وبالثلاثة مع البحث العلمي الرافع لشأن الإيمان والمنتج تتمكن الأمة الإسلامية..حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله...فلا دينونة ولا خضوع في الأرض إلا لله ولا يعيش العالم إلا تحت المظلة التي تكفل العدل والإخاء والرحمة وحرية الاعتقاد والرخاء والبناء والكيل بمكيال واحد ولا يكون ذلك إلا بعلو المظلة الإسلامية على جميع القوى لكن بغير إجبار لأحد على الدخول فى العقيدة لكن الإجبار لكل الأرض على الدخول في سلطان الله و الخضوع له والمعيشة تحت ظله متمثلا في تحكيم شريعته في الأرض على المسلم وغير المسلم لأننا فرض علينا أن نعيش تحت مظلة عالمية غير مظلة الله فماذا كان وماذا فعل غيرنا لما مكنه الله في الأرض وماذا

حصل لما نزع الله منا الملك باستحقاقنا ذلك؟؟ ما نراه من مهازل ومجازر وفقر وجوع وكيل بمائة مكيال . ما ترك قوم الجهاد إلا وأذلهم الله...

(١٣) خاطرة أراحتني

لماذا أحقد على أحد؟...إن كان من أهل النجاة ومرضي عنه من الله فكيف أكره من يحبه الله وهل الولاء والولاية إلا موافقة المحبوب في حبه وكرهه وليس بكثير عبادة وفقط.....وإن كان من أهل الهلكة فهذا إلى البكاء عليه أحوج من الحقد عليه لما سيراه من أهوال.....لكن هذا لا ينفي أن أوثق عرى الإيمان الحب في الله والبغض في الله والعطاء لله و المنع لله....وقصدي ألا تبغض أوتحب أو تنتقم أو تنتصر للنفس وفي النفس بل لله وفي الله...قد تحقد على إنسان في الله ولله ويحملك هذا الحقد على إما الدعوة والهداية أو الجهاد...وقد تشفق على إنسان في الله ولله فتدعوه إلى الله أوتجاهده وفي الجهاد قتل لكن من شفقتك عليه تجاهده حتى لا يكتسب المزيد من الأوزار ببقائه حيا....أما أن تحقد أو تجاهد أو تشفق للنفس وفي النفس فهذا ما أحذر نفسي منه....بل لله وفي الله فقط.

(١٤) دعوة أعطتني الأمل

اللهم استعملنا في إعلاء كلمتك والتمكين لدينك ونصرة أوليائك والعلم والدعوة والتربية والجهاد وإهلاك أعدائك وتحقيق السبق عليهم و التفوق حتى تكون العزة لله ولرسوله وللمؤمنين استعمالا توجب لنا به الفوز والنجاة وتشفي به صدور قوم مؤمنين فإذا رحلنا من عالم الفناء إلى عالم اللقاء والبقاء فاستعملنا بمثل ذلك استعمالا توجب به لنا الفرح والسرور نحن والسابقين علينا واللاحقين بنا من أنصارك وحزبك وكتيبتك.....آمين ....آمين ....اللهم إني أسألك بك أن تصلي على نبينا محمد وعلى سائر النبيين وآلهم وأصحابهم وأن تشغلنا بك في الدارين على وجه الكشف والشهود دون الحجاب..وأن تغفر لنا ما مضى وتحفظنا فيما بقى وأن تجعل جميع حركاتنا وسكناتنا في حق أنفسنا وحق غيرنا سعيدة وكذلك فافعل بإخواننا المسلمين..اللهم إن الأولين وا لآخرين قد حطوا رحالهم على ساحل بحر جودك وكرمك ينتظرون فضلك وإحسانك فأجزل اللهم لنا ولهم المغفرة فإن عظم المغفرة على قدر عظم الذنب..اللهم إن الأولين والآخرين من المسلمين قد غرقوا في بحر جودك وكرمك منذ أخرجتهم من العدم فلا تخرجهم منه أبد الآبدين ودهر الداهرين...اللهم إن حلمك علينا قد رجح على حلمك على غالب الأ ولين والآخرين وإن ذنوبنا قد رجحت على ذنوب الأولين والآخرين ولكنها كاللاشيء في جنب عفوك...اللهم إن نعترف بأننا أكثر خلقك جراءة على المعاصي وأقلهم خجلا منك فلا تهلكنا بغضبك ولا تقتلنا بعذابك وعافنا قبل ذلك... بسم الله على إسلامي وإيماني وإحساني بسم الله على ديني بسم الله على نفسي بسم الله على أهلي بسم الله على ولدي بسم الله على داري بسم الله على مالي بسم الله على كل شيء أعطانيه ربي ...حسبي الله لديني حسبي الله لما أهمني حسبي الله لمن حسدني حسبي الله لمن بغى علي حسبي الله لمن كادني بسوء حسبي الله عند الموت حسبي الله عند المسألة في القبر حسبي الله عند الميزان حسبي الله عند المرور على الصراط حسبي الله لا إله إلا هو

عليه توكلت وإليه أنيب...سبحان من كان جميع ما عرفه كل الخلق من عظمته بالنسبة إلى ما جهلوه منها كذرة في بحر محيط أو في فضاء ليس له سماء ولا أرض...اللهم صل على نبيك محمد عدد ما كان وما يكون وما هو كائن في علم الله..

سبحان ربك رب العزة عما يصفون ....وسلام على المرسلين.... والحمد لله رب العالمين .

الروح هى المُدرك للعلوم واللذة والألم ، والسعادة والفرح والشقاء و الحزن ، كل هذه المشاعر والإدراكات يخلقها الله تعالى فى الروح ، ويُوجِدها بسبب مُنَبِّه مثير يوجب هذه المشاعر والإدراكات ، أو بعدم سبب ، أو بسبب مضاد,فربما يوضع الرجل فى النار فيخلق الله تعالى فيه السعادة فيشعر بالسعادة ويكون سعيدا ، وربما يوضع فى الجنة ؛ فيخلق الله فيه الشقاء فيشعر بالشقاء ويكون شقيا قال تعالى : (ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها وما يمسك فلا مرسل له من بعده ...)

إذا فتح الله تعالى الرحمة فى المحنة صارت منحة ، وإذا أمسك الله تعالى رحمته فى المنحة صارت محنة ، فاشغل نفسك بالتعلق بـالله وحده حبا وخوفا ورجاءا وتوكلا ، ولا تتعلق بأحد غيره فإن الذى يملك السعادة والشقاء ، واللذة والألم ويخلقهما هو الله سبحانه وتعالى وحده ، والحمد لله الذى لم يُملِّك الروح لأحد من خلقه وإنما الجسد بالنسبة للروح كالمركبة والدابّة التى تقودها الروح ، فالإنسان هو الروح ، أما الجسد فهو السيارة أو المركبة التى يقودها الإنسان ، فإذا انهارت هذه السيارة أو تلفت فإن الإنسان سيظل موجودا ، وإن سيطر أحد على هذه السيارة فأحرقها أو هدمها فإنه لم يهدم ولم يحرق ولم يدمر الإنسان ؛ فـالروح ملك لله وحده لم يُملّكها لأحد من خلقه ,لكن إذا خاف الإنسان من أحد أو أحبه أو رجاه أو توكل عليه من دون الله أو معه أو بما لم يأذن بها الله فحينئذ قد سلّم هذا الإنسان روحه لغيره ليفعل بها ما يشاء ، ويسومها سوء العذاب والذل والهوان .

الجسد لا قيمة له فإنه من عالم الصور والألوان ، وهوالأحقر والأقل شأنا عند الله سبحانه وتعالى ، وليس محل نظر الله،(إن الله ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم ، ولا ينظر إلى أجسادكم وصوركم)، فهذا الجسد فانٍ وهذه الصورة منتهية ومضمحلة ، وإذا فتحت القبر على إنسان بعد أسبوع ؛ فإنك ستجد منظرًا سيئًا ، هذا الجسد ليس إلا مركبة ولكن الروح أسيرة

له الآن،فإذا لم يسيطر أحد على روحك فأنت المنتصر ، أما إذا سيطر على روحك فهزمك داخليا فقد انتصر عليك وإن لم يلمس جسدك, أما الجسد فربما كان مسرحا لجهات عديدة تسيطر عليه من ,جن ,وملائكة, وجراثيم, وظَلَمَة,وأنت فقط واحد من هذه الجهات , إنما هو ركوبة , وإذا كانت الروح سجينة الآن ومقبورة فى الجسد, فإن غدا سيتبادلان ا لأدوار ,ليقبر الجسد فى باطن الأرض, وتنطلق الروح فى عالم أكبر وأرحب من عالم الفناءونسبته إليه كنسبة عالم الأرض لعالم رحم الأم , وتتحرر من أسر هذا الجسد, والسعيد كل السعادة من يحاول الآن تحريرها بالمجاهدة ووظائف الأوراد والعلم والذكر من أسر وعشق وعبودية الجسد والشهوات, فيخرجها من عالم الطين, إلى عالمها عالم القدس.

لاتأمنن وإن أمسيتَ فى حرمٍ
إن المنايا بجنبى كل إنسان.
وكل ذى صاحب يوما مفارقه
وكل زاد وإن أبقيته فانٍ.
وإن ضاقت بك الدنيا ولم
يك بها منزل لك يعلم.
فحى على جنات عدن فإنها
منازلنا الأولى وفيها المخيم.
ولكنا سبى العدو فهل ترى
نعود إلى أوطاننا ونسلم.

اصحب هذا الزاد معك فى العمرة والحج والسفر والسحر وعند الكربات وفى الخلوات والإعتكاف وفى الميدان وفى المسجد فستجد عطاءه لك متجددًا؛إنه خلاصة كتب عظيمة الشأن.

خاتمة ...

وبهذا تمّ بحمد الله كتاب (زاد الربانى)وهو اختصار لكتب جامع الثناء على الله ، وجلاء الأفهام فى الصلاة على النبى خير الأنام ، وكتاب دلائل الخيرات ، وكتاب المقصد الأسنى شرح أسماء الله الحسنى ، وما تيسر جمعه من كتب أخرى, مع بعض التصرّف ،أسأل الله سبحانه تعالى أن ينفع به ، فإن كان به من صواب فمن الله ، وإن كان من خطأ فأستغفر الله منه ، سبحان ربك رب العزة عما يصفون ، وسلام على المرسلين ، و الحمد لله رب العالمين .

الحمد لله رب العالمين وهو المحمود وهو للحمد أهل والشكر لله خير الرازقين المنعمين وهو المشكور وهو للشكر أهل بجميع محامده التي حمد بها نفسه أو ألهم بها أحدا من خلقه فيما كان وفيما يكون حمدا يوافي نعمه ويكافئ مزيده ولا يقصر عن شيء من محامده ويبلغنا حمده ورضاه....الحمد لله بكمال الوجود والغنى والدوام والمتفرد و المتكرم والمتطول بالإيجاد والإمداد والإغناء....الحمد لله المنفرد بالخير المحض والجود الصرف والكمال المطلق والوجود السرمدي والفعل و التأثير والكائن في الغيوب والشهادات بلا اتصال ولا انفصال فليس معه غيره وليس فيه إلا إياه وهو مع كل شيء وفي كل شيء وفوق كل شيء لا كشيء في شيء ولا كشيء مع شيء ولا كشيء فوق شيء إذ ليس كمثله شيء...فسبحان من استوى على عرشه برحمانيته استواء يليق بكمال التنزيه فصار العرش غيبا في رحمانيته كما صارت العوالم غيبا في عرشه محوت الآثار

بالآثار ومحقت الأغيار بمحيطات أفلاك الأنوار...سبحان الله السرمدي لا بداية..لا نهاية.. لاحدود.. لا زمان..لا مكان..كان الله ولاشيء معه في عماء وما فوقه هواء وماتحته هواء وهو الله لا إله إلا هو له الحمد في ا لأولى والآخرة..كل شيء هالك إلا وجهه له الحكم وإليه ترجعون....الحمد لله بالكمال والتكميل...والجمال والتجميل..والجلال و التجليل..والحسن والتحسين..والفعل والتفعيل..والكرم والإنعام والجود والإكرام..والذي جعل لخلقه الحظ والنصيب من حمده وكماله على قدر مايطيقون..فكل حمد وكمال تطولت وتفضلت به على خلقك فإنما هو راجع إليك ومقصور عليك يا صاحب الأسماء الحسنى كلها والصفات العليا بكمالها...

هوالله الذى لا إله إلاهو
الرحمن الرحيم الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر الخالق البارئ المصور الغفار القهار الوهاب الرزاق الفتاح العليم القابض الباسط الخافض الرافع المسهل المعين السميع البصير الحكم العدل اللطيف الخبير المنقذ المنجى المغيث الحليم العلى العظيم الكبير الجليل الجميل الحسيب الوكيل الحفيظ الوثيق الحيى الكريم القريب المجيب الواسع الحكيم الودود المجيد الباعث الشهيد الحق القوى المتين الولى الحميد المحصى المحيى المميت الحى القيوم الحنان المنان الأحد الصمد المقتدر المقدم المؤخر الأول الآخر الظاهر الباطن الطبيب البر التواب المنتقم العفو الرءوف مالك الملك ذوالجلال والإكرام المقسط الجامع الغنى المغنى الدافع المانع الضار النافع النور الهادى الرشيد البديع الدائم الصبور الشكور.

المراجع :

الظلال لسيد قطب, والأساس فى التفسير لسعيد حوى.

جمع الفوائد من جامع الأصول ومجمع الزوائد للرودانى الفاسى المغربى.

الترغيب والترهيب للمنذرى.

المقصد الأسنى,إحياء علوم الدين ,الأربعين فى أصول الدين -وهو إختصار الإحياء- ,المضنون به على غير أهله,الأجوبة المسكتة على الأ سئلة المبهتة ,لأبى حامد الغزالى.

الفوائد ، والوابل الصيب من الكلم الطيب ، وجلاء الأفهام, وتهذيب مدارج السالكين,وإغاثة اللهفان من مصائد الشيطان ,الروح, للإمام ابن القيم الجوزية.

تريتنا الروحية,ومذكرات فى منازل الصديقين والربانيين -وهوشرح الحكم العطائية- للشيخ سعيد حوى.

الإيمان أولا,فلنبدأ بأنفسنا, الطريق إلى الربانية,د.مجدى الهلالى.

جامع الثناء على الله للشيخ يوسف النبهانى.

الأذكار للنووى.

دلائل الخيرات للجزولى.

فضائل المدينة لطه عرفة.

عوارف المعارف للإمام السهروردى.

أسماء الله الحسنى للأطفال-وهو كتاب عظيم الشأن للكبار والصغار- محمد سليم.

المفرد العلم فى رسم القلم للهاشمى.

مختار الصحاح للرازى.

التصور التربوي

تعريف	تكوين	تنفيذ
إيمان عميق	تكوين دقيق	عمل متواصل

لا تتعجل فى التنفيذ ولا تهمل التكوين أبدا .

قوة إيمان	قوة وحدة وأخوة	قوة عملية

بدون هذا الترتيب تحدث طامات وهزائم

إيماننا حركة	تربيتنا ميدانية	دافعنا قلبى

مربى عنده منهج (أهداف واضحة ومحددة – محتوى سهل ومرن – وسائل عملية – تقويم) .. يشغله فى جدول مرن ويضعه فى الوعاء المناسب لتعمل المكينة التربوية فتنتج ثم يفحص المنتج هل هو هو أم لا .

العمل التربوى مع :

العقل	الروح والوجدان	المهارة
تذكر	استقبال	قدوة
فهم	استجابة	تدريب وتشجيع
تطبيق	توجه قيمى	فعل منفرد
تحليل	تنظيم قيمى	إبداع
تركيب – تقويم	سلوك قيمى (إيمان بعقيدة)	

بالمنبه المثير للاستجابة :

ترغيب وترهيب – قراءة – ذكر وتفكر – إقناع ونقاش – قصة – موقف – أيام الله (النعم والنقم) – الآخرة .

أوعية التربية : (اللقاء الأسبوعى – اللقاء الشهرى)

- الوعاء التربوى من الممكن أن يكون كله أمور عملية .

اللقاء الأسبوعى : (المحتوى – الأمور العملية – القراءة والتلخيص – حفظ آيات – صلاة – ذكر – مشاهدة لفقرة تحرك الدافع واليقظة – رياضة) .

اللقاء الشهرى : (جمعة الخير 24 ساعة من فجر الجمعة : فجر السبت أو من الفجر : المغرب يوم الجمعة ثم من مغرب السبت : فجر الأحد)

(شامل لكل الأوعية التربوية : المخيم – الرحلة – اللقاء الإيمانى ك) .

فقرات ثابتة – قراءة وتلخيص – ذكر طويل – حفظ حزب – رياضة – صلاة طويلة – مشقات – تنمية بشرية – تدريب ومهارات – واجب الساعة – رحلة سير .... الخ

الواجبات العملية اليومية : (5000 ذكر – حفظ ربع يوميا ومراجعة جزء – الأسماء الحسنى 15 مرة – 20 صفحة يوميا قراءة – ورد رياضى 10 دقائق – ورد الافتقار وشهود النعم – قيام نص ساعة قبل الفجر – الصف الأول وتكبيرة الإحرام – مجاهدات مثل [جوع – صمت – سهر – عزلة – حفظ خواطر – غض بصر – المحافظة على الوضوء] - المكث فى المسجد بعد الفجر حتى الشروق أو من المغرب للعشاء – الصوم – 12 ركعة نوافل – 4 ركعات ضحى – الخشوع – تدبر مع القرآن – صدقة يومية) .

المربى 60 % من العملية التربوية :

- (مطلوب لهم حضور وعاء شهرى خاص لتنميتهم) .

يربى ويدير بالحب – موجه بالدوافع واليقظة وليس بالمهام – موجه بالناس وليس بالعمل – موجه بالتيسير والترغيب والتأنى والكيف – نظره للبواطن والاستعدادات وليس بالظواهر – دائم التنقيب من أجل الإصلاح والعلاج والتنمية – دائم الافتقار - يحاسب الطلبة على الواجبات العملية – يطلب تقارير عما قرءوا - له كلمة توجيهية من آيات أو الترغيب والترهيب أو مواقف أو الفقرات المشاهدة .

عملاق الفكر الإسلامي (الشهيد سيد قطب)

بقلم: الشيخ الدكتور عبد الله عزام رحمه الله

الطبعة: الأولى - نشر وتوزيع : مركز شهيد عزام الإعلامي ، بيشاور-

باكستان

بسم الله الرحمن الرحيم

رب اشرح لي صدري ويسر لي أمري

إن أصحاب الأقلام يستطيعون أن يصنعوا شيئا كثيرا ولكن بشرط واحد: أن يموتوا هم لتعيش أفكارهم.. أن يطعموا أفكارهم من لحومهم ودمائهم.. أن يقولوا ما يعتقدون أنه حق ، ويقدموا دماءهم فداء لكلمة الحق ، (إن أفكارنا وكلماتنا تظل جثثا هامدة ، حتى إذا متنا في سبيلها أو غذيناها بالدماء انتفضت حية وعاشت بين الأحياء)

دراسات إسلامية (139).

(إن الدخول في الإسلام صفقة بين متبايعين.. .الله سبحانه هو المشتري والمؤمن فيها هو البائع ، فهي بيعة مع الله ، لا يبقى بعدها للمؤمن شيء في نفسه ، ولا في ماله.. لتكون كلمة الله هي العليا ، وليكون الدين كله لله) (في ظلال القرآن (1716/11) ط/الشروق.

حياة سيد قطب تنقسم إلى أقسام

1- حياته الأدبية.

2- اتجاهه الإسلامي العام.

3- اتجاهه الإسلامي المجدد.

أولا : حياته الأدبية.

تنقسم إلى عدة مراحل:

المرحلة الأولى: بيئته في البيت والقرية قبل دخوله دار العلوم.

المرحلة الثانية: الدراسة في كلية دار العلوم.

المرحلة الثالثة: عمله كمدرس واهتمامه بقول الشعر ، والصبغة العامة لشعره وتأملاته ، وصلته بعبد القادر حمزة ثم عباس العقاد ، ومقالاته وقصائده في هذه المرحلة في المجلات المعروفة مثل دار العلوم و الرسالة والجهاد والبلاغ.

المرحلة الرابعة: اهتمامه بالنقد الأدبي ونظرته في الصور والظلال والأحاسيس كتلميذ في مدرسة العقاد الأدبية ، وتتوجت هذه المرحلة بمعركته الأدبية في الرسالة مع أنصار الرافعي وتأييده للعقاد.

المرحلة الخامسة: مرحلة خمود أدبه لم يظهر له فيها إنتاج إلا القليل

وهي تمتد طيلة الحرب العالمية الثانية.

المرحلة السادسة: ظهوره كناقد أدبي مشهور من خلال مقالاته في الرسالة -بعضها ظهر في كراريس كتب وشخصيات- ومحاولة تصنيف المذاهب الفنية الأدبية كمدارس ووضع سمات لكل مدرسة مثل: مدرسة الرافعي ومدرسة المنفلوطي ومدرسة العقاد ، ومدرسة الزيات ، ومدرسة طه حسين ومدرسة توفيق الحكيم.

المرحلة السابعة: اتجاهه الأدبي نحو القرآن واهتمامه بدراسة وإصدار كتابين:(التصوير ، والمشاهد) بالإضافة لاهتمامه بالنقد الأدبي ومقالاته المختلفة.

المرحلة الثامنة: خروجه من مدرسة العقاد الأدبية ونقده لها ، وقد بدأ يكون لنفسه مدرسة أدبية جديدة ، وكان له التلاميذ ، وكتابه (النقد الأ دبي أصوله ومناهجه) نهج لهذه المدرسة.

المرحلة التاسعة: ركود أدبي لمدة عامين في أمريكا لم يظهر له من الإ نتاج إلا القليل.

وفي نهاية المرحلة التاسعة وبعد أن عاد من أمريكا اتجه نحو القسم الثاني من حياته وهو اتجاهه الإسلامي العام ، ودخوله جماعة الإخوان

المسلمين وهي متداخلة مع القسم الأدبي.

تاريخ تأليف سيد قطب لكتبه

1- أشواك: مايو 1947م .

2- مشاهد القيامة في القرآن: 1947م.

3- طفل من القرية: 1946م .

4- الأطياف الأربعة: 1945م .

5- التصوير الفني في القرآن: 1945 م.

6- المدينة المسحورة: 1946 م.

7- كتب وشخصيات: 1946م .

8- النقد الأدبي: 1948م .

9- العدالة الاجتماعية: 1949م .

إن الحمد لله ، نحمده ونستعينه ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ، ومن سيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له ، ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، ونشهد أن محمدا عبده ورسوله.

أصله ونشأته :

ولد - رحمه الله- في قرية من قرى الصعيد اسمها (موشه) سنة (1906 م) ، وهي تتبع محافظة أسيوط لأبوين كريمين متوسطي الحال ، يحملان سمت أهل الصعيد المصري من سمرة في البشرة ، وقسمات وجوههم تعكس بعض ما جبلت عليه فطرتهم من غيرة على العرض ، إلى الطيب المتأصل في أعماق نفوسهم ، والكرم الذي لا يفارقهم سواء في سني الجدب أو الخصب والنماء ، هذا فضلا عن العاطفة الفياضة الجياشة التي تربطهم بشدة بهذا الدين القويم ، ولقد ذكر الأستاذ سيد في مقدمة التصوير الفني في القرآن أن روح أمه المتدينة قد طبعته بطابعها ، وفي مقدمة مشاهد القيامة أنه قد تربى في مسارب نفسه الخوف من اليوم الآخر من خلال الكلمات والتصرفات التي كانت تنطلق من والده من خلال ممارسته أعماله اليومية ، والقيام بضرورياته من طعام وشراب وغيرها ، فتركت شخصية الوالدين بصماتها واضحة على قلبه.

ويقال إن أصل الأستاذ سيد قطب هندي ، وأن حسينا - جده الرابع- قد هاجر من الهند إلى أرض الحرمين حيث البيت العتيق ومثوى المصطفى صلى الله عليه وسلم ، ثم هاجر إلى مصر واستقر في هذه القرية

المصرية.

نشأته:

درج في مراحل الطفولة الأولى في قريته في أحضان والديه اللذين أرضعاه حب هذا الدين من خلال التدين الفطري الذي طبعت عليه هذه ا لأنفس ، ثم انتقل إلى القاهرة حيث يسكن خاله ، وواصل تعليمه ودخل دار العلوم ، وبرزت مواهبه الأدبية إبان دراسته ، وكان يكتب في عدة مجلات أدبية وسياسية منها (الرسالة) ، (اللواء الاشتراكية) ، ولقد كتب عنه أستاذه مهدي علام في تقديمه لرسالة (مهمة الشاعر في الحياة) التي ألقاها سيد قطب كمحاضرة في دار العلوم يقول: (لو لم يكن لي تلميذ سواه لكفاني ذلك سرورا وقناعة ، ويعجبني فيه جرأته الحازمة التي لم تسفه فتصبح تهورا ، ولم تذل فتغدو جبنا ، وتعجبني فيه عصبيته البصيرة ، وإنني أعد سيد قطب مفخرة من مفاخر دار العلوم.)

وفي الأربعينات تولى رئاسة تحرير مجلة (الفكر الجديد) لصاحبها محمد حلمي المنياوي ، ولقد بدت في هذه المجلة نزعة سيد قطب العدائية للملك فاروق ، وقد كان مجاهرا في نقده اللاذع حتى دس إليه فاروق من يطلق عليه النار ، فأخطأه الرصاص ، ولقد صدر من المجلة ستة

أعداد صدور عددان منها ثم اضطرت الحكومة لإغلاقها بعد ستة أعداد.

ولقد تتلمذ الأستاذ سيد قطب أدبيا على يد العقاد ، وكان يتردد على طه حسين ، وحمل لواء المعارضة للأستاذ الكبير مصطفى صادق الرافعي ، وكان هجومه على الرافعي عنيفا حتى أن الرافعي لم ينج منه بعد موته فلقد نقد الرافعي إثر موته نقدا لاذعا فقام علي الطنطاوي يدافع عن الرافعي فقابله الأستاذ سيد برد مقذع حاد.

ولقد كتب في أوائل الأربعينات كتابيه الشهيرين: التصوير الفني في القرآن ، وقد أهداه إلى أمه ، ومشاهد القيامة في القرآن وأهداه إلى روح أبيه ، وكم كانت دهشة القراء عندما وجدوا أن الكتابين يخلوان من البسملة ، إذ لم يكن سيد قد اتجه الوجهة الإسلامية بعد.

بعض ملامحه وصفاته الشخصية:

1- الصدق.

إن من أبرز الصفات في نفسية سيد قطب الصدق ، وهذه الصفة طبعت كتابته كلها بالوضوح ، مما جعل تعامله مع الساسة يكاد يكون مستحيلا ، ولقد كان هذا الخط بارزا في جاهليته وإسلامه ، ففي عهد فاروق كان الكتاب يعبون من سؤره ويخطبون وده بتذليل رخيص ويتزلفون حتى

يستطيعوا الانكباب على أقدامه علهم ينالوا من الحطام ، أما سيد قطب فلقد كان رغم فقره أبيا صادقا ، ففي زواج فاروق ، وفي أعياد ميلاده ترى المقالات التي تزحم بها الصحف بأقلام الكتاب إلا سيد فإنك تفتقد اسمه بين هذه القطعان.

وتلمح هذا الصدق من خلال عباراته ، فلقد كتب في مجلة مصر الفتاه ا لاشتراكية تحت عنوان كبير (رعاياك يا مولاي) وأظهر صورا من الترف الفاجر وفي المقابل صور من البؤس والفاقة.

ولقد طلبت الثورة عندما قامت سنة (1952م) من سيد قطب أن يكون لها مستشارا للشؤون الداخلية فلم يستطع العمل معهم سوى ثلاثة أشهر ثم تركهم لأن نفسه لا تقبل الالتواء والتلون.

ولقد عمق الإسلام هذه الصفة في مسارب نفسه ، فأضحى الصدق عنوانا لتعامله وكلامه ينبض بكل كلمة من كلماته وتنم عنها كل عبارة من عباراته ويبدو لك هذا جليا من خلال الطبعة الثانية من الظلال ومن خلال فصول المعالم.

كان يقول لأحد تلامذته - واسمه سيد أيضا - : تعال يا سيد نراجع معا فصلا من فصول هذا الكتاب ، وأنا أظن أن أبواب السجن ستفتح له ولنا

من جديد وقد تنصب لنا أعواد المشانق... فيرجوه تلامذته ألا يطبع المعالم حفاظا على حياته فيرفض بإباء قائلا : لا بد أن يتم البلاغ .

وقد سأله تلاميذه لماذا كنت صريحا كل الصراحة في المحكمة التي تملك عنقك؟ فقال: لأن التورية لا تجوز في العقيدة ، ولأنه ليس للقائد أن يأخذ بالرخص .

ويبدو أن هذه الصفة هي الطابع المميز لأل قطب جميعا ، فلقد قالت حميدة شقيقته: كان بإمكاني أن أعفى من سجن السنوات العشر لولا أني أبيت أن أكتم عقيدتي ورفضت إلا أن أصارح الطواغيت بكفرهم .

يقول في فصل (نقلة بعيدة (معالم في الطريق 206): (لن نتدسس إلى الناس بالإسلام تدسسا ولن نربت على شهواتهم ، وتصوراتهم المنحرفة ، سنكون معهم صرحاء غاية الصراحة ، هذه الجاهلية التي فيها خبث ، والله يريد أن يطيبكم).

2- الشجاعة والرجولة.

ولقد كان خلق الرجولة بارزا في تصرفاته سواء في جاهليته أو إسلا مه فلم يسف ولم يسقط ولم يهو في مهاوي الرذيلة ، ولم يغرق في مستنقعات الوحل والجنس ، وأنت تقرأ له في حبه في جاهليته قصة

(أشواك) فتلمح من خلال الإهداء رجولته ، يقول في الإهداء:(إلى التي خاضت معي في الأشواك ، فدميت ودميت ، وشقيت وشقيت ، ثم سارت في طريق وسرت في طريق جريحين بعد المعركة ، لا نفسها إلى قرار ، ولا نفسي إلى استقرار).

لا تجد فيه نتن الفاحشة ، وإنما تلمح شخصية معتدلة تعبر عن تجربة بشرية بكلمات أدبية ، دون تميع ولا انحراف ولا إسفاف ولا تهافت.

وخلق الرجال وجده الإسلام خامة طيبة في أعماق الأستاذ سيد فنماها ووجهها فأتت بالأعاجيب من فوق القمة التي أرتفع إليها ، يقول في مقدمة الظلال: (وعشت في ظلال القرآن أنظر من علو إلى الجاهلية التي تموج في الأرض ، وإلى اهتمامات أهلها الهزيلة الصغيرة ، أنظر إلى تعاجب أهل الجاهلية بما لديهم من معرفة الأطفال وتصورات الأطفال ، واهتمامات الأطفال ، كما ينظر الكبير إلى عبث الأطفال ، ومحاولات الأ طفال ، ولغة الأطفال ، وأعجب ، ما بال هذا الناس ، ما بالهم يرتكسون في الحمأة الوبيئة).

ومن هنا داس دنيا الحكام وآثر العيش وراء قضبان الزنزانة ، وكان يقول:(إن إصبع السبابة الذي يشهد لله بالوحدانية في الصلاة ليرفض

أن يكتب حرفا واحدا يقر به حكم طاغية) ، رغم أن وزارة المعارف تعرض عليه في السجن.

ويقول: (لماذا أسترحم؟ إن كنت محكوما بحق فأنا أرتضي حكم الحق ، وإن كنت محكوما بباطل ، فأنا أكبر من أن أسترحم الباطل) بينما حبل المشنقة يلوح أمام ناظريه.

وبعد صدور حكم الإعدام وفي يوم الأحد 1966/8/28م وقبل تنفيذ حكم الإعدام جاء قرار موقع من الطاغوت الهالك -عبد الناصر-: (ينفذ حكم الإعدام بكل من: سيد قطب ، محمد يوسف هواش، عبد الفتاح إسماعيل ، ومع الكتاب إشارة إلى محاولة استدراج سيد قطب إلى اعتذار يخفف به حكم الإعدام عنه ، فجاء حمزة البسيوني مدير السجن الحربي إلى حميدة قطب وأطلعها على القرار ، ثم أردف قائلا : لدينا فرصة واحدة لإنقاذ الأستاذ ، وهي اعتذاره ، وأنا أتعهد بإخراجه بعد ستة أشهر ، قالت حميدة: فجئت أخي فذكرت له ذلك ، فقال: لن أعتذر عن العمل مع الله.

وفي شهر آب سنة 1965م وهو نفس الشهر الذي اعتقل فيه أرسل إليه المباحث واحدا فتسور الدار ودخل ليفتش فأمسكه وأنبه وأدبه ، وقال:

(إن للبيوت حرمات ألا تعرف أدب الدخول؟ ثم كتب كتابا وأرسله إلى مدير المباحث وقال: (أرسل إلي بشرا ولا ترسل كلابا) ثم ذهب إلى قسم المباحث ، وقال: (جئتكم حتى تعتقلوني).

3- كرمه وسخاؤه.

وهذه صفة تقترن مع الشجاعة غالبا ، فحيثما وجدت صفاء النفس وسخاءها وجدت الجرأة والشجاعة ، فالنفس الأبية التي تجود بروحها يرخص عليها المال ومتاع الحياة ، ولقد كان سيد ينفق كل ما يأتيه ولا يدخر شيئا ، وكان لكثير من نزلاء ليمان طرة في أمواله شيء معلوم ، حتى من المجرمين ، ومن السجانيين ، ولقد كان يشفق على حالة السجانيين الأسرية ، وضيق ذات يدهم فيرثي لحالهم ويخفف من كربهم وضنكهم وبأسائهم.

ولقد ملك مضائه وسخائه هذا قلوب عارفيه ، وأصبح بكرمه الآسر هو المدير الفعلي لسجن ليمان طره ، حتى كان الحلواني - مدير السجن - يقول: إن المدير الفعلي للسجن هو سيد قطب ، وأقرأ إن شئت رسالته الصغيرة (أفراح الروح) وكيف كان يفجر ينابيع فطرة الخير في قلوب المجرمين ، وفي هذه الرسالة زاد كبير للعاملين من الدعاة.

ولذا فقد مضى إلى ربه وهو لا يملك مترا واحدا فوق هذه الغبراء (فهو بصدقه وفي العهود ، وبكرمه أسر القلوب ، وبتواضعه ألف بين الجنود ، وبشجاعته وصلابته قاد الجموع).

4- تواضعه.

وهذا سمت الصالحين (تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا في الأرض ولا فسادا والعاقبة للمتقين) ، وبالقدر الذي كان يستعلي به على الطغاة كان يتواضع ويتطامن للمؤمنين من تلامذته ، فترى أحدهم يشير عليه أن يحذف فقرة من مسودة التفسير أو يصحح عبارة فيستجيب.

5- حبه ووفاؤه وعاطفته الفياضة.

وأما عاطفته الجياشة فلقد أفاضت من روحه على أسرته جميعا، وتراه لهذا الوفاء لا يتزوج قبل محنته ليرعى الأسرة التي أصبح راعيها بعد أبيه ، يقول الأستاذ محمد قطب عن أخيه سيد: (هو أبي وأخي وأستاذي وصديقي).

كان سنة (1953م) في ضيافة المؤتمر الإسلامي في القدس ، وقد كان ا لإخوان آنذاك يشرفون عليه ، يقول فضيلة المراقب العام للإخوان في ا

لأردن -الأستاذ محمد خليفة-: كان الأستاذ سيد يطلب مني أن أطلب القاهرة - هذا من عمان- فأقول له: هل طرأت لك حاجة؟ فيقول: لا ، وإنما هو الشوق لسماع صوت الوالد المرشد العام الهضيبي ولو من خلال الهاتف.

وكثيرا ما كان يردد كلمة الوالد المرشد في التحقيق وفي المحكمة ، ولم يقتصر وفاء الأستاذ سيد على صلته بالبشر بل تعداه إلى علاقته بكل ما حوله حتى للحيوانات ، فلقد أ لف نزلاء ليمان طرة قطا أعور تتقزز الأ بدان لرؤيته ، كان يأوي بالقرب من الأستاذ سيد قطب يخصص له قسما من طعامه وكان يقول: (ليس من الوفاء أن نجافيه ونضيعه في هرمه بعد طول صحبته لنا) وهو بوفائه يعيد إلى ذاكرتنا سيرة الرعيل الأول كأبي هريرة ويفتح أمام ناظرينا صورة زيد بن الدثنة وهو يقول: (والله لا أحب أن أكون سالما في أهلي ويصاب محمد صلى الله عليه وسلم شوكة في قدمه) وذلك وهو يرد على أبي سفيان عندما سأله: أتحب أن محمدا مكانك نعلقه على خشبة الصلب والإعدام ، فقال أبو سفيان: "ما رأيت مثل حب أصحاب محمد محمدا).

أقول: هذه النماذج التي أقفرت الأرض منها إلا القليل القليل والتي

عقمت الدنيا أن تلد أمثالها ، عاد جنود البنا يجددون سيرة هذا النفر الكريم ، هؤلاء أحيوا الأمل في قلوب مئات الملايين وأثبتوا للدنيا أن الإسلام لا زال قادرا على صناعة الرجال.

يقول الأستاذ سيد قطب لشقيقته حميدة: (إن رأيت الوالد المرشد - وهذا قبل إعدامه بيوم- فبلغيه عني السلام وقولي له: لقد تحمل سيد أقصى ما يتحمله البشر حتى لا تمس بأدنى سوء.)

سيرة سيد قطب الحركية:

دخل الأستاذ سيد دعوة الإخوان المسلمين سنة 1951م وكان يعبر عن هذا بأعمق تعبير قائلا : ولدت سنة 1951م ، وقد جاء سيد على قدر ، ولكل أجل كتاب فلم يحفل سيد بالدعوة في بداية الأمر ولم يكن يعني نفسه للقاء بقائدها البنا الذي ضم الأفذاذ من أبناء مصر تحت جناحيه وبين صفوفه ، فكانت دعوته صفوة أبناء مصر.

وقد ابتدأ سيد قطب يتجه نحو الكتابة عن الإسلام العام ، ولم يكن سيد بعد قد أدرك بعد أعماق هذا الدين ، ولم يسبر أغواره بمسبار ، وكتب كتاب العدالة الاجتماعية مستعرضا نظام الحكم والمال ، وتركه مع

إهداء جميل: (إلى الذين كنت المحهم بعين الخيال قادمين فرأيتهم بواقع الحياة قائمين يجاهدون بأموالهم وأنفسهم في مستقبل قريب جد قريب) ، ثم عهد إلى أخيه محمد في مصر لطباعته ، وطبعه الأستاذ محمد مع هذا الإهداء على حين كانت الحكومة قد نكلت بالإخوان وأودعتهم المعتقلات تمهيد ا لاغتيال الإمام الشهيد البنا ، وظنت الحكومة أن سيد قطب هو أحد أعضاء الإخوان وأن الكتاب مهدي إلى شباب الإخوان ، فصادرت الحكومة الكتاب ولم تسمح بنشره إلا برفع الإ هداء ، فرفع الإهداء.

ويحدث الأستاذ سيد عن نفسه وهو في طريقه إلى أمريكا مبعوثا من وزارة المعارف المصرية التي يستلم وزارتها طه حسين -أستاذه- ، فأرسل الأستاذ سيد للإطلاع على المناهج الأمريكية ،

يقول الأستاذ سيد: (كنا ستة نفر من المنتسبين إلى الإسلام على ظهر سفينة مصرية تمخر بنا عباب المحيط الأطلسي إلى نيويورك(1) 1- في ظلال القرآن عند تفسير آية (وما كان هذا القرآن أن يفترى من دون الله) (يونس: 73) ، أنظر طبعة الشروق (1786/11). فهو يعتبر نفسه آنذاك منتسبا إلى الإسلام).

ويشاء الله عز وجل أن يهديه سواء السبيل وأن يريه آياته ليجعله جنديا مخلصا في صف الدعوة الإسلامية ، وتحدث معه حادثتان تضطرانه للدخول تحت جناح الدعوة.

أما الحادثة الأولى: فقد حصلت في (31) شباط 1949م يقول فيها أنه كان مستلقيا فوق سريره في إحدى مستشفيات أمريكا ، فيرى معالم الزينة وأنوار الكهرباء الملونة وألوان الموسيقى الغربية والرقصات ، ما هذا العيد الذي أنتم فيه؟ فقالوا: اليوم قتل عدو النصرانية في الشرق ، اليوم قتل حسن البنا ، وقد كانت هذه الحادثة كفيلة أن تهزه من أعماقه ، حسن البنا!! يحتفل بمقتله في داخل أمريكا ، إذن لا بد أن يكون الرجل مخلصا وأن تكون دعوته خطيرة حقا ، ترجف لسماعها أوصال الغرب هلعا واضطرابا .

وأما الحادثة الثانية: فقد حصلت في بيت مدير المخابرات البريطاني في أمريكا ، إذ كانت السفارات الغربية تتسابق في رمي شباكها لاصطياد الطلاب الشرقيين وإيقاعهم بحبائلها ليكرسوا في محافلها المختلفة ، ويقسموا العهد على خدمتها وإنذار الحياة خالصة لخدمتها ، وأي صيد أثمن من الكاتب المعروف سيد؟ فدعاه مدير المخابرات البريطاني إلى

بيته ،

يقول الأستاذ سيد: (واستدعى انتباهي أمران: الأول: إن هذا البريطاني يسمى أبناءه بأسماء المسلمين ، محمد وعلي وأحمد... ، والثاني وجدت لديه كتاب العدالة الاجتماعية ، وهو يعمل في ترجمته ، وهي النسخة الثانية في أمريكا إذ الأولى لدي وصلتني من أخي محمد قطب).

وبدأ الحديث عن أحوال الشرق وما ينتظره من مستقبل وأحداث ، ويعرج على مصر ليستفيض في الحديث عنها وتأخذ جماعة الإخوان المسلمين القسط الوافر من الحديث ، ويعرض علي تقارير مفصلة عن نشاط الجماعة وعن تحركات البنا وخطبه منذ أن كانت الجماعة ستة في الإسماعيلية حتى سنة 1949م ، تفصيلات تؤكد أنهم قد سخروا أجهزة وأموال تتبع نشاط الإخوان وحركاتهم وسكناتهم ورصدوا لذلك أموالا ورجالا خوفا من هذا الغول البشع -الإسلام- وعقب البريطاني قائلا : (إذا قدر ونجحت حركة الإخوان في استلام حكم مصر فلن تتقدم مصر أبدا ، وسيحولون بعقليتهم المتخلفة بين الحضارة الغربية ، وستقف عقلياتهم المتحجرة دون تطور الشعب والأرض ، ثم قال: ونحن نأمل من الشباب المتعلمين أمثالك ألا يمكنوا هؤلاء من الوصول إلى

سدة الحكم). يقول سيد: قلت في نفسي (الآن حصحص الحق) ، وأيقنت أن هذه الجماعة على الحق المبين ، ولم يبق لي عذر عند الله إن لم أتبعها ، فهذه أمريكا ترقص على جمجمة البنا وهذه بريطانيا تسخر أجهزتها وأقلام مخابراتها - حتى داخل أمريكا- لمحاربة الإخوان. يقول سيد: فصممت في قرارة نفسي أن أدخل الإخوان وأنا لم أخرج بعد من بيت مدير المخابرات البريطاني.

وكانت يد الله تعد لتهيئة الأجواء حتى يدخل سيد قطب دعوة الإخوان ، فهناك في مصر وزع كتاب العدالة الاجتماعية والإخوان مودعون لدى معتقلات الطور وغيرها تحاربهم زبانية فاروق ، وإهداء الكتاب يوحي أنه مهدى إلى الإخوان ، فظنه الإخوان منهم وأن الإهداء موجه إليهم ، فأقبلوا على العدالة يتداولونها ويقرؤونها.

وهنا في أمريكا الحادثة تلو الحادثة تقنع سيدا بصدق دعوة الله.ويترامى إلى مسامع الإخوان تاريخ مقدم سيد إلى مصر ، فتعد الدعوة كوكبة من شباب جماعة القاهرة لاستقباله في ميناء الإسكندرية مثل عبد العزيز سيسي رحمه الله.

فيعجب الأستاذ سيد بتربية الإخوان وأدبهم ألجم وخلقهم الرفيع ،

وبمجرد أن وطأت قدماه أرض مصر اتصل بالأستاذ الهضيبي المرشد وعرض عليه أن يقبله جنديا في صف دعوة الإسلام ، فيرحب به الأستاذ الهضيبي ، ويبدأ الأستاذ سيد منذ تلك اللحظة جهاده المنظم المركز ، وقد كان صادقا منذ اللحظة الأولى ، وتعبيرا عن جده في الأمر قدم استقالته إلى وزارة المعارف وأعلن مفاصلته لطه حسين.

وقد سلمه الأستاذ الهضيبي بعد فترة رئاسة تحرير جريدة الإخوان المسلمون ، وكتب بها مقالات صدرت فيما بعد في كتاب أسماه - دراسات إسلامية- ثم قامت الثورة سنة 1952م ، وكان للإخوان اليد الطولي في إنجاح الصورة وتهدئة الأوضاع ، إن الذي أجبر الملك فاروق على التوقيع على وثيقة التنازل هو الضابط عبد المنعم عبد الرؤوف أحد أفراد الدعوة المخلصين في قصر المنتزه

في الإسكندرية ،

ووزع الإخوان عشرة آلاف مسلح في القاهرة وحدها لحماية الثورة ، ولقد كتب فاروق في مذكراته: (إن الإخوان المسلمين هم الذين قلبوا عرشي) (وما كان ضباط الثورة إلا العوبة بأيديهم ، ولقد أراد الإخوان المسلمون ضربي في عرض البحر لولا أني أمرت ربان السفينة تغير

اتجاهها)(1). 1- أنظر فاروق بين القمة والحضيض.

أقول بعد الثورة طلب مجلس الثورة من الأستاذ سيد أن يكون مستشارهم للشؤون الداخلية فقبل ، ولكن لم يستطع العمل معهم اكثر من ثلاثة أشهر ، وثلاثة أشهر أخرى على مضض وبفتور ثم تركهم لأن طبيعته لا تقبل الالتواء والتثني.

سجنه الطويل:

لقد بدأت سلسلة المحن تتوالى على الدعوة وعلى كبار رجالاتها ، والحق أن سيدا من بين النفر القليل الذين أعطوا الدعوة أوقاتهم وحياته ودماءهم وأموالهم ، ولم يروا من إقبال الدنيا على الدعوة شيئا ، فقد أقبل عليها ودنياها في إدبار ، ورحم الله خباب بن الارت إذ يقول: (هاجرنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في سبيل الله نبتغي وجه الله ، فوجب أجرنا على الله.. فمنا من مضى ، ولم يأكل من أجره في دنياه شيئا منهم مصعب بن عمير ، قتل يوم أحد فلم يوجد له شيء يكفن فيه)(1). 1- رجال حول الرسول صلى الله عليه وسلم (47).

وفي سنة 1954م وبعد تمثيل فصول مسرحية الرصاصات على الطاغوت عبد الناصر في منشية البكري في الإسكندرية ، بدأت اعتقالا

ت الإخوان وغيبت السجون المظلمة وراء جدرانها آلاف الشباب ، ولم يكن سيد لينجو إذ كان رئيسا لقسم نشر الدعوة آنذاك ، وكان من المفروض أن يكون سابع السبعة الذين علقوا على الأعواد شنقا (وهم الشهداء:عبد القادر عودة ، محمد فرغلي ، يوسف طلعت ، إبراهيم الطيب ، هنداوي دوير ، محمود عبد اللطيف).

إلا أن إرادة الله أخرت شهادته ليكتب الظلال والمعالم ، وخصائص التصور الإسلامي ، فلقد أصيب سيد قطب من جراء التعذيب الشديد بنزيف في الرئة مما اضطرهم إلى نقله إلى المستشفى ونفذ الإعدام وهو في المستشفى ، وثارت ثائرة الشعوب المسلمة وعبرت عن سخطها بتظاهرات احتشدت أمام السفارات في الدول العربية والإسلامية ، وأحرقت بعض الأماكن وانهال سيل البرقيات الساخطة من المسلمين في كل مكان ، تكيل اللعنات وتنذر بالثبور والويل للقتلة ومصاصي الدماء.

وصدر وعد من القصر الجمهوري ألا يحدث إعدام فيما بعد ، وجاءت محاكمة سيد قطب في الحلقة الثانية ، وكانت المحاكمة مفتوحة ويرأس محكمة الشعب فيها جمال سالم وحوله عضوان حسين الشافعي وأنور السادات ، ولقد أبدى سيد قطب جرأة نادرة أمام ما يسمون بـ

القضاة ، فلقد خلع قميصه أمام المحكمة وقال بسخرية: انظروا يا قضاة العدالة!! ثم قال نحن نريد أن نسأل ، أينا أحق بالمحاكمة والسجن نحن أم انتم? إن لدينا وثائق أنكم عملاء للمخابرات الأمريكية ، وبدأ يسرد الوقائع والوثائق التي تصمهم بالخزي وتسمهم بالصلات المشبوهة بكافري - السفير الأمريكي آنذاك- مما اضطر جمال سالم أن يرفع الجلسة ويغلق المحاكمة.

وصدر الحكم عليه بالأشغال الشاقة المؤبدة ، ، وبعد فترة ولأسباب صحية خفف الحكم إلى خمسة عشر عاما

وأودع سيد قطب ليمان طره (السجن الذي يضم المئات من شباب الإ خوان) ، ولقد شهد بأم عينيه مذبحة الإخوان في ليمان طره عندما فتحت الحكومة الرشاشات على الإخوان حيث قتل من عنبر واحد واحد وعشرون من شباب الإخوان والتصقت لحومهم بالحائط ، ومن شاء الإستزادة فليقرأ كتاب (أقسمت أن أروي لروكس معكرون).

كان سيد قطب مصابا بالتهاب في الشعب الهوائية ، فوضع في مصحة السجن (مستشفى صغير للسجن) مع المصابين بالأمراض الصدرية [كأنه] من المجرمين المسجونيين ، واستأذن من إدارة السجن أن يضع

حواجز من القماش بينه وبين المرضى فأذن له ، فوضع حواجز من القماش المقوى فأصبح كأنه في غرفة مستقلة ، وألحق به داخل الحواجز القماشية محمد يوسف هواش ، وكانت هذه جريمة لهواش استحق عليها الإعدام سنة 1966م .

وبقي الأستاذ سيد صابرا محتسبا في سجنه يربي إخوانه من حوله بـ الصدق ويفيض عليهم من روحه المشرقة ، ويضمهم في حنايا قلبه الكبير ، وكان يرد على الذين يحاولونه المهادنة والإستسلام: (إن في صبرنا صبر للكثيرين) وهي نفس كلمة الإمام أحمد بن حنبل.

وساءت حالته الصحية في السجن وأصيب بالذبحة الصدرية ، وأصبح جسده الناحل يحمل في طياته قائمة من الأمراض ، وهو مصر على البقاء في السجن وكانت الذبحة تصيبه مرتين في الأسبوع (الذبحة تشبه الجلطة).

وقدم الأطباء المشرفون على صحته تقارير لعبد الناصر ونصحوه قائلين: إن كان يهمك ألا يموت هذا الرجل في السجن فأخرجه لأنه معرض للموت في كل لحظة ، وماطل عبد الناصر ، ولقد تدخل المرحوم أحمد أوبلو - رئيس وزراء نيجيريا- الشمالية الذي أسلم على يديه

ستمائة ألف مسلم- لإخراجه من السجن أثناء مروره بالقاهرة قبل قتله بفترة وجيزة فكذبوا على أحمد أوبلو متظاهرين بإخراجه فنقلوه إلى مستشفى القطر العيني(جامعة القاهرة) ، وكانت حالته الصحية تستدعي هذا النقل ، لأن مصحة السجن لم تعد بعلاجاتها وأدواتها البسيطة لم تعد تكفي لعلاج أمراضه.

ومكث في القصر العيني ستة أشهر وأعيد إلى مصحة ليمان طرة ، وفي نيسان سنة 1964م أقيمت الإحتفالات بمناسبة الإنتهاء من المرحلة الأ ولى للسد العالي ، واستضافت مصر خريتشوف لمشاهدة الإحتفالات ، وأخرج الشيوعيون من السجون تحية لخريتشوف ، وكان عبد السلام عارف من بين الذين دعوا للمشاركة في الإحتفال ، وتلقى عبد السلام عارف برقية من مفتي العراق الشيخ أمجد الزهاوي يقول فيها:

(من يشفع شفاعة حسنة يكن له نصيب منها ، فاشفع بسيد) فتوسط عبد السلام لإخراجه فأخرج الأستاذ سيد من السجن في سنة 1964م ، ولقد عرض عليه عبد السلام أن يصحبه إلى العراق ويكون مستشاره ، ولكن الأستاذ سيد استماحه عذرا ، متعللا بصحته التي تشرف على الرحيل وتؤذن بالوداع ، ولكن السبب الحقيقي وراء اعتذاره هو الذي

وضحه قائلا :(إننا بإسنادنا ولو بالآراء لوضع جاهلي ، فإننا نحكم بالإعدام على كل كتاباتنا ضد الطواغيت ، وتصبح كلماتنا حبرا على أوراق).

والحقيقة أن عبد الناصر ما وافق على إخراجه إلا بعد تيقنه أن سيد قطب قد استهلك وأضحى حطام إنسان ليس لديه طاقة على حركة أو تجميع.

ولكن الروح هي التي تعمل ، فلقد كان الأستاذ سيد قد أعد مسودات المعالم وبدأ بمراجعتها ، ثم دفع بها إلى المطبعة ، وخرج المعالم لتنفذ الطبعة الأولى التي أصدرتها مكتبه وهبة في وقت جد قصير ، مما أدهش المخابرات المصرية ، وتحرك الشيوعيون الذين قرأوا كلمات المعالم كلمة كلمة ، وأيقنوا أن هذا سيعصف بتنظيمهم الذي تقوى في فترة غياب الشباب المسلم في غياهب السجون ، واجج الشيوعيون نار الحقد والبغضاء التي ما هدأ أوارها لحظة في قلب عبد الناصر.

جاء أحد الناس إلى الأستاذ محمد قطب وأخبره بأن الشيوعيين جادون في محاولة قتلك وقتل أخيك سيد قطب.

ويرى الأستاذ سيد في منامه أفعى حمراء تلتف حول عنقه فحدث بها جلساءه فقالوا أضغاث أحلام ، فقال: ولكني أظنها المشنقة التي يمسك

بها الشيوعيون.

وحاولت الحكومة أولا أن تقضي على الظاهرين من الدعاة باغتيالات فردية ، وابتدأت المحاولة بالحاجة المجاهدة (زينب الغزالي) إذ داهمت سيارة كبيرة للمخابرات أو بإيعاز منها سيارتها وكسرت رجلها ، ومكثت على إثرها عاما كاملا في المستشفى ، وانتشر الخبر بأن المخابرات جاده في قتل سيد قطب ، وزينب الغزالي ، ومحمد قطب ، ومحمد هواش فنكلت المخابرات عن خطتها ، وأقبل صيف 1965م الذي يحمل بين جوانحه ما تخبؤه الأقدار للدعوة الإسلامية ، من اعتقال وتشريد وإعدام بتنفيذ المخططات التي ترسم بروتوكولاتها في الكرملين و القصر الأبيض لتنفذ من خلال المخالب في المشرق.

واعتقل سيد قطب في 26 آب/1965 م وأودع السجن الحربي بعد أن انتقل من سجن إلى سجن وانتهى به المقام في الحربي ، وفي أوائل اعتقاله ألقي في زنزانة مظلمة بين أربعة كلاب بوليسية وظيفتها إرهاب السجناء بالإضافة إلى انتهاش لحومهم ، وتقطيعها فور تلقيها أية إشارة من الكلاب البشرية.

وأسندت تهمة الخيانة العظمى له بترأس تنظيم إرهابي يدعو إلى قلب

نظام الحكم بالقوة ، وهذه حقيقة وكلمة حق أريد بها باطل ، فصاحب الحق يدعو لانتصار دينه وتطبيق الإسلام في كل مجالات الحياة ، ولا يهادن ولا يداهن ولايتنازل عن هذا الحق الذي يطالب به.

نعم لقد عهد إليه فضيلة المرشد بقيادة تنظيم سنة 1962م وأطاع الأمر إذ أنه يعرف معنى الطاعة في الإسلام ، وأن طاعة الأمير فريضة في الأ عناق ، ومعصيته إثم يستحق صاحبه العقاب ، فقبل وأشرف على تربية أفراده بكتاباته وهو في داخل السجن ، ثم أشرف بنفسه ووهب التنظيم حياته ، وروحه ، ووقته ، وفكره ، هذا التنظيم الذي يشير إليه في مقدمة المعالم بأنه طليعة البعث الإسلامي ، وهو يعتقد تماما أن صلاح البشرية وسعادتها وراحتها متوقفة على نجاح الحركة الإسلامية كما يقول في مقدمة الظلال ص(15) - دار الشروق - : (وانتهيت من فترة الحياة في ظلال القرآن إلى يقين جازم حازم... أنه لا صلاح لهذه الأرض ، ولا راحة لهذه البشرية ، ولا طمأنينة لهذا الإنسان ولا رفعة ، ولا بركة ، ولا طهارة ، ولا تناسق مع سنن الكون وفطرة الحياة إلا بالرجوع إلى الله ، والرجوع إلى الله - كما يتجلى في ظلال القرآن- له صورة واحدة ، وطريق واحد... واحد لا سواه... إنه العودة بالحياة كلها إلى هذا

الكتاب).

لقد كان وهو يستجيب لأمر المرشد بالإشراف على التنظيم ممن قال الله فيهم:

(الذين استجابوا لله وللرسول من بعد ما أصابهم القرح ، للذين أحسنوا منهم واتقوا أجر عظيم)

(آل عمران: 172)

وبقي التحقيق والتعذيب مستمرا عاما كاملا من آب سنة 1965م حتى آب سنة 1966م ، وإن كان القضاة سلفا قد ارتشفوا دمه ، وقد كان الجلادون حريصين ألا يموت سيد قطب ليبقى معذبا فكانوا يربطونه بالكرسي ويقولون: (نحن نعلم أنك إذا عذبت ستموت ، ونحن لا نريد أن تموت فتستريح).

ولقد بدأ الأستاذ سيد عملاقا إبان التحقيق والمحاكمات ، فكثيرا ما كان يسخر من الضباط الخائنين الذين انقلبوا بين عشية وضحاها قضاة يحكمون في الدماء والأعراض.. كالدجوي الذي ترأس المحكمة ، وقد كان ممن وقع في الأسر سنة 1965م ، وقد كان يهاجم مصر من خلال إذاعة إسرائيل ، وقد كان سيد بأسلوبه اللاذع الساخر يقابل الذئاب

البشرية التي تمسك بخناق المسلمين ، وتتربع على عرش مصر ، وتحكم بالحديد والنار ، وتجتث بما في أيديها من وسائل بقايا الخلق والقيم من المجتمع ، وتحارب بأقلامها وأجهزتها كل فضيلة آدمية ، أو مبدأ رباني ، أو أرضي ، واستطاع سيد بصبره وترفعه وبصيرته أن يبين سخافة هؤلا ء الأمساخ والتف حوله الفئة المؤمنة التي استطاعت بطاعتها واحترامها له أن تقتل الجلادين غما وحقدا وغيظا ، قال أحد المحققين للحاجة زينب الغزالي - حفظها الله-: (إن سيد قطب كذب عليك وقال عنك..) فقالت: حاشا لله أن يكذب سيد.

وقالوا لشاب مؤمن: هل اتصلت بسيد قطب؟ فأنكر وأصر على إنكاره رغم التعذيب ، فقالوا له: ولكن سيد قطب يقول: انك قد اتصلت به ، فقال الشاب: إن كان قالها فقد صدق!! وهي نفس الكلمة التي قالها الصديق أبو بكر بصدد الإسراء والمعراج.

ولقد اهتز كيان الطاغوت عند رؤية هذه الفئات ، وصعقوا إذ أنهم ظنوا أن قد قضى على الإسلام والجماعة المسلمة ، وإذا بهم يفاجئون بنماذج أنقى ، وبفئات أصلب عودا وأشد في دين الله مما رأوا من ذي قبل ، وهم في هذه المرة من الشباب المتعلم المثقف بل معظمهم من الكليات

العلمية ، والعملية كالطب والهندسة والعلوم والذرة ولهول الصدمة كانت ضرباتهم جنونية ، ولقد استشهد تحت التعذيب مائتان وثمانون شابا من هذه النماذج وكانت النازلة شديدة الوقع على الطاغوت ، وكاد يجن حقا ، وبدأ يصرخ في وجوه المخابرات صرخات محمومه جنونية (إزاي يسرقوا مني جيل الثورة ، قباني (بائع قطن وهو الشهيد عبد الفتاح إسماعيل) ، وامرأة يعني (زينب الغزالي) ، وأضطرب كيانه وساءت صحته ، وخارت قواه العقلية والعصبية مما اضطره أن يذهب إلى روسيا حيث الحمامات الساخنة والجلسات الكهربائية ، وبعد أن أمسك بأنفاسه في روسيا أعلن من فوق قبر لينين: (لقد اكتشفنا مؤامرة للإخوان المسلمين ، ولئن عفونا المرة الأولى ، فلن نعفو المرة الثانية) وأعطيت الأوامرالشديدة فكان التعذيب الرهيب الذي استمر قرابة عام أثناء التحقيق ، وهنالك علاوات الإجرام ، ويحضرني قصة كتبها أحمد رائف في البوابة السوداء يقول فيها:

(مات أحدنا لشدة التعذيب في الزنزانة وعندما فتح السجان باب الزنزانة صباحا قلنا: يا أفندم مات واحد ، فقال السجان: (يا أولاد الكلب بس واحد مات ، حانودي وشنا فين من المسئول).

تقول الحاجة زينب الغزالي: لقد ضربوني ستة آلاف وخمسمائة سوط وكانت غرف التعذيب ثلاثين غرفة تختلف أدوات التعذيب في كل واحدة عن الأخرى ، وكان لا بد أن يصدر حكم الإعدام على الأستاذ سيد ، وعلى تلميذه محمد يوسف هواش وعلى الشيخ عبدالفتاح إسماعيل ، قال سيد عند صدور الحكم: (الحمد لله لقد جاهدت مدة خمسة عشر عاما حتى نلت هذه الشهادة) ، وقال الشيخ عبد الفتاح: (فزت ورب الكعبة).

ولقد ملك كل واحد منهما بصبره العجيب القلوب ، حتى قلوب جلاديه ، فلقد كان ضباط الحربي يقولون للشيخ عبد الفتاح: والله ان هذه البلد لا تستحقك ، فأنت درة ضائعة في مصر.

جاءت الأرحام من آل قطب لزيارة سيد بعد صدور حكم الإعدام ، فطوقهم بذراعيه وقال: (لقد دعوت الله عز وجل أن ينفذ الحكم لتكون الشهادة ، دعوت الله أن يجعل هذه العائلة كلها شهداء ، هل قبلتم؟ قالوا: قبلنا ، ونفذ حكم الإعدام في سحر ليلة الإثنين 29 آب 1966م ، وفاضت هذه الروح الكبيرة إلى بارئها بعد أن أدت دورها ، وقد تبدو هذه النتيجة في حساب الأرض أسيفة أليمة ، وقد يعدها البشر هزيمة مريرة

، لكن كما يقول هو في فصل (هذا هو الطريق): وهو يتحدث عن أصحاب الأخدود ص(235) من معالم في الطريق: (إن النصر في أرفع صوره هو انتصار الروح على المادة ، وانتصار العقيدة على الألم ، وانتصار الإيمان على الفتنة... وفي هذا الحادث انتصرت الفئة المؤمنة انتصارا يشرف الجنس البشري كله.. إن الناس جميعا يموتون ، وتختلف الأسباب ، ولكن الناس جميعا لا ينتصرون هذا الإنتصار ولا يرتفعون هذا الإرتفاع ، ولا يتحررون هذه التحرر ، ولا ينطلقون هذا الإ نطلاق إلى هذه الآفاق ، إنما هو اختيار الله وتكريمه لفئة كريمة من عباده ، لتشارك الناس في الموت ، وتنفرد دون الناس في المجد في الملأ الأعلى ، وفي دنيا الناس أيضا ، إذا نحن وضعنا في الحساب نظرة الأ جيال بعد الأجيال ، لقد كان في استطاعة المؤمنين أن ينجوا بحياتهم في مقابل الهزيمة لإيمانهم ، ولكن كم كانوا يخسرون هم أنفسهم ، وكم كانت البشرية كلها تخسر؟ كم كانوا يخسرون وهم يقتلون هذا المعنى الكبير؟ معنى زهادة الحياة بلا عقيدة ، وبشاعتها بلا حرية ، وانحطاطها حين يسيطر الطغاة على الأرواح بعد سيطرتهم على الأجساد).

ولقد صدق الله فصدقه ، إذ كان يتمنى الشهادة صادقا - والله أعلم-

فرزقه الله إياها: تقرأ له مقالا كتبه سنة 1952م في كتابه دراسات إسـ لامية ص (138) ، فكأنك تلمح من خلاله أنه يخط بإلهام من الله نهايته إذ يقول: (إنه ليست كل كلمة تبلغ إلى قلوب الآخرين فتحركها ، وتجمعها ، وتدفعها ، إنها الكلمات التي تقطر دماء لأنها تقتات قلب إنسان حي. كل كلمة عاشت قد اقتاتت قلب انسان ، أما الكلمات التي ولدت في الأفواه ، وقذفت بها الألسنة ، ولم تتصل بذلك النبع الإلهي الحي ، فقد ولدت ميته ،ولم تدفع بالبشرية شبرا واحدا إلى الإمام ، إن أحدا لن يتبناها لأنها ولدت ميته ، والناس لا يتبنون الأموات ، ويكتب عند آية:

(إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة ، يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعدا عليه حقا في التوراة والإنجيل و القرآن ، ومن أوفى بعهده من الله ، فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم) (التوبة: 111)

(إن الدخول في الإسلام صفقة بين متابيعين.. الله سبحانه هو المشتري والمؤمن فيها هو البائع ، فهي بيعة مع الله لا يبقى بعدها للمؤمن من شيء في نفسه ، ولا في ماله يحتجزه دون الله -سبحانه-

ودون الجهاد في سبيله ، لتكون كلمة الله هي العليا ، وليكون الدين كله لله...

إن الجهاد في سبيل الله بيعة معقودة بعنق كل مؤمن... كل مؤمن على الإطلاق منذ كانت الرسل ، ومنذ كان دين الله.. إنها السنة الجارية التي لا تستقيم الحياة بدونها ولا تصلح الحياة بتركها ، بعونك اللهم فإن العقد رهيب.. وهؤلاء الذين يزعمون أنفسهم (مسلمين) في مشارق الأرض ومغاربها ، قاعدون ، لا يجاهدون لتقرير ألوهية الله في الأرض ، وطرد الطواغيت الغاصبة لحقوق الربوبية وخصائصها في حياة العباد ، ولا يقتلون ولا ي قتلون ، ولا يجاهدون جهادا ما دون القتل والقتال)(1).

1- في ظلال القرآن (1716/11) - ط/الشروق .

(ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل في قلوبنا غلا للذين آمنوا ربنا إنك رؤوف رحيم) (الحشر: 10)

وسبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا اله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

عبــد اللـــــه عـــــزام

140/6/4 هـ

1981/4/7م

عشرون عاما على الشهادة للشيخ عبد الله عزام

الحمد لله وحده والصلاة والسلام على من لا نبي بعده ، وبعد:

ففي ليلة الخامس من ذي الحجة وفي تلك الخيمة المتواضعة على ضفاف نهر سرخاب من ولاية لوكر ، حيث الماء كاللجين ، وعلى شاطيء الوادي بساتين التوت والمشمش تحيل المكان إلى قطعة ساحرة من الجمال الأخاذ والروعة الباهرة التي تأخذ بالألباب.

في هذه الليلة وبعد يوم حافل بقصف الطائرات الذي استمر من بعد صلا ة الفجر حتى المساء جرى ذكر الأستاذ سيد قطب - رحمه الله تعالى- فتنبهت أننا في شهر أغسطس ، الشهر الذي استشهد فيه وأنه قد مضى عشرون عاما على شهادته ، فكان لا بد من الكتابة عنه ولو شذرات وأسطرا وذلك رمزا للوفاء وعنوانا للمودة والإخاء.

لقد بدأت أقارن بين تلك الأيام التي كان يكتب فيها سيد من وراء القضبان للجيل ، حيث كتب الله لي أن أعيش تلك الأيام التي أرخى الليل فيها سدوله على المنطقة وادلهم ظلامها ، وضاقت الأرض بما

رحبت على الدعاة ، وخلا الجو للشيطان الرجيم يذرع الأرض شرقا وغربا .

أذكر تلك الأيام -لا أعادها الله علينا- ولا أذكر أني رأيت فيها فتاة واحدة من المتعلمات محجبة في بلدي ، وعندما كنا نرى فتاة تلبس جوارب تحت لباس المدرسة الذي يكاد يصل ركبتها نعجب بأخلاقها ونتحدث بآدابها.

كان في جامعة القاهرة التي تعد فيها الفتيات حوالي خمسين ألفا ، فتاة واحدة ملتزمة اللباس الشرعي وهي ابنة شقيقة سيد قطب - رحمه الله تعالى -.

أذكر أن مظاهرة خرجت في عام 1967م قبل الإحتلال اليهودي بثلاثة أشهر في المدينة التي أنا منها – جنين بفلسطين- تعبر عن سخطها على اليهود وتندد بالظالمين وتهتف بحب عبد الناصر ، فلم تجد تعبيرا صادقا عن سخطها أوضح ولا أقوى من أن تدخل دار الدعوة الإسلامية وتمزق المصاحف والتفاسير وتلقيها في شوارع المدينة!! ولا زال منظر أوراق المصاحف يهز الأوصال بتذكرها ، ولم يفسح الأجل للأستاذ سيد أن يرى الثمار المباركة التى أثمرها الله عز وجل من غراس قلمه المبارك ,

لم ير الصحوة الإسلامية ولا رجوع الجيل إلى الله ولكنها الكلمة الطيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء.

وددت يوم سمعت الحكم عليه بالإعدام أن أفتديه بنفسي وأمي وأبي ، وأذكر أني كتبت برقية لعبد الناصر أقول فيها: (الدعوة لن تموت و الشهداء خالدون والتاريخ لا يرحم) كنت أظن أن شهادته ستحدث فراغا في المنطقة ولكن ؛ والله يعلم وأنتم لا تعلمون ، ما كنت أظن أنه سيحصل هذا الدوي الهائل بشهادته ، وأن أفكاره ستعم المنطقة ، بل العالم الإسلامي كله فتحيا بها الأجيال..

ميزات سيد قطب :

لقد تميزت كتابات سيد قطب بمميزات كثيرة أفردتها من بين الكتابات المعاصرة وجعلتها فذة مشرقة ، وعلى رأس هذه المميزات التي: ميزته وميزت كتاباته:

1- نفاذ البصيرة وعمق النظر:

وذلك راجع أولا وقبل كل شئ إلى الإخلاص الذي تلمحه من خلال

عباراته -كما نحسبه والله حسيبه ولا نزكي على الله أحدا - ، والإخلاص يورث الفراسة [كما جاء في الأثر] :

اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله .(1)

- 1- أخرجه البخاري في التاريخ و الترمذي عن أبي سعيد الخدري وهو في ضعيف الجامع الصغير برقم (721).

وأما عمق النظر فهذا يدركه كل من قرأ (المستقبل لهذا الدين) الذي صدر في الوقت الذي خيم فيه الظلام على المنطقة ، ولم تعد ترى فيها بصيصا من نور في هذا الليل البهيم ، وكثيرا ما كان يردد: (ستهب في المرحلة القادمة على المنطقة رياح من الإسلام الأمريكي!?) وقد كان!.

ولقد رأيت هذه الملامح على تفكير أخيه الأستاذ محمد قطب - حفظه الله- ، فكثيرا ما كان يحدث بأمور يتوقعها كنت أحسبها أيامها ضربا من الخيال أو إغراقا في الأوهام ، ثم رأيتها واضحة جلية في واقع الأرض..

2- سعة الأفق:

وهذا راجع إلى عاملين:

أولهما: الإطلاع على المخطط العالمي لضرب الإسلام.

ثانيهما: سعة ثقافته واطلاعه على الثقافة الإنسانية.

أما اطلاعه على المخطط العالمي لضرب الإسلام ممثلا بالحركة الإسلا مية ، فلقد كان مبعوثا لوزارة المعارف المصرية إلى أمريكا في الوقت الذي لم يكن يعرف فيه حقيقة الإسلام بعد ، ولم يلتزم بعد بتعاليمه ، فيقول عن نفسه وهو في طريقه إلى أمريكا: (كنت أحد ستة نفر من المنتسبين للإسلام في باخرة تشق عباب الأطلسي ميممة شطر أمريكا) وفي أمريكا جرت له حادثتان كانتا سببا لدخوله في الحركة الإسلامية (كما حدثني بذلك أحد أرحامه):

أولهما: - كما يحدث هو- كنت في 13 شباط 1949م مستلقيا على أحد أسرة مستشفى في أمريكا فرأيت رقصا صاخبا وموسيقى وأنوارا ورأيت الإبتسامات تعلو الوجوه ، والفرح يغمر المستشفى فقلت: أي عيد هذا الذي تحتفلون به قالوا: اليوم قتل عدو النصرانية في الشرق ، اليوم قتل حسن البنا. قال: فهزتني هذه الكلمة من أعماقي.

ثانيهما: إن السفارات العالمية كانت تتسابق على اصطياد الشباب المسلم ، وسيد كصحفي معروف كان أحد هؤلاء الذين تدور حولهم العيون ليكون صيدا سهلا وفريسة مستساغة لصائده ، فدعاه مدير الإ

ستخبارات في السفارة البريطانية في واشنطن إلى بيته. قال سيد: فعندما دخلت بيته كم أذهلني مفاجأة أني رأيت عنده كتاب (العدالة الا جتماعية) ، ولم يكن قد وصل أمريكا إلا نسخة واحدة أرسلها لي أخي محمد ، إذ أنه قد أشرف على طباعة الكتاب في غيابي ، وبدأ الحديث عن الشرق ومصر وتوقعات المراقبين بأن الوريث للحكم الملكي القائم هو أحد اثنين: إما الشيوعيون وإما الإخوان المسلمون ، والمرجح أنهم ا لإخوان ، ثم بدأ يفتح لي ملفا خاصا بالإخوان فيه من التفصيلات و الجزئيات مما يدق على أبناء مصر أنفسهم حتى المختصين ، ثم قال: إذا وصلت جماعة الإخوان إلى الحكم فإنها ستحرم مصر من ثمار الحضارة الغربية ، ثم قال أخيرا : نحن نهيب بأمثالك من المثقفين أن يحولوا بين الإخوان وبين الوصول إلى الحكم ، لأن وصولهم هو نهاية مصر المؤسفة الأليمة!? قال سيد: وفي بيت مدير الإستخبارات البريطاني في واشنطن قررت أن أدخل جماعة الإخوان فور عودتي ، لأنه لا يمكن لجماعة تكيد لها الدوائر العالمية هذا الكيد أو تخطط ضدها هذا التخطيط إلا أن تكون الجماعة على الحق.

لقد دخل سيد جماعة الإخوان ، وقد عرف بنفسه الكيد الهائل ضد الإسلا

م والكراهية العميقة التي لايمكن للغرب أن يخفيها.

وأما سعة ثقافته: فيقول عن نفسه (1): 1-معالم في الطريق للشهيد ص (143) (إن الذي يكتب هذا الكلام إنسان عاش يقرأ أربعين سنة كاملة ، كان عمله الأول فيها هو القراءة والإطلاع في معظم حقول المعرفة الإ نسانية... ما هو من تخصصه وما هو من هواياته.. ثم عاد إلى مصادر عقيدته وتصوره: فإذا هو يجد كل ما قرأه ضئيلا ضئيلا إلى جانب ذلك الرصيد الضخم -وما كان يمكن أن يكون إلا كذلك- وما هو بنادم على ما قضى فيه أربعين سنة من عمره ، فإنما عرف الجاهلية على حقيقتها.. وعلى انحرافها وضآلتها وقزامتها وعلى جعجعتها وانتفاشها وعلم غرورها وادعاءها وعلم علم اليقين أنه لا يمكن أن يجمع المسلم بين هذين المصدرين في التلقي).

3- الجـدي ــة: لقد كان سيد جادا في جاهليته وإسلامه فلم يكن يهادن ولا يداهن ، لقد كان واضحا كالشمس في رابعة النهار مستقيما كحد السيف ، ومن هنا أخرج مجلة كان صاحب الإمتياز فيها الميناوي ، فخرج منها ثلاثة أعداد كلها صودرت ثم أغلقت ، ولقد أرسل الملك من يغتاله ولكن الله نجاه من اليد

الأثيمة..

لقد كان دائما يردد: (أنا لا أستطيع أن أعيش بنصف قلب نصفه لله ونصفه للدنيا) (1). 1- نقلا عن الثقات.

وكان يقول: إن إصبع السبابة التي تشهد لله بالوحدانية في الصلاة لترفض أن تكتب حرفا واحدا تقر به حكم طاغية ، حدثت شقيقته حميدة إثر خروجها من السجن - وأنا أسمع- قالت: جاءني مدير السجن الحربي حمزة البسيوني يوم 28 أغسطس 1966م وأطلعني على قرار ا لإعدام الموقع من عبد الناصر بإعدام سيد قطب ثم قال: إن إعدام الأ ستاذ سيد خسارة للعالم الإسلامي والعالم أجمع وأمامنا فرصة أخيرة لإ نقاذ الأستاذ من حبل المشنقة ، وهي أن يعتذر على التلفاز فيخفف عنه حكم الإعدام ثم يخرج بعد ستة أشهر من السجن بعفو صحي ، هيا فاذهبي إليه لعلنا ننقذه.

قالت حميدة: فتوجهت إليه لأبلغه الخبر فقلت له: إنهم يقولون إن اعتذرت فسيعفون عنك.

فربت سيد على كتفي قائلا : عن أي شئ أعتذر يا حميدة!! عن العمل مع الله؟! والله لو عملت مع أي جهة غير الله لاعتذرت ، ولكني لن أعتذر عن

العمل مع الله.

ثم قال: إطمئني يا حميدة إن كان العمر قد انتهى فسينفذ حكم الإعدام ، وإن لم يكن العمر قد انتهى فلن ينفذ حكم الإعدام ولن يغني الإعتذار شيئا في تقديم الأجل أو تأخيره.

أية طمأنينة ، وأية ثقة هذه التي يتمتع بها هذا القلب الكبير.. أية راحة وأية سكينة هذه التي يسكبها الله على الفؤاد وعلى النفس المؤمنة. ، ومن علامة جديته: أنه استقال من وزارة المعارف في اللحظة التي قرر فيها دخول الحركة الإسلامية.

4- الإحتياط والورع والهيبة أمام النصوص القرآنية:

ويبدو هذا من خلال تفسيره لكتاب الله فيقول -في ظلال القرآن- عند آية:

(حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى وقوموا لله قانتين)

(البقرة: 238)

(أشهد أني وقفت أمام هذه الآية ستة أشهر لا أنتقل إلى ما بعدها ، كيف جاءت آية الصلاة بين آيات الطلاق ، وكنت آمل أن يفتح الله علي في هذه الفترة ولكن لم يفتح الله علي ، فإن فتح الله على أحد من

القراء فليتفضل إلي مشكورا).

ويقول في مقدمة سورة الرعد (1): 1- تفسير الظلال (2038/4).

(كثيرا ما أقف أمام النصوص القرآنية وقفة المتهيب أن أمسها بأسلوبي البشري القاصر المتحرج أن أشوبها بأسلوبي البشري الفاني ، ولكن ماذا أصنع ونحن في جيل لا بد أن يقدم له القرآن مع الكثير من الإيضاح.

ومع هذا كله يصيبني رهبة ورعشة كلما تصديت للترجمة عن هذا القرآن).

5- التركيز على العقيدة وشرح لا إله إلا الله :

لقد هال الأستاذ سيد قطب وقوف الجموع الهائلة من المسلمين واجمة ازاء تصفية الحركة الإسلامية جسديا سنة 1954م ، فلقد كانت هذه الجموع تسد الطرقات على أبواب دار الإخوان في (الحلمية) تنتظر خطاب الأستاذ البنا مساء كل ثلاثاء وتنتظره حتى الثانية عشرة ليلا وهي تكبر وتهتف ، ما بالها الآن بكماء عمياء صماء؟ بل إن قسما ليس بـ القليل من هؤلاء تبرع بإيذاء الإخوان في داخل السجون بالتجسس عليهم ونقل أخبارهم.

لقد وقف طويلا أمام هذه الظاهرة وأخيرا وضع إصبعه على موطن

الداء وهو أن هذه الجموع لم تفهم (لا إله إلا الله).

حدثني أحد الإخوة قال: إن مراسم الإعدام تقضي أن يكون أحد العلماء حاضرا تنفيذ الإعدام ليلقن المحكوم عليه الشهادتين! فعندما كان سيد يمشي خطاه الأخيرة نحو حبل المشنقة اقترب منه الشيخ قائلا :

(قل لا إله إلا الله) فقال سيد: حتى أنت جئت تكمل المسرحية نحن يا أخي نعدم بسبب لا إله إلا الله ، وأنت تأكل الخبز بلا إله إلا الله.

وبعد هذا كله (بنو أسد تعزرني على الإسلام) كلمة سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قالها عندما جاء وفد إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه يشكون سعدا حتى قالوا: إنه لا يحسن الصلاة! يروي البخاري عن قيس قال: سمعت سعدا رضي الله عنه يقول: إني لأول العرب رمى بسهم في سبيل الله ، وكنا نغزو مع النبي صلى الله عليه وسلم ومالنا طعام إلا ورق الشجر ، حتى أن أحدنا ليضع كما يضع البعير أو الشاة ماله خلط ، ثم أصبحت بنو أسد (تعزرني على الإسلام) لقد خبت إذا وضل عملي).

وما أشبه اليوم بالبارحة ، إن بعض الناس بدأوا يشككون في عقيدة سيد قطب ، حتى إنه ترامى إلى مسامعي أن باحثا يؤلف كتابا سماه (تنقية الظلال من الضلال!) ولقد بالغ بعض القوم حتى قالوا أن سيدا يقول

(بوحدة الوجود) وكأنهم لم يقرأوا مئات المرات في الظلال التفريق بين الخالق والمخلوق .

والذين يتابعون تغير المجتمعات وطبيعة التفكير لدى الجيل المسلم يدركون أكثر من غيرهم البصمات الواضحة التي تركتها كتابة سيد قطب وقلمه المبارك في تفكيرهم.

والحق أنني ما تأثرت بكاتب كتب في الفكر الإسلامي أكثر مما تأثرت بسيد قطب ، وإني لأشعر بفضل الله العظيم علي إذ شرح صدري وفتح قلبي لدراسة كتب سيد قطب ، فقد وجهني سيد قطب فكريا وابن تيمية عقديا وابن القيم روحيا والنووي فقهيا ، فهؤلاء أكثر أربعة أثروا في حياتي أثرا عميقا .

ولقد كان لاستشهاد سيد قطب أثر في إيقاظ العالم الإسلامي أكثر من حياته ، ففي السنة التي استشهد فيها طبع الظلال سبع طبعات بينما لم تتم الطبعة الثانية أثناء حياته ، ولقد صدق عندما قال: (إن كلماتنا ستبقى عرائس من الشموع حتى إذا متنا من أجلها انتفضت حية وعاشت بين الأحياء).

ولقد مضى سيد قطب إلى ربه رافع الرأس ناصع الجبين عالي الهامة ،

وترك التراث الضخم من الفكر الإسلامي الذي تحيا به الأجيال ، بعد أن وضح معان غابت عن الأذهان طويلا ، وضح معاني ومصطلحات الطاغوت ، الجاهلية ، الحاكمية ، العبودية ، الألوهية ، ووضح بوقفته المشرفة معاني البراء والولاء ، والتوحيد والتوكل على الله والخشية منه والإلتجاء إليه.

والذين دخلوا أفغانستان يدركون الأثر العميق لأفكار سيد في الجهاد الإسلامي وفي الجيل كله فوق الأرض كلها ، إن بعضهم لا يطلب منك لباسا وإن كان عاريا ولا طعاما وإن كان جائعا ولا سلاحا وإن كان أعزلا ؟!

ولكنه يطلب منك كتب سيد قطب.

وكم هزني أن أسمع أن هنالك قواعد جهادية في أفغانستان وعمليات حربية يطلق عليها اسم سيد قطب.

ومن جميل الموافقات العجيبة أن أستاذنا الكبير في الجهاد في فلسطين (صلاح حسن) كان يعد لعملية في فلسطين يسميها عملية (سيد قطب) ولشدة ما كانت الدهشة أن صلاح حسن قد استشهد في ليلة 29 أغسطس نفس الليلة التي أعدم فيها سيد قطب.

رحم الله سيد قطب.. ونرجو الله أن يجمعنا به في الفردوس الأعلى.

وسبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك.

سيد قطب

نبذة عن حياته:

في قرية صغيرة من قرى الصعيد ولد الأستاذ سيد قطب رحمه الله في عام 1906.

وحدثنا الأستاذ الشهيد عن نشأته فـي قـريـة "مـوشــا" في كتابه (طفل من القرية)، وعن دراسته فيها، وكيف كوّن مكتبة لا مثيل لها في هذه القرية، وهو لا يزال طالباً في المرحلة الابتدائية.. وحدثنا أيضاً عن العقلية التي يفكر بها أهــل هـذه القرية، والخرافات التي تعشش في عقولهم، والبؤس الذي يلف هذه الطبقة من الـنـاس ... وكان هذا الذي ذكره في كتابه المهم شأن القرى كلها لا نقول في صعيد مصر وحده، وإنـما في العالم الإسلامي كله.

وفي عام 1921 م غادر الأستاذ قريته "موشا" ليكمل دراسته في الـقـاهرة، وكان من المفترض أن يـغــادرهــا قـبـل هذا الوقت لكن حرب 1919 م كانت سبب تأخره ووقف الـتـدريـس وانصراف الناس لما هو أهم من الدراسة.

وفي القاهرة التحق الطالب النجيب بمدرسة عبد العزيز الأولية، وبعد أن أتم دراسته فيها انتقل إلى دار العلوم وكانت في مستوى المعاهد المتوسطة وأتم دراسته فيها عام 1933 م.

وبعد تخرجه من دار العلوم جرى تعيينه مدرساً في دمياط ثم في بني سويف، ثم انتقل إلى حلوان - القاهـرة - مدرساً في مدرستها الابتدائية، وانتقل أهله إلى القاهرة بعد أن اشترى منزلا ً في حلوان، وكـان ذلك بعد وفـاة والـده، ثم توفيت والدته بعد انتقالهم إلى القاهرة بقليل.

وبرز اسم سيد كأديب موهوب في مصر،وأصبح اسمه معروفاً في المجلات الأدبية المشهورة: كالرسالة، والثقافة، والمقتطف.. وأصدر في الأربعينيات كتباً مهمة منها:

- التصوير الفني في القران.
- طفل من القرية.
- كتب وشخصيات.
- النقد الأدبي أصوله، مناهجه.
- العدالة الاجتماعية في الإسلام.

وفـي مـجـال الـتـعـلـيم تدرج في وظائف الوزارة.. ففي عام

1944 أصبح مفتشاً في التعليم الابتدائي.. ثم في الإدارة العامة للثقافة التي كان يرأسها أحمد أم-ين.

وفي عام 1948 سافر إلى الولايات المتحدة الأميركية في بعثة تدري-ب -ي-ة، تم اختياره بالذات لها، ولم يكن في رحلته ملتزماً بدراسة معينة أو بزمن معين يقضيه هناك، وقد أكسبته هذه البعثة خبرة واسعة بطبائع الأ ميركان وأساليبهم، وله كتابات مهمة ب-ع-نوان (أميركا التي رأيت) نشرت في مجلة الرسالة،

و (إسلام أميركاني) في كتابه (دراسات إسلامية)، وقد جمعها أحد المهتمين بكتابات سيد في كتاب سماه (أميركا من الداخل بمنظار س-يد قطب).

وعاد من الولايات المتحدة عام 1950 إلى مصر ليخوض معارك سياسية ضد ط-غيان فاروق، وفساد الأحزاب، وهيمنة المستعمر الإ نكليزي.. واستقطبت هذه الكتابات فيمن است-ق-ط-بت ض--ب-اط ان-ق--لاب "23 يوليو"، فأعجبوا بها، وتعرفوا على كاتبها، وقامت بينهم وبينه ع-لاق-ات، وتم اختياره بعد نجاح الانقلاب مستشاراً لمجلس قيادة الثورة، ثم أميناً عاماً م-ساعداً لهيئة التحرير، وكان مرشحاً ليكون

وزيراً للمعارف أو للإعلام لكنه رفض الوزارة والجاه عندما لمس سوء نوايا قادة الانقلاب، وأدرك بأنهم ليسوا جادين في تحكيم شرع الله، وارتاب رحمه الله في اتصالاتهم المشبوهة.

ولم يـجلـس الأستاذ سيد في منزلة عندما رفض الوزارة والمغريات، وما كان لداعية مجاهد أن يفعل ذلك، وإنما انضم إلى جماعة الإخوان المسلمين في أحلك ظروفها وأشدها قساوة... انضم إليها وهو يعلم بأنهم على أبواب محنه.

واختار الإخوان الأستاذ سيد قطب ليكون رئيس تحرير لصحيفتهم "الإخوان المسلمون"، فلم يـتــردد، ولم يـعـتـذر لاسيما وهو يعرف خبث وغدر قائد الانقلاب... وخاض أستاذنا مـعـركـــة ضد الانقلابيين كتلك المعركة التي خاضها ضد فاروق وزبانيته، وكشف صلات هؤلاء الانقلابيين الضباط بالولايات المتحدة الأميركية، وأصبحت صحيفة الإخوان المسلمين من أشد الصحف التي كان يخشاها عبد الناصر وزملاؤه.

ودخل سـيـد السجن عام 1954 م مع عدد من قادة الإخوان المسلمين، ثم أفرج عنه وعنهم بعد قليل، ثـم عــاد إلى السجن في العام نفسه 1954 بعد حادث المنشية حيث كان نصيبه مما سمي "محكمة الشعب"

خمسة عشر عاماً من الأشغال الشاقة، وأفرج عنه في "مايو" من عام 1964 بعد توسـط الرئيس العراقي عبد السلام عارف، ثم أعيد اعتقاله في "أغسطس" عام 1965، وقدم لما أسموه "محاكمة"، وتم إعدامه في 26 "أغسطس" من عام 1966 م رحمه الله وأسكنه الفردوس الأعلى.

ومن أهم مؤلفاته على الإطلاق تلك المؤلفات التي أصدرها وهو في السجن:

- في ظلال القران.

- هذا الدين.

- المستقبل لهذا الدين.

- خصائص التصور الإسلامي.

-معالم في الطريق.

- الإسلام ومشكلات الحضارة.

- مقومات التصور الإسلامي، وقد صدر هذا الكتاب بعد إعدامه بوقت متأخر.

أهم الجوانب التجديدية في دعوة سيد:

أولا ً: كيف نقدم الأسلوب إلى الناس:

يحاول بعض الناس القول: إن سيداً رحمه الله كان تلميذاً لمن سبقه من الدعاة في هذا الميدان... ومن يدقق النظـر بمؤلفات أستاذنا وسيرة حياته يتبين له خطأ هذا القول ومجانبته للصواب.

ومن الأمثلة على ذلك أن معظم كبار الدعاة الكتاب كانوا يدافعون عن الإ سلام بأسلوب فيه كثير من الضعف ؛ فإذا راجت بضاعة الـديـمـقـراطـيـة بـيـن الـنـاس راحوا يتحدثون عن ديمقراطية الإسلام... وإذا فتنت شعوبنا بالاشتراكية، صنعوا للإسلام اشتراكية، وإذا أطنب المفكرون في الحديث عن الحضارة كتبوا المقالات بل والمؤلفات في التعريف بحضارة الإسلام... لقد كان الإسلام عند هؤلاء الكتاب اشتراكياً.. قومياً... ديمقراطياً.. تقدمياً.

أما الأستاذ سيد فقد رفض هذه الأساليب، وحذر منها. انظر إلى قوله:

"وحين ندرك حقيقة الإسلام على هذا النحو، فإن هذا الإدراك بطبيعته سيجعلنا نخاطب الناس ونحن نقدم لهم الإسلام، في ثقة وقوة، وفي عطف كذلك ورحمة.. ثقة الذي يستيقن أن ما معه هو الحق وأن ما عليه الناس هو الباطل، وعطف الذي يرى شقوة البشر، وهو يعرف كيف يسعدهم، ورحمة الذي يرى ضلال الناس وهو يعرف أين الهدى الذي

ليس بعده هدى !

لن نتدسس إليهم بالإسلام تدسساً، ولن نربت على شهواتهم وتصوراتهم المنحرفة... سنكون صـرحـاء معهم غاية الصراحة.. هذه الجاهلية التي أنتم فيها نجس والله يريد أن يطهركم... هـــذه الأوضاع التي أنتم فيها خبث، والله يريد أن يطيّبكم.. هذه الحياة التي تحيونها دون، والله يـريـد أن يرفعكم... هذا الذي أنتم فيه شقوة وبؤس ونكد، والله يريد أن يـخـفــف عـنـكـم ويرحـمـكم ويسعدكم.. والإسلام سيغير تصوراتكم وأوضاعكم وقيمكم، وسيرفعكم إلى حياة أخرى تنكرون معها هذه الحياة التي تعيشونها...".

وقال أيضاً:

"هكذا ينبغي أن نخاطب الناس ونحن نقدم لهم الإسلام. لأن هذه هي الحقيقة، ولأن هذه هي الصورة التي خاطب الإسلام الناس بها أول مرة. سواء في الجزيرة العربية أم في فارس أم في الروم أم في أي مكان خاطب الناس فيه.

نظر إليهم من علٍ، لأن هذه هـي الحقـيـقـة، وخاطبهم بلغة الحب و العطف لأنها حقيقة كذلك في طبيعته. وفاصلهم مفاصلة كاملة في

غموض فيها ولا تردد لأن هذه هي طـريـقـتـه، ولم يقل لهم أبداً: أنه لن يمس حياتهم وأوضاعهم وتصوراتهم وقيمهم إلا بتعديلات طفيفة ! أو إنه يشبه نظمهم وأوضاعهم التي ألفوها.. كما يقول بعضنا اليوم للناس وهو يـقــدم إليهم الإسلام.. مرة تحت عنوان: (ديمقراطية الإسلام) ! ومرة تحت عنوان: (اشتراكية الإسلام) ! ومرة بأن الأوضاع الاقتصادية والسياسية والقانونية القائمة في عالمهم لا تحتاج من الإسلام إلا لتعديلات طفيفة !!! إلى آخر هذا التدسس الناعم والتربيت على الشهوات".

وتأثر شباب هذا الجيل بأسلوب سيد فأعرضوا عن الأساليب السابقة الضعيفة، لاسيما وأن سيداً رحمه الله أشبع هذا الموضوع بـحـثـاً في مـؤلـفـاتـه بتفسيره القيم (في ظلال القران)، والذين عاشوا تلك المرحلة يدركون ما هو الجديد الذي جـاء بـه صاحب الظلال... وكان الحق مع الدعاة الشباب الذين تأثروا بطريقة سيد في عرض الإسلام.

ثانياً: شرح معاني لا إله إلا الله وربطها بالحاكمية:

وأهم مسألة استحوذت على الأستاذ سيد رحمه الله في بداية السجن وحتى لقي وجه ربه تفسير معاني ومدلولات لا إله إلا الله، محمد رسول

الله.

لقد كان يرى أن جهل المسلمين بمعاني الشهادتين هو سبب هذا الضياع والفساد الذي يلف العالم الإسلامي، كما كان يرى أن مهمة أنبياء الله الذين اختارهم الله وأرسلهم للعباد شرح معاني لا إله إلا الله، وذكر في الظلال أدلة كثيرة على ذلك من كتاب الله وسنة رسوله.

وكان يرى أن "المجتمع يقوم على قاعدة العبودية لله وحده في أمره كله.. هذه العبودية التي تمثلها وتكيفها شهادة أن لا إله إلا اله، وأن محمداً رسول الله.

وتتمثل هذه العبودية في التصور الاعتقادي، كما تتمثل في الشعائر التعبدية، كما تتمثل في الشرائع القانونية سواء".

ومن الأدلة على شدة اهتمامه بالركن الأول من أركان الإسلام قوله في (المعالم) "طبيعة المنهج القرآني"، وفي مقدمة سورة الأنعام:

"ظل القرآن المكي ينزل على رسول الله -صلى الله عليه وسلم-

ثلاثة عشر عاماً كاملة،يحدثه فيها عن قضية واحدة، قضية واحدة لا تتغير، ولكن طريقة عرضها لا تكاد تتكرر. ذلك الأسلوب القرآني يدعه

ـا في كل عـرض جديدة، حتى لكأنما يطرقها للمرة الأولى.

لقد كـان يعالج القضية الأولى، والقضية الكبرى، والقضية الأساسية،في هذا الدين الجديد... قضية العقيدة... ممثلة في قاعدتها الرئيسية.. الألوهية والعبودية، وما بينهما من علاقة".

وقال بعد استطراد مهم: "ومتى استقرت عقيدة [لا إله إلا الله] في أعماقها الغائرة البعيدة، استقر معها في نفس الوقت النظام الذي تتمثل فيه [لا إله إلا الله] ".

كان رحمه الله يعلم أن هذه المسألة سوف تفجر قلوب الانقلابيين غيظاً وحقداً عليه.. ولكنه مجدد مجاهد يواجه الناس بمشكلاتهم، ويضع الحلول لها، ولا يخشى إلا الله سبحانه وتعالى. وراجع نهاية كتابه: (معالم في الطريق)، فصل "هذا هو الطريق" لتراه كأنه يتحدث عن إعدامه على أيدي العسكريين من خلال حديثه عن أصحاب الأخدود.

ثالثاً: الوعي السياسي ونضوج الخبرة:

كان للأستاذ سيد اهتمامات سياسية وهو لا يزال طالباً في المرحلة الابتدائية، وحدثنا في كتابه (طفل من القرية) عن القصائد التي كان ينظمها والخطب التي كان يكتبها داعياً فيها إلى تأييد ثورة 1919 م،

وازدادت اهتماماته السياسية بعد انتقاله للقاهرة لاسيما عندما كان تلميذاً للعقاد، الذي ارتبط أدبه بالسياسة وخاض معارك ضارية ضد بعض الأحزاب، وكان سيد ساعده الأيمن في هذه المعارك ؛ الأدبية منها و السياسية.

ومن تجاربه الغنية في هذا الميدان رحلة أميركا وما شاهده فيها من تناقضات ومن مواقف حاقدة ضد الإسلام والمسلمين... والمرحلة التي سبقت دخوله السجن أي من عام 1950 وهو تاريخ عودته من الولايات المتحدة حتى عام 1954، وهذه الفترة وحدها كافية لتكوين نضوج سياسي عنده، ومن الكتب الإسلامية السياسية التي أصدرها في هذه المرحلة:

- معركة الإسلام والرأسمالية.

- السلام العالمي والإسلام.

- دراسات إسلامية.

يقول الأستاذ سيد في (معالم في الطريق) فصل "التصور الإسلامي و الثقافة":

"إن الذي يكتب هذا الكلام إنسان عاش يقرأ أربعين سنة كاملة. كان

عمله الأول فيها هو القراءة والاطلاع في معظم حقول المعرفة الإ نسانية.. ما هو من تخصصه، وما هو من هواياته.. ثم عاد إلى مصادر عقيدته وتصوره. فإذا هو يجد كل ما قرأه ضئيلا ً ضئيلا ً إلى جانب ذلك الرصيد الضخم - وما كان يمكن أن يكون إلا كذلك - وما هو بنادم على ما قضى فيه أربعين سنة من عمره. فإنما عرف الجاهلية على حقيقتها، وعلى انحرافها، وعلى ضآلتها، وعلى قزامتها.. وعلى جعجعتها وانتفاشها، وعلى غرورها وادعائها كذلك !! وعلم علم اليقين أنه لا يمكن أن يجمع المسلم بين هذين المصدرين في التلقي!!".

إذن عاش أستاذنا أربعين سنة يقرأ ما هو من تخصصه وما هو من هواياته، ولم تكن حياته قاصرة على القراءة، بل كانت الخبرة لا تقل أهمية عن القراءة... ولهذا فقد كتب لنا رحمه الله كتابات ناضجة عن الموضوعات التالية:

- الصهيونية.

- الصليبية.

- الشيوعية.

- الرأسمالية.

- الاستبداد، والعبودية، والذل.

- الاستعمار وأساليبه.

- فضائح الحضارة الغربية.

وهذه فيما نعلم أمور انفرد فيها أستاذ هذا الجيل عن غيره من المجددين المعاصرين الذين حُرموا هذه الخبرة وهذا النضوج السياسي... وكانت مواقفه السياسية لا تنفصل عن عقيدته وحسن فهمه للإسلام.

وبعد:هذه أهم الجوانب التجديدية عند الأستاذ سيد قطب رحمه الله.. وعندما ابتلاه الله بالسجن والتعذيب والتهديد بالقتل صبر على ذلك صبراً شديداً رغم ما كان يعانيه من أمراض وضعف في جسمه، ولم يتراجع عن مواقفه الإسلامية،رغبة أو رهبة، ولهذا فقد تضاعف رواج كتبه بعد تنفيذ حكم الإعدام به، ومما ساعد على انتشارها: عذوبة الأسلوب، وإشراقة الديباجة، ومتانة العبارة وقوة الحجة، وحضور البديهة.. وقلّ أن تجد داعية وليس في مكتبته كتاب من كتب سيد قطب، وفضلا ً عن ذلك فقد ترجمت هذه الكتب إلى معظم لغات العالم.

رحم الله الأستاذ سيد قطب رحمة واسعة، وجزاه عن الإسلام و المسلمين كل خير..... مجلة البيان

والحمد لله رب العالمين
وصلى اللهم على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه
سبحان ربك رب العزة عما يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين.